الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم

٢٥-٢٦

بمكتبة ومطبعة

Princeton University Library
32101 079196307

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الخامس والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
عباشرة محمد أمين عمران

(ARAB)
BP130
.4
.J27
juv 25-26

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »
قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النبأ

هي مكية

آياتها ٤٠ — نزلت بعد سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

عم يتساءلون * عن النبإ العظيم * الذي هم فيه مختلفون * كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون * ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا * إن يوم الفصل كان ميقاتا * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا * وفتحت السماء فكانت أبوابا * وسيرت الجبال فكانت سرابا * إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مئابا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغساقا * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شيء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا * إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا * وكأسا دهاقا * لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا * جزاء من ربك عطاء حسابا * رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا * يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا * ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مئابا *

إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا *.

﴿تفسير البسملة فى سورة النبأ وما يتبعها من كل بسملة فى أول السور بعدها وهى تبلغ ٣٧ سورة﴾

إن الرحمات قد كررت ٧٤ مرة فى سوراً كثرها نزلت بمكة وأقلها بالمدينة، وهذه المدنية ، أربع سور البينة ، والزلزال والنصر ، والناس . هذه الرحمات متنزلات فى ٣٧ درسا يتخللها بدائع الجمال وروائع الحكم وبواهر البدعات .

(سورة النبأ) وأى إبداع أبهر من البروج والنجوم ومفاجآت الظلام ليلا ، والأنوار فجرا ، ووضوحها ضحى ، أمم ناست قرونا وقرونا ؛ تحيط بها الشرفات، وتزجى لها الأضواء بعقبها الإظلام ، تشرق الشمس ويضيء القمر وتنير الكواكب وهؤلاء لايتذكرون ، وقصارى أمرهم أن يفكروا فى المطر والعشب النابت عقب المطر ، أما النظر فى نفس هذه الدنيا ونظامها وإبداعها وزوالها وبقاء النفوس بعد خرابها ، فهذا لايقام له وزن عندهم ، ولا هم فيه يفكرون ، هنالك قرعت أسماعهم هذه السور بمكة ، فسمعوا فى (سورة النبأ) وصف الجبال وثباتها ، والأمم الإنسانيه ونظام ذكورها وإناثها ، وكيف كان انسلاخ النور من الجو مرخيا عليهم دثارا ، وانبثاقه لهم مؤذنا بانطلاقهم إلى معاشهم ، وكيف كانت هذه القبة الزرقاء قوية لاتوهنها الدهور ، مزينة بالسراج الضيء لهم وهم عن التفكر فيه غافلون ، وهذا السراج يزجى من لدنه حرارة تثير سحابا ماطرا فيكون نبات وجنات وأعناب ، ثم إن هذه كلها تبيد من الوجود ولا يبقى إلا النفوس الإنسانية لتحاسب على النقير والقطمير ، وليس لديها إلا النعيم أو الجحيم ، وينصب الصراط والميزان ، ويحاسب المرء فى موقف جنوده صفوف من الملائكة الكرام ، وقاضيه رب الأرباب ، فهاهنا رحمات تجلت فى إبداع هذه المحدثات ، ورحمات تجلت فى التفكير فيها وفى الاعتبار بزوالها ورجوع النفوس إلى الرحمن الرحيم .

(سورة النازعات) وبعد سورة النبأ جاءت النازعات كأنها مكملة لها ومتممة لمقاصدها وموضحة لما جاء فيها ، ففى أولها وصف النفوس السائرات إلى عالم الأرواح بعد ذكرها مجملة فى آخر السورة قبلها ، ويتبع ذلك ضرب مثل للنفوس الطيبة والنفوس الخبيثة ، وأن الأولى مسخرات لهداية الثانية ، ثم وصف السموات وإظلامها وإضاءتها والجبال والماء وهكذا ، ثم تدمير ذلك كله كما تقدم فى سورة النبأ .

(سورة عبس) وسورة عبس تذكر الإنسان بأنه من نطفة قذرة ارتقت فصارت إنسانا يعيش ويموت ويبعث ، ومع ذلك يمسى ويصبح غافلا عن طعامه ، وكيف نزل الغيث ونبت الزرع فكان جنات وأعنابا ، ثم يفنى ذلك كله وتبقى نفوس تحاسب ، فمنها البررة ومنها الفجرة .

(التكوير) أما الرحمات فى سورة التكوير فإنها ترجع إلى إيضاح بعض ما تقدم بأسلوب خاص مثل بيان كيفية تدمير هذه العوالم ، وكيف يذهب نور الشمس ، وتنقض الكواكب ، وتزول الجبال ، ويهمل أعز الأموال عند الناس لشدة الذهول ، وهنالك تحشر الناس الخ .

(الانفطار) وفى سورة الانفطار تجلت الرحمات بهيئة التذكير بانفطار السماء وانتشار الكواكب وخروج

الناس من القبور، وكيف غفل الناس عن ذلك الموقف الرهيب ، فهل ينسون صورهم المعدلة وحفظها طول أمد الحياة ! أكان ذلك كله رميةً من غير رام ! أم ذلك نظام وحكم وإبداع .

(المطففين) وإذا كان هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم لابد له من الحساب والعقاب فكيف يطفف المكيال والميزان ؟ أيظن أنه عن عمله غير مسؤل ، إن السيئات تتراكم على القلوب فتحجب الإنسان عن خالقه ، فأما النفوس الشريفة فإنها تكون في مقام القرب والجمال .

(الانشقاق) وزاد ذلك إيضاحا بما جاء في سورة الانشقاق من أن الإنسان يسعى حثيثا في الحياة ، ولكن نتيجه ذلك كله أنه يلاقي ربه فيوفيه حسابه .

(البروج) وفي سورة البروج تذكير الناس بمن يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، وكيف يتعدى قوم ممن أنعم الله عليهم بالحياة والصحة فيسيئون إلى من أطاعوا خالقهم ! ذلك غاية الخسران .

(الطارق) إن الرحمة هنا تجلت في السماء ونجومها ، والنفوس وحفظها، وكيف تصير النطفة إنسانا تاما إلا بحفظ وتمكين وحراسة من كل غائلة، إن العوالم المحيطة بالإنسان كلها نعم عليه ، فهل يتركه سدى كلا ، بل يحاسب على النقير والقطمير .

(الأعلى) أما الرحمات في سورة الأعلى فإنها خصصت بدقة الخلق والتسوية في الإنسان والحيوان ، وكيف كان النظام البديع لهذه العوالم ، إن وراء هذه العوالم نهاية ، وهي إما النعيم وإما الجحيم .

(الغاشية) وفي سورة الغاشية تفصيل لعذاب الآخرة ونعيمها ، ثم إتباع ذلك بما هو من مقدماته من سماء مبنية ، وأرض مدحوة الخ .

(الفجر) وفي سورة الفجر إعظام لأمر الظلام والضياء ، وحساب الشروق والغروب تذكيرا الناس بنعم هذه العوالم المحيطة بهم ، وكيف أهلك مبدع هذه العجائب تلك الأمم التي لم تتذكر ولم تفكر في ذلك الجمال والإبداع .

(البلد) وفي سورة البلد أعظم الله أمر الإنسان وجعل مُساكنه فجعلها قسما له : ومن عجب أن يكون هذا الإنسان محل العناية والتكريم ثم ينسى طائفة منه نعم أعضائه وحواسه : ونعم إلهامه بالخواطر المختلفات اللاتي جعلت تدريبا له وتهذيبا وامتحانا لينظر أفي الخير يصرفها فينفع الناس ، أم في الشر فيكون بخيلا مناط الخير ؟ .

(الشمس) وفي سورة الشمس تجلت رحمتان واضحتان : الأولى رحمة الدنيا بجمال شمسها وقمرها وظلام ليلها الذي جعل للناس لباسا ، وبهجة سمائها ، وأنوار الأرواح المشرقات في أجسامها مشاكلة لإشراق الكواكب في أبراجها . الثانية رحمة الآخرة بأن كل نفس من هذه النفوس ترجع إلى عالمها الذي يليق لها [إن الطيور على أشكالها تقع] .

(الليل) وفي سورة الليل رحمات هذه العوالم المشرقة المحيطة بالإنسان والتذكير بتنوع النفوس الإنسانية وانتهائها إلى نهاياتها من نعيم أو جحيم .

(الضحى) وفي سورة الضحى تذكير الناس بأن من أبدع هذه المشرقات فكان لها نور مشرق وقت الضحى هو نفسه الذي ينعم على نفوس مستعدة للرقي فيرفعها إلى العلا ، ولكن هي أنفسها عليها أن تتذكر نعم ربها فتكون منعمة على غيرها قائمة بالخلافة الإنسانية في الأمم الأرضية .

(الانشراح) وفي سورة الانشراح تذكير الناس بأن الذي أعطى الشموس والأقمار أنوارها من فيض رحمته هو نفسه الذي يمنح النفوس انشراحا ليسوقها إلى هداية غيرها، فالنور الحسي من فيضه والنور المعنوي من رحمته ، وليس العسر بدائم وإذا لم يدم ظلام الليل فهل يدوم عسر الإنسان .

(التين) وفى سورة التين أعظم الله أمر النبات والجبال ليذكر الناس بالبحث فيها ودراستها ، وكيف لايدرسها الإنسان . ألم يكن أحسن من كل حيوان فى الأرض ، ألم يجمع نماذج من هذه العوالم كلها . إذن هو قوم أحسن تقويم . ومع ذلك ضل كثير منه فصاروا فى أسفل سافلين ، فالفهم بالفرم، ارتفاع عظيم وسقوط مشين .

(العلق) وفى سورة العلق تبيان لما هو موجز فى السورة قبلها ، فإذا خلق الإنسان فى أحسن تقويم فمن نتائج ذلك أنه أعطى القوى التى بها يكتب ويقرأ العلوم ، وإذا كان كثير منه ردوا أسفل سافلين فمنهم الذى ينهى عبدا إذا صلى الخ .

(القدر) وفى سورة القدر تبيان أن لله على عباده أوقاتا يتجلى فيها فتكون الليلة فيها خيرا من آلاف الليالى ، لأن المقصود من هذه العوالم كلها إنما هو تربية هذا الإنسان . فالساعة التى تتجلى فيها له الهداية خير من كل زمان ، لاسيما إذا كان ذلك التجلى على العبد نعمة عليه وعلى غيره من الناس بأن يكون ذلك من الأنبياء ، فذلك خير عظيم ؛ لأن النعمة المتعدية لاحد لمداها، وإشراقها خير من إشراق الشموس .

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

(البينة) وفى سورة البينة إنذار للأمم كلها من كتابيين ومشركين أن ينهجوا منهجا واحدا، ويسلكوا طريقا معبدا (بتشديد الباء) باخلاص ليرجعوا أمة واحدة كما كان الناس أمة واحدة فى أقدم أزمان التاريخ .

(الزلزال) وفى سورة الزلزال تبيان العدل وصدق الميزان عند الحساب يوم القيامة .

(العاديات) وفى سورة العاديات سورة واضحة الجهاد وتخليص النفوس من جهلها .

(القارعة) وفى سورة القارعة تبيان البعث وانتشار الناس كما ينتشر الجراد .

(التكاثر) وفى سورة التكاثر بيان غفلة الناس فى الحياة الدنيا أوقعتهم فى التباهى والتفاخر بما يملكون ولا يزالون كذلك حتى تضمهم المقابر .

(العصر) وفى سورة العصر بيان أن الإنسان لاسعادة له إلا بأمرين : عمل الصالحات ، والسعى فى هداية الغير والتعاون فى ذلك والصبر عليه .

(الهمزة) ولا جرم أن خلق الرجل الهماز اللماز الذى يضيع أوقاته فى تمزيق أعراض الناس مخالف كل المخالفة لمن يسعى فى هدايتهم وتكميلهم .

(الفيل) ويشبه هذا الفريق من الناس أصحاب الفيل الذين أرادوا سوءا بمكان يعبد الله فيه ، فهؤلاء فضلا عن عقابهم فى الآخرة عوقبوا فى الدنيا .

(قريش) وفى سورة قريش تذكير الناس باتساع الأرض وأنها جعلت مختلفة البقاع لاختلاف حاجات الناس صيفا وشتاء ربيعا وخريفا، أفلا يتذكرون ربهم الذى أنعم عليهم بذلك ويعبدونه.

(الماعون) وهلا فكروا أيضا فى إفاضة الخير على البائسين كما أفاض الله الخير عليهم ، هنا أمران جديران بالتحضيض : حضور القلب فى الصلوات ، وإطعام المساكين (وبعبارة أخرى) حب الله ، وحب الناس .

(الكوثر) وهذان قد تجليا تجليا تاما فى نفوس الأنبياء . ولذلك أمرنا خاتمهم صلى الله عليه وسلم أن يصلى حبا لربه ، وأن يطعم الفقراء حبا للناس .

(الكافرون) ولا يتم هذان الأمران إلا بالتباعد عن آراء الكافرين ، فإنهم لايعبدون ربهم ولا

ينفعون الناس .

(النصر) ولاجرم أن من اتصف بهذين الوصفين نهاية أمره النصر . فالأنبياء منصورون بما أحبوا ربهم ونفعوا الناس ، لذلك أمرنا خاتم الأنبياء أن يسبح ويحمد ربه متى جاءه النصر المحقق لكل من نال هاتين النعمتين .

(اللهب) ولا ريب أن الأشياء تمتاز بأضدادها . فإذا نصرنا هؤلاء الصالحين فإننا نخذل المفسدين كأبي لهب وامرأته .

(الإخلاص) هذا الدين تطهير الإنسانية من الشرك والأوهام كنسبة الولد لله .

(الفلق والناس) وليس للناس من ملجأ إذا وقعوا فى الوساوس الشيطانية التى تزيغهم عن الإخلاص والصدق إلا أن يستعيذوا بربهم من شر ماخلق ومن شر الوساوس ، فهو الأول والآخر ، وهو رب الجنة ورب الناس ، وهم جميعا فى قبضته ، وهو بهم محيط . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٩ شوال سنة ١٣٥١ هـ الموافق يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣ م بشارع زين العابدين حى السيدة زينب بمصر القاهرة ، والحمد لله رب العالمين .

وإذا فرغنا من الكلام على بسملة كل سورة ، فلنشرع فى تقسيم سورة النبأ وتفسيرها فنقول ومن الله التوفيق :

اعلم أن هذه السورة ﴿أربعة مقاصد: المقصد الأول﴾ تفخيم أمر البعث .

﴿المقصد الثانى﴾ زجر الجهال وتخويفهم .

﴿المقصد الثالث﴾ تعليم الأذكياء بطريق العوالم المشاهدة استدلالا على البعث .

﴿المقصد الرابع﴾ تفصيل أحوال المبعوثين من عذاب ونعيم .

ولأقدم مقدمات قبل الشروع فى تفسير هذه المقاصد عليها يتوقف معرفتها ، فأقول مستعينا بالله :

﴿المقدمة الأولى﴾ اعلم أن أهم مقاصد الناس فى هذه الدنيا هى الحياة ، وأعظم المصائب : العدم والموت فطلب الغنى والثروة والمناصب والجاه والملك كل ذلك من أجل الحياة والخوف من الفقر والذل والمرض للمحافظة على الحياة ، فالحياة والوجود أصل جميع الأحوال البشرية، وعليه يكون أهم الأنباء النبأ القائل : (إننا بعد موتنا لمبعوثون) هذا أعظم الأنباء عند جميع نوع الإنسان . انتهت المقدمة الأولى .

﴿المقدمة الثانية﴾ إن الناس فى الدنيا كثيرا مايعذبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، فترى الأمراض والفقر والحرب والعداوات بينهم . كل ذلك عذاب ، وترى حوادث الجو ، والحر والبرد ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، كل ذلك عذاب ، ومن عجب أن الناس قد يعذبون بأعظم النعم عندهم ، حتى إن الزوجة والولد والمال تكون عذابا فى الدنيا ، قال تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) ، وأنت ترى أيها القارئ الذكى أن فساد البر حاصل بالحروب والجيوش البرية ، والأمراض والقحط ، والطيارات المرسلات الصواعق لنوع الإنسان ، وترى الغواصات فى البحر ، والسفن والأساطيل الماخرات المشحونات بالمدافع لهدم البلاد والحصون ، وكذلك تقطيع الأسلاك البرقية الممتدة فى البحر . فهذا بعض الفساد فى البر والبحر ليذوق الناس بعض أعمالهم ، وقال تعالى فى آية أخرى : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) والعذاب الأدنى عذاب الدنيا وقال : « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » وقال فى آية أخرى : «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم

كافرون» فانظر كيف جعل الولد عذابا والمال عذابا ، وهما من أجل النعم فى الدنيا ، وكما يكون العذاب فى الدنيا قبل الآخرة، هكذا يكون الثواب فيها ، قال تعالى : «وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» . انتهت المقدمة الثانية .

(المقدمة الثالثة) اعلم أن تربية الحيوان لولده فى الأحوال المعروفة للناس على (أربعة أقسام : الأول) مالا عناية له بولده ألبتة كالناموس فانه يبيض مالايحصى من البيض ويذره فى الماء والمستنقعات فيفسد أكثره بالعوامل الطبيعية ، وما بقى يملأ السهل والجبل (الثانى) ماله به قليل من عناية كالجراد فانه يحفظ بيضه فى مواضع تناسبه فى أرض طيبة التربة رخوة مناسبة لتفريخ بيضها الذى لاتعلم أنها تراه قط ، ثم تنزل هنالك وتحفر بأرجلها ومخالبها وتدخل أذنابها فى تلك على بعد مخصوص وتدفنه ثم تموت ، فهذه الحفرة مهد لبيضها يخرج منه طائر متى جاء فصل الربيع من العام القابل ، ومثلها فراش القطن بقسميه من آكل الورق وآكل اللوز . (الثالث) ماتكون لها عناية أهم من السابقة كالنحل والنمل ، وكالطيور من الحمام والغربان وأمثالها فإنها كلها تحافظ على بيضها فى الخلايا وبيوت النمل ومابينيه الطير من عش (القسم الرابع) الحيوانات اللابنة كالغزلان والجاموس والقرد والإنسان ، فهذه تحمل أولادها فى الرحم مدة ، ثم ينزل تام الخلقة ، ولا ريب أن هذا أكمل تربية من الطيور والنمل مثلا . وفوق ذلك لاتزال ترضعه حتى يقوى على الاستقلال بأمر الحياة فتبين أن للجراد مهدا فى الأرض ، وللنمل مهدا فى بيته ، وكذلك النحل فى خليته ، والطائر فى عشه . والغزال فى كناسه ، والإنسان فيما يمهده لصبيه ، انتهت المقدمة الثالثة .

(المقدمة الرابعة) قد تبين مما تقدم أن الحى كلما كان أرقى كان أرعى لولده وأكثر محافظة عليه ، وكلما كان أدنى كان أقل مراعاة ، وأنت ترى أن الناموس لايهتم بأمر نسله ، وأرقى منه الجراد وأعلى منهما النمل والنحل ، وفوق هؤلاء الغربان والحمام ، ثم الغزال والفرس والقرد ، وترى الإنسان لايقف عند حد الإرضاع كالأنعام ، فهو لايزال يعلم ولده بعد المهد أنواع العلوم والمعارف على مقدار طاقته . انتهت المقدمة الرابعة .

(المقدمة الخامسة) إن كل مهد ليس يقصد إلا إلى حين ، ومتى تم المقصود منه نبذ وهجر ، وربما هدم كما نرى فى عش الطائر وكناس الغزال ومهد الصبى . فان هذه المهود كلها تنبذ بعد استكمال القوة اهـ .

إذا فهمت هذه المقدمات فهمت هذه السورة الشريفة ، وإذن نشرع فى ذكر المقاصد الأربعة منها ، فنقول ومن الله التوفيق .

المقصد الأول : تفخيم أمر البعث

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(عم يتساءلون) أى عن أى شىء يتحدثون فيما بينهم. فمنهم من صدق ومنهم من كذب. وذكر على سبيل الاستفهام تعظيما لشأنه (كما تقول : زيد ومازيد تعظيما لأمره) كما فهمت فى المقدمة الأولى . وقد حذفت ألف ما فى الجر هنا قياسا . وقد أجاب الله فقال (عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون) وذلك مثل قوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) انتهى الكلام على المقصد الأول .

المقصد الثانى : زجر الجهال وتخويفهم

قال تعالى (كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون) فقوله كلا . أى ليس الأمر كما يقوله هؤلاء فى النبأ العظيم إنه باطل سيعلمون أن مايتساءلون عنه حق لادافع له . واقع لاريب فيه . وكرر هذا الردع والتهديد فقال « ثم كلا سيعلمون» فالردع الأول لعذاب الدنيا مما يحس به أهل الكسل والغفلة والجهل والظلم كما تقدم فى المقدمة الثانية ، والردع الثانى عذاب الآخرة ، وكأن الثانى تابع للأول كما قال تعالى «ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا» . انتهى الكلام على المقصد الثانى .

المقصد الثالث : تنوير أهل العقول بالبراهين الساطعة من المشاهدات الطبيعية

قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا) .

الله جعل لنا الأرض مهادا : أى فراشا فرشها لنا حتى سكناها ، وفى قراءة مهدا : أى إنها لنا كالمهد للصبى ، وهو مصدر سمى به مايمهد لينوم عليه . وفى آية أخرى «الذى جعل لكم الأرض مهدا» وبعض أهل العلم يجعل المهاد جمع مهد . فإن كان مفردا فهو الفراش الذى هو أعم من المهد ، وجعل سبحانه الجبال كالأوتاد تثبيتا لها ، فهى فى الأرض كالعظام لجسم الإنسان ، وهى التى تحفظ الماء فى باطنها وتخزنه فيجرى ينابيع وهى التى تصد الرياح لحاملات السحاب فتحجزه فيمطر على تلك البطاح التى أمام الجبال : وجعل الناس ذكورا وإناثا ليتم الائتلاف . وبدوم النوع ويخلف الأبناء الآباء لبقاء الذرية . ثم إنه أنام الذكور والإناث على ذلك المهد ليلا وأيقظهم نهارا لطلب المعاش فجعل النوم راحة للأبدان والليل غطاء يسترهم بظلمته؛ ولما كان كل بيت لابد له من سقف خلق لهم سبعة سقوف وهى السموات السبع الشداد القوية وقد تقدم الكلام على كونها سبعا وعلى حقيقتها فى (سورة البقرة) فيما كتبناه هناك ، وأن العدد لامفهوم له . وجعل فى ذلك السقف الشمس وهى السراج المتلألئ الوقاد . وجعلها مزجية الحرارة التى هى السبب فى المعصرات وهى السحب إذا أعصرت : أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ماء ثجاجا : أى صبابا ليخرج الله به ثلاثة أقسام : الحب كالقمح والشعير والذرة والنبات كالحشيش والكلأ والشجر كالنخل والزيتون فالأول قوله : «لنخرج به حبا» والثانى قوله «ونباتا» والثالث قوله «وجنات ألفافا» ملتف بعضها ببعض جمع لف كجذع .

يقول الله : ألم نجعل لكم الأرض مهدا ونحفظها بالجبال ، وتريح أبدانكم ليلا ، ونصرفكم فى المعاش نهارا ، ونظلكم بسقف وعلوه نورا ، وننزل عليكم مطرا من فوقكم ، وتأكلون خبزا وفاكهة مما ينبت فى أرضكم ، فحياتكم جميعا تنقضى فى هذا المهد . ولكل مرب مهد يناسبه ، وتربيق لكم قضت أن تكون هذه الدنيا كلها مهدا لكم فيها تتربون ، ثم تخرجون منها خروج الطائر من عشه ، والولد من مهده ، لتكونوا فى حال أكمل ، وإذا كنتم ترون دودة القطن واللوز تصبحان فى حالة سبات وسكون فى (الشرنقة) الفيلجة ، وهى التى تكون فيها الدودة نائمة مكورة تقريبا ، ثم تخرج من تلك الحال بعد حين طائرا بجناحين يسمى أبا دقيق ، فان كان من دود الورق فلونه بنى ، وإن كان من دود اللوز فلونه الخضرة ، أفلا تكونون بعد خروجكم من مهدى وهى الأرض فى حال أتم كحال الحشرات والطيور ، وكحال أولادكم بعد نبذ المهد ، وليست مراعاتى لكم قاصرة على مدة وجودكم فى هذه الأرض التى هى مهدكم

بل أنا أحفظكم بعد الموت وأراقبكم وأتولى حفظكم ، إن حياة الإنسان كلها فى المهد ، ولابد من الخروج منه لما هو أكمل ، فيطير الإنسان من جسمه كما يطير الطائر من عشه إذا كبر ، وقد لحظ هذا المعنى كثير من أهل الديانات حتى صوروا صور الطيور فوق الميت للاشارة إلى أن روحه قد خرجت من مهدها خروج الطائر من العش الذى تربى فيه وخروج الولد من مهده . ولما كان للمهد يستغنى عنه فى حال الارتقاء أردفه بما يأتى فى المقصد الرابع .

المقصد الرابع : تفصيل أحوال المبعوثين من عذاب ونعيم

قال تعالى (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقابا . لايذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا . إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

يقول الله : أى عبادى لقد علمتم أن مهدى الذى ربيتكم فيه كما تربون أولادكم فى المهود هى الأرض ، ومدة حياتكم هى التربية فيه . ونسبة عظمتى إليكم كنسبة مهدى إلى مهدكم ، فلا والى التربية لأرواحكم بعد مهدكم ، ولا أذركم تتخبطون . بل أنا الدائم الحى القيوم ، فلا أقتر عن التربية كما تفترون لضعفكم إلفا كبر أباؤكم واستغنوا عنكم ، لذلك أهدم مهدكم بيدى وأجمعكم لدى يوم الفصل فى قضاياكم ، لأنى أجلكم فى عالم البرزخ كما ربيتكم فى الدنيا على النهج الذى عليه نشأتم كما تختلف الناس اختلاف أحوالهم فى الأرحام وفى المهود واختلاف الطيور والأنعام ، فمنها الجارى على الأرض ، والسابح فى الماء ، والطائر فى الهواء . فهذا كأنه يوم الفصل فى أمرها عند مغادرة مهودها فى عالمكم الذى أنتم فيه ، وهكذا سأفصل فى قضاياكم بعد مفارقة المهد العام على هذا النمط ، وأضع الناس فى مراتبهم . فمنهم المعذبون . ومنهم المنعمون . (جزاء وفاقا) على مقتضى التربية السابقة (إن يوم الفصل كان) فى علم الله وفى حكمه (ميقاتا) حدا توقت به الدنيا وتنتهى عنده . ثم بينه بقوله (يوم ينفخ فى الصور) جمع صورة : أى يوم تنفخ الأرواح فى أجسادها (فتأتون أفواجا) جماعات من القبور إلى المحشر . وذلك بعد أن أهدم مهدكم السابق إذا دكت الأرض دكا (وفتحت السماء) أى شقت (فكانت أبوابا) أى صارت من كثرة شقوقها كأن الكل أبواب (وسيرت الجبال) أى فى الهواء كالهباء (فكانت سرابا) مثل سراب يراه الناظرون على هيئة الجبال وهى ليست جبالا لتفتت أجزائها وتفرقها .

ولما فرغ من الكلام على هدم المهد والخروج منه أخذ يصف حال الذين تربوا فيه واختلافهم على طريق التقريب للعقول . لأن أحوال الآخرة لاتعرف إلا بضرب الأمثال من المحسوسات . فابتدأ بذكر أدنى الطبقات ، وهم أهل جهنم كما ابتدأ بخلق أدنى المخلوقات فى الدنيا : المعدن فالنبات فالحيوان فالإنسان ، فقال (إن جهنم كانت مرصادا) مكانا رصد يرصد فيه الطاغون لئلا يفلتوا منها ، وللمؤمنون ليحرسوا من فيحها (للطاغين مآبا) مرجعا (لابثين فيها أحقابا) دهورا متتابعة (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا) أى غير

ذائقين نوما ولا شرابا يدفع عنهم العطش (إلا حميما وغساقا) أى لكن يشربون ماء حارا يحرق ما يأتى عليه أو ماء يسيل من صديدهم

ولما كان الله عز وجل لا يعمل إلا بنظام تام كما رأينا فى تربيته لأنواع النامیات والحيوانات فى الدنيا وأن النتيجة على مقدار المقدمات أخذ يبين الأسباب فقال جازيناهم بذلك (جزاء وفاقا) موافقا . ولما كان هذا مجملا شرع يبينه بأن الإنسان كامله بقوتين فيه ، وهما القوة النظرية ، والقوة العملية ، فالقوة النظرية تكمل بالعلوم والمعارف والنظر الصحيح والرأى التام ، والقوة العملية تكون بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، فأشار للثانية بقوله (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) أى لا يخافون حسابا. وذلك دعاهم إلى ارتكاب القبائح والذنوب ، فكانت أعمالهم جائرة ، وتجارتهم خاسرة وأشار إلى الأولى بقوله (وكذبوا بآياتنا كذابا) أى تكذيبا فنسوا أنفسهم فلم يحلوها بالعلوم ، وذلك كما فى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام «رب هب لى حكما» إشارة إلى القوة النظرية «وألحقنى بالصالحين» إشارة إلى القوة العملية . فهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا لم يحلوها بالعلوم والدين الصحيح ، ونحن لسنا عنهم غافلين ، إنا أحصينا كل شىء عندنا فى علمنا القديم (وكل شىء أحصيناه كتابا) أى أثبتناه فى كتاب ، فأنا عالم بجميع ما فعلوه من خير وشر . وأنا أجازيهم على مقتضاه ، فتسبب عن تكذيبهم بالآيات أن يقال لهم : ذوقوا عذاب النار وذلك قوله : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

ولما فرغ من الكلام على أهل النار أخذ يذكر أهل الجنة فقال على سبيل التمثيل بما يشاهد فى الدنيا واصفا أحوالهم بأن لهم فوزا فيتمتعون بالحدائق والبساتين والأعناب فيها ، وبالنساء النواهد اللاتى قد تكعبت ثديهن ، المستويات فى السن . وهى مع ذلك خالية مما ينغص الأنفس من لغو الحديث وباطل الكلام وليس هناك خصومات ولا عداوات حتى يكذب بعضهم بعضا كأهل الدنيا الذين قد يسكنون القصور ويحظون بالحور ويتمتعون بالبساتين وهم متخاصمون متشاكسون فيكذب بعضهم بعضا، ولم يكن ذلك جزافا ولا بغير حساب : بل جازاهم ربك جزاء موافقا . وأعطاهم عطاء حسابا . أى كافيا وافيا بقدر أعمالهم كما يرى فى تربية الحيوان والنبات أنه يكون طيبه وخبيثه على حسب المقدمات . فهذا قوله (إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا. وكواعب) جمع كاعب : أى جوارى نواهد قد تكعبت ثديهن (أترابا) مستويات فى السن (وكأسا دهاقا) مملوءة (لا يسمعون فيها) فى الجنة (لغوا) باطلا من الكلام (ولا كذابا) تكذيبا (جزاء من ربك عطاء حسابا) . ولما كان ذلك كله مقتضى التربية . وأن النتائج فيها تتبع المقدمات . وكل ما نشاهده فى الدنيا على هذا النسق . فحيوان البحر وحيوان البر وطير الهواء والأنعام لا تخرج عما رسم لها فى تربيتها الأولى . وكل أم يتبعها ولدها . والعدل شامل والنظام تام أعقبه بذكر التربية التى تشتمل على أمرين : الرغبة بالرحمة والرهبة بالعذاب كما فى أم الكتاب . إذ نحمد الله على أنه مربى العالمين برحمته الواسعة وبأنه مالك يوم الجزاء فقال (رب السموات والأرض) أى مربى السموات والأرض (وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا) وما بينهما عالم الإنسان . فكانت تربيته على ذلك المنهج من الرحمة تارة والغضب تارة أخرى كما ذكر هنا من الجنة لقوم والنار لآخرين على مقتضى المقدمات . ولما كانت التربية تجمع الرغبة والرهبة أعقبها بذكر الرحمة الرغبة . وبقوله « لا يملكون منه خطابا» الرهبة على وفق ما تقدم من الجنة بالأولى والنار بالثانية . فتعجب من حسن النظام فى قوله «الرحمن لا يملكون منه خطابا» أى لا يملكون خطابه والاعتراض عليه فى ثواب أو عقاب كما فى أحوال أهل الدنيا يربيهم كما يشاء ما كان لهم الخيرة من أمرهم وقد أخذ يقرر ما تقدم فقال (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) الروح أرواح

بنى آدم فى قول ابن عباس : فتقف أرواح بنى آدم صفا والملائكة صفا آخر ، ولا يتكلم أحد منهم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، ومعلوم أن أحوال الناس بعد الموت تتبع أحوالهم فى الدنيا كما ذكرناه غير مرة فى أحوال تربية الخلائق فى الدنيا . فإذن ليس يؤذن لأحد فى الكلام يوم القيامة إلا من أذن له فى الدنيا والمأذون لهم فى الدنيا هم الذين أشرقت الأرض بعلومهم وأنوارهم وحكمهم وآدابهم . فأهل القول الصواب فى الدنيا هم أهله فى الآخرة . والمقربون فى الدنيا بالفضائل هم المقربون فى الآخرة . لأن صوابهم فى الدنيا لازمهم فى الآخرة . فالصواب فى القول والعمل وحب الناس هو اللحق الناس بالملأ الأعلى (ذلك اليوم الحق) الذى لاشك فيه (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) أى مرجعا . وعبر بالرب لما علمت أن للقام مقام تربية برحمة تارة وغضب أخرى (إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) من خير وشر كما فى قوله : «ووجدوا ماعملوا حاضرا» فيكشف للمرء جميع أعماله فيراها (ويقول الكافر) حين يطلع على صورة أعماله الخبيثة (ياليتنى كنت ترابا) فى الدنيا فلم أخلق . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

إن العذاب والنعيم فى الحياة الدنيا قسمان : أحدهما مادى . والآخر معنوى . فالعذاب والنعيم المادیان يعرفهما الخاصة والعامة من طعام لذيذ . وكأس دهاق . وجنات وأعناب . ومثل الطعام الكريه والشراب الحار والصديد وماشاكل ذلك . أما النعيم المعنوى فيرجع إلى الكرامة وتكون بثلاثة أشياء : المنزلة عند جميع الناس لاسيما الملوك والعظماء والعلم والصيت الحسن . وأما العذاب المعنوى فيرجع إلى ضد هذه الثلاثة وهى الجهل والخمول والضعة . والعذاب والنعيم المعنويان يحس بهما سائر الناس من علماء وجهلاء . ولكن من الناس من كنا فيه . وهو مشغول عنهما بالأمور الحسية .

وتأمل أيها القارىء الذكى فى أحوالك العادية تجد أنك كل يوم تألم وتفرح لأمور خلت من المادة . على أن التحقيق أن المدار على إدراك النفس . فمن احترقت يده وهو به شلل لم يحس بالألم . وترى الأطباء ينومون المريض تنويما مغناطيسيا . فربما استيقظ وأخذ يقطع فى جسمه معهم كأنه أجنبى . وقد يكون فى وسط الولدان والحور والجنات فى الدنيا . وقد سمع بثلم شرفه وانتهاك حرمته وعرضه فلا يحس بنعيم ولا سعادة ولا هناء . فثبت أن المدار فى النعيم واللذات على النفوس والعقول . وإذا ثبت ذلك لك ثبوتا عليا عقليا فارجع إلى هذه الآيات وتأمل معى فيها . وتعجب معى كل العجب . انظر كيف يذكر أولا عذاب النار للكافرين ثم يتبعه بالجنات والكواعب الأتراب إلى آخره للمؤمنين إجمالا . ثم يلخص ماتقدم كله بعبارة ترجع إلى ماقلناه فى هذا المقام . ألا تراه يقول (رب السموات والأرض ومابينهما الرحمن لايملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

فعبر عن التربية التى أوضحناها فى أول السورة عند ذكر المهد ، وبين آثارها من العذاب والثواب بقوله : «رب السموات والأرض» وقوله «لا يملكون منه خطابا» يرجع إلى العذاب المعنوى ، وقوله «إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» يرجع إلى النعيم المعنوى . فإن الزلفى من الملوك بالعلم والصيت والمنزلة الرفيعة فيمكن مخاطبتهم . والجهل والضعة وأمثالها توجب الاحتقار فلا يخاطبون ، وهذا هو النعيم والعذاب اللذان كنا فى غرائز البشر ولكن أكثرهم لايكادون يعبرون عنه إلا الحكماء والعلماء .

ثم تأمل كيف ذكر الروح للعبر بها عن أرواح الناس عند ابن عباس ، وكيف جعلها مع الملائكة مصطفين ثم كيف كان العذاب للمعنوى والحسى مذكورين معا فالأول بعدم الإذن فى الخطاب ، والثانى بالإنذار بالعذاب أليس ذلك ليدلنا أن نفكر ونعقل الحقائق ، وقوله بعد ذلك : «ذلك اليوم الحق» متمم لما تقدم ، ثم قوله «فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا» . عبر بلفظ رب ولم يقل إلى جنة للاشارة إلى أن أقصى مايطلبه الحكماء والعقلاء إنما يكون للنزلة والعلم والزلفى وأمثالها : وكأن الأرواح بعد الموت تكون درجات لاتكاد تعد كما نرى فى الدنيا عالم المدن وعالم النبات وعالم الحيوان كلها متمتعة بالغذاء الجسمى ، ولكن النوع الإنسانى هو المتمكن من المعرفة ، وبعضهم أصبح حكيما فيها أو نبيا ، وربما أمكنه الوصول إلى ربه والخطاب معه ، وبقية الناس والحيوان والنبات محجوبة عنه ، هكذا الأرواح هناك تكون درجات كدرجات هذه المخلوقات فى الدنيا ، والأعلى قليل فى الدارين ، فقوله : « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » إشارة إلى هذا الفريق النابغ فى الآخرة وقوله : « يوم ينظر المرء ماقدمت يداه » يرجع إلى ماذكرناه ، فإن الروح إذا نظرت أعمالها رأى العين واطلعت على قبحها تمنت الهلاك ، وهذا عذاب ملازم للنفس لايفارقها ، ونظيره فى الدنيا من يرتكب العار ويثلم شرفه ، فربما يتمنى الموت فلا يناله ، والقرآن يقول : «قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» خيفة العار عند قومها ، هكذا هنا لما رأى الكافر جهله فاضحا وأعماله خاسرة . وأصبح محقرا عند من كان يعرفه فى الدنيا بالفضيلة يقول : «ياليتنى كنت ترابا» :

•••

محصل هذا المقام أن لكل حيوان بالغ أولابن مدة فى أول حياته كالمهد عند الإنسان يتربى فيها ثم يتركه عند استغنائه عنه ، والانسان جعلت الدنيا كمهد له من حيث أن الله يربيه فى عوالم كثيرة : أى ينقله من حال إلى حال كما قال تعالى : «لتركبن طبقا عن طبق» أى حالا بعد حال ، فتكون حاله فى الدنيا كالمهد للصبى وينتقل منها إلى غيرها حافظا لمزاياه الأولية . ويرتقى على مقتضاها من جمال وقبح وصحة وضعف فأقل الحيوان مهدا الجراد : إذا سمن الجراد أيام الرعى فى الربيع تحفظ بيضها فى مواضع بأرض طيبة رخوة الحفر مناسبة لتفريخ بيضها ، وتحفر بأرجلها ومخالبها : وتدخل أذنابها فى تلك الحفرة ، وتطرح فيها بيضها وتدفنه ، ثم تطير وتعيش أياما ، ثم تموت بأسباب عادية من ريح أو مطر أو برد . فتأكلها الطيور ويبقى ذلك البيض فى ذلك التراب ، فاذا رجع فصل الربيع صار ذلك البيض المدفون دودا على وجه الأرض ، ثم تكون لها أجنحة ثم تطير .

والزنابير الصفر والحمر والسود تبنى منازل وبيوتا فى الشقوق والحيطان وبين أغصان الشجر مثل النحل وتبيض وتحضن وتفرخ ، ويكون قوتها يوما بيوم . وفى الشتاء تذهب إلى المواضع الخفية وتنام فيها ، وتبقى جثتها يابسة مدة الشتاء ثم تحيا متى جاء فصل الربيع .

والنحل والنمل كل منهما يحتفى ببيضه حتى يفرخ ، فهذه الحشرات المذكورة أرقى نفوسا من الجراد لعنايتها بولدها فى المهد ، ويقرب من الجراد ، دودة ورق القطن . ودودة اللوز ، ودودة الحرير . فكل هذه تحتفى ببيضها . فيعيش على ورق القطن أو التوت أو لوز القطن كما شاهدتها مرسومة على خرائط حكومتنا المصرية لتعليم الفلاحين فترى دودة القطن تظهر فى شهر مايو . فيبحث الذكر على الأنثى حتى إذا تم التلقاح وحملت مات الذكر حالا . وعند تمام الحمل تضع الأنثى بيضها فى أوائل شهر يونيو على ورق القطن قبل نزول النقطة وتضعه بانتظام . ثم تنتف ريشها وتغطيه فيكتسب لونا مصفرا ترابيا فوق الورق . ثم تموت . وبعد

١٠ أيام يخرج الدود ويأكل فى الورق سبعة أيام . ومالم يمت منه نسج نسجا حريريا عليه . وهو زيز مقمط وهو فيما بعد يتحول إلى فراشة . كما تفعل دودة الحرير وتبقى فى الأرض إلى العام القابل .

وترى دودة ورق القطن ذات خطوط بنية عريضة مستطيلة على جسمها . وخطوط صفر على طولها غير عريضة . ونسيجها يرى بلون بنى . وحشرة اللوز خضراء . وهذه أقرب إلى الجراد . فالنمل والنحل أرقى منهما . والطيور أمدها معلوم فى بناء أعشاشها ثم الحيوانات اللابنة تحفظ أجنتها فى الأرحام . فهى أكمل كما هو معلوم والإنسان يراعى ولده بعد المهد أمدا طويلا . ولكن الله مهده للانسان أوسع . وهى الدنيا كلها ورغائبه طول حياته وبعدها إلى مالايتناهى «وأن إلى ربك المنتهى» .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : «وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا» .

(٢) فى قوله تعالى : «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا» .

﴿اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا»﴾

لما كتبت هذا العنوان حضر صديقى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال . لقد وعدت فى (سورة الملك) أن تشرح ما اقتضته آية : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور» وذلك للمناسبة بين المقامين ، لأنك هناك أبنت أن المادة فيها خلاء ، وهذا الخلاء عظيم جدا ، فهو فطور : أى شقوق ، وهذه الشقوق لا ترى بأعيننا مهما حدقنا فيها ، ولكن ذلك يعرف بالعلم وبالحكمة وللناظير المعظمة ، وأبنت أيضا أن النور المنظور فى السماء ، وهى الزرقة المعروفة ، وجميع الألوان النيرة فيها شقوق وفتوق وفطور تتخللها ولكن لاتراها العيون ، وقد وعدت أن تشرح هذا المقام هنا بصورته الشمسية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : «إن الأثير المالىء للعوالم كلها وإن كان غير مادة هو فى حكم ثقل المادة آلاف آلاف المرات ، ولعل هذا يوضح كون السموات شدادا ، فهذه الشدة هذا معناها بحسب ماوصل إليه العلم ، فهل لك أن توضح ذلك ؟ فقلت : أما الكلام على السماء وأنها بهذا الوصف فقد تقدم فى أول سورة الصافات ، فليرجع إليه من شاء ، فهناك ترى أقوال عدد من علماء عصرنا وهم يقولون بذلك ، وأن الأثير وإن كان غير مادة هو أثقل منها آلاف المرات : أى حكمه ذلك ، وهو هناك واضح ، فأما الإيضاح الذى طلبته ، فهاك ما كنت كتبته من قبل سنتين من تاريخ طبع هذه السورة ، فهاك نصه :

هل يعلم المسلمون ماذا حصل فى العلوم اليوم وأنها قد أوضحت معنى هذه الآية ؟ هل يعلم المسلمون أن الأرض والشمس والكواكب والقمر ، كل هذه مركبات من عناصر واحدة : كالحديد والنحاس والزنك والكلسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأوكسوجين والنيتروجين ، هل يعلم المسلمون ذلك ! .

اللهم إليك المشتكى ، اللهم أشكو إليك أمة الإسلام النائمة ، اللهم إن أرضك وسمواتك قد رجعت إلى عناصر واحدة ، وهذاهومن معنى قولك : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» وقولك : «سبع سموات طباقا» فبين هذه العوالم التى فوقنا العبرة عنها بالسموات السبع مطابقة ، ومن المطابقة المذكور أن مادتها

واحدة : أى عناصر واحدة تقريبا ، لأن ذلك هو خلق الرحمن ، والرحمن لرأفته بعباده يقرب لهم الأقصى البعيد ، ويجعل مايقرب دليلا على البعيد ، ويجعل هذه الكواكب دائرات دوائر متشابهة ليسهل حسابها ومركبات تركيبا واحدا تقريبا يسهل فهمها .

لك الحمد اللهم قربت البعيد ، وجعلت أبصارنا تدرك الأنوار الواصلة من الكواكب ، وأسماعنا تدرك حركات الهواء بالكلام وبالنغمات ، وشمنا يدرك ذرات الأجسام الطائرات من خلالها بطريق الشم ، وألسنتنا تدرك طعوم المأكولات الأرضية ، وجلودنا خصوصا الكفين تدرك الناعم والخشن والثقيل والخفيف حاوى ذه أجسامنا فصلت على مقتضى العوالم العلوية والسفلية ، فعقولنا وأبصارنا للمدركات العالية فى السكان وفى السكانة ، وبقية حواسنا للمدركات الأرضية .

تبارك الله ، تبارك الله : وفق مابين أجسامنا ومايحيط بها ، وبه فهمنا : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » : لم تخالف الأرض الشمس فى تركيبها ، ولم يخالف العالم الأرضى والسماوى أجسامنا وأجسام الحيوان بل وافقها .

اللهم إن هذا القول لايعقله إلا الدارسون المفكرون ، ولعلك تقول مابرهان كون الشمس والأرض والكواكب متفقات فى تركيبها من العناصر حتى نفسر بذلك القرآن ؟ أقول : علوم الطبيعة تجد ذلك واضحا فيها ، فلقد ظهر عالم يسمى (فرنهوفر) نظر فى طيف الشمس المركب من الألوان السبعة الذى أوضحناه سابقا فى (سورة الرعد) فرأى هناك خطوطا سوداء عمودية على ألوان ذلك الطيف ، فحكم بأن ذلك الطيف غير متصل اتصالا تاما ، بل تقطعه خطوط كثيرة سميت فيما بعد (خطوط فرنهوفر) وهو أول من درسها ووصفها ورسمها ، سمى أشهرها بالثمانية الأحرف الأول من حروف الهجاء الرومانية (انظر شكل ١)

(شكل ١ رسم الطيف الشمسى)

ترى فى هذا الشكل رسم الطيف الشمسى ، فالخطوط البيضاء خطوط فرونهوفر ، والفسحات السوداء ألوان الطيف ، وقد تحققوا أن هذه الخطوط تحدث من اشتمال الأجسام ، فاذا أشعلنا جسما ونظرنا إلى الطيف الذى يحدث من اشتعاله وجدناه يوافق خطا منها كما يعرف بالسبكترسكوب .

السبكترسكوب : هو المنظار الذى ننظر به خطوط (فرونهوفر) فى الطيف وهو على أشكال عديدة منها . (شكل ٢) الآتى ، ترى فيه ثلاثة مناظر مركبة معا على قاعدة بحيث تلتقى محاورها فى منشور بينها (ا) فيوضع الجسم المشتعل عند (ت) أمام منظار له شق فى فمه يوسع ويضيق حسبما يرام ، فيدخل شعاع الجسم المشتعل من هذا الشق إلى المنظار ، ثم يخرج منه ويقع على المنشور فينفذه وينحل إلى الطيف كما تقدم ، فيضع الناظر عينه على المنظار (ب) ويرى الطيف أمامه ، وخطوط فرونهوفر مكبرة فيه ، فيقيس البعد بينها بواسطة المنظار الثالث (ل) ، وذلك لأن فى هذا المنظار مقياسا مقسما أقساما عديدة ومصورا على الزجاج ، فاذا وضع مصباح أمامه وقعت صورة القياس على المنشور وانعكست عنه إلى عين الناظر فيقيس بها البعد بين خطوط فرونهوفر وبين أماكنها .

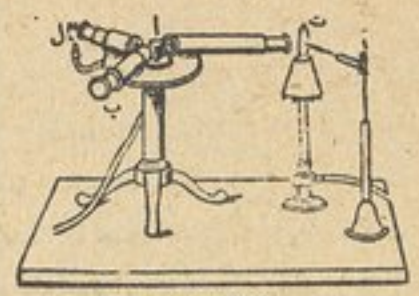

(شكل ٢)

وعلى ذلك وجدوا أنه إذا وضع فى لهيب (ت) قليل من معدن الصود يوم ظهر فى طيفه خط أصفر لامع يوافق الخط (D) من خطوط فرونهوفر فى الطيف الشمسى ، وإذا وضع فيه قليل من معدن البوتاسيوم ظهر خط أحمر يوافق (A) من الطيف الشمسى ، وخط آخر فى البنفسجى بقرب (H) :

فمن مقابلة طيوف الأجسام المشتعلة الأرضية بخطوط فرونهوفر وغير ذلك تحققوا فى أن الشمس معادن وغازات كثيرة كالحديد والنحاس والزنك والكلسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والهيدروجين والأكسوجين والنيتروجين وغيرها ، وعرفوا مواد نجوم عديدة . وللسبكترسكوب اعتبار عظيم عند علماء الهيئة والكيمياء واستعماله كثير عندهم انتهى .

هذا هو البرهان الحسى الذى اخترعه وعرفه قوم غير مسلمين . وهو هو نفس هذه الآية ؛ فها هوذا قد ظهر لنا قوله تعالى : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» .

وهاهنا بهجة علمية ، وآية حكمية ، ومعجزة نبوية . أنظر أيها الذكى : انظر . لم عبرالله بقوله : « هل ترى من فطور » أليست خطوط فرنهوفر فطورا وفواصل بين الألوان قد رأيتها بعينك فى الشكل المتقدم هاهى ذه فطور تخللت الألوان ، وبهذه الفطور أدركنا أن العالم لا تفاوت فيه . بل هو متحد تركيبا . نعم الآية واضحة لا تحتاج إلى هذا ، ولكن لفظ الفطور يوافق تلك الخطوط ، وعلى هذا يقال « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » إذا نظرت بعقلك أيها العاقل وبحثت فى سر الطبيعة وتركيبها . فهناك لاترى تفاوتا بسبب ماظهر لك من تلك الخطوط السوداء والفطور المتخللة التى أدركتها بالمنظار المعظم . أما إذا نظرت بعينك المجردة فانك لاترى تلك الفطور ؛ بل جميع الناس على هذه الأرض يرون النور ولا يرون الخطوط السود التى فيه لاحتياجها إلى آلات ، والآلات تأتى بها العلوم . والعلوم هى التى بها تدرك تلك الحقائق وتصنع تلك الآلات .

هذه المعانى سواء أخذت من ظواهر الآية كما ذكرناه أولا أم أخذت من المعنى الإشارى الرمزى الذى لايعرف إلا بالقرينة . والقرينة هنا هى العلوم التى ملأت الأرض وجهلها أكثر المسلمين وهى تسجل على أمة الإسلام أنها مقصرة أشد التقصير حتى إنها أصبحت عالة على أمم أوروبا فى كل شىء . فى نباتها وملابسها وزرعها وتجارتها وسياستها . وفوق ذلك فى معجزات قرآنها .

اللهم أنت الذى خلقت المسلمين . وأنت الذى قدرت لهم هذه المذلة . وأنت الذى وفقت لهذا التفسير على يد عربى من الأمة الذى نزل لها القرآن بلسانها . فاجعل هذا التفسير فاتحة عهد جديد وعز مديد وأمة ناهضة تدرس وتقرأ نظام هذا الوجود .

اللهم إنك مجيب الدعاء لاسيما إذا كان للمنفعة العامة . وأنك أجبت دعاء زكريا . وزكريا كان يدعو لإنقاذ بنى إسرائيل فأجبت دعاءه . وأنا أدعو لأجل الأمم الاسلامية عربية وعجمية . فاسألك اللهم أن تحبب إليهم العلم كما حببت آباءهم فى حفظ القرآن والتبرك به . وإنى مؤمل إجابة دعائى . بل موقن به . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى آية . «وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا» والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

في قوله تعالى : «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا»

في هذه الليلة ليلة السبت ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٣٢ م - و ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية حضر صديقي العلامة الذي اعتاد مذاكرتي في هذا التفسير . قال لعلك لم تنس ماوعدت به في (سورة الذاريات) إذ قلت : ولعلنا نفصل الكلام إن شاء الله تعالى في(سورة النبأ) على أنواع النبات المتقدمة والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا » إلى آخره .

ولقد ذكرت (قبل ذلك ماترجمته من كتاب العالم الطبيعي الفرنسي الذي كان أستاذا في (السربون) ووزير المعارف العمومية بفرنسا) أن أقسام النبات ثلاثة : شجرات . وشجيرات . وأنجم [والمراد بالنجم مالا ساق له كالقمح والذرة والشعير] ولم تبين صورها . فقلت له هذه صورها :

(شكل ٣ الشجرة)

(شكل ٤ الشجيرة)

(شكل ٥)
النجم

فلما رأى صاحبي ذلك سر وقال : هذا حسن ، ولكن مقام التقسيم هناك مضطرب ، فإن تحديد هذه الأقسام الثلاثة عشر . ثم إنك أوردت هناك رأيا آخر ، وهو تقسيم النبات إلى سنوي ، وإلى ذي سنتين وإلى ذي سنين كثيرة ، وهذا التقسيم موضع هناك ، ولكنه أيضا غير كفيل بتفصيل أنواع النبات إلا بحيرة واشتباه ، ولذلك أتيت بعد ذلك بتقسيم النبات باعتبار أزهاره وحسن نظامها ، وبهجة إتقانها ، فأرجو إيضاح هذا المقام هنا كما وعدت بذلك هناك مع إظهار الصور لتكون بهجة للقارئين ، ومنارا للسارين ، وأنسا للقارئين . فقلت : سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، ولكن لابد من ذكر فائدة وردت في ذلك الكتاب الانجليزي قبل الكلام على أنواع الزهر ، وهي إن جميع الأشجار والشجيرات والزروع قد اشتركن في أنهن ذوات أوراق خضر ، ولكن هذه الخضرة ليست ملازمة لكل نبات ، ألا ترى رعاك الله هذا النبات المسمى باللغة الفرنجية (مشروم) وهو بالعربية (خبز الغراب) (انظر شكل ٦) فانه أحمر أو أسمر أو أبيض .

(شكل ٦)

وهكذا تلك البقع الشهباء ذات السمرة المصفرة التي ترى على الحيطان وعلى جذوع الأشجار ، إن هي إلا نباتات صغيرات ، فلنسمها نحن النباتات الخفية . ويسميها الفرنجة (ليتشن) ومن النباتات مالا ترى إلا بالمناظير المعظمة ، وهذه لا يحصيها عدد . ولا يوقف لها على مقدار . فهذه الأنواع الثلاثة لاخضرة فيها ، إذن الخضرة في النباتات ليست عامة .

أقسام النبات المختلفة

هاهنا أخذ المؤلف فى تشريح الجذور والأغصان. فتشريح الساق . فاتجاه الأغصان . فأنواع الورق . فالأزهار . فهذه خمسة فصول :

الفصل الأول: فى الجذور والأغصان

(شكل ٧)

شجرة الكمثرى البرية ، وهى الإجاصة أيضا (١) فالمرموز له بحرف (ا) المدفون تحت الأرض هو الجذر ، وما رمز له بحرف (ب) هى فروع الجذر (٢) وما رمز له بحرف (ج) هو الساق أو الجذع الذى يرتفع مضادا لاتجاه الجذر . الأغصان : وهى إما أغصان أولية حرف (د) وهى خارجات من نفس الساق ، وإما أغصان ثانوية خوارج من الأغصان الأولية : وهى المرموز لها بحرف (ه) وإما أغصان ثالثية قد تفرعت من الثانوية ، وهى المرموز لها بحرف (و) .

(شكل ٨)

كل ورقة تحمل برعوما عند مفصلها من الغصن ، وهذا البرعوم على استعداد أن يكون غصنا ، وترى غصنا ، خاصا فى الشجرة ، وهو المرموز له بحرف (ب) يكون منتهيا ببرعوم ، وذلك البرعوم يصير زهرا والزهر يصير ثمرا .

قال مؤلف الكتاب المذكور ما ترجمته : لندع الكلام على النباتات المستثنيات من ألوان الخضرة ، ولنرجع إلى النباتات المعتادة فنقول : هاهى ذه شجرة الكمثرى فى الركن الخالى من الحديقة ، تلك التى نبتت من نفسها ، كما أخبرنا بذلك الناطور أى البستانى ، فها أنا ذا سأقتلعها حتى نمتحنها ، ثم أخذ يقول :

(١) كل منكم يعرف أجزاء الشجرة المختلفة : فها هو ذا الجذر حرف (ا) شكل ٧ ذلك المختبئ تحت الأرض مع فروعه المنتشرة فيها حرف (ب ب ب ب) .

(٢) ثم قال : وهذا هو الساق حرف (ج) المنتصب المرتفع إلى أعلى بعكس الجذر .

(٣) وهو مقسم إلى أغصان أولية حرف (د) وهذه الأغصان الأولية خارجات من نفس الساق ، ومن هذه الأغصان الأولية تخرج أغصان ثانوية : أى فروع حرف (ه) ، ومن هذه تخرج أغصان ثالثية : أى فريعات حرف (و) وهكذا .

(٤) الأوراق : لنقف هنا وقفة فى امتحان بعض هذه الأجزاء ، إننا هنا نجد على ساق كل ورقة فى الزاوية التى بينها وبين ماهى نامية عليه (من ساق الشجرة أو غصن من أغصانها) برعوما صغيرا (شكل ٨) حرف (ا) وكل برعوم من هذه البراعيم الصغيرة سينمو ، ويعطينا فرعا أو فريعا أو غصنا جديدا لهذه الشجرة ، وكل غصن من هذه يخرج مما يقال له (إبط الورقة) وكل ورقة تحمل برعوما فى إبطها ، وهاهنا تلاحظون أمرا جديرا بالاعتبار ، ذلك أن أمثال الغصن حرف (ب) (شكل ٨) تجدونه دائما أقصر من غيره ، فهو بدل أن يكون طويلا بقى قصيرا ، ولكنه يحمل فى آخره (برعوم الزهر) وتلك البراعيم الزهرية ستكون أزهارا ، وتلك الأزهار ستذهب جفاء وتحل محلها الثمرات التى ستصير فيما بعد كثرى جديدة . انتهى الفصل الأول فى الجذور والأغصان .

الفصل الثانى : فى تشريح الساق

ها هنا أخذ المؤلف يشرح ساق الشجرة فأبان قلب شجرة الكثرى الذى هو الجزء الناعم ، ويحيط به الجزء الخشبى الذى هو شديد الصلابة ، ويحيط بالجميع القشر المخضر .

ولما كانت هذه الساق مرسومة فى (سورة السجدة) قبل (سورة الأحزاب) وهناك شرحه موضحا لم نر إعادته هنا اكتفاء بما ذكرناه هناك فى غاية الإيضاح ، وترى هناك أمرا عجبا ! ترى الموازنة مابين سوق الأشجار ذوات الفلقة الواحدة كالنخل وسوق الأشجار ذوات الفلقتين كالكثرى ، وأن سوق أمثال النخل من ذوات الفلقة الواحدة ليست منتظمة الدوائر فى داخلها كانتظام دوائر ذوات الفلقتين ، وترى هناك العجب العجاب فى تشريح النخلة التى أحضر المؤلف رسمها من بلادنا المصرية من جانب الهرم ليجذب قلوب التلاميذ هناك إلى منظرها الغريب الذى لم يألفوه فى بلادهم ليكون ذلك شارحا لصدورهم ، فاقرأه هناك إذا دعتك الحاجة إليه . انتهى الفصل الثانى فى تشريح الساق .

الفصل الثالث : فى اتجاه الأغصان

إن اتجاه الأغصان بالنسبة لاتجاه الساق مختلف اختلافا بينا . فانظر إلى شجرة (شربين) وهى بالانجليزية (فير) . (انظر شكل ٩) ، و (شكل ١٠) .

إن شجرة (شربين) نرى أغصانها متجهة اتجاها أفقيا (شكل ٩) وبعكسها نرى أغصان شجرة الخوخ (شكل ١٠) فأغصانها متجهة إلى جميع الجهات . حتى إننا لانرى غصنا يتبع سبيل الساق إلا نادرا جدا . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثالث فى اتجاه الأغصان . واحمد لله رب العالمين .

(شكل ٩)
أغصان شجرة الشربين
الأفقية الوضع

(شكل ١٠)
أغصان شجرة الخوخ الممتدة
إلى جميع الجهات

الفصل الرابع : فى أنواع الورق

وهاهنا أخذ المؤلف يشرح أنواع الورق. فأفاد أن ورق النبات مختلف الأشكال . فمنه مالأوراقه سيقان كما فى هذه الأشكال .

(شكل ١١)
أوراق شجر الكمثرى
(ا) ساق الورق المسمى بتيول
(ب) نصل الورقة المسمى لمينا

(شكل ١٢)
ورق شجرة برية تسمى
بالإفرنجية (جرانيام)
ونصل أوراقها مقسم

(شكل ١٣)
كأس الزبدة
ورقه تام التقسيم

انظر إلى ورقة الكمثرى (شكل ١١) .

إن ساق الورقة فى تلك الشجرة يحمل النصل الأخضر ، وليست الورقة فى الحقيقه إلا هذا النصل فهو الجزء المهم الفائدة . ومن النبات مايحمل ورقا بلاسوق لتلك الأوراق . ثم إن أوراق شجرة الكمثرى مثلا تسمى أوراقا بسيطة .

فأما أوراق الشجر المسماة : (جرانيام) (شكل ١٢) فانها مقسمة أقساما كثيرة وأقسام الورق فى الشجرة المسماة بالافرنجية (كأس الزبدة) وفى شجرة السنط (شكلى ١٣ و ١٤) تامة التقسيم . لاسيما فى الأخير منهما . فالتقسيم فيه تام الإيضاح .

(شكل ١٤)
شجرة اللبخ : نصل ورقها مقسم تقسيما
تاما والفصوص (ا) (ب) (ج) البرعوم
(د) وساق الورقة (هـ)

وهاهنا ورد على المؤلف اعتراض. وهو كيف يقال : إن هذه الفصوص الصغيرة فى ورقة السنط المحمولة على ساقها فصوص ، ولماذا لانسمى هذه الساق التى جعلناها للورقة غصنا ، ثم نجعل هذه الفصوص أوراقا بل هذا أقرب للصواب ، أليس هذا غصنا حقيقيا؟ أليست هذه أوراقا تامة ؟ ولكنه أجاب على ذلك فقال :

(أولا) لقد تقدم أن كل ورقة لابد أن يكون عند إبطها برعوم صغير . ولكن فى هذه الساق التى تحمل الورقة المفصلة لم نجد إلا برعوما واحدا. وهذا البرعوم نراه عند إبط عموم الورقة، ولو كانت هذه الفصوص أوراقا لكان عند إبط كل فص برعوم . والحال هنا ليست كذلك .

(ثانيا) أن فصل الخريف تسقط فيه أوراق كثير من الأشجار منها اللبخ الذى معنا . ومعلوم أن الأغصان لا تسقط فيه ولو كانت هذه الساق التى لورقة اللبخ غصنا يحمل أوراقا لا فصوص وورقة لم يسقط فى فصل الخريف ولكنه يسقط فيه مع الورق . فدلنا هذا على أن هذه ورقة واحدة ذات فصوص لا أوراق كثيرة يحملها غصن وهو المطلوب . انتهى الفصل الرابع فى أنواع الورق .

الفصل الخامس : فى الزهر

وهو أهم الفصول السابقة

إن أول ما يقابل عيوننا فراه فى زهر الكثرى (شكل ١٥) هذه الخمسة الأوراق الصغيرة البيضاء البارزة إلى الخارج وهى (ا ب ج د ه) وهذه مجموعة تسمى بالتاج ، وكل ورقة منها تسمى بلسان علماء النبات (بتل) ومجموعها يسمى (تورلا) ، وإذا نظرنا إلى الأوراق التى تحت أوراق التاج فى نفس هذه الزهرة (شكل ١٦) فاننا نجد خمس ورقات أخرى (ه و ز ح ط) وهن أصغر من الأولى مخضرات اللون وتسمى (كأسا) وباللغة الافرنجية (سبل) وهاك صورها .

(شكل ١٥)

ا ب ج د ه بتل : أى أوراق التاج ، ومجموعها يسمى التاج بالعربية . وتسمى بالافرنجية : تورلا

(شكل ١٦)

ه و ز ح ط تسمى . سبل بالأفرنجية وهى أوراق الكأس ، ومجموعها وهو الكأس يسمى بالفرنجة كاليكس

(شكل ١٧)

(ا) سداة

(ب) كرة صفراء تحمل الغبار الأصفر الذى يسميه علماء النبات : بلن

إن فى مركز شكل ١٧ خيوطا دقيقة كل منها يشبه الطلب

(ا) وكل واحد منها يحمل فى نهايته كرة صفراء .

(ب) وهذه هى السداة (عضو التذكير) .

إن الناس جميعا مدينون لهذه المادة الصفراء . وهى الطلع ، فلولاه لم يعش أحد فى الأرض . فلنزرع الآن الكأس والتويج وأعضاء التذكير فإنا نجد الزهرة لم يبق منها إلا هذا الشكل (شكل ١٨) .

(شكل ١٨)

(ا) كرة صغيرة يحيط بها أربع سوق (جمع ساق) صغيرة .

(ب) وهى خيوط لينة .

(ا) البيضة صارت ثمرة

(ب) الساق هذه البيضة وهذا الساق هما معا عضو التأنيث (ج) البقعة البيضاء هى نفس البذر .

وهذه الكرة هى ما يحفظ البذرة، أو هى ما يقابل البيض فى الحيوان أو هى للبيض، والساق والمبيض يطلق عليهما معا عضو التأنيث .

الكلام على الثمر

إن هذه الكرة وهى البيضة صغيرة جدا، ولكنها حينما يذهب الكأس والتويج وأعضاء التذكير تأخذ فى النمو وتمتلئ بعصارة تكون فى الأول مرة . ثم بعد ذلك تكون حلوة ، ثم تصير كمثراة .

ويمكننا أن نلحظ هذه البيضة بعد انقلابها إلى ثمرة فوق قمة الكمثرات (انظر شكل ١٩) .

حرف (ا) فى الثمرة (شكل ١٩) فانك لا تزال ترى أثرا يدل على الأجزاء التى لا ظهور لها إنها قد صنعت تجويفا صغيرا مقابلا على خط مستقيم للساق .

وفى هذه الثمرة كما تعلم تكون البذور (ا) انظر (شكل ٢٠) .

وهذه البذور منوطة بخلايا صغيرة ومعلقة تعليقا غير محكم الربط .

(شكل ١٩)

(ا) بقايا الخيوط البيضية التى لم تظهر

(شكل ٢٠)

(ا) البذور

وإذا نحن أردنا أن نقطع البيضة أو البيض الذى عليه الخيوط البيضية من الداخل فى الزهرة (شكل ١٨) فاننا نجد فى داخلها بقعا بيضاء (ج) وهذه البقع التى نقدر أن نستخرجها بسن القلم عبارة عن بيضات صغيرة ، وهذه البيضات الصغيرة على طول الزمان تصير بذورا (شكل ٢٠) .

انظر فهاهنا ترى أن الكأس والتويج وأعضاء التذكير هذه الأنواع الثلاثة أصبحت لا وجود لها ولم يبق إلا للبيض وإلا البيضات الصغيرات التى صارت بذورا ، فهذه هى زهرة الكمثرى للركبة تركيبا تاما .

الزهر الناقص التركيب

إن أمثال زهرة الكمثرى تسمى بالزهرة التامة التركيب ، وهناك زهرات غير تامات التركيب ، ففى بعضها لا يكون كأس ، وفى بعضها لا يكون تويج ، وفى بعضها لا يكون كأس ولا يكون تويج ، ولكن ذلك ليس مهما ، ولعلك تدهش مما أقول وتقول فى نفسك : كيف هذا ! إن أهم جزء فى الزهرة إنما هو الجميل البهيج ، وهو التاج الذى تبتهج به النفوس وتنشرح الصدور بما له من ألوان بارعة الجمال والبهجة والبهاء ، ولكنى أقول : إن الأمر ليس كذلك إنما الجزء المهم التام الفائدة فى الزهر إنما هما اثنان : أولا أعضاء التذكير للشروحة سابقا ، وعضو التأنيث المسمى بالمبيض ، بل الأمر فوق ذلك ، إن أهم الأجزاء إنما هى الأجزاء الغبارية الصفراء التى بها يكون الإلقاح والبيضات الصغيرات التى فى داخل المبيض .

هذا هو السبب فى أننا نرى بعض الأزهار لا كأس لها ولا تويج لما علمت أن الدار ليس عليهما ، بل على أعضاء التذكير والتأنيث ، بل على مادة الطلع والبيضات الصغيرة فى البيض الذى فى عضو التأنيث ، وهناك مثال مالا كأس له ولا تويج (انظر شكل ٢١ و ٢٢) .

(شكل ٢١)
زهر البندق ، فهذه ليس لها كأس ولا تويج

(شكل ٢٢)
زهر الذرة
(ا) زهرة تحمل عضو التذكير
(ب) زهرة تحمل عضو التأنيث

إن هذه تحمل ثمرا كما تعلم ، وهذه هى النهاية الأصلية لحياته ، فهذا هو البرهان الأول على أن الكأس والتويج ليس لهما أهمية أصلية بل هما أمران ثانويان . (البرهان الثانى) : إنك إذا انتزعت الكأس والتاج من الزهرة التامة التركيب ، فإنك لا ترى ما يمنع نمو الثمر ، ويبقى عضو التذكير وعضو التأنيث لا ضرر يلحقهما ، ولكنك إذا انتزعت عضو التذكير فإن البيض لا ينمو فيكون ثمرا ، والبيضة الصغيرة فيه لا تكون بذرا ، وهذا هو المطلوب ، وما هو هذا ، هو شجرة الذرة (انظر شكل ٢٢)

(شكل ٢٣)
زهر الصفصاف الذى فى أوروبا يحمل زهره أعضاء التأنيث (للبيض ومامعه) وكل الصفصاف فى بلاد آسيا يحمل زهره أعضاء التذكير

نبات يحمل زهرة الذكر وزهرة الأنثى

إن من النبات ما يحمل زهرتى الزوجين الذكر والأنثى ، وذلك كشجرة البطيخ ، وشجرة تسمى باللغة الفرنجية (بتولا) وشجرة الجوز ، وشجرة الذرة (شكل ٢٢) .

ومن النبات ما يحمل بعضه ذكرا والآخر أنثى كحشيشة الدينار ، وكالقنب وكالصفصاف وهكذا .

فإذا كانت هذه النباتات غير متقاربة تقاربا تاما فإنها لا تحمل ثمرا ، فانظر إلى شواطىء الأنهار والخلجان والترع فى بلادنا المصرية وغيرها فى الشرق والغرب فانك ترى شجرا جميلا يميس إذا هبت الرياح ، وهو جميل زهره أصفر ألا وهو الصفصاف (شكل ٢٣) .

قال المؤلف : إن موطنه الأصلى فى آسيا ، ويرى نوع منه فى بلادنا أى البلاد الانجليزية ، لأن هذا كلام زوجة المؤلف وهى الإنجليزية ، وهذا النوع الذى فى بلاد الإنجليز يحمل عضو التأنيث ، ولم نسمع بامرىء فى الدنيا رأى لهذا الشجر بذورا ، وليس له ثمر قط .

البـــذر

لنرجع كرة أخرى إلى زهرة الكمثرى ، وعبارة أجلى إلى ثمرتها ، إنها تحوى بذورا إذا وضعناها فى الأرض فانها تخرج لنا مبدأ لشجرة كمثرى أخرى مشابهة للشجرة التى حملت تلك الفاكهة .

(شكل ٢٤)
اللوز مركب من حجمين لحيين كبيرين (ا ـ ا) يسميان عند علماء النبات (كوتيليدونس) (ب) هو النبات فى صورة صغيرة

(شكل ٢٥)

فلنشرع الآن فى امتحان أحد هذه البذور مع الاحتراس .

إننا أولا نقابل الغطاء أو الجلد ، وفى داخله نرى البذور ، ولكن لما كانت بذور الكمثرى دقيقة جدا بحيث لا نتمكن من بحثها كما يجب أبدلنا بها بذرة اللوز مثلا ، لأنها كبيرة تمكننا من البحث فيها .

إن الجلد نمكن زحزحته ونقله وحينئذ نجد جزءين لحيين لذيذين طيبين زكيين (١١) (شكل ٢٤) ، وهو يحتوى على جرم اللوز ، وعلماء النبات يسمونها ورقى البذرة (كوتيليدونس) . أنا لا أريد أن أزعجك بهذه الكلمات الاغريقية البشعة الكبيرة ، ولكن ماذا أصنع ، أنا لا نقدر أن نجتنبها لأنها لغة العلم (انظر شكل ٢٤ و ٢٥)

أنظر : ها أنا ذا مع الاحتراس التام فصلت ورقى البذر المذكورتين ، ألا تلاحظ أن عند النهاية الدقيقة للبذرة جسما صغيرا (ب) .

أنظر إليه بتأمل ودقة تامة واقترب منه ، ألست ترى أنه نبات صغير ، إن الإنسان يقدر أن يميز بدون كبير عناء جذره الصغير (ج) (شكل ٢٥ وكذلك الساق الصغيرة (د) وهكذا فوق القمة يرى برعوم صغير جدا ، والورقتان البذريتان (١١) مافائدتهما ؟ إن فائدتهما أنهما أول ورقتين مخلوقتين فى النبات وإذا وضعنا ثمرة اللوز مثلا فى الأرض فان الجذير (ج) يصير جذرا (د) والمرموز له بحرف (ه) يصير نفس النبات . فأما ما عدا ذلك من مسألة الورقتين البذريتين ، وهما فلقتا اللوز فان تاريخهما أتم ، قال المؤلف . وسندرسهما فيما سيأتى :

تركيب شجر النخل

هنا أخذ المؤلف يشرح النخل ، ورسم له أربع صور ، وأبان أن هذا الشجر وهو النخل وهكذا كل ما شاكله من ذوات الفلقة الواحدة متشابهات من حيث تركيب سوقها ، فهى عمودية الساق ، فأما سوق ذوات الفلقتين كالفول والعدس والبسلة فهذه كلها سوقها مخروطية الشكل ، وذوات الفلقتين حلقات مستوية لم تكن لذوات الفلقة الواحدة ، وهذا الموضوع مفصل أجمل تفصيل مع جمال الصور فيما تقدم فى (سورة السجدة) عند آية «الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» فليرجع إليه من شاء هناك ، ومن أراد معرفة ذوات الفلقة وذوات الفلقتين من كل نبات فليرجع لما كتبناه فى المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير فى نحو (سورة ق . والذاريات) .

هذا ولنفض فى الكلام على النبات ذى الفلقة الواحدة والنبات ذى الفلقتين فنقول ومن الله التوفيق إن هناك بين شجر النخل وشجر الحور مثلا فرقا عظيما واختلافا واسع النطاق فى مظهرهما وفى تركيبهما

بينما ترى بذور الحور (بفتح الحاء وسكون الواو) وبذور كل نبات يماثله فى التركيب لها (كما قلنا من قبل فلقتان إذا نواة النخل وكل نبات يماثله فى التركيب ليس له إلا فلقة واحدة ، فيسهل إذن أن نقسم المملكة النباتية طبعا إلى ذوات الفلقة الواحدة وإلى ذوات الفلقتين ، إن فى هذين النوعين أشجارا وشجيرات .

الكلام على النبات السنوى

والنبات الذى يعيش سنتين ، والنبات الذى يعيش سنين كثيرة ،
وعلى أن ذلك لايفيد فى التقسيم ، وانما المدار على الزهر

لما وصلت إلى هذا المقام قال صاحبي قد فصلت الكلام على تحقيق الزهر ومعرفة أجزائه وبدائع نظامه فليكن الكلام الآن فى الأمر المهم ، وهو تقسيم النبات إلى أنواعه وفصائله ، فقلت : لقد تقدم فى مواضع كثيرة من هذا التفسير أقربها ماجاء فى (سورة الذاريات) لقد تقدم هناك أنه ينقسم إلى مايعيش سنة ، وإلى مايعيش سنتين ، وإلى مايعيش سنين كثيرة الخ . وبعد تحقيق طويل ظهر أنه لايتم التقسيم إلا بالزهر لأنه ثابت ثبات النجوم فى السماء وسير الكواكب والشموس . فقال نعم : أنا قرأت هذا ، ولكن الكلام هناك غير مستوف للمقام حق استيفائه ، فإنك أبنت أن تقسيم النبات باعتبار السنين أو باعتبار صوره من حيث أنه شجر أو شجيرات أو أنجم : أى نباتات لا ساق لها غير مجدفى التقسيم . فأما التقسيم باعتبار الزهر فإنه هو الذى عليه المدار . وهذا غير كاف ، فأرجو أن تفيض الكلام على التقسيم هنا وترسم الصور كما هى عادتك فى أمثال هذا المقام . فقلت : إن علماء النبات لم يبالوا باختلاف النبات فى مظاهره الخارجية . ولا فى تركيب أجزائه . ولكنهم عولوا فى التقسيم على تشابه الزهرات . فهم يجعلون تشابهها هو الذى عليه المدار . فأما ظواهر النبات وتركيبه فاختلافهما لايضر فى التقسيم .

قال المؤلف : كل منكم يشاهد (شجرة الكنسة) وهذه سيأتى رسمها قريبا ، والشجرة المسماة بالافرنجية (فوز) ذات الشوك والزهر الأصفر . وخضرتها دائمة . والعدس ، والبرسيم ، والفول ، والبسلة ، الجلبان (بضم الجيم وتشديد اللام) وشجر السنط وغيرها ، إن بعض هذه النباتات إن هو إلا نجم : أى لاساق له وحشائش ، وبعضها شجيرات ، وبعضها أشجار ، وأيضا من جهة أخرى بعضها سنوى ، وبعضها يعيش سنتين ، وبعضها يعيش سنين ، ومن جهة أخرى بعضها يمتد على الأرض ، وبعضها يتسلق على غيره ، وبعضها يقف مستقيما منتصبا ، ومن جهة أخرى بعضها له ورق ناعم ، وآخر ورقه شوكى ، ولكننا إذا امتحنا زهرات جميع هذه النباتات (والأثمار والبذور أيضا) فاننا نجد أنهن جميعا قد خلقن بهيئة واحدة ونظام مسنون حقيق أو قريب جدا من ذلك ، فاذا بحثنا تاريخ أى زهرة من هذه الزهرات فإننا نجد مارأيناه فى إحداها منطبقا على كل زهرة من الزهرات الأخرى ، وعلى الجميع فإنها جميعا لا تختلف إلا اختلافا يسيرا فى مقادير أحجامها وألوانها .

شجرة المكنسة

لننظر الآن هـذه الشجرة المسماة بالمكنسة (شكل ٢٦) إنها تنبت على جوانب الطرق فى كل مكان ، ونرى منها آلافا وآلافا من ذوات الأزهار الصفراء اللامعة الجميلة .

أنظر إليها وتأمل ، إنك لتجد فى أول الأمر بعض الصعوبة فى تمييز الكأس (د) فانه ملتصق بعضه ببعض ، ولم يبق منه طليق ، اللهم إلا خمسة الحروف والأطراف البارزات ، وفى داخل الكأس يظهر التويج الذى يحوى خمسة أوراق ، ولكنها غير متشابهات . فانظر ألست ترى الورقة (ا) أكبر جدا من الباقيات فانها منتصبة ، وبجانب هذه الورقة المنتصبة ورقتان أصغر منها واحدة (ب ب) على كل ناحية من الناحيتين وأخيرا هناك ورقتان صارتا ورقة واحدة (ج) متحدتان كأنهما فى هيئتهما قاعدة السفينة . وأعضاء التذكير (هـ) ظاهرة انظر هذه الأشكال :

(شكل ٢٦)

زهر النبات العادى المسمى بالمكنسة الذى ينبت على جوانب الطرق (ا ب ج) التاج (د) كأس (هـ) أعضاء التذكير

(شكل ٢٧)

(ا ب ج) هى التاج

(شكل ٢٨)

أعضاء التذكير العشرة فى المكنسة

إن أعضاء التذكير التى فى المكنسة عشرة (شكل ٢٨)، فتسعة منها متحدة مجتمعة عند القاعدة وواحد فقط مطلق (و) (شكل ٢٩ الآتى فى الصفحة التالية) وهذه التسعة صارت على هيئة أنبوبة طويلة ، وهذه الأنبوبة مفتوحة من ناحية واحدة ، وهى التى فيها يكون البيض ، وهو عضو التأنيث ، وهو شكل ٣٠ (ز) الآتى فى الصفحة التالية .

ولكن هذا البيض لا يتم لنا امتحانه إلا إذا أصبح ثمرة تامة (وبعبارة أخرى) إلا إذا أصبح قرنا . ولما كان قرن الشجرة المسماة بالمكنسة يشبه تمام المشابهة (قرن شجرة الفول) المعروفة فى أقطار كثيرة . قال المؤلف : أردت أن أمثل لك بها لأن كل امرئ يعرف قرن الفول ماهو ! إنه مكون من وجهين ملتصقين من أطرافهما (شكل ٣١) . وما من امرئ إلا ويعرف أن فى داخل ذلك القرن حبوبا تسمى (الفول) إن هذه الحبوب كبيرة ؛ ويمكنك أن تلاحظ النبات الصغير بين فصيه اللحميين ، وباللسان النباتى كوتيليدونس وهذان الفصان ظرف أو غلاف لهذا النبات الصغير . وهما سيكونان فيما بعد غذاء له حينما يبتدئ ينمو عند زرعه فى الأرض .

وهناك نباتات أخرى عند امتحانها تظهر أنها كنبات الفول وشقيقه (شجرة المكنسة) . من هذه النباتات مايسمى (لوسرن) فهى كالفول سواء بسواء . وهكذا نباتات كثيرة . وهذه كلها تندرج تحت فصيلة عامة تسمى (الفصيلة البقلية) أو العشبية . وتسمى أيضا (فصيلة بقل القدور) لأن كثيرا من هذه يستعمل فى أنواع الطبخ ليأكله الناس أمثال الفول . وبهذا تم الكلام على الفصيلة البقلية وفصيلة بقول القدور والراجل .

(شكل ٢٩)
تسعة من أعضاء التذكير متحدة عند القاعدة ، وواحد فقط حر مطلق الإسار ، وهو (و)

(شكل ٣٠)
مبيض الشجرة السماة بالمكنسة

(شكل ٣١)
قرن الفول مفتوحا (ا) النبات الصغير فى حبة الفول التى تجمع بين النبات الصغير الصفين اللذين سيكونان غذاء لهما عند ابتداء نموه

(شكل ٣٢)
الورد البرى (ا) الكأس (ب) التويج (ج) أعضاء التذكير (د) المبيض

الفصيلة الوردية

لنفصل الآن الكلام كرة أخرى على زهرة الكمثرى ، ولنوضحها إيضاحا أتم . وذلك بدراسة ماهو من فصيلتها ، وهى زهرة الورد (شكل ٣٢) وزهرها أكبر من زهر الكمثرى . فأنت ترى أن لها خمس ورقات تكون الكأس (ا) وهى متحدة معا عند القاعدة . وخمسا أخرى تكون التويج (ب) ثم عدد كثير جدا من أعضاء التذكير (ج) وأخيرا المبيض (د) المخبأ تحت الكأس وهو به ملصق (شكل ٣٢) .

إن أوصاف هذه الزهرة فى الورد البرى تنطبق على أزهار نباتات كثيرة . منها مايسمى (الفريس) وله ثمر كالتوت . ومنها شجر العوسج أو العليق . وشجر اللوز . وشجر الكرز : وشجر الخوخ ، أو البرقوق وهكذا . فأزهار هذه الأشجار كلها عند امتحانها تظهر على هذا النمط ؛ إذن هى فصيلة واحدة وإن اختلفت مظاهرها . إن أهم اختلافها إنما يظهر فى المبيض أولا . ثم فيما انقلب إليه المبيض وهو الثمر . ألا ترى أننا نرى بعض هذه النباتات من هذه الفصيلة تحمل فاكهة لحمية . وفى داخلها البذر . وذلك مثل الكمثرى والتفاح . وبعضها يرى فى داخل المادة اللحمية مادة حجرية بدل البذور : وذلك كالخوخ والكرز . والبرقوق وبعضها يحمل مادة لحمية قليلة مع لب . وذلك كاللوز ونحوه . ولما تساوت هذه النباتات فى تركيب أزهارها

جعلها كلها علماء النبات تحت اسم الأسرة الوردية ، لأن جميع أزهار هذه الأشجار مشابهات لزهرة الورد التى شرحناها فى تركيبها . هذه تريك أهمية بنية الزهر وتركيبها . فلنستمر فى بحثنا . ولنمتحن بعض هذه الأزهار الجميلة التى تظهر فى فصل الربيع ذهبية أزهارها أيضا كهيئة أزهار الكشرى التى تقدم شرحها . وهى أسرة الورد البرى المتأنق ذو الزهر الأصفر . وهو بالانجليزية (كوسلب) . شكل ٣٣ :

قال المؤلف : إنه يكون كثيرا فى مراعينا فى فصل الربيع . فانظر الزهر فإنك تجد فيه خمس ورقات تكون الكأس متحدة معا (ا) ثم خمسا أخرى متحدة أيضا عند قاعدتها لتصور أنبوبة طويلة جميلة فلنفتح هذه الأنبوبة (شكل ٣٤) إننا نجد فى داخلها خمسة أعضاء التذكير ملتصقة بجانب الأنبوبة (ج) وعند أسفل هذه الأنبوبة ترى المبيض (د) منفصلا يحمل فوقه حبلا ليفيا طويلا . وهذا المبيض هو الذى يصير ثمرة أو غلافا للبذور . وهذا الغلاف حينما يبلغ النبات أشده . وتكمل أيامه ينشق من أعلاه ويكون أشبه بالصندوق الحقيق (شكل ٣٦) . ومثل ما قلنا فى الورد البرى نقول فيما كان على شاكلته ، وهى كثيرة لا حاجة لإيرادها اكتفاء بما قدمناه . فهذه كلها تسمى (أسرة الورد البرى) أو (الورد المتأنق) انظر هذه الأشكال :

(شكل ٣٣)

الورد البرى . أو الورد المتأنق (ا) الكأس (ب) التويج

(شكل ٣٤)

(ج) أعضاء التذكير (د) المبيض

(شكل ٣٥)

(د) المبيض

(شكل ٣٦)

ثمرة نبات من هذه الفصيلة يسمى باللغة الإنجليزية: بيمبرنل

خلاصة هذا المقام

لما وصلت إلى هذا المقام قال صاحبى : لقد طال بنا القول ونحن الآن فى تفسير آية من سورة النبأ . وهى : «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا» فاذا لم يختصر القول تضيع الفائدة وينسى الناس أصل الآية . وإنى أخاف أن كثيرا من الناس حين يقرءون هذه العجائب ينسون أصل الموضوع كما نسى كثير من جهلة المسلمين فى العصور المتأخرة أصل الدين وهو القرآن والسنة ونور النبوة بعلوم اللغة العربية ، أو بفروع الفقه ، ومن ضل فى ذلك يقال له : (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فأنا الآن أخاف أن تنسى بعض النفوس أصل الموضوع ويدخلون فى تفصيل النبات وهم ساهون لاهون .

فقلت ياصاح : ليس كل امرئ بقارئ لهذا الكتاب . فالنفوس الضعيفة تنفر منه . وأيضا أنا كنت عزمت فى نفسى أن أقتصر على ماذكرت هنا وأرجئ الكلام على بقية أقسام النبات وبهجة جمالها إلى (سورة عبس) عند قوله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض

شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم»
ولكنى لا أذر هذا الموضوع اليوم حتى أكتب عليه ماجاش بصدرى من بهجة الجمال العلمى والمنهج الحكمى فأقول مستعينا بالله :

ينحصر النبات فى ثلاثة أقسام : الشجر والشجير والأنجم . وهى مالا ساق لها . وهذا الحصر فيه غموض فلذلك عدلوا عنه إلى أنه إما سنوى . وإما ذوسنتين وإما ذوسنين كثيرة . وهذا أيضا لم يكن كافيا فى تقسيم النبات لما ورد عليه من اعتراض بتدخل الأقسام فى بعضها ، ولم يجد العلماء أساً عليه يبنى تقسيم النبات مثل الزهر وثمره وحبوبه ، فقسموه أولا من حيث بذوره إلى ذى الفلقة الواحدة وإلى ذى الفلقتين ، فذوات الفلقة الواحدة منها : البصل ، والثوم ، والكرات البلدى ، والكراث أبو شوشه ، والهليون ، والصبار ، والنخل ، والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة والشوفان ، والشيلم وغيرها .

وذوات الفلقتين منها : الكرنب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والكرز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم . والتبغ . والبطاطس والفلفل والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحية ، والتمر هندى ، والخروب ، والسنامكى ، والفول البلدى والفول الرومى ، والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص والفول السودانى ، واللوبية ، والبسلة واللبلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، والقطن ؛ والبامية ، والحبازى ، واللوف والحنظل .

وقد جاء فى هذا المقام بعض ذلك . ثم إن الزهرة إما تامة التركيب كزهرة الكمثرى فيكون لها كأس وتويج وأعضاء تذكير وأعضاء تأنيث . واما ناقصة التركيب فلا يكون لها كأس ، أو ينقصها التويج ، أو هما معا كزهرة البندق . ومن الأزهار مايكون ذكرها وأنثاها فى شجرة واحدة كالذرة . ومنها مايكونان فى شجرتين إما فى قطرين متباعدين فلا ثمرة لهما كما فى الصفصاف . وإما متقاربين فلهما ثمر كالنخل . وسأستوفى بقية هذا المقام فى (سورة عبس) فارتقبه .

بهجة العلم وجمال الحكمة فى هذا المقام

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . إن العلم أجل سعادة . وإن الجهل هو العذاب المهين .

رباه : نعيش فى هذه الأرض ونحن حيارى لاندرى مايراد بنا . تراك ملأت أرضنا من الزروع والأشجار والحب والفاكهة . ونحن نأكل ولكننا غالبا غافلون . السماء فوقنا والهواء وضوء الشمس وضوء الكواكب والسحب ، وهكذا البحار حولنا والأمم والممالك . وكل منا بنفسه مشغول . وأنت الذى أردت أن تشغله . لأن أكثر الناس لم يستحقوا أن يفهموا هذا النظام . لذلك شغلتهم بأنفسهم ليحافظوا عليها . وهم عن العلم والحكمة مصروفون .

أذكر أنى كنت فى زمن الشباب والفتوة أجلس فى الحقول وأتأمل زهر الفول المشبه شكل ٢٩ وما بعده إلى شكل ٣١ ولكنى ما كنت أفهم فيه شيئا : غاية الأمر أنى أنظر ظواهر اللون والشكل وأنا عن الحقائق بعيد .

ياسبحان الله : تأكل الحبوب كالفول وتغذى به دوابنا وتكتفى بهذا ؛ فأى فرق إذن بين الإنسان والحيوان ؟ نعم هناك فرق واحد : وهو أن الإنسان أكثر شغلا وتعبا ونصبا من الحيوان مهتم بالنهار ؛ مفكر بالليل : فعلينا النصب ولدوابنا أن تأكل ماتشاء . فأنا اليوم أحمد الله على نعمة العلم ونور الحكمة .

نظرة فى زهرة شجرة المكنسة والفول

وخواطرى حين رسمتها فى هذا المقام

لقد تقدم عند شرح هذه الزهرة أن أعضاء التذكير عشرة ، وأن هناك واحدا منها فى الرسم مرتفعا إلى أعلى : والتسعة الباقية منضمة غير مرتفعة ، ولما رسمتها فى هذا المقام خطر لى مايأتى :

لقد نامت أعضاء من هذه العشرة والعاشر منها ارتفع إلى أعلى ، إلى ماذا يشير هذا النظام . إن هذا العضو المرتفع فى نحو الفول إلى أعلى يقول بلسان فصيح : ياأهل الأرض . أنتم لاتفكرون إلا فى الأمور الخاصة بشهواتكم . فتسعة أعشاركم ، بل ٩٩ فى المائة منكم ، بل ٩٩٩ منكم لايفكرون إلا فيما حولهم وفى الأمور الشهوية .

أيها الناس : خذوا حذركم . أيها الناس ، اقرءوا هذه الآيات ، إن الله لم يذكر : «لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا» إلا بعد أن قدم مقدمة بذكر الأرض والجبال والليل والنهار والسموات والشمس والسحاب والمطر ، وهو لم يخلق لكم هذه الحبوب ولا هذه الفواكه إلا لتذكركم بالعلويات ، والعلويات مذكرات بى . فأنتم بين أمرين : إما موت بالحياة الحيوانية كأعضاء التذكير إخوتى المنضمات ، وإما حياة بالنظرات العلوية كحياتى أنا ، إن انتصابى بين إخوتى أعضاء التذكير ذكرى لكم ألا تقفوا عند العوالم الأرضية فليس حب الفول بقاصر فى تكوينه على الأرض . فللشمس وللهواء وللسحاب وللمطر ولجميع العوالم العلوية أقوى الأثر . بل لولاها لم يكن طعام ولا شراب .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم والحمد لله رب العالمين . انتهى خطاب عضو التذكير المرتفع فى زهرة أمثال الفول ، وسيتم هذا البحث كما قدمناه فى (سورة عبس) إن شاء الله تعالى . وبهذا تم الكلام على (سورة النبأ) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة النازعات

هى مكية

آياتها ٤٦ — نزلت بعد سورة النبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى * ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) .

اعلم أن الله عزوجل برهن على البعث فى السورة السابقة بما نشاهد من أحوال الحيوان فى مهده وانطلاقه. ثم أبان كما شرحته لك العذاب الذى يلازم النقص . والنعيم الذى يلازم الكمال ، وقد بينا أن عالم النبات والحيوان والإنسان درجات . وأن درجات الأرواح بعد الموت أشبه بتلك الدرجات ارتقاء مرتبة فوق مرتبة وأبنا هناك أن العذاب والنعيم ماديان ومعنويان . وقدم الماديين على المعنويين على سبيل الارتقاء الرتب فصار العذاب قبل النعيم كما كان الحيوان أقل من الإنسان . والنبات أدنى من الحيوان وأسبق منه . هكذا أتبعه بالعذاب المعنوى والنعيم المعنوى بالحرمان من القرب الإلهى وبالوصول إليه وإلى هنا كان الإنسان أشبه بالملك فجعله صفا كصف الملائكة . وحينئذ يرى الجاهل الكافر تلك المرتبة فيتقطع أسفا وحسرة ، ويرى ذلك المقام العظيم فيقول «ياليتنى كنت ترابا» متحسرا على ذلك الملك والنعيم العظيم ، وهذا هو ملخص (سورة النبأ) . فلما انتهت نفس الإنسان إلى هذا المقام الرفيع بحسب الترتيب والتدريج الطبيعى كما يشاهد فى المحسوس أخذ سبحانه فى هذه السورة يذكر تدرج الروح فى الكمال حتى تكون مثل الملائكة المدبرين لهذا العالم . وجعل ذلك قسما يقسم به. واعلم أن الأرواح الشريفة القدسية المذكورة فى السورة السابقة هى التى أدركت معايب هذا العالم وعرفت الحقائق فاشتاقت للقاء الله والخروج من هذه المادة ، وضدها هى التى قال الله فيها ، « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» . وفى الحديث ، «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» فهذه الأرواح العاشقة لله الزاهدة فى الدنيا تتجرد عن علائقها بالدنيا فتنزع غرقا : أى إغراقا بشدة لتخرج من الأجسام وتنشط : أى تخرج منها ، ثم تسبح فى ذلك العالم ، والسابحات منها ثقيلة ومنها خفيفة لقلة العلائق بالدنيا . فهذه هى السابقات سبقا ، فأقسم بها لأنها أرقى من المتقلات التى لاتسبق ، وإذ ذاك تتولى تدبير العوالم بإذن ربها . وهى صفة الملائكة التى استعدت الأرواح لها فى سورة النبأ ، إذ جعلت صفا معها ، فانظر كيف رباها فى السورة السابقة كتربية الحيوان ، ثم أخذ يربيها فى الحال الروحية حتى انتهى بها إلى منصب الملائكة وهى تدبير الأمور ، ولعلك هنا تقول أين البرهان على هذا . أنت فى السورة المتقدمة جعلت الدليل خطابيا اقناعيا لا برهانيا . وهنا ليس عليه دليل ولاشبه دليل ؟ أقول : الجواب من وجهين : (الوجه الأول) أن هذا دين والدين يؤخذ بالتسليم فلا برهان ، وهذا جاءنا بطريق السمع فلا فلسفة ولا فيلسوف ولا برهان ولا مبرهن . (الوجه الثانى) أن أقول لك ماجاء فى إخوان الصفاء : إن الأساتذة والأدباء والعلماء إذا ماتوا كان كل عملهم إنما هو الإرشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم ، وهذا التعليم الإلهامى يرقى الروح لعملها ، والحى للتعلم فهو نافع للحى والميت .

وقال الفخر الرازى فى هذا المقام : أليس أن التلميذ قد يرى أستاذه فى المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها ، أليس إن الابن قد يرى أباه فى المنام فيهديه إلى كنز مدفون : أليس إن جالينوس قال : كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسى فرأيت فى المنام واحدا أرشدنى إلى كيفية العلاج :

وقال أيضا : أليس إن الغزالى قال : إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن إنسانا شابه الإنسان الأول فى الروح والبدن فإنه لايبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير ، فتسمى تلك المعاونة إلهاما ، ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة : انتهى .

ولعلك تقول : هذه لاتقنعنى فهل العلم الحديث يؤيد هذا . أقول : نعم إنهم أغرقوا فى هذا العلم إغراقا ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين ، فلأسمعك ماقاله أكبر علماء الطبيعة فى بلاد الانجليز فى خطبة خطبها فى مجمع العلماء ؛ فمما قاله مايأتى :

وليس من العقل أن يقال إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد ، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض ، أقول ذلك مستندا إلى أدلة علمية ، لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لايزالون موجودين إذ أنى قد ناجيتهم . ثم قال : إننى مقتنع بأننا لا نضمحل عند الموت ، وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ، ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير .

ومن قوله أيضا فى نفس الخطبة : «وعندى أن فى الوجود كائنات نسبتنا إليها كنسبة النمل إلينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيئا» انتهى ماأردته منه ، والخطبة بتمامها فى سورة آل عمران فى مقامين فارجع إليها هناك إن شئت .

وهذا بعينه ماجاء فى هذه الآية أن أرواحنا تكون مدبرات أمرا ، وتهتم بهذا العالم ، ويكون هاهنا اتحاد العلم العصرى والعلم القديم والقرآن ؛ بل إن هذه الفكرة يقول بها آلاف آلاف من أوروبا وأمريكا وهم من أكابر الحكماء والمفكرين .

أقول : فهاهنا أقسم الله بالنفوس الفاصلة من النوع الإنسانى ، إذ تفارق الشهوات فى حياتها . وتنزع عنها كما تنزع عن الأبدان عند مفارقة العالم الأرضى . غرقا : أى نزعا شديدا . يقال أغرق النازع فى القوس فالنزع عن الشهوات والنزع عن الأبدان ما أشدها . فتنشط إلى عالم القدس والملكوت فى حال نزاعها فى الحياة وبعد مفارقة الأبدان . وتسبح فى مراتب الارتقاء العقلى والنفسى فى الحياة الدنيا فتسبق إلى الكمال وهكذا تسبح فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها وكالها من الملكات للناس فى الحياة . ومن المدبرات أمرا عند الارتقاء فى عالم الملكوت الأعلى بعد الموت .

انظر إلى قوله تعالى فى (سورة المرسلات) فانه أقسم بالملائكة وبالنفوس الشريفة كالأنبياء والعلماء المصلحين . فانهم مرسلون للعرف أى للخير . فالملائكة يؤدون الوحى إلى الأنبياء . والإلهام إلى الكاملين التابعين لهم . والأنبياء والكاملون يكملون غيرهم . فهؤلاء يعصفون الباطل عصفا فيكون هباء منثورا . وينشرون العلم والحكمة بين الناس فيفترق الناس فريقين . ويلقون الذكر لمن يفقهون . فهناك نزول الأمر من الأعلى إلى النفوس الإنسانية لترقيتها . وهاهنا فى هذه السورة أخذ يذكر ثمرات الطوائف المرسلات للتكميل والتكمل . وبين أن نتائج ذلك أن تخرج نفوس من العالم الأرضى إلى العالم السماوى فتخرج عن الأبدان والشهوات ، وتكون نشطة فى إسراعها فى طاعاتها وفى مراقيها . وهكذا تسبح فى المعانى والمعالى وتسبق فى الحالين فتكون مدبرات للأمور فى الأرض بتعليم الأمم وفى العالم الأعلى بعد الموت لنظام العالم . هذا هو مستقبل الإنسان : نزول العلم من العالم الأعلى على قلوب الأنبياء إلى الناس . ثم نزوعهم وسبقهم وارتقاؤهم . اقرأ (سورة النبأ) وانظر أليس يقول الله فيها انه أنزل من السحاب ماء فأخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا . ثم أعقبه بقوله : « إن يوم الفصل كان ميقاتا » وانظر هنا وفى (سورة المرسلات) أليست

قصة المرسلات عرفا أشبه بالمطر . فالمطر للخير . والأرواح المرسلات للخير . فالمطر للخير الحسى . والأنبياء والملائكة والعلماء للخير العقلى . ثم انظر كيف يقول هنا : إن الروح تنزع وتنشط وتسبح وتدبر . أليس ذلك نظير ماهناك . «لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا» .

سبحانك اللهم أريتنا العجائب والبدائع . أنزلت للمطر للحب والنبات . وأنزلت العلوم بالوحى والإلهام والفكر لارتقاء الأرواح . فالمطر للحب والثمر والجنات . والعلم والوحى والحكمة لإكمال الأرواح فى حياتنا وفى معارج الحياة الأخرى . وكأنه بهذا يقول لنا . إذا كان المطر نتيجته محسوسة لديكم فالقياس الإقناعى يفيد أن نتيجة العلم معنوية عقلية . لأن النتائج على حسب المقدمات . وإذا كان للمطر نتيجة فللعلم والحكمة نتيجة . وكل النتائج تتبع المقدمات وتكون على شاكلتها . أقسم الله بهذه وجواب القسم محذوف . أى لتبعثن . أو لتحاسبن (يوم ترجف الراجفة) الرجف شدة الحركة : أى لتبعثن يوم تتحرك النفخة الأولى حركة شديدة وتضطرب بها الأرض حتى يموت كل من عليها . وصفت بما يحدث بحدوثها حال كون الراجفة (تتبعها الرادفة) أى التابعة . وهى النفخة الثانية لأنها تردف الأولى . فالأولى لإماتة الخلق والثانية لإحيائهم (قلوب يومئذ واجفة) مضطربة شديدة الاضطراب . وهذه صفة لقلوب . والخبر قوله (أبصارها) أى أبصار أصحابها (خاشعة) ذليلة لهول مانعاين . ومنكرو البعث فى الدنيا (يقولون) استهزاء وإنكارا للبعث (أئنا لمردودون فى الحافرة) أى أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا . يقال رجع فلان إلى حافرته . أى طريقته التى جاء فيها لحفرها : أى أثر فيها بمشيه . فالحافرة بمعنى المحفورة : فهم ينكرون رجوعهم إلى الحياة الدنيا بطريق الاستفهام مع الاستهزاء والاستغراب وإظهار التعجب . ثم يقولون : أنرد إلى الحياة بعد أن نصير عظاما بالية . يقال : نخر العظم فهو نخر وناخر . وقد قرئ نخرة وناخرة . وهذا زيادة إنكار لأن الاستبعاد يكون أعظم إذا بلى العظم . وإن صحت هذه الرجعة فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها فياويلنا يوم القيامة المزعومة . وهذا أيضا زيادة استهزاء واستخفاف . وهذا هو قوله (أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذن كرة خاسرة) أى رجعة ذات خسران . فرد الله عليهم قائلا . لاتستصعبوها فما هى إلا صيحة واحدة وهى النفخة الثانية فإذا هم أحياء على وجه الأرض . وهذا قوله (فإنما هى زجرة واحدة فإذاهم بالساهرة) أى بوجه الأرض أحياء بعد أن كانوا فى باطنها أمواتا . والساهرة الأرض البيضاء المستوية ، سميت بذلك لأن سالكها يسهر خوفا :

ولما كان ماتقدم فى هذه السورة إجمال ماعليه القوم من التكذيب بالبعث . وقد أقسم الله لهم بأشرف العوالم أن البعث حق أتبعه بنمطين يهديان سواء السبيل [النمط الأول] ذكر قصص موسى وهرون عليهما السلام . وكيف تلطف موسى فى دعوة فرعون . وأظهر مكارم الأخلاق فى هدايته . وسعى فى طهارة نفسه وألقى عليه شعاعا من نور العلم : وبصيصا من إشراق الحكمة . عسى أن يخشى ربه بما وقر فى نفسه من العلم والحكمة . فعصى وتولى وأدبر عن الحق وادعى الألوهية بدل الخشية والخضوع . فعذب فى الدنيا بالغرق وفى الآخرة بجهنم [النمط الثانى] تلطفه صلى الله عليه وسلم بدعوة قومه . فاذا أرى موسى فرعون العصى واليد وغيرها فان محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو قومه بالنظر إلى السماء وعظمة خلقها ، ورفعة بنائها وإعلاء سقفها ، وحسن نسقها ونظامها ، وإحكام ظلامها وضيائها فى أوقات معينة . وتمهيد الأرض للسكنى والحياة فيها بخلق الماء والمرعى وإثباته الجبال فيها فأعم دعوة موسى بخوارق العادات كالعصا واليد . ومحمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بالنظر فى العوالم العلوية والسفلية . فاذا كذب فرعون بعد تلطف موسى فى دعوته فلا غرابة إذا كذب كفار مكة بعد التلطف فى دعوتهم . وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وبشارة بأن عاقبته النصر وعاقبة أعدائه العذاب فى الدنيا والآخرة كما كان ذلك لموسى عليه السلام .

﴿ الكلام على النمط الأول ﴾

قال تعالى (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى)

يقول الله : أليس قد أتاك حديث موسى فيسليك على تكذيب قومك مع تلطفك معهم فى الدعوة . فسيصيبهم ما أصاب فرعون وقومه ، يقول : هل أتاك خبر موسى (إذ ناداه ربه) دعاه ربه (بالواد المقدس) المطهر (طوى) اسم للوادى (اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى عـلا وتكبر وكفر بالله (فقل هل لك إلى أن تزكى) أى تتطهر من الشرك والكفر والمعاصى فيزول الشر من ظاهرك ومن باطنك فتستعد للعلوم والمعارف وتكمل بها ، وهذا قوله (وأهديك إلى ربك) أى إلى العلوم والمعارف والعبادات (فتخشى) عقابه ، لأن الخشية تبع العلم بجلال الله وجماله ، وهما بعد تهذيب النفس . فهذه ثلاث درجات : تهذيب فكمال على وعملى فخشية الله بسبب الاستغراق فى الجمال الإلهى فيخشى إذن من الحرمان والقطيعة . فلما أمر الله موسى بذلك ذهب إلى فرعون وبلغه ذلك (فأراه الآية الكبرى) وهى جميع المعجزات والآيات . جعل الجملة آية واحدة لأن غايتها واحدة (فكذب) موسى (وعصى) ربه بعد ظهور الآيات وتحقق الأمر (ثم أدبر) عن الطاعة (يسعى) أى حال كونه ساعيا فى إبطال أمره (فحشر) أى جمع السحرة (فنادى) بعناد (فقال أنا ربكم الأعلى) أى لارب فوق ، فأنا فوق أبى الهول ومن تحته من التماثيل المنحوتة ، إن أسرارها كلها حولت إلى ، وأنا الوارث لجميع مالهم من المكانة والقدرة (فأخذه الله نكال الآخرة) أى عاقبه الله عقوبة الآخرة بالإحراق (والأولى) أى والدنيا بالإغراق ، فأخذ بمعنى نكل : أى نكله الله تنكيل الدارين بالعذابين ، فالنكال كالسلام ، فهما بمعنى التنكيل والتسليم (إن فى ذلك) أى فى الذى فعل بفرعون حين كذب وعصى (لعبرة) لعظة (لمن يخشى) أى يخاف الله .

جوهرة فى قوله تعالى : هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى

مع قوله تعالى فيما يأتى : « ونهى النفس عن الهوى » وقوله هنا « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى »

وقوله فى آخر السورة : « إنما أنت منذر من يخشاها » ؟

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون سهلا لينا رءوفا فقال : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وذكر هنا أمره سبحانه لموسى عليه السلام أن يعامل فرعون الطاغى معاملة الرجل ضيفه فى حسن التلطف وجمال القول ، ويخاطبه بالاستفهام للفيد العرض لا بالأمر ولا بالنهى ، فكما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تزورنا ؟ يقول موسى لفرعون : هل لك ميل إلى أن تكون طاهرا مما لاينبغى وأن أرشدك إلى مقام العرفان فتعرف جلال الله وجماله اللذين يستتبعان الخشية منه ، فالخشية إما أن تكون من الخوف من العقاب ، وإما أن تكون من كمال الخوف وروعة جلاله وجماله ، والعلم من النوع الثانى ، فأنت أحق بالانصاف به ، ويقرب منه : « وأما من خاف مقام ربه » وأما قوله : « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » وقوله فى آخر السورة : « إنما أنت منذر من يخشاها » فالأولى تحتمل الأمرين ، والثانية خاصة بالنوع الأول .

واعلم أن الله عز وجل بهذا القول علمنا الأدب والرفق واللطف فى المعاملة والمجاملة فى القول حتى مع الفاسق والشرير والطاغى إذا أردنا أن نهديهم إلى طريق الصواب ، وإنه عز وجل جعل العالم الأرضى الذى نعيش فيه محك العقول الإنسانية ومدار امتحانها ، ومحور تهذيبها ، ولم يجعله عالم أقدار خاصة

بغير نظام. فلو أن التساهل فى ترك الأسباب سائغ فى الحياة الدنيا لكان ذلك عند الأنبياء المؤيدين بالوحى وبالنصر ولكنه تعالى عمم النواميس فأوجب على الأنبياء أن يسيروا على النواميس المعروفة فى الوجود الشائعة فى العرف بحيث يفعلون مايستحسنه العرف ويقبله العقل ، ولا يتكلون على أنهم مرسلون من الله .

ولما كان فرعون عظيما فى قومه لم يخاطبه مخاطبة العبيد بحيث يجعل خشيته لله كخشية العبيد الناجمة من الخوف من ساداتهم ، لامن الحب ، بل أعظم قدره فقال « وأهديك إلى ربك فتخشى » وهذه الخشية هى المذكورة فى قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أى الذين أدركوا حسن صنعه وجمال خلقه المذكور قبل ذلك فى قوله : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » ولقد سمع فرعون من موسى مثل ذلك إذ قال له كما فى (سورة طه) : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وأولوا النهى هؤلاء هم الذين يخشون الله بالعلم بصفاته وجلاله ، فأنا يافرعون أدعوك إلى الخشية العليا الناجمة من العلم لامن الخوف ، وهذا غاية اللطف والأدب والمجاملة والرفق . وأى جمال أبهج من هذا أن يجعله فى مصاف ذوى الحكمة لاذوى المهانة والذلة وضعاف العقول ، هذا سر من أسرار هذه الآية . قال الشاعر :

أحبك إجلالا ومابك قدرة ... على ولكن ملء عين حبيبها

ولقد قررنا فى (سورة البقرة) أنه لا حب إلا بعد علم ، فلا عاشق ولا محب إلا بعلم ، فالعلم أصل الحب ولا محب فى الدنيا إلا بعد العلم بصفات محبوبه ، وكلما ازداد علما بجماله وكماله ازداد حبا له ، فراجعه هناك .

واعلم أن هذا النمط من التربية هو الذى يسعى له الإنسان الآن : أن يكون الصبيان فى أول أمرهم مضطلعين بالأخلاق القويمة المبنية على الإقناع والفهم لاعلى العصا فتكون الهداية تتبعها الخشية ، فأما الخشية من أجل العصا فإنها مذهبة لنخوة الصبيان مضيعة لشممهم فلا يكونون رجالا أقوياء النفوس فتتخطفهم الأمم من كل جانب ، فلترب أبناءنا كما قال كتابنا ، وكما هو النمط الحديث الآن فى مدارس العالم قاطبة ، فلتكن الهداية والعلم والفهم أكثر الأوقات ، ولا تكن العصا إلا اضطرارا حتى يخشانا أبناؤنا خشية إجلال وحب لاخشية خوف وجبن ، هذا هو سر القرآن وحسن بيانه وجماله وجلاله ، وبهذا تم الكلام على النمط الأول ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ النمط الثانى ، وهو فصلان ﴾

الفصل الأول : فى تعداد مجامع النعم وعظمة خلقها

قال تعالى (أأنتم أشد خلقا) أصعب خلقا وإنشاء (أم السماء) أشد خلقا ولما كان هذا يحوذه البيان أردفه به فقال (بناها رفع سمكها) جعل مقدار ارتفاعها الذاهب فى العلو رفيعا (فسواها) فصدها مستوية بلا شقوق (وأغطش ليلها) أظلمه (وأخرج ضحاها) وأبرز ضوء شمسها ، والمراد نهارها ، عبر عنه بالضحى لأنه أكمل أجزائه نورا (والأرض بعد ذلك دحاها) بسطها ومهدها للسكنى وكانت مخلوقة غير مدحوة ، ثم فسر البسط والدحو فقال (أخرج منها ماءها) بتفجير العيون (ومرعاها) كلأها (والجبال أرساها) أثبتها ، فعل ذلك (متاعا لكم ولأنعامكم) أى تمتيعا لكم ولمواشيكم .

ههنا (ثلاث لطائف : الأولى) فى قوله تعالى : « رفع سمكها » (الثانية) فى قوله تعالى « فسواها » (الثالثة) فى قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » .

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « رفع سمكها »)

اعلم أن الله خاطبنا على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات بما يحدث العلم فى النفس فتكون الخشية عن طريق العلم بما فى السموات وما فى الأرض ، فهل لك أن أذكرك بسمك السماء ، تنظر فى الليالى المظلمة ترى بناء مكورا بحسب ما يرى أمام العين مرصعا بالنجوم الجميلة المنظر البهجة الأشكال الحسنة النظام ، فترى فى منظرها الظاهرى أحسن الأشكال ، وتطلع بالعين المجردة على نجوم مختلفة الأقدار قد أوصلها العلماء إلى نحو ستة أقدار بالعين المجردة وازدادت الأقدار بالآلات إلى عشرين قدرا مما لم يره الإنسان ، والذى يهمنا فى هذا المقام بعد السماء جهة العلو وما مقدار أبعاد السماء فى الارتفاع .

لقد بان جمال الله فى هذا الزمان أكثر من كل زمان ، فإذا قال بعض القدماء : إن المسافة بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، فهذه المسافة الآن أصبحت فى العصر الحاضر ليست شيئا مذكورا ، فالعلم اليوم أرانا جمال الله فى ارتفاع سمائه وذهابها فى العلو ، فإذا عرفت ماذكرناه فى هذا التفسير نقلا عن التقرير المرفوع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا سنة ١٩٢٣م فى سورة (آل عمران) أدهشك جمال الله فى العالم السماوى فلأذكر قليلا منه الآن مما يناسب المقام .

أعلم أن النور يسير فى الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلومتر ، فتأمل بعقلك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين فأكثر ، ثم انظر كيف تكون الحال إذا كانت خمسنا معتبرة أنها قريبة جدا بالنسبة للكواكب التى نراها ليلا ؛ إننا لا نصل إلى الشمس إذا ركبنا قطارا بخاريا يجرى ليلا ونهارا إلا بعد ما يقع نحو ٣٥٤ سنة تقريبا والضوء يقطع هذه المسافة فى ٨ دقائق وثمان عشرة ثانية ، فما بالك بالأجسام النيرة التى يصل ضوؤها إلينا فى مليون سنة ، وأربعمائة وخمس وثمانين سنة فى آخر كشف ، إن قلة الدفع تصل إلى الشمس من الأرض فى نحو ١٢ سنة ، وقلنا إن الضوء يقطع هذه المسافة فى دقائق فياليت شعرى ماذا يقطع الدفع من الزمن والقطار من السنين حتى يصلا إلى ذلك البعد التاسع فاذا كانت قلة الدفع فى اندفاعها سنة ونصف سنة تقطع ما يقطعه النور فى ثانية ، وإذا كان القطار يقطع فى ثلاثين سنة تقريبا ما يقطعه النور فى ثانية فكيف تكون الأبعاد التاسعة التى تزيد على ألف ألف سنة بسير النور ، أعنى أنك تعلم الآن أن بعض الأجرام السماوية التى نراها والتى لا نراها بعيدة بعدا لا يتصوره العقل ولا يحصيه الحساب ، ويجرى إليه النور فى أبعد من ألف ألف سنة .

أفلست أيها الذكى الآن أحسست فى نفسك ببهجة وإعظام وإجلال لشىء هذا العالم وحصلت عندك خشيته وهذه الخشية هى الحاصلة من العلم بالصنعة .

حكاية فلاح مصرى

قال لى أحد الفلاحين من مديرية الشرقية وهو يحادثنى : لقد سول لى الشيطان مرة أن أطلق الماء من النهر على حقل عدو لى فأغرق أرضه لأهلك زرعه ، فما نزلت إلى النهر رأيت لمعان النجوم فى الماء فهالنى الأمر وقلت : هل يليق أن أعصى من أحسن هذا الخلق وجمل شكله وأرانى رقصه فى الماء وبهجته وحسنه وجماله يلمع فى الماء ؟ لا لا ، إنه الخالق العظيم فليس لى أن أعصيه اهـ .

هكذا كلام الفلاح المصرى لى ، ولكن أنت عرفت مالا يخطر بباله هو رأى أثر الكواكب فى الماء

كأنها دراهم منثورة فيه ، ولكن أنت رأيت عظمتها وبعدها الذى لا يحصى ، هذا هو معنى قوله تعالى : «رفع سمكها» فها أنت ذا عرفت تلطف الله معنا على لسان رسوله وإنه بهذه الآيات يريد أن يرفعنا إلى مستوى عالم الملائكة بالعلم والعرفان فتكون خشيتنا علمية لا خشية الجاهلية المبنية على التخويف أليس هذا فى اللطف كما قال : « فهل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى » . فهاهنا تلطف بالبحث العلمى لتكون خشيتنا كخشية الملائكة وكخشية الأنبياء كما فى الحديث : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له » وفى (سورة البقرة) و (آل عمران) وغيرهما من عجائب السموات ما فيه غنية لذى لب وما ذكرناه هنا كاف لهذا المقام . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

(اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « فسواها »)

اعلم أن التسوية فى كل شىء بحسبه وهذه النجوم المشرقة ليلا لا حصر لها وما عرفه العلماء منها قليل جدا ، وإن وصل إلى مئات الملايين ، وهذه النجوم التى لا تحصر بينها نظام ولها حساب ، حساب فى حركاتها وحساب فى أبعادها ، فكل شىء هناك بنظام ، ولأذكر لك منه نموذجا فى أقرب الأشياء إلينا ، فانظر إلى شمسنا وإلى السيارات حولها ولنفرض أن تسعة رجال أوقفوا أمام هرم الجيزة مثلا فجعلنا الأول منهم بجانب الهرم مباشرة والثانى يبتعد عن الهرم بثلاثة أذرع والثالث ٦ والرابع ١٢ والخامس ٢٤ والسادس ٤٨ والسابع ٩٦ والثامن ١٩٢ والتاسع ٣٨٤ ذراعا .

إذا عرفت هذا المثل فاعلم أن الشمس هى الممثل لها بالهرم والأشخاص التسعة المذكورون أمثال لعطارد والزهرة والأرض والمريخ ونجم قد قامت قيامته وبقيت آثاره والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون فهذه الأجرام التسعة ترتيبها فى الأبعاد على هذا المقياس ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ الخ بحيث تكون الأبعاد على هيئة التوالية الهندسية المعروفة فى الحساب التى فيها من العجائب ما يدهش العقل ويحير اللب كأن يكون حاصل ضرب الطرفين فيها يساوى حاصل ضرب الوسطين إلى آخر ما هنالك فى الحساب (انظر هذا المقام فى سورة البقرة) .

وهذه هى المسألة التى اشتهرت فى حساب بيوت الشطرنج وكيف كان عدد حبات القمح المجموعة باعتبار الأربعة والستين بيتا لا يمكن استخراجها من جميع ممالك الأرض ، فاذا جمع ١ + ٢ + ٤ + ٨ + ١٦ وهكذا من حبات القمح إلى ٦٤ عينا كان هذا القمح غير متيسر الحصول لأهل الأرض قاطبة كما أوضحته فى كتابى (الفلسفة العربية) .

انظر إلى حسن الصنع الإلهى كيف رتب أبعاد السيارات عن الشمس بهذا النظام الحسابى العجيب المبنى على حساب التوالية الهندسية .

هذا معنى قوله تعالى « فسواها » ، أليست هذه هى التسوية ، نجوم نراها منثورة فى السماء فلا ندرى هل بينها مناسبات ، فنرى بالعلم أن حساب أبعادها بغاية الدقة والنظام ومدهشات الحساب ، ولعلك تقول هذا النظام لم أقرأه إلا الآن وكأن الناس محرومون من هذا النظام إلا من عرف ما قلته لنا الآن .

أقول على رسلك إن الله كما أمر موسى أن يتلطف فى التبليغ قدم هو حسن اللطف والبلاغة فى فعله ، ألا ترى أننا إذا وقفنا ليلا فى الفلاة ونظرنا نجوم السماء فإننا نشعر بلذة لا تفوقها لذة حينما ننظر إلى السماء فنراها قبة نظيفة مرصعة بالدرر الغوالى والنيرات الحسان ، ونرى هذا السقف المكور أملس نظيفا جميلا لا فروج فيه ولا شقوق ، وقد عجز الإنسان أن يقلد هذا السقف إلى الآن لحسنه وجماله وإشراقه وإبداعه فهذه هى التسوية الحسية ، نرى النجوم المختلفة الأبعاد من دقيقة بسير النور إلى يوم بسيره إلى سنة إلى مائة سنة ، إلى ألف سنة ، إلى ألف ألف سنة ، نرى هذه كلها بأبصارنا أنها فى مستوى واحد وسقف واحد

وأى لطف أبدع من هذا أن يجمع ما اختلفت أبعاده اختلافا بينا فيجعله فى مستوى واحد ليعرف ذلك العامة والجهلاء ولا يحرم عباده من البهجة بجمال صنعه ، وهذا أجمل اللطف وأبدعه . إذ يعلم الجهلاء والعلماء كل فى مرتبته فاذا رأى الجهال أن هذه القبة المرصعة جميلة ملساء نيرة فذلك يكون أشبه بما اعتادوه فى منازلهم من السقف المرفوع فى بيوتهم ، فأما العلماء فانهم يشاركون الجهلاء فى هذا المنظر البهج ويزيدون عليهم بما عرفته مما يهدم بناء النظر الظاهرى للجهال والعلماء على حد سواء ، فعلم الجهال كعلم الفلاح المصرى فى الحكاية السابقة بالنجوم فى الماء ، وعلم الحكماء قد عرفته . هذا معنى قوله تعالى : « فسواها » انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

(اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها »)

لابد لهذه الآية من تقديم مقدمة حتى يتضح معناها ، لأسمعك ماجاء فى علم طبقات الأرض ، فأقول ومن الله التوفيق :

لقد قال علماء هذا الفن إن الأدوار التى مرت على الأرض فى تكونها (سبعة أدوار : الدور الأول) إنها انفصلت من الشمس وهى كرة نارية فدارت حولها ، والنار متى تعرضت للجو أخذت تبرد شيئا فشيئا فالأرض فى أول أمرها كانت كلها نارا ، فالحديد والنحاس والصخور والطين كل هذه كانت نارا (الدور الثانى) صارت الأرض فيه مغلفة بطبقة من الصوان شديدة الصلابة ، وكان المطر إذ ذاك كبريتا وحديدا ونحاسا ورصاصا وذهبا وفضة وهكذا ، وهذه القشرة قدروا لها ثلثمائة مليون سنة (الدور الثالث) ظهر فيه الطحلب وأنواع الفطر وبعض الحيوانات فوق مارسب من الطبقات المختلفة الطينية ، ومن الحيوانات ظهرت أنواع من السمك لا وجود لها اليوم (الدور الرابع) برزت فيه الأشجار الخشبية والحيوانات صارت أحسن تركيبا وأكمل بنية من حيوانات الدور السابق ، وكان فيها حيتان لها ثديان وتماسيح يتجاوز قدرها ثلاثين ذراعا ، وفى نهايته انقرضت أنواع واستبدلت بغيرها (الدور الخامس) اهتزت الأرض وارتجفت لأن قشرتها تشققت فخرجت المواد الذائبة فى باطنها إلى ظاهرها وخرج من الطبقة الصوانية التى تلى كرة النار فى باطن الأرض هذه الجبال كأنها الأسنان ، والطبقات الأخرى فوق الصوانية كأنها اللثاة لها ، وبعد انقراض كل شىء تجددت أنواع من النبات والحيوان غير التى قبلها (الدور السادس) حصل طوفان عام للأرض بالنار الخارجة من باطنها فانقرض كل شىء وتكونت هناك طبقات يقال لها الطبقات الطوفانية ، وفى هذا الدور اكتسى القطبان بالجليد ، وكان ذلك فجأة (الدور السابع) العصر الحالى الذى تبع عصر الطوفان النارى ، وفيه استتبت السكينة على وجه الأرض كما ترى الآن .

هاأنا ذا قد لخصت لك مجموع الأدوار السبعة ، وقد ذكرتها فيما مضى من التفسير فى كل مقام بحسبه ، وتراها فى (سورة هود) ، فهل لك أن تسمع تطبيق الآية عليها ، وأن تتعجب من القرآن وبدائعه ؟ عجبا ، ألست ترى أن قوله : « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » لم يكن إلا فى العصر الصوانى لأن الأرض قبل ذلك العصر لم تكن إلا كرة نارية ، فهى إذن دائما مشتعلة أشبه بالشمس ، فاشراق الشمس عليها لايستبين فيه ليل ونهار ، لأن الليل والنهار إنما يكونان فى حال اكتسائها بقشرة غليظة لانور ولا نار فيها ، وهذه القشرة الحالية البالغة مائة كيلومتر التى هى كقشرة التفاحة بالنسبة للتفاحة معتمة فيكون نهارها فى الجهة المقابلة للشمس وليلها فى الجهة الثانية دائما ، فاغطاش الليل وإخراج الضحى قد ابتدأ من العصر الصوانى ، ولا زالت القشرة تعظم إلى وقتنا الحاضر ، فإذا كانت هى مائة كيلومتر فقطر الأرض كله ثلاثة عشر ألف كيلومتر ونصف القطر نحو النصف من هذا ، فبهذا يستبين لك كيف كانت القشرة كقشرة التفاحة والداخل كله لايزال نارا .

هذا تفسير قوله . « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » أى حينما ابتدأت الأرض أن ترى قشرتها الصوانية ، فظهر النهار فى جهة الشمس والليل فى الجهة الأخرى المحجوبة عن شعاعها ، والأرض نفسها معتمة القشرة ، ثم قوله : « والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها » لاجرم أن هـذا فى الدور الثالث والرابع ، لأن أول ظهور النبات فيهما . والدور الثانى الصوانى لا نبات فيه فليس فيه دحو للأرض وأما قوله : « والجبال أرساها » فهذا لم يكن إلا فى الدور الخامس ، وهو عصر ظهور الجبال من الطبقة الصوانية التى اخترقت بعض أجزائها الطبقات الأخرى فوقها وظهرت منها الجبال .

أليس هذا المقام مدهشا للعقول ، كيف يكون ترتيب هذه الآية على نسق ترتيب علم طبقات الأرض ؟ وكيف يتفق العلم الحديث وآيات القرآن ، بل أقول فوق ذلك بمثل هذا يكون الإعجاز ، وبمثل هذا ترتقى أمة الإسلام ، سيقرأ هذا كثير من الشبان والشيوخ ويدهشون إذ يرون نظم هذه الآية جمع علما بتمامه ، وهذا العلم له شأن عظيم فى الأمم المعاصرة ، ثم يعض الذكى المسلم على يديه حسرة وندامة ويقول : إذا كان هذا العلم الذى يقول أهله إن براهينه مشاهدة محسوسة هو هو نفس مافى القرآن ، فكيف عجز المسلمون فى العصور المتأخرة عن هذه العلوم ، أليس هذا العلم علمنا ؟ أليس هذا نص كتابنا .

فإذا قال الله : « وفى الأرض آيات للموقنين » فانا نقول فى ترتيب هذه الآية آيات للمسلمين حتى يكون الناسك منهم مؤمنا ؟ والجاهل منهم يحزن على ضياع حياته بلا رأى ولا هدى ولا كتاب منير ، وانظر كيف تضاربت أقوال علمائنا رحمهم الله فى مثل هذا المقام ، وجاء العلم الحديث فأفادنا أن قوله : « والأرض بعد ذلك دحاها » أصبح مبرهنا عليه فى العلم ، فالأرض كانت موجودة فعلا ولكن لم تدح ولم تنبت إلا بعد ذلك ، إن فى ترتيب الجمل فى القرآن معانى تشير إلى علوم ، وانظر إلى مذهب الشافعى إذ جعل أعضاء الوضوء مرتبة بترتيب ذكرها فى القرآن ، واستدل بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ، فإذا جعل إمامنا الشافعى رضى الله عنه أعضاء الوضوء مرتبة كترتيب الآية وجوبا فانا نقول وهذا علم طبقات الأرض أصبح مأخوذا أوله وآخره من ترتيب هذه الآية .

أما إن للمسلمين أن يدرسوا ، أما إن لهم أن يقرءوا القرآن بفهم ، أما إن لهم أن يدرسوا الكرة الأرضية التى نعيش عليها ويعرفون أولها وآخرها على مقتضى هذه الآية ، ولعمرى مامنع أمة الإسلام من العلم ونور الله الذى أشرق على الأرض إلا كبرياء بعض الكبراء والعلماء والخوف على مراكزهم أن تزول بظهور علوم لم يدرسوها ، فيحجبون العلم عن الناس ، وأن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء ، فليس لهذه الطائفة بعد اليوم من سلطان على المسلمين ، وسيرفعون الحجب وتظهر لهم الحقائق ، والله خير الناصرين .

إلى هنا تم الكلام على الفصل الأول من النمط الثانى ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى من النمط الثانى

قال تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى . يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

(الطامة) الداهية التى تطم : أى تعلو على سائر الدواهى (الكبرى) التى هى أكبر الطامات ، وهى القيامة : أى النفخة الثانية (يوم يتذكر الإنسان ماسعى) بأن يراه مدونا فى صحيفته وقد كان نسيها من فرط الغفلة أو طول المدة ، وقوله يوم بدل من إذا (وبرزت الجحيم) أظهرت (لمن يرى) لكل راء بحيث لا تخفى على أحد . وجوابه إذا قوله (فأما من طغى) أى جاوز الحد فكفر (وآثر الحياة الدنيا) على

الآخرة باتباع الشهوات (فإن الجحيم هى المأوى) فليس له سواها مأوى (وأما من خاف مقام ربه) أى علم أن له مقاما يوم القيامة لحساب ربه (ونهى النفس) الأمارة بالسوء (عن الهوى) الذى يؤذى : أى زجرها عن اتباع الشهوات والجهل بما يجب علمه ، والهوى ميل النفس إلى الشهوات (فإن الجنة هى المأوى) أى المرجع (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أى متى إرساؤها ؛ أى إقامتها : أى متى يقيمها الله ويثبتها ؛ من مرسى السفينة ، وهو حيث تنتهى إليه وتستقر فيه (فيم أنت من ذكراها) أى فى أى شىء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به : أى ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها فى شىء ، فلست فى شىء من علمها ، وكيف تعلمك وقتها فتعلمهم به وقد حكمنا أن يكون وقت الساعة غير معلوم ، ليجد الناس فى أعمالهم فإن فى العلم خيرا فى شىء ، وفى الجهل خيرا فى آخر ، فلو عرف الناس مستقبلهم فى حياتهم لم يجدوا عاملين ولم يكونوا كاملين ، هكذا كل ما جهله الناس ، فجهله خير لهم لو كانوا يعلمون ، لولا جهل الناس بآجالهم ما بنوا المبانى العظيمة ، ولاشيدوا القصور الفخمة ، ولا سعوا سعى المجدين ، فالساعة لاعلم لك بها (إلى ربك منتهاها) أى منتهى علمها لا غيره (إنما أنت منذر من يخشاها) فنحن إنما بعثناك لإنذار من يخاف هولها ، أما من لايخشاها فليس ينتفع بالإنذار وإن أنذر (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا) فى الدنيا أو فى القبور (إلا عشية أوضحاها) أى أوضحى يومها . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

***

ههنا أربع لطائف (الأولى) فى قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى » (الثانية) فى قوله تعالى : « يوم يتذكر الإنسان ما سعى » (الثالثة) فى قوله تعالى . « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » (الرابعة) فى قوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » . وهاك بيانها :

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى »)

اعلم أن الأدوار التى ذكرناها فى كرتنا الأرضية وعددها سبع قد تراكمت فى قشرتها ٢٦ طبقة فى غير الدور الأول النارى ، وما من طبقة من تلك الطبقات إلا وكان فيها أهوال تشيب لها الولدان لاسيما فى دور العصر الخامس من الأعصر العظيمة التى تكونت فيه الجبال الشوامخ ، والعصر السادس الذى فيه يحصل الطوفان النارى الذى قلب وجه الأرض وجردت من زينتها ، فهذه من النكبات العامة ، وكم من نكبات حلت بالأرض فجعلت العامر خرابا والخراب عامرا .

يقول الله : لكن هذه الطامة أكبر تلك الطامات ، لأنها تغير الأرض إلى حال أخرى . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

(اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يوم يتذكر الإنسان ما سعى »)

سأنقل لك الآن ماجاء فى علم الأرواح من المدهشات . وكيف أصبح فهم هذه الآية والإيقان بها يتعلق بعلم الأرواح ، إن تذكر الإنسان ما سعى ليس عليه دليل عقلى ، وإنما هذا جاءنا من طريق النقل واتباع الأنبياء الصادقين ، ولكن هذا العلم الذى جاء بالسماع أصبح اليوم معروفا عند الجمعيات النفسية . فقد كشفوا أن الإنسان منا له درجات ثلاث . لكل درجة منها معلومات خاصة . ففى يقظته يعرف مانحن به عالمون . وإذا نوم فى الدرجة الأولى اتسع علمه ، وفى الثانية ازداد اتساعا . أما فى الثالثة فيكون من عالم غير عالمنا . ويخبر بماضيه ومستقبله . وكل شىء حصل له .

أليس من العجب هذا ، سبحانك اللهم أريتنا العجائب . قلت لنا : « يوم يتذكر الإنسان ماسعى » ثم ألهمت قوما ممن لايعرفون ديننا . جربوا تجارب جعلت ما كان مسعيا عندنا يقينيا بالعمل . إن العلم اليوم يجرى حثيثا نحو الإسلام .

انظر ما كتبته فى (سورة البقرة) فى التنويم المغناطيسى وتأمل كيف يكون ثلاث درجات (الأولى) أن يفقد المنوم (بالفتح) الإحساس ويلبث شاخص العين ويتلقى أوامر المنوم (والثانية) أن يفقد الإحساس ويغلق عينيه كالحال الأولى . ولكن هذا يسمع ويبصر ويتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس ، فلا دخل لعينه فى البصر ، ولا لأذنه فى السمع فى بعض الأحوال (الثالثة) أن يحصل انخطاف روحى فيعرف النائم نفسه معرفة تامة . ويصف العلل والأدوية ، ويسمع عن بعد سحيق . وينبىء عن حوادث مستقبلة ، ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأموات . ويصف هيئاتها ، وينقل إلى الجالسين أقوالها . انتهى ملخصا مما فى (سورة البقرة) فى هذا التفسير .

فهذه الدرجة الثالثة تقرب من درجة الانسان بعد الخروج من الجسم ، وهذا معنى قوله : « يوم يتذكر الإنسان ماسعى » فإن الجسم يحجز الروح عن تلك الذكرى . فإذا خلص منه انطلقت النفس ، والويل لها إن كانت جاهلة أو خبيثة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية . والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » ﴾

لما ذكر الله فى الفصل الأول من النمط الثانى بهجة السماء وجمالها ، وحسن الأرض وبهاءها أعقبه فى الفصل الثانى هنا بالوعيد لمن طغى وآثر الحياة الدنيا . وفى تعقيب الطغيان بإيثار الحياة الدنيا دفع لما يتوهمه الجهال أن الطغيان إنما يكون لأمثال فرعون إذ قاله الله فيه فيما تقدم فى هذه السورة ، فأعاد الطغيان هنا وقرنه بإيثار الدنيا ليعلم الناس جميعا أنهم جميعا مسئولون عن التهاون فى أنفسهم ، فيقول المسلم الغر : أنا لست طاغيا كفرعون فيقول له الله : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا » ولم يقيده بحال من الأحوال ، لم يقل هو كافر أو مؤمن . نعم إن المؤمن لايخلد فى النار ، وإيثار الحياة الدنيا والانهماك فيها مما يباعد المرء عن دراسة رفع سمت السماء وتنظيمها . وإبداع نهارها وليلها ، ودحو الأرض ، فالغفلة عن ذلك من المستعد له مما يشبه إيثار الحياة الدنيا . بالإخلاد إلى الأرض والجهالة . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « إنما أنت منذر من يخشاها » ﴾

لما ذكر الله أن موسى قال لفرعون : (وأهديك إلى ربك فتخشى) ختم السورة بقوله : إنك يامحمد لاينفع إنذارك إلا لمن يخشى ، فأما من لا يخشى فانه يلحق بفرعون ويعاقب كعقابه اهـ .

﴿ خاتمة تفسير السورة ﴾

لقد قرأت أيها الذكى فى هذه السورة بدائع السموات ونظمها وتناهيها فى البعد الشاسع علوا وحسن تنسيقها ، واطلعت على نظام الطبقات الأرضية والموازنة بين الآيات وعلم الطبقات الأرضية والعلوم المغناطيسية وأدركت الإعجاز والإبداع العلمى ، فهل لك أن تفكر ساعة فى بعض من يشار إليهم بالبنان من علماء الإسلام وهم لايزالون فى أمثال هذا المقام على الحال الأولى فى العلم ، غاية مايبتهجون به من عجائب القرآن أن ينظروا الجناس بين ضحاها ودحاها ، وبين الراجفة والرادفة . والطباق بين عشية وضحاها . فأمثال هؤلاء يظنون أن هذا منتهى علوم القرآن . وفاتهم أن ذلك همة طالب العلم الفتوى فى أول أيام الدراسة ، فالوقوف عندها دلالة على الجهالة العمياء والفطانة البتراء ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه .

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل
قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

إن نظام التعليم الاسلامى لابد من ارتقائه . فعلوم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن . بل هى علوم لفظه . ومانكتبه اليوم علوم معناه وانطباقها على العلوم التى أظهرها الله فى الأرض ، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى : «ثم إن علينا بيانه» فان البيان المذكور فى سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل ، وبمعنى أنه إذا أشكل شىء من معانيه فنحن نبينه لك وعلينا بيان مافيه من الأحكام والعجائب ، ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير ومالم يذكر من البيان الذى أكد الله أنه يظهره لأمة الاسلام . فالحمد لله الذى وفق فى هذا التفسير لبعض العرفان تصديقا لما ذكر الله من أن عليه البيان . انتهى تفسير سورة النازعات .

تفسير سورة عبس

هى مكية

آياتها ٤٢ — نزلت بعد سورة النجم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ * قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ *

ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ *

تشتمل هذه السورة على مقصدين (المقصد الأول) عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعراضه عن ابن أم مكتوم . وذلك من أول السورة إلى قوله : « فأنت عنه تلهى » . (والمقصد الثانى) فى تاريخ الإنسان من مولده إلى يوم بعثه : وذكر ماأنعم الله به عليه من أنواع النبات والفواكه . وانتهاء أمره بوجه مستبشر أو بوجه مغبر تغشاه ظلمة ، وذلك من قوله تعالى : « كلا إنها تذكرة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

روى أن عبد الله بن أم مكتوم وأم مكتوم هذه أم أبيه ، وأبوه شريح بن مالك « أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام . فقال يارسول الله علمنى مما علمك الله وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه السورة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعدها ويقول مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، واستخلفه على المدينة مرتين . فنزل مامعناه : كلح محمد صلى الله عليه وسلم وقطب وجهه وأعرض بوجهه لأن جاءه الأعمى الذى له العذر فى الإقدام على قطع كلامه مع القوم ، وهو ممن يستحقون الرأفة والرفق ، فكيف يتولى عنه ويعرض وهذا قوله تعالى (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) وقوله (وما يدريك لعله يزكى) أى وأى شىء يجعلك داريا بحاله ، لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك (أو يذكر فتنفعه الذكرى) أى أو يتعظ فتنفعه موعظتك (أما من استغنى) كالعباس بن عبد المطلب عمه ، وأمية بن خلف الجمحى ، وصفوان بن أمية الذين كانوا عندك وأنت تعظهم وتدعوهم إلى الإسلام وقد حضر الأعمى (فأنت له تصدى) أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه (وما عليك ألا يزكى) وليس عليك بأس فى ألا يتزكى بالاسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم ، إن عليك إلا البلاغ (وأما من جاءك يسعى) يسرع طالبا للخير (وهو يخشى) الله (فأنت عنه تلهى) تتشاغل . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الأول من السورة .

إيضاح

هذه الآيات شديدة المناسبة للسورة السابقة . ألم تر أنه قد جاء فى آخرها : (إنما أنت منذر من يخشاها) وقد جاء قبل ذلك أن الله قال لموسى عليه السلام : (فقل هل لك إلى أن تزكى) إلى آخره ، فهو عز وجل الآمر لموسى أن يكون لين القول مع فرعون عسى أن يخشى ، ولكن فرعون طغى ولم يخش . فأمر صلى الله عليه وسلم أن تكون همته موجهة إلى من يخشى ، لأن القول ينفع معه : ولما ابتدأ هذه السورة ذكر من يخشى وهو الأعمى .

يقول الله لرسوله : أنا أمرت موسى أن يلين مع فرعون وإن لم ينجع فيه القول . فأما أنت فكن أميل إلى إلقاء بذرك فى أرض خصبة وقد جاءك الأعمى وهو أهل للعلم فلا تضيع وقتك مع من لا يقبل ماتقول لئلا يكون ذلك كما فعل موسى مع فرعون ، وذلك مثل ماجاء فى قصة يونس إذ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر وذكره يونس فقال : «ولا تكن كصاحب الحوت» فهنا يقول : أنا أمرت موسى أن يلطف فى قوله مع فرعون ، ولكن إذا وجد من يخشى فهو مقدم على من يشك فى خشيته ، وهؤلاء صناديد قريش لست أنت على يقين من قبولهم الإيمان حالا وهذا الأعمى مؤمن فاهتم به ، فهو من الجماعة التى جعلت لقوة الإسلام بعد حين .

الحكمة التى فى هذه الآيات

اعلم أن هذه الآيات وإن كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هى موجهة لنا الآن . ألم يقل الله : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» ! ورسول الله ومن بعده ليسوا مخاطبين بهذا القول الآن لأنهم خرجوا من عالم التكليف فلم يبق إلا اقتداؤنا به صلى الله عليه وسلم فليكن علماء الإسلام وملوك الإسلام قاطبة عاملين بهذه القصة ، فليكونوا آباء للشعب الإسلامى ، والأب يحافظ على أولاده ويضع كلا منهم فى مرتبته اللائقة به كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل كذلك فيقدم الأعمى لعقله وإيمانه ويؤخر صناديد قريش هكذا فليفعل هؤلاء العظماء بالأمة ، فليكونوا رحماء معلمين لمن يستحق التعليم لا رغبة فى جاه ولا رهبة من سطوة . ولما كان ذلك هو المقصود أعقبه بما يفيده فى المقصد الثانى :

المقصد الثانى

قال تعالى (كلا) ردع لكل مسلم عن معاودة مثله ، فلا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا غيره من الأمة يجلح لهم أن يردوا مستحقا ويقدموا من لا يستحق فى كل شىء ! فى علم أو مال . أو صناعة . أو ولاية . وهذا باب واسع يدخل ضمن قوله تعالى : «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» وهذا الردع لم يتعظ به أكابر الأمم الاسلامية حتى دخل الفساد فى نظام جميع الحياة ومرافقها ، ويقرب من هذا الباب قوله تعالى . «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» .

وهذا وان لم يكن فى معنى هذه الآية فهو قريب منه من حيث واجب العدل فى سائر الأحوال : فقوله (كلا) هنا للردع عن المعاتب عليه لجميع المسلمين القصر أكثرهم فى إعطاء كل ذى حق حقه فأعطاهم أوروبا ولما كان هذا المقام خطيرا أردف الردع بقوله (إنها) أى المعاتبة المذكورة هنا من ردع التجافى عن طالب العلم المستحق والإقبال على من ليس كذلك (تذكرة) موعظة للمسلمين جميعا ، لأنها ستتكرر على مدى الزمان ، وهكذا هى وصلت لنا بعد ١٣٤٤ سنة . فنحن نقرؤها فعلينا أن نتذكرها فنجعل مطمح نظرنا إسداء المعروف لأهله ، فنذكر من يخشى ونعرض عمن لا يخشى إذا اجتمعنا عندنا (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء الذكر وأراده ألهمه الله إياه ، فالضمير للتذكرة لأنها بمعنى الذكر : ولما كان قيام الدول والأمم وثباتها وحفظ الحقوق لن يكون إلا إذا كان العدل مضمونا ووضع كل امرئ فى مرتبته حققنا أردفه بما يفيد أن تلك التذكرة والموعظة قد كتبت فى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ ، ونسخها هم للملائكة وتلك الصحف مكرمة عند الله مرفوعة القدر والمنزلة مطهرة عن مس غير الملائكة : فهى مكتوبة بأيدى سفرة : أى كتبة جمع سافر ، أو سفراء يسفرون بين الله تعالى ورسله ، فالمفرد وهو السافر إما من

السفر أو من السفارة ، وسواء أكان المقصود السفر أو السفارة ، فالمعنى يرجع للكشف لأن من يكتب أو يكون سفيرا بين اثنين ، فهو كاشف للأمور ، يقال : سفرت المرأة إذا كشفت ، فكلاهما كاشف للأمر بكتابته أو بتبليغه كما تسفر المرأة ، ثم وصف هؤلاء السفرة بأنهم كرام ، ومن كرمهم أنهم يتعطفون على المؤمنين ويستغفرون لهم ، وبأنهم بررة : أى أتقياء ، فانظر كيف وصف هذه الموعظة المذكورة بأنها فى صحف موصوفة بصفات أربع وراجعها كونها بأيدى السفرة الموصوفين بوصفين ، فرجع الأمر إلى تعظيم الصحف ، وكتاب الصحف ؟ وتلك الصحف قد انتسخ فيها ما فى اللوح المحفوظ من الحكم التوالى التى منها القرآن لاسيما هذه التذكرة :

يالیت شعری : أغفل المسلمون عن هذا القول ، أنام المسلمون ! كيف يسندون الوظائف إلى غير أهلها كيف لا يعطون كل ذى حق حقه ، كيف لا يتدبرون العلوم ! أفلا يقرءون هذه الآية ، أراد الله تعليم المسلمين فبدأ بتذكير رسوله صلى الله عليه وسلم ، وثنى بإعظام أمر النصيحة ، وقال : من شاء من المؤمنين ضبط نفسه وتزكية عقله وقيامه بالقسط فإن الله يساعده ، وهذا هو قوله تعالى (فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة : بأيدى سفرة كرام بررة) .

علم الله قبل أن يخلق الأمم الحاضرة أن أمة الإسلام ستكون مقصرة فى هذا الباب ، وأن الصبيات ستحل محل الدل : ويدافع كل امرئ ممن ينتمى إليه ولا يبالى بغيره فيرجع الناس إلى سيرة الجاهلية الأولى ، وإذن تتخطفهم الدول الغربية ويذيقونهم سوء العذاب ، ويفرقونهم كما فرقوا أنفسهم ، ولم يتحدوا ولم يعطوا كل ذى حق حقه ، ولذلك أعقبه بذم الإنسان من حيث جنوحه عن الصراط السوى فقال : (قتل الإنسان ما أكفره) هذا دعاء عليه بأشد الدعوات ، وتعجب من إفراطه فى الكفر ، فهذا يدل على سخط عظيم ، وذم بليغ ، ولاجرم أن الكفر أشد الذنوب مقتا ، وإنما خصه بالذكر لأنه جامع أصناف الذنوب ، فمن لا يؤمن بالله لايحفظ حقا ، ولا يسمع نصيحة ، وإذا كان مقت الله على الكفر أعظم فلمقت عظيم على إضاعة الحقوق ووضعها فى غير موضعها ، وهذه هى المناسبة بين الآيتين ، فهو يذم الإنسان لأنه يندفع فى الذنوب ويترك الفضائل واحدة واحدة حتى ينتهى إلى الكفر ، فإذا تساهل المسلم فى حفظ الحقوق ولم يعط كل ذى حق حقه جره ذلك إلى ذنوب أخرى فأخرى ، والكافر يصل إلى نهاية الإفراط ، فكان الذم لذلك .

وهاهنا ذكر تلطف الله فى خلق الإنسان ، وفى إدامة حياته بالغذاء ، فلنفسرهما تفسيرا لفظيا ، ثم نتبعه بالتفسير المعنوى فنقول ومن الله التوفيق :

قال تعالى (من أى شىء خلقه) وهذا الاستفهام لتحقير ما خلق منه الإنسان : أى من أى حقير خلق الإنسان ، ثم أجاب عنه فقال (من نطفة خلقه فقدره) أى خلقه بمقادير منظمة سواء أكان ذلك فى الأطوار التى يمر عليها وهو جنين أم كان فى أشكال الأعضاء وانتظامها وترتيب أعضاء الحس وأعضاء الحركة ونظامها الجميل كما سيأتى ذكره هنا ، وكما ذكر سابقا (ثم السبيل يسره) سهل له سبيل الخروج من بطن أمه ، وسبيل المعاش . وسبيل العلم والعقل ، وجميع مرافق الحياة (ثم أماته فأقبره) جعل له قبرا يوارى فيه (ثم إذا شاء أنشره) أى أحياه بعد موته للبعث (كلا) ردع للانسان عما هو عليه (لما يقض ما أمره) لم يقض من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله جميعه ، فلابد لكل امرئ من تقصير ما . ومنها ألا يعطى كل ذى حق حقه الذى أمرنا الله به وذكر أنه مكتوب فى صحف شريفة بأيدى ملائكة كرام بررة ، فالله بهذا القول يذكر الإنسان بعالم الملائكة الطاهر الشريف ، وأن الإنسان لايستحق أعلى الدرجات إلا إذا تنزه عن الأغراض

الضارة بالجموع وأعطى كل ذى حق حقه ، وليس أحد قائما بالقسط فى هذا كالملائكة والأنبياء الذين يتلقون الوحى عنهم ، فإذا كان الإعراض عمن يستحق العلم والإقبال على غيره يعاتب عليه فأولى منه عظائم الأمور ، والرشوة ، والكذب . والغش فى الامتحان لاسيما فى المعاهد الدينية . وغير ذلك مما أضاع أمة الإسلام . فالله يقول : إن النوع الإنسانى لايخلو من تقصير ، ومدح عالم الملائكة الذى سلم من كل تقصير . كانه تعالى يفهمنا أن هناك درجات فى الفضيلة يجب أن نرقاها وإلا بقى العتاب موجها لنا .

ومما يناسب هذا ماجاء فى [كتاب الأرواح] إذ سأل علماء النفس الروح قائلين لها : لماذا نرى قوما منا كاملين إذا أحضروا الأرواح كذبت عليهم ، فاذا كان الكذب من الأرواح لا يكون إلا على الفاسقين فما بالها كذبت على الكاملين . فأجابت الروح تقول : كاملين كلا ليس فى أرضكم كامل ، وانما فيكم صالحون لاكاملون . ولو كنتم كاملين ماسجنتم فى هذه الأرض ، وكم من صلاح تحته رياء وحسد وكبر . إنه لا كامل فى أرضكم . وقد يكون الكذب ترويضا لتلك الأنفس . أفليس هذا هو قوله تعالى : (كلا لما يقض ما أمره) .

ثم إنه بعد أن قص خبر خلق الإنسان من أحقر الأشياء فسواه وأماته ثم يبعثه أخذ يبين ماأنعم به عليه مما به بقاء حياته فى الدنيا بالحياة الجسمية . وفى الآخرة بالحياة العقلية . هاهنا يذكر الله طعام الإنسان ونعمه عليه بالتفنن فى خلقه ويأمره بالنظر فيه ليكون له حياة عقلية من حيث نظره كما كان له حياة جسمية من حيث التغذية فقال (فلينظر الإنسان إلى طعامه) الذى يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره ، وقوله (أنا صببنا الماء صبا) إما بالفتح على البدل وإما بالكسر على الاستئناف لبيان كيفية إحداث الطعام (ثم شققنا الأرض شقا) أى بالنبات (فأنبتنا فيها حبا) يعنى الحبوب التى يتغذى بها الإنسان كالحنطة والأرز والشعير والذرة (وعنبا) وهو غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر (وقضبا) يقال قضبه إذا قطعه : فالقضب كل ماقضب أى قطع من الكلأ والحشائش لتأكله الدواب رطبا ، وقد يطلق على كل ماتعلف به الدواب رطبا ويابسا لأنه قضب وقطع (وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا) أى بساتين غلاظ الأشجار كثيرتها جمع غلباء (وفاكهة وأبا) مرعى لدوابكم ، فهذه النعم متعكم الله بها (متاعا) تمتيعا وتنعمكم بهامنفعة (لكم) بالفاكهة المختلفة الأنواع (ولأنعامكم)بأنواع المراعى المختلفة (فاذا جاءت الصاخة) أى صيحة القيامة . سميت صاخة لأنها تصخ الآذان أى تصمها ، وجواب الشرط محذوف . أى يجازى كل بما فعله (يوم يفر المرء من أخيه) لأنه مشتغل بنفسه وليس الفرار قاصرا على ذلك بل يتعداه إلى الأم والأب . بل يتعدى ذلك إلى زوجته (وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى يكفيه فى الاهتمام به . وفى قراءة (يعنيه) أى يهمه (وجوه يومئذ مسفرة) مضيئة من إسفار الصبح (ضاحكة مستبشرة) بما ترى من النعيم (ووجوه يومئذ عليها غبرة) غبار وكدورة (ترهقها قترة) يعلو الغبرة سواد كالدخان فيجتمع فى الوجه الغبرة والسواد (أولئك) أى أهل هذه الحالة (هم الكفرة) فى حقوق الله (الفجرة) فى حقوق العباد ، ولذلك جمع لهم الغبرة فى الوجوه الناجمة من الفجور إلى السواد الناجم من الكفر . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى . « بأيدى سفرة . كرام برره » .

(٢) وفى قوله « قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره . فلينظر الإنسان إلى طعامه »

(٣) وكيف كان عدد النبات على الأرض بعد بعثات الألوف ؟

(٤) ومنه ماهو للتغذية وهى أنواع .

(٥) ومنه ماهو للباس والزينة .

(٦) ومنه ماهو للفاكهة ، وهى ستة أنواع .

(٧) ومنه ماهو مطعوم البهائم .

(٨) وما المقصود من قوله : (فلينظر الإنسان إلى طعامه) وهل يكون ترك النظر كفرا للنعمة ؟ وأى نظر هو المطلوب أنظر العامة أم نظر العلماء ؟ ومن صرفت عنه النعمة أليست تعطى لغيره الذى يستحقها . أو ليس هذا كقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » .

(٩) وكيف كانت عناية القرآن بهذه العلوم ، فقد كرر ذلك فى أكثر سور القرآن . لاسيما السور الست التى نحن فيها .

(١٠) وكيف كانت عناية الأمة الإسلامية موجهة بهمة أكثر لغير ذلك وتركوا هذه العلوم .

(١١) وكيف كانت هذه العلوم لرقى الأمم . والأحكام الشرعية لحفظها . وآباؤنا حفظوا أعما موجودة ونحن أصبحنا فى أمم ضعيفة فيجب أن نحييها ومستحيل حياتها بغير هذه العلوم .

(١٢) وكيف ابتدأ النبى صلى الله عليه وسلم بهذه العلوم وحرك الهمم لها ١٣ سنة والمسلمون تركوها واكتفوا بالقشور الجدلية .

(١٣) وكيف اكتفوا بشذرات ضئيلة من علوم البلاغة . ولو أنهم وصلوا إلى أقصاها لم يكن إثبات إعجاز القرآن بها إلا لصغار الطلبة الذين يبتدئون بقراءة اللغات فيفهمون أن القرآن معجز . وليس هذا بالشىء العظيم . إنما العظيم هو العلوم والمعارف ، فاذا وقف العالم فى القرآن عند هذا فهو طفل صغير ، ولماذا لم يقف فى الأحكام الشرعية عند النكت البلاغية ! إن المسلمين قصروا فى البلاغة جدا فضلا عن العلوم الطبيعية والفلكية والكونية .

﴿ اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى « بأيدى سفرة . كرام برره » ﴾

قد أسلفنا فى (سورة البقرة) وسورة (آل عمران) وغيرها أن العلم الحديث فى أوروبا أظهر ما كان مخبوءا فى الديانات إذ أقرت طائفة عظيمة من علماء أمريكا وأوروبا بأنهم خاطبوا عوالم أرقى منا بطرق مخصوصة وعرفوا من ذلك أن هذه العوالم منها من هم أسفل منا درجات ، ومنهم من هم أعلى منا . والذين هم أعلى منا نسبتنا إليهم فى العقل والفكر كنسبة النمل إلينا . وهذه الطوائف العليا يهتمون بأمرنا ويساعدوننا وقد اتضح فى هذا التفسير وأطلنا فيه بالنقل والبحث ، ومن اطلع على كتابنا المسمى [الأرواح] عرف

ماوصل إليه الإنسان اليوم من الإلمام بعالم الأرواح . ومن هـذا يعلم الناس أن السفرة الكرام البررة يحيطون بنا من كل جانب ، ويفكرون فى أمرنا ويساعدون الناس على قدر استعدادهم ، فهذا الذى جاء فى العلم الحديث معجزة القرآن . لا لا . ليست معجزة واحدة بل معجزات : أليست هذه العلوم هى التى وعد الله بها فقال فى (سورة القيامة) : (ثم إن علينا بيانه) أليس هذا من بيان الله لنا . أو ليس هذا من إرائنا مافى أنفسنا للمفهوم من قوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أفليست هذه ومامعها من العلوم الكونية هى التى بينت القرآن كما وعد الله . حقا إن هذا لعجب عجاب . «إن الله لايخلف الميعاد» انتهى الكلام على اللطيفة الأولى . والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « قتل الانسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره فلينظر الإنسان إلى طعامه » ﴾

لقد عرفت قبل هذه الآية أن الله عاتب رسوله صلى الله عليه وسلم على أمر يستسهل الناس فيه عادة فاستطرد من ذلك إلى تذكير الإنسان بأنه غير مفكر فى أمر خلقه . ولاأمر طعامه ، كأنه سبحانه يقول : ياأيها الناس . هاأنا ذا عاتبت رسولى الذى اصطفيته من بينكم على أسهل الأمور عندكم ، فأما مجموعكم أيها الناس فانه منغمس فى الملاهى ، بعيد عن الكمال ، جاهل بمنشئه ونعمى التى أنعمت بها عليه . أفلا تتفكرون أيها الناس فتعلموا كيف خلقتكم ورزقتكم ، ومتى عرفتم ذلك استفدتم (فائدتين : الأولى) تعلمون أنكم من نطفة قذرة فى دم الحيض (الثانية) إنكم تعلمون أنى أنا الذى جعلتها فى أحسن تقويم . فأى فضل لكم فى تلك الطامة البهية ، والجمال الرائع ، والحسن البديع ، والصوت اللطيف ، فالفضل لى والقدرة والحكمة . فتوجهوا إلى بالعلم والمعرفة ، وادرسوا نظامى فى خلقكم وفى خلق مايحيط بكم من الأغذية وغيرها إذا غفلتم عن ذلك فإنكم تكونون قد رجعتم إلى أصلكم وتركتم نعمى . وغادرتم النظر فى حكمتى ، مع أن منتهى الحكمة فى خلقكم أن تكونوا حكماء .

أيها الناس : أنتم من الجرثومة الآتية من الرجل المتحدة بجرثومة الأنثى اللتين كونتا شكلا صغيرا جدا منغمسا فى دم الحيض فى رحم المرأة .

(١) فهل كانت تلك المادة القذرة وما حولها من الدم المغذى لها قد فكرت فى نظام أجسامكم وحسن قاماتكم .

(٢) هل علمت وعلم الدم معها أن هذا الجنين سيخرج إلى جو فيه هواء يوصل الأصوات فاخترعا له الأذنين اللتين تقدم شرح عجائبهما فى سورة (آل عمران) .

(٣) هل علمت وعلم الدم معها أن هذا الجنين سيخرج فتحيط به الأنوار الناقلة للصور من الخارج إلى الدماغ ففكرا فى صنع طبقات العين السبع ورطوباتها الثلاث بحكمة تدهش المفكرين . ونظام يعجز المهندسين والصانعين كما تراه موضحا فى (سورة آل عمران) أيضا .

(٤) هل علمت وعلم الدم معها أن هـذا الجنين سيحتاج إلى التغذية بالنبات والحيوان وشرب الماء . وستكون له أسرة يحافظ عليها . وهذا لابد له من قوة علمية وقوة عملية . ولذلك اخترع دم الحيض هو وتلك النطفة القذرة اختراعين : أحدهما العلم . وهى الحواس الخمس الموصلة الأخبار من الخارج إلى النفس .

وثانيهما : وهى أعضاء الحركة كاليدين والرجلين لتمتثلا الأوامر الصادرة من المخ بحسب ماوصل إليه من الحواس طلبا للمنافع وهربا من المضار .

(٥) هل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان علمتا أن هذا الجنين سيحتاج للطعام . وهذا الطعام منه مايحتاج للقطع كالحشائش . ومنه مايحتاج للتمزيق كاللحم . ومنه مايحتاج للطحن كالحب وغيره فاخترعتا الثنايا وهيأتاها لبروز الثنايا والرباعيات للأول والأنياب للثانى والأضراس للثالث ، فهذه الأخيرة عبارة عن طواحين كالطواحين التى يصنعها الناس ، إنما الفرق أن الرحى هنا تدور من أسفل ، والرحى عندنا معاشر الناس تدور من أعلى .

(٦) وهل علمت هاتان المادتان أن طلب الرزق لابد فيه من حركة وهكذا دفع الأعداء فجعلت اليدين مركبتين من عظام كثيرة ، فهناك للرفقان ، وعظام الرسغ ، وعظام الكف ، وعظام الأصابع التى لولاها لم تستطع اليد أن تقدم خيرا أو تدفع شرا .

(٧) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان أوعزتا إلى الجسم فاستخرجتا منه بإيجازهما عينين جاريتين تحت اللسان لعلمهما بأن اللقمة لاتساغ بماء البحر وإنما يسيغها ماء خاص يخلق على هيئة مخصوصة يسيغ اللقمة ويهضمها الهضم الأول .

(٨) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان كونتا للرىء وجعلتاه خلف الحلقوم وصنعتا غطاء خاصا يضعه الإنسان على الحلقوم حينما تمر تلك اللقمة إلى الرىء ، وقد كانتا تعلمان أن اللقمة لو نزلت إلى الحلقوم الذى هو مجرى النفس الموصل إلى القصبة الهوائية الموصلة للرئة لمات الإنسان حالا ، فهما لما علمتا ذلك ركبتا غطاء على ذلك المكان لئلا يموت الإنسان .

(٩) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان لما علمتا أن الإنسان إن لم يدخل فى جسمه بدل ما تحلل منه مات اخترعتا له هذا الطعام والشراب ، وعلمتا أن المضغ فى الفم لا يكفى لأنه لا يمكن أن يكون الخبز المعضوغ مناسبا للحم الإنسان وعظمه إلا بعد عمليات كثيرة ، فلذلك اخترعتا له المعدة وفيها يطبخ ذلك الطعام مرة ثانية ، ولما علمتا أن هذا الطبخ لا تكفى فيه الحرارة التى فى المعدة اخترعتا له سائلا يسمى (البنكرياس) يساعد على إتمام هضم الطعام كما ساعد الريق فى الفم على المضغ الأول ، وهل كانتا تعلمان أن أحسن وضع للمعدة أن يكون القلب من فوقها ، والكبد على يمينها ، والطحال من شمالها ، ولحم الصلب من ورائها ، وصفاق البطن أمامها ليتمدد إذا امتلأت بالغذاء .

(١٠) وهل هما كانتا تعلمان أن الطعام إذا دخل المعدة لابد من بقائه زمانا ما حتى ينهضم ، وأنه بعد الهضم لابد أن ينزل إلى الأمعاء فيصلح للترقى من حال الغذاء إلى حال الدم ، وأن الباب الأعلى إذا بقى مفتوحا لا ضرر فيه ، لأن الانسان لا ينزل الطعام إلا إذا جاع ، وأن الباب الأسفل لابد من إقفاله دائما ولا يفتح إلا عند انهضام الطعام فيخرج منها إلى الأمعاء ، فهل هما اللتان جعلتا للمعدة لها بواب من أسفل يقفل ويفتح عند الحاجة .

(١١) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان بثتا عروقا شعرية كثيرة تنتهى إلى قعر المعدة وإلى جميع أقسام الأمعاء التى يبلغ طولها عدة مرات بقامة الإنسان الذى يحملها ، وهذه الأوعية الشعرية تمتص الغذاء الناضج من تلك الأماكن وتوصله إلى الكبد بحيث تكون أغلظ فأغلظ كلما اتجهت إلى الكبد وتصير عرقا واحدا عند مقعره ، ويدخل ذلك العرق فيوصل ما حمله فينفرع فى الكبد فروعا كثيرة ، ثم يطبخ فيصير دما يتجه إلى أعلى الكبد ويخرج من حدبته ، فهناك عرق عظيم

يتجه إليه الدم كله من الكبد فيتجه إلى القلب ويدخل فى تجويفه الأيمن الذى جهة الكبد ، ثم ينتقل إلى البطين الأيسر ، ثم تكون الشرايين المتصلة بالقلب من الجهة اليسرى فتحمل الدم إلى سائر البدن

(١٢) وهل هاتان المادتان هما اللتان علمنا أن الإنسان لا علم له بما فى الخارج إلا إذا وصل إلى مخه ، وأن الأعضاء لا علم لها بذلك إلا إذا وصل الحس إلى القلب بطريق الانفعال وقالتا وهما تفكران : إنه لم تقم أمة فى العالم ولا دولة إلا إذا كان هناك قوة مفكرة آمرة تقوم بأمر السياسة ، وقوة أخرى مأمورة تقوم بأمر العمل ، وهى قوة الجيوش ، فكل أمة لها مجلس يسمى الشورى أو البرلمان ، وهذا وظيفته التفكير وإصدار الأوامر ، ولها جيش يتحرك على مقتضى هذه الأوامر ، ولا رأى له فيما يصدر إليه ، فلما فكرتا فى ذلك قالتا معا : فلنضع دهنا لطيفا فى أعلى الجسم ، ولنجعل ذلك الدهن اللطيف وهو الدماغ مسرحا للأفكار بحيث يسع جميع المعقولات كما وسعت الأرض جميع النباتات ، ولنخص كل ناحية منه بحاسة من الحواس أو بعلم من العلوم ونحوها . فهذا مجلس أصحاب الحل والعقد ، فمتى وصل خبر من الحواس إلى هذا المجلس نفحوه وأصدروا الأوامر إلى القلب فى البريد البرقى (التلغراف) الذى له سلك ، وسلكه هى الشعبة المبتدئة من الدماغ المتصلة بالغشاء الذى على القلب لحظة فتنبث تلك الشعبة بواسطة فروعها فى جميع أجزاء القلب ، فإذا حصل قبض أو بسط ، أو حزن أو فرح ، أو طلب أو هرب ، أو خوف أو أمن وصل سبب ذلك من الدماغ إلى القلب بواسطة هذه الشعبة المنشعبة فى القلب ، وهذه الأعراض التى انفعل بها القلب تتصل بالروح الحيوانى الذى يحمله البخار الدموى السارى فى سائر العروق المغذية للجسم ، ويصل ذلك الخبر بأعصاب الحركة إلى سائر أطراف الجسم كما وصل إلى القلب ، فهذا العصب الواصل من الدماغ إلى القلب يسمى عصب الحركة هو وفروعه ، والذى يوصل من الحواس إلى الدماغ يسمى عصب الحس ، فإذن القلب يرد عليه (أمران : الأمر الأول) الغذاء الوارد من الطعام المهضوم فى المعدة المنطلق إلى الأمعاء الذى تمتصه عروق شعرية توصله إلى الكبد فيطبخ هناك ويصفى من الماء الذاهب إلى الكلية ، ومن الصفراء الذاهبة إلى محلها ، ومن السوداء المتجهة إلى الطحال ، ومتى نقى الدم من ذلك كله جرى إلى القلب محل الحكومة ، وهى توزعه على سائر الجسم للتغذية (الأمر الثانى) أنواع الوجدان من قبض وبسط الخ وهذه ترد من الدماغ وتصل إليه ، ومنه تسرى الأوامر إلى الأطراف للهرب أو للطلب أو للفرح أو لضده ، هل هذه العجائب كلها فكر فيها الدم والنطفة القذرة فى الجسم .

(١٣) وهل هاتان المادتان القذرتان هما اللتان لما علمتا منفعة القلب ومنفعة الدماغ ، وأنهما معا عليهما حفظ الجسم بما فيهما من قوة الفكر وقوة العمل وضعتا المخ فى حصن حصين يحيط به جسم صلب قوى ، وجعلتا القلب جسما صنوبرى الشكل لحمى الجوهر قويا متينا لئلا تضره المؤذيات ، وتفعل فيه العاديات (ا) وجعلتا له غلافا يوقيه ويسمى الشغاف (ب) وجعلتا أعلاه غليظا لإنبات الشرايين (ج) وحصناه من خلفه بفقار الظهر ، ومن الجانبين بالأضلاع ، ومن أمامه بعظام الصدر (د) ولما حصناه وأمنا عليه خافا عليه هو والرئة المحيطة به أن يمسهما جزء من هذا الجسم المحيط بهما فقررا أن يكون كل منهما بعيدا عن ذلك الحصن فيكون ذلك البعد مانعا من التماس الضار بهذين العضوين اللطيفين الضعيفين المتحركين دائما حركة انقباض وانبساط ، فيكون هذا الحصن حافظا لهما من الحر والبرد فتبقى الحرارة الغريزية متوافرة فيهما ولا يمسهما حصنهما بسوء .

(١٤) وأخيرا هل هاتان المادتان القذرتان فى رحم المرأة هما اللتان قررتا أن يكون لهذا الإنسان

مقياس تقاس به جميع أجزاء جسمه الظاهرة والباطنة بحيث تكون قامته عند الاعتدال ثمانية أشبار بشبره وهكذا إذا مد يديه إلى الجانبين كان ما بين أطراف أصابع اليد اليمنى وأطراف أصابع اليد اليسرى مساويا لطوله ، وهكذا إلى آخر ما تقدم فى (سورة آل عمران) وغيرها فى هذا التفسير ، وفى كتب الأمم المحيطة بنا وما فوق ذلك مما لا حصر له .

هذا هو معنى قوله تعالى : « من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره » هذا هو التقدير ، وهذا هو علم التوحيد ، وهذا مبدأ رقى الأمة . وهذا هو أهم مطالب الأمة الإسلامية فى مستقبل الزمان . فلم يمنع الناس عن هذا إلا الجهالة التى غشت على الأمم الإسلامية وأماتت نخوتها وأضاعت شرفها .

فلتقرأ هذه العلوم ، ولترجع مجد الإسلام ، وبهذا فليفهم كلام الله . وها أنا ذا قد بينت ، وإنى أحذر المسلمين الغفلة بعد الآن . وإنى أبشرهم بمستقبل زاهر . وأن ما أقوله الآن سيتم ، وسيكون قراء هذا التفسير من خير من يقومون بانتشال الأمة وبث الفكرة بينهم . ولتقرأ أيها الذكى لإخوانك فى هذا المقام « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ولا جرم أن خير المحسنين هم الذين ينشرون العلم لاسيما بين جنس النوع الإنسانى وهم المسلمون بطريق الدين الإسلامى . وأى إحسان خير من هذا الإحسان . فهذا خير الاحسان . فالله معك أيها الذكى حين تساعد فى نشر العلوم على ما ذكرناه . فهذا هو الجهاد ، والله وملائكته يساعدون من يقوم به : « والله يحب المحسنين » انتهت اللطيفة الثانية .

﴿ اللطيفة الثالثة فى إعداد النبات على سطح الكرة الأرضية ﴾

اعلم أن أعداد النبات على الأرض على حسب ماقال (الفورد أفبرى) فى كتابه [محاسن الطبيعة] يبلغ خمسمائة ألف صنف ، وهذا مجرد عدد .

ويقول : أما الخواص والمنافع فالمعلوم منها قليل ، ويقول . إن هناك نباتات محفوظة فى المتاحف لم يسمها الناس باسم لأنها من النباتات المنقرضة . وكل يوم يعثر الناس على أصناف جديدة من النبات . فهناك نباتات مجهولة محفوظة ، وأخرى لم يعثر عليها . فاذا ضم المجهول المحفوظ فى المتاحف إلى مايكشف كل يوم كان العدد أكثر من ذلك .

لقد ذكرت أنواع النبات وكيف كانت جميع هذه الأنواع مرتبة . وقد استخرجت كلها من الزهرة ونظامها وأوراقها ، وتجد الزهرة فى (سورة الشعراء) مرسومة مبينا معها كيف استنتج علماء النبات جميع هذه النباتات بحيث يكون لكل نوع نظام فى الزهرة مخصوص ، وهكذا فى سور كثيرة من هذا التفسير ذكرت عجائب النبات السارة للناظرين المبهجة للمفكرين . فالإنسان اليوم فى جهالة عظيمة . انتهت اللطيفة الثالثة .

﴿ اللطيفة الرابعة ، والخامسة . والسادسة ، والسابعة فى أنواع النبات ﴾

فمنه ماهو للتغذية ، ومنه ماهو للملبس : ومنه ماهو للدواء ، ومنه ماهو فاكهة . ومنه ماهو مطعوم البهائم .

المواد الداخلة فى النبات

أمر الله الناس بالنظر فى النبات ، وليس ذلك النظر مايفهمه الجهال ، فان الحيوان ينظر النظر الظاهر السطحى ولا يستفيد منه علما دينيا ولا دنيويا . وإنما يستفيد منه الغذاء : ولقد جد الناس قديما وحديثا فى أمر تحليل النبات وإرجاعه إلى عناصره . فمنهم من بحث عن العناصر الأصلية الداخلة فى كل نبات وقد

وجدوها عشرة من بضع وثمانين عنصرا ، ومنهم من بحث فى المواد الداخلة فى النبات ولم يقيد نفسه بالعناصر ولنقتصر فى هذا المقام على تحليل القمح (والأب) الحشيش والبطاطس ، وإنما اخترنا هذه من كتابنا (النظام والإسلام) لأن الأية فيها مطعوم البهائم والآدميين فوجب أن نحلل من كل واحد منهما نوعا لتعجب من أجزاء اجتمعت بمقادير خاصة كونت شيئا يصلح تارة للبهائم ، وتارة للانسان ، وتارة لهما . وتارة يكون ملبسا ، وتارة يكون دواء . وتارة يكون سما . وتارة يكون فاكهة . وتارة يكون غذاء ، تنوعات مختلفات من أصول محصورات . اختلفت المقادير فاختلفت النتائج .

إذا حللت كيلو جراما . أى ألف جرام من القمح فإنك تجد النشاء فيه ٦٦٣ جراما ، والماء المعتاد ١٣٤ جراما . والخشب المنسوج ٣٠ جراما ، وملح النوشادر ٦٠ جراما ، والفسفور المائى ٢٧ ر ٩ . وكبريت العمود المائى ٣ر٤٩ من الجرام ، والبوتاسا الكاوية ٦ر٦ جرام ، والمانيزيا ٢ر٢ جرام . والزيت الصافى ١٥ جراما ، وهكذا أجزاء أخرى كالصوديوم ، ومتى جمعت كلها بلغت ألف جرام : فهذه حال القمح على سبيل الإجمال . وأغلب هذه المواد فى الأب وفى البطاطس بمقادير تخالف هذه . فيدخل النشاء فى ألف جرام من الأب ٣٩٣ جراما . وفى البطاطس ٢٠٠ جراما . وهكذا الماء المعتاد فى الأب ١٤٤ جراما وفى البطاطس ٧٥٠ وهكذا بقية المقادير تختلف فى هذه وغيرها . حتى إن أكثرها يدخل فى القطن . وباختلاف المقادير صارت هذه المواد أنفسها ملابس بعد أن كانت فى القمح مطاعم . وهى أيضا تدخل فى الفواكه الحلوة والنباتات المرة . وباختلاف المقادير ترى النباتات تختلف فى الطعم واللون والقدر والعمر والآثار . والداء والدواء . والغذاء واللباس .

فهذه خلاصات ما كشف للناس فى العصر الحاضر . وترى فى (سورة البقرة) طريقا آخر فى التحليل وهى أوسع من هذه . وفيها عجائب لا يسعها المقام .

أفلا يعجب المسلمون كيف يأكلون ويلبسون ويتداوون بنباتات كلها من عناصر واحدة ، ولكن الاختلاف جاء من اختلاف المقادير ، أفلا يعجبون أن يكون ما تأكله الناس والدواب وما يلبس الناس وما يتداوون به كل ذلك من عناصر واحدة اختلفت مقاديرها ، أولا يدهش المسلمون حين يعلمون أن القطن الذى يزرع فى بلادنا المصرية ويزرع فى أمريكا وغيرها هو من نفس عناصر البرسيم للدواب والقمح للانسان وأن هذا باختلاف المقادير صار ملبسا لنا وزينة جميلة . وصنع منه أهل أوروبا المواد المفرقعة والمقذوفات النارية بحيث دخل فى بعضها . فأفاد فى تخريب المدن والبلاد التى أهلها جهال لا يفهمون قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » ،

إن المسلمين اليوم جهال فى الغالب فلم يسمعوا قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » فلما جهلوا ذلك أرسل علينا الصواعق من نيران مدافع أوروبا . فويل للجاهلين . وويل ثم ويل لمن لا يعقلون معانى القرآن . وهذا أوان ارتقاء الإسلام . ولولاه لم تتحرك الأقلام . ولم يكتب الكتاب . ولم يكن هذا التفسير وأمثاله فى بلاد الإسلام . ولا آراء العقلاء التى نشرت اليوم انتشارا مدهشا . وسيسرع الانقلاب فى بلاد الإسلام « ولتعلمن نبأه بعد حين » هذا ومن النظر فى طعام الإنسان النظر فى أمر الفاكهة .

إن الفاكهة من أنواع النبات . وهى أنواع لا علم لأحد بحصرها . ويجمعها سبعة أنواع كما قاله العالم (فونساغريف) :

(١) الفواكه الحمضية كالبرتقال والليمون والتمر هندى والأناناس والرمان .

(٢) والفواكه اللزة مثل : الشليك والتوت الشوكى (الفرامبواز) والخوخ .

(٣) الفواكه السكرية وهى التى غلبت فيها المادة السكرية مثل : البرقوق ، والعنب ، والتمر ، والتين والقراصيا .

(٤) والفواكه الزيتية ، وهى التى كثر فيها مواد دهنية مثل : الزيتون ، والجوز واللوز ، وجوز الكوكو

(٥) والفواكه المائية : كالشمام ، والبطيخ .

(٦) والفواكه العطرية : كالمانجو ، وكالخوخ .

(٧) والفواكه النشوية مثل : السفرجل ، والزعرور ، والغبيراء ، فهى نشوية وقابضة .

فهذه أنواع الفواكه ، وتحت كل منها أنواع كثيرة ، وكلها يأكلها الإنسان ، ويستعين بها على غذائه ولا يجوز فى الطب الإفراط منها اهـ .

﴿ اللطيفة الثامنة ﴾

ما المقصود من قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » ؟

يظن كثير من أهل العلم والعامة أن النظر للنبات هو النظر إلى شكله ، ومتى رآه وحد الله وقال (لا إله إلا الله) ، ظن الناس ذلك وظنوا أن كل أمثال هذه العلوم لاغرض منها فى الإسلام إلا الإيمان ولا جرم أن الإيمان مركوز فى النفوس ، ومأخوذ بالتلقى عن الآباء والأساتذة ، فكأن هذا المعنى هو الذى صرف المسلمين عن هذه العلوم العجيبة ، وأنساهم مجد آبائهم ، وجمال ربهم ، وحكمته وحبه ، والولوع بجماله .

ظن المسلمون ذلك فتركوا هذه العلوم جانبا ، وأكبوا على غيرها وحرصوا عليها ، واكتفوا من النظر بكتب الكلام التى لم تؤلف إلا للرد على قوم كانوا معاندين وماتوا ، فهذا العلم إنما جاء لقوم دواء لاغذاء ، لأنه علم جدلى ، ولعلك تقول : من أين تدعى أن هذه الآية توجهنا لعلوم الطبيعة ؟

أقول : أقدم لك مثلا ذكره علماء الفرس فى كتاب [كليلة ودمنة] ينطبق على ما نحن فيه ، ذلك أنهم قالوا : « إنما مثل من يطلب الآخرة بعمله ومن يطلب الدنيا فقط كمثل من خير بين زرع أرضه برسيا وزرعها حنطة ، فمن اختار البرسيم لأكل دوابه فإنه لن ينال قطما به يقتات هو وأولاده ، ومن اختار الحنطة أكل حبها وأكلت دوابه تبنها فنال النعمتين معا ، ذلك لأنه عمل للأعلى فنال الأدنى ، ومن عمل للأدنى لم ينل الأعلى » .

ونظيره هنا أن يقال : إن الله عز وجل قال لنا : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » ولا جرم أن نظر الإنسان إلى طعامه لا يتم إلا بدراسة علوم الكيمياء كما رأيت فى هذا المقام وعلم النبات ولابد من زرعه ، ويدخل فيه نظام البساتين ، ومعرفة أنواع النبات ، وبالجملة كما ازداد الإنسان علما بالحكم النباتية ازداد غراما بربه وأدرك حكمته وجماله ، ولا يزال فى ازدياد للحب والقرب من ربه كلما ازداد غوصا فى عجائب العلم وفروعه وأصوله ، وهذا العلم لا يتم إلا بعلوم كثيرة ، وكلما أتقن علما باعتبار أن ما فيه من العجائب إبداع خالقه تزداد النفس به من الله قربا ، حتى إذا بلغ الكمال فى العلم بلغ الكمال فى القرب ، فإذا مات فقد استحق أن يكون فى الملأ الأعلى الذين لا هم لهم إلا رقى المخلوقات ، فيكون إذ ذاك من أولى العلم الذين عطفهم الله على الملائكة فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فهذا هو القيام بالقسط ، فمن شهده فقد اقترب من الملائكة ومن ربه ، ولا رفعة للناس عند الله إلا بالعلم الذى سببه التهذيب وحسن الخلق ، هؤلاء هم المعطوفون على الملائكة المعطوفين على الله ، ولذلك ترى الملائكة مذكورين فى هذه السورة ، وأن النصيحة التى نزلت فيها كتبت بأيديهم ، وإنما كتبوها ليجعلونا فى درجة تقرب منهم

ويرقونا إليهم أفلست ترى بعدما تقدم أن يكون قوله تعالى : «فلينظر الإنسان» موجها إلينا لمعرفته تعالى خاصة لأنه أراد أن ننظر النظر الأعلى الذى لا يتم ولا يكون إلا مع النظر الأدنى . وبيانه أن العلوم الطبيعية لا يعرف الناس جمال ربهم فى نظامها ، ولا حكمه فى إبداعها ، إلا إذا قتلوها بحثا وتنقيبا بشوق وغرام وحب عظيم ، وهذا البحث يستلزم النبوغ فى علوم كثيرة بسببها ترتقى الصناعة والزراعة وغيرهما ، فلن ينال الناس دقائق الحكمة إلا بعد أن يمروا على جزئيات العلوم ويتقنوها ، وإذن يكون المثل هنا منطبقا تماما فيقال : كما أن الذى اختار زرع الحنطة لم ينل الأعلى وهى الحنطة إلا بعد أن نال الأدنى وهو ساق القمح وورقه وهى التى صارت تبنا للبهائم ، وقد قلنا إنه أفضل ممن اختار البرسيم إذ حرم الحب ليقتات به هو وأولاده ، هكذا هنا أمرنا الله بأن ننظر فى النبات لأجل معرفة جماله وحكمته ، وهو يعلم أننا لا ندرك حقائق هذه الأشياء إلا بعد درسها وتمحيصها ، وفوق ذلك تكون تلك الدروس سببا فى إحياء الزراعة والصناعة وعلوم الكيمياء وجميع العلوم المرتبطة بالنبات والأب والفاكهة ، وهى علوم الطبيعة جميعها إلا قليلا ، فقد طلب الله منا الأعلى وهو معرفته على الوجه الأكمل ، وهو يعلم أننا لا ننال الأعلى إلا بعد الأدنى : أى إن العالم بهذه العلوم سواء أكان واحدا أو أكثر يرتقى إلى ربه ، ويقترب من ملائكته ، ثم هو فى أثناء ذلك قد أحسن لأمته بالعلوم النافعة لشأنها ؛ المعلية لقدرها ، فهذا منه إحسان جاء له وهو يسعى إلى الأعلى كما أحسن الذى اختار الحنطة إلى البهائم بالتبن وهو يسعى إلى الأعلى .

قاعدة مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب

ولقد قرأنا فى كتب آبائنا الفقهية قاعدة عجيبة توقظنا إلى حوز الحكمة والعلم فقالوا فى قوله تعالى : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » : إن هذا الأمر للوجوب ، ويجب علينا أن نغسل من وراء المرافق قدرا يسيرا من العضدين ، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

هذا كلامهم ، أفليس هذا منهم تعليما لنا كأنهم يقولون ، أيها الأبناء : قد نظرنا فى أصغر الأمور وهو غسل جزء من العضدين احتياطا للواجب ، ومعلوم أن الوضوء غير مقصود إلا للصلاة ، والصلاة غير مقصودة إلا لحضور القلب مع الله ، وبغير ذلك تكون شجرة بلا ثمرة ، وحضور القلب مع الله إذا تكرر جعل فى القلب استعدادا للفهم عنه وللعلم ، وأصبحت النفس صافية مستعدة لمكارم الأخلاق وللعلوم ، هذا فى الوضوء فما بالكم بما هو المقصود الأعظم الذى إليه تشد الرحال ، وهو معرفة جمال الله وجلاله . إن الله أمرنا بالنظر والنظر لا يتم إلا بهذه العلوم ، وهذه العلوم أشبه بما نغسله من العضدين وراء المرفقين . وإذا احتطنا فى الصغير فقلنا مالا يتم الواجب فى الوضوء إلا به فهو واجب هكذا نقول هنا مالا يتم الواجب فى معرفة الله تعالى إلا به فهو واجب ، ثم إن هناك فرقا بين المثلين : مثل غسل اليدين والنظر فى النبات ، فإن ما يغسل فى الوضوء وراء المرفق ليس له إلا سبب واحد ، فأما هنا فله (ثلاثة أسباب : السبب الأول) إنه إتمام للواجب كما فى مسألة الغسل ، وهذا الإتمام من حيث إنه لا يتم معرفة حكمة الله التامة إلا بهذه العلوم ، فهو فى هذا كمسألة الغسل (السبب الثانى) أن معرفة هذه العلوم لابد منها لبقاء الأمة وحياتها فى هذا الزمان ، فالأمة التى جهلت العلوم الطبيعية أصبحت اليوم ذليلة مستعبدة حقيرة تباع بيع السلع ، فانظر إلى أمتنا الإسلامية ألست ترى أن بعض دول أوروبا كانكلترا وفرنسا ونحوهما يقولون : خذ أمة كذا وأنا آخذ أمة كذا فى نظيرها ، وهذه الأمم الإسلامية ، فترى انكلترا تقول آخذ مصر وأعطيك يا فرنسا مراكش ، لماذا هذا ؟ لأنها أمم جاهلة جهلت العلوم التى نتكلم فيها الآن وغيرها ، فإذن قراءة هذه العلوم لا يتم حياة الأمة إلا بها ولن يعرف الناس ربهم إلا إذا كانوا آمنين فى بلادهم ، ولا أمان فى البلاد للجهلاء الذين يستعبدهم العلماء

بما خلق الله ، ومعلوم أن غسل جزء مما وراء المرفق لا تتوقف عليه حياة الأمة ولا حياة الفرد فهو ليس له إلا السبب الأول (السبب الثالث) أن علماء الإسلام قاطبة أجمعوا أن الأمة عليها أن تقرأ العلوم وتعرف الصناعات التي بها حياة الأمة وذلك كله فرض كفاية .

سيقول بعض المسلمين : لقد نظرنا في النبات وعرفنا الله . فاذا متناوسألنا الله نقول هكذا قد نظرنا وعرفناك وأنا أقول : لكن الله يقول : النظر التام يكون بالعلم التام فأين علمكم التام بهذه المخلوقات ولو بطريق فرض الكفاية ؟ فيقول العالم المسلم : إني قرأت كتب قدمائنا كالمواقف وأمثالها ، فيقال له : كلا ، ثم كلا هذه كتب وضعت لزمن غير زمانكم ، ولأمم غير أممكم ، وليس لها مقصود إلا الرد على المبتدعة الذين ماتوا فأنتم تجادلون مع الأموات ، ولكن المقصود إدراك العوالم لذاتها لا للجدال بها . وليس يمكنكم ذلك إلا بإشاعة هذه العلوم في دياركم فيقرأ الصغار في المدارس فن الأشياء . ويقرأ الكبار نفس هذه العلوم . والعامة تبع الخاصة . وهناك سبب رابع ، وهو أن الغسل في مقدمات المقدمات للمقاصد ، ومعرفة الله هي مقاصد المقاصد . والعناية بمقاصد المقاصد أولى ألف مرة من العناية بمقدمات المقدمات .

نظرة في المثل الفارسي وفي الآية الشريفة

لقد ذكرت لك المثل الفارسي في [كليلة ودمنة] وقلت لك انه منطبق على ما نحن فيه واستطردت إلى أبعد من ذلك ، والآن أقول لك : ألا تتعجب من هذه الآيات كيف ذكر الله فيها مايأكله الانسان ومايأكله الحيوان وكأنه يشير بطرف خفي وحكمة إلى باطن الأمر فيقول :

أيها المسلمون : أنا أمرتكم بالنظر في النبات لأجل معرفتي ، وأنتم بذلك الأعلون ، لأنكم أشبه بمن اختار الحنطة فزرعها فنال قوت الحيوان المذكور في هذه الآيات . ولو أني اخترت لكم قراءة العلوم من طريق الحياة الدنيا لعشتم بها كما عاش الفرنجة وغلبوكم ، ولكنكم أنتم الذين اخترتكم لحفظ أرضي : وقد ملأت الأرض بعلوم النبات وغيره من علوم الطبيعة ، وأنتم خير أمة أخرجت للناس ، فلتقوموا بعد قراءة هذا التفسير وأمثاله . ولتأخذوا علوم الأمم المحيطة بكم ، وأنتم تقصدون بقراءتها الرقي إلى وإني أرقيكم أسرع من غيركم ، ويكفي في الرقي العلمي عشرون سنة كما يقوله علماء السياسة والاجتماع عندكم ، فها أنا ذا أيها المسلمون ملأت أوروبا وأمريكا واليابان بالعلم فقوموا من رقدتكم وخذوا هذه العلوم ، ثم قرءوها للدنيا فاقرءوها أنتم لحبي وللغرام بي ولأجل لقائي ، بل أنتم ستقرءونها وتعشقونني بها . وغيركم يقرؤها وهو معرض عن النظر العالي ، فستكونون أنتم شهداء على الناس كما كان الرسول شهيدا عليكم ، وشهادتكم على الناس لاتتم إلا بدراسة علومهم ، ولا تكونون شهداء عليهم إلا إذا قرأتم العلوم لحبي أنا ، وهذه القراءة يتبعها ارتقاء الأمة سريعا حتما فتعلو مدنيتكم وتنالون مثل مانال غيركم ، ولكن أنتم الأعلون لأنكم تطلبون منالا أرقى وأهم ، فلذلك تكون مدنيتكم أرقى وعدلكم أشمل ، وبالجملة فأنتم خلفائي في أرضي على هذه الأمم التي ستأخذون علومها كما أخذت علومكم وتقومونها بالحسنى بدل إذلالها لكم الآن وظلمها ، وهذا هو الذي سيكون قريبا . والله هو الولي الحميد .

قيمة النظر السطحي لهذه الآيات

سيقول قائل ممن يقرأ هذا القول : اننا لسنا ملزمين بهذا كله ، فاننا آمنا بالله وليس الإيمان بالله يلزمه هذا كله . لقد نظرنا وآمنا ؟ فجوابه أن نقول : لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه . وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لاتصل مائة وخمسين آية . فلماذا كثر التأليف في علم الفقه وقل جدا في علوم الكائنات التي لاتخلو منها سورة . بل هي تبلغ ٧٥٠ آية صريحة : وهناك

يات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة ويجهلون علما آياته كثيرة جدا . إن آباءنا برعوا فى الفقه فلنبرع نحن الآن فى علم الكائنات . لنقم به لترقى الأمة فهذا الذى ينظر نظرا سطحيا لآيات النظر فى العالم نراه لم يكتف فى البيع والهبة والميراث والحج والصلاة بالنظر السطحى ، بل نراه فى الوضوء الذى هو شرط من شروط الصلاة ، لم يكتف بالنظر الظاهرى . بل ازداد البحث فيه جدا فى مئات المجلدات المؤلفة فى المذاهب الأربعة وغيرها . أفلا ينظر المسلمون اليوم إلى علوم الدين الحقة وهى علوم الكائنات ، علوم معرفة الله ، إن علم الفقه لحفظ الأمم . وعلم الكائنات لمعرفة الله وحياة الأمم ، ومابه الحياة مقدم على مابه حفظ الحياة إذ لاحفظ للحياة ولا عبادة لله إلا بعد ثبوت الحياة اهـ

﴿ اللطيفة التاسعة : كيف كانت عناية القرآن بهذه العلوم ﴾

علم الله قبل أن يخلق الخلق وقبل أن ينزل القرآن وقبل أن يخلق الإسلام وأمة الإسلام أن هذه الأمة فى بعض تاريخ حياتها ستتهاون فى أمر العوالم العلوية والسفلية ، وعلم أنها ستنال قسطها من العذاب فى الدنيا على هذا الكسل والجهل ، وأن هذا العذاب الذى يحل بها يكون من أدعى الدواعى إلى قبول البحث فى آيات القرآن والنظر فيها عسى أن يجد المسلمون مخرجا من ذلهم ، فماذا فعل الله لذلك ؟ أكثر فى القرآن من ذكر خلق السموات والأرض ، بل هذا أكثر مافى القرآن : وناهيك ماترى فى السور المتلاحقة التى نحن بصددها ، ألم تر إلى (سورة القيامة) كيف بدأها بخلق الإنسان وختمها بخلقه ، وإلى (سورة الإنسان) كيف بدأها بخلق الإنسان ، وإلى (سورة المرسلات) كيف ذكر فيها خلق الإنسان والنعم التى خلقت له وإلى (سورة النبأ) كيف ذكر النعم السماوية والأرضية فيها ، وإلى (سورة النازعات) كذلك وهذه السورة ، فهذه السور وكثير أمثالها لايرى فيها حكم شرعى ، ولكن فيها الحث على النظر فى هذه العوالم . أليس هذا من العجب .

أمة الإسلام التى تبلغ نحو خمس نوع الإنسان ينزل عليها هذا القرآن ويكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية ويأمر بالنظر فيها فيغفل أكثرهم عن ذلك : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ألم يأن للمسلمين أن يقدموا هذه العلوم على غيرها ، ويقصدوها لذاتها . ألم يعلموا أن تعلمها أفضل من سائر العبادات النفلية . ألم يعلموا أن الله أكد الكلام فيها وكرره نظرا لعنايته بهذه العلوم .

ياعجبا ! نزلت الأحكام الشرعية وقال الله فيها يسألونك عن الخمر ، وعن اليتامى « وماذا ينفقون » وهكذا فى مسائل كثيرة يقول يسألونك عن كذا فيجيبهم ، وذلك فى الأحكام الشرعية . ولكنه قال : « إن الله فالق الحب والنوى » وقال : « هو الذى خلقكم » . « فلينظر الإنسان إلى طعامه » . وقال : « من أى شىء خلقه من نطفة خلقه » .

يقول الله ذلك بلا سؤال من الناس ، فدل هذا على عناية الله بهذه العلوم . وحقا هى كذلك لأنها توصل إليه من حيث نظامها ، وتحيى الأمة من حيث جنى ثمراتها .

أمة الإسلام التى ينزل عليها وصف صنع ربها فتنام عنه : إن الله يحبها لأنه عذبها بالأمم المجاورة لها . سلطهم عليها لأمرين : (الأول) أنهم لم يتعلموا هديته التى أهداها لهم فى السموات والأرض ، إذ لامعنى للشكر إلا على مايعلمه الشاكر من نعمة وصلت إليه ، فمن لم يعلم النعمة لا شكر له عليها . والمسلمون تركوا معادنه فى أرضه وفى بحاره . وآثار كرمه المسطرة على كل يابسة وخضراء . وقالوا لاطاقة لنا بها ، فأخذته الفرنجة وقاموا علينا ينتقمون منا على جهلنا . ذلك فعل ربنا هو الذى رتبه ونظمه . هكذا فعل الله ليؤدب

للمسلمين فيسمعوا كلام علمائهم إذا أسمعوهم منفعة هذه العلوم (الأمر الثانى) محبة الله والزلفى منه فلا قرب لله إلا بالعلم ، فبالعلم حياة الأمم . وبالعلم اقتراب أكابرهم من ربهم ، وبالجهل استعباد الأمم . وبالجهل جدهم من ربهم وسقوط منزلتهم . فاذا كان الجهل بنعم الدنيا يحرم الناس منها هكذا الجهل بصنعة الخالق يحرم الناس من الاقتراب منه . وكيف يقربون ممن لا يعرفون صنعته ولا آثاره . أما ذاته فممنوع الوصول إليها فلم يبق إلا الصفات التى لا تعرف إلا بالآثار اه

﴿ اللطيفة العاشرة ، والحادية عشرة ﴾

كيف كانت عناية المسلمين موجهة بهمة أقوى إلى علوم غير هذه التى اهتم بها القرآن . وكيف كانت هذه العلوم لرقى الأمم والأحكام الشرعية لحفظها . وآباؤنا حفظوا أمما موجودة ، ونحن أصبحنا فى أمم ضعيفة مريضة فيجب أن نسعى فى إحيائها وتقويتها . ولا حياة لها ولا قوة إلا بهذه العلوم . وهاتان اللطيفتان ظاهرتان مما تقدم فلا نطيل فيهما .

﴿ اللطيفة الثانية عشرة ﴾

كيف ابتدأ النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته بهذه العلوم وحرك الهمم لها ثلاث عشرة سنة والمسلمون تركوها واكتفوا بالقشور الجدلية

إن المتأمل فى نزول القرآن يجد السور التى نزلت بمكة تحض على النظر فى السموات والأرض لتوجيه الهمم إلى حوز النعم وحب المنعم . وذلك ١٣ سنة : وفى المدينة كانت تنزل آيات بذلك وبالأحكام الشرعية وهل هذا الترتيب نزل بلا معنى ! أليس هذا يفهمنا أن نظام الإسلام لا يقوم إلا بهذا الترتيب (وبعبارة أخرى) إنه يجب أن يحث الشعب الإسلامى على معرفة العوالم العلوية والسفلية . فأما العامة فبالظواهر لمعرفة الخالق . وأما الخاصة فللتحقيق والتبيين ، وبذلك يزداد الإيمان عند العامة والخاصة ويحب الله وتعمر البلاد فأما الأحكام الشرعية التى فى الفقه فإنما هى لطائفة خاصة لتحكم الناس . وبقية الأمة ملزمة أن تعرف ما هو مقرر عادة من وضوء وصلاة وزكاة ونحو ذلك بلا تطويل كما أوضح هذا الأخير أمامنا الشافعى فى رسالته وإذن ليس ينبغى للمسلمين ما يقرءونه من المختصرات فى علم التوحيد كالاستدلال على وجود الله بأن العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث ، فهم يذرون العالم يتخبط ويجرون بالطالب وراء المخلوقات ويقولون : إن العالم حادث . وهذا الحادث له محدث . فهذه طفرة لأن الطالب لم يعرف العالم إلا معرفة حيوانية . فالواجب أن يدرس له بعض نظام العالم كان يدرس له بعض عجائب الحيوان وبعض عجائب جسم الإنسان مثل الذى ذكرناه هنا وأمثال ذلك . ثم يقال له : هل عرفت هذا النظام ؟ فيقول نعم انه عجيب . فهذا يشوقونه إلى ربه فيحبه فيكون هذا التشويق قد انطوى فيه الدليل وزادت عليها المحبة . وكتب التوحيد كتب أكثرها جدلية ، وليس ينقذ أمة الاسلام من جهالتها إلا تأليف رسائل قصيرة وطويلة ونشرها بين العامة حتى يعرفوا ربهم ويخشوه . ومن جمع ما كتبناه فى هذا التفسير استخرج منه رسائل تنشر بين الناس بلا مشقة فليعمل المسلمون عما هم فيه من قراءة كتب لأمم مضت وانقضت . ونحن فى زمان أراد الله أن يظهر نور جماله إلى الأمم الإسلامية فيشرق نوره على ربوعها . ويكون ذلك مصداقا لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » اه .

(اللطيفة الثالثة عشرة)

كيف اكتفى المسلمون بشذرات ضئيلة من علوم البلاغة : ولو أنهم وصلوا إلى أقصاها لم يكن إثبات إعجاز القرآن بها نافعا إلا لصغار الطلبة الذين يبتدئون بقراءة اللغات فيفهمون أن القرآن معجز : وليس هذا بنهاية العلم ، فاذا وقف الطالب على هذا فى القرآن فهو طفل صغير . وإلا فلماذا لم يقف فى الأحكام الشرعية على النكت البلاغية فى الآيات القرآنية : إن المسلمين قصروا فى البلاغة فضلا عن العلوم .

هاأناذا أوضح هذا المقام باختصار فأقول : قد اعتادت أمتنا الإسلامية أن تقرأ كتب البلاغة المتداولة كمؤلفات عبد القاهر الجرجانى والسكاكى والتفتازانى وأمثالهم ، ودرجوا على ذلك قرونا ، فإذا أخذوا يدرسون القرآن طبقوه على تلك العلوم . فاذا بحثوا فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والفصل والوصل ، والإطناب والإيجاز من علم المعانى . وبحثوا فى التشبيه والمجاز والكناية من علم البيان : وبحثوا فى الجناس والطباق والمقابلة والتضمين والتورية وما أشبه ذلك من علم البديع : ثم لاحظوا ذلك عند دراسة القرآن ظنوا أن هذا غاية مايراد من الطالب ، وهو خطأ يجب الإقلاع عنه لسببين (السبب الأول) أن هذه البلاغة بتراء ناقصة . فلعمرك لم يكن القدماء الأفاضل كالسكاكى والجرجانى والتفتازانى ليؤلفوا هذه الكتب لتكون هذه نتيجتها . وإنما أرادوا أن يتمادى الناس فى العلم والبحث فيقرءوا كتب القدماء والمحدثين وتكون لهم ملكة يقتدون بها على ذوق الفصاحة والبلاغة بأنفسهم . وقد ذكرنا موازنات بين كلام العرب وبين القرآن فيما مضى ، وسيأتى بعض ذلك فى هذا التفسير ، وإذن يعرف الناس الفرق بين القرآن وبين كلام العرب فيصدقون بأنه معجز ، والدليل على أن ذلك مقصدهم أنك تجدهم يأتون تارة بآية ، وتارة ببيت شعر ، وآونة يأتون بآية ويذكرون وجوه الإعجاز فيها ، فهم فتحوا الباب وعلينا نحن فى هذا الزمان أن نجعل الدراسة هكذا . يقرأ الطلاب طرفا من علوم البلاغة بلاتطويل كما هى الحال الآن ، ثم يعنى أشد العناية بترتيب الأشعار ومقالات النثر والخطب التى أنشئت فى زمن الجاهلية عصرا فعصرا إلى زمن النبوة ، وهكذا جيلا فجيلا إلى الوقت الذى يكون فيه الطالب مشتغلا بهذا العلم ، وهذا هو المسمى علم آداب اللغة ، فبهذه الطريقة يطلع الطالب على أساليب كل عصر من أقدم أيام الجاهلية نثرا ونظما ، واذن يعرف قيمة بلاغة القرآن بالملكة التى حصلت له من الخطب والنثر والنظم ، وإلا فلو بقى الطالب يقرأ فى نفس تلك الكتب سنين فانه يخرج منها لايدرى البلاغة لافى القرآن ولا فى كلام العرب إذ يخرج وليس عنده إلا قواعد مخترعة كثيرة التفاريع ، وقد تباعد عن القرآن وعن مقاصده ، وعن اللغة العربية كما يتباعد الذى أراد الحج وأخذ يحضر الزاد والراحلة وتمادى فى ذلك وتوسع . وأضاع جميع وقته فى ذلك الاستعداد فيرى أن غيره سبق إلى طريق الحج وهو لم يفعل شيئا فيبقى تلك السنة ، وهكذا كل سنة هو فى إعداد الراحلة وغيره يذهب ليحج فهؤلاء يضيعون أوقاتهم فى المقدمات فتفوتهم المقاصد (السبب الثانى) أن الطالب إذا عرف بلاغة القرآن بالطريقة التى ذكرناها فهو لا يزال ملفلا ؛ ماالفائدة التى استفادها فى دينه أو دنياه ، غاية الأمر أنه أصبح صاحب ذوق فى النثر والنظم ، واستعد لفهم العلم ، وأصبح يصلح للكتابة والخطابة : ولكن القرآن جاء لتعليم الأمم علوم القرآن كالأحكام الشرعية والعلوم الكونية ، فوقوف الطالب عند إعجاز القرآن واكتفاؤه بذلك جهالة كتعاء فالقرآن لأمرين : حياة الأمة بالعلوم الكونية ، وحفظ كيانها وبقائها بالعلوم الشرعية بهذا تفهم قوله تعالى «قتل الإنسان ما أكفره» ثم أتبعه بذكر خلقه وخلق نعمه اه .

لطيفة فى قوله تعالى : فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا
فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا
متاعا لكم ولأنعامكم

حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لقد وعدت فى (سورة النبأ) أن تتم الكلام على أقسام النبات المذكورة هناك . وقد ذكرت هناك أنه إما ذو فلقة واحدة . واما ذو فلقتين ، وهذان نوعان لجنس النبات ، ثم إنك ذكرت لكل من النوعين فصائل كثيرة كالبصل والثوم الخ فى ذى الفلقة الواحدة وكالكرنب والقنبيط فى ذى الفلقتين ، فأرجو أن تتم هذه الأقسام على سبيل الاختصار . قلت : اننا لا نريد فى أمثال هذا المقام أن نقتصر على شحن الأذهان بالمسائل العلمية ثم تخليها من تجلى الجمال والبهاء . العلم قد ملئت به الكتب وشحنت به الطروس . ولكنه إذا أعطى للناس بلا بهجة ولا جمال ولا تذكير يكون العالم به كمثل الحمار يحمل أسفارا ، ليكن الجمال هو المقصود بالدراسة ، وعلم بلا جمال ولا تشويق إن هو إلا ميتة والميتة لا يأكلها إلا الخاطئون .

قدمنا أن النبات إما ذو فلقة وإما ذو فلقتين كما قلته أنت لى ، إن هذا يذكرنا بقوله تعالى : (والشفع والوتر) . العدد إما شفع واما وتر . وليس فى الوجود إلا شفع وإلا وتر . الشفع ظهر فى أمثال الفول والوتر ظهر فى أمثال القمح والنخل .

حسن صنعك يا ربنا ، تجلى جمالك فى مظاهر القمح ومظاهر الفول . الفول والقمح يزرعان كثيرا فى بلادنا المصرية ! ونرى ساق الفول كالمخروط ، ونرى ساق القمح كالعمود ، فالأول أعلاه أدق من أسفله . والثانى أعلاه كاسفله ، ومع الأول فى شكل مخروطه جميع ما كان ذا فلقتين . والثانى فى شكله العمودى كل ما كان ذا فلقة واحدة من النبات .

أليس من عجب أننا نرى الأرز والذرة بقسميها والبصل والكرات كل هذه عمودية الشكل كما تقدم فى القمح . وهكذا نرى الفجل واللفت والتفاح والكمثرى والمشمش وأمثالها كلها مخروطية الشكل كالفول .

فياليت شعرى من ذا الذى كان يظن أن هناك نظاما كهذا فى النبات . انتظمت حركات الأفلاك وأما كنها هكذا انتظمت أعضاء النبات وأما كنها . فرأينا هنا ائتلافا بين الفلقة والفلقتين وبين أشكال النبات من عمودى ومخروطى ، وهناك نظام جميل آخر أيضا . وهو أن ما كان ذا فلقتين يكون غالبا عدد أوراق كأسه وعدد أوراق تاجه . وعدد أعضاء تذكيره إما خمسا واما مكرر خمس ، ومن غير الغالب قد يكون اثنين وأربعا وما كان ذا فلقة واحدة فانه يكون إما ثلاثة واما مكرر ثلاثة . إذن الأعداد فى القسمين راجعة إلى عدد ٣ وإلى عدد ٥ ومكرراتهما ، وإلى عدد ٢ و ٤ .

أفلا تعجب من هذا الثبات ، ثبات فى هيئة الساق ، وثبات فى عدد أوراق الكأس . وعدد أوراق التويج . وعدد أعضاء التذكير . أو مكرر خمس لذوات الفلقتين . وهاك صورا جميلة لبعض ذوات الفلقة الواحدة . وأخرى لبعض ذوات الفلقتين . فمن صور ذوات الفلقتين مايسمى (كأس الزبدة) (شكل ٣٧) وهو نبات عادى لكأسه خمسة أوراق ، ومثلها تاجه . وكلها منعزلات منفصلات ، وفيه من أعضاء التذكير كثير (شكل ٣٨) وفى المركز عدد كثير من البيض (شكل ٣٩) .

(شكل ٣٧)
كأس الزبدة أوراق
كأسية منفصلات كذلك
أوراق تاجه

(شكل ٣٨)
كأس الزبدة واضحا

(شكل ٣٩)
مبيض زهرة كأس الزبدة

(شكل ٤٠)
زنبق الوادى

إن زهر زنبق الوادى (شكل ٤٠ المتقدم) مغاير لكل ماقدمناه ، فشكل زهرتها يرى أشبه بالجرس مدور الشكل . وهذا الجرس منته بستة أطرات أو تتوءات ، إن هنالك ستة أوراق متحدات مكونات التاج . ولم تنفرج عند نهايتها ، وفى أسفل الجرس (شكل ٤١) ستة أعضاء التذكير وعضو التأنيث الذى سيصبح فيما بعد ثمرة لحية تسمى (برى) . وبهذا تم الكلام على شجرة الزنبق . والحمد لله رب العالمين .

(شكل ٤١)
جرس يرينا أعضاء التذكير
وعضو التأنيث لزنبق الوادى

(شكل ٤٢)
مبيض زهرة زنبق
الوادى

الكلام على شجرة الصفصاف

(شكل ٤٣)
زهر الصفصاف ، وفيه
أعضاء التذكير

(شكل ٤٤)
(ا) أعضاء التذكير فى
زهر الصفصاف (ب) ورقة
صغيرة على الساق

(شكل ٤٥)
الزهر وعضو التأنيث
للصفصاف

(شكل ٤٦)
مبيض زهر الصفصاف

إن الثالث يشمل المبيض وما عليه . والثانى المبيض وحده . وبهذا تم الكلام على الصفصاف . والحمد لله رب العالمين .

الكلام على الأقحوان

(شكل ٤٧)
الأقحوان منظورا من أسفله

(شكل ٤٨)
الأقحوان منظورا من أعلاه

(شكل ٤٩)
خصلة من زهرة الأقحوان
(س) زهيرة أقحوان
أو زهرة صغيرة

(شكل ٥٠)
زهرة صغيرة
للأقحوان

إيضاح هذا المقام

(شكل ٥١)
نصف زهرة للاقحوان

إن الزهرة الصغيرة (س) (شكل ٤٩) عبارة عن شيء أصفر. فلما رؤيت بالمنظار المعظم ظهر أن لها (٥) أوراق كونت التويج وصارت أنبوبة (شكل ٥٠) وفي داخل هذه الأنبوبة (٥) أعضاء التذكير التي في وسطها عضو التأنيث المشتمل على الأصل الذي سيكون نباتا جديدا (البذر الصغير) وكل هذا لن يعرف إلا بالمنظار المعظم، وهذا الأصفر اللون هو المسمى زهرة صغيرة. أما الأبيض اللون حرف (ب) (شكل ٥١) فانه يسمى نصف زهرة. إنه يظهر في بادىء الرأى كانه أوراق تويج. ولكنه في الحقيقة زهرة أعطيت اسم نصف الزهرة، فكل واحدة منها مكونة من خمسة أوراق من أوراق التويج منضمات عند (ب) بهيئة خاصة من أعلى مكونات أنبوبة عند حرف (ج).

إذن في زهرة الاقحوان زهرات كثيرة وأنصاف زهرات، الأولى لونها الصفرة، والثانية لونها البياض وكل هذا إنما يكون بالاستعانة بالمجهر، وهي الآلة المكبرة أو المعظمة (المكرسكوب).

هنالك قال صاحبي: لقد جمعت أكثر النبات ذي الفلقة الواحدة وأكثر النبات ذي الفلقتين في (سورة النبأ) بذكر أسمائهما. فأريد الآن أن تصور صورا من كل واحد من القسمين ليتهى المقام بالجمال والحسن والبهاء. فقلت: أنا أوافق على هذا. فهاك صورا من النباتات ذوات الفلقتين خاصة.

(شكل ٥٢)
الخشخاش

(شكل ٥٣)
حامل الصليب

(شكل ٥٤)

(شكل ٥٥)
البسلة (الجلبان)

وانما سمي (شكل ٥٣) بحامل الصليب لأن أربع الورقات المكونات التويج موضوعة على هيئة الصليب. ثم انظر هذه الأشكال:

(شكل ٥٦)
البطيخ

(شكل ٥٧)
الأقحوان

(شكل ٥٨)
الخرشوف

(شكل ٥٩)
شيكورى

(شكل ٦٠)
بطاطس

(شكل ٦١)
سعتر

(شكل ٦٢)
صنوبر

صور من النباتات ذوات الفلقة الواحدة

إيضاحا لقوله تعالى « وجنات ألفافا » فى (سورة النبأ) ولقوله تعالى هنا فى (سورة عبس) « وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » مصداقا لقوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» ولقوله : «سأوريكم آياتى فلا تستعجلون» وهذا هو الزمان الذى أذن فيه الله بذلك

(شكل ٦٣)
نوع من الزنبق

(شكل ٦٤)
قوس قزح

(شكل ٦٥)

(شكل ٦٦ ـ فانلا)
وهو نبات يكون فى الأقطار
الاستوائية به يجفف الثلج

(شكل ٦٧)
هليون

(شكل ٦٨)
القمح

هذا هو نهاية الكلام على النبات ذى الفلقة الواحدة ، وذى الفلقتين ، وهى ذوات الأزهار ، والحمد لله رب العالمين . ولنشرع الآن فى الكلام على النباتات التى لازهر لها فنقول ومن الله التوفيق :

النباتات التى لا زهر لها

إن ما ذكرناه من النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إيضاحا لقوله تعالى : « وجنات ألفافا » فى [سورة النبأ] كلها من النباتات المزهرة وما أكثرها فى الأرض ، ونحن لم نذكر منها إلا القليل دلالة على الكثير ، ذكرناها :

(١) امتثالا لأمر الله عز وجل إذ يقول : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ولقوله تعالى أيضا : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » ولقوله هنا : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » الخ .

(٢) وشكرا الله تعالى إذ لا شكر إلا بعد الحب ، ولا حب إلا بعد العلم بصفات وأعمال المحبوب :

(٣) وذكرا لله تعالى فى أعماله وهو يقول : « فاذكرونى أذكركم » .

(٤) وتفكرا فى مصنوعاته ، وهو سبحانه وتعالى يقول : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » ، فهذا هو التفكر ، فأما النظر السطحى فالحيوان والإنسان فيه سواء ، والعالم الغافل إنما هو من العامة قد ألبس لباس العلماء .

(٥) وقبولا لنعمة السعادة ، ذلك أنا قدمنا فى بعض أجزاء هذا التفسير نقلا عن علمائنا رحمهم الله تعالى : أن جزاء المحسنين أن ينعمهم الله النعيم الحقيقى فى نفس الدنيا ، وهو نعيم السعادة بالاطلاع على الحقائق والبهجة والسرور بها ، ولا جرم أنى أكتب هذا الآن وأنا موقن أن هذا النعيم الحقيقى والبهجة الحقيقية بهذه العجائب يشارك فيها حالا فى زماننا أمم وأمم من أذكياء المسلمين فالسعادة إذن مضاعفة أضعافا كثيرة .

(٦) وقياما بفرض الكفاية لتأدية واجبه ، لأن كل علم وكل صناعة فرض كفاية ، والمسلمون جميعا يأثمون بتركها ، وهذا العلم يصقل العقول ، وبه تظهر عقول وعقول .

فها نحن أولاء الآن شارعون فى ذكر بعض النباتات التى لازهر لها ، فاذا كانت النباتات المزهرة السابقة لها كأس وتويج وأعضاء تذكير وأعضاء تأنيث ، فهذه ليس لها شىء من ذلك ، غاية الأمر وقصاراه أن لها فى مثل [نبات الحنشار] تحت كل فص من فصوصه بقعا صفراء تحوى بذورا ، فلا زهر ولا كأس ولا تويج ولا أعضاء تذكير ، ولا أعضاء تأنيث ، فانظر نبات الحنشار المذكور (شكل ٦٩) .

(شكل ٦٩)

نبات الحنشار : يرى تحت الفصوص بقع صفراء تحوى البذور

(شكل ٧٠)

بذور الحنشار مكبرة جدا

(شكل ٧١)

طحلب أشنه

(شكل ٧٢)

نحمدك يا ربنا فلقد علمتنا وأنعمت علينا بالنظر والفكر ، فنظرنا آياتك التى هى المقدمات لنظر وجهك الكريم ، إن من لم يغرم بجمالك فى الدنيا بأمثال هذا النظر فانه لا ينال النظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة إلا بعد عناء وطول مشقة ونصب : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

إن من سعد فى الدنيا بالبهجة بجمال العجائب الأرضية هو نفسه الذى يسعد بالنظر إلى وجه الله الكريم .

(شكل ٧٣)

عش الغراب

(شكل ٧٤)

النبات الرجانى : أى الشبه نبات الرجان

ومن عجب أن هذه الطائفة فى الدنيا هى التى عليها مدار رقى وسعادة نوع الإنسان ، فهم سعداء فى الدنيا والآخرة : وهم مسعدون لإخوانهم فى الدنيا برقيهم بين الأمم ، ومسعدوهم فى الآخرة لأنهم يحبون ربهم الذى عرفوه بجميل الأفعال ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » انتهى ، والحمد لله رب العالمين . كتب هذا المقال فى سحر يوم الأربعاء ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ هجرية — ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٢ م .

زيادة إيضاح لقوله تعالى :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا
ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ،
وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » .

(١) نظام سير الشمس وأثره فى النبات .
(٢) نظام النبات باعتبار الأشهر القبطية .
(٣) نظامه باعتبار علم تشريح الجسم الإنسانى .
(٤) نظامه باعتبار العناصر من جهة ومن جهة أخرى باعتبار صحة أعضاء الجسم الإنسانى .
(٥) نظامه باعتبار علم الصحة خاصة للجسم الإنسانى .

حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فى هذا اليوم : أعنى يوم الخميس قبيل الظهر آخر أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥١ هجرية . فقال :

الله الذى أنزل القرآن هو نفسه الذى خلق النبات ، وهو الذى يقص علينا قصص ما خلق منه ، فهو يقول إنه لم يخلق نباتا واحدا بل نوعه أنواعا كثيرة جدا (وهى تعد بمئات الألوف) فما السبب فى هذا التنويع ؟ فقلت : دعنى أفكر فى ذلك مليا ، وقابلنى إن شاء الله غدا ، فما كاد ينصرف حتى أخذ الخيال يصور لى فى اليقظة كأن جماعة فى الهواء بين السماء والأرض ، وقد جلسوا كما يجلس الناس على الأرض ، وقد انتظم هناك مجلس ، وفى المجلس عالم بعلم الفلك ، وآخر بالزراعة ، وآخر بعلم النبات ، وآخر بعلم التشريح وآخر بعلم الطبيعة والطب ، وآخر اختصاصى بعلم الصحة ، وبين هؤلاء حكيم جالس ، وبينما أنا أتأمل فى هيئتهم إذ أقبل أحد الفلاحين وسألهم نفس هذا السؤال قائلا : أيها العلماء الأعلام : ما السبب فى اختلاف هذه النباتات ؟ فهذا أب ، وهذا زيتون ، وهذا نخل ، وهذا عنب إلى آخره . فأجابه عالم الفلك قائلا : إن سبب اختلاف النبات آت من اقتراب الشمس وبعدها ، فهى فى الصيف ترسل الحرارة ، وفى الشتاء تكون أقل حرارة ، وتختلف المزارع على حسب اختلاف الأقطار حرارة وبرودة ، إن السنة مؤلفة من ٣٦٥ يوما و ٢٤٢٢ جزءا من اليوم ، أو ١٢ شهرا قمريا ، و ٣٧ فى المائة من الشهر ، وكل من تلك الشهور مؤلف من ٢٩ يوما و ٥٣ فى المائة من اليوم ، وهذه السنة عبارة عن أربعة فصول ، والشمس فيها حركات ، فتكون فى الذنب فى أول يناير . وفى الرأس فى أول يوليو . والأول بعد بضعة أيام من المنقلب الشتوى ، والثانى بعد بضعة أيام من المنقلب الصيفى . وبين هذين الاعتدال الربيعى فى ٢٢ مارس والاعتدال الخريفى فى ٢٣ سبتمبر .

فهذه هى السنة كلها ، وقد سارت الشمس فى جميع البروج ، وأتمت دائرتها . فتكون فى برج الحمل والثور والجوزاء فى فصل الربيع ، وفى السرطان والأسد والسنبلة فى الصيف ، وفى الميزان والعقرب والقوس فى الخريف ، وفى الجدى والدلو والحوت فى الشتاء . وهكذا إلى يوم القيامة .

ويكون سطح الأرض معتدلا فى فصلى الاعتدال . وحارا فى الصيف ، وباردا فى الشتاء : ولكل زمان مزارع . كما أن لكل قطر مزارع على حسب الاقتراب من القطبين والابتعاد عنهما . وتجد القطن والنخل لا ينبتان فى الأقطار الباردة ، ونحو البندق لا ينبت فى الأقطار الحارة .

هنالك انبرى عالم الزراعة فقال : مالنا وللبروج والمنازل . أنا أعرف الاختلاف بحسب الشهور القبطية ففى (شهر توت) الذى هو رأس السنة القبطية وأوله يسمى النيروز يبتدىء لقط الزيتون فى ٧ منه ، وفى ١٧ منه تفتح أكثر الترع بمصر . وفى ١٨ منه أول فصل الخريف .

(شهر بابه) فيه يبذر كل مالا تشق له الأرض كالبرسيم ونحوه . وفى آخره تشق الأرض بالصعيد ويحصد الأرز . ويطيب الرمان . وتضع الضأن الخ .

(شهر هاتور) فيه يزرع القمح ، ويطلع البنفسج . والنشور ، وأكثر البقول .

(شهر كيهك) فيه تدرك الباقلاء ، وتزرع الحلبة ، وأكثر الحبوب ، ويدرك النرجس .

(شهر طوبه) فى زرع القمح فيه تغرير .

(شهر أمشير) فيه تغرس الأشجار ، وتقلم الكروم ، ويدرك النبق واللوز الأخضر .

(شهر برمهات) فيه تزهر الأشجار ، ويعقد أكثر الثمار . ويزرع أوائل السمسم . ويقلع الكتان ويدرك الفول والعدس .

(شهر برمودة) فيه تقطف أوائل عسل النحل ، وفيه تكثر الباقلاء ، والورد الأحمر .

(شهر بشنس) فيه يكثر التفاح القاسمى ، ويبتدىء التفاح المسكى ، والبطيخ العبدلى والحوفى ، والشمش والخوخ الزهرى الأبيض .

(شهر بؤونه) فيه يكثر الحصرم ، ويطيب بعض العنب ، والتين البونى ، والخوخ الزهرى . والتوت والبلح .

(شهر أبيب) فيه يكثر العنب والتين ، ويقل البطيخ العبدلى : ويطيب البلح .

(شهر مسرى) فيه يعمل الخل ، ويدرك البسر واللوز (قد تقدم فى : [سورة الزمر]هذا المقام موضحا بأوفر من هذا فارجع اليه إن شئت) ثم قال : هـذا هو السبب الذى أعرفه .

فقال عالم الهيئة والفلك : إن ماقلته بعض نتائج سير الشمس . ولها نتائج أخرى . فبعدها عن الأقطار الشمالية والجنوبيه يكون سببا فى ظهور نبات مخالف أشد المخالفة للنباتات العظيمة والغابات الهائلة فى خط الاستواء ، فهنالك انبرى عالم التشريح وقال : أيها الفاضلان قد قصرتما السبب فى اختلاف النباتات على وجه الأرض على أمر الحرارة والبرودة ، واختلاف الفصول والشهور والأيام ، وكأنه لاتراعى هناك المصالح . أما أنا فأقول : إن النبات مختلف على حسب اختلاف القوى الهاضمة فى جوف الحيوان ، أفليس الأرز والقمح والشعير والفول وجميع المواد النشوية : أى التى يكثر فيها النشاء يحصل لها الهضم بما فى الفم من من الغدد اللعابية ، وهى ثلاثة أزواج تفرز لعابا يجرى فى قنوات ، فالزوج الأول هو النكفى وهو أعلى ، والثانى تحت الفك الأسفل ، والثالث تحت اللسان ، وهو اللعاب ، فيه مواد مخاطية وخميرة اسمها [تيالين] لهاتأثير على ما تقدم من الأطعمة ، ومتى أثر اللعاب على هذه المواد قلبها إلى مواد سكرية ، وللأمعاء تأثير على ما لم يهضمه اللعاب فى الفم مما تقدم ، ونرى مواد أخرى نباتية وحيوانية يتجاذبها البنكرياس والمعدة ، فهاهنا مناطق أرضية يربى فيها النبات تقابلها مناطق أخرى فى الجهاز الهضمى فتهضمها (هذا المقام مفصل فى سور كثيرة منها سورة فاطر عند آية : « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا » الخ فمن أراد استيفاء هذا المقام فلينظره هناك وفى مواضع أخرى) .

هنالك قال عالم الطبيعة والطب : ياقوم إن للعناصر لدخلا فى تنوع النبات وكذلك صحة الإنسان

والحيوان ، أنتم ذكرتم الشمس وقربها وبعدها ، وذكرتم الأيام والشهور ، وذكرتم أعضاء الهضم التى وزعت عليها الأغذية لتهضمها . وأنا أقول لكم : إن للصحة وللعناصر مدخلا أعظم :

انظروا الجير : إن الجير مغذ للعظم لأن له دخلا كبيرا فى تكوينه ، وهو أيضا يشفى الجروح ، فهذا يدخل فى الكرنب والسبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردة ، وفى غير النبات فى اللبن والجبنة التى لم تنزع زبدتها .

وانظروا إلى المغنيسيوم الذى يساعد العضل ويمنع الفتق ، فذلك فى السبانخ والخس والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والباميا .

وانظروا الكبريت : إنه منظف للدم وعدو الروماتزم ، فهو فى السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والباميا .

والفسفور يغذى المخ ، وهو فى الخس والفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح وكشك الماز ، وهكذا سمك البحر وصغار البيض .

والحديد يعطى الدم اللون الأحمر ، وينفع من فقر الدم ، وهو فى الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصغار البيض النيء والبلح والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم .

والكلورين يساعد على الهضم ، وينظف للمعدة ، وهو فى الكرنب والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر .

ثم قال : أيها الناس : هذا هو السبب فى تنوع النبات ، فهذه عناصر جعلت لفوائد جسم الإنسان والحيوان ، وقد فرقت هذه العناصر على أنواع النبات ، وأنواع النبات موزعات على منافع فى أجسام الحيوان والإنسان إذن مالنا ومال الشمس والشهور والأيام والحرارة والبرودة أيها العلماء .

هنالك انبرى العالم المختص بعلم الطب . فقال : أنا أؤيد صديقى فى قوله .

أيها الإخوان : الطماطم والهندبا (يسمى بمصر الجعضيض) والبصل كل واحد منها لأجل منفعة الكبد البقدونس وكشك الماز والفجل لمرض الكلا .

الخس والسبانخ لأجل الأعصاب .

الطماطم والليمون لأجل مرض يسمى (الرجريج) : هذه كلمة عامية مصرية .

الجزر لأجل مرض الجلد . أنا أقول إن الجزر جربته فمنع تلوين جلدى بعد ظهوره كما فى هذا الكتاب البرتقال لقوة القلب والشجاعة . وكذا الليمون .

هنالك قال الفيلسوف الذى يلم بهذه العلوم كلها : أيها الإخوة : إن مثلكم فى أمر اختلاف النبات كمثل المثل الذى ضربه علماء الهند ، ذلك أن جماعة من العميان وصفوا الفيل بعد أن وضعوا أيديهم عليه فقال أحدهم ، هو كالحائط . وقال آخر : هو كالعمود ، وقال آخر : هو شىء ناعم أملس وهكذا ، فالأول وصف نفس جسمه . والثانى قد كان أمسك برجله . والثالث كان قد أمسك بنابه . وكانوا ستا . وهكذا كان وصف البقية .

إن وصفكم لاختلاف النبات وصف جزئى ، فهو حق من حيث إنه جزئى ، فأما النظرة الكلية فإنا نقول إن النبات ليس مخلوقا منقطعا عن العالم ، كلا : إن عالمنا كله أشبه بشجرة واحدة أو جسم إنسان واحد بعضه مرتبط ببعض ، الدماغ لابد له من جسم ، والجسم فيه ظفر وشعر وعروق الخ وكلها لابد منها للبقاء . هذا النبات قد لوحظ فيه عند خلقته الحرارة والبرودة وطبيعة الأرض ، وفى نفس الوقت لوحظ فيه

أعضاء الهضم فى جسم الحيوان ، ففى الوقت الذى ينبت فيه الأرز والعدس والقمح مثلا يخلق الحيوان بأعضائه الهاضمة على مقتضى مايزرع فى الأرض ، فتكون الغدد اللعابية الست المتقدمة موضوعة مملوءة بذلك اللعاب الهاضم لتلك الحبوب أو الحشائش . وفى نفس الوقت يمتص النبات من الأرض الكبريت والفنيسيا الخ ليغذى أعضاء الحيوان . فهنالك لوحظت نفس العناصر المنتزعة من الأرض لأن هذا النبات مخلوق لحيوان ليتكون من أجزائه ، وهكذا روعى فى النبات تغذية الكبد والمخ والأعضاء الأخرى كما تقدم فليس ضوء الشمس غير مراعى فيه العناصر أو النبات أو أعضاء الإنسان : كلا . بل هذه كلها محسوبة فى وقت واحد مراعى فيها التناسب . ولولا هذا لم يتم نظام .

ثم التفت إلى الأرض وقال : انظروا أيها الإخوان إلى أرض مصر : هاهنا يتجلى لى أيها الإخوان سعادات لاحد لها ، إن فى هذه النباتات المنتشرة فى مصر وغير مصر نظام علم الأخلاق فى مستقبل الزمان ، ونظام علم السياسة وسعادة الأمم كذلك فى مستقبل أزمان ، وهكذا معرفة اتساع رحمة الله فى الآخرة . كل هذا فى النباتات التى سترونها فى هذه الساعة ، أصورها لكم وأبين معانيها ، فان للنبات معانى تعرفها العقول كما تعرف معانى الكلام ، بل المعانى هنا أكثر وأوضح فائدة ، ثم رفع صوته وقال : الله أكبر الله أكبر : ألم يقل الله : « وفى الأرض آيات للموقنين » إن ماأقوله الآن فى النبات إنما جاء من باب الإيقان واليقين هو العلم الذى لايعتوره شك :

فلما قال ذلك رأيت العلماء الجالسين أخذوا يتعجبون من هذه المفاجأة . بل أنا كذلك اعترانى شىء من الدهش وقلت فى نفسى علم الأخلاق وعلم السياسة وعلم الآخرة من النبات . إن هذه علوم فوق عقولنا فى هذه الأرض ، ثم يقول إنها علوم يقينية ، فقال له من حوله قد أدهشتنا وشوقتنا فأرنا ما تقول ؟ فما كادوا ينطقون بهذه الجملة حتى رأينا بساطا منقوشا نقشا جميلا بأنواع الزخرف والزينة ، محلى بكل أنواع البهجات ، وقد ظهرت فيه رسوم ١٣ شجرة من أنواع مختلفة ، وهاهى ذه (انظر الأشكال الآتية فى الصفحات التالية) .

(شكل ٧٥)

(شكل ٧٦)
اليهق أحد النباتات الحولية التى تنمو
فى الصحراء الشرقية بمصر

(شكل ٧٨)
الخلايا الحارسة التى تحيط بالثغور

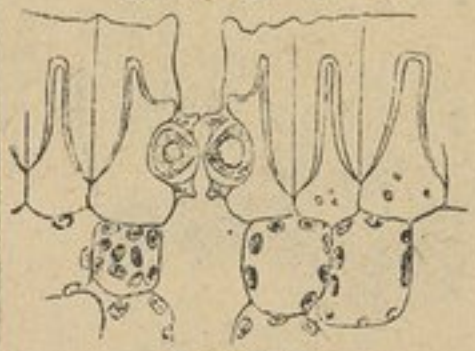

(شكل ٧٩)
قطاع عرضى فى ورقة الصبار تظهر فيه الثغور
الغائرة . والكيوتين الغليظ

(شكل ٧٧)
نبات اللصف

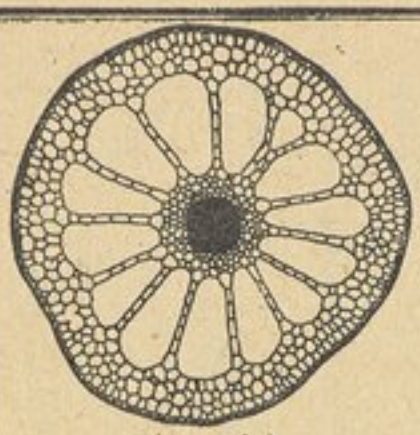

(شكل ٨١)
قطاع عرضى فى ساق نبات مائى تشاهد فيه المسافات البينية الواسعة

(شكل ٨٣ ـ النباتات الملتفة)
(ا) التفاف فى اتجاه عكس حركة عقرب الساعة
(ب) التفاف فى اتجاه حركة عقرب الساعة

(شكل ٨٥ ـ نبات الديونيا)

(شكل ٨٠)
نبات مائى أوراقه المغمورة خيطية ، والأوراق الهوائية ذات شكل اعتيادى

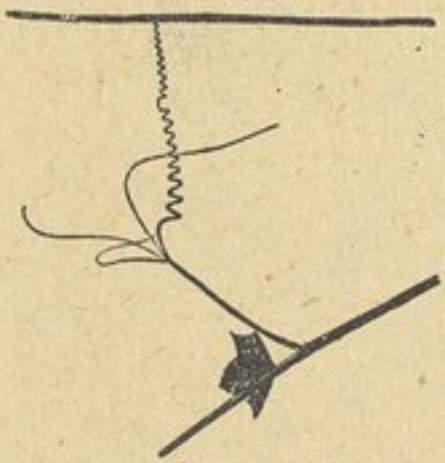

(شكل ٨٢ ـ الحمالق)

(شكل ٨٤ ـ ورقة الدروزيرا)

(شكل

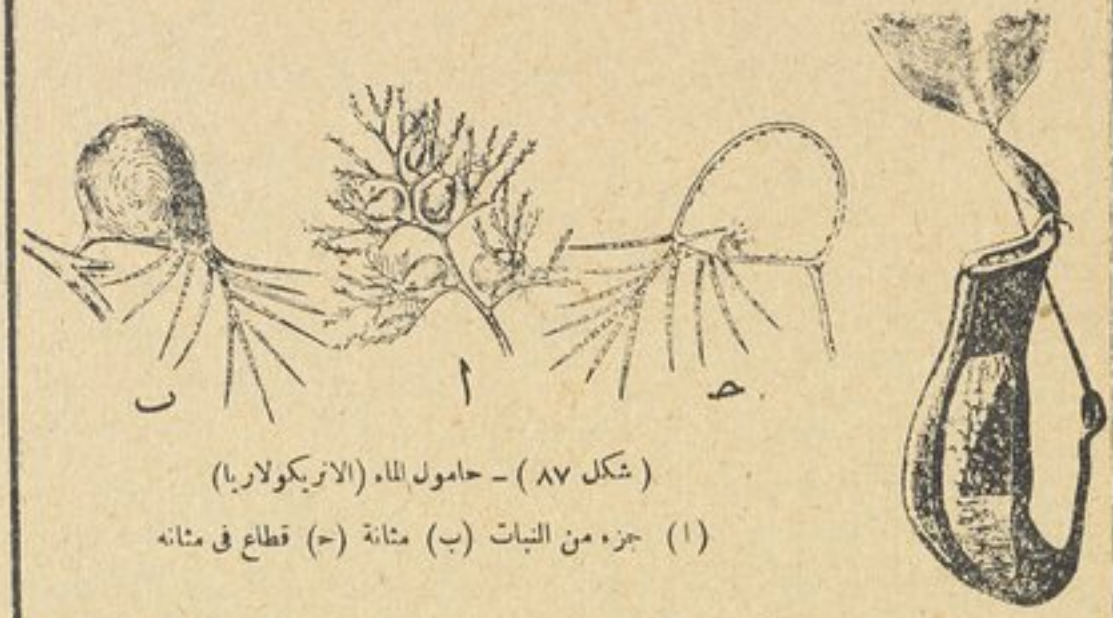

(شكل ٨٧) ـ حامول الماء (الاتريكولاريا)
(ا) جزء من النبات (ب) مثانة (حـ) قطاع فى مثانه

(شكل ٨٦)
جرة التبنقس

هذه هى الصور التى ظهرت منقوشة على ذلك البساط ، وقد كتبت تحتها أسماؤها بهيئة بديعة بهجة للناظرين وحكمة للمفكرين .

فلما رآها القوم نظر بعضهم إلى بعض ، وأخذوا يتساءلون ماذا من الفهم ومن الحكمة فى هذه الصور صور بديعة ونقوش جميلة ، لاسيما أنها قد ظهرت بهيئتها فى شجراتها ، ولكن الصور المرئية شىء والعلم شىء آخر ، الصور مبذولة للجهلة والعلماء ، ولكن العلم يعوزه درس وتحصيل ، ولا درس هنا ولا تحصيل ذلك هو الذى كان يدور فى عقول بعض الجالسين وفى عقلى أنا أيضا ، هنالك أخذ الحكيم يفسر للجماعة ما أنبهم عليهم فى هذه الصور المرسومات فقال .

أيها الإخوان البررة الكرام : إنى الآن عرضت عليكم نوعين من الصور : صورا ملفوظة ، وصورا مرسومة والصور الملفوظة أبنت لكم بها معانى الصور المرسومة ، وها أنا ذا أوضح ماذكرته فأقول :

معلوم أن النبات لن يعيش إلا بما يتخلل أجزاءه ، ولكن كيف السبيل إلى ارتفاع الماء فى أجزاء النبات ؟ الله أكبر . الله أكبر : عجب وألف عجب ، كيف يرتفع الماء فى أجزاء النبات ، إن الماء الذى هو حول هذه الأرض مضغوط عليه بطبقة سميكة من الهواء . ذلك الهواء الجوى البعيد المدى المقدر بعشرات الكيلو مترات . وهذا الهواء أشبه بغطاء ثقيل يصل وزن ثقله إلى نحو ١٠ أمتار من الماء تضغط فوق سطح البحار . الهواء غطاء الماء ، ولو انكشف هذا الغطاء لطار الماء ، وثقل الأمتار العشرة المائية يساوى ثقل نحو ثلاثة أرباع المتر من الزئبق ، إذن الهواء فوق سطح البحر ثقله يعادل ثقل تلك الأرباع الثلاثة . إن هذا الثقل تظهر ثمراته فيما يزاوله الناس فى أعمالهم ، إن الناس يرفعون الماء من الأنهر لسقى الزرع وهذا أمر متداول . ولكن الأمر العجيب إنما هى الآلات البخارية التى بها يرفع الناس الماء من الأنهر ، مثلا

النهر يجرى وهو أوطأ من سطح الحقول مترا أو أمتار ، فلنفرض أن نهرا كان أخفض من أرض الحقل نحو ٣ أمتار مثلا فكيف السبيل إلى رفع الماء من ذلك النهر إلى الحقل ؟ لا سبيل إلى ذلك إلا بمعونة ثقل الهواء الجوى ، وبيانه أن هذا الهواء ضاغط على سطح النهر والناس لايشعرون ولا يفكرون . وهذه الآلة فيها أنبوبة حديدية متصله بالنهر . ومتى فرغ الهواء منها اندفع الماء من النهر فخرج إلى الحقل . وذلك بقوة ضغط الهواء الجوى .

الله أكبر . إن ارتفاع الماء فى أنبوبة الآلة البخارية أو الكهربائية إنما يكون بضغط الهواء : أى بضغطه على سطح النهر مثلا ، وهذا الضغط قلنا إنه يقرب من ١٠ أمتار . إذن الماء لايرتفع أكثر من عشرة أمتار بهذه الآلات . بل التجربة أثبتت أنه لا يصل إلى هذا المقدار ، ولم تمكن فى الأرض آلة ترفع الماء فوق ذلك لأن الرفع بالضغط الجوى والضغط الجوى هذا شأنه .

الآبار الارتوازية

إننا إذا وضعنا ماء فى إناءين ووصلنا بينهما بأنبوبة مثلا فإننا إذا صببناه فى أحدهما فان الماء فى الآخر يرتفع بمقدار ارتفاعه فى الاناء الأول ، لأن الإناءين متصلان بموصل بينهما ، وهذه التجربة البسيطة التى يعرفها كل امرئ فى الأرض هى التى بها كانت الآبار الارتوازية ، تلك الآبار التى قد يحفرها قليل من الأغنياء وتصل إلى غور بعيد جدا حتى يصل الحفر إلى أنهر عظيمة فى غور الأرض تتصل بأعلى مجرى النيل فى السودان . وهذا المجرى يصل إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجرى النيل الظاهرى تماما .

فالماء المرتفع بهذا العمل العظيم يرتفع على سطح الأرض لأنه مبنى على قاعدة الاناءين المتصلين بعضهما فعلى مقدار ارتفاع الماء فى المنبع يكون ارتفاعه فى هذه البئر تقريبا ، لأن هناك عوامل تقلل ذلك الارتفاع ولكن الذى قلناه هنا من رفع الماء بالآلات البخارية ليس من هذا القبيل ، فليس الماء فى نهر النيل الذى نرفعه بالآلة مرتفعا فى النهر بل هو منخفض . إذ لا يرفعه إلا ضغط الهواء الجوى . ولذلك لايمكن ارتفاعه أكثر مما يستوجبه ذلك الضغط . وهذا ارتفاع محدود .

الله أكبر : ظهر ضعف الإنسان أمام هذه القوة القاهرة . وظهر اسمه الجبار المتكبر العزيز القابض الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل اللطيف ، قهر الخلق وتكبر عليهم وعز فقبض الماء عنهم بخفضه فى النهر ثم تفضل برفعه إلى الحقل بآلات ركبوها ، كيف يصعد الماء فى النبات وهو قد يرتفع فوق عشرين مترا ، والنواميس الطبيعية لاتجيز ذلك الارتفاع . فلننظر الآن كيف ارتفع الماء فى النبات وهو مخالف لذلك القانون .

الخاصة الشعرية

لاحظ الناس قديما أن الماء يرتفع فى الأنابيب الشعرية كالفتائل نبلها بالماء فتراه يرتفع فيها ، وسموا ذلك (الخاصة الشعرية) : ذلك أن الماء يرتفع فى الفتيل ضد الجاذبية ، وكلما قل قطر الأنابيب الدقيقة ازداد ارتفاع السائل فيها ، فلما رأى ذلك بعض العلماء قالوا : إن لهذه الخاصية الفضل فى رفع العصارة فى النبات عن طريق الأنابيب التى يتركب منها الخشب كما يشاهد الناس فى قطعة من السكر مبتلة بالماء من أسفلها ، ولكن العلماء بعد ذلك بحثوا فوجدوا أن الخاصة الشعرية لاقدرة لها إلا على رفع قليل لايتجاوز بضع سنتيمترات .

الضغط الجذرى

فكر العلماء فى طريق للحل لما بطل الحل الأول فظهر لهم أن الشعيرات الجذرية إذا امتصت الماء من

التربة فان الماء يندفع إلى أعلى بقوة عسير قوة الخاصة الشعرية ، ويسمونه (الضغط الجذرى) ، ذلك أنهم يقطعون ساق نبات تام فى أصيص بحيث يكون القطع قريبا من سطح التربة ، ثم يركبون أنبوبة زجاجية عليه (شكل ٧٥ للتقدم) ويصبون فيها زئبقا ، فعند خروج العصارة من الساق تحت تأثير الضغط الجذرى يندفع الزئبق فى الأنبوبة إلى أعلى ، ومن الفرق الحادث بين سطحى الزئبق فى البداية والنهاية يمكن تقدير الضغط الجذرى ، وخروج الماء من أجزاء النبات يسمونه (الادماء) والعصارة التى يدميها النبات تحتوى على أملاح معدنية ، وعلى مواد عضوية ذائبة كالسكر والزلال ، وهذا الادماء يمكن مشاهدته إذا قطعت سوق العنب فى أوائل الربيع عند مايبدأ الجذور فى الامتصاص ، ولكن وجدوا بعد البحث والتنقيب أن هذا الضغط الجذرى لايستطيع رفع العصارة من الجذر إلى قمم الأشجار العالية ، فهو لايزيد فى الرفع عن مقدار جوين اثنين : أى لايستطيع رفع العصارة أكثر من عشرين مترا ، فتبين بهذا أن فى النبات قوة لرفع العصارات تفوق قوة الرفع الحاصلة من ضغط الجو فهى ضعفها .

الله أكبر . إن النبات أقوى فى ضغطه ورفعه للماء من الهواء الجوى بل هو مثلاه ، ولكن هذا الحل لم يوف المقام حقه . إذ من النبات مايفوق عشرين مترا . وهو كثير جدا فى كل مكان . فما الحل إذن ؟

الضغط الأسموزى

فهاهنا ضغط جذرى ، وضغط أسموزى . وهذا الأخير له قوة ترفع الماء إلى أمد بعيد فوق القوتين السابقتين ، ثم أخذ يشير إلى الصورة الثانية . قال : هذا اليهق (شكل ٧٦) المتقدم انه أحد النباتات التى تنمو فى الصحراء الشرقية بهذه البلاد (مصر) : مصر فيها صحراء شرقية وغربية . والشرقية معظمها جبلى وفيها أودية غنية بالنبات . والصحارى بوجه عام تمتاز بارتفاع درجة حرارتها أثناء النهار وانخفاضها . انخفاضا شديدا أثناء الليل . وتندر الأشجار فيها مثل السنط والعبل ، أما الشجيرات فهى كثيرة وهذه تكون خشنة كثيرة الأشواك ، ومن النباتات فى الصحراء الشرقية (شوك القتاد) : وهو نبات معمر ونبات (الرطريط) وهو أحد النباتات العصارية المعمرة التى تنمو فيها . ومنها هذا النبات وهو اليهق (شكل ٧٦ المتقدم) .

أنا أيها الإخوان لم أسرد لكم هذا لتقرءوا علم النبات . كلا . فنحن فى هذا المقام نستخدم جميع العلوم فى حكمتنا ومنها هذه النباتات التى فى الصحراء ، الصحراء قليلة الأمطار فماذا يصنع النبات فيها : ماذا يصنع النبات والحر شديد ، والماء نادر كيف يعيش النبات ؟

علوم الأخلاق والسياسة المقتبسات من النبات

أيها الإخوان : خبرونى إذا اشتد الحر على الناس فماذا هم صانعون ؟ فأجابوه بأنهم :

(١) يلبسون الثياب البيض .

(٢) ويرفعون فوق رءوسهم مظلات .

(٣) وينصبون خياما يستظلون بها .

(٤) ويدخلون فى سراديب فى الجبال الخ .

فقال : وإذا قل الماء فماذا يصنع الناس ؟ قالوا : يرفعونه من الآبار بادواتهم .

(٥) يخزنونه فى الصهاريج لوقت الحاجة .

فقال الله أكبر : خبرونى أيها الاخوان عن مقدار رفع الإنسان للماء . فقالوا يرفعونه بالسواقى والشواديف وغيرها عدة أمتار . ويرفعونه بآلات البخار والكهرباء بمقدار عشرة أمتار كما اتضح فى حديثنا السابق .

فقال : أى القوتين أرقى أقوة النبات فى رفع الماء أم قوة الإنسان ؟ قالوا جميعا بلسان واحد : قوة النبات . قال : ولماذا ؟ قالوا لأنك ذكرت لنا أن النبات يرتفع الماء فيه عشرين مترا بقوة الضغط الجذرى ويرتفع أعلى من ذلك بالضغط الأسموزى . فقال لهم بالضغط الأسموزى ؟ قالوا نعم . فقال : وهل تعرفون إلى أى حد وصلت قوة الضغط الأسموزى ؟ فقالوا جميعا : منك نستفيد . فقال : إن الضغط الأسموزى يرفع الماء بمقدار مائة جو . ومعنى ذلك أن قوته فى الرفع تساوى قوة ترفع ألف متر من الماء ! أو نحو ٧٦ مترا من الزئبق ، وذلك فى نحو نبات (الملبيح) الذى يتخلل الصخور ، فبهت القوم من هذا الجواب . فقال لهم هاهنا ظهرت ثلاثة علوم : علم الأخلاق ، وعلم السياسة ، كلاهما فى مستقبل الزمان ، وعلم معرفة سعة رحمة الله فقالوا : وأى علاقة لهذا المقام بهذه العلوم ؟ فقال : أنا أشرح لكم ذلك بعد استكمال هذا البيان . فقالوا أى تبيان تريد . فقال هاهنا (فصلان : الفصل الأول) فى عجائب وبدائع فى النبات (الفصل الثانى) فى أخلاق الإنسان وسياسته ، وفى رحمة الله الواسعة فى الدنيا والآخرة .

الفصل الأول فى عجائب وبدائع النبات

(١) إذا جلس الناس فى المغارات والكهوف وأقفلوها عليهم وقت القيظ فإن للنبات نظير ذلك إذا اشتد الحر عليه فى الصحراوين المصريتين أمرا عجبا . فهناك النبات المسمى (اللصف) (شكل ٧٧ المتقدم) فى وقت القيظ والجفاف تغطى ثغوره وفتحاته بمادة شمعية تمتد حتى تغطى الورقة كلها فيمتنع الحر بالمرة ويبقى النبات فى حال سكون إلى أن يعود فصل المطر .

(٢) وإذا لبس الناس بيض الثياب وقت القيظ فإن النبات المسمى (الرخامى) يلبس أوبارا بيضاء تعكس أشعة الشمس فتمنع الحرارة الشديدة عنه .

(٣) وإذا اجتهد الناس أن يقللوا خروج العرق من أجسامهم بطرق مختلفة خوفا من العطش فهاهو ذا النبات المعروف بنبات (الطقطيق) يغطى بقشور من كربونات الكلسيوم فتمنع عنه شدة الحر .

(٤) وإذا رفع الناس مظلات فوق رؤوسهم ، أو نصبوا خياما بها يتقون الحر فهاهوذا الشيح والبعيثران تتكون فى جوها أنواع من الزيوت الطيارة تنتشر فى الجو المحيط بالنبات فتمنع نفوذ الحرارة بسهولة إليه كما يدلك أهل السودان أجسامهم بالزيت لشدة حرارة طقسهم .

(٥) وإذا خزن الناس الماء فى صهاريجهم لوقت الحاجة فهاهوذا النبات المسمى (العنيصيل) فانه يحفظ الماء فى بصله وفى درناته المدفونات تحت الأرض كما تخزن الجمال الماء فى متسع خاص له فى أجوافها وتعيش به أياما .

(٦) وإذا رأينا الناس إذا اشتد الحر ولا ماء عندهم يمتصون بعض الرطوبات القليلة تقليلا لظمئهم فهكذا نجد نبات اليهق (شكل ٧٦ المتقدم) له خلايا خاصة تمتص الرطوبة من الجو وماء الندى .

(٧) وإذا رأينا الرجل إذا قل ماله يسعى فى تخفيف أعباء الحياة عنه ، فإذا كانت له مركبة أو حصان يركب عليه باعهما ؛ وإذا اعتاد البذخ والظهور بمظاهر الزخرف والزينة بين الناس قلل ذلك تخفيفا لعبء الحياة عنه . هكذا نجد أن منه فى فصل الجفاف ما تتساقط أوراقه فتبقى عارية كما فى (السل) و (شبث الجبل) ، ومنه ما يخلق عاريا بلا ورق ألبتة كما فى (الرثم) .

(٨) وإذا

(٨) وإذا رأينا الناس فى وقت القحط قد يلزمون حجراتهم . فهكذا نجد (السنامكى) و (القتاد) فهذان تنطبق وريقاتهما اتقاء الحر .

(٩) وإذا وجدنا أن للأنهر الجارية فى الأرض مهندسين يقدرون ارتفاع الماء وانخفاضه على حسب الحاجة ، هكذا نجد فى بعض النبات (خلايا حارسة) وهذه تحيط بثغور النبات . فإذا كان الهواء الخارجى شديد الجفاف فإن البخار الذى فى المسافات التى سماها العلماء (بينية) يخرج عن طريق هذه الثغور فيحل محل هذا البخار ماء جديد من الخلايا المحيطة بالمسافات البينية ليحل محل البخار المفقود فيزداد تلوين العصارة فى هذه الخلايا ويصغر حجم الثقب ، وعلى ذلك تكون الخلايا الحارسة هى التى تنظم مقدار الماء الخارج من النبات الخلايا الحارسة (شكل ٧٨ المتقدم) إن بخار الماء الذى يخرج من النبات على هذا النحو ، وهو الذى يسمونه (النتح) قد يكون كثيرا جدا حتى تفقد الشجرة الواحدة به ٥٠٠ لترمن الماء فى اليوم العادى ، وتفقد أضعاف هذا المقدار إذا اشتد الجفاف وارتفعت درجة الحرارة .

(١٠) ومن النبات ماتكون ثغوره غائرة فى حفر كما فى الصبار (شكل ٧٩ المتقدم) فلا تتصل بالهواء الجوى مباشرة . وقد تكون فى الحفر حول الثغور شعور كما فى نبات الدفلة .

(١١) وإن من العجب أن تنويع النبات دائما مناسب للأحوال التى تحيط به ، تنوع غريب وإبداع عجيب ، إن بعضه أعطى قوة أشبه بقوة الضفادع من حيث إنها تعيش فى الماء تارة وعلى الأرض أخرى ، وتلبس لكل حال لبوسها من خياشيم فى الماء ورئة فى الهواء ، أفلا تعجب ألفمرة من النبات المائى الهوائى (شكل ٨٠ المتقدم) فان أوراقه المغمورة تحت سطح الماء تكون شريطية الشكل تتحرك مع الأمواج بكل سهولة ، أو مجزأة إلى خيوط رفيعة ، وفى الوقت نفسه تكون الأوراق التى فى الهواء . أو على سطح الماء ، شكلها على مقتضى ماجرت به العادة .

(١٢) ومن أعجب العجب أن الثغور لاتكون إلا فى الأوراق الطافية : أى على السطح العلوى منها أما السطح السفلى فلا ثغور له ، لأن الثغور جعلت لامتصاص ماينفعها من الهواء . فأما الثغور التى فى الهواء فثغورها فى السطحين معا .

(١٣) فقال بعض الحاضرين : أنت ذكرت لنا المسافات التى سماها العلماء (بينية) ولكن هذه كلمة مجملة فهل تتفضل بإيضاحها . فقال : إن المسافات البينية قد يشتد اتساعها جدا ليتمكن النبات من تخزين الأكسوجين فيها لتهوية أنسجته (شكل ٨١) .

(١٤) ومن أعجب العجب أن فى النبات ماله إحساس واضح كما هو واضح فى الإنسان ، وبهذا الإحساس يقبض على مايحس به ويتمسك به كما يتمسك الصبى بجسم أمه أو بثديها ، وهذه النباتات لها مايسمى (المحاليق) (شكل ٨٢) وهذه النباتات ذات المحاليق تسمى بالنباتات المتسلقة ، وهذه ذات أنابيب متسعة ، وذلك الاتساع جعل لتسهيل تحرك العصارات المختلفة فى سوقها الطويلة الملتوية .

(١٥) وللنباتات المتسلقة التى تنمو فى الغابات الكثيفة فى المناطق الحارة سوق خشبية ضخمة . أما سوق المتسلقات العادية فهى ضعيفة ، والتساق إما بالجذور أو بالمحاليق المتقدمة ، أو بالأشواك الخطافية أو بالتفاف سوق النبات حول دعامة النبات الآخر ، ومن أعجب الالتفاف مافى (شكل ٨٣)

للتقدم ، فانظر كيف تجد الالتفاف إما فى اتجاه حركة عقرب الساعة ، وإما فى اتجاه عكس حركتها .

(١٦) وإذا رأينا أن من نوع الإنسان من لايعيش إلا على اللحم مثل (الاسكيمو) فى الأقطار الشمالية إذ لاطعام لهم هناك غيره . فهم مضطرون إلى الاقتصار على أكل مايصطادونه منه . فهكذا من النبات مايعيش فى الأرض الحمضية التى تقل فيها (بكتريا التأزت) : أى فى الأرض التى لا تتوافر فيها الأوزوتات اللازمة لحياة النبات ، فماذا يفعل ذلك النبات إذن ؟ إنه يسعى للحصول على الأوزوت من أجسام بعض الحيوان . وخصوصا الحشرات ، وهذه نباتات تسمى آكلات الحشرات . وهذه لا مندوحة لها عن أن تحور أجسامها تحورا يلائم وظيفتها ، وهى الاقتناص فهاك (شكل ٨٤ و ٨٥ المتقدمين) فان على أوراق النبات فيهما زوائد حساسة تفرز مادة حمضية لزجة تلتصق بها الحشرات إذا لامستها . وعندما تحاول الحشرة النجاة تشتبك بزوائد أخرى حتى يصبح خلاصها مستحيلا ، ثم تنحنى هذه الزوائد على الحشرة وتفرز عليها مواد هاضمة تذيب جسمها ، وتمتص بعد ذلك المواد المذابة . وعند نهاية عملية الامتصاص تعتدل الزوائد وتعود الورقة إلى شكلها الطبيعى . (وأنا أقول : انظر هذا المقام موضحا أعظم إيضاح بصور بديعة جميلة فى سورة الرعد عند آية : «وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» فراجعه هناك إن شئت) .

(١٧) وفى شكل (٨٦) المتقدم طريقة أخرى للاصطياد ، وذلك أن فى النبات المسمى (نبات البيتشر) تصير ورقته أشبه بهيئة الجرة . وهذه الجرة لها غطاء يقفل ويفتح حسب الحاجة ، وماء المطر يجتمع داخل الجرة . ثم يفرز النبات فيها رحيقا ، وهذا الرحيق يجذب الحشرات ، فاذامادخلت فيها حشرة انزلقت أرجلها وسقطت فى الماء ، ومتى سقطت يقفل الغطاء عليها ليمنعها من الفرار ويفرز النبات مواد تهضم جسم الحشرة ، ثم يمتص النبات بعد ذلك المواد الناتجة من ذلك .

(١٨) وليس فى مصر من النباتات التى تأكل الحشرات إلا نوع واحد ، وهو (حامول الماء) وهذا النبات يحمل أجساما منتفخة تشبه (الثلاثات) ولكل منها غطاء خاص يسهل فتحه من الخارج ويتعذر فتحه من الداخل ، فاذا دخلت حشرة مائية فى إحدى الثلاثات تحبس فيها ولا يمكنها الخروج فتبقى حتى تموت ، وتمتص مادتها بواسطة خلايا خاصة تبطن جدار الثلاثة من الداخل (شكل ٨٧ المتقدم) .

هذا أيها الاخوان ماأردته من البيان توطئة لفهم العلوم السياسية فى مستقبل الزمان : والعلوم الأخلاقية وسعة رحمة الله تعالى . وآن لى الآن أن أبين ذلك فأقول :

الفصل الثانى فى الكلام على ارتقاء أخلاق الإنسان وسياسته فى مستقبل الزمان

وسعة رحمة الله تعالى

ذكرت لكم فيما مضى أيها الاخوان أن (نبات المليح) يصعد الماء فيه بقوة ١٠٠ جو . وبعبارة أخرى قلت لكم إن فيه قوة ترفع ألف متر من الماء ، أو نحو ٧٦ مترا من الزئبق ، مع أن هذا الرفع مضاد للجاذبية العامة ، إن طبائع هذه العوالم الأرضية إنما هو الثقل والنزول إلى أسفل ، فالحجارة والجبال والشجر والدواب كلها ثقيلة ، كلها مجذوبة نحو الأرض ، إن هذه الجاذبية نعمة على سكان الأرض . لولا هذه الجاذبية لتفرقت أجزاء الأرض فى الجو ، ولم يبق جبل ولا جمل ولا شجر ولا حجر ، بل كانت هذه كلها تطيح فى الأجواء فلا يعرف مستقرها : «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا» والناس سموا ذلك جاذبية وهم لا يعلمون ماهى هذه الجاذبية ، وهم لم يجدوا فى الطبيعة كلها أمرا يرفع الثقيل ، اللهم إلا أن الأنابيب الشعرية ترفع الماء بعض سنتيمترات : فهذا أمر عام فى كل جماد فيه تلك الأنابيب : ولكن الأمر العجيب الغريب الذى لم تعرفه المواد التى ليست فيها حياة : ماامتاز به النبات وكيف أعطى قوة تقاوم ثقل الهواء الجوى مرتين وأكثر إلى مائة ضعف ، هذا أمر حادث لم يعرف فى الجماد ولكن النبات اتصف به ، إن الجاذبية كما قلنا ضرورية للمادة فى أبسط أشكالها فأما إذا ارتقت المادة بأن صارت نباتا مثلا فإنا نراها تخلع هذا الجلباب الخشن وتلبس ماهو أرقى منه ولا ترضى بالذلة والحبس والهوان ، بل تحارب هذا الخلق وتتكبر عليه وتأباه وتأخذ فى الارتفاع .

تنظر إذن فى نوع الإنسان فترى أنه الآن فى أخلاقه وفى سياساته لايزال يتسكع فى الجهالة ، لايزال على البادئ من أخلاقه ، هو كالمادة فى أبسط أحوالها . إذ هى لاتعرف إذ ذاك إلا الجاذبية لكى تبقى محفوظة ، فالإنسان الآن فى أخلاقه لايزال على وجه العموم أقرب إلى الوحشية ، وما الوحشية إلا التشبث بأخلاق البغضاء والحسد والقطيعة التى تجعل الإنسان عاكفا على شهوات نفسه ، غير مبال بما ينفع غيره ، فهو أشبه بمن يلتصق بالأرض فلا يبرحها وهو يضارع الوحوش فى معاملتها الإنسان ، إن أخلاق الإنسان اليوم أقرب إلى أخلاق الأطفال ، الطفل يريد أن يجعل كل شىء تحت أمره . فكأن العالم لم يخلق إلا له وعلى هذا المبدأ سارت جميع الدول فى معاملة غيرها . كل دولة لاتود إلا أن تجعل غيرها كالمسخر لها . وهذه أخلاق كثير من جماهير الناس والأفراد لاسيما الأشرار ، فهم يقتلون ويسرقون ويسطون ، وهذه بعينها طبيعة المادة العامة ، وهى النزول من أعلى إلى أسفل ، نعم فى طبائع بعض الأمم اليوم صفات الارتقاء والعلو الأخلاقى ولكنه علو قليل جدا كارتفاع الماء بالأنابيب الشعرية بعض سنتيمترات .

الله أكبر : للنبات قوة الارتقاء عن بسائط المادة لانسبة بينها وبين الارتقاء الذى وجد فى الأنابيب الشعرية .

الله أكبر : أى نسبة بين سنتيمترين أو ثلاثة وبين ألف متر ، نبات المليح يقاوم الأجسام التى تعوقه مقاومة ترفع ألف متر من الماء . هذا والله عجب . الإنسان أرقى من النبات أضعافا مضاعفة ، والإنسانية اليوم أخذت ترتقى ، وفى الإنسان من القوى الكامنة مايدهش اللب . سيرتقى الإنسان للمستقبل عن الإنسان الحالى أضعاف أضعاف ماارتقاه النبات عن المادة البسيطة فى مضادته لها فى جذب العصارات .

موازنة بين قوى النبات وقوى الانسان

وأن تلك القوى كامنة لايبرزها إلا اختلاف البيئات

فى الإنسان قوى كوامن ، وتلك القوى لايظهرها إلا عوامل تكون سببا فيها . نبات الحقول فى مصر موفر الماء فلا ترى فيه هذه القوى الجاذبة إلى أعلى ، لأن ماء النيل يعم الأرض ، ولكن نبات الصحارى

والقفار قليل الماء يحيط به الحر والضوء . فتظهر فيه قوى كانت كامنة فيرفع الماء إلى أعلى بقوة هائلة .

ضرب مثل للنبات فى ظهور قواه الكامنة بظهور قوى الأمم فى رقيها بالعوارض المزعجة

الله أكبر . إذن كلما كان الإنسان موفر الغذاء لا يعوزه شيء من خارج كان ضعيف الإدراك والقوى وكلما كان أكثر حاجة وتعرضا للمهلكة والمزعجات كان أرفع شأنا وأعظم قوة . فهذه اليابان التى تعيش فى جزائر مهددة بالبراكين والزلازل ، منعزلة فى البحر جهة الشرق الأقصى وهذه انكلترا التى تعيش مثلها فى جزائرها يحيط بها البحر من كل جانب ، وأرضها لاتعول سكانها أكثر من بضعة شهور دفعتها الحاجة أن تعبر البحار ، وتسلك القفار ، وتدرس الأمم وتحتلها ، ومثلها اليابان كل هذا لما انتابها من الضيق ، وأحاط بها من الفاقة ، فهى مثل نبات الصحارى المصرية مثلا لما حرم ماء النيل والمطر الغزير أعطى هذه القوة الكامنة فيه .

سياسة الأمم والأفراد فى المستقبل

إن مثل النبات فى صحرائنا المصرية ومثل الأمم النشطة كسكان حضرموت واليابان وانكلترا جعلها الله ضرب مثل للأمم المستقبلة فى كرتنا الأرضية ، يرى الناس أن ارتباطهم وتواصلهم واختلاطهم يزداد سراعا ، ويرون الراديو والتلغراف بنوعيه والطيارات التى تسير بالناس شرقا وغربا فى السلم ، وتنزل عليهم الصواعق فى الحرب ، فتغير هذه الأحوال طباعهم ، ويقتربون اقترابا تولده الحاجة ، وأقرب مثل لذلك النبات فى الصحراء ، والأمم التى علمتها الحاجة كيف تفكر فى شؤونها .

وإذا كانت الأرض قد قدر العلماء لحياة حيوانها ٣٠٠ مليون سنة ، ولحياة الإنسان عليها ٣٠٠ ألف سنة ، فإذن هذا الإنسان حديث العهد بالحياة على الأرض ، إذن هو طفل وقد أخذ الآن يبلغ رشده ، وبلوغ الرشد يستلزم ارتقاء قواه بمناسبة ظهور هذه العوامل الجديدة ، فإذا عاش بضعة آلاف سنة أفلا تكون الأفراد من نوع الإنسان أو فر ذكاء وأعظم حكمة ، وأقرب إلى المحبة ، وتكون الإنسانية فى حالة تشبه حال الملائكة فى السماء ، ويكونون كأنهم رجل واحد ، هذه أخلاق الإنسان وسياسته فى المستقبل القريب فضلا عن البعيد .

سعة رحمة الله

أما إن أحوال هذا النبات تدل على سعة رحمة الله فهو ظاهر أعظم ظهور فى الإبداع العجيب والتنويع الغريب الذى ظهر وقت اشتداد الحر وجفاف الماء ، فهذا نبات (الالصف) غطيت ثغوره وقت القيظ رحمة به وبكل حيوان ينتفع به ، وهذا نبات (الرخامى) لبس أوبارا بيضاء محكمة تامة ، والطقطيق غطى بقشور والشيح والبعيثران حامت أنواع الزيت فى جوهما رحمة بهما من الحرارة ، والعنيصيل خزن له الماء فى بصله فى الأرض وغيره أعطى قوة امتصاص الندى والرطوبة من الجو ، وسواء رمى أوراقه ، أو لم تخلق له ، أو أطبقت أوراقه ، أو منح خلايا حارسة ، أو غارت ثغوره فى حفر ، أو نبتت له حول الثغور شعور ، فهذه وغيرها رحمات متنوعات لاحصر لها .

فائدة علم هذه الرحمات للعلماء

إن الله عز وجل أرانا هذه الرحمات فى النبات ونوعها ، وكأنه سبحانه يخاطبنا قائلا : يا عبادى أنا لم أخلق العالم إلا للرحمة ، فها أنا ذا لا أدع فرصة للرحمة التى أظهرتها ، وهذا فى نبات لاروح له وإذا كانت هذه أعمالى مع نبات لاروح له فكيف تكون أعمالى مع من له روح ، وهم خلاصة خلقى وأرقاهم وهو الإنسان .

وتكون نتيجة هذا المقام أن الذين يفهمون أمثال ما فهمناه فى هذا المقام ويوقنون به هم وحدهم الذين يتمتعون بسعادة فى نفوسهم لا يحلم بها جميع الناس حولهم .

هذه الطائفة مخلوقة فى الأرض ؛ وكأن الله يخاطبها فى كل صباح ومساء ، بماذا يخاطبها ؟ يخاطبها بالشمس والقمر ، بالماء والثلج والبرد : بالحر والبرد ، وبكل مادب وطار ، يشاهد فيها رحمة لاحد لها ، فيفرح هو بالرحمة التى تحيط بالعوالم فرحا لا حد له ، وهذه الطائفة تحدثهم نفوسهم بما يأتى :

إن أرواحنا آتية من العالم القدسى الشريف ، وهى أقرب إلى صانع العالم بحسب فطرتها بدليل أنها تفرح بهذا الحكم ، وتزداد بسطا وانشراحا بهذه العجائب ، ما هذا الفرح ؟ إنه دليل على أن هذا الجمال ديدنها هى لأن الإنسان لا يفرح إلا بما يوافق عقله ويناسب مزاجه ، فهذه النفوس أقرب إلى ربها ، لأنها تفرح بأسرار أعماله ، وكأنه يخاطبهم ، وهو يلهمهم كل عمل جميل وجليل .

هذه الطائفة إذا درست أمثال هذه النباتات الصحراوية المصرية تطير فرحا كأنها هى التى اتصفت بهذه الصفات ، وهذا شعور عجيب يدل على قربها من ربها قربا عليا ، والله منزه عن المادة وعن الحوادث ، وهؤلاء الآن يكاد ينطبق عليهم فى الحياة قبل الموت أنهم « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » وهم الذين سيقال فيهم يوم القيامة . « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .

فلما سمع ذلك العلماء من حكيمهم قالوا بلسان واحد . لقد وجدت وعلمتنا مالم نكن نعلم من الحكمة المخبوءة فى علومنا . فقال الفلاح الذى سألهم هذا السؤال : لقد شرح صدرى هذا البيان . فقال الحكيم لهم « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » فأما أنا فإنى وعيت ما سمعت ، فلما رجعت إلى حى وأخبرت صديقى الذى سألنى فى موعده الذى حددته له ؛ وهو اليوم الثانى انشرح صدره وقر عينا وقال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ؛ ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » وبهذا تم تفسير (سورة عبس) والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هـ — ١٠ يناير سنة ١٩٣٣ م

تفسير سورة التكوير

هى مكية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد سورة المسد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ

زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *

تشتمل هذه السورة على (مقصدين : الأول) فى وصف أهوال القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى : « علمت نفس ما أحضرت » (الثانى) الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح أن القرآن منزل من الله بواسطة الملك الموصوف بصفات الكمال ، وإثبات النبوة ، وذلك من قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » إلى آخر السورة .

المقصد الأول

لقد ذكر الله فى هذا المقصد أهوال القيامة على سبيل أنها فعل الشرط الذى جوابه أن كل نفس تعلم إذ ذاك ما أحضرت من خير أو شر ،وهذا الوصف اثنتا عشرة خصلة ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة ، فأما التى فى الدنيا فاسمع ماقاله أبى بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة : بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فتحركت واضطربت وهرعت الإنس والجن ، واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم فى بعض ، فذلك قوله تعالى : « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » فحينئذ تقول الجن للانس : نحن نأتيكم بالخبر ، فينطلقون إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة ، إلى أن قال : فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم ، فهذه العبارات جعلت للتقريب ليتصور الناس بالإجمال معانى ألفاظ هذه الآيات . وأما التى فى الآخرة فأولها «وإذا النفوس زوجت» وآخرها «وإذا الجنة أزلفت» . ولنشرع فى تفسير الألفاظ فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا الشمس كورت) لفت ، تقول : كورت العمامة إذ لففتها : أى يلف ضوؤها لفا فيذهب انبساطه وذلك معروف الآن فى علم الفلك ، وهو أن كل شمس من الشموس إذا جاء أجلها فتتت ورجعت لحالها الأولى ، وذهب جميع نظامها ، وأحيلت إلى المصانع الإلهية فى العوالم الأثيرية ليصاغ منها عالم جديد

(وإذا

(وإذا النجوم انكدرت) أى أظلمت (وإذا الجبال سيرت) أى عن وجه الأرض وأبعدت فسارت فى الجو كما يسير السحاب (وإذا العشار) هى النوق الحوامل اللواتى أتى على حملهن عشرة أشهر جمع عشراء ، ولا يزال ذلك اسما لها حتى تضع لتمام سنة، وهى أنفس مال العرب . فإذا كان ذلك اليوم (عطلت) وتركت همملا بلاراع فأهلها إذن يهملونها مع أنهم قبل ذلك لم يكن عندهم أعز منها (وإذا الوحوش) هى دواب البر (حشرت) جمعت من كل ناحية . قال ابن عباس رضى الله عنهما: حشرها موتها (وإذا البحار سجرت) أوقدت فصارت نارا ، لأن الأرض جميعها نار والبحار فوق قشرتها حفرت فيها حفرا ، فمتى سقط قاع البحار وهو طبعا أقرب مايكون إلى الكرة النارية أصبحت البحار نارا كما تقدم ذلك فى(سورة الطور) وسورة (آل عمران) وغيرهما مما جاء فى العلوم العصرية .

هذه هى الست التى فى الدنيا . أما الست التى فى الآخرة فأولها قوله تعالى (وإذا النفوس زوجت) قرنت كل نفس بشكلها الصالح مع الصالح فى الجنة ، والطالح مع الطالح فى النار . وهذا مشاهد فى الدنيا . فجميع المتشابهات تتكاثف . فمواد الهواء فى الجو معا ، ومواد الماء فى البحار معا ، ومواد الأرض تحت البحار لافوقها . ونرى أن العناصر الداخلة فى النبات تسرع لترجع لأصلها فيذهب التراب إلى الأرض . والماء إلى مقره . والهواء إلى مقره وهكذا . ونرى الحجر إذا رفعناه يسقط إلى الأرض ثانيا . لأن الهواء ليس مستقره . وهذاهوسرالحديث: «أنت مع من أحببت» وهكذا الحيوانات كل يألف جنسه . وهكذا بنوآدم لايألف أحدهم إلا من على شاكلته . فهل الآخرة تخالف هذا النظام كلا . فسيكون الناس كل منهم فى المكان الذى يجد فيه من يألفهم أخلاقا ودينا وعلما . وجهلا وكفرا . هذا معنى قوله تعالى : (وإذا النفوس زوجت) وقوله (وإذا الموءودة سئلت) أى المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق ولحوق العار بهم من أجلهن ، وانما سميت موءودة لأنهم يلقون عليها التراب فيثقلها فتموت ، وكانت المرأة فى الجاهلية إذا جلت وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة صغيرة فتمخضت على رأس الحفيرة . فان ولدت جارية رمت بها فى الحفيرة ، وإذا ولدت غلاما حبسته . وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد ولم يئد ، فافتخر به الفرزدق فقال :

ومنا الذى منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد

وقوله (بأى ذنب قتلت) معناه تسأل الموءودة بأى ذنب قتلت ، ومعنى هذا التوبيخ لقاتلها . لأنها قتلت بغير ذنب (وإذا الصحف نشرت) أى صحائف الأعمال تنشر للحساب بعد طيها قبله ليقرأ كل ماعمله، ويقال « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (وإذ السماء كشطت) قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة وقرىء «قشطت» والكاف والقاف كثيرا مايتعاقبان (وإذا الجحيم سعرت) أوقدت إيقادا شديدا (وإذا الجنة أزلفت) قربت من المؤمنين ، هذه هى الست التى فى الآخرة . وجواب الشرط المشتمل على الاثنتى عشرة خصلة (علمت نفس ماأحضرت) من خير وشر . وبهذا تم المقصد الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى

الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح

أن القرآن منزل من الله بواسطة الملك الموصوف بصفات الكمال

قال تعالى (فلا) لازائدة (أقسم بالخنس . الجوار الكنس) يقال : خنس إذا تأخر ، وكنس الوحش إذا دخل كناسه . وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . أقسم الله بالكواكب كلها سيارة كانت أو ثوابت لأن لكل منها رجوعا فى مطالعها سريعا كما فى السيارات . أو بطيئا فى عشرات الألوف من السنين كما فى

الثوابت ، وهكذا جميعها تكنس : أى تستر وقت اختفائها تحت الأفق ووقت النهار لأنها تستر بضوء الشمس لجميع الكواكب تستر وهى تحت الأفق وكذلك بالنهار والشمس ساترة لها لايراها الناس ، وكل الكواكب جارية سواء أكانت ثابتة أم سيارة ، بل جرى الثوابت أقوى ، راجع ماذكرناه فى هذا التفسير فى سور كثيرة كسورة آل عمران والبقرة وغيرها (والليل إذا عسعس) إذا أدبر أو أقبل (والصبح إذا تنفس) أى إذا أضاء الجو عند إقبال روح النسيم الذى يلازم الصبح عادة فجعل ذلك النفس له مجازا : وجواب القسم **قوله** (إنه) أى القرآن (لقول رسول) وهو جبريل عليه السلام . وإنما جعل القرآن قوله لأنه نزل به (كريم) عند ربه ، ومن كرمه نشره للفضائل بين الأمم على ألسنة الأنبياء (ذى قوة) قدرة على مايكلف لايعجز عنه ولا يضعف ، وهو شديد القوى . وهو يهبط من السماء إلى الأرض فى أسرع من طرفة عين . **قوة** للملائكة لايقف أمامها شىء . فهم أشبه بما نحس فى أنفسنا من أنها تستحضر مكانا فى الشرق فما أسرع **أن** تستحضر آخر بالغرب ، هذا نحس به فى أنفسنا . وهى من عالم الأرواح ، والملائكة هم أعلى ذلك العالم **قوتهم** عظيمة . وبهذا المثال نفهم قوله تعالى : «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهو أقرب» . و «من عرف نفسه عرف ربه» فإذا عرفنا فى أنفسنا حركات أسرع من حركات النور ونحن محبوسون . فهذه إشارة من ذى العزة والجلال يفهمنا بها أمرين [أولا] قوة للملائكة [وثانيا] قوته التى لانهاية لها . فكأن أرواحنا التى بين جنبينا رمز لذلك . وبأنفسنا وسرعة انتقالها نفهم هذه الآية ونفهم قوة جبريل عليه السلام . ولولا ماأودع الله فى النوع الانسانى من قوة كامنة وان لم يلاحظوها ماصدقوا الأنبياء فى أن هناك ملائكة وأرواحا . وأنهم أقوياء قوة عظيمة . وهذا كله باعتبار ماقبل هذا الزمان . وأما هذا الزمان فالأمر قد ظهر بوضوح فى علم الأرواح كما ذكرته فى سور كثيرة فى هذا التفسير وأوضحته فى كتابى [الأرواح] وقوله (عند ذى العرش مكين) أى ذى منزلة وجاه عند ذى العرش (مطاع ثم) أى فى ملائكته هناك (أمين) على الوحى . فهذه أوصاف أربعة لجبريل عليه السلام : فهو مكرم عند ربه . ذوجاه عنده . يطيعه الملائكة التابعون له . وهو قوى وأمين .

ثم أخذ يصف النبى صلى الله عليه وسلم فنفى عنه الجنون فقال (وما صاحبكم بمجنون) كما يصفه الكافرون وهل يكون مجنونا من اتصلت نفسه باستعدادها بملك هذه أوصافه ، فهو أمين ومطاع وذو جاه . لاعند ملك من ملوك الأرض . ولكن عند ذى العرش . فهل من اتصل بهذا يكون مجنونا : ولولا مابين الملك وبين الرسول من العلاقة والصفات المتشابهة ماأمكن الوحى ولا الرسالة ، إنما يكون ذلك بالمناسبة . ثم أخذ يذكر معرفته بجبريل فقال (ولقد رآه) أى ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام (بالأفق المبين) بمطلع الشمس الأعلى من ناحية الشرق حيث تطلع الشمس .

واعلم أن للملائكة لايراهم الناس بأعينهم لأنهم أرواح . والأرواح لاتتناولها عيون الأجسام الأرضية . والأرواح والملائكة يقدرون على التشكل بأشكال مختلفة ، فكما نقدر نحن أن نتصور فى أنفسنا صورا عظيمة ولكن لانقدر أن نخرجها فى الخارج هكذا يقدر الملائكة وتقدر الأرواح أن تتصور ماتشاء . ولكن تلك العوالم تقدر على إبراز ماأرادت فى الخارج وتشكل ماتشاء من الأشكال . ولما كانت عظمة النفوس الشريفة كالأنبياء والعلماء والملائكة لايمكن الاطلاع عليها إلا فى عالم غير عالمنا فإننا لانرى نفس الكرم . ولانفس العالم . ولاشجاعة الشجاع فى هذه الدنيا وإنما نرى الآثار . هكذا الملائكة لا يمكننا أن ندرك ماغرس فيهم من المكارم والعلوم والقوى ، ولكنهم قادرون أن يبرزوا ما كمن فيهم بالأشكال التى يظهرون بها ليعرفونا جمال أنفسهم وعظمتها وطهارتها ظهر ذلك فى علم الأرواح فى أوروبا : فقد ظهرت لهم الأرواح بصفاتها من شقاء وسعادة . وهذه هى الأرواح السافلة فإنها تظهر بصور تدل على مقدار مقامها ومركزها فى البرزخ .

إذا عرفت هذا فهمت حديث ابن عباس من رواية البغوى «أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من جبريل أن يراه فى صورته التى يكون عليها فى السماء ، قال جبريل : فأين تشاء أن أتخيل لك ؟ قال بالأبطح قال لايسعنى ذلك . قال فبمنى : قال لايسعنى ذلك ، وقال فى عرفات مثل ذلك ، فواعده بحراء ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم فى الموعد ، فرأى جبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ مابين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم خر مغشيا عليه فتحول جبريل على صورته وضمه إلى صدره ، وقال يامحمد لاتخف فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش لعلى كاهله ، وانه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله جل جلاله حتى يصير كالصعور : يعنى كالعصفور حتى مايحمل عرش ربك إلا عظمته » اهـ .

هذا مارواه البغوى باسناد الشعبي عن ابن عباس مع بعض اختصار ، وليس المقام مقام تصحيح الحديث أو تضعيفه ، وإنما المقام مقام أن الآية أثبتت أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، ونحن لاندرى كيف رآه إلا إذا جاءنا بسند صحيح ، فأما مانقلناه هنا فإنه صرح فيه بما قدمنا فقال : فأين تشاء أن أتخيل لك ، ومعنى هذا أن أتصور لك بالهيئة التى تعطيك مايشبه خلقى الروحية ، فهذه أشكال صورية تدل على ماوراءها كما يدل وجه الإنسان وشكله على ماوراءه من الأخلاق . وأما كونه ملأ مابين المشرق والمغرب ، وأن رأسه فى السماء ورجليه فى الأرض فهذا تمثيل لاطلاعه على العالم العلوى والسفلى ، لأن الملائكة مدبرون للعوالم ، والمدبر مطلع على مادبره ، فجعل ذلك المظهر ليدل على حقيقة كماله فى العوالم العلوية والسفلية ، فسده الفراغ بين المشرقين واتصاله من أعلى بالسماء ومن أسفل بالأرض تصوير لحقيقة علمه وقدرته . وماذكرت هذا الحديث إلا لما عرفت أن هذه قوة الأرواح فهى تتشكل للنائم للمغناطيسى على مقدار مقامها . فهنا تصور الملك على حسب مرتبته واتساع نظام عمله ودائرة أحكامه . وأما وصفه لإسرافيل بما وصفه فذلك دلالة على تفاوت الملائكة ، وهذه الأوصاف دلالات على الحقائق التى لايمكن الاطلاع عليها فى عالمنا وإنما ظهرت صورتها لاهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن نفسه مستعدة لذلك بالنبوة ، فهذا المثال معقول صح الحديث أو لم يصح ، وقوله (وماهو) أى محمد صلى الله عليه وسلم (على الغيب) أى الوحى وخبر السماء (بضنين) أى بخيل : أى لايبخل بالتعليم والتبليغ (وماهو بقول شيطان رجيم) أى أن القرآن ليس بسحر ولا كهانة ، إذ كانوا يقولون : إن الشياطين المسترقة للسمع يلقونه إليه فهو كاهن أو ساحر ، وإذا سدت هذه الأبواب (فأين تذهبون) أى أى طريق تسلكونه ، يقال لتارك الجادة أين تذهب ؟ وهذا معناه الاستضلال . كأنه يقول أنتم ضالون (إن هو إلا ذكر للعالمين) تذكير لمن يعلم (لمن شاء منكم أن يستقيم) يتبع الحق ويقيم عليه وينتفع به . ثم بين أن مشيئة العبد تتوقف على مقدمات ترجع فى أواخر أمرها إلى مشيئة الله تعالى فقال (وماتشاءون) الاستقامة (إلا أن يشاء الله رب العالمين) مربى الخلق أجمعين . وهو لايشاء إلا ما اقتضته الحكمة ، والحكمة تقتضى عدم الطفرة . بل لابد من النظام التام فى العالم انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

فى هذه السورة إعظام أمر الكواكب ، واختلاف الليل والنهار ، وتذكير الناس بأمر الملائكة ، وإرشادهم أن هذا العالم الذى أنتم فيه ضيق محصور ، والذى يعيش فيه يعيش فى أوساط فيها ضلالة وخيانة . أما العالم الأعلى فالذين فيه أمناء قد قربوا من ربهم ، ولهم قوة عظيمة وعلم . فأما أنتم فى الأرض فضعفكم ظاهر

وعلم قليل ، فليجتهد الناس حتى ترقى نفوسهم بحب ربهم وخدمة عباده كما يفعل الملائكة والأنبياء ، فالعلم والعبادة وحب الخلق هذه هى القربات لله ، لأن الله جواد يحب من اتصف بالجود ، وأعظم الجود بث العلم بين الشعوب كما تفعل الملائكة . فهم عند الله ذووجاه والأنبياء عند الله ذووجاه . فليجد كل امرئ فى أمرين : حب العلم حبا مفرطا : وحب الناس ، فيجتهد المرء فى تكميلهم فإنه لامحالة سيلتحق بالأنبياء والملائكة على مقدار ماعمل . فهذه أوصاف الملائكة والأنبياء . فهم جميعا أمناء على الوحى يبلغونه للناس ومحبون للعلم ، ولولاه مانالوا هذه المراتب ، والعلم وحده هو القرب من الله ، بل العبادة من أسباب لطف الوجدان الذى يعد النفس للعلم اه .

تذكرة

لقد أعظم الله أمر العلم فى هذه السورة . وأمر عالم الروح والملائكة ، وفتح للناس باب الذكرى فانظر كيف ذكر ذهاب عالمنا وإقبال عالم الآخرة فى اثنتى عشرة صفة ، وذكر ظلام الليل المدبر وقد تبعه ضوء الصبح المسفر مذكرا الإنسان بأمر الدنيا الملتبس المشتبك وأمر الآخرة الواضح البهى الذى لاالتباس فيه ، وكما أن الناس فى وضح النهار ونور الصباح يعرفون الألوان والأبعاد والأشكال . ويبصرون أكثر الأشياء وقد كانوا بالليل لايفرقون بين الأبيض والأسود . هكذا سيكون الناس يوم القيامة الكبرى والصغرى : أى عند الموت الفردى إذا انقضت آجالنا يتنفس صبحهم ، وتشرق شمس أرواحهم . ويطلعون على ما كانوا يجهلون : وحينئذ لايبقى إلا ماحملته الروح من الخصال العلمية والعملية ، فقد تكون النفس ذات مكانة عند ذى العرش مطاعة أمينة . وقد تكون ضد ذلك فتلقى فى سجين .

ليست هذه الدنيا كلها للواحد منا ، إن أحدنا متى مضى من هذه الأرض فقد جسمه ، وانطفأت شمس روحه من العالم الأرضى ، وغابت نجوم حواسه ، وسيرت جبال جسمه ، وهى العظام ، وذهبت قواه التى بها يسافر وينتقل ، وجمعت له جميع أعماله فعرفها وهكذا ، وكل ماقيل فى القيامة الكبرى له نظير فى الصغرى والناس لامحالة راءون نتيجة حياتهم فى قيامتهم الصغرى ، فالناس فى حال البرزخ مطلعون على ماكن لهم فى الغيب ، متمتعون بنعيم ، أو معذبون بجحيم ، والإنسان بعد الموت هو الإنسان الآن ، وعلى مقدار استعداده تكون رتبته ، والقيامة الكبرى أشبه بالمدارس العليا يوضع فيها الناس على مقتضى الدراسة الثانوية والثانوية على مقتضى الدراسة الأولى ، فحياتنا ابتدائى ، والبرزخ بعد الموت ثانوى ، والقيامة الكبرى نتيجة الحياتين وهى على مقتضاهما اه .

لطيفة فى قوله تعالى : فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس

مما يناسب هذه الآية ماجاء فى إحدى جرائدنا المصرية وهى الأهرام بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٣٣ م تحت العنوان الآتى ونصه :

إشارات من المريخ فى القطب . الفلكيون يحاولون العلم بما فيه

التكنوكراسى دواء جديد لداء العالم

لمراسل الأهرام بنيويورك فى ١١ يناير سنة ١٩٣٣ م

إذا عجز العلماء والفلكيون عن إتحافنا ببرهان مقنع على وجود حياة فى المريخ وغيره من السيارات المجاورة فلا يكون ذلك العجز ناتجا عن إهمال منهم ، أو قعود عن السعى لبلوغ تلك الغاية . لأنهم من يوم اخترع التلسكوب مافتئوا يوجهونه إلى هاتيك الأجرام السماوية ، وعلى الخصوص إلى مايسمونه السيار الأحمر

والزهرة محاولين العلم بما إذا كان لأرضنا هذه من مشاكل فى الأقطار العليا يكون مثلها مأهولا بمخلوقات حية ، فقد قرأنا فى هذا الحين عن جماعة منهم فى لندن مصممة على مناجاة إحدى هاتيك السيارات : ولا سيما المريخ . مدفوعين إلى ذلك برسائل لاسلكية قيل إنها قد ترامت بكثرة على الأصقاع الخالية من الدائرة القطبية ، وإنها محمولة على أمواج هوائية من قياس يختلف عن مقياس الموجات التى تستخدمها آلات الأرض اللاسلكية المعروفة . وقد ظن بعضهم بادئ بدء أن هذه الرسائل أو العلامات الغريبة متسببة عن اضطرابات كهربائية تطرأ على الأقطار المتجمدة فترة بعد أخرى ، إلا أن رجال العلم قد جزموا بعد التحرى بعدم وجود مسوغ لهذا الظن ، فهل ما حدث فى مجاهل القطب علامات من المريخ ، أو هو حادث طبيعى متأت عن باعث غريب يستحيل على العلماء إماطة اللثام عن سره الخفى ؟ ولكن جماعة العلماء فى لندن يعتقدون عن يقين أنها علامات قصد بها مرسلوها التخاطب مع سكان الأرض ، وهم عازمون على إنشاء مركز لاسلكى فى الإقليم القطبى يتناول تلك العلامات لكى يدرسوها ويفسروها وينشروها للعالم .

وهناك وسيلة أخرى قد عمد اليها رجل أمركى اسمه (هرى برايس) للفت أنظار سكان الأجرام السماوية ، وهى أنه يوجه اليهم عمودا من نور بضارع ضياء خمسة عشر مليون شمعة ، ويكون ذا ثلاثة أشعة يصوبه إلى المريخ من قمة جبل فى سويسرا ، وهذا النور يفوق بقوته فيما يقال كل ما ابتدعه الناس من نوعه لمثل هذه الغاية ، وهو يتوقع أن يجيبه المريخيون على هذه الإشارة الضوئية بما يدل على أنهم أدركوا الغرض منها ، ومن غريب ما طالعناه عن مقاصد تلك الطائفة من العلماء فى لندن هو أنهم سوف يعتمدون فى فهم العلامات اللاسلكية التى يتوقعون التقاطها من الأقطار القطبية وتحويلها بعد ذلك إلى اللغة الانكليزية على براعة « وسيطة » فى لندن لم يشاءوا إعلان اسمها تدعى القدرة على مناجاة أهل المريخ بطريقة عقلية خاصة بها ، وهى قد وصفت المريخ وسكانه بتلك الطريقة العقلية أو الفكرية « تليبثى » التى يماثلها قولنا : «من الفكر إلى الفكر سبيل» وأوضحت بها حسب زعمها نسق معيشتهم وهيئاتهم وملابسهم . فاذا أمكن التوفيق بين ماتدعيه الوسيطة وما يترامى من هذه العلامات اللاسلكية على أرجاء القطب الشمالى يكون العلماء على يقين من أنهم بالغون المراد مما هم شارعون فيه ، ويقال إن تلك العلامات ما برحت تتساقط على تلك الأماكن الجليدية تباعا دراكا . وهى حسبما يقولون لا تختلف عن طريقة المخاطبات أو العلامات التلغرافية بل تشاكلها ، وذلك بضرب خطوط ثلاثة واضحة تتلوها أربع نقط فخطان فنقط متتابعة يضعف صوتها على التوالى ، وقد شرع عالمان كبيران ومخترع ومهندس كهربائى فى إعداد ما يلزم لمخاطبة ذلك السيار الذى يبعد عنا ٣٤ مليون ميل يعضدهم جماعة من الماليين ، ولكن الجرائد لم تعلن الأسماء ، ولن تعلنها إلا بعد اكتمال المعدات اللاسلكية وغيرها التى يعدونها لذلك .

وتفهم بمقدرة الوسيطة عظيمة مبنية على صدقها فى كل ما تنبأت به فى الماضى بطريقتها الروحية أو الفكرية وهم يقولون : إنه إذا كان سكان المريخ يعرفون عن أرضنا هذه نصف ما تدعى تلك الوسيطة معرفته عن حياة المريخيين فانهم يعرفون شيئا كثيرا . وقد جربوا طريقة التخاطب الفكرى مع المريخ فى اجتماع سرى عقدوه مؤخرا فبان لهم من ذلك ما شجعهم على متابعة العمل ، وهم يقولون نقلا عن الوسيطة . إن سكان المريخ يقرءون أفكار بعضهم بعضا كما نقرأ نحن ما يكتب أو يطبع على القرطاس .

ومما علمته الوسيطة من مناجاتها لسكان المريخ أن النقود غير معروفة عندهم وأن كل واحد منهم يخزن عمله فى أرضه فى المستودع العمومى ، ويتناول منه على معدل انتاجه لحاجاته الخاصة ، وأن الواحد منهم لا يموت إلا إذا شاء ذلك . على أنه عندما يبلغ من العمر عتيا يخلع الرداء الأرضى إذا أراد ، وأن السنة فى

للريخ تماثل تسع سنوات من سنى أرضنا فيكون ابن الثمانين هناك فى السبعمائة والعشرين من عمره بحسابنا والشاب يتزوج فى الرابعة عشر من العمر ، أو هى السنة ١٢٦ على حساب هـذه الأرض ، ومساكنهم أو معظمها أشبه بالقباب : وجدرانها من الزجاج . والطبقات العليا من السكان تشرب المياه المعدنية ، ولا يدخل أى نوع من اللحم فى أطعمتها . والقسوة عندهم جريمة لا تغتفر ، ولا أثر هناك للقتل والسرقة ، ثم إن الغش والخداع وغير ذلك من ضروب المكايد غير معروفة عندهم لأن كل واحد منهم يقرأ أفكار الآخر ويعرف مايضمره .

فاذا صح ماتقوله هذه الوسيطة عن المريخ فإننا إن تمكنا من الاطلاع على أنظمته وطرائق المعيشة والتدابير العمرانية فيه نكتسب من ذلك مايرينا كيف نتخلص من بلادنا الضائقة وكيف ندبر شئون الأرض على صورة ترضى الغنى والفقير ، والعظيم والحقير ، وعندئذ نتمتع ببركات العصر الذهبى الذى يحاول الوصول إليه والحصول على غبطته الشيوعيون وغيرهم من الاشتراكيين . وهكذا تكون هداية هذه الأرض فى الزمنيات كما كانت فى الروحيات هابطة من السموات .

(تكنوكراسى) اسم أطلق فى هذا الحين على بدعة اقتصادية جديدة يحتج أتباعها على الآلات المختلفة التى بلغت من الإتقان والسرعة فى الانجاز حدا حرم ملايين الناس العمل ، ويقولون إن البحبوحة فى البلاد لا تجىء إلا عن طريق تحصيل المال الكثير وإنفاقه بسخاء . فالذين لا عمل لهم لا مال لهم ينفقونه لأن الآلات قد نابت عنهم فى كل عمل لحرمتهم الاثنين . فهى لذلك من أكبر الأخطار التى تهدد التمدن بالخراب . وللفهوم منها وهو لا يزال فى معظم مناحيه غامضا هو أنها تقول بالغاء النقود فى المعاملات والاعتياض عنها ببدل يبنى على الانتاج السنوى بما يقرب من المقايضة بحيث ينال الواحد كل مايحتاج إليه بعمله فلا يزيد لديه مايوفره أو يستغله أو يهبه . وهى تقضى بتشغيل كل ذى جسم صحيح من ابن ٢٥ إلى ٤٥ سنة بعمل أربع ساعات فى يومين من كل أسبوع ، وبتعهد مبتدعوها لكل واحد من المشتغلين بمعيشة يعدل مستواها مستوى معيشة من يبلغ دخله السنوى عشرين ألف دولار .

ويدعى مروجو هذه الفكرة ومعظمهم من رجال العلم ، المقدرة على جعل الأشياء التى يستعملها الناس متينة بحيث تدوم إلى وقت طويل ، وذلك بواسطة اختراعات هى الآن موجودة ولكن استعمالها ممنوع لمقاصد لا تخفى على اللبيب ، هذه الاختراعات تجعل السيارة مثلا صالحة للخدمة ٦٥ سنة . وشفرة الحلاقة حادة لوقت طويل بدون أن تسن أو تصقل ، واللابس على اختلافها تظل على جدتها خمس سنوات على الأقل ، وهكذا إلى آخر ماهنالك من الحاجات ، وإنهم يستطيعون الثابرة على هذا المستوى من البحبوحة إلى ماشاء الله .

ومن أهم مبادئها تشغيل الكل لخير الكل ، ونبذ طريقة الأثمان والحيلولة دون إثراء جماعة من الناس بوسائل الاحتكار الحالية وغيرها ، وهو مايجعلها قريبة من الشيوعية ، ومن المعلوم أن المبشرين بها صادقون فى قولهم إن الآلات قد نابت عن البشر فى صنع حاجات الجنس البشرى وكمالياته بحيث لا يمر طويل وقت حتى يستغنى عن الأيدى بالكلية ، والذين يحتاج اليهم فى إدارة الآلات لا يحصلون من ذلك مايفى بوقتهم . فقد اعترف أحد الخبراء بأن السيارة التى تباع بثلاثة آلاف دولار لا ينال المشتغلون فى تركيب أقسامها سوى ١٨٠ دولارا ، وعلى السيارة تقاس بقية الأشياء التى تصنعها الآلات المختلفة .

فالتكنوكراسى تبغى تشغيل الآلات على اختلافها لما فيه منفعة المجموع كله ، أما كيف يتسنى لها ذلك

غير مفهوم . وكل واحد من الذين يستحسنونها والذين يقبحونها يفسرها على الطريقة التى يتوسم فيها الخير أو التى توافق هواه . وهى بالرغم من كل تفسير لاتزال غامضة . وغاية مايمكن أن يقال عنها إنها مقاومة للنظام الرأسمالى الحالى . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة . وبهذا تم تفسير (سورة التكوير) . والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانفطار

هى مكية

آياتها ١٩ - نزلت بعد سورة النازعات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ *

هذه السورة (أربعة مقاصد : الأول) فى وصف بعض أهوال القيامة (الثانى) فى ذكر تقصير الإنسان فى مقابلة إحسان خلقه وتسوية أعضائه ، وجعل صورته فى أحسن تقويم (الثالث) فى تبيان أنه ليس مهملا بل إن عليه هناك كاتبين يكتبون الأعمال من حسنات وسيئات (الرابع) فى تبيان أن الناس بعد ذلك على قسمين أبرار وفجار على مقتضى ما كتبه الملائكة الأبرار عنهم .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا السماء انفطرت) انشقت (وإذا الكواكب انتثرت) تساقطت متفرقة (وإذا البحار فجرت) فتح بعضها إلى بعض وصارت البحار كلها بحرا واحدا (وإذا القبور بعثرت) بحثت وأخرجت موتاها (علمت نفس) أى كل نفس بارة أو فاجرة ، وهذا جواب الشرط (ماقدمت) أى ماعملت من الطاعات (وأخرت) أى تركت ولم تعمل (ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم) أى أى شىء خدعك وجرأك على عصيانه مع نهاية كرمه (الذى خلقك فسواك فعدلك) هذه صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم ، والتسوية جعل

الأعضاء سليمة مسواة معدة لمنافعها ، والتعديل جعل البنية معتدلة متناسبة الأعضاء (فى أى صورة ماشاء ركبك) أى ركبك فى أى صورة شاءها . ومازائدة : أى ركبك فى أى شبه من طول وقصر . وحسن وقبح وذكورة وأنوثة . وورد «أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضر كل عرق بينه وبين آدم . ثم قرأ فى أى صورة ماشاء ركبك» (كلا) ردع عن الاغترار بكرم الله (بل تكذبون بالدين) اضراب لتبيان السبب فى اغترارهم ، والدين الجزاء أو الإسلام (وإن عليكم لحافظين) يحفظون أقوالكم وأعمالكم من الملائكة (كراما كاتبين) يكتبون أقوالكم وأفعالكم ، ومنها تكذيبكم بالجزاء (يعلمون ماتفعلون) من خير أو شر (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) الأبرار هم الذين برواوصدقوا فى إيمانهم بأداء مافرض عليهم واجتناب ماتهوا عنه ، والنعيم نعيم الجنة . والفجار خلاف الأبرار ، والجحيم هى جهنم . وهذا هو الذى يكتب الملائكة لأجله (يصلونها يوم الدين) يقاسون حرها يوم القيامة (وماهم عنها بغائبين) أى أنهم ماغابوا عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سمومها ويحسون بألم عذابها فى القبور (وماأدراك مايوم الدين . ثم ماأدراك مايوم الدين) تعجيب لشأن اليوم وتفخيم لأمره . (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) أى لاتستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه فإن شفعت فإنما يكون ذلك بالإذن . ولا إذن إلا حيث يكون الاستحقاق (والأمر يومئذ لله) أى لا أمر إلا لله دون غيره . انتهى التفسير اللفظى .

إيضـــاح

كأن الله يقول : أيها الناس : هذه السماء . وهذه الكواكب ، وهذه البحار التى جعلتها نعمة لكم تمدكم بالأنوار والأمطار ، وبها تحيون وأنتم اليوم عنها غافلون ، تأكلون وتشربون وتتمتعون وأنتم لاتعلمون أن هذا كله مصدره أنوار الكواكب المشرقة على البحار التى ينبعث منها البخار فيصعد إلى الجو فيصير سحابا فتكون الأنهار الجاريات ، فالزرع والحيوان هذه نعمى عليكم وأنتم تعيشون ولاتدرسونها ولا تفكرون فيها سأميتكم ثم أخرجكم من القبور ، وقد شققت السماء ونثرت الكواكب وفجرت البحار فذهبت كل هذه هباء منثورا . وهناك تكون النتائج . فليست الكواكب ولا السموات ولا البحار مقصودة لذاتها . إنما المقصود لذاته هى هذه الأنفس الإنسانية أفلا يستخرج نتائجها التى كتبتها حينما كانت السماء تظلها والكواكب تشرق عليها والبحار تمدها . هناك تسألون عن نتيجة الحياة الدنيا . فهل درستم نظامها . وعرفتم حكمها .

أيها الناس : إن سمائى كانت تظلكم ، ألم تروها كأنها قسطاط أزرق اللون لإراحة أعينكم وصحة نظركم ألم أجعلها محيطة بكم مشرقة بالكواكب المرصعة فى جوانبها ذاهبة آيبة . وهى تجرى بنظام ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، هل رأيتم سقفا كسقفى . أو بيتا كبيتى . جعلته يتلألأ نورا بالليل ببهجة النجوم ، وبالنهار بضياء الشمس . وهذه الحرارة سلطتها على البحار فكان البخار فجرت الرياح فنزل المطر فكان الحيوان وكنتم. ذلك كله مصدره الأنوار الكوكبية والبحار الأرضية . ألم يكن هذا الجمال والنظام كافيين لاستخراج ماكمن فى نفوسكم من الحكمة والعلم .

أيها الناس : ها أنا ذا قد مزقت السماء ، وأسقطت النجوم ، وفجرت البحار ، ولم يبق إلا نتائجها فى صحائفكم ، هذه هى نعمى عليكم فى الآفاق وهى لاتحصى . فأين أعمالكم التى عملتموها مع هذه المشوقات الكونية من النظم الفلكية والعجائب الأرضية . هل كنتم عن هذا غافلين ؟ نعم أنتم غافلون : «وقليل من عبادى الشكور» . هذا هو المقصد الأول .

وكأنه يقول فى المقصد الثانى والثالث ، ها أنتم أولاء يا عبادى . تمتعتم بنعم الآفاق . وهى نعم لاتحصى

فاذا عظمت هذه النعم فأعظم منها تلك النعم التى جعلتها فى خلقكم ، وحسن تصويركم . وإبداع أشكالكم ، وتقدير أعضائكم . وإشراق نفوسكم ، وتنظيم حواسكم : وإعطائكم كل ماتسألونه فى أنفسكم وفى الآفاق : أفليس ذلك كرما فائقا . وفضلا فائضا . وإحسانا شاملا . لم أذر نعمة فى الآفاق إلا أعطيتكموها ، ولا فى الأنفس إلا منحتكموها ، فى الآفاق خلقت الأغذية والأدوية وأدوات المساكن ، ولم أدع الزينة التى بها تتزينون ، ولا الدواب التى عليها تركبون ، ولا الأزهار التى لها تشمون ، ولا الكهرباء التى بها تصنعون وتوقدون ، وفى الأنفس لم أذر عضوا تحتاجون إليه إلاتلتموه ، ولا حاسة لتفعكم إلا خلقتها . بل لم أذر أدق الأشياء كتقويس الحاجب وإنبات الأهداب على شفار العيون بحكمة لعلمى أنها تدفع الغبار وتدخل الضوء وهكذا أنبت شعرات فى الأنف لتحفظ داخله من البرودة الخارجة حتى إذا هبت نسمات باردات قلت حركتها بتلك الشعرات فتسخن شيئا فشيئا حتى تصل إلى الجيشوم دافئة لايضرها ، وهكذا ركبت شعرات على شحمة الأذن لتدفع الحشرات الضارة فتمنع دخولها أو تعطلها ، وهكذا الدقائق التى لا يحصيها الكاتبون كما تقدم من خلق الريق فى الفم لإساغة الطعام وهكذا مما مر فى (سورة عبس) .

أفليس هذا كرما فى الآفاق : وكرما فى الأنفس ، الأنفس أحكمتها ، والصور عدلتها ، والأعضاء قومتها والأغذية أكثرتها ، والزينة نصبتها ، والسعادة لكم أعطيتها ، فكيف يغركم الكرم وأنتم نائمون ، وكيف غاب عنكم أن من اتسع فضله فلم يغفل عن إمدادكم فى مستقركم ومستودعكم ، وحافظ على كل جليل ودقيق من مصالحكم حكيم ، والحكيم لايفعل عبثا .

مثل الناس مع ربهم

إنما مثلكم أيها الناس وأنتم فى الأرض كفقراء نزلوا عند ملك جليل القدر عظيم المنزلة فجعلهم فى قصر بهيج حسن الشكل ، مضاء بالثريات ، مملوء بالخيرات ، ثم أحاطهم بالخدم ، وأمدهم بالنعم ، وأسبغ عليهم الخيرات ، وهو قد أرسل لهم رجالا من كرام عشيرته يتطلعون لهم . وينظرون أحوالهم ، ويكتبون ماصدر منهم ، وأمر هؤلاء الكتبة ألا يبيحوا بأسرارهم . ولا يخبروا بما فى دواوينهم . ولا يعاقبوا هؤلاء الفقراء فدرجت عشيرة الملك على أخلاقه ولم يؤذوا أحدا ولم يكدروا صفوه . بل لم يظهروا لهم : فأما هؤلاء الضيوف الفقراء فان منهم من فكر فى أمر النعم والمآكل واللابس . وقال هذا الملك شأنه عجيب ، فأخذ يفكر فى أمره وفى نظامه . فأعجب جدا بكرمه وحسن خلقه وعطاياه ومواهبه ، ذلك كله بدقة عقولهم وحكمتهم . فأخذ هؤلاء يقلدون الملك فى أخلاقه ، ويواسون إخوانهم ويعطفون عليهم تقليدا له ، ويصبرون على أذاهم كما صبر هو ، لأنهم كانوا يسمعون من أكثر الضيوف معهم سخطا وامتعاضا من الملك ، يستقلون الكثير منه ، ويصخبون لكل حادث ، حتى إذا تمت أيام الضيافة أحضر الملك عشيرته ومعهم الدفاتر المكتوبة ، وأحضر هؤلاء الضيوف وأخذ يوبخهم قائلا لهم : كيف غركم الكرم ، ألم أفض عليكم النعم ، هل ضايقكم أحد من عشيرتى الذين يراقبونكم إنى أطلقت لكم الحرية ، وها أناذا أضع كلا فى مرتبته ، فأما أنتم أيها المفكرون المحبون لعملى ونظامى ، الساعون لخير إخوانكم حبا لى وتقليدا لأخلاقى ، فكونوا معى « فى مقعد صدق عندمليك مقتدر » . وأما أنتم أيها الغافلون عن عملى الكافرون لنعمى ، فانكم لاتزالون تحتاجون إلى تربية بعد تربية ومالأنا بغافل عنكم اهـ :

فهذا التمثيل يفهمك ذكر الكرم فى جانب الله ، والكرم فى وصف الملائكة ، فكرم الملائكة هنا تقليد لكرم الخالق سبحانه وتعالى ، وقد جاء فى هذا التفسير وصف عالم الأرواح فى العلم الحديث كما فى

(سورة آل عمران) وغيرها ، فارجع اليه إن شئت ، فقد أصبح ما فى القرآن يدرس فى جميع العالم الإنسانى بطريق استحضار الأرواح ، فقد علم الناس أن هناك عوالم روحية تنفعنا وتدبر شئوننا وعندها كرم وإحسان لنا لاحد له ، وهذا هو الذى فى هذه السور من قوله : «بأيدى سفرة . كرام برره» فى (سورة عبس) وقوله هنا « كراما كاتبين » . أما المقصد الرابع فإنه ظاهر واضح . وبهذا انتهى تفسير (سورة الانفطار) .

تفسير سورة المطففين

هى مكية

آياتها ٣٦ - نزلت بعد سورة العنكبوت

وهى آخر سورة نزلت بمكة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *

مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة كأنها إيضاح لما قبلها، أو متفرعة عنها . وتفصيل لإجمالها ، كما أن السورة السابقة مشابهة لسورة التكوير ، وسورة التكوير متناسقة مع سورة عبس ، فسورة المطففين والانفطار والتكوير وعبس كأنها سورة واحدة من حيث تناسقها وتكاملها ، وبيانه :

إعادة التمثيل السابق بشكل أجمل ، وهو الملك والقصر البديع

إن من يتأمل هذه السور الأربع يتخيل صورة تمثل البدائع المرسومة فيها على مقتضى مايعتاده الناس ويشاهدونه . وكيفية ذلك :

تصور قصرا فخما عجيب البنيان . رفيع الأركان . واسع الساحات .

(١) قد فرشت أرضه بأنواع الزرابى المنوعة ، والبسط المنقوشة : المتنوعة الأشكال البهجة للناظر .

(٢) وزينت سقوفها بالدراري الحسان . والمصابيح البهجات ، والثريات المضيئات .

(٣) بحيث تجعل بينها مناسبات ومقاييس تعرف السكان كيف يسيرون فى طرق القصر وروضاته ، وأماكنه المتشابهات .

(٤) وهذا القصر لملك عظيم القدر كبير المنزلة .

(٥) له أعوان من عشيرته يسيرون على نهجه ، وهم قد تعلموا منه الكرم جبلهم قواما على قصره وهو من فوقهم مدبر لهم .

(٦) ثم أمرهم أن يدخلوا فى القصر قوما من الفقراء .

(٧) ويعطونهم مفاتيح لكل إنسان منهم مفتاح . وجعل تحت أرض القصر خزائن مملوءة جاوذهبا ومعادن وجواهر كثيرة . ثم جعل لتلك المخازن الكثيرة أقفالا تفتح بتلك المفاتيح ، وليس على الفقير منهم إلا أن يأخذ مفتاحه ويجربه على تلك الأقفال . ومتى فتح مفتاحه قفلا منها استخرج ما كان داخل المخزن إما ذهبا وإما حبا وإما ملابس وهكذا .

(٨) وهؤلاء العشرة الذين نصبهم الملك أمرهم أن يكونوا أساتذة لهؤلاء الفقراء يعلمونهم ويرشدونهم

(٩) وأن يكونوا من جهة أخرى كاتبين لكل صغير وكبيرة من أعمالهم :

(١٠) أما الفقراء فإنهم انقسموا فريقين : فريق أدهشه هذا الكرم . والمعروف العظيم . والفضل العميم . فصار مغرما بالملك وإن لم يره باحثا عن أعماله مشتاقا إليه لما رأى من الدهشات والعجائب أما الآخرون فإنهم أخذوا يتقاتلون على ماوقع بأيديهم من تلك المواهب . فثارت محارب

بعضهم بعضا ، وتارة يأخذون فى التبادل ، فصاحب الذهب يأخذ الثياب ويعطى صاحبها ذهبا وهكذا صاحب الحب يعطى صاحب الذهب مافضل عن حاجته ويأخذ منه ذهبا وهكذا .

(١١) فأخذ هؤلاء يحتالون فى اقتناص الأموال والخدعة فى نهبها من أصحابها ، وكثر استعمال الحيلة فى الأخذ والعطاء فيزيد المرء منهم فى الميزان والمكيال إذا أخذ من غيره ، وينقصهما إذا أعطى غيره .

(١٢) هنالك أوقفهم الملك بين يديه جميعا ، ورفع البررة إلى مرتبة شريفة . فأما الفجرة فإنه أحصى أعمالهم التى كتبها عليهم الموكلون بهم من عشيرته ، وحاسبهم حسابا دقيقا . وأنزلهم فى أسفل سافلين قائلا : إن الكرم الذى غمركم لم يتم إلا بنظام تام فى قصركم ، وحسن تنسيق وعدل . ومن العدل أن أضع كلا فى موضعه ، فهل غركم كرمى أيها الجاهلون . أو ماعلمتم أنى على قدر الكرم حكيم فى صنعى لاأفرط فى مثقال ذرة فيما تعملون ، وهاك تفصيل هذه الإثنتى عشرة مسألة من الآيات فى السور المذكورة .

(١) أما القصر الفخم فهى هذه الدنيا العظيمة .

(٢) وأما فرش أرضه بالبسط المنقوشة الملونة البديعة فهو قوله تعالى : « فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » فى (سورة عبس) .

(٣) وأما كون سقفه مرصعا بالمصابيح الجميلة البديعة ، فهى السماء وكواكبها المذكورة فى قوله تعالى « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت » فى (سورة الانفطار) وقوله أيضا : « إذا الشمس كورت » فى (سورة التكوير) فهذه هى الشرفات الضيئات أطفأها فى الآخرة بعد ما أضاءها فى الدنيا وأخذ يحاسب الناس عليها . وأما وضع المناسبات بين هذه المصابيح فذلك مانعرفه من أن أهل الأرض لايستطيعون الملاحة والسير بالسفن فى البحار المحيطة بالأرض إلا إذا كانوا عارفين نظام هذه النجوم ومواقعها وسيرها .

(٤) وأما الملك العظيم القدر فهو ضرب مثل لخالق العالم .

(٥) وأما الأعوان الذين يسيرون على حسب أمر الملك فهم هنا الملائكة .

(٦) فهم معلمون لهم . وهو قوله تعالى فى (سورة عبس) : « بأيدى سفرة : كرام بررة » وهذا من باب التعليم . وقوله فى (سورة التكوير) : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » .

(٧) وهم من جهة أخرى يضبطون أعمالهم ويكتبونها فى صحائفهم ، فهم من هذين الوجهين أشبه بمدرسى المدارس فى العالم ، فهم يعلمون بشفقة ورحمة ، وهم مهيمنون على التلاميذ يحصون أعمالهم العلمية وأخلاقهم الأدبية : وهذا الأخير فى قوله : « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون » .

(٨) وأما كونهم يعطونهم مفاتيح يجربونها على الأقفال الموضوعة للخزائن الموضوعة فى الأرض ، فهذا تمثيل لما هو حاصل فى هذه الدنيا . فإن الناس على الأرض لم يرسلوا ضوء الشمس من السماء ، ولم يخلقوا البحار ، ولا هم الذين جعلوا ضوء الشمس الذى يسطع فوق ماء البحر يستخرج البخار ، ولاهم الذين جعلوا تلك الحرارة الشمسية تهيج الهواء فيصير رياحا مختلفة تحمل السحب . وغاية الأمر أنهم وهم مغمورون فى النور يهب عليهم الهواء وتنزل الأمطار فتجرى

الأنهار ، يبذرون الحب فى الأرض بشروط خاصة فينبت الحب والزرع ولا علم لهم بإنباته ، فليس الناس هم المنظمين للنبات كما هم منظمون للمساكن ، إن الناس يبنون المساكن وينظمونها بقوتهم وحكمتهم ، ولكنهم قط لم يقدروا أن يخلقوا نباتا من الأرض وينظموا أوراقه وحبه ، فالناس إذن ليس لهم فى الرزق من عمل إلا مايعمله من معه مفتاح يجربه على الأقفال المختلفة حتى يعثر على المخزون فى الأرض ، وإنما جعلنا المفتاح يجرب على أقفال كثيرة . لأن الناس مختلفوا المواهب ، والمواهب تستخرج بالبحث عنها والتنقيب ، ومتى ظهرت موهبة الإنسان استخرج مايليق به من معدن أوحب أو غير ذلك ، وهو لاعمل له فيه إلا هذا ، فالأرزاق ليس للناس دخل فى صنعها ألبتة ، يشير لهذا ذكر الشمس والكواكب والبحار فى (سورة التكوير) (والانفطار) وقوله فى (سورة عبس) : «متاعا لكم ولأنعامكم» .

(٩) وأما كون الفقراء قسمين ، بررة وفجرة فقد ذكر فى (سورة الانفطار) و (سورة عبس) .

(١٠) وأما جزاء البررة والفجرة ، فالأولون ضاحكوا الوجوه مستبشرون وهم فى نعيم ، وأما الآخرون فوجوههم عليها غبرة ترهقها قترة ، وهم فى جحيم ، وهذا فى (سورة عبس) (والانفطار) .

(١١) وأما كون هؤلاء الفقراء يزيدون فى الكيل والميزان تارة وينقصون أخرى ولم يكونوا فى أخلاقهم كأولئك الأشراف منهم الذين أدهشهم حسن الصنع معهم ، وعجبوا لجمال النقوش فى سقف القصر ونظام مصابيحه ؛ ولوفرة الأقوات وبدائع الجمال فى المخازن الأرضية ، ومن كثرة النقوش فى الأبسطة ، فأصبح الأولون منهم فى قتال دائم ، والآخرون منهم فى تعجب وعلم واقتراب من الملك ومن عشيرته يسعون لخير إخوانهم ، ويصبرون على أذاهم ، ويتحملون كل مايصيبهم .

فهذا هو الذى سيذكر فى هذه السورة (سورة المطففين) المكملة للسور السابقة . إذ فيها تفصيل لأمرين : الأول هم الأقوام الذين يطففون المكيال والميزان ، وهذان أظهر أنواع الظلم عند العامة والخاصة ، وإنما ذكرا ليدلا على سواهما ، فان القصر المنظم لا تبقى له قائمة إلا بحسن النظام والنظام يكون فى كل شىء فهكذا لايتم نظام النوع الإنسانى إلا بالعدل فى كل شىء . ومنه المكيال والميزان ؛ فليكن العدل فى جميع الأحوال من قول وفعل ومعاملة (الأمر الثانى) وصف الكتب التى كتبها أولئك الكرام الكاتبون للفجرة والبررة ، وبيان أن كتاب الفجرة فى خسار وضلال ، وحبس وضيق : أى أنه يكتب فيه ذلك ، وكتاب الأبرار كتاب مرقوم فيه ماأعدلهم فى الآخرة من الكرامة .

فهذان الأمران هما اللذان جاءت (سورة للمطففين) لإظهارهما ، وعلى ذلك تكون متصلة بما قبلها مفصلة لبعض ماأجمل فى السورة قبلها . فهى إذن متممة لبناء ذلك القصر المنيف خاصة بعمل الأساتذة المدرسين وعمل التلاميذ المتعلمين ، أما القصر ونظامه . وجمال سقفه ، وبهجة أرضه . والأرزاق والنعم والدولة والملك . فذلك مشروح فى السور الثلاثة السابقة . فتعجب ! .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويل للمطففين) التطفيف البخس فى الكيل والوزن . وذلك لأن مايبخس إنما هو شىء طفيف حقير . فالذين ينقصون المكيال والميزان لايسرقون منهما إلا الشىء اليسير . قال ابن عباس رضى الله عنهما

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله عز وجل : «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل ، ويقال إنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله «ويل للمطففين» ثم بين من هم فقال (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية ، وذكر «على» للدلالة على التحامل على الناس أثناء الكيل (وإذا كالوهم أو وزنوهم) أي إذا كالوا الناس أووزنوا لهم كما تقول نصحتك ونصحت لك (يخسرون) أي ينقصون الكيل والوزن ، فكل من أخذ لنفسه زائدا ودفع إلى غيره ناقصا قليلا أو كثيرا لحقه الوعيد مالم يتب ، فان تاب قبلت توبته إذا رد الحقوق إلى أربابها . وإذا لم يتب وأصر كان مصرا على الكبيرة . ويروى : «خمس بخمس : مانقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ماأنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر» .

ثم أعقب الوعيد المذكور بما يؤكده مذكرا بما تقدم من أن للملائكة يكتبون هذا التطفيف كما يكتبون كل حسنة وسيئة للأبرار والفجار ، وإنما كان الوعيد شديدا على المطففين لأنهم وهم فى هذا القصر المشيد تركوا مواهبهم العقلية ، ولم يدركوا سعة هذا القصر البديع وجماله ، ولا حكمة صانعه ، ولا سعة الأرزاق التى ادخرها لهم فى الأرض ، فذلك ضيقوا على أنفسهم دائرة التفكير ، وتركوا كل جمال ونعمة وحكمة وبهجة ورونق فى سقف القصر وجوانبه وأرضه وبسطه المنقوشة ، وضاقت عليهم دائرة عقولهم وصغرت فلم تعقل من هذه المواهب إلا مارأوه فى يد غيرهم ، فهم يختطفون تارة بطريق التطفيف ، وأخرى بطريق السلب والنهب والسرقة وهكذا ، فهذا كله يكتبه للملائكة فى كتاب يسجل عليهم الضيق والحبس كما حبسوا أنفسهم فى دائرة ضيقة . وأما الآخرون فلما وسعوا على عقولهم مجال التفكير ولم يحصروها فى دائرة الحسد والسطو على مايبد غيرهم جعل للملائكة كتابهم فيه مايعلى قدرهم وشأنهم لعلو نفوسهم وسمو عقولهم ، فكأن الآيات الآتية الواصفة لكتاب الأبرار ولكتاب الفجار ترينا تلك العقول فى نفس كتابها ، فلما كانت آراء الأبرار عالية سجل فى كتابها ذلك العلو ، وهو الانطلاق من سجن المادة ، ولما كانت آراء الفجار ضيقة محصورة فى الحسد وأخذ مال الغير جعل نتيجة ذلك فى كتابها ، وهو أن الضيق الذى كان محيطا بها فى الحياة هو الذى سيلازمها بعد الممات ، فنتيجة الآراء ملازمة لها ، وكتابها كأنه نسخة منها ، بل نفس الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره . فهو فى الدنيا يعلم : أهو منطلق الفكر إلى هذا الجمال أم هو محدود الفكر ضعيف النفس محصور فى شهوات البهائم والأطفال .

هذا مايشير إليه مجىء (سورة المطففين) بعد مافى الانفطار والتكوير من العوالم المحيطة بنا التى تزول يوم القيامة ، ومن للملائكة المطلعين تارة والكاتبين تارة أخرى ، فهم يحفظون أعمال الأبرار والفجار المطففين الذين قال الله فيهم (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) . عن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيبا وامتنع عن قراءة مابعدها ، وقوله «يوم يقوم الناس» متعلق بمبعوثون ، وقوله «لرب العالمين» أى لأمره وجزائه (كلا) ردع وتنبيه ، يردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ، وتنبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه (إن كتاب الفجار) صحائف أعمالهم (لفى سجين . وما أدراك ماسجين . كتاب مرقوم) إنما أتى بالاستفهام تعظيما لأمر سجين .

يقول الله : إن هناك سجلا للشر دون فيه أعمال الشياطين والفجار من بنى آدم ، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة ، فكتاب الفجار فى هذا الديوان العظيم . وهذا السجل سمى بسجين ، وهو مأخوذ من السجن ، وهو الحبس والتضييق . لأنه يكتب فيه حبس أولئك الفجرة والتضييق عليهم فى جهنم ، فالتسمية باعتبار مايكتب فى السجل ، ولما كان هذا الضيق شديدا أعقبه بقوله (ويل يومئذ) أى يوم يخرج المكتوب (للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين) الجزاء والحساب (ومايكذب به) أى بذلك اليوم (إلا كل معتد) مجاوز للحد (أثيم) مكتسب للاثم (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى أحاديث المتقدمين ، والأساطير أيضا الأباطيل : واحدها أسطورة مثل أحدوثة وأحاديث (كلا) ردع للمعتدى الأثيم عن هذا القول (بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون) أى غطى قلوبهم كسبهم : أى غلب على قلوبهم حتى عمرها ماكانوا يكسبون من السيئات . وهذا بيان لسبب هذا القول ، فإن هؤلاء ماقالوا هذا القول وادعوا أن الوحى أساطير الأولين إلا لما رسخ فى نفوسهم من المعاصى التراكمة معصية بعد معصية حتى أظلمت النفس فأصبحت لاتحس بالمعارف الصائبة ولا بالآراء الجميلة ، لأنها اعتادت الأحوال المنحطة ، والأقوال الزائفة والشهوات والعداوات والمنافرات ، فصارت نفوسهم ملطخة بتلك الأحوال واحدة بعد أخرى حتى أصبحت كأنها مغلفة بأغلفة من تلك السجايا منعتها الاستضاءة بنور العلم ، لأن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات قال عليه الصلاة والسلام : « إن العبد كلما أذنب ذنبا حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه » ، والرين المذكور هو الصدأ : أى إن تلك الأعمال تجعل حجابا على قلوبهم أشبه بالصدأ الذى يغطى بعض المعادن فيذهب رونقها وبهجتها (كلا) ردع عن الكسب الذى يوجب الرين والصدأ على القلب (إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فلايرون ، وكيف يرونه وقد حالت آراؤهم الضيقة وأعمالهم الشائنة دون المعارف والعلوم التى لايرى الله إلا من تكمل بها ، وكيف ينالون المعارف والعلوم والقلوب مغلفة بصدأ يحيط بها من الأخلاق الرديئة والمعاصى المتراكمة ، وإذا كانوا محجوبين عن ربهم بسبب الجهالة والمعاصى وضيق الفكر حتى حصروا الحياة فى هذه الدنيا وقالوا لاحياة وراءها ، فهم إذن ينحطون إلى أسفل الدرجات ولذلك قال (ثم إنهم لصالوا الجحيم) ليدخلون النار ويصلونها (ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) وهذا قول الزبانية (كلا) ردع عن التكذيب (إن كتاب الأبرار لفى عليين . ومأأدراك ماعليون . كتاب مرقوم) الأبرار هم المطيعون الذين لايطففون ويؤمنون بالبعث ، وعليون هو الديوان الذى تدون فيه أعمال الصالحين والملائكة ، وإنما سمى عليين كما سمى ضده سجين ، لأنه سبب الارتفاع ، فهذا سمى بما يتسبب عنه كما سمى الأول بما يتسبب عنه ، فهذا العلو الأبرار ، وذلك للتضييق على الفجار ، وقوله : «ماعليون» اى أى شىء هو وقوله (يشهده المقربون) أى تحضره الملائكة المقربون من كل سماء أى يحضرون ذلك المكتوب ، وإنما سيحضرون هذا ويطلعون عليه ولا يطلعون على السجين لأن الأستاذ يفرح بمهارة تلاميذه وينشرح صدره لذلك ، فهؤلاء لما كانوا هم المعلمين للناس بالوحى تارة والإلهام أخرى حضروا تلك الدواوين السماوية بعليين . فاذا كان الأستاذ فى الدنيا يفرح بمن نبغ من تلاميذه . فهؤلاء يفرحون ألف مرة ، بل هذا نوع من النعيم عظيم لأنه نعيم جاء من طريق العمل . وهناك نعيم علمى وهو الإحاطة بالمخلوقات علما على قدر الإمكان . هذا هو قوله « يشهده المقربون» فنعيم الملائكة المقربين وسرورهم أشبه بسرور الآباء بأبنائهم ، وسرور الأساتذة بتلاميذهم ، وهذان الصنفان لذتهما فى هذه الدنيا أرقى من لذة الابن بما أنعم عليه أبوه ، ولذة التلميذ بما نال من الفوز . لأن لذة الآباء والأساتذة فعلية علوية ولذة الأبناء والتلاميذ انفعالية مادية . فهكذا هذه اللذات التى ينالها المقربون أرقى من لذات أهل الجنة من الناس ولذلك قال (إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك)

على الأسرة فى الحجال (ينظرون) إلى مايسرهم من النعيم (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) بهجة النعم وبريقه (يسقون من رحيق) شراب خالص (مختوم) أى ختم ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدى إلى أن يفك ختمه الأبرار (ختامه مسك) أى إن أوانيه تختم بمسك بدل المواد الأخرى كالطين الذى يختم به الشراب فى الدنيا ، فهذا الشراب أمر الله بالختم عليه إكراما لأصحابه ولنفاسة الشراب وشرفه (وفى ذلك) الرحيق أو النعيم (فليتنافس المتنافسون) أى فليتسابق المتسابقون وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل ليحصل لهم هذا الشراب المختوم بالمسك الذى لايفض إلا لهم (ومزاجه من تسنيم) أى مزاج الرحيق من عين قدوضع عليها هذا العلم ، وهو تسنيم ، وسميت كذلك لارتفاع مكانها ورفعة شرابها أمدح (عينا يشرب بها) منها (المقربون) فالمقربون يشربونها صرفا وتمزج لأصحاب اليمين .

لطيفة فى قوله تعالى : ختامه مسك

إن ختام الرحيق الذى لايفض إلا إذا فضه الأبرار رمز إلى مانشاهد فى الدنيا من أحوال العلماء والحكماء والجهال ، ألم تر أننا خلقنا فى عالم مغطى بغطاء ثابت عليه يحجبه عن الناس جميعا ، ألم تر أن أرضنا وسماءنا يموجان بأنواع النفائس الحكمية ، والبدائع العلمية ، والعجائب الجميلة ، وأكثر الناس يغدون ويروحون ، وهم عنها غافلون ، فهذه الدنيا أشبه بزجاجة لأنها كلها نور مشرق ، فالكواكب أنوار والأقمار أنوار والأرضون هى للظلمة ، ومع ذلك تحيط بها الأنوار من كل جانب ، وتموج بالبدائع والحكمة ، ولعمرى إن الجهال جميعا فى الغرب والشرق . وأهل الملل جميعا يعيشون ويموتون وهم لم يشربوا من الرحيق المختوم الذى فى هذه الدنيا ، ورحيقها هى حكمها وبدائعها التى ظهرت للأنبياء وأكابر العلماء .

فكر أيها الذكى فيما أقول لك وانظر ألست ترى أن أكثر الناس يرى هذا العالم كله ظلمات لاسعادة فيه ولا نور ولا حكمة ، بل تراه ضيق الصدر من هذا الوجود ويقول : لم خلقت فيه ؟ أتدرى لم هذا ؟ لأنه ليس أهلا لأن يفض ختام الوجود الذى هو يشبه المسك . وذلك لأن هذه الدنيا مملوءة بالحكم . ولكن تلك الحكم لايعقلها إلا قليل ، وهذا القليل يدرك السر فى الشرور التى تنتاب هذا العالم . فاذا رأى انحطاط أمم فى الشرق وظلم أمم فى الغرب . ورأى مرضا ووباء يعم الناس . ورأى مصائب تتلو مصائب فإن عقله يحل له هذه المعضلات وهو مطمئن بالحل . ثم يرفع رأسه إلى هذه العوالم كلها فيطلع على معضلاتها ويحلها فتكون نفسه نورا مشرقا ويفض ذلك الختام المسكى . وليس يعرف أن ختام ذلك مسك إلا إذا وصل إلى هذه الدرجة فأما غيره فانه يرى أن الختام رائحته قبيحة (وبعبارة أخرى) إن الذين أشرقت عقولهم يرون رذائل هذا العالم محلولة فى نظرهم . فهى عندهم خير يعبر عنه بالمسك . وفى نظر غيرهم شر . فعاقهم عن الفهم فلم ينالوا معرفة العوالم ولا إدراكها . وهذا الفض لابد فيه من درس جميع هذا الوجود إجمالا . ولا يكون ذلك إلا بعلوم الحكمة : أو باشراق نبوى يرزقه الله لمن يشاء حتى تطمئن النفس . ولا تظن أنى أقول إن هذا هو معنى الآية . وإنما أقول : إن الآية ذكرت خمر الآخرة . ومعلوم أن ذلك لانعرفه فى الدنيا كما قال ابن عباس : «إن كل ماذكر فى نعيم الآخرة مما فى الدنيا فليس له إلا الاسم» لخمر الآخرة مجهول لنا عبر عنه بالرحيق : وعبر عن نفاسته بكونه مختوما وأن الختام مسك . فإذن يكون الرحيق المختوم شىء غير مانعرفه بأخذ الاسم ولكنه أعلى فى الوصف . ولعله درجات بعضها فوق بعض . وإنما الذى أعتقده من أكابر الصالحين فى أمتنا الإسلامية أن أعلى لذة فى الآخرة العلم . ولقد نقلت لك عن الإمام الغزالى فى (سورة البقرة) أن الذين عشقوا العلم فى الدنيا هم الذين قد استعدوا لرؤية ربهم . وكلما زاد الإنسان علما زاد من ربه قربا . قال تعالى : «وقل رب زدنى علما» ؟

أقول فإذا كانت الآخرة هى نتيجة الدنيا . والدنيا ماهى إلا مزرعة الآخرة ، والقرآن أتى لكل جيل لمن قبلنا ولمن بعدنا وأسمعنا هذا القول ، فلنقل : هانحن أولاء نشاهد أناسا مغرمين بالعلم يودون لو يفقدون كل شىء إلا العلم وهم مجدون باحثون ليلا ونهارا ، ويرون لذتهم فى إدراك الحقائق . فكما نرى أناسا مغرمين بالبنين وآخرين بالنساء وآخرين بالمال . هكذا نرى قوما مغرمين بالعلم . ونرى أن العلوم محجوبة عن غيرهم حتى إنك لترى الرجلين فى مكان أحدهما مغرم بالعلم والثانى يسخر منه ويضحك . هكذا دأب أهل الأرض قوم يفقهون هذا الوجود ، وقوم حيل بينهم وبين الفهم ، والغطاء الذى غطى على عقول الجهلاء يراه العقلاء كله نورا بهجا ومسكا فيفضونه ، وأما غيرهم فانهم يعيشون كما تعيش الأنعام لايدرون لماذا خلق هذا العالم ولماذا تكون الزلازل الأرضية . والزلازل النفسية ، والزلازل الدولية ، ولماذا يتناوب النعيم والشقاء والعز والذل الأمم والأفراد ، فهؤلاء ختم على قلوبهم فهم لايفقهون . أما أكابر الحكماء وأولياء الله فانهم يقفون على الحقائق ، وترسم حقائق الوجود فى بصائرهم . فاذا رآهم المغفلون مكبين على العلم شديدى الحرص عليه منهمكين فيه سخروا منهم وضحكوا وظنوهم مجانين جهلاء أغبياء ، وهذا قوله تعالى (إن الذين أجرموا) وهم الرؤساء من قريش (كانوا من الذين آمنوا يضحكون) كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين (وإذا مروا بهم يتغامزون) يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أى متلذذين بالسخرية منهم (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أى وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال (وما أرسلوا عليهم) على المؤمنين (حافظين) يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وبضلالهم (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) حين يرونهم أذلاء مغلوبين فى النار (على الأرائك ينظرون) حال من قوله يضحكون (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) أى هل أثيبوا وجوزوا بسخريتهم بالمؤمنين فى الدنيا .

تبصرة فى هذه الآيات

قد رأيت أنه تعالى يقول فى كتاب الأبرار « يشهده المقربون » وقد علمت مما قاله المفسرون أن المقربين هم الملائكة المختارون من كل سماء . فهؤلاء المقربون يفرحون بما أنعم الله به عليهم من نبوغ طائفة من الناس ملحقة بهم كما قال تعالى : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » فأولوا العلم بعد الملائكة لأنهم مستمدون منهم فلذلك يفرحون بنبوغهم وقربهم منهم فرحا لايضاهيه فرح الأب بابنه ، ولا الأستاذ بتلميذه ، فهم يفرحون بالمؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء وبالحكماء الذين يبرعون فى العلوم ويدركون سر هذا الوجود .

ثم انظر إلى قوله : «ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » وقد علمت قول العلماء إن المقربين يشربون من هذه العين صرفا ، ولكنها تمزج لأصحاب اليمين ، إذن المزاج الذى من التسنيم إنما يكون لأصحاب اليمين ، أما الصرف فهو للمقربين . ثم انظر المقربين من نوع الإنسان كيف ذكرهم هنا مع ذكر المقربين فيما تقدم بمعنى الملائكة . فهؤلاء لهم قرب والملائكة لهم قرب ، وهؤلاء شربوا التسنيم صرفا ، والملائكة شهدوا رقى بعض النوع الإنسانى فى الدرجات ، فإذن يكون المقربون من نوع الإنسان قد أدركوا الحقائق خالصة . وأصحاب اليمين أدركوها مشوبة بالتقليد ، والملائكة فوق ذلك ، فهم يعرفون الحقائق ويربون غيرهم ليلحقوا بهم .

ولعلك تقول : كأنك لاتجعل لأحد سعادة فى الآخرة عالية إلا الذين أدركوا نظام هذا الكون .

أقول : لا أريد ذلك ، وإنما أقول : إن المؤمنين درجات ، مؤمنون باليقين العقلى فهؤلاء مقربون . ومؤمنون بالتقليد وهؤلاء يشربون رحيقا ممزوجا وهم أصحاب اليمين . ومن قبلهم يشربون تسنيما خالصا

وأصحاب اليمين هم فى إيمانهم درجات ، فمنهم من زاد إيمانه حتى أدرك الوجود كله على ماهو عليه ، ومنهم من هو دون ذلك ، وتكون لهم درجات متفاوتة فى ذلك . أما الملائكة فهم كذلك درجات باعتبار معارفهم وأعمالهم وهم يزيدون على الإيمان والعلم أنهم يربون الناس بالوحى والالهام والتدبير ، فهم لذلك يسرون بلذة لا يعرفها المقربون من الناس فضلا عن أصحاب اليمين .

﴿ تبصرة فى قوله تعالى « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » الخ ﴾

اعلم أن كثيرا من الناس يمر على مثل هذه الآيات سواء أقرأ التفسير أم لم يكن قرأه . وهو لا يعيرها التفاتة واحدة . يقول : إن كفار قريش كانوا يسخرون من الذين آمنوا . وستنقلب الحال يوم القيامة ويضحك المسخور منهم من الساخرين ويتركها ويسرع إلى غيرها قراءة مع أن هذا القرآن نزل للناس قاطبة لا لعصر الأول الإسلامى وحده ، فهو الآن لنا نحن معاشر الأحياء ، فاذا متنا فهو لمن بعدنا بمعنى أننى أنا ومن معى الآن من المسلمين الأحياء متى فارقنا هذه الأرض سندخل فى عالم آخر ولسنا مكلفين بالقرآن ، بل الذى يكلف به هم الأحياء بعدنا ، فماذا يفهمون ؟ (أقول فى الجواب على ذلك) : إنه مامن أمة إلا لها أناس لهم عبقرية ظاهرة ونبوغ يخرجون مخالفين من حولهم فى علم أو دين أو صناعة ، وهؤلاء إنما يخلقهم الله فى الأمم لتحويل آرائها ، واستخراج مكامنها ، وإظهار مااختبأ فى نفوسها وأعضائها من المنافع فينبث هؤلاء فى الأمم ويفكرون ويخترعون ، وينظرون بدقة ويظهرون ذلك للناس . والناس حولهم قسمان : قسم مستهزئ بما يعملون . وقسم عالم بأن ذلك نافع ولكن يمنعه الحقد والحسد ويقول : كيف يفعل زيد ما أنا عاجز عنه ويرتفع اسمه بين الناس . ولا يزال ذلك النابغة مجدا فى عمله والناس من حوله يسخرون ويجدون فى إحباط عمله حتى يظهر حقه على باطلهم ، وينقلب السخك إعجابا والاستهزاء مدحا ، والحاسدون يكتمون حسدهم فى قلوبهم ، ويعلو هو عليهم ، ويعلمهم ويستفيدون من علمه جميعا .

إن الله تعالى لم ينزل ذلك فى القرآن لأجل الواقعة نفسها وحدها بل هو ضربها مثلا لكل من قام بأمر نافع والناس حوله يجهلونه ، فهذا المجد يبشره الله بالنجاح فى الدنيا والآخرة ، وليس له برهان إلا سيرة الصحابة وكفار قريش ، ولا فرق فى ظهور الحق على الباطل بين الأديان والأعمال النافعة للأمم .

خلق الله أنبياء وخلق أشخاصا مستعدين لنقل الأمم من حال إلى حال : من حال الذل إلى العز ، وهؤلاء فرق : فرقة فى النظر فى أمر الدين وفرقة فى أمر الصناعة وفرقة فى أمر العلوم ، فهؤلاء يبشرهم الله بالنجاح فى الدنيا والآخرة إذا صبروا على ضحك الناس وعداوتهم .

فها أنت ذا أيها الذكى القارئ لهذا التفسير اعلم أن الله عز وجل ضمن لك النجاح ضمانا تاما إذا أنذرت الأمة الإسلامية وبشرتها بمثل مافى هذا الكتاب ، وبما يلوح لك فى نفسك وينشرح به صدرك من العلوم وللمعارف . وأنت إذا قمت بهذا وأمثاله فسيقوم لمعاداتك طائفتان : جاهلون مستهزئون ومفكرون حاسدون وسترى الجهال يقولون ، إن هذا وأمثاله لضالون . وسترى أن الذى تعلم تعليما ناقصا كالذى قرأ بعض اللغات الأوروبية وهو لم يذق العلم الذى امتلأت به أوروبا .

أقول : ستراها اصطلحوا على الكيد لك هذا بجهله البسيط . وهذا بغروره وجهله المركب إذ ظن أن اللغة هى العلم وما علم أن العلوم ملأت أوروبا التى يفخر بالانتساب إليها .

فاذا رأيتهم تألبوا عليك فافرح واعلم أن هذا دليل على أن عملك ذو قيمة شريفة عندهم . فسر فى طريقك وثق بنجاحك فى الدنيا وفى الآخرة . وليس لهذا إلا التجربة فهى المصدقة لما جاء فى هذه الآيات « فان تجد

لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا» وبهذا تم تفسير (سورة المطففين) وذلك فى يوم الأحد ٢ أغسطس ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانشقاق

هى مكية

آياتها ٢٥ - نزلت بعد سورة الانفطار

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا * فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ *

تشتمل هذه السورة على (مقصدين:- الأول) أن الإنسان يلاقى نتائج عمله يوم القيامة ، ويأخذ كتابه بيمينه أو وراء ظهره . وذلك من أول السورة إلى قوله : « بلى إن ربه كان به بصيرا » (المقصد الثانى) أن الناس فى أحوال الدنيا والآخرة ينتقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة إما فى نعيم وإما فى عذاب . وذلك من قوله تعالى : (فلا أقسم بالشفق» إلى آخر السورة .

المقصد الأول

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد جعل الله اسم الشرط وهو إذا فى حيزه ثمانية أفعال : ثلاثة للسماء ، وخمسة للأرض ، يقول الله : (إذا السماء انشقت) أى انشقت السماء ، انشقت بالغمام من مجرتها (وأذنت لربها) واستمعت له : أى انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها . فهى أشبه بالمطيع الذى يذعن لمن أمره ويأتمر بأمره . وكيف لاتأذن له وهو خالقها (وحقت) أى وحق لها أن تطيع أمر ربها ، كيف ولا قدرة لها على الامتناع (وإذا الأرض مدت) بسطت وسويت باندكاك جبالها وآكامها (وألقت مافيها) مافى جوفها من الكنوز والأموات (وتخلت) أى خلت غاية الخلو حتى لم يبق شىء فى باطنها من الموتى والكنوز (وأذنت لربها) فى إلقاء ما فى بطنها وتخليها (وحقت) وهى حقيقة بأن تنقاد ولاتمتنع ، وجواب الشرط محذوف : أى إذا انشقت السماء إلى آخره لاقى الإنسان كدحه (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا) جاهد إلى لقاء ربك وساع إليه فى عملك سعياً (فملاقيه) أى فملاق جزاء كدحك وعملك يجد إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا) سهلا لايناقش فيه (وينقلب إلى أهله مسرورا) أى إلى عشيرته المؤمنين (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) أى يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره (فسوف يدعوا ثبورا) يتمنى الثبور ويقول : ياثبوراه : أى أيها الهلاك احضر فهذا وقتك (ويصلى سعيرا) أى ويقاسى التهاب النار وحرها (إنه كان فى أهله مسرورا) أى كان فى أهله فى الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهواته (إنه ظن أن لن يحور) أى لن يرجع إلى الله تعالى . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها : حوري : أى ارجعى (بلى) أى ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا ويبعث ويحاسب (إن ربه كان به بصيرا) أى من يوم خلقه إلى أن بعثه . انتهى المقصد الأول .

إيضـــاح

هذه السورة مشاكلة لما قبلها مناسبة لها ، ألا ترى أن فى (سورة المطففين) فى الشق الثانى منها حديث كتاب الأبرار وكتاب الفجار ، وهكذا أولئك الذين يسخرون من المؤمنين ويرجعون إلى أهلهم فرحين ، فهاهنا فصل بعض ما أجمل فى مسألة تسلم الكتاب أيؤخذ باليمين أم يؤخذ بالشمال ومن وراء الظهر ومن الذى سيكون مسرورا فى أهله يوم القيامة ، وكيف ينقلب سرور الدنيا حزناً يوم القيامة . واعلم أن قوله تعالى : « إنه كان فى أهله مسرورا » تحته كنز علم .

كنز العلم فى قوله تعالى : « إنه كان فى أهله مسرورا »

اعلم أن هذا المقام متشعب الأطراف ، واسع الأكناف ، وذلك أن الناس فى الدنيا يفرحون بالذات ويسرون بالنعم من زوج ومال وولد وصيت وصحة ، وهذه إذا صرفت لغير وجهها انقلبت شقاء فى الآخرة ،

والمثال فى ذلك أننا نرى العاشق يفرح بمعشوقه ، ويسر بلقائه ، ويهش لذكره ، ويبش لطلعته ، ويهنأ بمجالسته ، ومحادثته ، ولاستماع حديثه ، فلا تمضى أيام حتى يموت ذلك الحبيب أو يألف سواه فينقلب الفرح حزنا ، والسعادة شقاء ، والهناء غما . والحب حزنا ولوعة . فانظر كيف انقلبت الصفات ونحن فى الدنيا . واعلم أنك أنت وكل امرئ وأنا فى هذه الحياة الدنيا نرى هذا كل يوم ولكن الغفلة مستحكمة ، فإننا نرى أننا على قدر استمساكنا بما نحب من أى نوع من الوجود نحزن إذا فقدناه أو تغيرت حاله بمقدار ذلك الاستمساك والغرام والولوع . فنحن فى الحياة نقع فى تجارب لاحد لها ، فأكثر النعم على ما اعتبرناه محبوبا لنا كأنه دائم لافناء له إذا به تغير أو ذهب من أيدينا سواء أكان ذلك مالا أم إنسانا . وكأن الله خلقنا فى هذه الدنيا ليعطينا دروس الكمال وعدم التعلق بشىء منها . بل تمر بنا الأشياء والأحوال العارضة لنا كما يمر الليل والنهار . راجع ما كتبته فى هذا التفسير فى (سورة البقرة) إذ شرحت هناك هذا الموضوع عند قوله تعالى : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » وذكرت لغز قابس اليونانى الذى كان قبل المسيح بنحو ٥٠٠ سنة . وكيف شرح سعادة الإنسان وأنها تتوقف على أن تكون النفس مهذبة قانعة بما هى فيه جاعلة جميع الأحوال تمر كمرور الليل والنهار صابرة . وجعل السعادة مقصورة على هذا . فلا مال ولا جاه ولا علم ولا جمال ولا غيرها . فهذه كلها سعادات وقتية تنقلب أذى وحزنا إذا اعتبرها الإنسان سعادة له . فليوطن نفسه على الصبر فى هذه الحياة . وليكن كوكبا مشرقا فى هذه الدنيا تمر عليه حوادثها مرورا وهو أشبه بالمنسلخ منها فيقل الحزن والألم فى الدنيا والآخرة اهـ .

المقصد الثانى

إن الناس فى أحوال الدنيا والآخرة يتنقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة : إما فى نعيم وإما فى عذاب قال تعالى (فلا أقسم بالشفق) أى فأقسم بالحمرة التى تبقى بعد غروب الشمس ، أو بها وبالبياض الذى يعقب تلك الحمرة . والثانى مذهب أبى حنيفة . والأول مذهب عامة العلماء (والليل وما وسق) أى جمع وضم الظلمة وما كان منتشرا بالنهار من الخلق والدواب والهوام ، لأنه إذا أقبل أوى كل شىء إلى مأواه (والقمر إذا اتسق) أى اجتمع وتم بدرا . وجواب القسم قوله (لتركبن طبقا عن طبق) أى لتركبن أيها الناس أحوالا بعد أحوال . والطبق جمع طبقة : وهى المرتبة ، من قولهم : هو على طبقات . يقول الله : لتركبن أيها الناس طبقات مجاوزات لطبقات (فما لهم لا يؤمنون) بيوم القيامة (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) لا يخضعون . أو لا يسجدون لتلاوته ، أولا يصلحون . ولاجرم أن السجود جزء من الصلاة ، والمعانى متقاربة وروى أنه عليه الصلاة والسلام قرأ « واسجد واقترب » فسجد بمن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رءوسهم فنزلت هذه السورة . وجعل أبو حنيفة هذه الآية موجبة للسجود فإن فيها ذما لمن يسمعه ولم يسجد ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سجد فيها وقال والله ماسجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها» (بل الذين كفروا يكذبون) بالقرآن (والله أعلم بما يوعون) بما يضمرون فى صدورهم من الكفر والعدوان فيجازيهم (فبشرهم بعذاب أليم) استهزاء بهم (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهذا استثناء منقطع (لهم أجر غير ممنون) غير مقطوع . أو غير ممنون به عليهم . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى : فلا أقسم بالشفق . والليل وماوسق ﴾

لأقدم لك مقدمة توضح المقام فأقول : اعلم أن أحوال الناس جميعا تشابه أحوال العالم المحيط بنا ، فحال الأجسام وحال الأرواح سواء فى أن كلا منهما مشابه للعوالم المحيطة بنا .

عالم السماء

فعالم السماء تلقى منه الأشعة على العالم الأرضى صباحا وضحى وظهرا وعصرا فيكون الظلام . فاذا جن الظلام فهناك شفق أحمر فأبيض قليل . والليل إما مظلم كله فى آخر الشهر أيام السرار . وإما مضىء بعضه أقل من ساعة فيزيد ضعفا فضعفين وهكذا ، فقليل درجات فى الإضاءة والإظلام قلة وكثرة . والنهار كذلك .

عالم الإنسان

فلننظر عالم الإنسان نجده يكون صبيا فى صباح حياته ، فشابا فى ضحاها ، فبالغا أشده فى ظهرها ، فشيخا فهرما فى عصرها ، فميتا إذا غربت شمس الحياة ، وأظلم الجسم ودفن فى التراب . وكما أن الليل يختلف ظلاما ونورا بنظام هكذا النفوس البشرية تختلف ظلاما ونورا . فمنها التى إذا غابت شمسها أصبحت فى ظلام دامس كما تقدم فى هذا التفسير فى قصة روح الغبى الذى أحضرته الجمعية النفسية بفرنسا وهو لم يعرف أنه فى العالم الآخر وعقله مشغول بالمال الكثير الذى خلفه ولم يفهم ماهو الموت ولا ماهى الآخرة . فهى نفس مظلمة ماتت جاهلة لاتعقل إلا المادة ، والمادة لاتنفع بعد الموت . ومنها التى تشرق بعض الإشراق . ومنها التى يتجلى لها الوجود على ماهو عليه فتشرق بالأنوار وترى ربها كما تقدم فى أحاديث الصحيحين من أن الناس يرون ربهم كما يرون القمر ليلة البدر لايتضامون فى رؤيته .

فنحن كما رأينا الجنين ينمو طبقة فطبقة فيكون صبيا إلى آخر ماتقدم ، هكذا أرواحنا بعد الموت وبعد البعث لاتزال ترتقى فى العالم الذى استحقته ، وفى أثناء ذلك الارتقاء تعرف أإلى شقاء ترتقى هى أم إلى سعادة فهى دائبة التنقل والتحرك كما كانت فى الدنيا ، وكما أننا نرى الإنسان يرتقى فى الصناعة التى قام بها ، والأخلاق التى اتصف بها ، هكذا تنمو فى الناس أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا فينعمون أو يشقون كما جاء فى قوله تعالى : «يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» وفى قوله : «ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا» فلا تزال الأخلاق تعذب غير المهذب وتنعم المهذب حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وهناك عوالم نجهلها نحن فى الأرض .

أقسم الله بالشفق وبالليل وبالقمر أننا نرتقى طبقات : أى كطبقات الأنوار الليلية ، أو ظلمات كطبقات الظلمات الليلية ، وفينا من استنارو وأدركوا الحقائق كليلة البدر . ومنا من هم فى ظلام دامس كليالى آخر الشهر ، هذا القسم من مفاتيح العلوم كالقسم بالسماء ذات البروج .. وبالنهار إذا تجلى . وبالضحى . وبالشمس وضحاها ، وبالقمر إذا تلاها ، وبالنهار إذا جلاها . وبالليل إذا يغشاها . وبالسماء وما بناها . وبالأرض وما طحاها . وبنفس وما سواها . وبالتين وبالزيتون . وبالطور . وبالبلد . وبما تبصر وبما لاتبصر . وهكذا من الأقسام الكثيرة لاسيما ماتراه فى هذه السورة .

فيالیت شعرى ماذا أراد الله بهذا قسما . أقسم الله بمخلوقاته مع أن هذه المخلوقات التى ذكرها ليست أعظم شىء عنده . وكيف تكون أعظم شىء عنده وقد ظهر فى العلم الآن أن شمسنا وقمرنا وليلنا ونهارنا وأرضنا ليست شيئا ألبتة بجانب ماعرفه الناس من الشموس والأقمار . وقاسوا على ذلك الأرضين التى عرفوا عددها بالظن ومقدارها بالحدس . فاذا ثبت أن هذه المذكورات ليست شيئا مذكورا عنده فلماذا أقسم بها

والقسم لايكون إلا بعزيز . ولاعزة لهذه متميزة عند خالقها . بل عند الله ماهو أجل وأعجب . راجع ماتقلناه عن العلامة الأمريكي (فلا مريون) وعن روح (غاليلي) التي استحضروها في الجمعية النفسية . وكلاهما في (سورة آل عمران) . إذن عظمة هذه المخلوقات بالنسبة لنا ، ولا معنى لعظمتها بالنسبة لنا إلا دراستها ومعرفتها واستخراج عجائبها المكنونة فيها المحبوءة في مشارق الأرض ومغاربها وانتقالاتها وأحوالها .

هذا هو السر في هذه الأقسام ، هذه الأقسام أكثر منها الله سبحانه بعد (سورة المطففين) كأنه يقول أي عبادي إن الرحيق المختوم الذي ختامه مسك لايفك ختامه إلا أنتم وقد حفظ لكم خاصة في الآخرة لن تنالوه إلا إذا نلتم مقدماته في الدنيا (وبعبارة أخرى) لايفض الختام في الآخرة من عجز عن فكه في الدنيا . وإذا أردتم الإيضاح فهاكم إقسامي في القرآن ، انظروا إلى الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق هذه مفاتيح العلوم . أقسم الله بالشفق وبالبدر وبالليل ليدل على أحوال الآخرة من حيث المشابهة ، هذه العوالم التي نعيش فيها كأنها زجاجات مشرقات مضيئات بهجات ، ولكل منها ختام وهذا الختام من مسك : ولا جرم أنه لايعرف ذلك المسك إلا من أشرقت نفسه ففك الختام عن عالم وبحث فيه فأشرقت نفسه بخالص العلم الذي يلذ أهله لذة لايعرفها سواهم في الدنيا ، فاذا مات فهناك تقدم له زجاجات أبهى وأضوأ من هذه التي في العالم ، فاذا رآها أشرقت عليه وسعد بفتحها سعادة لايعرفها في هذا العالم . ولولا مرانه على فتح الختام في الدنيا وشرب رحيق العلم المختوم المكتوم عن غيره الذي يعيش معه وهو لا يحس بما يحس به لولا ذلك ما أمكنه إزالة ذلك الختام . وكيف يزيل الختام من لم يزاوله في الدنيا .

ياعجبا لأمتنا الإسلامية . أظنتم أن الله أنزل هذه الأقسام للبلاغة اللفظية ، ألم تروا كيف دهش العرب لما سمعوا هذه الأقسام . أليس ذلك لأن فطرهم الصادقة أحست بأن هذا أمر عظيم ، ألم يقل الله إنا نرتقي طبقا عن طبق ، هل خص ذلك الله بالآخرة . كلا . فالطبقات في الدنيا أيضا ولقد ركبنا طبقات فوق طبقات في العلوم في هذه الدنيا ، ولكن جاءت فترة زحف فيها التتار على الإسلام فخربوه وزحفت أوروبا بالحروب الصليبية فحملوا علومنا وأخلاقنا وزادوا فيها مازادوا ، وشادوا ماشادوا ، ونحن قرونا ونحن نقرأ هذه الآيات ونرى الله يقسم بالشمس والقمر والليل والضحى والشفق والأرض فنمر عليه بلا فكر ولاروية ، حتى إذا استيقظنا الآن ، فلنرفع أصواتنا للعالم الإسلامي . ولنقل أيها المسلمون اقرءوا علوم العالم جميعها ، والعلوم جميعها محبوءة في هذه الأقسام ، وماأقسم بها إلا ليدلنا عليها - وها أنتم أولاء رأيتم أن علوم آبائكم أخذتها أوروبا وهذا نعمة من الله عليكم فإن الله أرانا العبر لما تركناها . وانصبت علينا من سماء تلك العلوم الدافع والنيران المحرقة . كل هذا من ربنا ليوقظنا حتى إذا أخذنا تلك العلوم كرة أخرى استمسكنا بها وارتقينا ورقينا الأمم معنا .

أيها المسلمون : يقول الله لكم : «لتركبن طبقا عن طبق» يقول ذلك في جواب القسم . ومن تلك الطبقات طبقات الأمم بالارتقاء ، وأن الله سبحانه من فضله لما أخذ علوم آبائنا وسلمها إلى أوروبا لم يبقها على حالها بل سخرهم فرقوها . حتى إذا جاء هذا الزمان وقرأنا القرآن وعرفنا مغزى هذه الأشياء المقسم بها أخذنا بضاعة آبائنا زائدة نامية غير منقوصة ، ومتى أخذناها رقيناها ، ونفعنا الناس بها . وعدلنا ولم نظلم وارتقينا طبقات كما وعد ربنا . فكما ارتقى آباؤنا طبقات ثم ارتقينا في الاضمحلال طبقات فهكذا سنرتقي من الآن طبقات ولكنها ستكون أرقى لأن أمة تألبت عليها الأمم ولم تمحها ثم بقي قرآنها وهي تحافظ عليه وهم في كل يوم يسمعون أن الله يقسم بالشمس وبالقمر الخ . فهذه الأمة سترتقي رقيا لم يعهد له نظير لمتانة دينها ولعمري من لم يفض الختام المسكي العلمي في هذه الدنيا فكيف يسلم له الرحيق المختوم العلمي الذي هو أرقى من هذا بما لايتناهى في الآخرة .

هذا أوان ارتقاء الإسلام وظهور العلم والحكمة فى الأمم الإسلامية ، والله هو الولى الحميد .

يا أمة الإسلام اسمعوا لما أقول : أذكركم بأمر عجب ، أذكركم أن آباءكم الأولين سمعوا هذه الآيات فحركت عواطفهم وقرءوها فأقضت مضاجعهم وعرفوها فأكبرت مطامعهم ، فتحوا البلاد ثم أخذوا يقرءون العلوم ، أتدرون ماذا كانت الدنيا إذ ذاك ؟ أما أمريكا فلم تكن معروفة ، وأما الصين والهند فكانتا فى سبات عميق ، جاءت لهم ديانات فطال عليها الأمد فقست قلوبهم ، فوقفت حركات صناعاتهم : فرجعوا القهقرى ، وكانت فارس قد لحقها مالحق الأمم من التدهور والانحطاط فركدت فيها ريح العلوم . أما الروم الذين ورثوا ملك اليونان وعلومهم فكانوا قد حفظوا كتب الحكمة فى خزائنهم لايدرون منها شيئا . أتدرون ماذا حصل ؟ هذه الآيات القرآنية والأقسام السماوية والشمسية والقمرية وغيرها مما أقسم به القرآن حركت همم الأمة فتحركت العواطف ، فأرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم يطلب ماخزن عندهم ، فأرسل إليه كتب (اقليدس) وغيره مما ذكرته فى كتابى [1] الفلسفة العربية ، هنالك راجت سوق العلوم فى الأمة العربية ، ونبغ النابغون فى بلاد الإسلام وحدها وورثوا علوم الأمم فترجموا عن الهند والفرس واليونان . فلما أثاروا هذه الحركة ومضت قرون خطفتهم الأمم من كل جانب فأيد بعضها كما تقدم بيد التتر والباقى بيد الأوروبيين وبقى بعض الكتب وبعض التلاميذ الذين حملوا العلوم عن ابن رشد وأضرابه بالأندلس فهؤلاء بذروا بذور العلم فى تلك الأقطار فقامت أوروبا فارتقت فى ثلاثة قرون ، وتبعتها أمريكا واليابان ، وهكذا الصين آخذة الآن فى التقدم .

أيها المسلمون : بقى دورنا الآن نحن معاشر المسلمين لاسيما الجنس العربى ، فلنأخذ العلم فهاهو ذا حاضر لنا بضاعة آبائنا باقية بأوروبا مزيدا فيها غير منقوصة .

ياسبحان الله . الله قد حفظ الأمانة لكم ، فياليت شعرى ماذا يكون حال رقى الأمة العربية والإسلامية عموما فى مستقبل الزمان ، فإذا كانت هى التى استخرجت كتب الأوائل وقد نام العالم الإنسانى كله وحركت هذه الحركة مع أن الفقهاء فى الدين كان أكثرهم من الغافلين المعطلين ، فما بالنا فى هذا الزمان والعلم ليس فى الخزائن ، بل هو يطير فوق رءوسنا ، وينصب على بيوتنا ، ويطير بالطيارات فوق جبالنا ، فاذا تلقيناه الآن فماذا تكون حال النوع الإنسانى ؟ فالحق والحق أقول : إن دين الإسلام ليس كله مانحن فيه الآن . نحن معاشر المسلمين فى مهزلة ، اللهم إنى أشهدك وأشهد العلماء فى الأرض أنى أقول بأعلى صوتى : إن الإسلام دين الفلسفة ، ودين الحكمة ، ودين العلم . وسينبغ فيه بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله فلاسفة وحكماء يقلبون وجه المعمورة ، ويكونون رحمة للجنس البشرى ويرقونه كما ارتقى العالم بشذرات من العلم قليلة نقلت عن آبائنا ، لولا الحروب الصليبية والمدارس الأندلسية ماكانت أوروبا الحاضرة ووراءها أمريكا واليابان فكيف تكون الحال حينما نحمل العلم مرة أخرى ونظهره للعالم ، نحن معاشر المسلمين شهداء الله على خلقه عرفنا أو لم نعرف قد رقيناهم فيما مضى بعلومنا التى استخرجناها من خزائنهم وهم نائمون ، وسنعيد الكرة ونريح الإنسانية من عذابها كما أرحناها سابقا . الإسلام دين حرك العالم قديما للارتقاء وسيحركه فى المستقبل للعلوم وللسعادة وللسلام ، هذا حق سيقع ومبدؤه من الآن . انتهى تفسير (سورة الانشقاق) .

---

(١) اسمه كتاب (بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية) .

تفسير سورة البروج

هى مكية

آياتها ٢٢ - نزلت بعد سورة الشمس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ *

هذه السورة لإظهار عظمة الله، وصفات الجمال . وأنه يبيد الأمم الظالمة فى كل قرن لاسيما الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والسماء ذات البروج) أى الكواكب العظيمة التى بلغت حدا من الكثرة عرف بعضها علماء العصر الحاضر حتى بلغت مئات الملايين ، ومنها مالا يصل ضوءه إلينا إلا فى ألف ألف سنة ومايقرب من خمسمائة ألف سنة ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلثمائة ألف كيلو متر ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية ونحو ثلث الثانية . وهو لو جرى حول الكرة الأرضية فانه يدور فى الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ولو أطلق مدفع فان قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة

فكيف إذن يكون بعد الكوكب الذى يصل ضوءه إلينا بعد مليون ونصف مليون من السنين تقريبا كما تقدم فى (سورة آل عمران) ثم كيف كانت عظمة تلك الكواكب بالنسبة لشمسنا هائلة جدا :

(١) فلقد علموا أن الشعرى اليمانية أثقل من الشمس جرما بعشرين مرة ، ونورها خمسون ضعف نور الشمس وهى أبعد منها مليون ضعف بعدها عنا .

(٢) والشعرى اليمانية تجرى بسرعة ١٠٠٠ ميل فى الدقيقة .

(٣) وثلاث من بنات نعش يفقن الشمس نورا ، واحدة منهن أربعمائة ضعف . والثانية أربعمائة وثمانين ، والثالثة ألف ضعف ؟ وسهيل أضوأ من الشمس ٢٥٠٠ مرة .

(٤) والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ، ولا يصل إلينا ضوءه إلا فى مائتى سنة .

ثم ان الشعرى اليمانية التى هى أسطع من خمسين شمسا كشمسنا ، ولا يصل نورها إلينا إلا فى ١٦ سنة إنها لايصل من نورها إلينا إلا واحد من ألفى مليون منه . ولقد تقدم فى التفسير بعض هذه الأوصاف فلننظر فى قوله تعالى : «والسماء ذات البروج» أى الكواكب السماوية التى لانعرف منها إلا مارأيت فانا نراها مبعثرة فى السماء . وأكبرها ترى صغيرة جدا . ولانرى من نورها إلا واحدا من آلاف الملايين من حقائق أنوارها وأقدارها . فإذا كانت الشعرى اليمانية هذا وصفها فنحن إذن على الأرض لاندرى شيئا فى هذا العالم . فإذن أقسم الله بالسماء ذات البروج ليهيجنا ويشوقنا إلى الاطلاع على تلك العوالم فى الحياة وبعد الممات . وسترى مناسبة هذا القول لهذه السورة . وقوله تعالى (واليوم الموعود) هو يوم القيامة (وشاهد ومشهود) الشاهد الملائكة على الناس . ومحمد صلى الله عليه وسلم على أمته . وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء على أممهم . فالملائكة يشهدون على الناس بأعمالهم بعد أن يكتبوها فى صحائفهم : ونسبة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى أمتنا كنسبة أمتنا إلى الأمم الشرقية والغربية . وقد صرح الله بهذا فقال : «لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» وقد جاء فى السورة السابقة : «لتركبن طبقا عن طبق» وذكرنا هناك أن ذلك يشمل طبقات الفرد الواحد فى نموه . وطبقات الأمة فى ارتقائها . وطبقات العقول فى زيادة فهمها . وطبقات الأرواح بعد الموت ويوم القيامة سواء أكانت تلك الطبقات انحطاطا أم ارتقاء نعيما أو عذابا . وهذه المعانى بكل منها قال مفسر من المفسرين . فالمعنى الذى اخترناه شمل الأقوال كلها فإذن أمتنا الإسلامية يشار فى السورة السابقة إلى رقيها لأنها بلغت النهاية فى الانحطاط . وسترجع لدورها الجديد . وهذا هو الذى يجعلها شاهدة على الأمم ، أما الآن فليست شاهدة ولكنها تريد أن تأخذ دورها لتلحق غيرها ثم تفوق الأمم ثم تكون شاهدة عليها وحافظة للأمم الأرضية وقائمة بإسعادها فالله هنا يقسم بالأنبياء وبالملائكة وبأمتنا الإسلامية . إذ هم شهداء على الناس ، وإذا أقسم الله بالأمة الإسلامية وبالأنبياء وبالملائكة وبالأمم المشهود عليها فهذا تهييج لأمة الإسلام أن تأخذ دورها وتحافظ على الأمم لأن الله إذا أقسم بأمتنا الشاهدة وبالأمم المشهود عليها فمعنى هذا أن الأمم الإسلامية يجب أن تكون قوامة على الأمم بعد رقيها ؛ وجواب القسم أن كفار مكة ملعونون كما لعن (أصحاب الأخدود) والأخدود الحد وهو الشق فى الأرض كما تقول الأحقوق والحق . وأصحاب الأخدود قوم من الأمم السابقة كانوا من ظلمهم يحفرون حفرا ويوقدون فيها النار . ويحرقون فيها من خالفهم فى كفرهم . روى ذلك عن ذى نواس الحميرى وقد كان يهوديا فأحرق فى الأخاديد من تنصر من أهل نجران . وروى عن بعض ملوك المجوس أنه خطب بالناس وقال : أيها الناس : إن الله أحل نكاح الأخوات فليفعلوه ففعل ذلك . وروى أيضا عن ملك كان له ساحر وقد صم إليه غلاما ليعلمه السحر . فلما ترعرع الغلام وقابل راهبا مال إليه وتدين بالنصرانية وأظهر ذلك

وظهرت غرائب على يديه فقتله الملك بأن رماه بسهم وقال بسم الله رب الغلام ، وإنما قال ذلك لأنه قد أعيته الحيل فى قتله فأتبعه الناس فحفر الأخاديد ، فكل من تنصر رماه فى الأخدود .

وهذه الروايات غير مقصودة لذاتها . وإنما القرآن ذكر الأخدود وأصحاب الأخدود ولم يبين من هم . وليس يقصد من ذلك فى القرآن إلا أن الظالم مأخوذ بذنبه ، لاسيما من ظلم من هو قائم بالحق بأن اتبع دينا حقا كالنصرانية قبل الإسلام ، وكالإسلام بعد ظهوره . وهذا القول فى هذه السورة بشارة من الله لمن على الحق أنهم منصورون وأن عدوهم مأخوذ بذنبه . وأن هؤلاء الكفار بمكة الذين يؤذون المؤمنين لافرق بينهم وبين أصحاب الأخدود . والله حاضر سميع عليم سيقتص من الظالمين وينصر المظلومين ، فبعدأن أشار فى السورة السابقة إلى أن الأمة الإسلامية ستأخذ حظها فى الارتقاء أتبعه هنا بما يفيد أن الله حافظ لهم مقتص من ظالميهم مادامو على الحق ، وبهذا تفهم قوله تعالى (النار) وهى بدل من الأخدود بدل اشتمال (ذات الوقود) صفة تفيد تعظيم أمر تلك النار ، وقوله (إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) أى لعن أصحاب الأخدود حين أحرقوا المؤمنين بالنار حال كونهم قاعدين حولها يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يفرط أحد منهم فيما فوض إليه من تعذيب المؤمنين ، وذلك كله حث على تحمل المؤمنين أذى أهل مكة والصبر على أذاهم أيام الصحابة ، وحث للمسلمين الآن على التمسك بالصبر والعناية بأنفسهم وألا يضجروا مما تفعل الأمم الغربية معهم ، فكما أهلك الله الظالمين من الأمم القديمة التى كانت تحرق الناس فى الأخدود وكما نصر الله المسلمين بمكة أيام مبدأ النبوة ، فهكذا ستقوم الأمم الإسلامية بحظها فى هذه الكرة الأرضية ويزول عنهم ضيم الأمم الظالمة الفاتكة بهم إذا رجع المسلمون لعقولهم ، وفكروا فى عجائب ربهم . ودرسوا علوم هذه الدنيا ونظمها كما أمر بذلك القرآن . وهذا آت لاشك فيه . ثم بين ذلك فقال (وما نقموا) وما أنكروا (منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وهذا نوع من أنواع البديع كقوله .

وما نقموا من أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فإذا كان لهم ذنب يعاقبون عليه فذنبهم أنهم يؤمنون بالله الموصوف بصفات الغلبة والقهر . وبصفات الإنعام التى يحمد عليها ومنه يرجى الثواب . والانتقام والإنعام يكونان فى ملوك الأرض بصفة واضحة لذلك أعقبه بصفة أعلى من ذلك فقال (الذى له ملك السموات والأرض) فعلى كل من فيهما عبادته والخضوع له والخشوع ، فإذن هؤلاء الناقمون غير محقين وهم أهل للانتقام . لأن من هذا وصفه حقيق أن يعبد وأن يطاع . لا أن يعاب من عبده وخشع له ، ثم أوعد هؤلاء الناقمين بعد أن أدحض حجتهم بالصفات العالية فقال (والله على كل شهيد) أى إنه أعلم بما فعلوا وهو مجازيهم عليه . ثم صرح وأتى بقاعدة عامة ، فقال (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أى عذبوهم سواء أكان بالأخدود أو بالإيذاء كما فعل أهل مكة ، أو بالحرب والطيارات كما فى هذا العصر (ثم لم يتوبوا) لم يرجعوا (فلهم) فى الآخرة (عذاب جهنم) بكفرهم وظلمهم (ولهم عذاب الحريق) يقال إن أصحاب الأخدود أحرقوا بنارهم فى الدنيا . والمقصود من هذا أن الظالمين يعذبون فى الآخرة وفى الدنيا كما سيأتى إيضاحه (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) وهذا عام فى الصابرين على حرق الأخدود وغيرهم . ثم أعقب ذلك بما يمثل عظمة الله زيادة شرح لقوله «العزيز الحميد» ولنقدم مقدمة للايضاح فنقول :

اعلم أن الملك فى الأرض لايعظم سلطانه وهيبته إلا بأمرين ووصفين ثابتين : الإنعام العام . والجود

الشامل ، والفضل العظيم . هذا أولهما . وثانيهما الجيش الجرار ، والأسطول ، والعظمة والأبهة . والمدافع والسجون ، فبالنعم يرجى خيره . وبالنقم يهاب جانبه . ولا قيام لعرش الملك فى الأرض إلا بهاتين الصفتين وهاتان الصفتان هما العزيز الحميد كما تقدم : فهاهنا أخذ يوضحهما فقال (إن بطش ربك لشديد) البطش الأخذ بالعنف . فاذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، والمراد أخذ الظلمة والجبابرة بالانتقام (إنه هو يبدئ ويعيد) يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد أن صيرهم ترابا . فاذا كان قادرا على البدء والإعادة فهو قادر على شدة البطش بهم لأنهم فى قدرته وقبضته (وهو الغفور) الساتر للعيوب ، العافى عن الذنوب (الودود) الفاعل لأهل طاعته مايفعله الودود من إعطائهم ماأرادوا (ذو العرش) أى ذو الملك (المجيد) بالجر صفة للعرش وبالرفع صفة لله ، ومجد العرش علوه وكماله ، ومجد الله عظمته (فعال لما يريد) لايمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره (هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود) فرعون وثمود بدل من الجنود ، والمراد بفرعون هو وقومه يقول الله : قد عرفت تكذيبهم للرسل وماحاق بهم من تكذيب تلك الجنود للرسل ومانزل بهم لتكذيبهم فسيحل بقومك ماحل بهم وبأصحاب الأخدود . وستنصر كما نصر موسى وصالح عليهما السلام (بل الذين كفروا فى تكذيب) لايزجرون عنه . وبل للاضراب ، كأن الله يقول : إن حال أهل مكة أعجب من فرعون وثمود ، فإنهم سمعوا قصصهم ورأوا آثار الأمم السالفة . فتكذيبهم أشد من تكذيبهم (والله من ورائهم محيط) لايفوتونه وهل يفوت المحاط المحيط ، ثم أضرب عن ذلك كأنه قال : لاعبرة بهؤلاء ولا بتكذيبهم فقال (بل هو قرآن مجيد) أى بل هذا الذى كذبوا به كتاب شريف وحيد فى النظم والمعنى فلا يضره كفر المعاندين (فى لوح محفوظ) وهو إما بالرفع صفة للقرآن ، فهو محفوظ من التغيير والتبديل ، وإما بالجر صفة للوح ، وهو عند الحسن شىء يلوح للملائكة فيقرءونه . وضرب له ابن عباس مثلا بالدرة البيضاء ، طولها مابين السماء والأرض ، وعرضها مابين المشرق والمغرب وقال إن القلم من نور وكل شىء فيه مسطور وهذا التمثيل للتفهيم وإلا فنحن نجهل ذلك العالم الشريف فلا نعرفه إلا بالتمثيل . فهذا اللوح محفوظ من وصول الشياطين إليه ، واطلاع من ليس مستعدا للاطلاع عليه

شرح وتفصيل

قد ذكرت لك أن الغلبة والإنعام هما الصفتان اللتان لايقوم العرش ولا يبقى إلا بهما ، وقلت لك : إن العزة والحمد هما الصفتان المذكورتان ، وأن ماجاء بعد ذلك إنما هو شرح للعزة والحمد ، ألا ترى أن البطش الشديد الذى أكده بالقدرة على البدء والإعادة هو معنى العزيز ، ألا ترى أن الغفران والود يرجعان لمعنى الحمد لأنه لاحمد إلا على نعمة ، والغفران والود يستوجبان النعم من الغفور الودود ، ألا ترى أن ذكر العرش يذكر بالملك ، أو لاترى أن قوله : «فعال لما يريد» شامل للنوعين الإنعام والانتقام ، إذن يتجلى لك فى هذه الأوصاف أبهة الملك الإلهى من عرش وإنعام وانتقام ، فإذا كان لصاحب العروش الأرضية جيوش جرارة فالله يبدى ويعيد ، وإذا كانوا يعطون لجميع النعم من الله ، فهو يستر عيوب المخلوقين ، ويفضل معهم من الإحسان مايفوق الوصف كما يأتى شرحه ، وإذا كان هذا شأنه فمن رعون وجنوده وثمود وجنودهم ، ألم يهلكهم الله ببطشه ، هذا ملخص هذه الآيات ، إذن فلنشرع فى ذكر مجمل هذا القول فنقول ومن الله التوفيق .

اعلم أن الناس يعيشون على الأرض غارقين فى النعم ، مغمورين فى الخير تحيط بهم الأنوار الكوكبية والهواء الجوى . ولاحياة للناس إلا بالأضواء . ولا بقاء لهم دقائق إلا بالهواء . ولاترى أحدا من الناس يفكر

فى نعمة الهواء . ولا فى نعمة الأضواء الشمسية والقمرية والكوكبية . ولا حياة أيضا للناس إلا بماء وبنبات وبحيوان ، فلا يستغنون عن الماء . ولا عن الغذاء ، ويحتاجون للدواء ، ويسرون بالفاكهة وبالإخوان والأصحاب ، فالناس غارقون فى النعم الهوائية والمائية والضوئية والغذائية والدوائية . ونعم الملابس . ونعم المنازل والممالك . ونعم العلوم والديانات . ولكن كثرة النعم توجب إنكارها . لأنها لشدة ظهورها زادت خفاء كثرت النعم على الناس حتى صارت منكورة لأنهم غرقوا فيها .

هذا هو قوله تعالى : «العزيز الحميد» وقوله «الغفور الودود» فانظر ماذا فعل لتعرف إحسانه بالنقم كما عرفت إحسانه بالنعم . انظر ألست ترى أن الإنسان له روح وجسم ، فهذه النعم لحياة الجسم وحياته قصيرة . فانظر كيف أراد الله أن يريناذلك ، فماذا فعل ؟ سلط الحر والقر والقحط والمرض والوباء والجدرى والتيفوس والتيفود واللوت والفراق والقتل والخنق والضرب والحرب والمدافع والطيارات والغازات الخانقة وعداوات الأمم لأجل الغذاء والملك .

فهذه هى النقم المذكورة فى قوله «العزيز» وفى قوله «إن بطش ربك لشديد» فبينما ينظر الإنسان فى السماء ذات البروج فيرى جمالا وإشراقا وحسنا وبهجة تأخذ بالألباب إذا به قد لفح بموت عظيم أو فريب أو حبيب ، أو فوجىء بخطب جسيم كأنه يقال له : أنت لم تخلق للبقاء هنا فاذهب إلى ذلك الجمال .

هذه النقم هى الموقظات للأمم والأفراد فتجعلهم يفكرون فيما حولهم . وينظرون فى أمرهم ، فالمريض يعرف نعمة الصحة . والجائع يعرف قيمة نعمة الغذاء . والذى عطش يعرف نعمة الماء ، والأمم التى وقعت فى حرب تعرف نعمة الاجتماع . فالناس يعيشون مذهولين من كثرة النعم حتى يحسد بعضهم بعضا على الصحة والقوة والغنى والثروة . فإذا جاءت الحرب عرفوا أن هؤلاء نعمة عليهم لا نقمة . وهناك تأخذ تلك المصائب تفتح العقول المقفلة ، والأبواب الموصدة ، والأفهام الجامدة . والنفوس الجامدة ، وتطلق الأرواح المسجونة ويقول العلماء : «لا يظهر الفلاسفة فى أمة إلا أيام محنتها» فالمحن تظهر مواهب هؤلاء الفلاسفة .

شذرة عامة من التاريخ

لقد قدمت لك فى هذا التفسير ماخاطب به أرسطاطاليس الفيلسوف اليونانى تلميذه الاسكندر قائلا : «إياك أن تنيم الشعب على فراش الراحة الوثير فإن الناس لا يتحملون النعم كما يتحملون النقم . ونصحه أن يشغل الناس بأعمال وإلا ذهبت منهم النخوة وبطروا وشرهوا فاستولى عليهم الذل والهوان وقهر الأمم المحيطة بهم . وضرب له مثلا بالأمم التى هلكت بالنعم» .

وقد أذاع فلاسفة الألمان فى عصرنا كتبا نشروها قبيل الحرب الكبرى إن الدولة إذا لم تصب بحروب مهلكة فانها تغرق فى النعم وتنسى كمالها وعظمتها ، فمن أراد أن يوقظ دولة فليبتدع لها حربا تنشطها وتلم شعثها . ثم إننا نرى الله عز وجل جعل هذا قاعدة عامة . فالأمم البدوية التى ترحل من مكان إلى مكان فى تتبع مساقط للطر تكون أقوى أبدانا وأصح نفوسا وأقرب إلى الشجاعة . والأمم التى أتاها الخير والنعم من كل جانب فهم يزرعون ويأكلون ويشربون لا يخافون الفقر والقحط . فهؤلاء يكثر نسلهم كما قل نسل من قبلهم ، ولكن انظر ماذا ترى . ترى الأولين أعزاء أقوياء لا يتغلب عليهم متغلب إلا قليلا . وإن تغلب لا يقدر على كسر شكيمتهم ، وترى الآخرين قد رخصت الأسعار عندهم ، وكثر الذين يعطونهم بالربا الفاحش ورخصت أجورهم فى العمل لكثرة عددهم . وفوق ذلك يأتى لهم العدو بالمدافع والجيوش فيتسلط عليهم ليشاركهم فى رزقهم . فانظر كيف أيقظ الله الناس على الأرض . قوم خلقهم فى أرض قفراء فعلمهم الشجاعة والمقمة وقوم منحهم سعة الرزق وسلط عليهم الذل .

أنظر إلى أمتنا الإسلامية . جاء الإسلام لعرب فى بادية الحجاز وحضره فلم شعثهم وكانوا متفرقين إنما كانت بلادهم قد علمتهم الجلد والصبر وشظف العيش . وهذه آثار صفات العزة وصفات البطش الشديد : فتعلموا قبل النبوة تعلما طبيعيا مرنهم على الصبر ومكارم الأخلاق كما تراه فى أشعارهم . جاء الاسلام وأمروا بالفتح . ولكن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الصحيح وذكرته فى هذا التفسير سابقا قال لهم مامعناه : إن أخوف ماأخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها . فقال له أعرابى : أو يأتى الشر من الخير . فأجابه صلى الله عليه وسلم ضاربا المثل بالمطر والنبات . فالمطر خير ولكن الشر عارض ، فهو صلى الله عليه وسلم لما انتصر الإسلام لم تفته هذه فأفهمهم أن كثرة النعم أخافته صلى الله عليه وسلم على المسلمين وقد تم ذلك بعد وفاته فإنهم فتحوا البلاد شرقا وغربا . فاتسعت دائرة الحسد والعداوة بينهم وكان ما كان حتى عظم الملك وتداخل فيه الفرس والترك . وذهبت الدولة بسبب البطنة والنعيم كما أخبر صلى الله عليه وسلم فى البخارى أنه يخاف ذلك . وكما قال تعالى : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» .

هنالك جاء التتار والمغول فى القرن السادس والسابع وما بعدهما وضربوا دولة الإسلام من جهة الشرق ولم يكن عند قطب أرسلان الذى هجم عليه جنكيز خان هو ولا علماء الإسلام علم بقوة المغول والتتار كما تقدم فى (سورة الكهف) عند ذكر يأجوج ومأجوج ، هذا فى جهة الشرق ، وترى نظيره فى بلاد الأندلس فذهبت الدولة الأموية هناك . ثم تفرقت المملكة إلى ممالك صغيرة . ولما سلطت عليهم البطنة والإسراف تفرقت القلوب وصار كل منهم يتقرب إلى ملوك الأسبان وهم فى خرهم ولهوهم ولعبهم وتفرنجهم وشعرهم الغزلى وخيالهم مغمورون ، قد تركوا العلوم العقلية وفرحوا بالغزل . وأضحى كتاب (الأغانى) هو دائرة معارفهم ومافيه من الخمر والغزل والشهوات وحكايات أبناء الملوك الفاسقين حتى خر عليهم السقف من فوقهم ، وطرد الأسبان المفكرون هؤلاء الخياليين النائمين فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، وهم نحو خمسة عشر مليونا غرق منهم قوم فى البحر ، وقتل آخرون ، وتنصر بعض ، ونزح إلى مراكش وتونس والجزائر جماعة ، فماذا حصل ، هاهم أولاء الآن يحاربون الأسبان الذين لحقوهم هم والفرنسيون ودخلوا بلادهم فى هذا القرن ، وماذا حصل ، رأينا أيام كتابة هذه السطور أن النار المحرقة وشظف العيش فى نحو أربعة قرون ربى هؤلاء المطرودين من أسبانيا ، فهاهم أولاء الآن يطردونهم من بلادهم ويأسرونهم ، فأما الأسبان فان الدرس الذى أعطى لأبناء العرب درس لهم بنفسه فإنهم ورثوا أرض الأندلس فوقعوا فى النعيم وهاهم أولاء اليوم يفرون من وجه من كانوا أخرجوهم بالأمس ، وقد أسر الأمير عبد الكريم منهم مليونا وبضعة آلاف وشركات الأسبان أنفسها تبيع له الذخيرة والآلات الحربية (١)

هذا هو تفسير بطش ربك ، بطش بأمتنا الإسلامية فى الشرق وفى الأندلس ، وسيبطش بجميع الأمم الظالمة فى الشرق والغرب ، وهذه مصر وسوريا والعراق وبلاد جاوه ، كل هذه رازحة تحت سيطرة الأمم الغربية ، وإن بطش ربك لابد منه ، وسينقذ هؤلاء كما أنقذ الروس من حكم القياصرة ، وجعل الترك وإيران والأفغان مستقلات ؟ وهذا أمر قريب الحصول

---

(١) هذا كان أيام كتابة هذا التفسير منذ سبع سنين ، ولكن بعد ذلك اتحد الفرنسيون والأسبانيون وتغلبوا على عبد الكريم — (المؤلف)

أقسم الله بالسماء ذات النجوم العظيمة ، ولا جرم أن السماء هى العوالم جميعها ، إن الإنسان ينظر وهو فوق الكرة الأرضية فيرى قبة زرقاء فيها جميع العوالم الكونية ، ومعلوم أن فى السماء أسباب رزقنا من مطر ونور وحرارة بأشعة الكواكب والشمس فإن لم تكن هذه فلا رزق فى الدنيا ، وهذه العوالم مدبرة بملائكة طبقا عن طبق ، وتحت هؤلاء كلهم نفوسنا الأرضية ، ومعلوم أن المقصود من هذا كله النفوس وترقيها ، وذلك يظهر فى اليوم الموعود حين يحضر هناك الشاهد والمشهود وهما جميع الأمم كما عرفت .

أقسم الله بهذا كله أن الظالمين يلعنون قديما وحديثا ، وقد شرحت ذلك تفصيلا قبل هذا ، انتهى تفسير (سورة البروج) يوم الاثنين ٤ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الطارق

هى مكية

آياتها ١٧ - نزلت بعد سورة البلد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا *

ولأقدم لك مقدمة تعرف بها صلة هذه السورة بما قبلها ومبادىء تفسيرها فأقول :

لقد ذكر الله فى (سورة البروج) السماء وبروجها ، والبروج فى الأصل القصور فسميت بها النجوم دلالة على أنها ليست كما يظنه الناس صغيرة ، والبروج الاثنتا عشرة المعروفة داخلة كواكبها ضمن النجوم العامة التى أقسم الله بها وباليوم الموعود وبالأمم المحشورة هناك شاهدة ومشهودة ، وذكر فى السور قبلها أن الملائكة معلون للناس ، وأنهم يكتبون أعمالهم ، فهذه السورة جاء فيها ذكر العلاقة بين السماء وبروجها وبين هذا الانسان حتى ذكر معها فى قسم واحد ، وجعل له أجل يحاسب فيه على أعماله وإهماله وجاء فيها بقية أوصاف الملائكة فاسمع البيان :

اعلم أننا ونحن على الأرض لارزق لنا إلا من جهة السماء .

(١) تشرق الشمس فترسل أشعتها على سطح الأرض فتثير الهواء فيصير رياحا مختلفة شرقية وغربية وشمالية وجنوبية ومتنكبة لها خرائط مرسومة ، ودروس مقروءة فى مدارس الشرق والغرب فيقال رياح موسمية ورياح تجارية ورياح صندية ورياح دورية ، وهكذا مما أوضحناه فى (سورة الحجر) ثم إن ضوء الشمس كما يشرق فى الهواء فيفعل ذلك يشرق على أكناف البحار ومواضع الماء فى البر فيثير بخارا يطير فى الهواء فيكون سحابا . فماذا يكون بعد ؟ تحمله الريح تلك الريح التى أثارتها الحرارة ، فالحرارة الشمسية أثارت الحامل والمحمول ، فاذا جرت السحب فى الجو وحفظتها الجبال أن تميد بمنة ويسرة أمطرت على اليابسة .

(٢) قد علمت أن الهواء والماء قد اتحدا على نتيجة واحدة ، وهى إنزال المطر كما كانا مسببين من أمر واحد ، وهى حرارة الشمس ، فانظر ماذا ترى : نزل المطر ، جرت الأنهار ، جمدت الثلوج فوق الجبال : أشرقت عليها الشمس فأذابتها ، ساعدت فى جرى الأنهار ، سقت الأنهار الأرض بقدر الناس الحب فى الأرض ونبت فصار منه الغذاء والفاكهة والملابس والدواء . وهذه الرياح الجاريات تذهب وترجع ، وهذا الماء الذى يخرج من البحر فى الجو ويصير سحابا ويمطر على الأرض ويصير أنهارا ويشربه الإنسان والحيوان ، ينقسم قسمين : قسم يرجع إلى البحر ثانيا فيتم الدورة كما فى النيل الذى يصب فى البحر الأبيض ، وكما فى دجلة والفرات وسائر أنهار الدنيا وإما أن يبخر من الأشجار والأنهار وجميع المخلوقات على الأرض فيرجع للجو بخارا كما نزل على الأرض مطرا ، فإذن الماء يصنع دائرة والهواء كذلك .

(٣) الماء يدور ما بين الجو وما بين الأرض دورات متتاليات إلى آخر الدهر ، إنما كان ذلك لأن الكواكب فى السماء دائرات والشمس والقمر . فكما أن الكواكب تشرق وتغرب . وكما أنها لها دوائر تتمها فى أمد معلوم كشهر أو سنة أو عشرة أو ثلاثين أو آلاف ، هكذا هذا الماء الذى أثارته الحرارة المنبثة من الشمس له دوائر تكون فى البحر وفى بعض أماكن فى البر فيكون بالحرارة بخارا يحمله الهواء ويكون مطرا . وبعد تمام الدورة يرجع مثل فعل الكواكب سواء بسواء : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» «وكل شىء عنده بمقدار» .

(٤) هذا الماء أثناء دورانه يكون من أسباب الحياة فجعله الله سببا لنمو النبات وحياة الحيوان فالأرض تنشق عن النبات . والحيوان يتزاوج ويكون فى كل من الحيوان والنبات ذكور وإناث وسبب هذا أن حياتنا فوق الأرض متوقفة على حرارة سماوية . وعلى مادة أرضية ، فالحرارة فيها قوة الفعل والمادة فيها قوة الانفعال ، فالحرارة الشمسية أثارت الهواء وأثارت الماء من البحار ، وفيها هناك أسرار وراء ذلك أرسلها الله فكان الذكور والإناث فى الحيوان والنبات ، فالذكور مشابهة للقوة السماوية والإناث مشاكلة للقوة المادية فى الارض ، وكما كان اتحاد العوامل السماوية والأرضية سببا من عند الله لوجود هذه الحياة على الأرض هكذا كان ازدواج الذكورة والأنوثة سببا من عنده ليكون هناك خلق على شاكلتهما . فانظر كيف كان اجتماع قوة الذكورة والأنوثة سببا فى خلق أشكال الزوجين فى الحيوان والنبات ، وكيف كان اجتماع القوة السماوية بالحرارة الشمسية والأرضية كالماء والهواء سببا إلهيا فى أن يدور الهواء ويدور الماء دائرة كالدائرة الكوكبية وكدوران الأرض حول الشمس .

(٥) كما ذكر الله فى السور السابقة أن الملائكة معلمون وكاتبون هكذا هنا ذكر أنهم حافظون لنا من المهالك والمعاطب إلا ماجرى به القدر .

هذه هى المقدمة . وبها تفهم تفسير السورة . ولنشرع الآن فى التفسير اللفظى للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والسماء والطارق) الطارق فى اللغة بحسب الأصل: هو من يسلك الطريق ليلا أو نهارا ثم خصه العرف بمن يأتى ليلا ثم استعمل فيما يبدو ويظهر فيه ، أقسم الله بالسماء والنجم الظاهر بالليل ، ثم قال (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، ويثقب السموات وينفذ فيها لأن السموات كما تقدم هى عالم الأثير الذى أصبح الناس لايدركون له آخرا ، وقد قدمنا لك مرارا أن ارتفاعها لم يقف له الناس على حد حتى إن الضوء الذى يجرى جريا سريعا جدا يجرى فى تلك السموات مليون سنة ونصف مليون ويصل لنا ، هذا ما وصل إليه علماء الفلك إلى كتابة هذه السطور. وأما علماء الأرواح فقد رووا عن روح (غاليلى) فى المقالة التى ذكرتها فى (سورة آل عمران) إن من الكواكب مايصل نورها إلى الأرض الآن ، وقد كان هذا النور جاريا منها قبل خلق الأرض ، وربما كان هذا الكوكب الآن قد قامت قيامته ؛ فالسماء أصبح الناس لايعرفون لها آخرا ، والنجوم تنفذ فيها وتخترقها . فلا للسماء آخر ولا للطارق عدد نعرفه ، فارتفاعها عظيم وكم لها من طارق لايحصى عدده . أقسم الله بهذه السماء العظيمة وبالطارق ، أراد الله أن يعظم السموات فى أعين الخلق فأقسم بها ، ولقد ظهر نورها وحكمتها فى هذا الزمان وأتى بالقسم لإعظام أمر النجوم ، والمراد بالطارق جنس النجوم ، فاعجب أليست النجوم الطوارق هى عينها البروج المذكورة فى السورة قبلها ، أقسم الله بها (إن كل نفس لما عليها حافظ) يقسم الله بالسماء وبالنجوم الظواهر بالليل على أنه ما كل نفس إلا عليها حافظ ، هذا إذا قرئت لما بالتشديد ، فاذا قرئت بالتخفيف كان المعنى أنه أى الحال والشأن كل نفس لعليها حافظ فان هى المخففة ، واللام فاصلة ، وما مزيدة ، وهذا الحافظ يحفظها من المهالك إلى أمد معلوم ، فالملائكة إذن يدبرون أمر هذا العالم فيدبرون نظام الحياة كما هنا ونظام التعليم ، ويقومون بكتابة الأعمال كالمدرس الكامل يحافظ على صحة التلاميذ ويعلمهم ويكتب نتيجة أعمالهم (فلينظر الإنسان) نظر تفكر واعتبار (مم خلق) أى من أىّ شىء خلقه ربه ؟ ثم بين ذلك فقال (خلق من ماء دافق) أى من منى مدفوق مصبوب فى الرحم ، والمراد به ماء الرجل وماء المرأة فهذان الماءان يخرج من أحدهما وهو ماء الرجل جرثومة حية دقيقة جدا لاترى إلا بالآلات المعظمة (المكرسكوب) فلا تزال تجرى حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم ماء المرأة ، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكونتا جرثومة دقيقة تستمد من ماء الحيض فتصير جنينا قد شرحناه فى (سورة آل عمران) وغيرها ، وشرحنا الأدوار التى مر عليها .

يقول الله : «من ماء دافق» فجعله ماء واحدا مع أنه ماءان . أتدرى لماذا ؟ لهذه الحكمة التى أظهرها الله فى علم الأجنة فى هذا العصر ، فهو يقول «من ماء دافق» مع أنهما ماءان كما تحقق فى العصر الحاضر ، وهذا قوله تعالى : «ثم إن علينا بيانه» وقوله : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» وقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) أى يخرج من بين الرجل والمرأة لأن هذا الماء منهما معا واتحد بعد ذلك .

واعلم أن الدماغ فيه مركز الإدراك ، وخليفته فى الجسم النخاع الشوكى المخزون فى الصلب ، وهذا النخاع له شعب كثيرة تصل إلى جميع أجزاء الجسم موصلة الحس لتنذر أعضاء الحركة فتقوم بالعمل . ولن تقوم حركة الجماع إلا بوجود هذه القوة ، ومعلوم أن ترائب المرأة التى هى عظام الصدر محل القلادة وأنواع الزينة التى تتحلى بها المرأة ، فأهم شيء فى الرجل عند اجتماع الزوجين قوته العضلية والعصبية التى تجرى فى النخاع فى الصلب : وأهم ما فى المرأة فى تلك الحال وحدها حسن زينتها . وأهمها ما على الصدر ، فاذا جمل الصدر وحسن الحلى فقد تم نظام الأحوال التى بها تكون الذرية فعلى هذا عبر بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة ، وهذا من محاسن البلاغة . فان هذا مجاز مرسل فى علم البيان من إطلاق الجزء الذى له أهمية على الكل كما تقول فى العبد رقبة ، وفى الكبش رأس ، وأنت تقصد نفس العبد لا رقبته وتقصد نفس الكبش لا رأسه ، لكن لما كانت المزية ظاهرة فى هذين العضوين عبر بهما عنهما هكذا هنا فى مسألة الأبوين لمزية كل منهما فيما ذكر معبرا عنه حتى يتم الفعل المؤدى لحصول الذرية ، وقوله تعالى : (إنه على رجعه لقادر) أى إن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حيا بعد موته . وهو أهون عليه ، وقوله (يوم تبلى السرائر) متعلق بقوله «رجعه» أى إعادته يوم تختبر السرائر ويميز بين ما طاب من الضمائر ، وماخفى من الأعمال وماخبث منها (فما له) فما للانسان (من قوة) من منعة فى نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) يمنعه (والسماء ذات الرجع) ترجع فى كل دورة إلى الموضع الذى كانت فيه . وهكذا إذا جاء أجل هذه الكواكب فيها تبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، وترجع عوالم جديدة لا تعلمها بنظم ثابتة ، وأيضا تكون هناك دوائر هوائية ودوائر مائية كما تقدم على مقتضى دوران الكواكب ، وقوله (والأرض ذات الصدع) أى الشق بالنبات والعيون ، وقد تقدم فى مقدمة هذه السورة بشرح واف (إنه) أى القرآن (لقول فصل) فاصل بين الحق والباطل (وماهو بالهزل) فانه جد كله ، وكيف لا يكون جدا وهذه السورة نفسها كافلة بحياة الأمم إذا عملوا بها ، فهى مع قلة عدد آياتها أشارت إلى السماء وبهجتها ، والنجوم ودورتها ، والمياه وحكمتها ، والسحاب وأوبتها ، والأهوية ونعمتها ، والنباتات وآيتها . وحياة الانسان وخلقتها ، وذنوبه ونقمتها ، وللائكة وسلطتها .

جمعت السورة جمال العالم العلوى وربطه بالسفلى ، أبانت ارتباطهما وانتظامهما . وتفرع كل شيء فى الوجود بينهما ، فيالبت شعرى أين يفر المسلمون ؟ أليس هذا قول ربهم . أليس هذا ديننا . ياعجبا كل العجب ! أمة تقرأ «والسماء والطارق» . «والسماء ذات البروج» . «والشمس وضحاها» وهكذا مما لم يسمع به العرب فى نثرهم وشعرهم ثم يغمضون الأعين ويصمون الآذان حتى أصبحنا نرى غيرنا فاقونا فى هذه العلوم وفى غيرها . فليقرأ المسلمون جميع العلوم فهذا هو مقصود القرآن . وقوله تعالى (إنهم يكيدون كيدا) أى فى إبطاله وإطفاء نوره (وأكيد كيدا) وأقابلهم بكيدى فى استدراجى لهم وانتقامى منهم من حيث لا يحتسبون (فمهل الكافرين) فلا تشتغل بالانتقام منهم وسر فى دعوتك ولا تستعجل بإهلاكهم (أمهلهم رويدا) أى إمهالا يسيرا ، وقد أخذهم الله يوم بدر والأيام بعده . انتهى تفسير (سورة الطارق) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الأعلى

هى مكية

آياتها ١٩ - نزلت بعد سورة التكوير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى *

مقدمة

اعلم أن السور السابقة جاء فيها ذكر السماء وكواكبها وطوارقها المضيئة المشرقة. وذكر الملائكة الكاتبين المدبرين الحافظين . ولما كان العالم الذى نعيش فيه إنما هو أشبه بجسم إنسان واحد، وهذا الجسم له أعضاء بطش وأعضاء حس وروح تدبره كله فتدبر أعضاء الحس وأعضاء الحركة أتى سبحانه بهذه السورة ليبين سر السور السابقة كأنه يقول : أى عبادى خلقت لكم السماء وملأتها بالنجوم الثوابت ، والروج النواضر ، والمشرقات الزواهر . وأدرتها وجعلت ملائكتى مدبرين لها حافظين لكل نفس معلمين للأنفس الإنسانية بالإلهام والوحى . فإياكم أن يصدكم هذا النظام عن مبدعه . وهل للجسم نظام فى حركاته أو حفظ لحواسه إلا بالروح المدبرة . فأنا فى العالم بمنزلة الأرواح فى أبدانكم ، فما السماء ونجومها . ولا المياه وسحابها ، ولا الهواء وحمله لها إلا كأعضاء الحركة فى الأجسام الإنسانية . وما الملائكة المدبرون والكاتبون إلا كالحواس الخمسة فى الإنسان . وكل ذلك بلا روح باطل وقبض الريح . هكذا هذا العالم لا بقاء لكواكبه ولا لملائكته إلا بالرب المدبر العالم الذى مقامه فيه يمثل له بقيام الروح بالجسم . وهذا معنى القول المشهور : «من عرف نفسه عرف ربه» فيعرف أن نفسه لها أعضاء حس وأعضاء حركة ، والله له ملائكة وسموات وكواكب فهذا هو المقصود من قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه ذاته عما لا يليق به . والاسم صلة. والعلو هنا

بمعنى الاقتدار والقهر وشمول العلم ، فهو أعلى من الملائكة علما ، ومن الكواكب قدرة ، فكلها خاضع لسلطانه وعلمه وقهره . فما العالم كله إلا أجرام تدور حول أخرى ، وكل طبقة أعظم مما بعدها وأقل مما قبلها إلى أن ينتهى الأمر إلى الأقمار ، فهى تحت الأرضين . والأرضون أقل من الشموس ، وكل شمس تدور حول أخرى وهكذا إلى شمس المجرة الكبرى ، وهكذا نفوس الناس تستمد من نفوس أعلى منها . وهكذا طبقة تتلوها طبقة أرقى منها «وأن إلى ربك المنتهى» فالعالم كله من أجسام وأرواح فى قبضته . فعلينا أن نسبحه من كل مالا يليق به ، فهو أعلى الموجودات . وقوله (الذى خلق فسوى) أى خلق كل شىء فسوى خلقه تسوية ولم يأت بالمخلوقات متفاوتة غير ملتئمة بل جعلها ذات إحكام واتساق دال على صدورها من عالم حكيم والا فكيف نراه .

(١) جعل جمال الوجه فى أربعة أعضاء : الفم والأنف والعينين فإن تلاءمت كان الجمال وإن لم تلتئم كان القبح .

(٢) وجعل الجمال الباطنى فى أربع أيضا : الحكمة . والعفة . والشجاعة . والعدل . فان تمت فهو جميل الخلق وإن لم تتم فهو سيء الخلق .

(٣) وكيف جعل عظام الأصابع دقيقة . لكل أصبع ثلاثة أنامل موضوعة بدقة بحيث تمكنه من جعلها مجتمعة لدفع المهاجم: منحنية لإمساك آلات الصناعة والزراعة والحرب . ومنبسطة ليحمل عليها . ومنقبضة بعض القبض لتكون له مغرفة أو مجرفة .

(٤) وجعل الأظافر لحفظ أطراف الأصابع وليتمكن من ضبط دقائق المادة المتساقطة .

(٥) ولم كان [السنا المكى] و [زيت الخروع] مسهلين للانسان ؟.

(٦) ولم كان الورد ملائما لحاسة الشم فى الإنسان ؟.

(٧) ولم كان القطن نافعا لملابس الإنسان . ولم كانت الطيور النافعة كأبى قردان تأكل الدود من الحقول التى فيها نبت غذاء الإنسان : وأين المناسبة بين (أبى قردان) أو بين الانسان حتى تعدى أثره إليه فجناه ؟.

(٨) ولم كان اختلاف العناصر الداخلة فى النباتات جعلها مختلفة المنافع للانسان . فالكلور يدخل فى شعر القطن ٦٫٣٧ من مائة . وفى حب الشعير ٠٫٣٠ من مائة : أى نحو ثلث واحد من المائة من تركيب الشعير .وهو فى حب الذرة آثار ضئيلة. وفى حب الفول ١٫٠٤ من مائة . وفى البطاطس ٢٫٢ من المائة.وفى القصب المجرد من قماماته ٨٫١٠ من المائة.وفى البرسيم ١٣٫٩ من مائة.

فانظر كيف جعل هذه الحكمة بأن أدخل الكلور الذى هو أحد مادتين يتركب منهما الملح فى البرسيم نحو ١٤٫ من المائة . وفى القصب نحو النصف من ذلك . وفى البطاطس نحو ربع ما فى القصب . وفى الفول نحو نصف البطاطس وهكذا . فانظر لولا جعله الكلور فى هذه النباتات مثلا بهذه المقادير لم تتكون ولم تظهر فوائدها. فكما قدر عظام اليدين بحساب لتكون المنافع المطلوبة هكذا قدر وسوّى أجزاء النبات لتكون النتائج المقدرة ولو اختلف أى جزء عن مقداره لاختل أمر النبات ولم ينبت ، وقوله (والذى قدر فهدى) أى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وآثارها وأفعالها وآجالها ومناطقها وأيامها وحرها وقرها . فلم يذر نجما إلا قدر حركاته بحسابه . ولا شمسا ولا قمرا ولا كوكبا سيارا إلا جعل لها حسابا مقدرا لاخلل فيه . ولو اختلت الشمس عن سيرها المعتاد ثانية واحدة لاختلت مواعيد القطرات على اليابسة والسفن فى البحار فعطل ذلك مصالح الناس . يعرف ذلك القائمون

بأمر الرصد الذين يأمرون بضرب المدفع فى القاهرة وفى غيرها من البلدان وقت الظهر ، ومن هذه المقدرات الحيوان . فقدر لكل حيوان مايصلحه وهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع (والذى أخرج المرعى) أى أنبت ماترعاه الدواب (فجعله غثاء) يابسا هشيما (أحوى) أسود وهذه صفة غثاء : فمن فعله هذا كله فهو حقيق أن يسبح ويعبد ، ولا جرم أن المسبح المصلى العابد مقترب من ربه بروحه لكثرة ذكره وعبادته وتلاوته وصلواته ، ولذلك قال تعالى بعد ذكر التسبيح لمن اتصف بهذه الصفات البديعة إنك يا محمد من المسبحين ولذلك ثبتنا العلم فى قلبك كما أنزلناه عليك وهذا قوله (سنقرئك فلا تنسى) أى سنقرئك القرآن فلا تنساه (إلا ماشاء الله) أن ينسخه فإنك تنساه ، فأمابقية ما تقرؤه فأنت مبشر يا محمد أن يحفظ فى قلبك حتى لاينفلت منه شىء . ثم إن الذى شاء الله نسخه يرفع حكمه وتلاوته (إنه يعلم الجهر وما يخفى) أى يعلم ماأسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم ، وماظهر ومابطن من أحوالكم . ثم عطف على قوله « سنقرئك » قوله (ونيسرك لليسرى) أى ونوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل ، فنجعل الوحى محفوظا فى قلبك ونجعل شريعتك أيسر الشرائع ونوفقك للعمل بها (فذكر) بعد ماستتب لك الأمر أى عظ بالقرآن (إن نفعت الذكرى) فذكر ومعنى هذا أن الذكرى إنما تصح إذا ظن أن المذكرين سينتفعون ، فأما إذا يئس منهم فيجب الإعراض عنهم (سيذكر من يخشى) أى سيتعظ من يخشى الله فانه يتفكر فيها فيعلم حقيقتها (ويتجنبها) أى ويتجنب الذكرى (الأشقى) الكافر فانه أشقى من الفاسق (الذى يصلى النار الكبرى) نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا . وتوضيحه فى سورة (آل عمران) فقد استبان هناك درجات الحرارة النارية فى أرضنا . وكيف تزداد بالتوغل فى الأرض حتى تصل إلى حرارة تذيب سائر المعادن ، وأن هناك فى باطن الأرض نارا لايتصورها العقل ، هذا معنى قوله « النار الكبرى » (ثم لايموت فيها) فيستريح من العذاب (ولا يحيى) حياة يتلذذ بها (قد أفلح) نال الفوز (من تزكى) تطهر من الشرك ، وتطهر للصلاة ، وأدى الزكاة . وتخلى عن الحسد والحقد والكبرياء وغيرها من الصفات المهلكات (وذكر اسم ربه) لأنه إذا تخلى من النقائص الظاهرة والباطنة فإن الذكر إذ ذاك يصادف قلبا خاليا فيتمكن منه . والذكر إما بالقلب أو باللسان . وقوله (فصلى) أى إن الصلاة إنما يراد بها توجه العبد لله قال تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » ومن الصلاة الصلوات الخمس . ومن ذكر الله تكبيرة الإحرام . ومن التزكى التصدق يوم الفطر ، ومن ذكر اسم الرب والصلاة تكبير يوم العيد وصلاته ، فالأقوال المختلفة تحتملها الآية جميعها . فتكبيرة الإحرام وحضور ذكر الله فى الصلاة كلها ذكر والباقى ظاهر . ثم خاطب الأشقياء على سبيل الالتفات فقال (بل تؤثرون الحياة الدنيا) على الآخرة فلا تفعلون مابه تسعدون (والآخرة خير وأبقى) فان نعيمها لايشوبه نغص وهو دائم (إن هذا لفى الصحف الأولى) واسم الإشارة راجع إلى قوله : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » فان هذا القول جامع لطهارة النفس من النقائص وتحليتها بالفضائل ، مؤثرا للآخرة ، رافضا الدنيا إلا ما أعان على الآخرة . وهذا جامع خلاصة الديانات والكتب المنزلة جميعها ، وقوله (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى .

وجاء فى الأثر أن فى صحف إبراهيم : ينبغى للعاقل أن يكون حافظا للسانه . عارفا بزمانه . مقبلا على شأنه اهـ.

لطيفة فى قوله تعالى:

« الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى »

فى هذه اللطيفة ثلاث جواهر

(١) عجائب الأشكال فى تبلور المعادن .
(٢) وعجائب النخل والتين والعنب وغيرها ، وبدائع حكم خلقها . ونقتصر منها على ١٥ عجيبة يشاهدها أكثر الناس وهم لايدرسونها .
(٣) وعجائب الحيوان .

﴿ الجوهرة الأولى فى عجائب الأشكال المتبلورة فى المعادن ﴾

قدمنا فى المجلد الثامن رسم شكلين هرميين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها . من الذى رسم هذا بحيث استقام شكلهما وانتظم أمرهما . لم يرسم هذا أحد ولكنه رسم إلهى ظهر فى الصودا الكاوية . التى هى من مركبات الصوديوم وهو فلز أبيض ذو لمعان فضى . وإذا ألقى فى الماء اصطهر وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء وينتهى فى العادة بفرقعة . فمن مركبات هذا الجسم النارى الذى يلتهب فى الماء هذه المادة التى تسمى بالصودا الكاوية ، ومن مركبات الصوديوم ملح الطعام الذى يكون كتلا عظيمة فى بعض الصخور الجبلية . ويعرف بالملح الجبلى . ويكون فى مياه البحار ، ومن مركباته أيضا النطرون .

إذا عرفت هذا أيها الذكى وأدركت أن الصوديوم المذكور تراه فى النطرون وفى ملح الطعام وأشباه ذلك عرفت أن رسم الهرم المذكور سر من أسرار هذا العصر ، وطريقة ذلك الشكل ورسمه أن توضع عشرة دراهم ماء فى إناء صينى أو بلورى على منصب حديد ، وأن يغلى هذا الماء بقنديل بهيئة خاصة فى علم الكيمياء يسمى (القنديل الكحولى) ثم يوضع فيه عشرون درهما من الصودا الكاوية فيذوب جميعه فى الماء الحار المذكور . فاذا نزعت القنديل من تحته وتركته حتى يبرد فانك ترى قطع الصودا تتجمع على جدران الكأس على هيئة أجسام لامعة سميت (بلورات) وهذا العمل يسمى تبلورا . ومتى لاحظت بلورات الصودا وجدتها جميعا على شكل واحد وهيئة واحدة مع اختلاف فى الحجم كبرا وصغرا فيكون شكلها هرمين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها ، وهو شكل ٦ فى المجلد الثامن انظره هناك .

وإذا أعدت العمل بالشب الأبيض عوضا عن الصودا ترى البلورات تتكون على هيئة تقرب من الهيئة المتقدمة فى الشكل . وإذا أعدت العملية بالشب الأزرق : أى كبريتات النحاس عوضا عن الشب الأبيض فان البلورات تتكون على الهيئة المرسومة فى الشكل المكعب المرسوم فى الجزء الثامن من هذا التفسير. انتهى الكلام على الجوهرة الأولى، والحمد لله رب العالمين .

﴿ الجوهرة الثانية فى عجائب النبات والأشجار كالنخل والتين الخ ﴾

اختلاف النبات فى الطباع

لقد اختلف النبات فى طعومه وألوانه وروائحه . ذلك لأنه غذاء للحيوان ، والحيوانات مختلفة الطباع فقد جعل كل نوع من النبات غذاء لنوع من الحيوان، ودواء لداء يعرض لها، ولا نعرف هذا إلا باستقراء

علوم الطب وعلوم البيطرة ، هذا هو الذى يعرفنا قوله تعالى : «الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى» فهذه هى التسوية ، وهذا هو التقدير . وهذه هى الهداية . فانه قدر النبات والحيوان وسواهما ، ثم هدى الحيوان لغذائه ودوائه .

﴿ اختلاف الأشجار من حيث إن منها ماهو تام ، ومنها ماهو ناقص . وصفات التام ، وصفات ماهو أتم وأكمل ﴾

وصف الكامل من الأشجار

يكون له تسعة أجزاء :

(١) الأصل . (٢) العروق . (٣) القضبان . (٤) الفروع . (٥) الورق .
(٦) النوى . (٧) الثمر . (٨) اللحا . (٩) الصمغ .

﴿ وصف الشجر الناقص ﴾

الشجر الناقص ماينقص واحدة من هذه الأوصاف ، أو أكثر كشجرة الألب . وأم غيلان ، وشجرة الصفصاف التى تسمى بالخلاف ، وكشجرة الطرفاء . وما شاكل ذلك مما لا ثمرة له . أو لاورق أو لانوى أو لاصمغ له .

﴿ تفاضل الشجر ﴾

(١) منها التين والجوز والجوز وأمثالها ، فهذه تفضل بارتفاعها فى الهواء ، وتفرعها فى الجهات .
(٢) ومنها مايرتفع فى الهواء منتصبا منفردا كشجر النخل والسرو والقنا والصفصاف والساج .
(٣) وتختلف أيضا بعروقها الضاربة فى الأرض ، فمنهاماهى كالأوتاد المنتصبة ومنها مايذهب فى الجهات على الاستقامة ، ومنها ماينعطف ويتعوج ويلتف .

﴿ اختلاف النبات من جهة الأماكن ﴾

منه ماينبت على وجه الأرض ، ومنه ماينبت تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من العكرش ، ومنه ماينبت على وجه الماء كالطحلب ، ومنه مايعيش على الشجر والنبات بحيث ينسج عليهما كالبلاب والكشوثا ، ومنه ماينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن ، وبعضه يختص بأمكنة فلا ينبت إلا فى البلاد الحارة كالنخل ، أو فى البلاد الباردة ، أو فى الأرضين السبخة ، أو فى الأرض الطيبة أو فى الرمال وبين الحصا والحجارة والصخور أو فى الأرضين اليابسة .

فبهذا نفهم قوله : « والذى قدر فهدى » فهذا هو التقدير بحيث يقدر لكل حال ، ولكل حيوان ، ولكل مكان ، ولكل نوع ، ولكل كمال ، ولكل نقص ، ولكل صقع ، ولكل حرارة أو برودة نوعا من النبات ، فلم ينس الحصا والرمل ، ولم ينس البرودة ، ولم ينس النقص ، ولم ينس الكمال ، ولم ينس أنواع الحيوان ، ولم ينس الأرض السبخة ، بل جعل لكل من هذه حظها من النبات .

وهنا أقص عليك قصص الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة والشرف والجاه ورقى الأمة ، وأن تقوم بواجبها . وأتلو عليك من نبأ الحكم الإلهية والعجائب الربانية والنظم العلية ماشق بجهله الأكثرون وغاب عن علمه المتأخرون ، وليس يفض مسك ختامه إلا المفكرون .

سأتلو عليك نبأ من الدروس الحكمية ، والأسرار المحجوبة . أسدلت عليها الحجب وهى فى وضح النهار ، هن مقصورات فى الخيام ، ظاهرات للأنام . فاعجب لجميل محجوب جماله والعيون تراه مستورة محاسنه

ولكنه أمام المرآة تجلى للناظرين ، واحتجب عن الجاهلين . العيون مبصرة ، والقلوب مقفلة ، فكم من امرئ رأى الجمال فأخطأه ، وحظى بالوصال لما عقله ، رأى المحبوب وعقله مغلوب ونفسه فى لغوب. فكم من عاقل أسدل على عقله الحجاب ، وغاب رأيه عن الصواب ، فنظر القشر ولم يدرك اللباب : وإياك أن تظن أيها الذكى أن هذا القول من نزعات جهلة المتصوفين ، أو الذين يسجعون وأحاديثهم شجون . كلا ، إنى سألقى عليك فى هذا المقام بدائع ولطائف تبهر العقلاء . ويسخر منها المغفلون . وينشرح لها المفكرون . إن الأمة الإسلامية يعوزها استخراج هذه العجائب. وإظهار هذه الغرائب والبدائع والحكم ، فاصغ لما أقول واعجب من العلم المعقول . إننا نأكل التمر ونأكل العنب ونأكل التين ونحوها هل خطر ببالنا أن نقول :

(١) لم كان جرم النخلة متخلخلا تركيبه. وحشى بمواد رخوة زيرية ؟.

(٢) ولم نرى عروق النخل فى الأرض كثيرة جدا ؟.

(٣) ولم نرى أن النخلة اختصت بأن لفت عليها مآزر من الليف شدت ثلاث طبقات . ولم لم نر هذا الليف فى العنب . ولا فى التين ، فلماذا ؟.

(٤) ولماذا نرى طلع النخلة عليه غلاف ولكن لا نرى هذا الغلاف فى العنب ونحن نأكلهما . وليس على قطف العنب إلا ورقة فوقه ؟.

(٥) ولم جعل على جرم النواة نسج حريرى . ولم هذا النسج حول العجمات الصلبة الخزفية الداخلة فى حب العنب ؟.

(٦) ولم كان فى جرم النواة فى التمرة حفرة مستطيلة فيها فتيلة ؟.

(٧) وما هذه النقرة التى على ظهر النواة وما فائدتها ؟

(٨) وما فائدة القمع الذى على رأس التمرة ؟

(٩) ولماذا نرى ثمار الفستق والجوز واللوز قد جعل الغليظ فى ظواهرها واللطيف فى باطنها وعكس ذلك فى التمرة ؟.

(١٠) ولماذا نرى التين والجميز لم يميز لطيفها من غليظها كما ميز فى الجوز والتمر ؟.

(١١) ولماذا نرى عروق شجرة التين وأصولها وقضبانها بحال غير حال النخل ؟.

ذلك أننا نرى العروق غلاظا ذاهبات تحت الأرض فى الجهات على استقامة واعوجاج فى العمق . وفيها تجويفات كما فى جوف القصب لكنها أضيق قليلا. وهكذا تركيب الأصول والقضبان والفروع فكلها تجويفاتها لطيفة وعقدها كعقد القصب وفى كل تجويف مواد زيرية محشوة خللها .

(١٢) ولماذا نرى عروق العنب على هيئة غير هيئة التين والنخل مفرقة تذهب تحت الأرض ممتدة فى الجهات دقاقا وعلاظا . وفيها تجويفات مثل تجويفات شجرة التين ، ولكن هنا يكون جرم أصولها يمتد طويلا دقيقا على وجه الأرض . ولا يكاد يقوم على ساق مرتفعا فى الهواء كثيرا كما يقوم غيره من الأشجار ؟.

(١٣) ولماذا نرى عقد قضبان تخرج منها شظيات لينة منبثة تلتف على الشجرة وتتعلق بها ؟.

الجواب على هذه الأسئلة

(١) أما كون جرم النخلة متخلخلا الخ فذلك لأن النخلة لها جذع طويل يمتد فى السماء . ولها سعف وورق وليف وجمار وقنوان وثمر ونوى ، فأعمالها كثيرة وارتفاعها عظيم لذلك جعلت متخلخلة لكى يسهل على القوى الطبيعية التى بثها الله فيها أن تجذب تلك المواد من أسفلها

إلى أعاليها ورءوس أجذاعها وفروع سعفها الخ ولو كانت متكونة صلبة كالأشجار الذاهبة فى السماء طولا من الساج والدولاب والسرو لعسر على القوى الطبيعية جذب تلك المواد إلى هناك لكثرتها وتفننها فكيف ترفعها مع الصلابة المتناهية ، فهذه هى الحكمة .

(٢) وأما كثرة عروق النخلة فى الأرض فإن كثرتها مناسبة للمواد التى تجتذبها ، لأن الأعمال كثيرة فى التمر والنوى والليف والسعف الخ فيجب أن تكون لها أغذية متنوعة ، وهذه الأغذية المتنوعة تحتاج إلى عروق متنوعة حتى تمدّ الشجرة بشيرجها ودبسها وتمرها ونواها وقنوانها وطلعها وسعفها وخوصها وسلائها وغلاف طلعها وأقماع تمرها وجمارها وجذعها الطويل ، ولذلك ترى جرمها مركبا من قضبان كأنها خيوط مجتمعة متداخلة ، وكل خيط منها ممتدّ لعرق ممتد فى الأرض يمتص المواد ويوصلها إلى ذلك الخيط منفردا لتسهل الأعمال على طبيعة النخلة ، فانظر كيف وزعت أعمال التغذية على تلك الخيوط المنضمة وهى متصلة بالعروق الضاربة فى الأرض بحيث يكون التقسيم من أول الأمر فلا يصعب بعد ذلك التقسيم على قوى النخلة كما ترى الحكومات تقسم الأعمال على رجالها ، وتجعل كل جماعة فى ديوان مخصوص ، فالنظام العام واحد .

(٣) وأما كون الليف مختصا بالنخلة فذلك لحكمة عجيبة ، وذلك أنك عرفت أنها متخلخلة ، وأن جذعها مركب من خيوط فكيف تستطيع أن تحمل ذلك السعف الكثير والقنوان والخوص والسلاء حمل عظيم يئودها حمله ، فلذلك شد عليها الليف شدا محكما كما يشد الرجل المئزر على وسطه ، فلذلك ترى النخلات الباسقات يمتن ذات اليمين وذات الشمال عند هبوب العواصف ولا ترى سعفة تقع ولا قنوا ، ذلك لليف المشدود ، وهو ثلاث طبقات منسوجات متوازية ملتفة على أصول السعف ، فلئن جعل الناس ذلك الليف رباطا لبضائعهم ومنافعهم لم يكن لهم ذلك إلا بعد ما انتفع النخل به فى شد قواه ، وحفظ فروعه وتقوية جذوعه فى يوم الريح العاصف .

(٤) وأما كون طلع النخلة عليه غلاف ، ولسنا ترى ذلك الغلاف فى العنب ، وإنما على كل قطف ورقة تستره فقط ، فذلك لأن طلع النخلة يخرج رطبا نديا رخصا رخوا تضره الآفات العارضة من برد وحر مفرط ومطر شديد ورياح وعواصف وغبار وما أشبه ذلك ، فجعل عليها ذلك الغلاف المسمى (الكفرى) فإذا استحكم الطلع واشتد انشقت الأكمام والغلاف عنه وظهر لنسيم الهواء وحرارة الجو فيربو ويسمن وينضج بحرارة الشمس ويصير بسرا ورطبا جنيا هضيما ، ثم يجف ثم يصير تمرا ودبسا جامدا ، فهو أشبه بالمسلمين وهم مقلدون جامدون ، فإذا فكروا ونظروا كما ذكرنا فى هذا التفسير عرفوا هذه الدنيا وأدركوا سر القرآن ، فهدتهم عبادتهم إلى العلوم ، وتسبيحاتهم إلى نظام الأفلاك وعجائب الإنسان والحيوان ، وهذا أوانه فقد انشقت الأكمام ، وظهر الطلع الآن ، وسيصير رطبا جنيا فتمرا شهيا . وأما حبات العنب فإن مادتها غليظة صلبة عفصة لا تعرض لها الآفات كما تعرض ثمرة النخل لأنها تخرج رخوة رخصة ندية ترفة تسرع إليها الآفات كما ذكرناه فلا حاجة إذن لحبات العنب أن يكون عليها غلاف بل يكون لا فائدة منه وهو حمل ثقيل على العنبة ، وليست تحتاج إلا إلى قشرة رقيقة حريرية النسيج لتحفظ تلك الرطوبات والدبس والشيرج من الآفات العارضة لها من

الرياح والغبار وحرارة الشمس خيفة أن تنشف تلك الرطوبات كما تفعل بالمياه المستنقعات ، هذا هو الفرق بين العنب والتمر ، وهذه المسألة الرابعة فى الحقيقة مسئلتان : إحداهما للنخل والأخرى للعنب .

(٥) وأما جعل النواة عليها نسج حريرى فذلك بين مما ذكرناه فى (سورة الفاتحة) وهو أن تلك الغلافة جعلت حاجزا بين جرم النواة ودبس التمرة لئلا يمتص عفوصة جرم النواة وغلظ جوهرها دبس التمرة وشيرجها ، لأن طبع الجواهر الجسمية الأرضية أن تشرب نداوة الرطوبات الرقيقة الدهنية وتمتصها ، فلو لم تجعل تلك الغشاوة الرقيقة الحريرية النسج هناك لاختلط دبس التمرة مع جرم نواتها ، وقل الانتفاع بها ألا تنظر هذا العجب ! قشرة حريرية على حبة العنب ، لماذا ؟ ونسيج حريرى على النواة ، لماذا ؟ فالأولى لمنع الأضرار الجوية ، والثانية لمنع اختلاط المتجاورين ، لا لخوف من حر ولا برد ولا غبار . ولما كانت عجمات العنب على حال غير النوى لم يجعل عليها غشاء حريرى كالذى جعل على النواة ، ذلك أن تلك العجمات صلبة خزفية مجوفة ، وفى داخل التجويف لب دسم هو بذر العنب وبزره ، وهذه البذور صغار جدا ليست كبيرة كالنواة ، وهى رخوة ليست فى صلابة النواة ، وهى ليست فى غلظها ، وهذه العجمات غنية بما فى داخلها من الدسم عن أن تمتص من شيرج العنب ، فإذا احتاجت النواة إلى نسيج يفصلها فهذه مستغنية لأنها ندية من داخلها فكيف تطلب النداوة مما حولها . ثم إن دبس العنبة وشيرجها كثير بالإضافة إلى جرم تلك العجمات كلها وليس هكذا التمرة فإن جرم النواة بالنسبة إلى دبس التمرة وشيرجها كثير ، فهذا هو السبب الذى لأجله لم يكن فى العنب على العجمات نسج حريرى .

(٦) وأما الحفرة الطويلة فى النواة والفتيلة فيها فإنما جعلت هكذا لكيما تجرى فيها تلك المواد من أولها إلى آخرها ، ثم تجمد أولا فأولا ، فما هذه الفتيلة إلا كالقناة يسقى منها الزرع وكالأنهار وما أشبه ذلك .

(٧) وأما مايرى من نقرة على ظهر النواة فإنما ذلك هو الباب الذى ستخرج منه النخلة عند غرسها فمن هناك يخرج العرق النازل فى الأرض ليجذب المواد الأرضية ويمتص النداوات والرطوبات الأرضية ، ويخرج أيضا من أعلى طاقة مورقة تكمل شيئا فشيئا حتى تصير جذعا يعظم على طول الزمان .

(٨) أما الأقماع التى على رءوس التمرات فقد ذكرناها فى (سورة الفاتحة) أيضا مختصرة ، وذلك أن هذه الأقماع ما جعلت إلا كأنها المصافى جمع مصفاة تصفى المادة الواصلة إليها ، فهى أشبه بما يفعل الناس من جعل الماء مرشحا ليبعدوا عنه المواد الضارة للانسان ، هكذا هنا فإن القوى الإلهية التى بثها الله فى تلك الشجرة مرسلة إلى القمع تميز الغليظ من اللطيف ، وتجعل الرقيق فى ظاهر التمرة ، وتجذبها إليها شيرجا ودبسا وترسل الغليظ إلى جرم النواة وتجمده عليها .

(٩) وأما ثمار الجوز واللوز والفستق وأمثالها التى خالفت النخل والعنب إذ جعل الغليظ فى ظواهرها فصار قشرا حافظا ، واللطيف فى بواطنها فصار مادة لطيفة زيتية تؤكل ، فاعلم أن الحكمة فى ذلك أن العنب والرطب كلاهما يجف ويصير تمرا وزبيبا . فكانت تلك المادة لا تستضر ببقائها

بلاقشر بل هى نفسها حافظة لما غلظ فى داخلها، أما الفستق والجوز واللوز فإن هذه مواد زيتية لا تقوى على تحمل المصادمات التى تفتت أجزاءها وتسرع فى تعرقها فلذلك أحيطت بالقشر. أما التين والعنب والتمر فإنها قوية متينة.

(١٠) فأما ثمرة التين والجميز فإن غليظهما لم يميز من لطيفهما لأن موادهما وأغذيتهما معتدلة ليس بينها كبير تفاوت فلا حاجة إذن للتمييز بين الأجزاء تمييزا قويا كالذى رأيت فى التمر والجوز، وإنما جعل الغليظ هنا حبا صغارا، وجعل على الخارج قشرة رقيقة لنصون الرطوبة من الأذى كما فى العنب فلا قشر لهما ولا نواة.

(١١) وأما تركيب أصول شجرة التين على ماذكرناه فى السؤال فانما كان ذلك ليسهل على القوى التى بثها الله هناك أن تجذب تلك المواد الغذائية من الأرض فترفعها إلى أصول الأشجار ومنها إلى أعاليها: وإيضاحه أن هذه التجويفات فى القصبات كل واحدة منها أشبه بمعدة الانسان وبكرش الحيوان يهضم فيه الغذاء ويعطى تلك الأنابيب وأوراقها وزهرها وعناقيدها بدل ما تحلل منها فتتمثل تلك المواد المنجذبة من الأرض المرفوعة إلى ذلك التجويف بما دخلت فيه من ثمر وورق إلى آخره، ثم هل يتم ذلك التمثيل إلا إذا بقيت مادة الغذاء المجذوبة لتلك الأنبوبة زمانا ما ريثما يتم النضج والتمثيل، لذلك جعل فى آخر كل أنبوبة عقدة لتحفظ تلك المواد إلى وقت الحاجة، فهذه التجويفات أشبه بالمعدة فان الطعام يبقى فيها وعليها سدادة، فاذا هضم فتحت السدادة ونزل الطعام إلى الأمعاء.

(١٢ و١٣) وأما كون عروق العنب تخالف عروق النخل وعروق التين فان الأولى دقيقة والثانية غليظة، فأما هذه فانها دقيقة وغليظة ولها تجويفات مثل تجويفات التين، فأما أصلها فانه يكون طويلا دقيقا يمتد على وجه الأرض إلى آخر ماتقدم، فاعلم أن تجويف القضبان المحشوات زبيرا فى العنب لحكمتها مثل ما تقدم فى التين سواء بسواء، والعقد التى بين الأنابيب حكمتها كحكمة عقد التين. وأما الشظيات اللينة المنبثة التى تلتف على الأشجار وتتعلق بها وترتقى عليها فذلك أنه كما أن النخل لما كان رخوا جعل له الليف ليحفظ السعف والقنوان من التفرق والانحلال، هكذا هنا جعلت تلك الشظيات لتتعلق بالشجر فيحمل عن شجرتها ثقل أثمارها، فهذه الشظيات قامت مقام ضعف الشجرة العنبية التى لا قدرة لها على الانتصاب فضلا عن حمل الأثقال، فانظر كيف أبدع الله فعوضها عن ضعفها قوة بما أخرجه حولها من تلك الشظيات المنبثات الملتفات على الأشجار وعلى السقائف التى يصنعها الناس ولكن أكثر الناس لا يفكرون اهـ.

شجرة اللوف

مشاهدات المؤلف فى أيام كتابة تفسير هذه السورة

ألست تعجب أيها الذكى أن أقول لك إن منزلنا فيه شجرة زرعت حديثا وأنا أبا شرها كل يوم، تلك الشجرة لاتحمل نفسها وإنما تحمل على غيرها، ثم ألا تعجب معى كيف زرعت فى هذه الأيام! ألا ترى أن هذا لأقص عليك نبأ ما رأيت فى تلك الشجرة، نحن نسقيها كل يومين أو ثلاثة تقريبا، ولما أن جيء بها إلى منزلنا وضع لها سعفة ذات خوص مدلى، وهذه السعفة مدت بجانب حائط المنزل لتكون حامية لتلك الشجرة، لما نقلت الشجرة إلى منزلنا أخذ العود المستطيل فوق السعفة يبس شيئا فشيئا، وبعد أيام رأيت

غصنا خرج من أسفل ، ففى أول الأمر كان أنبوبة واحدة ، وهذه الأنبوبة لها شظيات رقيقات كأنها شعرات خضرات ، رأيتها تدور ذات اليمين وذات الشمال لترى أى شئ يصلح للاستمساك ، وأخيرا استمسكت بالخوص المدلى من السعفة ، وهكذا رأيت الأنبوبة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة حتى قربت من الحائط وارتفعت عن الخوص ، فرأيتها بعد أيام تمد تلك الشظيات الرقيقات إلى شقوق الحائط ثم تنزلها وتدور ذات اليمين وذات الشمال ، فلما لم تجد ملجأ تلجأ إليه فماذا تصنع ؟ كنت فى أثناء ذلك كله أتعجب وأقول : إنى كنت أراها أولا تمد هذا الخرطوم ، أو الشعرة ، أو الشظية إلى خوصة عالية عليها ، وتتنكب ما كان أسفل ، ثم متى تعلقت بالأعلى أخذ ذلك الممتد يتقاص على نفسه ويصير أشبه باللولب ، ولماذا هذا ؟ ليقصر ويقصره ترتفع ، لأن الشجرة دأبها الارتفاع .

أقول: فلما جاوزت الخوص المذكور وارتقت إلى الحائط لاحظت أفعالها فوجدت أنها تمد خيطها الدقيق إلى شقوق الحائط الدقيقة ، فأراها لا تجعل ذلك الخيط مجعدا كما كانت تفعل ، فلما وجدت الحائط لا يصلح للاستمساك أخذ ذلك الخيط يذهب ذات اليمين وذات الشمال بالتدريج بحيث يكون صباحا متجها شرقا وضحى غربا وهكذا ، وأخيرا وجدت تلك الشعرات اللاتى ترود الأمكنة حولها قد اجتمعت كلها وكونت كرة منسوجة من تلك الخيوط وتدلى رأس الشجرة إلى أسفل أشبه بما يفعل الانسان حينما تعييه الحيل ، فقست انحناء الرأس فوجدته أكثر من قيراطين ، فقلت فى نفسى : إذن فلأجعلها مضمومة إلى نفس السعفة ، فقومتها وضممتها إلى السعفة المنصوبة ، فلما طلع الغد وجدت الرأس المنحنية قد انتصبت تمام الانتصاب ، وأخذت تمد خيوطها إلى أعلى كأنه لم يكن هناك حزن وكآبة ، وهاهى ذه الآن أمامى فرحة مستبشرة رافعة رأسها إلى أعلى ، ولقد كنت فى هذه الليلة أقول فى نفسى : ماذا عسى يحصل لهذه الشجرة غدا ؟ وإذا لم يعتدل بروعومها المتدلى بعد اعتدالها على السعفة ، فماذا أكتب غدا فى التفسير ؟ إن التجربة تكون ناقصة ، وأنا الآن أقول : قد اعتدلت وصارت كعادتها .

أليس ذلك الذى أشاهده وأنا أكتب التفسير ، وما قرأته أيها الذكى قبله يعرفك معنى قوله تعالى هنا : « والذى قدر فهدى » فاذا كانت عناية الله بإنسان جعلته يخلق شجرا ليس له عمل عند الناس إلا إخراج مادة ليفية يستعملها الناس فى اغتسالهم ، وهذه المادة قد لطف بها أشد اللطف ، وأعطاها خيوطا تستمسك بالأشياء الثابتة ، والأعواد المنصوبة ، وأعطاها شيئا يشبه شعور الحيوان فتبحث وتدقق فيما حولها ، وتعمل أعمالا أشبه بأعمال الحيوان .

بهذا أيها المسلمون فلنفهم : « والذى قدر فهدى » فهذا هو التقدير ، قدر كل شئ حتى الليف الذى يعيننا على غسل أجسامنا ، وهدى شجر الليف وأعطاه نوعا من الشعور به يدرك حتما منافعه ، وهذا لاشك أنه نوع من الادراك ، كما عرف الناس فى الشجرة المسماة (المستحية) والأشجار التى تصطاد بعض الحشرات بمادة خاصة فيها حتى إنهم وصلوا إلى ٣٣ نوعا عندها شئ من الإحساس ، والقدماء جعلوا كل نبات عنده شعور قليل ، وبرهنوا على ذلك بأن عروقه تترك المحال اليابسة وتأتى المواضع الندية ، وبأن فروعه إذا كانت فى مكان مظلم وفيه نور قد أتى من سقفه توجهت نحو ذلك الثقب الذى جاء منه النور . وبالجملة فهذه اللوفة التى ذكرت لك تاريخها ظهر لى منها ما يأتى :

(١) كيف تمد أنبوبا شعريا يقف فى كل جهة من الجهات الأربع زمانا ما .

(٢) ثم كيف لا يتعلق بالذى هو أدنى .

(٣) ثم لماذا لا يتعلق إلا بما هو أعلى .

(٤) ثم إذا تعلق بما هو أعلى فلماذا ترى ذلك الأنبوب الشعرى يأخذ فى الاستواء ليقصر فترتفع الشجرة.

(٥) ثم لما وصل إلى الخائط حار فى أمره فلم يدر ما يصنع وصارت تلك الأنابيب الشعرية الدقيقة تجوس خلال الجهات الأربع.

(٦) ثم إنها لم تنثن كما كانت تفعل من قبل، ولما يئست من مكان تستمسك به ضمت جميع فروعها الشعرية، ودلت رأسها كالحزينة، وأسلمت نفسها للقضاء والقضاء والهواء.

(٧) ثم لما ضممتها إلى السعفة المنصوبة محافظا على كل أحوالها كيف ارتفعت رأسها المنكسة ورجعت إلى حالها الأولى من الانتصاب وسارت بهيئتها المعتادة اهـ.

استخراج الزيت من الفحم

جاء فى إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٥ م تحت هذا العنوان ما يأتى:

نشرت (التاجليشه رونتشا) خبرا مؤداه أن حكومتى برلين وبروسيا قد منحتا شركة (إيفانج) إعانة قدر هامليونان وخمسمائة ألف مارك ذهبا، لتنشىء بها مصنعا لاستخراج الزيت من الفحم على طريقة (برجيوس). وسينشأ هذا المصنع فى (فنسلاوس) فى (سيليزيا) السفلى، ويجهز بآلاف تستطيع أن تستصفى مائتى ألف طن من تراب الفحم سنويا.

ومخترع هذه الطريقة هو الأستاذ (برجيوس) من (هيدلبرج)، اخترعها فى سنة ١٩٠٣ م. وخلاصتها أنه يستصفى تراب الفحم مع الهيدروجين فى جو يصل الضغط فيه إلى مائة وخمسين أو مائتى درجة، وبهذا تم الكلام على الجوهرة، والحمد لله رب العالمين.

(الجوهرة الثالثة: عجائب الحيوان)

لقد ذكرنا فى هذا التفسير من عجائبه وغرائبه مافيه مقنع، ولكن لا بد أن نذكر فى هذا المقام بعض العجائب فى لطائف:

(الأولى) أن الحيوان إما تام الخلقة كامل الصورة، وهى التى تنزو وتحبل وتلد وترضع أولادها كالإنسان والقردة وذوات الأربع، ومنها ناقصة، وهى التى تبيض وتحضن أولادها وتربيهن كالطيور، ومنها ماهى أنقص منها وهى التى تبيض ولكن لا تربى أولادها كالحشرات من الجراد والذباب وماشا كلها فهى درجات ثلاث: أم تلد وترضع، وأم تبيض وتربى، وأم تبيض ولا تربى.

(الثانية) إن الحيوان الناقص الخلقة مقدم فى الوجود على كامل الخلقة، كما أن النبات مقدم على الحيوان، وحيوان البحر مقدم على حيوان البر، لأن الماء كان قبل التراب، والبحر قبل البر.

(الثالثة) من الحيوان ما يسكن الهواء، ومنه مايسكن الماء، ومنه ما يسكن البر، ومنه سكان التراب، فالأول أكثر أنواع الطيور والحشرات، والثانى كل حيوان يسبح فى الماء كالسمك والضفادع والسرطان والصدف ونحو ذلك، والثالث البهائم والأنعام والسباع، والرابع الهوام.

(الرابعة) فى تزاوج الطيور وفى طيرانها.

إن الطيور من حيث التزاوج أصناف:

(١) ما يتعاشق ويتزاوج فى فصول السنة كلها، ويعاون الذكر الأنثى فى تحضين البيض وتربية الأولاد كالحمام.

(٢) الديك لايعاون الأنثى وبعض الطيور مع أنه فى طول السنة يهيج كالحمام.

(٣) ومنها مالا يهيج إلا فى فصلين : الربيع والخريف .
(٤) ومنها ما يكون فى الصيف وحده .
(٥) أكثر الطيور لا تهيج إلا فى آخر الشتاء وأول الربيع ، لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأقوات .
(٦) وبعضها تتخذ العش (ا) بين أغصان الشجر (ب) أو الورق (ج) والأراضى الدغلة بين الحشيش والشوك كالقبج والدراج والطيهوج (د) أو ثقب الحيطان والخرابات (ه) أو رءوس الجبال والتلال (و) أو شطوط الأنهار وسواحل البحار (ز) أو فى البرارى القفار (ح) أو بين الأحجار و الأخشاب .

أما البيض فمنه ما يحضن بيضتين ، ومنه ٤ ومنه ٦ ومنه ٨ ومنه ١٠ ومنه ١٢ ومنه ٢٠ ومنه ٣٠ .

الطيران

(١) فهو إما ثقيل الطيران قليلا كالسمانى .
(٢) أو بعيد الورد كالقطا .
(٣) بعيد الأسفار كالغراب .
(٤) لا يفارق الوطن كالعصفور .
(٥) تطير قطارا كقطار الجمال كالسكراكى .
(٦) أو صفوفا متحاذية كصف المصلين .
(٧) أو جماعات ملتئمات .
(٨) أو مستقبلات الريح .
(٩) أو مستدبرات الريح .
(١٠) أو تطير متوازيات على الجانب .
(١١) أو متوجهة نحو القصد .
(١٢) أو مرتفعة ومنخفضة وعنة ويسرة فى أول طيرانها .
(١٣) أو تطير مستقيمات .
(١٤) أو تعدو على وجه الأرض خطوات ثم تستقل فى الجو .
(١٥) أو تطير دفعة واحدة .
(١٦) أو ترتقى فى الجو صاعدة كالصاعد فى المنارة .
(١٧) أو كالصاعد فى العقبة .
(١٨) أو أمسك عن تحريك جناحيه .
(١٩) أو يمسك تارة ويحرك أخرى .
(٢٠) أو ينكس رأسه عند النزول .
(٢١) أو ينزل برفق كما ينزل من المنارة .
(٢٢) أو كما ينزل من العقبة .

فهذه ٢٢ خصلة من خصال الطيور لا يشارك طير منها سواه فيما اختص به . وقد تقدم فى (سورة الملك)

عند الكلام على آية : «أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن» الكلام على أنواع الطيور وصورها البديعة ، فراجعه هناك إن شئت .

فاذا تأملت فى هذه النظم بحيث يكون لكل مكان نوع من الحيوان ، ولكل خصلة وحال من الأحوال نوع يتصف به عرفت أن تقدير الله يشمل تفريق الطيور والحيوانات على الأزمنة والأمكنة وعلى الخصال بحيث يكون مايخطر ببالنا من الأحوال يحصل فى الخارج ، فاذا تصورنا طائرا يمشى أولا ويطير فهو موجود ، وهكذا بقية الأحوال ، فهذا من معنى قوله «والذى قدر فهدى» .

عجائب الطيور والهوام والحشرات

(١) إن النحل نوع من الحشرات ، وقد تقدم ذكر عجائبه فى مواضع كثيرة لاسيما فى (سورة النحل) فهذا يتخذ المساكن طبقات مستديرات كالترس بعضها فوق بعض كأنها غرف من فوقها غرف مبنية بيوتها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا . لإتقان صنعتها ، وإحكام بنيتها ، وهى لم تقرأ هندسة ولا عندها بركار أو مسطرة أو شاقول ، ثم هى تجمع الشمع من ورق الأشجار والنبات بأرجلها فلا زنبيل ولا سلة ولا ملقطة ولا مكتل ولا آلة مثل الفأس والمسحات .

(٢) (العنكبوت) : هى من الهوام ، تنسج شبكتها أولا فتجعلها أولا خطا ممتدا من حائط إلى حائط أو من شجرة إلى شجرة ، أو من غصن إلى غصن ، أو من جانب نهر إلى آخر . ثم تمشى على ذلك الذى تمده أولا . ثم تمد خطوطا مستقيمة كأنها أطناب الخيم المضروبة . ثم تنسج لحمتها على الاستدارة ، وتترك وسطها دائرة مفتوحة حتى تتمكن فيها لصيد الذباب ، وذلك من غير مغزل ولا مفتل ، ولا مشط ، ولا أدوات .

(٣) (دود القز) : وهو من الهوام ، فهذه إذا شبعت من الرعى طلبت مواضعها بين الأشجار والشوك ومدت من لعابها خيوطا دقاقا ملساء لزجة متينة ونسجت هناك على أنفسها كنا يشبه الكيس ليكون لها حرزا من الحر والبرد والرياح والأمطار ، ونامت إلى وقت معلوم ، كل ذلك تفعله من غير تعليم .

(٤) (الخطاف) : هو نوع من الطير يبنى لنفسه منزلا ولأولاده مهدا معلقا فى الهواء تحت السقوف من الطين ، فلا سلم يرتقى عليه ، ولا راقود يحمل الطين عليه ، ولا عمود يسند بيته إليه ، وليست لديه آلة من الآلات ، أو أداة من الأدوات ، فاذا عميت أبصار أولادها حملت حشيشة خاصة يسميها القدماء (الماميراف) وتحك بها عين أولادها فتبصر ، وليس هناك أطباء ولا معلمون .

(٥) ثم إن (الأرضة) وهى من الهوام تبنى على نفسها بيوتا من الطين الصرف فى شبه الآزج والأزقة وهى لم تجمع ترابا ، ولم تبل طينا ، وإنما هى دابة ظريفة الخلقة ، عجيبة الطبيعة ، وهى باردة الطبيعة جدا ، وبدنها متخلخل ، منفتح المسام ، يتدخلها الهواء ؛ ويجمد البخار من شدة البرد ويصير ماء ويرشح على ظاهر بدنها . وتبنى به على نفسها تلك الآزاج كنا لها ، ولها مشفران حادان شبه المشراطين ، تقرض بهما الحب والخشب ، والتمر والنبات ، وتثقب الآجر والحجارة وغيرها : اقرأ عجائبها فى (سورة سبأ) فهناك أبدع البدائع .

(٦) ثم إن النعامة وهى مركبة من طائر وبهيمة تجمع عشرين أو ثلاثين أو أربعين بيضة من بيضها

وتقسمه ثلاثة أقسام : فثلث تدفنه فى التراب ، وثلث تتركه فى الشمس ، وثلث تحضنه ، فاذا خرجت فراريجها كسرت ما كان فى الشمس وسقتها ما كان فيها من تلك الرطوبات التى فيها مما ذوبتها الشمس ورققتها ، فاذا اشتدت فراريجها وقويت أخرجت المدفون منها وفتحت لها ثقبا كى يجتمع فيها الذباب والبق والهوام والنمل والحشرات ، ثم تطعمها أفراخها ثم تقوى وتعدو .

(٧) أنواع الدراج ، والدجاج ، والقباج ، والطيهوج وما شاكلها ينتشر عنها البيض وتخرج تعدو من ساعتها ، وتلقط الحب وتهرب من طالبها ، ولذلك ترى الذكور منها لاتساعد الاناث فى التربية

(٨) أنواع الحمام والعصافير تخرج لاريش لها ولا قدرة على مشى أو عدو ، وهذا لابد فيه من معاونة الذكر للأنثى ، وهذا هو الذى قدره الله فهدى ذكور العصافير والحمام أن تساعد الإناث اهـ .

أسرار النبوة فى هذه السورة

اعلم أن النعم التى يحمد الإنسان عليها ربه على قسمين : نعم ترجع إلى مايحتاجه هو من طعام وشراب ونار لوقاية الجوع والعطش والبرد ونحو ذلك ، ونعم ترجع إلى النظام العام بحيث لاتكون لأجل شىء خاص بل يكون المحمود عليه جميع النعم ، ولقد بينت ذلك فى (سورة الفاتحة) وأن المسلمين لاينالون السعادة فى الدنيا والآخرة إلا إذا كان مجموعهم متجها إلى جميع مافى هذه الدنيا من المعارف والعلوم حتى يكون الحمد على نعمه السماوية والأرضية لامجرد مايضطر إليه الإنسان . وبهذا تكون الهداية ، فقوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » يدخل فى استقامته أن يكون الإنسان حمده على النعم كلها بحيث يعرف منها كثيرا . وكلما عرف نعمة كان ذلك استيجابا لحمده عليها . ثم إن النعم المذكورة فى هذه السورة بعد قوله : « سبح اسم ربك الأعلى » هى الخلق والتسوية والتقدير والهداية وخلق المرعى وجعله غثاء أحوى . وثبات القرآن وعدم نسيانه ، وهذه نعم ليست جسمية خاصة بل هى نعم ترجع إلى النظام العام والحكمة التامة كما بيناه وأطنبنا فيه ، وهناك نعم خاصة بالشهوات الشخصية . وذلك كما فى (سورة الواقعة) إذ ذكر الله هناك أنه خلقنا من نطفة وليس لنا دخل فى ذلك . وأنه هو الذى زرع الزرع وأنبته ، ولولا أنه أنبته لحرمنا منه ؛ وأنه هو الذى أنزل الماء ولو شاء لجعله أجاجا ، وكذلك تكلم فى النار وقال إنها متاع لنا ، فهناك تكلم على هذه المذكورات من حيث منفعتها لنا . ثم قال : «فسبح باسم ربك العظيم» ،

وأما هنا لما ذكر الخلق والتقدير والهداية إلى آخره . وهى عجائب ترجع للعلم والحكمة والنظام العام قال «سبح اسم ربك الأعلى» وهنا ذكر التسبيح قبل النعم ، وهناك ذكره بعد ذكر النعم ، فهناك تسبيح بعد ذكر نعم نحتاج إليها فى أجسامنا ، وهنا تسبيح على نعم تزدان بها عقولنا كالذى قرأته فى هذا المقام من العجائب ! أتدرى ماذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى هذه وفى تلك وهو ترمى إلى ماذكرناه لما نزلت «فسبح باسم ربك العظيم» قال صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى ركوعكم » . «فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى» قال صلى الله عليه وسلم اجعلوها فى سجودكم» .

فاعجب من حكم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكيف جعل التسبيح الذى فيه العظمة فى الركوع والتسبيح الذى فيه ذكر الأعلى فى السجود ، وماذلك إلا لسكون العبد فى سجوده أقرب إلى الله منه فى ركوعه . وإذا كان المرء معظما لله فى الركوع الذى هو أقل من السجود فهو معترف لله بكونه أعلى فى السجود ، وليلاحظ المسلمون أن هذا حسن فى العبادة ، وقد درج عليه المسلمون فى أقطار الأرض ، فهم يسبحون هذا التسبيح فى الركوع والسجود ، ولكن هذا القول لأجل مجرد العبادة ، والعبادة باب لفتح القلب للعلوم والمعارف .

وكلما كان المرء أكثر تقديسا وتسبيحا كان أقرب إلى ربه ، فليق عليه العلم والحكمة فإذا نظرنا إلى الوجهة العلمية فلنقل إن هذا من النبوة إشارة إلى طريق العلم . فطريق العلم إذا كان لإكمال النفس بالنظر العام مثل ماذكرنا هنا من الكلام على التقدير والخلق والتسوية والهداية وعجائب النبات والحيوان وغيرهما كان أرقى من العلم الذى يقف دون ذلك . ونسبة العلم الذى به يعرف المرء نظام هذا العالم إلى العلم الموقوف على بعض الحاجة وإلى النعم الجسمية كنسبة السجود إلى الركوع . فنحن نعظم الله إذا أحسن إلينا بما نحتاج . ولكنا نعرف مقداره معرفة أعلى إذا أدركنا بعقولنا نظامه . وعلى ذلك فهذا من النبوة إشارة قدسية إلى أن هذه الأمة إذا برعت فى معرفة بدائع هذا العالم من الخلق والتسوية والتقدير والهداية إلى آخره تكون فى حال أرقى مما لو بقيت واقفة عند حد فى العلم كما هو حاصل الآن . والساجد أرقى من الراكع . والسجود فيه قرب يرمز لقرب العارف بجمال هذه العوالم الذى لايدانيه مدان من العباد. والأمم الاسلامية ستسير فى هذا الطريق إن شاء الله تعالى فليفطن المسلمون لهذا الرمز النبوى . جعل الأعلى فى السجود ، والعظيم فى الركوع مشيرا إلى المعانى اللاحقة بالوصفين كأنه يقول : فضلوا العلوم ورق النفس . والمعارف العامة . والتحقق من الحكم الإلهية المصحوبة بالأعلى على الشهوات النفسية . (وبعبارة أخرى) علو السلفين دنيا وأخرى بالحكمة العامة

لطيفة فى قوله تعالى

سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى سنقرئك فلا تنسى . إلا ماشاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى . ونيسرك لليسرى : فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى

حضر فى يوم الاثنين ١٢ رمضان المعظم سنة ١٣٥١ هـ - ٩ يناير سنة ١٩٣٣ م صاحبى الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير فقال : لقد فكرت اليوم فى هذه الآيات ، أتبع الله التسبيح بتسعة أمور :

(١) الخلق .
(٢) والتسوية .
(٣) والتقدير .
(٤) والهداية .
(٥) وخلق النبات .
(٦) والإقراء .
(٧) وعدم النسيان إلا ماشاء الله .
(٨) والتيسير لليسرى .
(٩) وأن الذى يخشى هو الذى يتذكر .

هذه تسع مطالب ذكرت فى حيز التسبيح . إن قراءة نحو هذا التفسير قد جعلتنى شغفا بأمثال هذه للباحث بعد أن كنت عنها غافلا : وأى مناسبة بين التسبيح وبين هذه المطالب التسع . وهل ذكرت بعده

الحكمة ؟ فقلت : أيها الذكي : أنا موقن أنك تعرف حكما كثيرة في ذلك . فقال نعم ولكني أريد أن تشرح الموضوع شرحا واسعا لأنه مهم جدا . فقلت له : أيها الأخ : فيم يكون الخلق والتقدير والتسوية ؟ قال في المخلوقات التي حولنا . فقلت : كم أنواعها ؟ فقال : هي سموات وأرضون وما فيهما . فقلت ولمن تكون الهداية . قال للحيوان . قلت إذن لنبحث في أمر الحيوان ثم في أمر النبات لأنه مذكور معه ، ولكن سابق التفسير مشحون بذكره . فقال : أنا فكرت في ذلك فخطر لي أمر خاص ، وهو أن في القرآن عناية خاصة بتسمية السور . فهناك سور سميت بأسماء إنسانية . وسور أخرى سميت بأسماء حيوانات من ذوات الأربع ، وسور أخرى سميت بأسماء حيوانات من ذوات الحلقات وهي الحشرات ، فهل هذه التسمية عبث وعسى أن يكون في التسمية علم نافع ، فقلت نعم إن في التسمية علما جما ، وأنا باحث في ذلك العلم . إن من السور ما سميت بأسماء الأنبياء ومن نحا نحوهم كآل عمران ويونس وهود ويوسف وابراهيم ومريم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء إذا سميت السور بأسمائهم فذلك لفضلهم ونفعهم العميم ، وشرفهم عند ربهم وعند الناس أجمعين ، ومن السور ما سميت بأسماء حيوانات من ذوات الأربع كالبقرة والأنعام . ومنها ما سميت بأسماء الحشرات كالنحل والنمل والعنكبوت . والعلماء قسموا الحيوان إلى ذي فقرات . ومنه ذوات الأربع وإلى ذي حلقات . ومنه الحشرات والعنكبوت وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود : (كل هذا تقدم الكلام عليه في هذا التفسير) .

فهذه خمسة أقسام في مقابلة الخمسة التي لذوات الفقرات . وهي ذوات الأربع ومعها الإنسان والطيور والزواحف والضفادع والسمك ، فهذه خمسة أقسام أخرى ، أما الحيوانات الهلامية والشعاعية فأمرها سهل تقدم شرحها في آخر (سورة الحج)

ولما كان كلامنا في الخلق والتقدير والتسوية إلى آخر ما تقدم في الكلام على خشية الله تعالى وجب حصر القول في موضوع خاص يعوزه الشرح والتفصيل أكثر مما تقدم ليكون أبهج شرحا . وأبدع تفصيلا . وأروع تذكيرا وتعليما . ذلك أن الحيوانات ذوات الحلقات المقسمات إلى الأقسام الخمسة المذكورة أهمها الحشرات وهذه الحشرات (٢٠٠٫٠٠٠) مائتا ألف صنف . فهل كان يخطر لأحد قبل ظهور هذه العلوم اليوم أن النحل والنمل اللذين سميت بهما سورتان في القرآن يدخلان في ضمن مائتي ألف نوع . ذكر الله في القرآن الذباب وذكر العنكبوت . والذباب أيضا من الحشرات . ثم يقول الله في قوم حقروا ذكر هذه المخلوقات . « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » الخ .

عجبا . هاهنا ذكر الضلال والهدى بعد حشرات قذرة لا قيمة لها . وجاء في (سورة العنكبوت) : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام .

هذه أمور عظيمة جدا . وفوق هذا وذاك يقول هنا : « سيذكر من يخشى » ولا جرم أن الذي يخشى طائفة خاصة هم الذين قال الله فيهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فمن هؤلاء العلماء ؟ نقرأ الآية من أولها فنجده يوبخ الناس على تقاعدهم عن الفهم فيقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فهناك في (سورة فاطر) جعل الخشية خاصة بهذه الطائفة الناظرة في هذه العوالم . وهنا ذكر الخلق وما عطف عليه . وختم ذلك بالخشية أيضا . ويقول في آية أخرى « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » فكأنهم لما نظروا جمال صنعه في الدنيا نظروا جمال وجهه في الآخرة

بلا كيف ولا انحصار كما حارت عقولهم هنا فى جمال صنعه وحكمه العالية . إذن فلنجعل كلامنا اليوم محصورا فى طوائف الحشرات لما تقدم . ولنعلم لماذا نراها تطوف حولنا صباحا ومساء وتلازمنا ملازمة الظل للشبح فمن ذباب قذر وبراغيث مؤذيين إلى نحل ودود قز نافعين إلى غير ذلك . فما السر فى كثرة هذه الطائفات حولنا ؟ وكيف كانت أنواعها أكثر أنواع الحيوانات عدا . فلنبحث إذن فى أمر خلقها وتسويتها وتقديرها وهدايتها . وكيف تكون محبة الصانع موقوفة على الوقوف على جمال صنعته . ويزداد الحب الذى لانهاية لمداه والقرب بازدياد هذا العلم الذى لانهاية له أيضا . وعلى مقتضى ذلك الحب تكون خشية العلماء . أما خشية الجهلاء فهى خشية منشؤها الخوف . والخوف إنما يلازم الجبناء .

فقال صاحبى : حسن هذا البيان . فلنبدأ فى شرح عجائب الحشرات بحيث يكون من العلم الذى لم يتقدم له فى التفسير نظير ؟ فقلت نعم ومن عجب أنى فى هذا اليوم كنت أقرأ فى كتاب بالانجليزية يسمى (علم الطبيعة) وفيه هذا البحث الجميل بطريقة شيقة جميلة لم يتقدم نظيرها فى هذا التفسير . وإن كان بعض الباحث تقدم مفرقا . ولكن هذا الأسلوب جميل محلى بالصور مع حسن الإيجاز . ذلك أنه قسم الحيوان إلى ذى فقرات وإلى ذى حلقات . وإلى هلامى . وإلى شعاعى كما قدمناه . ولما أتم الكلام على ذى الفقرات شرع يشرح الكلام على ذى الحلقات فقال مخاطبا تلاميذه .

كلكم تعلمون ما معنى الحيوان (الحلقى) ثم أخذ يشرحه فقال : إن أجسام المخلوقات من هذا النوع مركبات من حلقات منضمات إلى بعضها (أى فى مقابلة الفقرات فى الحيوانات الفقرية) وغاية الأمر أن هذه الحلقات ليس يشبه بعضها بعضا . ثم أخذ يقسم الحيوانات الحلقيه إلى ما ذكرناه هنا قريبا : ثم أخذ يشرح الأنواع الخمسة المذكورة وبدأ بالحشرات وهى المطلوب هنا فقال : إن الحشرات هى التى لها ستة أرجل ومثل لها بحشرة أبى دقيق . وهنا أخذ يقص علينا قصص تركيب تلك الحشرات فقال : إن أجسامها مركبات من ثلاثة أجزاء كما فى (شكل ٨٨) وفى الرأس أيضا عينان واسعتان تظهران بهيئة الأحجار الثمينة إذا نظرناها بمنظار معظم فانها ذات وجوه كثيرة جدا كما فى (شكل ٨٩) .

إن أرجل الحشرة الست منوطة بقسم صدر الحشرة كما ترى فى صورة (أبى دقيق) وهكذا الأجنحة الأربعة فى حشرتنا المذكورة . والجناحان اللذان تحملهما تلك الدبابة (شكل ٩٠) .

(شكل ٨٨)
جسم حشرة أبى دقيق
(ا) الرأس
(ب) الصندوق أو الصدر
(ج) البطن
(د) القرنان الحساسان

(شكل ٨٩) (١)
عين حشرة أبى دقيق ذات شكل مقسم إلى فصوص بهجة ، وهى مكبرة جدا

(شكل ٩٠)
الأرجل الست والجناحان منوطان بالصندوق
(ا) الرأس
(ب) الصدر
(ج) البطن
(د) الجناحان

(١) يقول المؤلف : قد حسبت هذه العيون الصغيرة فبلغت تقريبا نحو ٦٠٠ فإذن العينان معا فيها ١٢٠٠ عين . اهـ .

ثم قال المؤلف : إن القرون الحساسة والأرجل والأجنحة . وكل ماماثل ذلك من الأعضاء يسمى (اللحقات) ولاشيء من ذلك يناط بالبطن ، وعلى ذلك نقول ان البطن مجرد من هذه اللحقات .

فصل فى تقسيم الحشرات إلى قسمين

قسم تام التغيرات . وقسم ناقص التغيرات

إن كثيرا من الحشرات يعتريها التغير والاستحالة من حال إلى حال بهيئة أكثر تعقيدا مما يتم للضفادع فى أثناء نموها (الضفادع مشروحة فى تفسير سورة البقرة من أول الطبعة الثانية فما فوقها) .

ثم قال للتلاميذ : انظروا هنا (شكل ٩١ حرف (ا) الآتى): هذه دودة أو فراشة تسمى (كتر پلر) بالانجليزية ، قد خرجت حديثا من بيضة حشرة أبى دقيق ، وهى تنمو بسرعة شديدة . وهى تنسلخ من جلدها ٤ مرات ، فأما فى المرة الخامسة فان جلدها يكون سميكا صلبا : وفى ذلك الوقت تغط الحشرة فى نوم تام : وفى أثناء تلك الحال تغزل خيوطا حريرية تجعلها مهدا لها ودثارا ، وتسمى (شرنقة) أو فيلجة إذ ذاك ، ثم إنها بعد ذلك تمزق هذه الفيلجة وتخرج إلى الهواء . وعند تغير جلدها فى الحال السادسة تنقلب تلك الشرنقة إلى حشرة ذات أجنحة مطلقة فى الهواء ، وهى (حشرة أبى دقيق) . إذن لها ثلاثة أحوال . وتغيراتها ست ٤ منها فى حال أن كانت فراشة أشبه بالدودة . وواحدة فى حال نومها : وواحدة عند ظهورها حشرة تامة التكوين مستعدة لأن تبيض حرف (ج) فى (شكل ٩١) .

(شكل ٩١)

(ا) الفراشة أو الدودة للسماة بالافرنجية (كتر پلر) . التغير التام لحشرة أبى دقيق
(ب) الشرنقة (ج) حشرة أبى دقيق

وهذا القسم هو الذى يقال له تام التغير . فاما القسم الذى يقال له متغير ناقص التغير فهاك أولا الجندب فان فرته حينما تبرز من بيضتها (وهى لاأجنحة لها) يعتريها التغير خمس مرات ، وفى أثناء ذلك تنمو الأجنحة شيئا فشيئا . وفى المرة السادسة يتم خلق أجنحتها وتصير هى جندبا تام التركيب مستعدا للبيض كما كانت أسلافه وذلك دأبه أبدا . ولكن الفرق بين هذا الفريق والذى قبله أن هذا (الجندب) مثلا لايستغرق فى النوم كحشرة (أبى دقيق) ولاشرنقة له كما أنه أيضا ليس يعتريه من التغير ماهو غير مألوف كما فى حشرة (أبى دقيق) وهذا معنى قولهم : إن هذا القسم غير تام التغير ، أو قولهم : إن تغيره جزئى .

إن الذباب (شكل ٩٠ المتقدم) والحنافس (شكل ٩٢) والبراغيث (شكل ٩٣) والنحل (شكل ٩٤) مندرجات تحت ماهو تام التغير . وهاك أشكالها :

(شكل

(شكل ٩٢)
الحنفساء

(شكل ٩٣)
البرغوث مكبرا

(شكل ٩٤)
النحلة

إن أمثال الحشرات الثلاث الآتية : وهى (حشرة الشمبان) والناموس المعروف (شكل ٩٥) وبق الأسرة والفرش (شكل ٩٦) كلها مندرجة فيما هو ناقص التغير .

(شكل ٩٥)
الناموس
البعوض مكبرا

(شكل ٩٦)
بق الأسرة
والفرش مكبرا

(شكل ٩٧)
رأس الحنفساء مكبرا
منظورا من أسفل

إن فم الحشرات فى تركيبه مخالف كل المخالفة لتركيب أفواهنا (وبعبارة أخرى) مخالف لتركيب ذوات الفقرات . إن فكيها يتحركان من اليمين إلى الشمال بدل أن يتحركا إلى أعلى وأسفل ، أنظر إلى فم هذه الحنفساء (شكل ٩٧) المتقدم إنه قوى جدا حتى إنها تقدر أن تستحوذ على فريستها من الحشرات الأخرى وتمزقها قطعا صغيرة وتغتذى بها ، إن هذه الحشرة المسماة (كوكتشفر) (شكل ٩٨) التى تعيش على ورق النبات فكاها ضعيفان . (والذبابة خرطوم) (ب : شكل ٩٩) قوى قصير جدا معد للامتصاص . والبراغيث والبق شوكات حادات (ج ، شكل ١٠٠) بها تخترق الجلد لأجل أن تمتص الدم من فريستها أنظر هذه الأشكال .

(شكل ٩٨)
رأس كوكتشفر
مكبرا جدا منظورا
من أسفل

(شكل ٩٩)
خرطوم الذبابة مكبرا
(ا) الآلة الماصة
(ب) غلاف تلك الآلة

(شكل ١٠٠)
رأس البرغوث مكبرا
(ا) و (ب) غمد أو
غلاف الآلة الماصة
(ج) الشوكة ذات الطرف الحاد

إن حشرة (أبي دقيق) لها خرطوم طويل مطوى ملفوف (شكل ١٠١) به تفتح الزهرة وتفتحمها لأجل أن تستحوذ على المادة السائلة الحلوة التي في داخل كأس الزهرة العطرة الرائحة .

إن عدد أنواع الحشرات على الأرض أكثر جدا من أنواع أي جنس من أجناس مملكة الحيوان الأخرى إن عدد تلك الأنواع يربو على ١٥٠٫٠٠٠ مائة وخمسين ألفا .

الحشرات قسمان : نافع وضار

فأما القسم النافع منها فذلك مثل دودة الحرير والنحل، والحشرة للسماة (كوكهينيل) وهي حشرة تستعمل لصبغ اللون القرمزي وهكذا . فأما القسم الضار فذلك كالفراشة . وهي دودة حشرة أبي دقيق ، وكالحشرة المتقدمة للسماة (كوكتشفر) وهكذا حشرات أخرى .

(شكل ١٠١)
رأس حشرة أبي دقيق
مكبرة جدا

(شكل ١٠٢)
فيلوكسرا بغير
أجنحة مكبرة جدا١

(شكل ١٠٣)
فلوكسرا بأجنحة
مكبرة جدا

يقول المؤلف : و(ذلك كان في أوائل القرن التاسع عشر) بعد ذلك ماتصه: إن أكبر مدمر من الحشرات وأكثرها خطرا ، وأعظمها ضررا . إنما هي الحشرة (المبيدة النبات) التي وطنها أمريكا . وقد انتقلت إلى فرنسا وعاثت في أرضها فسادا . وذلك من نحو ٢٠ سنة . وهي تسمى (فيلوكسرا) وهي حشرة صغيرة جدا حتى أن المرء قلما يراها بالعين المجردة . هذه الحشرة تعيش على جذور شجر العنب . فكم عاثت فيه فسادا وأهلكت الحرث وأبادته أيما إبادة، حتى أنها لم تبق منه باقية في مدة ثلاث أو أربع سنين .

كيف تغزو هذه الحشرة ؟

هذه الحشرة الصغيرة تتكاثر بسرعة مدهشة جدا . وتجتمع اللاتي من الذرية وتأخذ في المهاجمة والغزو على نهج آبائها . وبعد زمن قصير تغادر مستعمرة الآباء الأولين وتسير تحت الأرض بغير أجنحة لتبحث عن مستعمرة حديثة لتغزوها بجنودها المجندة منها الجرارة فتفتحها فتحا مبينا .

(فيلوكسرا) التي لها أجنحة

وهناك (فيلوكسرا) أخرى ذات أجنحة (شكل ١٠٣) وهي من هذا النوع أيضا مهلكة مدمرة يحملها الريح وتطير لتضع بيضها في مكان يناسبه . فلا عجب إذن إذا قلنا إن جموعا كثيرة من هذه الحشرة بقسميها خربت قسما عظيما جدا من أشجار العنب في شمال فرنسا ، ولم يجد نفعا في صد غارتها كل ماحوربت به من

أنواع للهلكات وصنوف المدمرات بأيدى أمة الفرنسيس . وجهاد علمائهم المجدين . وبهذا تم الكلام على الحشرات . والحمد لله رب العالمين .

العنكبوت

فلنبدأ بالكلام على العنكبوت بعد تمام الكلام على الحشرات (شكل ١٠٤) إن للعنكبوت ثمانية أرجل كما قدمناه . إن الرأس والصدر أو الصندوق قد اتصلا معا فى الجسم وقد نبتت فى ذلك الثمانية الأرجل ليس للعنكبوت أجنحة ، إن للعنكبوت فكين طويلين معينين (شكل ١٠٥) وبهما تثقب وتخدر ثم تقتل الحشرات التى تفترسها .

(شكل ١٠٤)
العنكبوت ذات ثمانية أرجل والرأس والصندوق قد اندمجا معا

(شكل ١٠٥)
(ا) خطاف العنكبوت المملوء سما : مكبرا جدا (ب) الصندوق وقد نظر من أسفل مبينا أين اتصلت الأرجل

(شكل ١٠٦)
عقرب عنكبوتية قد جعلت أدوات سمها فى طرف ذيلها

(شكل ١٠٧)
أنثى هى حشرة عنكبوتية صغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة منظورة من أسفل

إن بعض أنواع العنكبوت فى أمريكا حجمها بمقدار حجم إبهامى ومع ذلك تقتنص الطير وتمتص دمه حتى يموت .

أدوات النسج والغزل فى جسم العنكبوت

إن أكثر أنواع العنكبوت ذات غدات مكونات فى آخر البطن جعلت مصانع للخيوط منها تخرج خيطا قويا متينا دقيقا جدا فى غاية العجب العجاب . ومن هذا الخيط تصنع نسيجا دقيق الصنعة معقدا .

بعد أن يعد العنكبوت هذا النسيج (هذا مشروح شرحا وافيا مصورا تصويرا واضحا جدا فى سورة العنكبوت وفى سورة الرحمن) يجلس منتظرا حشرة مسكينة لا علم لها بما خبأه القدر : وما نصب لها من الحبائل والشبك ، فبينما هى طائرة تبحث عن قوتها إذا هى واقعة فى الحبائل ، فتنقض عليها العنكبوت أسرع من البرق وتخدرها بما فى سلاحها من السم ، ثم تسجنها بلف خيطها الحريرى الممتد فى الهواء على سجينها

العقرب العنكبوتى ، وعنكبوت يحدث أمراضا جلدية

إن فى الأقطار الحارة تحت الأحجار فى الأرض الجافة اليابسة ترى هناك مخلوقات طويلة الأجسام لها نوع شبه بالعنكبوت ، والآلتان الحساستان فى ذلك المخلوق العنكبوتى لهما آلة كماشة متينة قوية . أو ملقط كذلك ، وهاتان الآلتان لا تغزلان . فأما الغدة التى يكون فيها السم فانها بدل أن تكون فى الفم عند طوائف العنكبوت . قد جعلت هنا فى نهاية الذيل ، وهذه تسمى (عقربا) (شكل ١٠٦) فى الصفحة المتقدمة ولدغات هذه العقارب العنكبوتية تحدث فى أجسام الناس حمى ، وفى أجسام الحيوان موتا . وهناك حشرة أخرى تحدث مرضا مبغضا يسمى (مرضا جلديا) . وهى حشرة صغيرة جدا (شكل ١٠٧ المتقدم) وهى نوع من العنكبوت ، فلا ترى بالعين المجردة . وهذه تحدث تحت الجلد ثلمة تكون سببا للمرض الذى ذكرناه . لقد كان الناس من قبل يظنون أن ذلك المرض الجلدى ليس له سبب من خارج وما هو إلا من أن الدم غير نقى فيأخذون فى المداواة بنحو الفصد للمريض المسكين بحماسة وثقة أنه دواء لهذا المرض المشين وفى النتيجة لا نجاح ، ولقد ثبت الآن ثبوتا قاطعا أن سبب ذلك المرض إنما هو وجود هذه الحشرة تحت الجلد : إن ذلك محل المرض الذى فتكت به تلك الحشرة بما يسمى (مرهم الكبريت) أو (دهن الكبريت) كاف لطرد ذلك المرض ،

ثم قال الكاتب : انظر كيف ينفع العلم حتى فى هذه الأشياء الصغيرة . وكيف عرفنا العلم عدونا فاجتنبناه .

الكلام على ذوات الأرجل الكثيرة

(شكل ١٠٨)
ذات الأرجل الكثيرة المسماة بمصر : أم أربعة وأربعين

هذه الحشرات أقل مالها من الأرجل ٢٠ زوجا (انظر شكل ١٠٨) إن رأس هذا الحيوان منفصلة عن بقية جسمه ، إن جسم هذه الحشرة لا صدر له ولا بطن مثل ما للحشرات وللعنكبوت . وإنما هو سلسلة من حلقات وكل واحدة من هذه الحلقات تحمل زوجا واحدا من الأرجل أو زوجين بحسب اختلاف أصناف هذا النوع .

وقد تقدم فى هذا التفسير الكلام على ذوات الأرجل الكثيرة بأوسع من هذا .

الحيوانات القشرية أو الصدفية

إن كل ماشرحناه هنا من الحيوان لا يخرج عن دائرة الحيوان الهوائى الذى يعيش فوق الأرض ، والحيوان الذى نحن بصدده بعكس ذلك فهو يعيش فى الماء ، فمن ذلك السرطان البحرى (شكل ١٠٩) الآتى وهو يعيش فى الأنهر ، والسرطان المعروف (شكل ١١٠) وهكذا حيوانات أخرى من هذا القبيل كلها حيوانات مائية ، ولما كان جلد هذه الحيوانات قشريا صدفيا أطلق عليها اسم الحيوانات القشرية أو الصدفية وذلك مأخوذ من كلمة لاتينية وهى (كراستا) أى (كراست) وهو القشر أو الصدف .

إن كثيرا من الحشرات مثل ذبابة الثعبان (دركون فلاى) تكون حيوانات برية بحرية ، وعيشها

فى الماء يكون فى زمن صغرها ، ومن جهة أخرى نرى أن من الحيوانات القشرية السرطان البرى كثيرا مايعيش على البر ، ويتنفس بالهواء ، ولكن الحيوان المسمى بقمل الخشب من هذه الحيوانات لايتنفس إلا وهو في الهواء، ولايعيش إلا على الأرض ، انظر هذه الأشكال :

الدود

هذه الحشرة ليست لها رأس منفصلة عن جسمها ، ولا درع لها يغيها أوزردية ، وليس لهذا النوع مالبقية الحيوان من أرجل ذات مفاصل بل كان لها بدل ذلك هلبات (جمع هلبة) أو أدوات ماصة تقوم بحركة التنقل أيضا ، إن ماتسمى (دودة الأرض) خير ماعرفه الناس من هذا النوع ، فانظر فيها هى ذه دودة قطعت نصفين حينما كان البستانى يعزق فى الحديقة بفأسه ، وإذا وضعت هذين النصفين فى إناء الزهر مع طين رطب دائما (شكل ١١١) فانك فى مدة أقل من سنة تجد دودتين تامتين ، فالنصف الذى فيه الرأس ينمو ويكون له ذيل ، والنصف الذى فيه الذيل ينمو حتى تكمل الدودة بالنصف الآخر ، إن الدود المسمى بالفرنجية (ليتش) وهو العلق بالعربية والعلق الطبى نوع منه له نوع آلة ماصة (شكل ١١٢) وبهذه الأداة تثبت الدودة جسمها فيما يتعلق به ، كما أن ماينفع طبيا منه أعطى أسنانا قوية بها تقدر الدودة أن تثقب جلد الانسان .

(شكل ١٠٩)
السرطان البحرى (من الحيوانات القشرية أوالصدفية)

(شكل ١١٠)
السرطان للعروف (من الحيوانات القشرية أوالصدفية)

إن النوعين السابقين وهما الدود والعلق بقسميه الطبى وغيره كلها تعيش فوق الأرض وفى الماء العذب وللملح ، إن من الدود مايكون تركيبه بهيئة أنبوبة أرضية أو حجرية مشاكلة لما يعيش فيه ويتركب منه ،

إن الدود المسمى (الدود الباطنى) وهو الذى يعيش فى أجسام الحيوانات الكبرى دائما أبيض ، وليس الإنسان ناجيا من فتكه .

الدودة التى تشبه دودة الأرض والدودة الشريطية ومن الدودة نوع يشبه دود الأرض للتقدمة وهذا الشبه لايشمل لونها .

ونوع آخر يسمى الدودة الشريطية إنها ترى بهيئة شريط طويل مقسم إلى حلقات (شكل ١١٣) وقد يصل طولها ٢٠ ياردة . وفى نهاية طرف الدودة المسنون المحدد يمكننا أن نرى بمساعدة المنظار المعظم رأسا صغيرة جدا (ا) وهذه الرأس قد أمدت بأداة ماصة وبخطاف أو كلاب . إن نوع الإنسان وكل حيوان من الحيوانات التى تأكل اللحم مزارع وحقول خصبة تعيش فيها هذه الدودة الشريطية ، إن تاريخ هذه الدودة حقا لذى غاية العجب . ألم تر كيف كانت كل حلقة من حلقاتها الكثيرة محلومة بالبيض وفى وقتها

(شكل ١١١)
فى أقل من نصف سنة تجد كل نصف من النصفين دودة تامة

(شكل ١١٢)
الآلة الماصة للحشرة المسماة : ليتش وهى العلقة العربية منظورة من أسفل

قريب أو بعيد تنثر هذه الحلقات على الأرض ويجتزها الجفاف ، ولا جرم أن ما اشتملت عليه من البيض بعد أن ألفيت تلك الحلقات على وجه الأرض يصبح مقرا ممهدا منتشرا بعد أن كان مجتمعا فى الحلقات . فاذا كانت تلك الأرض مراعى ومزارع وطافت بها الحيوانات آكلات الحشائش كالبقر والجاموس وأخذت تأكل العشب والكلأ . فقد يدخل فى أجوافها مع تلك الحشائش بعض هذه الدودة المنتشر المنبث فيه ، ولا جرم أن هذا باب آخر لانتشار ذلك البيض المستكن فيه الموت الزؤام . ولا يكاد هذا البيض يدخل معدة هذا الحيوان المجتر حتى يفقس ويخرج منه دود صغير للغاية . ولا يكاد هذا المخلوق الجديد يظهر حتى يسعى فيدخل فى أمعاء ذلك الحيوان المجتر الذى ابتلعه . ثم يختار له مسكنا يأوى اليه . وبعد ذلك ينمو على طرف جسم هذه الدودة ما يشبه الكرة فى شكله وينتفخ وتختفى الدودة فى ذلك الانتفاخ ولا يظهر منه إلا رأسها . ولا جرم أن هذه الرأس مشابهة تمام المشابهة الرأس المعروفة للدودة الشريطية (شكل ١١٣) .

وهذه الكرة المنتفخة التى تشتمل على أكثر جسم الدودة الشريطية حينما تنمو تحت جلد الخنزير يحصل له ما يسمى (مرض الحصبة) .

ثم إن هذه الدودة الصغيرة تبقى فى مقرها أمدا طويلا حتى يتاح لها كلب أو إنسان يأكل قطعة من لحم الخنزير (تعيش فيها دودة مكورة من هذا النوع أو أكثر) وهى نيئة أو مطبوخة طبخا غير جيد . فهنالك تهضم تلك الكرة التى اندمجت فيها الدودة . أما الرأس فانه لا يهضم ولو كان الطعام مملحا أو مدخنا ومتى بقى الرأس كان وحده رأس البلاء . فهنالك تنمو عليه حلقة وتتلوها أخرى وهكذا وحينئذ يقال : إن هذا الإنسان أو الكلب قد مرض بالدودة الشريطية والويل له إذ ذاك لذلك المريض . هذه هى سبيل حياة الدودة الشريطية المعقدة .

(شكل ١١٣)

الدودة الشريطية بنفس حجمها (١) الرأس وقد تصل هذه الدودة عشرين بادة

ثم قال المؤلف : إن فى دراسة تاريخ الحشرة الشريطية علما ونورا مبينا يوجب علينا أن نحترس جد الاحتراس من أكل مالا يوافق الصحة من لحم الخنزير (الحمد لله : إن الإسلام حرمه فلسنا نحن المسلمين فى حاجة إلى هذه النصيحة) .

قال وبعبارة أقرب ألا نأكل منه إلا ما كان مطبوخا طبخا تاما . فان الطبخ المعتاد الذى لا مبالغة فيه لا قوة له على التأثير فى هذا الحيوان الطفيلى الثقيل (انظر شكل ١١٤) .

(شكل ١١٤)

(ا) قطعة من لحم الخنزير المشتمل على الدودة السمراء (تريتشنا) مكبرة جدا وعند (ب) يرى الدود الصغير مدفونا فى أجزاء اللحم وهو عند (ا) حر مطلق السراح

منذ ٢٥ سنة قد كشفت دودة لا ترى بالعين المجردة . وهذه أيضا لا تعيش إلا فى لحم الخنزير يسمونها (تريتشنا) (شكل ١١٤) إن هذه الدودة أصبحت عادية فى بلاد أمريكا ، وفى بلاد الألمان .

فإذا ما كان لحم الخنزير المشتمل على تلك الدودة الصغيرة غير مطبوخ طبخا جيدا وأكل منه إنسان مثلا فإن الدود الكثير العدد الذى اشتمل عليه هذا اللحم إذا وصل إلى الأمعاء ألقى بيضه فيها ومتى فقس ذلك البيض تحرق فى الجسم وكان سببا فى ألم لا يطاق وحمى مميتة لا يستطيع الإنسان طاقتها لشدتها التفاعلية .

ملخص هذا المقام

الحيوانات الحلقية

إن من الحيوانات قسما عظيما يسمى بالحيوانات الحلقية . وهو مكون من حلقات متتابعات مندمجة اندماجا تاما . إن هـذا النوع ينقسم إلى الحشرات والعناكب وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود .

الحشرات

الحشرات لها ستة أرجل . وبعضها تغيره تام . وبعضها ناقص التغير : أى أن تغيره جزئى . وأول القسمين أشد تعقيدا من تغير الضفادع . مثلا حشرة أبى دقيق متى فقس بيضها خرج منه فراش : أى دود كبير ، وبعد تغير جلد الفراشة أربع مرات تنام نوما عميقا . وتزمل جسمها أثناء نومها بخيوط غزلها ، وتسمى إذ ذاك شرنقة ، ثم تخلع ذلك وتصير حشرة أبى دقيق تامة التكوين . فهذا هو المسمى بالانقلاب التام .

إن الذباب والخنافس والنحل والبراغيث داخلات تحت هذا القسم وهو التام التغير . أما الجندب والمسمى ذباب الثعبان والناموس والبق ، فهذه من القسم الثانى ، وهو جزئى التغير .

إن أصناف الحشرات أكثر المملكة الحيوانية عـددا ؛ فهى فوق مائتى ألف صنف ، إن حشرة [الفيلوكسرا] المتقدمة من الحشرات التى لاترى بالعين المجردة . إنها تعيش على جذور الكرم وتمتصها حتى تدمرها تدميرا غير مكترثة بما يقابلها به الإنسان من السلاح والكراع . وبكل ماستطاع من قوته . إن نحو مليون فدان من الكرم قد دمرت تدميرا فى القارة .

العنكبوت

للعنكبوت ثمانية أرجل ، وبالقرب من الفم كلاب متين به يقتنص الفرائس من الحشرات ويخدرها ويميتها ويغتذى بها . وفى نهاية بطن العناكب غدة ممتلئة بمادة حريرية تصير عند مقابلة الهواء خيوطا عجيبة دقيقة جدا منها تصنع نسيجا محكما ، إن فى جنوبى أوروبا وفى جميع الأقطار الحارة مخلوقات لهـا شبه ما بالعنكبوت ، وهذا المخلوق يسمى (عقربا) وحمته (أداة اللدغ) تكون فى آخر طرف ذيـله تحدث حمى شديدة للإنسان الذى بها يصاب ، وهناك مرض جلدى خبيث يحـدثه نوع من العنكبوت لا يرى بالعين المجردة . وهذا يحدث فى جلد الإنسان قروحا تحت الجلد بها يكون ذلك المرض الخبيث .

ذوات الأرجل الكثيرة . وهى المسميات : أم أربعة وأربعين

هذا الحيوان وإن لم يكن له ألف رجل كما يقتضيه اللفظ اللاتينى فانه ذو أرجل كثيرة وجسمه مركب من حلقات متصلات .

ذوات القشور أو الأصداف

منها السرطان المائي الذى يعيش فى الأنهر ، والسرطان المعتاد وهكذا ، كل هذه الأنواع مائية : أى تعيش فى الماء ، وجلدها قشرى صدفى ومنه اشتق اسمها .

الدود

الدودة إذا قسمت نصفين ووضعت فى الطين المبلول دائما فان كل نصف منهما فى أقل من سنة يصير دودة كاملة لها ذيل ، فالنصف الذى فيه الرأس يكمل بالذنب ، والنصف الذى فيه الذنب يكمل بالآخر ، إن الدودة

الشريطية تظهر بهيئة شريط طويل ذي حلقات كثيرة ، وهذه تصيب الإنسان وبعض الحيوان ، وهناك دودة أخرى تسمى (تريتشنا) صغيرة جدا لاترى بالعين المجردة ، وتعيش فى لحم الخنزير ، وإذا أردنا إهلاك هذه الحشرة فعلينا أن نطبخ لحم الخنزير طبخا جيدا ولنحترس من أكله إلا بعد ماتتحقق تمام الإنضاج وبهذا انتهى ما أردناه من وصف هذه الحيوانات الحلقية .

فقال صاحبي : حسن جدا هذا البيان وجميل ، ولكنى أخاف أن من قرأه بعد هذا التفصيل ينسى أننا فى تفسير القرآن (وبعبارة أخرى) ينسى أنك تريد بهذا البيان أن تعرف كيف أتبع التسبيح بالخلق والتسوية والهداية . وإخراج المراعى . والأمر بالقراءة . وعدم النسيان والتيسير ، وأن الذى يخشى هو الذى يتذكر . إن المقصود مما تقدم من هذا الشرح الجميل إنما هى معانى القرآن الكريم ، ثم قال : إنى على حق إذا قلت : ياألله أمرتنا بالتسبيح ، وأن نعتقد تنزهك فى إنعامك عن الشر والاضرار وإحداث الأذى فكيف السبيل إلى ذلك وهانحن أولاء نرى الفتك بمزارعنا من القطن بمصر وأمريكا بهذه الحشرة الفتاكة ، وهى (حشرة أبى دقيق) تلك الحشرة التى تتفيأ ظلالنا ، وتسكن فى قصور خضر من أوراق قطننا الذى نقوم بزرعه وسقيه وحفظه من كل مكروه فضلا عما أمددتها به أنت يارينا من السلاح والكراع ومكنتها بخرطومها الطويل الملتف من امتصاص الرحيق المختوم فى أزهاره . ثم تكون لها ذرية تملأ السهل والجبل فتفتك بقطننا ، وتجعلنا عبرة للمعتبرين . وفريسة للطامعين ، بقلة مانجنيه وضياع مانبغيه وليس ما أصاب الأمتين المصرية والأمريكية من تدمير أشجار القطن بأقل مما أصاب أمة فرنسا من تدمير الكروم وضياع ثمرات الفلاحين العاملين من الأثمان الغالية للكرم . وهم حيارى يقولون : إنا لمغرمون بل نحن محرومون وياليت الأمر وقف عند هذا الحد . بل إن من هذه الحشرات ماتخطت نباتنا وأشجارنا وهاجمتنا فى أجسامنا فأعملت فيها السلاح من الأسنة المشرعة للتينة الحادة القوية التى أمددت أنت يارينا بها أمم البراغيث والبق والناموس . ومن تلك العقارب العنكبوتية الحمدثة فى أجسامنا أمراضا لايخلصنا منها إلا مرهم أو دهن الكبريت ، ولم نعرف ذلك إلا بعد التنبا والق ، فهذه يارباه مخلوقاتك مسلطة علينا بالأذى ونحن فريسة لها فى كل حين .

فلما أتم مقالته أجبته قائلا : أيها الأخ قد خيل لى وأنت تقص قصص الغزوات التى يغزوها الحيوان للانسان ولما له من الحقول كأن رب العزة فوق عرش عظمته قد كشف الحجب بيننا وبينه (وهذا مجرد خيال) وأشرقت الأنوار من سرادقات العرش ، وأشرقت السموات والأرض بأنوار جماله ، وألقى الخطاب لخواص الحكماء فيقول : أى عبادى ليست حقائق الأشياء شرعة لكل وارد ، ولا يرد عليها إلا الواحد بعد الواحد . أنتم ياعبادى لاتزالون مختلفين مضطربين فى آرائكم وعلومكم وديانتكم لأنكم فى عالم المادة والحقائق فوق ماتعلمون .

هذا خلق وتقديرى وهدايتى لمخلوقاتى ، وأنتم أزواج ثلاثة ، جماعة لايقرءون ويعيشون وهم لا يعقلون . وجماعة يقرءون الخلق والتقدير والتسوية والهداية للحيوان ونظام النبات ولكنهم ينسون . وآخرون يقرءون وهم لاينسون . فأما أكثر الناس فهم من الفريق الأول يعيشون محمولين على أجنحة الفريقين الآخرين . وهم العلماء أولا والحكماء ثانيا . وهؤلاء هم الفريق الأول ، فأكثر نوع الإنسان غافل ساه . يقلد القسمين الآخرين ويكتفى بظواهر الديانات . وهؤلاء عن الحقائق محجوبون ، والقسم الثانى هم جميع العلماء الذين تنسبهم إلى الحكماء كنسبة الصناع والفعلة والزراع والتجار إلى العلماء ، إن فى كل أمة رجالا لمعرفة ظواهر الدين ، وآخرين لعلوم اللغات . وآخرين لعلوم الرياضيات كالفلك والحساب والهندسة وغيرها ، والطبيعيات

كالنبات والحيوان والإنسان ، وهؤلاء أشبه بمال عند الذين هم أعلى منهم وهم الحكماء ، فهذه الطبقة المتوسطة الذين برعوا فى العلوم الجزئية آباء الطبقة التى قبلهم وأبناء طبقة الحكماء ، فهؤلاء هم الذين يقرءون ويفسون لأنهم لايفكرون : ولايبحثون فيما وراء هذه الظواهر التى تبدو من ظواهر الحشرات ومامعها ، فهم يرونها تميت الإنسان وتهلك زرعه تارة ، وتسقيه العسل وتلبسه الحرير وتعطيه الصبغ القرمزى أخرى ، وتهاجمه وتناصبه العداء آونة ، كل ذلك لايعقله القسمان المذكوران ، لاعلماء الأمم ولامقلدوهم من الجهال ، وإنما هؤلاء يقدرون أن يحترسوا من تلك الحشرات ويحاربوها ويداووا من جراحاتها ، أما الوقوف على السر فى هذه المتناقضات ، والسبب فى هذه المناورات ، فإنهم عن سمعها لمحجوبون ، وهذه درجتهم عندى فى كتابى المحفوظ ، أما طائفة الحكماء ، وهم خلاصة الأمم بعد الأنبياء ، فهؤلاء هم الذين يفهمون عنى ماأفعله كما يفهمون ماأقوله ، وهؤلاء أقول لهم بحق ، أى عبادى المخلصين « سلام عليكم بما صبرتم » لو أنى لم أخلق فى هذا العالم إلا الخير ، وجعلت جميع الحشرات تفعل مافعلته النحل بعسلها ، ودودة القز بحريرها ، ولم يحترك النقيضان لكانت حالكم أقل من حال الحشرات ، خلقت فيكم اللذة والألم ؛ فلو أنى لم أنم فكم إلا قوة اللذة ، وأبحتكم على فراش الراحة الوثير لهلكتم مع الهالكين ، ولكنى أثرت فيكم ثائرتى الألم واللذة فجعلتهما كجناحى الطائر ورجلى الإنسان ويديه ، لولاهما لأصبح الإنسان كعلقة فى الطين ، أو فراشة فى ماء مهين ليست اللذة ولا الألم مقصودين ، إن هما إلا جناحان بهما تطيرون ، أنتم من عالم المادة ولا سبيل إلى ولوجكم العالم العقلى إلا بأمر واحد هو الجد والعمل والتفكير ، ولن يكون ذلك كله قط إلا بما يوجبه وهو الضدان اللذات والآلام أنا لم أخلق الألم فيكم عبثا ، أنا خلقته فيكم لتنتفعوا به فى رقيكم كانتفاعكم باللذات هما عاملان قويان لرقيكم .

أى عبادى الحكماء ، أنا قد كشفت لعقولكم أن هذه المادة كسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فالعلماء يوضحون للعامة ليعيشوا . فيرون أن ظواهر المادة نقمة وعذاب ، ولكن أنتم الذين كشفت عن عيونكم الغطاء وأطلعتكم على الحقائق ، فقرأتم ولم تنسوا ماقرأتموه ، بل وصلتم إلى ماوراء هذه الحجب والظواهر فألفيتم بدائع ورحمات محتجبات وراء هذه الظواهر ، وأخذتم تشربون من رحيق مختوم ختامه مسك ، فأنتم فى ذلك تتنافسون ، فترون بهجة وجمالا وحسنا فى التزويق والنقش والتصوير ، وكأن تدركوا بهجة هذه العيون التى فى الحشرات ، تلك العيون التى تعد بالمئات والألوف للحشرة الواحدة كل عين منها تنظر نظرا مستقلا (هذا المقام مشروح فى سورة النمل تحت عنوان [رسالة عين النملة] فقد ثبت هناك عن العلماء لاسيما علماء النمسا وألمانيا فى أول هذا القرن أن كل عين من عيون الحشرة التى تقدم رسمها مقسمة إلى مئات العيون التى رأيناها فى الصورة الشمسية ، وقد كان المؤلف يحسب أن تلك الفصوص فى العين ماهى إلا زينة كزينة الأحجار الثمينة ، وهو قد ألف الكتاب منذ قرن ونيف ، أما الآن فقد ثبت أن هذه عيون مستقلة لكل عين مناظرها ، ولكل عين أعضاؤها الخاصة الواضحة فى سورة النمل كما قدمناه) .

أى عبادى : إن الناس لايزالون مختلفين فى دياناتهم ، وفى علومهم ، وفى أحوالهم وكل حزب بما لديهم فرحون إلا من رحمتهم وهم الذين أدركوا الرحمة العامة فى الخيرات والنعم ، فهؤلاء يدركون الرحمات فى هذه المتناقضات ، ولن تقعد بهممهم اللذات ، أو تصدهم عن إدراك تلك الحقائق الآلام ، فعقولهم تشرق إشراق الشمس فى رائعة النهار ، وهم هم الذين يعقلون عنى ماألقى فى روعهم بالهام فأقول : لئن ردعت الفلاح المصرى والأمريكى بتدمير قطنه بحشرة أبى دقيق وفتكها به وتدميرها مئات الألوف بل الملايين من الأفدنة

وأبدت مئات من ألوف الفدادين أيضا من الكرم فى فرنسا ، وأوقعت العداوة والبغضاء بين أرباب الأموال وعمالهم القائمين بالصناعات القطنية والزخارف الحريرية فى قارتى أمريكا وأوروبا ، وعممت الكساد فى تلك الصناعات زمنا ما . وفعلت مثل ذلك فى منتجات الكرم ، فأسلط الأمراض والفقر واختلال القوى العقلية وانتشار الفساد فى الأسرات بين الرجل وزوجته وبين الأخ وأخيه بما يكرعون من بنت الحان ، وما يدمنون من المسكرات الناجمات من حدائق العنب .

لئن فعلت ذلك بهؤلاء وهؤلاء ليكونن ذلك منى تذكيرا ووعظا وحكمة وإيقاظا لغفلتهم وهم ساهون لاهون . إن زراعة القطن مثلا وزراعة الكرم وإن كان الأول ملابس والثانى فاكهة لاغنى للانسان عنهما قد تعادى الإنسان فيهما فصرف أكثر محصولهما فيما ليس من الضرورى لحياة الإنسان ، ليس الخمر ضروريا له بل هو ضرر عظيم كما ألقيته فى روع العلماء القائمين بمنع المسكرات ، وهكذا كثير من الصناعات المستخرجات من القطن قد جعلت من المشجعات على إتقان الآلات الحربية المدمرات لنوع الإنسان ، أو على التباهى والتفاخر بالزينة الحريرية المستخرجة من القطن المصرى ، وقد أصبح الناس فى جميع ما قدمناه ساهين لاهين غافلين مكبين ؛ هؤلاء على زروعهم . وهؤلاء على خمرهم وسكرهم ، وهؤلاء على زينتهم وزخرفهم ونسوا أن هناك صنائع أخرى ، وهناك علوم ، وهناك معارف ، وهناك حياة مملوءة نشاطا .

إنى إذا فعلت ذلك بهذه الأمم لم أفعله لاعبا أو غافلا : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » « وما كنا عن الخلق غافلين » وإنما أوقعت العداوة بين أرباب الأموال والصناع فى القطن مثلا . وأوقدت نار الشحناء والنزاع بين شاربى الخمور ، وأوحيت إلى حشرة (أبى دقيق) أن تدمر قطن المصريين والأمريكيين وإلى حشرة (فيلوكسرا) أن تدمر عنب الفرنسيين لأوقظهم من غفلتهم . وضربت طيرين بحجر واحد ، فلم أزل عليهم من السماء نارا تهلك زرعهم لأنى رحيم ، فمن الرحمة أن أداوى الداء بالداء كما يقول شاعركم :

من يعتصم بإله العرش يحفظه فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

بل أخلق تلك الحشرات وأكثرها جدا حتى تتغلب على ما تقذفون عليها من المدمرات ليكون فى إبادة القطن والكرم مثلا حياتين . حياة جسمية لهذه الجيوش الجرارة التى خلقتها برحمتى . وأيدتها بالسلاح والكراع ، وأمددتها بالقوى والقدر . وأسبغت عليها نعمى بالأعين الكثيرة التى تعد بالمئات والألوف . وحياة روحية للزارعين وعمال الصناعات والمستهلكين .

ضرب مثل لتدمير القطن والعنب بإحداث الخراج فى جسم الإنسان

فها أنا ذا أصنع مع هؤلاء ما أصنعه فى أجسام الإنسان ، فإنى أبنى فيها مكنات لجنودى المجندة التى تسمونها أنتم (الكرات البيضاء) ومكناتها تسمونها أنتم (الخراريج والدماميل) جمع خراج ودمل ، وإن هى إلا ملتقى الجيوش الجرارة التى تهاجم أجسامكم ، وتدخل من مسام جلودكم . لتوردكم موارد حياض الموت ، فيلتقى الجمعان فى تلك المكنات ، وتقوم الحرب على ساقها . ويشتد الخطب ، ويعظم الكرب ، وترتفع الحرارة ، وهى (الحمى) وما هى إلا ازدياد الحرارة لإبادة ما فى الجسم من ميكروبات ضارة تطهيرا له منها وإراحة لأجسامكم . فأما الجيشان . المهاجم من الخارج ، والمدافع من الداخل فان الصرعى من الفريقين يصيران قيحا خارجا من الدمل والخراج ، فاذا شفى الجرح صارت أجسام أولئك القتلى رتقا لفتق الجرح وسدا لثلمته والتئاما له ، واصلاحا لظواهر الأجسام وبهجة الجمال (تقدم هذا مشروحا مصورا بالصور الشمسية فى (سورة الفتح) عند آية : (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) ،

إن هذه الطائفة الحكيمة من الإنسان هى التى تفهم ما أصنعه فى أجسام الناس . وفى عقولهم . وهؤلاء ،

هم الذين يفهمون قولى : «سبح اسم ربك الأعلى» فأنا المربى الأعلى . أربى الأمم وأربى الأفراد بنوعى الخير والشر والضر والنفع .

إن هذه الطائفة الحكيمة من عبادى هى التى تفهم معنى التسبيح فى قولى «سبح اسم ربك الأعلى» وتفهم أن ذلك تربية عالية ، فليست تربيتى لعبادى كتربية الأم لولدها ، ولا الأستاذ لتلميذه . أنا فوق ذلك أراقب النفع العام الذى يقصر عن إدراكه الآباء والأمهات والمدرسون ، وهى التى تفهم التسوية والتقدير والهداية ، وهم الذين يقرءون ولا ينسون ، ويفهمون رحمتى وعلمى وحبى لمخلوقاتى ولطفى بهم وإسعادى ، وهم الذين من دون عبادى أنزلت فى القرآن أنهم يذكرونى ويخشوننى خشية المحبة . وأولئك هم أولوا الألباب اهـ .

هذا هو نهاية الكلام على (سورة الأعلى) وقد كتبت ذلك فى منتصف ليلة السبت ١٧ رمضان سنة ١٣٥١ هـ - ١٤ يناير سنة ١٩٣٣ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الغاشية

هى مكية

آياتها ٢٦ - نزلت بعد سورة الذاريات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِنْ جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم *

تشتمل هذه السورة على : (مقصدين الأول) فى وصف أهل الجنة والنار ، وذلك من أول السورة إلى قوله : «وزرابى مبثوثة» (والمقصد الثانى) فى ذكر عجائب الصنعة الإلهية . وذلك من قوله تعالى : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» إلى آخر السورة .

المقصد الأول

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتاك حديث الغاشية) الداهية التى تغشى الناس بشدائدها ، وهى القيامة . وجهنم وأهوالها ، و (هل) بمعنى قد (وجوه يومئذ خاشعة) ذليلة ، وهى وجوه الكفار لما يظهر عليها من الحزن والكآبة (عاملة ناصبة) أما عملها فإنها تعمل فى النار عملا تتعب فيه ، وهو جر السلاسل والأغلال ، وخوضها فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل ، وأنها ترتقى دائبا فى صعود من نار وهبوط فى حدور وما أشبه ذلك والمراد بالوجوه أصحابها ، وخصت بالذكر لأن مظاهر السرور والكآبة تظهر فيها ، فهى مرآة الإنسان . فإذن أصحاب الوجوه أذلاء عاملون تعبون فى أعمالهم ، وقوله (تصلى نارا حامية) أى تدخل نارا قد أحميت مددا طويلة فلا حر يعدل حرها (تسقى من عين آنية) من عين ماء قد انتهى حرها . وهذه الضمائر للوجوه المراد بها أصحابها . ثم قال : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) هو نبت ذو شوك لاطىء بالأرض تسميه قريش (الشبرق) ترعاه الإبل مادام رطبا ، فإذا يبس سموه الضريع فلا تقربه دابة ويكون فيه خبث وبشاعة : أى إن طعامهم تتحاماه الإبل ولا تقربه لضره وعدم نفعه . ولما كان القصود من الطعام دفع الألم الذى يحس به الإنسان ، وهذا الألم ليس مقصودا لذاته ، بل هو لأجل حث الإنسان والحيوان على إدخال ما خسر من جسمه بالتحليل ليقوى الجسم بالأغذية فتتحول دما فيتمثل الدم بجميع الأعضاء فيكون السمن أردفه بقوله (لا يسمن ولا يغنى من جوع) وهما الفائدتان المترتبتان على تعاطى الطعام .

ولما أتم الكلام على الكافرين أعقبه بالكلام على المؤمنين ونعيمهم فقال : (وجوه يومئذ ناعمة) ذات بهجة متنعمة فى لين العيش (لسعيها راضية) راضية بعملها وطاعتها . لأنها رأت النتائج الحسنة ، والكرامة والثواب (فى جنة عالية) عالية للمكان وللمقدار ، والمراد بالوجوه أصحابها كما تقدم .

ورد فى الآثار : أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض ، كل درجة كما بين السماء والأرض ، وهذه العظمة والملك قد ظهر ما هو كالدليل عليهما فى علم الفلك ، انظر ما نقلته عن (فلامريون) فى (سورة آل عمران) .

ثم قال (لا تسمع) الوجوه (فيها لاغية) أى لغوا ، أو كلمة ذات لغو ، أو ذاتا تلغو ، فإن كلام أهل الجنة كله يرجع إلى الحكم والذكر والعلوم الجليلة .(فيها عين جارية) يجرى ماؤها لا ينقطع ، والتنكير للتعظيم (فيها سرر مرفوعة) فيها أسرة مرفوعة القدار والمكان ليرى المؤمن وهو جالس ما خوله الله من النعيم (وأكواب) جمع كوب ، وهو إناء لا عروة له (موضوعة) على حافات الأنهار الجارية ، كلما أرادوا الشرب منها وجدوها معلومة . وهكذا أهل المعارف فى الدنيا ينالون فيها مايشتهون ، وهو زيادة الحكمة

والعلم التى تلذ لهم فى الدنيا أكثر من لذة الشراب، فإذن تكون معدة لهم طرقها ومسهلة لهم أكثر من سهولة تعاطى الأكواب المحضرة على حافات الأنهار ولكل من أهل الجنة درجات مما عملوا «ولا يظلم ربك أحدا» .
وقوله (ونمارق مصفوفة) أى وسائد ومرافق جمع نمرقة قد صف بعضها إلى بعض (وزرابى مبثوثة) الزرابى البسط العريضة والطنافس التى لها خمل واحدتها زربية . ومعنى مبثوثة مبسوطة ، أو متفرقة فى كل بقعة واحد منها ، هذا هوا لقصد الأول من السورة .

المقصد الثانى : عجائب الصنعة الإلهية

اعلم أن ما ذكر فى الجنة وفى النار دال على نعم عظيمة ونقم هائلة ، وعوالم شاسعات ، بعضها للتعذيب وبعضها للتكريم . ولما كان وصفها لاتسعه العقول ولا تدركه الأبصار أراد الله أن يذكر الناس بما حولهم من العجائب فإنها ضيقة إذا لم يفكروا إلا فيما يأكلون ويشربون ، بحيث لا يرى الإنسان سعادة إلا فيما وصل إليه ، ولا شقاوة إلا فيما أضربه ، وقد غاب عقله عن هذه العوالم الشاسعة البديعة الأطراف الواسعة الأكناف .
واعلم أن الإنسان فى نفس هذه الدنيا إذا حصر عقله فى شهواته الخاصة سواء أكان من المتعلمين أم كان من الجهلاء فإنه يكون كالمحبوس المضنوك المقهور وهذا أقرب إلى أهل النار ، فأما إذا وجد من أفهمه أن فى هذا العالم المحيط بنا جمالا وحكما ونعما وبدائع تبتهج بها العقول فإنه يدخل فى نعيم عقلى لا يفهمه الذين حوله من الجهلاء ، ولا من المتعلمين الناقص التعليم ، فهؤلاء جميعا قد حبسوا نفوسهم فيما يسىء ويقلق حواسهم ، وغفلوا عما أحاط بهم من أفلاك بديعة ، وأرض جميلة ، وحيوانات شريفة لطيفة . ومن أدرك عجائب هذه الدنيا أحس بنعيم روحى فى هذه الحياة ، وسينقلب نعيما روحيا وجسميا بعد الموت ويوم القيامة لذلك أعقب ما تقدم بذكر ما اعتاده نظر الأعرابى وهو راكب ناقته ، فأول ما يخطر بباله ماهو راكب عليه كما ترى ذلك فى أشعارهم ، وناهيك بالمعلقات السبع ، فإنك ترى أحدهم يصف الناقة فى نحو ٣٠ بيتا وليس يخطر بباله بعد ناقته وهو راكب عليها إلا مافوقه من زرقة السماء ، ثم ما حوله من الجبال ، ثم ما تحتها من الأرض ، هذه نظرات الأعرابى وهو بين الجبال فى سفره ، فهذه تذكرة للأمم التى على الأرض ليعلم على كما لهم الدنيوى والأخروى أنه لا يكون إلا بالحكمة والعلم . الأعرابى يسافر لجلب الزاد أو قتال الأعداء والله يقول : هل عميت الأبصار وزاغت البصائر عن حكمة الجمال وخلقها ، والسماء ورفعها ، والجبال ونصبها ، والأرض ودحوها ؟ هل غاب عقل الإنسان عن هذه الدنيا وعلومها وحكمها ؟ فإذا ذكر الله الأعرابى بالبادية فهل يذكره إلا بأنفس أمواله؟ لأنها :

(١) تنهض بحملها وقد كانت باركة وليس غيرها على هذا الوصف .
(٢) وتأكل النوى والقت وغيرهما .
(٣) ويكون منها اللبن .
(٤) وهى تلين للحمل الثقيل .
(٥) وتنقاد للقائد الضعيف حتى الطفل الصغير ، فإنه يأخذ بزمامها حيث شاء .
(٦) وهى جمعت بين الزينة لصاحبها والركوب والحمل واللبن واللحم، وهذه الخصال لا توجد مجتمعة إلا فى الإبل .
(٧) وهى ترعى كل نبات فى البرارى مما لا يرعاه غيرها من الحيوانات .
(٨) ومنها أنها تصبر على العطش عدة أيام .
(٩) وأيضا أن مخيلة الإبل تحفظ الطريق الذى رأته مرة واحدة بحيث تسير فيه مهما طال ومهما

تنوعت جباله ووهاده وطرقاته كما ذكره العلامة الرازى فى خبر البعير الذى أطلقه الجماعة الذين كانوا مسافرين معه فى مفازة، فلما ضلوا الطريق كان ذلك البعير الذى قدموه يسير فى الطرقات والتعاريج والوهاد والعقبات، وبين الجبال للتعاقبة ولا يخطىء، وهذه من الأعاجيب فى الإبل وفى حيوانات أخرى كثيرة .

وليس ذكر هذه المخلوقات فى القرآن للاقتصار عليها . كلا . فإنما ذلك فتح باب العلوم والحكمة ، وإنما ذكر هنا ماينا سب خيال البدوى فى البادية ، وهذا فى علم المعانى يسمى الجامع الخيالى ، وهو مايكون مجموعا عند طائفة من الناس فى اعتيادهم كالمنشار والقادوم عند النجار ، والمسطرة والدواة عند التلميذ وما أشبه ذلك فلهذا قال تعالى (أفلا ينظرون) نظر اعتبار (إلى الإبل كيف خلقت) خلقا دالا على كمال القدرة ولا يعرف كمال الخالق إلا بمقدار مايعرف الناس من كمال صنعه (وإلى السماء كيف رفعت) بلا عمد وفيها من الكواكب ماأدهش عقول العالم الإنسانى لاسيما فى الوقت الحاضر إذ أصبح عدد النجوم لا يحصى ، فهو فوق مئات الملايين بما لا يقدر .

يقول الله : فلينظر الإنسان كيف رفعت هذه السماء ، وكيف يسير النور الذى يقطع مابين الأرض والقمر فى ثانية وثلث، ومابينهما وبين الشمس فى ثمان دقائق و ١٨ ثانية . فهذا النور يسير من كواكب قد بعدت جدا ويصل إلى الأرض فى مدة مليون ونصف مليون من السنين بل مافوق ذلك ، كيف يكون هذا فليفكر الناس (وإلى الجبال كيف نصبت) سأسمك مثالا فى الجبال وكيفية نصبها ، وكيف خرجت وظهرت فوق الأرض ، وكيف كان منها ماهو صخرى ، ومنها ماهو منبت للنبات والأزهار والأثمار والعجائب ومنها ماهو متوج بتيجان الثلج المختلف الألوان البديع للناظر ، ومنها ماتعلوه النار المتقدة الخارجة من البراكين الطالعة من أسفل الأرضين من كرة النار المتقدة فى بطن الأرض ، وكيف كان منها ماتعلوه الطيور والحيوانات البديعة الخلقة ، الحسنة الشكل ، البهية المنظر إلى غير ذلك مما ستراه فى آخر تفسير هذه السورة وقوله تعالى (وإلى الأرض كيف سطحت) أى بسطت حتى صارت مهادا فكانت أربعة أقسام كل قسم ربع من أرباعها ، وكل ربع من أرباعها أربعة أقسام .

(١) براري وقفار وخلوات .

(٢) وبحار وأنهار وغدران وآجام .

(٣) وجبال وتلال وأودية .

(٤) ومراع وقرى .

وهذه الأقسام الأربعة يرجع بعضها إلى بعض على حسب الحركات الفلكية فينقلب الجبل بحرا ، والبحر جبلا . والقرى والبلدان تصير خرابا أو بحارا وماأشبه ذلك ، وذلك الانقلاب فى أزمان متطاولة ومئات الآلاف من السنين ، ومعلوم أن الأرض كرة نارية ، فهى دائما فى حركات وزلازل واضطرابات، فاذا كانت الدول فى كل يوم لها أخذ ورد ، وضرب وحرب ، ومدافع ضاربة ، وطيارات قاتلة ، وغازات خانقة فالأرض زلازل وبراكين ، ومن الزلازل مايعرفه أكثر الناس ، ومنها مايخفى عليهم لبعده أو لشدة خفائه

ولما كان هذا شأن الأرض وأنها أشبه بأحوال الذين يعيشون عليها من الأمم والدول تولد فيها على طول الزمان أحوال عظيمة نشأت منها تلك الانقلابات المذكورات . ولما كانت هذه الأمور الأربعة تشمل أكثر العلوم التى ملأت الكرة الأرضية اليوم ، ولم يغفل عنها إلا أكثر أهل الشرق لاسيما أمتنا الإسلامية أتمه بقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر) فهل عليك أن يتذكروا أو ينظروا ، كلا . إن عليك إلا البلاغ

فإذا كفر بك وبدينك قوم ، وإذا جهل أتباعك مرامى الآيات فضلوا وناموا ووقع عليهم الرجس فقد بلغت وليس عليك غير ذلك (لست عليهم بمصيطر) بمتسلط (إلا من تولى وكفر) أى لكن من تولى وكفر بعد التذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) أى عذاب الآخرة (إن إلينا إيابهم) رجوعهم (ثم إن علينا حسابهم) فى المحشر يوم القيامة . انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة فى عجائب الجبال

أوصاف الجبال

إن الجبال على اختلاف أشكالها . وتباين ضروبها . وتنوع أصنافها ، وتفنن أحجارها تنقسم إلى أربعة أقسام : صخرية لاتنبت شيئا ، وجبال ذات نبات ، وجبال نارية ، وجبال لطيفة الهواء . وهاك بيانها :

(١) فأما الجبال الصخرية فمثل جبال تهامة ، فما هى إلا صخور صلدة ، وأحجار صلبة . لاينبت عليها إلا يسير .

(٢) وأما الجبال ذات النبات ، فهى صخور رخوة . وطين لين ، وتراب ورمل ، وحصيات ملس متلبدات ، ساف فوق ساف ، متماسك الأجزاء ، كثيرة النبات والأشجار والحشائش مثل جبال فلسطين وجبال لسكام وطبرستان وما أشبهها .

(٣) وأما جبال النار ، فانه يرى فى أعالها ليلا ونهارا دخان معتكر ساطع فى الهواء ، مرتفع فى الجو وذلك من النار التى فى باطن الأرض ، وماالأرض إلا كرة نارية لها قشرة مثل قشرة البيضة بالنسبة للبيضة ، وتقدم تحقيق هذا فى (آل عمران) وفى غيرها فارجع إليه إن شئت .

(٤) وأما الجبال ذات الهواء اللطيف فهى قسمان : قسم تهب فيه الرياح اللينة فى بعض الأوقات . وقسم تهب فيه تلك الرياح فى جميع الأوقات . فأما الذى تهب فيه الريح اللينة فى بعض الأوقات فمثل جبل الثلج الذى بدمشق . والذى ببلاد (داور) من جبال (غور) وجبل (دماوند) فهذه لما كان الثلج فوقها فانه عند ذوبانه يتحلل إلى أجزاء بخارية لطيفة فيرتفع فى الجو ويلطف الهواء فتهب نسمات لطيفة تشرح الصدور ، ويدفع ذلك البخار الهواء إلى الجهات الخمس . فتلك الرياح لاتكون إلا عند ذوبان الثلج ، فاذا لم يكن ثلج كانت رياحها على حسب حال جوها ومناخها ، فالرياح متقلبات ليست دائما معتدلات . وأما القسم الذى تهب فيه الرياح اللينة فى جميع الأوقات فمثل جبال [باميان] فى بلاد الشرق ولاحاجة إلى إطالة الأسباب فى ذلك .

***

هذا ولأذكر لك آراء العلماء فى هذا الزمان فى أمر الجبال لينشرح صدرك وتقر عينك بمناظر الجمال ومحاسن الجبال ، ولأجعل لك ذلك فى خمسة فصول : (الأول) كيف كان تكوين الجبال (الثانى) كيف يكون زوالها (الثالث) وصف الجبال ذات الأشجار والثلج (الرابع) وصف جبال النار (الخامس) اعتبار العقلاء بعجائب الجبال وهاك بيانها :

الفصل الأول : فى تكوين الجبال عند علماء العصر الحاضر

يقولون : إن الأرض أشبه بتفاحة تجعدت قشرتها لتقارب أجزائها الداخلية ، والأرض لما كانت كرة متقدة الداخل ازدادت برودة قشرتها على توالى الأزمان ، وبتوالى البرودة تنزل القشرة فيحصل خسف وزلزلة وأهوال فيرتفع بعض الأماكن وتنخفض أماكن أخرى . ففى الجبال الآن ماهو فى دور الطفولة ، ومنها مابلغ أشده ، ومنها ماأصبح كشيخ ، ومنها ماأخذ فى الفناء ، فالأول كجبال (الانديس) بأوروبا ، فهى حديثة العهد ، فهى لاتزال ترتفع وتعلو كأنها جسم حيوان ، وهكذا جبال الألب ، والثانى كجبال (البرنيس) بأوروبا ، والثالث كجبل المقطم بمصر ، فهو الآن فى دور الشيخوخة ، فلقد دلت الآثار على أنه كان شامخ القدر . فيه الحيوانات والنباتات التى بقيت آثارها متحجرة ، ثم هو الآن شيخ كبرت سنه ، ومثل جبال (الفوزجيش) والرابع كجبال (وايلس) بأوروبا ، فالجبال إذن كالحيوان وكالنبات تبرز وتكبر ثم يعروها البلا .

ثم إن من الجبال ماكان فى قديم الزمان جزرا مرجانية بارزة فى البحار ثم أخذ ينمو كما أن منها ماصار نسيا منسيا كما فى سلسلة جبال كانت قبل جبال الألب الحديثة العهد . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى : كيف تزول الجبال

قد تبين لك السبب فى زوال الجبال من هذا المقال ، ونزيد عليه أن الجبال إذا شمخت بأنوفها واستكبرت وأظهرت الخيلاء أخذت العوامل الطبيعية تخضد من شوكتها وتلين من حدتها والحوادث الظاهرية تحط من عظمتها ، فالشمس تحرقها والصقيع والحر والبرد والماء والهواء والثلج والجليد ، وكل نبات نبت وكل دودة دبت ، وحيوان شب ، كل هذه عوامل متحدات على تحطيم أحجارها ، وتكسير صخورها ، وإذلال عظمتها . وماأعظم قوة الماء ، وما أشدها على الجبال ، فهى التى تذيب الثلوج ، وتحلها إلى سيول جارفات ناقشات للجبال نقش الصانع الحلى ، وناحتات الصخور كما ينحت الصانع التماثيل ، وأن جبال (ويلس) التى مر ذكرها وأمثالها قد أفنتها العوامل الطبيعية ، ولم يبق منها إلا أطلالها البالية ، وآثارها الضئيلة ، ولن تمضى عشرات الألوف من السنين حتى تصير جبال سويسرا إلى ماصارت إليه جبال ويلس ، وذلك بسبب هذه العوامل على حسب مايقوله (الورد أفبرى) انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث : وصف الجبال ذات النبات والأشجار والثلج

هاك وصفها من مقال (الورد أفبرى) إذ وصف جبال الألب بما معناه : انها متدفقة الأنهار ، زاهية الثلوج ، يأتلف ذراها والسحاب ، ومن أجل مناظرها بهجة ، وأحسنها شكلا ، وأبهاها رونقا ، وأبدعها حسنا ، وأشرحها للصدر ، وأجلاها للصدى ، وأكثرها تشويقا للحكة ، الجلد الأزرق ، واللاريس الأخضر والصخر الأغبر والأحمر ، والصنوبر المتعانق الأغصان ، وبهجة جمال الزان ، والأنهار الجارية ، والمروج الزاهية ، والأشجار الباسقة ، والحيوانات السائحة ، والأعشاب الكاسية ، والأزهار الجميلة المختلفة الألوان البديعة الأشكال ، المدهشة الألباب . المرقية الأذهان ، الناسجة للجبل ثوبا كوكبيا ، وهناك البزاة والصقور فوق رءوس الألب طائرات والسنجاب الجبلى يجرى حذرا خائفا . ذلك بعض أوصاف جبال الألب .

وصف جبال سويسرا

إن حد ارتفاع الثلج فى (سويسرا) على ارتفاع ٨٥٠٠ قدم أو ٩٠٠ قدم ، ثم يجتمع الثلج فوق ذلك ويتراكم ، فتراه فى مبدأ أمره أنهارا عظيمة هائلة تنحدر على الصخور من جوانب الجبال فى كل ناحية فما أسرع أن تجمد فى أماكنها وتقف حيث هى إذا ضربها البرد فخرت صريعة ، وما أجملها للناظرين ، وما أبدعها ذكرى للمفكرين ، إن الناظر ليدهش إذ يراها ثابتة فى أماكنها ، جامدة فى مجاريها فوق الصخور ، وفى داخل الأخاديد ، وعلى الروابى ، وفى كل مكان ، انتهى الفصل الثالث .

الفصل الرابع فى وصف جبال النار

البراكين تبلغ مابين ٢٢٣ جبلا وثلثمائة جبل ، فمنها دائمة الثوران ، ومنها قليلة ، والتى تثور بين آونة وأخرى ، والتى هى جامدة ساكنة دائما ، ومن شاهد فوهة جبل النار (البركان) المسمى (فزوف) وهو ثائر فانه يشاهد الحمم تسيل على جوانبه ، والحجارة الضخمة تقذف فى جوه ، وهناك جبل نار يسمى (كوتوپاكسى) فقد ثار عام ١٨٧٧ فكانت الحمم ترتفع تدريجيا وتتجمع فى فوهته حتى إذا ملأتها سالت من جميع جوانبها فكان الناظر لها يرى مشهدا رهيبا رائعا مهولا .

قالوا وأكبر فوهة لبركان فوهة بركان (كيلويا) فقطرها ميلان ، ومحيطها نحو سبعة أميال ، وهى على ارتفاع أربعة آلاف قدم ، وفى داخلها بحيرة هائلة فيها حمم ومواد مصهورة كثيرة ، وهذه البحيرة تكون على عمق ٨٠٠ قدم عن شفة الفوهة غالبا ، وعمق البحيرة نحو ١٤٠٠ قدم ، فاذا أظلم الليل انعكست تلك الأشعة المتطايرة من حمم تلك البحيرة العظيمة على الغيوم فكسبتها لونا قرمزيا قانيا بديع الجمال ، حسن الأشكال قليل المثال . بعيد المنال . والحمم لاتزال تجتمع وترتفع فى جوف الفوهة حتى تصل إلى الشفة . وهناك الهول المهول فتفور تلك الحمم وتنحدر انحدار السيول الجارفات . أو تنفجر من الجوانب ، فانظر كيف تنفجر الأنهار من الجبال . ولكن إذا كانت الجبال نارية كما هنا فانها تنفجر من جوانبها أنهار نارية . وفى تلك الأنهار النارية تنحدر الحمم هناك من الفوهة بسرعة عظيمة . وذلك لأنها مواد مصهورة ذائبة ثم بعد ذلك تجمد قليلا قليلا فتتكون قشرة جامدة والحمم الجديدة تجرى من تحتها . وقد تنفجر القشرة ويسيل منها فروع مجار صغيرة . وأنهار الحمم قد تبلغ سبعين ميلا . فهذا وصف وجيز لجبال النار لنطلع به على عجائب هذه الدنيا وبهجتها ، وكيف جعل الله قمم الجبال جامعة بين النار الحامية والحمم المتقدة والأنهار النارية السريعة وأن من أنهارها مايجرى تحت ماتجمد من الحمم كما ترى الماء فى النهر يغطيه الثلج وهو لايزال جاريا تحته وكيف جرى من الجبال ماء ونار وعلت عليها الأعشاب والأشجار والطيور والحيوان . أو أصبحت جرداء لاتنبت ولاتزدهى .

هذا مبادىء لما يقصد الله فى قوله : « وإلى الجبال كيف نصبت » ومن العار على الأمة الإسلامية ألا يكون فيها لكل علم من هذه العلوم جماعة يفيضون على الأمة من علومهم أحاديثه لأمر ربهم . انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : اعتبار العقلاء بالجبال

هذا بعض وصف الجبال فى العالم الإنسانى ، نار وثلج وشجر وحيوان وهواء وماء ونعيم وعذاب وحمم مصهورات . وأنهار جاريات . وعجائب مدهشات . ذلك مظهر الجبال . وكم فيها من كنوز ذهبية ومواد معدنية وبدائع حكمية . تبهج الناظرين وتسر المفكرين .

هذه هى الجبال التى نصبها الله فى الأرض مرقاة لعقولنا . وسلما لأنظارنا . وعلما لارتقائنا . فلعمرى أيستوى الجاهل والحكيم . والذكى والبليد . وهل يستوى من وقف عقله فى جمود . ونفسه فى خمود . وذهنه فى لحود . فأصبح لا يرى نور الجمال . ولا بهجة الجبال . ولا عظمة الله التى تجلت للناظرين : فاذا لم تتسع بعلوم الجبال وعجائبها . والأرض وغرائبها . فمن أين تتسع العقول . وكيف يعثر المسلمون على كنوز الأرض ان لم يدرسوها ، أم كيف يقرءونها وهم لم يروها ؟ وكيف يكون للمسلمين بعد اليوم بقاء والأرض وجبالها مسخرات بأيدى أمم الفرنجة . سخروها بالعلم . وأخضعوها بالفهم . فاذا بقى المسلمون فى الجهالة العمياء مكتفين بالمسائل الفقهية فليودعوا العالم راحلين . وليشدوا الركائب إلى ساحة الفناء . ولكنى أقول قد اقترب الزمان وسيقوم فى الأمة من يوقظونها ويذيعون العلوم .

أفليس من العجب أن يذكر الله الجبال ويوبخ الناس قائلا : «أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت» . فياليت شعرى كيف يكتفى المسلمون بنظر الجهلاء ؟ إذن أى فرق بين العالم والجاهل . وإذا كان النظر السطحى كافيا فحينئذ يكون نظر الخليل عليه السلام فى النجم والقمر والشمس كنظر الجهلاء . فأين رتبته إذن . كلا . كلا . فالنظر فى الجبال . والنظر فى السماء والنظر فى الأرض . والنظر فى الحيوان نظر حكمة وعلم لأمرين : اتساع العقول حتى تعرف الخالق معرفة أتم والانتفاع بتلك المخلوقات . وكلما قل العلم بهذه الأشياء قل الانتفاع بها وقل الشوق إلى خالقها : فالانتفاع تابع للعلم . وحب الله تابع للعلم . وعلم الجاهل وعلم البهائم سيان ، نظر بالبصر وجهل أكبر . فليرفع المسلم عقله عن مقام الجاهلين حتى يعرف كيف يحمد رب العالمين . ويصلح بالعمل بلاد المسلمين . ويحفظها من أيدى الأوروبيين .

نظرة فى الجبال أيضا

قال بعض العلماء فى عصرنا : الأرض كانت فى رأى العلماء قطعة متصلة بالشمس أو جزءا منها . يدلك على ذلك أن جميع العناصر الموجودة بالشمس موجودة كلها بالأرض . وهذا يمكن اثباته بتحليل الطيف الشمسى لضوء الشمس . فان أكثر مواد الشمس فى حالة غازية : فاذا قطعنا هذا الضوء (أى شعاعة منه) بمنشور من البلور تحلل الضوء إلى جملة ألوان ، ولكل غاز طيف خاص ، وقد أمكن بذلك أن نعرف المواد المؤلفة منها الشمس ، ونتحقق من أنها نفس المواد المؤلفة منها الأرض ، والمتفق عليه أيضا بين معظم العلماء أن الأرض كانت كتلة ملتهبة ثم بردت بالتدريج فصارت غازاتها سوائل ثم جمد بعضها .

ومن المعقول فى هذه الحالة أن تتجه أثقل المواد إلى المركز ويبقى أخفها على السطح ، وإذا كان بخار الماء قد برد حتى صار سائلا وملأ محيطات العالم كما نراها الآن فإنما يكون قد حدث هذا بالتدريج ، وكانت

البحار فى البدء عذبة لأنها تكونت من الأمطار ، ولكن لما تمام التمهد وصارت الأمطار تقع على اليابسة ثم تنحدر منها أنهارا إلى البحر أخذت هذه الأنهار تكتسح أملاح اليابسة وتنزل بها إلى البحار ، ثم تعود مياه البحار إلى التبخر فيبقى للملح بها ، وتزداد كميته بذلك عاما وراء عام .

ومما يدل على ذلك أن البحيرات المنقطعة والتى يقل نزول المطر فيها مثل البحر الميت فى فلسطين ، والبحر الأحمر أكثر ملوحة من المحيطات الكبيرة ، فالماء يتبخر من هذين البحرين كثيرا لوقوعهما فى منطقة دافئة ويقل نزول المطر فيهما فتقل عذوبتهما ، وليست أرضنا مستوية السطح ، إذ فيها نتوءات نسميها جبالا فى بعض الأمكنة ، وفيها غؤورات فى أمكنة أخرى نسميها محيطات ، ولكن الجبال والبحار إذا قسناها إلى حجم الأرض لم تكونا إلا بمثابة خدوش بسيطة لا يحسب لها حساب .

وأهم عامل فى انحدار المياه إلى المحيطات وسبب ملوحتها هو الجبال ، فما هو أصل الجبال ؟ فى الأرض الآن عدة براكين خامدة تدل على أن حرارة باطن الأرض كانت فى الزمن القديم أشد مما هى الآن ، وبديهى أن مثل هذه الحرارة كانت كثيرا ما تحدث نتوءا أو أغوارا فى قشرة الأرض ، ولكن السبب الأهم الذى يعزى إليه الآن ارتفاع الجبال وتكونها هو الأنهار ، وهى أيضا سبب الصور الجليدية التى تناوبت العالم جملة مرار ، وكيفية ذلك أن الأمطار إذا وقعت على اليابسة حملت معها ما تذيبه من جوامد اليابسة ، وشقت لها طريقا فيها حتى تصل إلى البحر فتنصب فيه ، فإذا توالى هذا جملة آلاف من السنين ثقل قعر البحر الذى انصبت فيه هذه المياه ، فإذا لم يستطع قعر البحر أن يحمل ما عليه من تراكم هذه المواد التى حملتها إليه الأنهار غار إلى أسفل ، وهو فى غؤوره يدفع باطن اليابسة إلى النتوء على نحو ما يحدث إذا ضغطنا كرة من العجين إذا ضغطنا على جزء منها فغار تنأ جزء آخر يجاوره .

والجبال الحاضرة يدل بعضها على أنها كانت يوما ما مغمورة بماء البحر بدليل ما يوجد فيها من متحجرات الأصداف التى لا تعيش إلا فى المياه المالحة ، فالأنهار هى أصل الجبال ، والجبال هى أصل الصور الجليدية واختلاف مناخ البلدان فى الأزمنة القديمة ، وكيفية ذلك أن الجبل إذا ارتفع بلغ طبقة رقيقة من الهواء فتتشعع منه حرارة الشمس ، ولهذا نجد الحر فى السهول ، ونجد البرد بل الثلج أحيانا فى الجبال ، لأن الهواء إذا تكاثف فى السهول صار بمثابة الغطاء والالحاف فيحفظ بذلك الحرارة . أما إذا رقى على الجبال فليس هناك إذن ما يمسك الحرارة ، فإذا امتلأت البحار مما تحمله إليها الأنهار غارت قعورها فنشأت عندئذ الجبال ، فإذا سقطت عليها الأمطار جمدت وصارت ثلجا ، ثم يأخذ الثلج فى الانحدار على الجبال ويذهب أيضا إلى البحر حاملا معه شيئا كثيرا من اليابسة ، والجبال تتآكل وتنحات بانحدار الثلج حتى تذهب قممها فلا تجمد الأمطار عليها لأنها غير مرتفعة ، وهنا تأخذ السيول فى جرف الجبال فيزيد تحاتها ويسرع هذا فى إثقال قعور البحار ، وارتفاع الجبال وتحاتها كلاهما يؤدى إلى تغير المناخ وإلى زيادة مياه البحر أو نقصها ، فإذا كانت الجبال مرتفعة حدث ما يسمى (عصرا جليديا) فتشتد البرودة وتنقص مياه البحار لأن المطر الذى تتكون سحبه من بخار مياه المحيطات يقع على هذه الجبال فيجمد ولا ينزل إلى البحر إلا بعطء ، ففى العصر الجليدى الأخير مثلا كانت مياه البحر المتوسط قليلة حتى إن أوروبا كانت متصلة بأفريقيا فى عدة أماكن ، وكانت انجلترا متصلة بأوروبا ، وكانت آسيا متصلة بشمالى أمريكا ، وكان مناخ مصر أبرد مما هو الآن ، لأن عصر الجليد فى أوروبا كان عصر الأمطار فى مصر ، وكان جبل المقطم وهو فاحل الآن حافلا بالحيوان والنبات مما لا نزال نجد متحجراتهما للآن .

وقد انتاب العالم حسب تحقيق العلماء الآن خمسة عصور جليدية كانت سببا فى إبادة أنواع عديدة من الحيوان والنبات ونشوء أنواع أخرى .

ومن ذلك يتبين للقارئ أن جبالنا الراهنة لن تعيش إلى الأبد فإنها ستتحات من سيلان الماء عليها ، ثم يثقل قعر البحر فيسيخ ويغور ، وتظهر جبال جديدة فى أماكن أخرى ، وكذلك شكل قارات العالم لم يكن كما هو الآن وظاهر من غربى أوروبا وأفريقيا ومطابقته لشرقى أمريكا الشمالية والجنوبية ، أن أمريكا كانت جزءا متصلا بأوروبا وإفريقيا اهـ ،

تذكرة فى قوله تعالى

أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت

رباه : أحمدك على نعمة العلم ، وأشكرك على جميل صنعك وإبداعك ، وعلى رأفتك بنا ورحمتك ، أنت تعلم أن تفسير هذه الصورة آن زمان طبعه فأوعزت إلى أحد رجال ألمانيا اسمه (ليون) وزوجته أن يدعوا ناشر هذا التفسير وأنا معه لسياحة فى بعض جبال مصر يوم الأحد ١٠ شوال سنة ١٣٥١ هـ — الموافق شهر يناير سنة ١٩٣٣ م شرقى بلدة المعادى المصرية التى فى طريق (حلوان) فماذا ظهر ؟ ظهر أن هذه السياحة لتحقيق تفسير هذه الآية ، إن الله يقول : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت » ، لقد ظهر فى الكشف الحديث أن الجبال إنما تخلق أولا فى البحر ، وكأن هذه الأرض امرأة والبحر رحمها ، وهذا الرحم فيه مبدأ خلق كل شىء ، فمنه مبدأ حياة هذه الأحياء الأرضية ، ومنه مبدأ تكوين الجبال ، ثم تكون هناك تغيرات عامة فيصبح البر بحرا والبحر برا . الله أكبر : هذا الذى كنا نقرؤه فى الكتب ، ونرى أنهم يقولون إنهم رأوا فى الجبال قواقع ومحارا ونحوها مما هو خاص بالبحار . رأيته أنا فى ذلك اليوم رأى العين على شاطىء واد من أودية جبالنا المصرية البعيدة عن بلدة المعادى نحو (٧) كيلومترات ، وهناك واديان أكبرهما يسمى (وادى التيه) الذى حلت فيه عساكر نابليون لما هجم على مصر فهلك كثير منهم ، ولقد رأيت بعينى رأسى القواقع محجرة وأنواع المحار والصدف وعظام السمك ، وأنواعا من السمك المسمى « نجم السمك » الذى تقدم فى هذا التفسير كثيرا وكلها محجرة ، وهكذا رأيت قطعة من الخشب محجرة ، فدل ذلك على أن هذه كلها كانت فى بحر لجى عظيم فانقلب أودية وصحارى وجبالا ، فالبر كان بحرا ، والبحر كان برا ، والذى أدهشنى أن (ليون) الألمانى وزوجته كانا يعرفان هذه الأودية وصفاتها وخواصها وهما يتوجهان للرياضة فيها برا ويقولان . لم نر أحدا من المصريين قط فى هذه الأماكن وإنما يؤمها الأوروبيون ، وقد قالت زوجة ليون : إننا كثيرا ما نتوجه إلى الغابة المتحجرة ونمر فى (وادى التيه) هذا الذى أمامنا الآن ، ونسافر أربعين كيلومترا من هذا المكان ونرى هناك جذوع أشجار الواحد منها عرضه متر وطوله ٢٠ مترا كلها متحجرة ، ولكننا لا نقدر أن نتوجه اليوم لأن السيارة (الأتوموبيل) إذا انكسرت لا نجد غيرها فنموت جوعا ، وقصت قصص شبان من الألمان جاءوها وضلوا الطريق وأشرفوا على الهلاك لولا أن الطيارات أنقذتهم ، وعاشوا بعد مرض طويل ، فإذا كان هناك أتوموبيل آخر فإن الإنسان إذ ذاك يكون عنده طمأنينة على حياته بحسب العادة ، ولقد حملت معى من كل أنواع المواد المتحجرة ، وهى الآن تحت يدى ، وهى تشبه ما يرسمه العلماء فى عصرنا الحاضر فى كتبهم من المواد المحجرة المذكورة اهـ .

أيها المسلمون : أليس هذا هو قوله تعالى : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف

رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت » . هذا هو النظر إليها ، فالنظر بالعين تساوى فيه الإنسان والحيوان ، والجاهل والعالم ، ولكن النظر هنا نظر الحكمة والعلم ، فهذا هو النظر العلمى أيها المسلمون ، فإذا وقف الإنسان على حقيقة خلق الأرض وخلق الجبال بحسب الطاقة البشرية فإنه يصبح ذا نفس قوية وثابة إلى المعالى تخترق الحجب وترفع الشعوب والنفوس إلى العلا .

إن الله يوبخ هذا النوع الإنسانى على أنه ما كان ليفكر فى حقائق هذه العجائب مشيرا إلى المستقبل القريب الذى سينبغ فيه المسلمون فى كل علم ، فيشرحون الحيوان ، ومنها الإبل ، ويدرسون نظام المجرات والسدم (جمع سديم) والشموس تفسيرا لقوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت » ويدرسون علم طبقات الأرض تبيانا لقوله تعالى : « وإلى الأرض كيف سطحت » .

دهشة والله وأى دهشة . أيها المسلمون : أليس مما يخجل أنى وأنا مصرى أجهل أن فى بلادى على بعد ٢٠ كيلو مترا من منزلنا بشارع زين العابدين بالقاهرة أدلة تثبت برأى العين والمشاهدة أن الجبل كان بحرا ، ولم يدلنى عليها إلا رجل ألمانى وزوجته . اللهم إنك جعلت هذا الجهل العميم الذى أحاط بنا فى مصر عبرة لمن بعدنا فلا يقعون فيما وقعنا فيه من الجهل والتقصير . وسيكون من قرأه أمثال هذا التفسير من يدرسون هذه العجائب بشغف عظيم ويفوقون الأوربيين فيها ليوفوا لهم دينهم علينا ويعلموهم ما يجهلون كما يعلموننا نحن ما جهلنا ، ودلونا بدون علم منهم على وجهة كتابنا المقدس فى آية : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » والله هو الحكيم العليم . وإلى هنا تم الكلام على (سورة الغاشية) والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية .

تفسير سورة الفجر

هى مكية

آياتها ٣٠ ـ نزلت بعد سورة الليل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ *

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي *

هذه السورة تشتمل على (مقصدين : الأول) فى إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « إن ربك لبالمرصاد » (الثانى) إن كثرة النعم على العبد ليست دلالة على إكرام الله له ، وأن كثرة البلاء ليست دلالة على إهانته بل الإكرام فى التوفيق للعمل . والإهانة فى الخذلان ونحو ذلك ، وذلك من قوله تعالى « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن » إلى آخر السورة .

المقصد الأول فى إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والفجر) أقسم الله بالفجر فى كل يوم لما يحصل فيه من انقضاء الليل وظهور النهار ، وانتشار الناس ، وسائر الحيوان فى طلب الرزق وذلك كنشر الموتى من قبورهم بالبعث (وليال عشر) يقال إنها العشر من ذى الحجة ، لأنها أيام الاشتغال بالحج ، لأن العمل فيها أحب إلى الله منه فى غيرها ، فالفجر أول مظهر من مظاهر الحياة والعمل ، وعشر ذى الحجة أوقات اجتماع المسلمين من أقطار الإسلام للتشارك فى الأعمال الشريفة واتحاد الأمة والتعليم ، فأول الأعمال من الفجر فى كل يوم وأشرفها مايه اجتماع المسلمين لمصالحهم السياسية والدينية الذى ينشأ عنه قواتهم وبقوتهم يهزمون أعداءهم ، وهزم الأعداء بالقوة لا يكون إلا بعمل واتحاد وإذن يخذل المعارضون كما خذلت عاد وثمود وفرعون (والشفع والوتر) الشفع هو الزوج ، والوتر هو الفرد ولاجرم أن العلم المسمى (الارثماطيق) الذى سأشرحه فى تفسير هذه السورة قد عرفه القدماء من اليونان أيام (فيثاغورس) وغيره ، وأيضا علماء الرومان وعلماء أمتنا العربية والأمم الفرنجية فكل هؤلاء يدرسون فى أعلى مدارسهم هذا العلم ، وهو علم كلى يندرج تحته علوم : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى وهذا العلم مبنى على الواحد ومن الواحد نشأ الاثنان ، وبهذين كانت جميع الأعداد لأنها إما زوج وإما فرد ، فالواحد أصل الأعداد كلها أزواجها وأفرادها ، وستعرف إيضاح كيف كان هذا يشمل العلوم كلها وسترى أن هذه

الآية من أكبر معجزات القرآن ، فلم يكن عند العرب إذ ذاك هذا الفن. وإنما هو فن لايدركه إلا الحكماء في الأمم العظيمة ، ولذلك لا ترى لهذا الفن وجودا فى البلاد الإسلامية والشرقية الآن فيما نعلم لأن أكثرهم نائمون ، وإنما كان عند اليونان والروم وآبائنا أيام مجدهم ، وقوله (والليل إذا يسر) أى والليل إذا سار وذهب ، وإنما حذف الياء للتخفيف ، وجواب القسم محذوف : أى ليعذبن ، ودليل هذا المحذوف قوله : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد » . ثم قال معظما لهذا القسم (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى هل فيما أقسمت به من الفجر مسفرا ، والليل ذاهبا ، والليالى العشر فيها أعمال الحج والزوج والفرد المشتملين على جميع العلوم الرياضية ويتبعها الطبيعية وغيرها ، هل فى هذه المذكورات قسم لذى عقل ، وإنما سمى العقل حجرا لأنه يحجر عما لا ينبغى ، والمراد بالاستفهام التقرير أى فليقر العاقل بعظمة هذه الأشياء حتى صلحت للأقسام بها ، وكيف لا تعظم وفيها مبدأ الأعمال بذهاب الليل وانبلاج النهار ، وكمال الأعمال باستيعاب النظام العام واتحاد الأمم الإسلامية ـ الذى لا وجود له أيام تأليف هذا التفسير ـ وذلك بأعمال الحج وأمثالها ، واجتماعهم حول الكعبة ، ونظرهم فى شئونهم العامة فى عرفات ، وفيها أيضا الزوج والفرد اللذان هما أس جميع العلوم ، ولا يعرف ذلك إلا إذا بلغت الأمة شأوا بعيدا ، فهذا القسم بفضل الأعمال بالفجر والليالى العشر ، وبفضل العلوم كلها بالشفع والوتر ، وسترى إيضاحه إيضاحا كافيا ، وأى قسم أعظم من هذا فى العوالم كلها يعرفه العاقلون ، فانظر أيها الذكى كيف يقول الله أليس فى ذلك قسم لذى حجر ـ ولم يذكر هذه الجملة إلا هنا ، ولم يذكر العقل فى قسم إلا فيها ، ولماذا هذه الجملة ؟ فالحق أقول : إن هذه الجملة فى هذا المقام لا يدركها الناس بعلم البلاغة ، وإنما يعرفونها بدراسة العلوم ونظم السياسات ، وهذا هو السر فى ذكر الحجر فتعجب !

واعلم أن هذا الذى اخترته فى تفسير « الشفع والوتر » مذكور مع وجوه أخرى للقدماء ، وما مثل ما ذكره علماؤنا إلا كمثل مائدة وضعت بين أيدينا فنأخذ منها ما يلائم حالنا ، أو كمثل أنواع من البذور حفظها لنا الآباء فبذرنا ما وجدناه صالحا لنا فهم أدوا الأمانة ونحن انتفعنا بها وزرعنا .

ثم قال تعالى دليلا على جواب القسم الذى تقدم ذكره (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) أى ألم تعلم يا محمد علما يوازى العيان فى الإيقان كيف فعل ربك بعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، فهاهنا يقال عاد للقبيلة كما يقال لبنى هاشم هاشم ، وهؤلاء هم قوم هود عليه السلام ، وقوله (إرم) أى سبط إرم ، وقد قيل للأولين منهم عاد الأولى ، وإرم أيضا تسمية لهم باسم جدهم ، ولمن بعدهم عاد الآخرة ، فإرم عطف بيان لعاد للايذان بأنهم عاد الأولى القديمة ، وقوله (ذات العماد) أى ذات الرفعة والثبات ، ومنه قول الخنساء :

* كثير الرماد رفيع العماد * فرفعة العماد يراد بها الشرف والسؤدد والمجد فهى كناية فالعماد هنا كناية عن الثبات والشرف سواء أكانوا بدويين أهل عمد لخيامهم ، أو كانوا حضريين ، فالمعنى لايختلف لأن هذه الكلمة معروفة فى اللغة بهذا المعنى ونحوه ، فذات العماد صفة لعاد ، ويقول الكلبى : إرم هو الذى يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة ، وكان يقال عاد إرم وثمود إرم فأهلك عاد وثمود وأبقى أهل السواد وأهل الجزيرة ، وكانت تسكن من عمان إلى حضرموت ، وهى بلاد الرمال والأحقاف وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة فى الربيع ، فإذا هاج العود ويبس رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا أهل جنات وزرع ، ومنازلهم بوادى القرى . وقوله (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة لعاد : أى إن الله لم يخلق مثلهم فى قوتهم وطول قامتهم (وثمود الذين جابوا الصخر) أى قطعوه واتخذوه منازل ، وذلك أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا . وقوله (بالواد) أى واد القرى (وفرعون ذى الأوتاد) لكثرة جنوده

ومضاربهم التى كانوا يضربونها إذا نزلوا . ثم وصف المذكورين من عاد وثمود وفرعون فقال : (الذين طغوا فى البلاد) أى تجاوزوا الحد (فأكثروا فيها الفساد) بالكفر والقتل والظلم (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ماخلط لهم من أنواع العذاب الدائم المؤلم ، فالدوام يشعر به الصب ، والإيلام من لوازم السوط ، والسوط الجلد للصفور الذى يضرب به لكونه مخلوطا طاقات بعضها ببعض (إن ربك لبالمرصاد) أى ممر الناس . فالمرصد والمرصاد الطريق . واذا كان الله فى طريقهم فهم لايفرون منه . ويقال أيضا : المرصاد المكان الذى يترقب فيه الرصد : وهذا على سبيل التمثيل للعباد : يعنى يرى ويسمع كما يكون الراصد . فالله عالم بما يصدر منهم وحافظه فيجازيهم على الخير خيرا وعلى الشر شرا . انتهى المقصد الأول .

المقصد الثانى

قال تعالى (فأما الإنسان إذا مابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن) فضلنى بما أعطانى : أى فأما الإنسان فقائل ربى أكرمنى بالجاه والمال وقت اختباره بالغنى واليسر (وأما إذا مابتلاه) بالفقر (فقدر عليه رزقه) أى فضيق عليه وقتر وقد أعطاه مايكفيه (فيقول ربى أهانن) أى أذلنى بالفقر لقصور نظره وسوء فكره ، فرب تقتير أدى إلى سعادة الدارين : ورب سعة تفضى إلى مشاكل ومهالك فى الدنيا تلهيه عن كمال نفسه وسعادتها ، وهذا المقام لايتسنى معرفته حق العلم إلا بقراءة فروع الحكمة القديمة والحديثة ، فلقد ألف فيه كل جيل من أجيال الحكماء ، ألف فيه (قابس) اليونانى فى رسالة لخصها (سورة البقرة) تسمى (لغز قابس) ملخصها أن السعادة فى الدنيا ليست بسعة الرزق ، ولا كثرة العلم ، ولا رفعة الصيت ، ولا الشرف ، وبرهن على ذلك بأن صاحب المال قد يكون فى ذل بسببه أو بسبب من الخارج وإن كثيرا من العلماء ضعرت نفوسهم ولا صبر عندهم فهم أشقياء فى الدنيا . وإن الصيت والذكر كالعلم وكالمال يكون فيه كما فيهما الخير والشر ، فكل هذه الخيرات من علم ومال وصيت وجمال أشبه بالليل والنهار تمر على الشقى فى هذه الحياة وعلى السعيد فيها ، ثم إنه ربط السعادة فى هذه الحياة الدنيا نفسها بشىء غير هذا وهو أن تصل النفس لمنزلة الصابرين الذين هذبتهم رزايا الدهر فأصبحوا لا يألمون لما يصيبهم ، وذكر علم الشعر والأدب وأمثالها فيما (الأدب المزوّر) لأن أصحابها قد يكونون أشقياء فى الدنيا بشهواتهم وسخافاتهم ، ورأيت كتابا أيضا مترجما من اللغة الفرنسية يسمى (السكوخ الهندى) ينحو نحو هذا النحى هذا هو العلم الذى يموج به بحر الطبقة العالية من النوع الإنسانى ، والله هنا صرح به فى هذه الآيات وجعل أن رضاء الله ليس بإكثار المال ، وغضبه ليس بإقلال المال . (كلا) أى ليس الأمر كذلك فأنا لم أبتله بالغنى ، لكرامته ، ولم أبتله بالفقر لهوانه ، فالإكرام والإهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وقلته ، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويضيق على المؤمن لا لهوانه ، وإنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته ، وقد يوسع على الإنسان بالمال لاختباره أيشكر أم يكفر ، ويضيق عليه ليختبره أيصبر أم يضجر ويقلق .

واعلم أن هذا القول صالح لجميع نوع الإنسان . أما قصة الكفر والإيمان فإنما هى سبيل لوصول العلم إلينا . وقد علمت من كلام حكماء الأمم أن سعادة الإنسان فى الدنيا تبع لأخلاقه لامماله ونحوه ، فمن عاش راضيا صابرا فهو السعيد فى الدنيا لأنه راض . ومتى رضى هو فإن الله راض عنه . وهذا معنى قوله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» والراضى مطمئن فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة من باب أولى . وأما الذى لم يرض ولو كان عالما أو غنيا فإن هناك شهوات ومصائب تنتابهما فتجدهما ناقصين فيذلان فى الدنيا وفى الآخرة كل بحسبه . فالكافر مع كفره . والمؤمن يعذب بالذنوب القلبية التى هى أشد من الذنوب الظاهرة ولكن

لايخلد فى جهنم . ثم قال تعالى : إن هؤلاء فعلهم أسوأ من قولهم . فاذا قالوا إن الله أكرمنا ، وإن الله هاننا — فى مواطن لاتدل على ذلك — دلالة على جهلهم فإن مايفعلونه أسوأ من ذلك . أكرمهم الله بالغنى كما يعتقدون ومع ذلك لا يؤدون مايلزمهم من إكرام اليتيم بالمبرة وذلك لشدة تهالكهم على المال ، ولا يطعمون مسكينا . ولا يحض بعضهم بعضا على إطعامه وهذا قوله تعالى : (بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث) الميراث (أكلا لما) أى ذا لم : وهو الجمع بين الحلال والحرام وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون تراثهم مع تراثهم (وتحبون المال حبا جما) كثيرا شديدا مع حرص وشهوة (كلا) ردع لهم وإنكار لفعلهم . ثم أوعدهم فقال : (إذا دكت الأرض دكا دكا) أى دكا بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال . أو هباء منبثا. (وجاء ربك) هذا تمثيل لظهور جبروته واقتداره ، فإن حضور الملك بنفسه أكثر أثرا من حضور جنده وحده . فإذن المراد ظهور العظمة (والملك صفا صفا) أى ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس (وجىء يومئذ بجهنم) أى برزت لأهلها . وقوله (يومئذ) بدل من «إذا دكت» وهما متعلقان بقوله (يتذكر الإنسان) معاصيه ويتعظ لعلمه بقبحها فيندم (وأنى له الذكرى) أى أنى له منفعة الذكرى : أى إنها لاتنفعه . ثم أبدل من قوله «يتذكر الإنسان» قوله (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) أى لحياتى هذه . أو قدمت فى وقت حياتى فى الدنيا أعمالا صالحة (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد) أى لايتولى عذاب الله ووثاقه بالسلاسل المدنب يوم القيامة سواه . فهو الذى يتولى العقاب ويتولى وثاقه لأن الأمر كله له . وإن رجع الضمير للانسان يصير المعنى هكذا : لايعذب أحد من الزبانية مثل مايعذبونه .

ولما كان اعتقاد الناس بأن إكرام الله الناس بالمال وإهانتهم بالفقر وكانوا ذوى حرص على المال وكانت العاقبة الجزاء والعقاب لهم أردفه بمن ليس كذلك ، وهم الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله لعلمهم بأن الأسباب مهما تطاولت فمرجعها إليه فتستغنى به عن غيره فلا تشكو لسواه . لاسيما إذا عرفت الحقائق واطمأنت إليها فأصبحت آمنة لايستفزها خوف ولا حزن . لما كان كذلك خاطبهم سبحانه تشريفا لهم فقال (ياأيتها النفس المطمئنة) وقد عرفها بالصفات الثلاث المتقدمة (ارجعى إلى ربك) إلى ماوعد ربك من الجزاء والثواب وذلك عند خروجها من الدنيا ، وهذا يدل على أن نفوسنا كانت فى عالم القدس عند ربها فنزلت إلى الأجسام فهاهى أخذت ترجع كرة أخرى. يقول «ارجعى إلى ربك» حال كونك (راضية) بما أوتيت (مرضية) عند الله (فادخلى فى عبادى) فى جملة عبادى الصالحين (وادخلى جنتى) معهم ، أو فى زمرة المقربين ، وذلك لأن النفوس القدسية كالمرايا المتقابلة بعضها مشرق على الآخر ، فيكونون فى حال سعادة وحبور لايعرفها أهل الأرض وكأن النفوس الجميلة تربى فى هذه الدنيا ، وتهذب بالآلام ، وتتزين بالعلوم حتى إذا فارقت الأبدان جعلت فى أماكن متقاربة . وبينهم الصفاء والحب والتودد والحكمة وكأن كل نفس من نفوسهم كتاب حكمة للنفوس الباقية ، لاطلاعهم على مارسم فيها من أشكال الحكمة وأنواع الفضيلة . وهذه كلها صور جميلة تفرح صاحبها وتفرح من يشاكلها وتسرهم وتلذهم ، فتكون النفوس المؤتلفة كل واحدة مسرة للجميع بعكس النفوس الشريرة فإنها تكون شقاء لأخواتها ، لأن النقص قابض والكمال سار . ولا جرم أن مبدأ هذه الصفات فى الدنيا . والناس يشعرون بجمال تلك الصفات وهم فيها حتى إذا فارقوا أبدان ظهر الجمال بكماله . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والشفع والوتر » .
(٢) وفى قوله : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » .
(٣) وفى قوله : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه » إلى آخر السورة .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والشفع والوتر

لما وصلت إلى هذا المقام جاءنى أحد العلماء ، فاطلع على ما كتبته فى معنى « الشفع والوتر » فقال : إن ما ذكرته عظيم وبديع ، بل أقول فوق ذلك إن هذه المعارف التى تقول إنها فى هذه الآيات متى أيقن بها المسلمون فإنهم لا محالة يسبقون الأمم علما وعملا ، وكيف لا يسبقون الأمم وهم شديد والاعتقاد بدينهم ، تركوا العلوم والصناعات والدنيا لما ظنوا أن هذا الترك طاعة يأمر بها الدين . فأما الآن وقد ظهر بهذا التفسير وأمثاله أن القرآن إنما سره هذه العلوم ، فثق بأن الأمة التى صبرت فى سبيل اعتقادها على الذل والفقر وضرب المدافع ظنا منها أن الجهل والكسل عن الصناعات والعلوم مقتضى دينها ، هذه الأمة نفسها متى أيقنت بما تذكره أنت فى هذا التفسير فإنها ستصير نفسها بالغداة والعشى على حوز العلوم والحكمة والصناعات اتباعا لدينها ، وإرضاء لربها ، وتكون أرقى من كل الأمم ، ذلك لأن اعتناق العلوم من حيث إنها دين غير اعتناقها من حيث إنها علوم دنيوية ، فإذا أصبحت العلوم والصناعات من علوم الدين فهذا شىء عظيم يقلب العالم الإسلامى قلبا تاما ، هذا هو الذى أراه ، ولكن لا طاقة لنا أن نصدق أن قوله تعالى : « والشفع والوتر » إشارة إلى علم قديم ، وأن هذا العلم أصل العلوم كلها ، وأنه غير علم الحساب ، وأن علم الحساب وأمثاله فروع لذلك العلم ، اللهم إنك إذا أثبت لى ذلك بكلام القدماء نصا فإنى أقول لك إن هذا التفسير يقلب التعاليم الإسلامية هو وأمثاله قلبا ، ويصير المسلمون غير المسلمين . فقلت له : ورد فى (إخوان الصفاء) ما نصه :

الرسالة الأولى فى العدد وماهيته ، وكميته ، وكيفية خواصه

والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة ، المؤثرين للحكمة ، الناظرين فى حقائق الأشياء ، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها ، وفيها بيان أن صورة العدد فى النفوس مطابقة لصور الموجودات فى الهيولى ، وهى أنموذج من العالم الأعلى ، وبمعرفته يتدرج المرتاض إلى سائر الرياضات والطبيعيات ، وأن علم العدد جزء العلوم ، وعنصر الحكمة ، ومبدأ المعارف ، واسطقس المعانى اهـ .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لى أنت الآن نقلت وصف كتاب (إخوان الصفاء) فى أى زمان كانت هذه العلوم ؟ فقلت : إخوان الصفاء كانوا فى أواخر القرن الثالث ثم جاء بعدهم جماعة قلدوهم . فقال : الآن عرفت أن آباءنا كانوا يعرفون هذه العلوم ، ولكنى لم أستفد من هذا القول إلا أن صورة العدد فى أنفسنا مطابقة لكل شىء فى الخارج ، وأن معرفة العدد ترقى العقول الإنسانية ، وأن هذا العلم مبدأ العلوم كلها

وأصلها ، ولكنى لم أعرف لماذا كان هذا العلم أصل العلوم ، ولم أعرف أين ذكر الشفع والوتر فى هذا المقام ، فأثبت ذلك لى وإلا قال الناس : إن هذه الأشياء يراد تقريبها من الدين بلا حق ، والمسلمون الآن لا يقبلون إلا ما قام عليه الدليل . فقلت : قال فى موضع آخر فى رسالة العدد : إن أهم ما يفعله الإنسان النظر فى جميع الأشياء ، ومعرفة كيفية حدوثها ، ونشوئها عن علة واحدة ، ومبدأ واحد من مبدع واحد مثال ما يفعله الفيثاغوريون ، وذكر أن هذا العلم شبه المدخل والمقدمات لطلب الحكمة كلها .

فقال صاحبى إلى الآن لم تأت بالبرهان على أن هذا العلم يشير له القرآن . قلت : جاء فى تلك الرسالة إن نسبة البارى جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، ونسبة العقل منها كنسبة الاثنين من العدد الخ . فقال : قد قاربت ولكن لم يتضح المقام . فقلت : قال إن البارى جل ثناؤه اخترع من نور ووحدانيته جوهرا بسيطا يقال له العقل الفعال كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار الخ .

ثم قال أيضا : إنك أيها العاقل إذا تأملت ماذكرناه من تركيب العدد من الواحد الذى قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية البارى جل ثناؤه ، وكيفية اختراعه الأشياء وإبداعه لها ذلك أن الواحد قبل الاثنين . وإن كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ كذلك الله عز وجل وإن كان هو الذى اخترع الأشياء من نوروحدانيته ، وأبدعها وأنشأها ، وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها ، فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وإبداعه .

ثم قال : فقد أنبأناك أن نسبة البارى جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد وكما أن الواحد أصل العدد وأوله وآخره ومنشؤه ، كذلك الله عز وجل علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها . وكما أن الواحد لاجزء له من حيث الوحدة ولا مثل له فى العدد ، فكذلك الله جل جلاله لامثل له فى خلقه ولا شبه ، وكما أن الواحد محيط بالعدد كله وبعده . كذلك الله جل جلاله عالم بالأشياء وماهياتها .

قال : أما الآن فإنى عرفت أن هذا العلم منشؤه الواحد ، وأن الواحد ضرب مثلا لله عزوجل ، ولكن لم تذكر مايشفى الغليل عن عدد الاثنين . فقلت : قال بعد أن قسم العدد إلى صحيح وكسر : إن النوعين من العدد يذهبان فى الكثرة إلى غير نهاية غير أن العدد الصحيح يبتدئ من أقل الكمية وهو الاثنان ويذهب فى التزايد بلا نهاية ، وأما الكسور فتبتدئ من أكثر الكمية وهو النصف وتمر فى التجزؤ بلا نهاية فكلاهما من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن حيث الانتهاء غير ذى نهاية .

بهذا عرفت أن الواحد أصل العدد ، وأن الاثنين مبدأ العدد ، وبضم الواحد إلى الاثنين كان أول عدد فرد ، لأن الواحد ليس من الأعداد لأنه أصل ، وهاهنا ابتدأ الشفع والوتر : فالوتر الأول ليس من العدد والوتر الثانى من العدد وهو الثالث . والأعداد كلها لا تخرج عن الشفع والوتر . وهى راجعة إلى الواحد الذى هو منشؤها . فهل كفاك ذلك أن تعلم أن هذا العلم كله عند أصله يرجع للشفع والوتر المذكورين فى هذه السورة ؟ قال نعم عرفت ذلك جليا ، ولكنى لا أزال أجهل أمرين : أجهل ماهية هذا العلم ، هل هو علم الحساب كما نسمع فى مدارسنا إذ يقولون (أرثمتك) التى هى عن الارثماطيقى . وإذا كان هو الحساب فالأمر ليس عظيما : فقلت له : إن لفظ (أرثمتك) التى فى المدارس قد صرفت هذا العلم عن أصله . فإنهم قالوا هو الحساب ولكن هذا خطأ . إن الارثماطيقى هو فن خواص الأعداد ، ومنه تفرعت علوم كثيرة من الرياضيات ، فقال فأفدنى بمسائل منه حتى أعرف ماهية هذا العلم ؟ فقلت : معنى قولهم خواص الأعداد أشبه بقولنا علم التشريح ، فكما أن الإنسان إذا عرف التشريح وجد أن هذا الجسم الإنسانى يستلزم علم النفس ؛ وعلم

البيداجوجيا . وعلم الأخلاق . وعلم المنطق . وعلم الطب . وعلوما كثيرة تجهل لأجل هذا الإنسان الساكن في هذا الجسم . فهكذا هذا العلم يحلل الأعداد ، وبه تعرف خواصها . فقال : اذكر لي عشرة منها فقلت :

(١) خاصية الواحد أنه أصل العدد ومنشؤه ، وهو يعد العدد كله الأزواج والأفراد جميعا ، والأعداد كلها تقسم عليه . وليس للواحد نظير في هذه المعاني كما أن المخ من خواصه القوة الفكرية وليس للرجل هذا الكمال ولا للعين . إن الواحد إذا رفعته من الوجود ارتفع العدد بارتفاعه وإذا رفعت العدد من الوجود لم يرتفع الواحد . فهذا سبب قولهم إن الواحد منشأ العدد .

(٢) ومن خاصية الاثنين أنها أول العدد مطلقا ، لأن العدد كثرة الآحاد وأول الكثرة اثنان .

(٣) إن الثلاثة أول الأفراد ، لأن أول العدد اثنان ، وهو الزوج ويليه الثلاثة وهي فرد وهي تعد ثلث العدد . تارة الأفراد وتارة الأزواج ، وذلك أنها تتخطى العددين وتعد الثالث وذلك الثالث يكون تارة زوجا وتارة فردا .

(٤) إن الأربعة أول عدد مجذور ، ذلك لأنها من ضرب اثنين في نفسه . وكل عدد إذا ضرب في نفسه يصير جذرا . والمجتمع من ذلك مجذور .

(٥) إن الخمسة أول عدد دائر . لأنها إذا ضربت في نفسها رجعت إلى ذاتها مهما كثر الضرب . وهذه صورتها ٥ ـ ٢٥ .. ٦٢٥ ـ ٦٢٥٠ ٣٩٠٦٢٥ ألا ترى أنا ضربنا ٥ في نفسها . وضربنا ٦٢٥ في نفسها فكان الناتج حافظا الآحاد والعشرات دائما . وهي ٢٥ ولو ضربت ٥ في ٢٥ لكان ١٢٥ وهكذا اضرب ماتشاء . فهذا العدد لابد أن ينتهي بعدد (٢٥) وليس هناك عدد على هذه الحال .

(٦) إن الستة أول عدد تام . لأن كل عدد إذا جمعت أجزاؤه وكانت مساوية له فإنه يسمى تاما . وهذا العدد التام قليل جدا . فهو في الآحاد عدد ستة ، وفي العشرات ٢٨ وفي المئات ٤٩٦ وفي الألوف ٨١٢٨ فإذا جمعت النصف والثلث والسدس لعدد ستة . وهي ٣ و ٢ و ١ صار الجميع ٦ فهنا الاجزاء المستكنة في هذا العدد ساوته عند جمعها فسمي تاما ، ولا يمكن أن يكون هذا في عدد قبله أو بعده إلا عدد ٢٨ المتقدم فان أجزاءه مساوية له ! وبقية الاعداد إما زائدة أجزاؤها عليها مثل ١٢ وإما ناقصة عنها مثل ٨ .

(٧) عدد السبعة يقال له أول عدد كامل ، لأنه جمع جميع معاني العدد . فان العدد زوج وفرد لاغير . والزوج منه أول وثان . وكذلك الأفراد . فالاثنان أول الأزواج ، والأربعة زوج ثان والأفراد أولها الثلاثة . وثانيها الخمسة . فإذا جمعت الفرد الأول على الزوج الثاني : أي ٣ و ٤ صارت ٧ وإذا جمعت الزوج الأول وهو ٢ على الفرد الثاني كان منها سبعة . وهذه الخاصة لاتوجد لعدد قبل السبعة .

(٨) أما ثمانية فهو أول عدد مكعب . وذلك أنك عرفت من قبل أن كل عدد إذا ضرب في نفسه سمي جذرا ، والمجتمع من الضرب مجذور فهاهنا نقول : إذا ضرب المجذور في جذره الذي هو اثنان خرج من ذلك ثمانية . فالثمانية أول عدد مكعب . كما أن الأربعة أول عدد مجذور . وهكذا هي أول عدد مجسم . ولا نطيل بشرحه في الهندسة .

(٩) إن التسعة أول فرد مجذور . ذلك لأن الثلاثة هي أول الأفراد . وضربها في نفسها يخرج تسعة وليس من السبعة ، ولا الخمسة ، ولا الثلاثة شيء مجذور : فإذن التسعة أول عدد مجذور .

(١٠) إن العشرة أول مرتبة العشرات كما أن الواحد أول مرتبة الآحاد .

(١١) إن الأحد عشر أول عدد أصم . ذلك لأنه ليس له جزء ينطق به بخلاف الأعداد السابقة فإنها كلها لها أجزاء ينطق بها فيقال : نصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع وعشر ولا يقال فى هذا إلا واحد من أحد عشر واثنان منه وهكذا . وهذا وأمثاله يسمى أصم ومثله ١٣ و ١٧ وهكذا .

فلا تقف عند هذا لك أيها الأخ الذكى فى معرفة هذا العلم ، لأننا إذا تمادينا دخلنا فى الأعداد المتحابة (١) وفى زوج الزوج . وزوج الفرد ونحوها . وفى خواص الأعداد المجذورة والمكعبة ومانقلوه عن إقليدس فى هذا المقام ، وما أطنب فيه متأخرو الفرنجة فى ذلك .

فقال صاحبى لقد أشبعت الكلام هنا وعرفت أن هذا علم ، وأنه كان عند الأمم وأنه مبنى على الزوج والفرد لأن العدد مركب منهما ، وهو لانهاية له لافى الصحيح ولا فى الكسور ، كما أن العوالم لا نهاية لها ولكن كيف كانت العلوم مفرعة من هذا العلم ، وماذا قالوا فى ذلك ؟ قلت : يقولون قد تفرع من (علم الارتماطيقى) المذكور علم الحساب . وهو قواعد يعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية المخصوصة ، وذلك لضبط المعاملات وحفظ الأموال . فهذا العلم فرع (علم الارتماطيقى) المذكور وهو أقسام :

(١) علم حساب الهواء ، وهو علم يعرف به حساب الأموال العظيمة فى الخيال بلا كتابة ، وهو ينفع فى التجارة ، ولأهل السوق ، وللعوام ، وللخواص إذا عجزوا عن إحضار آلات الكتابة .

(٢) علم حساب التخت والميل ، ويقال له التخت والتراب ، وهو العلم المشهور فى مدارس العالم بالرقوم المخصوصة الدالة على الآحاد الخ .

(٣) علم الجبر والمقابلة ، وبه يعرف استخراج المجهولات العددية من معلومات مخصوصة على وجه مخصوص .

(٤) علم حساب الخطأين : وهو علم أسهل من علم الجبر ، ومنافعه أقل منه .

(٥) علم الدرهم والدينار : وهو علم يعرف به مسائل مالا يحل بالمسائل الجبرية .

(٦) علم حساب الفرائض : وهو الذى يقرؤه الناس فى علم الفقه .

(٧) علم حساب العقود : أى عقود الأصابع . وقد وضعوا كلا منها بازاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا أوضاع الأصابع آحادا وعشرات ومئات وألوفا . وبالجملة فكما كانت الأرقام البسيطة التسعة تدل على جميع الأعداد بالتفنن فيها فهكذا أصابعنا العشرة تفعل بها ذلك .

(٨) علم التعابى : وهو علم يتعرف به كيفية ترتيب الجيوش والعساكر فى الحروب ، وكيفية تسوية صفوفها : وهو عند علماء الجيوش كالفرائض عند علماء الفقه كلاهما علم خاص به .

(٩) علم حساب النجوم : وبه تعرف الدرج والدقائق والثوانى والثوالث بالضرب والقسمة ، وهو خاص بالفلكيين .

فبهذا عرفت أيها الذكى علم خواص الأعداد ومايتفرع عنه من الحساب . والجبر والمقابلة ، وبقية العلوم التسعة ، وعرفت كيف كان الواحد فى نفس العاقل قد نشأ منه الزوج والفرد والمتوالية العددية والمتوالية

---

(١) تقدم الكلام على هذا ونحوه فى سورمثل سورة الرحمن .

الهندسية التي شرحها علماء الحساب والهندسة والجمع والطرح والضرب والقسمة وخواص الأزواج وخواص الأفراد ، كل ذلك منشؤه الزوج والفرد اللذان نشأ من الواحد ، ولعلك بهذا أيقنت أن قوله تعالى هنا : «والشفع والوتر» هو هذا العلم الذي شمل الحساب كله .

فقال نعم عرفت ذلك معرفة جيدة ، وأيقنت أنك أجبت إجابة تامة ، وأن العلوم الحسابية مفرعة على هذا العلم المفرع على الزوج والفرد كما في الآية ، ولكن أريد أن أعرف بقية العلوم ، هل هي مشتقة أيضا من الزوج والفرد وأنهما من الواحد على شريطة أن تفهم بطريق يعرفها من لم يدرس العلوم؟ . فقلت : إن الهندسة يبحث فيها عن النقطة والخط والسطح والدائرة والمثلث وجميع الأشكال وأجزائها ، وقد فعلوا فيها ما فعلوا في علم العدد لأنها أيضا معدودة ، ألا ترى أن الخط من النقطة ، والسطح من الخط ، والجسم من السطح؟ فالنقطة كالواحد والخط كالاثنين ، والسطح كالثلاثة ، والجسم كالأربعة . وقد قالوا : إن أصل الأشكال المضلعة المثلث والمثلثان مربع ، وثلاث مثلثات مخمس وهكذا بالغا ما بلغ ، فالعدد ملازم لها ١ - ٢ - ٣ وهكذا ، وفيها الأزواج والأفراد وكل ما في الحساب ، والزوج والفرد منهما جميع الأشكال سواء بسواء كما في الحساب . وأيضا علم الفلك لم يخرج عن العلمين . وعلم الموسيقى ما هو إلا عدد النغمات كالحساب سواء بسواء وهذه العلوم وفروعها قد بلغ عددها العشرات . ثم إن العلوم الطبيعية لا تعرف إلا بالعلوم الرياضية وقد عرفت إجمالها ، وهناك علم ماوراء الطبيعة ، وهو العلم الأعلى ، وهو علم يشمل سائر العلوم . ومبدأ هذا العلم أن يقال : كل موجود إما واحد وإما كثير . فالوحدة ملازمة لكل موجود ، فالعالم كله واحد ، والنوع الإنساني واحد ، ونوع الكواكب واحد . ومع هذه الوحدة تكون كثرة أقلها اثنان . فالانسان وإن كان واحدا فهو كثرة بالأفراد ، وجسم الإنسان وإن كان واحدا من جهة فهو كثير من جهة أجزائه . فالعالم فيه الوحدة والكثرة التي أقلها الاثنان . وهذا بعينه هو الشفع والوتر المذكوران في هذه السورة (اقرأ ما ذكرته هنا في الشفاء لابن سينا ، وفي الاشارات وغيرها) .

بهذا يعرف المسلمون سر (الشفع والوتر) وبهذا فليعرف المسلمون سر القرآن ، فلعمرك لم ينزل الله القرآن لقوم يقرءونه ولا يفكرون فيه . وإذا فكروا لا يتعلمون وإذا تعلموا لا يعملون .

انظر أيها الذكي كيف كانت هذه السورة قد أقسم الله فيها بالفجر والليل إذا ذهب ، أي بمبدأ الحركات في الأعمال . ثم أقسم بكل علم أنزله على قلوب عباده في الشرق والغرب . عند اليونان وعند الرومان وعند العرب وعند أوروبا .

أقسم الله بالعلوم كلها . أقسم بالشفع والوتر اللذين هما أصل الأعداد . والأعداد ساريات في العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة . فهل أقسم الله بهذا في القرآن لنكتفي بحفظه ، أو قراءته في الصلاة ، أو التعبد به ؟ كلا . والله لم يقف القرآن عند هذا الحد . القرآن نزل لأمم تعقل ، ولما قرأه آباؤنا العرب أدرك بعضهم مغزاه وحض على العلوم ، ولكنه انتقل إلى أمم مداركها لم تصل إليه . فاكتفوا بالنجاسة والطهارة والبيوع والفرائض ، وعاشوا بعد ذلك في الجهالة والنوم العميق .

وإني أقول الآن : هانحن أولاء نكتب هذا إلى أمتنا العربية وإلى الأمم الاسلامية وأني أنذر أمتنا الاسلامية إن لم يبحثوا في العلوم ولم يعمموا التعليم ولم يدرسوها فانهم يكونون طعمة الأمم وصرعى الأوروبيين الذين لا يرحمون ، إن الله سبحانه لم يأذن لأمة أن تعيش فوق هذه الأرض إلا الأمم العليمة ، ولقد خزن في القرآن تلك العلوم بالإشارات القدسية لتفتح مفاتيح الفكر ، وهاهو ذا الآن قد جاء أوان استيقاظ الأمم الإسلامية فليجدوا فالله ناصرهم ، وهو خير الناصرين .

تذكرة

ولما كانت مسألة الشفع والوتر بهذه الأهمية وأدخل فى دائرتها جميع العلوم العلوية والسفلية كما رأيت وأن الشفع من الوتر ومنهما جميع الأعداد وقد تفرع عنها تلك العلوم توسعت فى هذا البحث فى كتابى (نظام العالم والأمم) الذى أثبت ملخصه المكتوب بمعرفة الجمعية الآسيوية الفرنسية فى مجلتها، ويحسن أن أثبت هنا ماذكرته الجمعية مختصا بالوتر. قالت:

«وقد أنشأ المؤلف نظرية فى التوحيد (الوحدة العامة) عجيبة بفطنة وذكاء عجيب ومهارة فائقة ودراية تامة منطبقة تمام الانطباق على مبادئ القرآن، وملائمة كل الملاءمة لما شرحه العرب من دائرة الوجود والنظريات الأفرنجية، والدورة الفلكية، وسلسلة الموالید الثلاثة فى الطبيعة، وهى نظرية الترقى من البسيط إلى المركب، ومن الجزء إلى الكل التى بنى عليها المؤلف طريقة الوحدة العامة» إلى آخر ماقالته الجمعية المذكورة وكتبناه فى (سورة النور) فراجعه هناك إن شئت.

وبهذا تعلم أن العالم الأوروبى اليوم قد عرف هذه الحقيقة مما كتبناه. وإذا قرأت التقريظ كله المذكور فى (سورة النور) عجبت كيف كان العالم الغربى يقظا مفكرا، وكيف يقولون إن هذه المباحث التى تهولها أسباب جلية لارتقاء الإسلام، وكيف يؤيدون مسألة الوتر المذكورة فى هذه السورة، ويعرفون أن هذه الآراء كافلة برقى الشرق.

اللهم إنى أحمدك أن أيدت هذا التفسير قبل تأليفه، وأحمدك أن جعلت فلاسفة أوروبا يشهدون بأن دين الإسلام كافل لجميع العلوم كما فى التقريظ المذكور.

اللهم إنى قد أفرغت جهدى. اللهم إن للسلفيين ليس لهم عذر بعد هذا، فلتقم أيها الذكى بنشر ما كتبناه وإذاعته بما تراه، واحذر أن تعطى العلم غير من هو أهل له، واعلم أن الإسلام سيأخذ دوره، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

فكاهتان حسابيتان فى الأرقام البسيطة وما يقرب منها

الفكاهة الأولى

حكى أن يهوديا جاء إلى سيدنا على كرم الله وجهه فقال. إذا عرفتنى العدد الذى يقسم على ٢ و ٣ و ٤ وهكذا إلى عشرة فإنى أسلم، فقال على كرم الله وجهه (كما حكى) اضرب أسبوعك فى شهرك لما تحصل فاضربه فى عدد شهور سنتك، وذلك ٢٥٢٠ وذلك ٧ × ٣٠ × ١٢.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير وقال لى هذا حسن ولكنى أريد أن أعرف كيف يؤتى بهذا العدد من طريق الحساب المتعارف؛ فقلت: هذه المسألة من مسائل المضاعف البسيط، فهاهنا عدد ٢ وعدد ٤ داخلان فى ٨ وعددا ٣ و ٦ داخلان فى ٩ ونزيد عليهما ٥ و ٧ فتكون الأعداد هكذا ٥ × ٧ × ٨ × ٩ = ٢٥٢٠

ويصح أن يؤتى بعدد ١٠ ويحذف ٥ ويؤتى بعدد ٤ بدل ٨ فيكون هكذا ٤ × ٧ × ٩ × ١٠ وهذا يقال له أربع عينات، لأن كل واحد فيه حرف (ع) انتهت الفكاهة الأولى:

الفكاهة الثانية

يحكى أن قروية مصرية من بلدة (برما) من الوجه البحرى (صناعة أهلها اصطناع الفراريج وتفريخها والقيام عليها بدل الدجاج) كانت تحمل سلة فيها بيض، فزاحمها إنسان فسقطت السلة وتكسر البيض. فقيل لها ماعدد البيض حتى ننقدك ثمنه؟ فقالت: أنا لا أعرف عدده، ولكن إذا قسمناه على ٢ أو ٣ أو ٤ أو ٥ أو ٦ فان الباقى يكون واحدا. وإن قسمناه على ٧ لا يكون له باق.

فقال صاحبي: وكيف تحل هذه المسألة العسيرة؟ فقلت تحل بنفس للضاعف البسيط مع زيادة تفكر.

فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: عدد ٢ داخل فى عدد ٤ فيؤخذ عدد ٤ ويضم إليه ٥ وهكذا عدد ثلاثة، ويلغى عدد ٢ المضروب فى ثلاثة للحصول على عدد ٦ فالعوامل هى ٣ و ٤ و ٥ وبضربها فى بعضها يحصل ٦٠ وهذا العدد يقبل القسمة على هذه الأعداد ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ ولكنه لايقبل القسمة على ٧ فلنضربه فى ٢ فلا يقبل، فلنضربه فى ٣ فيكون كذلك وهكذا فى ٤ ولكنا إذا ضربناه فى عدد ٥ كان الحاصل ٣٠٠ وبزيادة واحد يكون ٣٠١ إذن هذا العدد يقبل القسمة على ٧ وبحذف ١ يقبل القسمة على الأعداد من ٢ إلى ٦ وهو المطلوب. انتهت الفكاهة الثانية، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « والشفع والوتر » والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد »

يقال إن الجنس السامى الذى كان منبته بين النهرين أو جزيرة العرب وجدوا قبل الميلاد بأربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة فى بوادى الشام والعراق وسينا ومصر، وسكن المدن بعضهم، والبعض الآخر ظل بدويا حتى استولوا على العراق قبل الميلاد بنحو ٢٥ قرنا، ثم مصر قبل الميلاد ٢٣ قرنا، وهؤلاء هم العمالقة الذين أدخلوا الخيل فى مصر ولكنهم أذلوا أهلها وقد خرجوا من مصر بعد خمسمائة سنة، وقد حكم الذين دخلوا مابين النهرين من سنة ٢٤٦٠ إلى سنة ٢٨١. وهذه تسمى الدولة البابلية الأولى. وآثارهم موجودة إلى الآن. ثم إن هؤلاء العمالقة لما خرجوا من بين النهرين وخرج إخوانهم من مصر تفرقوا فى جزيرة العرب فصاروا قبائل وعشائر وبطونا وأفخاذا. وكونوا دولا فى اليمن والحجاز وغيرهما. ومن هؤلاء العرب البائدة كطسم وجديس وعاد وثمود. ويقال إن القحطانيين تغلبوا على قوم عاد وحلوا محلهم بعد مانزلت بهم الجائحة السماوية إذ كذبوا نبيهم هودا صلى الله عليه وسلم. والقحطانيون قد تقدم ذكرهم فى (سورة سبأ) فهؤلاء هم الذين حلوا محل قوم عاد وقد نزحوا إليهم من جهة بابل.

ثم اعلم أن الكشف فى بلاد العرب لم يتم إلى الآن كما تقدم فى (سورة سبأ) ولقد وجدوا هناك أمما لم تكن معروفة عند أسلافنا كقوم يقال لهم (معين).

ثم اعلم أن العرب ما رأوا أثرا قديما إلا سموه (عاديا). وجاء فى معجم ياقوت فى مادة (جش) قوله جش إرم جبل عند أجا أحد جبلى طيء أملس الأعلى سهل ترعاه الإبل والحمير كثير الكلأ، وفى ذروته مساكن لعاد إرم فيه صور منحوتة فى الصخر. وقال فى مادة (صير) والصير جبل بأجا فى ديار طيء يكون شبه البيوت.

ثمـــود

أما ثمود فقد ذكرت فى البلاد التى غلبها (سرجون) الأشورى سنة ٧١٥ قبل الميلاد فى الحجاز، ويؤخذ من سياق القصة أنها كانت بجوار مكة أى جنوبى الحجر، وقد ذكرت فى تاريخ اليونان نحو تاريخ الميلاد وبعده. وعينوا مكانها فى الحجر كما فى القرآن تماما. وهم يسمونها (ثمودنى) وبجانب الحجر مكان يسمى (فج الناقة).

ومدائن صالح التى هى الحجر قد وجد فيها نقوش على الصخر، وأهم تلك الأطلال مايعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج. وقرءوا عليها تبركات ونقوشا. وهذا نص بعضها:

« هذا القبر الذى بناه كسكم بنت واثلة بنت حرم وكلبية ابنتها لأنفسهن وذريتهن فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه، ثم تبع ذلك هناك لعنات تصب على من يبيع أو يرهن، أو يشترى هذا القبر إلى آخره فلا حاجة لذكرها ».

والمشهور أن ثمودا كان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى إلى مكة. ويقال إن ثمود كانت فى اليمن قديما. فلما ملكت حمير أخرجوها إلى الحجاز اه.

واعلم أن الكشف الحديث كله يخدم القرآن، ثم تعجب من اتساع العلم فى كل شىء، فى العلوم العقلية، والرياضة والطبيعية والأثرية. ألا ترى كيف نقل لنا التاريخ عن الفيلسوف ابن رشد أنه كان يتحادث مع أحد العلماء فخرجت من فيه كلمة جعلتهم يعتقدون فيه الكفر؟ وهو أنه قال وهل عاد وثمود موجودتان حتى يتكلم فى هلاكهما؟.

فانظر كيف جاء الكشف الحديث ورأينا ثمود فى كتب اليونان وهناك مايدل على مكانها وإن كان هذا كله لايزال فى احتياج إلى المزيد. وانظر كيف جاء فى معجم ياقوت أن هناك صورا منحوتة فى الصخر لعاد نعم إن هذه الصور إلى الآن لم يقرأها أحد. ولكن العلم اليوم مسرع خطاه إلى البيان كما قال تعالى: « ثم إن علينا بيانه ». وكما قال: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ».

تذكرة

قد كان المرحوم كمال بك العلامة الأثرى الكبير ألقى محاضرة بدار المعارف المصرية وكنت ممن حضر ذلك الدرس، وكان قد أحضر أمامه نحو ١٣ مجلدا، قال: إن هذه المجلدات هى اللغة الهيروغليفية المشروحة باللغة الفرنسية. وقال: إن هذه اللغة هى أصل اللغة العربية: وشرح ذلك شرحا وافيا. غاية الأمر أن هناك بعض الإبدال والقلب مما يجعل الناس يظنون أنها غير العربية. وذكر لنا الخبز عند قدماء المصريين ٤٢ كلمة مثل (عيش) و (بتاو) و (خبز الملة) وهكذا. وهذا الكتاب قد تم تأليفه. وهو قاموس اللغة المذكورة باللغة العربية.

ثم قال: لقد وجدت مكتوبا فى الدير البحرى بالوجه القبلى أن الأمة المصرية فى الأسرة الثامنة عشرة كثر عددها فهاجر منها طائفتان: طائفة إلى جهة شمال أفريقية كطرابلس وتونس الخ. وطائفة إلى جزيرة العرب، ولعل منهم عادا وثمود وكان هناك المرحوم حفنى ناصف بك وبعض إخوانى. فقال أحد دكاترة المقتطف وهو الدكتور صروف هل تقرون على ذلك أيها الشيوخ فقلنا إن ديننا وراء الدليل. إذا تم الدليل فالدين لايمنع شيئا. وهل جاء فى القرآن أن عادا وثمودا من جهة خاصة. انتهى الكلام فى عاد وثمود. وهى اللطيفة الثانية: والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة : فى قوله تعالى

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه » الخ

لقد اطلعت على ما ذكرته لك فى هذا المقام عند التفسير اللفظى وعرفت كيف كان علم الحكمة قديما وحديثا لا يجعل السعادة لأحد فى الدنيا إلا براحة الضمير ، إن راحة الضمير لا ينفعها مال ولا جمال ولا صيت ولا ملك ، وإنما الذى يرفع المرء أن تطمئن نفسه ولا يمكن أن تطمئن إلى ما يصيبها إلا إذا هذبها الدهر بمصائبه فصقلها .

هذا ملخص كلام كبار الفلاسفة ، ولكن انظر إلى الآية هنا فانه فيها جعل المال ونحوه لا ينفع يوم القيامة . وختم الرسالة بمسئلة الرضا . وخاطب النفس المطمئنة الراضية المرضية . وهذه المطمئنة يدخل فيها ماذكره الفلاسفة إذا كانت مؤمنة ، ويدخل فيها ما استقر بقلبها أن كل ما أصاب فانما هو من عند الله ، فان اطمأنت نفسه لذلك اطمئنانا تاما فهو أهدأ بالا ممن ذكرهم حكماء الأمم ، لأنه لا يحتاج إلى مصائب تهذبه ولا شدائد تنغصه ، بل العقيدة تكفيه . إنما هذه العقيدة تنفع وتضر . تنفع القطن وتضر النبي ، فان القطن يجهد فى كل شىء إلى النهاية ولا يدع مجالا للتهاون فى مطالبه . وأما النبي فانه يترك الأمور سبهللا ظانا أن هذا من الدين . وما علم أنه مغرور جاهل فان هذه العقيدة نفعها أنها تكون سلوة للمحزونين لا أنها باب لكسل العاملين ، ونوم الغافلين ، وتكأة العاجزين ، وفراش الخائبين ، وحجة المفلسين .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن » إلى آخر السورة . وبهذا تم تفسير (سورة الفجر) . وذلك فى شهر محرم سنة ١٣٤٥ هجرية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة البلد

هى مكية

آياتها ٢٠ ـ نزلت بعد سورة قَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ *

هذه السورة فيها (مقصدان : الأول) فى أمرين : الأول فيما يبتلى به الإنسان فى الدنيا من النصب والتعب والكد ، وأنه حكم عليه بذلك ليكون ترقية لروحه ، وتنمية لأخلاقه . وتهذيبا لنفسه . الثانى: فى كيفية خلقه . وأنه إنما ابتلى هذا البلاء لما أنعم عليه بأعضاء الحس ، وأعضاء الحركة . وأعضاء الجمال . وأعضاء النطق . فبالحس يعرف ماحوله ، وبالحركة يفعل مايقتضيه العقل : وبالجمال يسر جليسه فيتعاون . مع أبناء جنسه : وبالكلام يفهمهم ماعنده من المقاصد فهو إذن كثير الشئون ، علم بما فى العالم ، وعمل لإصلاح شأنه وشأن غيره وهيئة يزدان بها . ومشاركة لغيره فى الرأى ، فكما عمل بأمر العقل والحواس بأن سخر أعضاءه هكذا نشر فكرته بلسانه بين عشيرته فهو ملزم بالعمل ملزم بالتفهيم كى تحصل المشاركة والمساعدة ، ولاجرم أن هذه أعمال واسعة النطاق عظيمة المقاصد ، لاتحصر أنواعها ، ولا تعرف نهاياتها فهو لهذا مخلوق ، وإن قصر فهو معذب منبوذ ، فاذا لم يفكر فيما رأته الحواس ، أو لم يعمل ماتطلبه النفس من الأعمال على الوجه المرضى أو إذا لم يكن حسن الأداء فى القول ، أو لم يكن حسن الهيئة مقبول الطلعة عند من هم حوله حاق به الذم والذل هذا كله فى الدنيا .

فأما فى الآخرة فهناك أشأم العذاب ، فإذن هذه الأعضاء ، وهذه الحواس ، وهذه الأعمال لها ثمرات على مقتضاها ، وهذا هو (المقصد الثانى) وهو أنه قد قدر عليه أن يكون فى نصب وأى فائدة يجنيها بعد هذه الحياة من حواسه المنظومة ، وأعضائه المقومة وهيئته المكرمة . فذكر أن فائدة الإنسان أن يقتحم أشق الأعمال كأنما هو فى طريق فى الجبل . فكما يقاسى من يسير فى طريق الجبال مشاق خاصة ليست كمشاق الناس ، فهم فى الأودية يهيمون ، وفى المزارع يسقون ، وفى البيوت نائمون . أما هذا فليكن أعلى مطلبا وأرقى مأربا ، وأصفى مشربا ، وأهنأ عيشا ، وذلك لايكون إلا بالصبر على مشاق الأمور . ومالا يتيسر للجمهور وهو ضبط النفس وحبس هواها . وذلك بأمور ستة: ثلاثة منها عملية ، وثلاثة منها عقلية نفسية. فالثلاثة العملية أن يكون رءوفا بنوع الإنسان كله ، سواء أكان من أهل وطنه ومملكته أو من غيرهم ، وسواء أكان الوطن معه بعيدا أو قريبا . فإذا كان الله عام الجود والإحسان يرسل ضوء الشمس على الناس جميعا والحيوان فهكذا فلتكن الطبقة العليا من الناس يكون إحسانهم عاما لايختص بأمتهم ، فيحسنون إلى من ليس من قبيلتهم ، وإلى من هو قريب ومن هو بعيد من قبيلتهم . فالاحسان لمن ليس من القبيلة أو الوطن فهو عتق الرقبة بابطال الرق والعبودية بقدر الإمكان : والاحسان إلى المسكين الذى لصق بالتراب من فقره وإلى اليتيم الذى هو قريب من المحسن يرجعان إلى من هم من قومك القريب والبعيد ، وإنما قلنا إن الرقيق من غير القبيلة والوطن ، لأن الرقيق عادة إنما يكون من قوم محاربين ، فأصبحت العقبة ومشاقها راجعة إلى خدمة النوع الإنسانى كله بقدر الإمكان مع الحكمة التامة . وأما الثلاثة النفسية العقلية فأن يكون مفعم القلب بالايمان . ويتبع ذلك أن يكون حكيما مدركا أشرف الأمور ، وأن يكون رحيم القلب صابرا على بذل الأموال ، وعلى مصائب الأيام . وعلى إيذاء الناس ، وأن يكون كل واحد من هذه الطائفة موصيا أخاه بهما

فيقول : لاتظلم الناس وأحسن إليهم واصبر على أذاهم ، فهذه هى العقبة . فالمال مبذول ، والقلب مطمئن بالإيمان ، مهذب بالصبر ، مملوء بالرحمة ، واللسان منطلق بالتوصية بذلك ، فهؤلاء هم أصحاب اليمن وضدهم أصحاب الشؤم ، هذا ملخص السورة وتقسيمها . ولنشرع فى التفسير اللفظى للسورة فنقول ومن الله التوفيق :

المقصد الأول

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد) فلا مزيدة كما فى نظائرها ، وتقدم الكلام على تلك الزيادة وقوله البلد : مكة ، وقوله حل : أى يستحلون إيذاءك وقتلك وإخراجك . أقسم الله بالبلد الحرام وبآدم وذريته على أن الإنسان خلق فى المشاق ومكابدتها ، ولاجرم أن من المشاق العظيمة أن مثلك مع عظم مقامه يستحل بهذا البلد فيؤذونك ، أو يهمون بقتلك . أو يستحلون إخراجك مع أن صيد الحيوان لايحل فيه . وقوله (ووالد) عطف على هذا البلد وهو آدم (وما ولد) هى ذريته ، أقسم الله بأشرف الأمكنة وبجميع السكان لجميع الأمكنة من بنى آدم أن الإنسان مغمور فى الشقاء . فهو وإن كان ملزما أن يعيش مع أبناء وطنه ويحفظ حقوقهم تعتريه منهم النوائب ، وتحل به منهم المصائب . فالشر من الخير مولود ، والشقاء من النعيم موجود ؟ فالبلاد تجمع الناس لحياتهم ، ولكنها جمعت إلى نعمة الحياة شقاء الحسد والعداوة والبغض والمكابرة والتنافر والتباغض ، كأن الله يقول : إن بنى آدم مصابون فى أماكنهم ، معذبون فى بيوتهم ، أذلاء فى قصورهم ، وأكبر من أصيب بوطنه وعذب من جهة أهله أنت يامحمد إذ حللت بينهم ونصحتهم فكانوا عليك حربا وأصلوك نار الأذى ، ولم يذكر الله مكة وحدها إلا ليعرفنا مقدار ماأصيب به صاحب الرسالة وإلا فكل امرئ وعالم يقاسى الأمرين من أهل بلده . كلما علت منزلته ازداد أذاه . هذه هى الحكمة فى ذكر البلد مع الوالد والولد . فان بنى آدم يتوالدون فى البلدان ويكون بينهم الخصام والشقاق والشنآن وتكثر العداوات . وهل بعد نبى جاء فأخرج العرب من ذلهم وقد كانوا تحت رحمة الفرس من ناحية والروم من ناحية أخرى لكل منهم نفوذ فى جهة ، فجمعهم وضرب بهم الفرس والروم . فهل بعد إفحامه إفحام ؟ وهل بعد إساءته من إساءة ؟ ولا جرم أن ذلك يدعو قارئ هذا التفسير أن يعلم الناس أننا إنما خلقنا لنعمل للفضيلة ونشر الحكمة . وإن علينا أن نتحمل مايصيبنا فى سبيل ذلك . فليس للمرء أن يعمل إلا لله تعالى . وهو سيرفعه فى الآخرة وينصره فى الدنيا كما تحمل صلى الله عليه وسلم أذى قريش ثم نصر بعد ذلك فى مقابلة أذاهم. وصاه ووصانا ووصى كل مسلم أن يكون صابرا ، وأن يكون رءوفا ، وأن يكون محسنا . فانظر كيف أقسم بالوالد والولد وبالبلد أن الانسان هكذا مخلوق . فاذا كان الأمر كذلك فليس هناك حيلة إلا صرف الجهد فى نفع الناس والصبر على أذاهم ورحمتهم . وهذه هى الأخلاق الإلهية لأن الله ينشر رحمته على البر والفاجر ، والعاصى والطائع . فليكن المسلم كنبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . وليكن مسلمو هذا العصر ومن بعده نورا يضىء . فقلوبهم بالحكمة مشرقة ، وعلومهم جامعة لأشتات علوم هذه الدنيا وهم خلفاء الله فى الأرض بعد أن يصيروا علماء عاملين بما ذكرنا فى هذا التفسير من الحكم القرآنية .

قوله (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) نصب ومشقة ، يقال كبد الرجل كبدا إذا وجعت كبده ومنه للكابدة ، ولا ريب أن الإنسان لايزال فى الشدائد من يوم أن كان فى ظلمة الرحم ، إلى الولادة ، إلى قطع السرة إلى الأمراض أيام الرضاعة ، إلى إيذاء التأديب ، إلى عداوة الناس ، إلى العوارض الجوية والقومية وما أشبه ذلك ، إلى الموت (أيحسب) الإنسان (أن لن يقدر عليه أحد) فينتقم منه ، وهل يظن لشدته فى نفسه أنه لايقدر عليه الله (يقول) هذا الإنسان (أهلكت مالا لبدا) أى كثيرا ، جمع لبدة وهو ماتلبد : أى كثر واجتمع : أى أنفقت كثيرا فى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال (أيحسب أن لم يره أحد) أو لم يعلم أن الله عالم أنه لم ينفق أصلا ، أو أنفق قليلا لامالا لبدا ، أو أنفق للرياء والسمعة ، وهذا القول منطبق على معظم هذا النوع الإنسانى ، يغتر بقوته فلا يفكر فى قوة فوقها . ويرائى ويتباهى بما ليس من فعله . فأهل الأرض غالبا ملوثون بهذه الأخلاق ، يقولون ما لايفعلون ، ويغترون وهم مخلوقون . ولا يظنون أن الله يسألهم يوم القيامة عن قواهم ، وعن نياتهم ، وعن مالهم ، فيقول لأحدهم : من أين اكتسبت المال ، وفيم أنفقت ، وماذا عملت فيما علمت ؟ وهكذا ، وهذا القول عام يشمل أبا الأشد بن كلدة فانه كان يبسط تحت قدمه أديم عكاظى ويجذبه عشرة فينقطع ولا تزال قدماه ، ويشمل الوليد بن المغيرة وغيرهما مما ورد فى الأخبار التى ذكرها المفسرون ، ثم أخذ يشرح خطأ نظرية الإنسان فى اعتقاده أنه لن يقدر عليه أحد ، ويبين أنه مخلوق وأن قدرته من خالقه لا منه ، وأنه أعطى نعما فهو محاسب عليها فقال (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما ولكل عين سبع طبقات وثلاث رطوبات موضوعات بدقة بحيث لو اختلت طبقة عن مكانها ، أو وضعت رطوبة فى غير محلها لم ترسم صور المرئيات على الشبكية التى وضعت فى مكان بحساب دقيق لايدركه إلا من درسوا علوم الضوء وأهل الحكمة والنظر (ولسانا) يعبر به عما فى ضميره ، ويذوق به الطعام فيعرف مايلائم ومالا يلائم ، ويحرك الطعام فى اللسان ليتم طحنه بالطواحن من الأسنان (وشفتين) يستر بهما فاه ، ويستعين بهما على تقطيع الحروف الهجائية تكميلا لعمل اللسان فى إفهام الغير ، وينتفع بهما فى الأكل والشرب ، وهما كمصراعى الباب ، وهكذا ماتحتهما من الأسنان ، فهما بابان يقفلهما الإنسان على هذا اللسان فلا ينطق إلا عند الحاجة إليه ، وليحفظ من العوائل للطفه ، ولتبقى الرطوبات فى الفم فلا تجف بتعرضها للهواء دائما فيفوت الغرض من ترطيب الفم . واعلم أن عجائب جسم الإنسان مذكورة فى سور كثيرة أذكر منها [سورة آل عمران] ففيها عجائب العين والأذن بغاية الإسهاب ، وعجائب أخرى جسمية ، وأقرب سورة فيها ذلك [سورة عبس] ثم قال تعالى : (وهديناه النجدين) طريق الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلالة ، والنجد : المكان المرتفع . ضد تهامة : وهو المنخفض . يقول الله : أنا لم أقتصر على النعم الظاهرة بل أودعت فى نفسه هداية يفرق بها بين الخير والشر فى سائر الأمور (فلا اقتحم العقبة) « فلا » أى فهلا ، والاقتحام الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة ، والعقبة الشدة ، فالأعمال الصالحة عقبة : أى طريق فى الجبل ، وعملها اقتحامها ، لأن فيها مجاهدة النفس ومعاناة للمشقة فلا يكفى أن يقول أهلكت مالا كثيرا رياء وسمعة . كلا : بل لابد من الإنفاق فعلا مع خلوص النية ، وهذه مشقة شديدة وإنكار للنفس وشهواتها وهواها . ثم قال تعالى (وما أدراك ماالعقبة) أى وما أدراك ما اقتحام العقبة إنما اقتحامها (فك رقبة) أفلا يتجاوز تلك العقبة بعتق النسمة (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) أى ذى مجاعة وشدة (يتيما ذا مقربة) ذا قرابة (أو مسكينا ذا متربة) قد لصق بالتراب من فقره ، وعطف على قوله « اقتحم » (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا) أوصى بعضهم بعضا (بالصبر) على طاعة الله وعن معصيته (وتواصوا بالمرحمة) بالرحمة على عباده (أولئك أصحاب الميمنة) اليمن أو اليمين (والذين كفروا بآياتنا) بما نصبناه دليلا على الحق من كتاب أو حجة

أو مصنوعات عجيبة (هم أصحاب المشئمة) الشمال أو الشؤم (عليهم نار مؤصدة) مطبقة، يقال: أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته. ويقال: أوصد الباب وآصده، فعلى الأول قرئ «موصدة» وعلى الثانى قرئ «مؤصدة» بالهمز. انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها. والحمد لله رب العالمين.

فى هذه السورة لطيفتان

الأولى فى قوله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد».

الثانية فى قوله تعالى: «فلا اقتحم العقبة».

اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى

«لقد خلقنا الإنسان فى كبد»

اعلم أن هذه قاعدة عامة، فالله وضع قاعدة عامة لا يسلم منها أحد، وهى أن من على ظهر هذه الأرض معرض لما يؤلمه سواء فى ذلك الفقراء والأغنياء، والمرضى والأصحاء، والجهال والعلماء. والسوقة والملوك، والأمم والأنبياء. فالله سوى بينهم فى القاعدة العامة ولكنه فرق بينهم فى الجزئيات، فهاك مثالا منها واحدا. لنقيس عليه ما عداه، أذكره كما كهة غريبة تشرح الصدور وتسر الجمهور، ذلك أنى قرأت شعرا فى هذا المعنى لبعض علماء الإنجليز فطلب منى تلاميذ المدرسة نظمه بالعربية فأجبتهم، ولأخص المعنى ليكون أسهل فى حصر معناه.

وصف حال الأغنياء والفقراء

فقال: هناك فريقان: فريق عاش تحت سماء بهجة المناظر؛ مشرقة الأنوار، صافية الأديم، لا يخالط صفاءها كدر، حتى إذا ما لمحوا نقطة سوداء فى جو السماء زلزلت أقدامهم وحيل بينهم وبين نفوسهم فأصبحوا على سمائهم ساخطين، ومن السعادة يائسين، وآخرون عبس الدهر لهم وكشر عن نابه فسماؤهم مسودة الأديم مكفهرة الوجه مغبرة الأرجاء فلا ضياء يلمحون. ولا نور ينظرون. فاذا ظهر من البرق سناه والرعد قاصف والنوء مجحف، والسحاب مظلم طاروا فرحا بهذا النعيم، وأضحوا فى هناء مقيم. فالأول مثل الأغنياء المترفين. أزهرت لهم الدنيا وسكنوا القصور. وبنوا الدور. وعاقوا الحور. وعم بغناهم وثروتهم فرحون. فهؤلاء إذا شاكتهم شوكة يألمون. والثانى مثل الفقراء يسكنون الأكواخ، ويتعرضون للحر والقر. ويلبسون الخشن ويأكلون ما يحقره المترفون، يعيشون فى شظف من العيش وضيق، فهؤلاء إذا بسم لهم الدهر ابتسامة بأن أعطوا قليلا من النقود أو غيرها طاروا فرحا كأنهم ملكوا ملك سليمان. فكأن الله ما أعطى الأغنياء مالا أعطى الفقراء فى مقابلة ذلك سرورا بالقليل، وعلمهم الصبر. فأما الأغنياء فهم كل يوم فى حزن لكثرة ما يضطربون لما لم يعتادوا من مشاق الحياة، وهاك نص ترجمة النظم المذكور.

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء

من شعر ترنش الشاعر الإنجليزى

قوم صفت الدنيا لهم وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر لم تحجبهم عنها حجب

فاذا ما اغبر بأفقهم مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم ليل فيه السود الثوب
فاذا لمحوا من بارقة فرحوا جذلا وبهم طرب
هذا مثل فيه عظة لذوى التوفيق إذا ضربوا
فانظر زمرا سكنوا مصرا وبنوا قصرا ولهم ذهب
ولهم نعم فيها نعم فاذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا إن شاكهم وبر صخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا مما من عليهم حرب (١)
وكأن المال جهنمهم وثراء المال لهم عطب
وترى رهطا سكنوا الأكوا خ فذا شعر هذا قصب
وحياتهم فى مخمصة ومعيشتهم أبدا وصب
حمدوا الرحمن على نعم وبه فرحوا وله انتسبوا
فكأنهم لما سلبوا ما أعطاهم منه كسبوا
فالحب كساهم من حلل وبكأس سعادته شربوا

اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى

« فلا اقتحم العقبة »

اعلم أن الناس فى سلوكهم الجبال ، واقتحامهم طرقها يمثلون أحوال الناس فى أعمالهم ، فهم درجات فى ذلك الاقتحام . وهكذا الناس فهم فى فعل المكارم والايمان درجات . تكون تلك الدرجات ظاهرة لهم يوم القيامة . فقد ورد أنهم على الصراط المضروب فوق متن جهنم الذى يقدر بمسيرة ثلاثة آلاف سنة . وحوله كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان . فهم على هذا الصراط منهم الناجى نجاة تامة ، ومنهم المخدوش ، ومنهم المكدوش فى النار . فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح العاصف ، ومنهم من يمر كالفارس ، ومنهم من يمر كالراجل يعدو . ومنهم من يمر كالرجل يسير . ومنهم من يزحف زحفا ، ومنهم الزالون ، ومنهم من يكردس فى النار :

فهذه الدرجات الثمانية فى السير على الصراط تشمل آلاف الدرجات . ومبادئها ما نحن عليه الآن فى هذه الحياة من علم وعمل . ونحن الآن نجاهد فى اقتحام العقبة . وكل منا له مقام معلوم . وكل امرئ يعرف من نفسه ما تكن من حب العلم أو بغضه ، وحب الناس أو بغضهم ، وهل هو مجد لمصالحهم ، وهل هو قائم بشكر مواهبه كلها ؟ . قال بعض أدباء أهل العصر تحت العنوان التالى ما نصه :

---

(١) سلب المال .

بين الحياة والنية

ما رأينا فيما رأينا أشق من هذا الذى كانت حياته مناقضة لضميره . قال (تولستوى) فى هذا المعنى : « إنه بالرغم مما نبرر به حياتنا للانسانية فإن تلقيقاتنا تذهب سدى أمام الحقيقة الراهنة ، يموت الفقراء كذا ونحن نسرف فى الغذاء والثياب ، وإكراه الآخرين على مالا فائدة منه ، تتلهى به من الشقاء للعنوى الذى يقلق ضميرنا مهما يكن صوت ذلك الضمير ضعيفا ـ هذا ما يجعل الحياة التى يقدمها إلينا إخواننا وهم يتألمون حياة مسمومة » .

ثم قال : ليس الغنى هو الذى تناقض حياته العملية ضميره وحده ، بل هم جماعة القادرين فى كل نوع ولمن يسمعون أصوات ضمائرهم تطالبهم بالوفاء من م دونهم بحقوقهم الانسانية والوطنية ولا يجيبون نداءها يسمع العالم مثلا صوت ضميره يقول له : انشر ما حصلت من علم بين إخوانك ، فلا يفعل إلا مأجورا ، ولا يعطى إلا عن بخل ، فيأتى عمله مناقضا لضميره ، وكذلك يسمع الطبيب ذلك الصوت يطالبه بخدمة المرضى من إخوانه فلا يؤدى ذلك إلا بأجر لا يبالى بشقاء الفقراء ، فينقض بعمله وحى ضميره .

ومن البلية أن هذا الداء يتخطى للعلمين والأطباء والأغنياء إلى من يقولون إنهم ساسة الشعوب وزعماء وقادة الرأى العام ، يسمع ذلك للترأس صوت ضميره يقول له اجعل حياتك فداء لحياة مواطنيك ، فيضحى بحياة هؤلاء فى سبيل شهرة ينالها ، أو كلمة إطراء لثم تطرب لها آذانه ، فيأتى عمله منافيا لصوت ضميره كل المنافاة ، وهذا هو الشقاء لو تعلمون .

قد يدهش البعض لقولنا إن الغنى والسياسى والعالم والطبيب أشقياء وهو يرانم ينعمون بجميع مظاهر الهناء ، ممتعين برغباتهم الشخصية ، تبدو على وجوههم سمات الارتياح النفسى ، نعم هذه حالهم ولكن فى نظر الإنسان العادى . أما الذى يحدق فيهم فإنه على الفور يرى أنهم يخفون تحتها نفوسا وعناء مضطربة متألمة .

قال شوبنهور : إن أعداء الإنسانية اثنان : الملل والألم ، لا يقل أحدهما عن الآخر إيلاما للنفوس الحية ، يظهر ذلك مما ينقلب عليه السراة من أشواك الملل ، يذهب بهم تارة إلى هنا وطورا إلى هناك ، لا يلتزمون ضربا من الملاذ حتى يسأموه ، فينتقلون منه إلى سواه . لا يجرعون من كأسه جرعات حتى تعافه أذواقهم إلا من يعرف هذه الحال يدرك أن ليس الشقاء فى الألم فحسب بل هو فى الملل أيضا وما هو فى عرفنا إلا وخزات الضمير .

يقولون : إنه لا يهم طالب المال سوى الحصول عليه ، ولا يهم المتصدر للسياسة إلا بلوغ الرئاسة أو الزعامة من قومه ، ولا يبالى العلم والطبيب إلا بتحصيل أجرهما وما ذلك الملل الذى يبدو عليهم أحيانا إلا محاولة قتل الضمير ، ومتى ماتوا استراحوا من الألم ، ولو صح القول بموت الضمير يكون لموته معنى سوى موت الشعور ، وكيف . يسعد من لا شعور له ؟ ما قيمة المال عند من لا يشعر بفوائده . وما قيمة الرئاسة عند من مات ضميره ؟ ؟ إذا كان الشقاء فى عرف النفوس الحية هو مناقضة الأعمال للضمير فان السعادة لا تكون بحق إلا فى المطابقة بينهما . فاذا عمد الإنسان إلى قتل ضميره ماتت أعماله لصدورها عن نفس لا تحركها عوامل الحياة ، وعليه يكون من العدل أن نقول الميت هو من مات ضميره ، وبما أننا نتكلم عن الأحياء فلا دخل لهؤلاء للوتى من أغنياء وساسيين فى حديثنا هذا . انتهى تفسير (سورة البلد) والحمد لله رب العلمين

تفسير سورة الشمس

مكية

آياتها ١٥ - نزلت بعد سورة القدر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا *

هذه السورة فيها (مقصدان : الأول) الإقسام بالمخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه وأصلحها بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز . وأن من أغوى نفسه ونقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق فى هذه المادة الدنية فقد خاب . وذلك من أول السورة إلى قوله : «وقد خاب من دساها» :

(المقصد الثانى) ذكر مثال لمن دساها وهى ثمود فأهلكهم الله . وذلك من قوله تعالى : «كذبت ثمود بطغواها» إلى آخر السورة .

المقصد الأول

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والشمس وضحاها) الضحوة ارتفاع النهار . والضحى فوق ذلك . والضحاء بالمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف (والقمر إذا تلاها) تبعها فى الضياء والنور : أى لأن نوره من نورها ، فهو تابع لها فى النور . إن قرب منها قل النور ، وإن بعد عنها اتسع عند المقابلة فى أنصاف الشهور (والنهار إذا جلاها) أى جلى الشمس وأظهرها للرائين . وذلك عند انبساط النهار فانها تتجلى فى ذلك الوقت تجليا تاما ، أو جلى الأرض لأنها معلومة وإن لم يجر لها ذكر (والليل إذا يغشاها) أى يستر الشمس فتظلم الآفاق . فالشمس بها يكون الضحى والنهار كله ، وبها نور القمر والأرض حينما تجعل بدورانها الناس والحيوان فى الجهة المقابلة

للشمس يكون الإظلام . فالأرض تخفى الشمس وتحجبها . وهذا فيه مجاز عقلى ، لأن الذى يخفى إنما هى الأرض فأسند ذلك لليل الذى هو من آثار ذلك . ففى هذا بيانان ، بيان أن ضوء القمر من الشمس وأن الليل لم يحدث من الشمس لأنها دائما مشرقة وإنما حدث من دوران الأرض ، فانظر كيف جعل القمر تاليا والأرض سائرة حتى حدث الليل (والسماء وما بناها) أى ومن بناها ، وأى بان هو ؟ إنه لايضاهيه بناء فيما يعلم الناس ، فأى بناء (بتشديد النون) يستطيع أن يبنى قبه زرقاء .

(١) مرصعة بمصابيح .

(٢) تلك للمصابيح تجرى .

(٣) وهى لاتتصادم إلا فى أوقات نادرة .

(٤) وإذا تصادمت أصلحت وهى فى نفس السقف وعادت جديدة .

(٥) ثم كيف يتسنى له جمع أجسام عظيمة فى بنائه مابين نارية . وأخرى صلبة . وأخرى لطيفة أطفا أرق من الهواء ومن الضياء وهو الأثير .

(٦) وكيف يراها الإنسان والحيوان سقفا ساكنا هادئا لاحركة فيه . فالشمس ساكنة والقمر ساكن والنجوم ساكنة لاحركة فيها ، ويرى هذه العوالم كلها فى الليالى المظلمة كأنها تتغنى وكأنها عروس حليت فى حبر ، والكون كله سكون فى سكون ، مع أنه لاشىء مما يراه ساكن ، فالهواء متحرك والأثير متحرك ، والكواكب كلها متحركات ، والشمس والقمر والنجوم والسيارات كلها فى حركات لواطلع عليها لحار صعقا ولدهش منها. هذا فضلا عما فى تلك العوالم من المزعجات والمهلكات التى تكون فيها على الدوام .

فياليت شعرى أى بان يقدر على ذلك ، فيرى السكان أن للتحركات سواكن : وأن المخاوف أمان ، وأن هذا كله إنما هو ليكون سقفا له يحميه ، ونعما عليه ترضيه . وكأنها ليست مقصودة إلا له . ولا هى مبنية إلا لأجله . فاعجب أيها القارىء لهذا التفسير. لمتحرك ساكن ، وعظيم صغير ، وقريب بعيد . إن العجب ليأخذنا كل مأخذ ويدهشنا أن نكون فى عالم بديع الاتقان ، عجيب البنيان . حسن الهندام . والحق أحق أن هذه الدنيا بديعة الحسن ، ظريفة الصنع ، بهجة المنظر سارة للفكرين ، كما أنها سجن الغافلين . كيف تجعل الكواكب التى عدت بمئات الملايين كأنها درر مرصعة فى سقفنا . أليس من العجب أن تكون تلك الكواكب لمآرب فى تلك السباسب : ولبديع الصنع وحسن الإتقان وجمال الوضع تتراءى لنا أنها إنما صنعت لأجلنا ولزين بها سقفنا . وكيف دبرت هذه الحكمة، وكيف لوحظ فى وضع هذه الكواكب جميعها أن تكون ذات منافع بعيدة المدى ، فالشمس من تلك الشموس تشرق على سياراتها وعلى أراضيها . ثم هى من جهة تجعل زينة فى سماء كل شمس وكل أرض وكل سيار ، ويكون قدرها فى تلك الزينة مختلفا باختلاف الآفاق التى تتراءى لها ، وكما أن الكواكب مرصعة فى سمائنا فان شمسنا مرصعة فى ملايين الآفاق المحيطة بالكرات : « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

بهذا وبأمثاله فليفهم اللطف والحكمة ومعنى قوله «ومابناها» وقوله (والأرض وما طحاها) أى بسطها وسطحها (ونفس وماسواها) النفس هى النفس الإنسانية وماسواها : أى والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها (فألهمها فجورها وتقواها) أى عرفها حال الفجور والتقوى ، ومكنها من الإتيان بهما (قد أفلح من زكاها) أى أنماها بالعلم والعمل ، وهذا جواب القسم حذف منه اللام لطول الكلام (وقد خاب من دساها) نقصها وأخفاها . وأصل دسى دسس ، انتهى المقصد الأول .

المقصد الثانى

قال تعالى (كذبت ثمود بطغواها) بسبب طغيانها فإن النفوس الإنسانية إذا أهملت ترعى فى مرعاها فان المعاصى تتراكم عليها فتغطيها وتدسيها وتخفيها فلا ترى طريق الحق والصواب فتكذب به ، فشأن المعاصى والطغيان أن تحجب النفس عن الحقائق ، فثمود كانت على هذا النمط طغت فأخفت نفوسها فكذبت (إذ) حين (انبعث) أى قام يعقر الناقة (أشقاها) أى أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، وكان أشقر أزرق قصيرا (فقال لهم رسول الله) صالح عليه السلام (ناقة الله) أى احذروا عقرها (وسقياها) فلا تذودوها عنها (فكذبوه) فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا (فعقروها فدمدم عليهم ربهم) أى فأطبق عليهم العذاب وأهلكهم هلاك استئصال (بذنبهم) أى بسبب ذنبهم : وهو تكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة (فسواها) أى فسوى الدمدمة عليهم ولم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم (ولا يخاف عقباها) أى ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة ، فهو يفعل ذلك غير خائف من أحد ، لأنه إنما يفعل فى ملكه وهو عدل ، انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى عموم هذه السورة

(١) انظر ماذا ترى : ألست ترى أنه أقسم بالعالم كله بالسموات والأرض والقمر والشمس وعجائبها فكل ذلك جمله قسما ، على ماذا أقسم ؟ على أن النفوس تفلح وتخيب بالزكية والتدسية ، والمقصود أن هذه العوالم كلها لم تخلق عبثا : شمس تضىء ، وقمر ينير ، وكواكب تشرق ، وأرض تبسط . فما المقصود من هذه كلها ؟ مقصودها ترقية النفوس الإنسانية . فليس للناس من هذا الوجود إلا نفوسهم ، فإن أصلحوها فبها ، وإلا فنفوسهم ستصبح فى غطاء عن الكمال .

(٢) ثم انظر نظرة أخرى من حيث نظم الكلام والعلوم التى تجلى الله بها على الناس ، انظر فيما يأتى فى (سورة العصر) الموازنة بين أقسام القرآن وأقسام العرب ، وكيف يميز الذكى بينهما حق يذوق بلاغة القرآن ، ويوازن بينها وبين كلام العرب حتى يوقن بأنه معجز بعقله لا بالتقليد .

(٣) ثم انظر هنا فى نظم هذه السورة من الحكم العلمية التى لا تخطر ببال البليغ ، لأن البلاغة لا تتعدى حد الألفاظ . ولا تتخطى إلى الحكمة والفلسفة . فانظر بدائع القرآن وكيف تجلى فى هذا الزمان وظهر ووضح معنى قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وقوله : « ثم إن علينا بيانه » فها أنا ذا ألقى عليك حكمة بالغة ، وآية باهرة ، ودرة ناضرة وبديعة نادرة . ذلك أن قوله تعالى : «والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها» : هذه الثلاثة شئون سماوية ، وقوله : «والليل إذا يغشاها» : قد قدمنا أن هذا من فعل الأرض لأنها بدورانها وحجبها ضوء الشمس عن أحد نصفيها يكون الليل فينام الناس والحيوان ، فانظر كيف أعاد الكرة على هذين القسمين فقال : « والسماء وما بناها » راجع للقسم الأول . وهى الثلاثة الأول ، وقال : « والأرض وما طحاها » راجع للقسم الثانى ، فكأنه يقول : ما أجمل بناء السماء باشراق الشمس وضحاها ، وبكون القمر يتلوها وما أبدع الأرض حين تتشى وجه الشمس فيكون الليل فيستريح الحيوان والإنسان وكل ما على الأرض وهذه النكتة لم تظهر إلا بظهور العلوم التى ملأت الأقطار .

(٤) ثم انظر نظرة أتم وأعم وفكر فى أمر هذه الأمة الإسلامية . أفلا يفكرون فى هذا القرآن وكيف يذكر الله الشمس والقمر والضحى والليل ، وكيف يقسم بها . ولم هذه العناية كلها .

يامعشر الأمة الإسلامية : أليس هذا كلام ربكم ، أتظنون أنه يطلق الكلام إطلاقا ، أظنكم تفرحون بما سيذكر فى (سورة العصر) بعلو هذه الأقسام على كلام العرب ، أو تسرون بأن القرآن قد أشار إلى دوران الأرض كما ذكرناه ، إن هذه مقدمات وليست مقصودات .

أيها المسلمون : إن الله لم يذكر ذلك إلا لترفعوا رءوسكم لدراسة هذه الأكوان ، هل ترك الله شيئا فى هذه السورة من الدنيا . كلا . لم يذر علما إلا أدخله فى هذه الأقسام ، هل أنزل ذلك لمجرد التلاوات . كلا . والله ثم كلا . والله إن الله ما أنزله إلا لعلمه أن العالم الانسانى سيأخذ حظه فى العلم ، ولأمم ستأخذ نصيبها من الرقى لحرك الهمم بهذه الأقسام . فقام المسلمون فى القرون الأولى بنصيب من العلم ثم خمدوا وقامت أوربا تسوم المسلمين الخسف وتذيقهم العذاب الشديد ، إذ تركوا أرض الله وسماواته فلم يفكروا فيهما واكتفوا بما ترضى به الأنعام من المآكل والمشارب ونظام الحياة القضائية بعلم الفقه ، أفليس من العار الفاحش والذلة والمهانة أن آباءنا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه (باب الطهارة) ليكون الإنسان طاهرا من الأقذار ، ويوضحون الأمور ، ويسهلون السبل ، وما ذلك إلا لما ذكره الله من إيجاب الوضوء والاستحمام والتيمم فى آيات قليلة جدا يفعلون ذلك ويكررونه فى كتب لاتحصى فى المذاهب الكثيرة الإسلامية كالحنفية والشافعية والزيدية والحنبلية والشيعة والاباضية وغيرهم بحيث لو جمع ما كتب فى الطهارة التى هى إحدى شروط الصلاة لملأ مكتبة كبيرة بتمامها .

أقول : أليس من العار أن يقوم آباؤنا بهذا ولهم الفضل وينام علماء العصر الحاضر فلا يقومون بمثل ماقام به آباؤنا والأئمة الأعلام فيؤلفون كتبا بديعة جميلة مختصرة ومطولة فى عجائب النجوم والقمر والشمس والأرض والنبات والحيوان .

هل ظنوا أن هذه نزلت فى القرآن لمجرد التلاوة ؟ أو لايعلمون أن عناية الله بهذه العجائب أشد ألف مرة من عنايته بالطهارة والبيوع ، كيف يقطع المسلمون سلسلة العلوم ؟ جد الأئمة رضوان الله عليهم فى علم المعاملات ، فلماذا لايؤلف العلماء فى العصر الحاضر كتبا كثيرة فى عجائب هذه العوالم . إنى أكتب هذا وأرى أن النهضة آتية لاشك فيها ، وأرى نفسا ضئيلة تهز رأسها استهزاء وكبرا ، فليعلم المتكبرون والغافلون أن هذا القول سيتم ، وأن هذه البشرى ستسرى فى الأمم الإسلامية ، وستعرف هذه العلوم ، وسيقوم بنصر هذه الأمة المفكرون :

لطيفة فى قوله تعالى

« ونفس وماسواها » (١)

لقد تقدم فى [سورة الذاريات] فى المجلد الثالث والعشرين عند آية : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون . وفى السماء رزقكم وماتوعدون » موضوع يرجع إلى أمر النفس ، وأن الأمم التى قبلنا والمعاصرة لنا كلها جعلت هذه النفس مدار أبحاثها ، بينما نرى علماء اليونان وبعدهم أسلافنا رحمهم

(١) يقول المؤلف . هذه اللطيفة لم يكن لها وجود عند التأليف : ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع اه :

الله يدرسون عوارض المادة من معرفة أعدادها ، ومقاييس أشكالها ومساحاتها ، وتعداد حركات أصواتها ، وحركات أفلاكها ، وذلك فى علم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ويقولون هذه علوم رياضية ، ثم ثم يدرسون المادة والصورة والزمان والمكان ويقولون هى فى علم سماع الكيان ، ويدرسون إجمال العالم العلوى والسفلى فى علم (السماء والعالم) وهكذا علم وراء علم حتى يتمون العلوم الطبيعية التى جعلوها ثمانية آخرها علم الإنسان بعد النبات والحيوان ، وقد درسوا المنطق بين العلوم الرياضية والطبيعية ، ثم هم أخذوا يدرسون العلم الأعلى : أى الذى لا يختص برياضى ولا طبيعى كالوحدة والكثرة وتقسيم العلوم والمقولات ومعرفة الله وتفرده إلى آخره ، ثم هم يدرسون علوم تهذيب الأخلاق ومعاشرة الأسرة فى تدبير المنزل ، ثم تدبير المدينة فهذه عدوها ٢٠ علما ، ولها فروع كثيرة بلغت مئات ، كل هذا تقدم ، وقد قلنا هناك إن أهل أوروبا . حوروا هذا الترتيب ، والذى حوله (بيكون) الانجليزى ، فجعل التقسيم يحوم حول القوى التى فى الدماغ من المخيلة والمفكرة والذاكرة ، وهذه الثلاث لها مناطق فى المقدم والوسط والآخر فى الدماغ ، وهذه المناطق كشفت حديثا بطريقة أوسع ، وقد تقدم هذا واضحا فارجع إليه أيها الذكى إذا لم يكفك ما بيناه هنا .

و (بيكون) المذكور قد جعل العلوم الثلاث عشرة تواريخ كما شرحناه هناك ولم يسمها فلسفة ، وخص اسم الفلسفة بمعرفة الله ونظام الطبيعة ونفس الانسان ، ونظام الطبيعة فى هذا المقام يرجع إلى العلم الأعلى عند المتقدمين . فأما علم المنطق فقد جعله تابعا لعلم النفس ، فانها به تفكر فى استخراج تهذيبها وتدبير المنزل . وتدبير السياسة العامة .

ثم ذكرت هناك آراء إخوان الصفاء فى القوى التى فى الدماغ ، وآراء أفلاطون فى جمهوريته ، وكيف جعل النفس الإنسانية مقيسة على نظام الأمة . ثم كيف جاء العلم الحديث فى التربية ، وقد وازناه هناك بالقديم فيها أيضا ، فدهشنا هناك من كون الأمم كلها تسعى سعيا حثيثا إلى المعالى ، فبينما نجد القدماء عرفوا مناطق ثلاثة فى الخ ، وقد زادوا مناطق أخرى كثيرة جدا وشرحوها ورسموها (هى مرسومة هناك أيضا) . نجدهم نظروا إلى الغرائز فى الانسان فهذبوها وأخذوا يداوون النقيصة بما يضادها ، فان كان ممسكا أمروه بالبذل ، أو مسرفا أمروه بالاعتدال . أو كثير الكلام أمروه بالسكوت ، وهم فى ذلك يشاكلون الأطباء ، إذ يجعلون الحار دواء للبرودة والعكس بالعكس ، وزاد المتأخرون وشرحوا وبينوا ، ونفعوا الانسانية نفعا عظيما ، فأخذوا يفعلون ما فعله المتقدمون ، وما يفعله البستانى إذ يقطع الحشائش الضارة ويشذب الأطراف التى تعطل الشجر ، فهؤلاء كذلك يصرفون وجهة الغرائز من الضار إلى النافع فيوجهون وجهة القتال والضال إلى الحماسة فى حماية الضعفاء ، واقتناء المعالى ، وأشرف الأمور ، وسعادة العموم ثم طبقنا هذا كله على نفس هذه السورة ، فان ترتيبها على وزان ترتيب أمم الصين واليونان والعرب وأوربا فى وضع العلوم فالرياضيات فى الآيات الخمس الأولى ، والطبيعيات فى السادسة ، والنفس فى السابعة . وعلم السياسة وتدبير المنزل وتهذيب النفس فيما بعدها بذكر الفجور والتقوى ، ونقول هنا : ثم ختم السورة بقصة ثمود تطبيقا على علم النفس . لأضف إلى ماذكرت فى (سورة الذاريات) من علم النفس موضوعا له شأن كبير فى رقى الأمم وها هوذا :

الشوق

الشوق ميل النفس وحنينها إلى الاهتمام ببعض أمور دون أخرى والعناية بها . لأنها تقضى حاجة من حاجاتها الدائمة أو الوقتية . اجتماعية كانت أو نفسية . ولأن المرء يحس فيها بشيء من السرور أو الألم يدفعه إلى هذا الاهتمام وتلك العناية . فالرضيع وهو يحدق بنظره إلى الضوء ، أو يدير وجهه نحو مصدر الصوت والطفل وهو منكب على لعبة من ألاعيبه يحلها ويركبها ، أو وهو غارق فى اللعب مع أنداده وأقرانه . أو وهو مصغ تمام الاصغاء إلى قصة خلابة تروبها له ، أو انشغاله بقطعة من الخشب يصوغها وينجرها بما لديه من الآلات . والشاب وهو مهتم بالرسم والنقش أو الرياضة أو الموسيقى . أو تكلم لغة أجنبية ، أو حل مشكلة تمسه من ناحية ما أو بالتحمس لمذهب أو عقيدة ملكت عليه نفسه كل هؤلاء يفعلون ذلك مدفوعين إليه (بميل خاص) يشعرون فيه بالسرور والارتياح ، ولقد تمر الساعة بعد الساعة والفتى منهمك فى لعبه أو ممسك كتابه الحبيب إليه متماديا فى القراءة أو اللعب على الرغم مما قد يلحقه من التعب . وعلى الرغم مما لديه من الأعمال الأخرى الكثيرة . (ومن جهة ثانية) تأمل التلميذ وهو يستظهر جدول الضرب . أو قطعة من المحفوظات لم يفهمها ، أو جداول من الرءوس والخلجان ، أو عندما يحاول حل بعض مسائل غريبة عنه كل الغرابة كلف بها وهو لايدرى لها معنى . أو كتابة موضوع إنشائى بينه وبين معيشته التى يألفها بون كبير ، فهو فى كل هذا يشعر بانقباض وكراهية . وأقل شيء يشغله عن الانتباه إلى مافى يده . بل تأمل تلاميذ بعض المدارس عند دخولهم إياها فى الصباح وعند خروجهم منها آخر اليوم للدرس تراهم يدخلونها عادة واجمين منقبضين . ويغادرونها مهطعين فرحين إلى حيث يوجد مايشوقهم ويتفق وميولهم الخاصة فكل عمل يسد حاجة فى النفس أو الجسم ويقضى رغبة من رغباتها الفطرية أو المكتسبة يهتم به المرء ويندفع إلى القيام به من تلقاء نفسه واجدا فى ذلك نوعا من المسرة . وكل عمل لايحدث ذلك لايشوق المرء ولا يجذبه إلى الاهتمام به . على أن الشوق ليس مقصورا على السرور وحده . فان الألم أيضا كثيرا مايكون مدعاة إلى الاهتمام ودافعا إليه . فالطفل يهتم بالعصا التى فى يد المدرس . أو بورقة العقاب التى أمامه . أو بنتائج غضب والده عليه . أو بالألم الناشيء من جرح فى يده ، وانك لتهتم كل الاهتمام بقراءة قصة محزنة تثير آلامك وتبكيك ، أو بسماع أخبار حرب ضروس بما فيها من فتك وقتل ، أو برؤية رواية محزنة تمثل فى معرض الصور المتحركة . كما أنك لاتستطيع إلا أن تهتم كل الاهتمام بألم موجع تحسه فى جزء من أجزاء جسمك . فعند تعلم شيء شائق والاشتغال به نجد سهولة وارتياحا إلى الاهتمام به ، فيستغرق العقل فيه ويعمل بقوة ونشاط ، ولا نشعر بالجهد الذى نبذله فى مثل ذلك العمل . ولا يسارع إلينا التعب أو الملل من طول القيام به . كل ذلك لأن هذا العمل الشائق تعبير عن حاجة نفسية صحيحة سواء أكان المرء شاعرا بها أم غير شاعر . وهنا يجب أن نلاحظ أنه لايوجد شيء شائق أو جذاب يثير بقوته الذاتية الاهتمام فى كل مرة يعرض لنا . وانما الشيء يكون شائقا إذا اتصل بميل غريزى أو كسبى . أومس حاجة من حاجات الانسان وميوله . فالشيء يكتسب مابه من جاذبية وروعة من جراء اتصاله بجزء من أنفسنا وتعلقه بناحية من حياتنا الشخصية . أما هو فى نفسه فليس بشائق ولا بجذاب . ولذا فان الشيء الذى يشوقك اليوم قد لايشوقك غدا ومايثير اهتمامك الآن لايثير اهتمام غيرك . وما يشوق الطفل فى سنته الثامنة لايشوقه فى سنته الثانية عشرة . فالشوق أو الاهتمام يدل على علاقة خاصة بين نفس الانسان وبين المؤثر الخارجى . وهذه العلاقة هى التى تجعل لذلك المؤثر معنى أو قيمة شخصية فى نظر الفرد . ولذلك فهو دائما يتأثر به ويندفع إلى تلبيته بالعمل والعمل .

من هذا نرى أن الرابطة بين الشوق والانتباه كبيرة . حتى إن من العلماء من يعدهما شيئا واحدا . أو مظهرين لشيء واحد ، فكل شيء شائق ينتبه إليه الإنسان من تلقاء نفسه ويهتم به ، فالشوق هو الفطر الوجداني للانتباه . ولكن الانتباه ليس مقصورا على الأشياء الشائقة . فإن الإنسان ليجبر نفسه على الانتباه إلى مافيه مصلحته للمستقبلة . أو غاية من غاياته وان كانت غير شائقة أو جذابة . فالشوق إذن يمكن أن ننظر إليه من جهتين .

(١) من حيث هو حالة وجدانية يحس فيها الإنسان لذة أو ألما .

(٢) ومن حيث هو ميل يدفع الانسان إلى الانتباه إلى أمور معينة والاهتمام بها والانهماك فيها .

وتلك الحالة الوجدانية وهذا الميل الدافع متصلان بعضهما ببعض اتصالا وثيقا . وليس من السهل فصلهما لأن كل شيء يميل إليه الإنسان أو ينفر منه يحدث فيه مسرة أو ألما .

الشوق معيار شخصي لتقدير قيم الأشياء

إن شوق الإنسان وميوله هي التي تجعل لبعض الأشياء والمؤثرات في نظره قيمة ومعنى أكثر مما لغيرها وذلك فان قيمة الشيء الواحد تختلف باختلاف الأفراد . فكل يقدر قيمة الشيء حسبما له من العلاقة والأثر في نفسه ، فاذا كنت في هذه اللحظة تفضل الاهتمام بحال صحة أخيك الصغير على الانتباه إلى موضوع الشوق فذلك لأن صحة أخيك أكبر قيمة لديك من علم النفس . وإذا كان التلميذ يفضل اللعب على الجلوس مكتوف اليدين في الفصل محاولا الانتباه إلى مايسرده عليه المدرس من أسباب كروية الأرض . فذلك لأن اللعب في هذه المرحلة وفي هذا الوقت أكبر قيمة في نظر التلميذ من معرفة أسباب كروية الأرض . فهو يحس بحاجة إلى الأولى وليس إلى الثانية . فاهتمام المرء بشيء مادليل على ميله إليه وعظم قيمته في نظره . ولذلك فان كل ما يتعلق بذلك الشيء ويتصل به من بعيد أو قريب يجذب المرء ويستميله إليه . فإذا كنت مهتما بعلم من العلوم لفت نظرك كل ماله علاقة بهذا العلم : فللزهرة النادرة . ولقطعة الجرانيت الملقاة في الشارع . وللرأي الجديد في التربية . وللزي الحديث في الملابس ، ولارتفاع ثمن القطن أو انخفاضه قيمة كبيرة للنباتي أو الجيولوجي ، أو للربي أو المرأة أو الضارب في الصافق أو للزارع نفسه .

وإذا كنت لم تكتسب ميلا إلى التاريخ . أو الشعر أو الموسيقى . أو جمع طوابع البريد . أو اللغة المصرية القديمة . فكل مايتصل بهذه الأمور لايثير اهتمامك ولايبعث شوقك إليها . ولذلك لاتجد لها قيمة أو طعما بل إنك لتعجب من سخف الناس ومغالاتهم في الاهتمام بها .

إن تقدير الشوق لقيمة الأشياء ومعانيها ليس تقديرا نفعيا أساسه المنفعة المادية بمعناها الضيق المعروف إنما هو تقدير لكل مايمكن أن يكون له قيمة مامن أي وجه من الوجوه مادية كانت أو اجتماعية خلقية أو جمالية أو علمية .

الشوق والاختيار

إن الشوق والميول هي التي تتحكم إلى حد كبير في اختيار المرء واحدا أو أكثر من آلاف المؤثرات المختلفة التي تحيط بالانسان ، سواء كان ذلك من الأمور المادية أو العقلية ، وما ذلك إلا لأن للشيء المختار قيمة خاصة ومعنى لايدركه سواه من حيث إنه يسد حاجة في نفسه . فالشعور يجري بآلاف الخواطر والشوق هو الذي يحمل الانتباه على اختيار واحد منها للاشتغال به وحصر الفكر فيه ، وفي غالب الأحوال يكون الشوق هو السبب في اختيار المرء (فعلا ما) والمثابرة عليه وتكريره حتى يصبح عادة فيه ، فالشوق هو الذي يعين (رد الفعل) أو التلبية التي يقوم بها الفرد في ظرف خاص ، فإذا تكرر رد الفعل هذا لما صادفه

من النجاح ، أو لما أثاره من السرور ، ثبت فى النفس وأصبح مفضلا على غيره ، ولهذا أثره الكبير فى الأخلاق والسلوك وفى عملية التعلم نفسها ، فإذا أثرت اهتمام الطفل وشوقه إلى فعل ما كنت واثقا كل الوثوق أن الطفل سيفضل هذا الفعل على غيره من الأعمال الأخرى

الشوق محرك دافع

إذا استثار شىء ماشوق إنسان واهتمامه فإن هـذا الشوق لايلبث حتى يفيض على النفس قوة تحركها إلى العمل أو التفكر فيه . وإذا اشتد الميل وأصبح تحمسا قصر المرء الجزء الأكبر من وقته وفكره على العناية بما يشوقه جادا وراء الحصول عليه ، شاعرا فى وسط العمل الشاق والمكد المتواصل بلذة ومسرة . فتصبح حياته حافلة مليئة ذات قيمة ومعنى يمر به الزمن سهلا لينا لا يحس فيه بذلك العبء الثقيل الذى يشعر به من ليس له فى حياته شىء يهتم له اهتماما حقيقيا ، فلولا ذلك التحمس لم ينبغ نابغة . ولم ينجز عمل كبير . فالباحثة الذى يقضى أوقاته فى التنقيب فى ناحية من نواحى الفكر والعمل الانسانى ، لم يفعل ذلك إلا لأنه يشعر أثناء قيامه بالعمل أنه يتقدم تقدما نفسيا مطردا . وأنه سائر فى الطريق الذى هدته إليه طبيعة نفسه .

الشوق والعادة

لقد رأيت أن الشوق أساسى فى اختيار عادة ما ، وفى تكوينها وغرسها فى النفس ، وهذا الاختيار له قيمته الكبرى فى الترقى العقلى والخلقى ، وكل من الشوق والعادة ضرورى لترقى الانسان ، فالشوق يدفعه إلى الانتباه والعناية الكبيرة بكل مايمس نفسه . أو يسد حاجة من حاجاتها ، وبالتكرار يتحول العمل المنتبه إليه إلى عادة فالعادة تجعل جزءا كبيرا من أعماله آليا فيوجه المرء انتباهه إلى غيره حتى يتقنه وهكذا . (ومن جهة أخرى) : إن الشوق والعادة ضدان ، فالشوق يتبع كل شىء جديد فى النفس بما فيه من الروعة والاهتمام والجدة . أما العادة فلا تتعلق إلا بالقديم المألوف ، وتنفر من الجديد المستحدث ، والشوق دائما يثير انتباه المرء والتفاته فى حين أن الانتباه يقل فى العادة قلة كبيرة حتى يقرب من درجة العدم ، فالعادة هى العنصر المحافظ فى الفرد وفى الجماعة ، فى حين أن الشوق هو العنصر الدافع إلى التقدم والتجديد .

أقسام الشوق

ينقسم الشوق إلى أقسام مختلفة حسب وجهة النظر التى ننظر إليه منها ، فهو من جهة ينقسم إلى :

(١) شوق مباشر . و (٢) شوق غير مباشر :

فالشوق المباشر هو ماكان متعلقا بما يستثيره مباشرة : أى بالمؤثر أو العمل نفسه من حيث هو . وغير المباشر ما تعلق بعمل ما ، لأنه وسيلة إلى غاية خاصة . لا لأنه هو المقصود بذاته ، فكأنه اكتسب جاذبيته من تعلقه بتلك الغاية الخاصة . (ومن جهة أخرى) ينقسم الشوق إلى :

(١) طبيعى أوذاتى يصدر من تلقاء نفسه ، نابعا من صميم الإنسان وباطنه .

(٢) اصطناعى ، وهو ما كلف به الانسان تكليفا وصدر إليه من مصدر خارجى عنه ، فالعقاب والثواب وما يتصل بهما يشوقان الإنسان إلى العمل على كره منه فاهتمام الإنسان بهما اهتمام خارجى اصطناعى . أما اللعب مثلا فالطفل يهتم به اهتماما طبيعيا مباشرا ، والبخيل يعشق الذهب من أجل الذهب نفسه ، فى حين أن جمهرة الناس تحبه لأنه وسيلة إلى غاية ، والشاعر يحب أريج الزهر ولونه ، ولكن البستانى يحبهما لغرض

آخر ، ورغبة التلميذ فى المكافأة أو اجتياز امتحان أو خوفه من العقاب تجعله يهتم بدروسه ويعنى بها ولكنها عناية غير طبيعية وغير مباشرة فالتلميذ الصغير يقلد حبا فى التقليد ، ويلعب حبا فى اللعب ، ولكنه لا يستظهر جداول محطات السكك الحديدية أو قواعد النحو حبا فيهما ، وكذلك ينقسم الشوق إلى : (١) فطرى (٢) وكسبى ، فيكون الشوق غريزيا عند ما نعنى بأمر ما ونحبه بفطرتنا من غير تعلم سابق ، ويكون كسبيا عند ما نهتم بأمر نتعلمه ثم نميل إليه ، فالمرء ينتبه بفطرته إلى كل صوت عال وكل شىء متحرك أو لون زاه أو ضوء شديد ، وإلى كل ما يتصل بغرائزه وميله علاقة بها ، ولكن الاهتمام بالتاريخ أو الهندسة أو الفلك كسبى وان كان مرتكزا على عناصر غريزية فى كثير من الأحوال ، ولهذا تستخدم الميول والنزعات الفطرية أساسا . لايجاد ميول كسبية جديدة فى نفوس الأطفال . (ومن جهة رابعة) ينقسم الشوق إلى :

(١) ميول عملية (٢) عقلية (٣) وجدانية :

فى الميول العملية يكاد يقتصر اهتمام الانسان على كل شىء ، ذى قيمة عملية مادية ، أو على علاقة الناس بشخصه ومصالحه ، وهذا الميل يؤدى إلى الابتكار والاختراع فيما ينفع ويفيد كما يؤدى إلى النجاح فى ميادين التجارة والصناعة والأعمال الإدارية المختلفة ، ويقتصر اهتمام ذى الميول العقلية على تفهم الظواهر الاجتماعية والطبيعية لمعرفة النواميس التى تسيرها ، فهو شوق يفضى إلى زيادة العلم ، وإلى البحث والتنقيب فيه ، وإلى إدراك علاقات الناس بعضهم ببعض والأواصر التى تربطهم فيهتم المرء مثلا بعاداتهم وقوانينهم . وكل مظاهر حياتهم الاجتماعية المختلفة .

هربارت والشوق

قسم (هربارت)[1] الشوق (الذى هو فى نظره أساس التربية وقوامها ، بل غايتها التى ترمى إليها) . إلى قسمين كبيرين : قسم يتعلق بالأمور الكونية يدفع الإنسان إلى الاهتمام بكل ما يقع فى خبرته ويكسب . المعرفة ، وقسم آخر يتعلق بالأمور الاجتماعية فيجعله يهتم بكل ماله علاقة بالانسان وبالوطن وبالخالق ثم قسم كل قسم منها إلى ثلاثة مجموعات فما يتعلق بالأمور الكونية يثير فى الانسان ثلاثة ميول :

(١) الميل إلى الاهتمام بكل ما هو حسى ، فيروق الإنسان مشاهدة مناظر الطبيعة ، وكل ما يراه أو يحس به من الأشياء ، وهذا الميل يتوقف على ما فى هذه المظاهر من جدة وتغير ، ويتجلى فى الصغر عند ما ينطلق الطفل فى سنواته الأول باحثا منقبا مستطلعا طلع كل شىء فى بيئته كما يتجلى فى ميل الأطفال إلى القصص والأساطير .

(٢) والاهتمام بما هو فكرى . فيهتم الإنسان بمعرفة أسباب الأشياء ونتائجها وعلاقتها بعضها ببعض ، ويتجلى فى كثرة أسئلة الأطفال .

(٣) وبما هو جميل فيهتم المرء بالتأمل فيما فى الطبيعة والفن من تناسق وجمال .

وقسم ما يتعلق بالأمور الاجتماعية إلى ثلاثة مجموعات كذلك :

(١) الميول التى تدفع الفرد إلى الاهتمام بعلاقة الإنسان بالناس ، فنعنى بتقدير ما يحركهم من البواعث المختلفة ويسوقهم من دوافع وضيعة أو سامية .

---

(١) يوهان فريد ريخ هربارت ١٧٧٦ – ١٨٤١

(٢) علاقته بالمجتمع وطوائفه المختلفة ، وهذا الميل يدفعه إلى الاهتمام بالأمور الاجتماعية والحركات الكبرى فى التاريخ وبالوطن وحاجاته .

(٣) علاقته بالخالق .

تعدد الميول

بعد أن قسم (هربارت) وأتباعه شوق الانسان وميوله عادوا وقسموا العلوم والمواد الدراسية على هذا الأساس أيضا ، وحتموا على المعلمين العناية بتغذية كل ميل من هذه الميول الستة بالمواد التى تناسبه ، وذلك بقصد أن يتشعب شوق الطفل إلى شعب كثيرة ، وتتجه ميوله ومواضع اهتمامه فى كل ناحية ، وبذلك يكون عقله فيما بعد واسعا ينفسح لكل شىء فيلاحظ كل مايدور حواليه فى هذا العالم ويهتم به بدلا من أن يكون ضيقا من جراء اقتصاره على نوع واحد من المواد التى يميل إليها أو يجبر عليها إجبارا . وعندئذ لايستطيع أن يقدر أعمال سواه ، أو يدرك ميولهم الإنسانية وبشاطرهم عواطفهم المختلفة . أو يتمتع بحياته التمتع الصحيح فهربارت يكره الإخصاء والاقتصار على أنواع قليلة من العلوم والفنون .

ليس من شك أن تعدد الميول وتشعبها له هذه الفوائد السابقة ولكنه من جهة أخرى يشتت جهود المرء ويوزع انتباهه فى نواح كثيرة . فلا يستطيع أن يتقن شيئا ما الاتقان الصحيح ، بل تبقى حياته متنازعة بين أمور مختلفة لايستطيع أن يحسن أحدها ويجيده الاجادة المطلوبة والحياة قصيرة وأقصر منها الحياة المدرسية والعلوم واسعة متنوعة فمن المحال أن يتوفر عليها كلها امرؤ ويحصل من كل منها على قسط عظيم . بل لابد من أن يختار وينتقى له دائرة خاصة ووجهة معينة يهتم بها ويقتصر ميوله عليها من غير أن يهمل الميول الأخرى كل الإهمال ، فمن السهل أن يقصر الانسان جهوده على شىء واحد أو أكثر ، وفى الوقت نفسه يغذى ميوله المختلفة الأخرى ويهتم بجوانب الحياة الانسانية كلها اهتماما يجعله يتمتع بحياته العقلية والاجتماعية ويشارك الناس ويفهمهم ، وبذلك لا يكون عقله ضيقا ذلك الضيق المعيب الناشىء من الاختصاص الضيق الضار .

قيمة الشوق غير المباشر

الانسان مضطر إلى القيام بكثير من الأعمال غير الشائقة التى لا يميل إليها بطبعه وتضطره إليها ظروف الحياة ، وفى العمل الشائق نفسه عناصر جافة كثيرة غير جذابة يندر أن تثير فى الانسان شوقا إليها ولكنها مع ذلك ضرورية ولا مندوحة له عنها ، فلو أهملها الإنسان لم يقطع فى سبيل التقدم مرحلة تذكر ، ولكن هذه العناصر الجافة تكتسب قوة خلابة من اقترانها وارتباطها بالغاية التى يرمى إليها الفرد ويهتم بها : أى إذا ارتبطت ربطا غير مباشر بجزء من طبيعة الإنسان ونفسه وأصبحت وسيلة إلى تحقيق غاية أو حاجة نفسية ، أو خطوة فى سبيل ذلك التحقيق ، فليس أبعث على الضجر والسأم من قراءة إعلانات الصحف ، أومطالعة جداول السكك الحديدية ، أو الجداول الإحصائية فى علم ما . ومع ذلك فعند الحاجة الماسة تصبح هذه كلها شائقة رائعة وإن كانت روعتها وقتية ليس إلا ، والكد والتعب اللذان يصادفهما المرء فى التغلب على كثير من المصاعب التى يقابلها فى طريق مهنته يهونهما عليه مالهما من العلاقة بأمله فى النجاح فى حياته . أو كسب قوت أولاده ، أو طمعه فى حسن الأحدوثة وبعد الصيت ، ولولا ذلك ماأطاف امرؤ مهنة لاتتفق وميوله التى ركبت فيه . فقليل من الناس الموفق إلى العمل الذى يتفق وميوله ورغائبه . ومعلوم أن الانسان فى بداية تعلمه علما ما أو مزاولته عملا من الأعمال قد لايقبل عليه الاقبال كله . ولكن المرانة عليه وطول العهد به قد تكون لديه ميلا خاصا إلى هذا العمل فينصرف إليه ويهتم به . ولولا هذا لما تيسر لامرئ

النجاح فى عمل ما . فالمدرس الذى لم يكسبه التدريس ميلا إلى هذه المهنة ولا يرى فيها إلا وسيلة هافة قضت عليه بها لظروف لكسب عيشه . ولا يرى فى حياة المعلم إلا شقاء وبؤسا لايمكن أن ينجح فى عمله فى حين أن من مال إلى التعليم فى جملته أو إلى مادة مالابد ناجح فى عمله هذا نجاحا كبيرا . ويشعر فيه بشىء من السعادة واللذة . ففى حين أن التلاميذ تشقى بالأول ويشقى هو بهم يسعدون بالثانى كما يسعد هو بالعمل ويسمو به ، فهو يرى فيه كل يوم شيئا جديدا يرقى به . فالغاية والوسيلة مرتبطتان بعضهما ببعض فى نفسه فى حين أنهما متباعدتان كل التباعد فى نفس الأول . انتهى ماأردته من كتاب [أصول علم النفس] للأستاذ أمين مرسى قنديل أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا . والحمد لله رب العالمين .

تشعب علم النفس اليوم وازدياد علومه

أدهشنا صنعك ياألله فى نفوسنا ، أنت ألهمتنا فجورنا وتقوانا . ومدحت من زكى نفسه منا . وذممت من ترك حبلها على غاربها . ولكنك فى الوقت نفسه جعلت الأمة كلها كأنها فرد واحد أعضاؤه متعاونة . لهذا ألهمت أناسا فى أرضنا . وأثرت بصائرهم . فأخذوا يبحثون فى هذه النفوس على أن يجدوا ضالتهم المفقودة وهى معرفة مداواة الفجور ومقداره . ومعرفة هذه النفوس وأنواعها . وكيف يمكن استثمارها لنفع جميع الناس . فاستعملوا ماسموه [مقياس الذكاء] وهو كتاب ألفه الدكتور حسن عمر طبيب امتياز بمستشفى سانت لويس ونائب سناتور يوم مدينة سانت لويس بأمريكا . ومساعد طبيب مستشفى مندوتا . وطبيب بمعمل الأبحاث العقلية لمقاطعة وسكونسن . فقد جاء فيه فى صفحة ٣٥ ومابعدها تحت العنوان الآتى مانصه :

مقياس الذكاء والتعليم المدرسى

دلت الإحصاءات المختلفة على أن بين الأطفال فى المدارس الأولية والابتدائية عددا كبيرا لوحظ عليه ضعف العقل . ودلت التقارير المختلفة على أن ثلث تلاميذ هذه المدارس فى الولايات المتحدة الأمريكية لايستطع الاستمرار فى الدراسة على حسب سنهم الدراسية (١) كما أن عددا من هؤلاء يتراوح بين ٥ فى المئة و ٨ فى المئة يتأخرون فى دراستهم ثلاث سنوات على الأقل . وتبعا لهذه الحال وجدوا أن ١٠ فى المئة من ميزانية التعليم فى الولايات المتحدة التى تبلغ نحو ٤٠٠ مليون ريال تصرف على تلاميذ يعيدون دروس فرقهم لرسوبهم فى امتحانات النقل . وكان الأجدر أن يصرف هذا القدر على تلاميذ جدد . على أن الحكومة الأمريكية منذ وجدت هذه النسب المختلفة لا تزال تعمل على إيجاد علاج لتحسين هذه الحالة السيئة ، فوصلت أخيرا إلى :

(١) إعطاء دروس إضافية لهؤلاء التلاميذ .
(٢) العناية بصحة التلاميذ .
(٣) استنباط طرق جديدة لنقل التلاميذ من فرقة إلى أخرى .
(٤) حث الوالدين على العناية بأبنائهم خارج المدرسة .
(٥) وضع طرق حديثة فى التربية والتعليم .

---

(١) السن الدراسية : هى من ٧ - ١٢ فى المدارس الابتدائية و ١٢ - ١٦ فى المدارس الثانوية .

بيد أن هذه الجهود القيمة لم تأت بالفائدة المرجوة ، لأن تلك الحالات السيئة لم تكن نتيجة لسوء التربية المنزلية وفسادها ، أو عدم العناية بالصحة أو غير ذلك ، وإنما كانت نتيجة لوقف نمو عقول هؤلاء التلاميذ فى سن يجب أن لا يقف نمو المخ فيها ، وقد أدى هذا إلى أن يزعم بعض الناس أن نسبة نجاح الأولاد يجب أن تكون واحدة ، ماداموا يعيشون عيشة واحدة ، ويدرسون دراسة واحدة ، ويتمتعون جميعا بصحة جيدة . على أن ماذهبوا إليه خطأ بين يؤكده فحص الأطفال بميزان عقلى خاص لتقدير ذكائهم الذى يقوم عليه نجاحهم ، والذى يوضح لنا عقلية الطفل ومرتبتها بالنسبة لغيره من الأطفال . إذ العقول مراتب متفاوتة تبتدئ بالبله وتنتهى بالذكاء المفرط ، ولا غرو فقد لحظ هذا التفاوت بين طبقة سليمى العقل فمن باب أولى أن يلحظ بين سليمى العقول وضعيفها ، والمدرس مسئول عن ملاحظة مابين تلاميذه من تفاوت عقلى حتى لايذهب مجهوده سدى حين يحاول جعل ضعيف العقل وسليمه فى مستوى واحد . إذ من الصعب جعل قوى التلاميذ العقلية متكافئة متماثلة ، ولهذا ليس فى مقدور أحد مهما كلف نفسه من العناء أن يحول بين بعض التلاميذ ورسوبهم فى الامتحان .

ولتجنب إخفاق التلاميذ الذين ظهرت عليهم علامات الضعف فى دراستهم ينبغى أن نختبر ذكاءهم لنقف على مابدا لنا من ضعفهم لنصلحه إذا كان ناشئا عن إهمال أو رداءة صحة أو سوء تعليم أو غير ذلك مما يدعو إلى إخفاق التلاميذ ورسوبهم . أما إذا تبين لنا ان إخفاق التلاميذ لم يكن ناشئا عن إحدى تلك الحالات فانا نعلم حينئذ أن هذا قد جاء من ناحية العقل نفسه . واذن وجب علينا أن نزن ذكاءهم . وأن نقارن بين سنهم الحقيقية ومقدار ذكائهم . فاذا تكافأ تحققت الحالة الأولى . وإذا لم يتكافأ بأن كانت السن الجسمانية أرجح تأكدنا من ضعف عقولهم ووجب علينا إذن أن نتحى بهم ناحية أخرى من التعليم تلائم هذا الضعف فى عقولهم كأن ندربهم على صنعه . أو نمرنهم على حرفة من الحرف التى لاتستدعى مجهودا عقليا معتادا ويكون مثلنا مثل المهندس البارع الذى أراد أن يبنى جسرا فأحضر أجزاءه وأخذ يفحصها جزءا فجزءا قبل إعداده والشروع فى بنائه ليتأكد من صلاحية تلك الأجزاء وسلامتها ، فلا يضع قطعة من القطع يشك فى صلابتها ارتكانا على أن يرمها عند فسادها فى المستقبل .

مقياس الذكاء كقاعدة عامة لالتحاق الطلبة بالمدارس

كتب الأستاذ (بينيه) على أن هذا الاختيار يجوز استعماله بدل امتحان الدخول بالمدارس فإنه يظهر قوة التلميذ العقلية ، وبهذا يمكن أن يلحق بالفرقة التى تناسبه ، وكذلك تتبع هذه الطريقة فى نقل تلميذ من مدرسة إلى أخرى حتى لايضيع عليه وقت كبير لأن من عادة المدرسين أن يعتبروا درجة الطالب المستجد أقل من درجة تلاميذهم أو أن طريقة التعليم أقل من طرقهم فى نظرهم ، وإن كثيرا من المعلمين يوجسون خيفة من طرق التعليم الأخرى المخالفة لطرقهم ، فإذا ماوجدنا مقياس الذكاء فى كل المدارس فاننا نذلل هذه العقبة الكئود أمام الطالب حين نقله من مدرسة إلى أخرى ، ويمكنه الاستمرار مع الفرقة اللائقة به وزاد (بينيه) بقوله : إنه قد يصح أن يكتفى بفحص عقل التلميذ ، فإذا كان ينمو نموا طبيعيا فلا ضرر على جسمه وعقله إذا التحق بفرقة أعلى ، ولكن مع الأسف لا يمكننا أن نؤيد فى هذه الفكرة ، لأنه ليس المراد من التربية نمو القدر العقلية والجسمانية فقط بل تحصيل العلم أيضا ، ولذا لم يعمل بهذه الفكرة فى أى مملكة ، ولن يعمل بها لعدم لياقتها للعلم والتعليم .

المقياس ونموه فى أمريكا وانجلترا

انتشر هذا المقياس مدة الحرب الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد استعمل بكثرة فى الجيش الأمريكى ، ودل فحص نحو مليونى عسكرى على أن متوسط الذكاء الفطرى فيهم يعادل ذكاء ولد عمره أربعة عشر عاما . أما فى المدارس فقد أصبح هذا المقياس ذا أهمية عظيمة حتى إن خمسين فى المئة من جميع طلبة مدارس مدينة شيكاجو فحصوا بهذا المقياس ، وقد أمرت الحكومة بعض الأخصائيين عام ١٩٢٤ م بفحص الأطفال فى مدينة واشنجتون وتقسيمهم حسب نمو عقولهم . هذا وإن الحكومة الأمريكية تفحص ذكاء كل المهاجرين إلى بلادها فى (جزيرة إليس) قبل دخولهم البلاد .

أما فى انجلترا فقد بدأ المقياس فى الانتشار ، ففى سنة ١٩١٩م عملت تجارب فى بعض مدارس لفر ولة الأولية ، ويظهر أن الثقة بهذا المقياس قد زادت حتى إنه فى سنة ١٩٢٢ م قد أمر عميد مدرسة المعلمين النهارية بلندرة أن تفحص الطلبة الجدد بهذا المقياس قبل قبولهم بالمدرسة ، وأن يفضل فى الانتخاب من أحسن الإجابة وقد جرت على هذه الطريقة كلية بدفور فى انجلترا ، وجعلت مقياس الذكاء أساسا لاختبار طلابها الجدد . أما فى الكلية الجامعة بانجلترا فقد طلب قسم التربية العملية من طلابها الجدد أن يتقدم من يشاء منهم للفحص ، وأن يعمل تقرير عنهم للعميد . وفى سنة ١٩٢٠ أمرت الحكومة بفحص كل طالب أو طالبة من طالبى التوظف فى الأعمال الكتابية فى دواوين الحكومة الانجليزية ، وقد فحص نحو أربعين ألف شخص .

المقياس دليل لمعرفة أحسن مهنة للولد

ربما قرب الوقت الذى يكون فيه هذا الاختبار بمثابة دليل لمعرفة ميل الولد ونجاحه فى مهنة من المهن ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الاختبار يبين أى مهنة من آلاف المهن يمكن الولد أن يتعلمها ؛ وإنما تدل تجارب (بينيه) العدة على أن عقلية الولد يمكنها أن تعمل كيت وكيت ، أو تزاول مهنة كيت وكيت ؛ وهو وأتباعه قد تتبعوا كثيرين من آلاف الشبان فى حياتهم العملية ، ولاحظوا نجاحهم وإخفاقهم فى المهن ، وبهذه التجربة العملية تحققوا أن لكل مهنة سنا معينة لنجاح العامل فيها فعلى هذه القاعدة نرى أن كثيرا من عمال المصانع والمحال التجارية والشركات ليس عنده المقدرة الكافية للقيام بالعمل والمتاخر من جراء هذا خسارة مالية كبرى ، وضيع وقتها من غير فائدة ، فيظهر من هذا أن اختبار هؤلاء الموظفين يعود بالمنفعة على مثل هذه المحال ، وقد فحص (المستر كنولن) ١٥٠ شحاذا فكان نحو ٣٠ فى المئة منهم ضعيفى العقل والباقون عاديين فى ذكائهم . أما ضعيف العقل منهم فكان متوسط ذكائه بالاختبار بين ٧ و ١٠ سنوات ، وقد سئل هؤلاء فأجابوا بأنه ليست لهم دراية بفن ما ، ولم تتجه رغباتهم إلى العمل ، ولذلك كانوا يطردون من أعمالهم ، أضف هذا إلى حرمانهم كلمات التشجيع حتى دعاهم ذلك إلى اليأس وصاروا يجوبون الطرق .

الفائدة العملية من مقياس الذكاء

لقد أصبح للاختبار ميزة زائدة على ميزانه العدة ، وظهرت منفعته فى الأعمال الحيوية ، إذ قد قيل إنه يمكن بالاختبار :

(١) أن نعرف أحسن مهنة يستفيد منها الولد .

(٢) وأن نختار لكل فتى المهنة التى تناسبه .

قد أجهد نفسه الأستاذ (بارسون بيوستن) فى هذا العمل فكان يجمع البنين والبنات الذين أتموا الدراسة الابتدائية ، ويسألهم أسئلة خاصة عن حالهم ومعيشتهم وبيئتهم ، ثم يطلب من كل أن يعين أحسن مهنة يريد أن يزاولها ، وصار يتبع الأولاد فى عملهم ، واستنتج نتائجه ، وتمكن بعدئذ من نصح الأولاد بعد فحص ذكائهم عن أحسن المهن التى يشتغل فيها كل منهم . فزادت شهرته بنجاحه العظيم ، وفى سنة ١٩١٨ فتح مكتبا خاصا لإرشاد الأولاد إلى أحسن مهنة لهم ، وكانت تؤمه كل فتيات الجهة وفتيانها ، ويطلبون منه أن يدلهم إلى أحسن مهنة يقومون بها ، فنجاحه هذا كان سببا فى أن معظم مدارس الولايات المتحدة الأمريكية الثانوية عينت مستشارا فنيا لفحص التلاميذ وإرشادهم إلى أحسن مهنة لهم متى أرادوا مزاولة الحياة العملية ، وحذا هذا الحذو مهندس شاب اسمه (تيلر) فى أحد مصانع الدراجات ، واختبر كل العمال الذين كانوا يشتغلون بالمصنع فوقع اختياره بعد الفحص على ٣٥ عاملا ، ولما اشتغلوا يوما قاموا بعمل المائة والعشرين عاملا الذين كانوا يشتغلون بالمصنع . وعمل أستاذ التربية العملية بجامعة (هارفرد) بعض آلات صغيرة لاختبار الذكاء فى عمال السرة (الذى يعطى النفر) وعمال الترام وضباط البحرية . أما عمال السرة فقد وضع لهم ثمانية أسئلة يستنتج منها :

(١) سرعة الذاكرة .

(٢) سرعة الحركة .

(٣) إتقان الحركة .

(٤) سداد الحكم .

أما عمال الكهربائيات فعمل لهم آلة صغيرة عليها إشارات مختلفة وخط ترام صغير ، وكل إشارة لها مغزى فإذا ماسار القطار طلب منه أن ينفذ ما يلقى عليه من الأوامر . وهذا وقد اهتم أولو الأمر فى انجلترا فى العامين السابقين بأن جعلوا مكاتب لإرشاد الأولاد إلى أحسن المهن التى تليق بهم ، وذلك بالنسبة لعمل الطفل وأخلاقه ، وما شهد له به مدرسوه ، وتقرير المدرسة مدة دراسته بها ، واختبار ذكائه وميوله .

هل مقياس الذكاء عديم الفائدة !

قال (بيفيه) إنه قاوم كل فرد انتقد المقياس وألجمه بالبرهان ، وأقام الدليل على أن هذا الاختبار بنى على أساس علمى متين ، وأشار على كل منتقد أن يدرس الاختبار ويعمل به ثم يقرر أكان مفيدا أو غير مفيد ، ولكن الانتقاد كان مرا خصوصا من المدرسين ، فقد قال بعضهم : « إن المدرس الحقيق أو والد التلميذ يمكنه معرفة ذكاء الطفل بالضبط » .

وقال آخر : « إنه لمدرس أية مدرسة التي يحتاج إلى مساعدة أستاذ في علم النفس لإخباره بالطلبة الأغبياء والأذكياء في فصوله » .

وكل هذه الانتقادات لم تزعزع عقيدة (بينيه) في مقياسه ، وهذا طبيعي لأن كل من يجهل علم النفس يظن عدم صلاحية الميزان ، فإذا أخبرنا الفلكي مثلا بأن بيننا وبين المريخ كذا ميلا فلابد أن نصدقه ، أو نبرهن على خطئه في التقدير . إن كثيرا من المدرسين يمكنهم تمييز بعض الطلبة الأغبياء والأذكياء ، ولكن لاتكون معرفتهم بذلك دقيقة . أما هذا الميزان فيظهر بالضبط مقدار الذكاء .

إننا نود أن نعرف بالدقة ذكاء المرء ولا نقتصر على التمييز بين الذكي والغبي ، وكما يشخص الطبيب المرض بالدقة قبل أن يصف الدواء كذلك يجب معرفة الضعف العقلي ومقداره حتى يمكننا أن نعرف ما إذا كان ناجما عن سوء صحة الولد ، أو بيئته ، أو عدم الانتباه للمدرس ، أو عدم مهارته .

لقد أصبح الطبيب علاوة على الفحص الطبي يجهد نفسه لمعرفة التشخيص الحقيق بتحليل الإفرازات والدم تحليلا كيمائيا حتى يكون على بينة تامة من عمله ، كذلك لاتكفي مجرد النظرات للحكم على عقلية الأطفال ، فكثيرا ما تكون نتيجتها خاطئة ، فلابد من شيء عملي مبني على أساس علمي يباعد بيننا وبين الخطأ ، وهذا هو الميزان .

كيف استنبط المقياس ؟

رتب (بينيه) أسئلة حسب صعوبتها لمختلف الأعمال مبتدئا لسن ثلاث ومنتهيا لسن ثماني عشرة وذلك بعد أن فحص مائتي طالب تتراوح أعمارهم بين الثالثة والثامنة عشرة ، وكانوا جميعا معدودين من ذوي الذكاء العادي ، خالين من النابغين والأغبياء ، وقد اختيروا من عدد غير قليل ، وكانوا يسألون أسئلة عامة فعلم أن ذكاءهم عادي ، وعلى ذلك رتبت الأسئلة بالنسبة لإجابة هؤلاء الأطفال ، فكان السؤال يلقى أولا على أطفال في نهاية السنة الثالثة ، فإذا أجابوا عليه بسهولة وضع هذا الفحص لسن الثالثة ، وإذ لم يجيبوا أو أجاب بعضهم فقط فإنه يسأل عنه ذوي الرابعة وهكذا ، ويعد السؤال موافقا لسن ما إذا أجاب عنه عدد يتراوح بين ٦٠ و ٧٥ في المائة من الأولاد الذين في هذه السن فيوضع مع أسئلة هذه السن ، وبعد أن جربت هذه الأسئلة كثيرا ورتبت حسب التجربة لكل سن خمس أسئلة من سن الثالثة إلى سن العاشرة إلا الرابعة فوضع لها أربعة أسئلة فقط ، وكذلك خمسة أسئلة لسن ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٨ فيكون مجموع الأسئلة ٥٤ سؤالا .

كيف تعرف نسبة الذكاء ؟

يمكننا بواسطة مقياس (بينيه) اختبار ذكاء أي فرد مهما بلغت سنه ، وطريقة عمل الفحص هي أن توجه إليه الأسئلة المذكورة في سنه الحقيقية حتى إذا ما أجاد الإجابة عليها جميعها انتقلنا منها إلى السن العليا وهكذا حتى لا يستطيع الإجابة ، ثم نعرف السن الأخيرة التي أجاد فيها قبل إخفاقه ، فيكون هذا هو مقياس ذكاء المرء (أي ذكاؤه يعادل ذكاء طفل سنه كذا) ونستنتج من هذا إما أنه متقدم

في الذكاء أو متأخر . ولنضرب لذلك مثلا : إذا كان طالب عمره ٩ سنين ولما فحص أجاد الإجابة حتى سن ٩ سنين فنقول : هذا الطالب ذكاؤه عادى : أى ذكاؤه ذكاء ولد عمره ٩ سنين ، ويعبر عن ذلك بالسن العقلية ، وإذا فرضنا أنه أجاد الإجابة لسن ٨ سنوات فنقول إن ذكاءه كطفل عمره ٨ سنوات (أى سنة العقلية ٨ سنوات) وبعد إذن الطفل ذكيا إذا كانت سنه العقلية أكبر من سنه الجسمانية والعكس بالعكس .

وقد يعبر عن نسبة الذكاء العادى (بواحد) ، فإذا كانت السن العقلية تعادل السن الجسمانية :

أى $\frac{\text{السن العقلية ٩ سنوات}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}} = ١$

فالواحد هذا يعرف عنه (بنسبة الذكاء) فالولد إذن عادى الذكاء إذا كانت نسبة ذكائه واحدا .

أما إذا كان ضعيف العقل فتكون نسبة ذكائه أقل من واحد :

أى $\frac{\text{السن العقلية ٨ سنوات}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}} = \frac{٨}{٩}$ أى أقل من واحد

أما إذا كان نابغة فتكون نسبة ذكائه أكثر من واحد :

أى $\frac{\text{السن العقلية ١٢ سنة}}{\text{السن الجسمانية ٩ سنوات}} = \frac{١٢}{٩}$ أى أكثر من واحد

وهكذا تستنتج نسبة ذكاء كل فرد .

كشف الأسئلة المختصرة

التى وضعها (بينيه) قبل وفاته الفجائية سنة ١٩١١ م

ثلاث سنوات

(١) أشر إلى الأنف والعين والفم .
(٢) انطق بعددين بعد نطق الممتحن .
(٣) اذكر أشياء موجودة فى صورة .
(٤) ما اسم العائلة ؟ .
(٥) إعادة جملة من ست كلمات .

أربع سنوات

(١) تذكر الجوع .
(٢) تسمية (مفتاح ، مطوة ، فرشة) .
(٣) إعادة ثلاثة أعداد بعد سماعها .
(٤) مقارنة خطين فى الطول .

خمس سنوات

(١) مقارنة وزنين .
(٢) رسم مربع من نموذج .
(٣) إعادة جملة من عشر كلمات .
(٤) عد أربعة قروش .
(٥) إرجاع مستطيل إلى أصله بعد قطعه إلى نصفين .

ست سنوات

(١) التمييز بين الصباح وبعد الظهر .
(٢) تفسير بعض كلمات .
(٣) رسم شكل مسدس من نموذج .
(٤) عد ١٣ قرشا .
(٥) التمييز بين الوجه الحسن والوجه القبيح من صورة .

سبع سنوات

(١) طلب الإشارة إلى اليد اليمنى والأذن اليسرى

(٢) وصف صورة .

(٣) يؤمر بعمل ثلاثة أشياء .

(٤) يبين قيمة ست قطع من العملة .

(٥) يذكر أربعة ألوان أصلية .

ثمانى سنوات

(١) يقابل بين شيئين من الذاكرة .

(٢) يعد تنازليا من ٢٠ إلى ١

(٣) يذكر الأشياء الناقصة من صورة .

(٤) يذكر اليوم وتاريخه .

(٥) ينطق بعدة أرقام بعد سماعها .

٩ سنوات

(١) يصرف ريالا إلى قطع من العملة .

(٢) يعرف بعض كلمات تعريفا حسنا .

(٣) يذكر كل قطع العملة .

(٤) يقول الأشهر بالترتيب .

(٥) يجيب جيدا على أسئلة .

١٠ سنوات

(١) ترتيب خمس قطع خشبية حسب وزنها .

(٢) يرسم شكلا من الذاكرة بعد أن يراه .

(٣) يصحح خطأ بعض الجمل .

(٤) يجيب جيدا على أسئلة معينة .

(٥) يركب جملة فيها ثلاث كلمات معينة .

١٢ سنة

(١) اقتراحات .

(٢) يركب جملة فيها ثلاث كلمات معينة .

(٣) يذكر ستين كلمة فى ثلاث دقائق .

(٤) يعرف بعض كلمات

(٥) يعمل انقلاب بين ألفاظ جملة ويطلب منه ترتيبها حتى تصير ذات معنى

١٤ سنة

(١) يكرر سبعة أرقام بعد سماعها .

(٢) يذكر ثلاث كلمات موافقة فى الوزن لكل من قل ـ حبر ـ جبل .

(٣) يكرر جملة بها ١٤ كلمة .

(٤) يفسر مغزى صورة معينة .

(٥) يفسر معنى عشرة أمثال عامة .

١٦ سنة فما فوق

(١) تطوى ورقة عددا معينا من الطيات ثم تثقب ويطلب منه تعيين عدد ثقوبها إذا نشرت .

(٢) إرجاع مثلث إلى أصله بعد قطعه إلى جزءين .

(٣) التفريق بين أسماء .

(٤) ذكر الفرق بين الملك ورئيس الجمهورية .

(٥) قراءة قطعة من كتاب ، وذكر مافهمه من معناها

تلك صورة مختصرة عن المقياس تظهر قليلا من مزاياه حتى يكون عند القارئ فكرة مجملة عن حقيقته ولأجل أن يكون ذا فائدة حقيقية ويأتى بالغرض المقصود يجب على الممتحن أن يتعود هذا المقياس ويفهم الغرض منه ، ويعرف الأسئلة والأجوبة وصحتها وتفسيرها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن [بينيه] لم ينقح مقياسه فتركه على هذا الشكل ، وقد ظهر أن بعض الأسئلة لا تتناسب مع بعض الأعمار ، فقام بتنقيحه الأستاذ (سيمون) مساعده تنقيحا جعله كاملا شاملا وافيا اه

أوصاف النابغة

النابغون عادة هم قادة الأمم ومديروا دفة أعمالها ، تظهر مواهبهم فى أعمالهم فيرسمون الخطط ويعلون مايرونه صالحا للآخرين ، وقد ذكروا من أوصاف النابغة مايأتى :

(١) أنه إذا فكر فى شىء فكر فيه طويلا .

(٢) وأنه عصبى المزاج .

(٣) ونحيف الجسم .

(٤) وقد يكون ميله إلى الفضيلة ضعيفا .

(٥) وقد يكون غريبا فى أطواره .

هذا وقد فحص (بينيه) ومساعدوه ٣١ تلميذا ، وكان ذكاء الجميع فوق المتوسط : أى يزيد نحوا من ٢٥ فى المائة على الذكاء المتوسط لمن كان فى سنهم من الأطفال ، وهذه هى النتيجة التى وصلوا إليها (انظر الجدول الآتى):

الموضوع	النتيجة
(١) المعلومات الخاصة والعامة	٢١ من ٣١ معلوماتهم العامة غزيرة .
(٢) الصحة	١٠ من ٣١ صحتهم جيدة
(٣) المذاكرة	١٥ من ٣١ يذاكرون كثيرا
(٤) العمل	١٩ من ٣١ يندر وقوع الفرد منهم فى الخطأ الفاحش.
(٥) المجتمع الإنسانى	٢٥ من ٣١ بارزوا الشخصية فى المجتمعات .
(٦) الاختلاط	٢٦ من ٣١ تميل الناس للائتناس بهم .
(٧) الزعامة	١٤ من ٣١ يتصدرون دائما لقيادة أمثالهم .
(٨) الادعاء .	٢ من ٣١ غير مغرورين ولا مدعين .

فيظهر من هذا الإحصاء أن النابغين فى صحة غير جيدة ، وأن معلوماتهم العامة أكثر من الخاصة ، ولهم ولع بالمذاكرة ، ولهم ميل لإنجاز أعمالهم بدقة ، وأغلاطهم قليلة ، ولهم صفة فى المجتمع تجعل أصدقاءهم يبحثون عنهم للمسامرة والمجالسة ، ونفوسهم ميالة للزعامة والقيادة ، وقلما تجد منهم من لايستولى عليه الغرور .

مقياس الذكاء والإجرام

لايستطيع أى فرد أن يؤدى عملا من الأعمال أداء تاما محكما إلا إذا توافر فيه شرطان أساسيان :

(١) مقدرته على التفكير ، والنظر فى عواقب الأمور ، لكى يستطيع تقدير النتائج التى تنتج من عمله فتعود عليه وعلى غيره بالخير إذا هو سار فى طريق حسن ، أو بالشر إذا هو سار فى طريق سيء .

(٢) الرغبة الصادقة فى كبح جماح النفس والمقدرة على إلزامها جانب الحق والصواب .

وهذان الشرطان لايوجدان إلا عند كل شخص كمل عقله ، وتهذبت نفسه ، وتجملت أخلاقه ، وليس من عمل مجيد تقوم به أفراد أمة إلا ذلك الذى ينبعث عن أناس مخلصين قد تربوا تربية صالحة جعلتهم يؤثرون المصالح العامة على مصالح أنفسهم ، ويقدمون نفع الجمهور على نفعهم ، فلا يسيرون مع نفوسهم حيث

هامت . ولا مع أهوائهم حيث مالت بهم ، بل مدفوعين بعامل الإخلاص الذى قادتهم إليه عقولهم الزكية وأذهانهم الناضجة ، ولسنا نرى هذه الأعمال الجيدة تبعث من هؤلاء ممن رزءوا ضعف العقل ، لأنهم لايقدرون على التفكير ، ولا على النظر فى عواقب الأمور ، ولاعلى القدرة فى وقف تيارهوى النفس ، لأنهم مجردون عن الفضيلة ، والأخلاق الكريمة ، والتهذيب الصحيح . والتربية القويمة التى هى أساس النجاح ودعامة الفلاح ، والفضيلة كما تعلم لاتزهو وتنمو مادام الذكاء فى درجة الانحطاط .

الذكاء ليس أصل الفضيلة

على أن هناك بعض المجرمين لوحظ عليهم علامات الذكاء مما يجعلنا فى ريب من الجزم بضمهم إلى طائفة ضعيفى العقول ، وما ذلك إلا لأنهم قد توفر فيهم شرط من الشرطين السابقين هو : القدرة على التفكير والنظر فى عواقب الأمور . أما الشرط الثانى فقدانعدم فيهم ، فتركوا لأنفسهم الحبل على غاربه ، فما استطاعوا كبح جماحها ، ولا الوقوف فى سبيل هواها ، ومن هذا يتبين أن ليس من الضرورى أن يكون كل مجرم ضعيف العقل ، وإنما الثابت أن ضعاف العقول أكثرهم مجرمون ، كما أن ضعيفات العقول أكثرهن عاهرات أو صائرات إلى الفجور ، ولقد عودنا مقياس الذكاء أن نفكر فى المجرمين كلما ذكرنا ضعف العقل ، لأن الرابطة بين الإجرام وضعف العقل ثابتة ، وقدبرهن على وجود هذا الاتصال أخصائيون مهرة فى علم الجرائم فلبروزو وأتباعه مثلا ، كانوا يلاحظون العاهات الخلقية عند خصمهم المجرمين ، ويعولون عليها كثيرا ، ويجزمون بأنها أهم العاملات التى تدل على الإجرام ، ومن العاهات الخلقية كبر حجم الرأس أوصغره ، وعدم تساوى نصفيه ، والأشكال غير العادية فيه ، وعدم التماثل فى الأذنين والعينين وسقف الحلق حين يكون على شكل ٨ والأسنان والأصابع والأظافر والشعر وطول الأذرع والنسبة بين النصف الأعلى والأسفل من الجسم . وفى الحق كان عمل لبروزو عملا مجيدا فى ذاته ومفيدا ، إذا قدنبه المشتغلين بعلم الجرائم وشوقهم إلى البحث العملى فى هذا الفن ، وأوقد فيهم حب الاستزادة منه بالبحث العملى العلمى ، على أن عملهم قد وقف نوعا ما عند ظهور مقياس الذكاء الذى دل أن نحوا من ٢٥ فى المئة من المجرمين ضعاف العقول .

أما العاهات الخلقية التى بنى عليها [لبروزو] وأنصاره علم الإجرام وشوهدت بكثرة فى المجرمين ، فقد تجلى أنها لم تكن علامات خاصة بالإجرام لكنها أشبه بخواص جسمانية كثيرا ماتلازم ضعيفى العقول ، ومن ثم صارت هذه العاهات الخلقية ميزا ضعيفا للمجرمين ، لكنها دليل قوى على ضعف العقول ، ومع هذا دلت الإختبارات على أن هناك صلة متينة بين الإجرام وضعة النفوس من جهة ، وضعف العقول من جهة أخرى ، يضاف إلى هذا ماقد ينغمس فيه هؤلاء المجرمون من الرذائل كالفحشاء وغيرها نتيجة ضعف عقولهم .

هذا ما أردت ذكره من علم النفس فى وقتنا الحاضر أريد بذلك استيقاظ أمة الإسلام من سباتها العميق ، وقد استيقظت وستزيد ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة أربع لطائف[1]

اللطيفة الأولى فى جمال الإبداع ومحاسن المخلوقات التى تشير لها هذه الآيات من أسرار الشمس وضحاها تبدى لى فى عالم الخيال سبح نورى جميل الطلعة ، باهر الجمال ، حسن القوام والهندام ، تفيض الحكمة

(١) يقول المؤلف : قد رتبت هذه اللطائف على حسب تواريخها ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع اهـ

من قلبه ويلقيها بفصيح لسانه ، وكأنى وإياه فى حدائق غناء ، والهواء سجسج ، والشمس فى ضحاها ، والجداول تجرى من تحتنا ، والآلات البخارية ماثلات فى المزارع والحدائق المحيطات بنا من كل جانب تسقى الزروع وتطحن الحب ، فرأيته قد أخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يترنح كالولهان ، فأخذ يخاطب الهواء قائلا :

أيها الهواء : ما ألطف قوامك ، وأسمى مقامك ، وأرفع شأنك ، لقد أخفتنا بتحف تخفى على الناس إلا أولى الألباب : منها هبوب نسماتك المنعشات ، وإزالة ما حولنا من الضباب والرطوبات ، وما يمرضنا من العفونات ، أنت من آيات الله إذ تسير المنشآت فى البحر كالأعلام ، وتدير طواحين الهواء لإصلاح الطعام بهمتك الشريفة ، وتسقى الزرع والإنسان والأنعام ، من أين أقبلت ؟ فأجابه الهواء :

أيها السائل عنى : إن الشمس هى التى دفعتنى إلى هذا السفر الطويل ، فبحق أقول : مكره أخاك لا بطل لقد أضأت على الصحارى والقفار ، فدفعتنى إلى الأقطار فى الدارين ، فاشتدت الحرارة هناك أى اشتداد وقامت على قدم وساق ، فارتفع الهواء الحار إلى أعلى ، وأخذ مكانه الهواء البارد وملأ المكان إذ لا معطل فى الوجود ، ولا فراغ فيه معقول ، فهذا الهواء المتحرك هو الذى تسمونه الرياح .

ثم التفت إلى النهر الجارى فى الحديقة وقال : أيها النهر الجارى : لقد عظم شأنك ، وعم نفعك ، لقد رويت حقولنا اليابسة بمائك العذب الفرات ، وحملت سفننا فسهلت السبل للمواصلات ، وسقيت الطائر والحيوان والإنسان بمائك المترقرق العذب الفرات ، فماذا الذى ساقك إلينا ؟ تصنع معنا كل جميل ، وتحمل عالمينا من كل خفيف وثقيل .

إجابة النهر

أيها السائل عنى : لقد كنت فى أول أمرى فى البحر الملح ذرات صغيرات دقيقات سابحات فى الأمواج وفى طبقات البحار أستنشق النسمات ، وأشاهد نور الشرقات من اللامعات منذ دهور ودهور ، لا أفارق الأوطان ، ولا أخرج من ذلك المكان ، فكنت هناك أمرح وألعب ، حتى إذا لفحتنى الشمس بالحرارة التى تزجيها ، فأخرجتنى من قرارى المكين وجولتنى إلى بخار يرتفع فى جو السماء ، ثم صرت سحابا ، ثم أرسلت الرياح فدفعت هذا السحاب يجرى فوق البحار واليابسة فالجبال ، وهناك تحول إلى مطر فسقطنا على الأرض وأصبحنا عبارة عن مجارى متجاورات ومتباعدات ، ثم إن هذه المجارى اجتمعت فكونت نهرا ، وها نحن الآن سائرات فيه إلى أوطاننا وهى البحار اقرأ قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون » فها أنا ذا سعيد برجوعى إلى الأهل والإخوان فى البحار كما يسعد الحكماء والأنبياء إذا غادروا حياة الأجسام إلى حياة الأرواح ، فلئن شكرت أحدا فلا أشكر إلا الشمس فإنها هى التى منحتنى هذه النعم العظام .

فالتفت إلى الحدائق والحقول وقال : أيتها الحقول البهجات ، والزروع الناضرات ، والأشجار المثمرات ، هانحن أولاء نأكل الحبوب بفضل اجتهادكن ، وتنال مواشينا أقواتها من الكلأ والبرسيم بعظيم همتكن ، فلذا أنتن بارك الله فيكن ، ولولاكن لم يقم إنسان .

إجابة النبات والحقول

فقالت الحقول : إننا لا قوام لنا إلا بحرارة مناسبة ، وأرض مخصبة ، ومياه جارية ، وهذه الثلاث ليست شيئا مذكورا إذا قيست بنور الشمس ، ألا ترى أنك لو وضعت نباتا منا فى مكان مظلم خارت قواه ثم فارق الحياة ، ولو أنزلت عليه الماء وأعنته بالحرارة ، فذلك لا يجديه نفعا ولا يصلح للمرعى ، فالشمس قوام حياتنا ومحشر أمم النبات .

فالتفت

فالتفت إلى الفحم وقال له : أيها الفحم : إن اسوداد لونك صحبته السيادة ، بيضت صحيفة أعمالك بإثارتك حرارتك ، فمن فضائلك النار التي جعلها الله تعالى متاعا للمقوين ، ونورا للسارين والصادرين والواردين ، لقد أثرت البخار من الماء بقوتك الكامنة فيك ، فأدرت آلاتنا البخارية به فعم نفعها البرية .

إجابة الفحم

فقال : قد كنت أشجارا باسقة في غابات عظيمة ، ثم طرأت طوارئ طبيعية ، وحوادث فلكية ، خسفت بنا الأرض ، وصرنا أسفل سافلين تحت البحار اللجية في غياباتها ، فبعد أن كنا في اليابسة نرى الشمس والنجوم أصبحنا في ظلمات مدلهمات . فأخذت الأقدار تجللنا بالطين وبالرمل ، وعلى طول الزمان رأينا الطين والرمل انقلبا إلى صخور ، ونحن معاشر الأشجار أصبحنا لهما نحمل فوقنا أثقالا وأثقالا ، وتقاسي من الحرارة والنصب ألوانا ، فها أنتم أولاء تحرقوننا معاشر أنواع الفحم فتستخرجون ما كمن فينا من حرارة ونور خزنتهما الشمس فينا في أقدم العصور والدهور ؛ فلئن أبهجتكم أنوارنا ، ونفعتكم حرارتنا فاستنارت الطرق وجرت السفن والقطرات فما ذلك كله إلا من الشمس ، فاشكروها .

فالتفت إلى الشمس وقال : أشكرك على جميل صنعك ، وعظيم فضلك ، حياك الله وبياك ، ما أبهج عملك ، وأعظم منحك ، بحرارتك كانت الرياح والأمطار والأنهار وبفضلك كان الفحم والنبات ، فلولاك أيتها الشمس لم يتهيأ لنا طعام ولا شراب ولا عمل ولا حياة ، فعجبا لك وشكرا على هذه الفضائل العميمة .

قالت الشمس : لا تشكرني وما أنا إلا خادمة ، اشكر الله ربك وسيدك ، وما أنا إلا مسخرة لمنفعتك ، ألم تقرأ : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » . « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا » . فهو للفيض لجميع الخيرات .

وإذا سمعت الله أقسم بي فقال : « والشمس وضحاها » فذلك القسم لعظيم منحه التي سخرني لاظهارها ، وشرفني بإفاضتها ، وله الحمد في الآخرة والأولى ، كتب في فجر يوم السبت ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٦ بشارع زين العابدين بقسم السيدة زينب ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين الهادي إلى سواء السبيل .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى

(فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها)

مذكرات عن خواطري يوم الأحد ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م

بعد أن صليت الصبح أخذت أقول مخاطبا صانع هذا العالم العظيم (وأنا بجوار مزرعتنا في ناحية بلدة البركة القريبة من القاهرة) .

يا أله أريتنا جمالك ورحمتك يا قدوس يا سلام ، أريتنا كيف شملت رحمتك المخلوقات صغار الحيوانات ، ولم ترعندك فارقا بين الأجنة في بطون أمهاتها من حيث شمولها بالرحمة واللطف وصغار السمك والحشرات فمنحت كلا ما يحفظ عليه حياته ويسعده في مستقره ومستودعه بلطف خفي وتدبير قوي ورحمة واسعة عامة الفيض على المخلوقات ، وبين الشموس السريع حركاتها في المجرة ، إذ يقول علماء الفلك في عصرنا : إن شمسنا معها شموس أخرى وكلهن جاريات حول شمس الشموس التي يبلغ حجمها مقدار حجم شمسنا نحو مليون

ونصف مليون كما تقدم فى الجزء الثالث والعشرين من هذا التفسير ، وهـذه الشموس تقطع فى اليوم نحو مليون ميل فى سيرهن حول تلك الشمس الكبرى ، وهى (العيوق) .

فيا عجبا يا ربنا ، تراك نظرت لهذه الحشرات نظرك لهذه الشموس ، لافارق عندك فى الرحمة بين مادق وماعظم ، وما قل وما كثر ، كل عندك فى الرحمة والرأفة سواء ، تسير الشموس حول أمهن سيرا منظما لاخطأ فيه ولا خلل ، تلك الشموس التى ترى أرضنا بالنسبة لها كحصاة بالنسبة لجبل عظيم ، أنت ترعاهن فى مداراتهن كما ترعى عيون النملة والنحلة والذبابة وسائر الحشرات ، أنت ترعى تلك العيون كما ترعى تلك الشموس ، ترعاهن بلطفك ورحمتك وعنايتك ، فإحدى عيون الذبابة البالغات نحو أربعة آلاف عين ، وإحدى عيون النملة البالغات نحو أربعمائة عين مستقلة استقلالا حقيقيا (كما هو محقق فى سورة النمل فى رسالة مجيئها : عين النملة) عندك كإحدى الشموس الجاريات حول شمس الشموس ، إذن عيون الحشرة اللاتى هن شموسها التى بها تستضىء كشموس المجرة الجاريات حول شمس الشموس ، رباه حار فكرى ودهشت لرحمتك وحنانك وعطفك العظيم .

فلما كان ضحى ذلك اليوم قفلت راجعا إلى القاهرة ، وبينما أنا سائر إذ خطرت لى خواطر فى نفسى ، ذلك أنى أخذت أتذكر أن أناسا ممن لى بهن علاقة فى القاهرة يخيل لى أنهم يسيئون إلى ، وما كاد هذا الخاطر يرد على نفسى حتى رجعت إليها وقلت لها : أيتها النفس مالى أراك تسارعين إلى الشر ، ألم تذكرى أن بعض علماء النفس فى زماننا يقولون : إن الإنسان بتذكره الشر تتفجر من نفسه ينابيع العداوة ، وتنساب حتى تصل إلى القلوب الأخرى ، فتكون نفسه منشأ تلك العداوات .

أيتها النفس : ألا تعلمين أن النفوس الشريرة كالعيون المريضة فتحوم الشياطين حول الأولى كما يحوم الذباب حول الثانية مغرما بما أصابها من الرطوبات والأقذار ، وإذا كنت أيتها النفس لا ترجعين عن هذه الذكريات فإنى أرجع إلى صانعك وأسأله أن يصرفك إلى ذكرى الخير ، لأنى اجتهدت فى إصلاحك بقدر طاقتى و « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . أنا أرجع إلى الله فى تهذيبك وتخليصك من الشوائب والعيوب فماذا أصنع بك إذن أيتها النفس ؟ لم أذر بابا من أبواب تهذيبك إلا ولجته ولا ضربا من ضروب التثقيف إلا طرقته ، فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى زال ذلك الخاطر ونوديت فى نفسى : إن هـذه الخواطر لم توضع فيكم لإبعادكم ولا إزعاجكم ، بل لتقريبكم وإسعادكم : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ولو أننا منحناكم خواطر الخير فكنتم دائمى الولوع والغرام بالناس أجمعين ، أو خواطر الشر فكنتم متخاصمين أبدا لكان ذلك نقصا فيكم أمد الحياة ، ولكنا أعطيناكم الخصلتين ، وهديناكم النجدين ، ليكون ارتقاؤكم باختياركم ، واجتهادكم لا بغرائزكم وحدها ، بل بجدكم أنتم ، فالسعادة لا تكون إلا مع الجهاد . أما أولئك الكسالى الذين يعيشون على مامنحوا من عطاء وما أوتوا من غرائز ، فأولئك لا حياة لهم إلا كحياة العصافير والطيور والحشرات ، ونحن نربأ بكم أن ترجعوا لعالم الحيوان فتكونوا كالذؤبان والأسود والنمور عند غلبة القوة الغضبية ، أو كالظباء والحمر الوحشية عند غلبة القوة الشهوية ، بل أنتم أعطيتم قوة العقل والحرية ، وذلك خير وأحسن تأويلا ، من شغله الحب وحده كان له عبدا ومن استعبدته العداوات كان عبدا لها فكن أنت منظم الأمرين حرا فى تصريف سائر الأعمال .

تذكرة

إن نفسى إذ خطرت لها خواطر العداوات كانت أمارة بالسوء ، فلما عاتبتها كانت لوامة ، فلما توجهت إلى الله وصرف عنها السوء كانت مطمئنة ، هذا ضرب مثل الأحوال الثلاثة : الأمارة واللوامة، والمطمئنة. هذه الخواطر كانت أنسا لى وأنا سائر فى طريقى إلى بلدة المرج ، وقد قدمت فى هذا التفسير مرارا أنى اعتدت أن أمشى فى وسط تلك المزارع ترويضا للنفس وتقوية للبدن . ولما قربت من بلدة المرج رأيت خليجا فى طريقى يجرى فيه ماء النيل ترفعه الآلة البخارية من النهر ، فأعجبنى جرى الماء وانسيابه العجيب ، ووقفت إزاءه أفكر وأقول : إن الناس فى هذه الأرض لا عمل لهم إلا مجرد التنظيم ، فهم يظنون أنهم يزرعون وماهم بزارعين ، وإلا فكيف نراهم لا عمل لهم إلا بذر الحب فى الأرض وسقيها ، ثم نرى الحب ينبت وينمو ، ولا عمل لهم فى الإنبات ولا فى النماء ، هذا الماء يجرى وجريه تابع لما يسمى بالجاذبية ، يجرى من الأرض العليا إلى الأرض السفلى بمقتضى ذلك الناموس ، إذن جرى الماء لم يكن للانسان فيه عمل ، رفعته الآلة من البحر ولكنه ينساب عليها بغير آلة تدفعه إلى الأمام ، كل ذلك والناس غافلون ساهون لاهون كأنهم لا يعلمون ، وكل ما جاء إليهم بلا عمل لا يفكرون فيه ، ولا يذكرون أنه نعمة ، فهم يحملون النبات والحبوب على دوابهم من حقولهم إلى منازلهم ، ولكنهم قط لا يفكرون فى أن الماء ليس فى حاجة إلى حمله لسقى أرضهم ، وأن هناك قوة عالية تدفعه إلى الجرى لسقى ما يزرعون .

﴿ تطبيق الأخلاق الإنسانية على القوى الطبيعية
وبيان أن ذلك تكملة لخواطرى النفسية قبيل ذلك ﴾

رباه : عجبا لما رأيته اليوم ، نفوسنا مستعدة لخطى الخير والشر ، ونحن بجدنا ندفعها إلى الكمال .

رباه : الماء ينساب بما نسميه الجاذبية ، ونحن لا زرع لنا إلا إذا حفظنا هذا الماء وحكمناه فسقى أرضنا ، ولولا حكمنا له وتسخيره لطاعتنا فى زرع أرضنا لم تكن لنا زروع ، هكذا نفوسنا مجبولة على خصال كما جبل الماء على الانحدار ، وحكمنا أنفسنا وحفظنا لها أشبه بما نصنعه فى الماء من حفظه وسقيه لحقولنا بحكم العقل والجد سقينا حقولنا وهذبنا نفوسنا ، نحن فى علاج أنفسنا وتهذيبها نعانى ما نعانيه فى سقى أرضنا وإنماء زرعنا ، النفس أخت الطبيعة ، والله صانع الجميع : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » . اتحد المصدر والنظام واختلفت المظاهر والأحوال . كتب صباح يوم الاثنين ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٢م .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى أيضا :

(فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها الخ

وفى قوله تعالى : فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة وبدائع الجمال ، وضمنت الميزان ونظم السماء ورصعها بالأنوار ، وزينت القلوب بالحكمة ، فى السماء شموس وأقمار ، ونجوم سيارات وأخرى ثوابت ، وفيها ما لك ونجوم ذوات ذيول بهجة للناظرين ، وعبرة للمفكرين ، وفى الأرض بحار وأنهار وجبال ، وثلوج فى القطبين

وما والاها ، وفى الجو سعادة المفكرين ، وحكمة المستبصرين ، وفيها من الأحجار الثمينة ، والمعادن الظريفة والنقوش البديعة ، والأزهار الرائقة ، والأثمار الشهية ، والآيات البينة ، والحدائق الغناء ، والحقول الواسعة والأمم والممالك والدول مالا يحصره العادون ، ولا يصل إلى غاية كنهه المفكرون .

هذه نظرة عامة فى عالم المادة البديع الكبير ، وها نحن أولاء نبحث فى عالم أرواحنا وعجائب تكوينها ، وجمال وضعها ، وحسن صنعها ، فهاهى ذه أمام بصائرنا أبعد مدى ، وأقوى أثرا ، وأعز ببدائع ، وأجل وقائع ، موشاة بأجمل الزينة ، مرقشة مزخرفة مزينة بكل ماهو جميل وبديع وبهى وبهيج .

أنبياء أرسلتهم ، وحكماء أبدعتهم ، وعقلاء اصطفيتهم ، وصورت فى عقولهم صور الجمال ، ولم تذر أمة من الأمم ، ولا جيلا ولا قرنا إلا نقشت فى قلوب أصفيائهم من الحكمة أسرارا ، ومن العلم آثارا ، ومن نورك قبسا ، ومن آياتك عجبا ! لطائف العقول موزعات على الأمم ، منيرات للسبل ، مسعدات للمستعدين ، مشرقات إشراق الشرقات فى مداراتها ، والأزهار فى جنتها وفى العوالم المادية مصابيح ، وفى العوالم الروحية قناديل ، عالمان مستمدان منك ، فأنت نور السموات والأرض .

ومن أبدع أنوارك ، وأعجب أسرارك ، وأحسن إبداعك أن نرى ونحن فى القرن العشرين ، وأنا اليوم أكتب هذا المقال (صباح يوم الأحد ١٦ من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٢ م) إن أفلاطون يكتب قبل اليوم بنحو ٢٤ قرنا فى الأخلاق ما يكون أشبه بضرب الأمثال لما جاء به دين الإسلام ، وبين تلك الفلسفة وذلك الدين نحو عشرة قرون ، ذم الإسلام التمادى فى الشهوات ، والإكباب على ما أغرمت به المجتمعات ، وقال الله فى القرآن : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ووبخ وزجر وحذر وأنذر ووعد بالعذاب الشديد كل فرد وكل أمة أطاعت هواها فى القوة الغضبية أو فى القوة الشهوية ، القرآن قرر هذا كثيرا ، وجاءت السنة فأكدت ، وجاء فى القرآن وفى الحديث : أن من الناس من يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ولما سئل صلى الله عليه وسلم فى ذلك أفاد أن القدرة لاحد لمداها ، والله لا يعجزه شىء ، فهو القادر على الأمرين ، هذا كله معلوم فى ديننا الإسلامى ، أليس من المدهش أن نرى أفلاطون الذى لم يسمع بالإسلام لأنه قبله بعشرة قرون يقرر نفس هذه الحقيقة على طريق ضرب الأمثال ويأتى فى علم الأخلاق بالعجب العجاب ، وهذا على السنن العام فى هذه العوالم البديعة ، فكما أننا نرى فى السماء مشرقات وفى الأرض أزهارا وأنوارا متلألئات على منوالها ، هكذا نرى أنبياء يوحى إليهم كالمشرقات السماوية الغزيرة الأنوار ، وحكماء وعقلاء يقومون بتفكيرهم مقام الأزهار والمصابيح الواتى أشرقن فى الأرض بصنع الإنسان ، اجتمع العقل والوحى على سنن واحد ، وهو ذم الترف والنعيم واتباع الشهوات ، أوحى الله إلى الأنبياء ذلك وألهم عقول أكابر الحكماء فى الأرض نحوه ، ذلك لأن الحقيقة واحدة والمصدر واحد ، أنوار السماء والأرض من واد واحد ، وحى الأنبياء وتفكير أكابر الحكماء يؤلفان وحدة ، تلك وحدة برزت من حكيم عليم :

ماذا يقول أفلاطون ؟

إنه أولا كان على مشرب أستاذه سقراط ، ذلك الحكيم الذى كان ينفر من الطبيعيات ، فكان مقلدا له فى أول أمره فلما أدبر شبابه وأقبل مشيبه أبدع محاورة جعل قوامها [طيماوس الفيثاغورى] تارة وأخرى جعل قوامها [فيدون] وقد قص بلسان سقراط أستاذه مانصه : « وسمعت ذات يوم قراءة فى كتاب أنكساغورس ، فإذا فيه هذا الكلام : هو العقل الذى رتب الكل ، وهو علة الأشياء كلها » ولكنه ما كاد يخرج بهذا القول حتى اصطدم بعثرات فى كلام أنكساغورس ، فقد جعل علل التكوين كلها راجعات

إلى المادة وتفاعلها لا إلى الصانع الحكيم المرتب للأشياء ، كل ذلك قاله أفلاطون على لسان سقراط الذى أخذ يهزأ بمن يعتبرون العلل الثانوية عللا رئيسية ، فلا علل إلى ما كان من العقل ، وما المادة إلا تابعة له (وذلك بلسان الشرع علم الله القديم) وقد جعل الحركات على قسمين : حركات قسرية خاصة بالمادة ، وحركات ذاتية خاصة بالعقل ، والأولى صادرة عن الثانية دائما ، ثم أثبت أن العالم حادث ، لأنه جسم مرئى ملموس ؛ وكل ملموس متغير ، وهو فى غاية الجمال (هذا المقال كله ذكر بأوضح من هذا فى غير هذا المقام)

العالم خلق على أبدع مثال

(١) يقول : إن العاقل أجمل من غير العاقل .

(٢) العقل لا يكون إلا فى النفس .

(٣) لذلك وضع الله العقل فى النفس ، وجعل النفس فى الجسم ، وجعل العالم كله كائنا حيا عاقلا .

(هذا رأيه الخاص) وكما أن الله يعلم كل ماهو جميل فى علمه ، وهى التى سماها المثل (بضم الميم والثاء) هكذا لما خلق العالم جعله يحوى جميع الأحياء التى من نوعه ؛ فالعالم واحد لأن صانعه واحد ، ونموذجه واحد ، وهو كروى متجانس يدور على نفسه ، والنفس المدبرة لهذا العالم سابقة على الجسم صنعها الله عز وجل بالأمر الإلهى البسيط والجوهرى الطبيعى للتقسم ، وهاهنا أخذ يشرح أولا النفس الكلية المذكورة التى بها نظام هذا العالم وهى هذه لجعلها ذات وجهين كما عرفت ، وقال إنها تدرك الله الذى لا يعتريه الانقسام وتدرك العالم الذى طبعه الانقسام والحدوث ؛ وهذه النفس تشعر بالحزن والسرور ؛ والخوف والرجاء ، والمحبة والبغض ، وقد تخالف قانون العقل فتكون حمقاء فتضطرب حركاتها وتحدث النكبات بالعالم .

وهاهنا أخذ يشرح جسم هذا العالم بعد أن شرح عقله العام على مقتضى ماخطر له وعلى مقدار طاقته ، فشرح العناصر الأربعة على طريقة القدماء ، وذكر أنها ينقلب بعضها إلى بعض ، فإذن يكون العالم فى الأصل مادة غير معينة بالمرة عسرة الفهم غامضة كل مانعقله عنها أنها موضوع التغير ، أو هى مكان للصور الكثيرة ، وجعل النار مؤلفة من ذرات هرمية ذات أربعة أوجه تشبه سن السهم ، والهواء مؤلف فى نظره من ذرات ذات ثمانية أوجه : أى من هرمين ، والماء مؤلف من ذرات ذوات عشرين وجها ، والتراب من ذرات مكعبات ، وهذه العناصر فى ذواتها مضطربات ، ولم يكن لها نظام إلا من جهة مبدعها الحكيم ، فهو الذى شملها بالنظام ، وخلق للشرقات مقياسا للزمان (فالزمان حادث عنده لا قديم) بعكس ماهو شائع فى أمم الإسلام الذين ينقلون ذلك ويعلقون عليه ، ويثبتون وينفون مما تصدعت به الأفئدة وحارت فيه الأفهام .

ويقول : إن النفس المذكورة التى تدبر العالم خالدة ، ولكن خلودها من جهة صانعها لا من طبيعتها .

الكلام على النفوس الثانوية السماوية والنفوس الجزئية فى الأرض

وعلى أخلاق هذه النفوس الإنسانية وعقابها ونعيمها على سبيل ضرب الأمثال

الذى هو المقصود من هذا المقال

معلوم فى ديننا الإسلامى أن لله عز وجل ملائكة ، وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بهذا العالم ويفعلون مايؤمرون ، ومنكر ذلك فى ديننا كافر ، فالإيمان بالملائكة حتم ؛ فانظر كيف احتال هؤلاء على ذلك الإيمان بدون أن يخبرهم نبى بذلك ؛ فماذا فكر ؛ فكر فى أن النفس الكلية المدبرة لهذا العالم قد صنع الله عز وجل من بقاياها نفوسا أصغر منها وأقل منها شأنا تدبر الكواكب ؛ فلكل كوكب نفس (ولله در

ذلك على مانرى أن لكل جسم من أجسامنا نفسا مدبرة)وهذه النفوس الثانوية أقل دقة من النفس الأولى ولكنها خالدة ؛ وخلودها إنما جاء لها من قبل صانعها ؛ لامن قبيل ذاتها ؛ وذلك أن النفس أحسن ماصنع الصانع الحكيم ، فهو يأبى أن يعدم أحسن ما صنع ، وهذه النفوس الكوكبية على مايرى هو قد أمرها الله عز وجل فقال لها : أيتها النفوس ، أناجعلتك مسيطرة على كواكبى ، وحكمى قضت أن أخلق جميع المراتب أرفعها وأدناها ، فهاأنا ذا أخذت ما تخلف من جوهر النفس الأولى الكلية وما تخلف من جواهر نفوسكم الثانوية (كل هذا ضرب أمثال) وصنعت منه مزاجا جديدا وقسمته على كواكبكم وأمرت كل نفس منكم مدبرة لكوكبها أن تأخذ هذه النفوس الصغيرة التى منزلتها أصغر من منزلتكم ، وتضعها فى أجسام مهيأة لقبولها ، وأن تضم إلى هذه النفس الشريفة نفسين مائتين انفعاليتين . فأما أولاها فهى الغضبية التى تشبه غضب النمور والأسود والفهود وجميع الكواسر . وبها الإقدام والجبن واليأس والرجاء ثم قال : ضعوا هذه النفس فى أعلى الصدرين العنق وبين الحجاب الحاجز لكى لا تدنس النفس الخالدة المستقرة فى الرأس . وأما الثانية فهى الشهوية التى بها طلب الغذاء ، فهذه يجب عليكم وضعها فى أسفل الحجاب الحاجز ، فإذا ما انحل هذا المركب عاد الجزء الخالد إلى الكوكب الذى هبط منه ، إن كان صالحا قضى هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة ذلك الكوكب ، وإن لم يكن فإنه يولد ثانية امرأة ، فإذا أصر على شقاوته ولد ثالثة حيوانا شبيها بخطيئته وهكذا بحيث لايخلص من آلامه ؛ ولا يعود إلى حالته الأولى حتى يغلب العقل الشهوة ويصعد السلم فيرجع رجلا صالحا ؛ ودرجات هذا السلم الأنواع الحيوانية التى أوجدتها الخطيئة والجهالة.

﴿ ملخص هذا المقام ﴾

إن الله صنع ذلك ليستوعب جميع المراتب ، فهو الكامل المطلق والعقل العام أقل منه والعقول المنظمة للكواكب أقل ، ونفوس أمثال بنى آدم أقل مرتبة ، وهى لاتعيش إلا مع نفوس مائتة شهوية محلها أدنى من الحجاب الحاجز : أى فى المعدة والأمعاء والكبد والطحال وهكذا ، ونفوس غضبية محلها القلب الذى فى الصدر فى مرتبة أعلى من مرتبة النفس الشهوية . وأما هذه النفس الإنسانية فإن مقرها الدماغ ، ومتى انحل الجسم رجعت إلى كوكبها ، وإن كانت قد تدنست رجعت إلى هيئة أدنى فكانت (كما يزعم) امرأة فإذا أصرت النفس على جهالتها ولدت على هيئة أدنى وأدنى إلى آخر المراتب الدنيا ، فمثلا (كما يزعم) أن الطيور كانوا رجالا مغرمين بعلم الفلك ، ولكن كان بحثهم لايتعدى الظواهر ولايعرفون الحقائق ، فلم يفكروا فى النفس العاقلة ، وصنعت الدبابات من الرجال الذين لم يعنوا قط بالفلسفة ولم ينظروا إلى الأجرام السماوية ، فكانوا منصرفين عن توجهات النفس العاقلة ، منقادين للنفس التى فى الصدر ، فانحنت أعضاؤهم الأمامية ورءوسهم إلى الأرض مجذوبين بما بينهم وبينها من المشابهة ، واستطالت جماجمهم وتشكلت أشكالا عديدة بحسب الكيفية التى جعلت كلا منهم يكبت حركات النفس بالكسل ، وهذا هو السبب فى أنها تولد بأربع أرجل أو أكثر .

ولما كانت الزحافات والديدان أغبى الأحياء زادت للائكة فى عدد قوائمها لشدة انجذابها نحو الأرض وبسط أغبى هؤلاء جسمهم كله على الأرض فحرمهم اللائكة الأرجل فزحفن زحفا . أما الحيوانات المائية فقد نشأت من أشد الرجال غباوة وجهلا ، ووضعت فى أوطأ المنازل . ثم قال : إن الأحياء يتحول بعضها إلى بعض بحسب مايكسبون أو يخسرون .

ثم إن الحكمة اقتضت إيجاد نفوس أخرى غذائية ، وهى الأشجار وجميع النباتات والبذور لاعقل لها ولكنها تحس باللذة والألم والشهوة ، وهى منفعلة أبدا لاحركة لها من ذاتها فكانت حيا مثبتا فى الأرض اه

ياسبحان الله ! نعم إن هذا ليس عليه دليل ؛ وهو مجرد تمثيل ، ولو لم يكن مجرد تمثيل لخر عليه السقف من فوقه ؛ أو ذهب أدراج الرياح. كيف لا ، ألم يقل : إن الرجال الناقصين يولدون نساء أو طيورا أو دبابات أو حيوانات بحرية ، فهل كان هؤلاء الرجال بلانساء ، وأين ذهبت نساؤهم ؛ ثم إن بنى آدم عدد قليل جدا فإذا عصوا جميعا ، فهل أرواحهم مع قلتها إذا عصت تصبح ناموسا وذبابا وغيرهما ، وهذه عوالم نسبتها إلى الإنسان مئات الملايين إلى الواحد ، فكيف يمكن هذا ؟ إذن هو مجرد تمثيل لاغير ، وهو تمثيل مدهش عجيب ! فكيف ينطبق مايقوله من تدبير النفوس الكوكبية للعوالم السفلية على مافى الكتب السماوية؟ وكيف يجعل الذين لايفكرون فى مراتب تحت التفكرين ؟ وكيف يقول: إن النفس الناقصة تتجه وجوهها إلى الأرض وتتجذب نحوها وتمشى عليها بأرجل كثيرة بدل رجلين وتلصق أفواهنا بالأرض ، ومنها ماتزحف بجسمها كله بغير أرجل ، كل ذلك تابع لما تحبه وما تشتهيه من هذه المادة ، وقد حرمت من الجمال الإلهى فى السموات ، بل إن النفوس التى أغرمت بعالم السموات وهامت به ونسيت صانع العالم تنزل درجتها عن الإنسانية فتصير طيورا مرتفعة ظواهرها منخفضة بواطنها .

بل هذا أعجب تمثيل ، لم يرسل لأفلاطون نبى يخبره فاخترع عقله هذا المثل ، وهذا المثل من حيث تأثيره ملخص تفسير آية : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وقوله: « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » إن الترف والنعيم والكسل مهلكات للأمم ، مضيعات للجماعات ، ثم كيف ينطبق هذا المثل على الأحاديث الواردة فى الحشر وفى مراتبها من يمشون زحفا وإن اختلف الوضع ، فأحاديث الحشر واردة فى عالم الآخرة وهذا يقول: إن ذلك بالنتائج فى عالم الدنيا ، وهذا ماوصل إليه عقله ولم يجد له نبيا يعلمه ، ولكن الطريق واحدة وهى أن النفس المنجذبة إلى المادة هالكة والأخرى سعيدة ، ويجمع هذا كله : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » انتهى ضحى يوم الأحد ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م .

اللطيفة الرابعة

فى خواطرى ليلة السبت ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٥١ هجرية لمناسبة سورة : والشمس وضحاها

(١) كنت قبيل السحر أتعاطى الطعام معتزما صوم ذلك اليوم ، وقد خيل لى أن السماء مشرقة أنوار نجومها حولى وكأنى أطالعها ، وهذا الخيال هو الغالب على نفسى حين إشراقها ، إن علامة مسرتى أن أحس فى نفسى بإشراق النجوم وبهجة الجمال والبهاء فى خيالى ، وبينا أنا فى هذه المسرة والبهجة إذ خطر لى أن الأضراس الماضغات الطعام (وإن كان ظاهر فعلها أنه منفعة لسائر أعضاء الجسم) أحسنت لنفسها أيضا . إن الطعام المهضوم الذى أصبح كيلوسا وكيموسا ودما منه استمد كل عضو ما يغذيه ، ومن الأعضاء نفس الأسنان ، إذن هى تخدم العموم وتخدم نفسها ، بل لولا أن الطعام يدور دورته المعروفة ماصلح لتغذية الأسنان .

(٢) لما خطر لى هذا الخاطر عجبت كل العجب من أن هذا المثال هو عينه مثال نظام الفرد مع أمته بل نظام الأمة الواحدة مع الأمم ، إن الإنسان يسعى ويحصل الرزق ، فهو أشبه بضرس يمضغ الطعام ، فهو إن نفع الأمة أو القرية أو الأسرة بسعيه فإن منفعته بكسبه لا تتم إلا بمن معه من أسرته أو أمته أو الأمم ، إذن الأضراس التى تمضغ الطعام صارت مثلا للفرد مع أسرته ودولته وللأمة مع سائر الأمم .

(٣) من عادة أمثال هذه الخواطر أن تكون مناسبة لما يطبع من التفسير ، والذى اقترب طبعه من التفسير الآن (سورة الشمس) فلم أعرف المناسبة بين هذا الخاطر وهذه السورة ؟ .

(٤) وما أشرقت الشمس واستبان ضحاها حتى توجهت إلى المزارع حول [كفر الشرفاء] بالغرب من بلدة المرج ، وكان الجو جميلا ، والمناظر بهجة ، والنسمات تلعب بالمزارع البهجات ، والطيور تصدع . والأغصان تتمايل ذات اليمين وذات الشمال . ولقد راقنى حقول القمح وهن بهجات المناظر ؛ وسنابلها للبيض سناها المجدولة ذوائبها تترنح فوق أعوادها الفضية ذات اليمين وذات الشمال ، وتتخللها حشائش زبرجدية الأوراق ، ياقوتية الأزهار . منظر جمع الشبان والشيب ، والقديم والحديث ، والزبرجد والعقيق .

(٥) هالنى هذا الجمال ، وعجبت من هذا الإنسان كيف عمى عن جمال الطبيعة ، وحوادثها البديعة ؛ وصورها المتحركة ، وغاب عقله فلم يفهم إلا الصور المتحركة الصناعية ، قال الشاعر :

* ليس التكحل فى العينين كالكحل *

(٦) هنالك غابت ذاكرتى ، وغشى على عقلى ، ودخلت فى عالم الأحلام ، خيل إلى أن روحا تخاطبنى وتقول : خواطر بالليل وخواطر بالنهار ، كل ذلك لتفسير سورة (والشمس وضحاها) فقلت فى نفسى * أين الثريا وأين الثرى * فما كاد يتم الخاطر حتى سمعت هذه الروح تقول : إن فى السورة أمرين : الشمس وما ينشأ عنها من الضحى ، وما يتبعها وهو القمر ، وماهو مظهرها وهو النهار ، وما يغطيها وهو الليل ، ومحلها وهو السماء ، وما تشرق عليه وهو الأرض ، ثم إن النفس بفجورها ليلها وتقواها نهارها ، فى العالم شموس ونفوس ، فإذا كان لكواكب السماء عدد معلوم فليكن للنفوس عدد معلوم ، ولكن الناس فى الأرض قد علموا من الشموس ملايين وملايين وهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . هكذا النفوس لاحصر لعددها ، الشموس مضيئة والنفوس مضيئة لكل شمس أنوار تجرى فى الفضاء ولا وقوف لها ولا حد لمجراها كما ثبت فى العلم حديثا ، هكذا لكل نفس أضواء خافية تشرق منها على عوالم وعوالم ، يجلس الرجل فى ضوء الشمس فيظن أنه لاضوء يحيط به سواها ، والحقيقة أن أضواء الشموس وكواكبها لاعدد لها تخترق الجو وتحيط بالإنسان وبغير الإنسان ليلا ونهارا والناس لا يكادون يذكرون ، هكذا النفوس تشرق منها أنوار تخترق الجو كأنوار الكواكب ولكن لا تراها العيون ، فهاهنا إشراق نفوس لاحصر لها وإشراق شموس لا حصر لها ، والعالم كله عجب ! .

(٧) وقد يظن قوم أن المثال المضروب بالأضراس (وهنا دهشت لهذه المصادفة وكيف وافق مافى نفسى) وطحنها الطعام لمنفعة الأجسام ورجوع تلك المنافع ثانيا لغذاء الأضراس بعيد عما ذكرناه من أضواء الشموس وأنوار الكواكب واختراقها الجو ونماء النفوس الإنسانية فى الأرض بها وبما نتج عنها من الأرزاق والمنافع ، كلا ، ثم كلا : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » إن هذه الشموس إنما تدار بنفوس ملكية كبيرة وهى للمدبرات أمرا ، وهذه العقول الكبيرة والنفوس العظيمة تفرح جد الفرح بهذه النفوس الأرضية الصغيرة التى تسعى هى لتكميلها (وهذا هو السر فى تقديم الشمس على النفس) كما يفرح الآباء بأبنائهم والأساتذة بتلاميذهم فرجع السرور إليهم كما رجعت منافع الأضراس إليها بتغذيتها بعد تغذية الجسم . ولكن الفرق أن التغذية هنا روحية معنوية والتغذية فى الأضراس جسمية مادية .

(٨) تحيط القوى المدبرات بهذه العوالم كما تحيط أضواء الكواكب بها ، فإذا كان كل امرئ في الأرض تحيط به أنوار كواكب لاحصر لها وهولا يراها وإنما يرى فقط نور الشمس أو نور القمر هكذا تحيط به أنوار تشرق عليه وهو غير عالم بها لا عدد لها ، وهذا قوله تعالى : « يعلمون ما تفعلون » .

(٩) وإذا عجزت الأرض عن أن تمد الجسم بأضواء تنير سبله وتهديه فهي عن إمداده بالعلوم والآراء أعجز ، للجسم أنوار تحيط به ، وهي التي تعين على نماء النبات والحيوان ، هكذا تحيط بالنفس نفوس ملكية لا يعلم عددها تلهمه الخير ونفوس شريرة تلهمه الشر ، فتكون الأولى كالهواء النقي يعطي الصحة ، وتكون الثانية كالهواء الموبوء المملوء جراثيم قتالة تفتك بالإنسان وبالحيوان ، جسم الإنسان تحيط به الأنوار الحسية ، ونفس الإنسان تحيط بها أنوار العقول الملكية وعوالم الأرض وما اشتق منها أعجز من أن تقوم بأخس الضوءين فكيف بأشرفهما ؟ أليس هذا من عجائب الأسرار في ذكر الشمس ودولتها والنفس وأوصافها في (سورة الشمس) .

(١٠) وإذا ثبت ذلك وتجلى وانكشفت الحجب عنه وظهر للعيان وعرفه الأذكياء في بلاد الإسلام بهذه البراهين اليقينية ، أفلا يكون ذلك برهانا جليا واضحا يفسر لكم معنى قوله تعالى في سورة أخرى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » وقوله : « وهو معكم أينما كنتم » ويكون برهان ذلك أن يقال : إذا كانت أضواء الكواكب كلها التي لاحصر لها تحيط بأجسامنا ولا تغيب عنها ونحن لا نراها وعلوم النفوس الملكية لا تفارقنا فكيف بعلم الله تعالى الذي يتعالى عن الأضواء وعن علوم النفوس الملكية ؟ وقد يقول قائل أين الدليل على أن للنفوس العالية إشراقا متصلا بالعوالم ؟ نقول جوابا على ذلك : إن أهل الأرض اليوم لا يعقلون إلا ما كشفه علماؤهم ، فلينظروا ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية وهي صحيفة « الجهاد » بتاريخ يوم السبت ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٥ ابريل سنة ١٩٣٣ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

اختراع عجيب : جهاز لمعرفة صور الموتى

نشرت جريدة (الديلي اكسبريس) خبرا عن اختراع عجيب قالت إنها علمت بأن أحد المخترعين الألمان قد أرسله إلى الأستاذ (شرنبل سميث) الإنجليزي بقصد تجربته وإصلاحه قبل طرحه للاستغلال ، وقد وصفت الجريدة هذا الاختراع بأنه أعجوبة القرن العشرين ، لأنه جهاز إذا وضعت فيه صورة أي شخص أنبأك في الحال عما إذا كان صاحب الصورة قد توفي أو أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقد انبنى هذا الجهاز على نظرية علمية معقولة ، فقد اتفق العلماء على أن عقل الإنسان أشبه بمحطة إذاعة لاسلكية ترسل أشعة غير منظورة ، ولكن هذه الأشعة تسجلها الصور الفوتوغرافية تسجيلا خفيا فلا تراها العين ، وتظل هذه الأشعة ثابتة في الصورة طالما صاحب هذه الصورة على قيد الحياة . أما إذا مات حتف ولو أدركه الموت وهو في أقصى للصورة ، فإن هذه الأشعة الخفية تنطمس من الصورة الفوتوغرافية في الحال ، لأن العقل الذي كان يشعها قد خمد . وعليه فإنك إذا وضعت في الجهاز صورة فوتوغرافية لشخص ما فإن الجهاز يبين هذه الأشعة أو لا يبينها ، وفي الحالة الأولى يكون الشخص على قيد الحياة وإلا يكون قد توفي . انتهى

فإذا صح هذا في عقول بني آدم وأن أشعتهم تنطمس من الصور إذا فارقوا هذه الدنيا كما ينطمس نور الشمس

إذا فارقت الأرض ، فإن نورهم باق في عوالم أخرى كما أن نور الشمس بات بالليل في عوالم أخرى ، وعلى ذلك يظهر أمران معا : أولا أن النفوس العالية تكون من باب أولى محطات إذاعة لاسلكية تشرق على النفوس الإنسانية ، وهذا هو الذي قدمناه . ثانيا : إن الأرواح الإنسانية بعد الموت لا تزال محطات إذاعة لاسلكية في عوالم أخرى وأعمالها حاضرة معها كما أن ضوء كل كوكب يحيط به ، وهذا قوله تعالى . « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما هي أعمالكم تعرض عليكم » هذا بعض السر في اقتران النفوس بالشموس في (سورة الشمس) .

هنالك استيقظت من غشيق وكتبت خواطر الخيال ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . وبهذا تم الكلام على [سورة الشمس] انتهى .

تفسير سورة الليل

هي مكية

آياتها ٢١ - نزلت بعد سورة الأعلى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى *

مقاصد هذه الصورة

إن الناس فريقان في سعيهم ، قسم يهيئه الله في الدنيا للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال من يستحقها ؛ واحترسوا من الذنوب ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على ما أنفقوه ، ومن الجنة وغيرها ، وقسم يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة مثل دخول النار ، وهم الذين بخلوا بالأموال ولم يتقوا الله بل استغنوا بالشهوات في الدنيا عن نعيم الآخرة ، وأنكروا ما وعد الله من ثواب في الجنة ، ثم ذكر ما لكل منهما من الجزاء في الآخرة ، فقسم يدخل النار ، وقسم يتجنبها .

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى) الليل يغشى النهار وكل ماعلى الأرض فيواريه بظلامه ، والنهار يظهر بزوال ظلمة الليل . واعلم أن كلا من الليل والنهار يغطى أشياء ويكشف أشياء ، فالليل يظهر النجوم ونور القمر ، والنهار يظهر ماعلى الأرض ويخفى مافى السماء من النجوم ؛ نور النهار مستأثر بألوان سبعة اتحدت وكونت ستارة واحدة هى ضوء الشمس أسدلت على السماء فحجبت نجومها وأظهرت ماعلى الأرض من المخلوقات ، فلما رفعت تلك الستارة ليلا انعكس الأمر فظهرت النجوم واختفت المخلوقات الأرضية ، ولعمرى إن مايظهر بالليل إنما هو مجمل العالم كله ، ومايظهر بالنهار ذرة من العالم كله وهى الأرض ، ولكن ظهورها أتم من ظهور الكواكب لأننا نرى فيها الأشياء بالتفصيل وهناك بالإجمال ، وكأن الليل والنهار تمثلان أحوالنا فى الحياة وبعد الموت ، ففى الحياة أنظارنا قاصرة على عالم ضئيل ، وفى الموت نطلع على عوالم لا نهاية لها ، فالأول رمز له بالنهار الذى لم يظهر لنا إلا الأرض ، والثانى رمز له بالليل الذى يرينا سائر الأكوان ، أو كالعلوم التى نقرؤها ، فليطلع الإنسان على مجمل العلوم حتى تكون ممثلة فى ذهنه كما تمثل صور الكواكب ليلا العوالم التى لا تتناهى ، وليجد فى فن واحد يعرف تفاصيله حتى يكون ركنا ترجع له الأمة فيه ، ثم هنا يرد سؤال فيقال : لماذا خص قوله « يغشى » بالليل ، وخص التجلى بالنهار مع أن كلا منهما يظهر شيئا ويخفى آخر ، بل إن مايغشيه النهار أعظم فإن النهار يغطى العالم كله والليل لايغطى إلا عالم الأرض فكان الأقرب أن يكون المغشى هو النهار لا الليل . والجواب على ذلك بوجهين : الأول أن مايهم الخلق فى حياتهم هو الأرض . فأما بالليل فإنهم نيام . والثانى أن الليل لازم لستر الأرض لضوء الشمس ، فالليل طارئ على النهار ومغش له ، لأن نور الشمس دائم والأرض بتحركها يحصل احتجاب نصفها عن الضوء ، فالذى يغشى هو الليل لاالنهار ، وهذا من عجائب القرآن ، وتقدم له نظير ، بل هذا وأمثاله من المعجزات ، فهذه علوم لم تعرف بكثرة إلا فى زماننا ، وقوله (وماخلق الذكر والأنثى) أى والقادر الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل نوع بحيث أنك ترى نوع الإنسان على وجه الأرض إذا عددت المواليد فى دفاتر الأمم وجدت الصنفين متحدين عددا تقريبا ، وهذا أمر عجيب ؛ فإن هذا دلالة على حسن الإتقان بحيث لو زاد الذكور على الإناث أو بالعكس ، أو لو أن أمة من الأمم أتت بالذكور سنين ، أو بالإناث سنين ، أو أهل الكرة الأرضية قصدوا أحد الصنفين بأن خلق الذكور وحدهم أو الإناث وحدهم سنين معدودة لانقرضت تلك الأمم ، أو لا تقرض النوع الإنسانى كله فى عشرات السنين ، وما يقال فى الإنسان يقال فى الحيوان ، ولقد ندمت دولة الإنجليز حظها منذ سنين لأنها وجدت تعداد الإناث فى كل ألف رجل وامرأة يزيد ١٥ امرأة ، فأخذت تندب وتدعو بالويل والثبور وتقول : عندى آلاف مؤلفة من النساء فماذا أصنع ؟ أولا ترى أن ربك سوى بين العددين إجمالا فى أنحاء الكرة الأرضية برحمته ، ولو أنه لم يفعل ذلك لوقع الإنسان فى أشد الضنك ، أو لفنى من على وجه الأرض منه ، أفليس ذلك دليلا أن كل شىء بميزان ، وأنه بعد كل شىء ، وأنه لم يذر أمة إلا جعل فيها كافة مقومات الحياة ، فالصالحون للصنائع المختلفة والعلوم والأعمال العامة يخلقون فإن لاحظت الأمة ذلك نجحت وإلا أهلكتها الأمم ، ألا ترى أن الأذكياء فى كل أمة قليل ، وأن الجبان البارع قليل ،

أولا ترى أن من يصلحون الصناعات اليدوية فى كل أمة أكثر ممن يصلحون المعارف العالية والحكمة الراقية لذلك لأن الأمم لا تخلق فيها لكل نوع من أنواع الحياة إلا على مقداره ، فقل أرباب الفكر وكثر أرباب العمل ، وقد ألفت لهذا كتابا سميته [أين الإنسان] قد بينت فيه سياسة الإنسان كله على هذه النظرية وقد أثبت ملخصه المكتوب فى تقريظ بعض فلاسفة التليان بمناسبة قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » الخ فى (سورة الحجرات) فى المجلد الثانى والعشرين من هذا التفسير ، ولعمرى إن هذه أيضا من عجائب الله وعجائب القرآن ، وقوله (إن سعيكم لشتى) أى أن مساعيكم لأشتات مختلفة جمع شتيت (فأما من أعطى) حقوق ماله (واتقى) ربه فاجتنب محارمه (وصدق بالحسنى) وأيقن أن الله سيخلف عليه ما أنفقه فى طاعته وصدق بالجنة وصدق بوعد الله فى كل شىء (فسنيسره) فسنهيئه فى الدنيا (لليسرى) أى للخلة أو الفعلة اليسرى ، وذلك بأن يعمل بما يرضاه الله ، ويكون يوم القيامة فى يسر وراحة فيدخل الجنة ويلقى ربه (وأما من بخل) بماله (واستغنى) عن ربه فلم يتقه وصارت شهوات الدنيا مغنية له عن نعيم العقبى (وكذب بالحسنى) أى وكذب بأن الله يخلف عليه ما أنفق فى سبيل الله ، وبوعد الله الذى منه الجنة ، ولا جرم أن ذلك يدخل فيه التكذيب بلا إله إلا الله (فسنيسره للعسرى) أى الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ، وذلك بأن يفعل الشر فى الدنيا ويعمل بما لا يرضاه الله (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) أى لا ينفعه ماله الذى بخل به إذا هلك ، وفعل تردى من الردى ، وهو الهلاك ، ويقال تردى أيضا سقط كالسقوط فى بئر أو نحوه ، وهنا يكون السقوط فى جهنم (إن علينا للهدى) أى إن علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وإنزال الشرائع (وإن لنا للآخرة والأولى) فلا يضرنا ضلال من ضل ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى (فأنذرتكم) خوفتكم (نارا تلظى) تتلهب (لا يصلاها) لا يدخلها للخلود فيها (إلا الأشقى . الذى كذب وتولى) أى إلا الكافر الذى كذب الرسل وأعرض عن الإيمان بالله (وسيجنبها) وسيبعد منها (الأتقى) الذى اتقى الشرك والمعاصى معا ؛ أما المؤمن الذى اتقى الشرك ولم يتق المعاصى فانه لا يجنبها ، وقد يدخل يوما أو مئات السنين أو أكثر على حسب جهله وفسقه ، وقوله (الذى يؤتى ماله) أى يصرفه فى مصارف الخير (يتزكى) بدل من يؤتى : أى يطلب عند الله أن يكون زاكيا لا يطلب بما ينفقه رياء وسمعة (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) فيقصد بإيتائه مجازاتها ولا يؤتى (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) لا لمكافأة نعمة (ولسوف يرضى) وهذا وعد بالثواب العظيم الذى يرضى هذا المنفق ، وهذه الآيات وإن كانت عامة لا تنافى أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، اشترى بلالا مع جماعة يؤذيهم المشركون فأعتقهم ، فيقال : المراد بالأشقى أبو جهل وأمية بن خلف ، ويقال إن أمية بن خلف كان يخرج بلال بن رباح إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيقول وهو فى تلك الحال أحد أحد ، فأنقذه أبو بكر رضى الله عنه بأن استبدل به عبدا عنده وأعتقه ، وهكذا أعتق غيره ممن ذكرهم عمار بن ياسر فى شعره الذى أوله :

جزى الله خيرا عن بلال وصحبه عتيقا وأخزى فاكها وأبا جهل

وعتيق اسم أبى بكر . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

تذكرة

أنظر فى إقسام الله عز وجل بالليل وبالنهار ، وارتقب ما سيأتى فى (سورة العصر) من أن هذه الأقسام فى القرآن مفاتيح العلوم ، وإنها فى البلاغة فوق إقسام العرب بما لا يتناهى من الكمال اهـ .

معلومات عامة عن الكون

وبهجة العلم الناضرة في سعة ملك الله تعالى التي شوق عقولنا لها بأن ذكر الشمس وضحاها والسماء وبروجها ، والفجر وجماله ، والليل ووقاره ، فلنذكر الآن آخر ماوصل إليه العلم في زماننا من ذلك ونحن في آخر التفسير تذكرة لمن بعدنا ، والله هو الولي الحميد .

آخر ما وصل إليه العلم الآن : أي سنة ١٩٣٣ م

تقدم في هذا التفسير أن في عالمنا سدما كثيرة (جمع سديم) تبعد عن مجرتنا ، ومجرتنا فيها آلاف الملايين من الشموس ، فأبعد السدم اللولبية تبلغ مسافتها ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومعلوم أن الضوء يجري في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل أو ٣٠٠ ألف كيلو متر ، وهو يجري حول الأرض نحو ثمان مرات في الثانية الواحدة ، فهذا الضوء يجري من ذلك السديم ١٤٠ مليون سنة في الجو حتى يصل لنا ، ولكن (أينشتين) يقول : إن محيط الكون نحو ألفي مليون سنة ضوئية ، ثم إن متوسط بعد كل مجرة عن أخرى مليون وثمانمائة ألف سنة ضوئية : وبعد سديم المرأة المسلسلة عن المجرة ٩٠٠ر٠٠٠ سنة ضوئية ، وقطر المجرة ٥٠ر٠٠٠ سنة وبعد الشعرى عن الأرض نحو ٩ سنين ضوئية تقريبا ، والسنة الضوئية تبلغ ٩ مليون مليون كيلو متر ، وقطر المجموعة الشمسية عشرة آلاف مليون كيلومتر ، وقطر القمر ٣٤٨٠ كيلومترا وطول الباخرة (أوروبا) ٢٨٥ مترا ، أطول أمواج الصوت ١٦ مترا ، متوسط طول الانسان ١٧٢ سنتيمترا أقصر أمواج الصوت ١٧ مليمترا ، والمليمتر يعادل ألف ميكرون ؛ أصغر الدقائق التي ترى ٥٠ ميكرونا ، والميكرون يعدل ألف مليكرون ، خلية الدم الحمراء ٨٠٠ مليكرون ، موجة النور الأحمر ٧٧٠ مليكرونا أصغر الدقائق الكروسكوبية ٣٠٠ مليكرونا ؛ أقصى أمواج أشعة وراء البنفسجي ١٣ مليكرونا ؛ المليكرون يعدل ألف ميكرومكون ؛ المسافة بين ذرات الكبريت ٩٠٠ ميكرروميكون وبين ذرات الفضة ٤٠٠ ميكروميكون ، إذا مثلنا الحجرة بتفاحة فان الكون كله يكون كرة قدر الأرض . انتهى .

هذا هو نهاية الكلام على (سورة الليل) : وقد كتبت ذلك في أول مايو سنة ١٩٣٣ ميلادية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الضحى

هي مكية

آياتها ١١ - نزلت بعد سورة الفجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ *

هذه السورة فيها مقصدان (الأول) : أن الله ماقطع رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أبغضه ، بل هو مديم النعم عليه ، منزل البركات والوحى له ، وأنه سيمده فى المستقبل فى الآخرة ، ويعطيه حتى يرضيه ، وذلك من أول السورة إلى قوله : ولسوف يعطيك ربك فترضى » . (المقصد الثانى) تذكيره صلى الله عليه وسلم بنعمه عليه فيما مضى ، وأنها دليل على أن من أعطى فيما مضى لابد أن يعطى فيما سيأتى ، ثم طلب منه الشكر على هذه النعم ، وذلك من قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » إلى آخر السورة .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

روى أن الوحى تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما فقال المشركون : إن محمدا ودعه ربه وقلاه ، فنزل قوله تعالى (والضحى) هو النهار كله (والليل إذا سجى) سكن أهله وأصواتهم فيه (ماودعك ربك) ماقطعك قطع المودع ، وفى قراءة (ماودعك) بالتخفيف بمعنى ما تركك (وما قلى) أى ما أبغضك وحذف للفعول استغناء بذكره من قبل ، فهو مديم عليك الإنعام والإحسان ، ولا تزال بعد ذلك يا محمد فى ارتقاء ، وتكون نهاية أمرك خيرا من بدايته ، فلا أزال أوليك النعم وأنت تتصاعد فى العلياء فى الدنيا والآخرة (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فلا تزال ترى فى نفسك زيادة فى الكمال ، وفى أمرك ظهورا ، وفى دينك علوا ، وفى أمتك اتساعا . وفى آخرتك نعما وقربى من ربك : أى ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى . ثم عدد عليه نعمه فكأنه يقول له : مالك تقطع رجاءك فينا ؟ ألست الذى ربيتك وآويتك وأنت يتيم صغير ، أتظننى تاركك ومضيعك كبيرا ؟ فلابد أن أتم نعمى عليك . أولست الذى أغنيتك وأنت فقير ، وعلمتك وأنت غير عالم ولا واقف على معالم الشريعة ؟ ثم أمره ألا يقهر اليتيم لأنه كان يتيما ، وألا يزجر السائل سواء أكان سائل مال أو سائل علم ، وأن يحدث بالنبوة التى أنعم الله عليه بها فإنها أجل النعم ، فليعلم الناس ماعلمه الله ، وذلك قوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى) وهو من الوجد بمعنى العلم : أى ألم تكن يتيما حين مات أبوك فآواك إلى عمك أبى طالب وضمك إليه حتى كفلك ورباك (ووجدك ضالا) عما أنت عليه اليوم من أحكام الشريعة (فهدى) فهداك وعرفك الشرائع والقرآن (ووجدك عائلا) أى فقيرا (فأغنى) فأغناك بمال خديجة ، ثم بما أفاء عليك من الغنائم (فأما اليتيم فلا تقهر) أى فلاتفعل ماتفعله قومك فإنهم يغلبونه على ماله وحقه لضعفه ، أو فلا تحقر ، وقرىء « فلا تكهر » أى فلا تعبس فى وجهه (وأما السائل فلا تنهر) فلا تزجره فابذل قليلا ، أو رد جميلا ، ولا فرق بين طالب المال وطالب العلم فكلاهما مطلوب إكرامه (وأما بنعمة ربك فحدث) أى بالنبوة ، ويدخل فى ذلك تعليم القرآن والشرائع. انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة

اعلم أن هذا القسم وأمثاله سيذكر حكمها فى (سورة العصر) كما ذكرناه سابقا ، والإقسام بالضحى وبالليل لأمرين: (الأول) أن الله عزوجل ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم بعموم رحمته وظهور جماله وحكمه ليلا ونهارا ولاجرم أن من يطلع على هذه العوالم يدهش للعلم والقدرة اللتين اتصف بهما خالقهما ، والإحسان الواسع ، والإحكام لكل شىء ، فمن هذا نظامه وهو معدن الإحسان على البر والفاجر أفلا يكون البار الذى

ينشر الخير أولى بأن تدوم النعم عليه منه (الأمر الثانى) أن النهار وقت تبليغ الدعوة والليل وقت التضرع والدعاء والتهجد ؛ ومن هذه حاله فإن الله لا يخزيه فإذا كان نهاره فى إرشاد ؛ وليله فى جد واجتهاد وازدياد فكيف يتركه ربه ، ولا جرم أن كل من اتصف بصفات الكمال ودعا إلى الحق على قدمه صلى الله عليه وسلم تكون أيامه فى إقبال ، وآخرته أرقى من أولاه ، فلتجرب أيها الذكى فالتجربة خير كفيل ، هذه دروس ألقيت على الناس .

اعلم أن الله إنما ذكر هذا ليذكرنا نحن أن كل مايعرض لنا من مرض وذل ، وإهانة وفقر ، وتحزب أوروبا علينا ، واستعبادهم للجبناء منا ، ومافى داخل بلادنا من تخاذل وتضارب فى المصالح ، إنما ذلك لنجد فى الخروج منه ، ونحن فى أيام ابتلائنا به نتقلب فى ضروب من الهوان ، فلا يزال المفكرون يجاهدون حتى يخرجوا من ظلامهم الحالك وليلهم الطويل ، فإذا أشرقت شمس سعادتهم ، فأصبحوا وأضحوا مستقلين ، فلتكن مصائبهم للماضية دروسا لهم فليحترسوا أن يقعوا فى أمثالها ، ولكن تلك الذكرى مرقية للأمم وللأفراد ، وما من امرئ إلا وانتابته نوائب من دهره ، وما بعثها الله له إلا لتكون بعد زوالها ذكرى ناضة ودرسا مفيدا يرفع النفوس إلى علاها ، ذلك هو مقصود القرآن ، والله هو الولى الحميد .

هذا هو نهاية الكلام على (سورة الضحى) وقد كتبت ذلك فى ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانشراح

هى مكية

آياتها ٨ - نزلت بعد سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم نشرح لك صدرك) استفهام بمعنى التقرير ، فكأنه قال : لقد شرحنا لك صدرك : أى فسحناه بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع أعباء النبوة ودعوة الناس قاطبة ، فأزلنا عنه الضيق والحرج الذى يعترى النفوس فيصدها عن العلم والحكمة ، وينفرها من تحمل أذى الناس ومن جهم) ووضعنا عنك وزرك) أى حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، والوزر فى اللغة الثقل ، فجعلنا التبليغ عليك سهلا ونفسك مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم ، وذلك كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم ، فالعبء ثقيل ولكن خففه ماجاش بقلوب الآباء من العطف والشفقة على الأبناء ،

فهم يتحملون الأعباء راضين بما يقاسون في سبيل ما يريدون من نمو الأبناء والبنات وحياتهم ، بل لذات الأنبياء بما يعملون أغزر من لذات الآباء بما يكسبون لأبنائهم ، ثم إن العلماء ورثة الأنبياء ، فمن وجد في نفسه انشراحا لنشر العلم والفضيلة ، وللسانه أو قلمه قبولا ، فهذا هو الذي شرح الله صدره ، فليقم حالا بنشر العلم ، وليعلم أن معنى انشراح صدره ، ومعنى قبول الناس لكلامه الإذن له أن يكون داعيا ، وأنه شرح صدره تبعا لنبيه صلى الله عليه وسلم فليس شرح الصدر خاصا بالأنبياء ، بل تشرح صدور تابعيهم الذين عندهم استعداد فيقودون الأمم التي يخلفون فيها ، ويكون خلفاء الأنبياء على مقدار انشراح صدورهم ولذاتهم ، وقوله (الذي أنقض ظهرك) أي أثقله وأوهنه ، والنقيض هو الصوت الحنّ الذي يسمع من المحمل أو الرحل فوق البعير ، ومنه أخذ لفظ : أنقض (ورفعنا لك ذكرك) بالنبوة وغيرها فقرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخطب والتشهد ، فلا خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قال تعالى : وإنما فعلنا ذلك لأنا سهلنا الأمور لمن هم أهل لها ، فبدل عسرهم باليسر ، وإذا ضاقت صدورهم شرحناها لما هم بسبيله ، وفرجنا كربهم فيما هم بسبيله ، لأنا كتبنا على أنفسنا الرحمة ، فهيأنا كلا لما هو بصدده وساعدناه لا سيما الأنبياء (فإن مع العسر يسرا) كالشرح للمذكور والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة ، فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يغمك ، فشدتك التي أنت فيها من جهاد المشركين يعقبها يسر سريعا كأنه مصاحب للشدة السابقة عليه ، وذلك بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتم به ، وهكذا فعلنا مع جميع مخلوقاتنا : فرحمتنا شاملة ، تقرن عسرهم باليسر إنقاذا لرحمتنا وتعميما لإحساننا ، ثم كرر ذلك لتأكيد الرجاء في قلوب الناس علمائهم وجهلائهم ليطمئن كل بأن الله سيخرجهم من المآزق التي يقعون فيها سواء أكانت دينية أو دنيوية . وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال « أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر عسرين » وإنما جعل العسر واحدا لأن هناك قاعدة أن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول ، والنكرة إذا أعيدت نكرة كان الثاني غير الأول ، فعلى هذا انحصر العسريين يسرين كما قيل :

فيوم لنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسر

ثم قال تعالى (فإذا فرغت) من التبليغ ومن الغزو (فانصب) فاتعب في العبادة شكرا لنا على نعمنا السابقة ، وعلى ما ستناله من النعم الآتية بوعدنا ، فإياك أن تضيع وقتا من أوقاتك ، فإما تبليغ أو جهاد أو عبادة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لأكره أحدكم فارغا سبهللا ، لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته . (وإلى ربك فارغب) بالسؤال ولا تسأل غيره ، فإنه القادر وحده على إسعافك ، أو فاجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة

شرح الله صدر رسوله ورفع عنه عبء النبوة بأن خففه عنه بما يحس في نفسه من الهمة وربما يرى في الخارج من اتساع دائرة الإسلام وهكذا ، ورفع ذكره في جميع الأمصار ، وجعل عسره متبوعا ليسر حتى كأنه مقارن له ، لذلك أوجب عليه ألا يضيع وقتا من أوقاته ، فإذا فرغ من الجهاد أو من التبليغ فليعبد الله ، وإذا فرغ من الصلاة فليدع الله ، وليكن متوجها إليه في سائر الأحوال .

واعلم أن التجربة أظهرت ذلك ، وذلك أن الدعاة جميعهم لا يقبل قولهم ، ولا يصغى الناس إلى ما يقولون

أو يكتبون إلا إذا كانوا فى بعض الأوقات يتفرغون لربهم بصلاة مع حضور القلب، أو ذكر بشرط أن يكونوا كأنهم يخاطبون ربهم ، وكلما أوغلوا فى العبادات والذكر مع حضور قلوبهم استعدوا للرقى فيما هم بصدده من العلوم والإرشاد إن لم يكن مقرونا بذلك فلا أثر له ، لأن القول إنما يؤثر من صاحب الوجدان والوجدان فى الأمور الدينية لن يكون إلا بالذكر والعبادة اهـ .

ورد فى بعض الأخبار أن الله خاطبه صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قال بلى يارب ، قال: ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ قال بلى يارب قال ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ قال لى يارب قال ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك ؟ قال بلى يارب . وإنما ذكرت هذا لأن السورتين المتجاورتين فى مقام واحد وكأنه تعالى يقول : إن من أحسن إليك أولا سيحسن لك آخرا . وبهذا انتهى تفسير [سورة الانشراح] وقد كتبت ذلك فى ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التين

هى مكية

آياتها ٨ — نزلت بعد سورة البروج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ *

هذه السورة أقسم الله فيها بفاكهتين هما : التين ؛ والزيتون ؛ وبمكانين مرتفعين من الأرض : هما طورسينين ، ومكة ، على أن الإنسان خلق فى أحسن صورة وقامة وكمال ، ثم إنه رد إلى النقص فى خلقه ، ففى جسمه بالهرم ، وفى عقله بالخرف ، وقد يكون فى عقيدته بالكفر ، فالإنسان يعتريه نقص مادى ومعنوى فعليه إذن أن يؤمن ويعمل الصالحات حتى يفوز فى الآخرة ، وما يصيبه فى الدنيا من شر يكون زيادة فى ثوابه ، إن ما يحتاج إليه الإنسان فى الحياة الدنيا طعام وشراب ولباس ومسكن وجماعة يتحد معهم فى بلدة أو أمة ، فالجبال مبادئ الأنهار ، ألم تر أنها تحجز السحاب بين اثنين منها حتى إذا خرج البخار من البحر جرى فى الهواء بين الجبلين حتى يذهب إلى الجهات التى خصه الله بها ، فالجبال إذن كأنها مسنيات حفظ الله بها السحاب إلى أماكنها ، فالجبال تمنع الهواء وتمنع السحاب أن يلتوى عن مقصده الذى سيمطر فيه ، وهى أيضا مخازن المياه فتبقى فيها وتخرج منها عيونا وينابيع ، وأيضا فوق الجبال تكون الثلوج التى تحلل الشمس المشرقة عليها أجزاءها الثلجية فتنزل ماء على الأنهار تمدها لمنافع الإنسان والحيوان ، فالجبال خلقت فى الأرض لأعظم الحكم ، وأيضا هى متصلة بالطبقة الصوانية التى تحيط بالكرة النارية ، وهذه الطبقة لو أزيلت لم تبق

أرضنا ، بل تذهب أدراج الرياح، فالجبال حفظ للأرض من التفتت، ومخزن للماء ، ومنبع الأنهار ومعدانها ، والماء به يعيش الحيوان والنبات ، والنبات منه ملابس ودواء وفاكهة ، والفاكهة سبعة أقسام ذكرت فى (سورة عبس) والتين والزيتون منها ، فالحيوان والنبات حاصلان من الماء الذى كان أعظم مخزن له الجبال ، ثم إن الإنسان لا يهنأ له الطعام ولا الشراب ولا الملابس التى مبدؤها الجبل إلا بجماعة يتعاونون وهو معهم ، وبالبلد تكون الصناعات والعلوم والمساعدات ، فهنا عملان : عمل إلهى : وهو إخراج النبات وتنويعه وتنويع الحيوان وإكثار الماء وحفظه ، وعمل إنسانى يتعاون الناس وصناعاتهم ، لحياة الإنسان لا تقوم إلا بهذين ، ماء ومواليد من حيوان ونبات يرمز لها بالجبل والتين والزيتون ، ونظام فى المدينة يرمز له بهذا البلد الأمين فالتين والزيتون اللذان هما نوعان من الفاكهة رمز إلى ماهو من الناميات الحيوانية والإنسانية وما يتقدم ذلك من الماء الذى منشأه الجبال المذكور أحدها . وهو طور سينين ، ولا جرم أنه راعى مصالح الإنسان فلم يهمل الجبل الذى ارتقاه نبى عظيم من الأنبياء ، وهو موسى عليه السلام . ولم يخل بأمر حياته من مأكل وملبس ودواء حتى الفاكهة التى قد يستغنى عنها فإنه نوعها راحة له وحفظا لكيانه ، والفواكه كصحة للأبدان مقوية لها كما جاء فى الطب الحديث : إن الإكثار من الفواكه لا يجعل للأمراض سبيلا على الناس ، وكم من امرئ أكثر من اللحم فانتابته الأمراض فوصف له الأطباء أنواع الفاكهة كى تصفو أجسامهم من العفونات ، ونفوسهم من الغم المخيم بسبب الأمراض ، فإذن العلوم للنفوس كالفواكه للأبدان ، فلذلك خص الجبل الذى تجلى على موسى ربه فوقه بالذكر ، لأنه اقترن بما يرقى النفوس من العلوم والأخلاق ، كما أن التين وما شاكله يطهر الأبدان من الأمراض . فإذا كانت عناية الله أولت الإنسان كل ما سأله من مطاعمه ، وما يتبعها من الماء النابع من الجبال ، وأورثته مافوق الحاجة من فاكهة نافعة ، وعلم رافع لنفسه عن الجهالات ، فهذا غاية مايصنع من الجميل لأجل هذا الإنسان ، لا جرم أنه يخلق فى أحسن صورة ، ويجمع فى خلقه نظائر من سائر الكائنات ، لأنه بها جميعها قوامه ، فالقسم كأنه مقدمة للمقسم به ، فإن من يخلق فى أحسن صورة مستجمعا من كل عالم نظيره لابد أن يكون تركيبه فى غاية الدقة والنظام حتى يحفظ تلك العجائب فيه ، وهكذا خصت البلدة التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لظهور النبوة فيها ، والحكمة فيها كالحكمة فى تخصيص الطور بالذكر . وإذا كان الأمر كذلك فلسنا فى حاجة إلى أن نقول إن منافع التين عظيمة ، فهو غذاء سريع الهضم ، ودواء نافع يلين الطبع ، ويحلل البلغم ، ويطهر الكليتين . ويزيل رمل المثانة ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويسمن البدن ونحو ذلك ، كذلك لسنا فى حاجة إلى أن نقول إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء ، وله دهن لطيف كثير المنافع ، بل هو يمد السراج الذى يضىء للناس وهكذا أقول لسنا فى حاجة إلى ذلك . لأننا اعتبرنا جميع النبات ولم نقصره على ماذكر إلا كما جعلنا الرقبة عبارة عن العبد ، أو كما جعلنا الرأس عبارة عن نفس الكبش ، ولنشرع فى التفسير اللفظى للسورة فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والتين والزيتون) الذين يأكلهما الناس (وطور سينين) الجبل الذى ناجى عليه موسى عليه السلام ربه ، وسينين وسيناء اسمان للموضع الذى هو فيه (وهذا البلد الأمين) أى الآمن ، يقال أمن الرجل أمانة

فهو أمين ، وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ، أو يقال المأمون فيه ، يأمن فيه من دخله والمراد مكة (لقد خلقنا الإنسان) أى جنسه (فى أحسن تقويم) تعديل قامته منتصبة ، وصورته حسنة وحواس الكائنات فيه مستجمعة ، وقواه الباطنة تامة ، وحواسه كافية ، وأعضاء بطنه ، وعمله بما يحتاج إليه قائمة (ثم رددناه أسفل سافلين) إما يرده إلى أرذل العمر فتنكس خلقه ، وتقوس ظهره بعد اعتداله ، وتبيض شعره بعد اسوداده ، وتغير جلده بالانكماش وسمعه وبصره بالضعف ، ويمشى دلفا وهو ضعيف القوة خافت الصوت ، وإما بضعف قواه العقلية بالخرف وقت الهرم ، وإما أن تحول بينه وبين قلبه فيعتقد اعتقادا يضر فى دنياه وآخرته فتدخله جهنم ، فهذا قوله تعالى « ثم رددناه » بعد ذلك الكمال الجسمى والعقلى أسفل من سفلوا بتشويه صورة أو عقل ، أو دخول جهنم ذليلا (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإننا لا نرد بعضهم إلى أرذل العمر كما قال ابن عباس : ومن رددناه منهم فأصبح شيخا هرما فإنا نعذرهم ونكتب لهم من الثواب مثل ثواب ما كانوا يعملون وقت شبابهم ، قال عكرمة : مايضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل ، وقوله (فلهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع ، فهؤلاء لهم أجر بغير عمل (فما يكذبك بعد بالدين) أى فما الذى يلجئك أيها الإنسان إلى هذا الكذب ، ألا تتفكر فى صورتك وشبابك ومبدأ خلقك وهرمك فتعتبر وتقول : إن الذى فعل ذلك قادر أن يبعثنى ويحاسبنى : فما الذى يلجئك أن تكذب بالدين ؟ أى بالحساب ، ويصح أن يقال : فمن الذى يكذبك أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل والبراهين على قدرة الله على كل شىء من الأحوال ، والسؤال واحد فى المعنى المقصود (أليس الله بأحكم الحاكمين) أى بأقضى القاضين يحكم بينكم وبين أهل التكذيب يوم القيامة . انتهى التفسير اللفظى .

جوهرة فى بعض أسرار قوله تعالى :

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ومحاسن الصنع والجمال ، رباه ظهرت آياتك وبهرت مصنوعاتك ، تنظر فى جمال المادة فيدهشنا ، وننظر فى رموز الكتاب العزيز فيبهرنا ، تخبرنا بأنك خلقتنا فى أحسن تقويم ، ثم حكمت علينا بأن نرد إلى أسفل سافلين ، إن لنا عقولا محكمة الوضع بهية النور مشرقة الجوانب كالكواكب السيارة والثابتة ، أبدعتها يارباه بحيث جعلت لكل واحدة منهما خاصة لا تشارك فيها سواها ، وجميع الحواس تكون نظاما واحدا مقدسا تاما ، فهى كلها أشبه بجسم واحد حيوانى أو إنسانى .

رباه : خلقتنا فى الأرض وأطلقت حريتنا وقلت : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، فانتهزنا إطلاق الحرية وأخذنا نرجع القهقرى فى أقوالنا وأفعالنا ، وتغالينا فى المطاعم والملابس والزخرف والزينة وانقطعت الصلة بين العقول المنتظمة أوضاعها وأوصافها ونتائجها وغرائزها ، فأخذ بعضنا يعادى بعضا حبا للسيطرة ، وأخذت كل أمة تجادل الأخرى ، وهم فى غيهم مهطعون ، تلك هى حالنا يارباه ، وهذه الحال أسفل سافلين ، ولن يرجع الناس إلى سعادتهم الممكنة فى هذه الحياة إلا إذا قيست عقول الناس بمقياس الذكاء العلمى المنتشر الآن فى مدارس التعليم فى الغرب والشرق ، وبهذا الميزان تقسم الأعمال العامة فى العوالم الأرضية على العقول الإنسانية باستعدادها ، ذلك هو الميزان المنصوب وهو فى السماء والأرض الذى أمرنا بألا نطغى فيه ، ذلك هو الميزان ، وهذا هو الذى أمرنا الله ألا نطغى فيه ، وهذا المعنى مأخوذ من الآية على

سبيل الرمز والاعتبار أو الإشارة لأنه وافق الحقائق العلمية المستكنة فى العوالم الأرضية والسماوية : « إن الله سريع الحساب » ، « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » . انتهى تفسير (سورة التين) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة العلق

هى مكية

آياتها ١٩ - وهى أول ما نزل من القرآن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *

مقاصد هذه السورة

(١) ذكر حكمة الله عز وجل فى خلق الإنسان ، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة جدا لا تزيد على واحد من ثلاثة آلاف من الفيراط ، وهى مدورة ملوية أشبه بالعلقة ، فهذه الجرثومة الصغيرة هى التى خلق الله منها الإنسان ، ورقاه درجات تدهش العقول جسما وروحا ، وكيف ينتقل من حال المهانة فى الرحم ويعظم جسما وعقلا وحواس حتى يكون ملكا أو نبيا أو عالما بعد أن كان هناك ذرة منبوذة مجهولة لا تراها العيون ؛ ولا تعبأ بها النفوس ، هذا من أعجب العجب وأبدع الحكم خفاء فظهور وحقارة وكرامة ودهشة وحيرة للعقول .

(٢) وذكر أنه أوسع كرما ، وأغزر إحسانا ، وأرحم وأرأف من أن يقصر الإنسان على ما جرى فى جسمه من الكمال ، بل إنه علمه البيان وأفهمه العوالم ، وذلك بالتعلم والقراءة والكتابة ، فالله أكرمه بنظام جسمه وزاد فى الإكرام بترقية عقله ؛ وهو إفاضة العلوم عليه ، فالله أكثر كرما بهذا العمل .

(٣) وتبيان أن هذه النعم (مع توافرها فى جسم مملوء حكما وعقل مبدع منور بالعلوم والكمالات) فضل عنها الإنسان إذا رأى نفسه غنيا ، فظن أن الغنى هو نهاية الكمالات : وقال : ليس لى بعد

هذا مأرب ، فأخذ يدعو الناس إلى جهالاته ، ويذب عن طريقته ، فمثل هذا بالعقاب جدير ، وهو في جهنم يوم القيامة . فهذه هي المقاصد الثلاثة لهذه السورة .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقرأ باسم ربك) أي اقرأ القرآن مفتتحا باسمه سبحانه ومستعينا به (الذي خلق) أي الذي خلق كل شيء ، ثم بعد التعميم أخذ يخص الإنسان بالذكر لشرفه وللدلالة على وجوب العبادة شكرا على نعمة الخلق فقال (خلق الإنسان من علق) جمع علقة : أي دم عبيط كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما (اقرأ وربك الأكرم) وكيف لا يكون أكرم وهو قد علم عباده مالم يعلموه ، ونقلهم من ظلمة الجهالة إلى نور العلم فقال (الذي علم) الكتابة (بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) فهذا هو وجه كونه أكرم في حق العبد ، فهو إذ خلقه كريم ، وإذ علمه فهو أكرم ، لأنه أعطاه فضلا على فضل ونورا على نور ، فهذه زيادة في الكرم ، ولعمرك لولا القلم ماحفظت العلوم ، ولا أحصيت الجيوش ، ولا بقيت الحكومات ، ولضاعت الديانات ولأصبح الإنسان أدنى إلى الحيوان ، فلا صناعة شريفة ولا علوم منيفة ، أفليس هذا زيادة في الإكرام والكرم ؟ (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله لطغيانه ؛ وإنما لم يذكره لأنه معلوم من المقام (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) أي أن رأى نفسه استغنى ، ثم هدده فقال (إن إلى ربك الرجعى) هدد الإنسان على طغيانه قائلا له على سبيل الالتفات : إن رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى . أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى) أي أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتقوى والناهي مكذب متول عن الإيمان ، أي شيء أعجب من هذا ؟ والذي ينهى عبدا هو أبو جهل ، ومثله كل من يفعل مثله ؛ فقد جاء في حديث البخاري : عن ابن عباس قال قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة ، وقوله « أرأيت » الثانية تكرير للأولى ، فالذي على الهدى وأمر بالتقوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي كذب وتولى هو أبو جهل ، فأرأيت استفهام على سبيل التوبيخ والتعجب ، والذي ينتهي مفعول أول لقوله أرأيت ، والمفعول الثاني هو قوله : « إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى » وقال في قوله : « أرأيت إن كذب وتولى » كذلك ، وجواب الشرط فيها مذكور وهو قوله : « ألم يعلم بأن الله يرى » دل على المحذوف في الجملة الأولى ، وهذا التركيب كما تقول إن أكرمتك أتكرمني (كلا) ردع للناهي (لئن لم ينته) عما هو عليه (لنسفعا بالناصية) أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة ، والناصية شعر مقدم الرأس ، ثم أبدل منها قوله (ناصية كاذبة خاطئة) أي صاحبها كاذب خاطئ .

روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال ألم أنهك ، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا فنزل قوله تعالى : (فليدع ناديه) أي أهل ناديه : أي مجلسه ليعينوه (سندع الزبانية) هم الشرط ، الواحد زبنية من الزبن وهو الدفع ، والمراد ملائكة العذاب ، وعنه عليه السلام : « لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا » (كلا) ردع لأبي جهل (لاتطعه) أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه (واسجد) ودم على سجودك (واقترب) وتقرب إلى ربك في سجودك فإن أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، أو إذا سجد . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » .
(٢) وفى قوله تعالى أيضا : « اقرأ وربك الأكرم » .

اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى

(اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق)

لا يعرف الإنسان جمال هذا القول إلا بالوقوف على أسرار الطبيعة ، إن الله عز وجل جعل كل حيوان يخلق من بيضة ، والبيضة إما أن يضيق بها رحم الأنثى فتخرج وتحضن فى الخارج ، وذلك فى سائر الطيور وإما أن تبقى فى بطن الأم ، وذلك فى الحيوانات الراقية كالأنعام والقرود والإنسان ، فالإنسان كله ، والحيوان كله من بيضات كبيضات الحمام والدجاج ، ولا جرم أن الناس يشاهدون بيض الدجاج ويرون له زلالا وصفارا وجرثومة واضحة فيه كل الوضوح ، فهذه البيضة لها نظير فى بطن المرأة ، ولكن بيضة المرأة صغيرة جدا ، وأصغرها $\frac{1}{120}$ من القيراط ، وأكبرها $\frac{1}{30}$ من القيراط ، واللح الذى فيها لا يزيد عن $\frac{1}{700}$ من القيراط ، والجرثومة التى خلقت لتكون أصل الإنسان ذرة من ذلك اللح ، كما يشاهد نظيرها فى مح البيض ، قطرها $\frac{1}{3000}$ من القيراط ، فإذا وضعنا ثلاثة آلاف جرثومة إنسانية على أصبع من أصابعنا كونت خطا واحدا فى عرض الأصبع ، وانظر إلى جرثومة الإنسان التى فى اللح فإنها ملتوية مقوسة .

وإذا أردت معرفة سير الجنين فاقرأ ما كتبناه فى (سورة آل عمران) وفى غيرها من المواطن المعدة لذلك ، وفى (سورة آل عمران) أيضا عجائب التكوين والإبداع ونظام الخليقة وارتقاء الإنسان من حال إلى حال .

عجب وأى عجب؟ هاهنا عالمان عالم ظاهر عمله ، وعالم باطن فيه الحكمة والعلم ، فالعلم الظاهر عمله هو العالم الذى أثار الشهوات ، وأوقد الحرارة الحيوانية فى كل حيوان ، فسعى جميعه لطلب القوت ، واختص الإنسان بأهم النظم الاجتماعية والعلوم السياسية والأحكام الشرعية ، فعقد العقود ، ورفع البنود ، وأحضر الشهود وأوجب النفقات ، وأحضر البينات ، وأفتى المفتون ، وقضى القضاة ، وحكم الحكام ، وساعدت الشرطة ، وأقيمت الأفراح ، وزينت البيوت (لزفاف العروس ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، والزوجان لا هم لهما إلا قضاء مآربهما ولا يدريان ما تحت هذه الظاهر الباطلة من كالم وحكمة وعلوم .

العالم الباطن حكمته

ها أنا ذا أريتك نظام الجمهور ، وعلومهم السياسية ، وفتاويهم الشرعية ، وشهواتهم المقضية ، فالجمهور يريد حياة منظمة ، فاقتضت الحال أن تكون لهم أحكام يقوم بها قضاة ومفتون وجنود حتى يتوطد الأمن فى الأسرات ، ويعلم الزوجان أن هناك حارسا وهو قانون الدين الذى يحفظ الزوجة أن تترك زوجها ، ويوجب على الرجل نفقتها والناس فى ذلك كله مدفوعون بحاجاتهم الغريزية .

هذه هى الحياة الدنيا وظواهرها، فانظر ماتحت هذه الظاهر المختلطة ، انظر فهنا حكمة وعلم ،هنا مجال الحكمة ، هاهنا سر الدين، فظاهره مارأيت وباطنه ماتراه . ماذا ترى ؟ ترى بيضة صغيرة نحن نرى البيض بيض الدجاج وبيض النعام ، ولكن هذه البيضة ليست فى العير ولا فى النفير ، فلا هى كبيرة الحجم ولا تباع لنفاستها ، ولا تقتنى لجمالها ، وإنما هى جرثومة مزدراة مكورة منبوذة فى الدم ، جرثومة الإنسان ليست إلا ذرة دقيقة تساوى جزءا من مائة جزء من عرض شعرة بغل تقريبا ، فهى جرثومة لا يمكن رؤيتها ، لأن عرض الأصبع ست شعيرات ، والشعيرة ست شعرات ، وقد قدمنا أنها $\frac{١}{٣٠٠٠}$ من القيراط ، فهذه الجرثومة حفظت بمح أكبر منها ، وألمح فى شىء كالزلال ، والزلال له غشاء ، والغشاء فى حوصلة حافظة وهذه البيضة واحدة من عشرة أو عشرين تكون داخل كيس البيض بجانب رحم المرأة ، وهما كيسان حوالى الرحم ، وبين هذين الكيسين وبين الرحم قناة توصل منهما للرحم ، فاذا تم خلق البيضة خرجت من كيس البيض وأخذت تعدو وتجرى فى تلك القناة حتى تصل بعد الجهد والمشقة وهى تجاهد جهاد الأبطال ، وتجرى جريا حثيثا ، وتستعين بكل قوة حتى تصل بعد عشرة أيام باب الرحم ، وكما أن الطيور يكثر سفرها وحركتها وسفادها أيام الربيع فهكذا هذه البيضة ترتحل هذه الرحلة أيام الخصب والنماء والسعادة والهناء ، وما هى تلك الأيام ؟ هى أيام الحيض عسى أنها إذا ألفحت تتغذى بدم الحيض وتعيش فى عيش هنىء هناك وتغدق عليها نعم الله التى أسبغها فى ذلك الدم عليها ، فلذلك تسافر هذا السفر الذى تقطع فيه مقدار أربعة قراريط ونصف ، وهى مسافة طويلة بالنسبة لقوتها فاذا ألفت عصاها واستقر بها النوى ونالت مناها بالالقاح مكثت هناك فى الرحم ، ففيه بيوت صغيرة نسميها نحن طيات ، فتبقى هناك آمنة مطمئنة ، ولعلك تقول ؛ أنا لم أر هذه البيضات قط ؟ أقول أنت تراها فى الدجاجة ، فإنك ترى فى بطنها كرات صفراء ، فهذه الكرات فى مقابلة كيس البيض فى المرأة . وتلك الكرات فى المرأة أصغرها كحبة دخن وأكبرها كحجم القول ومتى أخذت تنموا فهناك العجب العجاب .

هناك ترى هذه الذرة المتحدة مع جرثومة الرجل أخذت تنقسم قسمين ثم ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ — ٦٤ — ١٢٨ وهكذا بالقسمة السائرة فى طريق الأزواج المتتبعة من الواحد ، فهناك فرد وما بعده كلها أزواج كمسألة بيوت الشطرنج المشهورة ، ويسمى هذا النوع من العدد زوج الزوج ، فيكون الانقسام دائما بالزوج ، وهذه من أسرار قوله تعالى : « والشفع والوتر » فالوتر هو الأول ، والشفع جميع ما بعده ، فكل نبات وكل حيوان مبتدأ بذرة، وهذه تنقسم فتكون زوجا ٤ — ٨ الخ .

أفلا تعجب معى من العلم ؛ أفلا تعجب كيف تظهر أسرار القرآن فى كل ذرة وتسير مع العلم حتى فى أدق المسائل هذا هو الزوج وهذا هو الفرد ، ولعلك تقول : لا فرح بالعلم فهذا من أسرار القرآن وقد رأيت فى هذا التفسير مئات من هذا . أقول لك : لا تقف عند هذا ، فإنه حجاب يحجب به الجهلاء ، بل سر معى وانظر وتعجب فيما ذاع ، فبينما الأمم فى مدنها يعملون ، والرجل والمرأة فى الحياة يجدون ، وبين يدى القضاة يتحاكمون ، وفى منازلهم يلعبون ، أو يفرحون أو يختصمون ، ترى تحت ذلك كله أعمالا وأى أعمال :

(١) صناعا كصناع السفن يركبون خرزات الظهر والرقبة والأضلاع .

(٢) وعمالا يصنعون الأسلاك البرقية ويمدونها فى أقطار الجسم ؟ وهى الأعصاب لتستعد لتوصيل الأخبار من الدماغ إلى أطراف البدن .

(٣) وآخرين نساجين وحائكين ينسجون الجلد والغشاوات .

(٤) وآخرين زراعين يزرعون الشعر فى أماكن من جسم الطفل .

(٥) وآخرين يعملون الغليظ من الثياب ، وذلك فى الكروش .

(٦) وآخرين يبيضون كالقصارين ، وهم الذين يبيضون الثياب .

(٧) وآخرين كالصباغين والزوقين والدهانين فيحمرون اللحم ويصفرون الشحم ويسودون الشعر .

(٨) وآخرين هم المصورون الماهرون الذين يتفننون فى مساحة الأعضاء فيجعلون الفقرات متصلات لحفظ النخاع الشوكى الحامل للرسائل من الدماغ إلى الجسم ، ويعطوا الأضلاع شكلا لايتفق مع ساق الرجل ، ولا الأنامل ، ولا عظام الرأس ، بل يجعلون كل عضو مناسبا لمنفعته ، وجميع هذه الأعضاء متناسبة تمام التناسب .

وهكذا من العجائب التى ذكرت فى (سورة آل عمران) وفى بقية التفسير . انظر : ألست ترى تحت هذه الحياة المختلطة والفتاوى والأحكام والنفقات والشهوات تفننا فى الصناعات وحكمة وعلما جل الله الذى أتقن هذا ، وجعلنا فى حياة ظاهرها عذاب وباطنها حكمة وعلم ، فالأمم فى حربها ، والأسرات فى سعيها ، والله من وراء ذلك يبهر بمصنوعاته ، ويبرز الطفل الصغير فيه من كل جمال من العوالم المحيطة بنا مايشبهه ، فترى النقش والنسيج والمساحة والتصوير ، ولا ترى النقاش ولا الناسج ولا المساح ولا المصور ، إن ذلك جمال وأى جمال ! .

بهذا فليفهم القرآن ، ورد أن هذه أول سورة نزلت ، يقول الله : اقرأ ياأحمد باسم ربك . وهاهنا طريقان طريق الأعمال الظاهرة ، وطريق الحكم الباطنة ، فأعقبه بأجل الأمرين ، فقال : « الذى خلق خلق الإنسان من علق » وهذه المعانى المذكورات فى التفسير هى التى تحويها هذه الجملة ، ولكن لو علم الله أن الأعمال الظاهرة هى أفضل النعم لقال اقرأ باسم ربك الذى أنزل الأحكام ، وأمر بفصل الخصومات ، وأوجب النفقات ، وحرم الحرام ، وحلل الحلال ، ونصب القضاة ، وأوجب اتباع الأحكام ، نعم هذا كله لايعيش الناس إلا به ، ولكن الله سلك بنا طريقا أكمل ، فذكر الأوصاف الدالة على الحكمة والعلم .

إن هذا الدين أنزل لارتقاء العقول بالحكمة فلذلك جعل القراءة باسم الرب الذى أبدع هذه المبدعات فأخرج ذرة منبوذة وجعلها تعقل وتحكم ، لهذا أنزل القرآن ، ولا جرم أن ربا هذا صنعه إذا عقل القارئ عنه ماورد فإنه أحس بروح وهمة فيقول فى نفسه : إذا كانت هذه قدرته وقد أخرج لنا العجائب فكيف تكون عنايته بمن يراه قائما بشئون خلقه ، متمما لحكمة ربه ساعيا فى النظام الذى أسسه وفى تمامه ، هنالك تبدو فى النفس عاطفة ، وتتولد لها همة ، وكأنه خليفة له ، فيقوم بالعمل ولا يكل ولا يمل ، وهنالك تتجدد فيه العزيمة كلما اعترا الكلال .

ثم يقول : يا عجبا ! ترى الناس يدهشون من المصورين الماهرين ، ومن المشعوذين الذين يظهرون مالا يخطر بالبال ، فهاهنا ذرة دائمة جمعت كل صناعة ، وبرز فيها كل عجب ! أصبحت نباتا لحيوانات مختلفة قد صورت عشرات الصور الدالية وانتهت بالإنسان ، إن الناس يشاهدون هذه العجائب ولكنهم لايكترثون بها ، يرون الحيوان والنبات والعجائب ، ولكن لما كانوا هم أنفسهم مغمورين فى هذه العجائب وصارت لهم عادة أصبحت فى نظرهم ليست عجيبة ، إن الإنسان لا يحس إلا بما منع عنه ثم أسدى إليه ، ولكن هذه العجائب تحيط به من كل مكان فلذلك غشت عليه فلم يبصرها ، والعلم والدين جاءا لرفع ذلك الحجاب ، فهذا معنى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى

(« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم »)

لقد جاء فى (سورة الانفطار) . « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك » فهو سبحانه جعل كرمه بخلقه لنا ، وهاهنا بعد أن أتم الكلام على الخلق قال له « اقرأ وربك الأكرم » ثم أتبعه بسبب ذلك فقال ، « الذى علم بالقلم » فالسور يفسر بعضها بعضا ، فزيادة الكرم تكون بالعلم ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على هذا النمط ، فهو يقرأ باسم ربه الذى أنعم بالخلق ، ويقرأ باسم ربه الذى نشر العلم والتعليم بين الناس بالقلم ، أفلا تعجب معى أن يكون نبيا أميا أول آية تنزل عليه التعليم بالقلم ، وهل تفكر معى أنه عمل بذلك صلى الله عليه وسلم وكان يحرص على تعليم الكتابة كما فى الأخبار وأمر بها ونشرها بين الصحابة رضى الله عنهم .

ثم انظر ألم تكن الأمم قبل ذلك عندها كتابة وقراءة ، ولكن لم يتسع تعميم القراءة والكتابة إلا فى الألف الثانى بعد النبوة ، لماذا ؟ لاتصال أوروبا بالشرق وحروبهم الصليبية ، فحركت هم القوم فسعوا التعليم ، فهو رحمة للعالمين وإن لم يحس بكثير من تلك الرحمة المسلمون ، إن النبى صلى الله عليه وسلم بعث منذ ١٣ قرنا ، وهذه المدة قليلة فى تاريخ الديانات ، فأى مانع يمنع أن تكون الأمم الإسلامية بعدنا تعرف مانقول وتفهم الدين فهما ينطبق عليه فلا تعيش الأمم الإسلامية هذه الحياة الحيوانية . إن الأمم الإسلامية اليوم أكثرها ضحكة الأمم ومضغة الأفواه :

اللهم أنجز وعدك الذى وعدت ، وألهمهم أن يدركوا مقصود هذا الدين حتى تظهر لهم فائدته فيعملوا عاملين ويكونوا رحمة للعالمين .

إلى متى يبقى العالم الإسلامى فى جمود ، إلى متى هذا النوم ؟ لقد رأيت أيها الذكى أن التعبير هنا بالأكرم لنهضة الكتابة والعلم وفشوهما بين الناس ، فكرم الله بخلقه لنا وهو أكرم لأنه يعلمنا ، فأخذ المسلمون بالكرم وعاشوا ، وأضاء الإسلام بطريق الاقتباس على الأمم الأخرى ، فنالت مانفضل الله به على العالم من زيادة الكرم ، فعمموا التعليم فى بلادهم ، فأما المسلمون فقد سمعوا ربنا يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم ، « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » فلم يعبأوا بهذه الزيادة وإن كان عمل به النبى صلى الله عليه وسلم وعكفوا على حال الجاهلية فيقال لهم ، أيها المسلمون ، هل رأيتم النوع الانسانى علم هذا التعليم قبل هذا الزمان ! هل قرأتم فى التاريخ عن أمم عم التعليم ربوعها ، فإذا قالوا : لا إن التاريخ لم يذكر أمة هذا شأنها فيقال حينئذ . إن هذا سر هذا الدين ، فإن الضجة الشرقية هزت أوروبا وزلزلتها فأخرجت من الجهالة علما وتعميم كتابة ، فهل فاتنا أن نسمع القرآن وأن نرقى المجموع ؟ ألسنا خير أمة أخرجت للناس فأين هذه الأفضلية الآن ! ألا إنى أحذر المسلمين بهذا وأنذرهم ، فليخشوا خراب دولهم وضياع أبنائهم . وغضب ربهم ، إذ خالفوا نبيه صلى الله عليه وسلم .

(نظير هذه فيما تقدم)

ونظير هذه الآيات ماذكرنا سابقا فى قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » وأتبع هذا الوصف بحكمة الخلق والتسوية والنظام ، وهى مجمل العلوم العلوية كما شرحناه هناك . وقد قلنا هناك إن قوله : « فسبح

باسم ربك العظيم» الذى يكون فى الركوع ، «سبح اسم ربك الأعلى» الذى يكون فى السجود قد أتبع كل منهما بما يناسبه . فالأعلى جاء بجانب نعمة الحكمة والعلم والإبداع . والعظيم فى مقام النعم الظاهرة من الماء والنار والطعام وما أشبه ذلك . وتفضيل الأعلى على العظيم يجعل النبى صلى الله عليه وسلم أولهما فى السجود وثانيهما فى الركوع لما تبع الأول من العلم والحكمة ، والحمد لله رب العالمين .

تعميم التعليم فى بلاد الإسلام

لقد ورد إلى مصر أيام تأليف هذا التفسير بعض العظماء من بلاد اللايو وطلبوا رسالة لأهل تلك البلاد الحث على رقى بلادهم ، فكتبت رسالة ترجمها السيد حسن العطاس بلغة اللايو ، ونشرها هو وغيره فى بلاد اللايو وجاوه . وهذه صورتها :

نداء إلى الملوك والأمراء والأعيان

فى بلاد اللايو وسنغافورا وجاوه وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا

أدعوكم أيها الأشراف والعظماء إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أدعوكم إلى العلم والدين والقرآن . أدعوكم إلى تربية أبنائكم ، وترقية شئونهم . وإعدادهم للحياة والسعادة فى الحياة وللممات أدعوكم إلى النهضة والعزة والكمال بقراءة الدين وعلومه ، فانما العز والشرف فى اتباع الدين .

هلموا أيها العظماء إلى العمل بأول سورة نزل بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو التعليم بالقلم . وهذه السورة هى : « بسم الله الرحمن الرحيم : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم» الخ ، فهى تشير إلى تعليم القراءة والكتابة ، وتعميم العلوم التى لا تعلمها ، وهذا هو الصراط المستقيم . وكيف ترون أيها السادة الأمم حولكم مستيقظين إلى علوم الحياة والعمران وأنتم عن أبنائكم معرضون . وعن تعليمهم ساهون . ألم تعلموا أن الجاهلين سينقرضون : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون» وأنفقوا المال فى سبيل التعليم «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

سارعوا إلى عز الحياة . ومجد الأبد . وحفظ الوقت . وكثرة العدد . فأعدوا العدة لتعليم أبنائكم وتشييد مدارسكم ونظام حياتكم : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» .

مالى أرى بعض المسلمين لا يستعدون ، مالى أراهم ناموا نوما طويلا وهم لا يعلمون . أفلا يعتبرون بالأمم الجاهلة التى قتلها الجمود . وأبادها الجهل والخمود : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » :

فياحماة الشرف . وياأباة الضيم . وياوارثى خير الأديان . وياسن سلفكم خير سلف : وياذوى المروءة والشهامة والنجدة أنفقوا مما رزقكم الله لتعليم أبنائكم . واستعدوا لفتح المدارس والكليات فى دياركم ، وابدأوا اليوم بالاكتتاب لجمع المال . فهل تخافون الفقر إذا أنفقتم والله يقول : «ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض» ويقول « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» . وإنى أيها السادة موقن أنكم لو كنتم تعلمون قبل اليوم أن حكومتنا الرشيدة وبعض أهل البلاد يعطفون على أبنائكم . وأن فضيلة شيخ الجامع الأزهر كما أخبرنى هو يعطى بعض ما يتوافر لديه من الأرزاق الموقوفة إلى أبناء

بلادكم بالأزهر ، وإن لم تكن خاصة بهم . وحتى بشئونهم عناية تامة . لو علمتم ذلك من قبل لقمتم بالإنفاق عليهم خير قيام .

أيها السادة : « إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » . إن الله حكم فى هذا الزمان على الأمم الجاهلة بالزوال ، وحتم عليها الخراب والدمار . وأزل بها البوار . أفلا ينظر المسلمون جيرانهم أهل اليابان الذين أحياهم العلم . وإلى أهل أمريكا الأصليين القدماء الذين قتلهم الجهل وورثهم فى بلادهم الأوروبيون أفلا يتأملون أحوال الغافلين ؟ كيف بارت صناعتهم وذهبت ثروتهم . فإن لم ينتهزوا الفرص . ويربوا الأبناء بالمال الذى أعطاهم الله تخطفتهم الأمم حولهم وذاقوا فى الآخرة عذاب السعير : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فإن لم يفعلوه ذهبت دولهم : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » . إن موت القلوب يتبعه موت الأجسام : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » .

ولتعلموا أن إنفاق المال فى العلم إنفاق له فى سبيل الله . والدرهم الواحد يضاعف ثوابه إلى عشرة ومائة وسبعمائة وأكثر من ذلك : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . فأبشروا فقد أذن الله بارتقاء المسلمين اليوم وهو الولى الحميد . انتهى يوم الأحد ٩ أغسطس سنة ١٩٢٥ م .

لطيفة : فى قوله تعالى : الذى علم بالقلم[1]

حضر صاحبى الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير فقال : لقد ذكرت فى (سورة الروم) بمناسبة آية : « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » جدولا بينت فيه خطوط الأمم قديمها وحديثها ، ففيه خطوط الأمم المصرية القديمة موازنة بخطوط اللغة العربية والافرنجية وما بينهما . ذلك كله لكلمة واحدة وهى « ألسنتكم » مع أن الخط ليس أصلا أوليا لإظهار المقومات ، بل هو نائب عن اللسان . فأنت هناك ذكرت اختلاف اللغات وهذا لمناسبة ذكر اللسان . وذكرت اختلاف الخط ولكن هذا الأخير ذكر تبعا لا أصالة ، وأن الأولى بالكلام على هذا هو هذا المقام لمناسبة التعبير بالقلم . فترى بهذا المقام أن نستوفى فيه الكلام على العلم وعلى القلم إجمالا . لأن فيه العلم وفيه القلم . فقلت : حبا وكرامة ، أنا أقص عليك جملا من قصص العلم . وجملا من قصص القلم . فأقول مستعينا بالله :

شموس تدور ، وكواكب تسير ، ومجرات وأثير ، كلهن دائبات فى السير ، ينتجن مخلوقات صغيرات من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وهذه كلما كانت أقرب إلى الفطرة وأبعد عن الكمال الإنسانى كانت أقرب إلى النظام ، ففى بعض الجماد كبعض الأحجار الثمينة وغير الأحجار الثمينة ترى أشكالا هندسية منتظمة مبهجة ، وفى عالم الحشرات غرائز وغرائز كلهن متشابهات فى إحداث النظام العلمى العملى ، وكلما ارتقى

---

(١) يقول المؤلف هذه اللطيفة لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

النمل في سعي المشاورات رأى هذه الغرائز تأخذ في النقصان قليلا قليلا ، وهذا النقص يعوض بتعليم الحرة ذريتها الصغيرة كيف ترتفع إلى سلالم المنازل ، وكيف تهبط . وكيف تصطاد صغار الفيران . وكيف تستحوذ على الطعام وما أشبه ذلك . وبتعليم الغربان وأكثر الطيور لصغارها كيف تطير . وكيف تسير في الجو ، وبتعليم الطير ذريتها كيف تنطق بالأصوات . وكيف تغرد المفردات ؟ وبتعليم الدجاجة لأفراخها كيف تلتقط الحبات وهن سامعات مطيعات . وماثل الإنسان في ذلك كله إلا كمثل الحيوان سواء بسواء . فهو يشبه الحيوان من هذه الوجهة في (ثلاثة أصول : الأصل الأول) الغرائز المودعة في أعضائه الداخلة كالقلب والكبد والمعدة والأمعاء والحالبين والطحال والمثانة وكل ماهو في داخل هيكل الإنسان ، فهذه تراها تسير بهيئة كهيئة غرائز الحيوان ، فترى الدورة الدموية تسير كسير الشمس والكواكب بلا خلل ولا مال ولا فتور وتحاكي نظام الحشرات في تدبير ممالكها ، وإعداد الطعام لذريتها (الأصل الثاني) الغرائز المودعات في قوته الحيوانية . فتراه يلتقم ثدي أمه بلا معلم ، ويفر من المؤلم ، ويقرب مما يحدث له لذة كما يفعل الحيوان سواء بسواء (الأصل الثالث) إنه عند ارتقائه في الحال التي لا تكفي فيها الغريزة يفعل كما تفعل الحيوانات الرشيدة من تعليم ذريتها ماينقصهن من الغريزة ، وهذا هو المقام الذي نحن فيه ، وهو مقام التعليم .

مراتب الموجودات في وجودها أربع

إن للموجودات من حيث مراتب وجودها أربع درجات ، فلها في ذاتها ووجود ، ولها في الأذهان وجود آخر ، وينوب عن الثاني وجود في اللسان ، وينوب عن هذا الأخير الوجود القلمي ، إذن الأربع هكذا ، (عينان ، جنان ، لسان ، بنان) فإذا سمعت الله يقول : «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» فالذي في السموات والأرض من هذه العوالم هي التي في العيان ، لأنها موجودة في أنفسها . فإذا نظرته وفكرت فيه فهذا هو ثاني الوجودين ، وهو الوجود في الأذهان ، وينوب عن الثاني النائب عن الأول الوجود اللساني بأن يصور الإنسان بأعضاء فمه من الصوت أشكالا ويصوغها ببيانه . فهذا هو الوجود اللساني ، ولكن لما كان اللسان لا عمل له إلا بالهواء والهواء سريع الزوال اعتيض عنه بما يبقى على مدى الزمان . ذلك هو القلم الذي أقسم الله به في بعض سور القرآن ، إن القلم لسلطان وأي سلطان . وهل بعد أن أقسم الله به مقال لقائل ، وليست عظمة القلم لذات القلم . كلا . إن عظمة القلم لما ينتج عنه من حفظ العلم وبقاء آثار الألسنة آمادا طويلة أقسم الله بالقلم كما أقسم بنفس المعلوم من شمس وقمر وتين وزيتون إلى آخره . فكأنه أقسم بالمعلوم ودل على المعلوم . ولكن لم يقسم باللسان الذي ناب عنه القلم وإن كان هو الأصل لأن آثار اللسان لا بقاء لها إلا إذا حفظتها الأقلام فثبات المكتوب في الطوامير والكتب أشبه بثبات المعلومات كما قدمناه .

(جمال الخطوط وحسن نظامها يشابه جمال الزروع والأشجار وأزهارها)

قلنا إن القلم غير مقصود لذاته ، بل هو آلة للمقصود . ولما كانت جميع مظاهر هذه الدنيا منمقة بهجة حسنة سارة الناظرين ، شارحة الصدور ، مدهشة النفوس ، وجب أن تكون صناعة القلم كذلك بهجة جميلة لعين الناظرين ! ولما كان الانسان أثرا من آثار هذه العوالم المحيطة به صار مغرما بالسير على نواميس هذه الدنيا التي يعيش فيها ، فكما نرى أن الأشجار والزروع مختلفات كما وكيفا وهيئة هكذا نرى أنواع الخط على أشكالها اختلافا كثيرا . فلكل أهل لغة نوع من الحروف يخالف اللغة الأخرى ، والخط في أي لغة من

اللغات يتنوع أنواعا كثيرة . مثال اختلاف الخط باختلاف اللغات ماهو معلوم من الحروف اللاتينية والحروف العربية ، والحروف الصينية واللاتينية تقدمت فى (سورة الروم) كما هو معلوم ، والصينية فى (سورة الزخرف) ومثال اختلاف تنوع الخط فى لغة واحدة ماتراه من اختلاف الخط فى اللغة العربية أيام ازدهار دولتها فترى عندهم :

(١) الطومار الكامل .
(٢) والمحقق .
(٣) والغبار .
(٤) ومختصر الطومار .
(٥) وخط الثلثين .
(٦) وخط النصف .
(٧) وخط الثلث .
(٨) وخفيف الثلث .
(٩) والرقاع .

فقلم الطومار الكامل تكون مساحة عرضه ٢٤ شعرة من شعر البرذون ، وقلم مختصر الطومار يكون أقل من ذلك فيبلغ حوالى عشرين شعرة ، وقلم الثلثين ١٦ شعرة ، وقلم النصف ١٢ شعرة ، وقلم الثلث ٨ شعرات . وقلم خفيف الثلث صورة كصور الثلث ولكنه أدق منه قليلا وألطف منه بنزر يسير . وقلم المحقق على وزن اسم المفعول يقال له قلم التوقيع ، كانت توقع به على ظهور القصص الخلفاء والوزراء . وقلم الغبار سمى بذلك لدقته كان يكتب به بطائق الحمام . وقلم الرقاع كانوا يكتبون به فى الرقاع الصغيرة (جمع رقعة بضم أوله) الكاتبات اللطيفة والقصص الصغيرة . وهو يقرب من الثلث ويخالفه فى أمور كثيرة كدقة حروفه وطمسها الخ :

هذه بعض الأقلام التى استعملت فى لغة العرب أيام الدول الاسلامية قديما ، وذلك كله بعد ازدهار الخط الكوفى أزمانا وأزمانا ، والحمد لله رب العالمين

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذا تلخيص عجيب ! أنا قرأت الجزء الثالث من [صبح الأعشى] وفيه هذه الأقلام ، والذى ذكرته هنا لخص من الكتاب (١٣٥ صفحة) فهذه الخلاصة قد جمعت ملخص ذلك كله موضحة جميلة الحيا ، ولكن لى هنا سؤال واقتراح . أما السؤال فإنك قد ذكرت فى عرض كلامك أن صناعة القلم يجب أن تكون بهجة شارحة للصدور ، فهل هذا الوجوب شرعى أو عادى ، فان كان عاديا فإنك محاسب على ماتقول فإنا الآن فى تفسير القرآن . فربما حمل كلامك على الوجوب الشرعى وإن كان وجوبا شرعيا فهو شىء لا أعلمه . بل الذى أعلمه أنك حينما تكتب هذا التفسير لايقرأ خطك لسرعة الكتابة إلا بصعوبة كما يقول طابع الكتاب ، فهل أنت فى ذلك مخالف لواجبات الدين ؟ وإذن ما أكثر الذنوب فى نفس هذا التأليف .

وأما الاقتراح فإنى أود أن توضح بالرسم بعض صور هذه الأنواع الخطية ؟ . فقلت : حياك الله أيها الأخ لقد اشتددت على فى سؤالك شدة لم أعهدها فيك من قبل ، ولكنى أقول : إن الوجوب وجوب شرعى وأنا لست بآثم فى سرعة الخطا فى تأليف هذا التفسير . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : أليس الخط من أنواع الحرف والصناعات ؟ قال بلى . قلت : أو لست تعلم أن جميع الحرف والصناعات والعلوم كلها فروض كفايات

قال بلى والله . قلت : فالخط تجب المحافظة عليه وتحسينه . والحرص على قديمه وحديثه باعتباره إحدى الصناعات لا أنى أنا حين ما أكتب أحسن كل كلمة . كلا . بل على الأمة أن تخصص له جماعة تعنى به كما تخصص للكهرباء والمغناطيس والراديو وسكك الحديد وغيرها لكل حرفة منها طائفة تكفى الأمة فلا تحتاج إلى أحد من أوروبا ، ولا من أى أمة شرقا وغربا . وإذا تركت الأمة علما أو حرفة واحدة فهى لا محالة معاقبة فى الدنيا والآخرة ، ودليلى على ذلك اليوم حال المسلمين الذين لم يفهموا علماؤهم ما يجب عليهم من ذلك فأصبحوا عن أكثر الصناعات والعلوم غافلين .

وقد عنى هذا التفسير بإيضاح هذا المقام فى مواضع بعد بالتعبيرات لشدة التقصير . أما ما اقترحته من صور الحروف فهاك أمثلة لذلك :

المثال الأول

صورة من كتابة السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون وهى صورة كتابة العلامة على المناشير الانقطاع وهذه العلامة هى : الله أملى سواه راجعة انظر شكل (١١٥)

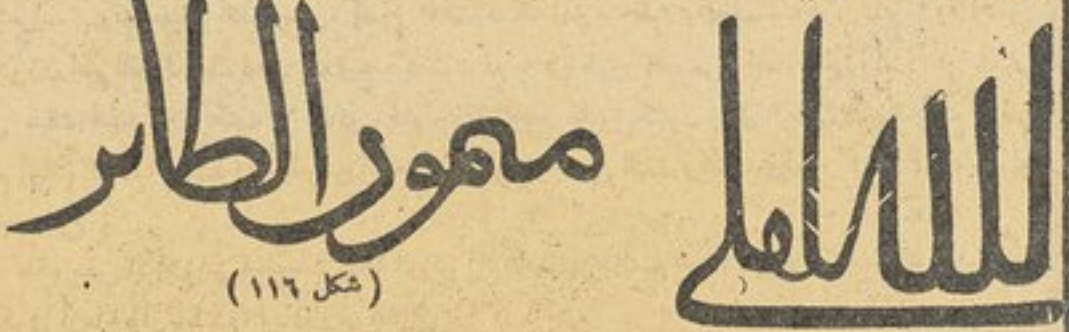

(شكل ١١٥)

المثال الثانى : قلم مختصر الطومار

(انظر شكل ١١٦)

هذه صورة كتابته

(شكل ١١٦)

المثال الثالث : صورة قلم الثلث

حرف الحاء

وهى هنا مركبة مختتمة مرسلة . أو مركبة مختتمة مسبلة ، أو مجموعة مركبة مختتمة . وهذه صورها الثلاث بالترتيب (انظر شكل ١١٧ وانظر شكل (١١٨) فى الصفحة التالية) وهكذا :

مركبة مختتمة مرسلة مركبة مختتمة مسبلة مركبة مختتمة مجموعة

(شكل ١١٧)

المثال الرابع : قلم الثلث الخفيف

مرسلة مسرجة مجموعة

ح ح ح

وقاية مطروحة مرسلة وقاية مطروحة مسرجة وقاية مطروحة مجموعة

ح ح ح

مركبة بعلامة مقوسة وقاية بعلامة مركبة مرسلة

حاحسحر

مركبة بعلامة مرسلة مركبة مسرجة مجموعة

هح ح ح

(شكل ١١٨ - حرف الجيم)

المثال الخامس : قلم الرقاع

حرف القاف

مفردة مجموعة مخروطة مبسوطة مبتدأة

ف ف ف ف

متوسطة مطرة مجموعة مطرة مخروطة مبسوطة

حقف ق ق ق

(شكل ١١٩)

المثال السادس : قلم الغبار الذى تكتب به بطائق الحمام

وهذه صوره : حروفه إفرادا وتركيبا

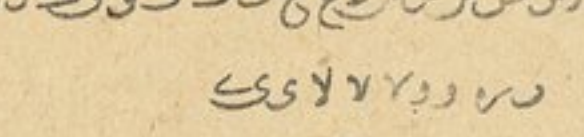

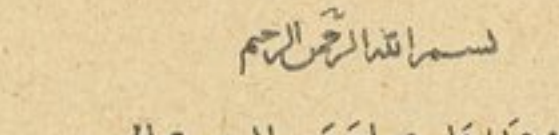

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الامام على رضى الله عنه الى بعض عماله

لا توخر عمل اليوم لغد فتدال عليك الاعمال

وان الناس سوء عن سلطانه سرا وجهرة اعوذ

بالله ان تدركنى واياكم ضغائن محمولة فى صدر طويل

(شكل ١٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الامام امير المؤمنين على كرم الله وجهه

المعروف قرض والايام دول ومن توانى

عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

(شكل ١٢١)

وتتميما للفائدة نرسم صورة واحدة من الصور الكثيرة التى كانت مستعملة فى كتابة البسملة ، وهى التى كانت تكتب على طريقة الخط الثلث (شكل ١٢٥) . وسترى رسمها فى صفحة ٢٢٧ ، فانظرها هناك .

* * *

فلما رأى صاحبى ذلك . قال : ما أحسن هذه الأشكال الخطية وبهجتها ونظامها : فياحبذا لو أن هذه الصور الخطية أتبعت بصور من الخط الكوفى وبقية صور الخطوط التى تقدمت فى (سورة الروم) عند الكلام على آية : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » ، وهى التى اشتملت على قديم الخطوط وحديثها . وبيان اختلافها من خط قدماء المصريين . ثم أتبعت هذه بهيئة الخط الصينى .

إذا صح هذا كان عندنا سلسلة الخطوط منظمة مرتبة مشتقا بعضها من بعض مفيدة فائدة يحسن السكوت

عليها ؛ وحينئذ نكون قد اطلعنا على نموذج أنواع القلم الذى أقسم الله به . وكان أول ما قرع سمع نبينا صلى الله عليه وسلم من الوحى الشريف العالى . قلت . نتصل إلى يقينك أيها الصديق الآن ، فلنبتدئ بهيئة الخط الصينى أولا لقبل الكلام عليه . ثم نتبعه بالبقية : فها هو ذا الخط الصينى بقلم الأستاذ الفاضل الشيخ محمد مكين الصينى بالجامع الأزهر . وهذه صورته (انظر شكل ١٢٢) .

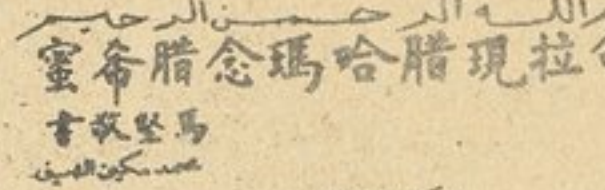

(شكل ١٢٢)

(تذكرة) قد جعل كل حرف صينى مقابلا للحرف العربى المماثل له .

وأما الخط الكوفى وما معه فى الجدول الذى أشرت إليه وتقدم فى (سورة الروم) فها هو ذا فاليك وهو (شكل ١٢٣) :

الخطوط وكيف اشتق بعضها من بعض

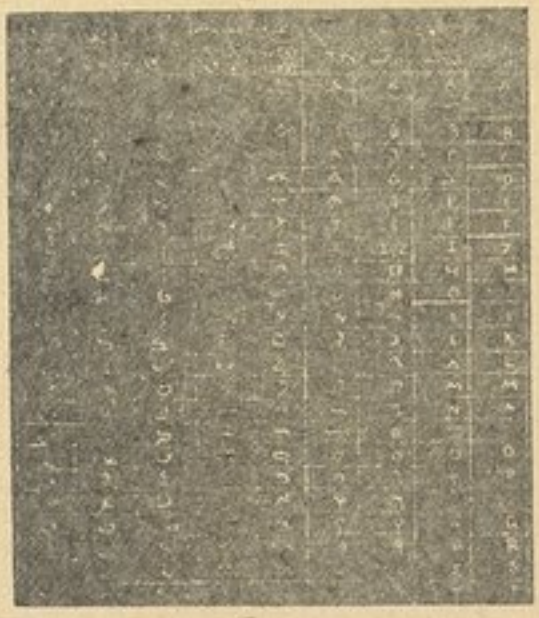

(شكل ١٢٣)

وأما الجملة المفصلة التى طلبتها من كلام قدماء المصريين وبها يتم هذا المقام : فهاك ماذكره أستاذنا بدار العلوم فى علم التاريخ المرحوم أحمد بك نجيب مفتش الآثار المصرية فى كتابه (الأثر الجليل لقدماء وادى النيل) فى صفحة ٢٥٨ و ٢٥٩ وهذا نصه قال :

هناك عبارة صغيرة مركبة من جملتين بهما أحرف أبجدية ، ومقاطع صوتية ، وصورة نفسية ، وصور إشارية نقلناها من كتاب المعلم (مسبرو) وهى من قصيدة طويلة منقولة عن لسان معبود طيبه (أمون رع) يخاطب بها (طوطوميس الثالث) أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة ، وجدت مكتوبة على حجر جرانيتى أسود جهة الكرنك . ونقل إلى المتحف المصرى . وقد حذفنا صدرها وأتينا بالمنظوم منها وأوله :

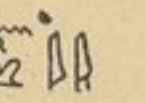

الأول مقطع صوتى . وهو عبارة عن ساكن بقدمين ينطق (أى) وهى دلالة على الحركة . والثانى والثالث حرفان أبجديان . والرابع صورة للمعبود (أمون رع) وهو عبارة عن المتكلم وحده الواقع فاعلا وينطق (أ) فيكون نطق الجميع (أى أنا) والأول والثانى معناها الذهاب . والنون علامة للماضى . والأخير علامة مقطعية ونفسية معا ، والمعنى ذهبت .

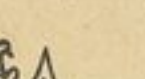

الأول مثلث متساوى الساقين داخله هرمة ، وهو مقطع صوتى ينطق (دو) ومعناه الاعطاء مضافا إلى التكلم المفرد . وهو المعبود وتقدم نطقه والمعنى أعطى أنا .

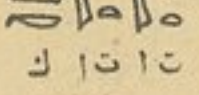

جميع هذه الأحرف أبجدية ماعدا الخامس فانه علامة إشارية تشير إلى الضرب ولا ينطق بها ، وتدل على القوة والقهر والغلبة ، لأنها صورة ذراع إنسان قابض على قضيب أو سوط . ونطق الجميع (تاتاك) والكاف ضمير المخاطب ومعناها تضرب أنت .

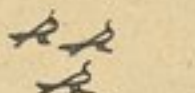

كل واحد من هذه الطيور الصغيرة مقطع صوتى ينطق (أور) وتكررت لأجل الجمع وعلامته الضمة فتكون (أورو) ومعناها أكابر أو عظماء ، وهم مفعول للضرب .

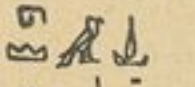

(شكل - ١٢٤)

الأول صورة مقطعية صوتية تنطق (تا) والثانية الفتحة ثم الهاء كما علمت ، ثم صورة نفسية لا تنطق ، لأنها صورة الجبل ، فيعلم من ذلك أن النطقة (تاه) علم على بلاد بها جبال ، وهى سواحل أرض كنعان مضافة إلى الأكابر .

وإلى هنا صارت الجملة الأولى تامة ، لأنها تركبت من فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه ، فتكون الترجمة أنا أتيت أمنحك أو أعطيك تضرب أكابر تماهى ، انتهى ما أردته من الكتاب المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

***

فلما اطلع صاحبى على هذه الأشكال والجداول أظهر السرور وانشرح صدره وقال ، أما الآن فقد وفينا المقام حقه . وهو حقا من توابع تفسير الآية ، لأننا إذا سمعنا الله يقول : « ن ، والقلم ومايسطرون » ، وسمعناه أيضا يقول : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى

علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم» فإننا قد يخطر لنا ماهو القلم وماهى أنواعه ! وفى الحال تكون قد درست مبادىء صناعة من صناعات الأمم ، وهى واجبة كوجوب النحو والصرف والفقه سواء بسواء .

بسم الله الرحمن الرحيم

(شكل - ١٢٥)

لطيفة فى قوله تعالى

« علم الإنسان مالم يعلم »

بقيت فى النفس حاجة إلى السؤال ؟ يقول الله : « علم الإنسان مالم يعلم » فهذه الجملة تفيد كما جاء فى محادثتنا السابقة آنفا أن الإنسان محتاج إلى التعليم ، فها أنا ذا أحب أن أسألك سؤالين ، فهل تأذن لى فى ذلك ؟ فقلت : حبا وكرامة ، سل ما تشاء . فقال : أما أول السؤالين فهو : هل من قول جامع لأنواع التعليم العالى الإسلامى فى مستقبل الزمان . الثانى : هل الإنسان اليوم وقد قررنا أنه هو الذى يعوزه التعليم وحده قارب الكمال فى تعلمه ؟ فقلت : أما جوابك عن السؤال الأول فأقول :

إن التعليم الإسلامى فى مستقبل الزمان يجب أن يشمل (ثلاثة أنواع) وهذه الثلاثة تدخل فيها جميع فروع العلم فى العالم الإنسانى اليوم (النوع الأول) أن يكون مهذبا فى نفسه ، مكملا لها ، حافظا لها جسما وعقلا (النوع الثانى) أن يكون رجلا نافعا فى أمته التى خلق فيها ، مشاركا لها فى تحسين نظامها ورقيها (النوع الثالث) ألا يقتصر على ذلك ، بل يكون رجلا نافعا لجميع النوع الإنسانى لامقتصرا نفعه على نفسه أو على أمته وحدها ، فأظهر عند هذه الاجابة استغرابا واستبشارا ، وقال: إن هذا القول أقرب إلى من كلام عظماء رجال الصوفيه الذين يريدون النفع للانسانية كلها ، وهو يؤخذ من قوله تعالى : « يا أيها الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فهذا التعارف العام إذن مطلوب في ديننا ولا وسيلة لهذا التعارف العام في العالم إلا بالتعليم .

ومن العجيب أني رأيت في كلام (كانت) الألماني في كتابه في علم التربية ما يقرب من هذا ، فإنه يقول : « إن التعليم إما لإصلاح الذات وحفظها ، وإما أن يكون موجها لكون الإنسان نافعا لأمته ، مشاركا لها في رقيها وإسعادها ، وإما أن يكون موجها لمنفعة عموم النوع الانساني ، وأتذكر أن ذلك في صفحة ٣٠ من ذلك الكتاب المشتمل على مائة صفحة ونيف » .

الجواب عن السؤال الثاني

وهو : هل الإنسان اليوم قارب الكمال في تعلمه ؟

أقول : إن الإنسان اليوم لا يزال في مبدأ تجاربه وتعاليمه ، وأمامه عقبات ومنازل قد آن أوان تذليلها وحان حين ارتقائه ، وسيصل إلى درجات من الكمال لا تتصورها نحن الآن ، إن الإنسان على ما يظن الناس اليوم لم يعش في الأرض أكثر من نحو ٣٠٠٠ ألف سنة ، والحيوان (كما يقولون) عاش قبله بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، والأرض مخلوقة قبل ذلك كله ، نعم هذا كله حدس وتخمين ، ولكن على كل حال هذا ما وصل إليه الإنسان بحدسه وظنه ، والانسان في هذه المدة كلها لم ينتقل من العصر الحجري إلا في أزمان قريبة ، ثم ارتقى إلى العصر الحديدي ، ولكنه في هذا الجيل وحده انتقل انتقالا سريعا ولن تقف خطواته عند حد إلا إذا وصل إلى الكمال بجده هو ، فقال : ما برهان ذلك ؟ فقلت : أنا أضرب لك مثلا : أيهما أرقى منزلة وأشرف وأعلى : النبات أم الانسان؟ فقال : ياسبحان الله : وأي نسبة بين النبات والإنسان ! الإنسان أرقى من الحيوان ، والحيوان أرقى من النبات . فقلت : أي أنواع النبات أعظم أثرا في ثروتنا القومية اليوم ؟ فقال القطن . فقلت . ماذا أفادنا وما خواصه ! فقال أما فائدته لبلادنا فإنا نبيعه وننتفع بثمنه وقد انتفعنا فوق ذلك (أولا) بصناعة حلجه ، وذلك بأحدث الآلات . ففي القطر المصري ٤٦ محلجا تحلجه ، فهذه هي الصناعة الوحيدة المستقلة في بلادنا ، وهناك صناعة بسيطة يعوزها الكمال (ثانيا) بصناعة القطن الطبي التي أنشأها بنك مصر ، هذا هو الذي أعلمه الآن من صناعات بلادنا القطنية في هذا التاريخ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م .

ثم قال : أما خواصه فأنا لا أعلم منها إلا ما جاء عن ابن البيطار العالم النباتي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي إذ قال :

(١) القطن حار رطب اللباس ، وهو شديد الاسخان ناعمه مادام فيه طراوة .

(٢) [دهن حبه] : زيت القطن نافع للكلف والنمش والجراحات الحادثة في الوجه .

(٣) إن بذرة القطن مسخنة للصدر ، نافعة للسعال .

(٤) إن حب القطن يلين ويسخن ويزيد في قوة الأعصاب .

(٥) أما عصارة ورق القطن فتنفع في إسهال الأطفال .

(٦) إذا أحرق القطن البالي وحشيت به الجراح قطع دمها ، وإذا لصق على الدماميل قلع ما فيها وقتلها ؛ لأن من خواصه اجتذاب المواد من عمق البدن ، وإذا اشتم دخانه المزكوم نفعه .

(٧) ورق القطن الصغار الغض يوضع في قدر ويغمر بالماء ويطبخ مع أصول القطن ويجلس فيه

النساء ، فينفع فى اختناق الرحم وأوجاعها ، ولورق القطن خاصة فى تسكين النقرس والضربان الدائم .

ومما جاء فى كتاب (الحاوى ، فى علم التداوى) أن حب القطن حار رطب ينفع من الربو ويفيد الصدر وأن صمغ القطن مسكن لوجع الأضراس ؛ وأن لعوق حب القطن مع اللوز المقشر ملين للصدر ، هذا ما أعرفه وكفى .

فقلت : أيها الأخ : إن صناعات القطن المصرية ضئيلة بالنسبة لما عرفته الآن ، وإذا رجعت إلى ماتقدم فى (سورة الأنفال) أدركت كيف دخل القطن فى صناعات الحرب وغيرها ، فقال نعم أنا أذكر ذلك ولكنى أريد ماهو أوسع مدى وأعظم فائدة حتى يكون مقنعا لى بالفرق بين تقصيرنا نحن المصريين وبين رقى غيرنا فيه ، ليكون ذلك حجة قائمة فى الموازنة بين ارتقاء صناعة القطن وارتقاء تعليم الإنسان ، فقلت : إن الذى أعرفه من الصناعات فى العالم الغربى :

(١) صناعة القطن الطبى المذكور .
(٢) صناعة التنجيد التى نشارك الأمم فيها كما نشارك فى بعض الصناعات الصغيرة مما سأذكره .
(٣) صناعة غزل خيوط بكر الخياطة ، وهى من أمهات الصناعات فى العالم .
(٤) صناعة النسيج .
(٥) صناعة الدنتلا (التريكو) .
(٦) صناعة التطريز والوشى .
(٧) صناعة العقادين والستائر والإطارات .
(٨) صناعة الجوارب والفانلات والطواقى والدكك .
(٩) صناعة أكياس الجبس .
(١٠) صناعة شباك الصيد للسمك والطير .
(١١) مادة أساسية لصناعة الورق .
(١٢) صناعة الحرير الصناعى .
(١٣) صناعة الملابس .
(١٤) صناعة الجلد الصناعى وغلافات المحافظ والدفاتر والكتب .
(١٥) صناعة إطارات العجلات الكاوتشوك .
(١٦) صناعة أجنحة الطيارات وغشاء البالونات .
(١٧) صناعة القير ، وهو قطن مضغوط لدرجة الصلابة حتى تفوق الفولاذ متانة وتستعمل لزوما للآلات والسيارات والقاطرات بحيث تؤمن عدم إحداث للوت أثناء الحركة .
(١٨) صناعة المفرقعات مثل البارود الأبيض والألغام .
(١٩) صناعة خيوط الشمع وأشرطة الوابورات (وابور السبرتو) والمصابيح .
(٢٠) صناعة صنع الملابس .
(٢١) صناعة تبييض القطن .
(٢٢) صناعة خياطة الملابس .
(٢٣) صناعة حاج القطن .

هذه هي الصناعات القطنية التي وصلنا علمها المنتشرات في الشرق والغرب ، ومصر تجهلها والعالم العربي وأكثر أمم الإسلام . فقال حسن . قلت إذا عرفت الفرق بين ارتقاء صناعات القطن عند الأمم وانحطاطها عندنا بمصر وبلاد الإسلام . هكذا فلنقل إن الفرق بين الإنسان في الوقت الحاضر والإنسان في المستقبل كالفرق بين صناعات القطن عندنا في بلاد الإسلام وبين صناعاته المنتشرة في العالم الانساني . وإنما ضربت هذا المثل لوضوحه ، والا فهذه النفس الإنسانية التي ازدهرت وسعدت بالنور الإلهي والأسرار البهية الربانية فيها من القوى الكامنة مالا حصر له ، وأي نسبة بين القطن وهو نبات وبين الإنسان الذي هو روح شريفة أقرب إلى الملأ الأعلى من كل ما تراه ، فإذا رأينا قطننا بمصر قد ظهرت من كوامن أسراره بالصناعات ما بهرنا فللانسان من القوى الكامنة التي يستخرجها بصناعة التهذيب والتعليم مالا حد له : « إن الإنسان لظلوم كفار » مع أنه هو الذي قال الله فيه «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» .

إننا إذا قلنا اليوم ان الناس كانوا في عصر حجري ثم حديدي الخ . فليس هذا معناه أن ذلك أمر محقق كلا . فربما كانت الأمم قديما ارتقت ارتقاء مدهشا لا نعلم به نحن اليوم ، ثم اعتراها تدمير بزلازل أو بخسوف قارات بأسرها وغير ذلك ، ثم رجع الانسان الباقي يبني مدينة جديدة ، بل هذا هو الذي يستنتج من آية « كان الناس أمة واحدة» وقوله «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» أي بعد أن اختلفوا ، وآخر هؤلاء النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» .

ولعل الناس قديما قبل التاريخ المعروف الذي لا يتجاوز ألفي سنة كانوا أشبه بخلية نحل ، أو بجماعة الزنابير أو النمل أو النحل أو مملكة الأرضة للتقدم شرحها بإسهاب في هذا التفسير في (سورة سبأ) .

وبالجملة كأكثر الأمم الحيوانية التي تعيش جماعات ثم دمروا تدميرا ولم يعلم الخلف ما كان عليه السلف في مدة ثلثمائة ألف سنة إلا ألفي سنة . فأرسل الله آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم وأخبره بأن الناس كانوا أمة واحدة ثم نادى فيهم قائلا تعارفوا أيها الناس ، يريد بذلك أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الوحدة التي هي الأصل في هذا الوجود ، ومستحيل أن تتم تلك الوحدة إلا إذا حدد لكل أمة عملها المناسب لها ولكل فرد في كل أمة عمله الذي يناسب مزاجه واستعداده ، كما يرى في خلايا النحل ، ومتى كمل فرد عن عمله بعد التعليم والإنذار وجب عقابه عقابا صارما وهكذا الأمم ، لأن كل إنسان عطلت مواهبه وكل أمة وكل جمعة في الأرض عطلت منافعها حرمت جميع الأمم تلك الفوائد والمنافع التي كانت مدخرة لهم ، ومتى تم ذلك اتحد نوع الإنسان ، وهذا قوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وهذا هو قوله تعالى «علم الإنسان ما لم يعلم» ولما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بحث عن هذه الوحدة ونشر العلم شرقا وغربا ، والأمم إذ ذاك لم تكن لتقبل إصلاحا أكثر مما جاء على يديه صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان اليوم نشر الدين لا يعوقه عائق فلنا أن ننشره في أي مكان كان في أغلب الأرض بشرط أن نكون علماء بعلوم الأمم ليقبلوه منا ، يجب على المسلمين أن يستعدوا اليوم لرقي الإنسانية كلها ، وذلك بالتعارف العلمي والرقي المادي والسلاح الكامل العدة استعدادا للطوارئ ومنازلة من يعتدون علينا ، وليكن النشر بالتي هي أحسن ، وبالحجة البالغة ، ولن يتم لنا ذلك والله إلا بقراءة جميع الديانات التي دينا أرقاها وبقراءة جميع العلوم ، وذلك بأن يخصص لكل طائفة من العلوم طائفة من نابغي الأمم الإسلامية ، ولن يتم ذلك كله إلا بالعفة والقناعة والأخلاق الحميدة ، إن الإنسانية اليوم قادمة على عهد جديد ، وكل ذلك بسبب ديننا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»

وبهذا تم الجواب على سؤالك الثانى . فقال حسن جدا : فقلت الحمد لله على نعمة العلم والحكمة والكمال . كتب بعد ظهر يوم الإثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م .

بهجة العلم فى قوله تعالى : علم الإنسان مالم يعلم

لقد تقدم فى (سورة الزمر) ما نقلته عن الأستاذ (كنت) الألمانى فى التربية (فى تفسير قوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فى المجلد الثامن عشر) وذكرت بعض ملخص للمقدمة وفى آخر ذلك الملخص أنه أبان صعوبة التعليم المنزلى فى صفحة ٢٥ ، وأن التعليم العام خير منه ، وأهدى سبيلا وأقوم قيلا ، والآن نلخص ما بعده فنقول :

قال فى (الفصل السابع والعشرين) صفحة ٢٦ وما بعدها ما يأتى: إن تعليم الطفل أولا يجب أن يكون تقليديا آليا يؤمر الصبى فيطيع ويعمل ، لأنه لاقدرة له على التفكير ، ثم بعد ذلك يعطى الفرصة الكافية للتفكر بنفسه والاستقلال فى تعلمه مع مراعاة القوانين ، وفى الحال الأولى إذا خالف ما أمر به يعاقب إما عقابا سلبيا بحيث يمنع ما يطلبه من غيره . وإما عقابا إيجابيا إذا أمر فلم يمتثل ، وليست مراعاة القوانين وإطاعة الأساتذة فى الحال الثانية بمنافية لحرية التلميذ فى تفكيره وتمرينه ، فليس للأساتذة إلا الإرشاد العام للتلميذ وهو يعمل بحريته التامة الكاملة ، إن تعليم التلميذ إذا استمر بهيئة واحدة من حيث إنه يسمع ويطيع ولا يفكر بنفسه ضار جدا ، فإنه إذا مضت مدة الدراسة يصبح غير قادر على التفكير بنفسه ولا يستفيد شيئا وكيف يستفيد من هذه الحرية الحادثة بعد مدة التعليم وهو لم يتعلم كيف يستفيد منها أثناء التعليم ؟ ولا يعزب عن البال أن هذه الحرية المعطاة للتلميذ يجب ألا يكون معها إضرار بنفسه كأن يعطى السكين فيقطع بها يده ولا بغيره من التلاميذ وإلا قيدت بذلك كأن يرتفع صوته فيكون ذلك ضارا بالباقين . إن من مزايا التعليم العام فى المدارس أن يقيس التلميذ قوته بقوة غيره فتحصل المنافسة ويقال له : إننا نعلمك لنصل بك إلى غاية قوتك أنت ، كما نفعل مع غيرك كذلك فإن القوى مختلفة .

ثم إن التربية تنقسم إلى قسمين : تربية جسمية ، وتربية عقلية ، فالتربية الجسمية ترجع إلى ما به إصلاح الطعام والشراب وجميع ضرورات الحياة من كل ما يشارك فيه الحيوان ، فهذه إصلاحها أول ما يجب تعليمه . فأما التربية العقلية فهى ثلاثة أقسام : (القسم الأول) التربية المدرسية ، وبها تظهر مواهب التلميذ الكامنة وينتفع بها فى بقية الحياة انتفاعا خاصا بنفسه لنفسه (القسم الثانى) التربية المدنية ، وهى التى بها يشارك الإنسان مجموع الأمة فى حكومتها ونظامها العام (القسم الثالث) التربية الأدبية العامة ، وهى التى بها يصلح الإنسان لمشاركة الأمم جمعاء فى حياتها الاجتماعية . إذن القسم الأول أولها تعليما ، والأخير يأتى تعليمه فى النهاية . وبهذا انتهى تلخيص المقدمة من كتاب (كنت الألمانى) وجاء بعد المقدمة ما يأتى :

الباب الأول فى التربية الجسمية

فابتدأ ينصح معلمى التلاميذ فى منازل آبائهم قائلا لهم ، أيها الأساتذة أنتم (وان كنتم مختصين بتعليم التلاميذ الكبار فى المنازل عليكم واجب أدبى لاتنسوه . وهو أنكم أعلم من فى المنزل وحط آمال الأسرة

فى الأمور التعليمية ، وقد يوجد فى المنزل أطفال تستشارون فى تربيتهم الجسمية ، فعليكم أن تلموا بها . ثم أخذ يشرح التربية الجسمية المذكورة فقال :

(١) إن لبن الأم أحسن ما يغذى طفلها . فأما لبن الحيوان فانه لا يقوم بتلك التغذية كلبن الأم .

(٢) إن لبن الأم قد يقل فلا يفى بتغذية الطفل ، ومن الناس من يقنون أطفالهم بما يظنون أنه يناسبهم . ولكن هؤلاء عليهم أن يحترسوا كل الاحتراس من الخمر والتوابل والملح . إن حرارة الطفل أقوى من حرارة الكبير ، فهى فى الأول ١١٠ بمقياس فارنهايت . وهى فى الثانى ٩٦ بذلك المقياس . فليس ينبغى أن نزيد حرارته الطبيعية كما لا نزيد شهوة الطعام بالمهيجات الصناعية ، إنه ليس من المستحسن لكبار السن فضلا عن الأطفال أن يتدثروا بما يكثر الهواء لهم ويغطيهم غطاء تاما . وأن يعتادوا شرب ماهو حار جدا ، إن الاعتياد على البرودة أصح للأجسام على وجه العموم وأكثر تقوية لها ، إن السرير ذا الخشونة والبرودة أصح للطفل وأوفق له ، وهكذا الحمام البارد بشروط خاصة يسأل عنها الطبيب .

(٣) من العادات الرديئة أن يحزم الطفل كما جرت به عادة أقوام ، وهذه عادة ضارة جدا ، وخير من هذه العادة أن يجعل له صندوق يحيط به سير من الجلد ، ويجعل الطفل فيه ولا يخرج منه ولو فى حال إرضاع أمه له . وفى ذلك (ثلاث فوائد : الفائدة الأولى) أن الطفل إذا نام فى صندوقه بجانب أمه لا يموت بالاختناق كما يموت بعض الأطفال فى أحضان أمهاتهم وهن نائمات (الفائدة الثانية) أن أعضاءه أعطيت حرية كاملة فى هذا الصندوق . فأما الحزام فانه يضر بها ضررا بليغا (الفائدة الثالثة) أن هذا الصندوق يقيه كل ما يضره من الخارج .

(٤) مما يضر ضررا بليغا بالطفل أن يهز فى مهده . كان يعلق ذلك للهد فى حبل متصل بالسقف ومتى يشد ذلك الحبل يهتز الطفل ، إن ذلك شديد الضرر عليه ؛ كيف لا ونحن نرى الكبير يستضر بكثرة الاهتزاز إلى الأمام والخلف فما بالك بالصبى ؟ فيجب الإقلاع عن هذه العادة .

(٥) اعتاد أقوام أن يعطوا أطفالهم الشىء تارة بخيط طويل أو سلسلة ، وتارة بحبلة نقل ، وكلاهما خطأ فاضح ، وأشدهما ضررا أولهما ، فانه إذا أراد أن يلتقط من الأرض شيئا فان ذلك الخيط يؤثر فى جسمه عند الانحناء وجسمه لا يزال غضا طريا ، وما يحدث فيه من العيب لا يمكن إصلاحه بعد ذلك ، فليترك الطفل وشأنه ، فليحب أولا على الأرض ، ثم ليمش متى آن وقته ، ذلك هو الصراط المستقيم .

(٦) يجب أن تنبذ الآلات الصناعية فى تربية الطفل بتاتا .

(٧) من الأطفال من يأتون إلى هذه الدنيا وفى صورهم الجسيمة خلل فيحتال الآباء بآلات صناعية ليصلحوا هيئتهم كأن يوقفوهم بها مثلا فى أحوال خاصة ، فهؤلاء يجب أن يعفوا من ذلك ، وأن يتركوا وشأنهم أحرارا ، فإنهم بهذه الحرية يمرنون أجسامهم ، ويكون الطفل بالحرية أقوى ممن استعملت لهم الآلات الصناعية .

(٨) ليحذر القائمون بأمر الطفل من أصناف المؤمرات الصناعية عليه كما يحذرون من أنواعها ، وقد أخطأ الروسيون فى ذلك خطأ كبيرا فات كثيرا من صغارهم ، ليست العادة وليدة ساعتها ، إنها تتكون

بالتدريج شيئاً فشيئاً . أما المسارعة إلى حصول الطفل عليها فذلك ضرر أشد الضرر .
ثم قال : ليس من العادات ما هو أسرع وأكثر ضرراً من عادة التبغ (التدخين) وكل مشروب منبه أو مهيج كالكوكايين ، فإن هذه العادة يعسر الإقلاع عنها ، وهي عندنا وأولا تحدث اضطراباً في أجسامنا . فإذا استمررنا عليها فإنها تؤثر في وظائف أعضاء الجسم المختلفة .

(٩) يجب على مربي الصبي أن يعوده خير العادات في تعاطي طعامه وشرابه ، فليكن كلاهما في أوقات معينة .

(١٠) إن الفراش الخشن أفضل في التربية من الفراش اللين ، وهاهنا قاعدة عامة ، وهي أن كل ترف ونعيم للصبي مضعف لجسمه ، وكل اخشيشان واخشيشاب مقويان لأعضائه الجسمية .

(١١) على المربي أن تكون أحكامه صارمة في تهذيب طفله وتأديبه ، ولكن حذار أن يبلغ به جرعة الإذلال فيعيش عبداً ذليلا ، يجب أن يشعر الطفل بأنه حر ، ولكن لا تتعدى تلك الحرية الحد القانوني فيضر بحرية غيره مثلا كما تقدم . هذا هو معنى التهذيب .

(١٢) إن الطفل في الثانية الأشهر الأولى من حياته لا تكون حاسة البصر عنده قد تمت نموا تاما حتى انه لا يكاد يفرق بين شيء وآخر . والدليل على ذلك أننا إذا أدنينا السراج من عينيه ثم باعدناه عنه فإنه لا يتبعه بنظره ، وهكذا في ضحكه وبكائه فأسبابهما عنده غير جلية كحاسة البصر ، ولذلك تراه يبكي لأتفه حادث مبهم غير واضح ، ولو أنك لطمت يده في الشهر السادس لصرخ كأنك لطمته بخشبة تتأجج نارا ، فأمثال هذا الصراخ ليس فيه إفساد لطباعه ، فلا تسكبح جماحه فيه بأن تتركه وشأنه حتى يسكت . كلا . وإنما الصراخ الذي به يجب تأديب الطفل بأن ندعه وشأنه حتى يعتاد السكوت من نفسه فهو ذلك الذي يأتي من قبيل الشهوات النفسية كأن يبكي لأجل أن يرضع في غير أوانه ، أو أن يطلب شيئا آخر لا يجوز له . فهذا هو الذي يترك الطفل فيه وشأنه حتى يتعلم السير على القانون ويترك البكاء ، إذا أعطى الطفل كل شيء خوفا من صراخه فإنه تلازمه تلك العادة في أدوار حياته وتكون أخلاقه مضطربة ؛ ليس من حسن التأديب أن ينتظر الأبوان مع الصبي تقبيل يديهما بعد عقابه بالضرب مثلا ، إن هذه العادة تعلمهم التظاهر والرياء .

(١٣) ليحذر المربي عادة الشتم فإنها تحدث في الصبي الجبن والحياء ، وبذلك يخفي ما في نفسه ولا يظهره .

(١٤) إياك أن تعامل الطفل معاملة الكبير فتلعب معه وتطلق له العنان ، وذلك بكثرة الملاطفة والإطلاق سراح الدلال له ، فإن ذلك يجعله قاسيا صعب المراس ، إن الأبوان بذلك يضران في عينيه ولا يحترمهما ، ولمناسبة ذلك أذكر ما قاله الشاعر العربي :

فإياك إياك المزاح فإنه يجرئ عليك الطفل والرجل النذلا

ومن ذلك ما قدمناه آنفا ، وهو أنه يجب ألا يعطى كل ما يريده وينذرنا ببكائه ، بل ندعه حتى يترك عادة البكاء شيئا فشيئا ونعطيه كل شيء بقدر ، فبهذا يشب وهو كيس مخلص بلا وقاحة وتهور ظريف مؤدب النفس من غير جبن ، إن الوقاحة والتهور الناشئين مثلا من إعطائه كل ما يشتهيه بالبكاء لا طاقة للناس على احتمالهما .

(١٥) من عادات طبقة العمال أن يفسد الأبوان أخلاق أطفالهما بهذه الطريقة فيجعلونهم كثيري

العناد ، صعبي القياد ، يأتون من سلوك الصراط السوى فى المعاملات ، إن أبناء طبقة العمال أشرار بسبب معاملتهم بشدة للملاطفة ، ولقد شاع وذاع (وهو حق) أن أطفال طبقة العمال أكثر فسادا من أطفال الطبقة الراقية ، لأن الآباء من الطبقة الأولى يلعبون مع أطفالهم كالقرود ويغنون معهم ، ويكثرون من ملاطفتهم ، ويقبلونهم ويرتعون معهم ، إنهم يظنون أنهم عطفوا عليهم برأفتهم ورحمتهم وتحننهم إذا هم سارعوا إلى الطفل إذا صرخ أولعبوا معه ، ولكن الحقيقة بأنه يصرخ لعاداته هو ولهواه ، ولكنه إذا عرف أن صراخه لا يهتم به أحد ترك تلك العادة .

(١٦) علينا أن نمنع الطفل من (ثلاثة أشياء : الأول) الاعتياد على التلدذ فإن ذلك مفسد ضار له (الثانى) حب البطالة والكسل فإن ذلك أشد أمراض الحياة ، فليدرب الصبى على العمل من أول حياته (الثالث) التأنق والإسراف ، وبالجملة يجب أن نمنع الطفل من تربية الإحساس باللذات والآلام ، وهاهنا التربية سلبية لا إيجابيه .

(١٧) إن بعض الناس يؤمنون بأنهم إذا عودوا الطفل أن يتربص زمنا طويلا قبل أن يعطوه ما هو فى حاجة إليه فإن ذلك يعلمه خصلة الصبر . قال الأستاذ (كانت) وهذا حق وضرورى لا سيما فى حالة المرض .

(١٨) لايجوز بحال أن تكسر شوكة الطفل بمقاومة إرادته مقاومة تامة ، ولكن يجب أن تقوم تلك الإرادة وتعدل . أما كسرها بتاتا فلا ، نعم فى ابتداء الصبى يجب أن تكون طاعته عمياء فلا نبيح له أن يجعل البكاء سبيلا لإعطائه ما يشتهى كما تقدم .

(١٩) من عجب عناية للؤلف الشديدة بصراخ الصبى فى مهده وجعله أشبه بالحجر الأساسى فى التربية فقد كرره كثيرا ، وهاهنا فى صفحة ٥٦ من الكتاب يذكر قاعدة لذلك . فقال : إذا كان الصراخ لسبب ألم حل به وجبت المسارعة لإنقاذه من ذلك الألم ، وإن كان الصراخ لأمر يرجع إلى طباعه هو وجب الإعراض عنه . ثم قال : إن هذه القاعدة تستمر حتى يكبر فيعامل هذه المعاملة ، فإذا أخذ وهو كبير يعاند وجب علينا أن نقمع عناده بما يؤلمه إيلاما أدبيا كأن نمنع عنه ما كنا نمتعه به من قبل من المسرات ، إن كسر شوكة الصبى ضارة به ، ولكن إذا عاملناه بأمثال ماتقدم أصبح لنا مطيعا سهل القياد .

(٢٠) أكثر المخاوف التى تعترى بعض الناس ترجع إلى ظنون فاسدة كمن يخاف العنكبوت والضفدع ونحو ذلك مما تلقاه عن المراضع ، فعلى المربين أن يعودوه على أن يتناول ويمس كل مايخاف منه من هذا القبيل كان يلتقط العنكبوت كما يلتقط أى شىء ، وبهذا تم الكلام على التربية الجسمية وهو الباب الأول بعد المقدمة .

الباب الثانى : فى التربية الجسمية العقلية

قال : إن هذه التربية هى الجزء الإيجابى الطبيعى وماتقدم هو الجزء السلبى الطبيعى ، إن التربية العقلية الجسمية هى التى تفرق بين الانسان والحيوان ، إن هذه التربية ترجع فى الأكثر إلى تربية القوى العقلية فعلى الأبوين أن ينتهزا الفرص لترقية تلك القوى ، فأولا يمنعون منعا باتا الاستعانة بالأدوات المساعدة على

المشي ونحوه كما تقدم ، ويدعون الطفل يسير وحده . لأنه إذا اعتاد ذلك كان أقوى له وأقوم لسعادته ، وإذا صح ذلك فى التربية الجسمية فليفعل معه ذلك فى التربية العقلية الجسمية من باب أولى ، مثلا نحن نستعين فى مقياس مسافات معينة بحبل نقيس به مع أننا نقدر أن نعرف تلك المسافة بأعيننا ، فالحاجة إلى الحبل نفس فينا ، هكذا نحن نحتاج إلى ساعة بها نعرف الزمن ، مع أننا يمكننا أن نعلم الوقت بضوء الشمس ، وإذا كنا فى غابة استعنا بالبوصلة لنعرف أين نحن فى الغابة ؟ مع أننا نقدر أن نعرف ذلك باتجاه ضوء الشمس نهارا وبالنجوم ليلا . وتركب السفن مع أننا يجب علينا أن نعوم ؛ فكل هذه مساعدات آلية مضعفة للقوى العقلية التى يجب أن نستعملها فى استقلال البحث والمعرفة والكشف ، فنحو هذه الأعمال البدنية العقلية يجب إنماؤها وتقويتها . ألم تر إلى (فرانسكاين) الشهور . إذ يتعجب كيف لايتعلم كل امرىء السباحة فى النهر والبحر . وهى مهارة مفيدة نافعة ، وقد أوضح أسهل الطرق لذلك فقال ، قف فى ماء النهر حتى يصل الماء إلى عنقك وارم ببيضة فى الماء واجتهد أن تصل إليها فاذا اتجهت لتناولها فإنك لابد رافع رجليك ، وإذا كنت لابد لك من منع الماء أن يدخل فمك فانك لابد رافع رأسك إلى الخلف ، وإذن أصبحت فى حال هى مبدأ العوم ، فما عليك إلا أن تمد ذراعيك ضاربا الماء بهما مرة بعد أخرى ، وهذا هو العوم :

(١) إن أمثال هذه التمارين الجسمية العقلية لايتم نماؤها إلا بالقوة والمهارة والسرعة والثقة بالنفس

(٢) ومن هذا القبيل تمرين الحواس ، ومن خير مايقوبها إلى أقصى حد ممكن الألعاب الرياضية ؛ كاللعبة التى يتظاهر فيها الصبى بفقد بعض الحواس كالبصر مثلا ، وتسمى فى مصر (بالتغمية) وقد كانت معروفة عند أهل اليونان ، وهاهى اليوم فى كل مكان ، فهى عند الألمان والفرنسيين والانجليز ، ولا جرم أن هذه الطريقة بها يقدر الصبى أن يبحث ببعض الحواس وحدها تمرينا لها ، إن أمثال هذه الألعاب يستفيد منها الصبى (أولا) أنه يتعلم الصبر والاحتمال والتروى والتأنى (ثانيا) أنه يكسب للسرة واللذة الحاصلتين بالتغلب على الصعاب (ثالثا) يتعلم خلوص النية وسلامة القصد . وبهذا تم الكلام على الباب الثانى بعد المقدمة فى التمرينات الجسمية العقلية .

الباب الثالث فى التعليم العقلى بالمدارس

إن الإنسان خلق ليعمل ، ولن يتم له عمل مالم يتعلم تعليما نظميا . فيجب أن يكون له أوقات لتحصيل العلم ، وأخرى للعب والراحة ، ولابد من انفصال كل من الوقتين عن الآخر ، فأما اختلاطهما فسلا ، إن الانسان فى وقت الدراسة يترقب وقت الراحة الذى به يستجم قواه .

كيف تكون التربية العقلية الحقيقية ؟

لقد قدمنا تربية الجسم فى المقدمة والتمرين العضلى الحسى فى الباب الأول وكذلك فى الباب الثانى ، وفى هذا الباب قد وصلنا إلى لب التعليم ، فبعد أن فرقنا مابين أوقات التحصيل واللعب فى الدراسة أخذنا الآن ندرس تمرين نفس القوى العقلية ، إن الإنسان قد يرى صورا كثيرة فاذا أدركها وميزها بسرعة عددنا ذلك ذكاء وتصورا ، وإذا أصدر حكمه عليها سمينا ذلك تصديقا ، وهذا التصديق لا يتم إلا بيرهان ، وإذا تذكر الحوادث الماضية عددناه حسن الذاكرة فهاهنا أربعة أمور :

(١) تصور وفهم وقد يصحبه ذكاء .
(٢) برهان به يدخل الجزئيات فى الكليات .
(٣) حكم بالحصول على الموضوع : أى بالخبر على المبتدأ وهو التصديق .
(٤) تذكر للحوادث والعلوم .

فكل من التذكر والتصور يسمى قوة سفلى . والتصديق أو الحكم الذى أتى به البرهان نسميه قوة عليا وإذا عرفنا هذا فهل نفصل فى التعليم بين القوى السفلى والقوى العليا كما فصلنا بين أوقات الدرس وأوقات اللعب ، كلا ، ثم كلا ؛ فى أردنا تمرين الذاكرة وجب علينا أن نقرن تمرينها بتمرين القوة الحاكمة فلا نجعل حفظ التاريخ أو الشعر الذين ومنهما الذاكرة . وهى التى اعتبرناها قوة سفلى بمعزل عن قوة الحكم فنقيس الحاضر بالماضى ونستنتج وإلا فلا فائدة فيما تتذكره ، وما قيمة الرجل الذى يحفظ الشعر أو النثر أو التاريخ أو اللغات إلا كقيمة الدواب تحمل صور المتاحف ، وكمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم ، نعم لحفظنا وامتلائه فائدة ماوهو أنه يحفظ ليستنتج غيره من محفوظه ، وهكذا أهل الذكاء وسرعة الخاطر لامنفعة تجنى منهم غير الحكم الذى هو القوة العليا . فاذا ذكر الشاب قاعدة علمية عامة وجب علينا أن نحرضه على أن يقتبس بيتا من الشعر أو حادثة من التاريخ أو الخرافات ، فنحن بذلك مرنا القوة الحاكمة العليا مع القوة السفلى وهى الذاكرة .

يجب تمرين الذاكرة لأنها قوة مساعدة تحفظ الصور التى يحصل فيها الحكم لوقت الحاجة ، فهى خزانة يجب المحافظة عليها ، ولكن ليس معنى هذا أن نحفظ مالافائدة لنا فيه . بل الذى نحفظه يجب أن يكون نافعا لنا فى أعمالنا ، وعلى ذلك يمنع الشبان من قراءة الروايات فانا لانجنى منها منفعة لنا . وغاية الأمر أنها تفيدنا تسلية وتلهية ، وهى مع ذلك تضعف الذاكرة ، فانه مما يوجب السخرية والضحك أننا نحفظها لنقصها على الآخرين ؛ فلنمنع الروايات منعا باتا ، إنهم إذا قرءوها فانهم ينسجون فى نفوسهم معانيها ويتصورونها ولا تزيل بصحبها ، فتكون نفوسهم فيها محبوسة التفكير ، ناسجة على ذلك المنوال بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويجب أن يمنع الشاب من اللهو والضحك لاسيما فى الدرسة ، فان ذلك يصبح فيه عادة ، وبهذه العادة يفقد المرء مواهبه اللطيفة العقلية ، إذ جعل نفسه أضحوكة الناس .

كيف تقوى ذاكرتنا؟

نحن نقدر أن نقوى الذاكرة بأربعة أشياء :
(١) بحفظ الأسماء التى تصادفنا فيما نقرؤه .
(٢) وبالقراءة .
(٣) وبالكتابة .
(٤) وبقراءة اللغات .

ولكن يجب مع تقوية الذاكرة أن نصحبها بالقوة العليا وهى الفهم ، ثم تأتى دراسة علم النبات وعلم الجماد والمعادن وجميع التاريخ الطبيعى ، ولابد فى فهم هذه العلوم من الاستعانة بالرسم ، وتجب دراسة الجغرافيا والعلوم الرياضية والطبيعية ، إننا بنظرنا فى ظواهر سطح الأرض نتوصل إلى معرفة تاريخها القديم والتاريخ على سكنها فى الأزمان القديمة وهكذا .

علينا أن نمزج علم التلميذ بالعمل . ففى جميع العلوم الرياضية لابد من التمرين عليها، وفى الخطابة والإلقاء مع الفصاحة يجب أن يكون مصحوبا بالفهم ، لابد من القواعد العامة والقوانين للفهم والحكم ، وهذه القواعد والقوانين يجب أن تكون مصحوبة بتطبيق الكليات على الجزئيات .

وهاهنا أورد قاعدة للتعليم تشمل ماتقدم كله فقال: التعليم العقلى على وجه العموم إما طبيعى وإما أدبى والأول يشتمل على التهذيب ، وعلى تعليم العلوم . والثانى هو التعليم الذى به يميز الانسان بين الحق والباطل ، ثم أخذ يقسم التعليم العام العقلى ثانيا إلى القوى السفلى كالمدركات الجزئية الوجدانية والحسية والذاكرة والحافظة ، وإلى القوى العليا ، وهى (أولا) استنتاج الكليات من الجزئيات (وثانيا) ترتيب القضية الكبرى على الصغرى (وثالثا) إبراز النتيجة ، وأنا أمثل لذلك بأن تنظر فترى أن زيدا وخالدا وعمرا لم يتعلموا فانحطوا فى أحوالهم الاجتماعية وهكذا الأمم فتقول: كل أمة نبذت التعليم ضعفت ، وكل ضعيف يحتل أرضه غيره فتكون النتيجة: أن الأمة التى تنبذ التعليم يستعبدها غيرها ، فهاهنا ثلاث درجات استنتاج الكليات من الجزئيات ، ثم ترتيب القضايا ، ثم إظهار النتيجة .

ثم أفاد أن خير طريقة للبرهان إنما هى التى تنحو نحو سبيل (سقراط) فى (جمهورية أفلاطون) التى تقدم منها جمل كثيرة فى هذا التفسير ، وبهذا تم الكلام على الباب الثالث فى التعليم العقلى .

الباب الرابع فى التعليم الأدبى العام

هذا التعليم يراد به أن يكون الفتى بصيرا يعرف بها ماهو حسن نافع وماهو قبيح ضار ، فإذا كان التهذيب قد يدعو العقاب الطبيعى والصناعى فى المدرسة ، فليكن بجانب ذلك أيضا تعليمه الحقائق فى أنفسها لتربى فيه الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج ، وقد ضرب لذلك مثلا فقال :

كذب التلميذ يوما عند معلمه أو أبيه ، أو أحسن أعماله ، فعاقبناه فى الأول ، وأثنينا الجوائز فى الثانى فهل ذلك يهذب أخلاقه ؟ كلا . لأنه يكبر ولا خلق له ، بل يعيش لحظ نفسه وحده . فأما إذا عومل بمعاملة تدعو إلى الاستقلال وقيل له : إن هذا لا يجعل الناس يثقون بك ، فإن ذلك يبعث فى نفسه خلق الصدق بلا توقف على عقابه إن أساء أو إثابته إن أحسن ، بل يكون ذلك من تلقاء نفسه .

فعلى المربين ألا يقفوا عند ثواب المدرسة والأبوين أو عقابهما . كلا . بل يجب أن يقرن ذلك القانون المدرسى الواجب التنفيذ بالقانون الأدبى الشريف العام ، وهو الذى به يحكون التلميذ إنسانا كاملا كما شرحناه فهذا هو الذى به يميز التلميذ بين الحسن والقبيح ؛ ويجب أن يقرن الثانى بالأول من ابتداء الحياة .

(١) ثم قال : الطاعة على قسمين : طاعة واجب تنفيذها بلا قيد ولا شرط ، وطاعة مقيدة بظهور برهان أنها حق . فأما الأولى فهى طاعة الأستاذ ، وأما الثانية فهو ما تدعو إليه نفس التلميذ بإرادته هو ، وكلاهما لابد منه لتهذيب الخلق .

(٢) القوانين يجب تنفيذها لا سيما فى المدرسة بقوة وحرية بلا هوادة ولا استثناء ، ولا يجوز للمعلم أن يبدى ميلا ما لتلميذ أو تفضيلا له ؛ فإن ذلك لا يجعل القانون محترما . فاذا رأى تلميذ ما أن القانون غير مطلق التنفيذ تمرد عليه وصار شكس الطباع .

(٣) يزعم قوم أن التلميذ يجب أن يعمل بمجرد رغبته هو من تلقاء نفسه بالمشوقات ، وهذا

تصور معيب ، إن هناك واجبات مدرسية تلقى على عاتقه ويعرف أن ذلك واجب عليه فلابد من عمله بهيئة أنه واجب بغض النظر عن رغبته هو ، إن هذا حسن جدا للتلميذ ، فإذا قام بهذا العبء صغيرا فما أسهل عليه أن يتحمل الواجبات المدنية التي يؤمر بها وهو كبير ويجب أن نفهمه صغيرا .

(٤) كل ذنب يجب أن يتبعه عقاب ، وهذا العقاب على (ثلاثة أقسام : الأول) العقاب الأدبي كأن نعامله معاملة جافة نوعاما ، كأن ننظر إليه نظر احتقار إذا كذب (الثاني) العقاب الطبيعي السلبي ، كأن نمنع عنه مايطلبه مما يحبه ، وهذا أيضا ينحو نحو العقاب الأدبي (الثالث) العقاب بما يؤلمه ، ولكن في هذا وحده يجب الاحتراس من أن نستبله فيعيش عبدا أمد الحياة .

(٥) يجب أن يكون العقاب مع الاحتراس من نتائجه النفسية . مثلا : إذا عوقب التلميذ والعاقب حنق عليه فإن التلميذ يعتقد أن ذلك ليس إلا قضاء لبانة العلم لمجرد إطفاء غضبه ، فيجب إذن (أولا) ألا يظهر الغضب (ثانيا) يجب أن يفهمه أنه لايريد إلا مصلحته هو .

(٦) إن هنا فارقة بين طاعة الصبي وطاعة الرقيق . أما طاعة الصبي فهي عمياء . وأما طاعة الشاب فانما هي مبنية على شعوره هو وإحساسه بالواجب .

(٧) إن أساس الأخلاق إنما هو الصدق ، إن الرجل الكاذب لاخلق له .

(٨) على المربين أن يشجعوا الصبيان على اتخاذ الأصدقاء ليكون ذلك مسرتهم وانشراحا ، وساعات المدرسة يجب أن يعقبها ساعات أخرى لاستنشاق النسيم وانشراح الصدر .

(٩) أزمان الشباب أصعب أيام الحياة وأكثرها اضطرابا ، فنحن فيها تحت إشراف غيرنا ، ولا قدرة لنا على الحرية في اختيار أصدقاء إلا نادرا .

(١٠) لايعطى التلميذ من العلم إلا مايوافق طبعه ويوافق مشربه ، فليس من الحسن أن نجعل الحصرم زبيبا ، أو أن يضع التلميذ نفسه فوق قدرها فيجب الاحتراس من ذلك .

خاتمة في التعليم العملي

هاهنا ثلاثة قوى في التعليم العملي لابد من إبرازها : المهارة ، والبصيرة ، والقوة الأدبية ، إننا نكون ماهرين في أعمالنا متى كانت معرفتنا للشيء معرفة تامة لاسطحية ، ليس يحسن بنا أن ندعي معرفة أمر ما لاقدر فيما بعد على مزاولته بنجاح ، هذه المهارة يجب أن تصبح خلقا بسبب استكمالها ، وهذا الاستكمال يصبح بالتدريج عادة ، إن هذا الكمال في المهارة هو العنصر الجوهري في تكوين أخلاق الرجل ، فأما المهارة فقط فإن هي إلا موهبة ، أما البصيرة فإننا بها نقدر أن نجعل غيرنا من أدواتنا يساعدوننا في مقاصدنا وهذه المساعدة لانالها :

(١) إلا بحزم .

(٢) وبكتمان مالايجوز إفشاؤه من المقاصد .

(٣) وبأن نكون محترسين متحفظين ، ويجب مع ذلك أن يعرف أخلاق الآخرين ، وبالجملة إن مساعدة الغير لنا تلزمنا أن نضبط نفوسنا ونحكمها .

(٤) أما الأدب واللياقة وحسن التصرف فهو أهم آداب السلوك مع غيرنا ، ويجب علينا أن نستمسك بهذا الخلق ، ماأصعب أن ندرس أخلاق غيرنا ، ولكن علينا أن نجد في ذلك من غير أن

فقد تحفظنا واحترسنا ، وعلى ذلك يجدر بنا أن يكون فينا بعض التظاهر (وبعبارة أخرى) يجب علينا أن نخفي عيوبنا وليس هـذا غشا حقيقيا ، بل هو مباح جائز وإن كان له سياج من عدم الإخلاص ، إن التظاهر والرياء واسطة اضطرارية عنيفة ، لـكن حازمين ولـكن لانضيع حسن طباعنا ولا نصـل بالحزم إلى درجـة أننا لا نبالي بغيرنا ، فالمرء يجب أن يكون شجاعا ولـكن بغير عنف شديد ، إن ضبط الإنسان نفسه أول سلم للارتقاء إلى مقام تكوين الأخلاق الفاضلة .

(١) ثم قال : علينا أن نقوى في نفس التلميذ الملـكة التي بها يساعد من أصابتهم نوائب الدهر فنتخذ شفقته مهمازا لذلك ولا نساعده على الانفعال ومشاركتهم في الأحزان .

(٢) لنتعلم قليلا تعليما تاما فذلك خير من أن نتعلم كثيرا تعليما سطحيا ظاهريا .

(٣) الأخلاق صورة لنهاية ما يقصد من التعليم ، وهذه المقاصد تكون في الإنسان قوة الإرادة على العمل ، ثم إبرازه للوجود على مقتضى تلك الإرادة المبنية على المقاصد العلمية القصوى .

(٤) إذا وضعنا أساسا للتعليم الأدبي للمتعلم وجب أن يوضع أمام عينيه دائما واجباته إما بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال ، وإما بالنصائح والقوانين والواجبات المذكورة إما لنفسه وإما لغيره ، فواجبه نحو نفسه أن يكرم ويشرف إنسانيتها في شخصه هو ، وواجبه نحو غيره أن يحترمه ويحفظ حقوقه ، إن واجبات المرء نحو نفسه التي هي خير مايعنى به تظهر ظهورا أتم إذا ما فارق التلميذ زمن الصبا وصار شابا .

(٥) إن من أهم ما يعين التلميذ على مراعاة حقوق غيره دراسة الدين .

(٦) على الأساتذة أن يمنعوا التلميذ من موازنة نفسه بغيره ، بل يجب أن يشجعوهم على أن ينظروا فيما هم بسبيله ، ويقوموا بما فرض عليهم على حسب طاقتهم هم أنفسهم .

(٧) الإنسان ليس شريرا ولا خيرا بطبعه . كلا . وإنما عواطفه تميل به نحو أحدهما ، ولـكن العقل يميز بين الحق والباطل ، فهو الذي يصرف النفس عن هواها إلى قانونه هو فيصرفه عن الشر إلى الخير .

(٨) وهاهنا أخذ يشرح كيف يعلم الدين . هـذا المقام قد كتبته في كتابي « التاج المرصع » وملخصه : أن الدين فيه (أمران) أمر علمي ، وأمر عملي ، فالعلمي يرجع إلى معرفة الله تعالى ، وهذه المعرفة لا تتم إلا باستيعاب النظام العام في السموات والأرض بحيث يدرك هذا النظام هناك ، هناك يكون الحب والإعظام والخشوع . فأما العملي فذلك راجع للأخلاق والإخلاص لله تعالى ، وعلى القائمين بالتعليم أن يفهموا الطالب أن في قلبه سرا إلهيا ونورا ربانيا ، وهذه القوة إن لم تستثر بالتعليم (ليكون للانسان واعظ من نفسه ، بحيث يعرف أن المعصية في نفسها شر ، والطاعة في نفسها خير فضلا عن العقاب الأخروي) لم يكن للدين من أثر في النفوس ، وفوق ذلك يجب أن يوجه كل ثناء ودعاء في الصلاة إلى إعلاء همة الإنسان في أعماله فإن لم يكن ذلك كانت الصلاة من أسباب موت البصيرة الخ . وهاهنا دهشت من هذه الآراء لأنها توافق قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » الخ وقوله : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فاقرأ هذا المقام مفصلا في كتابنا (التاج المرصع) .

ولقد زاد دهشي وحيرتي ، إذ وازنت ما بين هذا القول وما بين أقوال كثير ممن تعلموا في جامعات أوروبا ، فهؤلاء نشروا الإلحاد في الشرق بحجة أنهم فلاسفة ، وكيف يصح لهم ذلك

وهذا (كنت) نجده جميع أوروبا وأمريكا ، فيا هوذا يخشع لجلال الله تعالى، ويوصى بدراسة جميع العلوم لمعرفته تعالى كما هو دأب كتابنا العزيز، وتفصيل هذا المقام فى كتابنا « التاج المرصع » المذكور اهـ .

***

ولما أتممت هذا المقام كله قال صاحبى : بقى سؤال واحد يرجع إلى ماتقدم فى أول كلام (كنت) إنه يقول إن علينا ألا نكسر شوكة الصبى لا فى البيت ولا فى المدرسة، ونكون متوسطين معه عادلين ، ولن يكون ذلك إلا بتقويم إرادته وتوجيهها إلى ماهو خير له (أى كما نوجه الماء فى مجراه إلى ماهو نافع ولا ندعه يجرى من غير قانون فيضر بزرعنا . فأنا الآن أريد إيضاح هذا المقام من علم النفس الحديث : أى الذى حدث بعد (كنت) لأنه قد مضى عليه فوق مائة سنة ؟ فقلت له نعم أفيدك فى ذلك بقول مختصر ليكون نموذجا لعلم تربية الأطفال : فأقول : جاء فى (أصول علم النفس وأثره فى التربية والتعليم) تأليف الأستاذ العلامة أمين مرسى قنديل أستاذ علم النفس و التربية بمدرسة المعلمين العليا بمصر من صفحة ١٥٨ وما بعدها ماملخصه .

طائفة من الغرائز والميول الفطرية

الغرائز الشخصية . غرائز المحافظة على البقاء

إن أهم هذه الغرائز :

(١) الخوف من الأعداء .

(٢) الغضب والمقاتلة .

(٣) النبذ والتقزز .

(٤) الاقتناء والادخار .

(٥) السيطرة والظهور .

(٦) الانقياد والخضوع .

أما غريزة الخوف فانها أول ظاهرة تبدو من الطفل . قبل أن يبلغ ستة أسابيع من عمره تبدو عليه علائم الخوف والفزع متى سمع صوتا شديدا . فيصرخ صرخات تدل على ذعره وخوفه . وتكمل تلك الغريزة فى السنتين الثالثة والرابعة ، وهناك يكون بعض الاستقلال بالنفس ، فيتغذى بنفسه ويهرب مما يخيفه ؛ ومظاهرها تأخذ فى التضاؤل ، وعلى قدر ازدياد الخبرة بما حولنا يزداد تضاؤل الخوف منه ، ولكن يبقى مع الإنسان من تلك الغريزة مايقتضيه الحال الطبيعية للشاب والكهل والشيخ . والذى يثير الخوف كل مايمكن أن يرى فيه الإنسان خطرا يهدده حقيقيا كان أو موهوما كالأماكن المرتفعة ، والظلام ، والوحدة ولمس الغراء ، والغريب من الناس ، ومن كل مايخرق العادة ، والطبيعة ، ومن نفس مظاهر الطبيعة كالرعد والبرق . والريح العاصف ، والزلازل ، والمغاور ، والظلمة ، والحشرات ، والزواحف ، والحيوانات المكشرة والأصوات الفجائية العالية : ونتائج الخوف : خفقان القلب . وسرعة التنفس سرعة كبيرة وجفاف الريق وامتقاع اللون ، والعرق البارد إلى آخره ، ويزيد الخيال الإنسان آلافا من الأخطار والمخاوف فتنتاب المرء يقظة ومناما .

هذا هو الخوف ؛ فما السبيل للاستفادة منه فى التربية ؟ يقول علماء هذا الفن : هناك طريقتان لذلك الاستفادة من الخوف .

(الطريقة الأولى) طريقة الجهلاء ، وهى أن يستعملها الآباء والمدرسون بهيئة صارة كأن يحملوهم على أداء المطلوب بالضرب أو نوع ما من أنواع الإيذاء ، فذلك يحدث فى الطفل رذيلة الجبن ورذيلة التردد . ويجعل الصبيان لايثقون بنفوسهم . بل قد يحدث فيهم أمراضا عصبية ، فقد ثبت أن ربط حادثة ماباتصال شديد تفسانى ثم كتمها فى (اللاشعور) مصدر كثير من الأمراض العصبية الغريبة فى الإنسان، هذه هى الطريقة الأولى .

(أما الطريقة الثانية) فهى طريقة التربية الحديثة ؛ وهى أن يستعمل الخوف استعمالا علميا فيخوفون الطفل من عمل القبيح لامن العقاب والتهديد . فيبين المربون للطفل العواقب الوخيمة للأعمال المزرية التى تصدر منه .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : ما أحسن العلم وما أجله ، إن هذا تفصيل حسن وجميل ، فهانحن أولاء استفدنا نشوء تلك الغريزة وتدرجها وضعفها، ثم استعمالها استعمالا علميا . ثم كيفية الاستفادة منها استفادة شريفة . هذا هو الصراط المستقيم ، وبهذا عرفت مثالا لتفصيل ما أجمله الأستاذ (كنت) الألمانى . قال صاحبى : أرجو أن توضح بقية هذه الغرائز . وهى : الغضب والمقاتلة والنبذ والتقزز والاقتناء والسيطرة والانقياد ، فقلت: أيها الأخ إن فهم غريزة الغضب واستعمالها بقسميه يضئ لنا السبل لاستعمال بقية تلك الغرائز وليس لى أن أطيل فيها ، لأن ذلك لايليق بهذا الكتاب ، لأنى إنما أريد أن أدل على طرق العلوم فى هذا التفسير لا أنى أستوفيها فهذا محال . وعلى ذلك أختصر الكلام اختصارا فأقول :

إن الغضب يشترك مع الخوف فى أحوال ويخالفه فى أحوال أخرى ، فكلاهما يغلب الروح والفكر على أمرها ؛ فليس يقبل امرؤ نصيحة وهو مهتاج غضبه ، لأن غضبه استحوذ على قواه العاقلة فشغلت به ولم تتفرغ لسواه ، وهو دليل على ضعف قدرة الانسان على ضبط نفسه وحكمها ، ولذلك يكون ظهورها أتم فى الصغار وفى أفراد الأمم البعيدة عن الحضارة فهى تبدو فيهم لأقل الأسباب .

هذه هى جهة الاشتراك بين الخوف والغضب . أما الأحوال اللاتى يختلفان فيها ، فمنها أن الخوف عام فى كل حيوان ، ولكن غريزة المقاتلة التى يسببها الغضب ليست عامة عموم غريزة الخوف ، وكيف تعهد من ترى بعض إناث الحيوان قلما يبدو عليها ميل إلى المقاتلة ولكنها عامة قوية فى الانسان ، ومنها أن الخوف يدفع إلى الهرب والاختفاء ، والغضب يسوق المرء إلى الهجوم والدفاع عن النفس بالمخلب والناب .

كيف نستعمل غريزة الغضب فى تقويم الطفل؟

لذلك طريقان : (الطريق الأولى الهمجية) وهو أن يقابل الأبوان والمدرس الغضب بنظيره ، وذلك يعرض الآباء والمدرسين لشىء من احتقارهم وعدم الشفقة عليهم (الطريق الثانى) طريق الحكمة والعلم . وذلك بأن يقابل غضب التلاميذ بالهدوء وعدم الاكتراث ، أو يترك للغضب وحده حتى تأخذ سورته حدها ثم تخبو ، ويمنع ماغضب لأجله كما يفعل بالطفل إذا صرخ لأجل إرضاعه فى غير وقته ، فإذا عرف الطفل أن ذلك لايفيده فكر فى ضبط نفسه وكفها ، وحسن من المدرس أن يذكر التلميذ السريع الغضب بعد هدوء سورته بأن ذلك يضر بمقامه بين إخوانه ولم يسعفه ذلك بإنالته ماطلب .

كيف يستعمل تلك الغريزة فى التربية؟

على المدرسين والآباء أن يحولوا ثيران الغضب من حالها الأولية إلى ثيران شريفة عالية كالغضب للحق والقتال لنصر الضعيف وتأييد للمبدأ . والثابرة فى الحصول على غاية جيدة ، وفى تأدية الواجب ، وفى الدفاع عن الشرف والكرامة .

أما التميز أو الاشمئزاز فهو انفعال نفسانى فطرى أولى يتجلى فى نفور النفس من كل كريه مستقذر : فهو يشبه غريزة الخوف من جهة النفور ، ولكنه يخالفها فى أن الخائف يهرب مما خاب منه ، والمشمئز يبعد عن نفسه عادة مصدر اشمئزازه ، كمكل طعام مر للذاق ، وكل ماهو نتن زلق ، أو هلامى لين كالديدان والحيات والضفادع والقراد ونحوها ، وقد بقيت هذه العادة فى الإنسان من أيام أن كان يعيش فى الغابات ، ومن أعدائه الحيات ومايشبهها من الأشياء الهلامية المؤذية له ، وهكذا كل نبات ذى طعم أو رائحة ضارة بالإنسان أو سامة له . ولقد بقى من تلك الغريزة فى الإنسان الحاضر الاشمئزاز مثلا من إنسان قذر الثياب والطعام ، أو غير منتظم فى أخلاقه أو كلامه .

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة؟

إن للمدرس يستفيد من غريزة الاشمئزاز أن يصور عند تدريس التاريخ الأخلاق الفاسدة كالخيانة والخبث والدسائس وسوء السلوك بصور قبيحة تشمئز منها النفوس حتى تثير هذه الغريزة وترتبط بانفعالها النفسانى ، حتى إذا ماعرضت للفتى تفر منها وتمجها ، بل مج التفكر فيها .

أما غريزة حب الرئاسة والسيطرة ، وغريزة الخضوع والانقياد فانهما يشبهان من بعض الوجوه غريزتى الغضب والخوف ، بل الأوليان تثيران الأخريين ، فحب السيطرة يثير الغضب ، وغريزة الانقياد والخشوع تثير الخوف . إن غريزة السيطرة والنفوذ والحرية تظهر عند الطفل فى مهده ، فهو يقاومك إذا أردت تقييد يديه ، وعند الشاب القوى عضلاته ، فإنه لايكاد يتلقى أمرا من غيره تذمر مضمر أو ظاهر . إن مقاومة الطفل لمن يريد تقييد حريته ومقاومة الشاب المذكورتين مظهران دفاعيان عن هذه الغريزة ، وهناك مظاهر هجومية لهذه الغريزة ، كأن يسعى الإنسان للتغلب على مافى بيئته من الأشياء ويحيله إلى نفسه ، ومثل أننا نرى الطفل يأمر الخدم وينهاهم ، ومثل محاولة الصبى أن يكون غالبا سواه فى ميدان اللعب بالمدرسة ونرى من الصبيان من يحبون الزعامة والرئاسة أو الغلبة فى الحديث وهكذا .

كيف يستفيد المرء من هذه الغريزة ؟

إن كل عملية عقلية تقضى فى سبيل المرء أثناء قيامه بأى عمل ماتثير هذه الغريزة فتدفع المرء إلى إظهار قوته أو مهارته حتى يتغلب على هذه العقبة ، فذلك الانفعال النفسانى إذ فالا نسميه تحمسا ، أو عزما ، أو جهدا يدفعه إلى المثابرة على العمل .

أما غريزة الانقياد والخضوع فإنها هى الجهة السلبية لحب السيطرة والغلبة ، وهاتان الغريزتان لكل منهما عمل خاص إذا لم تقم به اختل نظام الحياة على مقدار التقصير فى ذلك القيام ، فغريزة السيطرة إذا

اشتدت وطأتها كان صاحبها صلب العود عنيدا لاينكص أمام عقبة تقف فى سبيله ، وهذه سبيل بعض القادة والحكام وجميع الطغاة ، فإذا ضعفت ومرضت استحالت إلى مشاغبة وتهويش وإيذاء .

وغريزة الخضوع إذا جاوزت الحد أضحى صاحبها ضعيفا مطواعا قليل الثقة بنفسه . إن للدرس الذى يطيع رؤساءه فيفعل ما يوجبه القانون والعرف ، ومن جهة أخرى يسيطر على تلاميذه بحيث يرهبون جانبه مع عاطفة الحب له والميل فإن هذا هو الذى ينطبق عليه اعتدال هاتين القوتين فيه . أما ذلك الذى يشك فى مقدرته على التغلب على فصله فإن تلاميذه يسعون للتغلب عليه وقهره وإخضاعه لأوامرهم ، ومن أمثلة غريزة الخضوع العاطفة الدينية ، إذ يقيس المرء ضعف نفسه بعظمة الله فيخشع له كل الخشوع .

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة ؟

واجب المدرس أن يراعى النسبة بين هاتين القوتين فيقود الأولى ويوجهها إلى جهة الخير ويحترس من إخمادها أو الوقوف فى سبيلها من غير داع يقتضى كبحها ، فتكرر كبحها يذل التلميذ ويحوله إلى جهات الشر والإفساد ، وهكذا عليه أن يبعث فى الطفل الطبع للتهيب الثقة بالنفس ؛ ويحضه على الإقدام والثبات والمثابرة والتغلب على ما يقف فى سبيله ، وهذا هو معنى إيجاد التوازن بينهما .

وأما حب الادخار والاقتناء والتملك فإنها عامة فى الحيوان والانسان ، فنراه فى النمل والنحل والسنجاب والطيور ، ونراها فى الطفل من سنته الثالثة ، وتقوى جدا بين السنة العاشرة والرابعة عشرة ؛ ولا تترك شبانا ولا شيوخا لا يعتريها ضعف مدة أمد الحياة .

وإذا رأينا الطفل يجد فى جمع قطع الخرق البراقة وقطع الحديد وهكذا ، ورأيناه يجمع أنواع الحشرات والزهر والفراش وبيض الطيور والحفريات المختلفة فلنحمد له فعله فإن ذلك يبعث فيه :

(١) الشوق للعلم .
(٢) والتحمس له .
(٣) والاهتمام به .
(٤) وحب الطبيعة وتأملها .
(٥) وطرق البحث والتنقيب والترتيب والنظام والنظافة والدقة ، ويكسب التلاميذ معلومات كثيرة فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى والفنون الجميلة ، وبذلك تكون الدراسة فى المدرسة حية لأنها تمس ما هم يهتمون بجمعه فضلا عن الترقى الخلقى والجثمانى ، والاعتماد على النفس ، والمثابرة ، والصبر والتريض فى الهواء الطلق ، وصرف وقت الفراغ فيما يفيد بدل إضاعته سدى أو فيما يضر .

وعلى رجال التعليم أن يمكنوا التلميذ من تملك ما عمله فى المدرسة من الأعمال اليدوية ، ففى ذلك تشجيع لهم واستثارة لهممهم . وعلى المدرسين أن يوجهوا ما فضل من هذه القوة إلى تملك الفضائل والشرف والعلم وإحراز قصب السبق فى ميدان المسابقات الإنسانية حتى يصرف التلميذ قوته إذا اشتغل بأعماله فى إسعاد أمته والإنسانية جمعاء إذا قدر على ذلك فهذا هو المالك الحقيق الجدير بالادخار . انتهى .

***

فلما سمع صاحبى هذا قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، لقد أوضحت هذا المقام إيضاحا كافيا فى تفسير قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ، ولكنى أريد أن

لسائك سؤالا ما في هذا المقام ؟ فقلت : سل ما تشاء . فقال : لماذا اخترت موضوع التربية في هذا المقام ؟ فقلت : لأن هذه الآية في أول سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أمره الله فيها بالقراءة ، وذكر فيها أنه تعالى علم الإنسان ما لم يعلم ، فلا سورة ولا آية أنسب لتربية الأطفال في المنازل وللمدارس من هذه السورة وهذه الآية ، فشرح الله صدري لهذا الموضوع هنا . فقال حسن والله ، ولكني الآن أجد في نفسي أسفا وحزنا على أمتنا الإسلامية ، كيف يسبقنا الفرنجة في هذه العلوم ، لا سيما هذا العلم الذي هو أهمها ، فهلا كتبت لأمم الإسلام وملوكهم تحضهم على ذلك ؟ فقلت : حياك الله وياك ، إن الكتب التي نشرتها من قبل هذا التفسير ونفس هذا التفسير كلها كتب منشورة في جميع بلاد الإسلام :

وفوق ذلك كانت رسائل بيني وبين العرب والعجم ، فأما رسائل العرب فمنها خطابان أحدهما لملك نجد والحجاز عبد العزيز بن سعود لما منع العلماء نشر التفسير في تلك الأقطار ، وثانيهما لصديقنا (يحيى حميد الدين) إمام اليمن لما توفي (سيف الإسلام) نجله الذي كان بيني وبينه صداقة علمية أوجبت أن يأخذ بيد الأمة في تعليمها ، وهما مرتبتان ترتيبا تاريخيا ، ومنها خطابان لنفس الأمم الإسلامية : أحدهما رسالة وجهتها لبلاد نيجيريا وبلاد جاوه وسومطره وجميع جزائر الهند الشرقية ، وهؤلاء أقلهم عرب وأكثرهم من أهل البلاد ، وقد تقدم قريبا . وثانيها خطاب لأهل شمال أفريقيا ، وهذا سنلخصه قريبا .

وأما رسائل العجم فهي كثيرة ، وأخيرا وصل إلى خطابان سنة ١٣٥١ هجرية من علمائهم : أحدهما من مدينة (قم) وثانيهما من مدينة (تبريز) وهاك إيضاح ما تقدم كله . فأما خطابي لملك نجد والحجاز فهاك نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من طنطاوي جوهري إلى عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز

السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وآله ، وأقول :

إن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى حياة العلم وإتقان العمل ، ولقد عاهدت الله منذ نعومة أظفاري أن عرفت داء هذه الأمة ودواءها لأؤلفن كتبا تكشف الغطاء عن أعين الغافلين ، وتساعد الأمراء المجدين ، والملوك المخلصين ، وتسعدهم في الدنيا والدين ، وتحمل الأمم على اتباعهم فيما يأمرون به من العلوم الكونية والصناعات الإنسانية التي أجمع العلماء على أنها فروض كفايات ، وتنير السبل لمن نشبت بهم أظفار المستعمرين . فلا عطر بعد عروس . ولا عتب بعد بوس . وقد حم الأمر ولم يبق في القوس منزع . وجاوز الحزام الطبيين ، وبلغ السيل الزبى ، وها أنذا اليوم في العقد السابع من حياتي التي صرفتها فيما عاهدت الله عليه من تأليف الكتب ! ومنها [الجواهر : في تفسير القرآن الكريم] الذي فيه اتضح اتفاق العلم والدين وقد سرى في الأمم الإسلامية العرب والعجم ، واستأذن في ترجمته أهل البوسنة والهرسك في البلاد النمساوية كما انتشر في بلاد جاوه وسومطرة والهند والعراق وفارس . وعند إخواننا العرب باليمن ومراكش وما والاها إلى طرابلس ، ولقد أجمعوا أنه يساعد المسلمين على محاربة الأمم المحيطة بهم ، بل هم إذا ساروا على هذا السنن سيكونون أعلى في العلوم كعبا وأشرف منزلة من الأمم أجمعين ، إذ يصبح العلم العصري من واجبات الدين لقد أثبت التاريخ أن الأمم كلما كانت أقرب إلى البداوة كانت إلى الرقي أسرع ، وللعلم أحفظ ، ولذاك أضبط وعلى العكس من ذلك كلما كانت في الترف منغمسة ، وفي ملاذ العيش منغمسة ، تكون خائرة العزيمة سقيمة

عن

عن الطرق الفويمة ، كما جاء فى مقدمة ابن خلدون صفحة ٨٤ :

(فصل : فى أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم) وفى صفحة (٧٤) ماتصه :

(فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر) وأيضا : (إن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها) وفى صفحة ٧٥ (فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر) .

ولما أن نهض إخواننا النجديون والحجازيون تحت رايتكم وهم يدعون إلى ما أدعو إليه من سنن السلف الصالح قلت : هذا نصر من الله وفتح مبين ، إن هؤلاء يكونون أسرع المسلمين إلى ماتشرئبه ، ولكن أخبرنى بعض القادمين أنه صده عن دخول الديار المقدسة بعض الذين عهد إليهم رقابة الكتب الداخلة فى البلاد ، وأكد لى ذلك أحد أبنائنا الشيخ محمد الغزالى الذى كان مدرسا بالحرم للتفسير ، وقال : إنه سأل المانعين عن السبب ، فاحتجوا بما فيه من العلوم الكونية المفسرة للآيات القرآنية .

أقول : ولاجرم أن هذه العلوم هى التى تنقص المسلمين اليوم ، ووجوبها أجمع عليه جميع علماء الاسلام ، أليس من الخجل أن تكون جميع العلوم والصناعات فروض كفايات مثل علم الفقه سواء بسواء وإن اعتاز عليها ثم يتجاهلها المسلمون ، وبها ارتقت الأمم أجمعون . ألم يجمع علماء الأصول على أن فروض الكفايات . إذا تركت كان جميع المسلمين آثمين ؟ وهذه الفروض العلمية والعملية هى التى سنفت لها هذا التعبير وفرح به المسلمون ، وقد بذلت جهدى فيما أسميه فى القرون المتأخرة ، حتى جاء بحمد الله خالصا سائغا للشاربين :

لقد وجدت فى كتاب الله ٧٥٠ آية فى علوم الكائنات وشرحتها فى التفسير ، فأنا أحاج مراقبى الكتب أمامك أيها الملك الجليل وأمام العلماء بحضرتك وأمام الله يوم القيامة ، واقرأ . « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وأقول : هل المقتضى يكون مانعا ؟ وهل من يساعد الملوك على نهضات أممهم ، وبحث المسلمين على أن يخرجوا من إثمهم فى فروض الكفايات ، ويجعل فى نفوسهم شوقا إلى ربهم وحبا له وطاعة بما يرون من عجائب صنعه يقال له :

رأيك فى الكن لا فى الضح أطرق كرا إن النعامة فى القرى

ثم أقول : أيها المراقبون . بأى كتاب أم بأية سنة ، يدخل تفسيرى للقرآن جميع أقطار الإسلام شرقا وغربا وأكثرهم فى قبضة المستعمرين من غير ديننا وتوصد الأبواب دونه فى الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز ونجد ، وتصدون عن قراءته عموم المملكة السعودية وحجاج بيت الله الحرام من سائر الأقطار مع أنهم يقرءونه فى بلادهم ، أليس أهل نجد والحجاز أمس بنا رحما وأقرب منا نسبا ؟ أفليس هذا الصد إذا لم يكن بدليل يكون تقطيعا للأرحام ؟ أليست هذه العلوم هى التى أوجبها القرآن فى آخر سورة التوبة ؟ أو ليست تراث أجدادنا الفاتحين ؟ أفلا يحق لنا أن نقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا ونحمد الله عليها لا أن نقصيها عن بلادنا ونبخسها حقها كما فعل بعض ملوك المرابطين والموحدين ببلاد الغرب وبعض ملوك الشرق فكل هؤلاء حقر العلم فى زمانهم وا كتفوا بالقشور ، ونفى ابن رشد فى زمانهم ، وخالفوا سلفهم الصالح ، وطاحت علوم المسلمين فاستقبلتها أوروبا .

أجمع المؤرخون أن تلاميذ ابن رشد لما منع العلم بالأندلس انتشروا فى أوروبا وترجموها بلغاتهم فكانت هذه النهضة ، وأن (سلستر الثانى) بابا روما أدخل سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنجة العلوم الرياضية التى تعلمها من أسلافنا العرب بأسبانيا .

إلى هنا لم نجد نص بقية الخطاب عند الطبع ، فسألنا المؤلف عن معنى بقيته فقال : إنى قلت إن ملك نجد والحجاز قد منحه الله قوة بها أمن الناس من المخاوف فى طريق الحج ، ولكنه لم يؤمن طريق العلم

من المخاوف لطالبيه ، وطلبت أن أجتمع بعلماء نجد والحجاز ليكون الحكم للحجة والبرهان ، وختمت الخطاب بالتسليم عليه ، وقد كتب ذلك كله فى جريدة الأهرام فى حينه .

أما خطاب صاحب الجلالة إمام اليمن فهذا نصه :

إلى صاحب الجلالة إمام اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله : أما بعد فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على رسول الله وآله ، وأقول :

اجتمع اليوم لفيف من أهل الفضل من أقطار مختلفة ، فجاء ذكر الإصلاح فى اليمن ، فأخذ الشيخ محمد سليم باوزير اليمنى من أهالى الفيل بالأزهر الشريف والشيخ محمد بن سلم من علماء الأزهر من بلاد الشحر يقصان على الحاضرين قصص أخبار اليمن ، وكيف كان الإصلاح الذى قام به المرحوم محمد سيف الإسلام سريع الخطا قويا متينا ، وما تلا ذلك من اقتفاء أخيه سيف الاسلام الحسين آثره فى ذلك وسيره على نهجه بإرشاد جلالتكم فى تهامة ، وأن البعثة التى أزمع الأول رحمه الله على إرسالها إلى مصر قد بشرت بوادرها بما يثلج الصدور ، ويبعث فى النفس السرور ، وذلك بنجاح التلميذين اللذين يدرسان اليوم بالأزهر الشريف وهما : السيد يحيى زبارة ، ومحمد أحمد الوشلى ، فلقد قرت بهما أعين الأمير محمد سيف الإسلام . وأزمع أن يرسل بعثة مؤلفة من خمسين تلميذا إلى مصر ، وهنا أقول : أنا وإن كنت أعلم من هذا الحديث أن جلالتكم أمرتم أن ينهج الأمير الحسين نهج المرحوم أخيه فى الإصلاح ومنه هذه البعثة ، فانى بمالى من العلاقة الخاصة بالمرحوم صديقى الأمير محمد سيف الإسلام ، وما كان من الصلة الودية بينى وبينه على يد صديقى الجليل السيد محمد زبارة أمير القصر السعيد لم أجد لى مندوحة فى ذلك المجلس من أن أبدى عواطفى نحو ذلك الإصلاح المنشود وأتمنى أن تقر عينى قريبا باتمام ما ابتدأه صديقى المرحوم محمد سيف الإسلام .

ثم قلت : وليس ذلك فحسب ، بل إنى أود أن يعم هذا الإصلاح على هذا النمط جميع بلاد اليمن حالا قاصيها ودانيها إلا ؟ ألم يجمع علماء الإسلام قاطبة فى علم الأصول على أن جميع العلوم التى نحتاج إليها بحسب الزمان والمكان واجبة وجوبا كفائيا ، ألم يقل أكابر علمائنا منذ ألف سنة : إن هذه العلوم والصناعات إذا تركت كان العقاب عاما ، فهى كلها واجبة سواء فى ذلك الوجوب أدناها كالكناسة والزبالة ، أو أوسطها كالبناء والزراعة والنجارة والحدادة ، أو أعلاها كالسياسة وعلم الفقه ، إن الزبالة والكناسة فرض كفاية كالبناء والسياسة ، وإمام اليمن أمام العلماء (حفظه الله) إمام العلماء ، وهو بذلك جد عليم ، وهو أعلم العلماء بأن أكبر ذنب فى ترك فروض الكفاية منوط بالقادة ورجال الرأى وعظماء الأمم ، بل قال جماعة منهم (إمام الحرمين) : « إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين ، لأن فاعله يدفع الحرج عن الباقين » .

ومما قالوه فى المجلس : إن ولى العهد الأمير أحمد سيف الاسلام لما حل به المرض لوفاة شقيقه لم يكن له طبيب إلا من عدن أرسل له بالطيارة ، وأنا أقول بأعلى صوتى : أين فروض الكفاية يا علماء الاسلام ؟ وأين عهد آبائنا الكرام ؟ وأين علومهم ومعارفهم التى نشروها قبل مئات السنين ؟ هنالك قال بعض الحاضرين وهو من اليمن أيضا : إن الإمام حفظه الله يخشى أن تدنس المدينة الحاضرة تلك النفوس الثمينة الطاهرة ، فذلك هو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فأجبته وقلت له : هذا عذر مقبول ، يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

إن كل أمة أصبح حكامها من المترفين المنغمسين فى الشهوات لابد من سقوطها فى يد الأعداء ، إن

اضمحلال الأمم يحصل بأحد أمرين : إما بالجهل ، وإما بالفسق ، ويشير للثاني ماجاء في قوم ثمود إذ قال الله فيهم : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » . ولكن نقول : هل كل من تعلم في أمم الإسلام يصبح فاسقا ؟ كلا . ثم كلا. هاهو ذا المرحوم محمد علي باشا الكبير لما أرسل الشبان الأذكياء من الأزهر الشريف إلى فرنسا لم يتركهم سبهللا ، بل أرسل معهم قوامين عليهم يحافظون على دينهم وعوائدهم ، فذلك نجح نجاحا باهرا في مدة وجيزة ، وبلغت مصر أوج العلا إذ ذاك ، وقد قرأنا في تاريخهم أن التلاميذ أمروا أن يرسلوا كل أسبوع ملخصات دروسهم لأبيهم (محمد علي) وكان إذا علم بنشاطهم وجدهم يرسل لهم خطابا يسمونه باسم فاكهة ، فيكتب الخطاب بعنوان تفاحة مثلا فيه ثناء عليهم وظهور الفرح منه فيفرحون ويجدون .

هؤلاء كانوا أشرف رجال في الشرق إذ ذاك ، بماذا ؟ بالمحافظة على دينهم وعوائدهم ، وقد ذهب ذلك الجيل الجليل وذهب معه جلاله وجماله ورونقه وعزته القعساء .

ولست أقول : إن جلالة الإمام يحيى يخطو نفس خطوات المغفور له محمد علي باشا . كلا . فلكل وجهة هو موليها ، وهو أعلم بالمثل الأعلى الذي يتبعه ، ولكن أقول : حم الأمر . وبلغ السيل الزبى : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » لم يبق لأهل الجزيرة وملوكها جميعا وأمرائها حجة .

لاعذر لكم يا أبناء العم ، هاهو ذا دين الاسلام ، وهاهي ذه آراء علماء الإسلام التي أجمعوا عليها والإجماع حجة . أقول بأعلى صوتي لابد من قراءة جميع العلوم ومعرفة جميع الصناعات ، فليصرف الأمراء والملوك آخر درهم في الدولة . ثم قلت . من لي بأن أخاطب جميع أمراء نجد والحجاز وحضرموت واليمن وعمان وجميع إمارات الجزيرة . أقول وأقول : يحرم الانتظار . إن إرسال البعوث يجب أن يبتدئ حالا على شريطة أن يكون مع التلاميذ رجال من نفس بلادهم ذوو صلاح وذكاء وخبرة ليحافظوا عليهم في بلاد دخلتها الدنية كمصر ، فوالله ليس شباب مصر أيام (محمد علي باشا) بأوفر إيمانا وصلاحا من شباب اليمن اليوم . ولا مصر أكثر مدنية وترفا من باريس . ليست اليمن بالأمة التي تستضر بالعلم ، إن أبناء الشرق يتبعون في سيرهم أمراءهم وملوكهم . فأنا لا أخاف على اليمن ، ولا على جميع إمارات الجزيرة من السقوط في مهواة الفسق والضلال. يجب أن يكون إرسال البعوث لجميع العلوم، والصناعات التي لا تبقي ولا تذر دفعة واحدة. لا فرق بين طب وزراعة وتجارة وسياسة ، وجميع مايلزم للحياة من الإبرة إلى الدفع ، ومن الحجر الصلد إلى المغناطيس والكهرباء : ومن القطار وسفن البحار إلى الراديو . كل ذلك أصبح واجبا لامفر منه .

فلما أتممت مقالي والكل مصغون إلى قال العلامة المجاهد صاحب الفضيلة السيد عبد القادر بن حسن العطاس العلوي مفتي (جهور) بالملايو : إن هذا المقال جامع مانع . وأنا أرى أن ترسله إلى جلالة الامام يحيى حميد الدين . وإذا كان ذلك في الصحف السيارة يكون أبلغ : فأمن الجميع على كلامه فلم يبق إلا أن أنشر هذا الخطاب في (جريدة الجهاد) ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين اه .

* * *

أما خطابي لأهل المغرب الأقصى فقد ضاق بنا المقام عن إيراده هنا ، وعسى أن أكتبه بنصه وفصه في اللحق ، ولكن ألخصه هنا للفائدة فأقول : إن هذا الخطاب أرسلته ليتناولوه بخط اليد سنة ١٣٥٠ هـ وقد كتبته يوم الجمعة ٦ شوال سنة ١٣٥٠هـ ونقله بعض فضلاء الغربة ليلة الأربعاء ١٨ شوال سنة ١٣٥٠ هـ هذا الخطاب يتضمن :

(١) أن رحمة الله واسعة ، ومنها استمدت الأمهات من السوائم والإنسان رحماتها .

(٢) وهو يجعل بعد العسر يسرا .

(٣) ويجعل لكل داء دواء .

(٤) ولكل خطأ فى طعام أو شراب أو نظام مملكة عقابا فى نفس الحياة .

(٥) والدول الظالمة لافرق بينها وبين السكير والمربد والمسرف فى ماله ، فكل هؤلاء سريع العطب والهلاك .

(٦) إن ملوك فرنسا قديما ظلموا هذه الأمة ، فهى نفسها أذاقت بعضهم سوء العذاب فأهلكتهم كما يهلك السكير والمسرف ، وهكذا انكلترا مع بعض ملوكها .

(٧) وإذا كانت القاعدة واحدة ونظام الله واحد فان كل أمة من أوروبا تظلم أمة شرقية فى أفريقيا أو فى آسيا ، فما لاشك فيه أن هذه الأمم المظلومة الشرقية العظيمة القدر ، الشريفة المحتد ، العريقة النسب ستهلك تلك الأمم الظالمة جزاء وفاقا كما فعلت ألمانيا مع بعض أمرائها فى القرن التاسع عشر ، وكما فعلت فرنسا مع لويس السادس عشر فى القرن الثامن عشر . وكما فعلت انكلترا فى القرن السابع عشر مع بعض ملوكها ، وكما ترى السكير ذليلا فى آخر أيامه حزينا . وقال الله تعالى : «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» .

(٨) وهنا نداء عام لأهل شمال أفريقيا ، ملخصه أنهم أبناء رجال أخرجوا الإنسانية من الظلمات إلى النور ، فليجدوا وليعلموا أن الله نصير المظلومين .

(٩) وهنا تذكيرهم بأنواع العلوم التى يقرءونها ، وإنفاق الأموال فى سبيل ذلك .

(١٠) وتأكيد ذلك بكلام خطابى .

(١١) وتبيان أن عثمان رضى الله عنه أنفق مالا كثيرا . وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين .

(١٢) وهنا تذكرة لأهل شمال أفريقيا خاصة ، ملخصها أن قرطاجنة فى شمال أفريقيا كانت هى الشوكة التى تشوك دولة روما بإيطاليا قبل الميلاد . وكان سكانها سبعمائة ألف ، فأراد الرومان القضاء عليها فحاربوها سنة ٢٦٤ ق م . وكان قائد القرطاجيين انيبال ، فهاجم رومة بإيطاليا وهزم جيش الرومان المعتدى وأحاط برومه . ولكن هجم الشتاء فمنعه ، فماذا حصل بعد ذلك ، سلط الله على عسكر انيبال نار الشهوات بعد ذلك النصر فأكبوا على اللذات والشهوات ، فلما ولى الشتاء هجم الروم عليهم فمزقوهم شر ممزق وفر أميرهم . هنالك زحفت رومة على قرطاجنة فخربتها سنة ١٤٩ ق م . إذن لا يكسر شوكة الشرق إلا شهواته ، ولا عدو لأهل الشرق إلا نفوسهم ، وبعد ذلك القرن بثمان قرون وقد أسلم أهل شمال أفريقيا وبالإسلام اتحدوا وكروا كرة أخرى على أوروبا فاخترقوا أسبانيا ، ثم دخلوا شمال فرنسا . فماذا حصل ؟ أصابهم داء الشهوات فتخاذلوا أيضا بعد وفشلوا . فأخرجهم من الأندلس الملك (فرديناند) وزوجته (ايزابلا) وطردوهم إلى شمال أفريقيا ثانيا كما فعلت رومة بهم من قبل ، إذن لاداء لأهل شمال أفريقيا وجميع المسلمين إلا الشهوات ، فهى التى طردتهم من رومة أولا ، وهى التى طردت المسلمين وهم الجزء المهم منهم بعد ثمانية قرون من احتلال بلاد أسبانيا بالأندلس ، والله يقول : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد

أولاها بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا» وهناك قواعد للاستقلال الذاتى ، وكيف يحفظ الملك إلى آخره . وعسى أن أكتب نفس الخطاب فى ملحق هذا التفسير إن شاء الله تعالى .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذه حديقة علمية تفرح القلب وتشرح الصدر ، فهل تزيد سرورنا بما يناسب ذلك مما يرد عليك ؟ فقلت : هذا أمر يطول شرحه . فقال : هذا يوم لا مابعده فقل ما وصل إليك مع الإيجاز . فقلت مما ورد إلى خطابان فى سنة ١٣٥١ هـ أولهما من العلامة عبد الحسين زين الدين الفمى الأستاذ بالجامعة العلمية بقم (قم إيران) للدرسة التاصرية وهو مكتوب فى كتابى «التاج المرصع» وملخصه أن العلامة المذكور قد طلب منه الأئمة المجتهدون والعلماء أن يرسل لى خطابا للشكر على نشر التفسير (ولا شكر على واجب) وأنه قام بذلك بالنيابة عنهم وعن نفسه ، وطلبوا أن أكون واسطة فى تسهيل وصول الكتاب إلى بلادهم ، فسارعت إلى مقابلة الوزير المفوض لدولة إيران بمصر . فأجاب طلبى وقرر أنه سيجعل كل جهده فى إزالة الحواجز التجارية لوصول الكتاب ، وكل هذا مشروح فى آخر كتابى (التاج المرصع) وثانى الخطابين من (تبريز) بالدولة الإيرانية أيضا ، وملخصه يرجع إلى أنهم ترجموا تفسير الفاتحة وخطب بها أعظم خطيب فى المسجد الجامع هناك فى رمضان سنة ١٣٥١ هـ وهو مرسل من (العلامة هاشم منصور تقى زاده) .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : حمدا حمدا وشكرا لله تعالى ، العجم والعرب وبلاد اللاپو والحجاز واليمن كل هذه تكون بينك وبينهم للواصلات فى نفس هذه الحياة ، إن هذا لهو الفضل المبين ، فاقرأ : «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم» فقرأتها وقلت الحمد لله . انتهى تفسير «سورة العلق» والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القدر

هى مكية

آياتها ٥ ـ نزلت بعد سورة عبس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ *

مقدمـــة

هذه السورة فيها أن القرآن ابتدأ الله إنزاله فى ليلة القدر . ثم تتابع نزوله منجما فى ثلاث وعشرين سنة فهذه الليلة التى هي مبتدأ نزول القرآن خير من ألف شهر . أى خير من زمن كثير جدا . فهذا التعبير كذكر سبعين فى قوله تعالى : «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وانما فضلت الزمان الكثير لأن طول الحياة لاقيمة له إذا لم يتبعه الكمال ، والكمال إنما يكون بالحكمة والعلم اللذين بهما يوحى إلى الأنبياء ويلهم الصديقون الخ . والوحى والالهام للملائكة ، وللملائكة لهم عملان : عمل فى نظام العالم وأحكامه بأمر ربهم ، وعمل أعلى . وهو أنهم ينزلون بأمر ربهم ليعلموا العباد . وللملائكة فى تلك الليلة يكون لهم عمل أعظم مجهول للناس وليس لهم به علم إلا ماجاء فى الشريعة والأحاديث الصحيحة . وتلك الليلة كلها سلامة وأمان . أو أن الملائكة يكثرون السلام على المؤمنين خصوصا الصالحين وأهل الطاعة ؛ والذين فى المساجد من حين غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر . وأعم الأقوال فى تلك الليلة أنها مجهولة ليجد الإنسان فى جميع حياته ، فلقد تكون ليلة غير معلومة للناس يفتح فيها على امرئ . وغيره غافل ؛ وجهل هذه الليلة نعمة كجهل نهاية العمر وجهل يوم القيامة ، كل ذلك نعمة من الله على العباد ، والمقصود من هذا الاجتهاد .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أنزلناه) أى القرآن (فى ليلة القدر) أى ابتدأنا نزوله فيها ، ويقال إنه أنزل جملة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ومعنى ليلة القدر ليلة الشرف لشرفها على سائر الليالى ، أو الضيق لأنها هى الليلة التى تضيق الأرض بالملائكة النازلين فيها (وما أدراك ماليلة القدر) أى لم تبلغ درايتك درجتها وفضلها ، وبين ذلك فقال : (ليلة القدر خير من ألف شهر) ليس فيها ليلة القدر ، وذلك لتنزل الملائكة والروح فيها . وفصل كل أمر حكيم ، وروى فى تخصيص هذه المدة «أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى اسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب المؤمنون وتقاصرت إليهم همتهم ، فأعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى» (تنزل الملائكة) إلى الأرض (والروح) أى والرحمة ، أو خلق من الملائكة لا نراهم . أو جبريل (فيها باذن ربهم من كل أمر) أى تنزل من أجل كل أمر قضاه الله فى تلك السنة ! وهاهنا وقف وقوله (سلام هى) أى ماهى إلا سلامة : أى لايقدر الله فيها إلا السلامة ، أو أن الملائكة يسلمون على المؤمنين فيها بكثرة كما تقدم (حتى مطلع الفجر) أى إلى وقت طلوع الفجر ، فهؤلاء الملائكة لايسلمون على الكفار . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها والحمد لله رب العالمين .

لطيفتان إحداهما عملية والأخرى علمية

ولنبدأ بالعملية لأن الأحاديث الصحيحة كثيرة فيها

اللطيفة الأولى فى العمل

قد جاء فى أحاديث البخارى ومسلم «أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ويحيى الليل ويوقظ أهله ويجد ويشد المئزر» ولمسلم «أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى العشر الأواخر من رمضان مالا يجتهد فى غيره» وأيضا جاء فى روايتهما «أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه

الله ، ثم اعتكف أزواجه بعده» وفى روايتهما أيضا «أنه اعتكف العشر الأواسط من رمضان أيضا . وأنه كان يقول تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » وفى رواية مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : «أريت ليلة القدر ثم أيقظنى بعض أهلى فنسيتها فالتمسوها فى العشر الأواخر من رمضان» وفى بعض الأحاديث مايشير إلى أنها فى الوتر من العشر الأخير من رمضان مثل ٢١ — ٢٣ — ٢٥ — ٢٧ — وهكذا والله أعلم .

وللهم فى هذا أن تنظر إلى نتيجته فليس للعلم قيمة إلا بالعمل ، وإذا مرت هذه السورة على المسلم وهو يتخبط فى الأقوال ولا يدرى مايفعل ، وما المقصود والنتائج من هذا كله فتقول : النتائج ظاهرة ، ذلك هو الجد والاجتهاد فى العبادة والإخلاص طول الحياة . فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعين الوقت والعلماء اختلفوا والله ربهما . فماذا يراد بهذا ؟ يراد أن تجعل الحياة كلها جهادا عسى أن تنال تلك الليلة ، ومتى ظفرنا بها كانت السعادة العظمى فلا شقاء بعدها . وأفضل الأوقات للعبادات شهر رمضان لجوع فيخلو البطن فيصحو العقل فيخف الثقل عن النفس فتستعد لقبول الأفكار اللطيفة عن الملائكة . ولتعلم أن جميع العلوم والآراء الشريفة من عالم الملائكة المحيطين بنا . وإذا كانت الحيوانات الوبائية والجراثيم المعدية قد أحاطت بنا للاضرار والهواء والنور والماء أحاطت للاصلاح . فهكذا هناك عالمان : عالم كالماء والهواء لإفاضة العلوم ، وعالم كالجراثيم المعدية لإفاضة الشر وهم الشياطين ، فهذا العالم المسمى ملائكة لا ينبغى له أن يلقننا الإلهام الجميل إلا عند صفاء نفوسنا ، وأى صفاء ألطف من صفاء شهر رمضان ، فهذا هو السر فى التماسها فى العشر الأواخر . ثم إن الاعتكاف فى هذا الشهر يقصد منه الخلوص من هموم الدنيا وأحوالها وشهواتها . ولذلك تجد فى شروط المعتكف ألا يقرب النساء . كل ذلك ليشاكل العالم الروحى . فتستعد نفسه للفيض فيفاض عليه العلم والأخلاق الجميلة كما يفاض الرى من الماء . والمرض من الجراثيم المعدية ، وفى هذه الأحاديث مايفيدنا أن التورع والتنحى عن هذه الشهوات ، والإكباب على العبادة والذكر يعطى النفوس قوة لا يحرفها الناس ، وكلما كان الإنسان أصفى ذهنا وأقل عوائق كانت نفسه إلى ذلك العالم أقرب اهـ .

اللطيفة الثانية فى العلم

اعلم أن الله أنزل القرآن فى شهر رمضان كما فى سورة البقرة ، وفى هذه السورة أنه أنزل فى ليلة القدر فهذا دليل أن القرآن نزل فى ليلة القدر التى كانت فى رمضان ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غار حراء ، وهو لم ينزل عليه الوحى إلا بعد ما كملت نفسه وقويت روحه ، والا فكيف يقابل العالم الجسمانى العالم الروحانى ولا مناسبة بينهما ، فلا زالت نفسه تصفو وعقله يرتقى حتى ناسب عالم الملائكة فابتدأ نزول القرآن وعالم الملائكة ليس بعيدا عنا ، فهو كعالم الهواء بل هو ألطف فيكون ألزم ولكننا نحن محجوبون عنه كما حجب الجهال عن علم العلماء وحجبت الطيور والأنعام عن علم الانسان ؛ وذلك لعدم المناسبة ، فالمدار فى العلوم على المناسبة والمشاكلة ، ففى الليلة التى تتناهى كلها فيها تنزلت الملائكة عليه وأدرك سر هذا الوجود ، وهذه هى السعادة ، وأى سعادة أكثر من أن يكون الإنسان قد وصل إلى منتهى مايصل إليه الواصلون بإفاضة الخير وهو العلم على نوع الإنسان . وبإدراك الآخرة والأولى وسرهما ، وليست السعادة مايظنه الجهال أنه يدعو الله فيها بالمال والغنى فيعطيه ، فهذا نظر قصير ؛ فقد جاء فى السور السابقة أن الغنى ليس دليلا على رضاء الله ، ولا الفقر دليلا على غضب الله . فليكن مطلب المرء إذن هو ماقاله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها لما قالت «يارسول الله : إن علمت ليلة القدر ماأقول فيها ؟ قال قولى : اللهم إنك

عفو كريم تحب العفو فاعف عنى » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، فهذا الحديث يرمى إلى أن المقام مقام ارتقاء الروح ، فلا مناسبة بين نزول الملائكة وبين اتساع الرزق ، فالرزق واتساعه ربما أضاع فرصة القرب من الملائكة فلا يلهم ، فليجد الإنسان فى صفاء نفسه وفى الذكر والفكر عسى أن يقترب من عالم الحكمة .

موعظة وحكمة

ها أنت ذا عرفت أن ليلة القدر فيها نزل القرآن ، وذلك بعد كمال من أنزل عليه القرآن ، فمن الآن خذ فى الحكمة والعلم وصفاء النفس ، ومتى تم كمالك صرت من العالم الروحى مناسبا للملائكة . ومتى نلت ذلك فهناك خلصت من عالم المادة وإن كنت فيه ، فتلك ليلة لانظير لها خير من جميع الدهر لامن ألف شهر فاسأل الله كمال النفس فيها تلهم إلهاما صحيحا لاخياليا ، وذلك بالعلم والصلاح معا . ومتى تم ذلك أفيضت عليك العلوم على حسب مقامك ومركزك فى الاجتهاد والاستعداد ، ومتى عرف الحقيقة الإنسان فهى نفس السعادة ، لأنها تجعله راضيا عن ربه وعن الوجود ، فالسورة تجد فى العبادة عسى أن ينال المجد العلم ، والعلم بحقيقة هذا الوجود سعادة قصوى ، فإذا قدرت أن تجعل رسول الله قدوتك فتصل لصفاء الذهن وصقل العقل والتحلى بالعلم لتفيض على الناس وأنت مطمئن القلب فافعل ، فالملائكة إن لم تتنزل عليك عيانا فقد أنزلت على قلبك تبيانا لتنفع العالمين . انتهت اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى قوله تعالى : إنا أنزلناه فى ليلة القدر

فى يوم الأربعاء من أيام شهر ذى القعدة سنة ١٣٥١ هـ - ١٥ شهر مارس سنة ١٩٣٣ م حضر صاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال (أولا) لقد تضاربت أقوال العلماء فى تعيين ليلة القدر ، فأيهم أحق (ثانيا) إن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عظة لنا فما العظة بليلة القدر ؟ فقلت : لأجيبك على السؤالين معا بكلام جامع ان شاء الله تعالى ؛ فأقول . ألم يثبت فى هذا التفسير بالعقل وبدراسة علوم دنيانا الجميلة أن كل مخلوق فيها من ذات وصفة وحركة وسكون لحكمة . قال بلى . قلت : إذن هذا يقين . قال نعم . قلت : إذا ثبت هذا لمن قرأ هذه العلوم أفلا تحدثه نفسه فيقول : لم خلق الإنسان وهو جزء من هذه الدنيا ؟ فقال بلى تحدثه بذلك . فقلت : إذا كان خلق ليموت فقط فذلك مخالف لقاعدة هذا الوجود ، إذن هو مخلوق ليبقى ، وهذه الحياة درس يتلقاه فى سفره . قال نعم ، قلت : فخبرنى أى شىء يكون أعظم قدرا عند هذا المسافر فى طريق حياته ؟ فقال : كل ما أعانه على سفره . فقلت ، وأى شىء يعظم فى عين هذا المسافر ؟ فقال : رقى نفسه الذى يعينه على طريق سفره بعد فراق هذه الأرض : ولا جرم أن رقى النفس إنما يكون بالهداية العلمية والعملية . فقلت : إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه القرآن فى ليلة من شهر رمضان ، ولاشىء فى نظر النبوة أعظم من القرآن والتعليم والهداية . فهذه أعظم الليالى عنده لأنها الليلة التى قد أعطى فيها كل مايريد لرقى نفسه ولرقى أمته . قال نعم . قلت . فهل المال والولد والصحة والجمال والملك والنعمة والحظوظ العاجلة توازى شيئا مما نزل فى هذه الليلة ؟ فقال كلا ثم كلا . فقلت ، إذن كل مؤمن كامل فى الأرض له وقت فيه يهتدى قلبه ويعرف الحقائق ويفهم المقصود من هذه الحياة وتتجه نفسه إلى المعالى فيحقر اللذات والشهوات والمال والمتاع . وينصرف بكليته إلى رقى نفسه وأمته . فهذا الوقت يكون عنده أعظم الأوقات فى حياته . قال نعم والله ، قلت إذن هنا

أمران يجب أن يعلما وهما أولا : كل مايقوله الجهلة والعامة من أن ليلة القدر تجاب فيها للطالب كالمال والولد والجاه والقدات والمتاع لغو وباطل ، لأن هذا كله لايعين على السفر ، فقال نعم والله ، ثانيا قلت وهذه الهداية ربما تكون فى شهر رمضان، وربما تكون فى غيره، وليس لها وقت معين ، فهذه الساعة التى فيها تلك الهداية واستيقاظ النفس هى ساعة قدره ، وإنما ذكر الليل لأنه وقت التجلى والبركات ، ورمضان شهر فيه بركات خاصة ، وعليه تكون جميع أقوال العلماء فى تعيينها صحيحة، فهى تكون كثيرة فى رمضان لاسيما فى العشر الأخير منه ، وتكون فى السنة كلها ، وليلة القدر دائما حاضرة والناس يهتدون فى كل وقت .

ثم سأله قائلا : ماقيمة هذه الليلة ؟ فقال ، إذا نال الإنسان هذه النعمة فهى خير من آلاف آلاف السنين ، بل من هذه الدنيا من مبدأ وجودها إلى ذهابها ، فقلت ، إذن التعبير بألف شهر رمز للملك ، بل هى خير من ألف سنة وألف ألف سنة ، فقال صاحبى حسن والله قد قنعت وفهمت ، فقلت الحمد لله رب العالمين وبهذا تم الكلام على (سورة القدر) انتهى ؛

تفسير سورة البينة

هى مكية

آياتها ٨ ــ نزلت بعد سورة الطلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ *

يخبرنا الله فى هذه السورة أن الذين كفروا بنبينا صلى الله عليه وسلم من العرب عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، لايتركون ما هم عليه من عبادة الأصنام واتباع الديانات المحرفة إلا

إذا أرسل الله لهم رسولا ، فلما أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم آمن بعضهم وكفر بعضهم ، فإذا تفرق العرب فكفر قوم وآمن قوم فكيف يتفرق أهل الكتاب ووصفه فى كتابهم أنهم مأمورون وفى دينهم أن يعبدوا مخلصين مؤمنين بجميع الرسل : مائلين عن الأديان الباطلة ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . ثم ذكر جزاء القسمين من الجنة والنار .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) اليهود والنصارى إذ ألحدوا فى صفات الله ، وقوله « من » للتبيين (والمشركين) وهم عبدة الأصنام (منفكين) عما كانوا عليه من دينهم (حتى تأتيهم البينة) الحجة الواضحة ، وأبدل منها للبيان قوله (رسول من الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (يتلو) يقرأ (صحفا مطهرة) أى كتب مبرأة من الباطل ومن الكذب والزور (فيها) فى الصحف (كتب قيمة) مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم وكفر بعض (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) المذكورة لأنهم كانوا من قبل النبوة يقولون : سيأتى النبى الموعود مفتخرين به فلما جاء كفروا به ، وهذا مخالف ما فى كتابهم (وما أمروا) فى تلك الكتب (إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) لا يشركون به (حنفاء) مائلين عن العقائد الزائغة (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ولكنهم حرفوه وعصوا (وذلك دين القيمة) أى دين الملة القيمة ، وهو دين الحق المستقيم الذى لا عوج فيه إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) أى شر الخلق فلذلك استحقوا دخول النار (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) تفسيره ظاهر (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) إقامة (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم) بقبول أعمالهم (ورضوا عنه) بثوابها (ذلك) الرضا (لمن خشى ربه) أى لمن خاف ربه فى الدنيا وانتهى عن المعاصى . انتهى التفسير اللفظى للسورة .

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) ، قال وسمانى ؟ قال نعم ، فبكى » .

وفى رواية أيضا قال : « إن الله أمرنى أن أقرئك القرآن ، قال الله سمانى لك ، قال نعم ، قال وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال نعم ، قال فذرفت عيناه » .

تذكرة فى آية :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب »

أنواع للمشركين فى زماننا كثيرة ، ففى الحبشة مثلا :

(١) سكان الشواطىء يعبدون الأشجار ، وفى كل سنة يدهنون جذوع تلك الأشجار بالسمن ويقفون حولها ، وهم يرقصون ويغنون مختلف الأغانى ، وبعضهم يتناول المشروبات كالجعة واللبن وغير ذلك .

(٢) ومنها عباد (بتشديد الباء) الجمال والنور والنار ، وهؤلاء فى بلاد الصين .

(٣) وبعض الصينيين يعبد الماشية والدواب .

(٤) وهناك مذهب (لوتزا) فى الصين أيضا وأصحابه زاهدون لايتزوجون أبدا (يقول المؤلف : هذه الجملة مقتبسة من حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م مذكورة فى الأهرام . وعسى أن نكتبها بتمامها فى الملحق إن شاء الله تعالى) .

لطيفة فى قوله تعالى :

« ذلك لمن خشى ربه »

اعلم أن مجرد الإيمان لا يكفى فى الخشية ولذلك خص الله سبحانه وتعالى رضوانه على العبد ورضوان العبد عليه بأن يخشى ربه ، وخشيته لها طرق أمهها ماجاء فى قوله تعالى . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وهم الذين يفكرون فى الجبال وألوانها . وفى الثمرات وأنواعها ، وفى الناس وأشكالها وأعضائها ، وفى الحيوان وإبداعه ، فالناظر لهذه العجائب من حيث نظامها لامن حيث الانتفاع بها وحده يجد فى نفسه رضا عن كل مايصنعه الخالق ، لأنه يتحقق أنه لايفعل إلا مصلحة فى الموت والحياة . وللمنع والعطاء ، ومثل هذا غالبا يكون راضيا عن ربه وربه راض عنه . ولذلك جاءت هذه السورة عقب سورة القدر التى تشير على الإنسان ألا يضيع وقته هباء منثورا . عسى أن يفاض عليه العلم ، وقبل ذلك (سورة العلق) التى فيها إبداع الصنع الإلهى فى الجنس الإنسانى الذى من تأمل فيه وتأمل أمثاله رضى عن ربه . هذا هو الذى يعلم من هذا الترتيب . انتهى تفسير (سورة البينة) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الزلزلة

هى مكية

آياتها ٨ ـ نزلت بعد سورة النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *

فى هذه السورة ذكر اضطراب العالم يوم القيامة ودهشة الناس . ثم يرون أعمالهم فينالون جزاء الخير والشر ، وهذا تفسير السورة . .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) أى اضطرابها المقدر لها عند النفخة الأولى أو الثانية (وأخرجت الأرض أثقالها) كنوزها وموتاها . والأثقال جمع ثقل ، وهو متاع البيت (وقال الإنسان مالها) أى مالها زلزلت هذه الزلزلة ولفظ مالى بطنها ، وإنما يقول الإنسان ذلك لشدة بهره من فداحة الخطب وعظم الأمر (يومئذ تحدث أخبارها) أى تحدث الخلق بلسان الحال مالأجله زلزالها وإخراجها كنوزها وموتاها ؛ وذلك التحديث بسبب إيحاء ربك لها بأن يحدث فيها مادلت به على الأخبار ، وهذا قوله (بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا) أى يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف متفرقين ، فمنهم أهل اليمين ومنهم أهل الشمال (ليروا أعمالهم) أى جزاء أعمالهم (فمن يعمل مثقال ذرة) هى النملة الصغيرة أو الهباء (خيرا) تمييز (يره) أى ير جزاءه خيرا (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهاتان الجملتان تفصيل «ليروا الخ» اهـ .

لطيفة فى قوله تعالى :

« إذا زلزلت الأرض زلزالها »

نذكر فى هذه اللطيفة ماجاء فى إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ يوم الأحد ٢٧ يوليو سنة ١٩٣٠ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

نكبة الزلازل فى إيطاليا

روما فى ٢٦ يوليو (لمراسل الأهرام الخاص) وردت اليوم أنباء مناطق الزلازل تدل على اتساع النكبة وعظم الأضرار . فهناك ثمانية عشر إقليما حل بمنازلها الدمار فى ولايات : اقالينو ، وبارى ، ونينفنتو وكبوباشو ، وفوجيا ، ونابولى ، وشالرنو . ويوجد ١٤٢ بلدة أصيبت بكثير من الضرر ، ويؤخذ من الأخبار الرسمية أن عدد القتلى بلغ ١٨٨٣ ومن بواعث الأسف أن هذا العدد سيزيد كلما استخرجت الجثث من تحت الأنقاض ، ويجرى هذا العمل ببطء لكثرة عدد المنازل المتهدمة وبسبب سوء حالة الطرق والمواصلات فى بعض الجهات ، وهناك منازل أصيبت بعطل شديد حتى أنها مستهدفة للسقوط بين حين وآخر كما حدث لمبانى سجن [ملفى] التى نقل المسجونون فيها إلى [فوجيا] ،

وقد وصل دوق دوسترت ودوقة بوبل إلى اقالينو لزيارة الأماكن المنكوبة ، وسافر الملك أمس من كونيو واجتاز بعد الظهر بقطار خاص منطقة فوجيا ، وبعد ما اطلع على الأخبار الأخيرة عن حالة الجهات المنكوبة واصل سفره إلى منطقة [ملفى) وقد كان حضور جلالته مشجعا للسكان ومعزيا لهم ، وكان استقبالهم لجلالته مؤثرا جدا ، وستجتمع الوزارة للبحث فى التدابير التى يجب اتخاذها إزاء هذه الحالة .

روما فى ٢٦ يوليو (لمراسل الأهرام الخاص) : يؤخذ من الأخبار الواردة اليوم من المناطق التى اجتاحها الزلزال أن عدد الموتى بلغ ٢١٤٢ وعدد الجرحى ٤٥٥١ ولكن لا مندوحة عن مواصلة البحث والتفتيش فى المناطق التى لم يتمكنوا من بحثها بسبب سوء الحالة الجوية وسوء المواصلات ، لذلك ستكون الأرقام النهائية للخسائر أكبر مما ذكر ، ولكن لا يمكن تحديدها ، والمنازل المتهدمة إلى الآن كثيرة ، ولكن

هناك منازل كثيرة متداعية ولا مندوحة عن هدمها، وتقرر أن الذين نجوا من الزلازل لا يزالون فى أكواخ من الخشب بل تحت الخيام منتظرين ترميم منازلهم التى دمرت بالزلزال :

روما فى ٢٦ يوليو (لمراسل الأهرام الخاص) دل الإحصاء الرسمى الأخير على أن عدد القتلى بلغ ٢١٤٢ شخصا ، وعدد الجرحى ٤٥٥١ فى حوادث الزلازل الأخيرة .

روما فى ٢٥ يوليو (لمراسل الأهرام الخاص) نزلت كارثة جديدة بايطاليا، وهى لما تكفكف دموعها عن مصيبتها فى نابلى ، فقد هبت زوبعة هائجة فى منطقة ميلانو والبندقية ومقاطعة تريفزيا وألحقت بها أضرارا جسيمة ، وكان عدد القتلى فى مقاطعة تريفيزيا وحدها ٢٢ وأكثر من ١٠٠ جريح ، وانقطعت المواصلات بين الجهات المنكوبة وباقى الجهات ، ولا يمكن تقدير مجموع عدد الضحايا والمنازل المتهدمة ، والأضرار التى لحقت ميلانو وفينيزيا كبيرة جدا. انتهى الكلام على الزلزال ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » الخ .

روى أن جد الفرزدق أتاه ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية . فقال : حسبى حسبى ، وهى أحكم آية ، ويسمونها الجامعة .

بهجة العلم فى سورة الزلزلة

يعجب الإنسان من هذه السورة فى زماننا كيف كان الناس الآن يستخرجون الفحم من الأرض ، وكذلك البترول ، وبهما إيقاد النار ، وفى الأرض كهرباء كما فى الجو ثم كيف كان هذا الزمان قد كثر فيه استخراج الدفائن من الأرض ، مثل أننا فى مصر وجدنا أربع مدائن شرقى الأهرام فى نحو ألف فدان ، وكل مدينة لهرم ، وهكذا فى جميع الكرة الأرضية يبحثون عن مكنون الأرض ويستخرجون الكنوز . والناس الآن يتساءلون : ماهذه الثورة الفكرية الإنسانية ؟ ماهذه النهضة ، مامستقبل الإنسان ؟ ولا جواب ولكن العقول الإنسانية اليوم ظهرت فيها بوادر الابتداع والاختراع ، وهذا فيه معنى الإلهام العام . ويظهر أن الناس اليوم مقبلون على أيام العدل بحيث لا يعطل فيها أحد ، وكل امرئ يكون مسئولاً عن قوته وله عمله الخاص به ومن ترك العمل حرم كل شئ .

ألست ترى أن هذه السورة وإن كانت واردة لأحوال الآخرة تشير من طرف خفى إلى ماذكرناه فى الدنيا ، فالأرض الآن كأنها فى حال زلزلة ، وقد أخرجت أثقالها كنوزها وموتاها وغيرها ، والناس الآن يتساءلون ، وهاهم أولاء يلهمون الاختراع ، وهاهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة فى عمل يناسبها ، وكل إنسان فى عمله الخاص به وينتفع به . انتهى تفسير (سورة الزلزلة) .

تفسير سورة العاديات

هى مكية

آياتها ١١ - نزلت بعد سورة العصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ *

فى هذه السورة أقسم الله بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحا، وذلك هو صوت أنفاسها عند العدو وتورى النار أى تخرجها كما يقدح الزند فيورى ، وتغير بأهلها على العدو وقت الصبح ، فتهيج بذلك الوقت غبارا فتتوسط بالغبار جمعا من جموع الأعداء : هذا هو المقسم به ، والمقسم عليه : إن الإنسان كفور لنعمة ربه وإن الإنسان يشهد على نفسه بذلك ، وإنه لحب المال قوى مبالغ جدا ، ثم حذره من ذلك بأن عامله سيجازى عليه يوم القيامة ؛ وأن الله عليم به .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والعاديات ضبحا) أى أقسم بالخيل العاديات حال كونها ضابحة (فالموريات قدحا) تورى نار الحباحب وهى ماينقدح من حوافرها (فالمغيرات) تغير على العدو (صبحا) فى وقت الصبح (فأثرن به نقعا) فيجئن بذلك الوقت غبارا (فوسطن به) بذلك الوقت أو بالغبار (جمعا) من الأعداء (إن الإنسان لربه لكنود) لكفور (وإنه على ذلك) على كنوده (لشهيد) يشهد على نفسه (وإنه لحب الخير لشديد) وذلك يضعف حب عبادة الله تعالى (أفلا يعلم) الإنسان (إذا بعثر) بعث (مافى القبور) من الموتى (وحصل مافى الصدور) أى جمع محصلا فى الصحف وميز مافيه من الخير والشر (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر : ومعلوم أن الله عالم بهم فى كل وقت لا يومئذ فقط ولكن التقييد لأجل الجزاء إذ ذاك . أقسم الله بالخيل الموصوفات بما ذكر على أن الانسان يكفر بنعمة الله ، وهو معترف بذلك وأنه مغرم بالمال . لعمرى أى مناسبة بين القسم والمقسم به ، يقسم الله بالشمس والقمر والكواكب والنهار والليل على وحدانيته وعلى البعث ولكن هنا أى مناسبة بينهما، فاعلم أن هذا المقام مقام الجهاد ؛ والجهاد

تعقبه الفناء غالبا ، وقد تقدم فى هذا التفسير نقل حديث من صحيح البخارى نحو إنه صلى الله عليه وسلم خطب قائلا : «إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا الخ» وفى حديث آخر : «إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» .

ولقد غزا المسلمون وانتصروا ، وفتحت لهم الدنيا ، ونالوا العز والغنى والثروة . فالله بهذا يذكر الغزاة فى ضمن نوع الإنسان قائلا مامعناه : إياكم أيها الغزاة أن تقصدوا جمع المال ، فإنه يوشك أن يكون حائلا بينكم وبين الفضائل فتعاقبوا يوم القيامة ، وهذا تحذير بلطف وإرشاد على طريق الإشارة لأنه ليس يليق أن يكون القوم مجدين فى الجهاد ويقال لهم ستحاسبون على النعم ، بل يكتفى بالتلميح ، ثم إن ماخافه صلى الله عليه وسلم قد تم فعلا وأصبحت الأمة العربية متحاربة متقاطعة متدابرة ، وأصبح بأسهم بينهم شديدا وفرق حب المال جمعهم . وتحاربوا على الملك ، لأن الملك يأخذ من المال مايشتهى ، ثم إن كل عقاب فى الآخرة يتقدمه عذاب الدنيا ، وقد تم هذا كله . هذا بعض مقصود هذه السورة : وبهذا تم الكلام على (سورة العاديات) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القارعة

هى مكية

آياتها ١١ - نزلت بعد سورة قريش

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(القارعة) هى يوم القيامة تفزع القلوب بالفزع الشديد ، ومن هذا القام قوارع الدهر : أى شدائده وهذا مبتدأ خبره (ماالقارعة) أى ماهى ، وإنما كررها تأكيدا وتفخيما لشأنها (وما أدراك ما القارعة) أى أى شىء أعلمك ماهى ؟ ومن أين علمت ذلك ؟ فلا علم لك بكنهها ، وكيفما قدرت أمرها فهى أعظم

من ذلك . هى تخرج (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) الفراش هى الحشرات التى يشاهدها الناس متهافتة على النار ، فهذه إذا ثارت اتجهت إلى جهات متعددة ، وهكذا الخلق يتفرقون فى جهات شتى هناك ، فالمبثوث للتفرق (وتكون الجبال كالعهن) كالصوف ذى الألوان (للنفوش) للندوف فإن أجزاءه تتفرق وتتطاير فى الجو (فأما من ثقلت موازينه) جمع موزون ، وهى الأعمال المقبولة عند الله بأن ترجحت (فهو فى عيشة) فى عيش (راضية) أى مرضية ، وهذا مجاز عقلى (وأما من خفت موازينه) فلم تكن له حسنات ، أو كانت ولكن ترجحت السيئات عليها (فأمه هاوية) أى فمسكنه ومأواه النار ، وجعل المسكن أما على التشبيه ، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ، وسميت النار هاوية ، وهى للهوات التى لايدرك قعرها ، فيهوون فيها على رءوسهم (وما أدراك ماهيه) الضمير للهاوية والهاء للسكت ثم فسرها سبحانه فقال (نار حامية) بلغت النهاية فى الحرارة . انتهى تفسير (سورة القارعة) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التكاثر

هى مكية

آياتها ٨ ـ نزلت بعد سورة الكوثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله : أشغلتكم المفاخرة والتباهى بكثرة المال والعدد والتكاثر عن طاعة ربكم وماينجيكم من سخطه حتى متم وقبرتم ، مضيعين أعماركم فى طلب الدنيا ، تاركين ما هو أهم ، وهو السعى للآخرة ، ويصح أن يقال حتى زرتم المقابر وعددتم من فيها من موتاكم تكاثرا وتفاخرا ، كما فعل حيان من قريش ، وهما بنوعبد مناف وبنو سهم فتعادوا القادة والأشراف أيهم أكثر ، ثم عدوا موتاهم ، بل زاروا القبور فعدوها فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ، وهذا قوله تعالى (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا) ردع للعاقل

فلا ينبغي أن يكون معظم سعيه للدنيا لأنه وبال عليه (سوف تعلمون) خطأ رأيكم في القبر (ثم كلا سوف تعلمون) عند النشور (كلا لو تعلمون) ما بين أيديكم (علم) الأمر (اليقين) أي كعلمكم ماهو يقين عندكم لفعلتم مالايوصف ولكنكم ضلال جهلة ، ثم بين الوعيد فقال (لترون الجحيم) ثم أكد ذلك فقال (ثم لترونها عين اليقين) أي الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ، وأي علم أعلى يقينا من علم المشاهدة (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) الذي ألهاكم ، وهذا السؤال سؤال عن الشكر ، لأن كل امرئ مكلف باستعمال مواهبه التي وهبها الله له ، وهذا للمعنى واضح ظاهر في الدنيا ، ولكن الناس بمجادلاتهم وعدم التفكر انصرفوا عن هذه المعاني ، ألم تر أيها الذكي أننا نرى جميع بني آدم إلا المغفلين وناقصي العقل يندمون على مافرطوا في شبابهم فيقول أحدهم : لو أني أطعت والدي وتعلمت لكنت اليوم مديرا أو وكيلا أو كاتبا ، ومثل هذا التندم لا يحصل قط لمن لم يتمكن ، فالناس جميعا يشعرون بالحزن على ماقدروا عليه وفرطوا فيه ، هذه سنة الله في نوع الإنسان ، فكل من له موهبة يجد في نفسه حزنا مما فرط فيها ، وهذا أمر معروف ، فإذا كلف الله كل نفس مايسعها فهو من هذا القبيل ، وهذا من باب الشكر على النعمة ، والشكر عليها معناه صرفها فيما خلقت له . فأما إذا فتحنا باب الحرام والحلال فقد ضيقنا باب الشكر ، ولكن المقام الآن واسع ، فأنت أيها الذكي تحاسب على كل ماتقدر عليه ولم تصرفه في وجوه نافعة ، في حديث الترمذي لما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنما هما الأسودان التمر والماء ، قال إنه سيكون ، فأقر صلى الله عليه وسلم أن التمر والماء يحاسب الإنسان عليهما :

وفي حديث آخر أخرجه الترمذي . قال صلى الله عليه وسلم : « أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد » .

وفي حديث مسلم «أنه صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أتوا رجلا من الأنصار فجاء لهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب وذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا وكانوا جياعا ، فلما شبعوا وروا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» .

ويقول ابن عباس : من النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وغيره ذكر الصحة والفراغ والمال . ولقد ذكرت لك القاعدة الكلية ، فكل هذه الأقوال وغيرها داخلة فيما قلناه .

واعلم أنك أيها الذكي مسئول عن كل ماتقدر عليه من العلم والعمل ، فإياك أن تضيع مواهبك كسلا أو في عمل غير كثير النفع العام أو الخاص وفطرتك شاهدة . وماجاء القرآن في هذا وأمثاله إلا ليوقظنا ونحن الزنا . انتهى .

تبصرة في قوله تعالى

« لتسألن يومئذ عن النعيم »

كتب ضحى يوم الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م

خواطر خطرت قبيل النوم ، وذلك :

(١) إن الله أتقن ماخلق فينا من الغرائز .

(٢) أعطى الانسان حرية في تعاطي الطعام والشراب واللباس .

(٣) الحيوان تكفيه غريزته .

(٤) والإنسان اليوم مخطىء جدا فى جميع مايتعاطاه .

(٥) وقد ثبت فيما تقدم أن خير طعام الناس أن يقتصروا على الخضرة والفاكهة .

(٦) وذكرت تجربتى بنفسى ، وأن الأمراض التى كانت عندى زمن الشباب ذهبت بتاتا بالتزام مايقوله أطباء عصرنا الحاضر من التعرض للشمس والهواء .

(٧) إن الناس بافتخارهم بالموائد المنصوبة ، وتماطيهم المسكرات والحلوى بدون عطف إنما يقتلون أنفسهم ، والحيوان برىء من هذه الوصمة .

(٨) أليس هذا هو النعيم المذكور فى الآية ، وأن سؤال الآخرة ابتدأ الآن فعلا . وأن هذا من نور الله الذى نشره فى الأرض .

(٩) إن علماءنا يقولون : لاعذر للجاهل ، إذن لاعذر لمن يخطىء فى الطعام والشراب ، إذن نحن المسئولون .

(١٠) تذكير قراء التفسير بالأحاديث الواردة فى (سورة س) وموازنة مافيها بعلم الطب الحديث .

(١١) وقصة المدائن التى كانت عبارة عن سبع مدن كبيرة ، وهى على نهر دجلة ووصفها طولا وعرضا والكلام على إيوان كسرى وبساطه الذى هو ستون ذراعا فى مثلها ، وأنه كان من الحرير الملوشى بالذهب والفضة ، والمطرز بالجواهر الثمينة ، وكانوا يمدون هذا البساط الشتاء حين تذهب الرياحين ، وقد فتحت المدائن سنة ١٦ هجرية فى زمن عمر بن الخطاب على يدى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ، وجعله مصلى . وكانت فيه التماثيل من صور الآلهة والسباع ، واستولوا على تاج كسرى وثيابه ، ولما رآه سيدنا عمر بكى ، فسئل : إن المقام مقام سرور ! فأخبر عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبره : أن هذا المال ما كثر عند قوم إلا تخاذلوا وتقاطعوا ، إذن لافرق بين المسرفين فى الطعام والشراب وفى المال ، فالأول يقتل الصحة ، والثانى يفرق الجموع إذا لم تكن نفوسهم شريفة : وهذا سر من أسرار قوله تعالى : «لتسألن يومئذ عن النعيم» .

(١٢) ويتبع هذا أن رجلا اسمه (مكفادن) أشاع اليوم فى العالم فائدة الصوم فى الصحة مع أنه من رجال الرياضة البدنية .

(١٣) وجاء فى مجلة (الرياضة البدنية) فى مصر : أن أحد أطباء شيكاغو منع الطعام عن عدد من الحشرات التى لاتعيش أكثر من ٢٤ ساعة فعاشت ١٥ يوما ، وماسولينى الأرلندى المعروف عاش نحو ٦٠ يوما من غير طعام ، ومسألته مشهورة .

(١٤) إن (مكفادن) المتقدم أمر تلاميذه فى الرياضة البدنية أن يتركوا الطعام من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أسابيع ويقتصرون على الماء .

(١٥) وهذا (غاندى) أمره مشهور ، فقد صام فى أيامنا هذه سنة ١٩٣٣ م ٢١ يوما .

(١٦) إن هذه التجارب سرت فى جامعات أمريكا ، فقد صامت فصول برمتها عن الطعام أسبوعا كاملا دون أن يحول ذلك بينهم وبين دروسهم . وزاد نشاطهم العقلى .

(١٧) أحد تلاميذ (مكفادن) فى الرياضة البدنية قام برحلة ٥٠٠٠ ميل فى أسبوعين كاملين لم يتناول فيهما شيئا غير الماء القراح .

(١٨) إن (مكفادن) يقول : إن الإنسان يستطيع أن يعيش بنحو ست أو خمس سنتات فى اليوم . وذلك نحو ١٠ مليمات ، وعاش بهذا المبلغ يوميا فى نيويورك شهرا كاملا .

(١٩) تقول مجلة (الرياضة البدنية) : إن (مكفادن) أغضب الأطباء لأنه يقول إنه يشفى بالصوم كل علة مثل : ضيق النفس . وأمراض الكلى ، والنزلة الشعبية ، والزكام : والامساك والسعال والبرد والبول السكرى : وخفقان القلب ، وأمراض (البروستانة) ، وأمراض النساء ، وعسر الهضم ، والهزال ، والصداع . واضطرابات الأذن . وأمراض العين ، وضعف القلب ، والأرق . والضعف التناسلى وأمراض المثانة .

(٢٠) هذا كله جاء فى تلك المجلة (وأنا أقول : هـذه مسائل يجب بحثها ، فلست أقول إنها حقائق تامة ، بل هى مما يجب البحث عنه ، وهذا مقال واسع كنت أريد أن أكتبه برمته ولكن حال دون ذلك ضيق المقام . وعسى أن أكتبه فى ملحق التفسير إن شاء الله تعالى .

* * *

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» وبهذا تم تفسير (سورة التكاثر) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة العصر

هى مكية

آياتها ٤ — نزلت بعد سورة الانشراح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *

مقدمـــة

أقسم الله سبحانه بالزمن كله وما فيه من عجائب وغرائب كالدول البائدة ، والقصور الخاوية ، والبلاد العادية ، وما جرى بين الأمم من حروب ، وما انتابها من كروب ونوب ، وما بين ذلك من فتن واضطراب ورفعة وخفض ، وذلة وشرف ، ولو أن الناس قرءوا علوم قدماء المصريين والقرطاجيين والرومانيين وأمم الهند والصين والترك وما جرى فيها مع أنبيائهم وحكمائهم وعلمائهم وملوكهم وأمرائهم وسوقتهم ، لو قرأ العلماء

ذلك وأمكنهم لم يستخرجوا منه إلا نتيجة واحدة ، وهى أن هذا الإنسان جميعه قد خسر مساعيه ، وضل فى مناهجه ، وصرف عمره فى غير مطالبه ؛ ذلك لأنه جاء إلى هذه الأرض لغرض يقضيه ، وعمل يقصده ونهاية يرضاها ، وحكمة يلقاها ، جاء ليصفى نفسه من الغوائل ، ويخلصها من الرذائل ، حتى إذا رجع إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحا ، وأمضى سلاحا ، وأرفع مقاما ، وطار هناك فى باحات الهناء ، وساحات الجمال فلما رجع إلى مقره فى عالم السموات بالموت لم يجد إلا نقصا محيطا به ، وجهلا أرداه فندم أمام مولاه ، إلا طائفة من هذا الإنسان عاشوا فى الدنيا مفكرين ، فآمنوا بأنبيائهم ، وصدقوا برسلهم ، ودرسوا علوم حكمائهم ، وأحبوا بنى جنسهم ، وأحسنوا إلى إخوانهم . وعرفوا الحقائق ، وعملوا الخير . وساعدوا الناس بأموالهم وبأنفسهم . وشاركوا المجموع فأسعدوه ، وانتشلوا إخوانهم من الجهالة والمخاطر الدينية والدنيوية وصاروا متعاضدين متعاونين بعضهم لبعض ؛ وصبروا على مانزل بهم من الحدثان ؛ ورموا به من البهتان . وأصيبوا من الخذلان أيام بؤسهم ، ووصى بعضهم بعضا باتباع الحقائق ، والسير على أحسن المناهج . والصبر فى كل بأساء وضراء وحين البأس ، فهؤلاء فى الدنيا يفوزون ، بما يريدون ، وفى الآخرة بالنعيم يفرحون . هذا ملخص السورة ، ولنشرع فى التفسير اللفظى للسورة فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والعصر . إن الإنسان لفى خسر) أقسم بالزمان كله على خسران مساعى الإنسان (إلا الذين آمنوا) هذه إشارة إلى القوة العلمية ، وقوله (وعملوا الصالحات) إشارة إلى القوة العملية ، فهاتان قوتان خافتتا فينا : قوة العلم وقوة العمل ، وقوة العلم مبدؤها الإيمان بالله ، ولا جرم أن هذا الإيمان ما هو إلا بذر يبذر فى ساحات النفوس فيسقى بماء الفكر فيخرج منه مزارع العلم الخضرات ، ونخل الحكم الباسقات ، ومختلف الفنون الزهرات ، وآيات السعادة البهجات ، فهناك تتجلى للنفوس صور جمالها وتنظر فى داخلها أعاجيب فنونها ، وتتغنى طيور الحكم وبلابل الأنس على نواضر أغصانها ، هناك تشرق النفس ويتجلى نورها على أخواتها ، وتصبح للناس شمسا مشرقة ، وآية بينة ، وحكمة واضحة ، فلعمرى إذا لم يحط المؤمن ببعض جمال المصنوعات وعجائب المبدعات فإن إيمانه إما إيمان العجائز ، وإما لا يجاوز حنجرته ، وإنما هى ألفاظ تقال وتسبيحات تتلى ، وصلوات تقام ، وأعمال كأنها أجسام بلا أرواح ، فليكن الإيمان منغرسا فى ساحات العلوم باسقا ، مثمرا فى مختلف الحقول ، لعمرى ما هذه النفوس الإنسانية إلا كأرض واسعة الأرجاء إن لم يضئها نور الفكر ويسقها ماء العلم ، وينبت فيها آلاف مزارع الجمال النضرات أضحت خلاء وحوشا يبابا وقاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ؛ خالية خاوية ، ليس فيها حياة ولا نبات ، ولا شجر ولا أقوات ، نعم هى تلك النفوس التى نراها فى هذا الإنسان ، لا تحس إلا بشهواتها ، ولا تعقل إلا ما يختص بهيكلها ، فأبغضها من حولها من الناس ، وكرهها عالم البرزخ يوم الوفاة « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » :

فهذا الذى إن عاش لا يحتفى به ... وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

وذلك أصله التفريط فى القوة العلمية التى تظهر ثمرتها فى القوة العملية . أما القوة العملية فقد أبان الشارع الواجب فيها من صلاة وزكاة وحج وصيام وإسلام وما يتبع ذلك من منافع الإنسانية والمحبة الأخوية ، إن الأمم الإسلامية اليوم خامدة سيحييها العلم نائمة سيوقظها العقل ، غائبة ستحضرها الحكمة ، غفلت الأمة

اليوم عن المحبة العامة ، وكثرت فيها الغيبة والنميمة والجهالة والتقاطع والتدابر ، كل هذا سببه الجهل العام فلا عمل إلا بعلم ، فأين العلم ؟ وسيقيض الله لهذه الأمة من ينشرون وسائل الإصلاح ورسائل النجاح وقد أقبلت أيامه ، وحلت تباشيره . فلتكن أيها الذكي من المصلحين ، ولا يصدنك عن الإصلاح - بعد تعلم أمرك ووفور عقلك ، وصلاحية نفسك علما وعملا - ما تقابل به من الصادمات ، وما تبلى به من المقاومات ، فإن الشمس لا يحجبها طول الدهر السحاب ، والمصلح في أول أمره قد لا يعتنى به ، وفي آخر الأمر مهاب كريم يعجب به من كان يقلاه ، ويفرح به من كان أولا قد ازدراه ، وهذا قوله تعالى «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» فيعرف الإنسان الحقائق ويوصى بها غيره ، ويعمل الأعمال الصالحة ويوصى بها غيره ، ويصبر على ما نابه ويوصى بالصبر غيره .

ولما كانت هذه آخر السور التي فيها أقسم الله بمخلوقاته ، وقد قلت في سور كثيرة : إني سأذكر موازنات أقسام القرآن وأقسام العرب في هذه السورة وجب أن أذكر ذلك هنا فأقول ملخصا ذلك من كتابي المسمى [مذكرات في أدبيات اللغة العربية] :

اعلم أن الله أقسم بأشياء مما خلق ، وعمد إلى ما جل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعده في أقسامه ولعمري إن النوع البشري لن يقسم إلا بما عظم لديه ، أو بمسيطر عليه . يقول الولد وحق والدي ، وتقول الرعية ورأس فلان الحاكم ، والجندي يقسم بشرف الجندية ، ويقسم الوزراء بالملوك ، ونسمع الرجل يحلف بعينيه لما يرى من منفعتهما وزينتهما .

إلى أن قال : أقسم الله عشرين قسما : الفجر ، والفلق ، والصبح ، والشمس ، والضحى ، والنهار ، والعصر ، والليل ، والليالي العشر ، وبالنجم ، وبمواقع النجوم ، ورب المشارق والمغارب ، وبالشفق وبما وسق الليل ، وبالقمر ، وبالسماء ذات البروج ، وبالنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا ، وهذه كلها صفات للنجوم على رأي ، والتفصيل تركناه هنا ، وهناك نحو عشرين قسما بما تحت الفلك ، وهي الرياح الذاريات ، والرياح الحاملات : أي التي تحمل السحاب وبالأرض وماطحاها ، وبالتين والزيتون . وهذا البلد الأمين ، وبالخيل وهي العاديات ضبحا ، وبالشاهد وبالمشهود ، وبيوم القيامة ، ويوم الجزاء ، ويوم الميعاد ، وبالكتب المسطرة للمنشورة ، وبالبحر ، وبكل ما خلق ؛ وبما تبصرون وما لا تبصرون ؛ وبوالد وبما ولد ، وبنفس وما سواها . وبالجملة فهذه عشرون أيضا .

إن الله أمر عباده وأوجب عليهم النظر في العلويات والسفليات بالتساوي . وفي الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء ، وعلم العمران ، والنفس ، وجميع العلوم ، إذ لم تخرج في البحث عما ذكر في تلك الأقسام التي أقسم بها مبدعها . وكان الأمة التي جهلت ما أقسم به وأعرضت عنه ولم توفه حقه في النظر قد أعرضت عما أقبل عليه مبدعها ، وازورت عما أراده خالقها . جعلنا هذه الأقسام مفاتيح العلوم لأنه ذكر جواهر الأشياء فيها ليلفت إليها العقول ؛ ويحرض على البحث عليها العلماء والأمم .

وإنما ذكرت ذلك هنا ليكون نموذجا يفتح به للمسلمين ما أغلق أمامهم من جمال هذا العالم الذي صرفوا عنه قرونا وقرونا بجهل صغار العلماء وجهال الفقهاء بلاغة القرآن وموازنتها ببلاغة العرب ؛ قد جاء في كتابي المسمى [مذكرات أدبيات اللغة العربية] ما ملخصه ما يأتي :

أقسم زهير بن أبي سلمى للحارث بن عوف وهرم بن سنان من بني غيظ بن مرة فقال :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

يقول : أقسمت بالبيت الذى يقصده الناس للطواف حوله لنعم السيدان كنتما على كل حال من سهولة الأمر وصعوبته .

ويقول الله : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » .

ويقول النابغة فى القسم اعتذارا للنعمان واصفا الكعبة : أقسم بالبيت الذى زرته سنين ، وبما أريق من الدماء على الأصنام . وبالله الذى أمن الطيور اللاجئات للحرم بمسها تبركا بها ركبان مكة السائرون بين الماء الخارج من جبل أبى قبيس المسمى الغيل والسند وهو سفح الجبل . أقسم بما ذكر أنى ما أتيت بشىء أنت تكرهه ، إذن فلا جعل الله يدى ترفع إلى سوطى ، وهذا معنى قوله :

فلا لعمر الذى قد زرته حججا وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند
ما إن أتيت بشىء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطى إلى يدى

ويقول الله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

فتعجب كيف أخذ يقسم بالشمس إذا ظهر نورها ، والقمر إذا تبعها ، والنهار إذا أظهرها ، والليل وظلمته ، والسماء وبنائها ، والأرض ودحوها . والنفوس وحسنها وما ألهمت من الخيرات ، وما أودعت من الشرور ، أقسم بهذا كله أن من طهرها فقد أفلح . ومن دنسها فقد خاب . تعجب فى هيئة القسمين وتأمل فى القسم بهما تعرف الفرق بينهما .

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ (أقسم) كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

وبلفظ (يمين) كقوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وبلفظ (العمر) كقوله :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وبلفظ (يمينا) قال زهير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

ثم جاء بعد ذلك أقسام القرآن ، وهى لا تخرج عن الأربعين قسما السابقة ، وهى عشرون فى العلويات وعشرون فى السفليات فلا نطيل بذكرها . انتهى تفسير (سورة العصر) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الهمزة

هى مكية

آياتها ٩ — نزلت بعد سورة القيامة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

الهمزة واللمزة كلمتان معناهما الطعن فى الناس وإظهار عيوبهم ، وأصل الهمز الكسر فمن كسر شيئا يقال همزه ، وأصل اللمز الطعن ، فمن طعن إنسانا بالرمح مثلا قيل لمزه ، ثم شاع كلاهما فيما ذكرناه ، فما عدا ذلك من قولهم : الهمزة من يعيبك فى غيبتك ، واللمزة من يعيبك فى وجهك ، وما شابه ذلك من الأقوال ، فهى لا طائل تحتها ، وكلها داخلة فيما ذكرناه . يقول الله : قبح وعذاب لكل معتاد الطعن فى الناس ، الذى يأكل لحومهم ويؤذيهم فى غيبتهم أو حضورهم ، وهذا قوله تعالى (ويل لكل همزة لمزة) وقرئ « همزة ولمزة » بالسكون ، وهو الذى يأتى بالمساخيك ويشتم ، ثم قال : (الذى جمع مالا وعدده) أى عده مرة بعد أخرى (يحسب أن ماله أخلده) أى تركه خالدا فى الدنيا لا يموت ، مع أن الذى يخلد إنما هو العمل الصالح ، لا المال المجموع (كلا) ردع له لمن حسبانه (لينبذن) أى الذى جمع (فى الحطمة) أى فى النار التى شأنها أن تحطم كل ما وجد فيها (وما أدراك ما الحطمة) تهويل فى أمرها وتعجيب من شأنها ، هى (نار الله الموقدة التى) تدخل فى الأجواف والصدور والرئات ، فهى إذن (تطلع على الأفئدة) التى هى ألطف ما فى الأجسام ، فتشتمل عليها لإحراقها فيكون ذلك أشد الألم (إنها) أى النار (عليهم مؤصدة) مطبقة (فى عمد) كقمر وكجنب ، وهما لغتان فى جمع عماد (ممددة) صفة للعمد : يقال : إما أن الأبواب توصد عليهم ، وعلى هذه الأبواب تمدد العمد حتى لا تفتح تلك الأبواب ، وإما أنها عمد يعذبون بها فى النار . أقول : ولقد ثارت مناقشة فى الجرائد فى هذه السنة (سنة ١٩٢٥) ذلك أن أحد الأطباء قال : إن أشعة رونتجن التى هى ذات عمل عظيم فى النوع الإنسانى ترى فى إشراقها كالأعمدة . فقال بعضهم : لعل الآية تشير إلى كشف هذه الأشعة . وقال آخرون : كلا . وأخيرا انتصر الذى قال إن القرآن أشار لها .

أما أنا فأقول : إن المقام مقام حكمة ، فلعل نار جهنم بهيئة تلك الأشعة ، وأيضا العذاب فى الآخرة عذابان : عذاب جسمى وعذاب نفسى ؟ وهكذا النعيم نعيمان ، وكما أننا فى الدنيا نحس بآلام جسمية وآلام عقلية ، وبلذة حسية وأخرى عقلية نفسية ، هكذا يوم القيامة ، وما أشنع وأقبح أن يطلع الإنسان بعد الموت على صورة قبيحة أحاطت به ويريد صرفها عنه فلا تنصرف ، ويطلع فيراها محيطة به ملازمة كما يلازم الظل صاحبه ، والهواء الإنسان والحيوان ، وإذا كنا فى الدنيا نرى الاحتقار والذم إهانة لانطاق ، وإذا كنا نتوارى من العار ، لا لا ، بل نقدم أنفسنا للقتل فنسوق الجيوش للأخذ بالثأر ، ونجندل الأبطال فى ساحات القتال ، كل ذلك لنغسل العار اللاحق بنا ، ويقوم الرجل الذى أهين فيغسل العار عن نفسه بتقديم نفسه للسيف والنار ، كل هذا فى الدنيا مشاهد ، ولكن الناس ينظرون ولا يفكرون غالبا ، فإذا كان ذلك هنا فلنقل إن الله عز وجل حين نخرج من هذه الأرض بأرواحنا وقد تركنا أجساما فى الأرض يطلعنا على صورنا المعنوية فينظر الإنسان فيرى صور أعماله لاحقة به ، ملاصقة محيطة به فيقال : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

وقد جاء هذا فى علم الأرواح وقالوا لما سألوهم ما يفيد هذا المعنى ، كل ذلك بعد الموت ؛ وما يوم القيامة إلا نتيجة الدنيا وعالم البرزخ ؛ فأى عذاب أعظم من هذا . وأشعة راتجن المذكورة التى أشعتها كالمعد يرى بها الأطباء ما خفى فى الجسم ، فيعرفون بواطنه فيكون ذلك كالرمز إلى الاطلاع على الحقائق ، ويقول الإنسان إذ ذاك : « يا ليتنى كنت ترابا » .

فإذن اطلاع النار على القلب سواء أكان بالإحراق لمن هو فى أول العذاب ، أو بكشف الحقائق وإظهار ما اختبأ فى السرائر من العيوب المخزية ، فهو فى كليهما عذاب ، وعذاب الخزى أشق من عذاب الجسم كما قال قدماؤنا ، فالآية تفيد عذاب الجسم ، وهو الأقل ، وعذاب الخزى بالكشف وهو الأعظم .

واعلم أن النار فيها أمران : حرارة للإحراق ، ونور للإشراق ؛ فالحرارة لتفريق الأجسام وإذابتها ، والإشراق لتمييز الصور والأشباح ، فكما فرقت الحرارة بين أجزاء المادة فرق النور بين صورها ، فهذا تفريق وإبعاد ، وهذا تمييز وتفريق . فالنور والحرارة أرسلهما الله للعذاب وللنعيم ، وللبؤس وللسعادة .

هذه السورة أشبه بسورة التكاثر ؛ فسورة التكاثر ذم الله فيها من أضاعوا حياتهم فى التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد ، وهذه ذم الله فيها من أمسك المال وجعل معوله عليه وأطلق للسانه العنان ، فهو بالهمزة واللمزة ينقص قدر غيره : أى يستعين على كيد الناس باللسان كما كان هالك يفاخر ليظهر العلو عليهم وإلى هنا تم الكلام على (سورة الهمزة) ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الفيل

هى مكية

آياتها ٥ ـ نزلت بعد سورة الكافرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *

مقدمة

اعلم أن هذه السورة والتى بعدها تضمنت نعمة الله عز وجل على قريش ، إذ جعل لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء . أما أمنه فذلك أنه ما قصده جبار إلا أهلكه الله ، وذلك أن (أبرهة بن الصباح) ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا . ويقال إنه قضى فيها حاجته ، أو أنه أحرقها ، فأغضبه ذلك فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود ، وكان قويا عظيما واثنا عشر فيلا غيره ، فلما بلغ جيشه قدم الفيل ، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول ، فأرسل الله طيرا مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فوقعت تلك الحجارة عليهم فهلك قوم وفر آخرون .

ومما جرى فى هذا المقام أن عبد المطلب أقبل على أبرهة طالبا منه جماله وكانت مائتين أخذها منه أبرهة من ماله فقيل له هذا سيد قريش ، وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال ، فلما طلب الجمال سقط من عينه ، وقال : جئت لأهدم البيت الذى هو دين آبائك وشرفك فألهتك إبلك عنه ، فقال أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه ، فهذا وجه كون البيت آمنا .

وأما كونه يجبى إليه ثمرات كل شىء ، فذلك أن قريشا لهم رحلتان : رحلة فى الشتاء إلى اليمن ورحلة فى الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وتصبح تلك الأرض القفرة ذات خيرات ونعم ، فعلى قريش أن يعبدوا رب هذا البيت ، لأنه أطعمهم من جوع بالرحلتين وآمنهم من خوف باهلاك أصحاب الفيل اهـ .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم ير تلك الواقعة فقد نقلت له بالتواتر ، والمراد التذكير بوجوه نعم الله وقدرته وأنها إرهاص للنبوة لأنها وقعت فى السنة التى ولد فيها صلى الله عليه وسلم (ألم يجعل كيدهم) فى تخريب الكعبة (فى تضليل) فى تضييع وإبطال بأن دمرهم (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) جماعات ، مفردها إبالة ، وهى الحزمة الكبيرة ، لأن الجماعة من الطير تشبهها فى اتحادها واجتماعها (ترميهم بحجارة من سجيل) من طين متحجر (فجعلهم كعصف مأكول) أى كتبن أكلته الدواب وراثته . انتهى التفسير اللفظى .

تذكرتان :

الأولى : فى وصف الفيل مختصر من كتاب أستاذنا المرحوم على باشا مبارك

الثانية : فى سر (ا ل م) فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »

جاء فيه عند وصف الفيل ما ملخصه :

(١) الفيل يعيش فى الأرض ما دام فيها الماء ، فإذا قل انتقل إلى غيرها .

(٢) إن أهل الجهات التى فيها الفيلة لها علامات بها يعرفون أين مستقرها ، فإذا رأوا قطيعا منها انتظروا واحدا منه ينفرد عنه فيرمونه مرة واحدة ويختفون خيفة ، فإذن يحك جسمه بالشجر ثم يرى أنه لا فائدة فيهم على وجهه ثم يسقط وهم يرون ذلك ، فيسلخونه ويتخذون من جلده النعال ويأكلون اللحم ومنه تكون (البصطرمة) للعروفة ، ويقلعون أسنانه بالفاس ويبيعونها مع بقية العظام للتجار (وهذا هو العاج للعروف) وربما يعيشون فى الغابة شهرا يقتاتون منه ، والعاج للذكور يباع بالساحل فيشتريه الأوروبيون . قال وقد يجد الصيادون أنياب الفيلة ملقاة على الأرض ، وقد يقع بين الفيلة معارك فتقع منها أنيابها ، ومن عاداتهم فى صيد الفيل أن يجتمع القوم بهيئة دائرة تضيق شيئا فشيئا ثم يرمونه مرة واحدة ، ومتى هاج فر للشاة وأخذوا يضربونه إلى أن يقع فيفعلون به ما تقدم ، وهل الفيلة تحمل ٣٦ شهرا ، أو ثمانية عشر شهرا ؟ رأيان ، ومدة الرضاع ثمان سنين . ويقال إنه يعيش ١٥٠ سنة ، ولكن هذه الأقوال ليس يمكن تحقيقها لأن توحشه شديد ولا يريد أن يلد وهو مستأنس ، والفيل حليم سليم الطبع ، أعظم الحيوان قوة ، ليس من طبعه الأذى ، يستعمل قوته فى الدفاع عن نفسه ، مؤانس مؤالف ، رئيس الشرب أكبره سنا ، وهو الدبر والقائد ، هن يفسدن الزرع ؛ الفاس إذا طارد واحدا منه وأخطأه ولم يمكنه الهرب هجم عليه فى الحال فضربه بنابه ثم تناوله بخرطومه ورمى به فى الجو وارتقب سقوطه فداسه وقتله .

حكاية

كان فيل سائرا وحده فى مدينة فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه أحد الصناع بابرة ليعجب نفسه وأصحابه ، فرجع له الفيل بعد قليل وملأ خرطومه بالقاذر ورماه به اهـ .

الفيلة تكون فى افريقيا وفى الهند ، وهى فى الهند أكبر وأنفع للناس ، وأفضلها الأبيض ، وقد تعبدها أهل الهند ، وهو يحب سائسه محبة كبيرة ، ويقال إن فيلا قتل سائسه ولكن ظهر أسفه بعد ذلك وشدة حزنه ، وقد كانت الفيلة للحرب قديما . أما الآن فهى للفخر أو حمل الأثقال العظيمة ، ويحمل على ظهره من ثلاثة آلاف رطل إلى أربعة آلاف رطل ، وعلى خرطومه وحده ألف رطل ، ويجر مالا يكاد يقله ستة أفراس ، ويسير فى اليوم مائة ميل. انتهى ملخصا من كتاب [علم الدين] .

التذكرة الثانية فى بعض أسرار (الم)

فى آية : «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لك الحمد علمتنا وأنعمت وأنعشت الهمم ، ورفعت النفوس إلى العلا . هذه (الم) هى السر المصون والجوهر المكنون ، هى حياة مستقبل أمم الإسلام ، هى من آى سر الأسرار ، ومنبع الحكم والأنوار .

الله أكبر . الله أكبر : هذه الحروف فى أول (البقرة) بعد (سورة الفاتحة) مفتاح العلوم المختومة فى القرآن لتظهر وتنشر فى زماننا هذا ، نعم هذا زمانها والله حتما أراد نشرها فعلا وهاهو ذا سبحانه ينشرها على كل من استعد لذلك أن ينشر ذلك ، وأنا وقراء هذا التفسير من هذه الطبقة التى يحاسبها الله على هذه الأسرار وإظهارها ونشرها ، وذلك لتوقظ المسلمين فى عصرنا إلى كل ماتركوه ، مثل :

(١) أنهم جهل كثير منهم الصفات الخاصة بمن هو الأحق بالملك فجاء فى آية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » تلك الصفة فقال « وزاده بسطة فى العلم والجسم » وضرب بما عدا ذلك عرض الحائط مهما أكثر فريق من المسلمين من الأحاديث الواردة فى ذلك بروايات مطعون فيها

(٢) ومثل أن للمتأخرين منهم نسوا أن العفيف هو الذى يغلب عدوه . فأما الشهوانى فلا ، وهذا هو ماقاله طالوت لجنوده ، فمن شربوا من النهر لم يحاربوا ، ومن لم يشربوا غلبوا عدوهم مع قلتهم .

(٣) ومثل أن العلوم الطبيعية عليها مدار الرقى فى الحياة والبراهين ، وهى المذكورة فى حيز (الم) « ألم تر الذى حاج إبراهيم فى ربه » وذكر فى هذا المقام مسئلة الحمار وتشريحه ، ثم ختم المقال بقوله : « إعلم أن الله على كل شىء قدير » .

ومن فطن لحال المسلمين اليوم أيقن بما قلنا ، فانظر أليست بلادنا المصرية اليوم قد منيت بأكباب الطبقة الراقية على مآكل وملابس بلاد الفرنجة ، ومعنى ذلك أن مالهم يذهب هباء منثورا ، ومعنى هذا أن بعض هذه الطبقة ناقص فى عفته ، لأن هذا نوع من التبذير ، وهو من أضداد العفة ، فهذا فى حيز (الم) فى آية : «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم» الخ . ولو كان هناك عفة وتضامن لخرج الفرنجة ، لأنهم لا يجدون مايكسبونه ، ولكنا الآن لانزال الامتيازات عندنا . وأهل الهند سبقونا ، وهذا هو السر فى آية طالوت والجنود وقلة شرب الماء .

أليست بلاد الإسلام اليوم خاوية من العلوم والصناعات إلا قليلا (وقد استيقظوا اليوم) . أليست مسئلة الحمار وتشريحه المتقدمة تحث على الحكمة والعلم ، وهذا كله فى حيز (الم) .

أنا لاأطيل فى هذا المقام فكفى من القلادة ماأحاط بالعنق ، فانظر فى جميع سور القرآن تجد « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» الخ وتجد «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وماأنزل من الحق»

وتجد « أفلم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وهذا راجع لدراسة الأمم التي هلكت .

وأخيرا : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » وهاهنا العجب العجاب ، فقد تقدم في (سورة البقرة) في الطبعة الثانية قصة السلطان (محمود الغزنوي) عند آية . « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » مع الخليفة في بغداد ، وكيف قال الأول للثاني : إذا لم تشركني معك في خطبة الجمعة وتضرب السكة باسمي لأحملن أنقاض بغداد على الفيلة بعد أن أهدمها حجرا حجرا وأنقلها إلى غزنة ، وكيف قال الثاني للأول (الم) وكيف حار علماء غزنة ، وكيف فهم المقصود القهستاني ، وهو أحدهم ، وقال : ذلك إشارة إلى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » وكيف ارتاع السلطان ولم يفعل شيئا ، وكيف كانت هذه الحكاية ممهدة لما نفعله الآن ، فنقول للمسلمين (الم) في أول البقرة تشير إلى ما تكرر منها في عشرات السور ، وكل ما في حيزها أو أكثره هو الذي تركه المسلمون الآن ، وأنا أقول الآن : إنني إذا عشت وأذن الله بتأليف ما يتفق للتفسير فلابد من إيضاح هذا المقام عند الكلام على سر (الم) في أول (سورة البقرة) ، وبهذا تم الكلام على (سورة الفيل) والحمد لله رب العالمين . كتب نصف الليل ليلة الثلاثاء ١٣ يونيو سنة ١٩٣٣ م ٢١ صفر سنة ١٣٥٢ هـ .

تفسير سورة قريش

هي مكية

آياتها ٤ ـ نزلت بعد سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ • إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ • الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ •

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(لإيلاف قريش إيلافهم) الإيلاف ، من ألفت الشيء إلفا وهو بمعنى الائتلاف ، ثم أبدل منها إيلافهم (رحلة الشتاء) إلى اليمن (والصيف) إلى الشام ، فالله أهلك أصحاب الفيل وجعلهم كالتبن للأكول ليخلو الجو لقريش فيرحلوا رحلتي الشتاء والصيف ، ثم يأتون بالميرة ويبتغون من فضل الله الذي لطف بهم وهم في أرض جدبة لا زرع فيها ولا ضرع ، فجعل الشام لهما في زمن الحر لأنه للصيف أنسب ، وجعل اليمن في الشتاء لأنها بلاد أدفأ ، فأصبحت قريش لا يتعرض لها أحد بسوء ، وكان الناس يقولون . قريش سكان

حرم الله وولاة بيته ، وكانت العرب تكرمهم وتعزهم وتعظمهم لذلك ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف . ثم إن هذا الإعراب يؤيده ماجاء في مصحف أبي بن كعب أنهما فيه سورة واحدة ، فلما عدد الله نعمه عليهم من الأمن وسهولة الرزق أمرهم بالشكر فقال : إذا كان هذا كرم الله معهم (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) بالرحلتين (وآمنهم من خوف) أي من خوف أصحاب الفيل ، ومن أن يتخطفهم الناس ، انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح

لقائل أن يقول : ما قصة الطير المذكور ونحن لم نشاهد طيرا على هذا المنوال ؟ فهلا أولناه بشيء يتفق الناس حتى يتفق مع علوم العصر الحاضر ؟ أقول : ننظر لمقصد السورة ، إنها هي وما بعدها إنما أنزلتا تذكيرا بالنعم ، أو بكرم الله وفضله على عباده ، أرسل طيرا فأهلك قوما فأنجى بيته وفتح رحلتين الصيف والشتاء ، نعم عددها على عباده وقال : ياعباد فاشكرون . فالمقصود في هذا المقام توجيه الهمم إلى رقي النفوس ودرس النعم المحيطة بنا من كل جانب ، فليفكر كل امرئ فيما عنده من النعم ، ولتفكر كل أمة في مرافقها ومنافعها ، إن هذه سنة القرآن ، ألم تر كيف ذكر في الغزوات حكمها كما تراه موضحا في (سورة آل عمران) و (سورة الأنفال) تراه حلل أجزاء الغزوات ، فما ترك نعاسا يغشاهم ، أو هزيمة انتابتهم ، أو غنيمة نسبوها ، أو نعمة نالوها ، أو غما اعتراهم ، أو مبشرا أتاهم ، أو بشارة سمعوها إلا استخرج منها حكمة واستنتج منها مسئلة ، كل ذلك لتعليمنا ، فوالله ليس كل الناس قريشا ، ولا كل مكان بيت الله ، فللناس أمكنة وأرزاق ، فليوجه خطباء كل أمة عقول أبنائها إلى ما لديهم من النعم حتى ترتقي العقول وتهذب النفوس .

بقي أن يقال : ولكن الطير المذكور غير معقول ، أقول ياعجبا! أليس هذا ديننا ، أو ليس في القرآن قصص كلها من الخوارق للعادات ، فهناك عصا موسى وناقة صالح وإحياء الموتى على يد عيسى ، كل هذه خوارق للعادات ، فليس ينبغي للعلماء أن يضيعوا وقت المسلمين في التأويل ، فإن تلك الخوارق والقصص جيء بها لنتائجها ، وهي العبرة ، فلنعتبر نحن بما لدينا من النعم ، ومن لم يفهم النعم التي أنعم الله بها عليه فرت منه وذهبت ، فليشكر الناس نعم الله عليهم :

جوهرة في معنى قريش

قريش هو ولد النضر بن كنانة ، منقول من تصغير قرش ، والقرش دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فشبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم .

موازنة هذه السورة بسورة التكاثر

إن سورة التكاثر تتضمن شكر العبد على كل نعمة ، فهو محاسب على ماله ، وعلى علمه ، وعلى قوته ، وعلى جاهه ، وعلى كل ما هو منعم به عليه ، فهذا تذكير ببعض النعم الظاهرة للناس ، ليتوجهوا إلى ربهم ويدرسوا نظمه ويعرفوا نعمه فيعبدوه ، ، فالتكاثر لجميع النعم ، وهذه لنعم خاصة . انتهى تفسير (سورة قريش) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الماعون

مكية الثلاث الآيات الأول ، مدنية البقية

آياتها ٧ ـ نزلت بعد سورة التكاثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *

ملخص هذه السورة

(١) ذم الذى يكذب بالدين .
(٢) ويدفع اليتيم دفعا عنيفا .
(٣) ولا يطعم المسكين ، ولا يأمر أهله ولا غيرهم باطعامه .
(٤) وإذا صلى يبقى ناسيا لذكر الله فى جميع أجزاء الصلاة .
(٥) وهذا الفريق إذا عملوا صالحا أرادوا به ثناء الناس عليهم .
(٦) وهم يمنعون الزكاة وكل ما يتعاور بين الناس من القدر والدلو والماء والنار والملح ونحوها .

وفى مقابلة ذلك أمر صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى (سورة الكوثر) الصلاة خالصا لوجهه تعالى لا كأولئك المرائين ، بل تكون صلاته شكرا له تعالى ، وأمر أن ينحر البدن . وهى خيار أموال العرب . ويتصدق على المحاويج لا كأولئك الذين يمنعون الماعون ، فهاتان الخصلتان فى مقابلة مجموع الخصال فى السورة قبلها . انتهى .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(أرأيت) استفهام معناه التعجيب (الذى يكذب بالدين) بالجزاء أو الإسلام (فذلك الذى يدع اليتيم) يدفعه بعنف كأبى جهل كان وصيا ليتيم فجاءه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه ، وهكذا أبو سفيان سأله يتيم لحا فقرعه بعصاه وهكذا غيره ، والكلام لا يختص بأحد (ولا يحض) أهله ولا غيرهم (على طعام

(المكذبين) لعدم اعتقاده بالجزاء ، والمنع وعدم الحض مرتبان على التكذيب بالدين كما هو مقتضى النظم . ثم قال : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) غافلون غير مبالين بها إما بتركها وإما بالغفلة عن ذكر الله مكتفين بظواهر الفرائض (الذين هم يراءون) يعملون الناس أعمالهم طلبا للثناء (ويمنعون الماعون) الزكاة أو ما يتعاور فى العادة مما ذكرناه . انتهى تفسير (سورة الماعون) والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر

هى مكية

آياتها ٣ - نزلت بعد سورة العاديات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ *

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إنا أعطيناك الكوثر) جاء فى صحيح البخارى عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : إن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه .

أقول : وعلى ذلك تدخل النبوة والكتاب والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود والمقام المحمود وكثرة الأتباع . والإسلام وإظهاره على الأديان كلها ، والنصر على الأعداء ! وكثرة الفتوح . وكل ذلك قال به علماء ، ومن ذلك «الكوثر نهر فى الجنة قال صلى الله عليه وسلم : وعدنيه ربى عز وجل خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء» .

وللبخارى أن النهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وأن جبريل قال له : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فاذا طينه مسك . وورد أيضا أنه أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل ، وفيه طير أعناقها كأعناق الجزور وهذه وحدها للترمذى .

وللترمذى «إن حافتيه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» . وقوله تعالى (فصل لربك) أى قدم على الصلاة خالصا لوجه الله ولا تكن كذلك الساهى عنها المرائى فيها . وذلك لتقوم بشكر ربك . فإن الصلاة جامعة لكثير من أقسام الشكر (وانحر) البدن . وبعضهم يفسر الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتضحية . ولا دليل يخص الآية بذلك . وإنما يقول الله : يا محمد صل مخلصا لربك مخالفا لهم لجهالتهم ، وإذا منعوا هم الماعون من قدر أو فأس من الأمور

السادة الصغيرة فقدم أعز أموالك للناس وهى البدن ، وانحرها لهم فى العيد وفى غير العيد (إن شانئك) أى من أبغضك لبغضه لك (هو الأبتر) الذى لاعقب له فلا يبقى له نسل ولا حسن ذكر . وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة . على أن الذكر الحقيق إنما يكون بالعلم والآثار الصالحة .

قيل : إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له ! فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة انتهى تفسير (سورة الكوثر) .

تفسير سورة الكافرون

هى مكية

آياتها ٦ — نزلت بعد سورة الماعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل يأيها الكافرون الخ) يقال إن هذه السورة نزلت فى رهط من قريش منهم العاص بن وائل والوليد بن المغيرة وغيرهم ممن علم الله أنهم لايؤمنون فقالوا له تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فلما أبى قالوا استلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك ، قال حتى أنظر مايأتى من ربى ، فأنزل الله هذه السورة ، فغدا صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام ، فقام على رؤوسهم وقرأها ، فيئسوا منه وآذوه ، فناداهم بصيغة الكفر قائلا (لا أعبد ماتعبدون) أى لست الآن عابدا ماتعبدون (ولا أنتم عابدون) الآن (ماأعبد) وهو الله (ولا أنا عابد ماعبدتم) ولا أعبد فى مستقبل الزمان ماعبدتم من الأصنام (ولا أنتم عابدون) فى المستقبل (ما أعبد) وذكر الله بلفظ «ما» ليقابل اللفظان (لكم دينكم) الذى أنتم عليه لاتتركونه (ولى دين) دينى الذى أنا عليه لاأرفضه . فلكم شرككم ولى توحيدى ، ويفسر الدين بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة . انتهى تفسير (سورة الكافرون) .

تفسير سورة النصر

نزلت بمنى فى حجة الوداع فتعد مدنية ، وهى آخر ما نزل من السور

آياتها ٣ نزلت بعد سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *

مقـــدمة

هذه السورة تسمى سورة التوديع أيضا . ويقال : إن عمر لما سمعها بكى وقال : الكمال دليل الزوال وروى «أن العباس لما قرأها بكى، فقال عليه الصلاة والسلام مايبكيك : فقال نعيت إليك نفسك، فقال إنها لكما تقول » وإنما ذلك لأنها فيها تمام الأمر كما فى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » وجاء فى رواية البخارى ومسلم «أن عمر رضى الله عنه سأل أشياخ بدر فقال : ماتقولون فى قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) حتى ختم السورة ؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال أكذلك تقول ياابن عباس ؟ قال قلت لا قال فما هو ؟ قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه . فقال (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) قال عمر ماأعلم منها إلا ماتعلم» . وهكذا نظير هذا فى حديث عائشة رواية الشيخين . وفى رواية أنها قالت : إنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر القول من : « سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه » وقال . أخبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى فإذا رأيتها أكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، فقد رأيتها : (إذا جاء نصر الله والفتح) فتح مكة (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاء نصر الله) أى فتح مكة وإظهاره إياك على أعدائك ، وفى ذكر المجىء ما يشير إلى ترقبه ، وأنه آت لاشك فيه بدليل التعبير بإذا ، لأن إذا للتحقيق بخلاف إن (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله

أفواجا) جماعات عظيمة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب : أى وأبصرت الناس حال كونهم داخلين فى دين الله أفواجا (فسبح بحمد ربك) فإنك حينئذ لا حق به ، وقل : سبحان الله وبحمده أو فصل لأن الصلاة تجمع بين الحمد والتسبيح ، وقد كان صلى الله عليه وسلم بعد ظهور تلك العلامة يكثر من ذلك فى الصلاة وفى غيرها كما رأيت (واستغفره إنه كان توابا) لمن استغفره .

تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما

الكوثر والنصر

اقتربت (سورة الكوثر) من (سورة النصر) ليس بينهما إلا ما يثبت الرابطة بينهما ، إن الخير الكثير ، والعلم الغزير ، والحكمة النيرة ، والآيات الباهرة ، والعلوم الظاهرة المدرجة فى معنى الكوثر يتبعها النصر ، ويكنفها الفوز والفلاح ، ولكن يحوزها التنائى عن الشرك والجهالة والغواية ، لذلك تخلل بين السورتين البراءة من رجس الجهالة والكفر والعصيان .

هذا ملخص السور الثلاث ، والذى سبب لى أن أعيد الكرة بعد تمام تفسير هذه السور ما جاش بخاطرى وملأ فؤادى وشرح صدرى وآنس قلبى وملأه حبورا وسرورا من الحكمة الإلهية والعلوم القرآنية والسعادة القدسية للأمم الإسلامية فى مستقبل الأيام ، ذلك أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة ، فإننا نحن الوارثون ، ولا بفتح مكة ونصر جيشها ، فلكم سيأتى من فتوح ، وهل مضى بعد النبوة إلا ألف سنة وثلاث مئين ؟ وهل هذا يقال له عمر دين من الأديان ! دين أنزله الله ليعمر فى الأرض ، فهو لا يزال اليوم فى أول حياته ، فإن ألف سنة وعشرة آلاف لا يقال لها شيئا مذكورا فى عمر الديانات ، ألم تر إلى دين النصارى وهو دين حديث جدا مضى له ألفان ، ودين اليهود مضى له فوق ثلاثة آلاف ونصف ألف سنة ، ودين البراهمة مضى له عشرات الألوف ؛ ودين (الفيدا) بالهند يزيد عن مائة ألف سنة ولم يعلموا من أين جاءهم ومتى جاءهم هذا الدين ، ولسنا الآن فى مقام الكلام على الحق والباطل منها ، ولكنا نتكلم فى طبيعة الديانات وأعمارها ، وإذا عمر الدين الباطل فما بالك بالحق ، وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب وورثة النبى الذى جاء منا صلى الله عليه وسلم ، ولغتنا فى مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا هى لغة القرآن فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور ، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها خوفا من أهل زمانهم ، ولكنا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره لتأخذ هذه الآمة بعدنا حظها من الحياة ، وقسطها من الإصلاح ، وتقوم بمساعدة الإنسانية ؛ وتكون رحمة للعالمين .

وصف الكوثر

لأبين فى هذا المقام وصف الكوثر من الأحاديث الصحيحة ! ثم أتبعه بما فيها من المعانى العجيبة لأمة الإسلام فى مستقبل الزمان ، وكيف يكون الكوثر يتبعه النصر والفتح إن شاء الله تعالى ، فهاك وصفه مع حسن تحصيل ، وما تقدم هناك إجمال .

إن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ، طينته مسك أذفر ، ماؤه أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل ، حافتاه من ذهب ، مجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، حصباؤه در مجوف .

وصف كيزانه وطيره ونحو ذلك

«آنيته عدد نجوم السماء، فيه طير أعناقها كأعناق الجزور، وفي رواية: كيزانه كنجوم السماء، من شرب منها لا يظمأ أبدا، وزواياه سواء، فيه أباريق كنجوم السماء، من ورده فشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا، والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها إلا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة».

وصف الشاربين

في حديث مسلم «قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، ترودون على غرا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إلي، فأقول: يارب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك»؟!

وفي حديث البخاري ومسلم: «يرد علي يوم القيامة رهطان من أصحابي، أو قال من أمتي، فيحلؤون عن الحوض، فأقول: رب أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى».

هذا ملخص ما جاء في الحوض من رواية البخاري أو مسلم أو هما معا، إن الشيخين قد قابلت الأمة روايتهما بالقبول، ولقد لخصت ذلك وحذفت المكرر، وربما كررت الكلمة مرتين لفائدة كزيادة معنى أو أفعل تفضيل أو نحو ذلك، وها أنت ذا أيها الذكي عرفت وصف الحوض للورود، وعرفت الحافتين، وتصورت اللؤلؤ والياقوت والمسك، وماءه الأبيض وحلاوته العسلية، وعرفت عدد كيزانه والواردين عليه، وأن منهم من يطردون، ومنهم من يشربون، والشاربون يعرفون بآثار الوضوء وأنهم يكونون غرا محجلين.

هذا ملخص ما ذكر هنا، وجاء في رواية أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض» قال العلماء: إنه لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور، وإنما ضربه مثلا لأكثر العدد المعروف للسامعين اهـ.

إذا عرفت هذا فاصغ لما أتلو عليك من نبأ هذه الأحاديث وأسرارها.

اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون. كم أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا، ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة وصورة مفرحة وبهجة وجمال، ولا تزال نرى كل أمة حاضرة كفائتة جميعهم يصفون ما يريدون من الجمال والحكمة والعلم ورقي الأمة بهيئة تسر الجمهور، ومن قرأ كتاب (كليلة ودمنة) الذي لم تخل منه مدرسة من مدارس العالم الشرقي والغربي في الوقت الحاضر إلا لها حظ من قراءته.

أقول: من قرأ هذا الكتاب عرف مقدرة (بيدبا) الفيلسوف كيف جاء بالسياسة ونظام المدنية والعلوم الاجتماعية في قوالب المحادثات الحيوانية، فتارة يجعله في هيئة محاورة بين ثور وأسد. وتارة بين حمامة وغراب وسلحفاة وفأرة. وآونة بين أم عرس وناسك وامرأته. وهكذا مما سر العامة بظاهره الطلي الجميل. وعلم الحكماء والعلماء بباطنه القويم.

إذا عرفت هذا فانظر إلى أحاديث الحوض واعجب من حكمة أهلها أهلها . وعلوم حجبت ، ونظم غطيت . وكواكب عميت ، وشموس غابت ، وأقمار أفلت ! ولكن لاتحزن :

والنجم من بعد الرجوع استقامة والشمس من بعد الغروب طلوع

ها هو ذا الله أذن بطلوع شمس هذه العلوم ، ها هو ذا أذن اليوم بارتقاء أمة الإسلام. ها هو ذا يريد إصلاح الأمم الشرقية بظهور العلوم فى الأمم الإسلامية .

اعلم أن هذا التعبير النبوى ليس له نظير أيها الذكى ، انظر لقد اطلعت على صور العلوم فى هذا العالم الإنسانى ، فلم أر مثل هذه الصور العلمية ، هذا دين جاء إلى أمم ، فماذا فعل الله به؟ ألهم نبيه وعلمه وأعطاه هذه الصور والمعانى وأمره بإبرازها للناس ، ولاجرم أن أكثر الناس جهلاء ، لأن عالمنا الأرضى عالم متأخر قصير النظر ، ليس له من العلم إلا ماوقع تحت حواسه ، وهذه أوروبا التى يقولون إنها راقية الجمهور منها عبد لحواسه ، هذه حقيقة أهل الأرض ، والنبى أرسل لهم ، فماذا يصنع ؟ أنزل الله على قلبه هذا النور الذى يسر العامة ويسر الخاصة معا ، ولكن ليس ذلك كما فى (كليلة ودمنة) الذى يفرح به الجهال ، ولكن الحكماء يرون الباطن هو المقصود والظاهر منبوذ ، لأن البهائم لا تتكلم بداهة . كلا . ثم كلا . بل هنا ظاهر القول حق وباطنه حق ، وهذا بيت القصيد .

الجاهل يسمع الدر والياقوت وشرابا أحلى من العسل فيفرح ويعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التى تقر بها عينه ، وهذا الجاهل أكثر أهل هذه الأرض ، والعالم ينظر فيقول : إن هذا القول وراءه حكمة ، وراءه علم ، لأنى أرى فى خلال القول عجائب ، فلماذا يذكر أن الكيزان أوالأباريق أونحو ذلك عدد نجوم السماء ؟ وأى دخل لنجوم السماء هنا ، ولماذا عبر به ؟ ثم يقول : لماذا ذكر أن الذين يردون الحوض يكونون عليهم آثار الوضوء ، ولما خص الوضوء مع أن الإيمان والصلاة وأعمال الإسلام كثيرة وأين الجهاد ؟ هذا أيضا أمر آخر . ثم يقول : لماذا ذكر أن عدد الآنية يكون أكثر من نجوم السماء إلا فى الليلة المظلمة الصحية وحدها ، ولماذا هذه المحافظة كلها على عدد نجوم السماء ؟ إذن يقول : لا لا ، الحق أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يريد أمرين : أمرا واضحا جليا يفرح به جميع الناس ، وأمرا يختص بالقواد والعظماء ، إن النبوة بأمر الله ، والله جعل فى أهل الأرض فلاحين لايعرفون إلا ظواهر الزرع ، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر ، وحكماء يستخرجون علوما ، وكل لايعرف إلا علمه ، فالطبيب يشارك الفلاح فى أنه يأكل ، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية . هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء فى أنهم يفهمون الحوض كما فهموه ويردونه معهم كما يردونه ، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها فماذا يقولون ؟ يقولون : إن النبى صلى الله عليه وسلم يريد معانى أرقى ، إن الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ فليس الماء الذى هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج كل شىء هناك ، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها ؛ وأى شىء عدد نجوم السماء ، ولماذا خصصت النجوم بالعدد والوضوء بالأثر ؟ والذى نقوله : إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره ، فما المسك الأذفر ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت ؛ ولا حلاوة العسل التى فى ذلك الماء ، ولا اتساع ذلك الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج ، العذبة المشارب ، السارة للناظرين .

إن هذه الأحاديث جاءت لترقية الأمة الإسلامية بأن يردوا حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم، فالحوض رمز للعلم ، والعلم علمان : علم بأحوال الأرض ، وعلم بغيرها ، ولا جرم أنه لا عالم أمامنا إلا نجوم السماء ونجوم السماء على حسب العلم المنتشر فى الأرض اليوم لا عدد لها ، فقد بلغت مئات الملايين، وقال علماء

هذا

هذا الفن كما قلناه سابقا إنها لاحصر لها، وكيف يقول صلى الله عليه وسلم: إن عدد الآية أكثر إلا في الليلة المظلمة المصحية : أي فإذا كان في الليلة المصحية : أي في الوقت الذي يمكن فيه ظهور النجوم وكشفها ، فإن عدد الآية يكون عدد النجوم ، وقد عرفت أن النجوم لاعدد لها ، ومعلوم أن علم الله لا عدد له : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

وفي حديث الخضر وموسى عليهما السلام مايفيد أن علم الناس كلهم ماهو إلا كما أخذ منقار الطائر من ماء البحر . فأما ذكر الوضوء وأن الذين يشربون من الحوض متوضئون وآثار الوضوء جعلتهم غرا محجلين فهو رمز إلى طهارة النفس ، فالمتدين لن يصل إلى حقائق العلوم إلا بأمرين : طهارة نفسه من الأخلاق الرديئة ، وجده في طلب العلم ، فهؤلاء الذين وردوا الحوض ظهرت آثار الأعمال الظاهرة في أخلاقهم فصفت نفوسهم فاستعدوا للشرب من مناهل العلم الذي لا حصر له ، فعلم الله لاحد له ، ورقي للتعليم لاحد له . والدليل على أن هذا هو المقصود أنه ذكر آثار الوضوء ليدلنا أن المدار في العبادات أن يكون أثرها في النفس : أي أن الناس لا فضيلة في عباداتهم إلا إذا ظهرت آثارها في نفوسهم بطهارتها من الأخلاق الذميمة .

وهذه الأحاديث تشير إلى أن هذه الأمة سينبغ منها أناس لا نظير لهم ستطهر نفوسهم ويكرعون من موارد العلوم الشريفة ، وهم يمتازون عن علماء الأمم بخاصية ، وهي أن حوض العلم الذي يشربون منه هو حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى هذا أنهم يدرسون العلوم التي بثها الله في هذه الدنيا ولا نهاية لها ، ويعرفون هذه الكواكب ويدرسونها ، ولا يذرون شيئا مما خلق الله إلا عرفوه على مقدار طاقاتهم ، ولكن يقرءون تلك العلوم باعتبار أنها من آثار جمال الله فيصبحون خلفاء الله في الأرض وتكون دراسة علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان إلى آخره دراسة للدين الإسلامي ، فالقرآن يطلب هذه العلوم كلها ، وكل العلوم يطلبها القرآن ، فمن قرأ الفلك باعتبار أنه آثار جمال الله فقد ورد بعض حوض رسول الله ، ومن درس النبات والطب والتشريح ، أو عجائب النحل أو النحل أو نحو ذلك باعتبار أنها من آثار جمال الله فقد شرب من حوض رسول الله ، ومن درس تشريح النبات وعجائب تركيبه والعناصر الداخلة فيه باعتبار أن هذا من بدائع حكم الله ونظامه العجيب فقد شرب من حوض رسول الله ، ومن قرأ جغرافية الشمس ، أو جغرافية القمر ، أو نظام جري الأرض حول الشمس أو نظام كسوف الشمس ، أو عجائب خسوف القمر فقد ورد الحوض على رسول الله ، ومعنى وروده الحوض أنه قد تأهل إلى وروده عليه .

هذا هو سر حديث الحوض ، حديث الحوض يدلنا على أن هذه الأمة سيطول أمدها ، وأن القرون التي مضت قليلة جدا ، وستتوالى أمم وأجيال يدركون ما نقول ، وستكون لهم دول وحكماء وعظماء يردون الحوض ويشربون ، ومبدأ ذلك العلم في هذه الحياة ، فهل رأيت حكمة أبدع من هذه في كتب العلماء . والبلغاء ؟ كلا ثم كلا .

وانظر كيف يقول : إن هذا الحوض يبعد عنه أناس هم مسلمون ، ولكن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم : هل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ ويقال : فإذا كان الذين يشربون من الحوض طهرت نفوسهم من الغل والحقد واستعدوا للعلم وسعوا له ، وقد عبر عن السعي إلى العلم بالسعي للشرب من الحوض ، فهكذا أولئك الذين يطردون من الحوض هم الذين قلوبهم لم تستعد للعلم وهم لم يسعوا له ، لأن القلوب لا تطهر إلا بأعمال صالحة وترك الشر ، وهناك تنشرح للعلم وتسعى له ، وهؤلاء المطرودون أحدثوا

يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعا كثيرة ، تراهم متفرقين متواكلين مبتدعين فيطردون عن الحوض . هذا بعض سر الكلام فى الحوض للورود .

ففز بعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وإذا أردت أن تعرف هذا من علوم البلاغة ، فهو من باب الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى ، فلازم المعنى هنا أن العلم لا نهاية له ، وأن من شرب من الحوض لم يظمأ ، لأنه فتح له باب العلم ، والنفوس الإنسانية أبدا تظمأ إلى معرفة الحقائق ، وهـذا حوض العلم والمعرفة والأسرار ، به تنال النفوس ما به تستعد فى الحياة وفى المعاد ، فظاهر اللفظ مقصود وباطن المعنى مقصود كقول الخنساء :

* طويل النجاد رفيع العماد * الخ

تريد أن حمالة السيف طويلة ، ويلزم ذلك أن يكون هو طويلا وبيته مرتفع العماد ويلزم ذلك أن يكون هو سيدا للملازمة بينهما ، وهذا أرقى من كتاب [كليلة ودمنة] الذى ظاهره باطل وإن كان محبوبا وباطنه هو المقصود للحكماء . أما هنا فالظاهر والباطن مقصودان .

ولنعرى أن أحاديث الحوض وقول بعض الصحابة : إن الكوثر الخير الكثير وما أشبه ذلك مما تقدم ليشوقن الناس إلى علوم الأولين والآخرين ، وليجمعن علوم السماء ونجومها ، والأرض وأممها ، والسياسات ونظمها ما دام القارئ يعلم أن ذلك من حكمة الله وآثار جماله ، وللمسلم الذى يبث هذه الحكمة وينشرها بين المسلمين هو الذى جعل خليفة لنبيه ، يرقى أبناء جنسه ، ويسعى لإسعادهم وإرشادهم ، وهاهنا يكون النصر ولا يكون إلا بعد أن يتجافى الناس عن أضال الملحدين والكافرين ، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه [سورة الكافرون] .

هاهنا يكون نصر الله والفتح ، ويدخل الناس فى هذه العلوم الحقيقية أفواجا ، وعلى حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها ، ورأوا للمسلمين تقدموا ونصروا العلم على الجهل فى العالم الإنسانى وأصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم رحمة للعالمين . متى رأى العلماء ذلك ، فليعلموا أن هذا هو النصر فى زماننا وهو الفتح ، وإذن فعلى القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه ، ويفرحوا باستقبال الموت ، ليردوا الحوض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم حكماء الإسلام أن المسلمين لن يقوموا بترقية نوع الإنسان إلا إذا شربوا من الحوض بالمعنى الذى فهمناه . أما الآن فإن المسلمين قلت علومهم وسيكثر فيهم المفكرون العارفون القارئون للعلوم الناشرون ، لما بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله من كتب المفكرين فى هذا الزمان .

إن ظاهر الحوض للجهال فلهم ظواهر العبادات ، ولهم فى الجنة ظواهر هذه اللذات من مسك أذفر ودر وجوهر وعسل مصفى ، هذه كلها موجودة يتمتع بها الجهال والعلماء ، وباطنه للحكماء والعلماء الذين يدرسون هذا الدين : أى يدرسون نظام الله فيقفون على فنون الجمال ، ويرون لذات متفننات لا حصر لها . أما لذات الجهال فمحصورة فى الحواس فى دنياهم وآخرتهم « ولله عاقبة الأمور » انتهى .

فصل فى الكلام على المقصود من هذه السور الثلاث وترتيبها

وما المقصود من [سورة النصر] خاصة ؟
زيادة إيضاح لما سبق

لقد علمت الكوثر وسره والمقصود منه ، واستبان لك ما فيه من علم ينشر وحكمة تذكر ، وأن الأمم الإسلامية سترد فى مستقبل الزمان حوض العلوم والمعارف ، وتغترف من كوثرها شرابا أبيض طعمه كالعسل دلالة على اللذات العلمية التى سيتحلى بها المسلمون بعد الموت ويوم القيامة ، ولن تكون اللذة هناك إلا بعد أن تذاق فى الدنيا ، وذكرنا هناك أيضا أن لكل فى الآخرة ما يوازى طبعه ، ويلائم منهجه ، ويناسب مشربه ؛ فذوو العقول النائمة والنفوس الصغيرة لا ينالون من الكوثر إلا ظواهره ، ففى الدنيا والآخرة لا يعرفون إلا اللذات الحسية ، ولا يدركون من الدين إلا الأمور الظاهرية ، فإذا صلوا فإنهم غافلون ، وإذا صاموا فإنهم ساهون ، وإذا حجوا فإنهم هائمون لا يدرون ما يفعلون ، فهؤلاء بعد الموت لا يحظيهم الله بسر خليقته ، ولا يطلعهم على محاسن حكمته ، بل يذرهم على اللذة الحسية عاكفين ، وعن جوار ربهم محرومين إلا فى فترات قليلة ، فلكل امرئ فى الجنة لذة على مقدار استعداده ؛ وذلك الاستعداد مبدؤه فى الحياة الدنيا ، هذه للمعانى بعض ما جاء فى [سورة الكوثر] ولا ريب أن النعم فى هذه الحياة الدنيا لا تنال إلا بعد الصبر والتعب والنصب والكدح والجد ، ولم يرسل الله نبيا أو مصلحا فى الأرض إلا سلط عليه ما يؤلمه من عدو مقيم ، وصديق لئيم أو مرض أليم .

ألا إنما العلوم مزارع تنبت فى النفوس الإنسانية ، وكما أن الأرض لا يحسن زرعها ولا يغزر ثمره فيها إلا إذا قلبت تقليبا وحرثت وعزقت وجعل ظاهرها باطنها وباطنها ظاهرها ليتخلل الهواء وضوء الشمس تربتها ويحللان أجزاءها ، إذ ذاك يحسن زرعها ويتم نضجه على أحسن منوال ، هكذا لا نبوة ولا إصلاح ولا أنبياء ولا مصلحين إلا بعد أن تهذب الحوادث والآلام نفوس الأنبياء والمصلحين ، وكلما ازدادت الآلام ازدادوا تجارب وعلما واستأهلوا للاكرام ، لجنات العلوم والعرفان كجنات النخل فى الرمان ، كلاهما لا رقى له ولا حسن فيه ولا جمال إلا بتقليب مغرسه وإعداده بحوادث وأعمال . لذلك جاءت سورة الكافرين بعد الكوثر كأنه يقال : إن النعم الكوثرية للأمم المحمدية لا تكون إلا مع الأهوال ومعاداة الأقران ، فإذا تبرأ صلى الله عليه وسلم من الكافرين وعبادتهم وأصبحوا معه على شقاق مع أنه أعطى الخير الكثير ، هكذا كل أمة وكل عالم وكل مصلح لا وجود لهم إلا والحوادث ترقيهم ، والأيام تؤلمهم ، والأعداء بالمرصاد يكشرون عن ناب ، وكلما ازداد الأعداء قوة ازداد الإصلاح كمالا ، وعلى مقدار الإصلاح تكون العداوات ، فإذا قهر العدو وتمت النعم هنالك يكون النصر ، ولذلك جاءت (سورة النصر) بعد ذلك ، فالنصر حتم للمصلحين بعد إيذاء الأعداء لهم وصبرهم ، ولكن النصر يعقبه فى العادة فرح ، والفرح من شأنه أن يحدث فى النفوس بطرا وإعجابا وتيها وغرورا ، لأن الإنسان حينذاك ينسى أن كل نصر فهو من الله ويخيل له أنه نال كل مناه وأن ذلك بقوته واجتهاده ، وفى الفرح أيضا مرض جسمى ، فكل حزن وكل فرح ضار بالجسم الإنسانى لاسيما المعدة فانها تتأثر بما يخرج عن العادة كطعام حار شديد الحرارة ، أو بارد شديد البرودة ، هكذا بالغم والهم ، وبالفرح تتأثر المعدة والجسم ، وكثيرا ما سمعناه أن من اشتد فرحه أو اشتد حزنه قد مات ، فهذا كله دليل على ما للفرح من الآثار فى النفوس ، فالفرح إن كثر وطغا يكون أشبه بشرب السكر ، والفرح

مذموم لوجوه، لأنه يضر بالجسم إذا أفرط، وبالمعدة وبالأخلاق، بهذا يفهم قوله تعالى: « إن الله لا يحب الفرحين » وذلك فى قصة قارون، فإذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » فإنما يقوله تعليما لنا وتهذيبا لنفوسنا.

يقول الله لنا الآن: إذ ظفرتم بنوا لكم، وفزتم بمطلوبكم، وقهرتم أعداءكم، وسلطتم عليهم فاحذروا من الفرح بل ادعوا هذه العوارض وارجعوا إلى ربكم بالاستغفار والحمد، لأن الفرح مضر بالروح، ومضر بالجسم ومضر بالخلق، واذكروا قولى « إن الله لا يحب الفرحين »، فإن ما فرحتم به ليس من عملكم بل هو من عملى وتقديرى، ألم أقل فى كتابى: « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » نهانا الله بهذا عن كل فرح كما نهانا عن كل حزن؛ فاذا نال العبد فوزه ونصره فليستغفر الله وليحمده، وليذكر أنه مقصر فى شكر هذه النعمة. وبالاستغفار يتوب الله عليه من ذنبه وهو التقصير فى الشكر. هذا من أسرار هذه السورة.

نصيحة

فعليك أيها الذكى أن تكون ملازما للاستغفار والحمد على نعمة النصر، وهذا حتما يزيل معالم الغرور والكبرياء والفرح: « إن الله لا يحب الفرحين » وبهذا تم الكلام على [سورة النصر]، والحمد لله رب العالمين،

تفسير سورة المسد

هى مكية

آياتها ٥ ـ نزلت بعد سورة الفاتحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ *

سبب نزولها

فى صحيح البخارى عن ابن عباس. قال: لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى: يابنى فهر، يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا

لم يستطع أرسل رسولا لينظر ماهو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقا ، قال فإنى لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ » وروى أنه أخذ حجرا ليرميه به فنزلت هذه السورة .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبت يدا أبى لهب) اليدان عبارة عن الجملة : أى هلك أبو لهب . وهى كنيته ، واسمه عبد العزى . والكنية وافقت حاله من حيث دخول النار يوم القيامة ، فهذه الجملة دعاء عليه ، ولذلك عطف عليه قوله (وتب) وقد حصل ذلك كما تقول أخزاه الله وقد فعل ، وفى قراءة ابن مسعود « وقد تب » (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم ينفعه ماله الذى ورثه من أبيه . والذى كسبه بنفسه ، ومن كسبه ولده . ويروى أنه كان يقول : إن كان مايقول ابن أخي حقا ، فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى (سيصلى نارا ذات لهب) أى سيدخل نارا ذات اشتعال ، وهى جهنم ، وقوله (وامرأته) هى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان : أى سيصلى نارا هو وامرأته (حمالة الحطب) أى حطب جهنم لأنها فى الدنيا كانت تحمل الأوزار بالسعاية بين الناس والنميمة ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحمل زوجها على إيذائه ، وكانت توقد نار الخصومة : أى حال كونها حمالة الحطب (فى جيدها حبل من مسد) أى حال كونها فى عنقها حبل من الحبال المفتولة فتلا شديدا سواء أكان ليفا أو جلدا أو غيرهما ، فهذا معنى المسد ، وهو مامسد أى فتل ويقال : رجل ممسود الخلق أى مجدوله . فالمعنى أنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون تحقيرا لها وتصويرا بصورة الحطابات لتجزع من ذلك ويجزع زوجها ، وهما فى بيت العز والشرف . وفى قراءة « حمالة » بالرفع : أى هى حمالة الحطب ، والجملة بعدها خبر ثان .

لطيفة فى الدعاية

فى هذه السورة مشروعية الإعلان فى الجرائد والمجلات وفى المجالس ، وذم وتحقير من يكون سببا فى إذلال المسلمين الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فهؤلا يحاربون بسلاحين ، سلاح القلم ، وسلاح اللسان ، ولقد عمت هذه الأمم كلها فاستعملوها للظلم . وترى ممالك أوروبا إذا أرادت استعباد أمة شرقية نشرت فى الجرائد أخبار السوء عنها لتمهد لملكها ، فانظر كيف أباح هذا الاسلام للذب عن الدين وأباحته أوروبا لظلم الأمم . فعلى المسلمين أن تكون لهم جرائد تذب عنهم ؛ وتحفظ سمعتهم ، وتذكر سوء أفعال أعدائهم ، ليفهموا الرأى العام مقاصدهم الشريفة ، وأعمالهم النافعة ، وهذه هى السماة دعاية انتهى تفسير [سورة المسد] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الاخلاص

هى مكية

آياتها ٤ — نزلت بعد سورة الناس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *

مقدمـــة

عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك؟ فأنزل الله «قل هو الله أحد».

وقال ابن عباس : إن عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عامر : إلام تدعونا يا محمد ؟ قال إلى الله : قال صفه لنا، أمن ذهب هو أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب. وروى نحو ذلك عن اليهود وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك ؟ لعلنا نؤمن لك ، فإن الله تعالى أنزل نعته فى التوراة ، فأخبرنا من أى شئ هو : وهل يأكل ويشرب . وممن ورث الربوبية ، ولمن يورثها . فنزلت هذه السورة :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل هو الله أحد) هو يعنى الذى سألتمونى عنه وعن وصفه الله هو أحد ، لأن العقلاء جميعا وأهل الملل اتفقوا على إله ، ولم يبق إلا البحث عن أكثر منه ، فما زاد عن الواحد مشكوك فيه يحتاج لدليل ، فهذا برهان الوحدانية ، والوحدانية ظاهر أثرها فى العوالم إذ العوالم كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا ، فهى كجسم ذى روح ، فالعالم نظام محكم تدبره قوة واحدة ، والقوى بذلك هو الله . والألوهية جمع صفات الكمال ، والوحدانية جمع صفات الجلال . فالألوهية بها يفاض الخير على المخلوقين ، والوحدة بها التفرد بالعظمة والحكمة والعلم والعزة والاستكبار (الله الصمد) والصمد إما الذى لاجوف له ، وإما السيد المصمود إليه فى الحوائج من صمد إليه إذا قصد له ، وإذا كان الله لاجوف له فهو لايلد ولا يولد ، لأن كل مالا جوف له ولا ولد له ولا والد كالأحجار ، والله منزه عن المادة وعن جوفها . وإذا كان هو المصمود إليه الذى هو المستغنى عن غيره مطلقا ، وكل ماعداه محتاج إليه فهو لايحتاج للولد ، لأن الولد إنما جعل ليعين الوالد، وهو غنى عن المعين ، فقوله (لم يلد) لأنه ليس من الجنس الذى يقبل ذلك ، وهو جنس الحيوان إذ لاجوف له لأنه

منزه عن المادة التي فيها هـذه الأوصاف ، أو لأنه متعال مستغن باق ليس يحتاج إلى ولد يخلفه أو يحيه . وكذلك يقال فى قوله (ولم يولد) فكما لا يحتاج إلى ولد لا يحتاج إلى والد ، إذ لا أول له ولا آخر (ولم يكن له كفوا أحد) أى ولم يكن أحد يكافئه . أى يماثله كالصاحبة والولد . انتهى التفسير اللفظى .

تذكرة

جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ٤ مارس سنة ١٩٣١ م مقال ملخصه : أن الإسلام مرفوع الرأس فى جميع الأقطار الآن فى الولايات المتحدة وكولومبياوشيكاغو . وقد صورت هناك صورة جماعة من الأمريكان وعددهم أربعة ، ولما سئلوا عن سبب إسلامهم أجابوا بأنهم قرءوا ترجمة القرآن فأدهشتهم سورة : «قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» وهى التى جعلتهم يسرعون إلى المحكمة الشرعية ليثبتوا إيمانهم بها . والمقال مطول : وعسى أن نكتبه فى اللحق إن شاء الله تعالى . انتهى تفسير [سورة الإخلاص] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الفلق

هى مكية

آياتها ٥ ـ نزلت بعد سورة الفيل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل أعوذ برب الفلق) أمتنع وأستعيذ برب الصبح أو المخلوقات ، لأن الفلق ما يفلق عنه : أى يفرق عنه ، ولا جرم أن كل مخلوق فلق الله ظلمة عدمه بنور إيجاده كما فلق ظلام الليل بنور الصباح (من شر ما خلق) أى من شر الذى خلقه أو مخلوقه ؛ فيشمل الكفر والظلم والمرض وكل ضار (ومن شر غاسق إذا وقب) ليل شديد الظلمة دخل فى كل شىء ، وذلك لكثرة المضار فيه . وفى المثل : «الليل أخفى للويل» (ومن شر النفاثات فى العقد) ومن شر الجماعات السواحر التى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها : أى ينفخن مع ريق ، وتخصيص ذلك لما روى أنه صلى الله عليه وسلم سحره يهودى فى إحدى عشرة

عقدة فى وتر وضعه فى بئر فظهر أثره فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرض ، فنزلت المعوذتان ، وأخبره جبريل عليه السلام بموضع السحر ، فأرسل صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه فقرأهما عليه ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة ، ثم إنه لم يكن ذلك قدحا فيه حتى يقال إنه مسحور كما قال الكافرون ، بل هم أرادوا أنه مجنون بواسطة السحر ، وهذا نوع من المرض لا تأثير فيه على العقل (ومن شر حاسد إذا حسد) الحاسد هو الذى يتمنى زوال نعمة الغير ، فإذا سعى بالفعل لإزالة النعمة فقد أظهر الحسد فلذلك أمر الله بالتعوذ منه ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من شر كل مخلوق ، وخص هذه الثلاثة بالذكر ، لأن ضررها أشد ، وختمها بالحسد لأن الحسد فاش فى جميع بنى آدم ، لا سيما فيمن جمعتهم جامعة نسب أو علم أو صناعة ، فهذه صفة لا يخلو منها أحد غالبا ، وإنما خص الحاسد باظهار حسده لأنه إذا لم يظهره ولم يعمل بمقتضاه فلا ضرر يعود منه إلا على نفسه بالحزن والغم للنعم المفاضة على غيره .

ولقد ورد فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى المعوذتين : ما تعوذ الناس بأفضل منهما . ومثله فى النسائى عن جابر .

صفة السحر

هو عبارة عن جف الطلعة : أى وعاء طلع النخل قد وضعت فيه مشاطة من رأسه صلى الله عليه وسلم وأسنان من مشطه ، وكان هناك وتر فيه إحدى عشرة عقدة . وكان مغروزا بالإبر ، وهاتان السورتان إحدى عشرة آية انحلت بكل آية عقدة . الفلق خمس آيات . وسورة الناس ست آيات . ويقال إنه صلى الله عليه وسلم اشتد عليه السحر ثلاث ليال ، ولما انحلت العقد كلها قام كأنما نشط من عقال .

الرقيا

فى صحيح مسلم « أن جبريل عليه السلام قال يا محمد اشتكيت. قال نعم، قال : بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك» اهـ .

تحقيق

لقد أنكرت طائفة هذه الأحاديث وجعلوها تحط بقدر النبوة ، وأن السحر الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يصنع الشىء وهو لم يصنعه مخالف للحقيقة من وجهين : أولا كيف يسحر النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا يوقع الريب فى الشريعة . وثانيا أن السحر لا حقيقة له . ورد ذلك آخرون قالين هذا السحر لم يتصل إلا بأمور عادية . فهى من نوع المرض والأنبياء مثلنا أكلا وشربا ونوما ويقظة وصحة ومرضا ، فإذا جوزنا نومهم فلنجوز سائر الأعراض ، وهذا من المرض الجائز على الناس ، ولم يتعد ضرره إلى العقل والوحى . ويقول هؤلاء : إن تأثير النفوس بطريق النفث وبلوغ الأثر قد يكون ولكنه قليل جدا ، وهذه الآيات والأحاديث تفيد أمرين: آثار النفوس على طريق الإضرار ، وآثارها على طريق الاصلاح . فلبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم آثاره الإضرار . والتعوذ بالمعوذتين كان أثره الشفاء .

العلم الحديث وهذه المسئلة

إن العلوم الروحية وظهورها فى العالم الآن قد أفادت الناس فوائد روحية كثيرة : فقد ذكروا أن بعض الأرواح تعين الأحياء ، وذلك لأن الإنسان له شىء يسمى (السائل المغناطيسى) وهذا السائل تمزجه الروح بسائل عندها يشبه أشبه بالكهرباء والمغناطيس ونحوهما ، ومتى مزجت سائلها بسائل الحى عادت فوائد كثيرة من شفاء أمراض ، ومن إحداث أعمال ، كظهور أنوار ، وتحريك موائد ، ورفع الكراسى ، وزلزلة المنازل ، وهذه الأعمال إن كانت من أرواح شريرة كانت للاضرار ، أو السخرية من الأحياء وإن كانت من أرواح خيرة كانت للتعليم وإفادة الأحياء . ولقد جاء فى كتب الأرواح مالا حصر له فى هذا الموضوع وهذا العلم منتشر فى جميع أصقاع أوروبا وأمريكا . فإذن تكون هاتان السورتان من عجائب القرآن . فإن ماظهر فى علم الأرواح يشبه أن يكون معجزة للقرآن . وإلا فكيف يذاع هذا العلم وفوق ذلك كيف يقوم الأطباء اليوم ويأمرون المرضى بأن يوجهوا نفوسهم إلى اعتقاد أنهم أصحاء . وقد عملوا تجارب كثيرة فى ذلك ومنهم من يأمر المريض أن يكرر كل يوم فى نفسه هذه الجملة عدة دقائق : «أنا لامرض فى ، أنا صحيح الجسم» أو نحو ذلك ، فلا تمضى أيام حتى يشفى ، وخص بعض الأطباء هذا بالأمراض العصبية ، وبعضهم عممه ، وقد عملت تجربة لتأثير النفس ، وذلك أنهم جاءوا بمن حكم عليه بالإعدام وربطوا عينيه ، وأوهموه أنهم قد قطعوا رأسه ، فأنزلوا ماء حارا على رقبته وأوهموه أنه الدم فمات فى الحال ، وهكذا تجارب من هذا القبيل وهذا دليل على آثار النفس ، وفى التنويم المغناطيسى فى هذا المقام مالا يتناهى ، وهو ممثل على المراسح ، فإنك متى أنعمت إنسانا فى أى درجة من درجاته فإنك تجد أثرا ظاهرا ، فترى النوم (بالكسر) متى أمر النوم بأمر حدث ما أمره فيه ، وذلك بمجرد اعتقاده ، فاعتقاد النوم (بالفتح) يحدث الأثر فيه من حزن وفرح وقوة وضعف ، لأن روحه تفرغت قواها كلها لإحداث الآثار فى نفس جسمها لأنها خاضعة لإشارة النوم ، وهذا العمل مستفيض عند كل من زاوله ، فتوجيه النفس لآثارها معلوم مستفيض ، والحب والبغض آثارهما فى النفوس ظاهر ، حتى إن من توجه قلبه لإنسان بالمحبة أحس ذلك الإنسان لا محالة بذلك الحب نحوه ، وهكذا فى حال البغض .

هذا ما عن لى فى هذا المقام ، وبهذا تم الكلام على (سورة الفلق) ، والحمد لله رب العالمين ، كتب فى ٥ رجب سنة ١٣٤٥ هجرية .

تفسير سورة الناس

هى مكية

آياتها ٦ - نزلت بعد سورة الفلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلٰهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ *

التفسير اللفظى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أعوذ برب الناس) أى مربيهم ومصلحهم (ملك الناس) مالكهم ومدبر أمورهم (إله الناس) معبودهم (من شر الوسواس) أى الشيطان ذى الوسوسة ؛ وهى الصوت الخفى (الخناس) أى الذى عادته أن يخنس ، والخنوس التأخر ، وذلك أن الشيطان إذا ذكر الله خنس وولى ، وإذا غفل رجع ووسوس إليه ، وقوله (الذى يوسوس فى صدور الناس) صفة ثانية للوسواس ، وقوله (من الجنة والناس) بيان للذى يوسوس ، فإذن الشيطان ذو الوسواس قسمان : جنى ، وإنسى . قال تعالى : « شياطين الإنس والجن » .

ثم إن [سورة الفلق] مبدوءة بذكر رب الفلق ، وهم الخلق كلهم كما تقدم ، أو الصبح الذى به تظهر الأنوار وتزول الظلمات ويتجلى كل شىء للأبصار ، فالذى أزال الظلمة بالنور قادر أن يذهب شر خلقه كلهم ، لا سيما الثلاثة المذكورة ، وها هنا ابتدأ بأنه رب الناس ، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغوائهم ووسوستهم للاضلال ، فكل سورة بدئت بما يناسب ما يستعاذ منه فيها عموما وخصوصا .

عجائب سورة الفلق والناس

وأسرارها من العلوم الحديثة الروحانية فى أوروبا

اعلم أن هذا القرآن جاء لتعليم الأمم على مدى الأزمان ، فكم فيه من آية يقرؤها الناس ولا يجسرون أن يبحثوا عن حقائقها ، ذلك لما وقر فى النفوس أن ذلك فوق طاقة البشر ، مع أن القرآن لو لم يكن فى طاقة البشر فهمه ما أنزل إلينا ، نعم الناس يختلفون فى الفهم « وفوق كل ذى علم » فللناس من القرآن ومن هذا الكون ما تسمه عقولهم ، فهاك ماعثرت عليه من القديم والحديث فى سر هاتين السورتين فأقول :

اعلم أن الأرواح الإنسانية المجردة من المادة بعد موتها ، والتى هى ملابسة المادة فى الحياة لها خواص كما للعقاقير الطبية وكما للنبات ، وكما أن لكل نبات طعما ولونا ورائحة سواء أدركها الإنسان والحيوان أم لا ، هكذا لكل روح خاصية لا يشاركها فيها سواها ، وهذه الخاصية يعبرعنها عند علماء الأرواح بالسائل المغناطيسى ، وهذا السائل شىء لانعرفه نحن على الأرض إلا بآثاره . والآثار قسمان : قسم فى داخل أجسامنا ، وقسم فى الخارج ، فإذا تصورنا صورا رديئة ، أو آراء خبيثة ، أو اتصفنا بصفات محزنة كالرياء والكبر والحسد والبخل والعجب والكراهة وعدم حب الخير للناس كان من ذلك سوائل تشع من أرواحنا وتلك السوائل تؤثر أثرين : أثرا فى نفوسنا ، وأثرا فى الخارج . أما الذى فى نفوسنا فإن تلك الصور تضايقنا وتؤذينا بالكدر والغم ، ولو كشف الحجاب للناس واطلعوا على تلك الصور لرموا صاحبها بأقبح الذم ، ولتركوه فريدا وحيدا ، وهذه الصور هى أنفسها التى تظهر فينا بعد الموت فتجعلنا فى خجل وألم وافتضاح وهو المعبر عنه بعذاب الخزى الذى أجمع المفسرون أنه أشد من عذاب النار . وأما الأثر الذى فى الخارج فأنفه ما تتأثر به المجالس التى تكون فيها ، فإن هذه الصور والسوائل الناتجة عنها يحس به الجلساء الصالحون فينفرون ويكرهون تلك المجالس ، ويقوم كل امرئ مقبوض الصدر من المجلس ، ذلك لعدم الائتلاف

واختلاف الوجهة والأغراض ، فأقل الأضرار منها إيذاء الذين يجالسونها ، وفوق ذلك الإصابة بالعين فما هى إلا رمية من نفس شريرة شديدة الإيذاء ؛ فيخرج منها ذلك السائل السام فيؤذى المعيون كما يتراشق الناس بالسهام والحراب ويقتل بعضهم بعضا ؛ وأقواهم سلاحا أقتلهم لغيره ؛ وما السحر إلا قوة من تلك القوى الشريرة كمنت فى النفوس ، ويمكن استخراجها بالمران ، والمران هو الأعمال السحرية حتى تألف النفس الشر فتصيب به إصابة كإصابة العين . هذا وصف الأنفس الشريرة .

الأنفس الفاضلة

وبعكس هذه الأنفس أنفس أخرى خلقت للخير ، لأن القاعدة واحدة ، الله واحد والعالم كله مخلوق زوجين : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » فالأنفس زوجان : زوج هو للشر ، وزوج هو للخير . فهذه النفس الخيرية تنبعث منها أشعة مفرحة سارة ، فأما فى داخلها فتكون صورا جميلة حتى إذا مات الإنسان كانت له زينة وجمالا وبهجة لا تتصورها الآن . وأما فى خارج الأجسام فإنها تؤثر فى الهواء المحيط بها وفى عالم الأثير وتشرق على النفوس المحيطة بها فتنتعش وتسر وتفرح ، وذلك ظاهر فى المجالس التى فيها نفوس صالحة طيبة تعظ الناس بألفاظ جميلة بشرط أن يكون القلب حاضرا ، إذ لا تأثير إلا لتلك الأشعة الخارجة من القلوب الجميلة ، وهذه السوائل كما تؤثر فى أجسامها صحة وسرورا تؤثر فيمن حولها ، ولافرق فى ذلك بين الأرواح التى خرجت من أجسامها وأحاطت بالناس فى كل مكان ، والأرواح التى هى فى الأجسام الآن لأنه ثبت أن أرواح الأحياء وإن كانت محبوسة الآن ليست قاصرة على أجسامها بل لها آثار فيمن حولها ، لأن الناس جميعا بينهم صلة وهم لا يشعرون إلا قليلا . ثم إن هذه النفوس الصالحة تحدث آثارا صالحة فى الشفاء وذلك أن الجراثيم الطبية المنتشرة منها إذا صحبتها الإرادة ووجهت إلى مريض فان المغناطيسية تخرج من هذه النفس الشريفة وتتجه إلى النفس المريضة وتحلل مافيها من جراثيم المرض وتضع فيها بدلها جراثيم الصحة وذلك إما حالا وهو نادر جدا ، وإما ببطء وهو الأهم الأكثر ، وذلك الفعل أشبه بالكهربائية فتخرج عناصر الشقاء من يدالصالح كما تخرج الكهرباء وتحتاج إلى زمن حتى تتم فعلها ، ولكن ليس هذا فى كل مرض ولا لكل إنسان ، بل هو خاصة طبيعية لاخارقة للعادة تظهر فى أناس وتختفى فى أغلب الناس ، وهناك عوامل فى ظهورها مثل نية هذه النفس الصالحة وقوة إرادتها وانفعال النفس التى تريد شفاءها ، وهكذا أحوال وشروط أخرى لا يعلم الإنسان تفصيلها ، ويذكر علماء الأرواح أن فى الناس فى عصرنا الحاضر من يستطيعون شفاء المريض بمجرد وضع اليد ، وذلك لكثرة ممارستهم ولقوة إرادتهم كما روت المجلات الروحانية عن رجل وقف حياته على شفاء الناس ، فإنه يصنع بين شعوب الجزائر ما تعجز عنه الأطباء وقد بالغوا حتى قالوا إنه أزال الله على يديه نيفا وعشرة آلاف بياضة فى العين ، وهو لا يأخذ أجرة على ذلك ، هذا كلامهم ، ونحن لا نصدق ولا نكذب ، وإنما نكتب هذا لبيان رأى النوع الإنسانى الذى يناسب هاتين السورتين .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأنبياء وجميع المصلحين يبتلون بأعداء . ولما كان الإنسان مركبا من جوهرين مادى وروحانى ابتلى الأنبياء والمصلحون بأعداء ماديين بحرب وأذى وذم ، وأعداء روحانيين بأن يريدوا إصابتهم بالعين ، أو بقوة الإرادة ، وهو المسمى سحرا ، أوما أشبه ذلك ، وهذا كله لم يخرج عن كونه قوة فى النفس كامنة شريرة لإيقاع الأذى إذا أمكن ، فكما غلب الأعداء الماديين بالحجة والعلم والسيف وقهرهم هكذا يجوز أن يسلط عليه الحاسد والنافق والعائن الذى يرمى بالسائل الضار ، وهكذا الساحر الذى

يخرج منه هذا السائل بالتمرين وقوة الإرادة ، فإذن أصبح العلم واضحا كل الإيضاح ، ولا فرق بين سيال خارج من النفس لإيذاء الجليس باختلاف للشارب والعين التي تصيب بعمل الشر والسحر ، فكل هذه من واد واحد ، فكراهتك لعمرو وبغضك له ومخالفتك لآرائه وعدم الالتئام معه مبدأ شر من النفس يؤذي الجليس وإن لم يتخذ يدا ولا لسانا ، وفوق ذلك الإصابة بالعين ، وهكذا السحر الذي يرجع لقوة إرادة الشر بواسطة أعمال تعين على ذلك ؛ وهذه القوى كلها تطيع أمام النفوس الشريفة فلا أثر لها ، وكما يغلب الأنبياء المحاربين بالسيف يغلبون المحاربين حربا نفسيا ، ولا يكون ذلك إلا بتوجه النفوس الشريفة لدفع الأذى عنها إذا أصابها .

واعلم أن أذى النفوس الإنسانية التي على وجه الأرض بالتوجه للشر أصبحت اليوم نارا على علم . إن إصابة النفوس الشريرة هي التي خربت الشرق ، فإن أوروبا سلطت النفوس الشريرة على أهل الشرق فأصابوهم وكبلوهم وأناموهم ، ولعلك تقول : لقد دخلنا في علم الخرافات ، فأين السحر وأين الإصابة بالعين لأمم الشرق اليوم ! أقول على رسلك وانظر معي ، أتظن أن أهل الشرق ناموا وجهلوا من غير شيء ؟ ألم تر إلى جرائد أوروبا وإلى مصنوعاتها ودعايتها التي ملأت الخافقين ، ألم تر أن أهل أوروبا يرسلون طلائع من المبشرين بالدين المسيحي ، ويجوسون خلال الديار ، ويذمون في الدين الإسلامي ، ألم تر أنهم يشيعون أن هذا العصر ليس عصر الأديان ، ألم تر أنهم ملئوا الشرق بالمصنوعات حتى خلبوا عقول الشرقيين ، ثم سلطوا للدافع عليهم ، ألم تر أنهم ينشرون لغاتهم ومقصدهم منها جذب قلوب الناس إلى حضارتهم ؛ حتى إذا تمكنوا منهم قتلوهم ، ألم تر أنهم فتحوا مدارس في الشام وحببوا إليهم بعض النفوس حتى كانت الحرب الكبرى ، وكان حب فرنسا قد تمكن في القلوب ، حتى إذا ملكت سلطت عليهم النار الحامية والذلة والإهانة كل ذلك نوع من السحر ، فالسحر ليس قاصرا على توجيه الهمة ، فإن توجيه الهمة نادر الفعل . فأما تسليط اللسان والقلم فإن القلوب تنفعل انفعالا شديدا ، وقد قدمنا في [سورة البقرة] أن من أنواع السحر ما يكون بالألفاظ ، وهو ما تستعمله أوروبا الآن ، فالآثار التي تقع في القلوب إذن على قسمين : قسم عام وهو الدعاية الأوربية الآن ، ونظيرها ما كان يفعله أبو لهب ؛ فنزلت السورة إسقاطا لدعوته وذمه ، وهذا هو الدواء الشافي من سقام العدو الذي سلط لسانه وقلمه ، فنرسل في العالم دعوة لصد تياره ولا نسكت ، وقسم خاص وهو ما يكون بتوجيه النفوس الشريرة ، وهذا أمره أسهل فقد كشفته الروحانية الحديثة وجاء به القرآن في [سورة الفلق والناس] ودواء ذلك الالتجاء إلى الله تعالى ، لأن الناس ليس في استطاعتهم ما هو فوق ذلك ولو أن الأمة الإسلامية لما سمعت أن أوروبا تنشر في الشرق مدح أمها وذم الشرق ودينه سكتت وقالت « قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد » لخسرت الدنيا والآخرة ، لأن هذا غرور لم يقل به القرآن ، فالقرآن قابل دعاية الشر بدعاية الخير . وذم أبا لهب كما ذم هو النبي صلى الله عليه وسلم . فإذا سمع الشرقي ذم الغربي له ونشر فضائله هو ثم سكت وقال توكلت على الله فهو مغرور جهول ، لأن التوكل لا معنى له إلا أخذ الحيطة في كل شيء على مقدار الطاقة البشرية . ونكل ما فوق طاقتنا إلى الله ، وهذا هو السر في ذكر (سورة المسد) و (سورة الإخلاص) .

يقول الله لنا : إذا رأيتم الأعداء ينشرون الدعاية لهم ويعادونكم فقابلوهم بالمثل ، فلا يغل الحديد إلا الحديد . وهذا مقصود (سورة المسد) ، ثم جاءت بعدها (سورة الإخلاص) لتثق بأمر الله ناصرنا متى قمنا بعملنا خير قيام ؛ فأما مالا قوة لنا على دفعه بيد كما في (سورة النصر) ولا بلسان ولا قلم كما في (سورة المسد) .

فلا ندفعه إلا بالاستعانة بالله وبالرقيا المذكورة فى السورتين التى جاء بصدقها العلم الحديث .

أفلا ترى بعد هذا أن مايقوله الإمام الغزالى فى الإحياء منطبقا على ماقلناه إنه جعل أن الذين يرقون ويتكلون على الرقيا غير متوكلين على الله . بل هم مخرفون ، وله الحق لأن الرقيا إذا أعيتنا الحيل . فأما ما كان له دواء معروف مقبول مظنون النتيجة فلنستعمل دواءه . ثم إن الرقيا ليست تنفع من كل أحد . وإنما هم قوم يقل وجودهم ، وبهذا عرفت الحقيقة فالزم .

ويؤيد ما ذكرته لك هنا ماذكره الشيخ أبو بكر المعروف بابن القيم الجوزية فى كتاب [الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى] وإنما أذكره لك هنا لتعلم كيف يتفق القدماء والمحدثون على ما فصلناه فى هذا المقام ، إذ ترى آراء هذا العلامة هى بعينها آراء علماء الأرواح فى العصر الحاضر ، وإنى أحمد الله عز وجل إذ أفاض من بحار العلم على الأمم الإسلامية والأمم الإنسانية حق طابقت جميعها القرآن . وهذا ملخص ما يقوله ذلك العلامة :

جاء فى أول الكتاب المذكور ما ملخصه : إنه قد جاء فى صحيح البخارى « أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » وفى حديث مسلم نحوه ، وهكذا فى مسند الإمام أحمد ، واستثنى منها الهرم ، ثم عمم الشيخ الداء فجعله يشمل الداء الجسمى والداء الروحى ، والقرآن شفاء لداء الجهل .

وذكر أيضا ما ثبت فى الصحيحين أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لاينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعل عندهم شيئا ينفع ؟ فلما كلموهم قال بعضهم : أنا أرقى ، ولكن يكون ذلك بجعل ، فجعلوا لهم قطيعا من الغنم ، فطفق يتفل ويقرأ « الحمد لله رب العالمين » فكأنما نشط من عقال ، فأعطوهم ما صالحوهم عليه ، ثم توقف هؤلاء النفر فى هذا القطيع حتى رجعوا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ذلك ، فقال وما يدريك أنها رقية ؟ ثم قال قد أصبتم اقتسموا واضربوا لى معكم سهما . انتهى الحديث ملخصا .

ثم ذكر ابن القيم ما يوافق ما قاله علماء الأرواح ، فشرط أن يكون الذى يرقى حاضر الهمة ، وأن المرقى يكون فيه قبول لذلك . ثم تكلم عن الدعاء فقال إنه يدفع المكروه إذا كان الداعى حاضر القلب متوجه الهمة فتكون الدعوة كالسهم القوى القاصد مرماه ، ويشترط ألا يأكل الداعى حراما ، وألا يدعو بما هو غير جائز ، وأيضا يجب أن يوقن الداعى بالإجابة كما ورد فى صحيح الحاكم .

ملخص ما ذكرناه هنا عن علماء الأرواح مع زيادة

(١) إن النفوس سواء أكانت فى أجسامها أم مجردة عنها لها خواص متعددة .

(٢) تشع منها أشعة أشبه بالمغناطيس أو الكهرباء فيما يحيط بها من الأثير .

(٣) وهذه الأشعة مختلفة كاختلاف روائح النبات وألوانه ومنابعها العطف والخوف والحب والغضب وأمثالها ، ونتائجها البسط والقبض والجذب وما أشبه ذلك .

(٤) والفكرة يظهر أثرها فى الخارج إما بالسيف والعصا ، وإما باللسان ، وإما بآثار جارية فى نفس الأثير ، فللأول الحرب وإقامة الحجة ، وإليه الإشارة بسورة النصر ، وللثانى إذاعة الفكرة بإعلان الحق كما فى (سورة اللهب) ، وللثالث التوجه إلى الله بالدعوات ، وإليه جاء (سورة الفلق) و (سورة الناس) .

(٥) والقسم الثالث المذكور ، وهو الذى يكون بمجرد الأرواح بلا مساعد من لسان أويد شبهوه بما نرى من الطين أو السفنج إذا أحاط به الماء ، وبالأجسام الصلبة التى لا يجد الماء سبيلا إلى ولوجها ، فالأرواح الإنسانية والأرواح التى فارقت أجسادها تملأ الأثير ، وكل من شاكلها تشرب بعشيرها ، وهو المعبر عنه وسوسة أو إلهاما ، وهذا أمر أشبه بما نرى من وقوع الذباب على الجسم القذر ، فللمناسبة تم ذلك ، ومتى نظف الجسم لم يقع عليه الذباب ، فعقولنا على هذا النمط يؤثر فيها من يكون من أمثالها ، وهذا التأثير طبيعى بحيث لا يمكن رده متى تمت المناسبة ، وهذا التأثير (قسمان : الأول) تأثير بالضرر كما تقدم فى العين وإصابتها والنفوس وانقباضها وتأثير المرض (والثانى) تأثير بالآراء الضارة والوسوسة ، وللأول (سورة الفلق) ، وللثانى (سورة الناس) .

هذا ملخص هذا المقام الذى جمع فيه العلم القديم والعلم الحديث والقرآن . فهل لك أن أذكر لك حادثة جاءت فى الجرائد المصرية فى هذا المقام نقلا عن بريد أوروبا ، وهذا نصها :

علاج النفس بواسطة الإرادة

نقلا عن جريدة (الديلى كرونيكل)

« لست من دعاة التنويم المغناطيسى »
(اعتقد أنك مشلول تكن مشلولا ، واعتقد
العكس تكن العكس) — (كو)

للسيو (كو) أستاذ فرنسى برع فى تطبيق نظرية طبية كانت ولا تزال منتشرة فى انجلترا وأمريكا ، ولها أنصار ودعاة ، غير أن الأستاذ الفرنسى المذكور له الزعامة عليهم جميعا ، وربما رجع ذلك إلى أنه تلوح عليه سيماء الناسك الذى يروض إرادته ، فتراه تنبعث من لهجته جاذبية سحرية ، هذه النظرية تتلخص فى أن أى إنسان كائنا من كان فى استطاعته أن يتخذ من إرادته دواء لكل داء ، وإن كان سواء يزعم أن الإرادة قد تستخدم فى مقاومة سريان عدوى الحميات ومنع الالتهابات ، وهو يعتقد بإمكان تطبيق هذه النظرية على جزء من الأمراض بشرط أن تكون هذه الأمراض غير عضوية وإلا فإنها خارجة عن دائرة فاعلية الإرادة ، ولكن الجماهير التى تعود أن يلقى عليها المحاضرات ويجرب أمامها التجارب تعزو إليه ما يعزى إلى الرسل والقديسين .

ألقى الأستاذ (كو) فى أواخر شهر مارس الماضى بلندن سلسلة محاضرات تتخللها تجارب ، قال من أجريت فيهم إنها عادت عليهم بالعافية والصحة أحيانا وبالشعور وبالرضى والارتياح والأمل فى الشفاء أحيانا أخرى . ومما نصح به الجمهور معلما إياه كيف يخلق الإنسان من نفسه طبيبا قوله : « إن كلا منكم يجب عليه أن يكرر العبارة الآتية فى كل ليلة . وفى كل نهار عشرين مرة بهدوء وبيطء : وهى فى كل يوم رغم كل اعتبار ازداد تحسنا .

وقص عليهم حكاية يؤيد بها زعمه . قال : دخل مستشفى (نانسى) فى يناير سنة ١٩١٢ م صبى يشكو ضعف القلب (الذبحة القلبية) واختناق التنفس ، فكان لا يكاد ينقل رجليه المثاقلتين بضع خطوات حتى يقف ربثما يتنفس . فأعيى الأطباء ، وخرج فى فبراير فى مثل حالته الأولى . ثم إنى عدته بعد ذلك

وأمرته أن يتبع النصيحة السابقة موهما إياه أنه إن عمل بها شفى بعد يومين . فلما كان اليوم الثالث عدته فإذا صحته قد تحسنت ، فأمرته أن يتابع علاج نفسه بنفسه ، فما مضت ثلاثة أسابيع حتى استطاع أن يمشي دون أن ينقطع تنفسه وأن يصعد السلالم ، ولم يأت شهر أكتوبر إلا وهو يلعب كرة القدم ويركب الدراجة لا يشكو من شيء . إذ السر هو أنك إن اعتقدت أنك مشلول تكن مشلولا ، وإذا اعتقدت العكس تكن العكس .

بقي أن المهم في أمر (المسيو كو) هو أن الجمهور قد يتوسع في تفسير تعليماته فتكون النتيجة من حيث الصحة الفردية والصحة العامة سيئة ، وعلى كل حال يجدر بالإنسان أن يحقق تجاربه أمام ضميره أولا ثم أمام خاصة العلماء ثانيا . فإذا أقروها أو عدلوها أو أنقصوها فليتناولها بعدهم صغار الفنيين لتكون وسيلتهم في خدمة الجمهور اهـ .

***

هذه حادثة واحدة من آلاف الحوادث والعلم في أوروبا . ولست أقول إن هذا الطبيب صادق أو هو كاذب . أنا لست في هذا المقام . إنما أنا في مقام تحقيق العلم . وكيف جاء علماء العصر الحاضر يقولون : إن قوة الإرادة لها الأثر العظيم في شفاء بعض الأمراض : إذن المعوذتان وجعلهما رقية أمر جاء العلم الحديث يبحث في تحقيقه ويقفوا أثره ، فإذن يكون ذلك من معجزات القرآن ، أو من عجائبه .

فاذا قرأت في حديث البخاري ومسلم «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم ينفث فيهما فيقرأ : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات» .

إذا قرأت ذلك فيهما فاعلم أنه إنما يفعله ليستعيذ بالله مما لا قدرة له على دفعه بيد أو بحجة ؛ بل من الأشياء الخفية ، وهذا هو عين التوكل كما قدمناه ، فالتوكل إنما يكون باستعمال كل ما يمكن من أعمال الجوارح في درء الخطر والالتجاء إلى الله ، فيما لا قدرة لنا على رده . فأما الخلط بأن نقرأ المعوذتين ، (أو سورة يس) مثلا إذا أحدق العدو بالبلاد ، أو كسلنا عن ترقية بلادنا واتكلنا على الله ، فهذا هو الجهل الفاضح ، وإني أحمد الله إذ استوفى هذا المقام .

إن الإسلام جاء لأمم كثيرة ، وهذه السور متممات لأمور أظهرها العلم الحديث ، فسبحان من أنزل القرآن وأتى فيه بشيء مبهم أظهره الكشف الحديث ، وإلى هنا تم الكلام على (سورة الناس) والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه كتابة تفسير القرآن المسمى (بالجواهر)

صباح يوم الثلاثاء ٢١ شهر المحرم سنة ١٣٤٤ هجرية — ١١ أغسطس سنة ١٩٢٥ ميلادية بشارع زين العابدين قسم السيدة زينب بمصر المحروسة .

خاتمة الطبع

بحمد الله وحسن توفيقه قد تم طبع (تفسير الجواهر)
لفيلسوف الإسلام الشيخ « طنطاوى جوهرى »

مصححا بغاية الدقة بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ
« أحمد سعد على » بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
وذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة ١٣٥٠ هـ

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى

تقاريظ

١ — تقريظ العلامة عبد الحسين زين الدين القمى

الأستاذ بالجامعة العلمية بقم (إيران)

سيدنا الأستاذ العلامة فيلسوف الإسلام الشيخ « طنطاوى جوهرى » متع الله المسلمين ببقائه . تحية وسلاما : نشكركم جزيل الشكر على ماتقومون به من **الواجبات** الدينية بنشر الحقائق الإسلامية وإظهارها بمظهر ملائم للعلوم العصرية ، فقد كانت الأمة الإسلامية **فى الأمس** وقبل الأمس فى أمس الحاجة إلى تفسير يناسب روح العصر ، ويكشف الستار عن أسرار القرآن ، ويميط اللثام عن محياه ، ويفسر غوامض الكون بتفسير الذكر الحكيم ، فقد كانت حقائق القرآن رغم ما كتب له من التفاسير لا تزال تختبئ تحت الستار ، وكانت التفاسير التى تحوم حول حقائق القرآن إلى التصورات الباطنية أشبه منها إلى الحقائق الاجتماعية والعلمية ، وقد انقضى ذلك العهد ، فإن بيان كل عصر وزمان نتيجة عوامل تناسب تلك الظروف والأحوال ، والمسلمون بحاجة إلى تفسير يحلل قواعده وحقائقه العلمية ، إذن فلا غرو إذا كان الإقبال على تفسيركم الشريف عظيما فإنكم أنتم المقر والعلم فى العلوم الإسلامية والكونية ، وقد أخذ هذا التفسير مأخذا عظيما من الأهمية فى (إيران) ولا سيما الجامعة العلمية الدينية التى أسست بقم التى نوهنا عنها فى بعض الصحف العربية سابقا ، وقد كانت العلماء والخطباء لايزالون يشيرون إلى بتقديم وافر تحياتنا وتحياتهم إلى حضرتكم تقديرا لخدمتكم ، فضممنا صوتنا إلى صوتهم إقامة لتلك الوظيفة مبتهلين إلى الله عز وجل أن يديم على أرجائكم ظل عناياته وألطافه ، ودمتم موفقين لخدمة العلم والدين . وفى الختام نرجو إخباركم لنا بأسهل طريق يمكننا من طلب هذا الكتاب من مصر من حضرتكم ، أو من المكتبات ، أومن الناشر وكيفية ايصال الثمن ، فنحن بأسرع حاجة إليه ، فالأمل الوطيد الإسراع فى إرسال الجواب فى أول زمان يمكنكم من دون تأخير كى نفتخر بمكتوبكم الشريف ، ويسهل لنا السبيل لمطالبة الكتاب مصحوبا بقيمته ، كما نرجو تعيين قيمته وتسعيرها بالنقود الإيرانية الحالية ، ودمتم ؟

المخلص

عبد الحسين زين الدين القمى

* * *

وقد أجاب المؤلف على ذلك بذكر فضل الأمة الفارسية على أمة الإسلام قديما ، فلا بدع إذا كان الأبناء يحذون حذو الآباء . وقد توجه إلى مقابلة صاحب السعادة (ميرزا جواد بك خان) الوزير المفوض لدولة إيران مع الأستاذ محيى الدين الكردى ، فوجد أنه : أى الوزير يشارك علماء إيران فى حب التفسير وذكر أن مقابلته تركت فى نفسه أثرا حسنا ، وأنه أى الوزير وعد بأنه يساعد أهل بلاده فى تسهيل الطريق لوصول التفسير إليهم .

هذا ملخص إجابة المؤلف على هذا الخطاب ، والإجابة برمتها مذكورة فى كتاب المؤلف المسمى « التاج المرصع » لخصناها هنا ليتم بها المقام .

٢ – تقريظ العلامة هاشم منصور نقى زاده

من علماء تبريز (إيران)

صاحب المعالى الأستاذ الحكيم الشيخ « طنطاوى جوهرى » أدام الله أيام إفاضاته السنية بعد تقديم التحية والاحترام ، نفتخر أمام أمم العالم بأن تجلى فى عالم الإسلام حجة الإسلام الثانى (الغزالى) وقام من الشرق العربى بمصر للظهر الأكبر لأعظم آثار الفيلسوف الشهير « خواجة نصير الدين الطوسى » : أعنى نابغة الشرق الأستاذ الحكيم والمفسر الجليل الشيخ (طنطاوى جوهرى) أعز الله الإسلام بطول حياته ، وبعد أن اطلعنا على التفسير المقدس لحضرتكم العلية (الجواهر) صممنا العزم على ترجمته إلى اللسان الفارسى الجذاب ، حتى يطلع المسلمون من أهل إيران على وجود تفسير جامع كبير . وبهذا ابتدأنا بترجمة تفسير سورة الفاتحة المباركة (الحمد لله رب العالمين) ونشرنا جزءا من تلخيص تفسيرها الجلى . وهذان جزءان منها لقد أهديناها لمقامكم الرفيع ونشكركم على الخدمة المهمة للاسلام مطلقا فى هذا العصر المضىء فى الظاهر ، المظلم فى الباطن . لاسيما فى الشرق ، ونلتمس من الله القادر أن يوفقكم لإصلاح الجامعة الإسلامية بإيقاظ علمائها كما قال أعظم الرجال الأستاذ الكبير (السيد جمال الدين الأفغانى) : لا يصلح الشرق إلا بعد تيقظ العلماء .

جزاكم الله عن الإسلام خير الجزاء ، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ومن السعادة أن سلطان الوقت لإيران مولع بنشر المعارف ، وناصر للعلماء الناصرين الحقيقيين لدين الإسلام الخالص المنزه عن الخرافات وقد ألقى حكما جليلة بتأسيس مدرسة العلوم الدينية العصرية . وأسس صاحب الفخامة وزير المعارف مدرسة عالية فى مركز مملكة إيران (طهران) وفى سائر الإيالات ، وعدد السنة دورة خامسة لطلاب العلوم الدينية فى المدرسة المذكورة : ونحن واثقون من الله بتأييده للحقيقة . ونرجو أن تؤثر نصائحكم وخطبكم البليغة فى عالم الإسلام .

وبعد ترجمة تفسير (سورة الفاتحة) المباركة وانتشارها أخذ أحد وعاظنا الكرام وهو الحاج الميرزا على أكبر الواعظ العزيزى الشهير الناطق الفصيح المندرج اسمه فى ختام ترجمة سورة الفاتحة تحت عنوان (الاعتذار والامتنان) بتقريظ تفسيركم (الجواهر) وتحريض المسلمين الحاضرين والغائبين على قراءة الترجمة الفارسية للفاتحة ، وقد حسن فى نظر الجمهور العام استحسانه وتمجيده تفسيركم ، وكان هذا فى يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ١٣٥١ هجرية فى المسجد الجامع المملوء من جم غفير من الأهالى والأشخاص المحترمة من الأفاضل ورجال المعارف ، ولازال يمجد تفاسيركم على المنبر والمواضع التى تقتضى ذلك ، حفظه الله وحفظكم ورزقكم ورزقنا سعادة الدارين ، إنه على كل شىء قدير وهو ذو القوة المتين .

المنصور التقى زاده

المترجم للفاتحة على اللسان الفارسى

٧ ذى القعدة الحرام سنة ١٣٥١ هـ

٣ - خطاب العلامة محمد على العزوى

الأوردبادى من علماء تبريز

سلاما وثناء وتحية ودعاء .

إلى الحبر البحر ، الآخذ بمجامع الشرف والفخر . نابغة العصر ، وعلامة المصر ، لازال آخذا بناصر الإسلام ، وداعيا إلى التؤدة والوئام . حظيت بالنظر إلى مشرفكم الكريم المرسل إلى زميلنا الفاضل البارع المنصور . وما ندبتم إليه من خطة السلام والوئام ، واعتناق حقيقة الإسلام ، فوجدت عند ذلك ضالتى المنشودة ، والغاية التى لم تزل نضرب لها آباط الإبل ، ونصحر بها ونصارح بملء الفم وجهد القلم ، على كرسى الخطابة ، وفوق منصة الكتابة ، بلسان الشعر أو بمنطق النثر ، كل ذلك لتوحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم ، فلعلهم يكونون ألبا على أعدائهم .

هذا وإن أكبر رجل قبلنا يبث دعايتكم ، وينشر مبادئكم فى حقيقة الإسلام . العالم البارع ، الخطيب المدره ، والمصقع المفوه (الحاج مرزا عباسقلى) نزيل محلة (جرنداب) من تبريز ، فإنه لم يبرح يشيد بذكركم ، ويهتف بما فى تفسيركم على صهوات المنابر منذ لم يكن الكتاب مبثوثا ، ولا تناولته الأيدى بعد ، وعلى ذلك طوى الأيام والليالى : وهو خير من يرجى منه الخير فى هذه المبادئ الكريمة ومساعيه فيها مشكورة .

ومن تلك المساعى نجم ما نجم من انتشار ذكركم الكريم على الأعواد والمنابر والأندية فى ألسنة الخطباء وأفواه الفضلاء . وهو العامل الكبير فى طبع ترجمة تفسير (سورة القارعة) وإن له فى العلوم التى يجب علمها على العالم اليوم يدا غير قصيرة .

وفى الختام اقبلوا أوفر التحية والسلام

المخلص

الأقل محمد على العزوى الأوردبادى

محريرا فى ٧ صفر الخير سنة ١٣٥٢ هجرية

فهرس

الجزء الخامس والعشرون

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

٢ (سورة النبأ) مكتوبة مشكلة .

٣ تفسير البسملة فى (سورة النبأ) وما يتبعها من كل بسملة فى أول السور بعدها ، وهى تبلغ ٣٧ سورة وبيان أن الرحمات فى (سورة النبأ) موجهة إلى جمال النجوم ومفاجآت الظلام ليلا والأنوار نهارا إلى آخره . ووصف الجبال وثباتها ، والجنات والأعناب وما شاكلها.

٦ بيان أن فى (سورة النبأ) أربعة مقاصد ، ولهذه المقاصد خمس مقدمات .

٧ المقصد الأول : تفخيم أمر البعث من أول السورة إلى قوله : «هم فيه مختلفون» .

التفسير اللفظى .

٨ المقصد الثانى : زجر الجهال وتخويفهم .

المقصد الثالث : تنوير أهل العقول بالبراهين الساطعة من المشاهدات الطبيعية .

٩ المقصد الرابع : تفصيل أحوال المبعوثين من عذاب ونعيم من آية : « إن يوم الفصل كان ميقاتا » إلى آخر السورة .

١١ إيضاح استبان به أن النعيم والعذاب فى الحياة الدنيا قسمان مادى ومعنوى .

١٢ ملخص هذا المقام ، وبيان أن الدنيا كأنها مهد الانسان ثم ينقل منها ، ثم الكلام على مهد الجراد والزنابير الصفر والحمر والسود والنحل والنمل ، فهذه كلها ربيت فى مهدها .

١٣ لطيفتان فى هذه السورة : الأولى فى قوله تعالى : «وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا» . وفيها بيان معنى الفطور والشقوق فى السماء .

١٤ رسم الطيف الشمسى (شكل ١) .

١٥ التجربة التى توضح ذلك (شكل ٢) .

١٦ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا» ، وكيفية تحميم النبات إلى سنوى وسنتين وسنين كثيرة .

صفحة

١٧ أقسام النبات المختلفة وفيه خمسة فصول: الفصل الأول فى الجذور والأغصان. خبز الغراب مثل (شكل ٦) شجرة الكمثرى (شكل ٧) .

١٨ الفصل الثانى فى تشريح الساق .
أغصان شجرة الشربين (شكل ٩) .
الفصل الثالث فى اتجاه الأغصان .
أغصان شجرة الخوخ .
(شكل ١٠) والأولى أغصانها أفقية ، والثانية أغصانها ممتدة إلى الجهات .

١٩ الفصل الرابع فى أنواع الورق (شكل ١١) أوراق شجر الكمثرى .
ورق شجرة برية (شكل ١٣) كأس الزبدة (شكل ١٤) شجرة اللبخ .

٢٠ الفصل الخامس فى الزهر ، وهو أهم الفصول السابقة (شكل ١٥) أوراق التاج خمس (شكل ١٦) أوراق الكأس (شكل ١٧) سداة (شكل ١٨) وفيه الكلام على أن البيضة صارت ثمرة الخ .

٢١ الكلام على الثمر (شكل ١٩) بقايا الخطوط الليفية التى لم تظهر (شكل ٢٠) البذور .
الزهر الناقص التركيب .

٢٢ (شكل) زهر البندق ليس له كأس ولا تويج ، زهر الذرة (شكل ٢٢) فيه زهرتان : الذكر والأنثى

٢٢ زهر الصفصاف (شكل ٢٣) نبات يحمل زهرة الذكر وزهرة الأنثى .
كيفية ظهور النبات (شكل ٢٤) و (شكل ٢٥) اللوز مركب من حجمين لحبين الخ .

٢٣ تركيب شجر النخل .

٢٤ الكلام على النبات السنوى والنبات الذى يعيش سنتين . والنبات الذى يعيش سنين كثيرة :

٢٥ شجرة المكنسة (٢٦ و ٢٧ و ٢٨) .

٢٦ تسعة من أعضاء التذكير متحدة عند القاعدة وواحد فقط مطلق الإسار (شكل ٢٩) و (شكل ٣٠) مبيض شجرة المكنسة (شكل ٣١) قرن الفول مفتوحا (شكل ٣٢) الورد البرى .
الفصيلة الوردية .

٢٧ الكلام على الورد البرى (شكل ٣٣) أعضاء تذكيره (شكل ٣٤) المبيض (شكل ٣٥) ثمرة نبات من هذه الفصيلة مثل (شكل ٣٦) .
خلاصة هذا المقام .

٢٨ بهجة العلم وجمال الحكمة فى هذا المقام .

٢٩ نظرة فى شجرة المكنسة والفول .

٣٠ (سورة النازعات) السورة مكتوبة مشكلة .

٣١ التفسير اللفظى لها ، وبيان معنى النازعات إلى آخره .

٣٣ تفسير «يوم ترجف الراجفة» .

٣٤ الكلام على النمط الأول .

صحيفة

٣٤ تفسير : «هل أتاك حديث موسى» إلى قوله : «إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى» .

٣٤ جوهرة فى قوله تعالى: «هل لك إلى أن تزكى» وأن ذلك تلطف منه كى تتعلم ذلك ،

٣٥ النمط الثانى ، وهو فصلان : الفصل الأول : فى تعداد مجامع النعم وعظمة خلقها : « أأنتم أشد خلقا » إلى قوله «متاعا لكم» . وفيه ثلاث لطائف :

٣٦ اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى «رفع سمكها» .

حكاية فلاح مصرى رأى لمعان النجوم ليلا فى الماء وقد هم بمعصية خاف الله فرجع .

٣٧ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « فسواها » وكيف كانت الأجرام السماوية الدائرة حول الشمس ذوات وضع منظم على طريق التوالية الهندسية .

٣٨ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى «والأرض بعد ذلك دحاها» الخ. وههنا بيان أدوار الأرض السبعة فى علم طبقات الأرض .

٣٩ بيان أن قوله تعالى : «وأغطش ليلها» الخ كان فى العصر الصوانى ، وكون الأرض دحيت لم يكن إلا فى الدور الرابع ، وقوله : «والجبال أرساها» لم يكن إلا فى الدور الخامس .

الفصل الثانى من النمط الثانى : تفسير قوله تعالى «فاذا جاءت الطامة الكبرى» إلى آخر السورة .

٤٠ لطائف أربع : اللطيفة الأولى فى آية « فإذا جاءت الطامة الكبرى » وبيان أن الطبقات بالتفصيل ٢٦ طبقة .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يوم يتذكر الانسان ماسعى » وتفصيل الكلام على درجات التنويم الثلاث .

٤١ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى » .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى «إنما أنت منذر من يخشاها» .

خاتمة هذه السورة .

٤٢ (سورة عبس) مكتوبة مشكلة ، وفيها مقصدان .

٤٣ المقصد الأول فى التفسير اللفظى من أول السورة إلى آية : «فأنت عنه تلهى» .

٤٤ المقصد الثانى فى تفسير بقية السورة .

٤٧ لطائف هذه السورة ١٣ لطيفة : الأولى فى قوله تعالى «بأيدى سفرة كرام برررة» .

٤٨ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «قتل الإنسان ما أكفره» إلى قوله : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » وخطاب الله الناس قائلا : هل تعلمون أنكم من نطفة قذرة وأنى جعلتها فى أحسن تقويم :

٥١ اللطيفة الثالثة فى إعداد النبات على سطح الكرة الأرضية ، وأنه خمسمائة ألف .

اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى أنواع النبات الخ .

٥٣ اللطيفة الثامنة فى قوله تعالى : «فلينظر الإنسان إلى طعامه» .

٥٤ قاعدة مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

صحيفة

٥٥ نظرة فى المثل الفارسى وفى الآية الشريفة .
قيمة للنظر السطحى لهذه الآيات .
٥٦ اللطيفة التاسعة : كيف كانت عناية القرآن بهذه العلوم .
٥٧ اللطيفة العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة فى أن اهتمام المسلمين كان موجها إلى غير هذه العلوم مع أن النبى ﷺ هو الذى حرك الهمم لها والمسلمون وقفوا عند علوم البلاغة .
٥٨ اللطيفة الثالثة عشرة : فى اكتفاء المسلمين بشذرات ضئيلة من علوم البلاغة .
٥٩ لطيفة فى قوله تعالى : «فلينظر الانسان إلى طعامه» إلى قوله «ولأنعامكم» وفيها الكلام على ذى الفلقة والفلقتين من النبات ، وذو الفلقة الواحدة له ٣ ومكرر ٣ .
٦٠ هاهنا أشكال لذوات الفلقتين مثل كأس الزبدة (شكل ٣٧ و٣٨ و٣٩) وزنبق الوادى (شكل ٤٠ و ٤١ و ٤٢) وزهر الصفصاف (شكل ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦) .
٦١ الكلام على الأقحوان (شكل ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١) . وزهر الخشخاش (شكل ٥٢) وحامل الصليب (شكل ٥٣) والبسلة (شكل ٥٤) والجلبان (شكل ٥٥) .
٦٢ البطيخ (شكل ٥٦) الأقحوان أيضا (شكل ٥٧) الخرشوف (شكل ٥٨) شكورى (شكل ٥٩) .
بطاطس (شكل ٦٠) سعتر (شكل ٦١) صنوبر (شكل ٦٢) .
صور من ذوات الفلقة الواحدة ، نوع من الزنبق (شكل ٦٣) قوس قزح (شكل ٦٤) فانلا .
٦٣ (شكل ٦٦) هليون (شكل ٦٧) القمح (شكل ٦٨) .
النباتات التى لازهر لها .
٦٤ نبات الخنشار (شكل ٦٩ و ٧٠) طحلب أمنه (شكل ٧١ و ٧٢) عش الغراب (شكل ٧٣) النبات المرجانى (شكل ٧٤) .
٦٥ زيادة إيضاح لقوله تعالى: «فلينظر الإنسان إلى طعامه» الخ . وهاهنا تبيان لمجلس فى عالم الخيال فيه علماء مختلفون .
٧٣ علوم الأخلاق والسياسة المقتبسات من النبات وفيه فصول :
٧٤ الفصل الأول فى عجائب وبدائع النبات .
٧٧ الفصل الثانى فى الكلام على ارتقاء أخلاق الانسان وسيادته فى مستقبل الزمان وسعة رحمة الله تعالى .
٧٩ تفسير (سورة التكوير) وهى مكتوبة مشكلة ، وفيها مقصدان :
٨٠ (المقصد الأول) : من أول السورة إلى قوله «وإذا النفوس زوجت» .
٨١ (المقصد الثانى) : الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح من قوله تعالى «فلا أقسم بالخنس» .
التفسير اللفظى لهذه الآيات .
٨٣ إيضاح : فى أن فى هذه السورة إعظام أمر الكواكب .
٨٤ تذكرة : فى إعظام الله للعلم فى هذه السورة .
لطيفة فى قوله تعالى: «فلا أقسم بالخنس» الخ وذكر إشارات جاءت من الريخ يظن العلماء أن السكان هناك يريدون مخاطبتنا بها ، ويقولون إنهم أرقى منا فى سياساتهم ، وأنهم يعيشون نحو ٧٠٠ سنة الخ

صحيفة

وذكر بدعة اقتصاديه تسمى (تسكنوكراسى) وهذه ترجع إلى أن هناك طريقة بها يعمل جميع الناس لخير المجموع .

٨٧ (سورة الانفطار مشكلة) .

التفسير اللفظى لهذه السورة .

٩٠ (سورة المطففين) .

٩١ مناسبة هذه السورة لما قبلها التمثيل بقصر بديع .

٩٣ التفسير اللفظى لسورة المطففين .

٩٦ لطيفة فى قوله تعالى : « ختامه مسك » .

٩٧ تبصرة فى هذه الآيات .

٩٨ تبصرة فى قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

٩٩ (سورة الانشقاق مشكلة) .

١٠٠ المقصد الأول ، التفسير اللفظى لهذه السورة .

١٠١ المقصد الثانى فى أن الناس فى أحوال الدنيا والآخرة يتنقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة .

١٠٢ لطيفة فى قوله تعالى : « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق » والكلام على عالم السماء وعالم الانسان

(سورة البروج مشكلة) .

التفسير اللفظى لهذه السورة .

١٠٨ شرح وتفصيل .

١١١ (سورة الطارق مشكلة) .

١١٣ التفسير اللفظى لهذه السورة .

١١٥ (سورة الأعلى) مشكلة وتفسيرها .

١١٨ لطيفة فى قوله تعالى : « الذى خلق فسوى » الخ . وفيها جواهر :

الجوهرة الأولى فى عجائب الأشكال المبتلورة فى المعادن

الجوهرة الثانية فى عجائب النبات والأشجار كالنخل والتين الخ واختلاف النبات فى الطباع .

١١٩ اختلاف الأشجار من حيث إن منها ماهو تام وماهو ناقص وصفات كل منهما .

وصف الشجر الناقص .

تفاضل الشجر .

اختلاف النبات من جهة الأماكن .

١٢٣ شجرة القوف : مشاهدات المؤلف فى أيام كتابة تفسير هذه السورة .

١٢٥ استخراج الزيت من الفحم .

الجوهرة الثالثة عجائب الحيوان .

١٢٦ بيان أن أنواع طيران الطير فى الجو اثنان وعشرون .

١٢٧ عجائب الطيور والهوام والحشرات .

صحيفة

١٢٨ أسرار النبوة فى هذه السورة .
١٢٩ لطيفة فى قوله تعالى: «سبح اسم ربك الأعلى» إلى آخره . وفيها ٩ أحوال : الخلق والتسوية والتقدير والهداية وخلق النبات والإقراء وعدم النسيان والتيسير لليسرى . وأن الذى يخشى هو الذى يذكر :
١٣١ بيان أن هذه الهداية والتقدير والتسوية ونحوها شرحت بالصور مثل حشرة (أبى دقيق شكل ٨٨) وعينها المكبرة التى فيها نحو ٦٠٠ عين (شكل ٨٩) ثم (شكل ٩٠) لإيضاح أجزائها .
١٣٢ فصل فى تقسيم الحشرات .
أشكال متعددة من الحيوانات كالآتى :
فالخنفساء (شكل ٩٢) والبرغوث (شكل ٩٣) والنحلة (شكل ٩٤) والناموس (شكل ٩٥) والبق (شكل ٩٦) ورأس الخنفساء (شكل ٩٧) رأس (كوكتشفر) (شكل ٩٨) خرطوم الذبابة (شكل ٩٩) و (شكل ١٠٠) رأس البرغوث .
١٣٤ الحشرات قسمان نافع وضارا وهنا عدة أشكال وهى :
(شكل ١٠١) رأس حشرة أبى دقيق. (شكل ١٠٢) فيلوكسرا . وهى التى أهلكت عنب فرنسا قديما (شكل ١٠٣) .
١٣٥ العنكبوت (شكل ١٠٤) خطاف العنكبوت وفيه السم (شكل ١٠٥) عقرب عنكبوتية (شكل ١٠٦) (شكل ١٠٧) نوع من حشرة العنكبوت لاترى بالعين .
مواضع أدوات النسج والغزل فى جسم العنكبوت .
١٣٦ العقرب العنكبوتى وعنكبوت يحدث أمراضا جلدية .
الكلام على ذوات الأرجل الكثيرة (شكل ١٠٨) .
الحيوانات القشرية أو الصدفية .
١٣٧ الدود، السرطان البحرى (شكل ١٠٩) السرطان المعروف (شكل ١١٠) دودة مقسومة نصفين . وكل نصف يصير دودة (شكل ١١١) الآلة الماصة للعلقة (شكل ١١٢) .
١٣٨ الدودة الشريطية (شكل ١١٣) . قطعة من لحم الخنزير (شكل ١١٤) .
١٣٩ ملخص هذا المقام . الحيوانات الحلقية. وفيه الحشرات والعنكبوت والدود وذوات الأرجل الكثيرة ؛ وذوات القشور والأصداف والدود .
١٤٣ (سورة الغاشية مشكلة) وفيها مقصدان :
١٤٤ المقصد الأول التفسير اللفظى لهذه السورة :
١٤٥ المقصد الثانى : عجائب الصنعة الإلهية .
١٤٧ لطيفة فى عجائب الجبال. وفيها فصلان :
١٤٧ الفصل الأول : فى تكوين الجبال عند علماء العصر الحاضر ؛
الفصل الثانى : كيف تزول الجبال .
الفصل الثالث وصف الجبال ذات النبات والأشجار والثلج .
١٤٩ وصف جبال سويسرا .

صحيفة

١٤٩ الفصل الرابع فى وصف جبال النار .
١٥٠ الفصل الخامس اعتبار العقلاء بالجبال .
نظرة فى الجبال أيضا .
١٥٢ تذكرة فى قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» الآيات .
١٥٣ (سورة الفجر مشكلة) .
١٥٤ بيان أن هذه السورة اشتملت على مقصدين :
المقصد الأول : فى إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون .
التفسير اللفظى من قوله تعالى « والفجر » إلى « لبالمرصاد » .
١٥٦ تفسير الآيات من قوله تعالى : «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه » الآيات .
١٥٨ لطائف هذه السورة ثلاث .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى «والشفع والوتر » .
الكلام على العدد وماهيته .
١٦٣ فكاهتان حسابيتان : الفكاهة الأولى عن سيدنا على .
١٦٤ والفكاهة الثانية هى السماة (حسبة برما) بالبلاد المصرية .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بعاد» ومختصر التاريخ فى ذلك .
١٦٥ الكلام على ثمود .
١٦٦ (سورة البلد) وتفسيرها.
١٦٨ المقصد الأول التفسير اللفظى .
١٧٠ بيان أن فى هذه السورة لطيفتان الأولى فى قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى كبد» .
وصف حال الأغنياء والفقراء .
١٧١ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «فلا أقتحم العقبة» .
١٧٢ بين الحياة والنية .
١٧٣ (سورة الشمس مشكلة) وفيها مقصدان :
المقصد الأول : التفسير اللفظى من أولها إلى قوله تعالى «دساها» .
١٧٥ المقصد الثانى فى تفسير قوله تعالى « كذبت ثمود» إلى آخرها .
١٧٦ لطيفة فى قوله تعالى : «ونفس وما سواها» وهاهنا ذكر ملخص مما تقدم فى «سورة الذاريات» .
١٧٨ الكلام على الشوق .
١٧٩ بيان أن الشوق معيار شخصى لتقدير قيم الأشياء .
الشوق والاختيار .
١٨٠ بيان أن الشوق محرك دافع .
الشوق والعادة .

صحيفة

١٨٠ أقسام الشوق .

١٨١ هربارت والشوق :

١٨٢ تعدد الميول .

قيمة الشوق غير المباشر .

١٨٣ تشعب علم النفس اليوم وازدياد علومه .

مقياس الذكاء والتعليم المدرسى .

١٨٤ مقياس الذكاء كقاعدة عامة لالتحاق الطلبة بالمدارس .

١٨٥ القياس ونموه فى أمريكا وانجلترا .

القياس دليل لمعرفة أحسن مهنة للولد .

١٨٦ الفائدة العملية من مقياس الذكاء .

هل مقياس الذكاء عديم الفائدة :

١٨٧ كيف استنبط القياس ؟.

كيف تعرف نسبة الذكاء ؟.

١٩٠ أوصاف النابغة .

مقياس الذكاء والإجرام .

١٩١ الذكاء ليس أصل الفضيلة .

فى هذه السورة أربع لطائف : اللطيفة الأولى فى جمال الإبداع ومحاسن المخلوقات التى تشير لها هذه الآيات الخ

١٩٣ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » الآيات.

١٩٥ تطبيق الأخلاق الإنسانية على القوى الطبيعية . وبيان أن ذلك تكملة لخواطرى النفسية قبيل ذلك .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى أيضا : « فألهمها فجورها وتقواها » الآية. وبيان أن ماقاله أفلاطون قبل نزول القرآن بعشرة قرون من أن الذين لافكر لهم فى حقيقة هذه العوالم يكونون على صورة الحيوانات .

١٩٩ اللطيفة الرابعة : خيال المؤلف فى السحر ، وكيف كان هذا الخيال موافقا للسورة التى يطبع تفسيرها .

٢٠١ اختراع عجيب جهاز لمعرفة صور الموتى .

٢٠٢ (سورة الليل مشكلة) .

مقاصد هذه السورة .

٢٠٣ التفسير اللفظى لها .

٢٠٥ (سورة الضحى مشكلة) .

٢٠٦ التفسير اللفظى لها .

صحيفة

٢٠٧ (سورة الانشراح مشكلة) .
التفسير اللفظى لها .
٢٠٩ (سورة التين مشكلة) .
٢١٠ التفسير اللفظى لها .
٢١٢ (سورة العلق مشكلة) ومقاصدها .
٢١٣ التفسير اللفظى لها .
٢١٤ فى هذه السورة لطيفتان .
اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » وتبيان أن بجانب رحم المرأة كيسا فيه بيض :
٢١٧ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : «اقرأ وربك الأكرم». وبيان أن أفعل التفضيل هنا لأنه يعلمنا ، وهو كريم لأنه خلقنا .
٢١٨ تعميم التعليم فى بلاد الإسلام .
٢١٩ لطيفة فى قوله تعالى : « الذى علم بالقلم » .
٢٢٠ مراتب الموجودات أربع : العيان ، والجنان ، واللسان ، والبنان .
جمال الخطوط وحسن هندامها يشابه جمال الزرع والأشجار وأزهارها .
٢٢١ أنواع الخط أيام الدولة العباسية تسع : الطومار الكامل ، والمحقق ، والغبار ، ومختصر الطومار ، وخط الثلثين ، وخط النصف ، وخط الثلث ، وخفيف الثلث . والرقاع .
٢٢٢ صورة من كتابة السلطان الملك الناصر حسن (شكل ١١٥) .
قلم مختصر الطومار (شكل ١١٦) .
صورة قلم الثلث (شكل ١١٧ و ١١٨) .
٢٢٣ قلم الرقاع (شكل ١١٩ و ١٢٠) .
٢٢٥ البسملة بالخط الصينى موضحة بالخط العربى (شكل ١٢٢) .
الخطوط وكيف اشتق بعضها من بعض ، وكلها راجعات إلى الخط الهيروغليفى مثل اللاتينية والحجازية واليونانية الخ (شكل ١٢٣) .
٢٢٦ بيت من الشعر مكتوب (بالهيروغليفية) وموضح معناه (شكل ١٢٤) على لسان معبود طيبة أمون رع .
٢٢٧ خط الثلث (شكل ١٢٥) .
لطيفة فى آية « علم الإنسان مالم يعلم » .
٢٣١ بهجة العلم : فى قوله تعالى «علم الإنسان مالم يعلم» .
الباب الأول فى التربية الجسمية .

صحيفة

٢٣٤ الباب الثانى : فى التربية الجسمية العقلية .
٢٣٥ الباب الثالث فى التعليم العقلى بالمدارس .
٢٣٧ الباب الرابع : فى التعليم الأدبى العام .
٢٣٨ خاتمة فى التعليم العملى .
٢٤٠ طائفة من الغرائز والميول الفطرية .
١٤١ كيف نستعمل غريزة الغضب فى تقويم الطفل ؟
كيف نستعمل تلك الغريزة فى التربية ؟
٢٤٢ كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة ؟
كيف يستفيد المرء من هذه الغريزة ؟
٢٤٣ كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة ؟
٢٤٩ (سورة القدر مشكلة) .
٢٥٠ مقدمة .
التفسير اللفظى .
لطيفتان : اللطيفة الأولى فى العمل .
٢٥١ اللطيفة الثانية فى العلم .
٢٥٢ موعظة وحكمة .
جوهرة فى قوله تعالى « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » .
٢٥٣ (سورة البينة مشكلة) .
٢٥٤ التفسير اللفظى .
تذكرة فى آية « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب» .
٢٥٥ لطيفة فى قوله تعالى : «ذلك لمن خشى ربه» .
(سورة الزلزلة مشكلة) .
٢٥٦ التفسير اللفظى .
لطيفة فى قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها» .
٢٥٧ لطيفة فى قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » .
بهجة العلم فى سورة الزلزلة .
٢٥٨ (سورة العاديات مشكلة) .
التفسير اللفظى .
٢٥٩ بيان أن الغزاة يخاف عليهم من الإكباب على جمع المال .
(سورة القارعة مشكلة) .
التفسير اللفظى .

صحيفة

٢٦٠ (سورة التكاثر مشكلة) .
التفسير اللفظى .
٢٦٢ بيان أن الناس مسئولون عن النعيم حتى الماء البارد .
تبصرة فى قوله تعالى : «لتسألن يومئذ عن النعيم» .
٢٦٣ (سورة العصر مشكلة) .
٢٦٤ التفسير اللفظى .
٢٦٥ أقسم الله أربعين قسما عشرون منها للعالم العلوى ، وعشرون منها للعالم السفلى .
٢٦٦ موازنة بين أقسام العرب وأقسام القرآن .
٢٦٧ (سورة الهمزة مشكلة) .
التفسير اللفظى .
٢٦٩ (سورة الفيل مشكلة) .
٢٧٠ التفسير اللفظى .
تذكرتان الأولى فى وصف الفيل .
٢٧١ الثانية فى بعض أسرار (الم) .
٢٧٢ (سورة قريش مشكلة) .
التفسير اللفظى لها .
إيضاح فى قصة الطير المذكور فى السورة .
جوهرة فى معنى قريش .
٢٧٤ (سورة الماعون مشكلة) .
ملخص هذه السورة .
التفسير اللفظى .
٢٧٥ (سورة الكوثر مشكلة) .
التفسير اللفظى .
٢٧٦ (سورة الكافرون) .
التفسير اللفظى .
٢٧٧ (سورة النصر مشكلة) .
مقدمة .
التفسير اللفظى .
٢٧٨ تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما .
وصف الكوثر .

صحيفة

٢٧٩ وصف كيزانه وطيره ونحو ذلك .

وصف الشاربين:

٢٨٣ فصل فى الكلام على المقصود من هذه السور الثلاث وترتيبها .

٢٨٤ (سورة المسد مشكلة) .

٢٨٥ التفسير اللفظى .

٢٨٦ (سورة الإخلاص مشكلة) .

التفسير اللفظى .

٢٨٧ (سورة الفلق مشكلة) .

التفسير اللفظى .

٢٨٨ صفة السحر ، الرقيا ، تحقيق هذا المقام .

٢٨٩ العلم الحديث وهذه المسألة .

(سورة الناس مشكلة) .

٢٩٠ التفسير اللفظى

عجائب سورة الفلق والناس وأسرارها من العلوم الحديثة الروحانية فى أوروبا .

٢٩١ بيان صفات النفوس الفاضلة والشريرة وأن آثار كل منهما تكون على حسبه .

٢٩٣ ملخص ماذكرناه هنا عن علماء الأرواح مع زيادة.

٢٩٤ علاج النفس بواسطة الإرادة .

تمت

ملحق

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية وبمدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد : فإنا قد كنبنا فى مواضع من كتاب [الجواهر : فى تفسير القرآن] أننا سنتبعه بملحق يوضح بعض ما أغفلناه فى ذلك التفسير ، ولقد حالت عوائق جمة عن إنجاز ماوعدنا به ، ولكن الله عزّ وجلّ الذى أعان على التفسير قد أزال تلك العوائق ، وشفى من المرض ، وساعد على إبراز الملحق الذى وعدنا به .

وسنذكر إن شاء الله ماستراه موسعا للعارف فى أمم الإسلام ، ونبتدئ بسورة الفاتحة ، وفى أولها البسملة ، وهكذا سورة بعد سورة فنقول :

تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم »

قد ذكرنا هناك عجائب من بدائع الحيوان والنبات ، وكيف كانت الحشرات لها إلهام بديع يعينها على نظام الحياة ، ويساعدها فى تربية الأبناء بدون معلمين ولا مرشدين ، وكيف ترى النحل يتقن هندسة الخلايا ولا مهندس علمه ، ولا مدرسة تلقى فيها العلوم الهندسية ، ولا مربين ، وهكذا العنكبوت فى نسجها البديع ، وهكذا تلك الحشرة التى تضع لذريتها موادّ سكرية من النبات ، وبعد ذلك تموت وتلك الموادّ تكفى تلك الذرية سنة تامّة فى أثنائها يتمّ نموّها فتطير .

إن تلك المناظر مدهشة تدلنا على أمرين : رحمة لاحدّ لها ، وعلم لا آخر له ، وهذا قوله تعالى « ربنا وسعت كلّ شىء رحمة وعلما » هذه رحمة يصحبها علم تدهشنا نتائجه ، وتبهجنا عجائبه ، وهناك ترى كيف كان فى كلّ عود من أعواد نبات الذرة ذكور فى أعلاه ، وإناث فى أسفله ، والذكور ينزل منها الطلع على الإناث : وهى التى تتجلى على [المطر] وهو مارصع عليه الحبّ ، وكيف كانت تلك الخيوط الجميلة الحمر والبيض التى فوق ذلك [المطر] هنّ القابلات لتلك الحبوب ، وفيها يكون بزوز تلك الحبات المنظمات الجميلات من الذرة والناس يأكلون ولا يدرسون ، ويعيشون ويموتون وهم لا يعلمون ، وهكذا من العجائب التى تراها فى تفسير سورة الفاتحة .

ولما كانت العجائب لاحدّ لها ، والبدائع لانهاية لحصرها حتى إننا لو أردنا استيعاب ماعرفناه هنالم نجد وقتا لإحصائه فضلا عن نشره للناس فى كتاب ، ولكن : مالا يدرك كله لا يترك كله .

فلنذكر فى هذا المقام عاطفة الأمومة فى رحمة الله التى تجلت فى: (١) عواطف الأمهات ، وفى (٢) طبقات الجوّ ، وفى (٣) [أحاديث الرحمة وآياتها ، وفى تركيب العوالم الحية والجامدة وفى العوالم العلوية وعجائبها وغير ذلك] وكيف تجلت الرحمات فيها مع العلم الذى يشعر العاقل بحبه للصانع فيشكره بقلبه ، ويقول بلسانه : الحمد لله رب العالمين ، فلن يتم الحمد باللسان خالصا إلا بعد الحبّ ولا حبّ إلا بعد العلم الذى يتجلى بعضه فى هذه الجواهر الثلاث :

الجوهرة الأولى فى عاطفة الأمهات

فهناك ماجاء فى بعض المجلات العلمية من الصور البديعة اخترناها هنا لتبين عجائب الرحمة الإلهية ، وكيف يتضح بالمشاهدة قوله صلى الله عليه وسلم ما يفيد فى الحديث الصحيح « إن لله مائة رحمة ادّخر منها تسعة وتسعين لعباده فى الجنة ، وجعل رحمة واحدة فى الأرض بها يعيش الإنسان والحيوان ، وتعطف الأمهات على ذريتها » ولا جرم أن الصور المشاهدة لها آثار فى النفوس ، وقد قال الله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقال « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

وهذا الزمان هو الذى ظهرت فيه آيات الرحمة بطريق أتمّ ومنهج أكمل ، فانظر كيف ترى عاطفات الأمهات فى الحيوان .

وهذا نصّ ماجاء فى بعض تلك المجلات ذكرناه لما فيه من الصور الحيوانية الدالة على رحمة الله التى غرسها فى الحيوان قال[1] :

الأمومة فى الحيوان

يمتاز الإنسان عن الحيوان بقوّة العقل والمنطق ، ولكن يشترك معه فى كثير من المشاعر والحواسّ . وفى مقدّمة مايشترك فيه كلاهما عاطفة الأمومة ، فهى غريزية فى كليهما .

والغريزة : هى تلك القوّة الغامضة التى توجد فى كلا الإنسان والحيوان والتى بها يعرف كل منهما ماينفعه فيلتمسه ؛ وما يضره فيسعى لاجتنابه . والغريزة تحل فى الحيوان محل العقل فى الإنسان . فهى التى توحى إليه بوسائل الدفاع عن نفسه وعن صغاره ، وتدفعه إلى طلب القوت والفرار من الهلكة ، وترشده إلى مافيه نفعه ومصلحته .

والذى يراقب حياة الحيوانات ويدرس طبائعها يدهش لما يراه فيها من عاطفة الأمومة حتى إنها لاتحجم عن بذل حياتها وسفك آخر نقطة من دمها فى سبيل الدفاع عن صغارها ، والحيوانات المفترسة لا تفارق صغارها لحظة واحدة ، بل تلبث بجانبها للدفاع عنها . فالأسد الذى يهاجم الإنسان عادة قد يضطر إلى ملازمة شبله أو جروه ولا يهاجم الإنسان ولو رآه على مقربة منه ، ذلك لأنه يخشى إن هو هجر جروه لحظة أن يصاب بمكروه .

---

(١) وسيأتى قريبا ذكر الحديث بلفظه .

الدب الأمريكى الأسمر

ليس الدب الأمريكى الأسمر من الحيوانات المؤذية، ولا هو يهاجم الإنسان إلا فى حالتين: الأولى للدفاع عن نفسه، والثانية للدفاع عن جرائه، وتراه فى الصورة يحمى اثنين من تلك الجراء وينظر حوله ليتقى ما يحتمل من خطر داهم

(شكل ١)

(شكل ٢)

(شكل ٢)

الأوبسوم

الأوبسوم حيوان أمريكى برى ، وهو شديد العطف على صغاره يحملها فوق ظهره أينما سار أو حل ، كما تدل على ذلك الصورة أعلاه.

(شكل ٣)

اللبوة وجروها

ترى إلى اليمين لبوة قد عضت على رقبة جروها لتنقله إلى موضع أمان ، وهى بعضها على رقبة الجرو لا تزل له أبداً .

(شكل ٤)

الماعز البرى

أخذت الصوره التى فى أعلى من حديقة الحيوانات بلندره ، وهى تمثل الماعز البرى ؛ وعطفه على صغاره

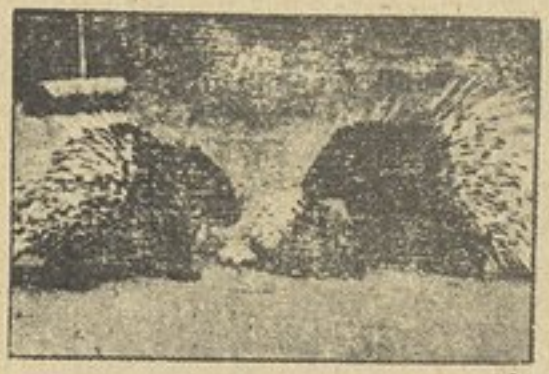

(شكل ٥)

مشهد من حياة القنفذ

ترى فى هذه الصوره قنفذا وقنفذة يداعبان جروا صغيراً لهما ، وكأنهما يعجبان بأشواكه

والدب الأسمر لا يتعرض للانسان إلا فى حالتين : الأولى عندما يحول الإنسان دون طعامه . والثانية عند ما يعتدى على صغاره . ولعل هذا يصدق على سائر أنواع الحيوان .

وفى التوراة إشارة إلى الدب الثكول ، والدب الثكول هو الذى فقد جروه فشعر بمرارة فراقه ، وفى الواقع إن الحيوان بوجه الإجمال أشرس ما يكون عندما تصاب صغاره بمكروه .

ومهما يكن الحيوان شرسا ضاريا فإنه يحب صغاره ويتحمل من أجلها كل تعب وعناء . وقد يعق الشبل أباه ، والعقرب وصغار الأفاعى أمهاتها ، ومع ذلك تحول عاطفة الأمومة الغريزية فى تلك الحيوانات دون الرغبة فى الانتقام . ولعلك إذا راقبت القردة فى حديقة الحيوانات تراها شديدة الحنان على صغارها حتى لقد تحرم نفسها الطعام لتعطيه لصغارها . وإذا أصيب أحد أولئك الصغار بتعب أو مرض أكبت عليه أمه بحنان لا مزيد عليه وعالجته بما توحى به إليها الغريزة .

وإذا نظرت إلى الصور المدرجة هنا وجدت آثار عاطفة الأمومة بادية على جميعها ، ومعظمها كما ترى من الحيوانات الوحشية ، فما أغرب الطبيعة وأعجب مظاهر الغريزة فيها .

(شكل ٦) ↑

اللاما وولدها

إلى أعلا : صورة لأنثى اللاما فى حديقة حيوانات لندن ومع اللاما أحد صغارها ، ودلائل العطف بين الأم وولدها بادية للعيان

(شكل ٧) ←

الكيانغ أو الحمار البرى

فى الصورة التى إلى اليسار تبدو عاطفة الأمومة على أجلاها فى الحمار البرى ، فقد وقف جحش صغير بجانب أمه وكأنه يحتمى بها من الخطر .

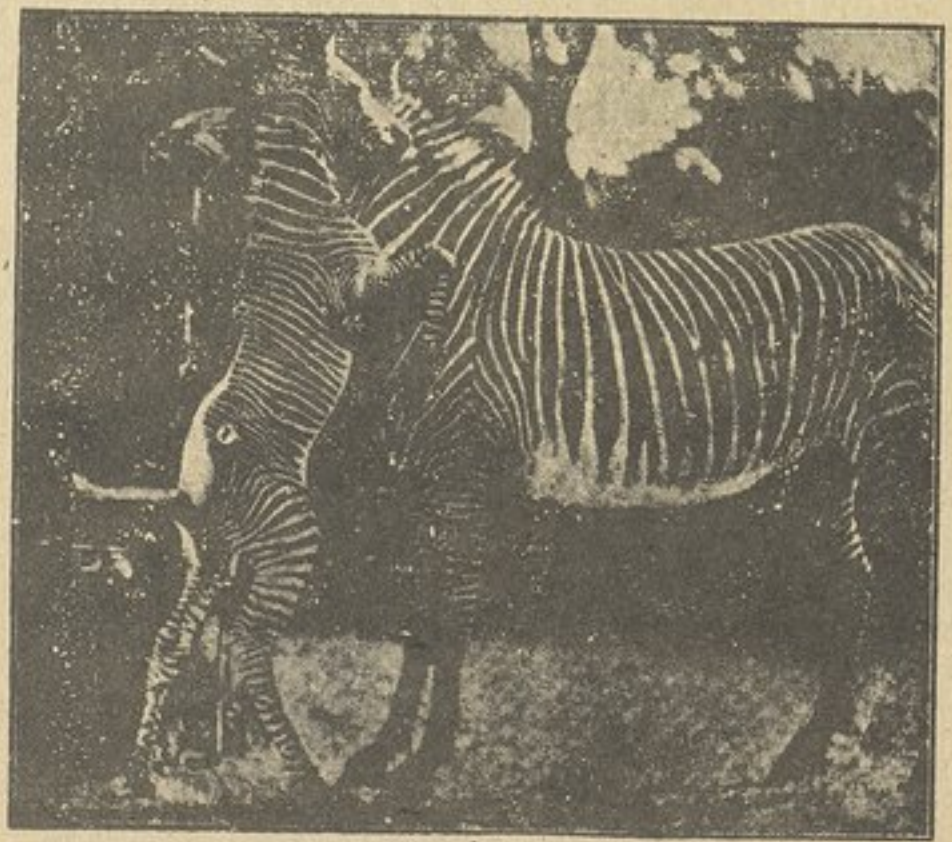

(شكل ٨)

الزيبرا وعاطفة الأمومة

ترى فى جانب الصورة أنثى الزيبرا ؛ وقد وقف معها أحد صغارها يداعبها ، وهى تترك له الحرية ليفعل ما يشاء

القردة وأحد صغارها

هذه الصورة أيضا مأخوذة من مناظر حديقة الحيوانات بلندرة، وترى فيها قردة، ومعها صغيرها يداعبها ويجتمي بها ، وهي تنظر حولها كأنها تريد أن تحمي صغيرها من الخطر.

(انتهى الكلام على الجوهرة الأولى)

(شكل ٩)

الجوهرة الثانيـــة

رحمة الله في الهواء والأضواء وطبقات الجو

إلى إخواني المسلمين في الأرض اليوم، والى أبنائي بعد اليوم: السلام عليكم ، هل لكم أن أحدثكم عما أراه من الجمال والبهاء، والبهجة والحسن والإشراق والرحمات في الجو وفي الضوء، هل لكم أن تروا من الجمال أبهاه ، ومن الحسن أعلاه ، ومن الإشراق أوفاه؟ سبحانك يارب سبحانك أنت البديع الحكيم ، لقد وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فرحمتك مصحوبة بالعلم ، ولولا العلم لكانت الرحمة أقرب إلى العذاب ، لحكمة الله وعلمه بهما حفظ الناس والحيوان من الهلاك ، رحم الله العوالم بالأضواء والأشعة، هذه هي الرحمة ، وبالأشعة والضوء والحرارة كان حيوان وكان نبات وكان كل مخلوق على الأرض ، ولكن ماذا جرى في هذه الاشعة وماذا ترى فيها ؟ ترى أنها تكون حمراء ، وبرتقالية ، وصفراء ، وخضراء ، وزرقاء ، ونيلية ، وبنفسجية.

هذه هي الألوان السبعة، وهي التي تراها في قطرات الماء المعترضات ضوء الشمس في وصولها إلينا، أعيذك لا ترى غيرها ، عيوننا ترى ضوء الشمس الأصفر ، وترى ما حلل إليه وهي هذه السبعة . ولكن هل الله عز وجل لم يخلق غير تلك السبعة ؟ كلا : هو خلق من الأضواء مالا حصر له .

طول الأمواج

أيها المتعلم من أمم الاسلام : أنا أريد الساعة أن أحدث معك في هذه الأمور الغامضة بهيئة بسيطة لتسهل عليك معرفتها لغرضين معا :

الغرض الأول : أن تسعد بفهم الرحمة الإلهية المحيطة بنا لنفهم بسم الله الرحمن الرحيم :

الغرض الثاني : أنك تسمع لفظ موجات قصيرة وموجات طويلة في الراديو فيحار عقلك في فهمها ، فأنا الآن أريد أن تفهم ذلك لتسعد في الدنيا بالعلم وفي الآخرة بالعلم ٥

ان الله جعل الشمس أشبه بإنسان يحمل مالا حصر له من النبال ، وهذه النبال بعضها يبلغ طول مئات الأمتار وبعضها يبلغ طوله جزء من ألف ألف من البوصة الواحدة ، والبوصة مقياس أقل من القيراط وستقول لى : ما هذه النبال فى الشمس ؟ أقول لك : هذه النبال هى الأضواء ، فالأحمر أطول من البنفسجى أى أن البنفسجى طوله نحو نصف طول الأحمر ، فالبوصة الواحدة تسع أطوال (٣٣) ألف موجة من اللون الأحمر ولكنها تسع (٦٦) ألف موجة من البنفسجى . هذه موجات صغيرة جدا جدا لا ندركها إلا بالتعقل والعلم هو الذى أبرز ذلك .

محادثة بينى وبين العالم الكبير

هاهنا حضر صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : ماهذه المهامه البعيدة المرامى ، ماهذه المشقات الشديدة ، ماهذه الأمور المعقده ؟ فقلت هون عليك ياصاح ماذا جرى ؟ قال : ان هذه بعيدة المرام . فقلت . كلا اقرأها ، فقرأها فقال : لقد فهمت وأقول حقا إنك سهلت هذا المقام وماذا بعد ذلك ؟ فقلت : سترى ماهو أسهل وأعجب من هذا مع أنه فى الكتب صعب لا يفهمه إلا علماء ذلك الفن ، فقال :

أحب أن أعرف ماذا هناك ، فقلت : انظر ياصاح : هذه هى الألوان السبعة وهذه مقاديرها أن الأمواج المرسلة من الشمس كثيرة جداً كما قدمنا ، فما فوق البنفسجية أقصر وأقصر بما لا يسعه الخيال ، فإذا كان البنفسجى طوله نصف طول الأحمر ، فهناك تنصيف وراء تنصيف حتى يبلغ أحد عشر تنصيفا ، فقال : هذا غامض على فقلت : اسمع ياصاح شرح الله صدرك للعلم . قلت لك أن طول موجة اللون الأحمر ضعف طول موجة البنفسجى ، فقال : أنا فهمت هذا وعلمت أن طول البنفسجى جزء من (٦٦) ألف من البوصة ، وإن طول الأحمر جزء من (٣٣) ألف من البوصة . فقلت : إذا علمت هذا فاجعل البنفسجى أصلا واقسمه نصفين ، والنصف أيضاً اقسمه نصفين : أى أن كل طبقة تكون نصف ماقبلها إلى إحدى عشرة مرة ، فقال إذن تكون الموجة فى الدقة والصغر كالهباء أو كالذرة التى لا ترى ولو بالمنظار . فقلت : هو ذلك ، فقال : أنا فهمت الآن فماذا تكون الموجة إذن ؟ قلت تكون أشعة [إكس] أى أن أشعة [إكس] تأتى بعد البنفسجية بنحو إحدى عشرة طبقة ، ومعلوم أن أشعة إكس تنفذ خلال المواد الخفيفة ولو سقطت على خليط من مواد خفيفة ومواد ثقيلة لظهر للمواد الخفيفة ظل أقل وضوحا من ظل المواد الثقيلة وبذلك استخدمت هذه الخاصية فى علم الجراحة لتصوير العظام وغيرها .

فقال وما بعد هذه الأشعة ؟ فقلت تأتى أشعة [جاما] وهذه يشعلها عنصر الراديوم ، فقال ثم مابعد ذلك ؟ فقلت تأتى أشعة بعد (٣١) طبقة ، وهى الطبقة الثانية والثلاثون ، وهذه تسمى الأشعة الكونية [كوسمك ريز] وهذه أشعة تخترق عدة أمتار من الرصاص ، فقال : هذا عجب ، هذه أقوى أشعة عرفها الإنسان ، فأقوى الأشعة أقصرها قصرا دقيقاً جداً لا يدرك :

فقال : إذا كان هذا آخر ماعرفه الناس من الأشعة القصيرة التى فوق البنفسجية ولم يصلوا لما هو أدق منها فماذا الذى عرفوه فى الأشعة التى تحت الأشعة الحمراء ؟ وإنما قلت تحت . لأن الحمراء أضعف من البنفسجية ، وما بعد البنفسجية يقال له فوقها ، فأما هذا فإنا نصفه بأنه تحتها ، فقلت : أحسنت فى التعبير اعلم أيها الأخ أن الذى عرفوه تحت الأشعة الحمراء أشعة أطول أمواجا منها ، مثلا الإناء الذى فيه الماء الغلى يكون مما هو تحت الأحمر فى الرتبة الرابعة ، وهكذا طبقة تحت طبقة ، ولقد وضعوا صفائح فوتوغرافية فأثرت فيها الأشعة تحت الحمراء وأمكنهم بهذه الطريقة التصوير فى الظلام الدامس .

ثم أنا كما قلنا فيما هو فوق البنفسجية إن الطبقة التى بعد (٣١) هى أشعة إكس ، هكذا هنا نقول فيما هو تحت الأشعة الحمراء إن الطبقة التى فوق (٣١) هى موجات [الراديو] ويبلغ طولها حوالى ألف مليون مرة بقدر طول موجات الطيف .

ومعنى هذا أننا إذا رأينا أن موجة الضوء الأصفر جزء من (٤٠) ألف جزء من البوصة ، فإن طول موجة محطة إذاعة القاهرة للراديو (٤٨٢) مترا فلما سمع ذلك صاحبى ظهر السرور على وجهه وقال : والله لقد انشرح صدرى ، لك الحمد يارب على نعمة العلم ، واحسرتاه على المسلمين ، يسمع المسلم [أشعة إكس] ويسمع كلمة [الراديوم] ويسمع كلمة [الراديو] ويسمع كلمة طول الموجة (٤٨٢) ولا يفهم لهذا كله معنى . المسلمون يسمعون الراديو ويسمعون أن طول الموجة كذا ، ولكن لا يفهمون معنى موجة ولا طولها أما الآن فإنى فهمت وعلمت أن أشعة إكس أقصر قصرا لا حد له من الأشعة البنفسجية التى هى أقصر من الأشعة الحمراء ، وعلمت أن أشعة الراديو أطول وأطول وأطول من الأشعة الحمراء ، وأن الأشعة الحمراء جزء من آلاف من البوصة ، فأما أشعة الراديو فإنها أطول وأطول حتى تصل إلى مئات الأمتار ، الحمد لله على العلم وعلى الحكمة .

دراســـة الجو

ولكنى الآن أريد أن تحدثنى عن الجو الذى نعيش فيه لأنه ظهر لى الآن أن هذا الجو مملوء من أشعة قصيرة وطويلة فماذا هناك وماذا فوق الجو ؟ فقلت : أيها الأخ لقد أدخلتنا الآن فى عالم الجمال والبهاء والصفاء والعلم والحكمة والسعادة ، فقال أيكون أجمل مما عرفناه ؟ فقلت : أجمل وأجمل وأكمل ، فقال :

أنعم بردّ جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت : أخى تعلم أننا الآن فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ، وفى فهم معنى الرحمة ، فقال نعم . قلت : انظر انظر أتدرى ماذا فعل الله بالجوّ ؟ قال لا والله وإلا فلماذا سألتك ، فقلت : بنى فيه قنطرة كبيرة لصدّ أمواج الضوء التى تهلكنا فقال قنطرة كبيرة أتريد أن تقول إنها أشبه بخزان أسوان فى النيل عندنا وخزان جبل الأولياء فى السودان الذى يحجز الماء الزائد عن الحاجة ، والقناطر الكثيرة المبنية على النيل فى القطر المصرى فقلت أحسنت جدًا هو كذلك فقال : أين هذه القناطر ؟ فقلت : ستعرفها وستعرف ماهو أعجب منها ، فقال : وما هو ؟ فقلت : جعل هناك ثلاث مرءاآت تحيط بالجوّ ، وهذه المرءاءات أشبه بمرءاآت الزجاج عندنا وبها يعكس الصوت المرتفع من [الراديو] إلى الأرض .

فهاهنا بالقنطرة التى ذكرناها منع عنا الأشعة المحرقة المرسلة من الشمس لئلا يهلك كلّ حيوان وبالمرءاءات يعكس أشياء ترجع إلى الأرض ، ومنها أصوات [الراديو] فهذا كله من معنى الرحمن الرحيم لأنه لشدّة رحمته يحفظنا من العطب بالقنطرة ويعطينا العلم والحكمة والفهم بتلك الأصوات كما يفرح قلوبا وقلوبا بها ، فهذه من الرحمات التى لا حدّ لها .

واعلم أن للجوّ طبقتين معروفتين : إحداهما هى التى تحيط بنا مباشرة وتبلغ (٧) أميال ، وثانيتهما هى التى تبلغ (٧) أميال أخرى فوقها فالسبعة الأولى تسمى [تروبو سفير] والثانية تسمى [ستراتو سفير] إن فى الطبقة الأولى الرياح ، والزوابع ، والأعاصير ، والسحب ، والمطر ، والثلج ، والبرد وغيرها ، والثانية ساكنة لاشىء فيها من ذلك ، وفى الطبقة الأولى غازات مختلفة ، وفيها الهواء الذى نحسه [أكسوجين]

وأربعة أخماسه [أوزوت] ومع ذلك يكون بخار الماء وغيره ، وبخار الماء لا يخرج إلى الطبقة الثانية، فإن الرياح تردّه ليكون سحابا ومطرا الخ ، والسحاب يرتفع عن الأرض بضع مئات من الأقدام إلى نحو [ميل] أو أكثر منه ، وعلى سحاب يبلغ نحو خمسة أميال أو ستة ، وأعلى هذه الطبقة يصل إلى خمسين درجة تحت الصفر .

وقد ظنّ العلماء سابقا أن البرودة تستمرّ فى الزيادة ؛ ولكن علماء القرن العشرين علموا أن الطبقة الثانية لا تزداد البرودة فيها ، بل تميل الى ارتفاع الحرارة .

ولقد أرسلت روسيا منطادا سنة ١٩٣٤ فوصل إلى ارتفاع (١٣٫٧) ميلا ، وذلك لأن هذه الطبقة قد ظهر أنها ثابتة فيها حرارة ما .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : هذا حسن قد عرفت هذه الطبقة والتى فوقها .

المرءاءات الثلاث والقنطرة فى جو السماء

فأريد أن أفهم القنطرة السماوية والمرءاآت الثلاث ، فقلت :

[أولا] إن فى الجو على ارتفاع (٢٥) ميلا طبقة (الأوزون) وهو نوع من الأكسوجين مركب الجزء الواحد منه من ثلاث ذرات لا من ذرتين فقط ، هذا الأوزون طبقة تحيط بكرتنا الأرضية ، وهو الذى يمنع عنا الأشعة التى فوق البنفسجية ولا يرسل لنا منها إلا ما ينفعنا . فأما ما عداه فإنه يرسل من خلاله ، الله أكبر الله أكبر ، لك الحمد ربنا أحطت أرضنا بسياج من الأوزون يمنع عنا المهلكات الضوئية التى تقتلنا وتقتل كلّ حيوان « إنا كلّ شىء خلقناه بقدر ـ وما كنا عن الخلق غافلين » نعم بسم الله الرحمن الرحيم هذه هى الرحمة .

إن موجات الراديو لا تخالف موجات الضوء فى طبيعتها وإن كانت أكبر منها (بضعة آلاف الملايين] لأنهما كليهما يسيران على خط مستقيم ، وكلاهما يوقه الجسم الصلب .

الكلام على الطبقات الثلاث المحيطة بالكرة الأرضية التى سميناها مرءاآت كما سمينا الأولى قنطرة ، تصد الضوء وتحيط بالأرض .

إن موجات الراديو وإن كانت مثل موجات الضوء كما تقدم تخالفها فى أن موجات الراديو نسمعها وإن كانت فى جهة بعيدة عنا ، فالبعيد عنا منها كالقريب ، والسبب فى ذلك أنها عند ارتفاعها تقابلها طبقة فى الجو تعكسها ، وهذه الطبقة على بعد (٦٥) ميلا ، فهذه الطبقة متى قابلت الأمواج الصوتية عكستها كما تعكس المرآة الضوء ، ومعلوم أن الموجات تسير فى الثانية (١٨٦) ألف ميل ، فإذا ارتفع الصوت ورجع إلينا عرفنا ارتفاع تلك الطبقة بحساب الزمن ، وقد وجدوا على بعد (٢٥٠) ميلا بهذه الطريقة طبقة ثانية ، وهكذا عرفوا أخرى عاكسة ثالثة ، وارتفاعها ثلاثة ملايين ميل : ويقولون إن هذه الطبقة ربما كانت من كهارب ترسلها الشمس ، إن موجات الصوت عند ارتدادها إلينا نعرف منها أنها وصلت إلى جو دافىء ، ولهذا عرفوا أن هناك جوّ [استراتوسفير] للتقدم ، والقذائف تصل إلى بعد معين وترجع فعرفنا أنها تصل الى [استراتوسفير] المذكور .

زرقة السماء

يعجب الناس من أن لون السماء الزرقة ، مع أن ألوان الشمس سبعة فكيف اختص لون السماء بالزرقة؟ ولقد أجابوا عن هذا بأن لون موجات اللون الأزرق أقصر من غيرها ، وبهذا القصر صارت أقرب إلى ذرات الغبار والبخار فى الجو ، فبهذا الاقتراب فى المقدار والطول تقدر تلك الذرات أن تمزق موجات اللون الأزرق فيصل إلى عيوننا فنرى الزرقة : أى إن ذرات البخار والغبار لا قدرة لها على تمزيق غير الموجات الزرقاء ، ولو قدرت على تمزيق الحمراء والخضراء والصفراء لكان اللون بأحد هذه الألوان .

هنالك قال صاحبى : ياسبحان الله هذا كلام جميل وعجيب جد عجيب ، من ذا الذى كان يظن أن فوقنا أربع طبقات : إحداها لمنع الهلاك عنا ، ولولاها لاحترقنا ، والأخريات لحفظ الأصوات ونحوها فترجع إلينا لإسعادنا ، فالطبقة الأولى من الأمور الضرورية والحاجية لحياتنا ، والأخريات من المكملات ، وهذا قوله : « وما كنا عن الخلق غافلين » . وقوله « إنا كل شئ خلقناه بقدر » .

قلت : أحسنت ، إن هذه العجائب تعرفنا بطش الله وقدرته وسعة علمه ، وفى نفس الوقت شدة رأفته ورحمته ، فبالإحسان بهذه الطبقات ونحوها يحب ، وبسعة هذه العوالم يخشى بأسه ، وهذا قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

الرحمة والعلم

سبحانك اللهم وبحمدك رحمت وعلمت ، رحمة بلاحد وعلما بلا نهاية ، رباه أنت بعلمك وبرحمتك استفدنا الحياة والسعادة « ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما » نعم رحمتك مصحوبة بالعلم ، والرحمة التى لا يصحبها العلم وبال ، أرسلت أمواج الضوء من الشمس هى رحمة كما أرسلت ماء نهر النيل من جبال السودان وهى رحمة هى رحمة ، ولكن لو أننا تركنا ماء النيل يجرى بلا قناطر وسدود كجبل الأولياء وكخزان أسوان وكالقناطر الخيرية لأغرق البلاد والعباد ، وذلك كما كان فى الزمان السابق ، فإن النيل كان يجرى فى الأرض ولا زرع فى أيامه ، فإذا ذهب ماء النيل زرعوا الأرض .

سبحان الله : هانحن أولاء قد بنينا القناطر لحفظ الماء وأنزل لنا بقدر معلوم فكثر العمران ، أليس ذلك لأن الرحمة بالنيل قد صاحبها العلم الهندسى فكثر الزرع والضرع فى البلاد .

هكذا نقول فى ضوء الشمس المرسل لنا من الله أنه رحمة ولولا أن الله جعل لنا على بعد (٢٥) ميلا طبقة الأوزون لأطلقت علينا تلك الأشعة النارية التى عبر عنها الله فى القرآن فقال « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان » . يرسل عليكما شواظ الخ » ولكن فرق بين الأشعة وبين النيل ، إن هذه الأشعة لو أطلقت علينا لأهلكتنا مرة واحدة ، ولكن النيل مهما أهملناه فلنا به انتفاع وإن كان أقل .

فهذه الطبقة ، وهكذا الطبقات الأخريات بالنسبة لموجات الصوت قد دخلت فى سر قوله تعالى — ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما — فقوله تعالى — بسم الله الرحمن الرحيم — يتضمن هذا المعنى ، لأنه لم يقل باسم الرحمن الرحيم ، بل قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولفظ الجلالة يتضمن جميع الأسماء والصفات ، منها العلم . أما الرحمن والقادر ونحوها من الأسماء فإنها لصفات خاصة .

قال صاحبي : هذا جميل جد جميل لكن ألاحظ مسألة واحدة . هي آية « يامعشر الجن والإنس » الخ ، فإنك ذكرت الآية عند الكلام على الطبقة الأولى وهي [الأوزون] التي سميتها قنطرة ، وإني أقول إن هذه العلوم أكثرها ظنون ، لأنك في نفس هذا المقال أثبت أن العلماء قبل القرن العشرين كانوا يظنون أن بروحة الجو مستمرة في الارتفاع إلى مالا نهاية له ، ولكن علماء القرن العشرين أثبتوا طبقة ثانية فيها حرارة ما وتميل للارتفاع بعد سبعة أميال فوق أرضنا ، لهذا نقول مثل ذلك في طبقة الأوزون المذكورة ، فكيف شرحت آي القرآن بهذه الظنون والقرآن محقق وأمثال هذا العلم ظنون . قلت . هذا سؤال متين قوي .

ولقد ورد هذا السؤال من كثير وأجبت عنه في جريدة الوادي بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وفي أول عدد من مجلة هدى الإسلام تحت عنوان العلم والدين ، وهذا نصه .

العلم والدين

الحمد لله ما كاد يصل نبأ [هدى الإسلام] إلى مسامع العظماء والأدباء حتى وافانا صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة [حكيم الإسلام] الشيخ طنطاوي جوهري بهذا المقال القيم رداً على مقال نشرته مجلة العلوم الإنجليزية لمستشرق ينكر وجود الرابطة بين العلم والدين ، والكل يعلم من هو الشيخ «طنطاوي جوهري» فهو حديث إعجاب في فم الشرق والغرب ، ومن أراد أن يستجلي الظاهر الكونية ، ويفهم آيات الله في الآفاق فليرجع لمؤلفاته القيمة ككتابه [الجواهر] في تفسير القرآن الكريم فإنه يعد مفخرة للمسلمين وأسوة حسنة يحتذي بها العاملون . قال حفظه الله :

إن دين الإسلام يحض على العلوم ، ويأمر بالبحث ، ويحث النوع الإنساني جميعه على استطلاع الحقائق ولا يقيدهم برأي من الآراء ، بل يكلف كل امرىء بالبحث والتنقيب من تلقاء نفسه ليقف على الحقيقة ، فإن اقتنع برأي غيره من العلماء فيها ، وإلا دحض الفكرة بما هو خير منها ، وإذا قال الله في سورة البقرة « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » وهو الرب الشهيد ، والعالم بالظواهر والبواطن أفلا يجعلنا نحن المخلوقين الضعفاء أحرارا في فهم ما نراه بحسب عقولنا وننسخ اليوم ما أجمعناه أمس وهو القائل « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » وهو الذي يحرم التقليد على القادرين فيقول « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب » فإذا سمعناه يقول « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويقول « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » ويقول « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » ثم أتبعها بقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أفلا نفهم من هذا القول أنه لايقترب منه بالحب والخشية إلا الدارسون لهذه العلوم التي في السموات والأرض ، وأن من عداهم أقل منهم حبا وخشية ، وأن هذه الدراسة مناطها العقل وحده والتقليد مبعوث لمن يستطيع التعقل والفهم .

فإذا درسنا علم الفلك عند سماعنا الله يقول « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » فلا نتقيد بمذهب من المذاهب ، فإذا كنا في القرون الوسطى درسنا في أن الشمس

دائرة حول الأرض ولاحرج علينا ، وإذا درسناه فى هذا الزمان درسناه باعتبار أن الأرض دائرة حول الشمس . وليس ذلك منافيا للدين ، لأن الله لم يأمرنا بأن نتبع رأيا خاصا ، بل وكل الأمر لعقولنا ، غاية الأمر أننا إذا وجدنا رأيا لايسير مع العقل رفضناه ، وقد حصل هذا فعلا ، فإن علماء الإسلام قد كشفوا دوران الأرض حول الشمس قبل كشف غاليلو الإيطالى ، وكوبر نيكوس البولونى ، ونيوتن الإنجليزى بمدة ١٥٠ سنة ، وهذا فى كتاب الموافق للمؤلف فى ذلك التاريخ الذى ذكرناه وقد اتفق المصنف والشارح له على ماسيناه فليقرأه من أراد ، والكتاب معروف مشهور فى كل زمان فلم يقم من علماء الإسلام مضادون لأصحاب هذا الرأى ، بل قدسوهم ، وهذا الكتاب فى علم التوحيد ، وإذا سمعنا الله يقول « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » فإننا لانتقيد برأى عالم من العلماء فى تقسيم النبات ، بل نتبع الأقرب إلى العقل ، فإذا رأيناهم قسموه باعتبار الأشجار والشجيرات وأنواع النبات بحسب أشكالها الظاهرة ، ثم رأيناهم قسموه تقسيما آخر باعتبار الزهرات ذكور والإناث فنحن نقبل ماهو أقرب إلى الحقيقة ، ولانقول إن هذا يخالف ديننا ، لأن ديننا لايعين رأيا منهما ، بل وكل الأمر إلى عقولنا نحن ، وهل دين الإسلام هو الذى ينقض بنيانه ويضعف شأنه لأحداث رأى جديد ، ألم ينص الله على احترام حكمين فى قضية واحدة صدرا من داود وسليمان عليهما السلام ، وثانيهما أدق حكما من أولهما فى مسألة الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، فترى القرآن يصرح بأن سليمان أعطى فيها فهما ، وإن كلا منهما أوتى حكما وعلما . إذن ليس الإسلام هو الذى تزلزله الأوهام فلاينقض بنيانه لارتقاء العلم كأن ندرس مسألة سرعة الحس الجارية من الأطراف إلى الدماغ ، فترى علماء من أهل العصور المتأخرة يقولون : إن السرعة باعتبار مائة قدم فى الثانية ، فجاء آخرون وحققوا أن السرعة تبلغ مائة وعشرين مترا فى الثانية ، إذن القرآن الذى يقول : « وفوق كل ذى علم عليم » يحرض على ذلك بل يأمر به ، بل إن فى القرآن (٧٥٠) آية تحض على هذه العلوم التى لايعرفها إلا العقل الذى يدرس العلوم على حسب طاقته وتظهر له على حسب استعداد الأمم ، ولذلك خاطب الله سبحانه وتعالى الناس فقال « خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون » . أى إننى أنزل العلوم على عقولكم بمقتضى استعدادها ولم أنزل عليكم علما قبل استعدادكم له ، ويقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » إذن ربنا يخبرنا أنه يعطينا العلم بالتدريج ، وأننا سنكون علماء بعجائب خلقه . هذا هو دين الإسلام الذى لا تقوم له قائمة تامة إلا على العلم . أما ماعدا هذا الرأى فانما هى وساوس تلقى لأناس تجهل العلوم أو تجهل الدين أو تجهلهما معا أو لأناس قيدوا أنفسهم بدين آخر فخيل لهم أن دين الإسلام كدينهم ، وهذا رأى مبنى على شفا جرف هار .

وعلى ذلك إذا سمعنا [فرانسيس باكون] من أعلام الانجليز فى القرن السابع عشر الذى انتخب عضوا فى مجلس العموم . وقد برع فى العلوم وظهرت باكورة أعماله سنة ١٦٠٦ م يقول : إن من الغباوة أن نصرف وقتا أكثر من اللازم فى المذاكرة والاطلاع على الكتب ، ومن الكبرياء السخيف أن نفخر ونزدهى بمعلوماتنا ، وليس من الحكمة وأصالة الرأى أن نأخذ بما فى الكتب قضية مسلمة ، مثلنا فى ذلك مثل الطالب الصغير ، إن الاطلاع مفيد ولكنه يكون أفيد لو اقترن بالتجربة وللملاحظة .

« إن القوى الطبيعية فى الإنسان تشبه الكائن الحى فهو فى احتياج دائما إلى الغذاء والتشذيب بالدرس ، والمذاكرة لا تؤتى نتائجها المرجوة إلا إذا طبقت عمليا عن طريق الملاحظة والتأمل ، أقول إذا سمعناه يقول

ذلك فإنا نقول هذا هو صريح القرآن . وهذا هو دين الإسلام وجوهره وأصله فهو يقول « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وهو الذي يوبخ الجاهلين القائلين « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » فرد عليهم قائلا « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فإذا عرفنا هذا فما أيسر أن نقول لهذا الفيلسوف [فرنسيس باكون] ذلك العلامة الذي رتب العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية بترتيب غير ما كان معمولا به من قبل . وقد سارت جميع الدول على قانونه ونظامه حينما نسمعه يقول ماضه [إن من الخطل في الرأي محاولة تطبيق النظريات العلمية على مبادئ الدين لأن ذلك مضيعة الوقت وزج بالنفس في طريق الإلحاد يجب أن يعلم بأن الدين مبعثه الاعتقاد فهذا يرحنا من عناء البحث إذا ما وجدنا منه شيئا لا يتفق مع العقل ويبعد عن نفوسنا الشك القاتل الذي يقلق بالنا ويسبب لنا الحيرة ، وقد كان الشك دائما ، وفي كل عصور الفلسفة الداء العضال الذي يقتل في الإنسان غريزة حب الاستطلاع ويقف عقبة في طريق تقدمه ورقيه ، وآثاره بارزة في فلسفة السوفسطائيين ، وفي العصر الأخير من الفلسفة اليونانية التي تفرعت إلى مذاهب شتى . وانتهت آخر الأمر إلى جعل الفكر خادما مطيعا للعقيدة ووضع آخر المذاهب الفلسفية في التاريخ القديم ، وهو فلسفة الأفلاطونية الجديدة] .

أقول : إذا سمعنا هذا القول من هذا الفيلسوف فما أيسر أن نقول له أن كلامك ينطبق على الديانات التي جاءت قبل الإسلام ، أما دين الإسلام فها هو ذا ، وإذا سمعنا هذا العالم يقول يجب ألا يكون عمل العقل كعمل العنكبوت الذي نسج من لعابه خيوطا ، والنحل الذي يجمع غذاءه من غير ترتيب ، بل يجب أن يكون كعمل النحل الذي يستخلص من الزهور مواد يصنع منها العسل فلنقل له هذا هو الذي توخيناه في تفسير القرآن المسمى « بالجواهر »[1] .

ثم أقول . ليعلم الجميع أن التفسير الذي ألفته لم أكتبه إلا بعد اتقان وبحث خاص ، واقتناع تام بهذه النظرية التي قدمتها ، وليعلم أهل الشرق والغرب أن هذه الفكرة صادفت رواجا عظيما ، وأثرت القلوب حبها ، وسيأخذ المسلمون في القريب العاجل حظهم في هذا الوجود ويدرسون الحقائق ، وهذا أمر حتم وصدق ، وإذ ذاك يفهم الناس قول الله لأتباع دين الاسلام « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » انتهت الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

لما كتبت هذا العنوان حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال :

سيدي لقد عجبت من تعبيرك بالجوهرة ، مع أن عادة المصنفين أن يعبروا بالأبواب ويجعلون تحت الأبواب فصولا ، ولعلك غلب عليك التعبير بالجوهرة لأنك مغرم دوما بما يوافق قلبك ، وإلا فلماذا تراك تكثر من ذلك والمناسبة ظاهرة وواضحة ، فقلت : أيها الأخ ، لقد خطر لي هذا في نفسي وأخذت أجيل الفكر فيه منذ أيام فلاح لي أمر عجب ، ماهو هذا الأمر العجب ؟ هو الجمال والكمال والبهاء والنور والعرفان هو الحسن والإشراق ، هو السعادة العظمى ، هو للسرة ، هو البهجة ، أن هذا العالم إذا نظرنا إليه نظرة سطحية رأيناه عالما كثير الشرور ، عظيم الأحزان والآلام ، والوجود والهموم ، حرب وضرب ، وعداوة

(١) تم طبعه في العام الماضي في ٢٥ مجلدا .

وحسد ومرض ، وموت وفراق ، وشدائد وقحط ، وزلزلة وخسف ، وهلاك أمم واستعباد أخرى ، إن ذكرى ذلك تنغص العيش ، وتؤلم النفس ، وتقلب للسرات آلاما ، والأفراح أتراحا ، والقرآن والكتب السماوية ورد فيها أمثال ذلك « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد » .

هذه أوصاف الدنيا ، ولكن للمفكرين من نوع الإنسان الذين اصطفتهم العناية الإلهية لهم نظر آخر ، ولهم وجهة غير هذه الوجهة الظاهرة ، لهم نور ونعيم ، ولقد يخيل إلى أن هذا الفريق مبثوث فى الأرض مجهول للناس يعيشون بينهم ، وكأنهم من عالم آخر ينظرون إلى هذه الدنيا نظرة أجمل ، وتتجلى لهم بهيئة عروس تجلت فى حبر تبهر العقول وتذهل العقلاء ، فهؤلاء يرون هذه الدنيا فملا جوهرة بهيئة بهجة تسر الناظرين لا يعبأون بظواهرها ، بل قلوبهم ناظرة إلى جمالها ، هذا الجمال الباهر ، الجمال الساحر ، فإذا فكروا فى هذه الحيوانات المرسومة سابقا ، وقد حمل كل حيوان وحشى إجراءه على ظهره أو أخذ يداعبه ويطعمه ويسقيه يرون فى نفوسهم مسرة لا حد لها ، ويرون عناية فائقة ، وتتحول أنظارهم عن هذه المظاهر الى ما تحتها ويقولون : إن الأصل فى العالم الرحمة ، الأصل فيه الجمال ، الأصل فيه الكمال ، وينظرون إلى صانع هذا العالم نظرة الحب ، نظرة الغرام ، نظرة الشوق يحنون إليه ، ويشتاقون إلى لقائه ، ويودون أن تدوم مسرتهم به وإنى لأحس فى نفسى بأن هذه الطائفة التى تعشق هذا الجمال وتفرح به تكون سعادتها حاضرة عندها من الآن ، وأمثال هؤلاء أشبه برجل له كنز مدفون هو يعلمه ، والناس حوله لا يعلمون ، فهو فى فرح دائم لأنه يعلم أنه مالك ملكا عظيما يورثه سعادة نفيسة بالغنى وبالثروة ، ولا يهتم بابراز ذلك الكنز ، وظهوره . كذلك هذه الطائفة فى هذه الحياة الدنيا حينما يقرءون أمثال ما نكتبه فى هذا التفسير فإنهم يشعرون بعزة وسعادة وجمال مشرق ، ولا يستعجلون الجنة ، بل يعلمون علما لا شك فيه أنهم الآن أمام رءوف رحيم ، منعم متفضل ، وينسون كل مكروه وكل كرب لما يذوقون فى أنفسهم من ذلك الجمال ، ويقولون ما هذه العناية ، كيف نرى شموسا تدور بحسوبة حسابا متقنا ، كل ذلك لإسعادنا ، كيف نرى فضاء يظنه الناس خلاء : أى لا شىء فيه وهم مخطئون يقولون : لا سماء فوقنا ، وعند التحقيق يكشف لهم العلم الحديث على مقتضى ما وصل إليه علم النوع الإنسانى الآن : أن فوقنا كما تقدم طبقات فوقها طبقات على أبعاد تختلف ما بين (٢٥) ميل و (٣٠٠٠) ميل ، وهذه الطبقات جعلت لمصالحنا طبقات مكورة يدفع بعضها الأذى عنا إذا نزل من العوالم البعيدة ويحفظ بعضها أمواتنا فترجع إلينا فى [الراديو] لمنافعنا . ثم إن نفس هذا الجو عالم قوى متين مع أن ظاهره أنه فراغ لا شىء فيه .

وأنه قال [للشيء] إن المليمتر من هذا الفراغ يحامل ثقله لو كان مادة ثقل [ألف طن] ومعلوم أن الطن يبلغ نحو ٢٢ قنطارا ، فإذا فكرت فى ذلك هذه الطائفة دهشوا من هذا الجمال ومن هذه العناية ، فهم فرحون بالرحمة الشاملة أولا ، وفرحون ثانيا بأن ما جاءت به الكتب السماوية من ذكر أن السموات شداد فضلا عن كونها موجودة ، كل ذلك قد كاد يظهر للجمهور بهيئة غير التى تصوروها . وليس معنى قولى هذا أن الطبقات الثلاث التى ذكرناها آنفا فى مسألة الراديو هى سماوات ، كلا ، وإنما هذه تدلنا على أن معارف الناس أبعد من أن تصل إلى نهاية هذه الحقائق ، وإنما هذه تدل على جمال وكمال وعزة وعظمة وحكمة لا حد لها ، وإذا أضيف ذلك إلى ما أثبتته الحكمة من أن موت الحيوان وأكل بعضه بعضا وفناء الأعمار ، كل ذلك مبنى على حكمة عادلة كما أضفنا فيه مرارا فى هذا التفسير ، إذ ثبت ثبوتا لا شك فيه أن للموت نعمة كما أن الحياة نعمة ، ولولا الموت ما كانت الحياة ، ولو دامت هذه الحياة على الإنسان والحيوان والنبات لكان

ذلك خللا فى النظام ، وجهلا بقواعد الرحمة ، وخروجا عن سنن الاعتدال ، فلا بد من أن تخلع صورا وتلبس صورا أخرى ليستخرج ما كمن فيها من القوى والمعانى ويبرز ذلك للوجود .

إذن هنا جمال ، هنا كمال ، هنا حسن ، هنا إشراق .

ما الناس سوى قوم عرفوا وســـواهم همج الهمج

فهذا هو الذى تجلى لى أيها الأخ فى السبب فى تسمية هذه العلوم التى فى هذا المقام جواهر .

فإن الجواهر إنما هى تلك التى تتولد فى الصدف الغائص فى قاع البحر ، وتلك الجواهر أغلى ما فى البحار لأن فى البحار حيوانات ، وفيها مرجان ، وهذه الجواهر أجمل من المرجان وأغلى منه وأغلى من جميع ما فى البحار كذلك هذه المعانى التى نبرزها فى هذا الكتاب ينبغ بها عقول وعقول ، وتصبح تلك العقول مشرقة بهيئة نسبتها إلى بقية العقول فى الأرض كنسبة الجوهر فى صدفة إلى بقية ما فى البحار من العوالم البحرية ، بل هـذه الطائفة فى الأرض تشرق عليها هـذه العلوم وتتجلى فى أفئدتها وتكون تلك الأفئدة أشبه [بالبؤرة] .

حينئذ سألنى صاحبى قائلا : ماهى البؤرة ؟ فقلت : ياصديقى أنت تعرفها ، ألم تدرس فى هذا التفسير أن [العدسة] البلورية إذا عرضناها لضوء الشمس وأشرقت عليها وسرت أنوارها فى ثنايا تلك البلورية ، فإن ألوان الشمس السبعة تجتمع وراءها وتكون بيضاء ، وذلك فى نقطة خاصة وراء العدسة كما يحصل ذلك فى عين الإنسان ، فإن الضوء يدخل فى عدسيتها ويجرى وراءها ويرتسم على شبكيتها وتلك الشبكية فى نفس البعد الذى يجتمع فيه أشعة الشمس مثلا ، وهذا هو المسمى [بؤرة] هكذا هـذه العقول الإنسانية الخاصة التى خلقت فى هـذه الدنيا واصطفاها الله لذلك الجمال تكون مركزا يحوى جميع مايصـل إليه من الأشعة العلمية فى الجو والسحاب والسماء والأرض ، ويكون إشراق أنوار تلك القلوب على مقدار ماوصل إليها من أشعة العلم وتكون تلك الأشعة فى القلوب أشبه بالجوهرة من حيث تلألؤ وجمالها .

فلما سمع صاحبى ذلك قال . أما الآن فقد ظهر الحق واستبان السبيل ، وعرفت لماذا عبرت بالجواهر فى أغلب كتبك وفى هذا الكتاب ؟ فقلت : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله والحمد لله رب العالمين .

كتب هذا فى يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٤ و ٢٢ إبريل سنة ١٩٣٥ صباحا .

السعادة بالمحبة والسعادة بإنكار النفس والسعادة باتحاد القلوب

وأن ذلك حاصل فى نظام الطبيعة

ثم حضر صديقى بعد الظهر فى نفس اليوم وقال : لقد خطر لى بعد تمام الموضوع صباحا أنه فى حاجة إلى إكماله وازدياد شرحه فإنى أريد أن نستخرج من هذا القول كيف يسعد الفرد بالمحبة وبإنكار النفس ، وكيف يسعد المجموع بتفانى كل فرد من أفراده فى خدمة المجموع وحبه والإخلاص له ؟

فقلت : أيها الأخ لقد طلبت مطلبا عزيزا نفيسا يعز الوصول إليه ، ولكنى سأجد فى البحث عنه والجد والتشمير فى استخراجه ، وبالله أستعين فأقول :

لله ما أجمل العلم ، وما أبهج الحكمة ، جمال رائع نراه يبهجنا منظره ، ويسرنا مرآه ، أفواج من العوالم تعطينا دروسا ونحن عنها غافلون ساهون لاهون ، أمهات يحرصن الحرص كله على فلذات أكبادهن من حيوان وحشى وبهائم وإنسان ، كلهن ينكرن أنفسهن ، يجاهدن حفظا على تلك الذرية تود إحداهن لو تفتدى ولدها بأعز ما تملك ، ويبذل روحها وتنسى كل نعيم وكل بؤس ، ومتى سلم ولدها تنفست الصعداء ورفعت طرفها إلى السماء وقالت : رباه لك الحمد ، لك الحمد .

وهذه طوائف الحيوان المصورة آنفا تشهد بذلك . إذ تحمل بعضها صغارها على ظهرها ، وبعضها يداعب ولده . وإن من الحيوانات كالعقارب ما تدع أطفالها تعيش على ظهرها وتغتذى بجسمها ، وهى فرحة وسعيدة ، ولا تمضى أيام حتى تكون قد أسلمت روحها بعد أن صارت أجزاء جسمها غذاء لذريتها ، وقد فارقت الحياة مبتسمة راضية فرحة ذات فخار وسعادة وهناء ، أليست هذه سعادة ؟ أليس عمل الأمهات ظاهرا واضحا والناس عنه غافلون هاجعون نائمون ؟

هذا درس أعطاه الله لنا وأبرزه بصورة ظاهرة واضحة يقول لنا : الرحمة الرحمة ، « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وفى الحديث الذى سنذكره قريبا : إن الله أرحم بعباده من الأم بولدها ، الله أكبر ، الله أكبر ، نعم نعم إن هذا لا يفهمه إلا درس علوم الكائنات ، أما غيره فلا يعرفه إلا بالسماع والتقليد بلا فكر .

إن المفكر العاشق للعلم تدهشه تلك الرحمات التى لا عد لها ، أنوار الكواكب والشموس والأقمار الساطعات على الأرض ، وبعض هذه الأنوار يختلط بالنبات فيكون سببا للتفاعل مع العناصر والماء وإنتاج الثمرات والحبوب والنعم التى لا حصر لها لينتفع بها الإنسان والحيوان ، وما هذه الحرارة السارية فى الكائنات التى لا يعيش الحيوان بدونها ، وبها تكون الرياح ، وترتفع البخار ، ويجرى السحاب ، وتكثر الأرزاق وما هذه الموانع والحواجز فى الجو التى بها يسلم الحيوان من الهلاك بمنع سقوط الأمواج القصيرة الآتية لنا من أقاصى السموات العلى ، وكذلك التى تمنع الحركات الصوتية من الذهاب إلى مدى غير محدود فنحرم من الانتفاع بها ، ما هذا الكون المنظم الذى يستمد بعضه من بعض ؟

رحمات لا حد لها ، أما رحمة الأم فإنها مقيدة محدودة على مقدار طاقتها . أما رحمات صانع العوالم فإنه قد جعلها فى عوالم وراء عوالم ، ونظمها كلها وأمد بها الفرد والجماعة ، وأصبح كل فرد فى حاجة إلى جميع هذه الرحمات ، فإذا أحس الطفل بحب أمه لما يعلمه من برها وحبها ، فإن العالم المفكر العاشق للبحث يحس من هذه العجائب والرحمات بما لا حد له منها ، وحينئذ ينمو حبه لصانع العالم على مقدار علمه بتلك الرحمات البهجات ، ومتى ازدادت تلك المعارف ورسخت وأحس بها العارف استغرق حب صانع العالم قلبه وشغله عن جميع ما سواه ، فنسى الهموم والأحزان ، ونسى كل نعيم ما عدا ذلك الحب كما نسيت الأم كل نعيم وكل بؤس إلا صيانة فلذة كبدها ، وإن كان هذا التشبيه ليس تاما من كل وجه ، لأن حب الوالدة لولدها حب منشؤه الرحمة ، أما حب الحكيم المفكر لصانع العالم فإنه كحب الطفل لأمه ، منشؤه إغداق النعم عليه .

عشق الفتيان للفتيات

وفى عشق الفتيات للفتيان ضرب مثل لإنكار الذات ، فلقد تواترت الأخبار فى زماننا عن شبان كانوا وارثين لعروش آبائهم ، ولكنهم تركوا تلك العروش ونبذوا الملك ورضوا باحتقار شعوبهم لهم وذهاب جاههم وسمعتهم بسبب اقترانهم بمن لسن من بيت الملك ، والإحساس بالجمال هو الذى جعلهم هاجعين فى ذلك الحب وأضاعوا ذلك المجد ، ولقد تكون الفتاة ذات مجد وعز شامخ ، ثم تذر ذلك كله وتعيش

حياة بؤس فى قفر مع من تحبه ، نحن لسنا فى مقام استحسان العمل أو استقباحه ، إنما نحن الآن فى مقام دراسة هذا العالم لنستنتج منه كيف تكون السعادة ، فلم نجدها إلا فى نحو الحب وغرام النفوس وولوعها بأمر واحد ، فإن ذلك الغرام يحول بينها وبين أحزانها وآراحها ، وتبقى بسبب ذلك فى نعيم مقيم مادامت حية ، وجعلنا ذلك ضرب مثل لما نحن فيه ، فالأمهات أحبت أولادهن شفقة ورحمة ، والعاشقون والعاشقات أغرم كل بالآخر ولوعا بالجمال ، ويتبع ذلك الرحمة والرأفة .

نتيجة ذلك كله أن المفكرين فى هذه العوالم تهرع قلوبهم ونحن إلى صانع العالم محبة وغراما ، يذكرهم به طلوع الشمس وغروبها ، وبزوغ القمر ، وطلوع النجوم وتلألؤها فى جو السماء ، وهبوب الرياح وخطرات النسمات ، وتمايل الأغصان ، وبسمات الأزهار ، وطل الندى ، وخفيف الأوراق ، وخرير الأنهار وصرير الأبواب ، ورنين الحشرات ، وتألق البرد ، وسقوط المطر ، ومنظر النيران ، ومنظر البرق ، وسماع الرعد ، وينسيهم ذلك هموم الحياة وأثقالها ، ويقول أحدهم فى نفسه : متى أصابنى مكروه فإن أزمته سريعة الزوال قريبة التحول ، والملتقى قريب ، وغدا أو بعد غد ألاقى من أنا فى شوق إليه ، وقلبى يهفو إليه .

ولقد أثبت علماء التربية اليوم فى أنحاء الممالك الأوربية أن المدرس الذى ليس مغرما بعلمه ودراسته ليس سعيدا ، فهو شقى بتلامذته ، وتلامذته أشقياء به ، فأما إذا صار العلم غراما عنده وهو به مولع فإنه يكون سعيدا به مسعدا لغيره ، إذن حياتنا لاسعادة فيها ألبتة إلا بأن يكون الإنسان مغرما بما هو قائم به . والحكماء خاصة ومفكرو الأمم سعادتهم الخاصة بهم عشق العلوم جميعا ، وحب صانعها الناجم من دراسة العوالم ، ذلك هو الصراط المستقيم ، والله يقول « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ويقول « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

فانظر إلى التعبير بالرحمن واعجب ، أليس ذكر الرحمن فى هذا الآية يرجع إلى جميع ما ذكرناه ؟ ألا ترى أن الإنسان إذا غفل عن دراسة العوالم الموجبة لحب صانعها يتخبط فى ديجور الظلمات وتحدثه نفسه ، وتوسوس له شياطينه ، فيقول : ما هذه العوالم المبعثرة المتناثرة ؟ وما هذا الموت والمرض ؟ وما هذه الحياة ؟ وهكذا حتى تصبح حياته كلها آلاما وأحزانا وندامة وهو فى الأذلين .

سعادة الجمعية الإنسانية واستنتاجها من العوالم الطبيعية

لك الحمد رباه ، لك الشكر خالصا ، لقد منننت علينا بالعلم وأورثتنا من الحكمة ما نعرف به الجمال فنستدل به على مقاصد الإنسانية السامية من العدل والإخاء والسعادة العامة .

ياسبحان الله ! ألسنا نرى حيوان [الزوفيت] الآتى وصفه قريبا . وكيف كانت أفراده مرصعة جميعها على أغصان متجاورة ، فهى فى أسلوب معيشتها أشبه بأسلوب معيشة النبات من حيث أن الأوراق مشتركة فى أطعمتها وأغذيتها متبادلات المنافع متحابات لاظلم لاجور لاحسد لابغض ، فهذه الحيوانات كل منها له فم وشوارب حساسة وأعضاء هضم كما ستراه ، وكلهن تمد المخزن العام بما لديها من العصارات الغذائية ، وهن من جهة أخرى يستمددن الأغذية من ذلك المخزن العام ولاعتاب ولاحساب ولاقهر ولاظلم ولا كفران للجميل .

أليس معنى هذا أن الإنسان لن يسعد ، ومستحيل أن يسعد مادام غافلا عن هذه الجمهورية ، جاهلا بما فيه من القوى الكامنة المدفونة فى جبلته التى يعوزها عمل وعلم حتى تظهر وتستخرج كما تستخرج الكهرباء بالأعمال المعروفة فى العلوم اليوم بين أمم الأرض أجمعين .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد أجدت وأفدت ، وعرفت حقيقة لم سميت هذه المقالات بأسماء الجواهر وأن هذه العوالم تصبح عند الحكماء كالجوهرة في الجمال بعد البحث والتنقيب ، وأن عقولهم وقلوبهم مراكز لاستقبال ذلك النور والبهاء الساطعين للشرقين من العوالم المحيطة بهم حتى تصبح مشبهه جمال العوالم من حيث إشراقها وبهاؤها ، وأنهم بذلك ينسون كثيرا من هموم الحياة وأسقامها ، وأنهم ليسوا يهتمون بالنعيم الدنيوي ولا بالشقاء الانساني ، فإن الحب يغطي تلك الرزايا ويغشى على تلك النعم فيصبحون مغمورين في جو من نور العرفان ، وأن ذلك يجعلهم هائمين بالحب لصانع العالم ، وبالحب لأممهم يكونون عونالها في رقيها وإسعادها وإغاثتها من الجهالة ، ويكونون خلفاء الله في أرضه ، وينسيهم أنواع الجمال مايحيق بهم من المكروه كما أنسى الجمال الإلهي الأنبياء ماكان يحل بهم من المكروه ، وماكان يصيبهم من البلاء ، وهكذا تابعوهم حتى قال بعضهم يخاطب أصبعه :

ماأنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

وإذا كنا نرى في الطبيعة الأمهات والعاشقين والعاشقات يبذلن أرواحهن لمن أحبوه ، فبالأحرى والأحرى يكون أولئك الأنبياء وتابعوهم من العلماء والمفكرين ، فهؤلاء يكونون أحرص على هداية الناس وإسعادهم لغرامهم بربهم وحبهم لخلقه تبع الحب لخالقهم .

فهاهنا تجلى لنا معنى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » ومعنى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وفهمنا حقا وصدقا معنى : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال صاحبي : والله لقد تجلى لنا هذا المعنى الآن بأبهج مارأيناه ، وأروع ماسمعناه فالحمد لله على العلم والحمد لله على الحكمة ، والحمد لله على الهداية للصراط المستقيم . انتهت الجوهرة الثالثة .

فقلت له : إذن آن لنا بعد ماعرفت أيها الأخ سر التعبير بالجوهرة أن نبين أن هذه الجوهرة مرصع معها في الكتاب ماستان وأربع زبرجدات .

أما الماستان فإنهما في معنى لفظ الرحمة وفي آيات واردة فيها ، وأما الزبرجدات فإنها أولا في نوع من الرحمة خاص بالتربية العامة بالعوالم الأرضية من الحيوان والنبات والجماد ، وهذا النوع هو المقتضى للحمد لله رب العالمين ، لأن الحمد مبني على الرحمات .

[ثانيا] : في عجائب بعض الحيوان .

[ثالثا] : في الدهشات السماوية من كواكبها ونجومها وسدمها وأبعادها في علم الفلك الحديث .

[رابعا] : فيما تبع ذلك من عجائب وبدائع تسر المفكرين ، فهاهنا ماستان وأربع زبرجدات .

الماسة الأولى

في لفظ الرحمة واشتقاقها ومعناها في اللغة العبرانية والآرامية والسريانية والعربية وفي أحاديث الرحمة .

هاهنا أخذ صديقي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال . قد رأيت في تفسير سورة الفاتحة أنك تقول إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قرأ بسم الله الرحمن الرحيم أدهشته كلمة الرحمن ، وأخذ يحدث نفسه قائلا مم اشتقت هذه الكلمة ؟ وذلك بعد أن ضرب أخته وخضب وجهها بالدم ، وقد رأى أمامه صحيفة تقرأ فيها ذلك وقالت له أخته . لايمس هذا إلا المطهرون الخ .

ثم قرأت قوله تعالى « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » .

ثم قرأت قوله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

قال محدثى : فعجبت كيف يكون الرحمن محل إنكار العرب ؟ ثم كيف يكون مقرونا باسم الله ولم يذكر اسم غيره ، وذلك فى أول كل سورة ، وفى قوله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » .

ثم يقول العلماء : إن الرحمن خاص بالله تعالى ، أما الرحيم فيطلق على العبد ، ولا جرم أن رحمة الله مسلم أمرها له لا يعلمها إلا هو ، وهكذا جميع صفاته ونحن لا نعرف إلا الآثار « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها » .

فقلت . إن ما سألت عنه أيها الأخ قد أفادنى به شاب مصرى قد تعلم فى أوروبا علوم فقه اللغات السامية المقارن ، وعلم مقارنات الأديان وفلسفتها ، وآداب اللغة الإنجليزية ، واسمه [الأستاذ إبراهيم حسن الموجى] فقال . معلوم إن الرحمن يفيد معنى شدة المبالغة فى الرحمة ، فقلت . نعم ، فقال . إن رحم بالعربية يقابلها [رَاحَمْ] بالعبرية ، و [رِحِمْ] بالسريانية وتجدها فى القواميس الإنجليزية السامية بمعنى [أحبّ] .

وفى العبرانية ورد فى البيت الأول من المزمور الثامن عشر [أُرْحَمَكَ يِهوْه حِزقى] وترجمتها فى التوراة بالعربية [أحبك بارَبُّ يا قُوَّتِى] .

وفى الإنجيل السريانى نجد [أُرْحَمْ لِخَبْرِكَ أَيْكْ نَفْشَكْ] وترجمتها فى إنجيل مرقس بالعربية [أحب قريبك كنفسك] .

والرحمن بالعبرية [إِيلْ رخوم] .

وترجمتها بالإنجليزية [الله كامل المحبة] والرحمن أيضا [مَرَحْمَنَا] بالسريانية ، و [رحمن] بالآرامية .

وكلمة [رِحِمْ] العبرانية يقابلها [رَحِمْ] بالعربية ، وهذه الكلمة يشتق منها [رَحِيمْ] وهو مصدر بمعنى المحبة . أى أن المصدر مشتق من هذا الإسم الجامد فى العبرانية ، ولفظه [رَحْمِيمْ] المذكورة يقابلها [رَحَمَا] بالآرامية ، و [رِحْمتَا] بالسريانية .

و [رِحِمْ] العبرانية المذكورة التى هى الرَّحِمُ العربية قد جاء فى القاموس الإنجليزى العبرى أنها بمعنى مركز جميع المحبات .

ومما تقدم ومن غيره يلخص أن رَحِمَ العربى يقابله : رَاحَمْ العبرى [وَرَحِيمْ] ممدود الآرامى ، و [رِحِمْ] السريانى .

وهذه كلها بمعنى أحب فى سائر القواميس الانجليزية السامية ، هذا كلام هذا الشاب المجد . فلما سمعت منه ذلك قلت له ظهر لى من قولك أنك تريد أن تجعل الرحمن بمعنى كامل المحبة ، فقال نعم ، فقلت : لعل الذى جعلك تفعل ذلك إنما هو مكوثك فى انكلترا زمنا طويلا ، ونجاحك فى علوم القوم ، وأنك رأيتهم يذكرون المحبة كثيرا ويفتخرون بأنهم يعيشون فى جو الجمال والحب ، وأن الإسلام ليس كذلك ، فقال نعم : هذا هو الذى أغوانى لهذا البحث ، وقد خطبت فى القوم به لأدلهم على أن الإسلام دين الحب .

فقلت: ولماذا جعلت الرحمن للمحبة وأبقيت الرحيم على حاله المعروف ؟ فقال : الرحيم كان مستعملا عند العرب بهذا المعنى وهو إيصال الخير للغير ، أما الرحمن فهو كلمة غير مستعملة في العربية نزل بها الوحي فبقيت على معناها الذي جاءت به من اللغات السامية الأخرى .

فقلت أولا : إن محبة الله أو رحمته كما تقدم خاصة بعظمته لا يعرفها الناس ، وإنما يعرفون محبتهم هم ورحمتهم الحادثة الناقصة .

وليست للمرأة براحمة ولدها أو الحيوان بمحافظ على ولده إلا المحبة مصاحبة لذلك ، فهاهنا الرحمة يصحبها المحبة ، فكل واحد من المحبة والرحمة يلازم الآخر مع تنزيه الله في الجميع عن صفات العبيد .

وقد جاء في القرآن « يحبهم ويحبونه » . وأما كون الله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة كما يقوله بعض المفسرين فهذا تفصيل يفصله كل عالم على مقتضى ما عنده من العلم ، ونحن لا نتقيد في معنى الرحمن الرحيم بأي قيد ، فالرحمة على كل حال في العباد ملازمة للمحبة .

أما رحمة الله ومحبته فأمران فوق عقولنا لا نعرف إلا آثارهما في العوالم ، ودين الإسلام دين الحب العام ، ومن قرأ الآيات التي تحض على النظر في جمال السموات والأرض التي تبلغ (٧٥٠) آية وهي الدلالة على جمال العوالم كما أثبتناه في هذا التفسير . عرف وتحقق أن هذا الدين دين الجمال والبهاء والحسن والإشراق .

وقد أجمع علماء النفس في أمريكا وأوروبا أن الناظر في جمال هذه العوالم يعشقها أولا ، ويعشق ويحب أمته وتشرق نفسه بالجمال .

ولذلك يقول القوم في كتبهم : ليس بوطني صادق من لم يمتلئ قلبه بحب جمال الطبيعة ، إذن القرآن جاء لإخراج أجيال عاشقة للجمال العام ، مغرمة بالعوالم ، محبة لنوع الإنسان ولخالق نوع الإنسان ، إذن لسنا في حاجة إلى الاستنتاج من اللغات السامية ، كالعبرية ، والسريانية ، والآرامية ، كلا فالقرآن هو المصدر العام لعالم الجمال وللحب وللبهجة والكمال .

فلما سمع ذلك محدثي قال والله بديع وجميل هذا الكلام فلقد احترست كل الاحتراس في قولك ولم ترض بتقييد القرآن بتلك المعاني واستخرجتها من نفس القرآن بهيئة أوسع وأجمل من الاشتقاق من الصفات .

أحاديث الرحمة

وأخذ محدثي يسامرني فقال : إن هذا القرآن مملوء بالجمال الإلهي والحب الإنساني ، ولقد ذكرني هذا بقوله صلى الله عليه وسلم وقد أجلس أسامة بن زيد على فخذه والحسن على فخذه الأخرى ثم ضمهما وقال « اللهم ارحمهما فإني أرحمهما » .

فظاهر من هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تخص رحمته ولا حبه بأبنائه كلا ، هو لا يفرق بين أبنائه وأبناء غيره من العرب وغير العرب كأسامة : هذه رحمة ومحبة عامة نبوية ، والله رحمته عامة ، فرسوله رحمته عامة ، وعلينا أن نقتدي بنبينا صلى الله عليه وسلم فتكون رحمتنا عامة .

فقلت لسميري : لقد أحسنت الاستنتاج فزدنا ، فقال : ورد في الحديث « أنا الرحمن وأنت الرحم ، شققت إسمك من إسمي ، فمن وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

وفى حديث عائشة رضى الله عنها « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تقبلون الصبيان فما نقبلهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة » وفى حديث عمر . قال « قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سبى ، فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبى صلى الله عليه وسلم أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا . لا ، وهى تقدر ألا تطرح فقال . الله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه . هو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » . وفى حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قام أعرابى فقال : اللهم ارحمنى وارحم محمدا ولا ترحم معنا أحدا ، فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال لقد حجرت واسعا » .

فلما قال سميرى ذلك سرنى ، ولم أشأ أن أبحث معه فى أسانيد الأحاديث ، لأن لها شواهد من القرآن والسنة ، وهذا التفسير يصح أن يكون مافيه تفسيرا لمعنى هذه الأحاديث من حيث شمول الرحمة جميع المخلوقات ، فشكرت سميرى شكرا كثيرا لما جاء به من النقل المنطبق على العلم وعلى العقل ، وفى بهاء الله وجماله وحسن إبداعه فتبارك الله أحسن الخالقين .

هاهنا سألنى صديقى قائلا أرجو أن أسمع بعض آيات مفصلات لمعنى الرحمن الرحيم من آيات القرآن التى نزلت نموذجا وتذكرة للرحمات العامة فى العوالم كلها ، انتهت الملاسة الأولى .

الملاســـة الثانيه

فى بعض الآيات المفصلات لمعنى بسم الله الرحمن الرحيم من آيات القرآن التى نزلت نموذجا وتذكرة للرحمات العامة فى العوالم كلها .

عجائب بسم الله الرحمن الرحيم

وكيف سرت الرحمات فى العوالم سريان الكهرباء فى الأجسام وظهر آثار ذلك فى القرآن بالإفصاح عن ذلك الجمال والبهاء .

رباه : بهر صنعك ، وجل وضعك ، وحسن الإبداع فى عوالمنا الأرضية والسماوية عمت الرحمة وظهرت آثارها ، تخفيت على أكثر نوع الإنسان ، إن من شدة الظهور الخفاء ، يعيش الإنسان دهرا ويموت ولا يخطر بباله نعمة الهواء ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم ، لا يحس بذلك أكثر نوع الإنسان .

سبحانك يا الله ! عممت الرحمة ، ومنحت النعمة ، ولكنك حجبت أكثر النفوس عن إدراكها والتمتع بجمالها ، شمس تضىء وقمر ينير ، ونجوم تسير ، ورياح تموج وسحب ماطرات ، وزروع نضرات ، وأشجار بهجات حول أنهار جاريات ، وجبال شامخات ، ومعادن جميلات ، كل ذلك مكشوف منظور ، ولكن أكثر الناس لا يحسون بما فيها من سعادة ، ولا يبهرهم مابها من جمال .

حتى إن الدين المنتشر فى كثير من بقاع الأرض : وهو [النصرانية] زاد الحجب على الرحمة حجابا فلم يبدأ بها كما فى القرآن ، بل قال: بسم الأب والابن والروح القدس إله واحد ، رموز لا تحل ، وكلمات يقف العقل أمامها مبهوتا لا يدرى مالمقصود منها أجيال تموت ، وأخرى تتبعها ، وكلهم فى حل هذه المعميات ذاهل عما فى العوالم من البهجات الرائعات ، والعجائب البديعات .

أما القرآن فإنه يفجأ المسلم بالنعمة والرحمة فى أول آية منه فينطق بالبسملة عند كل صلاة ، وفى خلال الركعات ، وعند الأكل والشرب ، وسائر الأعمال الإنسانية ، ويذكر الإنسان اسم ربه ويتذكر رحمته .

الرحمات فى آى القرآن سارياتٌ كامنات فى الكائنات

يقول الله تعالى :

(١) ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما .

(٢) فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شىء قدير

(٣) تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت .

فهاهو ذا سبحانه ذكر الملك كله الذى بيده ، وذكر عموم قدرته ، وأخذ يشرح تقلب العوالم وأحوال ذوى الأرواح من موت وحياة ، وهكذا أطباق العوالم العلوية ، ثم أتبع ذلك كله بذكر الرحمة التى بها صقل الله ذلك كله ، فإذا كان الرحيم واحدا فلتكن العوالم سارية على ناموس رحمانى واحد ، فلا يكون هناك تفاوت فى نظام الوجود بل يكون التناسق والتناسب والبهجة والجمال .

(٤) وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون .

ذكر الرحمة هنا لاستعانة ذوى النفوس الصادقة بربها ليدفع عنها ضرر أعدائها .

(٥) قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا .

فكما سرت الرحمة فى جميع الكائنات أحس بها المؤمنون فى نفوسهم ، فتوكلوا عليه لشمول رحمته الأجسام والأرواح .

(٦) ورحمتى وسعت كل شىء ـ وبعدها آية « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة » وهذه هى الرحمة التي تخص النفوس صافية .

(٧) الذين أدركوا معنى « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » .

(٨) بخلاف أولئك الذين غفلوا عنها قيل فيهم « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

(٩) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة .

فالمودة والرحمة بين الذكور والإناث من أعجب الرحمات وأبهر الآيات .

فبينا نسمع الله يقول فى سورة القصص إنه لم يجعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة ولم يجعل النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، بل إنه برحمته جعل ليلا وجعل نهارا ، ليتم المعاش ، ويسعد الحيوان والانسان ، وتكون النعمة على كل مخلوق فى العوالم ، وتطمئن المخلوقات فى الأرض .

فيقول : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء

أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

أقول : بينما نراه يقول ذلك ويقص علينا نبأ رحمانه العامات فى عوالمنا الأرضية بالظلمات والأضواء وعموم رحمانه بتناوبهما إذا به يقص علينا نبأ رحمانه فى نفس أرواحنا فيقول فى الآية قبلها نمرة (٩) .

إن الرجل يسكن إلى المرأة بالرحمة المودعة فى قلبيهما كما يسكن الرجل وتسكن المرأة فى الليل ويطلبان المعاش فى النهار .

ثم يختم الآية بالشكر ، فيا ليت شعرى أى شكر على نعمة لم يدرسها نوع الإنسان ؟ وأى نعمة يجهلها أكثر نوع الإنسان أكثر من نعمة الليل والنهار والشمس والقمر وجميع العوالم التى تخدم الإنسان وهو غافل عنها، لعمرى لاشكر إلا حيث يكون العلم بالنعم، ولاعلم إلا بالدراسة، وبهايفهم المسلمون معنى «بسم الله الرحمن الرحيم» .

(١١) إن أسرار بسم الله الرحمن لايحصيها عد ولايوقف لها على حد ، فوالله لوأنى أمسكت بهذا القلم وكان لى عمران أو ألف عمر كعمرى لم أقدر أن أفى بمعنى بسم الله الرحمن ، الله أكبر، فلتقرأ أيها الذكى للفكر سورة الشعراء فماذا ترى ؟ ترى الله يقول فيها :

[ا] « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين » وهذه رحمة موجهة إلى النفوس الانسانية ، وهى رحمات العلم والحكمة .

ثم أعقب ذلك بذكر بعض الرحمات فقال :

« أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين »

[ب] « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

فها هو ذا هنا ذكر الرحمة بعد أن ذكر نبات الأرض ، وأنه ذكران وإناث ، وبينهما تناسل كتناسل الحيوان والإنسان ، وأن الرحمة سارية عامة فى ذلك ، وأتبع ذلك بقصة موسى وفرعون وما تخللها من نعمة الرسالة التى أنعم الله بها على موسى فذكر أن الله رب العالمين ، وأنه رب السموات والأرض ، ورب النوع الإنسانى جيلا بعد جيل ، ورب المشرق والمغرب ، وأتبع ذلك بنصر حق النبوة على باطل السحر وبصبر السحرة على ما خوفوا به من تقطيع الأيدى والأرجل ، والقتل بالصلب ، ثم نجاة موسى وهلاك فرعون ، وختم ذلك كله بالرحمة السارية فى جميع ذلك فقال :

[ج] « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » وفعل مثل ذلك فى قصص إبراهيم إذ نبذ الأصنام وقرع القوم على عبادتها ، وذكر نعم الله بالهداية والإنعام بالطعام والشراب والشفاء من الأسقام وعروج الأرواح من الأجسام لتنجو من شرور عوالم المادة ، وكذلك الحياة التى بها التزود لعالم الأرواح وغفران الخطايا ، وختم ذلك كله بالرحمة فقال :

[د] « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » وفعل مثل ذلك فى قصة نوح بعد أن حاج قومه وأراهم أنه لايطرد الذين آمنوا بل يكفلهم . وختم ذلك كله بذكر الرحمة الإلهية والعزة الربانية .

[هـ] ثم هكذا قصة عاد بعدها وما تخللها من أنباء المؤمنين الناجين والكافرين الهالكين ، وختمت بالعزة والرحمة .

[و] ثم قصة ثمود وكيف عقر القوم الناقة وعصوا ربهم بذلك فهلكوا ، وختم ذلك بالعزة والرحمة.

[ز] ثم قوم لوط وما كانوا يفعلون من الفواحش وهلاكهم وعناية الله بالمؤمنين . وختم ذلك بعزة

الله التى بها أهلك الكافرين ورحمته التى بها نجى المتقين .

[ح] وهكذا شعيب لما أرسل إلى أصحاب الأيكة ، وكانوا يفسدون فى الأرض ، ويخسرون المكيال ويبخسون الناس أشياءهم فهلكوا ، ونجى المؤمنون ، وعمت الرحمة والنعمة لهم .

[ط] وختم السورة بخطاب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر عشيرته الأقربين ، وأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأن يتبرأ من الذين يعصونه ، ويتوكل على العزيز الرحيم ، فهو بعزته يدفع عنه شر الأعداء وبرحمته يتولاه ، وهذا قوله :

[ى] « وتوكل على العزيز الرحيم » فهذه السورة ذكرت فيها الرحمات عشر مرات تتخلل قصص الأمم القديمة السابقة على النبوة وتستمر فى أمة الإسلام وتتخلل أمورها وأحوالها .

عجب يارب ! سرت رحمتك فى العوالم سريان الكهرباء ، وأنزلت كتابك وأخذت تفصل الرحمات فيه تفصيلا تبعا لوجودها فى العوالم والأمم ، فإن ذكرت الشمس والقمر ذكرت الرحمات معهما ، أو ذكرت الليل والنهار أردفتهما بالرحمة ، أو الذكر والأنثى ذكرت الرحمة معهما والأمم والأجيال قرنتها بالرحمة . رباه رحمة وعزة سرتا فى جميع العوالم وذكرتا فى سورة الفاتحة ، فأنت رب العالمين ، رحمن رحيم ، مالك الأمر كله ؛ فالعزة والرحمة ساريتان فى هذا الوجود كما سرى الليل والنهار والموت والحياة والذل والعز والزوجان من كل ذى روح .

سورة الرحمن

وإن أعجب سور القرآن من حيث الرحمات وتفصيلها سورة الرحمن ، الله أكبر ، إن ابتداء القرآن بالبسملة سر الأسرار وبهجة الأنوار ، فقد جعل للرحمة سورة خاصة بها ، وهى سورة الرحمن التى ابتدأها .

(١) بقصة العلم والحكمة والإرشاد والهداية ، بماذا ؟ هذا كله بالقرآن .

(٢) وثنى بذكر خلق الإنسان .

(٣) وثلث بأنه علمه البيان .

(٤) ثم شرع يقص علينا مابينه الإنسان بسبب العلم ، فأخذ يقص علينا قصص الشمس والقمر وحسابهما البديع الجميل الذى لايتم إلا بعلم الحساب والجبر والهندسة والفلك .

(٥) ويذكر كل مالا ساق له من النبات كالقمح والشعير والذرة والأرز ، وكل ماله ساق من الأشجار فى الحدائق الغناء كالنخيل والأعناب والتفاح والرمان وسائر ذوات الفواكه من الأشجار فيقول « والنجم والشجر يسجدان » ولا جرم أن هذه رحمات واسعات كيف لا ؟ شمس وقمر وحساب لهما ، ثم تكون نتائج ذلك الحساب زروع وأشجار يسعد بها الإنسان والحيوان ، ولولا ذلك الحساب الدقيق والصنع الجميل لم يكن فاكهة ولا أب للانسان وللحيوان ، هذه هى الرحمة وهذه هى الرأفة التى تجلت فى العوالم والناس عنها غافلون ، وبرزت بأبهر جمال فى سورة الرحمن التى جعلت كأنه تفصيل لما أجمل فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الفاتحة ، الله واحد رحمن ، ورحمته بها فصلت هذه العوالم تفصيلا .

(٦) ويذكر السماوات ورفعها وإبداع نظامها ، وأن ذلك نموذج لنظامنا فى أرضنا ، سواء أكان ذلك فى أعمالنا الجزئية أم فى أحوال أمتنا السياسية :

(٧) ويذكر أنه خلق الإنسان من طين محرق إذا نقر صوت كما خلق الجان من مارج من نار .

فالانسان مركب من مادة أرضية ممزجة بالقوة الغضبية التي بها تحافظ على حياتها وبقائها فى الحياة كايحفظ الطين باليبوسة الحاصلة له من الحرارة التي توقد عليه فيطول بقاؤه ، ولا جرم أن هذه رحمة لولاها لم يعش حيوان ولا نبات ولا إنسان ؛ فاليبوسة إذا لم تكن لهذه الأجسام لزالت من الوجود .

(٨) وختم ذلك بخطاب الإنسان والجن مذكرا لهما بهذه النعم التي هم غافلون عنها حتى كأنهم يكذبونها ويستحقون التقريع والتوبيخ عليها فقال « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

(٩) ثم أتبع ذلك بذكر المشرق والمغرب من حيث النهار والليل وتناوبهما .

(١٠) وبذكر نعم البحار الملحة والحلوة وتجاورها فلا يختلط الحلو بالملح ، وهذه من أجل النعم والسعادات للانسان .

(١١) وذكر أنه لم يقف فى رحماته عند حد الضروريات أو الحاجيات . كلا ، بل أخذ ينعم على الناس بما هو زينة وبهجة تسر الناظرين ، وتكون حلية لإتمام السعادة على نوع الإنسان ، فذكر اللؤلؤ والمرجان الناجمين من حيوانات بحرية ، فيكون الصدف والدر من بعضها ، والمرجان من البعض الآخر ، وهذا المرجان ناجم من حيوانات دقيقة على هيئة أمم متحدة مشتركة مؤتلفة متآخية ، حتى ترى كأنها تكون شجرة واحدة ذات فروع وأغصان وأزهار جميلة ، وماهى بأزهار ، إنما هى إلا أنفس تلك الحيوانات الحية المتصلة بعضها اتصالا مدهشا عجز عن مثله الانسان فى هذه الحياة فضل فى سياسته ولم يهتد لوحدة نظامها ولا بهجة إتقانها ، فأنتج جزائر وجزائر فى البحار ولاسيما فى المحيط الهادى ، فكم من جزيرة ازدانت بالأشجار العظيمة وعاش فيها الحيوان والانسان ، والفضل فى بناء تلك الجزائر التى تعد بالآلاف لذلك الحيوان الدقيق العجيب الجميل الذى أعجز الإنسان من جهتين : جهة النظام السياسى الاجتماعى ، وجهة المقدرة على إحداث جزائر يعيش فيها الحيوان والإنسان ؛ وتكون فيها الجنات والنخيل والأعناب من كل زوج بهيج .

سبحانك اللهم ابتدأت كتابك بذكر أنك رحمن رحيم ولم تكلنا إلى عقولنا ، بل أخذت تفصل تلك الرحمات فى نفس القرآن وقلت « ثم إن علينا بيانه » . ومن بيان القرآن بيان هذه الرحمات بطريقين : طريق القرآن كما ذكرناه هنا . وطريق العلوم ، كيف لا ؟

أليست العلوم هى التى بها أمكننا أن نشرح الدر والمرجان ذلك الدر البديع الجميل البهيج الذى يتربى فى البحار ؟ وذلك المرجان المشروح بالصور الشمسية فى كتاب [الجواهر] وهو الأصل لهذا الملحق ، أليس هذا كله من بيان الله لنا ؟

بين الله لنا الرحمات بالقرآن ، وبينها لنا بالعلوم : الله أكبر الله أكبر ، يارباه آمنا وعرفنا وعلمنا أنك الآن ابتدأت تبين للناس ورحماتك فى سمواتك وأرضك بالعلوم .

إن علوم الشرق وعلوم الغرب كلها تبيان للقرآن ، تبيان للرحمة الشاملة التامة فى عوالمنا السماوية والأرضية

(١٢) وذكر السفن الجاريات فى الأقيانوسات بين الشرق والغرب ، بين أمريكا ، وآسيا ، وأفريقيا وأوروبا ، واستراليا فى بحر الهند ، وبحر الظلمات ، وبحر البلطيق ، والبحر الأسود ، والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض ، والبحر الهادى ، والأنهار كالنيل والفرات ، وختم ذلك بتقريع الإنسان والحيوان على الغفلة عن ذلك الإنعام بهذه الرحمات .

(١٣) ثم ذكر ما يخص ذوى الأرواح كالإنسان والحيوان ، وأنهم يسألون حاجاتهم الخاصة ، وهو بهم رءوف رحيم ، فكيف يغفلون عن نعمه وهو لا يغفل عما دق من أمورهم ، كما هو محيط بما عظم

من أعمال العوالم ، فالصغير والكبير عنده عميان، فالفرد الواحد من إنسان أو حيوان شأنه شأن العوالم كلها من حيث الرحمة والرأفة والإنعام .

(١٤) ثم ذكر أن نتائج أعمال الناس موزونة بميزان ، وأن هذا العدل منحة على وزان ـ ووضع الميزان ـ . فالميزان فى سير الشمس والقمر يسرى نظيره على أعمال سائر الناس ، فهى موزونة كما وزن سير الشموس والأقمار ، وهذا قوله « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وعدها من النعم ، بل نقول : إنها من أجل أنواع الإنعام .

(١٥) ثم أفاد أن الناس فى الأرض ماداموا فيها لا يستطيعون عنها حولا فلا يصعدون إلى الكواكب العليا، ولا يمكنون من ذلك ، وإذا حاولوا ذلك بالطيران أزعجوا واخترقت طياراتهم ،لأنهم لو عرفوا العوالم العلوية لشغلهم جمالها عن كمال أنفسهم فى الأرض ، وهذا الكمال لا يتم إلا بالسراء والضراء وأنواع النعم والشرور ، وكل ذلك يقوم النفوس فتستعد للمروج وتعطى قوة بذلك .

وهذا قوله : « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان» .

إذن حبسكم أيها الناس فى الأرض نعمة لكم كما بقى التلميذ فى المدرسة ، فاذا أتم التعليم أعطى الحرية فى عمله الذى استعد له فى المدرسة .

(١٦) ثم أتبع ذلك بذكر خراب العالم المادى الحاضر وإبراز عوالم أخرى ليرتقى الناس ارتقاء مناسبا لأعمالهم فى هذه الحياة الدنيا ، ويوضع كل امرىء فى مرتبته الخاصة به ، ويكون المتقون فى جنات والكافرون فى جحيم ، على مقتضى الميزان الذى وزنت به عوالم السموات والأرض .

(١٧) وهاهنا ذكر المقام الأمين للمتقين فى الجنات ، والأشجار وأفنانها ، والعيون الجاريات تحتها ، والفواكه فيها وتفننها ، ثم الفرش ذات البطائن من الاستبرق ، ودنو الفواكه من أهل الجنة .

(١٨) وذكر الحور العين اللواتى لا تحب غير أزواجهن من أهل الجنة وهن أبكار ، وذكر العيون الجاريات ، وهكذا من الأوصاف الجميلة البهجة ، وختم السورة بقوله « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » إذ كرم عباده بمجامع الرحمات فى العوالم العلوية والسفلية ، وأغدقها عليهم فى الدنيا والآخرة، وجعل النظام متقنا موزونا حتى تستقر النفوس وتسعد بما ترى من العدل والإحسان فى هذا الوجود، وأن كل امرىء يوضع فى مرتبته الخاصة به بحساب دقيق كحساب الليل والنهار بالدقائق والثوانى ، كحديث الجنة والنار ، والحور العين ، والنيران المتأججة ، لم يخرج عن حديث كون الشمس والقمر بحسبان .

والنفوس الإنسانية مخلوقة على مقتضى هذا الحساب ، فهى تفرح بالعدل والميزان ، وتجزع من عدمهما فإذا رأت القاتل حكم عليه بالقتل سرت لأنها تفرح بالميزان والعدل والصدق ، وإذا رأت المجرم أفلت من العقاب انقبضت وحزنت وزايلها السرور ، لأنها مخلوقة من آثار نور الله ، والله على عدل لا يضع إلا الجمال، وهل يتم الجمال إلا بالعدل والحساب والنظام التام .

فقصة الجنة والنار التى يقرؤها المسلم لم تخرج عن قضية الليل والنهار وحسابهما ، وسيكشف للناس بعد للوت عن أسرار هذه الأمور ويطلعون على العدل ، فهناك يحسون بلذات لا حد لها من تلك الموازين ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » الله أكبر ، إذن حساب النفوس كحساب الدقائق والثوانى فى علم الفلك وسير الشمس والقمر .

إذن هناك جمال وجمال : رباه أدهشنا صنعك ، رباه قرأنا علم الفلك واستخدمنا فيه الحساب والهندسة والجبر ، وحارت عقولنا والله فى حسابك ، وأبهجها إبداعك فيها ، وأنك لم تجعل فى حسابها خطأ ما : ورأيناك أشرت لهذا كله بقولك فى أول سورة الرحمن « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » فبذلك حذرتنا من الضلال فى وزن أعمالنا ، وأن نزنها كما وزنت أنت حركات الكواكب ، فاذا أخطأنا بموازين أعمالنا أخذت تظهر العدل فى جزائنا بحساب دقيق ، عبرت عن نتائجه بالجنات ، وحورها ، وقصورها ، وأشجارها ، وأنهارها ، وبالنيران وسعيرها ، وحرها وإحراقها ، وكأنك تقول : إن لنفوسكم من الحساب ماهو دقيق دقة الحساب الذى شاهدتموه فى عوالم السموات والأرض .

إن رحمتك مقرونة بعلمك : رحمة واسعة ، وعلم واسع ، رحمة بلا علم ضرها أكثر من نفعها ، فالرحمات بحسب العلم فتكون سعادات .

إن الميزان المنصوب فى السموات والأرض يزن الضدين : ما نسميه خيراً ، وما نسميه شراً ، وبعبارة أخرى محبوبنا ومكروهنا بميزاننا نحن الذى نسميه بالحواس الخمس : وهو الميزان الضعيف ، لذلك كان ميزان الله مسلط علينا يزن لنا المحبوب والمكروه ، وبانتظامهما يكون رقينا « ونبلوكم بالشر والخير فتنة »

أول سورة النحل تفصيل لما أجمل فى سورة الرحمن

حضر صاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى التفسير الذى سميته من الآن [الأصل][1] وفى ملحقه فقال :

إن هذا المقام جميل جد جميل ، لقد فتح لنا بابا واسعا من العلم ؛ وأوضح لنا كلام أمير المؤمنين سيدنا على كرم الله وجهه إذ يقول : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا القول يدل على نفوس عالية أشرقت عليها الشمس المحمدية ، وهذا عجب عجاب ، فهاهو ذا هذا العالم من سموات وأرضين مشمول بالرحمات ، وها هى ذه آيات القرآن ، وسورة الرحمن ، وسورة الشعراء ، وكيف تخللها ذكر الرحمات كما تخللت نظام هذه المخلوقات ، ولكنى الآن أريد أن أسمع منك آيات مفصلات لما أجمل من الرحمات فى أول سورة الرحمن ، ولكنى أريد معانى الآيات لا لفظها بحيث تكون المعانى كفرائد فى سمط الآيات ، ثم إنك قلت فيما تقدم : هنا ما يشير إلى أن علوم الأمم تبيان للقرآن ، إذن دين الاسلام اليوم على هذا يبتلع جميع العلوم ولا حرج .

فقلت : ياسيدى أما الآيات التى أردتها فهى المذكورات فى أول سورة النحل ، وأما ماذكر من أن علوم الأمم فى عصرنا تبيان لمعانى القرآن فذلك حق ، وسأفصل القول تفصيلا فى ذلك ، ناقلا عن أمهات الكتب الفرنجية ، مايفيد معنى الآيات فى أول سورة الرحمن ، وأول سورة النحل تبيانا لآية بسم الله الرحمن الرحيم ، ومعنى الحمد لله رب العالمين ، فإن من الرحمة العامة تربية العوالم ، فلذلك أعقب الله الرحمة فى البسملة بأنه يستحق الحمد لتربيته للعالمين ، وأعقب ذلك بذكر الرحمة ثانيا للاشارة إلى أن هذه التربية ناشئة من الرحمة .

فنى هذا المقام مبحثان : فى آيات النحل ، وفى التربية العامة لهذه العوالم التى تحيط بالإنسان .

---

(١) متى أطلقنا كلمة (الأصل) فإننا نريد بها كتاب (الجواهر : فى تفسير القرآن) وهو أصل هذا الملحق . اه مؤلفه .

المبحث الأول فى آيات أول سورة النحل

لقد ابتدأ الله سورة النحل باقتراب يوم القيامة ، وبأنه تعالى عن أن يكون له شريك وأنه يوحى إلى الأنبياء أن ينذروا الناس ويعرفوهم توحيد ربهم ، وذكر لذلك من الدلائل مثل :

(١) أنه خلق السموات والأرض ، وجعل نظامهما نظاما واحدا متقنا ، فكيف يكون له شريك والعمل منظم؟ فيه معنى الوحدة فكثرة العوالم راجعة للوحدة العلمية العملية .

(٢) ومن تلك الوحدة وحدة الجسم الإنسانى ، ذلك المخلوق من نطفة أخلاط كثيرة جمعت وصورت وجعلت مزاجا واحدا ذا عقل واحد ، وعواطف خاصة ، وحواس كثيرة ترجع فى أمرها إلى مدبر واحد تصدر عنه جميع الأعمال ، إذن الذى دبر هذا الجسم واحد ، لأن نتيجة أعماله الكثيرة فيه واحدة ، فالكثرة فيه رجعت إلى الوحدة التى تنزلت من المدبر لهذا الجسم .

(٣) وإذا كانت الأنعام ذوات صوف ووبر وشعر ، بها دفؤنا ، ولحم ولبن به غذاؤنا من جبن وزبدة .

(٤) وبها جمال لنا فى الغداة والعشى .

(٥) وعليها نحمل أثقالنا وأجسامنا إلى البلاد البعيدة .

(٦) وهكذا الخيل والبغال والحمير نركبها ونتخذها زينة لنا ، وقد سخر لنا نظائرها من العوالم المحيطة بنا من الطيارات والسيارات والقطرات والجاريات على قضبان الحديد فوق اليابسة ، كل هذه مما سخره الله لنا مما لم نكن لنعلمه قبل هذا الزمان .

(٧) فهذه كلها مع كثرتها قد رجعت إلى الوحدة ، فهاهى ذى الأنعام من الابل والبقر والغنم ، وهكذا الخيل وما عطف عليها قد رجعت جميعها إلى مركز واحد وهو الانسان ، فها هى ذه الكثرة قد رجعت إلى الوحدة ، ذلك أن الخالق واحد ، وإلا فمن أين جاءتنا هذه الوحدة ، وكيف رجعت أنواع الحيوان إلى نوع الانسان فاتخذها له .

(٨) ولم تقف الوحدة عند هذا الحد ، بل نرى الماء ينزل من السماء فيشرب منه شجرنا وزرعنا وحيواننا ونوع الإنسان . فالماء واحد اختلف شاربوه ، ثم اتحدوا عند النهاية فى خدمة الإنسان ، فالماء وما ينتفع به من نبات وحيوان مرجعها إلى الإنسان ، فالماء وحدة تجمع النبات والحيوان والإنسان ، ولهن وحدة عند اتصالهن بالإنسان .

(٩) وإذا اختلف الزرع [كالقمح والفول والشعير والذرة] والشجر [كالنخيل والأعناب وجميع الأشجار المثمرات] فإنها اتحدت فى أنها منافع للانسان .

(١٠) وإذا كان الماء يعم النبات والحيوان والانسان فى تنميتها وإصلاحها ، فان الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم غايات رائحات لتربية هذه المواليد الثلاثة ، ولإرسال الحرارة لتثير الرياح اللاتى يحملن السحاب فى جو السماء فيكون ماء تحيا به هذه المواليد الراجعات فى آخر أمرها للانسان ، فهذه دوائر بعضها فوق بعض مركزها كلها هذا الإنسان .

(١١) وهاهنا بيان اختلاف الألوان والأشكال فى أنواع النبات .

(١٢) وتسخير البحار الملحة التى نستخرج منها السمك ونصيده والدر البهيج حلية للغادات الحسان من نوع الانسان ؟

(١٣) وعلى سطحه تسير السفن تجرى شرقا وغربا ليبتغى الناس من فضل ربهم بأنواع التجارة والربح وكسب المعاش .

(١٤) ومن البحر يعلو البخار إلى الجو فينعقد سحابا وتصده جبال فيمطر ماء على اليابسة ، فالجبال تصد الرياح فيكون حياة للمواليد الثلاثة ونفس الجبال مخازن للماء وفوقها الثلج يمد البحار والعيون بالماء على طول الزمان :

المطر ينزل على الجبال ويخزن فيها ويجمد فوقها ثم يمد الأنهار فيسقى كل نبات وكل حيوان .

(١٥) وإذا كانت حرارة الشمس هى التى تثير الرياح فيكون السحاب ويكون المطر ، فإن النجوم بها هداية السفن فى البحار ، إذن الأجرام السماوية انتهى الأمر فيها إلى عالم الإنسان من حيث إنه مركز الدائرة ، فمهما كان فى العوالم الأرضية من نعمة أرضية أو سماوية فنهاية ذلك راجع للانسان ، وإن كان نفعه عاما لسائر الأنواع .

(١٦) ولما انتهى الأمر إلى العوالم العلوية هناك وقف العقل الإنسانى عن دوام التفكير ، وعجز عن أن يفهم ماوراء ذلك من العوالم البديعة ، فلذلك ختم المقام بأن نعم الله لا يحصيها عد ، وليس لها من حد .

فهذه الآيات مفصلات للآيات فى أول سورة الرحمن من ذكر الشمس والقمر والنجم والشجر وذكر الأرض والفاكهة والنخل والحب والعصف والريحان ، فهذا كله قد فصل فى أول سورة النحل وقد ذكرناه .

روضات الجنات فى بعض هذه الآيات وما أشبهها من آيات القرآن وهى ثلاث روضات :

الروضة الأولى

فى حركات النبات وحفظ البذور وما أشبه ذلك من الكمال والجمال والبهاء .

قال صاحبى الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير : إن هذه الآيات وإن حوت فى أصل الجواهر فى تفسير القرآن حكما وكمالا وجمالا ، فليس يمانع هذا من أن نتمتع هنا بروضات جنات تلك العلوم ، وجمال هذه الآيات مثل :

(١) « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » وقوله :

(٢) « والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى » إلى آخره .

(٣) « وهو الذى يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته » .

(٤) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » .

(٥) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » .

(٦) « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

ولا جرم أن الآيات القرآنية مظاهر لأسماء الله الحسنى ، وأسماء الله الحسنى مظاهر لصفات الله . قلت : حبا وكرامة ، فى هذه الآيات من أسماء الله تعالى الرحمن الرحيم ، واللطيف والخبير ، فهذه الأسماء الأربعة

مقرونة بإحياء الأرض بعد موتها بالنبات ، والنبات لا ينمو إلا بالماء النازل من السحاب ، والسحاب لابد له من الرياح الحاملات له لتبشر أهل الأرض برحمة ربهم ، وما أجمل قوله تعالى « وليذيقكم من رحمته » .

نعم : هذه بعض رحمته تعالى فى العوالم الأرضية ، والرحمة مصدر يشتق منها الرحمن الرحيم ، ولن تتم الرحمة إلا بوضعها فى موضعها ، ولن يتمتع بها إلا باللطف فى وضعها .

الله أكبر ، سبحانك يا الله ، سبحانك أدرت الشمس فى أقطار السموات ، ثم أدرت الأرض حولها ، وسرى من الشمس الضوء إلى الأرض ومعه الحرارة ، وهذه الحرارة حركت الهواء فصار رياحا ، والرياح حملت السحاب ، والسحاب نزلت قطراته بلطف على الأرض . فلم ينزل عليهم مرة واحدة لئلا يهلكوا ، وصرفت عنهم الصواعق ، وأثرت الكهرباء الموجبة والسالبة التى فى الهواء وفى الأرض : إن هذا يارب منك لطف ، بهذا يارب فهمنا معنى قولك [لطيف] . وهذا اللطف لا يكون إلا إذا كانت هناك خبرة وعلم بواطن الأمور ، والطبيب الذى لا يعرف موضع الداء يجهل التلطف بالمريض فلا يتم علاجه ، والأستاذ الذى يجهل طبائع تلميذه وعواطفه لا يتسنى له أن يعطيه ما يناسبه من العلم حتى ينتفع به .

الله أكبر : إنك يارب لطيف بنا ، ولطفك مصحوب بعلمك ببواطن الأمور والأحوال الإنسانية والحيوانية حتى تستطيع الأشجار والزروع تحمل هبوب الرياح ، وسقوط قطرات المطر عليها ، وما أشبه ذلك ، بعض لطفك ، لنذوق من رحمتك ، فنشرب الماء ، وننتفع بالزروع والثمرات .

ولا جرم أن الزرع والشجر أن لم تترك لها بذوراً فى الأرض لم يخلقها غيرها . لذلك جعل الله لها نواميس ، وسن لها قوانين ، ليحفظ بها بذورها ، ويفرقها فى الأرض ، فحفظ بعض البذور بطعمها المر ، وبعضها يدفن بذره فى الأرض قريبا أو بعيداً ، حفظا للنوع من الانقراض ، وبعضها للذة طعمها يرغبها الناس فيحفظون بذرها ، وبعضها تحملها الرياح إلى مسافات بعيدة ، وقد أعدت فيها الحكمة الالهية أجنحة تساعد الرياح على نشرها ، ومن البذور ما يبتلعها الجراد فتنتشر فى أراض كثيرة .

إن ذلك للطف الله وعلمه ببواطن هذه العوالم ، وهو القائل « وكل شئ عنده بمقدار — وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . والقائل « وخلق كل شئ فقدره تقديرا » .

وإن شئت أن تعلم ما قلته تفصيلا ، فهناك مقالين لخصتهما هنا من كتاب [فصول التاريخ الطبيعى] .

خذ الخوخ والمشمش والكرز والتفاح وغيرها من الأثمار تركها قبل نضجها حامضة الطعم جدا ، وهذه الحموضة تقيها شر اعتداء معتد عليها قبل أوانها . ثم إن البزرة فى بعضها مدفونة فى قشرة صلبة دون الوصول إليها جهد وتعب . وبعد ذلك الجهد وذلك التعب كثيرا ما تكون البزرة مرة لا تؤكل كبزر الخوخ أو حاوية لمادة مرة كبزر المشمش . واللباب إما أن يكون محميا بقشرة صلبة : كاللوز ، والبندق ، والفستق ، وإما أن يكون محميا بقشرة صلبة فوقها طبقة مرة عفصة الطعم كالجوز .

ومن النبات ما يحمى بزوره بحركات غريبة يأتيها ، إن النباتات أكثر حركة مما يظن عادة ، بل هى فى حركة دائمة . ولكن انتقالها من مكانها بطئ على الغالب إلى حد أن لا يلتفت إليها ولا ينتبه لها . أما بعض أصناف النبات فليست كذلك ، فإن النبات المعروف بالسنط الحساس تنكمش أوراقه أو تتدلى إذا مس ، ومنه فصيلة ترى أوراقها فى صعود ونزول طول النهار ، وأخرى أوراقها فى دوران دائم ، ومن النبات ما تنام أوراقه كأكثر أنواع السنط ، فإذا أقبل الليل غيرت أماكنها وانطوت من نفسها فيقل بذلك سطحها المعرض للاشعاع وبالتالى خروج الحرارة منها فتوقى من البرد ، وقد أثبت دارون بالامتحان أن الأوراق التى لا تتحرك تذاق عذاب البرد أكثر من الأوراق المتحركة ، والأزهار تنام كذلك . فالأزهار

التي يتوقف تلقيحها على الحشرات والهوام النهارية : كالنحل تنام ليلا وتستيقظ نهارا ، والتي يتوقف تلقيحها على الهوام الليلية تنام نهارا وتستيقظ ليلا . أما كيفية النوم فى بعض النبات ، فإن الساق تنثنى حتى يصل رأسها إلى الأرض وتبقى كذلك أياما : أى مدة نضج الثمر ، فإذا تم نضجها ارتفعت الساق وعادت إلى وقفتها الأصليه .

يقول مؤلف هذا اللحق : لتعلم أن هذا المقام مبسوط بسطا تاما فى التفسير الذى هو أصل هذا اللحق فى سورة الحجر فاقرأه موضحا إيضاحا تاما ، ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول :

ومن النبات الذى ينبت على الجدران ما تدفع زهرته تطلب النور وشعاع الشمس ، فاذا شبعت منهما وأخذت تعقد الثمر لوت رأسها وجعلت تفتش عن ثقب تخبئه فيه الى أن يتم نضجها .

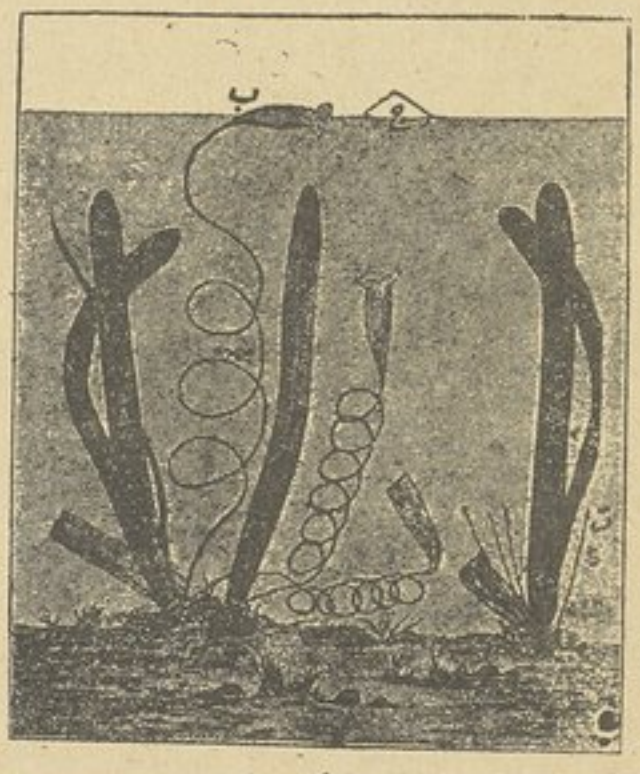

(شكل ١٠)
زنبق ماء [ب] الزهرة والأنثى [ت] الذكر [ج] ذرات القاح

وفى بعض الزنابق المائية : كالنيلوفر تفتح الزهرة فوق الماء ، فاذا ذبلت عادت إلى قعر الماء ، ومنها فصيلة تنبت الزهرة الأنثى منها على ساق طويلة تبرز فوق الماء [حرف ب] أما الزهرة الذكر [حرف ت] فلها ساق قصيرة ، فاذا تم نضجها انفصل عنها القاح [حرف ج] وصعد إلى سطح الماء وعام هائما حتى يصيب الزهرة الأنثى ، وبعد التلقيح تتعطف الساق على نفسها بشكل لولبي وتنزل البيض معها إلى قعر الماء حيث تنضج البزور آمنة كل اعتداء . وقدرة بعض أصناف النبات على توزيع بزوره مفيدة لتلك الأصناف إذ تمكنها من النمو فى مواضع جديدة ملائمة لها ، فمنها صنف ملأ بلاد جنوب أفريقية ، وكانت واسطة انتقاله من مكان إلى مكان أنه يعلق بصوف الغنم فيحمله على ظهوره أينما سار .

وهناك أصناف من النبات تزرع بزورها بنفسها كما يرى فى الفول السودانى الذى يزرع فى هذا القطر ، فإن القرون التى فيها بزوره تنحنى وتدفن نفسها فى الأرض :

وقد رأى لورد [افبرى] الذى اعتمدنا عليه فى أكثر هذا الفصل صنفا من البنفسج المسمى بنفسج الكلب يدفن بزوره إلى بعد نحو عشرة أقدام ، والمشهور عندنا أن الخروع إذا نضجت أثماره أخذت تتفلق عن البزور فتحدث فرقعة أشبه بفرقعة البنادق وتدفع البزور إلى مسافة بضعة أمتار ، ويقال مثل ذلك فى النبات المعروف بالعصفيرة .

(شكل ١١)
الجرانيوم (ابرة الراعى)

ومن ذلك نبت من فصيلة الجرانيوم [إبرة الراعى] إذا نضجت بزوره انتصب غلافها أو مبيضها ، ثم دفع الإبرة ومعها البزور بقوة فزرقته إلى مسافة بعيدة .

أما النبت المعروف فى سورية باسم [قثاء الحمار] ، فإنه يحمل ثمرا على شكل القثاء ، وعند نضجه يمتلىء عصارة حتى يكاد ينشق من نفسه ، فإذا مسته ولو بلطف انفصل عن سوقه وضغطت جوانبه على بزره إلى مسافة بعيدة .

على أن من النبات ما لا يدفع بزوره من نفسه إلى مسافة بعيدة ، بل يكل ذلك إلى الرياح الهابة كالخشخاش ، فإن فى أعلى غلافه فتحات صغيرة تفلت منها البزور واحدة واحدة إذا هبت الريح وتلاعبت بالغلاف وجعلت تميله إلى هنا وإلى هناك ، والفتحات محمية من المطر بمثل أروقة ممتدة فوقها ، ويقال إنها تنغلق إذا غزرت الأمطار .

ومن النبات ما يعرف باسم [ورد أريحا] وهو كثير فى صحارى مصر وسورية والبادية العربية ، فإذا جفت أزهاره انقلع من الأرض وانطوى على نفسه فتألف منه جسم كروى تسوقه الريح حتى يصيب تربة رطبة ، وحينئذ ينشر من نفسه ويزرع بزره فى التربة .

ومن دقق النظر بزر الأرز مثلا وجد فيه شيئا شبيه المروحة أو الجناح ، فإذا كانت الريح هابة وهو يتساقط إلى الأرض حملته إلى مكان بعيد عن جزع الشجرة التى تساقط منها ، وهذا ما يحدث أيضا فى أشجار أخرى كالقيقب والدردار والشربين مثلا .

ومن النبات ما تجهز أثماره بشوك أعقف أو شعر على أشكال مختلفة كما ترى فى بزور الحسك فتعلق فى شعر الحيوانات ذوات الصوف ، وتنتقل بذلك من مكان إلى مكان أو بأهداف طويلة كبزر شوك الجمال والقطن ، وكذلك بين النبات أصناف تجهز إثمارها بأشياء كالصنارة والكلابة ، فاذا علقت بشعر حيوان أو جلده صعب نزعها منه ، ويقال إن بعضها يقتل الأسد فى سهول جنوب أفريقية . ذلك أن الرياح تتقاذفها فى تلك السهول ، فاذا أصابت جلد أسد حاول نزعها بفيه فتعلق به وتميته شر ميتة.

(شكل ١٢)
نبات طفيلى عالق بغصن شجرة

ومن النبات نوع طفيلى تتصل ببزوره أذيال كالأسلاك الشائكة تعصف بها الرياح فتنقلها من مكان إلى آخر فتعلق بأغصان الأشجار وتلقى البزور عليها فتنمو فيها وتتغذى منها .

والمشهور أن جوز النارجيل أو جوز الهند تطفو على وجه الماء فيحملها إلى مسافات بعيدة تقدر بمئات الأميال مستعينا على حملها ودفعها بما يغطيها من الألياف . ثم إن قشرتها الصلبة تحول دون تحلب الماء إليها وإفسادها ، وكثيرا ما توجد على سواحل أوروبا الشمالية الغربية بزور النباتات التى تنمو فى جزر الهند

الغربية. ذلك بأن التيار المائى المعروف بتيار الخليج [أى خليج مكسيكو] يحملها إلى تلك السواحل فتنمو فيها على الغالب ، ويساعدها على العوم خلايا فيها ممتلئة هواء .

ومن أغرب أصناف النبات ما يتخذ غلاف بزوره أشكال بعض الحشرات كما ترى فى بزر اللوبيا للرشقة وبزر الخروع وبعضها يتخذ صورة الحشرة المعروفة باسم الحريش [أم أربع وأربعين] وآخر يتخذ صورة دودة .

والثمرة فى عرف النبات الاقتصادى لها غايتان : الأولى حفظ البزرة وما تحتوى عليه لأنها أداة حفظ النوع . والثانية نشرها ، لذلك ترى أن الأثمار التى تحتوى على بزرة واحدة هى فى الغالب من النوع الذى لا ينشق ، وعلى الضد من ذلك ترى أن الأثمار التى تحتوى الثمرة منها على بزور عديدة تنشق فى الغالب وتنثر بزورها نثرا فى أوسع مساحة مستطاعة ، فلون البزور وشكلها وبناؤها وطرق انشقاق الثمرة ، كل ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا بأساليب نثر البزور وأشهرها (١) وسيلة ميكانيكية في الثمرة نفسها ، كانشقاقها فجأة حينما تجف فيحصل انبرام بعض القرون وانفتالها . (٢) بالماء كجوز النارجيل المتقدم ذكره . وبزور زنبق الماء التى يحيط بها نسيج اسفنجى يمكنها من أن تطفو مسافة غير قصيرة قبل أن تبتل وتغرق . (٣) الريح. (٤) الحيوانات ، والأمثلة عليها كثيرة فيما تقدم وفيما يلى :

غرائب النباتات

(شكل ١٢)

بزور من أنواع الحسك التى تعلق بصوف الغنم بزور لفلانها أشواك وصنانير تعلق بها

تفرق بزور النبات أيضا

قال كاتب المقالة : دخلنا بالأمس بيت أحد فضلاء الجرمان من نزلاء العاصمة فرأينا فيه منظرا تنبسط

له النفوس وتبتهج به الأبصار ، وهو زير من أزيار الماء العادية اتخذه السرخس للعروف بكزبرة البئر وطنا له فنما على جوانبه حتى جلله كله وطال وأينع فصار كحرجة غياء وهو لم يغرس هناك ولم يزرع ، بل حملت الرياح بزوره من أصيص كان بجانبه وألقتها على ظاهر الزير فأفرخت ونمت ، وقد حولنا زرع هذا النبات مرارا عديدة فلم نفلح كما أفلحت الرياح فى زرعه .

ومعلوم لدى كل زارع أنه مهما اعتنى بحرث الأرض واستئصال الأعشاب منها تنمو الأعشاب فيها من تلقاء نفسها إذا تركت بورا حتى زعم المتقدمون أن الأعشاب تنمو من نفسها من غير بزور ، والحقيقة أن الرياح تحمل بزورها وتلقيها فى كل مكان ، فاذا صادفت تربة مناسبة لها نمت فيها وأينعت ، ولكن الرياح لاتستطيع أن تحمل كل البزور تقيلها كخفيفها ، ولذلك يستعين النبات بوسائط أخرى لإبعاد بزوره عنه لئلا تقع تحته ويغطيها ظله وتخنقها جذوره ويستخدم لذلك من الحيل والوسائط مايحير الألباب .

من جال فى بلاد الشام فى شهرى يوليو وأغسطس ير فى جوانب الطرق نباتا أخضر قاتم اللون فى ورقه وأغصانه وبر غليظ ، وأثماره كأثمار القثاء الصغيرة ، وهى كثيرة الوبر أيضا حتى تكاد تكون شائكة ، ولذلك تسمى قثاء الحمار . فما دمت بعيدا عن هذه الأثمار ترى بعينك ولا تلمس بيدك فأنت سليم منها آمن من شرها ، وأما إذا لمستها بيدك أو رجلك ولو عن غير قصد منك رشقتك بكل مافى جوفها من العصار والبزر واللباب ، وهذا شأنها إذا لمستها الوائى أو غيرها من الحيوانات ، وعصار ثمرها مر حريف إذا دخل عين حيوان عمله درسا لاينساه مدى الحياة ، إلا أن النبات لا يفعل ذلك انتقاما ممن يلمسه أو يدوسه ، بل وقاية لنفسه من عوادى الحيوان وله فيه مآرب أخرى يتوقف عليها بقاء نوعه وتفريق بزوره بعيدا عنه لكى تجد تربة صالحة لنموها ، لأن أثماره ترشق بزورها من نفسها حينما تنضج ولولم يمسها أحد ولولا ذلك ليبست حيث نمت وسقطت بزورها مما تحت أمها وتعذر نموها .

معلوم أن القثاء والخيار ، والبطيخ وما أشبه من النباتات لاترشق بزورها ، لأنها استعاضت عن ذلك بطيب طعمها وحلاوة عصارها فيقطفها الإنسان والحيوان ويأكلانها ويفرقان بزورها ، والحنظل وهو من هذا النوع أيضا لا يرمى بزوره بعنف إذا نضج ، ولا يأكله الإنسان ولا الحيوان لكراهة طعمه ، ولكنه استعاض عن ذلك بتطويل فروعه فتمتد منبسطة على الأرض إلى مدى بعيد حتى تتفرق أثماره وبزوره بعضها عن بعض فضلا عن أن أثماره مستديرة فيسهل على الرياح أن تدحرجها من مكان إلى آخر فتتفرق فى طول الأرض وعرضها .

وللرياح المزية الكبرى فى تفريق بزور النبات ، فإنها تحملها على عاتقها وتعبر بها الأنهار ، وتقطع من فوق البحار ، ولاسيما إذا كانت البزور قد استعدت لذلك فنشرت أجنحتها للرياح .

وقد يكون النبات سنويا لاخوف على بزوره من أن تزاحمها أمها ، ومع ذلك تسعى بزوره لتبعد عنه كأنها تعلم ناموس تعاقب المزروعات ، وأن الأرض التى يزرع فيها نبات ماهذه السنة لايجود فيها ذلك النبات عينه فى السنة التالية ، فيجب أن يزرع فيها غيره وتزرع بزوره فى أرض أخرى .

ومعلوم أن الرياح لا تستطيع حمل كل البزور ، وغاية ما تحمله البزور الصغيرة الخفيفة والتى لها شعر أو زغب أو أجنحة . وأما بقية البزور فتستعين على انتقالها بوسائط أخرى ، فمنها ما يسخر الحيوان لهذه الغاية فيلبس ثوبا حلو الطعم جميل المنظر فتأكله الحيوانات والطيور وتلقى بزوره بعيدا عن أمانه كما تقدم ، ومنها مايلصق بطعام الحيوانات ويدخل أجوافها ويخرج مع برازها سليما فينمو حيثما وقع ، ومن قبيل ذلك أشجار الزيتون والتين التى ترى فى جدران المبانى القديمة ببلاد الشام ، فإنها كلها من بزور الأثمار التى

أكلتها الطيور ، ثم رمت بها مع سلحها بين حجارة تلك الجدران .

ذكر الشهير [داروين] أنه التقط اثنى عشر نوعا من بزور النبات من زرق الطيور التى مرت فى بستانه مدة شهرين ، وزرع بعضها فأفرخ ، والطيور آكلات الحبوب تبقى ما تأكله فى حوصلتها من اثنتى عشرة إلى ثمانى عشرة ساعة ، فإذا اصطادتها الكواسر ومزقت أبدانها وقعت الحبوب من حواصلها ونعمت حيث تقع ، وإذا أكلت الكواسر هذه الحبوب مع لحم الطيور لم تهضم الحبوب فى أمعائها ، لأنها معدة لهضم اللحوم لا لهضم الحبوب فتخرج منها سليمة وتنمو حيث تقع ، هذا فضلا عما تحمله الطيور بأرجلها ومناقيرها من البزور وتنتقل به مئات من الأميال ، فقد أرسل الأستاذ [نيوتن] إلى المستر [دارون] حجلا رماه بالرصاص فجرحه حتى لم يستطع الطيران ، وكان برجله كرة من الوحل لاصقة بها ، فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات ، ثم بللت بالماء ووضعت تحت إناء زجاجى فنما فيها ٨٢ فرخا من النبات .

والجراد من أقدر أنواع الحشرات على نقل البزور ، فانه يبتلع كثيرا منها مع مايلتهمه من النبات ويلقيه فى الأراضى التى يمر فيها ، فقد أرسل بعضهم قليلا من بعر الجراد إلى [دارون] ففحصه بالمكرسكوب فوجد فيه بزور سبعة أنواع من النبات وزرعها فنمت كلها ، ولذلك تكثر الحشائش فى الأرض التى يعبر الجراد فوقها ، ولكثير من البذور شوك أعقف كالكلاليب ، وغاية النبات من ذلك أن تعلق بزوره بجلود الحيوانات التى تمر بجانبه وتنتقل بها من مكان إلى آخر .

وأكثر النباتات التى من هذا القبيل تنمو فى الهشيم وبجانب الطرق ، فاذا مر بها خروف علقت بصوفه ثم يمر الخروف بنجم من الشوك فيعلق جانب من صوفه بالشوك وفيه البزور المشار إليها ، حتى إذا هطلت الأمطار انحلت عراها فتقع على الأرض وتنمو فيها ، ومن هذه البزور مايسخر الإنسان لخدمته فيلصق بأثوابه ويسيرا معه حيثما سار حتى ينزعه ويرميه بجانب بيته فينمو هناك .

وقد يظن لأول وهلة أن تفرق بزور النبات بواسطة الرياح والحيوانات ليس مقصودا بالذات ، بل هو حادث اتفاقا ، فاذا عصفت الرياح ببذور فرقته وإلا فلا ، وإذا مرت المواشى ببزور شائكة علقت بها وإلا لم تعلق ، ولكن الباحث المدقق يرى أن البزور معدة بالطبع للأسلوب الذى تتفرق به ، فاذا كانت مما يتفرق بواسطة الرياح كان اتصالها بأمها ضعيفا حينما تنضج حتى إذا عصفت بها الرياح انفصلت حالا وطارت ، وإذا كانت مما يتفرق بواسطة الطيور لبثت أثمارها متصلة بالنبات بعد ما تنضج حتى تقع عليها الطيور وتأكلها وترمى بزورها ، والبزور الكبيرة قليلا التى تفرقها الرياح لها زغب وأجنحة . وأما الكبيرة كثيرا التى لا يمكن الرياح أن تحملها لثقلها فليس لها أجنحة ، ولو كانت من نوع البزور الأولى كما فى بزر الأرز والصنوبر ، فإن الأول صغير خفيف على الرياح فله أجنحة ، والثانى ثقيل على الرياح فليس له أجنحة ولو لم يخل من آثارها كأنه كان مجنحا لما كانت بزوره صغيرة ، واعتبر ذلك فى نبات الكشوث الذى ينبت على الأشجار ويمتص غذاءه من عصارها ، فانه لابد لبزره من أن يوضع مابين أغصان الأشجار لكى ينمو فيها ، وقد أعدت له الطبيعة مادة لزجة كالدبق فيلصق بمناقير الطيور التى تأكله وتطير الطيور به وتمسح مناقيرها بين أغصان الأشجار تخلصا منه فيلصق فى خير الأماكن المناسبة لنموه ، واعتبر ذلك فى الحشخاش [أبونوم] ونحوه من النباتات التى لا تخرج بزورها منها إلا إذا هزتها الرياح هزا عنيفا ، وحينئذ تتفرق فى مساحة واسعة . وقد يقطع النبات أمله من الرياح والحيوانات كالخروع ، فان بزوره ثقيلة لا تحملها الرياح ، وليس لها غلاف طيب الطعم إغراء للطيور والحيوانات ولا فيها مادة لزجة حتى تلصق بمناقير الطيور ولا شوك حتى تعلق بالحيوانات وطعمها ثم تقز النفس منه ، فلم يبق لها إلا أن تتفرق فى عرض الأرض بنفسها ،

ولذلك يتشقق غلافها حينما تنضج ويدفعها دفعا بعنف شديد كأنها رصاص البنادق ، وكثير من النبات يجرى هذا المجرى ولا سيما فى المنطقة الحارة حيث تندفع البزور بعنف ، حتى لقد تقتل الحيوان إذا أصابته ، ومن أمعن نظره فيما تقدم رأى أن النبات يسعى فى طلب المعيشة كالحيوان مستخدما الوسائط التى تمكنه من ذلك جاريا على سنن معلومة مما سنه الخالق سبحانه لجميع المخلوقات الحية .

فلما سمع هذا المقال أخذ يقول : حسن هذا ، ولكنى أريد أن تبين الجمال فى هذا المقام بحيث تكون تلك العجائب تفصيلا لأسماء الله الحسنى ، وإنما قلت ذلك لما رأيتك ذكرت أسماء الله الحسنى ، الرحمن الرحيم اللطيف الخبير ، وجعلت بعض هذه العجائب شرحا لها .

فقلت : أقبل الأخ المجدّ العاشق للعلم والحكمة لعل ما سمعته من عجائب النبات شرح له صدرك مثل :

(١) أن بعض بزره له شوك يعلق بصوف الغنم والغنم تسير به إلى أرض أخرى فينتشر هناك وينبت ، فيكون نعمة على الغنم وعلى غيرها وتكون تلك الغنم أشبه بالفلاح يحمل الحبوب من منزله ويضعها فى الأرض وينزل عليها الماء لتنمو ، ولكن الفرق أن الفلاح أقدر على حفظ البزور والزروع فكان طعامه فى حاجة إلى الحفظ والصون ، أما الغنم ونحوها فان مدبر الكون هو الذى منح البزور شوكا وجعل للغنم صوفا فعلق الأول بالثانى ولا علم للغنم بشىء ، فاذا حلت بأرض أخرى ووقع البزر بها نبت من تلقاء نفسه . لأن الحكمة العليا دبرت ذلك ، وهذا من معنى قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى » فالله أعلى ، والمادة من صنعه ، فذاته وصفاته فوق عقول المخلوقات ، وهو قد خلق أمثال الغنم وأمثال الشوك المحيط بالبزر ، وهدى الغنم للسير ، وأنزل المطر فسقى الأرض فبرز النبات واخضرت الأرض وأخذت زخرفها وازينت .

فهاهنا قد سوى النبات فظهر جماله لأعيننا ، وسوى البزور بحيث ظهر جمالها لعقولنا . وسوى الغنم بأن جعل الصوف حاملا لبزور النبات ، وهو الذى قدر ذلك كله ، ولذلك أعقبه بقوله « والذى أخرج المرعى » هذا غيض من فيض من معنى هذه الآيات ياصاح ، وإن شئت المزيد فاسمع .

إن أسماء الله الحسنى منطبقات على هذه العجائب ، فالله [ملك] قد استوى على العرش وسخر الشمس والقمر وأرسل حرارة الشمس ، وهو منزه عن صفات المخلوقات ، فهو [قدوس] وأعطى أمثال إبرة الراعى قوة غير قوة [النيلوفر] فإبرة الراعى تقذف البزر لينمو فى مكان آخر ، ولكن النيلوفر وهو المسمى [البشنين] ينقبض عضو التذكير منه فيبقى جاثما فى قاع البركة ، فاذا ظهرت الزهرة الأنثى وبهر جمالها فوق سطح الماء تخلص الذكر الجاثم فى قاع البركة وانفصل من شجرته وسارع إلى سطح الماء . وأخذ اللقاح الذى فيه يجرى إلى الأنثى فيكون الأثمار . .

فالله دبر هذا كله لنعلم معنى أنه [سلام ومؤمن ومهيمن وعزيز وجبار ومتكبر وخالق وبارىء ومصور وقهار ووهاب ورزاق وفتاح وعليم وقابض وباسط وخافض ورافع] .

ألم تر كيف نشر السلام فى الآفاق فسعد النيلوفر وتمتع بنعمة الماء وسلم الذكر وسلمت الأنثى ، وقد تعانق الحبيبان فوق سطح الماء كما رأيته مصورا فيما تقدم ، أليس هذا كله ناشئاً من وفرة السلام فى الماء وإن كان الإنسان جهولا كفورا ، يظن أن العوالم فى شقاء قياسا على مايحسّ به هو من الشقاوة والأذى .

ثم انظر كيف جعل هذه البزور آمنة من العطب بما دبر لها وعلم مستقرها ومستودعها ، ثم هو لقهره للعوالم ولعزته وكبريائه تصرف فى هذه العوالم تصرفا يليق بالنظام العام لا بالعواطف الإنسانية والحيوانية لأنه عزيز وجبار ومتكبر .

وبهذه العزة والكبرياء والقهر ثبت هذا النظام . ولذلك دبر نظامها وأبرزها وصورها ، وهذا من معنى الخالق البارئ المصور ، وهو الذى وهب الغنم وغير الغنم هذه النعم ورزقها ، وفتح على كل ذى روح وعلم حقائقها ، وهو الذى قبض ذكور النيلوفر فى قاع البركة قبضا لمنفعة النبات ، وبسط تلك الذكور كما بسط الإناث فظهر فوق سطح الماء وخفض ورفع ، وهو الحكم بين هذه العوالم ، العدل فيما صنع ، وهو الحفيظ لها كما تقدم ، والهادى لها .

قال صاحبى : والله إن هذا الجيل ، ولكن هل معنى هذا أن أسماء الله الحسنى لأجل هذا وحده ؟ قلت : كلا ثم كلا ، أسماؤه الحسنى مفصلات لآثار صفاته العليا كالقدرة والعلم ونحوها ، وهذه العوالم فيها بعض آثار هذه الأسماء المعبرات عن الصفات .

فإذا رأينا السنط الحساس قد نامت أوراقه وانقبضت ، فإننا نتذكر اسمه القابض ، وإذا أصابها نور الشمس فانبسطت تذكرنا اسمه الباسط ، وإذا رأينا إبرة الراعى المتقدمة فى الرسم قد رمت بزرها بيداعتها تذكرنا اسمه الحكيم العليم الهادى البديع ، لأن ذلك إبداع عجيب بحكمة وعلم بنتائج ذلك النظام ، وإذا رأينا جوز الهند طافيا على الماء ذاهبا إلى أماكن بعيدة لينبت هناك ، تذكرنا مثل اسمه الرشيد والصبور والسلام والمؤمن الخ .

وإذا رأينا بزور النباتات التى تنمو فى جزر الهند الغربية قد حملها تيار خليج المكسيك إلى سواحل أوروبا الشمالية الغربية فلنقرأ أكثر أسماء الله الحسنى المتقدمة ، ولنقرأ الآيات كذلك ، ولنفعل ماتقدم فى غيرها وغيرها ، إن ذلك لهو الجمال والبهاء فى أسماء الله وآثار صنعه «وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

أسماء الله الحسنى فى القرون الماضية وفى هذا الزمان

فقال صاحبى : الله أكبر الله أكبر «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» .

فقلت له ياصاح أى باطل تريد ، وأى حق؟ فقال : لقد كنا نسمع الشيوخ الصغار والشيوخ الكبار يعلموننا أن أسماء الله الحسنى وآيات القرآن تقرأ للاستشفاء وطلب الرزق ، فقد فهمنا قوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » هذا هو التدبر وهذا هو التذكر ، وهذه هى البركة ، فالقرآن مبارك باظهار هذه المعانى ودراسة هذا الجمال والبهاء وظهور النور والعرفان ، ويظهر لى أن الجيل المقبل سيتمتع بالنعم والجمال مما لم يحلم به آباؤنا المخلوقون فى القرون المتأخرة .

فقلت له : ياصاح إن الله عز وجل أراد ولا راد لقضائه أن يرقى هذه الأمم التى بقيت مستضعفة باسم الدين ، وهاهى ذه الآن كما هو ظاهر أخذت تعرف الحقائق ، وهذا أمر سيتم . والله هو الولى الحميد فكن مطمئنا ولقد ذكرت ولعلك تذكر ذلك أن حساب الجمل فى الأسماء والآيات شغل الأمة قرونا وقرونا بما نقله بعض المسلمين من علوم الصابئين وقدماء المصريين الذين جعلوا الأوفاق المشهورة لعبادة الكواكب كما جاء فى كتاب أستاذنا المرحوم [على مبارك باشا] المسمى [خواص الأعداد] فقد شرح هذه الأوفاق وقال : كانوا يكتبونها على صحائف الذهب تقربا إلى الكواكب ، وقد جعلوا المثلث لزحل ، والمربع للمشترى ، والمخمس للمريخ ، والمسدس للشمس ، والمسبع للزهرة ، والمثمن لعطارد ، والمتسع للقمر ، وأخذ المسلمون ذلك ووضعوا فيها أسماء الله الحسنى ، وظنوا ذلك بحسن نياتهم من أسرار دين الإسلام ، وما هى بأسرار دين

الإسلام ، ولكنها كانت جهالة وبلاهة أغرم بها قوم ، وقوم جهلوا أن هذه علوم وثنية دخلت على دين الإسلام فمحت معالمه ، ومن عرفها وعمل بها حجابا سموه وليا أو صالحا ، وما هو بولي ولا بصالح ، بل هو جاهل ، وإذا شفى مريض على يديه أنزلوه منزلة شيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأين هو من المسيح وأين هو من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

إن الله باعزيزى يريد أن يطهر المسلمين من هذه الجهالات الفاشية ، فلتكن مطمئنا ، ولتكن واثقا مما أقوله ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا ، ولتعلم أن المسلم بعد نشر هذه المعارف سيكون غير المسلم فى القرون المتأخرة ، وسيعلم من معانى أسماء الله الحسنى ما لم يعلمه كثير من أشهر المتقدمين ، وإذا سمع ماورد من الأحاديث أو الآثار « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها عددا دخل الجنة » فليس يقف عند حفظها أو فهم معناها ، بل يتوغل ويتوغل ، ويقرأ القرآن ويدرس بسبب القرآن هذه العوالم ويقرأ علوم الأمم حولنا ويعرف الجمال البهى فى عوالم الأرض والسماء ، وإذا سمع الله يقول « والذى قدر فهدى » يدرس أنواع الهداية الربانية فى النحل وفى النمل وفى العنكبوت وفى أنواع من الطير التى تكتفى بزوجة واحدة ، والتى تكون لها زوجات كثيرات ، ويرى الذكور تتعاون مع الإناث على المعيشة وعلى تربية الذرية عند الحاجة ، ويتقاسم الفريقان السراء والضراء ، ويرى الثعالب تربى أجراءها وتعنو على أولادها ، وكلب الماء يبنى البيوت لصغاره ، وكأنه مهندس من أعظم المهندسين ، والنحل يقول لصغاره : اذهبى إلى مستعمرة أخرى لئلا يضيق القفير علينا وعليك .

والنمل يزرع ويحصد ويجمع الغلال ويخزنها [اقرأ هذا المقام موضحا فى سورة النمل فسترى هناك صورة للزرعة بالمصور الشمسى] ويربى حيوان اللن كما نربى نحن المواشى ويشن الغارات ويضرم نيران الحرب ويستعبد غيره .

والحيوان يغير هندسته تبعا للأحوال المحيطة به كما فعل [السنونو] فان ساكن [كاليفورنيا] منه كان يبنى عشه مفتوحا من أعلاه فلما اعتدى الطيور عليه غير الهندسة فصار يسد الأعلى ويفتح بابا ضيقا بجانب الحائط للاصق له .

وتختار الطيور الألوان التى ليست زاهية لئلا تعرض صغارها للعطب فتكتفى باللون الرمادى ، والطائر الهندى يخيط أوراق الأشجار ويستعملها عشا لفراخه ويجعل خيوطه شعر الخيل وبعض الطحالب ، فلما كثرت الخيوط المغزولة والخرق المنسوجة صار يستعمل خيوطها لهذه الغاية ، فأما فى الأماكن البعيدة عن السكان فإنه لا يزال يستعمل الطحالب وما أشبهها .

والعصافير فى البلاد المصرية تستعمل القطن فى بناء أعشاشها ولم تكن تستعمله قبل أن شاعت زراعته .
والعصافير فى بلاد سويسرة [تستعمل] قصاصة الفولاذ الدقيقة لكثرتها هناك بجانب معامل الساعات .

هذه بعض المعارف التى سيزاولها المسلمون عند دراسة قوله تعالى مثلا « والذى قدر فهدى » أليست هذه كلها هداية الله تعالى ، أليس هذا قوله تعالى « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون » . وقوله « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » . وقوله : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

نعم أقول : يحق إن المسلمين بعدنا سيفهمون معنى « والذى قدر فهدى » بأمثال ماذكرناه ويعرفون معنى الهادى من أسماء الله الحسنى على هذا المنوال ، ويعرفون بذلك معنى الرحمن الرحيم ، ويعرفون معنى

الحديث المتقدم للفيد « إن لله مائة رحمة وأنه ادخر منها ٩٩ رحمة لعباده فى الآخرة ووضع رحمة واحدة بها يتعاطف الناس والحيوان حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خيفة أن تصيبه » اقرأ نفس الحديث فيما تقدم ، وقد ذكرنا هنا معناه .

هداية الجماد

بل إن الهداية قد تعدت الحيوان إلى النبات والجماد .

وإن كان العقل لا يتصور للنبات ولا للجماد هداية ، إذ الهداية إنما تكون لذى إحساس ولا إحساس للنبات ولا للجماد وربما سهل أمر النبات ، لأن له إحساسا ما ، وأن ذلك العالم الهندى الذى زار مصر قريبا أثبت ذلك بالتجربة ، ولكن الذى يصعب فهمه جدا أن الهداية تشمل الجماد ، فاذا رأى المسلم ماسأذكره فى المقال المترجم عن الإنجليزى بقلم العلامة [ويلسن] فى كتاب [علوم للجميع] الذى ستراه فى الزبرجدة الأولى يرى فيه أن المؤلف يقول : إن ذرات الملح ، وذرات ملح البارود ، وذرات الرصاص فى العمليات الطبيعية الخاصة ، وذرات الماء ، وذرات السكر ، كل هذه تشاهد جاريات مسارعات إلى أن تبنى بناء هندسيا منتظما يقصر عنه البناءون والمهندسون فى منازلنا ، وأقربها متناولا وفهما ماستراه من صور الثلج البديعة النظام المسدسة الأشكال المتكاثرة الأنواع المحافظة على ذلك التسديس ، ما هذا كله إلا أن نفس الذرات المائية الآتيات لها مما حولها نشاهدها تنضم إلى أخواتها ولا تتعدى نظام التسديس وليس معها مهندس يعلمها ولا رقيب ولا معلم يشاهده الناظرون .

حينئذ قال صاحبى : هذا والله هو العجب العجاب ، فكيف يصح هذا ؟ قلت ياصاح : هذه حقائق ستعرفها تفصيلا فى الزبرجدة التي بعد هذه ، وتشاهد بعض صورها وبعض التفصيل ، وهذا مالم يصل عقل الناس إليها ولكن الله يقول « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » فهذه العوالم التى نعيش فيها أثبت القرآن أنها تسبح ، ولكن نحن لا نفقه تسبيحها ، وهذه الهداية نشاهدها فى أمثال الثلج وأمثال الأعمدة التى ستطلع عليها فى الجوهرة الآتية التى تبنى فى مئات القرون بواسطة قطرات الماء المحملات بذرات من الجير الطباشيرى فتترك آثارا من ذرات الجير فى أسفل السقف وذرات أخرى فى أرض الكهف وينمو هذان الأثران ، فهذا ينزل والآخر يصعد حتى يلتقيا ويصيرا عمودا واحدا عليه استقام سقف الكهف وهذا العمود مسدس الشكل كطبيعة الثلج « فتبارك الله أحسن الخالقين » وفى الأرض آيات للموقنين » .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : الله أكبر قد استوفى هذا المقام وعرفنا بعض عجائب النبات والهداية العامة فى الحيوان والنبات والجماد . وفهمنا تفصيلا كيف كانت أسماء الله الحسنى لا يفسرها إلا هذه العوالم ودراستها كما أن الآيات القرآنية تنير السبيل لعقل الناس هذا العالم الذى نعيش فيه ، وفهمنا أيضا أن الأمم الإسلامية فى القرون المتأخرة كانت تظن أن أسرار القرآن وأسماء الله الحسنى كانت تتجلى بعلم الأوفاق وبأنواع الاستخارات ونحوها . فظهر اليوم أن القرآن لأمور عالية شريفة بها يرتقى الناس .

وأخيرا أدركنا أيضا أن ماتشير إليه الأحاديث والآثار من أن أسماء الله الحسنى توصل الناس إلى الجنة يرجع فى الحقيقة إلى هذه العجائب وآثار رحمة الله ، وهنالك تهيم القلوب وتحب ذلك الصانع العظيم ويدهشها آثار رحمته من إتقان صنعه وإحكامه وشمول رحمته ، وأنه لا ذر عصفورا أو حيوانا مكروسكوبيا لصغره كما

لايذر الفيل والجمل والأسد والإنسان ، فكل هذه عنده سواء « إن ربى على صراط مستقيم » يمنع كل طائفة بما يناسبها وما هى أهل له ، ولا تحسد طائفة سواها مع الفارق العظيم ، فليس الإنسان يحاسد أسدا ولا فيلا ولا الغزال يحاسد للثور ولا للغزال ، بل تراه فرحا قانعا بما خلق له « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وهذه المعارف على هذا المنوال الذى جرينا عليه فى هذا التفسير جنات علمية فى الدنيا عجلها الله للمفكرين ، وهؤلاء هم الذين يفرحون بربهم فى حياتهم ويفرحون بلقائه بعد الموت ، وهم هم الذين سيرونه كما يرون القمر لحبهم له وغرامهم به ، فهذه الطائفة هى التى تكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

فهؤلاء عند دخول الجنة لايقنعون بها ، بل يقرءون قوله تعالى « ولدينا مزيد » وما هو المزيد إلا أن يروا حبيبهم الذى أحبوه وهم فى الدنيا بسبب ماشاهدوا من رحمته ، وما رأوا من إسباغه النعم على كل مخلوق فى عوالمه ، وهو ملك عدل رءوف رحيم بهم أجمعين ، ثم قال : هذا أهم ما أفهمه فى هذا المقام ، وفى أمثاله . انتهت الروضة الأولى .

الروضة الثانية من رياض الجنات فى عجائب البحار

وأريد أن تسمعنى من عجائب البحار فوق ماذكرته فى الأصل وهو [الجواهر فى تفسير القرآن] وإنما طلبت ذلك ، لأن آيات النحل التى ذكرناها فى الروضة المتقدمة لم تشرح منها إلا ما يخص النبات والحيوان ولكن آخر الآيات ورد فيها ذكر البحار والفلك فيها ، والابتغاء من فضل الله فيها ، فهذا هو الذى يعوزه تفصيل ، فقلت :

ياصاح : إن عجائب البحر لاحصر لها ، ولقد ورد شرحها فى الأصل وهو [الجواهر فى تفسير القرآن] وهذه الشروح هناك بحمد الله ليست موجزة ، فقال نعم ليست موجزة ، ولكن ماذا تقول فى المثل المشهور حدث عن البحر ولا حرج ، وماذا تقول فى قول ابن الفارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فقلت : حبا وكرامة :

إن عجائب البحر لاحد لها كما قلنا ، ومن أجلها وأبهجها وأبهجها منظرا وأبعدها مايشاهد فى البحار من اجتماع الضدين : الظلمات والنور ، والقبض والبسط ، وهذان الضدان : القبض ، والبسط كل منهما لحكمة كحفظ الحيوان بالقبض وكاضاءة طرق المعيشة بالبسط أتدرى ماهما هذان الضدان ؟ هما أولا سمك يسمى : [أخطبوط] وثانيا حيوانات بحرية منيرة ، وثالثا سمك منير .

فالأخطبوط كلة يونانية معناها [الثمانى الأرجل] وهو حيوان بحرى ، وهو يقيم بين الصخور بقرب الشاطئ يترصد فرائسه من المحار والسرأطين ، أذرعه ثمان كما تقدم ، وهى طويلة كالأفاعى منتشرة حول فيه ، وله ثمع يبق الماء منه فيجرى إلى الجهة المخالفة برد الفعل ، هذا إذا كان عائما فى الماء ، وأما إذا كان على الأرض فى قاع البحر فانه يدب على قوائمه ورأسه إلى الأسفل ولا مثيل له فى ذلك ، حيوان يمشى وبدنه فوق رأسه ويمكنه أن يدب إلى الأمام وإلى الوراء وإلى اليمين وإلى اليسار ، وسيره كذلك بطئ بخلاف

جربه فى الماء سباحة يبق الماء من قمعه فإنه سريع جدا ، وقد يكون لأذرعه غشاء واسع فيستعين بها على السباحة .

وأنواع الأخطبوط كثيرة وكلها خال من الأصداف الظاهرة إلا النوتيلس .

وللأخطبوط عينان كبيرتان جاحظتان وكيس فيه مادة سوداء كالحبر يفرزها فيسود الماء بها ، ويقال إنه يختفى بهذا الحبر عن عيون أعدائه التى تفتش عنه لتفترسه ، فهو سلاح له يدافع به عن نفسه ، وفى أذرعه محصات صغيرة يلتصق بها بما يمسك به التصاقا شديدا حتى لقد تتقطع الذراع ولا تنفصل إلا بإرادة الأخطبوط وقد تكون هذه المحصات فى صف واحد وقد تكون فى صفين ، ويبلغ عددها أحيانا ألفى محص ويعرف للأخطبوط نحو تسعين نوعا تعرف بألوانها ، وطول أذرعها ، واتساع محصاتها .

وهو يعيش منفردا إذا كان بالغا ، وأما إذا كان صغيرا فيعيش مجتمعا بعضه مع بعض على ماقيل إما فى شقوق الصخور أو تحت الحجارة الكبيرة مختفيا عن عيون أعدائه .

ويرى الأخطبوط حيث يباع السمك صغيرا رأسه كالبرتقالة أو أصغر ، وطول الذراع من أذرعه نحو نصف متر ، ولكنه قد يكون كبيرا جدا حتى يبلغ طول الذراع من أذرعه نحو مترين ، وتقل الأخطبوطة كلها ثلاثة قناطير مصرية ، ويشبهه نوع له عشرة أذرع يقال له [ديكابود] يداه الزائدتان طويلتان جدا ، وقد روى القدماء القصاصون روايات غريبة عن هذا الحيوان ، حتى زعم بعضهم أنه يقبض على السفينة ويجذبها إلى قاع البحر ، وهذا من الأوضاع الخرافية ، لكن بعض أنواع هذا الحيوان يبلغ جرما كبيرا جدا حتى لايعجز أن يجذب القارب الكبير ويقلبه ، فقد وجد واحد منه على شاطئ الأرض الجديدة سنة ١٨٧٤ طول كل ذراع من ذراعيه الطويلتين ٢٤ قدما : أى نحو ثمانية أمتار ، ورأى بعض البحارة حيوانا من هذا النوع بقرب ارلندا سنة ١٨٧٥ ظنوه مركبا مكسورا فتبعوه مسافة خمسة أميال حتى قبضوا عليه فوجدوا طول الذراع من أذرعه القصيرة ثمانى أقدام ومن ذراعيه الطويلتين ثلاثين قدما أى أكثر من تسعة أمتار ، وقد بلغ وزن بعض هذه الحيوانات عشرة قناطير مصرية ، فلا عجب إذا خاف النوتية شرها ولو كان طبعها الجبن .

ولم يذكر الأخطبوط صريحا فى كتاب القزوينى ولا فى كتاب الدميرى ، لكن القزوينى ذكر سمكة كأنها قلنسوة بالغارية لها مرارة كمرارة البقر سوداء إذا اصطادها تحركت فيسود الماء الذى حولها مثل الحبر ، نقل ذلك عن أبى حامد الأندلسى . قال أبو حامد : « وأظن ذلك الحبر من تلك المرارة فاذا وقعت فى الشبكة يبقى ماحولها أسود جدا فيؤخذ من ذلك الماء ويكتب به أحسن من كل مداد لايمحى وله سواد وبريق » . اهـ .

ومعلوم أن حبر الصيدى كان يستعمل للكتابة من عهد قديم جدا ، وقد ذكره بعض الكتاب الرومانيين ، ومنه كلمة [سيبيا] باللغات الأوربية ، ومعناها : الحبر الهندى أو الحبر الذى يظن أنه مأخوذ من الصيدى ، وهاك بعض أشكال الأخطبوط .

(شكل ١٤)
الأخطبوط طويل الأذرع

(شكل ١٥)
الأخطبوط القصير الأذرع

(شكل ١٦)
الأخطبوط الطويل الذراعين كما قرره الأستاذ فرل

فانظر رعاك الله إلى هذا الأخطبوط وكيف أعطى نعمة عظيمة له ، وهي الحبر ، ذلك الحبر الذى يلون الماء بلون السواد فيخفى عن أعين الحيوانات التي تقصده بسوء ، سبحانك يا الله إن هذه من رحمتك التى وسعت كل شئ « ورحمتى وسعت كل شئ - إنى توكلت على الله ربى وربكم - ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون »

ماهذا سبحانك يارب عجب وألف عجب ! تقول لنا : إن هذه العوالم أمم أمثالنا أى إن لها أعمالا كثيرة تقدر أن تعين نفسها الوسائل بطرق تناسبها كما نفعل نحن بجيوشنا وأساليبنا فى الحياة ، فها هوذا الأخطبوط قد أعطى مادة كالحبر ، وهذه المادة بسوادها تضل عدوها أن يناله بسوء ، سبحانك يارب « قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » فهذا الحبر للحيوان حصن وقلعة ومجن ودرع وصيانة ، وللانسان مداد به يكتب العلماء علومهم وديانتهم جل الله جل الله .

الحيوانات البحرية المضيئة

أما الحيوانات البحرية المضيئة فهذه صور منها :

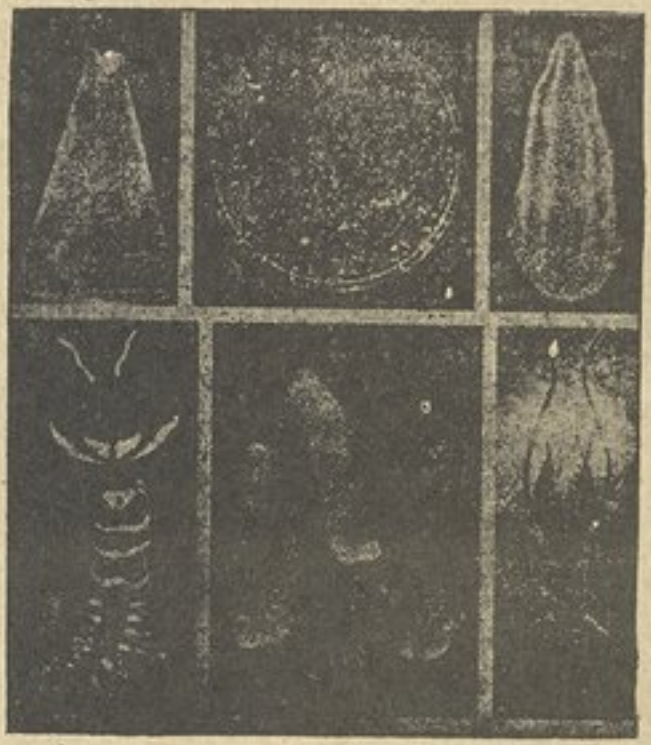

(شكل ١٧)

أحياء منيرة : (١ ، ٢) بكتيريا (٣) فرج البحر (٤) دودة بحرية (٥ ، ٦) نوعان من السيليج

كل هذه الصور هنا من كتاب فصول التاريخ الطبيعى المنقول من المقتطف فلنلخص منه ماقاله العلامة [مكارتنى] فقد ذهب إلى أن تألق البحر الفصفورى ناشئ عن حيوانات تعيش فيه ، وهذا هو التعليل الصحيح ، فكل تألق فصفورى فى البحر ينشأ عن حى من الأحياء ، بعضها مكرسوبى ، وبعضها يرى بالعين المجردة ، وقل من الناس من يدرى كثرة الكائنات الحية المضيئة التى فى الطبيعة ، فاننا إذا تناولنا الأحياء بالبحث الدقيق من هذا القبيل وجدنا مالا يقل عن أربعين رتبة من الحيوانات كل رتبة منها تشتمل على أكثر من شكل واحد من الأحياء المنيرة ، يضاف إلى ذلك طائفتان من طوائف النبات على الأقل . والنباتات المنيرة هى : البكتيريا والفطر ، فكل ألفى فصفورى فى الخشب مبثه الفطريات التى تعيش فيه ، وكل ألف فصفورى فى السمك الليت واللحم المحفوظ فى الثلاجات وغيرها من المواد التى كانت حية ، منشؤه البكتيريا ، وهذه الأشكال البكتيرية واسعة الانتشار وتستطيع العيش والتكاثر فى كل وسط موافق لها ، حقا إن عدد الأصناف الحية المنيرة بين الحيوانات يبلغ عشرات الآلاف منها ضروب الإسفنج وفرج البحر والحيوانات الهلامية البحرية والحيوانات الصدفية والسيليج ، ونجم البحر ، وديدان الأرض وديدان البحر ، وضيقة الأربعة والأربعين [السنتيد] والأسماك وغيرها .

(شكل ١٨)

حيوانات منيرة من أعماق الأتلنتيكى

فمن أصناف السبيذج صنف تشتمل أطراف لوامسه على أعضاء منيرة ، فإذا سبح الحيوان فى الماء حرك لوامسه حركة موجية فتظهر للمشاهد وكأنها شقة من النور تتماوج فى الفضاء ، ويكثر على مقربه من اليابان ويدعى هناك « هوتاروايكا » : أى السبيذج الشبيه بالجاجب .

وهناك صنف آخر من السبيذج يوجد على شواطئ إيطاليا يقذف بسائل منير إلى الماء ، وهو يعيش فى أعماق البحر المظلمة ، وسائله المنير يصنع فى غدة تقابل كيس الحبر فى السبيذج الذى يطلق حبره الأسود ويلتقط عند الشواطئ السورية .

ومن الغريب أن التطور الخاص قد أنشأ صنفين من نوع واحد : أحدهما يصنع سائلا أسود حالك

السواد والآخر يصنع سائلا شفافا منيرا ، إننا نستغرب عادة مشاهدة سمكة تقذف حولها حبر أسود ، ولكن دهشتنا تكون أعظم جدا إذا رأينا سمكة تقذف إلى ماء البحر سائلا من النار « أى السائل المنير » الذى يظل متألقا فى البحر إلى حين ، فما الفائدة من هذين الجهازين؟ لعلها من قبيل أغشية الدخان الكثيف التى تقذفها الطيارات والبوارج فى الحرب « أى لمنع أعدائها من النهامها وهى تعمن فى الهرب .

(شكل ١٩)

سمكة منيرة عجيبة من أعماق البحر على مقربة من طرف أرخبيل الجنوبى الغربى

هذا واعلم رعاك الله أن الحكمة الألهية أبدعت فى خلق بعض هذه الأسماك أيما إبداع فانظر ثم انظر كيف كان بعض هذه يعيش فى قاع البحار المظلمة التى لا يجد ضوء الشمس سبيلا الى إضاءتها لشدة بعدها عنه فسهلت الحكمة الإلهية والرحمة الواسعة السبل للعناية بحياة تلك الحيوانات ، ومهدت لها طرق المعيشة وطرق الوقاية فجعلت لها مايشبه البطاريات الكهربائية التى تخرج أشعة ، وتلك الأشعة قد أعد لها فى أعضاء السمكة ما يعكس نورها ويديره فى اتجاه واحد فى العين ترى الأنوار تشع وفى جانبها مايوجهها إلى الأمام صنع الله الذى أتقن كل شئ فاذا لم يصل ضوء الشمس لها ، فها هوذا الحيوان أعطى نورا به يستضئ فى ظلمات البحار « إن ربكم لرءوف رحيم » .

يقول العلماء : إن عضو النور فى هذا السمك معقد التركيب لأنك تجد وراء العدسية طبقة من مادة لماعة تعكس النور ، فإذا تولد النور فى داخل العين وقع جانب منه على هذا العاكس فيرده إلى العدسة فينبعث منها وهكذا يصبح النور والمنعكس عنه شعاعا واحدا .

ولبعض أصناف السبيذج فى أعماق الأوقيانوس ثلاثة أعضاء منيرة : أزرق ، وبنفسجى ، وأحمر .

ثم لتعلم رعاك الله أن الحكمة الالهية دبرت البحار تدبيرا يثير الإعجاب بمنظر الجمال ، فبينما ترى الأقطار القطبية بهجة للناظر بما فيها من ضوء الصباح الطويل الذى يدوم بعض شهور فيسطع نوره على أنواع الثلج فيتألق ويشع نورا بهجا يبهج السكان ، وقد قل جمال هذا الإشراق الصباحى فى جهات خط الاستواء وما نحا نحوها .

أقول : فبينما نراها كذلك إذا بنا نرى أعجب وأعجب ، ذلك أن البحار الإستوائية وما قاربها تمتلئ بتلك الحيوانات اللامعة وما فيها من المواد الفسفورية ، فماذا ترى ؟ ترى اشراقا وجمالا يشاهده راكبو السفن فى تلك الأقطار ، ويرون تألق الأمواج بألوان جميلة براقة مختلفة الألوان بهجة وجمالا ، بها يحاكى البحر هيئة

السماء وما فيها من المشرقات الثواقب المختلفات جمالا وبهجة « فتبارك الله أحسن الخالقين » وفى الأرض آيات للموقنين » .

وبينما نحن نرى ظواهر البحار على هذا المنوال إذا بنا نرى الأعماق التى لانور فيها قد تألقت الأنوار من أعضاء حيوانها لتقضى لها طرق معاشها وسبل حياتها وانقاء مضارها، وابتغاء رزقها « والله هو الولى الحميد ، يرزق من يشاء بغير حساب ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

خطاب لأمم الإسلام

فى حياة الحيوان فى قاع البحار ، وكيف درسه الغربيون وأظهروا قناديله وأضواءه فى تلك الأصقاع كما درسوا موسيقاه ومغانيه فوق اليابسة .

أيتها الأمم الإسلامية . ها أنتم أولاء تسمعون الله يقول فى كتابنا المقدس « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها » ومن نعمه التى لاتحصى البحار وعجائبها، ويقول الله فيها « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

يقول : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبغوا من فضله ، الله أكبر ! عمم الفضل ، وابتغاء الفضل بعد ذكر اللحم الطرى : وهو السمك ، وبعد أن ذكر الحلية ، والابتغاء من الفضل يشمل التجارة ويشمل غيرها ، فالفلك المواخر فى البحر يبتغى الناس بها غير التجارة أمورا أخرى : كالكشف عن مخبآت البحار ، الله أكبر ، رحماك ربنا ارفع الغضب عن أمتنا الإسلامية ، واكشف عن البصائر وأنرلهم السبيل حتى يعرفوا أن بحارك مسخرات لهم ، فليس تسخير البحار خاصا بأوروبا ، فانك قلت « الله الذى سخر لكم البحر » فالخطاب بلفظ لكم لم يستثن الله منه المسلمين ، بل هم أولى به ألم يقل الله « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » أليس من عجب أن تزدهر هذه العلوم فى أوربا وينطفئ مصباحها فى بلاد الإسلام ! سبحانك يارب وسعت كل شىء رحمة وعلما ، ولما نامت أعين المسلمين عن هذه العلوم ، ومن أجلها علوم قاع البحار فتحت أعين أمم أخرى وأيقظتها لذلك ، لأن الملك ملكك ، والناس جميعا عبادك ، فلم يكن جهل المسلمين بكتاب ربهم وبجمال صنعه سببا لإبعاد الناس جميعا عن نعم ربهم ، كلا ، فهؤلاء رجال من الأمم الغربية كانوا يقولون مثل العلامة [فوريز] الذى شجعته الحكومة الانجليزية على اقتحام البحار فى القرن التاسع عشر : أن هناك خطا يسمونه [صفر الحياة] أى أن الحياة فى أعماق مخصوصة فى البحار معدومة ولكن ، رأى [فوريز] المذكور قد أظهر خطأه الأستاذ [سير جون روس] فإنه نشر فى عام ١٨٩١ مايفيد أن عمق البحر على بعد ألف قامة به تربة مكونة من طين به ديدان كثيرة ، وقد استخرج بمسباره الذى أرسله إلى ذلك القاع حيوانا بحريا عجيب الشكل يسميه البحارة المصريون [قنديل البحر] وهى حيوانات بحرية تجعل هى والرجان فى فصيلة واحدة ، وهذا الحيوان المسمى : قنديل البحر حيوان فى غاية الجمال بديع الشكل . قال [جون روس] وهذه أول مرة عثر الإنسان فيها على حيوانات حية على بعد ستة آلاف قدم ، وهكذا وجد عند خط عرض ٣ ر ٧٣ جنوبا ، وخط طول ٦ ر ١٧٦ شرقا كثيرا من الحيوانات التى لافقرات لها ، وجاهر بأنه يعتقد بأننا مهما تعمقنا فى قيعان البحار فإننا نجدها

مملوءة بالحيوانات الحية ، وأثبت هو وغيره أن الضغط العظيم الواقع على تلك الحيوانات لم يمنع عنها هذه الحياة.

وهكذا فعل البحار [بروك] فى عام ١٨٥٤ فإن مسباره الذى اخترعه قد أيد ذلك تأييدا تاما، وأفاد أن أعماق البحار مملوءة من تلك العجائب الحيوانية ، فهل هذا يعجبكم أيها المسلمون ! يستيقظ علماء الغرب ويفتشون المحيطات ويزيدون العلم وأنتم نائمون ، كأنّ القرآن ليس كتابكم ، وكأن نعم الله لم تكن حلالا لكم والله خصصها لغيركم ، تنبهوا أيها المسلمون إلى رشدكم واعلموا أن دراسة هذه العجائب نوع من الشكر المذكور فى آية البحر المتقدمة إذ يقول « ولعلكم تشكرون » .

هذا غيض من فيض من عجائب الحيوانات البحرية وإضاءتها فى ذلك الظلام التام فى قاع البحار .

وكما أن الحيوان يضىء فى البحر تارة ويقذف الحبر أخرى ، هكذا تراه فى البرّ يغنى بأصوات شجية وسأحدثك عن تلك النغمات على اليابسة فأقول : جاء فى بعض المقالات العلمية فى جريدة الأهرام ما نصه :

الموسيقى والحيوان

للحيوان شعور وإحساس بالموسيقى لا يقل كثيرا عن شعور الإنسان بها ، فالحيوانات كلها تتأثر بالموسيقى تأثيرا كبيرا غير أن هذا التأثير يختلف باختلاف معيشتها .

فمن الحيوانات ما يتأثر بالموسيقى الصوتية ، ومنها ما يتأثر بموسيقى الآلات وهكذا ، وقد قام كثير من علماء الغرب بتجارب لمعرفة أى أنواع الموسيقى يؤثر على كل حيوان . ويمكن أن نقول إن كل حيوان يتأثر بالموسيقى المشابهة لصوته ، فالخيل تتأثر بالموسيقى المشابهة للصهيل كما يتأثر الخروف بالمأمأة . وأما الكلب مثلا فلا ينبح إذا سمع شخصا يقول « هوهو » بغير النغمة التى يصدرها هو أوالتى تصدرها الكلاب عادة فى حين أنه ينبح إذا كان هذا النباح بنفس نغمة الكلاب ، ولكى يثبت ذلك يمكننا أن نلفظ أمام الكلب « هوهو » بنغمة غير نغمة النباح فنجد أنه لا يتأثر ولا يعيرنا أذنا صاغية فى حين أنه يتأثر إذا قلنا (بل بل) مثلا ، ولكن بنفس نغمة النباح .

كذلك الحروف لا يتأثر بكلمة (ماء) إنما يتأثر بنغمة هذه الكلمة .

ومما يثبت تأثير الحيوانات بالموسيقى ماحصل للسّتر [جراس] أحد فلاحى الإنجليز — إذ لاحظ أن البقر كثيرا ماتتجمع حول سور المرعى تاركة بقية الحقل الذى ترعى فيه مرهفة آذانها تستمع إلى الموسيقى التى تنبعث من بيت بجوار المزرعة ، وقد عرف المستر جراس تأثير هذه الموسيقى على بقرة من نظراتها وحركات آذانها وذيلها ابتهاجا .

فما كان منه إلا أن اشترى آلة للراديو ووضع بوقها فى مرعى البقر فرأى أن كمية اللبن قد تضاعفت بتأثير الموسيقى ، وأن البقر يسرّ كثيرا كلما كانت الإذاعة موسيقية . أما إذا كانت محاضرة علمية أو اجتماعية فإن هذه الأبقار لا تكاد تسمعها حتى تنام مفضلة النوم على سماع المحاضرات التى لا تفهمها ، فاذا ما انتهت المحاضرة استيقظ البقر من سباته واجتمع عند بوق الراديو لسماع الموسيقى ! .

ومن عادات أهالى السودان أنهم يجتمعون على الشاطئ إذا أخذ التمساح أحدهم يتغنون ويقرعون الطبول ويعرج التمساح (وفى فمه فريسته) على الشاطئ الآخر ليستمتع بسماع الموسيقى العذبة — ويعمل الأهالى ذلك لكى يشاهدوا فقيدهم .

التمساح الذى نظن أنه أقل الحيوانات البحرية تأثرا يتأثر بالموسيقى ونحن نرى مايفعله الذين يربون الحمام ويعلمون مايسمى (غية حمام) حين يصفرون إليه ليدخل بيته أو ليتحرك حركات خاصة .

والحمار الذى هو أكثر الحيوانات غباوة يتأثر بالموسيقى ولا يشرب إلا إذا صفر له صفيرا منتظما، وهو

إذا سار على قنطرة خشبية أو طريق مرصوف كان سيره منتظما ليحدث بخطواته موسيقى جميلة ، وهذا مايحصل لجيل عربات الركوب إذيحاول زوج الجيل أن يجعل من ضربات أرجله على الأرض موسيقى منتظمة .

والحشرات كذلك تتأثر بالموسيقى تأثيرا كبيرا ويثبت ذلك مايحصل من خلية النحل إذقد تدخل حشرة طفيلية خليتها وتغنى بألحان شبيهة بتلك التى تقوم بها الملكة ويتأثر بسماعها أفراد الخلية ، تحدث هذه الحشرة الغريبة تلك الأصوات الموسيقية الجميلة لتركها العاملات من النحل تأكل ماتشتهى من العسل مادامت تشجين بموسيقاها العذبة .

وأكبر دليل على كون الحيوانات تتأثر بالموسيقى هو أنها نفسها تحدث « الموسيقى » فللكثير من الطيور صوت جميل تتغنى به ، كما أن أصوات الحيوانات كلها تعد من الأصوات الموسيقية ، غير أننا يمكن أن نتذوق بعضها ولا نتذوق الآخر ، وكذلك الحشرات فإنها ترنم بالموسيقى ، وليست الحنجرة هى الأداة الوحيدة لإخراج موسيقى الحشرات ، فإنها قد تحدث الموسيقى بطرق مختلفة تشبه الطرق التى نحدث بها موسيقانا .

فمن الحشرات مايحدث موسيقاه من جهاز التنفس الذى يتركب من أنابيب عجيبة تخرج موسيقى تشبه مايخرج من الأنابيب الأرغونية .

فالخنفساء مثلا تعزف موسيقى بطريقة مشابهة لعزف العود تقريبا ، فهى تشد جسمها الأمامى والخلفى فينكشف بينهما غشاء رقيق مشدود فتعزف عليه بعضلة زائدة فى جسمها ، وهى تغير النغمة بتغيير قوة شد هذا الغشاء .

ومن الحشرات ماتفرغ جذور النباتات فتجعلها كالطبلة وتقف عليها برأسها . أما النمل فيحدث موسيقى إجماعية : أى يعمل مايشابه أوركستر قد يزيد عن أكبر أوركستر عالمى . فان النملة باحتكاكها بأوراق الأشجار تحدث صوتا لا يعد من الأصوات الموسيقية ولكنه باجتماعه بالأصوات التى تحدثها الأخريات ، وقد تكون متباعدة تحدث موسيقى شجية إذ أنها تبتدئ كلها وتنتهى فى وقت واحد بأصوات متفقة اتفاقا تاما ، ومن الحشرات مايحدث أصواتا موسيقية بحك عضو من جسمها بعضو آخر ، ومثال ذلك مانسمعه من النمل الطائر إذ يحدث الطنين بحك أجنحة على جسمه الحلزونى بسرعة عظيمة ، وتشبه هذه الموسيقى موسيقى الكمنجة التى تحدث من حك القوس على الأوتار .

وقد يقول البعض إن هذه الأصوات التى تحدثها الحشرات والحيوانات ليست من الموسيقى فى شئ ، ولكن الواقع أن الموسيقى ماهى إلا ترتيب الأصوات الموسيقية ترتيباً تألفه الأذن ، إذن فصوت الضفادع مثلا من الموسيقى ، لأن الأذن تألفه وهو يحدث فى الإنسان روعة عظيمة .

وخلاصة القول أن للموسيقى تأثيراً كبيرا على الحيوان كالها على الإنسان ، وكثير من الحيوانات يعزف الموسيقى ولكنه كالإنسان فى أول حياته ينتقى من الآلات التي فى الطبيعة . انتهت الروضة الثانية .

الروضة الثالثة

من روضات الجنات فى عجائب أنواع الحيوان من حيث راحة أجسامها بالنوم من عجائب قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وقوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » وأن هذا النوم من أجل الراحات على الحيوان ، وفيه من عجائب النوم ماهو أشبه بالموت وليس بموت حتى

تشابها وتشاكل الأمر، ولم يتفاوت الإنسان والحيوان والنبات فيه فهو من أجل الرحمات، والآية نصت عليه.

قال صاحبي : لقد ازدهر هذا المجلس بعجائب البحار وجميل أنواع حيوانها الفصفورية المضيئة البهجة وما فيها من عجائب وبدائع، وإن جمال النور كما يكون فوق أمواج البحار متلألئا بهجا في أقطار خط الاستواء فيكون البحر بديع المنظر جميل الأشكال يكون كذلك في قاع الأوقيانوسات بهجا بديعا فيه أنواع الجمال والبهجة والنور من كل سمك أشرقت أنواره وأضاءت له السبل حين انقطعت عنه أنوار الشمس ، ولما كانت الحكمة لاحد لها ، وكان السمك أنواعا وأصنافا أعدّت الحكمة العالية القدسية نوعا آخر من النافع وهو الحبر الأسود الذي يقذفه الأخطبوط في الماء فتعمى عنه عيون أعدائه « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

فأرجو الآن أن تبين لنا حكمة أخرى لاتقل أهمية عن هذه ، وذلك أن الله يقول «ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » وقال « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » وهي أن تشرح مسألة تقدم ذكرها في كتاب [الجواهر] وهو أصل هذا الملحق ، وذلك أن العلماء قد أثبتوا في عصرنا أن حبات البرالتي أصيبت بضر قد وجدوا في الحبة الواحدة منها مايبلغ عشرة آلاف حيوان صغير ، وهذه الحيوانات حفظها العلماء مدة من سنتين إلى ٢٨ سنة وهي جافة ، ثم أنزلوا عليها الماء فحييت وكرروا ذلك مرارا فكانت بعد الموت تحيا ، وقد قرروا أن ذلك موت لا نوم ، ولكننا نراه يشبه النوم من وجه ، وهو الاستيقاظ في حال ورود الماء عليه ، فهل من سبيل لشرح هذا الموضوع ؟ ونكتفي في هذا المقام بذلك في هذه الجوهرة .

(شكل ٢٠)
الدود الخيطي

قلت أما صور تلك الحيوانات التي تجمعها حبة القمح التي أصابها الضر ، ونسميها في بلادنا المصرية [مهفوفة] فهاك ثلاثة أمثلة لها :

(شكل ٢١)
الترادد بفرادا المتحركة

(شكل ٢٢)
الترادد بفرادا الساكنة

ولننقل هنا ماجاء في فصول التاريخ الطبيعي تحت عنوان السكون والتشتيه والتماوت في الحيوان والإنسان وإنما نذكره لك أيها الأخ هنا لتطلع على العلم من وجوه شتى ، ، فإنا نقلنا عن مجامع أوروبا في التفسير كما قلت أنت إجمالا إنهم أثبتوا أن تلك الحيوانات [بعد وضعها في الشمس تارة وفي إناء قد أفرغوا الهواء منه مددا كثيرة تارة أخرى . وبعد أن بقي كذلك سنين وسنين بلغ أقصاها ٢٨ سنة ورأوا الحيوان بعد ذلك وقد صبوا عليه الماء قد رجع حيا] قد ماتت ثم حييت ، فأما في هذا المقال ، فإن القول فيه منصرف إلى أنه نائم ، وفي المقال الأول المنقول عن جامعات أوروبا قلت : إن هذا عجب فهو يثبت البعث والقيامة بطريق علمي ظاهر واضح كقصة أهل الكهف ، وهذا قد أوضحناه هنالك إيضاحا تاما .

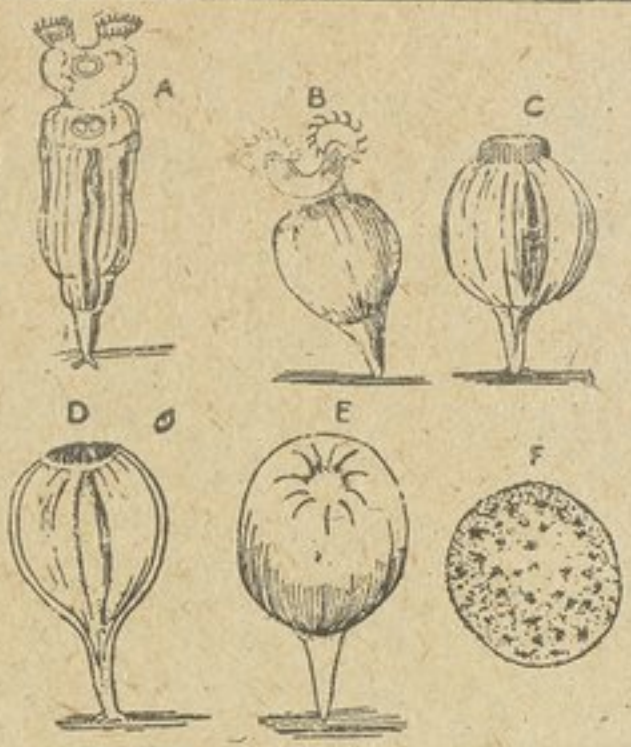

(شكل ٢٣)
الحويريات الدولابية

فهاك المقال المذكور لتعرف ذلك وتعرف فوق ذلك بعض أنواع الحيوان التي تنام شتاء وتستيقظ صيفا والله هو اللطيف الخبير .

جاء في كتاب الفصول المذكور مانصه :

السكون والتشتيه والتماوت في الحيوان والانسان

النبات حي ولكنه ساكن بمعنى أنه لاينتقل من مكان إلى آخر ولا يتحرك إلا حركة النمو وقت النمو ، ويظهر هذا السكون بنوع خاص في بزوره فإنها لا تتحرك ولا يظهر فيها أثر النمو إلا إذا بلت بالماء ، وأما إذا لم تبل فقد تبقى حية ساكنة مئات من السنين .

وقد يظن أن الحيوان لايجرى هذا المجرى ، بل هو متحرك نامياً كان أوغير نام ، ولكن يظهر من البحث أن بعضه يسكن سكونا تاما مدة طويلة أو قصيرة كأنه ميت ، ثم إذا وضع الماء عاد إلى الحركة ، ومن أمثلة ذلك الحلزون [البزاق] فانه إذا جاء الصيف انكمش في قوقعته [بوقه] وأفرز مادة مخاطية كلسية سد بها بابها وأقام كذلك من غير حركة إلى أن يقع المطر ويبله فيخرج ويسرح ويأكل ويتزاوج ويعيش كما تعيش سائر الحيوانات ، ويجمع في بدنه غذاء كافيا لحفظ حياته مدة القيظ والاستكنان .

وقد يقع هذا الاستكنان في فصل الشتاء والبرد لافي فصل الصيف والحر ، فتستكن في بيوتها الأفاعي والمناجذ والخفافيش وبعض الفيران وأنواع النمل وحشرات أخرى كثيرة ، وقد تتغير أشكالها وتبنى لها بيوتا تقيم فيها ساكنة كأن لاحياة فيها .

ومايصيب الحشرات الكبيرة كالديدان والعناكب يصيب الحشرات الصغيرة التي تكاد تعدمن المكروبات لصغرها كالديدان الخيطية التي منى بها القمح في بعض الأماكن من هذا القطر . فقد كتب إلينا بعض أهل الزراعة أنهم زرعوا قمحا فكانت الغلة زوانا ، وبعثوا إلينا ببعض الحبوب التي حسبوها زوانا ، فاذا هي قمح أصيب بالدود الخيطي فضمر وبقي صغيرا مثل حب الحلبة ، وقد فحصنا قمحا مثل هذا النوع بالمكرسكوب منذ ثماني سنوات ونشرنا نتيجة فحصنا له في مقتطف يوليو ١٩١٥ وها بعض ماورد فيه : [وضعنا أربع حبات من حبوب القمح المصاب في كأس ماء حتى تبتل ، وبينما نحن نحضر الميكروسكوب لفحصها به أخذ الخادم الكأس وصب الماء منها وبعد اللتيا والتي تمكنا من وجود حبة من تلك الحبوب الأربع فشققناها ، وإذا المادة النشوية فيها لاتزال بيضاء في فلقتيها كأنها باقية على حالها ، والحقيقة أنها صارت كتلة من الديدان

البيضاء كما سيجيء فأخذنا شيئا قليلا منها ووضعناه على لوح الميكروسكوب الزجاجى ووضعنا عليه نقطة ماء، وإذا هو ديدان خيطية مشتبكة بعضها ببعض تختبط وتتمعج ويحاول كل منها الإفلات من رفاقه ، ثم أخذنا قليلا من الفلقة الثانية ووضعناه تحت الميكروسكوب . وإذا هو أيضا مؤلف من هذه الديدان ولكنها تكاد تكون عديمة الحركة ، فعدنا إلى الفلقة الأولى فوجدنا أن كل ديدانها كثيرة الحركة ، وأما الفلقة الثانية فبقيت ديدانها قليلة الحركة إلى أن طال نقعها فى الماء ، وجعلنا نخفف ماناً خذه منها بتكثير الماء فصارت أكثر حركة مما كانت قبلا ولكن حركتها بقيت أقل من حركة الديدان التى من الفلقة الأولى .

وقد ظهر لنا أن المادة النشوية زالت كلها ولم يبق منها إلا حبوب قليلة جدا لاتذكر ، وقامت هذه الديدان مقامها وأن طول الدودة الواحدة ثمانية أعشار مليمتر وثخنها نحو $\frac{1}{100}$ من المليمتر ، وإذا حسبنا أن مساحة النشا التى قامت هذه الديدان مقامه ثمانية مليمترات مكعبة فيكون فى الحبة الواحدة من الديدان نحو مائة ألف دودة ، وهذا كلام رجال القطف ، والذى كتبناه فى أصل التفسير عن المجامع الأوروبية أنه يبلغ عدد الحيوانات فى حبة القمح نحو عشرة آلاف.

ثم قال : وقلما ينتظر أن تحل الحبة الواحدة أكثر من دودة أو دودتين أو بضع دودات فتبلغ الحد الفائق من التكاثر فى برهة وجيزة ، ولذلك إذا خلطت حبوب قليلة من هذا القمح المضروب بتقاوى القمح السليم الذى يزرع فى أفدنة كثيرة فلا عجب إذا أصيب محصولها كله وتلف .

وبعد أكثر من سنة نظرنا إلى الزجاجة حيث كانت تلك الديدان فلم نر عليها إلا آثارا صغيرة ، ثم وضعنا عليها نقطة ماء حتى ابتلت جيدا ونظرنا إليها ثانية بالمكروسكوب فاذا الديدان فيها تموج موجا ويلتف بعضها على بعض متلويا متمعجا كأنها زادت عما كانت عليه فى النوبة الأولى عددا ونشاطا ، ويرى فى الشكل (٢٠) صورة واحدة منها وهى مكبرة نحو مائة وخمسين ضعفا .

ومن هذه الحشرات الصغيرة نوع يطلق عليه اسم تراد يغرادا Tradigrada أى البطيئات السير ، ومنه صنف يعيش فى الأماكن الرطبة ، وهو يأكل ويتحرك مثل سائر أنواع الحيوان ، ولو كان بطىء الحركة ومنظره حينئذ مرعب ، له ثمان أرجل مسلحة بالمخالب الحادة ، وعلى ظهره درع كثيرة المفاصل كدرع السلحفاة فيها أشواك بارزة تزيده مهابة كما ترى فى الشكل (٢١) ، فإذا جف المكان الذى هو فيه استسلم للأقدار وأقام فى مكانه ساكنا خاملا إلى أن يجف فيتجعد جسمه ويصير كحبة رمل مستطيلة كما ترى فى الشكل (٢٢) وتتوقف كل الأفعال الحيوية الظاهرة ، وقد يبقى كذلك سنوات عديدة ولا يظهر فيه أقل تغير ، ولكن إذا أصابه قليل من الماء حينئذ جعلت حبة الرمل هذه تنفتح رويدا رويدا فيزول ما فيها من الغضون أولا ثم تزيد انتفاخا حتى تعود إلى حالها الأولى وبعد مدة تختلف من ربع ساعة إلى بضع ساعات حسب الزمن الذى بقيته ساكنة تسير فى طلب رزقها .

وفى الأماكن الرطبة والمستنقعات نوع آخر يسمى : بالحويوينات الدولابية Rotifera لها فى رءوسها أهلاب تتحرك حركة موجية فيظهر كأنها دواليب تدور على نفسها كما فى الشكل (٢٣) ، وهى صغيرة ميكروسكوبية تبقى ظواهر الحياة ظاهرة فيها مادامت رطبة فإذا جفت يبست وصارت كالغبار ، وإذا أعيدت إلى الماء بعد ذلك عادت ظواهر الحياة إليها وسبحت فى الماء طالبة رزقها أو رسخت فى مكان بأذنابها وجعلت تحرك الأهلاب التى فى رأسها فتحرك الماء بها ويجلب إليها دقائق الغذاء المنتشرة فيه .

وأكثر الحشرات يجرى هذا المجرى من توقف الحياة فى بعض شهور السنة أو حينما ينقطع عنه

ما يحتاج إليه من الغذاء فهو كالنبات وبزوره من هـذا القبيل ، ونواميس الأحياء وحدة نباتات كانت أو حيوانات والفرق بينها فى الكم لا فى الكيف ، ولا غرابة فى ذلك لأنها خاضعة كلها لنواميس واحدة ، وفى معرفة هذه الطبائع مايرشد إلى إتلاف الضار منها فى الزمن الذى يسهل إتلافه فيه.

أشرنا فيما تقدم إلى طبائع بعض الحشرات من حيث سكونها حتى لقد تمضى عليها سنوات وهى خاملة كأنها من الجماد أو من بذور النبات ثم تبدو فيها الحياة بكل مظاهرها إذا ابتلت بالماء ، ونحن مستطردون هـذا البحث الآن إلى الحيوانات العليا حتى الإنسان .

[الأسماك] نشرنا فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١٠ مقالة للمرحوم على أبى الفتوح باشا فى وصف سمكة كبيرة وجدت حية فى قاع ترعة سيفية على مقربة من ناحية شندويل شمالى مدينة سوهاج على عمق ثلاثين سنتيمترا تحت سطح الأرض، والترعة المذكورة نيلية لاتصل إليها المياه إلا فى زمن الفيضان فتبقى جافة من ديسمبر إلى أغسطس ، ولما وجدت هذه السمكة كان الشهر يونيو فوضعت فى الماء وعاشت فيه نحو أربعين ساعة ، ولذلك هى تسكن ثمانية أشهر منقطعة عن الحركة وتبقى حية . وكل الأسماك التى من نوعها تسكن مثلها إذا غاض الماء أوجف فتغور فى الطين وتسكن فيه إلى أن يأتيها الماء ثانية إما بالمطر أو بالفيضان .

والشبوط أوسمك المشط يختفى فى الطين فى فصل الشتاء حيث يشتد البرد فيعمر سنين كثيرة حتى لقد يبلغ عمر السمكة منه مائة سنة وتبلغ زنتها خمسين رطلا مصريا .

والإنكليس من الحيوانات التى تغور فى الطين وتسكن فيه إذا غاض الماء ، ولكنه قلما يفعل ذلك فى بحيرات مصر لأن الماء لاينقطع منها ٥

ومن هذا القبيل مزدوجات الحياة [الأمفيبيا] أى الحيوانات التى يعيش بعض عمرها فى الماء وبعضه فى اليابسة كالضفادع فإنها تستطيع أن تغور فى الطين وتسكن فيه زمنا طويلا. ولعل ذلك أصل ما يقال من أن حجرا كسر فوجدت ضفدع فيه ، فإذا كان الطين صلبا ووجدت الضفدع فيه حية بالغ الخيال فى صلابة الطين فجعله صخرا :

والزحافات :كالسلاحف ، والتماسيح ، والأفاعى تشتو كلها وتنقطع عن الحركة فتراها فى جنابن الحيوانات فى الجيزة ساكنة نائمة أكثر الأيام ، ولا سيما فى فصل الشتاء ، وأحب ماعليها أن تختفى حينئذ فى الطين أو تحت الهشيم . ويقال إن التمساح يدخل الطين ويختفى فيه سنة كاملة من غير طعام . قال [تفنت] فى كتابه المشهور عن جزيرة سيلان إنه شعر ذات ليلة بحركة تحت فراشه ولم يعرف سبب هذه الحركة إلا فى الصباح إذ خرج تمساح من تحت الأرض التى عليها فراشه .

والحيوانات اللبونة يشتو بعضها فى الأقاليم الباردة والمعتدلة كالدب والأرنب والسنجاب والقنفذ والخلد والرموت ، وبعضها يبطن جحره بالريش والصوف منعا للبرد فى فصل الشتاء :

فى طبائع الحيوانات كلها أدوار تنقضى وتعود فى مواعيدها لعلاقتها ببعض الأسباب الطبيعية : كالنوم ليلا ، والسكون فى جوف الأرض إذا غاض الماء ، والاستكنان فى جحر إذا اشتد البرد ، ومن هذا القبيل نوم الانسان ، وهو عام يشترك فيه كل أحد ويتكرر كل يوم ، ويكون كثيرا فى سن الطفولية يبلغ ٢٠ ساعة أو أكثر ثم يقل رويدا إلى سن الشيخوخة ، ولكن يحدث أحيانا أن يطول هذا النوم أو السكون فيبلغ أياما كثيرة ، ويسمى حينئذ غيبوبة والغالب أن يأتى عرضا كأنه مرض .

ذكر السر [أرثر شبلى] من أساتذة كمبردج أن فتاة دخلت غرفة فاعترتها الغيبوبة فجأة وبقيت

كذلك ٣٨ ساعة ، وفتاة أخرى دخلت غرفتها لتغير ثيابها ثم وجدت ملقاة على سريرها غائبة عن الصواب وبقيت كذلك ١٤ يوما .

لكن الغيبوبة قد تكون خاضعة للارادة فيغيب المرء قصدا وينقطع عن الطعام والشراب أياما كثيرة ، ويقال : إن دراويش الهند المعروفين [بالفقراء] يمارسون ذلك حتى يتقنوه فينام الواحد منهم ويدفن فى قبر كأنه ميت ويترك فيه أياما كثيرة ثم ينبش فيستيقظ كما يستيقظ النائم .

روى السر [أرثر شبلى] أن فقيرا من فقراء الهند أوقع نفسه فى الغيبوبة فوضع فى كيس وخيط الكيس ووضع فى صندوق مقفل فى غرفة داخلية من قصر رنجيت سنغ ، ولهذه الغرفة باب واحد ، وليس لها كوى فأقفل الباب وختم بختم رنجيت سنغ نفسه ، وكان من الذين لايصدقون مايدعيه هؤلاء الفقراء ، فوضع حول الغرفة حراسا من حرسه الخاص وكانوا يبدلون بغيرهم كل ساعتين ، ووضع عليهم الرقباء فأقام هذا الفقير فى قبره ستة أسابيع ، وكان هناك رجل إنجليزى حضر دفنه وراقب المدفن كل مدة بقائه فيه ، وحضر إخراجه منه فقال : إنه لما فكت الختوم كانت سليمة ولاشىء فى جدران الغرفة يدل على أن أحدا دخلها وكانت مظلمة والصندوق فى أحد جوانبها وهو مقفل ومختوم ، ولما فتح وجد الكيس فيه وقد علاه العفن ففتح ، وإذا الفقير فيه منقبض على نفسه : وكان هناك طبيب فجس نبضه ولم يشعر بأقل ضربان فيه ، ثم جاء خادم الفقير وصب ماء سخنا على رأسه ووضع عليه كيسا سخنا ونزع الشمع الذى كان قد سد به منخراه وأذناه نزعه بسكين ، وفتح فمه بكل جهد وسحب لسانه وفرك أجفانه بزبدة ، وبعد قليل جعل الفقير يفتح عينيه قليلا قليلا ويحرك أعضاءه ، وكان جلده قد تخضن وتجعد ، فجعل يلين وينبسط وينتفخ ، ثم فتح فاه وقال لرنجيت سنغ بصوت لايكاد يسمع « أصدقت الآن؟ » .

وقال [السر أرثر] أيضا إن الأطباء شاهدوا حوادث كثيرة من هذا القبيل فى أوربا ، من ذلك مارواه الدكتور [تشين] من أطباء دبلن المشهورين . وهو أن ضابطا من ضباط الجيش برتبة كولونل كان يتماوت وقت مايشاء ، وطلب منا أن نشهد تماوته وكنا ثلاثة فجسنا نبضه فوجدناه خيطيا ضعيفا ، ولكن قلبه كان يخفق خفقانا عاديا فاستلقى على ظهره واستكن ، فأمسكت يمينه أجس نبضه ووضع الدكتور بينارد يده على قلبه وأمسك [المستر سكرين] مرآة نظيفة أمام فيه فشعرت بنبضه يضعف رويدا رويدا حتى زال شعورى به . وانقطع شعور الدكتور [بينارد] بخفقان قلبه . والمرآة التي كانت فى يد [المستر سكرين] أمام فيه قلت آثار التنفس فيها إلى الدرجة القصوى ، ثم فحص كل منا نبضه وخفقان قلبه وتنفسه دواليك فلم نجد فيه أقل أثر للحياة وجعلنا نتداول فى الأمر فأجمعنا على أنه تطرف فى هذه التجربة فمات فعلا ، وعزمنا أن نذهب ونتركه ، وبعد نصف ساعة خرجنا ونحن ننظر إليه ، فرأينا فيه شيئا من الحركة فعدنا وجسسنا نبضه فوجدنا أنه جعل يتحرك ، وكذلك قلبه بدأ يخفق خفقانا ضعيفا ، وبعد قليل جعل يتنفس ويتكلم همسا ، ثم استرجع قواه كلها فدهشنا وثبت لنا أنه يتماوت فيصير كالميت فعلا انتهى .

ونحن نعرف شابا من دير القمر نام مرة نوما مرضيا وبقى فى غيبوبة أسبوعين أو أكثر لايتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا يفتح فاه ، واستيقظ بعد ذلك ، ثم عاودته النوبة . وآخر ماتذكره من أمره أنه لم يعش طويلا بعد ذلك .

والخلاصة أن سكون الأحياء أو انقطاع ظواهر الحياة منها أمر شائع فيها كلها على أنواعها ، وهو يختلف من النوع البسيط بضع ساعات كل يوم إلى السكون الذى يدوم بضع سنوات ، ومما يحدث لآفة مرضية إلى ما يقع اختيارا .

وهذا تمام الكلام على روضات الجنات الثلاث فى هذه الآيات والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : حسن وبهج وجميل هذا المقام ، فإننا عرفنا أن المجامع العلمية الأوروبية أثبتت أن تلك الحيوانات ماتت ثم بعثت ، وأن بعض المجامع الأوروبية ومنها رجال فى مصر قالوا إنها نائمة ، وبهذا أدركنا حكمة الله عز وجل وصنعه فى خليقته ، فإنه عز وجل لرحمته ورأفته لايميت السمك ، ولا الضفادع ، ولا الحيوانات الدقيقة إذا جف الماء ، بل يقول لها : أنا ربك ، أنا أرحمك ، فأنا الرحمن ، وأنا الذى أكلؤك برحمتى فتنامين أمدا طويلا ولا تستيقظين إلا عند حصول نعمق لك بالماء أو بغيره مما انقطع عندك أمدا .

ولا جرم أن هذه الظاهرة يراها الفلاحون فى بلادنا بالشرقية ، ذلك أن الأرض تبقى أمدا طويلا بلا ماء ويسمونها [الأرض الشراق] فإذا نزل عليها الماء أخذت الضفادع تنق طول الليل ، فمن أين أتت هذه الضفادع يارى ؟ وكذلك يرى الناس أن الترع تظل جافة أياما وأياما وشهورا ، ومتى جرى الماء فيها أحسوا ببعض الحيتان مدفونة فى الطين وقد حييت ، كل ذلك مجهول للناس وهم لايعلمون أن تلك الحيوانات كلأها ربها وصانها ورحمها ، وقال لها : نامى أنا الرب ، أنا الرحيم ، أنا الرب الذى تذكرونى وتقولون : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه ياعبادى بعض رحمانى .

فلما قال ذلك صاحبي ، قلت : قد أحسنت وأجدت ، وأن الله بهذا كأنه يخاطب عباده قائلا :

أى عبادى : هأنذا أفعل الخير وأرحم عبادى وأسبغ عليهم نعمى علمتم أم لم تعلموا ، فقهتم أم لم تفقهوا ، هكذا فليكن عبادى المخلصون منكم ، عليهم أن يعلموا الخير الصالح بالهامى ، ثم لايبالون بالناس علموا أو لم يعلموا ، فأنى ياعبادى قد جعلت فيكم ضمائر تبشركم وتوقع فى قلوبكم الطمأنينة والسعادة عند عمل الخيرات ، وهذه الضمائر والبشائر هباتى منى ، وليس يعقل ذلك منكم إلا العالمون العاملون الفرحون بنعمتى عليهم وهم مستبشرون .

فقال صاحبي : حسن وجميل ، ولكنى لا أزال أفكر فى أمر بسم الله الرحمن الرحيم ، هل الرحمن الرحيم تحتمل هذه المعانى كلها ؟ فقلت : ولماذا لا تحتملها ؟ فقال : إنى يخيل إلى أن الناس يقولون إن هذا كله لا تحتمله بسم الله الرحمن الرحيم .

فقلت . أنسيت ياأخى ماقلته الآن لك ؟ قال : وما هو ؟ قلت : ألم أقل إن الله عز وجل يسبغ النعمة على عباده عرف الناس أم لم يعرفوا ، وأكثر الناس يزرعون ويحصدون وهم يجهلون رحمة الله للضفادع فى أرضهم وقد جفت عليهم ، وللزنابير فى شقوق حيطانهم زمن الشتاء ، فإذا شقيت الأرض بالماء وجاء فصل الربيع للزنابير استيقظت ، كل ذلك جار حولهم وهم لايعلمون ولا يحسون ، ولكن الله يفعل للصالح عرف الناس أم جهلوا ، فهكذا فلنفعل نحن ياأخى ، ولنقم بما ألهمنا الله من العلم وما أفاض علينا من الحكمة ، ولنشرح الرحمة عرف الجهال أم لم يعرفوا ، وسيدرسه قوم وتنشرح أفئدتهم ، وبهذا يعلمون معنى قول سيدنا على كرم الله وجهه : أنه يكتب مايحمله سبعون بعيرا فى بسم الله الرحمن الرحيم ، فالناس يسمعون هذا وهم ساهون ، ولكنى أقول بحق وصدق : إن سيدنا علياً كرم الله وجهه نظر بنور النبوة وكانت روحه مشرقة إشراقا قويا فنطق بذلك موقنا من قلبه وخاطب الناس بما يعرفونه من حالهم وحال أحمال بعرانهم ، ولكنه رضى الله عنه يعلم بما فوق ذلك ، يعلم أن رحمة الله وسعت العوالم كلها ، والله يقول « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » .

ولا جرم أن هذا العالم وغير هذا العالم كلمات ربى وقد وسعته كله الرحمة ، فأحمال السبعين بعيرا قليلة جدا بالنسبة لرحمة الله ، فإذا قلنا أحمال آلاف البعران لكان ذلك حقا ، بل لا آخر ولا عدد لهذه الأحمال

لأن الرحمة مساوقة للعلم، فهى مصاحبة للعلم ، و لعلم لاحد له، فالرحمة لاحد لها، ولانهاية لأحمال البعرانى التى فيها صحف مكتوبة فى معنى بسم الله الرحمن الرحيم ، أكتب هذا وأنا موقن به والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : لقد وضح الحق واستبان السبيل ، فقال : انتهى المبحث الأول من المباسة الثانية فى آيات الرحمة وروضاتها تفسيرا لقوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم» .

المبحث الثانى

فى الكلام على المباسة الثانية فى آيات الحمد تفسيرا لقوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » .

هاهنا قال سبرى : لقد ذكرت الآيات التى فصلت الرحمات فى العوالم العلوية والسفلية ، فأرجو أن تبين بعض المحامد الربانية فى القرآن تبيانا لما ينبغى أن نحمد الله عليه من العوالم المحيطة بنا ، فإن الحامد الجاهل بتمام المنعم عليه لا يعرف كيف يشكره ، كما فعلت فى الرحمة ، فذكرت آياتها فقلت :

لا جرم أن الحمد إنما يكون على نعمة ، وما النعم إلا نتائج الرحمات الإلهية .

لقد قرن الله بالحمد السلام والأمان الذى تنزل منه سبحانه على الذين اصطفاهم من عباده :

(١) فقال « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » .

(٢) وجعل الله الحمد من العباد إليه فى الدنيا والآخرة لأنه يستحق ذلك لرحماته المتوالية عليهم .

وهذا قوله «له الحمد فى الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون» .

(٣) وقال « وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » وهو يقرب من الأول .

(٤) « وله الحمد فى السموات والأرض » فكما استحق الحمد فى الدنيا والآخرة ، استحقه فى العوالم العلوية والسفلية .

(٥) ولقد أجمل فى آية « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » الخ مقرونا بما تفضل به على عباده ، من أنه دائم الإفضال عليهم ، بإمدادهم بآياته الباهرات ، لتطمئن نفوسهم إلى الحقائق ، لاسيما فى هذا الزمان :

(٦) وقوله « وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » :

جاء الحمد هنا مقرونا بما اتصف الله به من العدل فى حكمه كالعدل فى نظام مخلوقاته .

(٧) « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

ولا جرم أن أسعد السعادات للنفوس الإنسانية : الوقوف على أسرار العوالم والنواميس العالية ، وهناك يكون الحب ويتبعه الحمد ، فعلى مقدار العلم يكون الحب الموجب للثناء ، وهذا أكبر سعادة لأهل الجنة ، وهذا قوله « وآخر دعواهم » الخ .

(٨) « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » يقوله أهل الجنة بعد نجاتهم من العذاب :

(٩) والحمد فى الفاتحة هنا على عموم تربية العالمين ، وفى الأنعام خاص بخلق السموات والأرض مع تفصيل الظلمات والنور اللذين هما مبدأ العبادة عند أمم ، كما أن النور الصادر من الكواكب دل بعض الأمم عليها فعبدوها ، فقاومهم الخليل عليه السلام ، وذلك موضح فى سورة الأنعام ، إذ نظر النجوم والقمر والشمس الخ .

ثم خص الله بالعبادة ، إذن الحمد فى سورة الفاتحة مناسب للحمد فى سورة الأنعام المذكورة فيها الخليل ، وقصته لمناسبة الظلمات والنور المذكورين فى أولها .

(١٠) والحمد مذكور أيضا فى أول سورة سبأ ، وفى أول سورة فاطر مقرونا بذكر أن له مافى السموات ومافى الأرض ، وأنه فاطرهما وجاعل الملائكة درجات بعضها فوق بعض .

هذه بعض الآيات التى فى القرآن فيها ذكر الحمد ، وسنفصل فى الزبرجدة الأولى بعض العجائب فى العوالم وتربيتها ، وفى الزبرجدة الثانية بعض بدائع خلق السموات والأرض التى يشتمل عليها قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » وسنفصل فى الزبرجدة الثالثة عجائب الكواكب لمناسبة قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » بعد ذكر الحمد فى سورة الأنعام ، ونذكر فى الزبرجدة الرابعة بعض نتائج العجائب المحمود عليها وهو المحبة ، وها نحن أولاء نشرع أولا فى تفصيل تلك الزبرجدة الأولى فنقول :

الزبرجدة الأولى

فى التربية العامة المحيطة بالإنسان فى السموات والأرض ، وفى بيان أن مايسطره العلماء فى الغرب ، وفى الشرق تبيان لآيات القرآن حقا وصدقا ، فهاك مصداق ذلك مقالا قرأته فى كتاب [علوم للجميع] باللغة الإنجليزية جمع فيه للمعانى المذكورة فى أول سورة الرحمن المفصلة فى أول سورة النحل التى شرحناه فى هذا المقام .

بهجة المناظر فى العوالم وحسن إبداعها

وتبيان أن الجبال التى نراها فى بلاد الشرق وفى بلاد الغرب تبدأ تربيتها فى البحار ، وذلك بتفتت الجبال بما يطرأ عليها من حوادث الحرّ والبرد والمطر ونحوها ، فتسير مع الأنهار جاريات إلى البحار فتصير أشبه بالأجنة فى الأرحام فتضغط على قاع البحر فينزل إلى أسفل فيحصل زلزال شديد ، فيصير البر بحرا والبحر جبلا ، فما هذه الجبال التى نراها إلا أجسام عظيمة تربت فى أسفل الأوقيانوسات ، فهذه من تربية الله للعالمين .

ولقد نرى الشبّ والسكر والملح للعناد ، وملح البارود والرصاص فى أحوال خاصة قد أخذت أجزاؤها تنتظم بهيئات عجيبات هندسية ، ولا مهندس لديها ولا بنائين ، وفوق ذلك يشاهد الناس فى كهوف كبيرات فى الجبال أساطين مقامة فى وسطها مسدسة الأشكال تسديس البلور ، بديعة بهجة ، فيرى الإنسان إذا دخلها كأنه فى بهو مسجد عظيم قد بنى بناء محكما ، وقد ارتفع سقفه على تلك الأعمدة العظيمة الفخمة ، وماهى إلا آثار قطرات نازلات من سقوف الكهوف تحمل ذرّات من الموادّ الجيرية فيرسب منها أجزاء تحت سقف الكهف وأخرى فى مقابلتها على الأرض فتمرّ قرون وراءها قرون فيلتقى البناءان ويتحدان ويصيران عمودا واحدا هائلا مسدس الشكل عظيم الجسم يزن كثيرا من الأطنان ، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل الثلج فوق ألواح الزجاج يكون مسدس الشكل بلا عمل عامل إلا الحكمة الخفية المبدعة لنظام الكائنات .

وكأن الثلج يقترب بهذا من عالم الحيوان من حيث إبداع النظام .

فأما عالم الحيوان : فهو أبدع وأتم وأحكم .

ألا ترى أنه يجتذب الأجزاء المحيطة به فيدخلها الى جسمه ويتصرف فيها فيقلبها الى مايشبه مزاجه فأما الثلج والشب والسكر وماماثلها ، فان ازدياده لم يكن إلا من خارجها ولا يجتذب إليها إلا ما كان من نوعها ، فكيف يستوى الجماد والحيوان فى حسن النظام .

ثم إن النبات ينمو بوضع أصوله فى أرض يتخللها أمران : رطوبة ، وحرارة ، وهناك يمتد جذر فى الأرض ، وساق فى الهواء

والحيوان أعلى مقاما من النبات ، وهو يتكاثر بطريق الانقسام كما سيأتى تفصيله فى نفس هذا الذى ذكرنا ملخصه الآن .

فهاك المقال المترجم من كتاب [علوم للجميع] باللغة الإنجليزية بهجة للناظر فى العوالم وحسن إبداعها . وفى هذا المقام لطائف :

اللطيفة الأولى : مناظر العوالم السماوية

مناظر عوالمنا السماوية والأرضية بديعة جميلة عجيبة ، ولكن ما أقل المفكرين فيها من ذوى العقول النيرة ، والنفوس الصافية . إن أكثر هذا النوع الإنسانى يعيشون ويموتون وهم لا يحسون بما لديهم من الجمال والبهاء والحسن والإشراق والإبداع :

مناظر السماء والبحار والأمواج والرمال

يقف الإنسان على شواطئ البحار فماذا يرى ؟ يرى زرقة السماء ومن تحتها زرقة الماء وبينهن أفواج من الأمواج تذهب وتجىء ، وتظهر وتغيب ، كتائب تتبعها كتائب وصفوف خلفها صفوف تعلو وترسب ، وترينا عجائب من أشكالها كأنها أحجار الماس تتلألأ جمالا وبهجة ، وهذه الظواهر تمتع أرباب النفوس الطفلية والعقول التى لم تمارس التعليم ولم تنقشع عنها غشاوات الجهالات ، فأما أرباب النفوس العالية والعقول النيرة الصافية وذو الفكر والتحقيق ، فان هؤلاء يرون تحت هذه المظاهر حكمة وعلماء ونظاما وإبداعا وعوالم تخلق وخلقا آخر .

فانظر رعاك الله إلى تلك الأمواج فماذا عملها ؟ إنها تنظم حبات الرمل وتضعها درجات فوقها درجات وطبقات تتلوها طبقات وكلما أكملت طبقة أتبعتها بأخرى .

فلا تزال تجرفها من الشواطئ إلى قاع الأقيانوس أجيالا وأجيالا ، حتى تكون تلك الرمال صخورا ، وتكون الصخور جبالا ، كل ذلك فى قاع البحار ، وتمر عشرات القرون ومئاتها وألوفها حتى إذا تم الجبل واكتمل وحان حين ظهوره أخذت الأرض تنمخض عنه بزلازل ورجفات وخسف فيصبح البحر جبلا ومحل الجبال بحارا ، ذلك هو الشأن فى تكوين عوالم الأرضية « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

عجب كيف يتكون الصخر الذى ذكرناه أنه يتكون بهيئة نظامية ، فكل صخرة كبرت أو صغرت تقبل حبات من الرمل ، وهذه الحبات تسير على النظام الذى فى الصخرة فتكون عليه طبقة جديدة تابعة فى ذلك شكل الصخرة بلا تعديل فى النظام ، ومن الصخور تتكون الجبال .

إذن الرمال تكون صخورا ، والصخور تكون جبالا ، والجبال تتحات من الحر والمطر وغيرها من

العوارض فتفنى على ممر الزمان ، وغيرها يكون قد تربى فى قاع البحار يربى فيه كما يربى الجنين فى الرحم والبذر فى الماء والطين « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .

ومن العجب أن ذرات الرمال بالتصاقها بالصخور تفعل فعل ذرات الماء اللاتى تلتئم بكرات الثلج فتتبع فى التصاقها بتلك الكرة القانون الكروى الثلجى كما اتبع الرمل القانون الصخرى الذى أسست عليه تلك الصخرة فى تركيبها « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

ظهر بما قررناه أن هاهنا قاعدة واحدة مطردة فى هياكل الصخور وهياكل الكرات الثلجية ، ذلك أن الذرات الصخرية والذرات الثلجية الحديثة تتجمد وتلتصق على تلك الصخور وتلك الكرات الثلجية من خارجها فتحدث طبقة جديدة تابعة فى الشكل الأجزاء القديمة فى الحالين ، وهذه القاعدة مطردة فى كل ماليس فيه حياة من العوالم الأرضية .

نظام الشب الأبيض والسكر وملح البارود

أشبه شىء بنظام البلور فى هيئته البديعة

إن ماذكرناه من النظام فى المخلوقات الأرضية قد تجلى بأحسن هيئة وأجمل نظام فى الشب الأبيض وفى السكر ، وفى ملح البارود تلك المواد المنظمة البديعة .

إن علماء الطبيعة فى أثناء قيامهم بالعمليات التى بها يحدثون هذه الأجسام الثلاثة ونحوها بواسطة الكهرباء أو بلاواسطة فماذا يرون ؟ يرون أمرا مدهشا ، يرون أمرا عجبا ، يرون تلك الذرات الملحية البارودية والذرات الشبية ، والذرات السكرية تتجه من نفسها أو بتأثير تلك العمليات وتنطلق سراعا لتتحد مع أخواتها ، ولكن بهيئة يعجب الناظر لها فانها تتعاون على أن تكون أشبه بنظام البلور من حيث الأشكال المنظمة أليس هذا من العجب أجزاء منحلة تسرع وتتألف ويكون منها بناء منظم أبدع وأروع من بناء البنائين الماهرين فى دورنا وفى قناطرنا الأرضية ، فأى بناء هذا ؟ وأى هندسة هذه ؟ نحن دهشنا من المسدسات التى بناها النحل وقلنا حيوان لايعقل كيف اهتدى إلى تسديس خلاياه توضع فيها العسل ، ولكنا هنا نقول : كيف صنع الأشكال السداسية الأضلاع ، ذرات لا حس لها ولا عقل كيف تبنى هذه الذرات بأنفسها أشكالا سداسية ، وهى لا حس لها ولاعقل ولاهندسة ولامهندسين ، إن هذه الدنيا أمرها عجب ، حرنا فى هذا العالم وكيف كان بناؤه هندسة نراها ، ولكنا لانرى المهندس لها ، النحل لا عقل له وذرات الملح والسكر والشب لا حس لها فأخذنا نتلمس ذلك المنظم ، وأخيرا سمعنا قولا ورد عن نفس مشرقة سمعته من المقام الأعلى من وراء حجاب الحس ، وهو « وكل شىء عنده بمقدار — إن الله سريع الحساب — وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم — وما كنا عن الخلق غافلين — الذى أحسن كل شىء خلقه — ووضع الميزان — إنا كل شىء خلقناه بقدر » .

ثم سمعناه يقول أيضا « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

ويقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ، وهكذا من آيات لا تحصى ، فعلمنا أن هذه العوالم يجب علينا النظر فيها وأنها جميلة وبديعة ، وأن صانعها لايرضى عمن يغمض عينيه عن إبداعه وآثار جماله العجيب .

إذن فلنستمر فى البحث فماذا نرى ؟ نرى ماهو أعجب من الصخور ومن كرات الثلج ومن الشب والسكر ، نرى أشكالا من الثلج تظهر مسدسة على زجاج الشبابيك فى ليالى الشتاء ، وهذه صورتها :

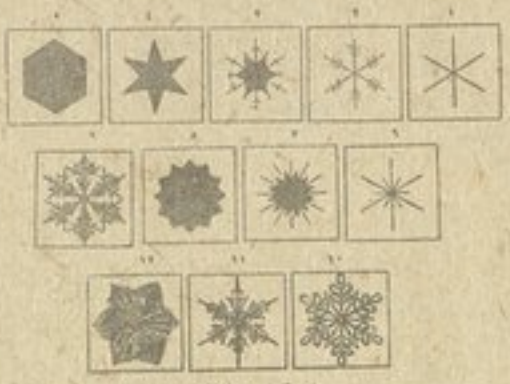

(شكل ٢٤)

إيضاح هذا الشكل بما فيه من الصور الاثنى عشر مشروح فى سورة الرعد فى الجزء السابع من التفسير ، وفيه أن هذه الأشكال قد اختيرت من ١٥١ شكلا فاقرأه هناك تجد عجبا عجابا .

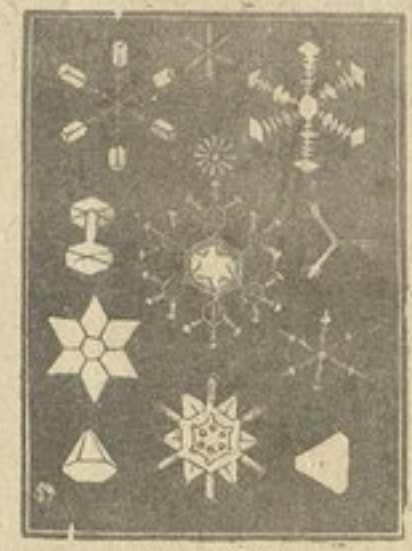

(شكل ٢٥)

صورة الثلج المسدس الأشكال كالبلور

هذه الأشكال السداسية الظاهرة من الثلج لم تكن لعمليات طبيعية ولا بالتيارات الكهربائية كما تحصل فى ذرات الرصاص ونحوها تحت تأثيرها ولكن هذه الأشكال المسدسة التى تراها الآن نظمت بقوة غير منظورة لا تراها العيون فتنوعت أشكالها السداسية تنوعا يبهج الناظرين ، ويحير المفكرين ، يتخيل للناظر إليها أنها تقرب من عالم الأجسام الحيوانية من حيث جمال الأشكال ومحاسن النظام وترتيب الأجزاء بقانون معلوم ؛

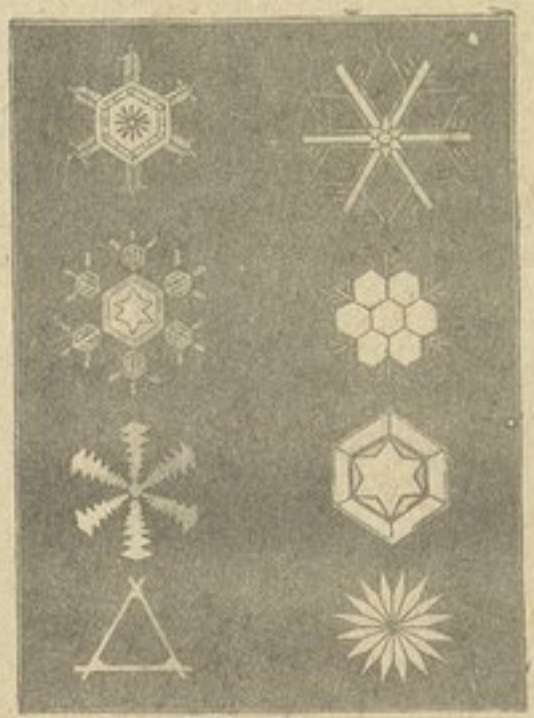

(شكل ٢٦)

صورة الثلج المسدس الاشكال كالبلور

اللطيفة الثانية

فى الكلام على أعمدة الكهوف وأنها تشبه فى تسديس أشكالها نظام الثلج والبلور .

إن أعمدة الكهوف تحصل بآثار قطرات من الماء تنزل من سقف الكهف باستمرار قرونا وقرونا ؛ وتكون نتائجها بناء عظيما ، وهى الأعمدة العظيمة الهائلة التى تمتد من سقف الكهف إلى أرضه بهيئة بديعة تسر الناظرين كما ستعرفه .

الله أكبر ، بهذا وبأمثاله يعرف الإنسان كيف يجب هذه السنة وصانها ، فليس من العقول أن يمدح الإنسان ويحمد من أحسن إليه إلا إذا عرف نعمته ، ومتى عرفها أحبه ، ومتى أحبه حمده بلسانه وشكره

بقلبه وجوارحه، وبهذا يعرف الإنسان معنى « بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين » .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي الذي اعتاد محادثتي في الأصل وفي ملحقه فقال :

لقد حاقني والله ماقرأت في هذا المقام من عجائب وعجائب، وكيف أرانا العلم من الجمال ماعجزت عن إدراكه الحواس، أي نبأ هذا ؟ أتبني الذرات بناء بديعا يعجز عنه البناءون ؟ أبني ملح البارود والملح المعتاد في أثناء تكونه ، والشب الأبيض والسكر أبنية جميلة منظمة ، هذا عجب وأكثر الناس لا يفهمونه ، نعم إن أكثر الناس نيام ، إنما الذي حيرني وأقض مضجعي أمر التسديس ، كيف رأينا المسدسات التي يصنعها النحل في خلايا العسل لها نظير في البلور، ونظير في الثلج، وفي الشب وفي السكر . لم كان هذا التسديس، ولم اتفقت هذه المخلوقات في تسديسها ؟ فقلت : لقد قرر علماء خواص الأعداد أن عدد (٦) أول العدد التام فقال : وما العدد التام ؟ فقلت : إن من الأعداد الناقص والزائد، وهما أكثر أنواع العدد، فالزائد مازادت أجزاؤه في مجموعها عنه ، والناقص ماانقصت عنه ، والتام ماساوته أجزاؤه في مجموعها فعدد (١٢) أجزاؤه في مجموعها أكثر منه ، لأن أجزاءه هي ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٦ لأنه يقسم على (١) و (٢) و (٣) و (٤) لكن (٨) يقسم على (١) وعلى (٢) وعلى (٤) فهو إذن ناقص ، لأن جزءه (٧) وهي أقل منه كما أن ١٦ أكثر من ١٢ أما (٦) فهي تقسم على (١) و (٢) و (٣) فهذه (٦) وليس في هذه المثالة مايشبه (٦) إلا عدد (٢٨) وليس في الألف إلا عدد واحد ، وهذا العدد نادر جدا . فعدد (٦) له هذه المزية، وأيضا الشكل ذو الأضلاع الست يساوي كل ضلع منه نصف قطره ، وهذه خاصية فيه ، فهذا العدد فيه مزايا اختص بها ، فلذلك استحق في الطبيعة أن يكون له انتشار أي انتشار . فقال : هذا حسن ولكن لايشفي الغليل ، فإن العقل الإنساني يعتبر هذا القول أشبه بالأدلة الشعرية التي يقولها علماء الشعر وعلماء البديع تعليل أدبي ، ولكنه يكفينا الآن لأننا في عالمنا لا نقدر أن نحيط به علما .

وهاهنا سؤال آخر ، فهل تأذن لي أن أبديه ؟ فقلت : ذلك لك فقال : قد ذكرت في آخر المقال الأعمدة الجيرية التي في الكهوف في الجبال ، فما نبأ هذه الأعمدة ؟ ومن أي كتاب نقلت هذا القول ؟ وهل ماذكرته [من أن ذرات السكر ، وذرات الشب ، وذرات الرصاص ، وذرات ملح البارود ، والملح المعتاد تصنع صنعا أحكم وأبدع من صنع البنائين] من مقالك أنت ، أم من مقال الكتاب الذي نقلت عنه؟ فقلت : لأجبك عن السؤال الثاني أولا لاختصاره ، وأثني بالإجابة عن السؤال الأول .

إن المقال المتقدم ، وهذا المقال والذي بعده ترجمتها من كتاب بالانجليزية اسمه [علوم للجميع] وهذه المقالة بقلم الفيلسوف [اندرو ولسن] في المجلد الثاني من الكتاب والعبارة التي سألت عنها هي معنى عبارته تحقيقا ، فقال : عجبا إذن القوم يدركون جمال العالم إدراكا تاما ، فقلت : ياصاح الحواس في جميع الأمم متفقون ، والخلاف إنما جاء بين العامة وفريق الجهلاء « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » وهذا هو الجواب عن السؤال الثاني .

جواب السؤال الأول من نفس ذلك الكتاب أقول :

اعلم رعاك الله أن في الجبال كهوفا مكونة من الأحجار الجيرية ، يقول الفيلسوف المذكور : ولو أنك رأيتها لرأيت بناء فخما يشبه [الكتدرل] أي كنيسة الأسقف العظيم ، ونقول نحن أنها أشبه بالمساجد العظيمة في أمم الإسلام [مشيدة من الأحجار الجيرية ، وقد أقيم سقفها على أعمدة حجرية منظمة سداسية الأشكال أشبهت في ذلك البلور هائلة النظر تبلغ في وزنها عدة [أطنان] جمع طن ، ولكن كيف كونت هذه الأعمدة ؟ فانظر واعجب .

إذا وقف الإنسان عند سقف أحد تلك الكهوف فماذا يرى ؟ يرى قطرات من الماء تنزل من ذلك السقف على أرض ساحته ، فما هذه القطرات المائية ؟ أن هى إلا حاصلة من ماء تحلل فى أجزاء من الطباشير [كربونات الجير] التى كونت باتحاد غاز يسمى [الحامض الكربونى الذى يكون فى الماء مع الجير المتخذ من الصخور] وهذه القطرات النازلات من سقف هذا الكهف العظيم إلى أرضه تتوالى نزولا قرونا وقرونا وفى أثناء نزولها تترك فى أسفل السقف بعض حزئيات ، فلنقف وقفة لنشاهد ذلك السقف والقطرات النازلات منه فماذا نرى ؟ نرى أن كل قطرة من تلك القطرات الحاملات أجزاء من حجر الطباشير قد عجزت عن أن تحمله كله ، لأن البخار دائما يحلل مادها ويرفعه إلى الجو فينقص حجمها فتعجز عن حمل جميع هذه الأجزاء الطباشيرية فتترك بعض تلك الأجزاء ملصقة بالسقف وتتبعها أخرى وأخرى حتى إذا انقضت القرون تلوها القرون رأينا هناك اسطوانة سداسية الشكل قد نمت من أعلى إلى أسفل كما ينمو النبات من أسفل إلى أعلى ، وليس الأمر يقف عند هذا الحد ، كلا فإن هذه القطرات عند وقوعها على الأرض ذلك الكهف الحجرية تترك مابقى من أجزاء الطباشير وتصنع ماصنعه أخواتها من أعلى الكهف ، فنرى عمودا ينمو على طول القرون من أسفل إلى أعلى ، وهنا لك يتلاقى العمودان الأعلى والأسفل ويكونان أسطوانة واحدة منقطعة النظير قوة ومتانة وعظمة وشكلا مسدسا كالبلور انتظاما .

وههنا العجب العجيب كيف ينمو ماليس له عقل ؟ كيف يكون نظامه عجبا ، كيف يكون مسدس الشكل ، وكيف نرى أن الأعلى أشبه بجذور الأشجار من حيث تدنيه إلى أسفل وأن الأسفل أشبه بسوق الأشجار وفروعها فى ارتفاعها إلى أعلى ، هذا عجب وأى عجب .

وإذا رأينا فى الكهف الواحد أعمدة كثيرة اعترانا الدهش من أن ما افتخرنا به من الأبنية العظيمة المشيدة على أعمدة حجرية قد سبقتنا عناية عالية وقوة قدسية لتشييدها مشيرة بذلك إلى أن هناك تدبيرا اشمل أعظم الأمور وأدقها وأجلها وأصغرها .

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ـ إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » لنتبع الكلام على عجائب النبات وخلقه وأن نمو تكاثر المواد التى لاحياة فيها من خارج أجسامها ، أما تكاثر الاحياء فإنه آت من داخلها بالنمو المعروف فى النبات والحيوان .

اللطيفة الثالثة

فى نمو النبات والحيوان وأن تكاثرهما يخالف تكاثر المواد التى ليست عضوية ، فتلك تكاثرها من الخارج وهذه تكاثرها من الداخل ، وذلك لنفهم قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » .

لنبحث الآن فى هيئة نمو النبات ، كيف يصل إلى غاية نموها ؟ فنقول : لنتخذ حبة الفول مثلا فى درسنا هذا لتكون نموذجا لنمو كل نبات ، أننا نرى أن هيئة تكاثرها بالنمو تخالف كل المخالفة تكاثر ذرات الثلج والملح والأعمدة الجيرية ، وأن ههنا قوة أخرى داخل هذه البذرة ، وهناك لا قوة تشبهها ، وإنما هى الأعمال آلية خالية من قوة فعالة فى داخلها فلنشق حبة الفول .

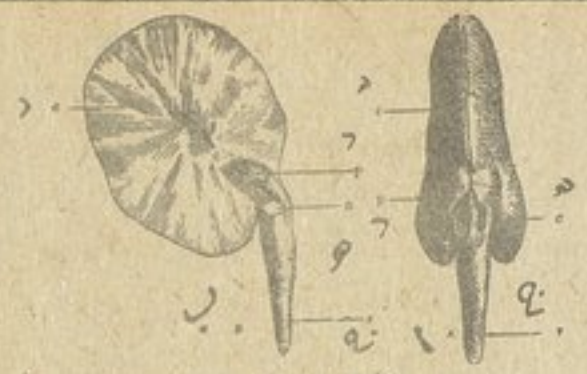

(شكل ٢٧)

(ا) نبات الفول الصغير بنهوه من حبته .
(ب) أحد شق ذلك النبات خارجا من أحد فصى الحبة .
(ج) الجذر الممتد فى الارض من الحبة :
(د) مبدأ الساق الذى سيرتفع ويحمل الاوراق .

فما نرى إذا نحن شققنا هذا النبات الصغير نصفين طولا ؟ فإننا نرى فى شكل (ب) أن كل نصف منهما يشبه الورقة وليس بورقة ، بل هو أشبه بفص من الحبة يحمل المواد الغذائية للعدة لنمو النبات كما تحمل البيضة غذاء لذلك الفرخ الصغير الذى يخرج من البيضة .

إن هذا النبات الصغير يبرز مائلا إلى الوضع المجوف من الحبة ، ولا جرم أننا نميز ما بين مبدأ الجذر (ج) وهو الجذير وما بين مبدأ الساق (د) وهذا نراه واضحا فى شكل (٢٨) .

(شكل ٢٨)

مبدأ نموها — حبة الفول

لا جرم أن حبة الفول التى ضربناها مثلا لسائر النبات وبزوره وبروزه ليس فيها أدنى ميل لأن تتخذ من المواد التى حولها غذاء تتمتع به لتخرج نباتا يعلو فى الهواء ولكنا نرى هذا الميل يظهر فى حال خاصة ما هى تلك الحال ؟ تلك هى أن نضعها فى الأرض ، بشرط أن تكون هناك رطوبة وحرارة معا .

فاذا وضعناه على هذه الحال رأينا أمرا عجبا ، رأيناها تنمو نموا مطردا وأبرزت فى الهواء ساقا صغيرا ، وفى الأرض جذيرا ، وبعد أيام تظهر الأوراق شكل ٢٩ وشكل ٣٠ .

(شكل ٢٩)

جذر نبات الفول وأوقه الساق يحمل ورقا

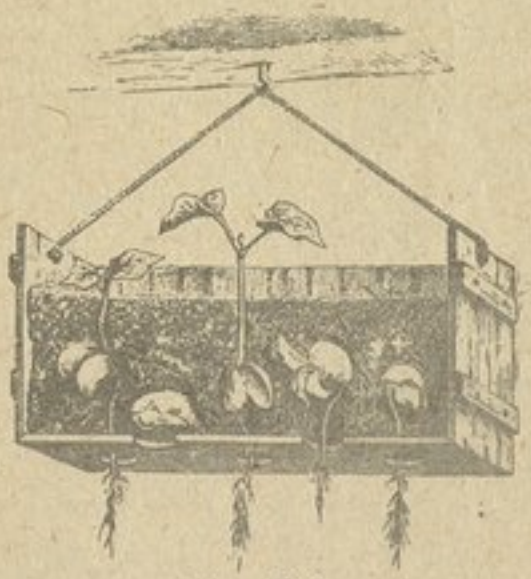

(شكل ٣٠)

حبة الفول قد نجم منها ساق يحمل ورقه وامتد منها جذر يجتذب الغذاء من الأرض

هانحن أولاء نرى النبات قد ابتدأ ينمو وقد أخذ زخرفه وازين وبدت تظهر فيه درجات النمو بهيئة بديعة تدهش المفكرين ، وتبهر العالمين ، ولا يعبأ بها الغافلون ، براعم ، وأوراق ، وأزهار ذات بهاء وجلال يتحلى بها النبات زينة وبهجة للناظرين ، وثمار وبذور ترجع فتأخذ دورها الذى شرحناه ، وهكذا دواليك أمدا وأبدا ، جنات للعارفين ، وغذاء للحيوان ونوع الإنسان .

هنالك حضر صاحبى الذى اعتاد أن يحاجنى فى تفسير آيات الله تعالى فقال : ياسبحان الله ، كلامك حسن وجميل ، لقد شرحت حبة الفول وظهور جذورها وظهور أوراقها ولكننا لم نرشيئا زيد عما يعرفه العامة وسائر الناس ، غاية الأمر أنك فصلته من الكتاب الانجليزى الذى نترجم عنه تفصيلا ، فأما قولك : إن ذلك جنة العارفين فهو من الأقوال المألوفة عند متأخرى الصوفية الذين يقول أكثرهم أمثال هذه الأقوال ، فهل عندك من علم تبينه لنا حتى نفهم كيف تكون هذه المزارع جنة العلماء ؟ فقلت : اسمع أيها الأخ رعاك الله أن هذا المقام يعوزه أمران اثنان ، أما أولهما فهو المقام العلمى الذى ظهر فى المقام الذى نترجم عنه ، وأما المقام الثانى فهو مقام الحكمة والجمال والبهاء الذى تسأل عنه .

المقام العلمى

اعلم أننا نحن الآن فى مقام البحث فى الفرق بين نمو الأحجار والبلور والشب والسكر وأمثالها ، وبين نمو النبات ، وهذا أمر على يدرسه علماء الأمم الآن فيقولون : إن هذه الأوراق والأزهار والأثمار والبذور نجمت من حبة الفول التى جعلناها مثلا يستبين به سائر النبات ، وحبة الفول لادلالة فيها ولا ميل ولا علامة تدل على أنها تتخذ مما حولها غذاء لها ، ولكن لما وضعت فى الأرض واعترتها الحرارة والرطوبة كما قدمنا أخذت تمد جذرا فى الأرض وساقا فى الهواء وصارت لها أنواع من المواد العضوية كثيرة العدد ، وأخذ النمو يبدو من باطنها لا من ظاهرها .

فهاهنا نرى [أولا] أنها تستمد مما حولها فى الهواء ، وفى الأرض مواد ليست من جنسها بخلاف السكر والشب والأعمدة الحجرية الجيرية الهائلة ، فإن هذه لاتنمو إلا إذا كان معها السكر والشب والمواد الجيرية ، [ثانيا] أن حبة الفول فى داخلها قوة هائلة قوة النمو والحياة ، وبهذه القوة تجتذب المواد المخالفة لمواد النبات كما قدمناه وتحيلها إلى مواد عضوية تصبح أركانا لنمو النبات ، وهذه القوة لا وجود لها فى البلور وأمثال الشب والأعمدة الحجرية العظيمة فى الكهوف المتقدم ذكرها .

[ثالثا] أن هذه المخلوقات التى ليست عضوية إنما يكون العمل فيها (آليا) أى لا قوة له من داخله كما تقدم فى النبات ، وهذا يستنتج مما قبله .

[رابعا] أن المثل القائل [إن الطيور على أشكالها تقع] والقائل [شبيه الشىء منجذب إليه] إنما يصدق على المواد التى ليست عضوية كالبلور والشب الخ أما النبات فلا لأنه يجذب مواد من غير هيئته ويحال بقوته الداخلية إلى مواد عضوية يتركب منها هيكله .

[خامسا] إذا نحن حللنا النبات ، فإن علماء الكيماء عند تحليله يخبرنا بأمر عجب فماذا يقولون لنا ؟ يقولون : إنهم رأوا فى النبات (١) نشاء (٢) ومواد سكرية (٣) ومواد دهنية وغيرها ، ماهذا ؟ وكيف يكون هذا ، ولم نر حول حبة الفول المبذورة فى الأرض إلا ماء ومواد معدنية اجتذبها نبات الفول بجذوره من الأرض وغاز الحامض الكربونى [غاز حمض الكربونيك] اجتذبه النبات بأوراقه من الهواء واجتلب

مادة النوشادر [امونى] من الأرض ومن الهواء معا .

ثم إن نبات القول المذكور الهبوط بهذه المواد قد منح الحرارة والضوء المرسلين من الشمس إليه وبهما وبالقوة المودعة فيه تتحول تلك المواد إلى سكر ، وإلى نشاء ، وإلى مواد دهنية وأجسام عضوية أخرى ، هذه هى المسائل العلمية التى يدرسها العلماء فى الأمم ، ونحن أصبحنا نشاركهم فى هذه الدراسة وقرأنا آراءهم وترجمناها الآن واضحة بينة للدارسين ، وبه انتهى المقام الأول وهو العلمى .

المقام الثانى وهو مقام الحكمة والجمال

فأنا أحدثك عنه فأقول : رباه لك الحمد حمدا كثيرا يوافى نعمك ويكافئ مزيدك ، رباه أريتنا عجبا ، فقال صاحبى : ماهو هذا العجب ؟ شنشنة أعرفها من أخزم ، رجعنا إلى ما كنا فيه من الكلام المزوق والمزركش فقلت له : أخى لا تعجل :

اعلم أن الله لما بث الحيوان والإنسان فى أرضنا أراد أن يمد الجميع من عطائه وجعل هذا العطاء جزلا بحيث أنه مد لهم مائدة واحدة ، وتلك المائدة جعلها عامة للنفوس الكبيرة والنفوس الصغيرة ، خلق النبات للحيوان وللانسان وقال لهم جميعاً : كلوا من رزقى ، فأكل منها الحيوان والجاهل والعالم على حد سواء .

وهنا سؤال يقال : لماذا حرم الله على الأحياء أن يأكلوا الطين والحجارة والمواد الكثيرة فى الأرض وجعلهم جميعاً لا يطلبون غالبا إلا ماهو نام من النبات مثلا مع أن القدرة لاحد لمداها ، فهو قادر أن يجعل كل حيوان مكتفيا بما يكتفى به الدود فيأكل مما حوله ، نعم الله قادر على ذلك ، ولكنه يرى أن الحكمة تقضى غير ذلك ، وهو أن الحيوان يغتذى بما ينمو ويغتذى بما حوله .

فقال صاحبى : حقا هذا السؤال أحب أن أعرف جوابه منك على شريطة أن يكون ذلك نافعا فى موضوعنا الذى نحن بصدده ، فقلت : نعم هو ذلك ، فقلت :

إن الإنسان مركب من جسم وروح ، وللجسم غذاء وللروح غذاء . أما الجسم فقد أخذ حظه من الغذاء النباتى مثلا ، فالنبات مائدة نصبت لكل حى من إنسان وحيوان ، قال الله لهم « كلوا مما رزقناكم » إن أرواح الحيوان وأرواح الجهلاء من نوع الإنسان لا مطلب لها فوق أجسامها ، فهى تأكل وتحمد ربها على نعمة الجسد ، وهذا نهاية علمها وتفكيرها .

أما ذوو النفوس العالية والقلوب الواعية فإنهم لا يقفون عند هذا الحد ويقولون لماذا خلقنا فى الأرض؟ ولماذا كان هذا الوجود؟ أواه أواه ، أيكفينا هذا ؟ أنكتفى نحن بالحياة الحيوانية؟ ماهذا الوجود؟ ماهذه الأدوات للنظرات فى الأرض ؟ وفى السماء شمس تضئ وترسل ضوءا وحرارة ، وبهاتين ينقلب الماء والمواد الأرضية ، وغاز الحامض الكربونى المأخوذ من الهواء فى باطن النبات إلى سكر ، وإلى مواد دهنية ، وإلى مواد نشوية ، ماهذا العجب ! ، شمس مشرقة تبعد عنا (٩١) مليون ميل فترسل لنا ضوءا وحرارة ، هما من أهم الأسباب فى التفاعل الكيمائى فى داخل النبات ، به ينقلب الماء والمواد المعدنية والحامض الكربونى والنوشادر إلى سكر وإلى نشاء وإلى مواد دهنية ونحوها ، كيف هذا ؟ ولماذا ساعد على ذلك التحول العجيب ضوء الشمس وحرارتها للسافران من تلك الأقطار الشاسعة ، ومعنى هذا أن أرضنا غير مستقلة استقلالا تاما ، فأين الاستقلال وإذن أنها تستمد من الشمس ضوءا به يكون تحول المواد التى لا تصلح غذاء إلى مواد تصلح للغذاء ، هذا والله عجب ، هل كانت الشمس تعلم أن النبات لا يتمكن من الحياة إلا بحرارتها

وضوئها ، وأن تحول المواد فيه إلى أغذية له وإلى مواد عضوية فيه متوقف على هاتين القوتين ، كلا فلا الشمس تعلم ، ولا الأرض تعقل .

هاهنا تشرق شموس المعارف والسعادات فى هذه النفوس الصافية ، والعقول النيرة فى الأرض ، تلك العقول التى خلقها الله لتنير السبيل لنوع الإنسان ، فكما أن الشمس بإشراقها ، وبحراراتها تكون سببا فى تحول المواد المعدنية والماء وغاز الحامض الكربونى : أى المواد الجامدة والمواد السائلة والمواد الغازية إلى أغذية توافق النبات والحيوان ، هكذا هذه العقول الكبيرة فى الأرض أرسلت إليها لتكون سبب رقى نفوس نافعة بها ترتقى الأمم جيلا بعد جيل : وأمة بعد أمة إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

فقال صاحبى : إنى سمعت الناس يقولون : إنك لغرامك بهذه العلوم تلصقها بالقرآن إلصاقا فهل فى القرآن ماتقول من أن هذه المائدة النباتية جعلها الله للحيوانات وللجهلاء عامة ، وجعلها نفسها للخواص بحيث تكون غذاء للجميع ونورا مشرقا بالدراسة للخواص ؟ فقلت : يقول الله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم » فقدم دراسة هذه العوالم على دراسة أنفسنا ، لأن دراستها أسهل من دراسة أنفسنا ، ويقول تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد » فذكر التبصرة والذكرى أولا ، وهو الذى قررناه هنا ، وذكر الرزق بعد ذلك . والأول للخاصة والثانى للعامة ، فقال الحمد لله ، والله إن هذا البيان لعجب عجاب .

فقلت ياصاح : إن هؤلاء الخاصة هم الذين يفهمون قول الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » فهؤلاء يشاهدون اللطف الإلهى ، وأنه خبير بنفس هذه العلوم ، ويرون ببصائرهم كيف ظهر لطفه ورأفته ورحمته لكل حيوان ولكل إنسان بإرسال ضوء الشمس وحرارتها إلى كل نبات مسافة (٩١) مليون ميل ، وبهذه تنقلب الجوامد والغازات والسوائل فى النبات إلى سكر وإلى نشاء وإلى دهن ، فلولا الرحمة العجيبة ، ولولا اللطف ، ولولا الرأفة الحقة ، ولولا العلم الواسع لم يكن نبات ولا حيوان : فهؤلاء هم الذين يفهمون معنى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شىء » ويفهمون قوله تعالى « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » فان الرحمة بلا علم لاتفيد ، بل قد تضر كرحمة الأم فإنها قاصرة على تغذية الطفل لاتتعداها غالبا ، فالرحمة هنا لولا العلم لم تم وكيف تم رحمة النبات والحيوان إلا بضوء الشمس وحرارتها اللتين بهما تنقلب المواد الثلاث إلى أغذية ، من ذا يفقه هذا إلا من يحيط علما بالشموس وبالأرضين وبالأقمار ، فالعلم شرط فى حصول الرحمة العالية ، وبهذا يفهمون معنى قوله تعالى : « وهو أرحم الراحمين » وهؤلاء الذين ينطبق عليهم قوله تعالى « إلا من شهد بالحق » فهؤلاء كأنهم يشاهدون النور الإلهى المنبعث من المقام الأقدس ، لأنهم يرون ذلك مكشوفا لهم فى نفس أغذيتهم ، فهم يشاركون الناس والحيوان فى التغذية ، ولكنهم هم يشهدون آثار الصانع فى صنعته ، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح « اعبد الله كأنك تراه » .

إذن هؤلاء كأنهم يشاهدون ربهم عند مايرون أى نبات . وأى شجر ، وأى حجر ، وهؤلاء هم الذين يكونون نورا مشرقا لأممهم .

وقد حكى علماء النفس فى أوربا وأمريكا أن الذين يدرسون هذه العوالم التى حولهم يعطون خصلتين اثنتين : حب أوطانهم ، وحب الإنسانية ، وأقول أنا : هما الذين قال الله فيهم « شهد الله أنه لا إله إلا هو

والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » فالله شهد أنه واحد وقائم بالعدل وحسن النظام فى مخلوقاته ، وكذلك الملائكة يشهدون ذلك ، وأولو العلم يشهدون ذلك .

إذن دارس هذه العلوم على هذه الشريطة هو الذى يشهد ذلك شهادة على مقتضى قوته الإنسانية الخاصة به ، وبهذا تم الكلام فى اللطيفة الثالثة . وفى عجائب خلق النبات ، وسنذكر فى اللطيفة الرابعة إن شاء الله تعالى كيف يتكون الحيوان وأنه مخالف فى تكوينه لتكوين البلور وما معه ولتكوين النبات ، وأنه يكون بانقسام الخلية إلى اثنتين ، ويستمر الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ وهكذا على سبيل المتوالية الهندسية إلى مالا نهاية له ، وفى أثناء ذلك تكون عظام وعروق وأوردة وشرايين وعين وسمع وبصر . وهكذا تذكر ذلك الحيوان الذى يقطع قطعا ، وكل قطعة منه تصير حيوانا تام الخلقة « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ».

اللطيفة الرابعة فى الحيوان وتكوينه

هنا حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : قد وعدت أن تفيض الكلام على الحيوان وتكوينه ، والذى أراه أن هذا الأسلوب ربما يجعل فى النفوس سآمة ، وفى المجالس عدم التئام فى الآراء . لأنه يكون على وتيرة واحدة ، فهل لك أن أحادثك فيه وتجيبنى على أسئلتى من نفس ذلك الكتاب الانجليزى ليحصل الجمع بين حقائق العلم ولذة النفوس بالحديث والسمر والجمال ؟ فقلت : ذلك لك ، وأسأل الله أن يوفقنا إلى ذلك .

موازنة تكوين الحيوان بتكوين النبات وتكوين البلور

وماعطف عليه فيما مضى تبيانا لقوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » وتبيانا للتربية التى اقتضتها الرحمة العامة والرحمة الخاصة ، ولقوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » الخ .

فقال : لعلك ستقول إن نظام الحيوان فى تكوينه لايقل شأنا عن نظام النبات ، فإن الحيوان يجتذب المواد مما حوله أولا ، ويحولها فى داخله إلى مادة تصلح لتكوين جسمه مخالفة فى ذلك المواد المجلوبة من الخارج كما حصل فى النبات سواء بسواء ، وهكذا يخالف الحيوان فى ذلك [كما يخالف النبات] طرائق حدوث البلور والشب وأمثالها مما لاتتكاثر إلا إذا وضعت فى مواد من جنسها ، فاذا يخالف الحيوان والنبات أمثال الشب والملح وملح البارود فى هذه الأحوال الثلاثة .

وهاهنا يكون العجب العجاب المدهش كيف لا ، ألم تر إلى الأوراق والأزهار وجميع أجزاء النبات ، كيف حولت القوة الكائنة فيها تلك المواد الجامدة المحيطة بها فى الماء والطين والهواء والضياء ؛ إلى ورق وزهر وثمر وجذور وأغصان وسوق ، وكيف كانت البذور فى النبات والبيض فى الحيوان مبدأ لفيض تلك العجائب التى تدهش العقلاء دهشة فوق مايدهش عقول الجهلاء من القوى السحرية التى ترهبهم وتغشى على عقولهم وهم لايعلمون ، فأى هندسة ، وأى حساب ، وأى إبداع تراها فى الأوراق والأزهار والأثمار كما تراها فى الأعين والأسماع والأبصار والقلوب والأكباد والأيدى والأرجل والأدمغة فى الحيوان وفى الإنسان فأى عجب هذا ! تراب وطين وماء تحول إلى هذه الأعضاء إلى هذه العيون إلى هذه الجذور إلى هذه

الأثمار إلى هذه الأدمغة إلى هذا الجمال ، أليست هذه مدهشات ، فما هذه الموازين ؟ وماهذه الأعاجيب ؟ وما هذا الحساب ؟ وماهذه الهندسة ؟ وما هذه العقول ؟ وما هذه المواهب ، هذه كلها تخالف الضياء والهواء والماء والطين والرمال التى كونت منها على خط مستقيم ، فأجبت عن ذلك قائلا :

لقد أصبت المحز ووافقت ماجاء فى نفس المقال الفرنجى الذى أترجمه الآن وأزيد على هذه الثلاثة التى استنتجتها فأقول :

إن عالم النبات وعالم الحيوان [فضلا عما ذكرت أيها الصديق من الأحوال الثلاثة التى تخالف فيها الشب والبلور والأعمدة الحجرية الجيرية فى الكهوف الواسعات المنتظمات الأشكال المسدسات الحادثات من قطرات مائية جيرية واقعات على أرض الكهف منزلات من سقفه] يحصل فيهما النمو من داخلهما كما قلنا بهيئة بديعة جميلة عجيبة ، وأى عجب أدهش لنا من أن نرى مصانع ومصانع تعد بالآلاف وآلاف الآلاف فى أجسام الحيوان والنبات ، وهل تلك المصانع إلا الخلايا الدقيقة المكونة من عناصر وجزئيات لاترى إلا بالمناظير المعظمة جدا ، وهذه قد وصلت إلينا من الأحاديث التى رواها لنا علم التشريح وعلم التاريخ الطبيعى .

وكما أن كل خلية مركبة من عناصر دقيقة لا ترها العيون ، هكذا يتكون من هذه الخلايا ألياف ومن الألياف تتكون الأنسجة المختلفة بقوانين منظمة موسيقية ، على مقتضى الصور والهيئات التى كونت بها الأجسام والأعضاء والأوراق والأزهار والأسماع والأبصار .

عصير النبات ودم الحيوان المستمدان من الأغذية يمدان الأنسجة بالعناصر المغذية لها

أن الغذاء الداخل فى كل نبات وكل حيوان بعد هضمه يتحول إلى عصارات فى النبات ، وإلى دم فى الحيوان ، وهذه العصارة ، وهذا الدم منهما يستمد كل نسيج مايلائمه وتصبح تلك العناصر المستمدة من الدم ومن العصارات على هيئة النسيج الذى اجتذبها إليه .

الدماء والعصارات أسواق بيع وشراء

إن الخلايا والأنسجة دائما فى تركيب وتحليل صباح مساء ليلا ونهارا إلى انتهاء حياتها ، فهى كما تشترى من العصارات ومن أنواع الدم مايموزها مما يلائم طباعها ويتشكل بصورها ، هكذا تبيع مالديها مما استغنت عنه غير صالح للتغذية نيئا فيحول فى الدم وفى العصارة إلى مادة صالحة للتغذية فتشتريها الأنسجة والخلايا ، وهكذا دواليك حوادث متتابعات متشابهات وبيع وشراء :

(١) وعلى ذلك فى المصانع العجيبة التى فى الخلايا الحديثة فى أوراق النبات تصنع خلايا جديدة أخرى لتنمو بها الأوراق .

(٢) وهكذا تصور الأنسجة الحديثة فى الأزهار من تلك العصارات النباتية صورا مختلفة الأشكال فى داخلها ، وبها تكمل أشكال تلك الأزهار وينتظم سمكها وتحس صورها بما أوتيت من القوة الغذائية المناسبة لها ، وبالأشكال المختلفات والعناصر والأجزاء المكونات لها .

(٣) وهكذا يحصل النمو بالمصانع البديعة المختلفة التى تحول العناصر الميكروسكوبية الدقيقة فى الأنسجة إلى أجزاء تشابه صورها وتربيتها فى سوق النبات وجذوره ، وفى كل جزء آخر من أجزائه ، وهكذا العمل فى عالم الحيوان .

عالم الحيوان

فمن دم الحيوان تصور خلايا الأعصاب وخلايا الألياف أنسجة عصبية حديثة .

ومن الدم تستمد العظام عناصر وتحولها المصانع الكامنة فيها إلى عظام ، وهكذا النسيج الحلوى يضم إلى نفسه من الدم عناصر ويحولها إلى صورة تشاكله .

وعلى ذلك نقول : إن العوالم الحية من النبات والحيوان ليست مزيتها قاصرة على نموها الداخلى فحسب ، كلا بل لها مزية جليلة عجيبة ، وهى أنها تحول المواد التى اجتذبتها إلى هيأتها وصورتها

الدهشة من عجائب النظام فى النبات والحيوان

قال المؤلف : لامسألة أدعى إلى الدهشة ، ولا أمر أدعى إلى الحيرة فى عوالم الحياة الحيوانية والنباتية وأقرب إلى الغرابة والحيرة من هذا السؤال ، وهى كيف ، ولماذا ترى هذه الأعمال الجارية فى أجسام الحيوان والنبات والقوانين التى على مقتضاها تجرى هذه الأعمال ، فيحدث بسببها أن تنمو صورتها داخلا وخارجا طولا وعرضا وعمقا بلا خلل فى النظام ، وهى تستمد تلك الأبنية والأشكال من العناصر الدقيقة الميكروسكوبية على أسلوب منظم موسيقى محكم عجيب .

إن موضع النمو الذى نحن بصدده لن يكون مستوفيا تاما إذا أغمضت الطرف عن الإشارة إلى حال النمو الغريبة فى عالم الحيوان بعد أن شرحناها فى عالم النبات .

إن فى كل من عالمى الحيوان والنبات تحيل الخلايا ماتغتذى به إلى صور تشاكل تلك الخلايا من كل وجه ، وعلى أى حال من نبات أو حيوان ، ولكن دراسة الطبقات الدنيا من عالم الحيوان وبحث تلك الحيوانات الدنيئة منه أوحت إلى علماء الحيوان أن يخصوها بنوع من العناية والتحقيق لما يرون فى ظواهر نموها من العجائب التى لم يروها فى سواها من عوالم الحياة .

تكاثر الحيوان بالإنقسام

ألم تر كيف رأينا تلك الحيوانات الدنيئة التى تعيش فى المستنقعات والبرك ينقسم كل حيوان منها إلى قسمين كل قسم منهما يصبح حيوانا آخر كالحيوان الكلى سواء بسواء .

انظر إلى شكل (٣١) فانك ترى حادثا معتادا حقيقيا ، ذلك الحادث هو أن الحيوان النقيمى قد انقسم إلى قسمين ، وهذا الانقسام تارة يكون طوليا ، وتارة يكون عرضيا ، وهذان القسمان حيوانان مستقلان ينموان نموا معتادا حتى يصلا إلى حيوان تام كما كان الحيوان الأول سواء بسواء .

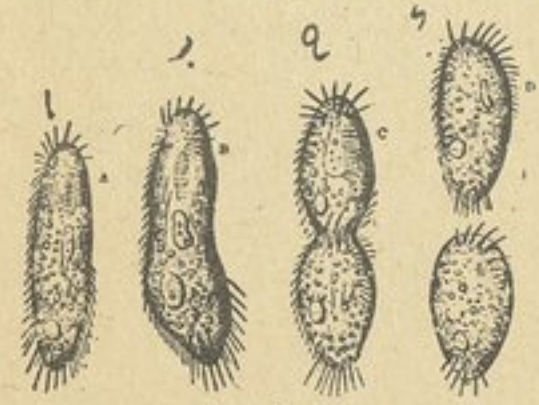

(شكل ٣١)

تبيان الانقسام فى الحيوانات النقيمية

(ا ، ب) حيوان نقيمى تام . (ج) الحيوان النقيمى فى طريق الانقسام . (د) الحيوان النقيمى بعد الانقسام إلى اثنين

انقسام الحيوان كما حصل طبيعيا يحصل صناعيا وذلك فى الحيوانات

(١) ذوات الأرجل (٢) وشقائق البحر

إن انقسام الحيوانات الدنيئة كما يحصل طبيعيا ، هكذا يحصل صناعيا ، ألا ترى أن الحيوانات ذوات الأرجل الكثيرة ، وشقائق البحر يمكن أن يحصل فيها الانقسام صناعيا ..

إن ذوات الأرجل الكثيرة التى تعيش على الأعشاب المائية أجسامها عبارة عن أنابيب ذات أفواه وتلك الأجسام منتهية بأعضاء حساسة تشبه الشعرات ، وطول كل حيوان منها يبلغ نحو ربع بوصة : أى عقدة ، ولقد أبان العالم [ترمبلى] Trembly من [جنيفا] فى وسط القرن السابق أنه قطع الحيوان ذا الأرجل الكثيرة المذكورة نصفين طولا أو عرضا ، وكل واحد من النصفين نما وتم نموه وصار كل من النصفين حيوانا تاما .

قال المؤلف : وهذا نفس ماقاله [ترمبلى] مشيرا إلى العملية الصناعية المذكورة قال : إننى وضعت نصفى الحيوان [ذى الأرجل الكثيرة] اللذين قطعتهما فى إناء من الزجاج مسطح يحتوى على ماء بمقدار ١٤ و٥ خطوط فى قاعه ، وبمثل هذه الطريقة أمكن ملاحظة كل واحد من نصفى الحيوان بسهولة بواسطة المنظار المعظم ، ولقد قطعت ذلك الحيوان قطعا عرضيا ولكنه أقرب إلى مقدمه ، وفى صباح اليوم الثانى بعد يوم قطع ذى الأرجل الكثيرة نصفين تبين لى أن هناك على طرف النصف الثانى الذى لارأس له ولا أيدى ثلاث نقط صغيرة قد ظهرت على ذلك الطرف .

وفى اليوم الثانى أخذت هذه النقط الصغيرة تنمو وتظهر ظهورا واضحا لاشك فيه أنها أيد حقيقية .

وفى اليوم الثالث ظهرت يدان جديدتان ، وبعد ذلك بأيام ظهرت يد ثالثة ، قال : وهنالك لم أكن لأقدر أن أميز مابين نصفى ذى الأرجل الكثيرة بحيث يلتبس أولهما بثانيهما بلا فرق بينهما وكلاهما حيوان تام .

وبناء عليه نقول : إن النمو الصناعى فى الحيوان لا نهاية لحصوله ولاحد له ولا لما يتولد بسببه من الحيوان الجديد .

الشقائق البحرية

وكما قلنا فى ذى الأرجل الكثيرة نقول فى الشقائق البحرية :

فإن هذا الكاتب بتجاربه الخاصة قد فعل بالشقائق البحرية ما فعله بالحيوان ذى الأرجل الكثيرة ، فانه قطعها نصفين ووضعها فى الإناء الزجاجى وأخذ النصفان يكملان ويظهران كاملين لافرق بينهما اه ماقاله ذلك العالم الجنيفى .

[شكل ٣٢]

شقيق بحرى

قال المؤلف بعد ذلك : ولكن هذه العملية ليست خاصة بهذين الحيوانين ذى الأرجل الكثيرة والشقيق البحرى كلا .

تكاثر الحيوان بطريق طبيعى

فإن بعض الحيوانات الأخرى تتكاثر بالانقسام الطبيعى، ألم تر إلى المرجان فإنها قد تنقسم قسمين ، بل أكثر ، ويحدث بهذا الانقسام حيوانات مرجانية جديدة من مرجان واحد .

نموّ البراعيم النباتية وحدوث نبات جديد بها

وليس الانقسام فى الحيوان بالبراعيم بأبهج من الانقسام فى النبات بما فيه من البراعيم التى بها يحدث نبات جديد ، كلا بل الانقسام فى النبات أبهج منظرا ، وأبدع الانقسام فى الحيوان حيوان الزوفييت يتكاثر بالانقسام ، ومن الحيوان الذى يحدث فيه تكاثر طبيعى بالبراعيم الزوفييت .

فإذا رأينا المرجان المتقدّم ذكره آنفا تحدث البراعيم فى أجزائه فيكون مرجان جديد ، فالقول إن ذلك فى الزوفييت أعجب وأبهج منظرا وأحسن شكلا وأنضر جمالا .

فانظر رعاك الله ، ثم انظر رعاك الله وتعجب من نظام جلّ عن الوصف وفاق كلّ مايروق الإنسان من الجمال .

ماهو الزوفييت

الزوفييت حيوان له جذر كجذور النبات وسوق وأغصان ، بل وله أوراق ، وماهى تلك الأوراق؟ إن هى إلا حيوانات صغيرة محمولة على تلك الأغصان نابتات منها « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

أدهشنا صنعك يارباه؟ عجبا وألف عجب يارباه ، تناهى إبداعك ، تناهى جمالك ، وبهرنا آثاره ، عرفنا يارب أن للنبات ورقا ، ولكن ماهذا الورق الحيوانى؟ أيكون الورق حيوانا ؟ ماهذا الحيوان ، وما هذا الجمال ، رباه أغصان رصع فيها حيوان بصورة أوراق ، ماهذا الجمال ، ماهذا الإبداع ، رباه عجب وألف عجب فؤادى يارب أدهشه صنعك ، عجبت يارب وعجبت ، ماهذه للملكة ، ماهذه الدولة ، ماهذه المستعمرة وما هذا العدل ؟ عدل فى النظام ، وعدل فى الحياة ، وينطبق على هذه المملكة « لا ظلم اليوم » .

حقا يارب أن عندك دارا أخرى تقول لنا فيها « لا ظلم اليوم » وتقول فيها « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ، لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » .

لقد رمزت لنزع الأغلال من الصدور بحدوث هذه الحيوانات الزوفيتية الأرضية ، أحدثها متجاورات فلا غل ولا حسد ولا حقد ، فكل حيوان منها جاثم على غصنه يهضم ما يأكله ويلقيه فى المجرى العام فى الغصن ثم يكون هناك إصلاح لذلك فى نفس المجرى ، وهكذا دواليك ، فكل حيوان ورقى زوفيتى يعطى ويأخذ بطريق العدل ، ويعطى فضلاته للسائل العام ، و يستمد منه قوته غذاء صالحا ، فالسائل العام فيه يكون إصلاح ما نقصت قوته من المواد ويرد صالحا لكل حيوان منها .

والإنسان فى الأرض عاجز عن هذه السعادة « فتبارك الله أحسن الخالقين ، وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

إن هذا الحيوان يشبه فى فعله النباتات البحرية المجاورة له سواء بسواء .

حكاية رجل كان يحتطب الزوفيت

اتفق أن رجلا فى يوم عيد كان يحتطب على شاطئ البحر فجمع كثيرا من حيوان الزوفيت فماذا رأى ؟ رأى أن هذا ليس نباتا ، بل هو حيوان حى ذو منظر بهيج بديع ، وترى أغصانه موسمة بتلك الحيوانات الصغيرة ، وكل منها له فم وأنابيب دقيقة ذات إحساس بها يحس الحيوان وكل حيوان متصل بما يجاوره من نظائره فى الحياة ، وهذه الحيوانات ظهرت بها مملكة متحدة ذات مستعمرة عجيبة لأدنى مراتب الحيوان .

وفى السوق وفى الأغصان يجرى السائل الغذائى الذى يستمد منه كل حيوان ما يغذيه كاملا ، ويجد هو ويعمل بقوته الخاصة به فى تغذية نفسه كما يفعل ورق النبات ويدع فضلاته فى الغصن مع غذاء المستعمرة ويأخذ منها حظه من الغذاء غير منقوص .

قال المؤلف : إن هذه جمهورية قد اشتركت اشتراكا عاما ، وساعد كل واحد منها أخاه بعدل وإنصاف ، وهذا من أعجب العجب أن يحدثنا تاريخ الزوفيت عن جمهورية كاملة ذات عدل وإنصاف :

إنه من أمتع اللذات لنا وأبهجها لعقولنا أن ندرس تاريخ حياة الزوفيت ونبتهج بما له من مدهشات فى نموه وذبوله وبديع أطواره الجميلات واستمرار أجياله فى التناسل جيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة فى مستقبل الزمان، إن تلك الحيوانات المشبهات الأوراق تأخذ فى الذبول كما تفعل الأوراق ثم تتناثر كما تتناثر الأوراق.

ولكن العجب كل العجب أن هذه الحيوانات التى عفت آثارها واعتراها الردى وحملت إلى أجداثها تحل محلها بعد هلاكها حيوانات أخرى من براعيم تنمو فى ديار أولئك الهالكين وتنتظم الجمهورية الثانية انتظام الجمهورية الأولى كأن لم يكن موت ، وستبقى تلك المستعمرات زاهرة ثم يحل بها البلاء ويخلفها غيرها جيلا بعد جيل « وربك يخلق ما يشاء ويختار ـ وهو الحكيم العليم » وهذا الفعل مشابه لما يحصل فى الأشجار المجاورات لها فى البحار سواء بسواء ، فهاهنا تشابه النبات والحيوان .

قال المؤلف : إن الزوفيت أرانا مستعمرة عجيبة ظاهرة حادثة من الأجسام العضوية بطريق البراعيم المجاهدة لحفظ كيانها فى الحياة .

ثم أخذ المؤلف يعلل تكاثر الزوفيت على هذه الطريقة ، فقال : إن الحيوان إنما ينمو بطريق البيض ولقد حدث منذ زمان أن زوفيتا خرج من بيضته فاستقل بنفسه وأخذ يعوم فى ماء البحر ورسا فى قاعه فنبتت له جذور فى الأرض وصار ينمو ، ثم ظهر له برعوم فحدث حيوان آخر فاتحدا معا وأخذا يتناسلان، وهكذا حتى ظهرت مستعمرة حيوانية تشبه النبات ، هذا كلام المؤلف :

أقول : أنا « طنطاوى » وأنا أعجب من هذا التعليل الذى لا قيمة له فى العلم ، فما هذه المصادفات التى تحدث عوالم وعوالم، إن هذه الآراء ترجع لآراء علماء القرن التاسع عشر . أما القرن العشرون فعقولهم أنضج من سابقيهم « والله هو الولى الحميد » .

قال المؤلف : وها نحن أولاء رأينا الحيوان يفعل ما يفعله النبات من إصلاح ما فسد منه وظهورا الجديد فى مواضع البالى وظهور صور حادثة محل أخرى أبادتها صروف الدهور وكرور الأيام .

إن للنمو لعلاقة بالذبول بحيث لا يكون الأول إلا بعد حصول الثانى فى عالم الأحياء ..

إن الكون والفساد واللوت والحياة وحدوث خلق جديد إثر خلق قديم ناموس عام فى النبات وفى الحيوان ونحوها ، فذلك صادر من نواميس قائمة بداخل هيا كلهما بخلاف الأحجار والأعمدة الجيرية

فى الكهوف والبلور وأمثالها ، فإن النمو حاصل من إضافة بالخارج إليها بنواميس لادخل لها كلها فيها والنواميس التى يجرى عليها تتابع الكون والفساد سارية فى كل نوع من أنواع الحيوان ، والنبات لايتعدى حديثها قديمها ولا آخرها أولها .

ألا وإن كل ناموس يصدق على أجزاء الجسم وأنسجته يصدق على مجموع الجسم ، فكما كان لهذه الأجزاء والأنسجة فساد يتبعه كون هكذا لهذه الأجسام فساد يتبعه كون ، فإذا رأينا الأسنان تخلفها أمثالها فى الأطفال ، هكذا الأحياء إذا فنيت تلوها أخرى على وتيرتها حذو القذة بالقذة ، فإذا نحن أعملنا الفكر فى أمر الموت والحياة فى الإنسان وتدبرناه وصلنا إلى نتيجة صادقة كاملة ، وهى أن ذلك الموت [الذى منه يهلع الإنسان ويجزع ويفر كأنه من الأمور التى لايعلمها الإنسان ولا يمكنه أن يعلمها فى الطبيعة] جار على ناموس صادق ونظام معقول من تلك النواميس الحقة والوجوه المعتبرة المكتوبة فى سجل سفر الحياة العامة التى لا تتم حياتنا ولا تنتظم إلا بها فليس إذا أمرا خارجا عن القانون ولا هو أمر مجهول « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » من ترجمة [العلامة ويلسن] تحت عنوان النمو .

وهاهنا حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : إن هذا الكلام حسن ، وكيف لا ؟ لقد ذكرت الجمال والبهجة والحسن فى نظام الثلج وصوره البديعة ومايتبعه من الحسن فى صور الشب والملح وملح البارود حين تبلورها ومباهج البذور حين ظهور أوراقها وامتداد جذورها ، وكيف ابتدأ خلق الحيوان ، وأن النبات والحيوان يحصل فيهما النمو بسبب القوة الداخلة فى كيانهما .

[شكل ٣٣]
الصودا الكاربية

[شكل ٣٤]
الشب الأبيض

[شكل ٣٥]
الشب الأزرق

فأما أمثال الشب [1] والصودا والملح والصخور والأحجار والجبال ، فإن تكونها يكون بحدوث زيادة لها من خارجها ، ونمو النبات بامتداد الجذر من أسفل والساق من أعلى بخلاف الحيوان فانه ينمو بطريق الانقسام ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ وهكذا وفى أثناء انقسام البيضة للنوية على هذه الحال يحصل سمع وبصر وشم وذوق وعين وأذن وقلب ورئة ومعدة وأمعاء وكبد وصفراء وحلقوم ومرىء وحالبان وحجاب حاجز وطحال ويدان ورجلان وقدمان وعشر أصابع فى اليدين ونظيرها فى الرجلين ، وهناك نرى اتزانا واعتدالا فى شكل العينين والمنخرين والأذنين واليدين والثديين والجنبين والفخذين ، فإن هذه المتناظرات موضوعات على هيئة يقال لها فى علم الهندسة المحل الهندسى بحيث نرى المسافة ما بين كل عين إلى الخط الوهمى [الذى يفصل الجسم من أعلى الرأس إلى طرف القدم] قسمين متساويين ، وهذا غاية الإبداع .

سبحان ربى والحمد لله ، وهو الرب الذى كان من صنعه هذا الجمال ، ياسيدى : إن أهل الأرض عموما يدرسون ويعملون ويموتون وأكثرهم ناكمون عن هذا الجمال ، وإن أمثال ماتقوله الآن يبهج النفوس فلكم يدهشنى أن أرى هذا الشكل الهندسى فى جسم الإنسان ، فإذا برزت إلى الحقول رأيت ما سميناه المحل الهندسى واضحا بهجا جميلا فى الأشجار وأغصانها وأوراقها وأزهارها ، فكل هذا جميل وعجيب ، وقارئه يخرج من حال الغفلة إلى حال اليقظة ، بل يدرك جمال هذه الدنيا يدركها فى كل حال ، ففى السحاب جمال وفى المطر جمال ، وفى الثلج جمال ، وفى الحيوان جمال ، وفى الجماد جمال ، وفى النبات جمال ، ومتى كانت الحياة محلوة بالجمال كانت حياة سعادة وبهجة وحبور ، كل هذا حسن ، ولكن لقائل أن يقول اعتراضا على أمثال هذا الأسلوب .

(١) هذه الصور الثلاث اقرأ شرحها فى الجزء الثامن من الجواهر سورة الحجر

اعتراض على المؤلف

لقد ابتدأت هذا الملحق بتفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » ويظهر من مقالك أنك كنت تريد أن تزيد ما فى الآيات من التفسير وهو [الجواهر فى تفسير القرآن] أيضا تفصيلا ، ولما ابتدأت تفعل ذلك فى البسملة وآية « الحمد لله رب العالمين » حصلت لك حال غريبة فلم تقدر أن تتجاوز البسملة والحمد وأخذت تعرض صورة الرحمات فى الحيوان وصور الرحمات فى الجو وعجائب [الراديو] وكيف كان صانع العالم لرحمته يحافظ على أصوات الإنسان من الضياع فى الجو فيجعل لها حواجز وموانع وأغلفة وحوافظ بضعها فيه محيطة بالكرة الأرضية وبنوعها ، وقد ذكرت أربعة منها فى أبعاد مختلفة مابين ٢٥ ميلا فى الجو وثلاثة ملايين ميل فيه وما بين ذلك اثنان : أحدهما فى بعد ٦٥ ميلا ، والثانى فى بعد (٢٥٠) ميلا ، وهذه بعضها لمنع الأمواج اللاتى تؤذينا ، وقد سترت من أقطار السموات العلى ، وبعضها لحفظ أصواتنا أن تضيع فى الجو فتنفعنا نفعا عظيما ، الله أكبر .

ثم إنك بعد ذلك لم تقدر أن تبرح آيات الرحمة ، وآيات الحمد ، فسردت آيات الرحمة المذكورة فى الشعراء وفى سورة الرحمن ، وفى سورة النحل :

فهذه كلها إما أن تكون مذكورة مع الرحمة ، وإما أن تكون مبينة لنظام العوالم ، وهذا يرجع للحمد عليها .

ثم طفقت تشرح مقالا انجليزيا أعجبك حسنه وراقك جماله من حيث إنك شرحت فيه كيف كان خلق الجبال والمعادن والصخور وهكذا ، ولكن لى أن أقول اعتراضا على هذا الأسلوب : إنه يظهر أنك كلما نظرت شيئا بهيجا ومقالا حسنا طفقت تكتبه باعتباره منطبقا على القرآن إجمالا ، فآية البسملة ، وآية الحمد لله ينطبق عليهما جميع العلوم ، ولكن هذا لا يسمى تفسيرا ألبتة . أهذا تفسير ؟ إن هذه إلا علوم ، نعم إنك فى الآيات القرآنية المتقدمة للسميات [روضات الجنات] ظهر فيها معنى كونها تفسيرا . أما فى هذا المقال الإنجليزى ، فإنه مجرد علم ، أما أنه تفسير فلا .

الجواب على هذا الاعتراض

قلت : أيها الأخ لعلك تريد أن هذه العجائب يعوزها الآيات المناسبة لها ، فقال : أنا لا أدرى ماتريد أن تذكر منها فاعرضها علىّ فإن وافقت أقررت أن هذا يصح أن يكون ملحقا بالتفسير ، وإلا لم أقر على ذلك ، فقلت : الله الهادى ، وهو العلم ، وهو اللهم ، اسمع ياصاح يقول الله تعالى :

(١) أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر .

فها هوذا سبحانه يوبخنا على أننا لم ننظر كيف خلقت الجبال ، وكيف نصبت الأرض ، وكيف رفعت السماء ، وكيف خلقت الإبل ، وها نحن أولاء ذكرنا فى هذا المقال بعض ماوصل إليه العلم من خلق الحيوان ومنه الإبل وبعض ماوصل إليه من خلق الجبال وهكذا .

(٢) ويقول « وكل شىء عنده بمقدار » ويقول « وإن الله سريع الحساب » ويقول « الذى أحسن كل شىء خلقه .

ولا جرم أن الحساب والحسن والمقدار والنظام تراه واضحا فى أشكال الثلج والشب والأعمدة الجيرية التى كشفوها فى كهوف الجبال وهى مسدسة الأشكال .

(٣) ويقول « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير »

ألا ترى أيها الأخ أن الإنسان حينما ينظر حبة وضعت فى الطين فكانت رطوبة ، وكانت حرارة فامتد جذر فى الأرض وارتفع ورق فساق فى الهواء ، يجد هناك لطفاً ورأفة لاحصر لهما يجد أن هذا الجذر تكون قوته على مقدار الورق والساق ، ويعجب الإنسان من كون هذه النباتات موضوعة بهيئة بحيث لاتقتلها الرياح الهابة عليها ، ولا الأعاصير ، ويرى الإنسان أن الأوراق موضوعة بترتيب وحساب .

[انظر هذا المقام موضحا بالصور والحساب فى تفسير آية « وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » فى سورة الحجر فى الجزء الثامن من الجواهر] .

وكلما ازداد الساق ازداد امتداد الجذور، ثم تكون النتيجة أمرا عجيبا ، تكون النتيجة أن تكون مآكل وملابس وروائح وأدوية للانسان وللحيوان ، هذا مايفهم الإنسان من آية « ألم تر أن الله أنزل » الخ ، ومن آية :

(٤) « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا، متاعا لكم ولأنعامكم » .

فهاهنا جاء ذكر الأنعام والإنسان مع النبات ، وذلك هو الذى فى هذه المقالة ، ولكن القرآن شئ والعلوم التى تقرأ أمر آخر ، فالقرآن يهيج النفس بهذه العلوم، ومعنى هذا أن هذا الكاتب الانجليزى يصف لنا كيف كونت الجبال ، وكيف نما النبات والحيوان ، وكيف صور الثلج مسدسا ، وكيف كان [الزوفيت] فى البحر قد عاش ولم يبرح مكانه ، وقد كون جمهورية منظمة لا خلل فيها وعاش سعيدا ثم مات كما تذبل الأوراق وخلفه غيره ، هذا كلامه ، ولكن أين الروعة ، أين البهجة ؟ .

إنما البهجة والجمال فى أن يفكر الإنسان كيف كان هذا النبات موافقا لغذاء الحيوان وغذاء الإنسان ولماذا نرى أن ذوق كل حيوان ومعداتها وأمعائها وأكبادها وطحلها وعروقها وجميع أجهزتها جعلت موافقة لذلك النبات ، وكيف نرى الحيوان يفرح بذلك، بل كيف نرى فى نفوسنا غراما بهذا ونحن نكتب هذا التفسير ، ماهذا العلم؟ وما هذه الرحمة ؟ وكيف نرى أنواع النبات التى تعد بمئات الألوف موافقة لهذه الآلاف المؤلفة من الحيوان ، وكيف نرى جذور النبات حينما تجتذب المواد من الأرض موفقة أن تأخذ مايبنى أجسام الزرع وما يبنى أجسام الحيوان فى آن واحد ، ولم لا تمتص الجذور من الأرض إلا العناصر العشرة التى بها نمو صلاح النبات وصلاح الحيوان ، وبها الروائح وأنواع الحلو والمر والحريف وهكذا مع أن العناصر فوق ثمانين ، فكيف تركتها كلها فلم تجتذب إلا الأكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون والفسفور والكبريت والكلور والصوديوم والبوتاسيوم ، وقليل من الحديد واليود ونحوها ، وتركت كل ماعدا ذلك مثل : عنصر اللثيوم والفاناديوم .

إن هذه الدنيا عجيبة فما هذا الإبداع فى الخلق والرأفة والرحمة، وكيف كان لهذه قوة تقبلها فى أجسام الحيوان فيفرح بالحلو ويموزه للملح والحريف والمر وهكذا .

ماهذا كله ؟ أن نظرات القرآن موجهات إلى إسعاد العقل بهذا الفكر ، فتراه يقول « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا » الخ .

فهاهنا تراه يفتح باب الفكر فى أن يبتهج بما يرى من حبة امتد جذرها فى الأرض وساقها فى الهواء

بما نزل عليها من المطر الذى جرى به سحاب حمله هواء ، أثارته حرارة الشمس التى تدور بحسب الظاهر بحساب متقن ، وبهذا الحساب المتقن أتقن حساب الزرع فى الفصول الأربعة فلم يكن خلط فى العوالم ثم من جهة أخرى تكون النتائج موافقة لذوق الانسان والحيوان طعما وغذاء وتفكها وحياة وهضما وتمثلا لخلايا الجسم ، هاهو ذا علم الأمم المحيطة بنا ، هانحن أولاء ندرسه ونبينه للمسلمين ونوازنه بالقرآن ، فنجد أن القرآن ينظر للعلوم كلها نظرة واحدة فيجعل للفكر الانسانى جولة واسعة ، الله أكبر .

إذن المسلمون الذين بعدنا سيكونون أسعد الأمم ، لأن العلوم الجزئية تصبح عندهم مقدمات ، ونتائج تلك المقدمات غذاء الفكر بالجمال الذى يبهجه بالنظر العام فى العوالم كلها ، فيكون الضياء والهواء والحرارة والعناصر والأوراق والأزهار ، ومعدات الحيوان وأعضاؤه الداخلة والخارجة وما يحوزها من حب وفاكهة ، كل هذا علم واحد يكون فى نفس الانسان صورة جميلة بهجة ، فالجسم بها غذاؤه ، والعقل بها جنته ومتاعه .

فهاهنا يفهم المسلم معنى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين : أى لا رب النبات وحده ، ولا الحيوان وحده ، ولا الفواكه وحدها ، ولا استكمال الأعضاء والعواطف وحدها ، بل الحمد على الهيئة العامة من هذه العوالم .

إذن تأليف أهل انكلترا وأهل فرنسا وألمانيا وأمم الشرق والغرب مقدمات لتعريفنا بمعنى بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

فقال : أما الآن فقد اتضح معنى كون هذا ملحقا بتفسير القرآن ، وأرجوا أن تسير على هذا الأسلوب فى بقية هذا الملحق ، فقلت : إن شاء الله تعالى ، وبهذا تمت الزبرجدة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

كتبت هذا المقال الآنى فى تاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ « ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ » .

الزبرجدة الثانية

فى خلق الإنسان من طين ، وعجائب تشريحه الداخل فى قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » تفصيلا للكلام على الحمد فى الفاتحة ، وتبيانا لعجائب الإنسان .

جمالك يا الله باهر ، ونورك ظاهر ، ملأت العوالم بالنور : نور الشموس ، ونور القلوب ، وحكمة الحكماء وعلم العلماء .

خلقت السموات والأرض ، وجعلت الظلمات والنور ، ذكرت الظلمات قبل النور ، يارب ما هذه الظلمات ، وما هذا الجمال الرائع فى تلك الظلمات ، عيوننا يارباه صنعتها وأبدعتها ، عيوننا التى ركبتها تركيبا كتركيب أجمل المخلوقات ، كتركيب الشموس والكواكب والأقمار ونفس الأرواح ، ففيها يرسم النور صور العوالم الخارجية ، وهذه الصور كثيرة جدا ، وهذه أشبه بهيئة أرواحنا من حيث أن خيالنا يسع من الصور مالا حد له ، عيوننا أحكمتها : جعلتها من طبقات سبع ورطوبات ثلاث ، جعلت شبكيتها وهى آخر الطبقات منتظمة مبدعة ، مهندسة مكورة جميلة ، جعلتها هى وحدها تسع طبقات مع أن غلظها لا يزيد عن غلظ ورقة الكتابة ، وآخر طبقة من هذه الطبقات التسع ، فيها ملايين من الأشكال الأسطوانية وملايين أخرى من الأشكال المخروطية ، ما هذه الأشكال ؟ ما هذه العجائب ؟ ما هذا الإبداع ؟ كل ذلك لا بد منه ليمكن نقل صور العوالم إلى عقولنا ومخيلاتنا فى اللب اللطيف الذى فى دماغنا .

[هـذا كله موضح بالتصوير الشمسى فى آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » الخ فى مجلد ٢٣ من أصل التفسير] .

سبحان الله وبحمده ! سبحانك اللهم وبحمدك ! أنت الذى أودعت فى قلوبنا حبك ، فلذلك نراها تستخدم أجسامنا فى تتبع آثارك ، لم تذر جيلا من الأجيال ، ولا أمة من الأمم إلا اصطفيت من أبنائها من جعلتهم مثلا أعلى على حسب زمانهم ، ومقتضى أحوالهم ، لأنك لم تذر النمل ولا النحل ، ولا العنكبوت ولا الأرضة ، ولا الوحوش البرية ، ولا الطيور الجارحة ولا غير الجارحة بلا إلهام يرشدها ، وإنعام ينعشها وسعادة تحيط بها ، وطرق ممهدة لحياتها ، أنت ربنا منعم رحيم .

ومن أجل هذه الإلهامات ما كان يقوله بعض الفلاسفة اليونانيين قبل أزمان سقراط [تقدم ذلك فى أصل التفسير فى بعض المواضع] إن الله خلق عيوننا لنرى بها الظلمات والنور ، وندرس الليل والنهار ، ونعرف حركات الفلك ، ليفتح لنا بذلك باب الفلسفة .

الله أكبر ، إذن عيوننا والأنوار المحيطة بنا مخلوقات للدرس والحكمة ، سبحانك الله ما أوسع قدرة الله وعلمه ، يخلق فى أرضنا المتناقضات ، حكماء يرون فى النور وفى العين حب الله وحب العلم ، وجهلاء وهم أكثر نوع الإنسان لا يرون فى النور ولا فى العين نعمة ولا حكمة ، وإنما النعمة كل النعمة فى لذة الحواس والشهوات ، يعيشون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

حديثى مع فلاح من أقاربى بكفر عوض الله حجازى بالشرقية

وهى قريتنا كنت أرجع وأنا طالب بالجامع الأزهر إليها لأقضى فيها زمن المساحة : فقابلنى يوما على ترعة قريتنا المسماة [ترعة عوض الله] ، فقال يا ابن أختى : هل لهذا العالم آخر .

هـذه هى السماء ووراءها سماء ووراءها سماء ، ثم إذا انتهت السموات ما الذى بعدها ؟ هذه حيرة ، هل العلم يفيدها شيئا من ذلك ، أنتم لا تعلمون ، هذا كلامه ، فكان هذا السؤال من أحد الأسباب التى جعلتنى مغرما بدرس الفلسفة ، وقد درست الفلسفة القديمة فى الكتب العتيقة التى وصلت إلينا ، وقد رأيت فيها أن العالم كله ثلاث عشرة طبقة ، طبقة الأرض والماء ، الهواء ، الأثير ، فلك القمر ، فلك عطارد ، فلك الزهرة ، فلك الشمس ، فلك المريخ ، فلك المشترى ، فلك زحل ، فلك الثوابت ، الفلك المحيط .

هذا هو العالم كله فى الفلسفة القديمة ، فالعالم كله على مقتضاها خادم لأرضنا وحدها ، فهذه الأرض الصغيرة هى محور العالم كله ، فالماء لشرابنا ، والهواء لتنفسنا والأثير ، وهو عبارة عن عالم أخف من الهواء تخلق فيه الشهب والنيازك ، فهو عالم نارى ، والقمر يضىء لنا وهو يسبح فى فلك ، وذلك الفلك متصل اتصالا تاما بفلك عطارد ، وما عطارد ؛ ولا الزهرة ، ولا الشمس ، ولا المشترى ، ولا زحل إلا قناديل دائرات فى أفلاكها لنظام أرضنا .

ولما كانت هناك كواكب لا تحصى يراها الناس فى السماء لم يجدوا لهم محيصا من أن يجعلوا لها فلكا خاصا ، وهو الفلك الذى فوق فلك زحل ، فكل نجم ثابت فإنه ثابت فيه ويسمونه فلك الثوابت :

ولما كانت هذه كلها متحركات لم يجدوا لهم بدا من أن يقولوا : أن هناك فلكا محيطا بجميع هذه العوالم ، وذلك الفلك هو الذى يدور الدورة اليومية التى نشاهدها وتدور معه هذه الأفلاك كلها من المشرق إلى المغرب .

ولكن الشمس وما معها من القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمشترى ، والمريخ ، وزحل لها نظام خاص لأنها وإن جرت مع هذه الأفلاك ومع هذه الثوابت بحركة مستمرة من المشرق إلى المغرب فإنها ترى لها حركة أخرى من المغرب إلى المشرق .

فهى أشبه بالنمل يعيش فوق عجلة تدور من الشرق إلى الغرب ، لكن هذا النمل مع دورانه مع العجلة من الشرق إلى الغرب وهو مأسور مقهور بحكم المكان الذى يدور به له حركة أخرى اختيارية استقلالية، وتلك الحركة على ضد الحركة الأولى مخالفة لها لا تتفق معها ، فالحركة القسرية من الشرق إلى الغرب ، أما الحركة الإرادية فإنها من الغرب إلى الشرق ، وإيضاحه أننا نرى الهلال يبدو أول الشهر فى السماء جهة غروب الشمس ، فإذا لاحظنا كوكبا ثابتا من كواكب السماء معه فى نقطة واحدة فى تلك الليلة فإننا فى الليلة الثانية نرى القمر قد تأخر إلى الشرق ، وذلك الكوكب ثابت فى مكانه لا يبرحه ، ذلك لأن القمر يسبق فى الطلوع كل ليلة بنحو (٥٠) دقيقة .

فلا جرم يرى شرق ذلك الكوكب الذى كان مقارنا له فى الليلة التى قبلها بهذه النسبة ، والقمر بهذه الطريقة يتم نحو سبع وعشرين يوما دورة كاملة ، ولكنه إذا أتم الدورة لا يجد الشمس فى مكانها ، لأنها أيضا تتحرك حركة إلى الشرق مثل القمر ، ولكن حركتها هى بطيئة لا تتم إلا فى نحو سنة ، إذا رجع القمر ولم يجدها فى مكانها فانه يجوزه نحو يومين أيضا ليلحق الشمس ، وهذا هو الزمن الذى يسميه الناس شهرا : كما أن دورة الشمس تسمى سنة ، والذى قلناه فى الشمس والقمر نقوله فى بقية الكواكب السابقة للسميات سيارات ، فالشمس على هذا المبدأ القديم من السيارات . هذا ملخص علم الفلك القديم .

فلما قرأت ذلك العلم رجعت إلى سؤال الفلاح فى قريتنا وقلت - ها أنذا قرأت العلم المشهور بين أمم الإسلام وأمم اليونان والرومان ، هذا علمنا .

ها أنذا أقف ليلا فأنظر الكواكب تدور حول النجمة القطبية الثابتة فى أفق السماء أرى ذات الكرسى والدب الأكبر ، والدب الأصغر تدور حول تلك النجمة التى لا تنتقل ، وكلما بعدت النجوم عن النجمة القطبية المرتفعة فوق الأفق ٣٠ درجة نراها تغيب عن أعيننا كالشعرى اليمانية والجوزاء وذات الكرسى والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة والسماك الرامح والسماك الأعزل والنسر الواقع والنسر الطائر والتوأمين والجبار ومنكب الجوزاء ومعسك الأعنة والدبران والكلب الأكبر الذى فيه الشعرى اليمانية والكلب الأصغر الذى فيه الشعرى الشامية والعيوق وغيرها ، كل هذه تدور من الشرق إلى الغرب . وتختفى وتظهر لأنها بعيدة عن النجمة القطبية .

انظر هذه كلها فى خريطة السماء الآتية فى الزبرجدة الثالثة.

كنت أرى هذه فأقول : حقا إن هذه الدورة حق ، وهذه الثوابت لا شك فى ثباتها ، وهذه السيارات نظامها صادق ، وهذا القول معقول ، وكل فلك فى مكانه ، ودليلهم على ذلك أن السيار الذى هو أسفل يكسف السيار الذى فوقه ، فبهذا عرفوا أماكنها ولكنهم لم يجدوا لمركز فلك الشمس دليلا ، فقالوا إن الشمس فى الوسط كشمس القلادة ، فكما نرى قلادة الحسناء فى وسطها الجوهرة الثمينة ، هكذا الشمس قد جعلت فى الوسط كقولها للسيارات هى زحل، والمشترى ، والمريخ ، وتحتها ثلاث سيارات : هى القمر وعطارد والزهرة ، حسن هذا كله ، ها أنذا عرفت الدنيا كلها هذا خلق الله ، وهذه ظلماته ، وهذا نوره، وهذه كواكبه .

فماذا بعد الفلك المحيط ؟ يجيب العلماء فيقولون لا خلاء؟ ، ولا ملاء ، الله أكبر ، ما معنى هذا؟ يقولون عدم صرف ، واحسرتاه على العقل الإنسانى استخبر كتب القدماء فلا تقول غير هذا .

ياقوم أنا لا أفهم : أنا لا أعرف ، أفيدونى الفلاح فى كفر عوض الله ألقى على هذا السؤال فأين جوابه ؟ قرأت العلم وعرفت الفلسفة ، هذه هى التى يعرفها أمثالى فى [الأزهر القديم لا الجديد الآن] فقد أزهر

العلم فيه] وهل بعده فلسفة، وهل بعدها علم هذا آخر العلم فى هذه الدنيا . فالى أين أذهب؟ ما معنى لا خلاء ولا ملاء يقولون الخلاء : ما كان بين جسمين ، ولما كان ما وراء الفلك المحيط ليس فيه أجسام إذن لاينطبق اسم الخلاء عليه لأنه وإن كان بجانبه جسم وهو عالمنا ، فهناك لا جسم غيره من ناحية أخرى حتى يقال له خلاء ، وأما الملاء فمعناه عالم الأجسام، إذن هو عدم صرف ، واحسرتاه ، ما معنى عدم صرف؟ فهكذا حرت فى أمرى وأصبحت فى ليل من الشك مظلم .

هـذه الآراء هى التى ملأت عقلى والحيرة والحسرة معها ، ها أنذا قرأت علوم الدنيا كلها فلم أجد جوابا لفلاح قريتنا ، ولا غذاء لروحى المسكينة التى تريد أن تعرف هذه الدنيا ، كل ذلك والعالم الشرقى والغربى حولى يعرفون من العلم مالا يخطر على بالى ، وقد غيروا أوضاع الثوابت والأفلاك وأدركوا فى ذلك علما غزيرا ، وفى نفس مصر فى مدارسها هذه العلوم زاخرة ، ولكن لاعلم لى بها ، إن عقل الإنسان لايعرف إلا ماوصل إليه ، وما عداه مجهول له ، فهذا آخر العلم عندى :

دخلت دار العلوم واطلعت على مارآه المحدثون ، وعرفت الناس من العلم مالم يحلم به الأولون وملك الله عند القدماء بالنسبة لما ظهر عند المحدثين خردلة من جبل وقطرة ماء من بحر لجى ، بل هى هباء فى الهواء بالنسبة للكرة الأرضية .

انفتح لى باب العلم وأخذت أقرأ كتبا وكتبا فماذا أرى ؟ أرى أن علم القدماء الذى قرأته ليس نهاية ما كتبوه ، وأنا الذى ظننت أنه نهاية علمهم وإنما كان على مقدار ماوصل إلى وإن كانوا هم تجاوزوا حدما وصل الىّ فوقع فى يدى كتاب [إخوان الصفاء] وهو مؤلف منذ ألف سنة ، فماذا يقول فى الفضاء ؟ يقول إن الفضاء إما ظلمة وإما نور ، والظلمة ، والنور إما عرضان ، وإما جوهران ، وإما أحدهما عرض والآخر جوهر فان كانا عرضين فالعرض لابد له من جوهر ، وإن كانا جوهرين فهو للمطلوب ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فحكمهما مقرر [وهذه من بدائع القرآن إذ يذكر الظلمات والنور الذين بهما برهن على أن لاخلاء فى الوجود .

عجبا إذن الفضاء لافضاء ، إذن كل ما اعتبرناه خاليا من الأجسام إنما هو جسم ، إذن المجموعة الشمسية [على الطريقة الحديثة] لاتجرى فى فضاء بل فى موجود لاندرى ما هو ؟ والمجرة تحوى عشرات الملايين من المجموعات الشمسية ، ومعلوم أن مجموعتنا الشمسية عبارة عن شمسنا المعتبرة مركزا ثابتا يجرى حولها عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون وسيار جديد كشف حديثا منذ نحو سنتين ، فهذه هى السيارات التسع ، وكل سيار له قمر أو أقمار قد تبلغ ٩ أو أكثر أو أقل ، وقمرنا ليس سيارا ، بل هو تابع لأرضنا يجرى حولها كالأقمار الأخرى .

وهناك ذوات الأذناب والنيازك ، وهذه لاعدد لها فهذه كلها مجموعتنا الشمسية ، وهذه المجموعة الشمسية واحدة من عشرات الملايين ، وهذه كلها تسمى مجرة واحدة ، وفى العوالم مجرات كثيرة تعد بعشرات الملايين ، ومثل المجرات السدم جمع سديم : أى ضباب ، وهى كالمجرات أيضا ، وهذه وتلك تعد بمئات الملايين .

بعد هذا أو ذاك أقول أيضا : أنا لم أعرف جواب سؤال الفلاح فى قريتنا ، وأنا لاأزال إنسانا جاهلا لم أوفق للاجابة عليه ، إن هذا السائل قد مات ، ولكن سؤاله لم يمت ، هو فى نفسى وفى نفس كل امرئ فى الأرض .

عجب لهذه النفوس المتطابقة ، نفوس عالية رفيعة لها بربها علاقة ، وتلك العلاقة أنه هو الذى صنعها صنعا خاصا ميزها عن المادة وجعلها سيدة عليها نفوس لاترى للعوالم آخرا ، نفوس كونت تكوينا بحيث يسع

خيالها هذه العوالم وأجواءها ويقطع مسافات وراءها ، ويقف مكتوف اليدين قائلا : أنا فى حيرة ، أنا فى حيرة ، نعم تذكرت لماذا لا أرجع إلى قول إخوان الصفاء المتقدم ، وأن الخلاء جوهر ، ولكن هذا قول مجمل غير معلوم ، لأن الجوهر قسمان : جوهر مفارق للمادة ، وجوهر ملازم لها ، والثانى هى هذه الأجسام ، والأول هى الأرواح والنفوس ، فهل يريد أصحاب إخوان الصفاء أن يقولوا : إن الجو روح أو نفس ، أو يقولوا : هو جسم ، فإذا كان الثانى كانت الأجسام حالة فى أجسام ، وهذا مستحيل لأن تدخل والتدخل مستحيل ، وإذا قالوا إن الجو روح فأى روح هذه ؟ وهل الروح يقوم بها الظلمات والأنوار ، كلا هذه عوارض جسمية ، إذن كلام إخوان الصفاء غير مفهوم يجوز الإيضاح ، فماذا نقول إذن .

السؤال باق ، والمسألة يجوزها الحل ، فماذا نقول ؟ نعم نعم هذه مجلة السياسة الأسبوعية يوم السبت ٢٦ يونية سنة ١٩٣٠ تكتب تحت عنوان :

آراء العلامة اينشتين الحديثة فى الفضاء

فلنقرأها ، وإذا لم يحل المسألة اينشتين فمن ذا الذى يحلها ؟ هو أعلم علماء الأمم فى الأرض الآن فى هذه العلوم ، فماذا فى هذه المقالة؟ يقول الكاتب :

يعتبر العلامة اينشتين من أعظم مفكرى العصر الحاضر ، وقد شغل الدوائر العلمية وأوساطها بمباحثه الجديدة وآرائه التى تقصى بها كثيرا من النظريات .

يقول إينشتين [إن الفضاء يبتلع المادة] وبهذا القول أصبحت اليوم دراسة الفضاء ذات أهمية أكبر من دراستها فى الماضى . قال الكاتب : ونحن نلمس من حديث اينشتين أن الفضاء عامل أصلى جوهرى فلا بد من دراسته ، إن الفضاء بهذا القول أصبح أمرا أصليا وأصبحت المادة فرعا عنه فهى أمر ثانوى . كانت المادة أصلا والفضاء فرعا ، فهاهى ذه القضية أصبحت معكوسة ، وقد قوبل هذا القول بين العلماء فى أوساطهم العلمية قبولا حسنا بنيويورك كما قوبل قول إينشتين أيضا بتلك المقابلة الحسنة وهو [أن الفضاء جسم صلب حقيقى] والمادة مأخوذة متولدة من نفس الفضاء .

ولما سمع هذا القول العلامة [وليم موتناج] الأستاذ بجامعة كولمبيا قال : إن هذا المبدأ يدلنا على أن إينشتين قد غض النظر عن مذهبه الأصلى عن الفضاء حينما أعلن لأول مرة نظريته عن النسبية ، ففى ذلك الحين كان يعتبر للمادة أصلا وأنها تخلق الفضاء الخاص بها ، ولكن نظريته الجديدة قد اقتلعت هذا المذهب والظاهر أن بحوثه دلته الآن على اعتبار المادة ثانوية بالنسبة للفضاء .

هذه آراء أعظم عالم فى أرضنا اليوم ، ماذا يقول ؟ يقول إن الفضاء جسم صلب ، الله أكبر ، إذن الفضاء لا فضاء ، إذن لا عدم فى هذه الدنيا ، وليس يوضح هذا لأصدقائنا قراء هذا الكتاب إلا ما تقدم فى الأصل [أصل التفسير] فى سورة الصافات من شرح هذه النظرية ، وآراء علماء آخرين ، وتبيان معنى كون الفضاء مادة صلبة ، وأنه لو كان مادة محسوسة لكان أصلب من الحديد والرصاص آلاف المرات ، وهناك أوضحناه بما هو معروف . إن هذا الفضاء هو الذى يوصل الجاذبية بين النجوم والشموس والسيارات والأقمار ، فإذا تحمل ثقل السيارات حول الشمس وذوات الأذناب والنيازك وتحمل المجرة وشموسها وسياراتها فما هذه القوة التى فيه ، فلو فرضناه حديد أو نحاسا أو ذهبا أو بلاتين أو أى مادة مما نعرفه فى الأرض فلم يقدر أن يحمل جذب تلك العوالم جذبا متواليا دائما بلا كلل ولا ملل ، إذن صلابته فوق كل صلابة فى الأرض آلافا وآلافا .

إذن عرفنا جواب سؤال الفلاح فى قريتنا ، جوابه اتضح بقدر الطاقة الإنسانية اليوم من كلام إينشتين فإذا قال ذلك الفلاح ماذا بعد السموات ؟ نقول له : إن هناك شموسا وشموسا ، ومجرات ومجرات وسدما ، فيقول : وما بعد المجرات والمجرات والسدم ؟ فنقول له ظلام حالك ، وذلك الظلام الحالك لون جسم صلب قوى متين ، فيقول : جسم صلب أى صلابة هذه ؟ فنقول له : صلابته بمعنى آخر غير المعهودة مع أن ظاهره يقتضى أنه معدوم ، وهذا آخر العلم فى زماننا ، فيقول لنا الفلاح لو كان حيا الآن : يظهر لى من كلام علمائكم أن العالم المعروف الآن الذى كشفه علماؤكم عبارة عن كرة واحدة كما قاله [إينشتين] فقد أثبت أنه كله كرة واحدة فماذا وراء هذه الكرة ؟ فهل العلماء يقولون لاعوالم وراءها اغترارا بعلمهم ، فإذا قال ذلك أجبناه بما جاء فى السياسة الأسبوعية يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ تحت عنوان :

الكائنات العلوية

مقاييس الكائنات وأبعادها

العثور على عنصر الأوكسوجين فى جو المريخ

ألقى الأستاذ [سيلبرمان] أحد كبار علماء الفلك الأمريكيين خطبة فى جمعية العلوم الطبيعية الأمريكية بمدينة [واشنطون] أثبت بها أن فضاء الكون الذى تسبح فيه الكائنات هو كروى الشكل ، وأن قطر هذه الكرة هو اثنان وثلاثون ألفا وخمسمائة ألف ألف ألف مليون ميل : أى أنه خمسة وثلاثون ألف مليون ضعف المسافة بين الأرض والشمس ، وهذا القياس هو أقل مما كان العلماء يعتقدون حتى عهد قريب ، بل هو لا يتعدى جزءا من عشرين من القياس الذى أسفرت عنه أرصاد سنة ١٩٢٤ .

وقد ذكر الأستاذ [سيلبرمان] أن التقدير الجديد وإن يكن أقل من التقديرات السابقة هو مؤيد بعدة أدلة مبنية على نظرية إينشتين فى النسبية بعد تطبيقها على سرعة بعض النجوم المتناهية فى البعد .

ومع ما لقياس حجم الكون وأبعاد الكائنات من الشأن العظيم فى علم الفلك لا يمكننا إلا الاعتراف بأن تلك المقاييس هى تقريبية ككثير من الأرصاد الفلكية . وفى الواقع أن قياس الكائنات المتناهية فى البعد لا يمكن أن يكون مضبوطا ولا ينتظر أن يكون كذلك مادامت وسائل الرصد لدينا ذات قوة محدودة .

ولكن تعلم أن الأرصاد الفلكية فيما يتعلق بالكائنات المتناهية فى البعد هى تقريبية ما عليك إلا أن تقابل بين أرصاد تلك الكائنات منذ خمسين سنة وأرصادها الآن فتجد الفرق شاسعا جدا . وهذا الفرق راجع كما لا يخفى إلى تقدم وسائل الرصد وآلاته فى خلال الخمسين سنة الماضية . فإن صنع المراقب [التلسكوبات] الكبيرة قد مكننا من رؤية أجرام فلكية ، وعوالم متناهية فى البعد ما كنا نرجو أن نراها لو بقيت آلات الرصد على ما كانت عليه منذ خمسين سنة .

فضاء الكون قد اتسع فى السنين الأخيرة اتساعا تدريجيا ، ومعرفتنا بطرق رصد ذلك الفضاء لا تزال فى ازدياد مستمر حتى صرنا نتساءل اليوم : هل وصلنا إلى أقصى حدود الكائنات ؟ وهل المراقب وآلات الرصد التى لدينا اليوم هى أعظم ما يمكن صنعه ؟ ولنفرض أن تلك الآلات هى أعظم ما يستطيع العلم صنعه فهل معنى ذلك أنه ليس وراء الفضاء الذى تستطيع تلك الآلات أن تجوبه فضاء آخر ؟ .

وبعبارة أخرى : إن مذهب النسبية يقول إن الكائنات محدودة والفضاء الذى تسبح فيه كروى . ولكن أليس وراء ذلك الفضاء الكروى فضاء آخر ؟ وهل من المحال أن توجد فيه عوالم أخرى هى من البعد عنا بحيث لا تصل إليها أقوى التلسكوبات الحديثة ؟ .

فأما أن الكائنات العلوية محدودة فليس بالأمر المستحيل . وأما وجود فضاء آخر وراء الفضاء الذى تسبح فيه الكائنات فحقيقة لا يستطيع العقل أن يتصور ما يخالفها ، لأن من مقتضيات الفضاء أن لا ينتهى عند حد وإنما من المحتمل أن يكون ثمة حد فاصل بين الفضاء الذى تسبح فيه الكائنات والفضاء الذى يحيط به من ورائه ، وإذا ثبت أن الفضاء الأخير هو خال من آثار الأجرام العلوية فلا بد أن يكون عبارة عن ظلمات حالكة لا نهاية لها على الإطلاق .

وعلى كل حال فالأرجح أن حقيقة ذلك الفضاء المجهول ستظل سرا مستغلقا قرونا كثيرة إلا إذا تمكن العلم من إماطة اللثام عنها .

أما الآن فان أبعد الأجرام الفلكية التى تمكن رؤيتها بمساعدة الراقب [التلسكوبات] القوية هى السدم اللولبية المتناهية فى البعد ، ولا سيما ما يعرف منها [بالسدم السيارة] وهى على ما يقول العلماء : نظم فلكية مستقلة بذاتها كنظام المجرة الذى منه نظامنا الشمسى وما فيه من أجرام فلكية مختلفة . وقد أثبت الدكتور هيل [أحد علماء الفلك بمرصد مونت ويلسون بأمريكا] هذه النظرية إذ رصد هو ورفيقه الدكتور [هيوماسون] تلك السدم عدة سنوات وقاسا أبعادها عن الأرض وسرعة دورانها واتجاه حركتها . وقد كانت النتيجة التى انتهيا منها ، بعد مقابلة أرصادهما مدهشة جدا ، إذ أثبت الدكتور [هيوماسون] أن سرعة السديم اللولبى رقم ٧٦١٩ هى ٢٢٤٨ ميلا فى الثانية ، وأنه يسير مبتعدا عن الأرض التى تبعد عنه الآن نحو ٢٥ مليون سنة نورية .

وهذه هى النتيجة التى انتهى إليها الدكتور [هيل] بعينها : وقد اضطر كلا العالمين إلى رصد ذلك السديم [أو تلك المجموعة من العوالم] بتلسكوب مرصد [مونت ويلسون] الذى يبلغ قطر عدسته مائة بوصة وهو أكبر تلسكوب فى العوالم فى الوقت الحاضر . وصوراه صورا فوتوغرافية متعددة فى حالاته المختلفة ، وإذا تذكرنا أن ذلك السديم يبعد عنا خمسة وعشرين مليون سنة نورية علمنا أن النور الذى وقع على الزجاجة الفوتوغرافية هو النور الذى فارق ذلك السديم منذ خمسة وعشرين مليون سنة . ولا شك أن تغيرات كثيرة طرأت على ذلك السديم منذ ذلك الحين ، ولكن أثرها لم يصل إلينا بعد ، إذ لا بد له من مسيرة ٢٥ مليون سنة فى الفضاء حتى يصل إلينا .

ومعنى هذا أنه لو كان فى ذلك السديم بشر يرون عالمنا كما نراهم لكانت صورة الكرة الأرضية التى تنشر بينهم الآن بهيئة هذه الكرة كما كانت منذ خمسة وعشرين مليون سنة .

أما الطرق التى يعتمد عليها العلماء لمعرفة سرعة الأفلاك [ومن جملتها السدم] ومعرفة وجهة سيرها فيصعب شرحها بمثل هذه العجالة ، وإنما نقول إنها تتوقف على فحص الطيف الشمسى ومراقبة حركة الخطوط السوداء التى تقاطع ذلك الطيف ، فإذا كان الجرم العلوى يسير مقتربا من الأرض ، فإن الخطوط السوداء المذكورة تكون أقرب إلى الشعاع البنفسجى ، وإلا فإنها تكون أقرب إلى الشعاع الأحمر فى الطرف الأقصى من الطيف .

ويظهر أن السديم اللولبى رقم ٧٦١٩ يسير مبتعدا عن الأرض وهو هائل الحجم جدا ، ويفوق مجموعة السدم الأخرى التى قد قيست سرعتها .

ويظهر أن جميع تلك السدم تسير مبتعدة عن الأرض ، ولكن سرعتها هى دون سرعة السديم رقم ٧٦١٩ أما السديم الذى يليه فى السرعة فهو المعروف برقم ٥٨٤ وتبلغ سرعته ١١١٨ ميلا فى الثانية .

وفى أثناء رصد هذه السدم تمكن العلماء من رصد النجم المسمى [نوفا بكتوريس] ومن دواعى

الأسف أن هذا النجم لا تمكن رؤيته فى نصف الكرة الشمالى ولكن مرصد بلومفنتين [بجنوبى أفريقيا] ومرصد لا بلاتا [بالجمهورية الفضية] واصلا رصده منذ عدة سنوات ولايزالان يرصدانه لأن حوادث فلكية مهمة وتغيرات عظيمة قد طرأت عليه .

كان هذا النجم عند أول رصد من القدر الثانى عشر كما يؤخذ من الصور الفوتوغرافية الكثيرة التى طبعت له ، ولم يكن فى أول الأمر يرى بالعين المجردة ، ولكنه منذ أربع سنوات أخذ يتألق تألقا عظيما مدهشا حتى صارت قوة إشعاعه تزيد عشرة آلاف مرة على قوة إشعاعه سابقا ، والتعليل الوحيد لهذه الزيادة الفجائية [وهو تعليل قد أيدته الأرصاد الحديثة] هو أن انفجارا عظيما وقع فى النجم فتطايرت قشرته الخارجية التى كانت على الأرجح نصف صلبة .

وقد علل علماء الفلك الانفجار الذى وقع فى هذا النجم تعليلات شتى ، ولكن ليس بينها تعليل مقنع وهنالك رأى يقول بأن هذا النجم سيرجع بعد مرور سنوات إلى حالته الأولى ويصبح نجما من القدر الثانى عشر كما كان :

ونختم هذه المجالة بخبر هو على أعظم مايكون من الشأن فى نظر علماء الفلك ، ومؤداه أن الأستاذ [رسل] الفلكى الأميركى الشهير قد أثبت حديثا أن جو المريخ يحتوى على كمية من الأوكسيجين لا تزيد على سدس كمية الأوكسيجين الموجود فى جو كرتنا الأرضية ، ووجود هذا الأوكسجين فى جو المريخ « على قلة نسبته » دليل على وجود الحياة النباتية ، بل لعله يجعل وجود الحياة الحيوانية فى ذلك السيار كثير الاحتمال ، وعلى كل فإن الأنواع الحية التى يحتمل وجودها فى المريخ تختلف عن الأنواع الحية فى هذا العالم كل الاختلاف سواء أكان بتركيب أجسامها أو حواسها أو بأى سبب آخر .

فلما أتممت هذا المقال حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير ، فقال : ما أجمل هذا المقال نعمة وأى نعمة ، عرضت لك شبهة فى الفلاحين فدرست الفلك القديم ولخصته هنا ثم درست الحديث ولخصته أيضاً وأنت حائر فى فهم لغز الكون أله آخر أم هو محدود ، وانتهى الأمر بفوز العلم إذ يقول اينشتين إن الفضاء جسم ولقد أوضحت أنت هذا المقام فى سورة الصافات وفى سورة النبأ عند آية « وخلقنا فوقكم سبعا شدادا » وأبنت أنت هناك أن شدتها فى الآية هى نفس صلابتها عند العلامة إينشتين ، ولكن أخاف أن يكون تطبيقك هذه العوالم على الرأى الحديث كتطبيق علماء الإسلام المتقدمين على الفلك القديم إذ كانوا يقولون إن العرش هو الفلك المحيط : أى الذى به تكون الحركة الدورية للأفلاك كلها .

وأن الكرسى هو فلك الثوابت تحته ، فأنا إذن أخاف أن يكون ماتقوله فى معنى « سبعا شدادا » وعد ذلك راجعا للصلابة التى ذكرها إينشتين قد يصبح هباء منثورا إذا قام فى العالم رأى آخر وأنه لاصلابه فى الفضاء فربما يأتى قوم فيقولون : هاهو ذا الهواء والماء لا صلابة فيهما وهما فى الفضاء ، فهل الفضاء صلب وهما غير صلبين ، أنا على كل حال أرجو ألا تعول على أمثال هذه الأقوال ودع القرآن من ذلك .

فقلت : أيها الأخ إن هذا القول مناسب للآية التى نحن بصددها ، يقول الله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » فها هو ذا قدم الظلمات وأخر النور أليس هذا مناسبا لقول اينشتين ؟ إن الفضاء أصل والمادة فرع عنه ، ولكن مسألة العرش والكرسى لامناسبة بينها وبين الفلك المحيط ، والفلك الأطلس اللذين قال بهما القدماء ، وانظر للمسلم فى صلاته ماذا يقول ؟ يقول المسلم فى الرفع والاعتدال [ربنا لك الحمد ملء السموات] وهذا يشمل جميع المجرات والسدم والشموس والتوابع والنيازك [وملء الأرض] وهذا يشمل كل أرض تجرى حول شمس [وملء مابينهما] وهذا يشمل عنصر

الماء وعنصر الهواء وما فيهما من سمك وطير وحر وبردوتيارات وعواصف وسحب وكهرباء وعجائب لاحصر لها [وملء ماشئت من شيء بعد] فما هذا الذى بعد هـذا كله ؟ يارى هى الظلمات للترا كمات حتى تكون عوالم أخرى وعوالم أخرى لاندريها كما تقدم فى المقال السابق .

فنحن لاندرى ماوراء هذا العالم ، أهوفضاء مظلم ؟ فنقول : إن هذا الفضاء ليس فضاء . بل هو جسم صلب ، أم نقول إن هناك عوالم أخرى كعوالمنا هـذه ، وهذا القول لايزيدنا شيئا ، لأن المادة أصبحت فرعا لاأصلا .

إذن « وملء ماشئت من شيء بعد» يحوزه شرح وتفصيل ، وتفصيله أن يقال : إن الفضاء شيء موجود والله بعلمه سبحانه وتعالى ، والنفس الإنسانية مخلوقة لدراسة المادة وماوراء المادة ، فالمصلى إذ يقول « ملء السموات وملء الأرض» يكون هذا القول محرضا له على البحث عن السموات وعن الأرض ، وحين يقول : وملء ماشئت من شيء بعد يكون هذا القول محرضا له أن يكشف الغطاء عما بعد هـذه الأجسام كسؤال الفلاح لى سواء بسواء .

الكلام على خلق الإنسان بعد الكلام على العوالم المحيطة به

واعلم أيها الأخ أن الإنسان لما كان مخلوقا يراد به استيعاب هذه العوالم ودراستها والتحقق منها والبحث فيها ، وأن ذلك سعادته وراحته وإيناسه وغذاؤه الروحى أعقبه بقوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون » .

ولاجرم أن ذكر خلق الإنسان بعد ما تقدم مما يقوى ماقلناه ، وهوأن الإنسان مخلوق لاستيعاب هذه العوالم ، وإلا فلماذا يذكرخلق الإنسان من طين بعد ذكر هذه العوالم ، ثم كيف يقول المصلى : وملء ماشئت من شيء بعد» فالإنسان إذن لايقف عند حدفى المباحث العلمية ، وأواخر مباحثه الظلمات التى وراء هذه العوالم .

بهجة العلم ونور الحكمة فى العصفور المغنى

فى هذا اليوم وقت الظهيرة وأنا فى حديقة [بقرب النيل] وتحت دوحة غنى عصفور فخيل لى أن روحى التى تعشق هذه العوالم لاتقنع بعلم ولا تقف عند حد كهذا العالم الذى هى فيه ، فهى والعالم سواء ، كلاهما لايتناهى فهمايشبهان الكسر $\frac{1}{3}$ الذى يساوى ٠٫٣٣٣٣ .

فهل هذا الكسر الإعشارى الذى حولناه عن كسر اعتيادى له نهاية ؟ كلا ثم كلا ، وبعبارة أخرى أثلث العشرة على هيئة كسر إعشارى تمكن نهايته ؟ كلا ، إذا الحساب فيه مالا نهاية له ، بل هذا ظاهر فى أبسط مسائل ، وماالحساب ؟ أليس فرعا من نفوسنا أوليس الحساب من علم الله تعالى سواء أكان بسيطا أوعاليا جدا ؟ .

إذن الله يعلم مالا نهاية له ، وروحى مستمدة من آثار أنواره فهى كذلك تشعر بما لانهاية له ولكنها لاتحيط به علما والله يحيط به ، وهـذا الفضاء مما لانهاية له فهى تشعر به ولاتدركه ، فبعض الكسر لانهاية له فى الحساب : أى إن تجزئة المادة بحسب دقة الحساب لاتنتهى ، وهذا من نتائج معارفنا ومعارفنا مطابقة

المادة، إذن تجزئة المادة لاتدرك لها نهاية كالكسر سواء بسواء ، والكسر فرع من أنفسنا ، فأنفسنا لانهاية لها لأن الكسر المذكور مثلا فرع من أصل هى نفوسنا ، وإذا كان الفرع الصغير لانهاية له فكيف يكون الأصل ؟ فإذا لم نجد للفضاء فى نفوسنا نهاية فهو كذلك فى الخارج ، وهذا هو السبب الذى من أجله جاء فى مقال الأستاذ [سيلبرمان] إن وراء هذه الأجرام السماوية ظلمة ولاندرى أفيها عوالم أم لا ؟ وإنما قال ذلك لأن أرواحنا طبع فيها ذلك ، إذن الآية تشير إلى ذلك لأنه يقول : خلقت المادة وخلقت الظلمة سواء أكانت داخلة فيها أم خارجة عنها ، ولا ريب أن الظلمة التى فى المادة نعرف أسبابها ، فأما الظلمات التى وراءها فلا علم لنا بها ، ثم ذكر النور .

ثم أعقب ذلك بذكر خلقنا من الطين ولما خلقنا من الطين وجدنا نفوسنا مصوغة على هذا المنوال فهى تدرك العالم وتشعر بالظلمات وراءه .

هذه المقدمة ذكرتها هنا لأنى شعرت وأنا تحت الدوحة فى المنيل قرب نهر النيل فى ذلك الوقت حين سمعت العصفور يغنى كأنى خرجت من هذا الجسم وطارت روحى فى هذا الفضاء الذى لانهاية له وأخذت تدرس الوجود كله ، وكأن تلك الظلمة وما فيها من المادة والنور مصوغة بحكمة كصوغ جسمى ، لأن جسمى المخلوق من الطين مملوء علما وحكمة وجمالا وبهاء وكمالا ، فهو إذا درسته فكأنه جنى ، وإذا جهلته فكأنه نارى ، فهذا الجسم الجميل البديع الآن عند دراسته أحس ببهجة وجمال وسعادة روحية ، إذن روحى تسعد بدراسة جسمى ، فاذا مت فبم تسعد إذن ؟ نعم تسعد بالجمال المحيط بها ، وماهو ذاك ؟ نعم هو الجسم العام وماهو ذا الجسم العام ؟ هو الفضاء وما تفرع عنه ، وهو هذه المادة ، وهذا الفضاء الذى استخرجت منه هذه المادة وأنوارها وحكمها يجب أن يكون أجمل من المادة نفسها كما أن نفوسنا التى تبتدع العجائب فى المادة أرقى منها .

هذا هو الذى خطر لى : أى إنى اليوم فى جسمى وهو عذابى إذا غفلت عن دراسته ودراسة ماحوله وهو جنتى عند دراستى له والغرام بعلمه ، فإذا كان هو مملوء حكمة فهو لى سعادة فاذا انسلخت منه ورجعت إلى الجسم العام الذى يقول عنه إينشتين إنه صلب قوى متين . ومنه اشتقت العوالم التى حولى وخلق منها جسمى ، فإنى إذ ذاك أسعد بهذا الفضاء الصلب القوى وأسعد بالمادة التى اشتقت منه كما سعدت اليوم بدراسة هذا الجسم ، الله أكبر .

إذن هذا كله معنى غناء العصفور فى الدوحة التى أنا جالس تحتها اليوم : أى أن معناها أن السعادة عند مفارقة الأرواح للأجسام تكون بالإنتاج بهذه العوالم كلها ظلماتها وأنوارها ، وتكون اللذات لا نهاية لها كما أن العوالم لا نهاية لها . أما اللذات الآن فلها نهاية لأن روحى محبوسة فى جسمى ، وسعادتها الحقيقية تكون فى أوقات محدودة : أى حين أعتبر نفسى قد انسلخت عن جسمى ، لأنى حين أدرسه أعتبر نفسى كأنى خارج عنه ، إذن هذا الجسم هو الذى حدد لذاتى الحقيقية لأنه سجن لى ، وهذا السجن بدراسته أعرف جمال هذا العالم كله ، لأن الغصن وهو جسمى يدل على الشجرة وهو العالم ، وهذه الحقيقة لاأعرفها إلا إذا خرجت منه . وذلك بالموت الذى يشوق إليه ازدياد العلم ، إن فى هذه الأرض قوما طهرت نفوسهم وكملت ، فهم أبدا يحنون إلى الموت بل يرونه هو السعادة ، فأما بقاؤهم فى الحياة فإنه ازدياد لإسعادهم وتكميلهم ولا يطلبون من الله الموت ، لأن ذلك نقص والكمال أن يسلموا له الأمر ويرضوا بهذ الفراق والبعد ذلك الجمال حتى يبلغ الكتاب أجله .

فهذه اللحظة التى غنى فيها العصفور خطرت لى هذه الخواطر بسرعة ، وكأنى فى سعادة لاحد لها بهذه

العوالم التى لاحد لها باعتبار أنى خرجت من هذا الجسم الجميل إلى ماهو أرفع جمالا .

رباه هذا هو عالمنا ، وهذا هو جسمى ، وبكثرة التفكر فى جسمى أزداد علما بالقضاء وما فيه من ظلمات ونور وأقترب من مبدع هذا الجمال .

هاهنا قال صاحبى كفى كفى ، حسن وجميل .

إذن غناء العصفور فى تلك الدوحة هو الذى أخرجك من جسمك فى ثانية من الزمن وأحسست بأنك سعيد بالعالم كله ، ونفس الدوحة أشبه بالعالم كله ، وغناء العصفور كأنه الجمال العام فى شجرة للوجودات ، فقلت أيها الأخ : لقد أوضحت مافى نفسى ولخصته مع أن ماقلته أنا لم يف بالمقام ولكنه على كل حال مقدمة لما قلته أنت .

فقال : إذن خطرات الإنسان الصادقة على هذا المنوال لها تأويل وشرح وتفسير كما تفسر بعض الرؤى الصادقة ، فقلت : نعم ، ولكن أكثر الناس غافلون ، أليست الأحلام خطرات النفس ؟ غاية الأمر أن خطرات النوم أكثرها غير منظم ، فلذلك أهملها نوع الإنسان .

فقال : إذا كانت السعادة فى الجسم بشرحه وفهمه فهل لك أن تذكرنا بعضه فى هذا المجلس ؟ فقلت : حياك الله أيها الأخ أصل التفسير مشحون بذلك ، ففى سورة عبس ترى بعض شرح أجسامنا عند قوله تعالى « قتل الإنسان ماأكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » .

وفى سورة فاطر تجد صور الأعضاء وشرحها وتفصيلها والدورة الدموية الخ ، وهكذا فى سور كثيرة ، فقال : ولكن هنا نفوسنا استعدت اليوم للشرح الإجمالى الذى يذكرنا بما تقدم كله ، وذلك فى الحقيقة تثبيت له ، أليس هذا يعد ذكرى والذكرى تنفع ، بل الكلام هنا على الجسم أشبه بثمرة ماتقدم فهو ابتهاج للنفس ، فهناك تعليم وهنا تذكير ومسرة بالمعارف ، فليكن اليوم سرورنا بشرح أجسامنا ليكون ذلك مقدمة لسرورنا بنظام جميع العوالم التى خلقنا فيها بعد مغادرة أجسامنا .

فقلت ماذا أقول لك أيها الأخ فى الجسم ؟ أأقول : أنه رأس وبدن وأطراف ، وفى الرأس الخ ، وبين الرأس والجسم الرقبة ، وفى الجسم الثديان ، وفى الجسم جميع الأعضاء الباطنة ، وأنت تعرف هذا وأعظم منه ألست تعرف أن هناك الصدر الذى تحيط به الضلوع ؟ فقال : أعرفه وفيه أعضاء الدورة والتنفس ، وهى القلب والرئتان ، وفى البطن أسفل منه أعضاء الهضم والبول والتناسل .

ومثل المعدة والأمعاء والكبد والكليتين والثانة والمبيضين اللذين يختصان بالأنثى ، وبين الصدر والبطن الحجاب الحاجز ، وهناك أطراف هما : اليدان والرجلان ، وللجسم فم وقبل ودبر ، وهذه فتحات مفردة وله أنف وأذن وعين ، وهذه فتحات زوجية .

لهذا الجسم طبقة تحميه ، وهى الجلد ، وهذه الطبقة يمتد منها غشاء مخاطى لونه قرنفلى إلى نحو الشفتين والأنف وباطن جفون العينين ، وهذا الجلد ، أشبه بالشبكة ، ولكن فتحاته لاترى إلا بالعدسة المكبرة وهذه الفتحات الخفية هى التى بها يظهر العرق على جلودنا ، وهناك فى نفس الطبقة بصيلات خاصة بها ينبت منها الشعر ، وهذا الشعر يكثر فى الرأس والحاجبين ، وحول الجفنين وتحت الإبطين ، وحول الفتحات البولية والشرجية وفى المذكور يظهر الشعر عند سن البلوغ فى الشارب واللحية وبالصدر والبطن .

ومن الجلد تنمو الأظافر والأسنان ، لأن ماتحت الأسنان فرع من الجلد كما تقدم .

ولا جرم أن العمود الفقرى يتركب من ٣٣ فقرة ٢٤ منها تسمى بالفقرات المتحركة ، لأن بعضها

متصل ببعض اتصالا مفصليا يسهل لها الحركة ، وهذه هى الفقرات العنقية والظهرية والقطنية ، أما الفقرات التسع الباقية فهى الفقرات الملتحمة وهى [الفقرات العجزية والعصعصية] .

الفقرات العنقية ٧ ، الفقرات الظهرية ١٢ الفقرات القطنية ٥

الفقرات العجزية ٥ الفقرات العصعصية ٤

وهذه الأخيرة غير واضحة الأجزاء وهى فى مقابلة الذيل عند الحيوان وهذه صورتها .

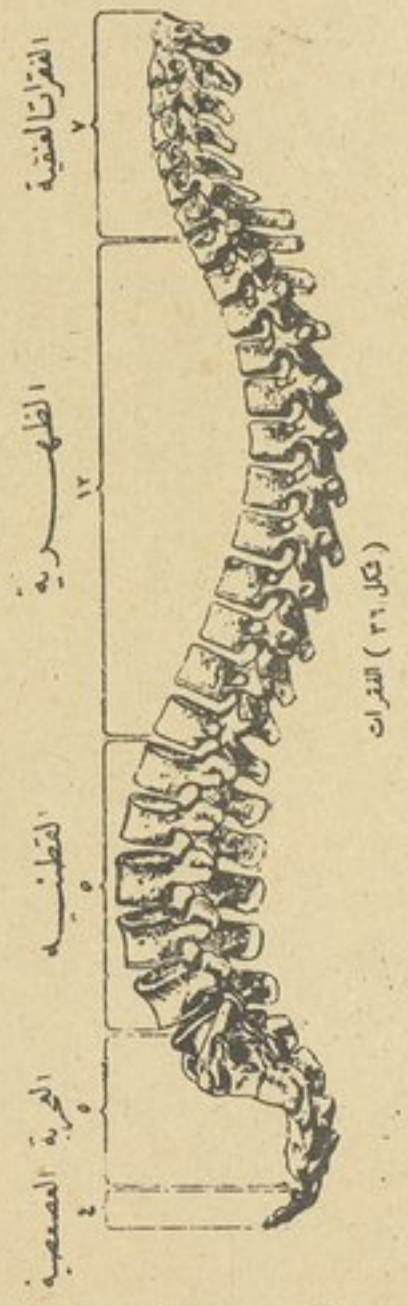

(شكل ٣٦) الفقرات

فلما سمع صاحبي ذلك واطلع على هذه الصورة سر سرورا عظيما وقال : الحمد لله على نعمة العلم .

ثم قال ولكن هذه الدروس لا تكفى العقلاء فأين الحكمة فى الوضع وشرح العجائب ؟ فقلت : شرح عجائب تركيب الفقرات فى الظهر ملخصا من كتاب القزوينى فى عجائب المخلوقات .

عجائب المخلوقات للقزوينى

لما كان الظهر غائبا عن الحاسة اقتضى التدبير والعناية الالهية أن يكون محكما بعظام صلبة ، أليس من العجب العجاب أن يجعل لكل فقرة من الفقرات [المرسومة هنا] شوكة نابتة فى الناحية الوحشية وجناحان من يمينها ويسارها ، وقد غشيت بغشاء غضروفى ، فهذه أربع حوافظ للفقرة الواحدة ، الفقرة حوافظها أربع :

فأما أولاها وهى الشوكة النابتة إلى الجهة الوحشية [وتسمى الشوكات السناسن] فإنها جعلت جنة بارزة تلقاها الآفات الهاجمة من خارج فيصيبها النكاية دون الفقار . وأما الجناحان ، فإنهما جعلا أولا لوقاية الفقرة من جانبيها كما جعلت الشوكة وقاية لها من الخلف .

وثانيا ليكونا مدخل الأضلاع ، وأما الغشاء الغضروفى فذلك لئلا تنكسر بسهولة عند مصادمتها للأشياء الصلبة .

وهذه الشوكات : أى السناسن قد ربط بعضها ببعض برباطات عصبية عراض متينة فتصير كأنها قطعة واحدة ، هذه حكمة خامسة .

الحكمة السادسة : أن يقال لماذا لا تكون تلك الفقرات كلها عظما واحدا ؟ وجوابه أنها لو كانت عظما واحدا لكانت إذا أصابها أى آفة تعطل الظهر كله بخلاف هذه الفقرات التى لا تتعدى إصابة واحد منها مكانها [٧] إن العناية بهذه الأعضاء تامة لأنها حفاظ لما وراءها كآلات التنفس والقلب وآلات الغذاء .

ولاجرم أن الفقرات كالقاعدة لباقى العظام [٨] فقياسها إلى سائر العظام قياس الخشبة التى تهيأ فى نجر السفينة أولا ، ويربط بها سائر الخشب ثانيا ؛ فإن الأضلاع وعظام القص والرأس واليدين والرجلين كلها مركبة عليها ، ويقوى بها البدن على الانتصاب [٩] وهى لوكانت أصغر من حجمها المعروف لكان البدن أطوع للانثناء ، ولكن كان النخاع الذى فى وسطها غير مصون ، والحاجة إلى حفظ النخاع أمس من الحاجة إلى زيادة الانثناء ، إذن هذه الفقرات أصل قوام البدن .

[١٠] إن أكثر الانحناء إلى الأمام لذلك جعلت المفاصل والرباطات من خلف ليكون من جانبها الأخر السلس للحركة [١١] وقد خص بأفضل الأشكال وهو المستدير لأنه أبعد الأشكال عن قبول الآفات .

ولقد تحققت رءوس الخرزات العالية إلى أسفل والسافلة إلى أعلى واجتمعت فى الوسط إحداها ، وهى واسطة الخرزات فى العدد .

[١٢] ولما كان من الواجب أن يعم الحس ظاهر البدن كله وجب أن يصل إليه شعب العصب ، ومعلوم أن الإحساس منشؤه فى الدماغ ، والدماغ لطيف والأعضاء غليظة لما يكون العمل ، اقتضت الحكمة أن تخرج شعبة غليظة من مؤخر الدماغ فى طول البدن وهو النخاع ، وأحيط ذلك النخاع بعظام الفقرات لتحفظه بصلابتها وتوافى الحركة بمفاصلها [١٣] ويخرج من النخاع ، فى كل موضع يحتاج إلى التحريك والإحساس عصب يتصل به ، وعند كل خرزة زوجان يأخذ أحدهما يمنة والآخر يسرة .

إذن هذه الفقرات فيها ١٣ حكمة ، وهذه الحكم كلها لفقرات ظهرى :

إن جسمى نموذج للعالم كله ، إن الله يقول ـ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات النور » ثم يذكر بعد ذلك أنى خلقت من طين ، نعم خلقت من طين ولكن تكوينى عجيب جدا ، وهذه خرزات ظهرى مشحونة حكمة ورأفة وعطفا وعلما وإبداعا ، ما هذه السنسنة ، ماهذان الجناحان الوافيان للفقرة ، ماهذا الغضروف ؟ ماهذا التكوير ؟ ما هذا الحجم الذى لو كان أكبر لتمددت الآفة موضعها ولو كان أصغر لم يحفظ النخاع ، وما هذا الإبداع فى الاحساس ؟ وماهذا اللطف بالمخ الذى هو منبع الاحساس قد حفه اللطف وساعدته العناية فامتدت منه شعبة ، وهذه الشعبة حفظت فى تلك الفقرات القوية المتينة فهى بقوتها قامت عليها الأضلاع والقص واليدان والرجلان والرأس وحفظ فى داخلها النخاع ، ذلك الجسم اللطيف الذى يحمل الإحساس فيوصله إلى ظواهر الجسم ليكون الإحساس ثم الحركات ، وقد اخترقت الأعصاب النواقل للحس والنواقل للحركات الواصلات إلى ظواهر الأجسام الفقار فلم يمنعها ، وذلك من أبدع الحكم والعجب ، أهذا كله عجائب فقرات ظهرى ؟ وهذا معنى « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » : هذا معنى اللطف ، ومعنى العلم ، ومعنى الحكمة ، هذه هى الفقرات التى عليها قامت أجسامنا ، هاهى ذه موضوعات وضعا متقنا حارسات لما فى داخلها منتظمات وحافظات لما خلفها بداخل الجسم .

ومن أعجب العجب أن الفقرة كلما كانت أسفل كانت أكثر سمكا ، وكلما كانت أعلى كانت أخف سمكا ، وذلك أن السفلى تحمل ما هو أعلى منها ، وفى البناء جرت القاعدة أن يكون الدور الأسفل أعظم سمكا من الدور الذى هو أعلى منه .

الضلوع والقص

لكل إنسان ١٢ زوجا من الضلوع تتصل مع الفقرات الظهرية وهى ١٢ فقرة ، وكل فقرة من الفقرات الظهرية تقترن بضلعين على جانبيها ، وهذه الضلوع تميل وتتصل بالقص الذى يمتد فى وسط الصدر

وهذا الاتصال : إما اتصال مباشر ، وإما بواسطة جزء غضروفى ، وهو الغضروف الضلعى ، وذلك فيما عدا الزوجين الأخيرين من الأضلاع ، فهذان لا يتصلان بالقص ، والقص من الأمام يقابل العمود الفقرى من الخلف ، والطرف السفلى للقص غضروفى .

العمود الفقرى والقص والضلوع هذه كلها متصلات اتصالا مفصليا ببعضها فكونت ما يسمى بالعلبة الصدرية وفى داخلها القلب والرئتان ، وتساعد على التنفس لقبولها للحركة .

الجمجمة

ومعلوم أن النخاع الشوكى المتقدم ذكره متصل بالمخ الذى فى الجمجمة .

(شكل ٣٧ الجمجمة)

تعلو الجمجمة العمود الفقرى ، وترتبط به ارتباطا متينا ، وتتركب الجمجمة من منطقتين هما :

(ا) المنطقة المخية وتشمل العظام التى تحيط بالمخ وتكون بشكل علبة عظيمة مجوفة تشغل الجزء العلوى والخلفى من الجمجمة .

(ب) المنطقة الوجهية وتشغل الجزء الأمامى والسفلى من الجمجمة ، ومنها العظام الأنفية ، وعظام الفك العلوى .

تتصل بأسفل الجزء الوجهى من الجمجمة عظمة منحنية تشبه حرف (د) تسمى (بالفك السفلى) ويقابلها من أعلى الفك العلوى ، ويحمل الفكان : العلوى والسفلى الأسنان ، وسيأتى الكلام عليها بعد :

وتتكون الجمجمة من عظام كثيرة ملتحمة بعضها ببعض بواسطة بروزات معشقة فى بعضها كأسنان المنشار ، ولا يسمح مثل هذا الالتحام بالحركة ، وتكون هذه البروزات واضحة أثناء الطفولة ، ويتم التحام بعضها تماما عند الكبر ، وتسمى العظام المحيطة بالمخ عظاما منبسطة .

فلما اطلع على هذا صاحبى قال إن هذا الوصف يدرسه الشبان فى المدارس ، ولكن أين الحكم والعجائب ؟ فقلت ها كها أيها الأخ ملخصة من كتاب القزوينى :

الدماغ جسم لدن مخى محوى فى غشاءين مبلغ للروح النفسانى ومنه ينبعث فى الأعصاب إلى سائر البدن ولما كان جوهر الدماغ شديد اللين حتى إنه قريب من السيلان اقتضى التدبير الالهى أن يكون فى غشاء يحمله فى الأم الرفيقة لتحصره وتضبطه وتكون حرزا ووقاية له ، ثم خلق بين الدماغ والقحف غشاء غليظ يلائم القحف من داخل ويكون كالبطانة حتى إذا انتهى الدماغ فى انبساطه إلى عظم القحف صادم هذا الغشاء ولم يصادم القحف فيكون هذا الغشاء وقاية للدماغ من الأشياء القريبه ويسمى [الأم الجافيه] ثم لما كان جوهر الدماغ على ما هو عليه من اللين وسرعة الانفعال عن أدنى سبب خلق له حصن صلب من العظم وهو القحف وجعل بعيدا عنه ليدفع الآفات عنه ولا يضره بنفسه ، لأنه لو كان ملاقيا له وهو صلب يصادمه دائما فيضغط عنه وكان دائم الشكاية منه ، جعل الأم الرفيقة الحاوية للدماغ معلقة فى القحف .

فلما سمع صاحبي ذلك فرح أشد الفرح وقال : هذا والله حسن . قلت : إذن نمرس هنا أثرا هاما وهو الأسنان .

الأسنان

للانسان الكامل ٣٢ سنا : نصفها فى الفك العلوى ، والنصف الآخر فى الفك السفلى .

[٤] قواطع فى كلّ فكّ من الفكين والمجموع [٨] قواطع

[٢] أنياب » » » » » [٤] أنياب

[١٠] أضراس » » » » » [٢٠] ضرسا

أما القواطع فذات طرف حاد تشبه القدوم ، ووظيفتها : العض والقضم ، والأنياب فى حجم القواطع تقريبا ، ولكن تاجها مدبب ، وهى مستعملة لتمزيق الطعام ، والضروس ذات تيجان عريضة ، وسطحها غير مستو ، وهى تستعمل لطحن الغذاء .

وللطفل الذى يبلغ ستّ سنين [٢٠] سنا ، والمفقود من أسنانه [١٢] ضرسا ، فى كل فك ستة ضروس ، فى كل ناحية ثلاثة ، والعشرون سنا المذكورة هى الأسنان اللبنية ، وتسقط هذه فى السنة السابعة تقريبا ، وتنمو أخرى فى موضعها وهى الأسنان البدلية ، فأما الإثنا عشر ضرسا المتقدمة فهذه لا تخرج بدل غيرها ، بل تنمو مباشرة كأسنان مستديمة ويتأخر نموّ الضرس الأخير المسمى [ضرس العقل] مدة طويلة تتراوح بين سن [١٧] و [٢٥] سنة .

مم تتركب الأسنان

تتركب السن من مادة معدنية صلبة تسمى العاج ، وبوسطها فراغ يعرف باللب ، تمتدفيه الأعصاب المغذية للسن والأوعية الدموية المغذية لها ، حيث تدخله من ثقب صغير فى طرف الجذر ويغطى العاج فى تاج السنة بطبقة أشد صلابة منه لامعة ، تعرف [بالمينا] ويغطى جذر السن بطبقة معدنية أقل صلابة تسمى [بالأسمنت] .

(شكل ٣٨)

إيضاح لابد منه

إن وظيفة الأسنان الأصلية : القبض على الطعام وقضمه وتمزيقه ومضغه ، وهى أيضا تساعد فى إخراج بعض الحروف ، ولكل سنة تاج وجذر وعنق ، فالتاج هو الجزء الظاهر فوق اللثة ، والجذر هو الجزء

للغطي باللثة وهو مغروس فى عظام الفك داخل حفر مناسبة له تسمى (بالأسناخ) وللجذر فرع أو أكثر ، وأما العنق فهو الجزء المختنق قليلا من السن وهو الحد الفاصل بين التاج والجذر .

واعلم أن هذا الوعاء الدموى الذى رأيته فى الرسم لم يتضح فيه الفرق بين الوعاءين : وعاء الدم الوريدى ووعاء الدم الشريانى ، ولكن الشكل الآتى قد اتضح فيه ذلك :

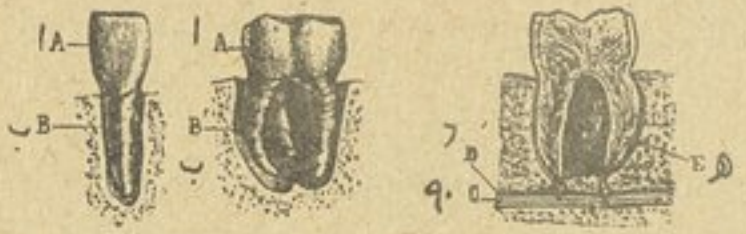

[أ] تاج السن الذى يغطى باللثة
[ب] جذر السن المغروس فى سنخ الفك
[ج] هو الوريد
[د] هو الشريان
[هـ] الأعصاب ج و د هما الاثنان وعاء الدم

[شكل ٣٩]

عجائب الاتقان فى هذه الأسنان

هاهنا استبان أن الأسنان تختلف اختلافا بينا تابعا للثمرات والمنافع ، فبينما الطفل لاينال منها إلا عشرين وهى أسنان اللبن إذ لايموزه سواها ، فليس فى حاجة إلى الأثنى عشر ضرسا طواحن للطعام لأنها لافائدة لها فما الذى يطحنه عليها ، ألبن الأم أم الأطعمة الفليفة التى يتعاطاها بعد الفطام ، الله أكبر :

عجب يارينا : إن نفس هذا الوضع يدهشنا بل يذكرنا بأنك لاتعطى ولا تمنع إلا لحكمة تقول لنا «وفى أنفسكم أفلا تبصرون » هانحن أولاء أبصرنا وسمعنا فماذا رأينا ؟ رأينا إبداعا ، رأينا جمالا ، رأينا حكمة . نحن نحزن لفقد حبيب ، أو ضياع مال ، أو مرض أجسام ، أو فراق هذه الدنيا جهالة منافهاهوذا ضحك ، منحت الطفل ١٢ ضرسا لماذا ؟ لأنها طواحن ولا طحين لها فلا وجود لها .

ولما كانت أسنان اللبن لاتجدى نفعا أخذتها منه وأعطيته غيرها ، الطفل يألم عند ظهور أسنانه ويألم عند انتزاعها ، هذا حاصل ، هكذا نحن نألم لما يصيبنا من المكاره فى تحصيل المال ، ونألم عند ذهابه منا ، كل ذلك تذكرة لنا ، أما ألمنا فذكرى لنا ، وألم الأطفال بأنواع الأمراض ، ومنها أمراض الأسنان تعويد لهم على تحمل الآلام فى الحياة : كأنه يقال لهم : أيها الأطفال أنتم ستكونون كبارا وستقاسون نعيم الحياة وبؤسها ، وخيرها وشرها ، ولا بد من تحمل المشاق ، فها نحن أولاء نمرنكم على البأساء والضراء فى حال صغركم لتتعودوا ذلك من الآن وأنتم لاتعلمون كما يتعلم التلاميذ المسائل الحسابية فى المدارس التى لاتاتى لها فى عقولهم ، ولا ثمرة لها إلا تدريبهم ، وذلك ليستعدوا لنفس هذه العمليات إذا كبروا فى معاملتهم مع الناس فتكون هذه هى الثمرة المقصودة .

إذن ليست آلام الأطفال رمية من غير رام ، بل هى تدريب على تحمل المكاره من الصغر لأن نظام الحياة أوجب أن يكون ألم وأن تكون لذة ، وعلى مقدار تحمل الآلام يكون الهناء وتكون السعادة ، وعلى مقدار الاضطراب وعدم التحمل يكون الشقاء ، هذا كله فهمته الآن من نظام الأسنان .

اللهم إن أسناننا مثلا كتاب مفتوح ؛ وهكذا جميع أحوالنا : اللهم وفق العلماء فى أقطار الإسلام فى هذه السنين وبعد مبارحتنا هذه الدنيا أن يجعلوا دراسة التشريع مقرونة بالحكم لأن هذا هو المفيد النافع أما إعطاؤها لهم على طريقة الحفظ بالأوصاف الساذجة ، فذلك عمل فلا يفيد الفائدة المطلوبة .

من عجائب الحكم فى وضع الأسنان

إن الأنياب تكون حادة وكبيرة فى الحيوانات آكلة اللحوم حتى يسهل عليها تمزيق فرائسها كما نشاهده فى الكلب مثلا .

أما فى الحيوانات التى تأكل الخضر كالأرانب والخيل فإنها تكون ضعيفة أو معدومة ، كل ذلك على هذه القاعدة ، فالطفل لما لم يتح له طعام يستحق الطحن لم يعط الطواحن ، ولما كبر وأعوزه الطحن أعطى الطواحن وأخذت منه أسنان اللبن وأعطى غيرها أقوى منها ، فهكذا نجد الحيوان الذى يأكل اللحم قد أعطى نابا قويا حادا لأنه فى حاجة إليه يمزق به اللحم كما أعطى الطفل لما كبر طواحن ليطحن بها ما يأكله.

أما آكلات الخضر فقد أعطيت أنيابا ضعيفة ، أو منعتها لأنها لتمزيق اللحم ، وأين اللحم هنا ؟ فهى كالطفل فى أول حياته لما لم يعط إلا أسنان اللبن ، وعلى هذه القاعدة قد تكون الأنياب فى ذكور بعض الحيوانات آكلة الخضر كبيرة ومدببة ، لأنه يستعملها كعضو للدفاع والهجوم فى القبائل ، فهذه الذكور لم تعط ذلك جزافا : فهى لها سلاح .

أنواع الأسنان

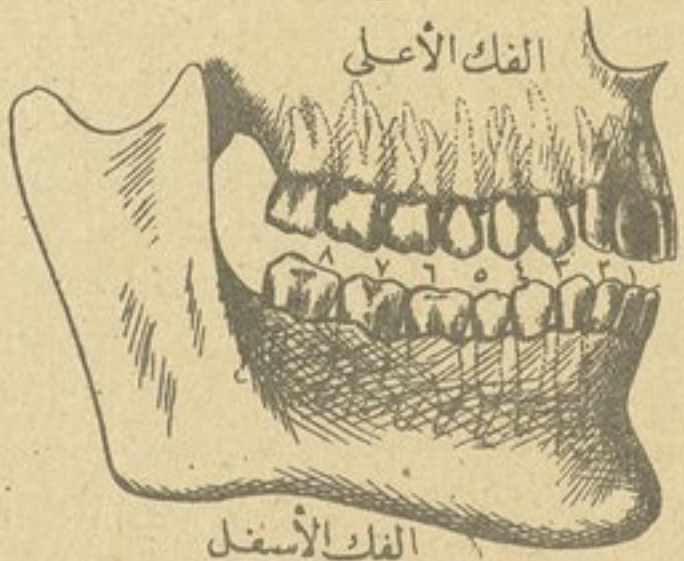

(شكل ٤٠) الفكان

(شكل ٤١)
أسنان الأرنب

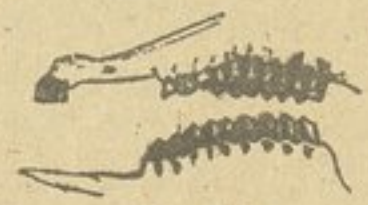

(شكل ٤٢)
أسنان الغنم

(شكل ٤٣)
أسنان المرة

إن أسنان الحيوان تختلف اختلافا بينا كما اختلفت أسنان الصبى وأسنان الكبير فإننا نرى أسنان شكل (٤٣) تختلف عن أسنان الغنم فى شكل (٤٢) وعن أسنان الأرانب فى شكل (٤١) .

فائدة طبية فى الأسنان

قد تقدم فى هذا المقال أن التاج وهو الجزء الظاهر فوق عظم اللثة مغطى بالمينا ، وهذه المينا شفافة وأكثر صلابة من العاج تحتها وفى وسط السن كما هو مشاهد فى الرسم موضحا خلاء وذلك فيه تمتد الشرايين والأوردة لتغذية السن كما أوضحناه وتمتد الأعصاب ليكون الحس وليكون العمل بنتائج ذلك الحس .

فإذا فسدت المينا المغطية للعاج فما أسرع أن يحصل فى العاج الذى تحتها ثقب ، وهذا الثقب مفسد للسن ويشتد الفساد إذا وصل ذلك الثقب إلى ذلك الخلاء الذى فيه الشرايين والأوردة والأعصاب ، فهنالك يحصل الألم وربما يزداد زيادة لا تطاق .

بهجة الحكمة ونظام الجمال والعلم فى الأسنان

اللهم إنا نحمدك على إنعامك ، ونشكرك على إحسانك ، إن الإحسان خاص عند الجهلاء بالطعام والشراب والزينة والعظمة والصيت والملك ، كلا ثم كلا .

إن الإحسان أحسنه وأشرفه ما كان زينة وكمالا وجمالا للنفوس ، ما أجهل أكثر نوع الإنسان .

منذ نحو سنة ونصف كنت فى ناحية (المطرية من ضواحى القاهرة) وكان معى هذا الكتاب الإنجليزى وعثرت بالمصادفة على هذه الصور التى صورت فيها الأسنان فأدهشنى ماتقدم من أن فى وسط السن الأوردة والشرايين والأعصاب ممتدة فى وسط السن فما كدت وأنا تحت الأشجار الوارفات الظلال أرى هذه المظاهر حتى طويت الكتاب وأخذت أفكر وأقول : من ذا يظن أن فى السن شرايين وأوردة ، أفى السن دم ، أفيها إحساس ؟

عجبا إذن هى كالجسم الذى نعيش فيه ، فيها الدم الشريانى والوريدى .

هاهى ذه الدورة الدموية العجيبة ، هاهو ذا القلب العجيب المنظم ، القلب الذى يقول عنه القدماء أن مثله مثل الدماغ فكل منهما قد وضع فى حصن حصين لحفظه ، وهاك وصفه من القزوينى أيضا .

(١) القلب لحمه قوى لئلا ينفعل بالمؤذيات .

(٢) أعلاه غليظ لأنه منبت الشرايين .

(٣) أسفله مستدق ليبعد عن عظام الصدر من جهاته وله غلاف يوقيه ويسمى الشغاف .

(٤) وقد وضع فى وسط البدن ليكون أبعد المواضع من الخارج قد وضع فى حرزين : الأول الرئة . الثانى القفص الذى هو كالتنور وقد بنى حواليه وحوالى الرئة ، وهذا التنور مبنى من عظام الصدر والأضلاع وفقار الظهر ، وجعل هذا الحصن متجافيا عنه ، بينه وبين القلب فضاء ليفيد الوقاية من غير مماسة وملاقاة فان الحصن صلب والقلب والرئة لينان متحركان حركة انقباض وانبساط فحفظهما الحصن من الآفات والحر والبرد والمصادمات وبقيت الحرارة الغريزية محفوظة وسيأتى قريبا .

هذا وضع القلب ، حفظ القلب أبعد عن المصادمات أحيط بهذا الصندوق العجيب المكون من عظام متينة .

لم هذه المحافظة ؟ ليقوم بعمله بعيدا عن المؤثرات ، وما هذا العمل ؟ هو أنه يغذى الجسم كله حتى يصل إلى الأسنان ، تلك الأسنان التى كلامنا فيها ، تلك الأسنان التى وصل إليها الدم من هذا القلب المحفوظ المكنون ، هنا قلب قد حفظ فى الصندوق ، وهنا مخ قد حفظ فى الجمجمة ، كلاهما أحيط بعظام ، وكلاهما أبعد عنها لئلا تؤذيه ، فالدماغ أحيط بغشاءين : أحدهما يليه وهو لطيف . وثانيهما حافظ له الجمجمة .

إذن المخ والقلب أعطيا عناية خاصة لحفظهما، لماذا ؟ لتبقى القوى العاقلة محفوظة في المخ فان رسوم المسموعات والمبصرات والمشمومات والمذوقات وجميع العواطف من فرح وحزن وغضب وجوع وعطش لها مواضع في المخ ، فإن الأعصاب المنتشرة في الجلد وفي الحواس الخمس ممتدة إلى المخ وموضوعة في مواضعها المنظمة العجيبة ، اقرأ هذا في آية « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فهناك تراها مشروحة مرسومة فلا نعيدها هنا .

فهناك ترى مراكز السمع والبصر والشم وراء موضع اللمس ، وهذا الأخير أمامها عند [شق رولندو] في نحو وسط الرأس ، وعلى الجانب الآخر من الشق مراكز أعصاب الحركة بحيث ترى عصب الحس لأي عضو من أعضاء الجسم من قدم وساق وفخذ وحقو وبطن وصدر ورقبة ووجه في مقابلة عصبة المحرك ، فهاهنا مراكز لحاسة اللمس قد غرست فيها تلك الأعصاب وأمامها مراكز نظائرها للتحريك على نظام متين وصراط مستقيم .

وفي الدماغ ثلاثة مراكز قد جعلت بهيئة مجالس نظامية تحكم بين هذه المحسوسات المختلفة ، فهي منظمات لأنواع الصور الحاصلة من الإحساس بالمحسوسات المختلفة ، والتفصيل واضح هناك .

من هذا المخ يمتد النخاع الشوكي ، ذلك النخاع الذي تقيه وتحفظه الفقرات الظهرية التي تعد كأنها نهر امتدت منه خلجان من جانبيه ، فهذا لسقي الأرض ، وهذا لإظهار الإحساس كما شرحناه سابقا ، وأصل ذلك كله المخ ، فمنه تنتشر الأعصاب وتصل إلى ظواهر البشرة ليتقي الحي الخطر إذا أصابه ، ومن ذلك هذه الأسنان التي كلامنا فيها فإليها تمتد أعصاب ، لماذا ؟ لأننا ذكرنا أن [المينا] التي غشي بها تاج السن إذا فسدت فإنه يحصل فيه ثقب ، وهذ الثقب إذا امتد إلى الخلاء الذي فيه الأعصاب حصل ألم لا يطاق ، ولماذا هذا الألم ، ليحافظ الإنسان على أسنانه ويداويها ، ومن هذا الفضل ؟ إن الفضل كل الفضل للمخ ، ذلك الذي أرسل رسولا من لدنه إلى السن فأعطاها الخبر ، وكيف يكون الخبر ؟ لا يكون بكلام ولا بكتابة ، وإنما يكون بآلام ، تلك الآلام التي هي الكلام الحقيقي فالألم في السن هنا كلمات من كلمات الله التي قال فيها « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

وهذه أعجب كلمات الله وهي كلمات ليست بحرف ولا صوت ، ولكن ليست كلامه القديم ، كلا بل هذه مخلوقات ، وكلامه غير مخلوق ، فالكلام هنا وضع إلهي به أنقذنا من هلاك أسناننا ومرض أجسامنا ، فهو في أجسامنا أشبه بالقبض والبسط وتأنيب الضمير ووخزه في نفوسنا ، إن الفجرة والظلمة والمجرمين من النوع الإنساني ، كل هؤلاء يحسون بآلام لا نطاق في نفوسهم روحية أشد فتكا من الآلام الجسمية التي نحس بها في أضراسنا إذا فسدت لإهمالنا في مبناها التي إذا فسدت تفسد ماوراءها من العاج الذي صور منه التاج فوصل الفساد إلى العصب الممتد إلى المخ فأحس الانسان به ، فلولا أن المخ محفوظ ولولا وصول العصب إلى السن ما أدركناه ولا اجتهدنا في مداواته ، هكذا لولا القلب وشرايينه وأوردته ماعاشت هذه الأجسام .

والشرايين والأوردة تقدم الكلام في مواضيع كثيرة من التفسير عليهما في الدورة الدموية ، فبعضها في سورة فاطر ، وبعضها في سورة أخرى .

الدورة الدموية

ولكن لابد من قول وجيز هنا في الدورة الدموية كما قلنا في أنواع الحس في المخ لتعرف أصل النعمة

التى بها غذيت الأسنان، وكيف كانت هذه الفكرة وأنا تحت الأشجار أتفيأ ظلالها فى جهة المطرية ، وقد كانت سببا فى انتقال الفكرة إلى العوالم الخارجية ، وأنها ذات ارتباط بمبدأ الوجود كارتباط السن بالقلب بواسطة الدورة الدموية .

إن من ينظر إلى هيئة الدورة الدموية فى الصور الشمسية يدهشه أن اللون الأحمر الممثل للدم الشريانى واللون الأسود الممثل للدم الوريدى قد اقتسما الدم كله ، فكان نصفه للأحمر ، ونصفه للأسود ، وبعبارة أخرى أنهما كالليل والنهار بالنسبة للكرة الأرضية ، الأرض نصفها مضيء ، ونصفها مظلم دائما ، هكذا الدم دائما نصفه دم وريدى ونصفه دم شريانى ، وكما أن الوريدى ينقلب شريانيا وبالعكس ، هكذا بالتدريج جهات الأرض يتناوبها الظلمات والأنوار تباعا .

يأتى الدم الوريدى من جميع الجسم ويجتمع فى وريدين أجوفين ، وهذان الوريدان الأجوفان يصبان فى الأذين الأيمن للقلب ، لأن القلب فيه أربع حجرات : حجرتان صغيرتان فوق حجرتين كبيرتين ، وكل حجرة عليا تسمى [أذينا] تصغير أذن ، وكل حجرة كبرى تسمى [بطينا] تصغير بطن ، فهذا الدم الوريدى الذى وصل إلى الوريدين الأجوفين قد صب منهما معا فى الأذين الأيمن للقلب ، وهذا الأذين الأيمن متى امتلأ بالدم يندفع منه الدم إلى البطين الأيمن الذى هو تحته ، وهذا البطين يندفع منه الدم فى الشريان الرئوى ويصبه فى الرئة ، وذلك أن له فرعين شريانين كل فرع منهما يصب فى الرئة المقابلة له وفيه الدم الذى ليس نقيا [ليصلح] فيهما ، ومتى أخذ الدم قسطه من الأكسوجين الداخل من الحنجرة وحمل الهواء الجوى المادة الفحمية وأعطى الدم بدلها الأكسوجين ، فإن الدم إذ ذاك يخرج فى أربعة أوردة رئوية صغيرة تعيد الدم الذى تم إصلاحه إلى الأذين الأيسر ، وهذه سميت أوردة وإن كانت تحمل دما شريانيا كما أن ماقبلها يسمى شريانيا وإن كان يحمل دما وريديا .

ومن الأذين الأيمن ينزل الدم إلى البطين الأيمن بواسطة فتحة بينهما ، وهذه الفتحة التى فى البطين الأيمن ونظيرتها فى البطين الأيسر يحرسهما صمامات مكونات من شرافات غشائية وترية متينة تسمح للدم بالمرور بسهولة من الأذين إلى البطين الذى تحته ، ومتى امتلأ البطين بالدم تطفو الشرافات على سطح الدم فتسد الفتحة التى بين الأذين والبطين ، وعند مايزداد الضغط على الشرافات من أسفل تسد الفتحة سدا محكما ، وبذلك لا يمكن الدم الرجوع إلى الأذين ولا يجد أمامه منفذا يخرج منه إلا عن طريق الشريان الخارج من البطين ، وبين البطين الأيمن والأذين الأيمن ثلاث شرافات ، ولكنهما بين الأذين والبطين الأيسرين اثنان فقط .

أقول : لعل السبب فى ذلك أن دم الأيمن وريدى فيه مادة فحمية ، ودم الأيسر شريانى فهو أخف ويخرج الدم من البطين الأيسر إلى الأورطة ويسمى [الأبهر] فهذا شريان يحمل الدم النقى من القلب ليوزعه فى الجسم أعلاه وأسفله متفرعا فيهما .

ومن أبدع الحكم أن هناك فى فوهة كل شريان من الشريانين الآخذين الدم من البطينين [وهما الشريان الرئوى والأورطة أو الأبهر] صماما غشائيا مركبا من ثلاث شرافات هلالية الشكل .

ماهذه الشرافات ؟ إنها لجيوب ؟ وتلك الجيوب يسهل مرور الدم منها إلى الشريان ، فإذاحاول الرجوع تكون تلك الجيوب قدامتلأت وتقاربت حوافها فتسد فوهة الشريان وتمنع بذلك رجوع الدم إلى البطين وتسمى هذه الصمامات بالصمامات الهلالية .

هاهنا جرى الدم فى الجسم أعلاه وأسفله ، هنالك تتفرع الشرايين إلى فروع أصغر وأصغر ، هذه هى

[الشعيرات الدموية] وقطر الشعيرات يماثل قطر الكرة الحمراء تقريبا ، وهذا هو المقصود من الدم ، فهناك يأخذ كل عضو حظه من الغذاء الذى يحمله الدم ويعطيه بدله ما لديه من المواد التى فسدت فيرجع الدم وهو وريدى لا يصلح للتغذية وتتلقاه أوعية شعرية وريدية دقيقة جدا ، ثم تعظم شيئا فشيئا حتى تجتمع كلها فى وريدين اثنين أجوفين يرجعان الدم الوريدى إلى الأذين الأيمن كما تقدم فكل وريد منهما يحمل الدم الآتى من ناحية الجسم ، هذا من أعلاه ، وهذا من أسفله ، فأحدهما يسمى الوريد الأجوف العلوى ، وثانيهما يسمى الوريد الأجوف السفلى .

ومن أعجب العجب أن الأوردة لا سيما تلك التى فى الأطراف تكون لها صمامات هلالية كالتى تقدم وصفها فى البطينين للتقدمين ، فهذه الصمامات تفعل مع الدم الوريدى السائر إلى القلب ما فعلته الصمامات المتقدمة ، فهى تمنع رجوع الدم الوريدى إلى الشعيرات الرئوية .

ولتعلم أيها الذكى أن دقات القلب نوعان اثنان : نوع خافت ، ونوع عال ، فالدقة الخافتة هى التى تحصل عند انقباض الأذينين ونزول الدم إلى البطينين ، والدقة العالية تكون عند انقباض البطينين وخروج الدم إلى الشريانين .

هذه هى الدورة الدموية موضحة مفصلة تفصيلا منضما إلى ما كتبناه فى مواضع أخرى من أصل التفسير ولماذا هذا التفصيل هنا ؟ لنفهم أمرا واحدا ، وهى الدورة الدموية فى الأسنان التى كلامنا فيها . فهذه الأسنان يدخلها دم شريانى ويخرج منها دم وريدى .

هذا هو المقصود من شرح الدورة الدموية كلها ، الله أكبر لله أكبر .

أطلنا الكلام فصلنا اللثام ، لماذا فصلناه مع أنه تكرار وتكرار ، كلا ليس تكرارا ، كلا ليس تكرارا إن أصاغر الأمور لا تعرف إلا بقياسها على أعاظمها ، أليست السموات والأرض والظلمات والأنوار أسهل من درس جسم الإنسان المذكور بعدها كسهولة دراسة الدورة الدموية ، وأنها أسهل من دراسة نفس الدورة فى الأسنان ، هذه من حكم ذكر خلق الإنسان بعد خلق السموات والأرض . أتعرف أخلاق الإنسان إلا بعد دراسة أخلاق الأمة كما فعله [سقراط] وبنى عليه جمهوريته كلها ، أيعرف جسم الإنسان بهيئة أتم إلا بعد دراسة العوالم كلها .

الله أكبر ، هكذا هنا لا نقدر أن نفهم الأوردة والشرايين فى الأسنان ونظامها إلا بعد دراسة الدورة الدموية كلها فى الإنسان ، دورة دموية صغيرة ، أتعقل هذه إلا بعد معرفة الدورة الكبيرة ؟

دهشتى من هذا النظام والإبداع

(١) انتقال خيالى تحت أشجار المطرية وأنا أنظر فى نظام السن إلى نظام العالم كله .

(٢) انتقال خيالى من غناء العصفور تحت الشجرة إلى تجرد الروح بعد الموت وهى فى الظلمات والنور .

(٣) التعجب من وضع القلب فى الصدر .

(٤) ازدياد الدهشة من الصمامات الهلالية التى فى الشريانين عند خروجهما من البطينين والتى فى الأوردة .

رباه ، جمال بارع نراه فى هذه الحياة ، إبداع وسعادة وجمال وكمال ، رباه ، إن فى عبادك فى أرضنا هذه وأمثالها من العوالم المتأخرة من اصطفيتهم للاطلاع على آثارك والابتهاج بأنوارك ، أما أكثر نوع الإنسان فى أمثال أرضنا فإنهم غافلون جد غافلين يسخرون من أولئك المفكرين ، وهؤلاء المفكرون ينظرون إليهم نظر رحمة وإشفاق كما ينظرون إلى أطفالهم .

رباه هذه الصمامات الهلالية التى نراها فى الشرايين وفى الأوردة يقرؤها علماء التشريح ، ويدرسها الأطباء وغير الأطباء ، ولكن أكثرهم عن السعادة بهذا النظام محجوبون ، فأكثرهم كالفلاحين يعملون فى الزرع ، يسقونه وهم لايدرون شيئا من أسراره ، مع أنهم يشاهدون نموه وأوراقه ، ويقدرون على وصفها ، ولكنهم محجوبون عن الاستلذاذ بجمال تركيبها بل علماء الزراعة أكثرهم مع علمهم بتشريح النبات لاتبتهج نفوسهم بجمال تركيبه ، ذلك لأن أكثر نوع الإنسان أقرب إلى نفس الأنفس التى هى نور فائض من المقام الأقدس ، فهى لاتزال فى دور الطفولة ، والأطفال لا يعقلون لذة النساء والبنين ، والممالك ، إنما يعقلون ما تطلبه نفوسهم من لذة الأطعمة واللعب .

هكذا أكثر نوع المتعلمين يشاهدون تركيب المركبات من نبات وحيوان ، ونفوسهم لاتبتهج بذلك ابتهاج الخاصة من عبادك المفكرين ، فهذه الطائفة المصطفاة إذا رأت الدورة الدموية ترى أن فى الصمامات الهلالية أمرا عجبا . وهكذا فى الصمامات التى بين كل أذين وبطين فى القلب ، فهم يشهدون ذلك حالا فتنتقل نفوسهم إلى الابتهاج والاستلذاذ الروحى ، وتقول ماهذا الابداع ؟ جيوب يسهل مرور الدم فيها . وهذه الجيوب حين مرور الدم وانتقاله من البطين إلى الشريان ، أو من الأوردة إلى الشرايين تملأ دما ، وهذا الامتلاء يمنع رجوع الدم ثانيا فلا يرجع الدم من الشريان إلى البطين ، ولا من الوريد إلى الشريان ولا من البطين إلى الأذين الذى هو أعلى منه :

إن هذا العمل يشبه ما نشاهد نحن فى النواعير والسواقى التى فى أرضنا ، فإن هناك خشبة موضوعة وضعا محكما ، فهى تبيح للساقية أن تجرى ، وتمر ضروس العلبة الصغيرة ، ولكن إذا وقفت الدابة وأرادت الساقية أن ترتد إلى الخلف بحسب طبعها منعتها تلك الخشبة . ولكن هذه الخشبة التى يصنعها النجار غليظة فأما هذه التى جعلت موانع للدم عن الرجوع فهى لطيفة جدا مرنة .

إن هذه الصمامات الهلالية التي فى الأوردة حتما تكون فى الأسنان التى كلامنا فيها فهناك دم شريانى ، وهناك دم وريدى ، وهناك صمامات تمنع الدم الوريدى أن يرجع الى الدم الشريانى ، وهذه الصمامات فى الأسنان تعطينا أولا : الإبداع فى النظام من حيث استخدام القوى الطبيعية فى المنافع الإنسانية والحيوانية ، جل الله ، جل الله ، وما أبدع العلم فى طبائع الجيوب الهلالية أن يسهل جرى الدم منها وإلا يرجع إليها بعد خروجه .

فهذه الخاصية اختيرت هنا لتحصل منافعها . إن تنوع المادة لاحد له . وأشكالها لايمكن حصرها فاختيار هذا النوع من الأشكال ، وهى هذه الجيوب أمر مدهش ، وكيف لايكون مدهشا وهو الشكل الوحيد الذى به تعيش أبداننا وتحفظ من الهلاك ، ومثل هذا يقال فى هيئة المخ ووضعه فى الجمجمة إذ اختير ذلك الوضع الخاص الذى يجعله محفوظا من المؤذيات بما حوله من عظام الجمجمة التى وجب أن تكون قوية متينة لأجل ذلك ، ولكنها هى أنفسها يخاف على الدماغ منها فأبعد المخ عنها ، وجعل بينهما الأم الجافية والأم الرقيقة فيتعذر الضرر عنه .

ومثل ما قلنا فى وضع المخ نقول فى وضع القلب المتقدم ، فهو فى صندوق متين يعطيه الدفء ولا يعرضه للأذى ، ولكنه هو والرئة موضوعان فى مكان يبتعد عن الصندوق فلا يمسه ضرر .

فهذا معنى كون صانع الكون حكيما ، فنقول : الله حكيم ، وهذه الحكمة من نتائجها بقاء حياتنا ، فهو بهذا رحيم بنا ، فالحكمة صاحبتها الرحمة والرأفة ، وهذا معنى بسم الله الرحمن الرحيم إن الرحمة من غير العالم قد تضر ، ولكنها من العليم نافعة ، لأن العليم لا يفعل إلا للمصلحة وأكثر رحمات الناس لاسيما الأمهات

قد تورث الضرر ، وهذا معنى آية « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فالرحمة المصحوبة بالعلم رحمة تامة ، وما لاعلم معها رحمة ناقصة ، فالرحمة فى الدورة الدموية ببقاء حياتنا لولا الحكمة والعلم لم تتم ، فبالعلم اصطفى الشكل الهلالى وتلك الجيوب التى تقبل الدم ومتى مرّ فيها لا ترجعه ثانيا ، ولو رجع لا متنعت الحياة ولم تكن هناك رحمة ولا رأفة .

إذن بأمثال هذا نفهم معنى الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، فإنه لولا إخضاع المادة وطاعتها وقهرها وجبرها لم تتم هذه النعمة [المتكبر] فهو متكبر يفعل أفعالا فى أجسامنا وفيما حولنا ولا يخبرنا بأسراره ، وتحصل لنا الآلام من الأمراض ولا نعلم لم ذلك ؟ فهو متكبر يتعالى أن يفهمنا السر لأننا لسنا أهلا له ولكنه يفعل بالحكمة لاغير ، ونتيجة الحكمة و السعادة العامة [الخالق البارئ المصور] القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع إلى آخر الأسماء ، فهذه كلها تنطبق على أمثال هذه الدورة الدموية ، فكل اسم من الأسماء ناحية من نواحى المعنى ، مثلا هو بهذه الصمامات الهلالية حكيم من جهة اختيارها ، رحيم من جهة انتفاع العباد بها [حكم عدل] من حيث وضع الأشياء فى مواضعها [لطيف] من حيث إنه تلطف فى صنعه ، وجعل الهيئة موافقة للنتائج النافعة كما يتلطف الإنسان فى زمن التعليم والتربية الخ [خبير] لأن هذه دقائق الأشياء [حفيظ] فهذا العمل به حفظ المخلوق [مقيت] وهذا ظاهر [محص] فهو الذى أحصى كل شيء عددا ومن ذلك أنه يعلم الأشكال ، واصطفى منها الشكل الذى لاينفع سواه هنا فى الدورة الدموية الى آخره .

بهجة العلم فى نفس الأسنان

ظواهر الأسنان أنها لاشيء فى داخلها من الدم الوريدى والدم الشريانى والصمامات الهلالية التى تنطبق عليها أسماء الله المتقدمة وغيرها ولا من الأعصاب الواردة من المخ للاحساس بما يؤذى الأسنان مثل ماذكرنا من أن المينا إذا فسدت يحصل فساد فى التاج ، ومتى وصل إلى الأعصاب أخذت تخبر المخ ، وهذا الإخبار لاسبيل إليه إلا بحصول الآلام التى جعلها الله لنا واسطة بها نعرف أمراضنا فنداويها ، ولولا هذه النعمة وهى الآلام لم نستيقظ لفساد أسناننا ، فنفسد ونحن لا نشعر بشيء .

ربى يكاد قلبى يطير من بين جنبى ، رب احفظ على قلبى ، ربى إنك رحيم رحيم ، ربى قلبى يكاد يفارقنى من الدهشة والبهجة والتعجب ، أنت من أسمائك [الضار] ومن أسمائك [النافع] يارب حار فكرى فى العلم وفى الأسماء ، أهذه الآلام فى أضراسنا ضرّ ؟ أنسميك ضارا لأنك تؤلم أسناننا ؟ كلا والله لست ضارا ، كلا والله لست ضارا ، كلا بل أنت نافع : أى أنك نافع لنا بهذا الضر ، أأنت يارب خافض لنا بهذه الآلام ، أهذا انخفاض يارب ، كيف وأنت لم تجعل هذه الآلام إلا لرفعتنا . فأنت إذن بالخفض والرفع ترفعنا ، ياعجبى ؟ ياحيرتى ، آلام الأضراس جعلت لمنفعتنا ، ولو لم تكن تلك الآلام لكانت حياتنا ضائعة .

وما هى الآلام ؟ إن هى إلا وصول خبر حال النقص الذى يكون فى أجسامنا إلى مركز إحساسنا فنحس بذلك النقص ، ولولا الأعصاب الممتدة فى السن لم يعرف المخ شيئا ، وبعبارة أخرى متى تعطلت الأعصاب ولم تبلغ أخبار ما يحصل فى أجسامنا كان ذلك حالا تشبه الموت : وهو الشلل ، فالناس إذا لم يحسوا بألم ، فإن حياتهم تكون أقرب إلى الموت ، فإذا جاء امرؤ وكسر أسناننا وقطع أرجلنا ، فإننا إذ ذاك لا نألم ، وهل هذه حياة ؟ .

ربنا هذه بعض حكمك فى صنع الأسنان فى كلّ حيوان .

انتقال خاطرى من الأسنان وأجسامنا إلى هذه العوالم كلها وصانعها

رباه تبارك اسمك وتعالى جدك ، أنى وأنا تحت أشجار المطرية بضواحى القاهرة لما نظرت صورة الأسنان وعجائبها بهيئة إجمالية انطلق الفكر حالا إلى العوالم كلها ، وأخذت أقول : إذا كان مخى وقلبى قد عمما جسمى بالإحساس وبالأغذية ، وبعبارة أخرى بالحياة العقلية بالأول ، والحياة الجسمية بالثانى لم يأنفا أن يرسلا من لدنهما رسلا للأسنان التي لايظن أن فيها خبرا عن القلب ولا عن المخ ، فكل ذرة فى الأرض وفى السماء لابقاء لها إلا بوصول آثار حكمة عليا ، وإبداع إلهى ، وبعبارة أخرى إن وصول علم مخنا إلى الأسنان يذكرنا بوصول الحكمة الإلهية ، والإتقان فى الصنع إلى كل صغير وكبير فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى كل كوكب سيار وثابت ، بحيث لا يكون بقاء لذرة ما ، مالم يكن لها نصيب من علم وحكمة .

أليس هذا هو قوله تعالى فى تفسير هذه الآيات « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

بيان أن ماقلناه هنا مبنى على نظام الآيات فى أول الأنعام

الله يقول : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ولهذا شرحت فيما تقدم سيرى فى دراسة السموات ، واطلاعى على علوم القدماء والمحدثين فى علم الفلك ، ثم الانتقال إلى ماوراء ذلك من عوالم الظلمات ، وكيف كان كل ذلك لأجل أن أعرف جواب سؤال الفلاح فى قريتنا ، وكيف انتهى الأمر بقول [اينشتين] إن الفضاء لابد من دراسته وإنه يجب الاهتمام به ، وإنه : أى الفضاء جسم صلب : أى لا كالأجسام الصلبة ، بل ذلك أمر مجازى .

ثم انتقلت إلى نظام الأجسام تبعا للآية لأن الله يقول بعد آية « هو الذى خلقكم من طين » بسطت الكلام على المخ فوق ما كتبته فيه [فى أصل التفسير] وعلى الفقرات وعلى الأسنان وعلى القلب وعلى دورته الدموية وهذه الدورة جعلت مقدمة لفهم نفس الأسنان وتغذيتها وإحساسها .

ثم انتقلنا من ذلك إلى أن جميع العوالم وذراتها يعلم الله مستقرها ومستودعها ، وقد ضرب لنا مثلا بما نعرف من أنفسنا ؛ وهى أضراسنا مثلا ، وبيان أن الضر لم يقصد بل هو مقدمة للنفع ، وإن لم يعرف الناس ، فمعنى كور الله ضارا ليس لقصد الضر ، بل لقصد النفع بحسب النتيجة ، فالضر ليس ضرا ، بل هو نفع . وهو أمر لابد منه ، وبسواه لامنفعة ؛ وعلى ذلك يقاس موتنا وكل مايه نؤذى .

بيان أن ذلك ليس خارجا عن تفسير الآية بل هو متمم له

فقال صاحبى : هل للمسلمون مكلفون بأن يعرفوا ماوراء العالم ؟ وهل هذا من دين الإسلام ؟ إن هذا مغالاة فى الدين ، وهل نحن واجب علينا أن نقرأ كلام [اينشتين] حتى نعرف إن حقا وإن باطلا : إن الفضاء جسم صلب ، وهذه أشياء خارجة عن العقول .

قلت أيها الأخ : أولا إن الله يقول فى المسلمين : لتكونوا شهداء على الناس ، ويقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ثانيا أن أول السورة « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » .

فياعجبا : أى أمة هذه التى يصفها رب العزة بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وهى أجهل الأمم بما عند الناس ، فهل هؤلاء الجهلاء من أمم الاسلام ، هم الذين يقول الله فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ما هذه الخيرية ، أى خير فى الجهل ، أفهؤلاء الذين هم خير أمة أخرجت للناس هم الذين يحمدون الله على نعم السموات والأرض ، وعلى خلق أنفسهم وهم يجهلون خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم ؟ لا حمد إلا على نعمة ؛ والنعمة التى لا يعلمها المنعم عليه لا يفرح بالمنعم ولا يحبه لأجل تلك النعمة ، والفرح بالمنعم وحبه لابد منهما لانطلاق اللسان بالحمد والجوارح للطاعة .

والحمد الذى لم يتقدمه علم بالمحمود عليه الذى يترتب عليه حب المنعم يكون حمدا لفظيا لاغير ، والحمد اللفظى لا قيمة له ، نعم للعبادة شأنها فى كل دين ، ولكن نحن الآن فى مقام العلم ، ومتى انتفى العلم بدقائق النعمة لم يكن حب للحامد ، فلم يكن حمد ، كيف ونحن كما فى الآثار نسمى الحامدين ، ويقول الله فينا « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

إن هذه الأمة التى وصفها الله بأن آخر دعواهم الحمد لله رب العالمين هى الأمة الاسلامية الآتية بعدنا ، التى ستكون عقولهم كعقول العصور الأولى . وهى خير العصور ، أيام النبوة وبعدها ، وهم الذين يحمدون الله على تربيته للعالمين ، ومثل هذا الذى نذكره هو باب فتح لهم ، هذا هو الحمد ، وهذا وقته وقد آن أوانه ، وهذه أعلى مرتبة ، وهى مرتبة انكشاف الحقائق ، وعشق الجمال الباهر ، ثم حب الله وخدمة عباده حبا فيه وفيهم ؟

فأمة شأنها أن تكون شهيدة على الناس ، عليها أن تزن جميع أقوال علماء الأمم ، وتحكم فيها بعد درسها ، وهى التى تقوم الأخلاق وتقوم العقول ، وإذا كانت تحمد الله على الظلمات وعلى النور وهى لم تدرس ظلمات ولا نورا ، فأين الحمد إذن ؟ أعلى أمور لفظية ؟ نحن الآن فى مقام الكلام على العلماء ، أما العامة فندعهم لأنهم تكفيهم العبادة ، فهى لهم كافية . فقال : هذا حسن ، ولكن إلى الآن لم أسمع منك مقالا شافيا فى أمرين :

[الأول] لم كانت آية ـ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ـ مرتبة بعد الآيتين السابقتين ، أنت أشرت لهذا ، ولكن لم أفهم ذلك السر فهما جيدا ؟

[الأمر الثانى] أنك قلت إنك [وأنت فى الحديقة المصرية عند نهر النيل بجوار القاهرة] سمعت العصفور المغنى ، فتخيلت أن روحك خرجت من جسمك ، وأن العالم كله ظلمات ، وأنواره كرة واحدة ذات جمال وبهجة ، وقد شملته كله ، أهذا القول تذكره فى تفسير القرآن ، وهل هذا الخيال يصح أن يكتب فى التفسير ، وهو خيال فيما أظن ليس من العلم فى شىء .

إيضاح الكلام على وضع آية : وهو الله فى السموات وفى الأرض الخ

وعلى خيالى فى بهجة العالم عند سماع العصفور المغنى

فقلت أيها الأخ : يسرنى والله أن تذكرنى ببعض ما أقوله ، فان مثل هذه الكلمات قد يمر بها الانسان وقت الكتابة وهو لا يجيأ بها ، ولكن العقلاء فى الكرة الأرضية يرون مثل هذا نقصا فى العلم ، فأما آية « وهو الله فى السموات وفى الأرض » وجعلها تابعة لما قبلها فأمرها واضح كما تقدم ، وبيانه أننا قدمنا أن فهم الدورة الدموية مقدمة لفهم دورتها فى الأسنان ، وأن فهم السموات والأرض مقدمة

لفهم جسم الإنسان ، فلذلك ذكر الثانى بعد الأول ، لأننا نقدر أن نفهم وصول الضوء من الشمس بسهولة إلى الأرض ، ولكننا قط لانفهم وصول الأعصاب من المخ إلى الأضراس إلا بعد دراسة طويلة ، ثم إن وصول الغذاء من القلب والإحساس فى المخ إلى الأسنان أشبه بضرب مثل لنا فنقول : إذا كان مخنا وقلبنا يظهر آثارهما فى الأسنان ، فما أسهل أن نفهم كيف يعلم الله ما فى السموات وما فى الأرض وهذا من معنى آية « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » بعد آية « وفى الأرض آيات للموقنين » وأما قصة العصفور المغنى ودهشتى حين سماعها ، فاسمع أيها الأخ .

غناء العصفور وآثاره فى خيالى

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الحكيم أنت العليم ، رباه أنت خلقت فى الأرض أناسا لايعرفون إلا الجمال شغلتهم الحكمة ففرحوا بها ، وتاهوا فى بيدائها هم المصطفون الأخيار ، يقرءون ويدرسون ، وماذا يدرسون؟ يدرسون الجمال ويصحب الجمال الحب ، ولا جمال إلا حيث تكون الحكمة ، لولا الحكمة والإبداع فى خلق الوجوه ماعشقها العشاق ، هكذا لولا الجمال الأعلى فى هذا العالم ما ظهر فى هذه الأرض أنبياء ولا حكماء ، اعترفت بهذا الجمال على مقدار طاقتى ، رأيته فى وضع الصدور ونظام المخ وإبداع الصمامات الهلالية فى الدورة الدموية ، جمال وجمال ، بهجة وأنس ، وعلم وحكمة .

إن دقات القلب عند الحكيم قد تكون أشبه بنغمات الموسيقار ، لأنه يسمع منها الحكمة والإبداع فى الصمامات وغير الصمامات ، فيسعد ، والناس حوله لايعلمون .

رباه بك يأنس العلماء ، بجمال صنعك يفرح الحكماء فإذا سمعوا أمثال العصفور المغنى تختلس أرواحهم من أجسامهم غفلتها ، وترجع إلى عالمها الذى جاءت منه ، وما هى أرواحهم ؟ هى من أمرك : أى إنها من عوالم الأمر فتنسى الدنيا وما فيها وترجع إلى عالمها ، فماذا ترى ؟ ترى ظلمات وأنوارا وسموات وأرضين ، وتراها كلها كهيئة جسم واحد من حيث النظام « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وتكون سعادتها على مقدار اتساع علمها ، وإذا كانت سعادة الحكماء اليوم بجمال الإبداع فى الدورة الدموية ونظام القلب ووضع المخ ، فكم تكون السعادة والبهجة حين تكون كل ذرة فى السموات والأرض عند النفس كهيئة نظام القلب والمخ ونظام الصمامات الهلالية فى الدورة الدموية ، إذن تكون سعادة الروح فى ذلك العالم بعد خروجها من الجسم فوق سعادتها الآن بآلاف اللايين ، بل بما لايتناهى ، وهذه السعادة سعادة روحية وهى أوسع من السعادة الجسمية بالجنة الحسية ، ولعل هذه السعادة متوسطة بين سعادة الجنة الحسية ، وسعادة النظر إلى وجه الله الكريم التى قيل فيها « ولدينا مزيد » .

فهؤلاء إذا طربوا بأى مطرب مهما كان ضئيلا قد تنسل أرواحهم مؤقتا من أجسامهم بحسب الخيال ، وتطير إلى عوالم السموات والأرضين ، وتقول : إن السعادة هناك فوق سعادة الحكمة الآن بما لاحد له ، وليس هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » بل كلام النبوة محمول على شىء أرقى مما تخيلناه .

ومما تتخيله أن العلماء فى عصرنا يقولون كما شرحنا فى آية « الله نور السموات والأرض » الخ أن هذه العوالم كلها ماهى إلا حركات فى الأثير ، وهذه الحركات أنتجت أنوارا كهربائية سالبة وأخرى كهربائية موجبة ، والسالبة تدور حول الموجبة فى الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون مرة ، وبتنوع

تلك الحركات تكون الأجسام ، فلا أجسام فى العالم ، وإنما هى أنوار تكاثفت فرأيناها أجساما واختلافها باختلاف أنوارها كما وكيفا .

فهذه النفوس حينما يخطر لها ذلك عند سماع نغمات كنغمات العصفور للغنى ، أو أقل منها ، أو أحسن منها ترجع إلى هذه العوالم فتقول : إذن روحى سترى هذه الأنوار ، وتسمع نغمات حركاتها ، ونغماتها وحركاتها مختلفات كما وكيفا ، وهكذا ألوان الأنوار لا حصر لها ولالتنوعها. فماذا تكون حال أرواح المحبين للجمال فى هذه الأرض إذا تركوها ، ورأوا بأعين أخرى غير هذه الأعين أنوارا ونغمات لحركات المادة لاحصر لها ، وفيها نظام أدق من نظام القلب والدماغ والدورة الدموية وصمامانها ، هذا النظام الذى يطب حكماء أهل هذه الأرض ، وبهذا الجمال يرتقون عن الجمال الذى لايتعداه الشبان والشابات من نوع الإنسان وهو جمال الوجوه والعيون :

فهذه الأرواح الحكيمة إذا فارقت الأرض وأدركت تلك الحكم فى نفس الأنوار العالمية وبدائع تنوعها ونغماتها .

لاجرم ترى نظاما أبدع من نظام الأجسام التى نراها بأعيننا الآن، لأن النظام الذى نراه هنا يستحيل أن يتم إلا إذا كانت الأنوار التى منها ركبت هذه الأجسام منتظمة تنظيما أتم من نظام هذه الأجسام ، ويتذكرون إذ ذاك نظام العناصر التى ركبت منها العوالم هذه [فى سورة العنكبوت] مشروحة فى جدول ابتدعه متدليف العالم الروسى ، فان العناصر هناك فيها نظام حسابى مدهش ، ومعلوم أن العناصر ما هى إلا كيفية من كيفيات الأنوار التى كانت السبب فى ظهورها .

فلا جرم تكون السعادة إذ ذاك لاحد لها ، وليس هذا خارجا عن التفسير أيها الأخ ، ألم يقل الله وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا النظر فى نفوسنا وفى خيالها ، فإن كان الخيال له حظ من العلم قبلناه ، وإن لم يكن له حظ من العلم فإننا نكون من المجاهدين إذا برهنا على بطلانه ونبذناه ، وإذا كانت نفسى ترى العالم مشبها بالشجرة ، والجمال فى العوالم يذكر به غناء العصفور ، فليس فى ذلك ضرر إلا إذا لم يكن للعلم حظ فيه ، والعلم أثبت بقدر الإمكان فى زمننا جمال العوالم وبهجتها ، فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

إن هذا الموضوع هو المناسب لآية « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » إلى قوله « ويعلم ماتكسبون » فقلت : الحمد لله رب العالمين . اه ليلة السبت ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٣ م ، ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ هـ الساعة ١١ ليلا .

بهجة العلم فى قوله تعالى أيضا : وجعل الظلمات والنور

سأل صاحبى أيضا ، فقال : بقى فى النفس شىء من الكلام على الظلمات والنور ، فأريد أن أقف على حقيقته ، وذلك أنك نقلت عن [اينشتين] أنه يقول : إن الفضاء أصل والمادة فرع ، فهذا قول غامض لست أفهمه ، وغاية الأمر أنى أتذكر أنك قلت فى أصل التفسير فى سورة الصافات عند قوله تعالى « إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض الخ » ماملخصه أن معنى قول [اينشتين] إن المادة جسم صلب إن العلماء يقولون : إنه يريد بذلك أنها لوكانت مادة لكانت صلبة جدا فوق كل مادة فى الوجود ، وأنت أوضحت ذلك بأنهم مضطرون لذلك بما نشاهد نحن من أن الكواكب والمجرات والشموس والسدم

والأرضين والأقمار متجاذبات متواصلات متسقات ، وهذا التجاذب يستحيل أن يكون مالم يكن الوسط الذى تتجاذب فيه تلك الأجرام العظيمة قادرا أن يتحمل ذلك الجذب .

وكيف تجذب الشمس الأرض إلا إذا كان ذلك الجذب قائما بموجود بينهما ، فالموجود الذى بينهما كأنه حبال ، وهذه الحبال متانتها يجب أن تكون من القوة بحيث تحتمل كل جذب يمر بها ، فهى مجذوبة للشمس جاذبة للقمر ولما حولها ، والشمس مجذوبة لعوالم أخرى وهكذا ، بل المجرة كلها متجاذبة ، فلولا أن هذا الجو قوى متين ماتحمل تلك القوى المبينة فيه ، هذا ملخص ماحللت به أنت كلام العلماء فى عصرنا الحاضر ، ولكن أنا الآن أريد منك أن تبين لى معنى قول [اينشتين] إن الفضاء أصل والمادة فرع عنها ، كيف يكون ذلك ؟ وبعبارة أخرى : كيف يتصور ذلك العلماء فى زمننا ؟ إن عقولنا لاتقبل القضايا مالم تتصور هيئة حصولها ، أما البراهين فأمر آخر ، فأرجو تبيان إمكان تصور هذه القضية الآن .

فقلت : نعم معنى قولهم : إن الفضاء أصل والمادة فرع مايأتى : ذلك أن النجوم فى هذا الفضاء والمجرات وشموسها بالنسبة له قليلة جدا .

ومن المدهش إجماع العلماء على أمر واحد ، وهو أن نفس مادة أجسامنا ومادة السموات والأرضين والأقمار ليس فيها من المادة إلا جزء واحد من مائة مليون مليون جزء من ذلك الحجم المشاهد له ، فالبرتقالة التى نأكلها ليس فيها من المادة إلا جزء واحد من مائة مليون مليون جزء من ذلك الحجم المشاهد . والباقى كله فضاء ، فأجسامنا ليست شيئا سوى الفضاء النبث فيه ذرات من المادة نسبتها إلى حجمه المشاهد كنسبة واحد إلى مائة مليون مليون كما أثبته [هنشو] فى مجلة [هاربر] الأمريكية ، اقرأ هذا المقام فى سورة النور آية « الله نور السموات والأرض » تحت عنوان قطرة ماء الخ .

ويقول علماء الفلك ن مقادير أحجام الشموس بالنسبة للفضاء مثل هذا تقريبا ، فالمجرات والشموس قليلة جدا بالنسبة لهذا الفضاء ، ويقول علماء الطبيعة : إن الفضاء بين ذرة وذرة فى أجسامنا لو أن هناك سكانا على نسبة الذرات لم يتمكنوا من رؤية الذرات التى فوقهم إلا بالمجهر .

إذن الكون كله فضاء والمادة التى نحللها ونعتبرها كبيرة جدا ماهى إلا جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذى تشغله ، إذن قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » يعوزه شرح وتفصيل ، ليعرف الناس حقائق هذه الظلمات وهذه الأنوار بقدر طاقتهم ، فهاهم أولاء إخوان الصفاء يثبتون بالبرهان المتقدم لهم أن الفضاء كله لايخلو من ضوء وظلمة ، واستنتجوا من ذلك أنه جوهر عظيم ، وهذا الجوهر لانهاية له ، وهذا [إينشتين] يقول : إنه جسم صلب وهو أصل ، والمادة فرع ، هذا ما فهمته من كلام الأوائل والأواخر فى هذ المقام أيها الأخ .

وفى آيتنا التى نحن بصددها ذكر أولا الظلمات وثانيا النور ، وذكر السموات والأرض ، وذكر خلقنا من الطين ، ولقد خطر لى مايأتى :

[أولا] أن أجسامنا ودقة نظامها نموذج لنظام العالم كله ودقته ، فتركيب أضلاعنا وقلوبنا والدورة الدموية للنظمة فينا ، هذه كلهامكبر نظامها فى الشموس والمجرات وهكذا ، وهذه الشموس والأرضون الخ نظامها نموذج لنظام الفضاء ، لأنه إذا قلنا إن جميع أجسامنا ليست شيئا سوى جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذى هى فيه ، فحينئذ نقول : المادة أشبه بالعدم ، والنظام الذى نراه فى المادة كلها فى الحقيقة إنما هو للفضاء لأن المادة أشبه بالعدم ، بل هى أقل من نسبة عدد الحفراء للقرية بالنسبة للقرية إن البلدة الواحدة التى فيها (٤٠٠) نفس لايقل حفراؤها عن ثلاثة أو أربعة ولكن هذا الفضاء الذى فيه

مانسميه مادة ليس فيه من المادة هذا المقدار ، بل أقل وأقل آلاف المرات كما هو الظاهر فيما قدمناه .

إذن هذا النظام الذى نراه نظام للفضاء الذى سميناه مادة ، إذن الظلمات والنور : أى الفضاء الذى يعبر عنه بهما فى داخل العالم وخارجه نظامه مدهش كنظام السموات والأرضين ، ونظام السموات والأرضين مدهش كنظام أجسامنا الذى هو نموذج له وهذا كله معلوم لله ظاهرا وباطنا معبر عنه بالآية الأخيرة « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

فذكر السموات والأرض وذكر سرنا وجهرنا نموذج للفضاء الذى هو أوسع من مادة أجسامنا ومادة السموات والأرض وما بينهما وما وراءها .

إذن هذا الفضاء هو كل شئ ، والمادة فيها أشبه بالمعدوم ونحن الآن كأننا فى بحر لجى جميل بديع هو الفضاء ، إذن الفضاء هو عالمنا الجميل ، وهذا العالم هو الذى يعبر عنه المسلم فى صلاته ، فيقول: ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما . وملء ماشئت من شئ بعد ، فملء السموات وملء الأرض وهو الفضاء ، وملء ما يشاء من شئ بعدها هو الفضاء فهذا الملء هو كل شئ ، وهو الذى يحوى كل جمال وكمال .

فالجمال والكمال إذن لا حد لهما ، هو جمال متصل لا أول له ولا آخر ، ونظامه فوق ما نشاهد من نظام أجسامنا وكواكبنا .

إذن لا شئ فى الوجود سوى جمال وبهاء وحسن ، لا يحس به إلا أرواح هو مسكنها ، وغاية الأمر أن هناك أرواحا لا تعقل هذا الجمال فتوضع فى أجسام حيوانية وإنسانية لتحس بالوجود ، فإذا رجعت كرة أخرى أخذت تفهم من ذلك الفضاء وجماله على مقدار طاقتها ، وهذا هو عالم البرزخ بعد خروج الأرواح ، فلعل حياة النفوس الشريفة إذ ذاك أنها تشاهد جمالا ونظاما عليا فى نفس هذا الفضاء فوق نظام الأجسام والكواكب وتصبح فى سعادة لا تشعر بها الآن ، فإن سماع أصوات الأنوار الجارية للسرعة التى تدور فى الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون مرة فى الأجسام ، وأربعمائة مليون مليون مرة فى الضوء إلى سبعمائة مليون مليون مره فيه ، ومشاهدة العين لذلك كله مع التنوع للدهش الذى لا حده ، وشعور النفس بتلك الصور وتلك النغمات التى لا يمكن أن تدركها إلا عيون وأسماع أخرى تخلق للأرواح هناك ، ذلك كله يحدث للنفوس سكرة وبهجة تفوق وصف الواصفين ، وهذا فى البرزخ ، أما الجنة فهى أمر وراء هذا كله لأنها وراء هذه العوالم كلها ، فلعلها فى عالم إلهى وراء هذه العوالم ، وهاهنا يقف العقل عن تصورها ، لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولا جرم أن ماذكرناه الآن خطر على قلبى أنا وتصورته وتخيلته وهو مبنى على آراء [اينشتين] وأمثاله فقد خطر على قلبى ، والجنة فوق ذلك ، إذن هذا يناسب عالم البرزخ لا عالم الجنة ، ولكن ليس معنى قولى : إن هذا يوافق كلام [اينشتين] أنه قال قولا من ذلك ، كلا ، وإنما أنا ذكرت تعليل قوله أن الفضاء أصل والمادة فرع بذلك : أى قلت أن علماء عصرنا يجعلون المادة جزءا ضئيلا من الفضاء ، فهو بهذا استنتج أنها تبع للفضاء وهو أصلها ، وما أقوله أنا يعرفه هو أكثر منى ، فأما مسألة الأنوار وسرعتها وأنها أصل المادة ، فهى أمور معلومة عندهم ، إذن كل هذا علم عام للناس ، وغاية الأمر أنى أنا لم أزد إلا نغماتها وصورها التى تراها الأرواح ، وكذلك نظامها الذى تعلمه الأمم رأيته منطبقا على نظام الآية ، والحمد لله رب العالمين .

هنالك قال صديقى . هذا حسن جدا ، ولكن أريد أن أعرف أمرا آخر ، لماذا اختصت سورة الأنعام بذكر الظلمات والنور ؟ فقلت :

دين المجوس مبنى على الظلمة والنور ، ودين الصابئة مبنى على الكواكب وأنوارها

إن ذكر الظلمات والنور فى أول الأنعام براعة استهلال لما سيأتى من ذكر قصة ابراهيم
ومن ذكر آية «وهو الذى جعل لكم النجوم» الخ

اعلم أيها الأخ أن الظلمات والنور ذكرت فى أول سورة الأنعام براعة استهلال لذكر ماسيأتى فى السورة من قصة ابراهيم الخليل عليه السلام .

وبيانه أن أكثر ديانات الأمم القديمة ترجع فى أصلها الى الأنوار الكوكبية ، فمن شأن النفوس البشرية أن تحب النور وأن ترى فيه سرا مكنونا ، فهامت نفوس الأمم بجمال النور ، فترى المصريين القدماء مغرمين بكوكب الشعرى اليمانية الذى تراه فى هذا الشهر : أى شهر سبتمبر من كل سنة متألقا جهة الشرق قبيل الفجر ، وهو يجرى حثيثا وراء كوكبه الجبار والجوزاء والديران وأمثالها من هذه المجموعات الجميلة ، ويسميها الفلاحون فى مصر فريحة :

فهذه الشعرى التى هى أضوء كوكب فى السماء كانت رمز العلوم والصناعات واللغات ، وجميع سعادات الحياة العلمية والعملية ويعبرون عنها بلفظ [توت] وهو أول السنة القبطية وإدريس وهرمس وأخنوخ ويقولون هو إله الحكمة .

وملخص ما يقال فى هذا المقام كما سيأتى عند الكلام على آية « والنجم إذا هوى » وآية « وأنه هو رب الشعرى » أن الشعرى رمز لكل ما عند الإنسانية من سعادة وعلوم ومعارف وذهاب أمم وحلول أخرى محلها ، ثم ارتقاء الأجيال الحديثة من حال تشبه حال الحيوان من عدم الإفصاح إلى اختراع الحروف والألفاظ والكتابة والعلوم والصناعات والموسيقى إلى آخره ، وهكذا فسيأتى أن الشعرى رمز لذلك كل هذا حسن جدا .

إذن قدماء المصريين الذين هم متصلون بسائر الأمم إذ ذاك دينهم راجع للنور ، هكذا جميع الصابئين فى الأمم القديمة كلهم كانوا يعبدون الكواكب ، ودين الصابئين المذكور يرجع لفكرة واحدة ، وهى أن هذه الكواكب مسيرة بعوالم أرقى منها وأجل ، وهى للملائكة ، وللملائكة خاضعون لله ، فالله هو الذى يشرق بنوره عليهم وهم يديرون الكواكب :

فأما عبادة الله فلا تجوز ، ذلك لأنه عظيم يتعالى عنا ، فلاينبغى لنا أن نذكر اسمه على ألسنتنا كما يقول بعض العاشقين :

أغار إذا ذكر اسمها وإخالنى أغار عليها من فم المتكلم

فهؤلاء لا يبيحون ذكر الله لعظمته الفائقة ، إذن تعبد للملائكة ، فعبدوها أزمانا متطاولة ، ولما تقادم العهد رأى الخلف أن للملائكة أجساما نورانية أنوارها أبرع من الكواكب ، فيجب تطهيرها من أن تذكر على ألسنتهم ، فماذا يفعلون ؟ عبدوا الكواكب .

ثم من بعدهم قالوا : كلا الكواكب عظيمة وبعيدة ، فلنجعل لها هياكل لنعبدها فعبدوها ، وهذا هو أصل الأصنام ، وهذا شأن الناس فى الأرض اذا أخذ جيل يرتقى تبعه الذى بعده ، وهكذا فى الانحطاط والتدلى فانظر فى المذاهب الإسلامية : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، والزيدية الشيعية وهكذا ، مثال ذلك مذهب الإمام الشافعى أتباعه لايرجعون إلا إليه . أما القرآن وأما الحديث فلا ، اللهم إلا تقليدا فى الاستدلال ثم إن الأم للشافعى اعتبرت أنها أرقى من عقول الناس ، ويليها كتاب المزنى وأمثاله ، والبسيط

للغزالى ثم للمنهاج واكتفى الناس بالمنهج ، ويعتقد الناس أن ما فوق ذلك فوق طاقة البشر . وهذا كله تدل وسقوط وجهل ، فالأمم يشبه آخرها أولها حذوك النعل بالنعل

قصة الخليل عليه السلام جاءت لهذا ، الخليل عليه السلام جاء فى الأمم التى كانت تسكن بين النهرين فى بابل وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، فابتدأ بكسر الأصنام ، ثم أخذ يدرس النجوم أدناها وأعلاها حتى وصل إلى الشمس ، وهناك قال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ » . فاخترق تلك الحجب حجاب الأصنام والسيارات والشمس ثم للملائكة ، ووجه وجهه لله :

وهناك دين المجوس يرجع إلى عبادة النار ، والنار جميلة فبينها وبين دين الصابئين مشابهة ، ولكن هذا الدين يرجع إلى إلهين اثنين : هما النور والظلمة .

الظلمات والنور عند المجوس

فالنور رمز لكل خير ، والظلمات رمز لكل شر .

وبيانه أننا فى هذه الحياة نحس بخير وشر وضر ونفع وموت وحياة ، ولا جرم أن الضر والموت والفقر والجهل والحرمان والمعاصى كلها شر ، والحياة والعلم والطاعات كلها خيرات ، ونحن نشاهد ظلمات ونشاهد أنوارا ، فالأنوار خير والظلمات شر ، والليل عنوان الشر ، ففيه اللصوص والمجرمون الذين يعثون فى الأرض فسادا ، وقطاع الطرق وتزداد الأمراض ، فالظلمة شر ، والنور خير .

كل ذلك تضمنه ذكر الظلمات وذكر النور فى أول السورة فالله ابتدأ سورة الأنعام بالظلمات والنور :

[أولا] براعة استهلال لما يأتى فيها من ذكر قصة الخليل فى بابل ، وذلك توطئة للرقى الحالى فى الأمم الانسانية ، لأنه لولا أن الخليل عليه السلام كسر أصنام الصابئين ، وقلل من أهمية الشمس وسيارتها لبقيت معبودة ، ولو بقيت معبودة لوقفت عقول الأمم ، فلم تعرف أن هناك كواكب أعظم من هذا الاله ، وهى الشمس عندهم ، فمن ذا الذى يجسر أن يقول أن هناك كوكبا واحدا مثلها أو أكبر منها ، لا يخطر ببال أحد هذا الكفر ، وعليه كانت الانسانية تبقى أجيالا طويلة وهى لا تعرف شيئا من هذا الجمال .

فالخليل عليه السلام كسر الأصنام ، وجاءت النبوة المحمدية ففعلت ذلك ، وأخذت الأمم تدرس النجوم كما تدرس الحيوان والنبات فذكر الظلمات والنور توطئة لذلك .

[ثانيا] يشير إلى دين المجوس المبنى على أن فى العالم إلهين مبنيين على الخير والشر ، فللشر إله ، وللخير إله ، وإله الشر يحدث الظلمات والشرور ، وإله الخير يحدث الخيرات والأنوار ، وكلاهما عدو للاخر والعبادة موجهة لإله الخير الذى ينتصر على إله الشر :

فالله هنا يقول : الله محمود على أنه جعل الظلمات والنور ، وإنما جعلها لأن كل شر وكل ظلمة امران ضروريان لكمال السعادة الإنسانية ، بل الله يحمد على الظلمات كما يحمد على النور ، وإذا كان الإحساس بآلام الضرس أمرا لابد منه ، بل لله علينا منة عظيمة فيه وفى الإبداع فى خلق الأعصاب الممتدة من اللثة إلى الفضاء الذى فى وسط الضرس . وهكذا فى جميع الأمراض كما تقدم شرحه فى سورة الفتح فى أصل التفسير عند آية « ولله جنود السموات والأرض » فهناك اتضح بالشرح والتصوير الشمسى أن الحمى والدماميل ونحوهما نعمة لا نقمة ، لأنها إنما خلقت فينا لأجل صحة أبداننا فارجع إليها إن شئت أيها الأخ .

إذن كل الظلمات والنور والشرور والخيرات كلها متعاونات على إسعادنا ، فآلامنا لإسعادنا لا لاشقائنا

إذن أراء المجوس فى دينهم كانت حينما كان الإنسان طفلا ، أما الإنسان الآن فإنه أخذ يعقل نعمة الآلام والشرور والظلمات كما يعقل اللذات والخيرات والأنوار .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : جيدا هذا المقال ، ما أجمل العلم وأبهج الحكمة ! وما أسعد العلماء وأبهجهم فى هذه الحياة ، فقلت : الحمد لله رب العالمين ، انتهى حوالى الساعة الثانية بعد نصف الليل .

عجائب النفس

إن هذه المقال قد حدثتنى به نفسى منذ يومين وأنا أسير فى النيل غربى القاهرة لمجرد الرياضة ، وهذه المقالة رتبت كما كتبتها الآن ، ولكن لم أكتبها إذ ذاك فبقيت تتردد فى نفسى . وفى ليلة البارحة خرجت أنا وبعض الإخوان من الساعة السابعة ونصف إلى الساعة (١١) لننظر أحوال القاهرة ، وما مقدار الخمور التى يشربها أهل بلادنا بالتقريب ، وما مقدار ما يستهلكون من مأكول ومشروب ، ويذهب الماء من جيوبهم إلى جيوب الأمم التى لها امتياز فى البلاد ، وذلك ليذكر فى الكلام على الم فى سورة البقرة ، لأن هذه الحروف الثلاثة بينهما وبين ألم فى آيات « ألم تر إلى الملأ » الخ صلة . وفيها قصة الشرب من النهر ، وأن الذين لم يشربوا الماء وشربوا غرفة حاربوا فنصروا ، وغيرهم كر راجعا ، وأن ذلك إيذان بأن العفة مفتاح الغلبة والإكباب على الشهوات باب ضياع الأمم ، ومفتاح ذلك فى الم والأمة المصرية التى أنا واحد منها وقع جهالها فى هذه المعايب ، وبمقدار توغلهم فيها كان توغل الأعداء فى البلاد ، والإحصاء سنذكره إن شاء الله فى ذلك المقام ، فهذا هو الذى منعنى من كتابة هذا الموضوع ليلة أمس ، فبقيت معانى هذه المقالة لا تفارقنى كل وقت ، ولما غلبنى النوم الليلة قبل العشاء رأيت ما يأتى :

رؤية منامية

رأيت أننى لا أزال مدرسا مع أنه مضى على ذلك (١١) سنة وأنى أدرس للتلاميذ الدروس بلا تطبيق ، فأخذت فى المنام أقول : هاهو ذا امتحان التلاميذ قرب ، وهاهم أولاء لم يأخذوا تمارين على الدروس : أنا مقصر أنا مقصر ، لابد من تمارين كثيرة أقلها ستّ ، لأن الامتحان قريب جدا ، فاستيقظت وكتبت هذا المقال وفرغت منه فى نحو ثلاث ساعات .

ويظهر لى أن النفس الداخلة بعقلها الباطن تحب أن تخرج هذا المقال بالكتابة فلم تدعنى فى النوم حتى صورت ذلك بهيئة المدرسة والتلاميذ ، وصورت لى حال كتابة هذا الموضوع بكتابة التمرين على القواعد وحال كثير من المسلمين كحال التلاميذ الذين تعلموا القواعد ولا تمرين عندهم ، فهأناذا أحمد الله أحسست فى نفسى براحة ضميرى ، وأتممت هذا المقال فى تاريخه وقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى فى تاريخه فى يوم الأربعاء ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ .

حضر صاحبي الذى اعتاد محادثتى فى هذه العلوم وفى التفسير ، فقال : لقد مضى فى حديثنا السابق مايوجب على أن أبحث معك فيه ، وهما أمران : الأمر الأول : الكلام على تشريح جسم الإنسان عند وصف الأسنان ، واختلافها باختلاف نتائجها .

(١) من حدة الأنياب فى نحو الآساد والنمور والفهود ، لأنها تكون سببا فى تمزيق اللحوم لحفظ الأجسام وبقاء الحيوان .

(٢) ومن عدم تلك الأنياب فى آكلات الحشائش ، إذ لا داعى لها ، وقد وجدت تلك الأنياب فى

بعض ذكور آكلات الحشائش إذا وجد سبب لها وهو محاربة للهاجمات من العجماوات ، فو الله إن هذا لعجب عجاب ! وإنه بديع ياسيدى .

ما هذه العجائب ! ؟ لقد كنت أسمع وأنا طفل فى بلاد الريف يقولون : صيد السمك أحب إلينا من أكله ، يريدون بهذا المثل أن اللذة فى صيده أعظم من اللذة فى أكله ، لأن الصيد إنما جاء لنا من القوة الغضبية ، وهى القوة التى بها تحكم على غيرنا ، وهى أرقى من القوة الشهوية ، والقوة الشهوية لذة انفعالية ، والقوة الغضبية قوة فعلية ، والقوة العقلية أرقى من الأخريين ، فاللذة بالغلبة ، وحوز النعم والملك والسلطان أقوى من اللذة بالمآكل والمشارب وجميع أنواع اللذات المتبادلة بين النساء والرجال .

فهاهنا الآن ارتقينا إلى درجة فى اللذات أقوى من لذة الغضب والقهر والحكم ، فهذه سيدة اللذتين السابقتين : هى لذة العقل ، إذ ينظر الإنسان فى نفسه فيجدها كملت وعظمت وحكمت وملكت ، ماذا ملكت؟ ملكت ملك السعادة والهناء والعز والشرف والسؤدد ، وأصبحت أشبه بمن هم عند مليك مقتدر ، أولئك الذين ارتفعت نفوسهم عن جميع العامة وجميع العلماء ، كيف لا وهذه الحكم والبدائع والجمال الرائع يمر عليها نفس علماء التشريح ، وكثير منهم عن ذلك الجمال والبهاء والسعادة غافلون .

اقرأ كتب كثير منهم تجد اللهجة والأسلوب لا يعدو أن يصف المؤلف الأعضاء والعضلات والأوتار والأعصاب والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والحالبين والكليتين والظهر والفقرات والدماغ والأسنان وهكذا ولا يدهشه التفصيل ولا يفرحه اختصاص كل عضو بعمل ، فأما أولئك الحكماء والخواص من نوع الإنسان فانهم هم الذين يعيشون ، وكأنهم فى عرس ، وعلى الأرائك متكئون ، يرون العالم كأنه جنة عرضها السموات والأرض زينة نصبت لهم ، وسعادة أعدت لهم وقد أوتوا فى هذه الحياة حظهم ، أولئك هم السعداء المقربون ، فهل لك أن تذكر لى هنا نظير عجائب خلق الأسنان واختلاف الأحوال باختلاف نتائجها ، فإن ذلك بهجة وبهاء وحكمة وسعادة وجمال ، هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثانى : فإنك فى أثناء الكلام على الظلمات والنور أتيت بأمر عجب ، فأشرت إلى أن المادة التى فى هذا الفضاء بالنسبة له ليست شيئا مذكورا ، إذ هى واحد من مائة مليون مليون فما هذا القول وما شرحه ؟ وكيف يقول ذلك العلامة [هنشو] وينشره فى الجرائد فى أمريكا والعالم كله يقرؤه .

هذا دليل على أنه قول معقول عند جميع العلماء ، نعم نحن نعلم أن الحائط والنزل والأرض والحجر والشجر وكل ماهو مادى له مسام ، فالحجر والشجر والجبل والحديد والذهب كل هذه لها مسام : أى فراغ موجود بين الذرات ، ولكن كون هذا الفراغ عظيما بالنسبة للذرات بحيث يصل هذا المقدار الذى ليس له معنى إلا أن المادة عدم صرف ، فهذا يعوزه شرحه وتفصيل .

الكلام على عجائب الألوان وكيف جعلت فى الحيوان لبقائه وإسعاده مختلفة باختلاف أطواره كما تقدم فى الأسنان

وعلى ضرب مثلين لفراغ المادة : أحدهما بمساحة البلاد المصرية : ثانيهما بملايين الأرادب من القمح التى لا مادة فيها إلا مقدار حبة واحدة .

قلت : لأجعل الكلام فى فصلين: الفصل الأول فى عجائب الألوان واختلافها باختلاف أطوار الحيوان . أذكرك أيها الأخ بما تقدم فى المجلد الخامس عشر فى سورة الروم عند آية « ومن آياته خلق السموات

والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » وإن كسر اللام فى العالمين جمع عالم لسر لم يظهر إلا فى زماننا هذا ، ذلك أن هناك علما وهو علم الألوان لم يعرفه الناس إلا حديثا وهم لايزالون فى مبدئه لم يعرفوا منه إلا مبادئه ، ومن الدهش أن هذه المبادىء أصبحت معجزة قرآنية ، كيف لا؟ألم تر إلى ألوان بعض حشرات [أبى دقيق] تلك اللاتى تظهر فى جنوب أمريكا وفى افريقيا وآسيا واستراليا .

فهذه كلها أعطيت سلاحا بديعا حادا ما هو ذلك السلاح ؟ هو مادة سائلة صفراء قذرة ذات ريح كريهة حادة فتلوث ثياب من يمد يده إليها .

إذن هى محفوظة ممن يصيدها ويؤذيها ، فجل الله جل الله : أنياب خلقت إما لتمزيق اللحم ليعيش الحيوان به ، وإما لفتك الذكور بالحيوانات المهاجمة ، وأسنان للقضم ، وأضراس للطحن، كل ذلك موضوع لهذه الحكم ، فهكذا هنا سائل كريه يلقيه الحيوان على صائده فيتركه، فهذا سلاح عجيب قدوهبه الله لحشرة [أبى دقيق] التى تعيش على نهر [تياجوس] وقد خلقت حشرة أخرى تشابه هذه الحشرة فى الشكل ، ولكن لا سلاح لها وهى تعيش معها على ذلك النهر فهى فى حماها ، سلاح الأولى أصبح يحمى الثانية بطريق الوهم ، وهذا من عجائب الصنع .

وهناك فى أعلى وادى [الأمزون] تجد حشرتين من هذا النوع : إحداهما لها سلاح والأخرى لاسلاح لها، واللون والشكل والهيئة كلها واحدة ، فهاهنا مزايا عجيبة ، وترى هذه الصور فى التفسير هناك واضحة، وترى حشرة [أبى دقيق] التى فى شرق أفريقيا بديعة الشكل بهجة الوضع سواء فى ذلك التابع للمتبوع : أى الذى له سلاح والذى لاسلاح له .

وهكذا ترى صور هذا النوع فى [ملقا] و [بورنيو] ومثل حشرة [أبى دقيق] فى ذلك أنواع من الحيات فترى هناك ثعابين أمريكا : السام منها والذى لا سم لها تشابها خلقا ، وأحدها له سم ، والثانى حمى بهذه المشابهة لاغير ، وهكذا هناك طيور تعيش جماعات كثيرة جدافهى محميات بجماعاتها ، وهناك طيور لاعروة لها ولا جموع تحميها ، ولكن الله حماها بمشابهة ألوانها للأولى كل ذلك مفصل هناك تفصيلا ورسما وتبيانا .

فقال صاحبى : نعم أنا أتذكر ذلك ، فهناك صور بديعة جميلة بهجة « فتبارك الله أحسن الخالقين » انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى فى أبحاث المادة وما فيها من الفراغ

ثم قلت أيها الأخ البار حفظك الله وأبقاك وألهمك الحكم والعلوم أريد الساعة أن أذكرك بما تقدم فى سورة طه عند آية « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

فترى هناك هيئة خلق الجنين موصوفة بدقة وتجدها على هيئة المتوالية الهندسية ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ وهكذا إلى مالايتناهى .

ومعنى ذلك أنك إذا اطلعت على مارسم هناك من صور نمو الجنين فى الرحم بالصور الشمسى وأن البيضة انقسمت قسمين ثم أربعا ثم ٨ وهكذا أدركت السر المصون والجوهر المكنون ، وذلك أمران :

الأول أن الانقسام هنا على هيئة متوالية هندسية ، وهذه المتوالية تتصاعد إلى مالا حده ، وفى أثناء ذلك الحساب والانقسام تجد أمرا عجبا ، ماذا تجد ؟ تجد أعضاء وحواس وأعصابا وبدائع تحار فيها العقول، فلا الحساب يخطىء ولا تفصيل الأعضاء ينقطع .

ومن العجب العجاب أن [صصه بن داهر الحكيم الهندى] لما ابتدع الشطرنج كما يقال ، وقال له ملك

الهند اطلب ماتشاء ، لم يطلب إلا أن توضع حبة قمح فى أول بيت من بيوت الشطرنج وأخذ يضاعف الحب ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ الخ ، فلم يصل إلى البيت الأخير من الشطرنج إلا بعد أن صار القمح الذى فى الكرة الأرضية كلها عشرات السنين لا يكفى ، وهل ذلك كله إلا الحساب المضاعف البالغ ٦٤ عينا ، وهى عيون الشطرنج ، فهذه المضاعفات هى بعينها مضاعفات نموّ الجنين ، إذن نموّ الجنين أكثر مضاعفات من مسألة الشطرنج وعجائبها أغزر وأبهى .

فقال صاحبي : أظن أننا خرجنا من الموضوع ، نحن الآن لسنا فى حساب نموّ الجنين ولا فى حساب حب القمح المضاعف بالمتوالية الهندسية بحسب بيوت الشطرنج ، فقلت : ياصاحبي نحن جعلنا هذا المقال تمهيدا لما نريده الآن وهو حساب الفراغ فى المادة .

وذلك أن مسألة القمح فى بيوت الشطرنج هى التى نعوّل عليها الآن ، وذلك أننا قلنا أن المادة ليست شيئا مذكورا ، اللهمّ إلا أنها جزء من مائة مليون مليون من الفضاء الذى تحل فيه ، وأقرب مثال لذلك أن نقول : أن صصه بن داهر الحكيم الهندى لما طلب القمح المذكورا استحقر الملك طلبه ، لأنه ظن أنه قليل جدا مثل قدح أوكيلة ، ولكن الحكيم صمم أن يحسب الحب حسابا دقيقا فحسبوه ، فلما بلغت المضاعفة ١٦ بيتا وجدوا الحب يبلغ قدحا مصريا وعدد حباته ٣٢٧٦٨ فيكون الأردب إذن (٧٢٨ ، ١٤٥ ، ٣) حبة ، فاذا وصلت الأرادب نيفا وثلاثين مليون أردب صار عدد الحب مائة مليون مليون حبة ، وهذا عجب عجاب ، وصلت الآن إلى أمر عجب ، أمر يفوق التصديق ، فعجب ملك الهند من أن حساب بيوت الشطرنج لما وصل فى المضاعفة إلى ٦٤ لم يكفه القمح على وجه الأرض عشرات السنين ، ولكن نحن هنا يزداد عجبنا أن نرى المادة التى نحن منها ونعيش بين طياتها ليست إلا أمرا معدوما ومعدوما جدا .

ياسبحان الله نيف وثلاثون مليون أردب قمح لامادة فيها إلا بمقدار قمحه واحدة ، عجب وألف عجب ، هكذا مقال علماء عصرنا ، إذن الأرض والهواء والماء والحجر والذهب والحديد كلها فراغ فقط ولكن هذا الفراغ فيه ذرات حقيرات ، وتلك الذرات ماهى إلا حركات فى الأثير تنتج أنوارا ، وتلك الأنوار تجرى سوالبها حول موجباتها ستة آلاف مليون مليون فى الثانية الواحدة ، وهذه الأنوار باختلاف تركيبها وكمياتها تكون ذرات ، وهذه الذرات منها تتركب أجسامنا وأجسام عالمنا ، وهذه الذرات المركبة منها أجسامنا فيها فضاء عظيم جدا ، فنسبة المادة فيه إلى الفراغ كنسبة حبة قمح واحدة إلى مائة مليون مليون حبة قمح ، أو إلى نيف وثلاثين مليون أردب قمح .

ضرب مثل بمساحة الأراضى المصرية

إيضاح هذا المقام على سبيل السهولة فى التعبير ، وذلك بهيئة التنظير أن نقول : أن مساحة القطر المصرى تبلغ مائة وخمسين مليون فدان ولكن المزروع منها لا يبلغ أكثر من ستة ملايين فدان :

فالقطر المصرى من حدود فلسطين إلى بلاد طرابلس ومن أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويدخل فيه الجبال والصحراء الشرقية والغربية والبحرية ، كل ذلك هذه مساحته .

فإذا أخذنا من هذه المساحة جزءا من مائة مليون مليون لم نجد بعد دقة الحساب إلا نحو (٦٤) أربع وستين سنتى مربع ، وهذه يكفى لتغطيتها أن يطير عصفور واحد فى جو مصر ويقع على الأرض ناشرا جناحيه ، فالمساحة التى يغطيها لاتكفى لأن تكون جزءا من مائة مليون مليون جزء من الأراضى المصرية

وبعبارة أخرى اننا إذا جعلنا الحساب الذى اعتبرناه فى المادة معتبرا فى مساحة البلاد المصرية من حيث الأجزاء المذكورة لم يزد ذلك الجزء عن راحة اليد التى تحيط بها الأصابع ، وهذه يغطيها عصفور مدّ جناحيه إذن المادة على هذا الحساب كالعدم من حيث كميتها ، أما كيفيتها ، فأمرها أغرب إذ ظهر أنها كما قدمنا أنوار والأنوار جاءت من حركات ، إذن هذا الجزء المادى أيضا مع أنه قريب من العدم ليس إلا حركات .

إذن عالمنا كله معدوم ووجوده راجع إلى حركات سريعة نسبتها إلى الفضاء التى تحل فيه نسبة ٦٤ سنتى متر مربع إلى (١٥٠) مليون فدان أو كنسبة قمحة واحدة إلى نيف وثلاثين مليون أردب قمح ، هذا معنى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » انتهى والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبى ذلك انشرح صدره وقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، انتهى ليلة الخميس ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٣ قبيل نصف الليل .

ملخص هذا المقال فى تفسير آيات أول سورة الأنعام وهى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » إلى قوله « ويعلم ماتكسبون » .

حضر صاحبى عصر يوم الجمعة ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ فقال : إن موضوع تفسير هذه الآيات فى أول سورة الأنعام قد طال جدا ، وليس فى مقدرة الإنسان أن يجمع هذه الأفكار الكثيرة معا ، فأرجو تلخيصها لتحفظها الأذهان فقلت :

(١) الآيات « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » فى أول الأنعام إلى قوله « ويعلم ماتكسبون »

(٢) البحث فى الظلمات والنور ، وكيف كانت هذه الظلمات والأنوار تشمل الفضاء الذى لا نهاية له

(٣) وكيف حيرنى سؤال فلاح من قريتنا [كفر عوض الله حجازى] بالشرقية قائلا : يا ابن أخى هل للعالم آخر ، هل تعرفون ذلك ؟ ماذا بعد السموات العلى ، أنتم لاتعرفون ذلك فى الأزهر .

(٤) اطلاعى على الفلسفة القديمة وأنها حصرت الموجودات فى ١٣ طبقة مركزها الأرض يليها الماء فالهواء فالأثير فالأفلاك السبعة للسيارات باعتبار زمانهم فلك الثوابت فالفلك المحيط ،

(٥) ويقولون : ليس ماوراء الفلك بخلاء ولا ملاء : أى أنه عدم صرف :

(٦) حيرتى فى هذا القول وعدم اعتدادى به ، وكيف أعتد به والنفس تتصور خلاء لا نهاية له ولا يكفيها قولهم إن الخلاء يكون بين جسمين ، أما ماوراء الفلك المحيط من الفضاء فليس محصورا بين جسمين فليس خلاء ، وهذا كله سفسطة .

(٧) اطلاعى على كلام إخوان الصفاء ، وهو أن النور والظلمة إما جسمان وإما عرضان لأجسام ، إذن الفضاء جسم لا نهاية له وفيه أيضا حيرة .

(٨) تعجبنا من أن [اينشتين] يقول إن الفضاء جسم [كما قاله إخوان الصفاء] ويزيد على ذلك بأنه صلب أصلب من كل جسم ، وقد أوضحت ذلك فى سورة الصافات وسورة سبأ : أى أنه لو كان جسما لكان أصلب منها جميعها فهو جسم صلب لا كالأجسام وأوجب البحث فى الفضاء بقوة .

(٩) يقول هو أيضا : إن الفضاء أصل والمادة فرع .

(١٠) وعللنا ذلك بأن العلماء فى زماننا يقولون : إن المادة فى هذه الأجسام جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذى تشغله ، فنضرب لها مثلا بحبة قمح من نحو ٣٣ مليون أردب قمح ، أو ٦٤ سنتيمتر مربع فى مساحة الأراضى المصرية البالغة (١٥٠) مليون فدان ، وهذا الأخير تنظير لأنه راجع للسطوح لا للأجسام .

(١١) إذن المادة فرع عن الخلاء وهى قليل بالنسبة فهى إذن نموذج له .

ولا جرم أنها عبارة عن حركات فى الأثير توجب أضواء يجرى سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية، وبالاختلاف تكون هذه الذرات، فالعناصر، فالأجسام، والأرضون، والشموس والأقمار الخ ، فهذه ذات نظام هندسى تنظره عيون الأرواح ونظام صوتى تسمعه آذانها وهو جمال وبهجة تعبر عن جمال نفس الفضاء وبهجته .

(١٢) وأشرف ما فى أنواع المادة جسم الإنسان الذى هو نموذج المادة ، وهذا هو قوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين » بعد العوالم ، إذن خلقنا نموذج خلق السموات والأرض : وهى نموذج الفضاء الذى يعبر عنه بالظلمات والنور ، وجسم الإنسان مركب عجيب : فالدماغ مثلا فى الجمجمة القوية الحافظة له وقد غطى بالأم الرقيقة والأم الجافية ليحفظ من أن يصطدم بتلك الجمجمة الحافظة له ، وهكذا القلب تحيط به الرئة وهما فى حرز حصين وهو الصندوق المركب من الفقرات والأضلاع والقص .

وللقلب دورة دموية تجذب الدم الوريدى من أعلى الجسم وأسفله ليصل إلى الأذين الأيمن ويتصل بالبطين الأيمن ، ويخرج فى شريان ينقسم إلى شريانين يتصلان بالرئة ، ويرجع إلى الأذين الأيسر فالبطين الأيسر ، وهناك شرافات فى وسط القلب ، وأخرى عند البطينين، وأخرى عند الأنابيب الشعرية : فهذه كلها تبيح للدم أن يجرى منها ولكنها تمنع رجوعه رحمة بالحيوان والإنسان :

(١٣) ولما كانت فقرات الظهر من أهم أجزاء صندوق القلب ذكرت أوصافها من حيث حكمة خلقها مفصلة متوسطة محوطة بما يحفظها حافظه لما فى داخلها من النخاع ولما تحتها من الرئتين والقلب .

(١٤) ولما كانت الرأس تحيط بها أعضاء نافعة وكان من أهمها الأسنان فصل الكلام فيها من حيث أعدادها وترتيبها من القواطع والأنياب والطواحن ، وكيف كانت مفصلة بحسب الحاجة إليها للأطفال والشبان وأنواع الحيوان من آكلات اللحوم وآكلات النبات ، وكيف كان لها تاج ومينا أصلب منه ، ورقبة وسنخ وأعصاب حساسة وأوردة وشرايين تتبع الدورة الدموية .

(١٥) ولما كان هذا الاختلاف منتظما على مقتضى الحاجة ناسب أن يؤتى بتفصيل فى نحو حشرة أبى دقيق من الحشرات والحيات من الهوام ، وكيف اختلفت الألوان لاختلاف الحاجة إليها فى حفظ الحيوان

(١٦) ومن بدائع هذه الآيات وغرائبها أن النور والظلمة فى هذا المقام براعة استهلال تجعل القارئ مستعد لدرس مسألة الخليل عليه السلام من حيث أنه قام ينادى الصابئين الذين يعبدون الكواكب ، ويقرب من هذا الدين دين المجوس الذين يرون للعالم إلهين : إله الخير وإله الشر ، وذلك أن الإنسان كان إذ ذاك فى حال لا تمكنه من أن يعقل للعالم إلها واحدا ، فذكر الظلمة والنور مذكر بدين الصابئين وبدين المجوس كل من وجه مخصوص : هذه خلاصة هذه المقالة ، وفى الاختصار تقديم وتأخير فى قليل من هذه المواضيع . اهـ قبيل المغرب يوم الأحد ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٣

سورة الأنعام

تذكرة فى قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » قد جاء فى الأصل ذكر أنواع الفحم ، وأن منه قطع الماس العجيبة ، فهى إذن نور من الظلمات .

ومن عجب أن العالم كله نور من الظلمات ، كيف لا ، أليس العدم كالظلمة ، والوجود كالنور ، والعالم كله مخلوق من العدم ، وهل الوجود إلا حركات فى الأثير ، وهذه الحركات بتفتتها ظهرت أنوار كهربائية سالبة وأخرى موجبة ، فدارت السالبة حول الموجبة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة ، فكانت العناصر التى بلغت الآن نحو ٩٠ وبامتزاجها كانت المعادن والنبات والحيوان والسموات والأرضون العالم نور والعدم ظلمات : الإنسان عالم نورى مشتق من العالم المظلم : وهو الطين « هو الذى خلقكم من طين » .

رباه جمالك سحر العقول ، وحسن صنعك بهر العيون : رباه خلقت من الفحم جواهر ودرا كما خلقت من الطين إنسانا عاقلا وعالما وحكيما ونبيا .

ما هذا الجمال ؟ ما هذا الإبداع ؟ ما هذه الدنيا التى أبدعتها ؟ كم من النفوس تمر على هذا الجمال ولا تعيه ، ألم تملأ الأصقاع بالأنوار ، ألم تجعل فى البحار جهة خط الاستواء توهجا وتلألؤا يسحر عقول العقلاء ، فإذا سارت السفن فى تلك البحار أثارت من الماء أنوارا وألوانا تشبه فى مناظرها النجوم الثوابت والسيارات تارة والبرق تارة أخرى ، ويحدث إذ ذاك تنوع فى المناظر بديع ، تروق الناظرين ، وتدهش المسافرين ، ألم تملأ الأصقاع الباردة بما يفوق الوصف من الجمال ، كيف لا : ألم يكن فى اختفاء نور الشمس عن القوم أسابيع وشهورا بهجة للناظرين ، وجمالا ساحرا للعقلاء ، فان لضوء الشمس تحت الأفق انعكاسا على مافوقه فتزدان الأرض بزخارف من اللألاء وبمباهج من تموجات الأنوار : خضر وصفر وحمر وزرقاء ونيلية وبنفسجية وبرتقالية فيحدث ذلك التفنن مالا يحصيه العد من الأفانين والصور والأشكال والجمال : كل ذلك حاصل على بساط من الثلج أبيض ناصع كأنما هو قطع من الألماس على البر جامدات وفوق سطح ماء البحر سابحات ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولما عزت تلك المناظر فى البلاد التى لا هى فى خط الاستواء ولا فى القطبين عوضهم عن ذلك مناظر بارعة جميلة : ومنها قطع الماس البهجة الشكل ، الجميلة المناظر ، البديعة الإتقان . اشتقها من الظلمات كما اشتق نور الخليقة من ظلمات العدم ، وتور الإنسان من ظلم الطين ، والماس من الفحم :

ومن أعجب أنواع الماس التى بهرت نوع الإنسان خمس قطع شهيرة سنذكرها قريبا ، وهى أعظم الفرائد الجوهرية فى عالمنا الأرضى فترقب شرحها ، وهاك إيضاح الكلام على الماس .

إن الماس (١) يكون من الفحم النقى (٢) متقوم (٣) ذو لمعان (٤) وصلابة انفرد بها .

(٥) ذو قوة على كسر الأضواء لا يشاركه فيها سواه من المعادن .

(٦) سلطان الجواهر وأثمنها . ولا يفوقه إلا الياقوت نادر المثال :

(٧) هو أقدر الجواهر على البقاء وعدم الانحلال (٨) سهل الكسر .

(٩) يحترق على درجة (٨٥٠) وهو فى الهواء ، فإن لم يكن فيه فلا يحترق .

(١٠) لم تكمل صناعته إلا منذ سنة ١٤٧٦ ميلادية .

(١١) عثر فى استراليا على حجارة من ألماس شديد البياض عجزت وسائل القطع أن تؤثر فيه ، فلم يمكن اتخاذه حليا .

(١٢) الماس لا يقطع ولا يصقل ولا يسطح إلا بالماس .

(١٣) وهو يقطع الأحجار الكريمة كلها ويسطحها ويصقل الزجاج ويثقبه .

(١٤) وهو يثقب الصخور ، ففى ألمانيا بلغت المسافة التى ثقبوها (٦٢٦٥) قدما عند leipzig

[ليبزج]

[ليبزج] من مدن المانيا ، ذلك ليعرفوا طبقات الأرض ، فيجعلون على المثاقب الفولاذية نحو ثمانية أحجار من الماس ، زنة كل منها قيراطان .

(١٥) وإن الناس يحتاجون إلى أسلاك فولاذية قد يبلغ قطرها ١٦ مترا من البوصة ، فالأسلاك المعتادة توضع فى قوالب من حديد ، والمتوسطة فى قوالب من فولاذ ، والتى هى أدق فى قوالب من الماس أو الياقوت ، والياقوت أفضل .

(١٦) أهم مناجم الألماس بالهند ، والبرازيل وأريقية الجنوبية ، ولم يعرف الناس قديما الماس إلا من الهند ، وظهر وعرف الماس فى بلاد البرازيل سنة ١٧٢٧ ميلادية ، فازدحمت المناجم فى بلدة [ديمنتينا] فزاحمت مناجم [غلقندة] بمدراس بالهند ، ثم ظهرت وبرعت مناجم افريقية الجنوبية ، فحازت قصب سبق فى المضمار :

ذلك أنه رأى بعضهم حصاة مع طفل يلعب بها فى مزرعة على شاطئ نهر [أورانج] فعرف أنها من الماس ، فأرسلها إلى انكلترا ، فبيعت بخمسمائة جنيه .

وفى سنة ١٨٦٩ عثر على حجر بقرب ذلك النهر ، بيع بخمسة وعشرين ألف جنيه ، وسمى باسم نجم افريقية الجنوبية ؛ ولم يتوافر سنة ١٨٧٠ حتى كان بجهات نهرى [أورانج] المذكور ، و [قال] عشرة آلاف رجل من المعدنيين .

وأعجب الفرائد الجوهرية : هى الخمس التى وعدناك بذكرها سابقا ، وهى هذه :

من أشهر فرائد الماس الفريدة المسماة بجبل النور [فوهى نور] وكانت زينة عين الطاوس الذى كان على عرش ملوك المغول ببلاد الهند ، ولما دان ملك دلهى لكسرى نادرشاه وحول ذلك العرش إلى بلاد فارس ، افتقد نادر شاه الماسة فأخبر أن سلطان دلهى خبأها فى عمامته ، فقال له لما أقره على سرير الملك : أعطنى عمامتك وخذ عمامتى آية ميثاق الصلح بيننا ؛ فأسقط فى يده ، ولكنه لم يجد بدا من هذه المقايضة ولو عاد منها بصفقة المغبون ، ولما حل نادرشاه العمامة ووقعت عينه على الماسة راعه لمعانها فقال [فوهى نور] فصار ذلك اسمها ، وما زال يتوارثها الملوك حتى عادت إلى ملوك الهند وحفظت فى خزانة لاهور ، ولما استولى الانجليز على بنجاب دخلت هذه الجوهرة فى حوزة جمعية الهند الشرقية ، فأهدتها إلى الملكة فكتوريا سنة ١٨٥٠ (١) وزنتها ٥ ر ١٠٦ من القراريط .

ومنها نجم الجنوب ، وهو جوهرة وجدت فى مناجم البرازيل سنه ١٨٥٣ وجدتها زنجية فى مثيل بعض الأنهار ، وكانت زنة ٥ ر ٢٥٤ من القراريط فقطعت وصقلت فصارت زنتها ١٢٥ قيراطا ، وبيعت بثمانين ألف جنيه

ومنها جوهرة أرلف . وقد زعموا أنها كانت حلية عين صنم بمعبد للبراهمة ببلاد الهند ، فاختلسها جندى فرنسى ليسرقها(٢) منه ربان بعض السفن . وعرضت للبيع فى مدينة أمستردام سنة ١٧٧٦ فاشتراها برنس أرلف(٣) للملكة [كاترينا] الثانية ملكة الروس . فرصعت بها صولجان ملكها ، قيل إنه اشتراها بتسعين ألف جنيه نقدا وثمانمائة جنيه تدفع سنويا مدى الحياة .

ومنها المغول العظيم ، وهو فريدة عظيمة وجدت فى مناجم غلقندة وكانت زنة ٧٨٧ قيراطا فدفعها ملك المغول إلى جوهرى من أهل البندقية ليقطعها ويصقلها فردها إليه وقد انحط وزنها بعد القطع والصقل إلى ٢٨٠ قيراطا ! .

ومنها جوهرة بت (٤) وجدت إما بالهند ، وإما ببرنيو فاشتراها حاكم مدراس سنة ١٧٠٢ بنحو

(١) المقتطف من تواريخ الهند .
(٢) اللام هنا للعاقبة مثلها فى قوله تعالى ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا
(٣) Crloff.
(٤) Pitt.

٤٠٠ ر ٢٠ ألف جنيه . ولما قطعها وصقلها باعها من دوق أورليان[1] وكان وصيا على الملك لويس الخامس عشر ، بنحو ١٣٥٫٠٠٠ جنيه ، ويقال إنها أجمل جواهر العالم ، وكانت ٤١٠ قراريط ، فصارت بعد القطع والصقل ١٣٧ قيراطا .

وكانت قد سرقت من بين جواهر التاج الفرنسى فى أثناء الثورة ثم ردت وبقيت بفرنسا حتى اليوم .

وأكبر فرائد الماس جوهرة عدنت من مناجم أفريقية الجنوبية سنة ١٩٠٥ فطولها ١١ سنتيمترا وعرضها ٥ سنتيمترات ووزنها ٢٠٣٢ قيراطا (٦٧٦) جراما وهى تامة الشفيف ناصعة البياض ، حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها قطعة من الجليد النقى .

وقد اشتراها حاكم الترنسفال سنة ١٩٠٧ وأهداها إلى إدورك السابع ملك انجلترا .

رجوم الماس

ينزل الماس من السماء كما يصعد من الأرض ، فقد انقض على أرض روسية وغيرها من الجهات رجوم وجدوا بها حجارة صغيرة لها خواص الماس ومزاياه ، وغلا بعضهم فزعم أن كل الماس الذى فى الأرض أصابها من السماء ، وأن آبار الماس حفرتها فى الأرض الرجوم حين وقعت عليها .

لكن وقوع بعض الماس من السماء لا يثبت أن أكثره بلغ الأرض منها ، فإن الأرض من الكواكب ومادتها من مادتها ، فما يمكن أن يتكون هناك يمكن أن يتكون هنا .

الماس الصناعى

يصنع الماس الصناعى من الفحم : تغمر قطعة من الحديد النقى فى الفحم النائى من احتراق السكر وتسلط عليها حرارة فى درجة ٤٫٠٠٠ فسرعان مايذوب الحديد ويذيب الفحم ويمتصه ، ثم يبرد الذوب بسرعة فيجمد الحديد ويضغط بعضه بعضا ضغطا شديدا ، فيصير الفحم الذى فيه بلورا ماسيا ثم يذاب الحديد بماء الذهب فينشق عن مواد بينها بلورات بيضاء من الماس الحقيق .

بيد أن حجارة الماس المصنوعة كذلك صغيرة جدا لا تصلح لترصيع الجواهر ولو أنها ماس حقيق لها خواص الماس الطبيعى ومزاياه كلها .

انتهى ملخصا من كتاب [المطالعة : للمدارس الثانوية] .

أليس من العجب أن من الفحم يكون الماس الذى لم يكن إلا من مادة الفحم ، والفحم من الشجر ، والشجر من الأرض ومائها وهوائها ، وهذا الماس أصلب المعادن التى أدناها درجة فى الخدش والتأثير فى غيره حجر الطلق الذى يخدشه كل معدن ولا يخدش هو واحدا منها ، ويعلو على الطلق درجة واحدة الجص ، فهو يخدش الطلق ، وجميع المعادن ماعدا الطلق تخدشه . ودرجات المعادن فى الخدش والتأثير عشرة أعلاها الماس ، فهو يؤثر ويخدش كل معدن منها ، ولا يخدشه واحد منها .

رباه : جل صنعك ، وبهر جمالك ، وأبدعت حكمتك سبحانك : دعتنا الحاجة أن نكسر الأضواء الواصلة من الشمس مثلا ، فجعلت الماس وأمثال الماس كاسرا لها ، احتجنا أن نعرف طبقات الأرض الصخرية فجعلته ثاقبا لها .

---

(١) Orleans .

ولما كانت هذه الحاجة قليلة جعلت الماس قليلا . هذا من آثار جمال قوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » . وبهذا تم الكلام على الزبرجدة الثانية فى آية « الحمد لله رب العالمين » . فى الفاتحة وما يناسبها من آية الحمد فى أول سورة الأنعام على خلق السموات والأرض ، وتخصيص الكلام على خلق الإنسان من طين ، وإظهار بدائع تشريحه العجيب .

مصاعد الحمد فى آيات العلوم المفرقة فى القرآن وهى حول ٧٥٠ آية

اعلم أيها الأخ المخلص لربك ولدينك ولأمتك أن الأحاديث الواردة فى الحمد وثوابه كثيرة جدا ، ولقد ورد فى الكتاب آيات كثيرة فى الحمد وفى فضائله ، وكفاك أن الحمد آخر دعوى أهل الجنة « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » وترانا نحمد عقب الصلوات وفى كل حال .

وكثيرا ماتسمع أيها الأخ فى الحكم الإسلامية أن الحمد لله تملأ الميزان ، ولا جرم أن الميزان مقرون بعالم السموات إذ يقول الله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » . فالميزان إذن عام فى السموات والأرض ، فتراه يقول فى عوالم الأرض « وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » ويقول فى عالم الآخرة « والوزن يومئذ الحق » .

ولا جرم أن العوالم كلها مقدرة ، والتقدير لا يكون إلا بميزان « إنا كل شئ خلقناه بقدر » إذن نحن الآن فى مقام إظهار مصاعد الحمد . وإنما عبرنا بمصاعد لأن الله يقول « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

لجميع الآيات الواردة فى عوالم السموات والأرض ومابينهما دالة على الجمال الالهى ؛ وها أنذا أحدثك عنها لتعجب من جمال وبهاء مخبوءين فى القرآن ، والناس نائمون ساهون لاهون ، فرحون بالحمد اللفظى عقب الصلوات وفى الصلوات ، وفى المآكل والمشرب ، فأما حقائق الحمد وجمال الحمد والسعادة بالحمد والابتهاج بالحمد فالناس عنها ساهون مبعدون .

وهذا الحمد الذى سنذكره فى هذه الآيات مفصل الحمد الذى تغلغل فى نفوس الصحابة والتابعين ، فطاروا فى الأرض شرقا وغربا إرضاء لربهم ولدينه ، فأما نحن فإننا لسنا مثلهم من حيث اقتراب أعمال النبوة منهم وإمدادها وإشرافها ، فلا يسعنا إلا أن نستمد المعونة من بارئ النسمات أن يلهمنا حمدا كما حمدوا ، ويرشدنا كما رشدوا ، وإن كان الآخرون ليسوا كالأولين : • وأنى يستوى الفئتان أنى •

ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله ، إذن ليس لنا إلا أن ندرس هذه المحامد فى السموات والأرض على ضوء الآيات التى سنسردها فى هذا المقام ، ليشرق مجد أفل ، ويبزغ نجم غرب ، وتطلع شمس توارت بالحجاب ، فيصبح المسلم فى غدوه ورواحه سعيدا بما فى نفسه من حكمة ، مشرقا بنور الحكمة الربانية مشاركا للأمم فى علومها ومعارفها ، مرتقيا حكيما ، مرقيا للانسانية كلها ، خليفة الله فى أرضه ، هذا هو الذى أريده فى هذا الملحق : هذا هو الذى ساقنى الله لأجله ، هذا هو الذى أنا به موقن مغرم ، بل سعيد ، لأنى أحس فى نفسى اليوم بسعادة الأمم الإسلامية المستقبلة ، تلك الأمم المشرقة ، تلك الأمم التى بسعادتها أسعد أنا الآن ، إذ يخيل إلى أن ما أكتبه الآن كأنهم قرءوه ، وكأن أناسا منهم نبغوا ، فارتقى العلم وعم بلاد الاسلام ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأخذ المسلمون مظهرهم الحقيقى : مظهر العلم والحكمة والإصلاح والعدل بين الناس ، وإصلاح الكرة الأرضية .

هذا هو الذى أتخيله كأنه واقع ، وبهذا الخيال أحس بسعادة فى نفسى مستمدة من سعادتهم هم ، إذ

تبهج الناظرين ، وتسر الغادين والرائحين ، وتكون إسعاد لنوع الناس أجمعين ، فلأبدأ الآن فى شرح هذه المقاصد حامدا الله رب العالمين ، فأقول :

خطاب عام لأمم الإسلام

أيها الأمم الإسلامية أريد أن أتحدث إليكم الآن فى نبأ عظيم ، أتدرون ، ماهو هذا النبأ ؟ هو نبأ عوالم السموات وعوالم الأرض ، فلتكونوا أيها الإخوان كما تشاءون ، فلتكونوا حنفية أو شافعية أو مالكية أو حنبلية : وهابية أو زيدية أو أمامية أو أباضية واحشروا فى علم الفقه ماتشاءون ، وحققوا فى علم الأصول ماتحسنون ، اقرءوا ، ادرسوا ، ليقل الحنبلى الوهابى ماشاء فى زوار القبور وليخالفه الأمامى فى ذلك وليختلف الزيدية والأمامية ماشاءوا أن يختلفوا ، وليخالف الطائفتان أهل السنة ، ليكن كل ذلك ، وليقم آخرون فيقولون : نحن مسلمون ولكننا بهائيون ، وآخرون فيقولون : نحن قد بابيون وليقم أتباع الأشياخ من الصالحين الرفاعية والأحمدية والدسوقية والكيلانية ، وليقم غيرهم وغيرهم فيقرأ كل فريق أوراد شيخه ويعرض عن أوراد الشيوخ الآخرين ، ولتقم فى الإسلام طوائف وطوائف : كالميرغنية فى السودان ، والتيجانية والكتانية وأتباع ماء العينين والسنوسية فى الغرب وطرق كثيرة غيرها .

أيها المسلمون أنا لا أتعرض لتفصيل تلك المذاهب ولا أقف فى سبيل أحدها ، لأن ذلك يطول شرحه ولا يأتى بالغرض المقصود من تأليف القلوب ، ولكن أقول يأيها الإخوان المسلمون تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نعبد الله ونحمده ونشكره ، وليس فيكم من لايعظم القرآن ، أليس القرآن كلام الله ؟

ها أنا ذا أعرض بعض آياته أمامكم وندرسها معا فأقول : ماذا تقولون أيها الأحباب فيما فى سورة البقرة من الآيات التى تشوق وتحض على علم الفلك وعلم الطبيعة ، وبعبارة أخرى العلوم الرياضية والطبيعية .

هاهنا حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : هذا أسلوب آخر فى تفسير القرآن وماذا تريد به ، فقلت : أريد أن أعرض الآيات القرآنية التى فيها هذه العلوم ، ولما كانت العلوم قد تدخل بعضها فى بعض أوردنا الآيات وفيها تدخل هذه العلوم ، ألا ترى أن الأرض المشحونة بالعلوم الطبيعية هى نفسها دائرة حول الشمس ولها حساب فلكى ، وهكذا الشمس وهى محور علم الفلك أصبحت اليوم داخلة فى علم الكيمياء من حيث عناصرها وتحليلها ، وفى علم الطبيعة من حيث حرارتها وضوؤها وهكذا ، فالعلوم الرياضية والطبيعية متدخلة وإن تباينت ، متناصرة وإن تباعدت ، فانظر إلى ما قلناه عشرات المرات من أن فى القرآن مئات الآيات الدالة على العلوم الرياضية والطبيعية ، فلنذكر بعضها هنا ، ولنقدم قبلها سر الأسرار وعجائب الأنوار ، وهو السر المصون المخبوء فى [الم] فى أول البقرة الذى جعل مفتاحا لجميع العلوم التى تركها المسلمون قرونا ، فهاهو ذا المفتاح .

أسرار الم

فهاك ماجاء فى مجلة [هدى الإسلام] تحت عنوان :

حديث فى أسرار القرآن

قد أعلنا فى الأعداد الخالية بأنا سننشر رحلة حجازية لفضيلة الأستاذ الفيلسوف العلامة الشيخ

[طنطاوى جوهرى] وقد رأينا أن تنشر من محتوياتها هذ الموضوع العلمى الجليل مما داربينه وبين علماء الإسلام بجدة من نقاش علمى فى أسرار [الكون والطبيعة] ليعلم القارئ أن هذه الرحلة جديرة بالتنويه والنشر ، ويكون ذلك داعية له إلى انتظارها حتى لا تمضى هذه الخلسة السانحة والفرصة السعيدة من غير أن يقتنصها .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أنا أحمد الله عز وجل على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، العلم نور وبهجة ، العلم سعادة ، الله نور السموات والأرض ، ونور ذاته محتجب عنا لا نراه فى هذه الدنيا ، كلا ، ولكننا نرى النور المخلوق فى عوالمنا ، فتدهشنا بدائعه وعجائبه من شموس وأقمار وكواكب وأزهار بديعات فى الأرض ، وبدائع أهل الجمال وفى الأحجار الكريمه ، كل ذلك عجب يدهش العلماء ولا يأبه له الجهلاء ، سبحان الله ! إن هناك نورا أبدع وبهجة أوسع ، وذلك فى حوز العلوم والتقرب لله بها ، فها نحن أولاء نرى أن الإنسان مهما حل بأى أرض رأى إخوانا على نهجه جادين فى طريقه يأنس بهم أنسا ينسيه نور المشرقات النيرات فى دياجى الظلمات ، إذن العلم أجل نور فى عوالمنا ، أليس من آثاره أننى لما حللت بجدة من أرض الحجاز صادفنى رجال من أهل العلم من أقطار مختلفة وما كادوا يعلمون بحضورى حتى رغبوا أن يكون بيننا حديث فى عجائب صنع الله وعجائب القرآن وكانوا أربعة من خير أهل العلم ، لقد أدهشنى أنهم كانوا يحاسبوننى على النقير والقطمير على ماأنشر بالتفسير ، فقال أحدهم لقد جاء فى الجزء الأول من التفسير (الطبعة الثانية) مايفيد أن « ألم » فى أول سورة البقرة مفتاح العلوم فى مستقبل الزمان ومفتاح السياسة لأمم الشرق وقد أخذت تشرح ذلك فى التفسير وبينت ذلك ولكن هذا البيان لايكفينا فنرجو الإيضاح وإن كنت على سفر ، وقد قلت إنك ستبينه فى ملحق التفسير وها أنت ذا جئت للحج ولم تكتب ملحق التفسير ، وإنا نخاف أن تعوق العوائق عن ذلك ، لاسمح الله ، فهل تذكر لنا شذرة مما ستكتبه فى الملحق الذى وعدت به ووعد بطبعه الشيخ (مصطفى البابى الحلبى) ؟ .

وقال آخر : إنا نرجو أن تشرح لنا هذا السر على حسب الطاقة ونكتبه لنقرأه على إخواننا الذين قرءوا ما كتبته عن الآراء الثلاثة فى هذه الحروف فى أول السور ، وهى ملخص ماذكره الأقدمون ، وقد سر به الإخوان ، وكان تلخيصه فى أول سورة آل عمران بحيث جمع آراء :

(١) أمثال ابن عباس رضى الله عنهما من حيث إن الحروف ترجع إلى أنها رموز الأسماء الله الحسنى .

(٢) وإلى آراء العلماء الذين بحثوا فى صفات الحروف ككونها مهموسة أو مجهورة أو مزلقة أو نحوها فوجدوا نظاما مدهشا وحسابا بديعا وقسمة عادلة بين التى ذكرت فى أول السور ، وهى أربعة عشر حرفا والتى لم تذكر وهى (١٤) حرفا ، وهو أمر لايقدر عليه أحد فى الأرض :

(٣) والرأى الثالث هو الإبداع فى تعداد تلك الحروف بالنسبة لعلم الفلك من حيث المنازل ، ولأصابع الإنسان فى اليدين الخ ـ فالمنازل فوق الأفق (١٤) وتحته (١٤) مثلها ، وكذا مفاصل الأصابع فهى (١٤) فى كل يد .

هنالك قال الثالث : أنا أريد الإيضاح لأنى لم أطلع على هذا التفصيل ، فقالوا له : ليس للقام مقام ذلك فاقرأه فى التفسير لأننا نريد سر « الم » نسمعه الآن .

فقال الرابع : إن البحث فى سر « ا ل م » فى أول سورة البقرة أمر مهم جدا ، بعد أن قرأنا فى الجزء الأول من التفسير فى الطبعة الثانية هذه القصة : أن السلطان محمود الغزنوى الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه معه فى الخطبة ببغداد وينقش اسمه فى سكة الذهب والفضة (العملة) فامتنع الخليفة من ذلك فبعث

إليه بكتاب فيه تهديد ووعيد قال فى جملته (لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت) فبعث إليه الخليفة كتابا مختوما فلما فتحه لم يجد فيه إلا ألفا (آ) ممدودة وفى وسطه (ل) وفى آخره (م) والصلاة والحمد لله » فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليه أبو بكر القاهستانى ففكر فى ذلك وقال عندى شرحه ، فقال : اذكر ولك ماتريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة ، فبعثوا له هذا الكتاب وبه (ا) (ل) (م) إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الخ السورة فارتاع السلطان لذلك ووقع فى قلبه الخوف والندم وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضى والأدب ، انتهى .

ثم قال : ولقد جاء فى أول سورة آل عمران مايفيد أن الرموز كانت مستعملة عند أهل الكتاب (النصارى واليهود) وفيه مايفيد : أن القرآن كتاب سماوى ، والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى ، والرمز والإشارة من المقاصد السامية المعانى العالية والمغازى الشريفة ، وقديما كان ذلك فى أهل الديانات .

ألم تر إلى اليهود الذين هم كانوا منتشرين فى المدينة وفى بلاد الشرق أيام النبوة كيف يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم فى الحروف العربية ، فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة والدال بأربعة ، وهكذا مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة ، والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة ، والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف .

كذلك ترى أن النصارى فى اسكندرية ومصر وبلاد الروم وفى سوريا قد اتخذوا الحروف رموزا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى مصر ، وكانوا يرمزون بلفظ (أكسيس) لهذه الجملة : يسوع المسيح ابن الله المخلص . فالألف من (أكسيس) هى الحرف الأول من لفظ (أيسوس) يسوع ، والكاف منها هى الحرف الأول من (كرستوس) المسيح ، والسين منها هى حرف التاء التى تبدل منها فى النطق فى لفظ (ثيو) الله : والياء منها تدل على (ايوث) ابن ، والسين الثانية منها تشير إلى (ثوتير) المخلص ، ومجموع هذه الكلمات : يسوع المسيح ابن الله المخلص ، ولفظ (إكسيس) اتفق أنه يدل على معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزا لآلهتهم ، فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحروف ، ومن الرمز بالحروف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف ، قال الحبر الإنجليزى (صموئيل مونتج) إنه كان يوجد كثيرا فى قبور رومه صور أسماك كثيرة مصنوعة من الخشب والعظم ، وكان كل مسيحى يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم .

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التى أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لابد أن يكون على منهج يلذ الأمم ، ويكون فيه مايألفون ، وستجد أنه لانسبة بين الرموز التى فى أوائل السور وبين الجمل عند اليهود ورموز النصارى إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبى أو بين علم العلماء وعلم العامة ، فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هى حروف الجمل .

ثم خاطبنى قائلا : أنت قلت فى تفسير هذا المقام : إن القرون الماضية كانت ممهدة لما كتبناه اليوم من هذا السر ، فلم تذهب تلك القرون سدى ، بل هم ممهدون لنا ، وعلينا نحن أن نعمل لمن بعدنا ، وبسبب هذه الأسرار ونحوها استحق القرآن أن يقال فيه « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثم قلت أنت بعد ذلك وأنا أقول : من ذا يقدر من البلغاء أن يأتى بكلام فيه سر كسر (ألم) فى أول البقرة مثلا ؟ ثم أخذت تشرح ذلك : نحن نظن أنك الآن موقن أننا مطلعون على ما كتبت فى هذا الموضوع

فتطلب المزيد، ألم تبين فى سورة آل عمران أن (ا ل م) فى أولها تشير إلى آية « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا الخ ، وأن هؤلاء اليهود لما اغتروا بمجد آبائهم وشفاعتهم فعصوا ربهم زال ملكهم وأخذه العرب وأنك قلت إن هذا يفيدنا نحن ، لأن كل أمة تنام كسلا عن الأعمال العامة يتورها الانحلال ويؤخذ ملكها ، وأن أمم العرب لما فتحوا بلاد الله قام أبناؤهم ، وهم نحن وأمثالنا فاغتررنا بمجد الآباء ، فهذا يوقظنا ، وقد لخصت ماقاله الغزالى فى غرور كثير من العباد والعلماء والأغنياء والصوفية فتفرقت الأمم شيعا كل هذا بمناسبة قوله تعالى « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » .

أليس هذا يبعث فيك حماسة أن تسمعنا ما يخطر لك مما يمتكنه فى الملحق الذى وعدت به ؟ قلت . بلى وسأتكلم فى العدد القادم إن شاء الله على الجواب عن هذا السؤال تحت عنوان (الم) فى أول سورة من القرآن بعد فاتحته مفتاح العلوم التى جهل أكثرها الآباء فزال ملكهم وستعلمها الأبناء فيرجع ملكهم، وبالله التوفيق .

فهاك الآيات التى بدئت بحروف [ا ل م] وقد تضمنت أكثر العلوم المطلوبة فى زماننا وهى :

(١) « ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير » .

(٢) « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

هاتان الآيتان تفيدان أن التوحيد لا يتم إلا بدراسة علوم السموات والأرض ، وهى العلوم الطبيعية ونظام السموات والفلك .

(٣) « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » الخ ، فى هذه الآية الحجر الصحى المعروف ، وتفصيل هذا المقام فى كتاب [الجواهر فى تفسير القرآن ، الجزء الأول] .

(٤) « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل » الخ ، وفيها (ا) قوله تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » وهى تشير إلى أهم أركان حفظ الدولة ، وهى القوة كقوة الجيش والعلم . (ب) فيها مسألة أن من شرب من النهر جبن ، ومن ترك الشرب قهر العدو . ويؤخذ منه أن نصر الأمم يتوقف على العفة ، وترك الشهوات لحفظ القوى .

(٥) « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » وفيها (ا) علم الكيمياء فى مسألة الطير ويتبعه سائر العلوم الطبيعية ، فهذا يعلم الناس أن الله على كل شئ قدير (ب) وفيها علم التشريع المأخوذ من مسألة الحمار ، إذ يقال لعزير « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير » .

(٦) « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » — الخ . وفى هذا المقام عدم الاتكال على المجد القديم ، ونبذ كل غرور بنسب أو علم ، وذلك كله يوجب تصدع الملك وذهابه ، ومن أراد هذا المقام فليقرأه فى سورة آل عمران ، إذ يرى أن اليهود فى زمن النبوة زال ملكهم بسبب اتكالهم على آبائهم وشفاعتهم أو تحديد زمن العذاب يوم القيامة أو نحو ذلك ، فكان هذا الغرور سببا لزوال ملكهم ، وهذا قوله تعالى فى هذا المقام « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ونظير هذا الغرور ما اغتر به ضعاف المسلمين من عباد وصوفية وعلماء وغيرهم وهم الذين أوضحهم الغزالى فى [الإحياء] وذكرناهم هناك وبينا كيف يكون اتحاد هذه الطوائف كلها ، وأن هذه القصة يرادبها تهذيبنا نحن فى زماننا .

(٧) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » . فى هذا علم النبات ، فيه يعلم الإنسان معنى أن الله لطيف ومعنى أنه خبير .

(٨) « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته » . وفى هـذا علم السفن والطرق البحرية وأنواع السفن التجارية والشراعية والكهربائية ، وبهذا يعرف الإنسان نعمة الله ويحبه بشرط أن يكون صبورا على المشاق دارسا ذلك دراسة تامة حتى يعرف هذه النعمة ، وهـذا معنى قوله فى آخر الآية « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

(٩) « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل » الخ . فى هـذا الحث على دوام التذكير للأمة بدينها وبأحوالها العامة والخاصة ، وبالمواعظ المؤثرة .

(١٠) « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » . وهذه تدل على أن الأمة الظالمة لابد من أن تذل وتزول كما حل ببعض أممنا القديمة ، كما فى آية أخرى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١١) « ألم يجدك يتيما فآوى » الخ ، ويؤخذ من هذه أن آلام الناس لارتقائهم ، وهى دروس تعلمهم أن ينقذوا غيرهم مما أصابهم هم ونجوا منه .

(١٢) « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم » الخ . وفى هذا الحث على قبول العلم والهداية وعدم العناد .

(١٣) « ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى » . وفى هذه الآية علم الأجنة ، وهو علم [البيولوجيا] .

(١٤) « أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر » فيه عظة الناس بأنهم لايتركون حياتهم سبهللا .

(١٥) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فى هذا علم النبات وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحديث ، وهو علم الألوان الذى لم يظهر فى الأمم الغربية إلا منذ نحو ثلاثين سنة .

(١٦) « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » الخ وفى هذا الحث على مناظر الظلال ، وقد بسطنا الكلام فيها فى كتابنا [الجواهر] وأتينا هناك حسابها ونظام مثلثاتها وبدائعها . وفى كتاب [نظام العالم والأمم] ترى كيف كانت الظلال فى امتدادها مبنية على الأعداد من حيث جمعها وترتيبها وطرقها فينتج هناك مثلثات متناسبات بديعات ، وهى يعوزها إيضاح لايتسع له هذا المقام .

وسنتكلم فى العدد القادم إن شاء الله على آيات أخرى مبدوءة بهذه الحروف الثلاثة [ا ل م] التى تشير لها [الم] فى أول البقرة ونحوها تذكيرا لنا نحن فى زماننا أن ندرس ماجهلناه وعرفته أوروبا فذهب مجدنا فليرجعه الشبان الآن بحب العلوم والمعارف وكل آت قريب .

(١٧) قال الله تعالى « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » الخ.

(١٨) « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم » الخ .

وهاتان الآيتان (١٧ و ١٨) تبعثان فى نفوس المسلمين بعدما أن يقرءوا تاريخ الأمم ، لاسيما أولئك الذين سكنوا ديارهم بعد فناء تلك الأمم التى خلت ، وإلا فكيف يقال لهم « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » ؟ وكيف يكون التبين إلا بقراءة تاريخهم ودراسة أحوالهم لينزهوا عن الجرائم التى أورثت من قبلهم الدمار

وافلاك ، فإن للجو والأحوال العامة فى الأقاليم تأثيرا على النفوس ، والعلم والمعرفة يحملان الناس على الرقى فى الفضائل والتنحى عن تلك الرذائل .

(١٩) « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » . النجدان : طريقا الخير والشر . فى هذه الآية إعلان :

أولهما : علم التشريح ، فإن دراسة العين مثلا تبهر العقول وتدهش أولى الألباب ، يقول الله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . ويقول فى آية البقرة كما تقدم « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » ننشزها : نرفعها « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » :

وأقول : إن هذا العلم لن يؤتى ثمرته الناضجة بغير التعمق فيه ، ومن أراد أن يبتهج بنعمة العلم والحكمة فى علم التشريح فلينظر أمثال ماتحلى فى قوله تعالى « و فى أنفسكم أفلا تبصرون » . وفى أمثال قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » إذ تتجلى له صورة العين مصورة بالتصوير الشمسى ، وقد تبدت فى هيئة بديعة بحيث ترى تسع طبقات ، وآخر طبقة منها ، وهى الشبكية لايزيد سمكها على سمك هذه الورقة ، ومع ذلك تراها مقسمة عشرة أقسام : وآخر قسم منها وهو الذى إلى الدماغ فيه ثلاثون مليونا مخروطا وثلاثة ملايين شكلا أسطوانيا كل ذلك لطف وحكمة ودقة فى الصنع لكى تنقل الصور الخارجية المرسومة فى العين إلى محل الإحساس فى الدماغ ، وهذا هو العجب الذى به نعرف معنى قوله تعالى « ألم نجعل له عينين » الخ ، ومعنى قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومن اطلع على ما كتبناه فى تفسير (سورة فاطر) وفى سور أخرى غيرها أدرك بالمعاينة سر قوله تعالى « وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » وإذ ذاك يفهم فهما يقينيا لاتقليديا كيف يقول الله تعالى « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » « وما راء كمن سمعا » هذا هو العلم أيها المسلمون ، وهذا هو اليقين . أما الدراسة اللفظية ، فانها أضاعت أمما وأمما . وقتلت نفوسا ونفوسا . اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان ، فقد أفرغت جهدى فى التحذير من الجهل والغفلة والنوم العميق الذى أضر بأمتنا الإسلامية قرونا وقرونا وأكثر القوم فى غيهم يعمهون :

وثانيهما : علم النفس الحديث فادرسوه أيها المفكرون فى الأمم الإسلامية ، فإن قوله تعالى « وهديناه النجدين » أى طرق الخير والشر — يرجع إلى جميع الغرائز التى يتصف بها الطفل فى أول حياته ، وهل هى خارجة عن الخير والشر ؟ كلا : فالغريزة إما للخير ، وإما للشر . وهما النجدان المذكوران فى الآية ، ومن أراد استيفاء هذا المقام ومعرفة سر هذه الآية ، فليقرأه فى تفسير (الجواهر) فى سورة العلق عند قوله تعالى « علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » : فقد أبنا هناك آراء علماء العصر الحاضر فى الغرائز المخلوقة مع الصبيان وآثارها فى الخير والشر : وهما النجدان المذكوران فى هذه الآية ، وهناك يتجلى لك آراء (كانت) الفيلسوف الألمانى ، وترى هناك ملخص كتابه المعنون (كانت فى التربية) وترى التربية للطفل فى جميع درجاتها وللفتى والشاب ، وهناك تتجلى لك الغرائز ويتضح لك هناك قوله تعالى هنا « وهديناه النجدين » .

(٢٠) « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » : فى هذا مايشير إلى أننا علينا أن ندرس صحف الأمم كلها لاستخلاص مايذكر فيها تشجيعا للعلماء أو للملوك أو غيرهم ليكون ذلك داعيا إلى الاستزادة من الخيرات والتنحى من الشرور .

(٢١) « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » إن أهل مكة فى زمن النبوة كانت تجبى إليهم الثمرات . وكان الحرم آمنا ، ومع ذلك وصفهم الله بأنهم لا علم لهم بذلك ، وهذا أمر عجب ! ! يأمنون فى حرمهم وتجبى الثمرات إليهم وهم يدسونها وياكونها ، ومع ذلك وصفوا بعدم العلم ، وحقيقة الأمر أن الناس أكثرهم يعيشون ويموتون وهم مغمورون فى النعم ولفلة الفطنة والانغماس فى الترف والنعم لا يعلمون أن هذه نعم ، بل يحسون فى نفوسهم بحزن على مافات وتوقع لما يشتهون ، « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، وليس يخرج الناس من ذلك إلا الدراسة والتعمق فى الحكمة والعلم ، حادث من تشاء وسامر من تحب من الجلساء ، وذكرهم بالسموات والأرض والنبات والحيوان والماء والهواء والحكومات المنظمة الحافظة للأمن فى البلاد ، فلا تجد أحدا منهم شاكرا لأنه مغمور فى شهواته مغموس فى هواجسه ، فأين العلم إذن بالنعم ؟ لا إحساس بالنعمة إلا حيث تكون الدراسة ، لا يعرف نعمة الله فى البيات إلا من درسه درسة تفصيلية خاصة ، وكذا الماء والهواء والشمس والقمر والأرض ، إن الغفلة مستحكمة والنفوس نائمة ، فلتستيقظ النفوس ولتحى القلوب ؛ هذا مايشير له قوله سبحانه هنا « ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وسكفى بهذه العجالة السريعة والخاطرة السانحة « ولمقام عود إن شاء الله تعالى . ونسأل الله أن يبصر المسلمين بحقائق مايبصرون من جمال الخليقة ومحسنات الكون وبالله التوفيق .

(٢٢) « أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » هذه الآية تحث على دراسة علم النبات وفيها نكتة بديعة ، وهى الإشارة إلى ذكور الزهر وإناثه التى تلقح بطريق الهواء أو الماء أو الحشرات وهناك بحر واسع من العلم وجمال وبهجة وإشراق نجده مشروحا بالصور الشمسية فى سورة الحجر من كتابنا ، والعجب كل العجب من أمتنا الإسلامية التى خاطبها الله بقوله ثم نحن لا نرى الأشياء على وجهها الحقيقى وكنهها الطبيعى ، فلا نصل إلى الغاية المنشودة من العلم وهى الابتهاج بالحقائق والوقوف على الدقائق وإدراك ذلك السر المصون الذى كشفه الله الآن للناس فعرفه قوم وغفل عنه آخرون .

انظر إلى الجمال الإلهى البديع الذى تجلى فى الأشجار والأزهار والأوراق وحسابها البديع المدهش ، الذى تجلى فى قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » إذ ترى هناك دوائر هندسية منظمة ترسمها الأوراق على الجذوع وعلى الفروع دوائر فوق دوائر ، وبين كل ورقتين ٧٢ درجة من الدوائر البالغة ٣٦٠ درجة ، وذلك فى شجرة التفاح ، وأكثر الناس يأكلون التفاح ولا يعقلون مافى أوراقه من النظام البديع والنور الإلهى الذى يتجلى هناك فى تلك الأشكال الحلزونية ذات الحساب العجيب وتلك النسب البديعة بين أوراق الأشجار جميعها .

سبحان الله ، ماراء كمن سمعا ! يقصر القلم ويعجز البيان عن إيفاء هذا المقام حقه ، فمن أراده فليقرأه فى تفسيرنا عند تلك الآية المتقدمة ، فهناك يدرك هذا السر المصون .

وهنا حكمة أخرى عجيبة بل سر مصون ، وهى ماتجلى فى قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » فإن الثمر إنما يكون من الزهر ، والزهر ذكر وأنثى ، وتقسيم النبات لم تقم قائمته إلا على الذكور والإناث من الزهر ، وبه بطل التقسيم القديم ، وهذا سر قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ومن أراد أن يبتهج بذلك الجمال فليقرأ ما كتبناه فى سورة [عم] وفى قوله تعالى فى سورة أخرى « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا » الخ فإنه يرى هناك صورا أكثر النبات بالتصوير الشمسى ويدهش من الجمال البديع والصنع الجميل والحكمة البالغة فى الأزهار وتعداد أوراقها وأعضاء تناسلها حتى يدرك أنه فى مملكة عجيبة ، وهناك نقط فهم قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة،

الخ كما تقدمت الاشارة إلى ذلك ، وهناك يدرك كنه اللطف الإلهى والحكمة فى نظام النبات .

(٢٣) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

(٢٤) « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

(٢٥) « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » .

(٢٦) « والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد » الخ الآية .

تطالب آية (٢٣) علم الفلك بجغرافيته ، وليعلم المسلمون أن الله يقول كيف بنيناها ، فلم عبر بكيف ؟ أليس هذا هو الذى يبحث عنه الناس فى الكرة الأرضية ، ويفكرون فى تجاذب الشموس والسيارات ، ويطلعون على كيفية دوران بعضها حول بعض كما يدور السالب حول الموجب فى الذرة الصغيرة التى تشبه الشمس وسياراتها جاريات حولها ! ! إن التعبير بكيف أمره عجب فى زماننا ، وهذا كقوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت » الخ الآيات ، أليس هذا كله هو المنهج الذى توجه إليه نوع الإنسان الآن ، فهاهم أولاء يبحثون فى العناصر التى تركبت منها الكواكب والشموس وذلك بتحليل ضوئها ؛ وبهذا الضوء يعرفون نفس العناصر التى تركبت منها الكواكب كما يعرفون عناصر الأرض ، هذا فى عالم السماء ، أما فى عالم الحيوان فإنهم يشرحونه ويبحثون عن تفاصيل أجزائه وعظامه وأعصابه وشرايينه وأوردته وجميع التفاصيل التى فى الجسم ، هذا هو التعبير بكيف .

وليست مباحث العالم إلا أمرين اثنين : الكيفية والكمية .

أما الكمية فهى المقادير ، وهى العلوم الرياضية لأنها جميعها ترجع إلى مقاييس الأشياء وحسابها .

وأما الكيفية فهى جميع أوصاف المادة وهى العلوم الطبيعية .

فإذا قال الله لنا كيف ، فما ذلك إلا أوصافها وأحوالها وتفاصيل أجزائها ونسبة بعضها إلى بعض ، وهذا هو الذى ظهر فى آية « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » وهنا يقول تعالى « كيف بنيناها وزيناها » إن على المسلمين عملا عظيما ومستقبلا لابد من تأسيسه والقيام بحقه . يا أيها الأجيال القادمة ، هذا هو دين الإسلام ، الله يقول لكم فى السماء « كيف بنيناها ويقول فى حمار العزير « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » كما تقدم ، ويقول فى الجبال « كيف نصبت » ويقول فى الأرض « كيف سطحت » فعليكم أن تجدوا فى البحث والتنقيب فى علوم الأمم شرقا وغربا وتفكروا لتزدادوا حبا فى ربكم ، وعلى أهل الجيل الحاضر أن يبثوا هذا الهدى بين أبناء الأمة الإسلامية المتأخرة حتى تهيأ النفوس وتستعد لذلك الباحث وتؤسس ما عليه أبناؤهم يبنون مجدهم فى مستقبل الأيام .

فى آية (٢٤) علم طبقات الأرض وعلم الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية وغيرها ، وكذا علم النبات ، وفى آية (٢٥) علم السحاب والمطر والهواء ، وفى آية (٢٦) بقية علم النبات وهو الشجر .

(٢٧) « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » فى هذه الآية علم السياحة فى الأرض بالجسم وبالعقل معا ، وأن ذلك نور للبصيرة ، ثم إن أقل السياحات [الحج] وقوله تعالى « فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » وختم الآية بقوله « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » تذكرة للمسلمين أن يكون سفرهم مفيدا لعقولهم فلا يذر المسافر شيئا مما رآه إلا فكر فيه وكتب مذكرة عنه إن كان من أهل العلم ، وإلا رجع كأنه لم ير ولم يسمع ، أسفا على الأمة الإسلامية . تلك الأمة التى تركت وشأنها فلم يذكرها وعاظ ، ولم يعلمها قوادها فأصبحت أضحوكة الأمم .

يعيش الطالب فى دراسة العلم الفقهى وعلوم اللغة العربية والأصول مدة دراسته ، ويخرج من ذلك وهو لايذكر بأن يسير فى الأرض ولا أن يفكر فيها فيها من العجائب . ويقتصر من العلم الديني على علم الفقه وحده المشتمل على مائة وخمسين آية تقريبا من القرآن . أما أمثال هذه الآية فإنها متروكة للطالب نفسه ، وهذا كان فى الأيام السابقة ، أما الآن فأنا موقن بأن جميع المعاهد الدينية فى مصر وغيرها قد استيقظت لهذه الحكم والقرآن ، وإن كثيرا من طلاب العلم بالمعاهد الدينية فى الجامعة الأزهرية قد تنبهوا لهذه المسائل هم وأساتذتهم ، وهذه حركة مباركة وشجرة خضراء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

(٢٨) « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا » تقدم نظير هذه الآية مثل قوله تعالى « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون » وهذه تذكر الناس بقراءة أخبار الأمم السابقة والاعتبار بها كما تقدم .

(٢٩) « ألم نشرح لك صدرك » فيها معرفة حق النعمة والشكر لله باستعمالها فيما خلقت له ومعاملة عباد الله بمثل ماعامل الله عبده به . فمن كان فقيرا فأغناه الله ، أو كان ذليلا فأعزه الله ، أو كان جاهلا فعلمه الله ، فهؤلاء أحق الناس بأن يواسوا غيرهم بالمال أو بالجاه أو يعلموهم العلوم التى كانوا يجهلونها . سبحانك يارب ؟ خلقتنا فى الأرض وجعلتنا خلفاءك فيها . وخاطبتنا فقلت « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ثم إنك أنت هديتنا النجدين وربيتنا تربية خاصة ، بحيث نعرف طعم الذل أو الفقر أو المرض أو الجهل ، ثم تغدق علينا النعم ، وكأنك تقول لنا : هأنذا ياعبادى أريكم أنواع النقص ثم كملكم ولم أكف باحالتكم على كتابى المقدس ، كلا بل بلوتكم بالشر والخير ، وقلت لنا « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » فأنت بابتلائنا بالضدين تمتحننا ، أنقوم بحق النعمة فنصرفها فيما خلقت له ، ونغيث إخواننا من الضراء التى كنا فيها ؟ أم ننسى تلك النعمة التى كنا فيها ويقول كل منا نفسى . . نفسى . . ؟ اللهم إنك حكيم ، وحكمتك وضحت وضوح الشمس فى رابعة النهار عند المفكرين ، وتخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم وقدوتنا الأعظم فتقول له « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » ثم رتبت عليه أن قلت « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » كما قلت فى السورة قبلها « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى » الخ . فأنت له اليتم وعدم العلم وعدم المال وأنك منحته الكمال فى هذه الثلاثة ، ثم كلفته بعد ذلك بأن يراعى اليتيم والسائل ويعلم الجاهلين .

سبحانك يا أنه !! علمتنا بطريقين : بطريق الدراسة العلمية والدينية ، وبطريق المشاق التى نعانيها فى الحياة من آلام وبؤس وجهل ، كل ذلك لنقوم بالخلافة فى الأرض ونساعد المجموع ، هذه هى الحياة ، وهذا هو دين الإسلام ، وكل هذا مندمج تحت « ألم نشرح ، وألم يجدك يتيما » الخ .

و[الم] التى ذكرت فى أول البقرة رمز لجميع الآيات التى فى أولها [الم] كما قدمنا ، وإنما ذكرناه هنا بعد ماشرحناه أولا لطول المقام الذى ينسى ، فعلى المسلمين أن يفكروا فى أمثال هذه الآيات .

إن من جهل أنه خليفة ربه فيما خلق له فى هذه الحياة فانه يقصر فى عمله والله سبحانه وتعالى يقول « ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » .

(٣٠) « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » فى هذه الآية تحذير من الغرور بخوادع اللذات والشهوات والأغراض ، وخداع كل مضل يشبه المسيح الدجال فيأتى للانسان بالشر فى صورة الخير ، فيوهمه أن السعادة فى المخدرات والمشروبات الروحية أو فى أن يحشد المال لنفسه بظلم أهل وطنه فيخدم الأعداء ظانا بغفلته أن المال الذى يناله بذلك يعطيه سعادة الحياة ، فيعيش منبوذا شقى الضمير

الذى يعذبه بغضب من ظلمهم عليه وهو فى نيران تتلظى هذه الحياة ، ثم بعد الموت يعرف مصيره . إن قوله تعالى فى آدم وحواء « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما » الخ الآية ، ليس القصد منه فيما نحن بصدده أن نعرف القصد بعد حفظها أو نعرف بلاغتها ونقف عند هذا الحد ، كلا ثم كلا . : وإنما القصد أن ندرس أنواع الغرور التى تنابنا فى هذه الحياة الدنيا ، وندرس الأمم والأشخاص ونفهم مقاصدهم لنعرف مايريدونه منا ، فكثير من رجال الديانات جميعها يتظاهرون بالصلاح وقد أخفوا فى باطنهم العلو والكبرياء ليجمعوا المال أو ينالوا الجاه أو الملك ، فكل ذلك سمة المسيح الدجال ، لأنه يشبه المسيح بحسب ظاهره : وهو الصلاح ، ولكن طلب المال أو الجاه أو الملك كل هذا يدل على أنه دجال ، وهذا كله سر قصة آدم .

« ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » ومن أعجب العجب أننا فى الصلاة نقول « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » لسنا نقول إن هؤلاء الشيوخ الكذابين الدجالين الذين يجمعون المال ولا علم عندهم إلا الترهات والخرافات أو أولئك الذين نالوا الملك بالدعاوى الكاذبة وما أظهروه بما يشبه الكرامة وخوارق العادات التى كانت على غير حق لأنهم ليسوا أولياء الله ، لانقول إنهم هم المسيح الدجال ، كلا . بل هم على قدمه يسيرون وعلى منهاجه ينهجون ويظهرون مايشبه خوارق العادات ليسيطروا على الناس فهؤلاء كلهم ممن أمرنا الله بأن نبتعد عنهم ونهانا عن اتباعهم وعن الاغترار بهم . إن الدين قتل المسلمين جهال ادعوا العلم فغشوا على عقول الجهلاء فتركوا حقائق الدين ، ومنهم من يحقر علماء الدين ظنا منه أن كلام شيخه الجاهل حق وأنهم عرفوا باطن الدين ، وأما هؤلاء العلماء فإنهم لايعرفون إلا ظواهره ، وهذا فرق الأمة وأضل أغلب العامة ، فأمثال هؤلاء إذا سئلوا عن نفوسهم وعن تشريح أجسامهم وعما حولهم من النبات والحيوان والسماء والأرض فإنهم لايجيبون ويقولون : نحن عرفنا الله ، فنقول لهم : أيها القوم إن هذا حرام عليكم معرفة الله تعالى إنما تكون وسيلتها النظر فى مخلوقاته ، ومن وصل إلى حبه والغرام به يجتمع عليه فى الآخرة ، أما من لم يحبه فى الدنيا واكتفى بالإيمان وحده وعقل عن مخلوقاته وجمالها فإنه يموت ناقصا ، وهل مثل هذا ينال الحظوة العظمى فيرى ربه يوم القيامة ؟ وإنما يراه من أحبه فى الدنيا ، وحبه فى الدنيا لايتم إلا بالنظر إلى جمال صنعه ، وإن شئت فاقرأ ما كتبته نقلا عن الغزالى فى آية « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الآية .

ومن العجب أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أبان فى الأحاديث الشريفة أن المسيح الدجال يفعل عجائب تشبه الكرامات وليست بكرامات ، بل هى امتحان للناس ولعقولهم فذكر بأنه يأتى بنار وجنة ، فمن دخل ناره فهو يدخل الجنة ، ومن دخل جنته فانه يدخل النار وذكر أنه يأتى بمن يقتله ثم يحييه ، ومع ذلك لم يعذر دينا من اتبعه ، فهذه القدرة وهذه الخوارق التى تأتى على يد المسيح الدجال لا تكون حجة للعبد على اتباعه ولا يعذر بل يهان لأنه خالف ماهو معقول فى الدين الإسلامى . بناء عليه نقول : كل من خالف الشريعة الحقة ولم يكمل نفسه وأخلاقه واتبع رجلا ناقص العلم جاهلا بالدين والعقل فعكف بتعليمه على أوراده ونبذ العلم ظهريا ، فإنه ضلال . أين العلم إذن ؟ لقرأ الأوراد ، لذكر الله ، هذا حسن ، ولكن ذكر الله وحده يورث الأنس به ، ولكن حبه لايتم إلا بمعرفة العجائب كما لا تحب العالم إلا بعلمه لا بأن تذكر اسمه ، وأنا أقول إن فى الأمة الإسلامية اليوم من شيوخ الطرق من هم معتدلون صالحون

متمسكون بالكتاب والسنة يأمرون الناس بالعلم والعمل ، ولكن هؤلاء قليلون .

وأقول لجميع المسلمين يجب على كل قائد أن يأمر مريديه بالتعلم وترقية النفس وجميع المدارك ويعلمهم الاستقلال فى العمل والعلم لا أنهم يتكلمون عليه ، فذلك ضياع للأمة وخسران مبين .

فالطاعة العمياء التى لاعقل فيها ولا تفكير تعطينا آلات صماء لانفع للأمة فيهم ، ذلك كله تذكرناه عند قوله تعالى « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » وقوله « فدلاهما بغرور » فان هذا انتقل من آدم إلينا وأخذ الشيطان له أولياء من بنى آدم فغرروا بأممهم ، ومن هؤلاء المغررين الذين يبيعون المخدرات ، والمشوقون إلى الأمور الكمالية التى تضيع مال الأمة . ومن الدجالين الأمم الكبيرة التى تقول للأمم الصغيرة . أنا أرفعك إلى العلا وأريد الإنسانية ، وهى تريد قتلهم علميا واقتصاديا وتبتلعهم . فالشيوخ الجاهلون هم إخوان الأمم المستعمرة ، ولذلك نرى أن هؤلاء بالنسبة لتلك الأمم أشبه بالغربان تحوم حول بقايا ما أكلته السباع من اللحوم .

يا أمة الإسلام : اسمعوا منى واعلموا أن كل من يتم عقولكم ويأمركم بالخضوع للمستعمرين أو يعلمكم الإسراف فى المال أو فى الشهوات فانه أشبه بالمسيح الدجال الذى حذرنا منه النبى صلى الله علينا وسلم ودعونا الله فى الصلاة أن يعيذنا منه ، فهبوا للعلم وهبوا للعمل وانبذوا جميع الدجالين ، كفانا الله وإياكم شرهم .

(٣١) « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . فى هذا بيان أن الأمة التى اختل نظامها فكفرت بأنعم الله ، هى التى انغمس رجالها فى الترف والنعيم ، وحالت الشهوات بينهم وبين العمل بالعلم والإنصات بسماع التذكير والوعظ ، ولذلك قال الله تعالى فى آية أخرى « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم » . ومثل هذا يقال فى قوم أدلهم الطامعون ، فاحتلوا بلادهم ، وحقروا أمرهم ، ذلك لغلبة شهواتهم وميلهم للترف والنعيم .

(٣٢) « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون » فى هذه الآيات شدة الحذر فى السياسة العامة والخاصة ، وسياسة الأمم الداخلية ، وتحذير المسلمين من نفاق أهل وطنهم الذين يوالون الأعداء ، فيجب الاحتراس منهم ، والوقوف على دقائق أخلاقهم سرا وجهرا .

واعلم أن هذا الداء ملأ بلاد الإسلام الآن ، فما من دولة احتلتها الفرنجة إلا رأينا طائفة من أهل البلاد يوالونهم ، لاسيما بعض الرؤساء الروحانيين وأهل الثروة وغيرهم ، فهؤلاء يخافون على أموالهم وعلى مناصبهم فيوالون الفرنجة ، فليحذرهم المسلمون وليعلموا أن الشيوخ الذين اشتهروا بالصلاح كثير منهم يحافظون على مراكزهم بموالاة الفرنجة ، فهؤلاء لايخرجون عن أنهم نواب المسيح الدجال ، وأن المسيح كما قلنا مسيح صادق وهو ابن مريم عليه السلام ، ومتشبه به بمظاهر الصلاح والتقوى وهو فى الباطن يريد المال والسلطة ، فهذا يسمى [مسيحا دجالا] لا صادقا . ولا عبرة بما يظهر له من كرامات أو صلاح فليست كراماته بأكثر من خوارق العادات التى تظهر على يد المسيح الدجال الحقيقى الذى هو أحد أتباعه وإن لم يعلم .

(٣٣) « ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .

هذه الآية منبع لعلم الفلك ، وأنواع السدم ، والشموس العظيمة ، والمجرات ، وآثار الجمال الإلهى الذى تجلى فى تلك العوالم المدهشة البهجة ، فلقد ظهر من الشموس ما تجلى بلون الحمرة وحدها ، ومن الشموس

ما يزيد عن شمسنا ٢٥ مليون مرة فى الحجم بحيث لو حلت شمس منها محل شمسنا لكانت أرضنا داخلة فى حجمها ، وهذه الشمس إحدى نجوم الجوزاء ، ومن الشموس مازادت حرارتها زيادة هائلة حتى أننا لو وضعنا مقدار جوزة من حجمها على بعد أميال منا لأحرق الأجسام إحراقا تاما ، ومن الشموس ما لها ضوء ولا حرارة لها البتة فهو ضوء بلا حرارة ، وهناك عجائب لانقدر أن نحصرها الآن ، لأن كتاب التفسير جامع لأبدع مالهذه العوالم من الجمال .

(٣٤) « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا » الآية ، وهذه الآية تشير إلى علم الماء والأنهر والنبات .

(٣٥) « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم » الآية وهذه الآية تقدم نظيرها فى الحث على درس الأمم السابقة ، وما السبب فى هلاكها لاسيما إذا كان المسلم يعيش فى أرضها التى كانوا يسكنونها .

(٣٦) « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » فيها تحذير من عدم التدبر فى القرآن.

(٣٧) « أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » فى هذه الآية النظر فى علم الفلك والطبيعة ، وعلوم النبات والحيوان ، وكل علم بحيث تصير كلها علما واحدا ، وهل هذا إلا علم الفلسفة بعد دراسة التاريخ الطبيعى ، وأكثر العلوم لاسيما الرياضية ؟

(٣٨) « ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » هذه الآية تذكر بحفظ الجميل للمربى الصادق ، ولكن فرعون لم يكن مربيا صادقا .

(٣٩) « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين » : فيها بيان عظمة الله وبطشه بكل حى ، وهو بالكافرين أشد بطشا .

(٤٠) « أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » . فى هذه الآية بيان أن التقليد يعمى ويصم ويغطى على العقول حتى تنكر المحسوس والمعقول معا ، وهذه أكبر الرذائل ، فيجب أن يعلم المسلمون بطرق تجعلهم يفكرون تفكيرا استقلاليا من إبان نشأتهم ، ودراسة هذه الدنيا كافلة بارتقاء عقولهم ومعرفة أسرار الدين ونبذ الخرافات ، ذلك هو الصراط المستقيم .

(٤١) « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون »

فى هذه الآيات علوم كثيرة : منها علم منشأ هذا العالم ، والنظرية الحديثة القائلة : إن النظام الشمسى كان كرة نارية ، فلما بردت انفصلت الأرض والسيارات عن الشمس ، ودارت حولها كما كانت تدور ، وهى لاتزال بخارا فى ضمن حجمها الكبير ، وفيها أيضا : علم البحار ، وعلم السحب والأمطار ، وعلم طبقات الأرض ، وأن الجبال أشبه بعظام لهيكل الأرض ، وعلم الطرق الأرضية ، وعلم السموات ، وكيف كانت سقفا محفوظا ، مع أن السقوف التى نعرفها لاتدوم كثيرا . وهذا السقف يدوم ملايين السنين .

ثم ختم القول بذم من أعرضوا عن هذه الآيات ، وهى آيات السموات وعجائبها ، فليس يكفى المسلم أن يقول « آمنت » كلا ! فالإيمان الخالى من الكمال ضئيل . قال الله تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون » ومما يختبرون فيه جميع العلوم ، ومنها عجائب السموات ، وهذا الابتلاء للمسلمين السالفين انتهى بسلب الممالك منهم وإذلالهم :

الخاتمة

لهذا الحديث الذى جرى بينى وبين العلماء الذين قابلونى فى جدة أيام الحج من السنة الماضية ، وإننى لما ذكرت هذه الآيات من أسرار [ا لم] التى فى أول البقرة وغيرها حمدت الله عز وجل على نعمة العلم .

انتهى الكلام على ماتيسر من أسرار [الم] فلنشرع فى ذكر بعض الآيات التى تتضمن العلوم الرياضية والطبيعية ، فنقول : قال الله تعالى :

١ ـ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٢ ـ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

٣ ـ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

٤ ـ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

٥ ـ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

٦ ـ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

ألست ترى أيها الأخ فى هذه الآيات علوم الفلك والهواء والرياح والفصول الأربعة وحسابها واختلاف أيامها واختلاف لياليها وهكذا والسحب والمطر والبحار والفلك الجاريات فيها .

ألا تعجب من أنه كرر ذكر السموات فى هذه الآيات اثنى عشرة مرة وذكر للشرق والمغرب واختلاف الليل والنهار وإحياء الأرض بالنبات، وذكر خلق الحيوان وهكذا ، أفلا يخجلنا نحن المسلمين أن يكون هذا كلام ربنا ونحن عنه معرضون؟ ألسنا الآن قد عطلنا هذه المواهب والنعم فى الأرض وفى السماء ؟ ألم يقل فى هذه الآيات « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » فنقول له لا يا ربنا لا يا ربنا ، كلا كلا ، نحن عالة على أوروبا وعلى الشرق الأقصى ، الأمم المكتنفة بنا تعلم هذا ؟ لا يا ربنا نحن آمنا بك ، نحن عرفناك ، وأى معنى لهذه العلوم . فمتى عرفناك وآمنا بك كفانا ، أما إنك تقول «فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » فهذا النظر لا يعنينا وإنما يعنى الكافرين الذين يريدون أن يؤمنوا . ثم خاطبت صاحبى قائلا :

أيها الأخ أليس من أعجب العجب أن علماء التربية فى أوروبا وأمريكا قد أجمعوا على أن دارس هذه العلوم للغرم بها يصبح محبا ومغرما بأهل وطنه وبإسعادهم ، لأن هذا هو الخاصة لقراءة هذه العلوم ؛ ثم نرى الله فى آية «إن فى خلق السموات والأرض» الخ بعد ذكر الرياح والمطر والنبات والليل والنهار والسموات والأرض يقول فى هذا «لآيات لقوم يعقلون» فذكر العقل ، وبعبارة أخرى إن هذه لها آثار فى العقل، وبعبارة أوضح إن العقول تربى بهذه العلوم كما تربى الأجسام بالأغذية ، وبتربية العقول تزدان البلاد بآثار أولئك العقلاء ، أليس هذا هو عين ما يقوله هؤلاء العلماء الذين يجمعون على أن العقول الخالية من تلك العلوم لا محصل لها ولا نتيجة ، أف لقوم نائمين ، أف لمن يقرءون القرآن ولا يعقلون .

رباه ، قد أديت النصيحة وأنت أعنتنى عليها، رباه هأنا ذا قمت بما الهمتنى أن أبينه للمسلمين حتى يعيشوا مع الأمم ، وها أنا ذا صائر إليك فى الوقت الذى تشاؤه ، ولك الحمد على التوفيق فارحمنى بالإنابة وارحمهم بالقبول إنك أنت الرحمن الرحيم .

فقال صاحبى : هون عليك وخفف عن نفسك ثم أفض القول فى الآيات التى من هذا القبيل فى آل عمران ، فقلت :

إن فى آل عمران ثلاث عشرة آية تدل على هذه العلوم مثل :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ الم (١) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ

شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ (٤) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥).

٢ ـ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ.

٣ ـ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧).

٤ ـ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢).

فانظر يا أخي وتعجب من القرآن ومن أمة الإسلام يذكر الله الأرض والسماء وتصوير الأجنة في الأرحام ويبين أنه قائم بالقسط والعدل في ذلك، ويبين أن الليل والنهار يلج كل منهما في الآخر، ولا يكون ذلك إلا بحساب يدل عليه أنه قائم بالقسط فيه كما هو قائم بالقسط في غيره كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، ثم تراه يصرح تصريحا واضحا لا لبس فيه ولا غموض فيقول: إن أولى الألباب هم الذين يعرفون خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار معرفة ناشئة من تفكرهم في ذلك الخلق، وفي ذلك الاختلاف، ويذكرون ربهم على كل حال من قيام وقعود وعلى الجنوب ويستنتجون نتيجة صادقة فيعرفون أن هذا عالم قائم بالقسط والعدل فلم يخلق باطلا، فان الباطل ما يبنى على غير أساس حكمة ولا علم ولا نظام ثم يخاطبون ربهم بعد أن فرغوا من التفكير فيقولون: إننا نخاف من عذاب النار فإن من عذبته بها فقد أخزيته أليس ذلك داعيا حثيثا لدراسة هذه العلوم كالفلك بجميع أنواعه وعلم النبات وعلم التشريح وعلم الحياة والله أكبر، وضح الحق واستبان السبيل. فقال صاحبي: فأرجو أن أسمع ما في سورة النساء، فقلت:

١ ـ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ

وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا .

فقال: وأى دليل هنا يدل على هذه العلوم ؟ فقلت : إن الله يقول إن ملكه يسع السموات والأرض والسموات عوالم ، وراء عوالم ، ولقد ثبت الآن عند علماء الفلك أن من الشموس ما يفوق شمسنا (٢٥) مليون مرة ، هذه الأرض الحقيرة التى هى أصغر من شمسنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة فأين الأرض بالنسبة لتلك العوالم العظيمة ، وكيف يمكن أن يكون له ولد يستعين به ،وهو صاحب هذه الملكة كلها ، وهاهنا نكتة خفية ، وهى أن هذه الأرض التى يقول علماء عصرنا أنها لو صغرت فأصبحت جوهرا فردا، وأصبح عالمنا كله مصغرا على هذا النمط لأصبحت العوالم كلها ألف مليون أرض كأرضنا بحالها الحالية ، إذن أرضنا عدم بالنسبة للعوالم ، فكيف يكون الولد الموهوم الذى هو ابن الله مختصا بمكان هو بالنسبة لملك أبيه عدم محض وجوهر فرد بالنسبة لألف مليون أرض ، إذن هذه خرافة ،وأى خرافة؟ هذا سر من أسرار ذكر السموات والأرض بعد ذكر المسيح ابن مريم، وإن هذه الجهالة عار على هذه الانسانية .

فيأيها الأخ كيف يتسنى للمسلمين أن يقيموا الحجة بهذا على الناس إلا إذا قرءوا هذه العلوم الفلكية .

رباه، إن الحق واضح والطريق مستقيم، ولكن أكثر الناس لايعقلون ، وأمة الإسلام غافلة نائمة وهأناذا يارباه قد أوضحت لهم ما أقدرتنى على إيضاحه فأعنى وارحمنى واغفرلى ووفق إخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى سعادتهم فى الدنيا وإلى حبك وإشراق أفئدتهم بنورك الذى أشرق وأضاء فى سمواتك وفى أرضك ، وأغدق علينا يارب نعمك فانا عبيدك فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فلا تحرمنا من جمال أنوارك واكشف الغطاء عن عقولناوأنر بصائرنا إنك أنت الرءوف الرحيم النورالهادى ذو الجلال والإكرام .

قال صاحبى فاذكر مافى سورة المائدة من هذه العلوم فقلت : يقول تعالى:

١ ـ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) .

٢ ـ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) .

٣ ـ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) .

٤ - وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) .

أليست جميع هذه الآيات مختومة بأنه على كل شيء قدير ، وكيف تدحض حجة الولد وظهور هذه الترهات إلا باظهار هذه القدرة ، وهذه العظمة المجسمة فى السموات والأرض تتأججها على منوال ماجاء فى السورة السابقة المختومة بسعة القدرة ، هكذا هنا نرى هذه الآيات موجهات لما تضمنته تلك الآية من دحض الولد المنسوب لله ، إذن هى مكملات لها مبينات لسعة قدرة الله تعالى .

ياسبحان الله عجب عجاب ، ذكرت السموات والأرض فى سورة البقرة وآل عمران لاتساع المدارك الانسانية وارتقائها بالعلوم ومعرفة سعة قدرتك وعلمك ، وفى سورة النساء والمائدة ذكرت ذلك لاستنتاج تكذيب حصول ولدك ، فإن العقول الإنسانية إذا تربت تربية عقلية علمية هدتها تلك التربية إلى أن الولد لله فى العوالم خرافة ، وكيف يحتاج للولد من له هذا الملك الواسع وهو نفسه حى لا يموت ، والولد لمن يموت فيخلفه ويرثه ، وأيضا كيف يكون ذلك الولد المزعوم فى أصغر بقعة هى كالعدم بالنسبة لوجود هذه العوالم الواسعة .

فقال صاحبى : كفى هذا الآن ، فماذا جاء من هذه العلوم فى سورة الأنعام ؟ فقلت :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ - الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى

عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) .

٢ ـ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) .

٣ ـ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتٰبِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلٰى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) .

٤ ـ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰيكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظّٰلِمُونَ (٤٧) .

٥ ـ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتٰبٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفّٰيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلٰهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحٰسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجٰانَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ

تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥).

٦ ـ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩).

« إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون : فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون : وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون : بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ :

فقال صاحبى : إن هذا المقام يعوزه إيضاح ، فقلت : أيها الصديق تعجب ، انظر كيف يقول فى أول السورة الحمد لله ، ويذكر السموات والأرض فى حيز ذلك الحمد ، ثم يذكر الظلمات والنور وذلك منشؤه السموات ، ثم يذكر خلق الإنسان وذلك من الأرض ، وبعد ذلك يذكر إيضاح الظلمات والنور وتأثيرها بالنسبة للخليل عليه السلام ونظراته الموجهة للسموات وكواكبها ، ثم يذكر آيات : إن الله فالق الحب والنوى

إلى آخره ، وذلك إيضاح لعوالم الأرض تتميما لما جاء فى أول السورة من ذكر بعض ذلك ، وهو : خلق الإنسان من طين ، وذكر هنا العلم بعد ذكر الليل والنهار وذكر الفقه بعد ذكر خلق الانسان من نفس واحدة الخ ، إذن هنا علم وهنا فقه ثم أتبعهما بمسألة المطر والنبات وتفصيل الكلام فيها ، وقال « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » إذن اجتمع العلم والفقه والايمان فى دراسة العوالم العلوية والسفلية وتفصيلها .

وإذا كان آباؤنا جعلوا الفقه خاصا بالأحكام الشرعية وحفظوا المسائل التى حكموها بالفروع والأصول فاننا نقتدى بهم ، ونسأل الله لهم الدرجات الرفيعة ، ثم نقول : لقد قاموا بما حملوا وحفظوا أنهم ، فعلينا الآن أن نعلم هذه الأمم وندرس لها العلم والفقه والإيمان التى نص عليها القرآن ، إن الفقه الذى نقرؤه واصطلح عليه أسلافنا فقه عملى ، ولكن ها هنا فقه علمى .

فإذا نبغ أسلافنا فى الفقه العملى وفى أصول الفقه فلماذا لانتبغ نحن فى الفقه العلمى ؟ ولماذا لا نفكر فى قوله تعالى :

١ ـ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

أو ليس مما يشجع على علوم الفلك وعلوم السحاب والمطر والنبات قوله تعالى فى سورة الأعراف :

١ ـ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

فأول هذه الآيات تفصيل لعوالم السموات المذكورة فى أول سورة الأنعام ، وآخرها تفصيل لعوالم الأرض

المذكورة معها كما فصل الأول فى قصة إبراهيم ، والثانى فى : إن الله فالق الحب والنوى الخ ،ولا ينقص عن ذلك فى الحض على دراسة الأرض وما عليها آية قبل هذه وهى :

٢ ـ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

أو ليس يؤكد دراسة تلك العلوم وبوجبها ماجاء فى قوله تعالى فى سورة الأعراف من الاستفهام التوبيخى إذ يقول تعالى :

٣ ـ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

ويتمم ذلك ماجاء فى آخر السورة .

فلنقف هاهنا وقفة ونقول : أليس هذا كلام الله المقدس كيف يفصل الله فى سورة الأنعام بقوله : إن الله فالق الحب والنوى ـ الخ ماأجمله أولا ، أفليس هذا عجبا عجابا .

سبحان الله أين العلم ، وأين الحكمة ؟ وأين دراسة السموات والأرض ، وأين دراسة العوالم الأرضية؟.

أيها المسلمون إنى أنذركم ، الشرق الأقصى على يمينكم وأوروبا المسلحة على يساركم ، ورب العرش من فوقكم أين المفر أيها المسلمون ، عار والله أى عار هذا النوم العميق ؟ اسمعوا اسمعوا .

كيف يقول « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » ثم يتبع ذلك بقوله « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » هل نحن انتفعنا بهذه الآية ؟ هل انتفع المسلمون اليوم بالنجوم ، تلك النجوم التى درستها أوروبا : انكلترا وفرانسا وألمانيا والمجر وإيطاليا ، كل هؤلاء يدرسون تلك العلوم فى مدارس خاصة فيتعلمها شبان يقودون السفن فى البحار ، فإنه محال عليهم أن يسلكوا السبل فى لجج المحيط الهادى والهندى والبلطيق وبحر الظلمات وجميع المحيطات إلا بالاهتداء بالبوصلة ومراقبة النجوم الثوابت ، أليس هذا معنى القرآن ، ويقول الغافلون منا : هانحن أولاء عرفنا الله وكفى ، أمعرفة هذه أم جهالة فليقدس قوم شيوخهم وليرفعوهم إلى مصاف المقدسين ، ولكن خبرونى أيها المسلمون أين الدراسة أين العلوم ؟ أنعيش مغرورين نائمين ، ياحنبلى وياوهابى ، يامن تريد تخليص العقيدة من الزيغ والضلال والشرك ، ويا إمامى يامن تريد أن تتبع نهجا خاصا وتخالف الوهابى الحنبلى انصتا إلى واسمعا ما أقول ، أليس الله يقول إنه أنشأنا من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، فهاهنا علم بالنجوم وفقه بعلم التشريح وعلم الحياة ، وهذان يستلزمان علوما كثيرة ترجع كلها لدراسة عوالم النبات والحيوان وأصنافهما .

عظة وتذكير

ولما كان الناس يقرءون أمثال هذه الآية ولا يفكرون فيها نسمع الله يقول :

١ ـ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ .

وفى سورة التوبة مجمل العلوم فى آية :

١ ـ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

آثار جمال الله وجلاله فى سورة يونس

هنالك قال صاحبى : لقد جمل ماوصفت ، وحسن ما وضعت ، فلقد أبنت أن حمد الله راجع لخلق العوالم وذلك فى سورة الفاتحة ، وقد فصلت العوالم إلى أرضية وسماوية بعد ذكر الحمد فى الأنعام ، وبذكر الظلمات والنور أولا ، وبذكر خلق الإنسان من نطفة ثانيا ، ثم زاد ذلك تفصيلا عروج الخليل وارتقاؤه فى سلم العلوم والمعارف الإلهية ، وتبيان الحب والنوى وشرح تلك العوالم ، ولكن أريد أن أسألك أمرا جديرا بالذكر ، وذلك أن أمتنا الإسلامية كثرت فيها الأولياء والصالحون وعندهم علوم لدنية لا نعرفها ، وهذه العلوم تكون نتائج العبادة ، فأما قراءة العلوم على النمط الذى تريده ، فذلك شاق عسير ولا يوصلنا إلى الحقائق العلية .

فقلت : أيها العزيز واحسرتاه على أمتنا ، واحسرتاه على شبابنا ، هذا هروب وفرار من ميدان الحرب والنزال ، الله أكبر من لايتقن المحسوسات لايتقن المعقولات ، نسى كثير من أمم الإسلام أنفسهم وجهلوها ، فناموا وتركوا العلوم كسلا وتعللوا بما فوق طاقة الإنسانية ، وقد سبقتهم الأمم وهم جاهلون ، وأصبح جميع أهل الديانات القديمة أعلم بالعلوم التى أوجبها ديننا وحده ، وأكثر المسلمين كانوا لايعلمون كل شيخ طريقة يقولون لأتباعه : إن نجاتكم محققة بأتباع أورادى ، وبحول كثير على رؤساء طوائفهم وهم مفتونون مغرورون مخدوعون معذبون بالنقص الفاحش والجهل الفاشى « وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون » هل ينبغى هؤلاء أن يقولوا نقدس شيخنا ؟ .

فإذا قال قوم ممن ينتمون لأمم الإسلام : أن أسرار الربوبية تنزلت على أحد عباد الله ، أو أن فلانا ولى الله ، فهل هذا الاعتقاد يفيدهم علما بهذه العوالم الجليلة .

يا قوم ليس هذا يغنيكم ، لاتهربوا من العلوم ادرسوها وأنا موقن أنكم بدراستها تتحدون ، لأن عقولكم إذ ذاك تكون متقاربة فإنكم إذا سمعتم الله يقول فى سورة يونس :

١ ـ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَامِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ . ويقول :

٢ ـ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . ويقول :

٣ ـ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . ويقول.

٤ ـ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أقول إذا سمعتم الله يقول هذه الآيات تدهشون أشد الدهش ، وتقولون حقا وصدقا : إننا قوم غير عالمين فهاهو الله قد ذكر السموات والأرض كما ذكرهما فى أول الأنعام ، وأبان أنه يتصرف فيهما وهو على عرشه ويدبر الأمر ولا شفيع إلا باذنه ، ثم يقول : إنه جعل للشمس المضيئة والقمر منازل ليعلمنا عدد السنين والحساب ، ويقول إنه يفصل ذلك للعلماء لا للجهلاء ، وإذ ذاك يتحسرون على أنفسهم ويقولون إن الله جعل علم الفلك ومعرفة النجوم لقوم علماء ، إذن نحن جهلاء على أى مذهب كنا فى دين الإسلام فالاحتماء بالمذاهب الاسلامية والطوائف والرؤساء والشيوخ لا يدفع أننا جهلاء نجهل ما فصله الله لنا وما بينه من تعاقب الربيع

والصيف والخريف والشتاء ، وكيف كان النهار والليل قد استويا فى خط الاستواء ، فكان كل منهما (١٢) ساعة وفى القطبين ، فكان كل منهما (٦) أشهر ، وكانا فيما بينهما بمقادير تزيد عن (١٢) ساعة وتنقص عن ستة أشهر ، فمنها ماهو شهر ، ومنها ماهو أسبوع ، ومنها ماهو أكثر ، ومنها ماهو أقل ، هذا واضح إيضاحا تاما فى سورة البقرة عند آية « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » فاذا قرءوا هذه الآيات المذكورة وجدوا أنه تعالى أخذ يشرح أمرا عجيبا بعد الكلام على السموات والأرض وعلى الشمس والقمر وعلى اختلاف الليل والنهار ، ما هو هذا الأمر العجيب ؟ هو مسألة الغفلة عن آيات الله والرضا بالحياة الدنيا وتباعد الفكر عن لقاء الله . فى قوله تعالى « إن الذين لايرجون لقاءنا » إلى قوله « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

هنالك يعجبون ويقولون : أين المناسبة بين لقاء الله والغفلة عن آياته بهذه العوالم ؟ فنقول لهم : أيها الإخوة الأحبة ، إن التأخر مرتب على التقدم ، وذلك لأن هذه العجائب لأول وهلة تذكر بمن صنعها ، بل تجعل الإنسان مغرما بمشاهدته محبا لملاقاته ، والغافل عن ذلك الجمال محجوب غافل نائم ساه لاه يأكل ويشرب ، ولا يعقل هذا الجمال لأنه أعمى البصيرة ، فعينه فى جنة المناظر ، وقلبه فى جهنم الغفلات ، فواحسرتاه على تلك القلوب ووا أسفاه على تلك النفوس ، نفوس تعيش ولاتعيش وتصرع كما تصرع البهائم ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وهذا قوله تعالى « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون » وسيقول جاهل ، هذا فى الكفار [وهذه شنشنة أعرفها من أخزم] كلمة حق أريد بها باطل ، نعم هى فى الكفار ، ولكن المسلم الذى عميت بصيرته فلم يدرس هذا الجمال وعاش تائها ساهيا ليس له مركز الشرف الأسمى فى العلم ، والذى به يحب صانع العالم ويفرح بلقائه ، فالفرح باللقاء مترتب على الحب ، والحب لايمكن إلا بالعلم والمعرفة وهذا يوضح بأجلى بيان كما قررناه ذكر اللقاء بعد ذكر هذه العوالم ، هذا بعض أسرار هذه الآيات ، ثم أقول :

انظروا أيها الأحباء إخوانى فى أمم الإسلام ، انظروا كيف يذكر بعد ذلك التسبيح والتحميد ، ويجعل نهاية الأمر أن الحمد لله رب العالمين .

ولاجرم أن الحمد قد تضمن ما تقدم كله ، وهو نهاية النهايات ، لأن الحمد لن يصح إلا بعد الحب لحمدك للمحسن الذى لاتفقه إحسانه حمد لفظى ، أما حمدك للمحسن بعد امتلاء قلبك بمعرفة إحسانه ، فانه حمد صادق مبنى على الحب ، وذلك الحب نتيجة الشعور بالإحسان وبالعظمة وباتساع السلطان والقدرة والمجد والجمال والبهاء ، فيكون الغرام على مقدار العلم بذلك كله .

ولما ذكر فى هذه الآيات أن الاكتفاء بالحياة الدنيا ناجم من الجهل بهذه العوالم وجمالها المشوقات للقاء مبدعها فصل ذلك فى نفس السورة بقوله :

١ ـ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ● وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

فالله بإبرازه جمال الكواكب وإشراق النجوم وإظهار هذه العوالم الجميلة يدعونا إلى دار السلام ولقائه ويحذرنا من الغرور بزخارف الدنيا . فالفرح بالدنيا دال على نقص الإنسان وقلة تبصره ومعرفته ، وهذا قوله « إن الله لا يحب الفرحين » إذن ليكن فرحنا بأمر آخر هاهنا وضحه ، فقال : قل بفضل الله وبرحمته إلى قوله « هو خير مما يجمعون » . وقال « وما تكون فى شأن » إلى قوله « إلا فى كتاب مبين » ثم قال « ألا إن أولياء الله » إلى قوله « هو السميع العليم » ثم قال :

٢ ـ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ • هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ • قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ • قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ • مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

فإذا كان الفرح بالدنيا جهالة ، فإن الفرح بفضل الله وبرحمته التى تتجلى آثارها فى الشموس والأقمار والكواكب والنبات والحيوان والجماد والجمال والبهاء والإشراق الساطع فى العوالم العلوية والسفلية يقول : إن هذا هو الجدير بأن يفرح به ، لأن هذا آثار رحمة الله والآثار تدعو حثيثا إلى حب المؤثر فهذه خير مما يجمعون ذلك كله تفصيل لقوله فى أول السورة « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » بعد وصفه للجمال السماوى والعظمة الربانية هناك

ثم ختم ذلك كله بذكر أولياء الله تعالى : إذن أولياء الله وخواصهم المغرمون بهذه العجائب الفرحون بها فهم أولياء الله . أما أولئك العاكفون على الدرهم والدينار والطعام والشراب الذين قصرت عقولهم عن إدراك ذلك الجمال ، فلم يفرحوا به فهم أولياء الشيطان وأولياء المال والولد والذكر والصيت ، وهؤلاء الأولياء مبشرون بالعز والسعادة لاقتراب الملائكة من نفوسهم وحب الناس لهم ، فيحسون بالمسرات باطنا وظاهرا أما باطنا فبإلهام الخيرات وأنواع المعارف من عوالم الملائكة ، وأما ظاهرا فبما يسمعون من الثناء فى سائر الأوقات لأنهم قائمون بخدمة المجموع يعلمونهم كما هم متعلمون ، ويدلونهم على الخير الذى هم به متصفون .

ثم إنى أقول : أيها الإخوان انظروا كيف يقول الله بعد ذلك :

٣ - قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

لعله أن كثيرا من الناس لا يأبهون بتلك العجائب بعد هذا البيان فى الآيات المتقدمة :

ثم انظروا أيها الإخوان كيف أعاد الله الكرة فى أول سورة هود ، فذكرنا بما قاله فى أول الأنعام وما قرره فى أول سورة يونس .

١ - وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

ثم كيف وضح ذلك فقال :

٢ - إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

ونراه تعالى فى سورة يوسف يقول على لسانه عليه السلام :

١ - رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

ثم إننا نراه سبحانه أعاد الكرة فى سورة الرعد فقال :

١ - اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

فهاهنا وصف العالم العلوى والسفلى ففصل ما أجمل منهما فى آخر سورة يوسف قبلها فى دعائه عليه السلام كما فعل فى السور المتقدمة من الاجمال والتفصيل ، هل يعجبكم هذا أيها العلماء فى الإسلام ؟ أو ليست هذه العلوم أرقى وأعلى من ضياع العمر فى العلوم الجزئية اللفظية .

أيها العلماء الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وهابية وغير وهابية ، ويأيها العلماء الزيدية ويأيها العلماء الإمامية - سلام عليكم ، سلام عليكم ، بارك الله فيكم أنتم جميعا لاتختلفون فى القرآن أنتم جميعا تقدسونه انظروا ياأحبابى ، انظروا فى كلام ربنا ، واعجبوا من تتابع هذه الآيات كيف يذكر السموات والأرض والنجوم والشمس والقمر ، وكيف يكرر ذلك فى سور كثيرة ، ويجمل ثم يفصل ، ويقول ذلك لقوم يعلمون ويتفكرون ويؤمنون ويوقنون ويفقهون ويعقلون .

أيها الأحباب : هل أنزل الله هذه الآيات لغير فائدة ؟ وما هذا الفقه ، وما هذا العقل ، وما هذا العلم وما هذا الإيمان ، لاتقفوا على ماعلمتم ، ولا تجمدوا على مادرستم ، فهذ الجمود معيب .

الله أكبر : جل الله وجلت حكمته ، وعمت أنواره ، وأدهشتنا آثار جماله ، سبحانك ربى : رفعت وخفضت ، وأعززت وأذللت ، وأعززت أمماوأمما بمعرفتك ، وأذللت أمما وأمما بالجهل بك ،

اسمعوا أيها الإخوان ماذا يقول الله أيضا فى سورة الرعد ؟ يقول : عجائب وعجائب . يقول :

٢ ـ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ

٣ ـ ويقول : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا

لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

٤ ـ ويقول : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

فانظروا أيها الإخوان المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها كيف تراه سبحانه بعد أن فصل الكلام على الشمس والقمر ، ورفع السموات بغير عمد ، واستوائه على العرش يذكر لنا أنه مد الأرض وجعل فيها جبالا شوامخ ، ومن الجبال تجرى الأنهار بالماء المنمر عليها من المطر النازل من السحاب المحمول على الرياح الجاريات بالحرارة المرسلة من الشمس المذكورة قبل ذلك ، وبالحرارة أيضا يرتفع البخار من البحار والآجام والأنهار والبرك وجميع ماهو رطب فى الأرض ، كل ذلك مذكور بعد ذكر السماء والشمس ، ليدلنا على الأسباب والمسببات .

ومما يدهشنا أنه يقول بعد أن ذكر الشمس والقمر ، وتدبير الأمر ، والاستواء على العرش أنه يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، ياعجبا ياعجبا ، الله يقول : أنا فصلت لكم الآيات ، فصلت لكم الكلام على الشمس فى هذه السورة كما فصلتها فى سورة يونس ، وقد أبنت لكم هناك أنى جعلت الشمس ضياء والقمر نورا وقدرت المنازل لتكونوا علماء بالحساب وعدد السنين ، وإنما فصلتها العلماء لأنهم هم الذين يفهمون هذا التفصيل ، وهناك قلت : إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، والفصول الأربعة داع حثيث إلى التقوى ، وهناك أبنت لكم أنى لايغرب عن علمى مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ، كل ذلك محسوب عندى ، وأتبعت ذلك بأن أوليائى لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهذا التفصيل فى هذه السورة وفى سور غيرها إنما جعلته فى القرآن لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

الله أكبر الله أكبر هاهنا هاهنا بيت القصد ، هاهنا هاهنا نهاية الحكمة ، هاهنا مقاصد الحياة فى هذه الأرض يقول العقلاء والحكماء فى الأرض : لماذا نعيش ؟ ولماذا كل هذه الدول والممالك ، والممالك الحيوانية والنباتية والشموس والأقمار ؟ ولم كانت هذه الديانات ، والأعمال فى الأرض والأجيال والآمال ، ماالنتيجة ذلك . أجاب الله عن ذلك كله بقوله « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » هذا هو السر فى هذا الوجود ، وياعجبا ياربنا نقول لنا : إن هذا هو سر الإيقان بالوجود ؛ والإيقان فوق الإيمان ، فكما أننا نراه فى قصة الخليل فى سورة الأنعام يقول « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » :

نراه هنا يرتب الايقان بلقاء الله على هذه العجائب . وبيانه أن تسخير الشمس والقمر والكواكب ، لخدمة العوالم الأرضية . وتعاقب الليل والنهار ، وازدهار الأزهار ، وخروج الثمرات وتنوعها ، وتنوع الزروع المترتبات على اختلاف الحر والبرد وتعاقبها ، واختلاف بقاع الأرض : من حيث طبائع أحجارها وترابها وهوائها ، وهكذا اختلاف كل شىء عليها ، كل ذلك يعطى الناس علما أن فاعل ذلك ومنظمه يريد استخراج عقول شريفة تحبه وتفرح بلقائه من بهجة آثار جماله . وإذا فرحت بفعله الجميل أحبت لقاءه ، ومتى أحبت لقاءه فانه يجود به ولا يحجبهم عنه متى استعدوا لذلك ، وإذا رأيناه يعطينا الفاكهة وأنواع الطعام والشراب وقد استعددنا لها ، فلا جرم يعطينا ماأحببنا من رؤيته بعد شوقنا إليه بمناظر جماله الباهرة فى هذه الأرض وههنا أخذ يفصل ماعلى الأرض من الجبال فقال :

«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار .

«أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

فهاهو ذا سبحانه بعد ذكر العوالم العلوية والسفلية من جبال وأنهار ومزارع ، يذكرنا بخلق الأجنة في بطون أمهاتها ؛ وما في ذلك من العجائب والحكم والابداع ، ويبين أن كل ذلك عنده بمقدار ، ثم يقول لنا . ارفعوا رءوسكم إلى الجو فماذا تجدون ؟ ذلك السحاب يصحبه رعد تسمعه الآذان ، وبرق تبصره العيون ، فإياكم أن تظنوا العوالم خاصة بما ترونه كلا ، فكما أن في أرضكم من بدائع الحيوان والنبات مالا حصر له ، ومع ذلك لا ترونها إلا بالمناظير المعظمة التي أبانت لكم أن الحيوانات والنباتات الخفية التي لا ترى بالأعين ، وإنما ترى بالمناظير : هي الجمهرة العظمى ولا حد لعددها ؛ وكل ما ترونه من الحيوان والنبات بالنسبة لما اختفى قليل جدا لا نسبة بينه وبين ماغاب عن أعينكم ، فهكذا نقول لكم في هذه العوالم المشاهدة والعوالم الغائبة التي لا ترونها فان هناك ملائكة لا حصر لعددها ، تسبح ربها كما تسبحونه أنتم وهم أعظم منكم تسبيحا ، وأكثر لله تقديسا وإعظاما ، وإذا كان من نوع الحيوان مالا حصر له وقد خفي عن العيون فهكذا هناك من المسبحين من لا ترون ، وهم الملائكة المكرمون . وكما أن الملائكة يسبحون هكذا يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها ، وآية ذلك سجود الظلال الممتدة على الأرض خاضعة لعزة وعظمة خالقها الحكيم العليم ، الذي أنزل الماء من السماء فسالت به الأودية كل واد بقدره فكان زبد فوق الماء لا بقاء له ، وكان مابقي لينفع الناس بإنماء الزرع وإبراز الثمرات والحب .

ذكر جملة من العلوم في هذه الآيات

ألستم أيها المسلمون تعلمون أن علوم هذه الآيات هي . علم السموات ، وحساب الشمس والقمر . وعلم الجيولوجيا ، وعلم الجبال ، وعلم الأنهار ، وعلم السحاب ، والمطر ، والرعد والبرق . وبعبارة أخرى : علم الفلك وعلم التقويم ، وعلم الطبيعة : المشتمل على المطر والسحاب ، والبرد والثلج . والرياح وهكذا ، وعلوم [البيولوجي] الذي هو علم الحياة ، مادا بقي إذن من العلوم ، فاذا كانت علوم الطبيعة وعلوم الفلك قد شحنت بها هذه الآيات فأي سبب يقعد المسلمين عن دراسة هذه العلوم .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : أرجو أن تشرح لي بيت القصيد في هذه الآيات . وهو لقاء الله تعالى ، وأنه مرتب على تفصيل هذه الآيات : فقلت : أيها الأخ إن هذه العوالم كلها لم تجتمع إلا بداعي التجاذب والتقارب وهو في معنى المحبة ، ترى هذه العوالم يخدم بعضها بعضا ، ترى الشمس ترسل أشعتها وحرارتها فيكون رياح وسحاب ، ومطر ونبات ، وحيوان يربان فوق رءوسهما أمطارا ، ورعودا وبروقا ، وضياء وشروق شموس ، وأقمار ونجوم وغروبها ، وهم يعيشون في وسط الأنوار والجمال . ويرون حولهم حرارة وإذا نزل المطر إلى الأرض أحسوا باتحاد الأجزاء وارتقائها حالا بعد حال ، ويرون أرضا تدور ، وكواكب أخرى معها حول الشمس كلهن متجاذبات كما تنجذب قطرات المطر إلى الأرض وكما تنجذب ذرات العناصر بعضها إلى بعض ، فيحدث النبات والحيوان ، ويرون مياه الأنهار مجذوبة إلى البحار تارة ، ومجذوبة من سطح مياه الأنهار بحرارة الشمس تارة أخرى ، فالماء مجذوب إلى أعلى بالحرارة ، وإلى أسفل بالبرودة ، فيكون مطرا جاريا إلى البحر بالانحدار ، والعوالم كلها في تجاذب ، واتحاد وتلاؤم وتقارب ، أفلا يحس هذا الإنسان أن له عالما ينجذب إليه ، وطريقا يسير فيه فما هو عالمه ، إذن هو العالم الالهي ذلك العالم القدسي

الجميل العالم الذى يليق لأرواحنا العالم الذى تألفه طباعنا . نحن نعيش فى نقص الحياة وهمومها ، وفزعها وشرورها ، ولكن فى وسط هذه الزعازع والمعامع يسطع نور ، وهو نور المحبة ، نورالغرام ، نورالهيام والحب لمبدع هذا الجمال ، فاذا رأينا القطرات المائية ترجع إلى أصلها فى البحار التى خرجت منها ، وإذا رأينا عناصر النبات بعد تفريقها ترجع إلى ماخرجت منه : وهو الأرض وتستقل فيها ، ورأينا كل شىء يحن إلى مايألفه ويرجع له .

لاجرم أننا نثق بأن هذه النفوس يوما ماراجعة إلى العالم الذى تحبه ، وهو عالم العقل والحكمة عالم الجمال والكمال ، عالم الملائكة القائمين بنظام هذا العالم ، ومن هناك يرون ربهم .ورؤية الله تكون السعادة بها على مقدار حبه فى الدنيا ، وحبه فى الدنيا على مقدار دراسة الناس هذه العوالم ومعرفة اتقانها وإبداعها

إن المقصد من هذه العوالم إنما هو الحب الناجم من العلم ، فالحب هو المقصد الأسمى من حياتنا فى الدنيا ومتى تحقق الحب كانت السعادة بلقاء المحبوب على مقدار ذلك الحب ، فلتكن أمم الإسلام متحققة بهذه العلوم فيها سعادة الدنيا كما سعدت الأمم حولنا بها ، وبها سعادة النفوس فى الحياة الدنيا بالحب الذى يملأ القلوب ، وعلى مقدار المحبة فى الدنيا تكون اللذات التى لانهاية لها بلقاء الله تعالى ، وهذا بعض أسرار قوله تعالى «لعلكم بلقاء ربكم توقنون» .

ثم قلت : انظر أيها الأخ انظر ماذا ترى فى قوله تعالى ـ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ انظر كيف يقول فى سورة يونس ـ إنه جعل للشمس ضياء وللقمر نورا ـ وللمنازل تقديرا لتكون بالحساب عالمين وبعدد السنين عارفين ، ثم هو يقول هنا أنه رفع السموات وسخر الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى ، ودبر الأمر وفصل الآيات لماذا هذا ؟ لأجل أن نوقن بلقائه تعالى إذن هذه العوالم السماوية تشوقنا لأمرين الأمر الأول اتقان العلوم الرياضية . الأمر الثانى أن ايقاننا ليس قاصرا على وجود الله كما فى سورة الانعام فى قصة إبراهيم ، كلا بل ايقاننا يكون باللقاء .

إيضاح هذا المقام

رباه قد ملكت أفئدة المخلصين من عبادك ، كيف لا ؟ ألم يكن من عنايتك بهذه الأمة المحمدية أنك فتحت لها بابين : باب السموات العلى ، وباب عجائب الارض ، فلم يقف كشفنا لعوالم الملك العجيبة عند حد فلا وجدنا للشموس العظيمة آخرا ، ولا للمخلوقات الدقيقة جدا نهاية ، بماذا كل هذا بأمر لايؤبه له عادة وهو الرمل والصودا أو البوتاسا وما أشبه ذلك المواد الضئيلة هى التى مزجناها بهيئة خاصة وصنعنا منها الزجاج فكانت المناظير المعظمة ، وهذا المقام واضح فى تفسير هذه السورة فى الأصل ، وهو [الجواهر فى تفسير القرآن] فاقرأه إن شئت .

هذه المناظر منها مايقرب البعيد كالكواكب ، ومنها مايعظم الصغير ، ففتحت لنا أبواب السماء وخزائن الأرض العلمية ، كل ذلك تفصيل لآياتك فى عوالمنا لنقترب منك بالعلم ونفرح بجمالك ونحب لقاءك فضلا عن أن نوقن به ، وفى الحديث (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) إن هذا هو الزمان الذى فيه يعرف المسلمون معنى « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » بعد ذكر العجائب السماوية وتدبير الأمر ، ويعرفون أيضا صلة هذه الآية بآية آل عمران إذ يقول الله تعالى « شهد الله أنه لاإله هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم » فإن القيام بالقسط وإقامة العدل فى هذه العوالم هو الذى يشهده المقربون الذين هم معطوفون على الملائكة المعطوفين على الله فى الشهادة بذلك ، وأهل هذه الشهادة هم الذين يحققون

ويتخلقون بما فى آية ـ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ـ الخ .

ثم ذكر بعد ـ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ـ فكان هؤلاء الذين يشهدون فعل الصانع فى كل ما يرونه أو يفعلونه هم المعطوفون على الملائكة فى الشهادة فى سورة آل عمران ، وهم أنفسهم أولياء الله ، وهم هم الذين يشهدون تدبير الأمر وتفصيل الآيات فيوقنون بلقاء الله تعالى ، وكلما كان تفصيل الآيات أتم كان الحب أوفر والشوق أكثر ، لأن الحب على مقدار العلم بصفات المحبوب ، والمحبوب هنا لاحصر لجماله وكماله ونهايته .

إن هذه الطائفة من الأمم الإسلامية الذين سيكونون بعدنا سيدهشهم جمال ربهم من جهتين . من جهة الجمال المطلق ، ومن جهة العناية بهم حيث كشف لهم عن مخبآت السماوات العلى وعما استتر فى خبايا الأرض ، فان رفعوا أعينهم إلى العلى بهرهم جمال الشموس التى تكتشف فى كل يوم ، وسخر علماء أوروبا وأمريكا لذلك الكشف ، وهكذا إذا نظروا فى آفاق الأرض بالمنظار المعظم كشفوا جمالا وبهجة وحكمة فى تلك المخلوقات الدقيقة البديعة التى لاحد لها فى نقطة واحدة من الماء مثلا ، وهذا كله قد أعده لهم علماء أوروبا وأمريكا .

إن الله قد وعد بتفصيل الآيات فهاهو ذا تفصيلها بالمناظر المعظمة الكاشفة لما فى السموات والارض ، الأمة الإسلامية المستقبلة سعيدة ، فان الله قد فصل لهم آياته وأظهر لهم أنوار جماله بكشف العلماء لهم ذلك وباظهار المناظير المعظمة المعينة على ذلك ، ونتيجة ذلك حبهم لربهم وحبهم للقائه وغرامهم به فى الدنيا ثم يفرحون بعد الموت به ، هذا وعد الله لنا ووعده حق ، فإنه فصل الآيات بما ذكرناه ، وسيعشق المسلمون ربهم عشقا ويحبونه حبا ويفرحهم بلقائه ، ويسعدهم فى الآخرة بمن أحبوه فى الدنيا وهو غائب عنهم .

مدهشات العلم وعجائب القرآن

ذكرنا أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدر المنازل لتعلم الحساب ودبر الأمر وفصل الآيات لنوقن بلقاء الله .

إذن العلوم الرياضية ولقاء الله مرتبان على معرفة عالم السموات وتدبيره . إذن العلوم الرياضية بينها وبين الجمال الالهى صلة ، كيف لا ، ألم يكن جمال النجوم مشوقا لأمرين معا :

الأمر الأول إدراك حساب سيرها ومقاديرها وأبعادها .

الأمر الثانى الشوق إلى مبدعها ، هذان هما المذكوران فى هذه الآيات .

ومن عجب أن [سقراط] جعل غاية علم الفلك وحسابه أن ترجع النفس إلى مبدع العالم ، بل قال : إن للموسيقى لامعنى لها إلا ذلك فهو يقول : إن الموسيقى والفنون الجميلة كلها موجهات النفوس الشريفة إلى الجمال الأعلى والمقام الأسمى ، إذ لاجمال ولا كمال فيما هو فان سريع الانقضاء ، وحقر أولئك الذين يعكفون على المغانى لذات المغانى ويتلهون بذلك ، وهكذا كل جمال وكمال فى الأرض ، وهكذا ذكر فى علم الحساب وقال : إن الحساب يجعل فى النفس ميلا إلى ماهو مجرد عن المادة وذلك يقرب النفس من صانعها بحكم هذا التجرد الحسابى فبإطلاق هذه المجردات الحسابية من المادة تستعد النفس لادراك ذلك الجمال الأسمى وهذا من عجائب القرآن ، ومن الأسرار التى ظهرت فى هذا الزمان من أسرار قوله تعالى « يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

هنالك قال صديقي . شافى قولك هنا أن تذكر من علوم السموات وعلوم الأرض مايدهش العقول فتذكر الأجرام الكبيرة فى السموات ، وتذكر أدق العوالم النباتية والحيوانية . فنشاهد القسمين بأعيننا ليحصل لقلوبنا فرح بنعم الله تعالى وبحكمته فيكون حبنا بلقائه والبهجة بأنسه ، فقلت نعم .

إن الذى يوضح هذا مقالان :

المقال : الأول فى عجائب النجوم ، والمقال الثانى فى بعض عجائب النبات

ولما كانت عجائب النجوم ستتضح فى الزبرجدة الثالثة اكتفينا هنا بذكر المقالة الثانية وهى : فى عجائب النبات وما فيه من الغرائب فلنكتف منه بما جاء فى كتاب [علوم للجميع] بقلم الدكتور [اندرو ولسون] تحت عنوان : ماهو النبات ؟ .

قال إن هـذا العنوان يبدو لسامعيه غريبا ، فان الناس لا يشكون فى الفرق بين الحيوان والنبات ولا يعتريهم فى ذلك شبهة . فمن ذا الذى يشتبه عليه الفرق بين الوردة وحاملها الذى يشمها ويتحلى بها ، أو بين الغصن والطير الذى يغرد عليه . وهو جائع بهيئة سارة ، أو بين الثور والحشائش التى يقضمها ، ليس أحد يجهل ذلك الفرق ، ثم قال : إن الثور والطير وحامل الزهر تشارك الحشائش والأغصان والأزهار فى أنها حية [والحياة كثيرة الوجوه : من غذاء وتنفس ونمو الخ] ولكن هذا التشابه فى الحياة له نهاية بحسب مايظهر للناس الذين لم يدرسوا ولم يتعمقوا فى هذه العلوم ، وهل هناك من العلم ما هو أدق من الفرق بين الحيوان والنبات .

إن الفرق بين الحيوان والنبات عمل دقيق بعيد المنهج ، يشق على أعظم العقول تبيانه ، ولو أن عقلا توصل إلى ذلك لامتاز على سائر العقول بذلك البيان .

إن علومنا الحاضرة عجزت عن أن تعرف ذلك الفارق بين الحيوان والنبات ، ومن ادعى أن ذلك ممكن بالممارسة والتجارب ، فانه لا يقابل إلا بالانكار ، بل بالازدراء والاحتقار .

الحيوان يتحرك والنبات ثابت ، الحيوان لا ورق له ولا زهر ، والنبات عكسهما ، الحيوان له أعصاب وله إحساس ، والنبات بحسب ظاهره لا إحساس له ولا أعصاب .

إن الصورة وإن الاتصاف بالقوة وبالحركة وعدم الاتصاف بهما وبصفات الحياة المعناة المعروفة لكل من نوعى الحيوان والنبات تقنع الناس بحسب الظاهر ، أن هناك فرقا بين الحيوان والنبات ، وإن هناك حدا فاصلا بينهما . وهذا حق عند عامة الناس ، إن هذه هى الفلسفة العامة فى نوع الانسان .

أما الفلسفة العلمية فانها أوسع مدى ، وأحد نظرا ، وأقوى وأقدر من الآراء العامة لذوى العقول ، وبنظراتها العميقة تلقى أشعة من النور والعرفان تتجلى بها الحقيقة فتحدث شكا فى قيمة تلك المعارف التى حددت خطأ فارقا بين الحيوان والنبات .

أما الآراء العادية فانما كان بحثها خاصا بأعلى النبات وأعلى الحيوان ، ولم يكن الفرق الذى يتوهمونه إلا بين مايرونه بأعينهم من الحيوانات والنباتات بلا بحث ولا تعمق فى أحوال حياة الطائفتين المذكورتين من غير ممارسة لهما كلهما ولا دراسة خاصة لأجسامهما .

ألا إن هناك وراء هذه الهياكل المنصوبة أمام الناس المشاهدة لهم عوالم أخرى منها لا ترى بأعينهم واختصت بها المناظير المعظمة التى ترى مادق على العيون وغاب عن الأبصار .

إن من هذه العوالم الحية التى لا نراها ولا حصر لها ما يصعب ، بل ما يستحيل كشف حقائقها ومعرفة أسرارها ، بل إن من العوالم التى عرفناها حولنا ، ووصلنا من العلم بها إلى أمد بعيد فى التحقيق وكشف النقاب

عنها مالم نصل إلى حقيقته ، ولم نحصل على ضالتنا فى تبيان خواصه ، فكيف بما غاب عن أعيننا ولم نره إلا بمنظار !

وبالإجمال أن الفارق بين عالمى الحيوان والنبات المتعارف بين الناس إن هو إلا ظاهرى لا قيمة له عندنا ، نوجه النقد العلمى إليه ونبحثه بحث المدققين .

إن هذه المسألة المعروضة أمامنا إن هى إلا إحدى المسائل التى نمت وترعرت ، وازدهرت فى حقول التجارب العلمية ، وازدياد البحث فى أزماننا الحديثة .

إن اقتحام العلماء لمجاهل العلم وازدياد علومهم بها كان من نتائجها أننا اعترفنا بعجزنا وجهلنا بكثير من المباحث العلمية التى تقع ظواهرها تحت أسماعنا وأبصارنا .

أن فيما سأقصه عليك من العلم وما سألقيه عليك من الحكمة والتجارب العلمية ما يريك أن عجزنا فى علومنا الحاضرة ليس قاصرا على معرفة الفرق بين الحيوان والنبات . كلا بل انه يتعدى ذلك إلى قصورنا عن إدراك كنه الحيوان ومعرفة أحواله وخواصه ، وهكذا النبات .

ان اختبارا بسيطا فى أصغر طبقات الحيوان والنبات ينتج لنا جوابا عن سؤال يؤخذ مما قدمناه ، وهو ماهى خصائص الحيوان وخصائص النبات بالتحقيق ؟ فلنضع فى إناء قبضة من الدريس أو الحشائش ولنزل الماء على ذلك الدريس ، فاننا نرى أحياء نقيعة تغدو فيه وتروح غدوة وعشيا ، فلنتركه أسبوعا أو نحوه معرضا للهواء ثم بعد انتهاء تلك المدة نأخذ قطرة من ذلك الماء ونضعها تحت الآلة المعظمة [الميكروسكوب] المكبر جدا فماذا نرى ؟ نرى أمرا عجيبا يأخذ بأبصارنا ، فان هذا الماء الذى لايشاهد فيه الرجل العادى إلا عكرا أو قذرا مما به من تلك المواد الجافية التى لا حياة فيها ، يراه العالم تحت ذلك المنظار مزدحما بمخلوقات حية عجيبة تدهش العقول .

فهذه البقع التى نشاهدها فى الماء جعلته عكرا قذرا فى نظرنا الظاهرى ، إنما هى إلا مخلوقات حية لاحصر لها تجرى هنا وهناك فى حقول كشفها لنا المنظار المعظم .

بينما العين قد استقرت على أنها قد عرفت ماحولها معرفة علمية ثابتة إذا بإحياء ذات مواد عضوية مختلفة الأشكال والأنواع .

وأضرب مثلا لذلك . هذه الأجسام التى تشبه فى شكلها العيدان المتناهية فى صغرها تلتوى على نفسها بحركات بينة واضحة وهذه هى :

(شكل ٤٦)
حمى ذرى مكبر (١٠٠٠)

(شكل ٤٥)
(فيبريو) مكبر (٣٠٠)

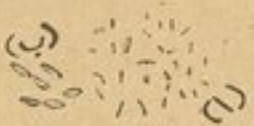

(شكل ٤٤)
(ا) بكتيريا مكبرة (٣٠٠)
(ب) مكبرة (١٦٠٠)

وهناك صور مخالفة لهذه فى أشكالها ولكنها أكبر منها حجما ومشتملة على كثير من البكتريا التى تظهر بصورة عيدان كل منها متصل نهايته بنهاية الآخر ، وهذه يسميها علماء علم الأجنة أو علم الحياة [علم البولوجى فيريوز] .

ولكن هناك أيضا أجسام أخرى نشاهدها تخالف فى هيئتها ماشرحناه الآن من الأحياء العضوية ، وله

فى حركاته السريعات هنا وهناك فى أوقيانوسه المتناهى فى الصغر ما يستوجب الانتباه ويجتذب إليه الأنظار ، فانظر هنا تجد جسما سريع الحركات قوى النشاط :

إن هـذا الجسم أخذ يسترخ قليلا ، ومن حسن الحظ أنه أفادنا منظرا عجيبا من حيث شكله وأحواله الطبيعية .

لا جرم أنك تراه على هيئة الكمثرى ، وإذا أخذت تبحث عن مقدار هذا الحجم الدقيق الذى تراه أمامك الآن الذى اقتنصناه بالمنظار المعظم فإنك ترى مقياس طوله جزءا من ثلاثة آلاف جزء من البوصة .

وهذا الجسم الكمثرى الشكل ينتهى طرفه المتناهى فى الدقة والصغر بذيل على هيئة خيط دقيق يسمونه [سيلميا] يشبه هدب العين .

وإن أزددنا فى تدقيق النظر والملاحظة فإننا نشاهد ذيلا آخر قد اتصل بنهاية جسمها المتناهى فى الدقة والصغر ، إن جرم هذا الحيوان فى ذاته لا قيمه للتفكر فيه .

ولكننا نرى أمرا عجبا ، نرى هذه الكتلة المدورة تنقبض فجأة وتختفى ثم تظهر كرة أخرى واضحة جلية . ها هو ذا الحيوان رجع إلى سيرته وأخذ يسير كرة أخرى متحدا مع الجموع الكثيرة السريعة الجرى المتصادمة فى سيرها والمالئة قطرة الماء أمامنا .

وإنك لتلاحظ فى هذا الحيوان أمرين عجيبين أشد العجب : أما أولهما فإن أطول الذيلين هو المحرك لجسم الحيوان الذى يدفعه إلى الجرى فى هذه القطرة المائية التى هى أقيانوسه العظيم عنده ، أما أقصرهما الذى هو خلف الأول فإنه هو الذى يكون به وقوف هذا الحيوان كمرساة السفينة ، ومتى وقف تراه يفعل كالمغزل ويدور دورات حتى يصير أشبه بكرة صغيرة حيوانية التركيب ، ثم تأخذ كرة أخرى فى أن تحل ما عقدته من جسمها ، وتسير فى مجراها وتصادم عشيرتها ، وتخالط جماعتها وجيرانها فى جهادهن الطويل لأعمال الحياة كما يفعل كل حيوان وإنسان فى الاجتماع والمشاركة فى أعمال الحياة .

إن هذا الوصف المختصر لهذه المناظر يعرفه كل من استعمل آلة المنظار ، فهو يشاهدها كما وصفناها الآن وهذه المشاهدة المدهشة تثير الإعجاب والدهشة عند جميع المشاهدين إلا قليلا ، وتحدث فى أذهان العلماء الطبيعيين غرابة ومسرة وإعجابا بما يشاهدون ، وحينئذ يتساءلون قائلين : ما هذه الألوان المؤلفة من الأحياء العضوية العائشة فى قطة ماء آسن بالنقيعات الحاصلة من الدريس .

وههنا أخذ المؤلف يشرح كلام علماء العلوم الطبيعية ، وكيف يفرقون بين الحيوان والنبات ، وأخذ يسهب فى هذا المقام ، وهذا القول وإن كان لا يعنينا نحن فى موضوع كتابنا الذى إنما نكتبه ليتجلى لنا جمال هذه الدنيا وبهجتها وحسنها ، وإننا نرى أجراما لاحد لكبرها فى السماء من الشموس التى تفوق شمسنا سناء وكبرا وضوءا إلى الحيوانات النقيعية التى رأيناها الآن ، وهى آلاف فى قطرة ماء ، نذكر آراء القوم مختصرة لفوائد نتراها فنقول :

يقول المؤلف : إن الرجل العادى يحكم على هذا الحيوان النقيعى بأنه حيوان ولا يتردد فى ذلك ، لكن عالم الطبيعة لا يقف عند هذا الحد ، بل يشك فيه ويقول : كيف نحكم بحيوانية هذا المخلوق أنحكم عليه بأنه حيوان لأجل أنه يجرى ، إن هذا الحكم لا برهان عليه . كيف لا ونحن نرى هذه الحيوانات المرجانية فى شجر المرجان الذى تراه فى الصفحة الآتية .

(شكل ٤٧)
قطعة من شجر المرجان تريننا أكوابا تعيش بهيئة حيوان المرجان

(شكل ٤٨)
(أنبوبة البحر)

لا جرم أن هذه الشجرة المرجانية ذات جذور ، إذن الحيوان هنا لا حركة له ، وقد سلمنا أولا أن النبات ثابت والحيوان متحرك ، فما بالنا رأينا الحيوان هنا ساكنا ، بل هو فوق ذلك حجرى الجسم ، ثم قال : وإذا قلنا أن فرق السكون والحركة يرجعان لأعلى الحيوان والنبات ، فإننا نقول إذن إن هذا لايكون فرقا فان التعريف يجب أن يشمل كل حيوان وكل نبات ، أما الاقتصار على أعلاها فليس من العلم فى شىء .

وليس هذا السكون قاصرا على حيوان المرجان ، فها هنا حيوان السفنج الذى أثبت العلماء أنه حيوان مع أنه ثابت لاحركة له كالنبات ، وهكذا حيوان [الزوفيت] الذى ينمو كما ينمو النبات ضاربا عروقه فى الأرض ويستخلص من هياكله بقاع البحر بالمجرفة المحاربة البحرية .

ونضيف إلى ما قدمناه من الأمثلة حيوان نباتى يسمى [أنبوبة البحر] :

وكذلك حيوان آخر يمت بصلة إلى السمك الصدفى وهو : الشقيق البحرى :

(شكل ٤٩)
(الشقائق البحرية)

وهكذا حصير البحر .

وهكذا أنواع كثيرة من أسفل طبقات الحيوان تخلق ثابتة كهيئة النبات سواء بسواء .

ثم أخذ يشرح أمر السفنج والمرجان ، والشقائق البحرية ، والأنابيب البحرية فقال :

إذا قيل إن هذه الأنواع تكون حرة تتحرك كما تشاء فى صغرها كما يتحرك الحيوان ، ولا جرم أن هذه خاصة النبات نردّ عليه فنقول : إن من النبات أيضا ما هو كذلك متحرك ، وحركته لاتقتصر عليه فى أوّل حياته ؛ كلا بل تستمرّ طول الحياة ، إذن ليست الحركة خاصة بالحيوان ، بل النبات يشاركه فى تلك الحركة ، ومثل للنبات المتحرك بهذا المثال .

(شكل ٥٠) (حصير البحر)

وإنما سمى بهذا الإسم لظنهم عند ما رأوه أنه حيوان وما هو بحيوان إن هو إلا نبات كروىّ يتدحرج دائرا على نفسه سائرا مع جماعات كثيرة من أمثاله فى البرك الآسنة والمستنقعات يستبقن أشواطا بعيدة المدى .

(شكل ٥١)
(حيوان كروى مكبر ٧٧٠ مرة)

شرح حيوان حصير البحر

أخذ المؤلف يشرح لحيوان النباتى المسمى [حصير البحر] فماذا يقول ؟ يقول :

إن حصير البحر قد نلتقطه من شاطئ البحر ، وحينما يقع فى أيدينا نظنه نوعا من حشائش البحر اليابسة وعند التحقق نرى عجبا وأمرا مدهشا ، نرى أن سطحه عبارة عن خلايا متجاورة منتظمة مكونة لحيوانات حقيقية مكروسكوبية ، فانك ترى أن من تلك الخلايا تظهر قرون الحشرة ورأسها وفمها ومعدتها وكل ما هو من خواص الحيوان .

إذن حصير البحر المرسوم أمامنا هنا ليس حصيرا ، وإنما هو مدينة عظيمة تسكنها حيوانات تعد بالمئات وهى تتكاثر تكاثر أوراق النبات .

ومثل حصير البحر من حيث إنه فى ظاهره نبات وفى الحقيقة إنما هو مدينة يسكنها جماعة من الحيوان . الزوفيت الذى يشبه نبات الشربين .

إن هذه الحيوانات تظهر بحسب هيئتها لمن هو على شاطئ البحر كأنها آتية من غابات بحرية ، ولكن الحقيقة أن كل نبات من هذه إنما هو أشبه بمدينة عظيمة تسكنها حيوانات أدنى من مرتبة حيوان: [الحصير البحرى المتقدم] .

هذا ملخص كلام المؤلف نقلنا منه ما أفادنا بهجة الحكمة ، وجمال العلم ، وضربنا صفحا عن الأخذ والرد فى أمر الفرق بين الحيوان والنبات: وإن كنا أوضحناه هنا ، ولكنا نرجع ونقول :

قد قدمنا أن المقصود من هذا الكتاب جمال هذه الدنيا وبهجتها أيضا لقوله تعالى هناء الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كلّ يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

(شكل ٥٢)
(الزوفيوت الذى يشبه نبات الشربين)

أعجوبة هذه الآيات

التدبير وتفصيل الآيات فى عجائب الفحم

فى يوم الأحد ١٦ من شهر صفر سنة ١٣٥٤ / ١٩ شهر مايو سنة ١٩٣٥ قرأت فى كتاب : [علوم للجميع] بقلم الأستاذ [السون نيتشولسن] مدرس التاريخ الطبيعى والجيولوجيا تحت عنوان : **قطعة من الفحم** .

قرأت هذه القطعة الآتية من المقالة فلم أترجمها كعادتى ، بل خيل لى أن الله استوى على عرشه وأخذ يخاطب الأرض ، وكأنه يقول :

يا أرض : لآمرنك أن يكون عليك أعشاب وأشجار وغابات فى مساحات واسعة تكون أميالا وأميالا عند مصاب الأنهار فى البحار المالحة ، ولتكن هذه الأشجار والغابات العظيمة مستمدة حرارة وضوءا من الشمس سنين وسنين ، وكلما يبست طبقة أخلفتها أخرى ونبتت فى مكانها ، وهكذا طبقا عن طبق ، قرونا وقرونا ، ولتكن جذور تلك الأشجار والغابات نافذة فيما تحتها من الطين مخرجة جذوعها وأغصانها وأوراقها ماشية حتى تم دورها ، ومتى مضت آلاف السنين وتراكمت هذه الأشجار الرميمة بحيث تكون طبقة خفية

أكلها بارده ، وقد تزيد إلى عشر باردات ، سلطت عليك أيها الأرض ما يوجب انزعاجك ، وبزازل تخسرتك فأحدث فيك رجفة أو زلزلة ، فتنزل هذه الطبقة إلى ماء البحر المالح وتغطيها ذلك الماء . فمن أشجار الغابات ماهو واقما ، وتعلو عليه طبقات من الرمل والطين ، ومنها ما تقاوم أمواج البحر فتبقى واقفة ، وقد أحاط بجذعها الرمل والطين من كل جانب ، حتى إذا ظهر الفحم بعد مئات الألوف من السنين ظهرت تلك الشجرة عند الحفر دلالة على تدبيرى ، وحسن اتقانى ، ورحمتى بعبادى .

ولا تزال تلك الطبقة تحت الماء قرونا وقرونا حتى تعلوها طبقات من ذلك الرمل والطين ، حتى إذا تم أمرها أمرت الرجفة أو الزلزلة ، فرفعت هذه الطبقة إلى الأرض كرة أخرى حتى صارت أرفع من سطح الماء قليلا .

هنالك أعيد الكرة وأنبت الأشجار والأدغال والغابات والحشائش ، فتعيش فيها الطيور والوحوش آلافا من السنين ، ثم أكر عليها ثانيا بالرجفة ، فتغر إلى البحر ، ويعلو عليها الطين والرمل وهكذا ، فإذا تم أمرها أمرت الرجفة فأعادت تلك الطبقة ثانيا .

إياك يا أرضى أن تتوانى فى ذلك ، وامتثلى أمرى ، واعلمى أنى سأفعل ذلك مرات كثيرة حتى تصل الطبقات الفحمية إلى خمسين طبقة ، بعضها فوق بعض ، وقد تصل إلى مائة .

ولتعلمى أنى « أيتها الأرض قد قدرت ذلك النظام فى مئات الألوف من السنين حتى أن (٥٠) طنا من هذا الفحم يغطى مساحة فدان انجليزى يعوزها زمان لايقل عن مائة سنة ، وهذه الطبقة لا تزيد على نصف بوصة ، فكيف يكون الزمان الذى تحتاج له طبقة سمكها باردة واحدة ، فما بالك بالطبقة التى تصل إلى عشر باردات ، فاذا كانت الطبقات خمسين أو مائة فكيف يكون الزمان الذى يمضى حتى تكون تلك الطبقات كلها أزمانا ودهورا ، أيتها الأرض ستمر عليك مدة تبلغ مئات الألوف ، وهاأنت ذه يا أرض ليس عليك من ثقل أمر هذا الفحم الآن ، كلا ولكن فلتعلمى أنى سأخلق عليك نوعا اسمه [الإنسان] وهذا النوع بعد تكوين هذه الطبقات يخرج على الأرض ويستخدم كل ما فيها من نبات وحيوان ، وسأرسل مرسلين وعلماء يعلمون الناس حتى تمر مئات الألوف من السنين وهناك يكثرون على الأرض ، وبسبب كثرتهم أنهم سيهتدون فى علم الطب إلى قتل الحيوانات الفتاكة بأجسامهم فيقل الموت وسيخترعون طيارات يطيرون بها فى الجو مع الطير ، ويعرفون كل شئ يناسبهم ، وهنالك يستعملون هذا الفحم ، فيوقدون به منازلهم ويطبخون به أطعمتهم ، ويسيرون به قطاراتهم .

هنالك يستخرجون هذا الفحم من طبقاته الأرضية ويوقدون عليه النار ويستخرجون حرارة الشمس وضوءها المخزونين فى تلك الطبقات فتجرى بها سفنهم وتدور بها آلاتهم .

أنا المدبر ، أنا الحكيم ، أنا الصبور المقدر ، أنا القادر ، أنا الرءوف ، أنا الرحيم : دبرت الأمر فوق عرشى كتبت فى لوحى أنى سأخلق نوع الإنسان الذى ستتمخضين عنه أيتها الأرض فرحمتى له سبقت وجوده على الأرض ، فهأنذا أخلق له الغابات تلو الغابات وأحافظ عليها ، ثم أجعلها طبقات لأنى حفيظ عليم لا أدع ورقة ولا غصنا ولا جذعا ولا بذرا من الشجر إلا حفظته وأبقيته مدخرا فى الأرض حتى يظهر نوع الإنسان ويأخذ فى الرقى شيئا فشيئا ، وهنالك أفهمه ما قصدت له ، وألهمه أن يستعمل ما مهدت له من قبل ظهوره على الأرض : هذا هو الذى دبرته فوق عرشى ، فلتسمعى أيتها الأرض ولتطيعى .

وليعلم العقلاء وأولوا العلم من نوع الإنسان بعد أن تظهر لهم آثار رحمتى ، ويستخرجون هذا الفحم من الأرض ، أن ذلك ضرب مثل لنفوسهم .

هأنذا سلطت الحرارة والضوء على الأشجار والنابات قرونا وقرونا حتى إذا جاء الأجل استخرجتم ما كنزته لكم تاما غير منقوص ، فهل وجدتم فى الفحم الحجرى نقصا ؟ ألم تروا البزور لا تزال فى الفحم والأوراق بل ما هو أدق من البذور تجدونه .

أيها الناس هكذا أرواحكم التى سكنت أجسامكم إنى هديتها النجدين وأريتها الخير والشر وأصبتها بالنعم والنقم ، وأرسلت إليها العلماء والأنبياء والحكماء ، وأمرت الجميع بطاعتى ، وكل ما خزنتم فى نفوسكم من شر أو من خير ، فإنكم لا محالة تجدونه بعد تجرد أرواحكم من أجسامها كما ظهرت أنوار الشمس وحرارتها المخزونين فى الفحم الحجرى حين احترق بالنار ، إنى قد جعلت ذلك نموذجا لحساب الناس وبعثهم ، فكما أن الفحم لم يحدث فيه شىء خلاف ماحدث له أيام تكونه طبقات بعضها فوق بعض ، وسيظهر بقضه وقضيضه فى حينه هكذا سيكون المخزون فى الأرواح الإنسانية أيام الحياة هو نفسه الذى يظهر فى العالم الآخر كما هو بلا زيادة ولا نقص ، وهنالك يفهم الناس — إنما هى أعمالكم تعرض عليكم — ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا — وما تجزون إلا ما كنتم تعملون — وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا — يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة — وإنما توفون أجوركم يوم القيامة — ولا يظلم ربك أحدا — وما ربك بظلام للعبيد — وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم — إن الله لا يظلم مثقال ذرة — وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين — وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين — وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين — .

فيا أرض احفظى كل ورقة ، وكل حبة ، وكل بزرة ، وكل صغيرة ، وكل كبيرة فى طبقات الفحم حتى إذا أنزلت لهم فى كتابى ذلك يشاهدون ذلك ويرون الورقة والحبة والبزرة قد حفظت مئات آلاف من السنين كما حفظت أضواء الكواكب ، تلك الأضواء الجاريات من مسافة مائة مليون سنة باعتبار أن الضوء يجرى فى كل ثانية واحدة (١٨٦) ألف ميل فأحفظ ذلك كله ولا أنقص منه شيئا ولا أضيعه وهو يجرى ملايين السنين وإن هو إلا ضوء ، هكذا أفعل فى أوراق الأشجار ، وحياتها تحت الأرض فأحفظها ، وحينئذ يفهم الناس قولى فى كتابى الذى أنزله عليهم مثل أن أقول : « يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » .

وهنالك يفهم الناس لطفى ، وأنى خبير بخلقى ، كما أنى رحيم بهم ، أو ليس من لطفى أن أحفظ لهم البزر فى شجره مئات الألوف من السنين ، فيشاهدونها فيدركون حفظى لما دق وجل ، ويعرفون أن أعمالهم ستعرض عليهم كما ستعرض جميع أجزاء الشجرات المخلوقات قبل وجودهم فى الأرض أمامهم ، أليس الفحم الحجرى الذى سيرونه فى باطنك طبقات من الصخور الحجرية المتراكمة ، وقد حفظت فيها الحبوب حبة حبة ، أيتها الأرض ، سأقص قصصك هنا عليهم ، وأفهمهم ذلك فى كتابهم المنزل عليهم ولا يعلمون ذلك تفصيلا إلا بعد ظهور طبقات الفحم فيك أيتها الأرض ، هنالك إذن يكون للناس رحمتان بهذه الطبقات الفحمية : رحمة بجرى قطاراتهم ، وإدارة آلاتهم وجميع أعمالهم . ورحمة أخرى بالادكار والفهم حتى يدركوا لم ذكرت الحبة فى ظلمات الأرض أو فى الصخرة . ولم ذكرت الذرة ، والأصغر منها والأكبر؟ والذى أصغر من الذرة أمثال الأضواء المحفوظة فى مسافات طويلة وملايين السنين ، فكل هذه محفوظة : هذا ماخطر لى حين قرأت هذا الموضوع فى ذلك الكتاب بالانجليزية ، أكتبه الآن قبولا لنعمة العلم ، وإظهارا لآداب القرآن وعجائبه .

وأسأل الله أن يلهم أمم الإسلام فيدرسون هذه العجائب فوق مادرسها الفرنجة ليفهموا دقائق القرآن .
سبحان الله ؟ ألم يذكر « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ويقول « ولاحبة فى ظلمات الأرض » ويقول « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة » أليس هذا وأمثاله ظهرت آثاره للعيان فى الفحم الحجرى وعرفنا بعض مايسير له القرآن .

أيها المسلمون : إن الله أراد ولا راد لقضائه ، أن زمان رقيكم قد أظل فأبشروا وبشروا واقرءوا جميع العلوم ، والله معينكم ، والحمد لله رب العالمين .

مسامرة بينى وبين صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

وبيان أن الزلازل الأرضية نعمة عظيمة للانسان ولولاها لاستمر شقاؤه دهورا ودهورا ، بل لولاها لفنى هذا الإنسان وأكثر أهل الأرض غافلون نائمون هائمون لا يعلمون

هنالك أخذ صديقى يقول : ماهذه المهامة البعيدة المرام ، نحن الآن فى [ملحق تفسير القرآن] وقد ابتدأته بعجائب الرحمة فى تفسير : بسم الله الرحمن الرحيم ، وفيها صور الحيوانات الوحشية التى تحافظ على ذريتها رحمة بهن ، وتلا ذلك أحاديث الرحمة وآياتها وما يتبع ذلك من الروضات الثلاث ، نعم كل ذلك فى نفس الرحمة لم يتعدها .

انتقل الكلام إلى الآيات الخاصة بالحمد تفصيلا لقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » وتبع ذلك كيف بدأ الله الخلق لتبيان الحمد على ذلك هكذا مابعده من تفصيل بعض عجائب وعجائب مصورات بالتصوير الشمسى .

وها نحن أولا فى ذكر الآيات القرآنية التى جمعت مابين العجائب السماوية والأرضية تبيانا للحمد ، وقد وصلنا إلى آية « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش » الآية ، وجاء فى فى هذا المقام بدائع فى السموات وبدائع فى الأرض ، وقد فصلت الكلام فى الفحم الحجرى ، هذا جل ماتقدم وملخصه ، ولقد قلت فى تفسير البسملة : إنك لا قدرة لك على استيعابها وتخلصت من ذلك ، فهل تفسير الحمد كتفسير البسملة كلاهما لا نهاية لعلومه ، وإذا كان الأمر كذلك فهل تريد السير إلى غير نهاية ، أيهما ذا أنت صانع فى هذه المهامة الواسعة الأكناف والبطاح العظيمة الرحاب .

قلت أيها الأخ إن لقولك عندى مقاما ساميا ، وهذا القول ورد فى خاطرى كثيرا فأقول فى نفسى : هل أسير إلى غير نهاية ؟ وماذا أنا فاعل فى هذا اللحق ، ولكن الله الموفق هو الذى يهدى إلى الهدى ، هو الذى يعلم عباده فأجد فى الاختصار جهدى وأحافظ على نظام فصول الكتاب ، فأما موقفى الآن فانه موقف خارج عن طاقتى فأنا فيه مسير لامخير مع المحافظة على نظام الكتاب فى الترتيب لنعلم علم اليقين أن أكثر المتعلمين فى النوع الإنسانى ليسوا أهلا لإدراك هذا المجال .

أنا ذكرت لك أيها الأخ أنى قد قرأت فى الكتاب الانجليزى مسألة الفحم الحجرى وأبنت أنه قد كان طبقات قبل خلق الإنسان إلى آخر مامر ، أتدرى أيها الأخ ماذا جد بعد ذلك ؟ قال لا . قلت : خطرت لى خواطر لم يكن لى بد من تدوينها ، وإذا قلت ياأخى إنه تطويل ، فإنى أقول كلا ، إنه ليس بتطويل فإنه كلام جديد جميل ، فقال : لقد شوقتنى وألهبت فى قلبى حرارة العلم بعد الابتداء فى الاعتراض عليك ، أسرع برد الجواب .

قلت أيها الأخ : ما كدت أتم مقال الفحم حتى تذكرت (١) قوله تعالى : والحمد لله الذى خلق السموات

والأرض وجعل الظلمات والنور » وإن الظلمات جاء ذكرها فى نفس السورة إذ يقول ـ ولا حبة فى ظلمات الأرض » الخ ، فذكر الحبة فى ظلمات الأرض والناس اعتادوا قراءتها وهم يمرون عليها مر الكرام كأنه كلام عادى ، وقد اكتفوا ببلاغته وأنه معجز للبشر ، ولكن لنا الحق اليوم أن نقول ماسبب ذكر الحبة فى ظلمات الأرض ، وقد جاء فى أول السورة ذكر الظلمات ، فالله محمود على خلق الظلمات وما فيها كما هو محمود على خلق الأنوار وما فيها وكما أنه ذكر قصة ابراهيم [ونظراته فى النجوم وتكرار ذلك حتى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض الخ] لمناسبة ذكر النور فى أول السورة لهدم مذاهب عباد الكواكب ، وهم الصابئون ، هكذا هنا يبين فى آية مفاتح الغيب تفصيل الكلام على عجائب الظلمات التى يستحق الحمد عليها كما استحق الحمد على الأنوار التى بينها فى قصة الخليل عليه السلام .

ونراه فى أول السورة يذكر الظلمة بعد ذكر الأرض ، ويبين خلق الإنسان من طين تبيانا لعوالم الأرض أما ظلماتها فانه أوضحها فى آية مفاتح الغيب وفصلها بقوله « ولا حبة فى ظلمات الأرض » .

ونراه فى قصة لقمان يقول « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة » ما هذا ؟ تارة يذكر الحبة فى الظلمات ، وتارة يذكر أنها فى صخرة ، نعم هذا وضح فيما تقدم ، ولكن أعيده هنا لأبين أن أول الأنعام كان براعة استهلال كما يذكره علماء البديع لمفاتح الغيب التى جاء فيها ذكر الظلمات وقصة الخليل ونظراته فى الكواكب ، وأن ذلك كله موجب للحمد .

فقال صاحبى : هذا القول صار الآن مفهوما ، ولكنه يحوزه تفصيل وتفصيل . فقلت نعم : أفصل وأفصل وكيف لا أفصل ألم يفصل الله الظلمات ويفصل النور كما قدمت فى نفس سورة الأنعام ، ثم جاء يفصل الأمر فى علم الفلك الذى أظهر هذه الأجرام النورية البعيدة ، وفى مباحث الفحم الحجرى ، وقد ظهرت بالمناظير المعظمة الحبة فى ظلمات الأرض مدفونة فى المتحجرات الفحمية ، فها هى ذه قد أصبحت متصفة بالوصفين ، وصف أنها فى صخرة كما فى سورة لقمان ، ووصف أنها فى ظلمات الأرض كما فى سورة الأنعام ، فهذان الوصفان فصلهما القرآن ، وذكر الثانية فى سورة لقمان الذى آتاه الله الحكمة للدلالة على أن الذين يدرسون هذه العجائب هم أهل الحكمة ، بل هم ممن آتاهم الله الحكمة إذا كانوا مسلمين .

وإلا فماذا نرى لقمان حين يعلم ابنه الدين يبتدئ بأن الله يعلم حبة الخردل فى الصخرة وأنه يأتى بها وقد أتى الله بها فعلا فى زماننا من جوف الصخرة ورأيناها بالمنظار المعظم .

فقال صاحبى . هذا الكلام فى حد ذاته حسن ، ولكن نريد إيضاحا أتم وأجمل . فقلت :

اسمع أيها الأخ : يقول الله فى سورة سبأ « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » انظر أيها الأخ العجب العجاب .

يقول هنا : « إنه له ما فى السموات وما فى الأرض وأنه يعلم ما يلج فى الأرض ويعلم ما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » : فاذا تذكرنا أنه يقول فى سورة الأنعام « إنه يعلم الحبة فى ظلمات الأرض » علمنا من هذا المقام علم الفحم الحجرى كله ، فكأنه يقول لنا الآن :

أيها المسلمون : أيها المسيحيون : أيها اليهود : أيها البراهمة فى الهند : أيها البوزية هناك ، ويا أتباع [كونفشيوس] فى الصين ، ويا أتباع [الميكادو] فى اليابان اسمعوا اسمعوا .

إن الجهلاء منكم يؤمنون بأن لهم إلها على مقتضى سماعهم ذلك من شيوخ دياناتهم ، وهؤلاء الجهال من حسن حظهم [الدنيوى ، لأن آخر دين وهو الإسلام هو الذى جمع أسرار كل دين فيجب اتباعه على كل من وصل إليه وبلغه] بحكم البالغة أنهم لا يقدرون على الجدال ، فلا يقول أحدهم : إذا كان إلها رحيما

فما هذه الزلازل ؟ ما هذه الرجفات الأرضية . فبينما الناس آمنون فى أوطانهم سعداء مهنئون فرحون مستبشرون إذا بنا فى لحظة نرى الأرض قد ابتلعت مدنا وقرى ومزارع وحيوانات ونباتات ، أى رحمة هنا وأى رأفة ؟ .

إن هذا القول لايخطر ببال الجهلاء من نوع الإنسان . وإنما الإيمان تقليدى . والتقليد هنا نعمة ، ولكن الذى يسأل هذا السؤال ويصبح ملحدا كافرا بالله وبنعمه إنما هم أكثر المتعلمين فى الأرض .

إن المتعلمين فى المدارس العالية فى أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى والأدنى وفى جميع الكرة الأرضية على قسمين : أذكياء ، وبلداء ، فأما البلداء فانهم لايشكون فى دياناتهم لأنهم لا قبل لهم بالتفكير فى هذه الحوادث المزعجة ، بل يقولون سلمنا ، وهؤلاء أرحناهم من العناء .

أما قسم الأذكياء من أرقى الطبقات المتعلمة فانهم فريقان : فريق بحث وحلل وشرح ، واهتدى إلى أن هذا العالم جميل وجماله منا ، ومتى جهل شيئا نسبه إلى أن قدرته لاتطيق ذلك ، وحمل ذلك على ظن حسن بجمال صنعنا وقاس ما لم يعرف على ما عرف .

وفريق آخر قال : كلا كلا ، إن العالم كله ضلال فى ضلال ، ما هذا الموت ، ما هذه الحياة ، ما هذه الأمراض ما هذه الزلازل والبراكين ، إن كل ذلك إلا خبط فى خبط ولا قوة عاقلة تحفظ هذا العالم ، وهل هو إلا عبارة عن عوالم متحركة لامستند لها إلا المصادفات . أما العقل والعلم والحكمة فإن ذلك لاوجود له ، وإلا فما هذه الأهوال والفواجع والزلازل والبراكين ، كل ذلك يقع فى أذهان هذه الطبقة المتعلمة التى وقفت فى وسط الطريق ، فلا هى من العامة المقلدين ، ولا هى من الخاصة الواصلين إلى .

فليعلم جميع أهل الأرض من سائر أهل الملل والنحل أن حقائق العلوم اليوم أخذت تظهر جلية للمفكرين .

هاأنذا أقول فى القرآن : إنى أعلم ما يلج فى الأرض وأعلم ما يخرج منها وأعلم الحبة فى ظلمات الأرض ، وأعلم الورقة الساقطة ، كل ذلك أصبح واضحا فى طبقات الفحم الحجرى .

لو أن أحدا الآن وقف عند مصب نهر [الكنج] وعند مصب نهر [المسيسيبى] ورأى مئات الأميال المربعة التى امتلأت بالغابات والأحراش والأشجار العظيمة الهائلة ورآها تكون طبقات تلو طبقات لتعجب من ذلك وقال : أى فائدة فى هذه كلها . وأى نفع فى تراكمها طبقات بعضها فوق بعض ، وهذه الطبقات لا ينتفع بها أى حيوان أو إنسان بعد ذبولها ويبوستها ودفنها فى الأرض .

وهذه الظاهرة اليوم هى عين الظاهرة التى كانت قبل خلق أبيكم آدم ، فقد كانت الطبقات تلو الطبقات بلا مزية ظاهرة للجاهلين .

هذه أفعالى فى أقاصى السموات وفى قطرة الماء أدبر البعيد وأدبر القريب ، الصغير والكبير عندى سيان

تدبير الأمر وتفصيل الآيات جار فى العوالم كلها وظهوره أتم فى عنصرها

رباه أريتنا القريب الحقير عظيما ، وأريتنا البعيد الكبير صغيرا قريبا ، إن ذلك التدبير العظيم ظهر بالتفصيل الذى فصلته بالمناظير المعظمة ، وبانتشار العلوم التى أصبحت فى نظر القرآن كأنها علم واحد من حيث جمالها وبهجتها بالماء ، وبعوالم السماء بهرت عوالم النبات والحيوان التى ظهرت علومها فى عنصرنا دبرت التدبير واضحا فى نتائج هذين العالمين كما وضح فيما قدمناه بما شاهدنا من التدبير البديع فى عالم النبات ، وكيف :

(١) يظهر زهر بعضه أولا فإذا ذبل دخل الثمر فى شق الأرض .

(٢) وبعض

(٢) وبعض النيلوفر تتفتح زهرته فوق الماء فإذا ذبلت تدلت الثمرة فيه .

(٣) وبعض ذلك النبات متى أزهرت الأنثى منه وظهر الثمر فوق سطح الماء كما أوضحنا أخذت الزهرة التى فيها مادة الذكورة تنقطع وتخرج من تحت الماء جارية فوق سطحه حتى تصل إلى الأنثى فيكون اللقاح .

سبحانك يا ربّ : ما هذه العجائب والبدائع التى شرحنا سابقا ؟ وأعدنا بعضها هنا إعجابا بالحكمة ، وفرحا بالنعمة .

رباه ، ما هذه البدائع ؟ نرى نورا مشرقا فى هذه العوالم وسرا ساريا فيها ، فياليت شعرى هل يعلم بعض النبات أن بذره خلق ليعلق بصوف الغنم والغنم تسير به إلى أماكن أخرى ليقع فيها البذر فينبت هناك ، ما هذا التدبير المحكم ؟ تعجة تجرى ولا علم لها بما علق بها ثم يكون صوفها سببا فى تعلق البذر به فيكون زرعا فى أرض نائية فينتفع الإنسان والحيوان ، ما هذه العجائب ؟ .

رباه حارت العقول وحارت الأفكار فى هذا التدبير ، من هنا يفهم المسلمون بعدنا معنى « والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى » ويفهمون « يدبر الأمر يفصل الآيات » ويفهمون أكثر القرآن مثل قوله : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » وياليت شعرى هل كانت الأرض وهى تدور حول الشمس عارفة كيف يكون نظام الصيف والخريف والربيع والشتاء ، وكيف تكون الحرارة والبرودة ومقاديرها سببا فى انتشار النبات والحيوان فى الأرض ولكل زمنه الخاص به ، أم كانت حرارة الشمس وضوءها والعناصر التى ركبت منها أنواع النبات ؟ فكرت فى أمر الفول السودانى فقالت له يا فول إذا نضجت حبوبك فادفنها فى الأرض لتحفظ من الآكلات لها ، وليكون قول آخر يأتى من حبوبك المدفونة : أم للمادة والضياء هما القائلان للنبات المسمى [بنفسج الكاب] يجب عليك أن تدفن بذرك على بعد عشرة أقدام لأجل أن تكون حرا فى ظهورك بعيدا عنى ، وهل كان النبات المسمى [ورد أريحا] علم أنه لا نصير له فى بقاء نوعه إلا أنه يصير كرة بعد يبسه ، وقد عرف أن الرياح تسوقه وتلعب به حتى يصل إلى مكان قصى فينبت بذره فيه ، وهل الرياح كانت تعقل تلك النعمة .

لعمرى ما كانت النجات حاملات البذر ولا الرياح حاملات ذلك النبات الكروى بعالمات نتائج هذه الأعمال ، أرى أن هذه العوالم كرة واحدة مملوءة من الأعمال الصغيرة المدبرة كلها تدبيرا متقنا ، والإنسان والحيوان فى حيرة لا يعلمون ما هم إليه صائرون ، غاية الأمر أظهر العلم أن الحكمة سارية فى صغيرات الأمور وكبيراتها ، أوليس هذا يفهمنا معنى قوله تعالى « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وإلا فكيف نرى بذر القطن يحيط به شعر ، ذلك الشعر الذى نبيعه فى أسواق العالم لم يكن مقصود خلقه أولا وبالذات إلا بقاء نوع القطن ، وهذه البذور التى عليها مدار بقاء النوع قد كسيت بهذا الشعر وجعلت له أشبه بشراع السفينة تتقاذفها الرياح ، وهى حافظة البذور فيها حتى إذا وصلت لمكان آخر ووافقتها الأحوال الجوية ظهر نبات قطن جديد من هذه البذور ، ومثله بذور شوك الجمال المعروف :

ثم ما هذه الكلاليب والصنارات التى تعلق ببذور بعض النبات ، فمتى صادفها حيوان علقت بشعره ، فإذا أراد التخلص منها صعب عليه ذلك ، وقد تقتل الآساد إذا حاولت نزعها ، ما هذا القتل وهل هى دبرت ذلك وهل هى التى كانت تعلم أن بقاء ذريتها لا يتم إلا بهذه الكلاليب ، وتعلم أن شعر الحيوان مستعد لنقلها إلى مكان آخر ، وقد يموت الحيوان شهيد المعركة ، كل ذلك لقصد بقاء نوع هذا النبات . ثم ما تلك الأسلاك الشائكة التى علقت ببذور النبات الطفيلى حتى إذا تعلقت بشجرة نبتت عليها واغتذت من عصارتها :

وهل كان جوز الهند يعلم أن ثمرته لا بد أن تذهب بعد أن يحملها الماء إلى مسافات بعيدة لتنبت هناك لجعل جرم الجوزة قويا يحفظ ما تحته من دخول الماء فيه فيفسده ، وما هذه الخلايا الممتلئة هواء في ذلك النبات الهندى الذى يعوم فى تيار المكسيك بذلك الهواء ويسير إلى أوربا ولم يجعل غلاف البذور بشكل بعض الحشرات ، وهناك تكون زلازل أرضية تصبح بها هذه المروج الخضراء أثرا بعد عين فى لمح البصر أو هو أقرب ، ولكن العلم الآن أوضح أن تلك الطبقات الفحمية التى تبلغ فى المكان الواحد من خمسين إلى مائة لا بد من زلزلتين لكل واحدة منها زلزلة لإغراقها فى البحر ، وزلزلة لإخراجها منها ، فإذا كانت الطبقات مائة طبقة كانت أعداد الزلازل مائتين ، وإذا كانت سبعين طبقة كانت الزلازل (١٤٠) زلزلة ، فهذه الزلازل المهلكات لم يرد بها إلا إتمام العمل فى تلك الطبقات حتى يتم نمو الفحم الحجرى على ممر السنين ، وهذا الفحم عليه الآن مدار العمران فى أرضكم خزناه لكم فى أجيال سابقة على خلق أبيكم آدم ، لهذا قلت لكم فى القرآن إنى أعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، أريد أن من ذلك هذه الزلازل الأرضية التى من حكمها أن تنزل الطبقات إلى البحار تارة وترتفع أخرى ، وبين النزول والطلوع آلاف السنين تهنأ فيها مخلوقاتى بالسلام والأمان والرحمات والسعادات ، وغاية الأمر أنى بعد سنين قد تبلغ عشرات الآلاف أو أقل أو أكثر أزلزل الأرض فيحصل موت الحيوانات ، وهذا الموت حاصل فى كل مكان ، غاية الأمر أنه شمل أشخاصا كثيرة وهو أمر سائر على النظام لاخلل فيه ، فهذا الموت ليس شيئا مذكورا ، بل إذا كان ذلك ضررا بحسب الأنظار الجاهلة ، فإنا نقول : إن المنافع العظيمة فى الأرض تتوقف على هذه الزلازل ، وهذا الضرر القليل عند النظر السطحى يفضل عليه النفع الذى لاحد له ، فليس ذلك النفع قاصرا على الفحم الحجرى ،

إن الزلازل تخرج لأهل الأرض عند جبال البراكين أراضى زراعية لايحتاجون فيها إلى سماد وتبقى الأرض على هذا المنوال آلافا من السنين [هذا واضح وضوحا تاما فى سورة سبأ فاقرأه هناك فإنه مشروح شرحا وافيا] وكم من منافع للناس من تلك الزلازل ، ومن تلك البراكين لولاها لفنى الإنسان :

وكيف لا يفنى ؟ أليس حدوث القارات لن يكون إلا بالزلازل ، فاذا كانت نفس القارات وما هو أقل منها وهى الأرض الحصبة فى القارات لا تكون إلا بالزلازل ، فكيف تكون شرا ، وهى الخير كل الخير ؟

فاذا ذكرت فى القرآن الحبة فى ظلمات الأرض ، وذكرتها فى الصخرة ، وذكرت أنى أعلم مايلج فى الأرض ، وأنى أعلم مايخرج منها ، وأنى أعلم كل ورقة سقطت من شجرتها ، فهاهو ذا مفصل تفصيلا واضحا فى معادن الفحم الحجرى ، فهناك الورق والغصن والجذع والحب الصغير .

(شكل ٥٣)

قطعة رقيقة مما يسمونه لوح الحجر مكبرة جدا

قال صديق : والله إن الموضوع لجميل وبديع ، ولكنى أحب أن أرى بعينى نفس الحبة التى فى الصخرة والتى فى ظلمات الأرض ، وإذا كنا نقول : إن هذا هو الزمان الذى تظهر فيه الآيات العجيبة والله يقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . ويقول « ثم إن علينا بيانه » . ويقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فأنا أحب أن أشاهد نفس الحبة ونفس الصخرة فى ظلمات الأرض كما شاهدتها أنت ، فقلت . لك ذلك أيها الأخ .

وفيها ترى الحبات الدقيقة جداً فى غلافاتها محفوظة من قبل خلق الإنسان موزعة فى ذلك اللوح الحجرى .

قال المؤلف الذى ترجمت عنه هذا القول : ما هذه الأكياس الصغيرة الموزعة فى هذا اللوح الحجرى ؟

ثم أجاب على ذلك بأن علماء النبات يجيبوننا حالا قائلين على طريق التأكيد بلا تردد: لامرية أن هذه بذور نوع من الطحالب ذوات الأغصان والفروع .

ولقد اصطلح علماء النبات على تسميتها باسم [سبيور] قد غطيت بأغلفة بها بقيت محفوظة إلى الآن وهذه الأغلفة تكون سببا فى اشتعال النار بها .

إن لوح الحجر إن هو إلا طبقات من طين تكون فى العصور التى قبل خلق الإنسان وامتزج بهذه البذور الدقيقة [سبيور] التى هى بذور أشجار الطحلب ، وقد أصبح ذلك الآن متحجرا شديد الصلابة قويا متينا .

قال المؤلف : وإذا أردنا أن نعرف ما هي الطريقة التى بها أصبح ذلك متحجرا . نقول : لا ريب أن من ساح فى أقطار [كندا] وشاهد غاباتها العظيمة فإنه يتعجب غاية العجب مما يرى أن شواطئ بحيراتها الواسعة العظيمة مغطاة بمقادير عظيمة من دقيق أصفر يظهر فى نظر العين أنه تراب وما هو بتراب إن هو إلا [حبوب دقيقة جدا] وماهذا الدقيق إلا حبوب طلع أشجار [الشربين] تحملها الرياح من أزهار ذلك الشجر وتسير بها فى الجو كأنها سحب عظيمة فى الجو ، وقد اعتاد أهل [كندا] أن يسموها [سحب الكبريت] .

ومن هذه السحب الصفراء ما يقع على غابات الصنوبر العظيمة ، وكثير منها ينزل على ماء الأنهر والبحيرات

وما أسرع أن تتقاذف ذلك الدقيق الأصفر الأمواج ، فتحملها إلى شواطئ البحيرة المكونة من الطين هنالك تمتزج حبوب الطلع بذلك الطين ، وتصبح بعد حين صلبة بهيئة الأحجار ، وتلك الأحجار مشابهة كل المشابهة للوح الحجر الذى رسم فى هذا المقام .

وإذا عرفنا تكون تلك الحبوب من الطلع فى كندا فهكذا نقيس عليه ما شاهدناه هنا فى لوح الحجر ، فإن العقل والقياس يقضيان أنه تكون فى قديم الزمان قبل خلق الإنسان بهذه الطريقة حيث تمتزج بذور الطحالب بالطين ، ثم يصير صلبا حجريا على مدى الأزمان .

إذن قال صاحبى الله أكبر ، الله أكبر ، لك الحمد ، رباه لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، رباه لقد أنعمت علينا بالعلم ، وفهمنا قولك : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وشاهدنا نفس الحبة فى لوح الحجر بأعيننا بعد تكبيرها كثيرا جدا ، وفهمنا أن هذا معنى قولك « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة » وقولك : « ولاجبة فى ظلمات الأرض » هذه بارب رأيناها رأى العين ، وهذا أمر عجيب جد عجيب .

ولكن أرجع إليك فأقول : أنت تقول إنك شاهدت الورق الساقط محفوظا مثل هذه البذور فأود أن أراه كما رأيت البذور لأفهم قوله : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » وحينئذ يكون قد تم المقام كله ، لأن الزلازل والزحفات الأرضية قد وضحت فى قوله : « يعلم ما يلج فى الأرض » الخ وبينا العلم فى تكوين الفحم الحجرى فلم يبق إلا هذا الورق ، فقلت : إذا أريتكه فهل تقول كفى ؟ قال : إى وربى ، قلت انظر .

(شكل ٥٤)

(منظر رسم جانبى للفحم منظور من معدنه أثناء العمل)

(شكل ٥٥)

(ا) هذا هو الجزء الذى تحت الطين مع البذور الملتقطة فيه .

(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة .

(ج) سقف الفحم مخلوطا بالرمل وبنوع من الورق

(شكل ٥٦)
رسم الأمشاب فى مدة الفحم الحجرى

فلما اطلع على هذه الأشكال الثلاثة قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

هأنذا أشاهد الورق محفوظا قبل خلق الإنسان فى الأرض ، وقد أتى الله به إلينا كما أتى لنا بالحب وبالطلع الذى هو أدق منه فى صخور عظيمة ، وها هنا أشاهد بعض طبقات الفحم الحجرى عيانا ، والحمد لله رب العالمين .

إن الفحم المفصل فى طبقات الأرض موجب للحمد ودليل على قيام الساعة فى القرآن ، ثم استطرد صاحبى فقال :

حيا الله العلم وحيا الله الحكمة ، ها هو ذا القرآن نور على نور ، ونعمة على نعمة ، من ذا كان يخطر بباله أن تظهر هذه العجائب فى زماننا ، زمان العرفان ، زمان النور ، زمان الجمال ، زمان السعادة ، الله أكبر ، وأى سعادة أعلى مراما وأجمل منظرا وأبهج نورا من ظهور الحقائق ، ظهورها واضحة جلية حتى أصبحنا كأننا نشاهد العالمين : عالمى الدنيا والآخرة .

أفليس مما يبعث فى القلوب مسرة وفى الأعين قرة أن يكون الحمد فى الفاتحة مفصلا فى أول الأنعام بذكر الظلمات والنور والمفصلين فى قصة الخليل عليه السلام ومفاتح الغيب وأول سورة سبأ ، كل ذلك لتفسير حمد الله الذى ربى العالمين .

فالفحم الحجرى الذى ظهر بالعلم الحديث أنه تلج أشجار الأرض قبل خلق الإنسان تارة وتخرج منها تارة أخرى بالزلزلة دهورا ودهورا ، كل ذلك لم يكن عبثا ، ولم يكن جهلا ، ولم يكن رمية من غير رام ، فهذه هى الآثار الدالة على أن ذلك كان معلوما لصانع العالم ، لأن الذى يأتى بهذه الثمرات وهذه المنافع ويقلب الحضارة فى كرتنا الأرضية بعد أن كان مخزونا مجهولا فى ظلمات الأرض لم يكن وليد الصادفة العمياء ، فهذا معنى : يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها الخ ، هذا كله قد فهمته مما قصصته على أنت ، قلته لأبين لكم أنى عرفت هذا الدرس معرفة تامة ، ويمكننى أن أقول : إنى فهمته حق فهمه ، قلت حياك الله وياك لقد كان سرورى بما سمعته منك عظيما وأيقنت بأنك قد أدركت حقيقة هذا العلم وفهمته حق فهمه ، ولقد تبين لى من قولك هنا حكمة عالية لم تكن لتخطر لى قبل الآن ، فقال وما هى تلك الحكمة ؟ فقلت :

ألا تذكر أيها الأخ أنى قريبا عند شرح الفحم الحجرى قد قررت أنه جعل مثلا لخلق الإنسان وبعثه قال : نعم ، قلت : وقد قررت هناك أن المعارف والشرور والفضائل تخزن فى النفس فى حياتها ولا يغيب عنها شىء وتبقى تلك الخازن محفوظة فى النفس ، ثم يظهر ذلك المخزون برمته عند رجوع النفس إلى العالم الإلهى وترى الأرواح أسرار بعضها ، والأسرار تكشف ، ويقال لكل امرىء « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

وقلنا هناك إن ظهور الأنوار والحرارة المخزونات فى الفحم الحجرى فى العصور القديمة واختلاط تلك

الحرارة والأنوار اليوم بالحرارة والأنوار الشمسية فى جو الأرض ساعدة من آلاتنا البخارية ومعاملنا الصناعية كل ذلك تمثيل وتبيان لظهور المخزون فى أرواحنا وما استكن فيها علومها وأعمالها وأخلاقها عند رجوعها إلى عالم الأرواح ، والفرق أن المخزون فى الفحم أنوار وحرارة حسيات رجعت إلى عالمها فى الجو بعد أن اختفت عنه مئات ألوف السنين .

فأما المخزون فى نفس الإنسان فإنه معنوى تدركه العقول ولا تدركه الأبصار ، ويرجع ظاهرا فى عالم الأرواح مشاكلة لظهور أنوار الفحم الحجرى فى عالم الأشباح .

فقال صاحبى : نعم أنا أتذكر أن ذلك تقدم وسمعته منك ، غاية الأمر أنه هنا أشد تفصيلا ، فقل فهل تعجب معى أيها الأخ غاية العجب من أمر لم أكن لأتصوره ، فقال: وما هو يرحمك الله ؟ فقلت: إن الذى كنت ذكرته لك وقررته ، وهو أن أمر الفحم وصنعه فى باطن الأرض ضرب مثل لرجوع الأرواح لعالمها وقيام الساعة لم أكن لأعلم أن نفس هذا الاستنتاج صرح به القرآن فى نفس هذه الآيات ، فقال : نفس هذا الاستنتاج ، فقلت نعم، فقال إذا علمت ذلك وظهر فعلا نستدل به على أمور عظيمة كأن نقول : إن كثرة تكرار الكلام على قيام الساعة فى القرآن قد ذكر فى كل مقام لحكمة غير الحكمة التى تذكر فى مقام آخر ، فقلت : لقد أحسنت أيها الأخ فيما فهمت ، فقال : إذن ما ذا جاء فى القرآن ، فقلت ذلك فى سورة سبأ فان الله يقول : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير » .

ثم أخذ يبين الحكمة وأنه خبير فقال : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » ثم أتبعه بقوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم » فانظر هل كان يخطر لنا ونحن نبين أن الفحم الحجرى ضرب مثل للبعث، إن هذا المقام مشروح فى نفس الآية ، فقال كلا لم يكن ليخطر لنا ، وإنما ذلك أمر عقلى ، فان الأضواء وأنواع الحرارة الأرضية المخزونات فى الفحم وظهورها مرة أخرى ، هذه كلها تشاكل أخلاق الناس وأعمالهم التى تخزن فى نفوسهم وتظهر عند الموت وعند البعث .

فقلت : إذن أيها الأخ هذا أمر عجب ، والأعجب منه هذا الإيضاح ، فانظر كيف يقول بعد قوله : « بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب » ، فقوله « عالم الغيب » راجع لقوله : « يعلم ما يلج فى الأرض » الخ ، فالذى يلجه فى الأرض أصبح مغيبا كالفحم الحجرى ، فأما قوله « عالم الغيب » فهو أعم فذلك فى عالم الأرض وحده وهذا عام فى كل غيب ، ولذلك أخذ يبينه ، فقال « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » فذكر مثقال الذرة ، وذلك كتلك البذور التى أريتكها أيها الأخ وهى الحبة التى فى ظلمات الأرض إلى آخر ما تقدم، فقال : هذا حسن، ثم ذكر ما هو أصغر منها أتدرى ما هو أصغر منها أيها الأخ ؟ فقال : لا ، فقلت : قد أشرت إليه سابقا ، وهو الأضواء والحرارة وما فى النفوس الإنسانية من الخير ومن الشر ، فهذه كلها أقل من الذرة . لأنها إما معنوية وإما قريبة من المعنوية ، فالأصغر من الذرة يشمل جميع الأنوار الحسية ، وجميع الأمور المعنوية ، فالأمور المعنوية هى المخزونات فى نفوس الناس ، والأمور الحسية هى أضواء الكواكب المخزونات فى طبقات الجو كما أشرنا إليه سابقا ، فإننا نرى جميع الكواكب البعيدة والقريبة ترسل أنوارا ، وتلك الأنوار تجرى حثيثا سريعة ، ولكنها لا تفنى تلك الأنوار بل هى فى نفس هذا الجو .

ألسنا نرى الضوء قد جاءنا وسافر من آلاف وملايين السنين ، أليس ذلك لكونها قد حفظت ولا يمكن

حفظه إلا إذا كان معلوما لحافظه كما حفظ الفحم الحجرى وحفظت أنواره التى فيه التى تقبلها من الشمس ثم ظهرت لنا بعد ذلك ، فنور الكواكب الجارى منها إلينا لا فرق بينه وبين نور الشمس المخزون فى الفحم الحجرى ، وقد رجع إلينا ؛ كل ذلك حفظ بعلم ورجع إلينا ، فهذا هو قوله تعالى « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

فلما سمع ذلك صاحبى قال . يظهر لى أننا فى فهم القرآن لسنا نقف عند حد كما أننا فى العلم لا نقف عند حد ، فقلت نعم ، فهل تحب أن أزيدك أيضا فقال بعد هذا أيضا ؟ قلت بعد هذا أيضا ، فقال ماذا تقول ؟ فقلت : اسمع اسمع كيف يقول الله بعد هذه الآيات « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » .

أفلا تعجب أيها الأخ كيف كنا نذكر الفحم الحجرى وأنه ضرب مثل ، ثم نرى نفس الآية تذكر ذلك صريحا لا ضرب مثل ، ثم نسمع علم الغيب والأصغر من الذرة والأكبر منها كالكواكب والشموس والأقمار ثم يصرح بأوضح من هذا فيذكر جزاء الكافرين والمؤمنين على وفاق مايظهر من أنوار الفحم الحجرى وحرارته عند احتراقه فى المعامل .

ثم اسمع يا أخى ماهو أعجب ، فقال : وهل بقى شىء ؟ قلت نعم ، فقال وما هو يا ترى ؟ فقلت أبان بعد ذلك نتيجة هذا القول فقال . « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » فذكر أولى العلم ، وهذا المقام أحق به ، لأن هذه العلوم التى ظهرت الآن لاسيما فى الفحم الحجرى تجعل المدركين لها موقنين بذلك .

والأعجب من ذلك أنه يقول « الذى أنزل إليك من ربك » فلماذا ذكر لفظ رب ، مذكرا لنا بأن ذلك كله راجع للتربية ، فالفحم الحجرى والسموات والأرض كلها فى حال التربية والارتقاء حالا بعد حال لتربية الفحم فى باطن الأرض كتربية الإنسان كلاهما له مقدمات ونتائج ، وهذا كله داخل فى معنى الحمد لله رب العالمين فى أول الفاتحة .

ولقد أشار له بقوله « ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » فقوله الحميد راجع لما فى أول السورة من قوله « الحمد لله » الخ ، ولقوله فى أول الكهف « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » ولقوله فى أول سورة الأنعام « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » ولقوله فى أول الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » فلفظ الحميد هنا يذكر هذا كله ، ثم أتبعه بتوبيخ منكرى البعث ، فقال « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » .

ولما كان الجهال محرومين من العلم المذكور فى قوله « ويرى الذين أوتوا العلم » الخ وجب أن يخاطبوا بما يفهمونه من الزجر والتخويف ، فأما العلم فلا ، ولذلك قال « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » والعبد المنيب إلى ربه رجل صالح رجع إلى ربه ، ويكفى فى أمثال هؤلاء التخويف ، أما الذين أوتوا العلم فهؤلاء يذكر لهم ما تقدم من أنه يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها إلى آخر ماتقدم .

ثم بعد ذلك أخذ يذكر قصص داود وسليمان إلى آخره ، وقد وضح هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

كيف أسدلت الحجب على هذه الأسرار القرآنية قرونا وقرونا

لما سمع صاحبي ماتقدم أخذ يفكر طويلا وظهرت عليه علامات الأثر الشديد وسكت مفكرا ، فقلت مالي أراك واجما يرحمك الله . فقال أفكر في أسرار القرآن في زماننا وأسراره في الزمان الأول .

فنحن هنا والله قد دخلنا في بحر لجي من العلم لاساحل له ، وهذه أحق بأن تسمى أسرارا، أما ما كان يتلقفه رجال عن رجال مما كانوا يسمونه أسرارا ، فإن ذلك قد أسدل الحجب وحجب الأنوار عن أمم الاسلام قرونا وقرونا ، إذ أخذ المسلمون يهيمون في أودية أسرار الحروف وحسابها بالجمل ويظنون أن ذلك أسرار وما هي بأسرار ، إن هي إلا بقايا علوم الأمم الصابئة واليهود ونقلت إلى المسلمين في العصور المظلمة فمزجوها بآيات القرآن ، فحجب بعض المسلمين عن الأنوار والجمال إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وبينما نحن كذلك نفيض في الحديث إذ حضر رجل مشهور بالصلاح والتقوى وهو من الصناع المصريين وهو يتردد علينا وله إلمام بالتفسير الذي نشرناه .

فقال : لقد كنت أبحث عن اسم الله الأعظم ، وبحثت عنه سنين وسنين ، واسم الله الأعظم : وهو الاسم الذي من دعا الله به أجابه ، ومن سأله أعطاه .

فقلت : قل ياأخا العرب فقص قصصا طويلا ، وملخصه أنه قرأ في بعض الكتب أن هذا الاسم حروفه محسوبة بالجمل ، وجملها ٦٩٣ وهي ١٤ حرفا ، وإذا أخذ نصف هذه الحروف بطريقة خاصة كان جملها ثلث هذا العدد .

فهذه الحروف هي الحروف النورانية ، وهي التي في أوائل السور ، ويجمعها قولك : [طرق سمعك النصيحة] فجملها ٦٩٣ وقد دخلت هذه الحروف كلها في هذا الدعاء :

« اللهم يارب يا صاحب اللطف الخفي حق لطيف ، بك نستعين ونكتفي » فهذا هو اسم الله الأعظم الذي بحثت عنه مدة حياتي ، وظفرت به بعد التعب والنصب :

فقلت له أيها الأخ : هل هذا هو اسم الله الأعظم ؟ فقال نعم ، فقلت : اعلم أيها الأخ أن هذه العلوم تسمى العلوم الظلمانية ، وليست بعلوم نورانية ، علوم جهالة ، وهذه العلوم قد مارسناها زمن الصبا ، وكنا نظنها أسرار القرآن ، ولما تضرعنا إلى الله أن يفهمنا الحقيقة أزال تلك الموانع ، وظهرت لنا الحقائق ، فدرسنا العلوم ، واطلعنا فألفينا أن الأمم الإسلامية أصابها ماأصاب الأمم قبلها ، ونقلت علوم الصابئين وعلوم اليهود ، والجمل وحسابه كله علم اليهود .

ولقد كان الصابئون : أي عباد الكواكب ، ومنهم المتأخرون من قدماء المصريين يكتبون الأوفاق المعروفة على صحائف من الذهب ، ويتقربون بها إلى الكواكب ، فكان لكل كوكب وفق خاص ، فالمثلث [الذي نسبوه إلى الغزالي وهو رد على الباطنية في زمانه ، إذ كانوا مغرمين بذلك اتباعا للصابئين] كانوا يتقربون به إلى زحل ، والمربع كانوا يتقربون به إلى المشتري، والمخمس إلى المريخ ، والمسدس إلى الشمس ، والمسبع إلى الزهرة ، والمثمن إلى عطارد ، والمتسع إلى القمر : هذه هي الأوفاق وعلومها التي نقلها المسلمون إلى دين الإسلام ، وطبقوها على الآيات ، ومن تلك الكتب مشارق الأنوار ، وشمس المعارف للبوني وغير ذلك ، فهذه العلوم نقلها علماء الباطنية الذين كانوا من غلاة الشيعة ، فدخلت في دين الإسلام ، ففرقت الجموع ، وأحدثت البدع ، وضاع المسلمون وتفرقوا شذر مذر ، وأصبح دين الإسلام كأنه ليس دينا واحدا بل أديانا كثيرة ، فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : فانظر ثم انظر .

ألست ترى أنك حين تقرأ هذا الدعاء وهو الذى اعتقدت أن فيه اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، وأنت لم تحله إلا بعد المشقة ، وبعد الحساب الطويل ، وأن الجمل ٦٩٣ وأن سبعة من هذه الحروف كما تقول إذا حسب جملها يكون ثلث ذلك العدد ، فانى سمعتك تقول : إن حروف [سعى كامل] جملها ٢٣١ وهذه سبعة حروف من ١٤ فهذا فى نظر هذه الطائفة سر عجيب ، وهذا السر كسر قولهم : إن سر القرآن فى الفاتحة ، وسر الفاتحة فى البسملة ، وسر البسملة فى بائها ، وسر الباء فى نقطتها ، والنقطة هى أول كل شىء ، والله هو أول كل شىء ، فلنعرف الله ثم نعرف الأمور الشرعية ويرتبون على ذلك كتابا فيه مسائل من العلوم المشهورة بين الناس ، وهذا كله جهالة وسوء فهم وتدليس ، إذ يظن الطالب المسكين أن ذلك سر وعلم عظيم لجهالته . وأن شيخه هو العالم بالأسرار ، أما علماء الدين وعلماء التفسير والحديث وقراء جميع العلوم فهم محرومون من هذه الأسرار لاسيما سر اسم الله الأعظم الذى يبنى على ذلك الحساب ، وهذا الاسم أصبح سرا بيننا وبين ربنا إن سألناه أعطانا ، وإن دعوناه أجابنا والناس من حولنا محجوبون عنه .

ثم قلت : اسمع ياشيخ عطية ، ألست ترى أنك حين تقرأ هذا الدعاء ، وقد اشتمل على هذه الأسرار ، وتكرره ٦٩٣ مرة وأنت فى خلوة تحس فى نفسك بروحانية ومسرة ؟ قال بلى . قلت : ألست حين تجاب دعوتك ترى أنك وصلت إلى سر عظيم عجز عنه الجاهلون بذلك ؟ فقال بلى . قلت : أليس ذلك معناه أن كل شيخ طريقة ، وكل ذى فكرة ، وكل ذى نحلة من الأمم الإسلامية قد عمل نفس هذا العمل وجعل له أورادا ، وهذه الأوراد يتلوها أتباعه صباحا ومساء لائذين بشيخهم ، عائذين به ، راجعين إليه ، وهم موقنون بأن أدعيته وأنواع أوراده هى سر الأسرار ، ومنبع الأنوار ، وكشف الحقائق ؟

أفأنت ترى أن المسلمين بهذا تفرقوا فرقا ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وثق أيها الأخ ، وتحقق ما أقول ، واعلم أنك حينما تقرأ هذا الدعاء الذى تعبت فى حسابه واستخراج جمله ، وقلت : اللهم ياربنا ياصاحب اللطف الخفى حق لطيف ، بك نستغيث ونكتفى ، تحس فى نفسك بالاجابة وبالمسرة وتنسى نسيانا حقيقيا الأدعية الواردة فى القرآن ، والواردة فى الحديث كما اتفق لنا ، ونحن نخوض فى هذه الجهالات أيام الفتوة والشباب : إنك حينما أسمعتنى هذا الدعاء تذكرت فرق المسلمين والجهالة الفاشية ، وابتعادهم عن القرآن ، وحصر أفكارهم فى أمور جزئية جاهلة .

فيالیت شعرى كيف يفلح قوم غابت عنهم شمس الحقائق ، وجهلوا هذه العوالم المحيطة بنا ، والقرآن هو الذى طلبها ، وعاشوا فى جو من الجهالة والبطالة ، وحبست عقولهم فى محابس مظلمة ظلمة شديدة ، ثم أيها الأخ بماذا تدعو بهذا الاسم الأعظم ؟

أنا أخبرك : تدعو الله أن يذل أعداءك ، ويكثر مالك وولدك ، و يأتى لك بالرزق الرغد والعيش الهنى هذه أدعية هذه الطائفة التى تقرأ الأوراد ، وتعرف حساب الجمل ، وتعيش فى الجهالة والبلاهة ، والعمى والغفلة والضلال المبين .

ثم إن هذا الدعاء استجيب أولم يستجب ، فإنه أيضا جهالة هل نزل القرآن لهذا ؟ هل كان النبى صلى الله عليه وسلم وعمر وعثمان ، وقد فتحوا البلاد شرقا وغربا عاكفين على طلب مايطلبه هؤلاء الجهلاء الغافلين . «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» المسلم يعيش فى الأرض قائما بأمر ربه خليفة له ، هذه الخلافة أظهرتها النبوة وبينتها ، فبينما ترى جهال المسلمين وغوغاءهم يدعون فى ظلمات الليل على أعدائهم ، أو لكثرة أرزاقهم . ترى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحاب النبى يصلون ويدعون الناس للصلاح والتقوى ، وتأتيهم الدنيا راغمة فيصرفونها للناس ويتبرءون منها .

إذن هذا ليس دين الإسلام ، وإنما تلك ملصقة به منقولة عن الأوثان ، إن المسلم الذى يفعل ذلك إنما يريد نفسه ولا يبالى بغيره ، وهذا انحطاط وجهل كبير : المسلم خلق ليعلم هذا العالم ، ويعرف ربه ، ويخدم مجموع الناس على قدر طاقته ، فأما لو فكر فى خدمة نفسه وأهله فذلك راجع لعلوم السحر ، فالساحر لا يريد إلا نفسه ، ويسخر الناس لخدمته هو ، وهذا لا يتم له شئ فى هذه الحياة ، فجميع السحرة وجميع المتدينين بأى دين وهم لا يريدون من ربهم إلا حظوظ أنفسهم ، فهؤلاء جميعا أقل من الحيوان فضلا عن الإنسان .

بهذا طاحت العلوم فى الأمم المتأخرة الإسلامية وحجبت عقول وعقول عن العلوم والمعارف التى تدخل تحت : الحمد الله رب العالمين ، ويقرؤها المسلم صباحا ومساء ، وهو غافل عن الحمد وعن الشكر ، وإنما يريد خدمة نفسه وشهواته لجهالته ، وليس للمسلمين والله ملجأ إلا هذا الحصن الحصين ، وهو هذه العلوم والمعارف التى ننشر شذرات منها فى هذا التفسير :

وإذا كان الله يقول « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » فإننا نقول : إن هؤلاء الذين جهلوا أسرار القرآن وما يطابقها من عجائب صنع الله تعالى ، وانحصرت أفكارهم تبعا لشيوخهم فى أمثال هذه الأمور الحسابية الضيقة الجاهلة ، هم أنفسهم الذين يحشرون وهم على هذه الجهالة يوم القيامة أشبه بالسحرة فكلهم يعيش ويموت وهو محصور فى شهواته وملذاته ، ويدعو الله لنصرته هو على أعدائه .

ولقد قرأت فى كلام الشيخ الدباغ الذى عاش قبل مائتى سنة كما عاش فى نفس ذلك الزمان رجل إيطالى قد كشف له عن الحقائق واعترف بالإسلام ، وقال كلاهما : ان علوم السحر إنما هى علوم أهل جهنم ، وقال عمناوئيل أيضا أنه رأى كثيرا من البابوات فى قعر جهنم ، ولا يزالون يقولون إنهم هم نفس إلاله ويكرهون من يقول لهم غير ذلك ، ويريدون من الناس حولهم تعظيمهم فلا يرون إلا إعراضا فيزيد عذابهم بذلك :

أنا لست أقول : أن هؤلاء الذين يحسون بالجمل سحرة فعلا ، ولكن أقول إنهم أشبه بالسحرة ، والمسلم وإن كان يغفر له ويدخل الجنة بعد حين ، فيكون هذا ناقصا ونحن نريد الكمال وهذا نقص فى الدنيا ونقص فى الآخرة .

فما أتممت حديثى مع الضيف القادم ، ويسمى الشيخ عطيه موافى حتى قال صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير : الله أكبر ، الله أكبر :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

إننا حينما تذكرنا الحجب المسدلة على الأمم الإسلامية فى القرون المتأخرة ، فغابت عنهم هذه العلوم الجميلة ، وأسرار القرآن الحقيقية ، حضر الشيخ عطيه فكان سببا فى شرح هذا الموضوع شرحا وافيا .

قلت أيها الأخ . إن هذا الموضوع تقدم له نظائر فيها كثير من هذه الآراء .

[أولا] فى سورة التوبة عند آية « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » : وفى أول سورة طه ، وفى أول سورة الرحمن فى تفسير الفاتحة فإنك هناك . أى فى فاتحة سورة الرحمن ، ترى إيضاح الكلام على كتاب ألفه الشيخ الجيلى . المسمى [الكهف والرقيم فى سر بسم الله الرحمن الرحيم] وهناك أظهرت كيف جعل الجمل فى البسملة علما ، وكيف كان المسلمون إذ ذاك مغرمين بما ليس بعلم ، وإنما هى قشور وقشور من العلم . ﷺ

فقال صاحبي : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فقلت وأنا أحمده معك على التوفيق وعلى الإلهام وعلى النور الذي أنزله الله على أمم الإسلام في هذا الزمان ، وعلى خروجهم من المآزق التي كان فيها السابقون وبهذا انتهت المقالة الأولى .

المقالة الثانية في عجائب السموات

الله أكبر ، قد بينا عجائب من أمة الحيوانات التي وصلت في صغرها إلى أن آلافا منها تعيش وتتكاثر في قطرة ماء وقد شاهدناها الآن .

إن هذا المقام لم يكن محلا لذلك كله ، ولكننا أدهشنا قوله تعالى :

(١) أنه استوى على العرش (٢) أنه يدبر الأمر . (٣) وأنه يفصل الآيات للعلماء . (٤) وأن ذلك داع إلى أن نوقن بلقاء الله ثم أتبع ذلك بأنه (٥) مد الأرض (٦) وجعل فيها الجبال (٧) والأنهار (٨) ونباتا مختلفا أشكاله الخ. ونراه في آية أخرى يذكر أن هذه السموات داعية لعلم الحساب ، ولعلم الفلك ، ولعلم سير الكواكب ، واختلاف الليل والنهار ، ثم يذكر بعد ذلك لقاء الله ويذم المعرضين عن هذه العجائب الذين اطمأنوا بالحياة الدنيا ، وغفلوا عن هذه العجائب :

[شكل ٥٧]

جمع من السدائم في ذات الشعور

أغلبية الأجرام التي في هذه الصورة سدائم من البعد عنا بحيث أن ضوءها يستغرق ٥٠ مليون سنة للوصول إلينا

سبحانك ياربنا ، حمدا لك وشكرا ، أريتنا عجائب هذه الدنيا على حسب طاقتنا في زماننا ، وحببتنا في البحث والتنقيب ، ومعرفة الجمال والبهاء ، وألهمتنا أن ننادي جميع علماء الإسلام من سائر الفرق ونقول لهم : أيها الإخوان مالكم أنتم لستم فرقا متشاكسين : أنتم أمة واحدة ، دينكم واحد ، خبرونا أيها الإخوان

مادا يفعل الناس إذا سمعوا أن ملكهم عظيم القام قد استوى على عرشه ودبر أمر مملكته الواسعة النطاق .

فهل تراهم يجلسون ويتناقشون فى هيئة عرش الملك ، وهل هو من ذهب أم من ماس أم من بلاتين ؟ وهل هذا الملك طويل ، وما هيئته ، وكيف شكله ؟ أظن أنكم تقولون كلا ، فالناس لايهتمون بهيئة الملك ولا بعرشه ، وإنما يهتمون بأمر مملكته وعظمتها ، ويجدون فى إرضائه . وإقامة العدل تبع أمره ، فليست عظمة الملك بحسب وصف هيئة جلوسه ، أو ملابسه ، أو سرير ملكه . كلا بل ذلك راجع لاتساع ممالكه ، وظهور آثار تدبيره ، ذلك هو الذى يهتم له الناس ، ويكون تمجيده والخوف من سطوته وحبه على مقدار ذلك التدبير ، واتساع السلطان .

فخبرونى أيها الإخوان : أبعد هذا كله يحلوا الجدال فى كيفية استواء الله على العرش ؟ وهل ذلك الخلاف نافع للأمة ، كلا والله هذا تفريق للأمة لافائدة منه ، وإذن فاسمعوا : اسمعوا أيها الإخوان : انظروا إلى مايأتى وتعجبوا .

[شكل ٥٨]

أقصى أعماق الفضاء

تبين هذه اللوحة بعضاً من أبعد الأجرام السماوية التى يمكن تناولها بالرصد ـ جمع مكون من ١٦٢ بندقيا

فى القرص الأعظم أغلبها على أبعاد تبلغ ١٠٠ مليون سنة أو أكثر وكل منها يحوى مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم .

هاتان الصورتان المرسومتان الآن: إحداهما وهى شكل (٥٧) فيها جمع من السدائم فى هيئة الكواكب السماة [بذات الشعور] وهذه السدائم التى فيها كثيرة ، و[سدائم] جمع سديم، والسديم هو السحاب أو الضباب ، وهذا ترجمة كلة لاتينية بهذا المعنى ، والسديم عبارة عن مجموعة تشبه المجرة ، والمجرة تحوى ملايين كثيرة من الشموس كشمسنا وسياراتها ، إذن هذه اللوحة التى صورناها هنا فيها عشرات المجرات التى هى كمجرتنا ، ومجرتنا لا يقل ما فيها من الشموس عن (٣٠ ألف) مليون شمس والشمس الواحدة كشمسنا أو أكبر أو أصغر قد يحيط بها سيارات ومذنبات ، فالشمس الواحدة عبارة عن عوالم وراء عوالم والشمس إحدى ملايين الشموس فى المجرة الواحدة ، وهذه اللوحة فيها مجرات كثيرة ، أما لوحة (٥٨) فإن فيها (١٦٢) سديما كلها فى مجموعة النجوم المسميات : بالقرص الأعظم أغلبها على أبعاد (١٠٠) مليون سنة أو أكثر ، كل منها يحتوى على مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم :

ثم إن السدم التى فى المجموعة (٥٧) يصل إلينا ضوءها فى(٥٠) مليون سنة ، والثانية كما قدمنا فى(١٠٠) مليون سنة .

ولاريب أن الضوء يقطع (١١) مليون ميل فى الدقيقة أو نحو (٦) ملايين مليون ميل فى السنة ، وبعبارة أخرى إن الضوء يقطع ما بيننا وبين الشمس فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية ، وهذه المسافة يقطعها القطار فى (٣٥٠) سنة تقريبا ، وتقطعها قلة المدفع فى (١٢) سنة ، إذن ضوء الشمس من حين خروجه منها إلى وصوله إلينا فى الثمان دقائق المذكورة ، و (١٨) ثانية يكون قد قطع هذه المسافة العظيمة التى تستغرق نحو (٧) أجيال من أجيالنا بقطر سكة الحديد ، أو تستغرق زمن الصبا بقلة المدفع :

فلننظر إذن فى هذا البعد التاسع الذى تقطع فيه أضواء هذه السدم مدة ليست عان دقائق و (١٨) ثانية ولا ساعة ولا يوما ولا شهرا ، بل ولا سنة ولا عشر سنين ولا مائة سنة ولا ألفا ولا مليونا بل خمسين مليون سنة بل مائة مليون سنة ، هذا الضوء سافر هذه المسافة وقد قطع فى كل ثانية منها (٣٠٠) ألف مليون كيلومترا، أو(١٨٦) ألف ميل مسافات شاسعات تعجز عقولنا عن تصورها، وكلما كان الكوكب أقرب كان أظهر، وكلما كان أبعد كان أخفى، ولذلك تجد اللوحة (٥٨) خفية جدا ، فهى مع بعدها التاسع ظهرت أنها صغيرة جدا بحيث أصبحت أشبه بالحيوانات الذرية المتقدمة للصورة فيما تقدم المزدحمة فى قطرة ماء ، وهاهنا الدهشة والعجب :

يقول الله تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات » هو يدبر الأمر وهو على العرش ، ولكن نحن لا نرى ولا نعلم إلا تفصيل الآيات التى وعدنا الله بها ، الله يقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » ويقول : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

الله أكبر ، يا الله يا الله : نحن نقر ونشهد بأنك قد فصلت لنا الآيات وأريتناها . فهذا هو التفصيل الذى وعدتنا به « وعد الله لا يخلف الله وعده » يارب وعدتنا أن تفصل الآيات لنا ، وها نحن أولاء نرى تفصيلك لها أنت فصلتها وأريتناها وقلت :. انظروا يا عبادى ، انظروا أيها المسلمون ، انظروا أيها النائمون أنتم حكمتم عبادى بعد النبوة سنين وسنين ، ولكن لما رأيتكم رجعتم إلى حال الجاهلية الأولى وجعلتم سلطتكم على عبادى سلطة جاهلية انتزعت الملك منكم وحرمتكم من العلم ، ولما ربيتكم وأدبتكم فى مئات السنين وسلطت

الأمم على أكثر ممالككم رجعت العلم إليكم موضحا مفللا فادرسوه وانظروا فى آياتى ، فيما هى ذه آياتى مفصلة فادرسوها .

فصلت آياتى فى قطرة الماء ، وفصلتها فى أقاصى السماء ، فقطرة الماء فى بركم ومستنقعاتكم الحقيرة تحوى آلافا من الحيوانات ، وهذه الآلاف لم تكن معروفة لكم بتفصيلها ، ورأيتم أن بعضها له ذيل يقوم مقام شراع السفينة ، وذيل آخر يقوم مقام مرساة السفينة ، وهذا الحيوان الذرى له جسم مركب وله فم ومعدة وهكذا من سائر ما يلزم الحيوان أوما يشبه الحيوان ، وها أنذا قربت إليكم البعيد بعدا شاسعا فنظرتم تحت المنظار بقعا صغيرة جدا أصغر من قطرة الماء والبقعة الواحدة منها عبارة عن عوالم كعالم مجرتكم التى تحتوى على نحو (٣٠) ألف مليون شمس وكل شمس أشبه بشمسكم ، وذلك كله إما أن يكون مكونا أو فى حكم المكون وغاية الأمر أنه مستعد للتكوين ، إذن أنا الآن أريتكم جمال تدبيرى على عرشى ، وكيف رأيتم أن قطرة الماء حيركم أمرها كما حيركم أمر السديم الذى هو كالمجرة ، فالعالم الصغير والعالم الكبير كلاهما مدهشان عجيبان ، وأنا على عرشى استويت أدبر الأمر ، فأنا أدبر أمر ما هو حقير لديكم كالآف الحيوانات فى قطرة الماء تحت أسماعكم وأبصاركم تغدو وتروح وتتناسل وتلد وتتقاتل وتصطدم ، وكل يغزو أخاه ، وكل يعمل لكسب المعاش :

وكما أدبر ما هو حقير أدبر ما هو عظيم ، فهذه النقطة الصغيرة المرسومة فى اللوحة المتقدمة التى قلنا إنها أصغر من قطرة الماء فيها شموس تعد بآلاف الملايين كونت فعلا أو صائرة إلى التكوين ، وهذه الشموس لا تتصادم ولا تتداخل ولا تختل فى سيرها ولا فى حساب سيرها ولا فى جريها ، فأنا أرقبها وأحسبها لأنى أنا الرقيب الحسيب الملك القدوس السلام ، فلولا السلامة التى شملت هذه الحيوانات الذرية فى قطرة الماء وهذه الشموس العظيمة فى السديم الواحد لم يكن لتلك ولا لهذه عين ولا أثر .

وأنا المؤمن وأنا المهيمن وأنا العزيز عززت فخضعت لى مخلوقاتى ، فكنت جبارا عليها قهارا لها بعد أن خلقتها وقدرتها وجعلت لها مقادير وبرأتها فأحدثتها بعد العدم وصورتها ، فأنا الخالق البارئ المصور ووهبت لها ما تعيش به وتدوم لأنى الوهاب ورزقت ما فيها ، فأنا الرزاق الفتاح العليم ، وقبضت وبسطت وخفضت ورفعت ، وهكذا إلى آخر الأسماء .

إن ضوء هذه السدم خرج منها ولم يصل إلا بعد (٥٠) مليون سنة أو مائة مليون سنة على حسب اللوحة الأولى والثانية ووصوله لأعيننا كان بعد هذه المدة ، أتدرى أيها الأخ كم يدخل العين من الأمواج فى الثانية الواحدة ، إن الذى يرد للعين فى الثانية الواحدة (٥٠) مليون مليون موجة وشعاع الضوء الذى بين أعيننا وبين هذه السدم يكفى أن يدخل أعيننا مدة (٥٠) مليون سنة فى اللوحة الأولى ، و (١٠٠) مليون سنة فى الثانية : أى أن الضوء الذى هو موجود الآن فى الجو متصلا ما بين أعيننا وبين هذه السدم يكفى أن يدخل العين منه (٥٠) مليون مليون موجة كل ثانية من الزمان مدة (٥٠) مليون سنة أو مائة مليون سنة ، وكأن الله يقول : كل هذا حفظته ورقبته وحافظت عليه ولم أخل بصغيرة ولا بكبيرة : أى عبادى هأنا ذا قلت لكم فى القرآن إنى على عرشى استويت ، وإنى أدبر الأمر وإنى أفصل الآيات ، وذلك لأخرجكم من انحصار أفكاركم فى هذه الأرض الضئيلة ، لأنكم نور من الأنوار التى خلقتها لتقترب منى والاقتراب منى لا يكون بملازمة المادة الجامدة التى أنتم فيها ، كلا بل الاقتراب منى يكون بمعرفة آياتى التى فصلتها .

ولا جرم أن من عرف الجمال كره القبح ومن ظهر له الملك العظيم والشرف الأسمى واطلع على العجائب المخبوءة فى الذرات والقطرات المائية وما تحويه تلك الأقطار الشاسعة الجليلة يرى فى نفسه شوقا إلى إشرافها والتمتع بجمالها ويزداد الشوق حتى يجب للمرء أن يرى ذلك المدبر الذى استوى على عرش عظمته الذى دبر هذه

الأمم والممالك والحكم والأعمال العجيبة ، فإذا سمعتم أيها العباد أنى أقول لكم إنى جعلت الشمس ضياء والقمر نورا وقدرتهما منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ثم أتبعت هذا بذكر اختلاف الليل والنهار وعجائب مخلوقاتى ، وذلك فى سورة يونس ، وبعد ذلك ذكرت مسألة لقائى ، وأن الذى يصدكم عنه إنما هو الاغترار بالحياة الأرضية ، وإذا سمعتم أيضا أنى أقول لكم فى سورة الرعد إنى أدبر الأمر وأفصل الآيات ، ثم ذكرت لقائى ، وهكذا ذكرت فى سورة يونس أنى أشهد أعمالكم التى تعملونها وأنى لا يعزب عنى مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وأتبعت ذلك بذكر أولياءى وأنهم لا خوف عليهم الخ وهكذا .

فإن ذلك كله جعلته لإخراجكم من حال الجهالة ، وانحصار الفكر فى العالم الأرضى والتوجه إلى إدراك الجمال والبهجة والإبداع ، وكل ذلك يحدث فى نفوسكم مسرة وبهجة وشوقا إلى لقائى .

فالشوق إلى لقائى هو المقصود الأهم من حياتكم الدنيا ، وفى عبادى من يعرفون من الجمال ما يشوقهم إلى ، فهؤلاء أولياءى ، وهؤلاء هم الذين يستقبلون الموت فرحين لعلمهم أنهم سيقابلوننى ، وإنما يفرحون بذلك ويوقنون به لأنهم يعلمون أنى آتيت الناس من كل ما سألوه ، فالناس يأكلون ويشربون ويسافرون ويتحدثون على بعد ويطيرون فى الجو ، كل ذلك اشتاقت له نفوسهم فأعطوا هذه النعم .

وها أنا ذا أقول لكم : يا عبادى ارجوا لقائى ولكنكم لا ترجونه رجاء أنتم إلا بعد النظر والبحث فى الجمال فى السموات والأرض وقطرات الماء وتشريح الحشرات والنبات والإنسان والحيوان إلا طائفة منكم هديتهم بطرق أخرى واطلاع أنتم كالأنبياء ومن على شاكلتهم ، فهؤلاء لا حاجة توجب هذه الدراسة عليهم لأنى أفضت عليهم علوما أرقى .

فقال صديقى : هذا الكلام جميل وحسن ، ولكن أنت تقول : إن الله يقول ، فإنى أخاف أن يفهم الناس أنك تقول إن الله قال ذلك وهو لم يقل .

فقلت أيها الأخ : أنا قلت كأن الله يقول فهذه المعانى استنتجتها من العجائب التى طابقت القرآن ، فهى إذن مأخوذة من فعل الله ومن كلامه ، فقلت : كأنه يقول لا أنه قال لى ، والله إنما يقول لمن يوحى إليهم ، وهذا ليس وحيا بل هو علم مأخوذ من كلام الوحى ومن عجائب المخلوقات التى أبدعها الله .

وإذا كان الله يعطى الناس من كل ما سألوه ، وأجل سؤال وأعظمه أن يروا ربهم ، وفريق المصطفين الأخيار الذين اشتاقوا إلى لقائه يسألونه ذلك ، فمن المحقق أنه يجيبهم .

درجات العقول والمخلوقات ودرجات الجنة

انظر أيها الأخ إلى درجات المخلوقات ، فمن مخلوقات دقيقة يسبح آلاف منها فى قطرة ماء إلى مخلوقات عظيمة جدا مثل ما سيأتى فى علم الفلك فى هذا الملحق إن شاء الله إن شمسا من شموس كوكب الجوزاء سيأتى وصفها أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة بحيث لو كانت فى مكانها لا تصل جرمها بجرم أرضنا ، ودخلت فيها المسافة التى بيننا وبين الشمس ، وهى نحو (٩١) مليون ميل ، فلو كانت هى موضع الشمس لكنا الآن ونحن فى أرضنا من سكان شمسنا لا من سكان أرض بعد شمسها بعدا شاسعا حتى كانت هى أشبه بإطار المنخل ، فإذا كانت هذه العوالم الجسمية بلغت هذا الحد فى التنوع بحيث استغرقت ما لا حد له من صور كبيرة وصغيرة وأشكال لا حصر لها ، فكيف تكون درجات الجنات التى هى أقرب إلى عالم الأرواح فقد غلبت عليهم الروحانية وإن كانوا أجساما ، أفلا ترى أن تلك الدرجات أبعد مدى ، وهذا يشير إليه قوله تعالى « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

درجات الحرارة فى عوالم المادة ودرجات العوالم الروحية

إن الحرارة من أعراض الأجسام لا من عوارض الأرواح ، وإذا كانت الحرارة التى على سطح الأرض قد تكون تحت الصفر مئات المرات، وقد تكون (٤) فوق الصفر، وبهذه يصير الثلج ماء ، وترتفع هذه الحرارة فتصير (٣٧) فى جسم الإنسان ، وترتفع فتصير مائة درجة ، وهى درجة الغليان ، وتزيد الدرجات فتصل إلى (٤٠) مليون درجة عند مركز الشمس ، إذن الحرارة درجاتها واسعة جدا ، وهى من عوارض المادة ، فما بالك بعالم الأرواح الذى جعلت درجاته مرتبة على درجات ارتقاء الأرواح علما وحكمة ، وإن كان لأهل الجنة أجسام تعيش فيها تلك الأرواح تجهلها نحن على الأرض ، والحمد لله رب العالمين .

تم هذا قبيل ظهر يوم السبت ٨ صفر سنة ١٣٥٤/١١ مايو سنة ١٩٣٥ .

أسلوب القرآن وبهجته فى وصف السموات والأرض

وموازنته بأساليب الأمم القديمة فى أقاصيصها

قصة الربيع من أساطير اليونان القديمة

فى البحر الأبيض ، وبالقرب من شواطئ أوروبا الجنوبية تقع [جزيرة سيسيليا أو صقلية] وتحكى أساطير القدماء أنه فى خالى العصر ، وقديم الزمن كانت تقطن هذه الجزيرة آلهة تدعى [سيريز] وأن من [سيريز] هذه كان سكان الأرض جميعا يستمدون نعمة الحياة ، فقد كان لها وحدها مطلق السلطان على غذائهم وطعامهم ، فكانت حين ترضى تنبت لهم فى الأرض الزهر والزرع والثمر، وحين تغضب تدع الأرض لهم صحراء جرداء .

وكانت [لسيريز] ابنة وحيدة هى [پروسربين] تخصها بالحب والحنان ولا يهمها فى الوجود غيرها . وكانت الفتاة حسناء يحوطها المرح والصحة والجمال ، ذات وجه يشع لون الورد فى بياضه كزهر التفاح حين يتفتح لنسيم الربيع ، وعينين كأنما أخذت زرقتهما من زرقة السماء الصافية فى صباح يوم من أيام أبريل، أما شعرها المجدول الذهبى الطويل فكان يذكرك بشعاع الشمس وقت الأصيل ، وجملة القول : فكل ما كان يحف بهذه الصبية من شباب وحسن ولين يجعلك لو خلت الربيع بكل ما فيه من معانى الجمال ممثلا فى جسم إنسان لما ترددت حين تنظر لحظة إلى [پروسربين] أن تقول إنما هى الربيع .

كانت ابنة [سيريز] تقضى طوال أيامها السعيدة تجول فى الحقول لتعين أمها على إحياء الزرع ، أو لترقص بين الزهور ، وتنشد الألحان وسط أترابها الحسان تبعث فى أغانيها الأمانى لأمها، وتسألها المزيد من بهجة الدنيا ، وخصب الأرض ، ونماء الزرع . . .

وكان يعيش فى نفس ذلك العهد الملك [بلوتو] الأسود فى جوف الأرض، وفى مملكة الأموات، موحشة أيامه ، لا يؤنسه فيها غير الأشباح . وكم حاول [بلوتو] أن يحمل إحدى الآلهة لكى تنزل إليه تعاشره ، وتقاسمه عرشه المظلم ، ولكن هيهات، فما كانت ثروته العظيمة ولا كنوزه وجواهره تكفى لتغرى إحداهن فتترك بهجة الشمس وضوء الحياة على سطح الأرض ، وتنزل لتقطن معه فى مملكة الأشباح .

صعد [بلوتو] يوما إلى سطح الأرض ، وسار يطويها على عربته السريعة ، وإذ كان يمر على غابة من الأحراش إذ استرعت سمعه أغان مرحة فى أصوات وأنغام عذبة فى ضحكات ، فأوقف عربته ونزل ثم أزاح بيديه كثيف الأعشاب لينظر ما وراءها ، فوقع بصره على [پروسربين] تحيط بها هالة من حسان الغيد يضحكن ، وبالزهر يقذفنها ، خفق قلب ذلك الملك الشيخ وأسرعت ضرباته ، فتنة منظر الغيد ،

فاسطفى لوقته من بينهن [بروسربين] وهو يقول لنفسه « سوف تكون هذه الفاتنة مليكتى ، وإن جمال وجهها لكفيل بأن يبدل ظلام مملكتى نورا ، ويملؤها بهجة وسرورا ، وإنه ليعلم عبث إقناعه للفتاة بالذهاب معه راضية مختارة ، فاعتزم أخذها قسرا واقتدارا ، وتقدم بخطوات ثابتة جريئة إلى وسط تلك الدائرة المرحة البريئة .

ذعرت الفتيات وامتلأن رعبا لدى رؤية ذلك الوجه الأسود الكريه ، فعدون وأطلقن سيقانهن للريح ، ولكنه تمكن من [بروسربين] قبل أن تهرب وحملها بذراعه القوى الخشن إلى مركبته ، وسرعان ما كانت الخيل تهب بها الأرض هبا حتى ابتعدت بها عن رفيقاتها وأخفتها عن أعينهن . وكان [بلوتو] يرغب فى الإسراع بإخفاء كنزه الثمين ، ويتحاشى السبل المطروقة خشية أن تصادفه [سيريز] أو تعلم بفقد وحيدتها ، فلما وصل إلى أحد الأنهر ، واقترب من شاطئه ليعبره فإذا بالماء يموج ويهيج ويعلو ويضطرب فى ثورة من الغضب ، لم يجسر إزاءها [بلوتو] أن يعبر عليه أو يركن إليه ، فتحير فيما يصنع ، إذ لو ارتد عن هذا الطريق إلى غيره لضاع عليه الوقت الذى كسبه ، وأخيرا اهتدى إلى عصاسحره فأخرجها وضرب بها الأرض ثلاثا فانشقت عن هاوية سحيقة ، وفى سرعة البرق إذ يخطف ، أو العين إذ تطرف ، كان بعروسه وعربته وخيله يهبطون جميعا إلى الظلام فى جوف الأرض .

أما [بروسربين] فقد كانت أسرع منه خاطرا ، وأحد ذهنا ، فانها حين تيقنت أن ملكة النهر عرفتها وحاولت لها الخلاص لما أهاجت الماء خلعت حزامها وألقت به إليها قبل أن تنطبق لجوة الأرض التى فتحها [بلوتو] وهكذا تمنت لو أن حزامها يصادف أمها [سيريز] يوما فتستعين به على معرفة مقرها .

عادت [سيريز] فى المساء إلى بيتها ، فتعجبت إذ لم ترابنتها تجرى إليها كعادتها كل مساء ، فدخلت البيت تبحث عنها فلم تجدها ، خرجت وبيدها مشعل كبير أوقدته من نار البركان وسارت هائمة طول الليل تبحث عن فتاتها بين الحقول ، فلما أصبح النهار ولم تجد لها أثرا استبد بها الألم واشتد عليها الجزع .

من ذلك الصباح بدأت [سيريز] رحلة شاقة طويلة ، تقطع طول الأرض وعرض البحار ، تحمل فى يمينها ذلك المشعل الذى يلتهب رأسه من نار البركان ، لقد نسيت شؤونها ، وأهملت أمر الناس ، وقطعت عن الزرع عنايتها ، فجف النبات ، واصفر الشجر ، وحل القحط محل الرخاء ، واحتل مكان النعمة البؤس والشقاء ، كأنما الأرض كلها شاطرت حزن الأم على فقد [بروسربين] الحسناء .

عض الجوع الناس فهبوا إلى [سيريز] يضرعون ، يطلبون منها العناية ، ويسألونها الرحمة ، فرفعت إليهم جفنيها العظيمين ، وقد أثقلهما تعب البحث ، وقرحهما ألم الحزن ، وأجابتهم أنها لن تفكر اليوم إلا فى [بروسربين] حتى تعود إليها ، وأنها حتى تجدها ستظل بحزنها فى شاغل عن شؤون الأرض وما تحويه فانصرف عنها الناس جزعين يبكون إلى [جوبتير] أبى الآلهة جميعا ـ لكى يرد [بروسربين] إلى أمها فقد أشقاهم حزن [سيريز] .

بعد غربة طال مداها وطافت فيها [سيريز] نواحى الأرض جميعها تبحث عن ابنتها عبثا ، عادت إلى جزيرتها . وفى يوم من الأيام هى تعبر أحد الأنهار إذ بنبع صغير يتفجر ويعلو ويقذف شيئا إلى قدميها ، فالتقطته لتبينه ، فإذا به حزام [بروسربين] الذى ألقته فى الماء لملكة النهر يوم خطفها [بلوتو] وما أن كادت [سيريز] تفحصه ، والدموع ملء عينيها حتى سمعت خرير النبع بجوارها يصخب ، ويشتد صوته رويدا حتى أصبح آخر الأمر كلاما واضحا يقول لها : ـ « أيتها الأم العظيمة [سيريز] إننى ملكة هذا الينبوع ، أتيت الآن من أعماق الأرض حيث رأيت ابنتك هناك مستوية على العرش إلى جانب ذلك الملك الأسود

ولقد شاهدت رغم مايحوطها من عظمة الملك وجلاله شحوبا يغطى وجهها ، ورأيت أثر البكاء يقرح جفنيها ، والآن لا أستطيع المكث معك طويلا يا [سيريز] إذ يجب أن أصعد إلى ضوء الشمس ، فالسماء تناديني أن أسرع بالصعود » .

هرعت [سيريز] على أثر ذلك إلى [جو بتير] تقول : لقد عرفت مخبأ ابنتى فلتردها إلى حتى أرد على الأرض خيرها وأعيد للناس الرخاء .

تحركت الرحمة فى [جو بتير] لحزن الأم ، كما ثارت شفقته لدعوات أهل الأرض : فقال لها أن سوف تعود إليها [بروسربين] وكانت للآن لم تذق طعاما فى مملكة [بلوتو] .

أحست [سيريز] بالسعادة إليها تعود فأسرعت تهبط إلى حيث مملكة الظلام فى جوف الأرض ، وهى تمنى النفس بأن ابنتها لم تذق بعد [لبلوتو] طعاما ، ولكن وا أسفاه ، أن [بروسربين] أكلت فى نفس ذلك اليوم ست حبات من حبوب الرمان ، فحق عليها أن تقضى عن كل حبة منها شهرا فى مملكة [بلوتو] .

هكذا أصبحت [سيريز] لا تسعد بقرب ابنتها إلا ستة أشهر كل عام ، وفى هذه الشهور الستة التى تقضيها [بروسربين] بجزيرة أمها يتفتح الزهر ، ويغرد الطير ، ويبسم كل ماعلى الأرض ، ويطرب تحية لمقدم الملكة الصغيرة الحسناء ، ويظل هكذا حال الوجود طالما بقيت [بروسربين] مع أمها فوق الأرض ، فإذا حان ميعاد عودتها إلى دار الملك [بلوتو] فى الظلام لتقضى معه الستة أشهر الأخرى بجوف الأرض ، عادت [سيريز] إلى حزنها ووحدتها تنعى غياب ابنتها تلك المدة التى حقت عليها جزاء أكلها حبات الرمان .

وكأنما الدنيا كلها تشارك الأم حزنها طول أمد الحداد ، فتجف أوراق الشجر وتتساقط على الأرض وكأنها دموع البكاء على [بروسربين] وتختفى الزهور عن سطح الأرض حتى تعود خطوات تلك المليكة الحسناء ، فتوقظ بمشيتها كل مافى الوجود من نومه العميق طول الشتاء .

هذه هى القصة التى اخترعها الأقدمون ليعرفوا بها نظام الأرض وما عليها بما تعرفه العقول من تصور إلاله بصورة بشر ويجعلونه متعددا ، ويحكمون على هذه الجماعة بأحكام البشر فى أخلاقهم وعوائدهم وأفراحهم وأحزانهم ، فلنوازن مابين عقول تلك الأمم وأساطيرهم وما بين عقول الأمم الحاضرة والكتاب المقدس المنزل لهم إذ يقول — الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلاتى قبيل الفجر ليلة الثلاثاء ٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ / ٤ يونية سنة ١٩٣٥ وتذكرة بقوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

لما صليت المغرب غلبنى النوم فلم أستيقظ إلا الساعة الثانية والنصف ، فتوضأت وصليت العشاء ، ومما قرأت فى الصلاة هذه الآية « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » فما كدت أقرؤها حتى وجدت نفسى لاتود مفارقتها وهى ترددها ، وكيف يقول الله تعالى « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » أخذت أفكر وأنا أردد الآية مامعنى يذكر : وما معنى شكورا .

سبحان الله هل هذه الممالك كلها والشمس وإبداعها ونظامها وجمالها وحسابها وسنوها وقرونها ، وآلاف قرونها لأجل تذكرنا نحن ولأجل شكرنا نحن ، لله مخلوقات لا نحصيها ، ولله عوالم نجهلها ونحن بالنسبة

لها قليل ، ولكن الله عز وجل يخاطبنا بما يهمنا نحن وبما يجب علينا ، يوجه لنا الخطاب بما يليق لنا ويوضح لنا النعم المحيطة بنا يريد إخراجنا من ضيق الفكر إلى سعته ، يقول انظروا إلى هذه الشمس والليل والنهار واختلافها ، وكيف تمر السنون تتلوها السنون وتتعاقب الأجيال وتحدث الأمم أمة بعد أمة والناس فى غفلة لا يعلمون إلا ظواهر الأمور من الحياة والموت ، وخراب دولة وحياة أخرى ، وضحك قوم وبكاء آخرين ولم يعلموا أن تحت هذه الظواهر المتقلبة [التى لا ثبات لها فيما يظهر ولا نظام] تدبيرا محكما وسننا عادلة ورحمة ، فبينما الدول يحارب بعضها بعضا ويصطدم الجيشان ويقتتلان ويعز قوم ويذل آخرون ، (ويهجم الأسد والنمر والذئب والعقاب والصقر على الإنسان والبقر والغنم والحيوانات الأخرى فتكون فريسة وتقطع إربا وتكون معدات الكواسر والوحوش مقابر لتلك الفرائس) .

إذا خلائق من أنواع هذه الفرائس تخلفها وتكثر الذرية من أنواعها وتملأ الأرض ببقر وبغنم وبإنسان بعد ذهاب تلك الفرائس كما يخلف الليل النهار والنهار الليل ، فلئن كان فى العوالم تدمير وتخريب وذهاب قوم ، ففيه عمران وإصلاح وظهور ذرية تسد مسد الهالكين كما يخلف النهار الليل ، ويخلف الليل النهار ، ذلك بعض ما على الأرض ، وهكذا يكون ما فى داخلها يكون ليل وتكون نهار ويكون سنون وقرون تتلوها قرون تخلق فيها غابات وأشجار وزروع عند أمثال [نهر الكنج] كما قدمنا ، وعند [نهر المسيسبى] وتلك الأشجار وتلك الغابات تتوالى قرونا وقرونا كما يتوالى الليل والنهار ثم تبتلعها البحار بالزلازل والرجفات وهنالك تبقى أجيالا وقرونا كثيرة ، ثم تكون رجفات فظهور فوق اليابسة وقد دفنت تلك الطبقة وأخذت تصير فحما وتتلوها أخرى ويقدر لها من العمل ما قدر لما قبلها كما يكون ليل يتلوه نهار ؛ ويستمر العمل فى طبقات الفحم على هذا المنوال ، حتى إذا مضت مئات ألوف السنين خلق الله أجيالا كأجيالنا الحالية ، فقال لها : أيتها الأمم اسمعى اسمعى ، هذا ملكى وهذه عنايتى بك .

هأناذا أرحم الراحمين ، فأنا لرحمتى بكم خزنت لكم فى الأرض قبل خلق أبيكم آدم هذا الفحم ، وقلت : ياشمس ارسلى أشعتك ، وأنت يافحم احفظها واحفظ الحرارة ، وبقيت هذه المخازن محفوظة ثم ألهمت فريقا منكم أن يستخرجوا هذه الكنوز فأخرجناها لكم وخلقنا أمما كثيرة فى الشرق والغرب وأمريكا وكندا واستراليا وقلنا : لكم هذه نعمتنا التى أنعمنا بها عليكم بالليل وبالنهار ، فمدوا سكك الحديد وطيروا فى الجو وعمروا أرضى بما أخرجت لكم من الفحم المخزون منذ آماد وآماد .

هذه بعض المعانى المخزونة فى قوله تعالى ـ لمن أراد أن يذكر ـ فهذا بعض التذكر الوارد فى هذه الآية المناسبة لآية ـ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ . فهذا نوع من ذلك التفكر ، فقوله فى هذه الآية ـ لمن أراد أن يذكر ـ يوضحه آية آل عمران التى ذكرناها الآن .

أما الشكر المذكور فى قوله تعالى هنا « أو أراد شكورا » فها أناذا أقص عليك أيها الأخ ما لاح لى فأقول : خطر لى فى الصلاة معنى الشكر الذى ذكرته فى هذا الكتاب كثيرا ، ذلك الشكر الذى تبنى عليه سعادة الشاكرين فى نفس هذه الحياة .

لا شكر إلا بعد التذكر والتفكر كالذى ذكرناه هنا ، وهذا بعض السر فى تقديم الذكر فى الآية على الشكر ، فمن هو الشاكر ؟ هو ذلك الذى تذكر أولا فى سيرة المشكور ، وفى أعماله وإبداعه وحكمته فيحبه قلبه ، لاشكر إلا مع حب ، ولاحب إلا بعد العلم بصفات المشكور الجميلة .

فإنا نرى فى نفوسنا حبا لجميع الشجعان ولجميع الحكماء ، ولكل ذى فضل ولكل ذى جمال ، فنحن

نحب الجميل ونحب العالم ونحب الشجاع وإن لم نحظ بالأول ولم يعلمنا الثانى ولم يعمنا الثالث من العطب فنحن نحب علماء الشرق وعلماء الغرب والمحسنين والشجعان على أى دين ، وفى أى أمة ، إن قلوبنا نقية صافية بحسب أصلها ، قلوبنا ذوات أصل نقى تحب النظام تحب الجمال تحب العدل تحب الكمال ، وهذا الحب لا يفارقنا سواء أكنا فقراء أم أغنياء ، أصحاء أم مرضى ، هاهنا الحب لم يتغير بتغير أحوالنا ، فإذا ذكر أمام العامة الذين يسمعون قصة [عنترة وعبله وأبى زيد الهلالى سلامة وكليب والمهلهل ، فإنهم يثنون عليهم ويحترمونهم سواء أكانوا مرضى أم أصحاء ، أقوياء أم ضعفاء ، أعزاء أم أذلاء ، ذلك لأن سبب الحب الذى يوجب الشكر ويوجب الحمد ، وهو النطق بما قام بالقواد من الإعظام والإجلال لم يتغير .

إنما الذى يتغير حبه ويضعف وجدانه ذلك الذى أحب وشكر على نعمة وصلت إليه هو ، فلو أن هؤلاء العامة الذين يغرمون بهؤلاء الأبطال أحبوهم لما وصل إليهم من نعمهم وأفضالهم [كأن يحب عنترة لأنه حماه من عدوه مرة ، ويحب عبلة لأنها تجالسه وتتودد إليه ، ويحب حاتما الطائى لأنه أحسن إليه] .

فلا جرم ينقلب الحب إلى عدم الاكتراث بهؤلاء (١) إذا نزل به عدو فلم يغثه عنترة (٢) أو قطعت ودّه عبلة فلم ترد أن تتودد إليه بل تزوجت أو أحبت رجلا آخر (٣) أو قل ماله فلم يواسه حاتم ، بل قطع صلته . إن هذا الحب المبنى على الإحسان الخاص حب يتقلب تبع الأسباب التى أوجبته : فان كان السبب هو جمال المحبوب وكماله وأعماله العظيمة وآثاره العالية التى أثرت فى المحب ، فان هذا الحب يبقى ويتبعه الشكر أى الثناء باللسان والخدمة بالجوارح والقيام بما يرضى ذلك المشكور المحبوب ، هذا ضرب مثل نفهم به الآية .

رباه لك الحمد على نعمة العلم ، وعلى نعمة الحكمة ، ونشكرك يارباه على أن علمتنا . وبعد أن صليت جلست فوق سقف المنزل وأخذت أنظر للنجوم مبتهجا بذلك الجمال الرائع فرفعت طرفى إلى السماء ، وقلت : رباه رباه لقد دعوتك وأنا مراهق فى حقولنا ولكم جلست فوق الحشائش وصليت وناجيتك وطلبت منك المعرفة [أى التى على قدر الطاقة لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فليس لنا أن نطلب إلا ما نقدر نحن عليه ، وإلا فالعلم لا حد له] فعلمتنى بعد اليأس ، ولطالما كنت أجلس على شاطىء نهر [أبى الأخضر] وأفكر فى الحشائش وفى الزروع ، وفى الليل وفى النهار وفى السحاب وأقول : ياصاحب هذا الملك العظيم أنت ربيت هذه الطيور وعلمتها مايصلحها فعلمنى يارب فانى أريد أن أوقن بك وأريد أن أسر أبوى وأسرتى ، وأريد أن أعرف ما الداء وما الدواء لإصلاح أمة الإسلام فها أنا ذا يارب أريد إصلاح عقلى وجسمى وإسعاد أبوى والقيام بشؤون أسرتى وإصلاح الأمم الإسلامية .

رباه لقد أجبت الدعاء بحذافيره على مقدار ماتطيقه قوتى وما تعلمه من نفسى . وهاهنا بيت القصيد وهو الشكر المذكور فى الآية ، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

إن المثل الذى ذكرناه فى أمر عنترة وحاتم وعبلة نريد أن نطبقه هنا فنقول :

إن حب الله الذى يترتب عليه شكره إما أن يكون تابعا للاحسان الخاص ، وإما أن يكون تابعا للجمال والكمال وحسن الأعمال ، فإذا كان تابعا للاحسان الخاص كان حبا ضعيفا ؛ وكان الشكر عليه متقلبا ،

مثال ذلك رجل أحب الله ، لأنه أنعم عليه بمال أو بولد أو بإمارة ، فقال : لك الحمد يارب ، وهو لم يلاحظ عند ذلك الحمد الذى نطق به إلا تلك النعم الواصلة إليه . فلا جرم ينقلب هذا الحب إذا ذهب المال أو مات الولد أو طاحت منه الإمارة ، لأن هذا كحب الرجل الذى أحب حاتما على مابذل له هو من المال لا على سيرته

الجميلة ، وكحب من أحب عبلة لتوددها منه هو ، فلما أعرضت عنه تقلب القلب ، وكحب من حماه عنترة من أعدائه ثم خذله فوقع فى أسرهم ، فهذا حب متغير متقلب ، وهو حب ناقص ويتبعه الشكر ، فلا شكر إذن ، فأما الشكر والحب الخالصان فهما اللذان يبنيان على الصفات الجميلة ، والمزايا العظيمة ؛ فالجميل والغنى والشجاع والعالم محبوبون ، ولكن عند النظر إلى وصول الإحسان الى نفس الشاكر تتغير الحال .

اذن الذى يشكر ربه لأجل النعم الخاصة شكره ضعيف وحبه الذى هو سبب الشكر ضعيف أيضا ، بل إن هذا الشاكر أقل درجة فى شكره لربه وحبه له من شكر العامة لعبلة ولحاتم ولعنترة ، لأنهم يحبونهم لما فيهم من صفات الجمال والشجاعة والإحسان لا لوصول تلك النعم إليهم كلا ، فلذلك ترى هؤلاء العامة يحبون هؤلاء الأبطال : فى الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وفى العز والذل .

الله أكبر الله أكبر ، هاهنا ظهر معنى الآية قرأتها فى الصلاة ، وظهر معنى الآية التى نحن بصددها الآن ، وهى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

يقول الله فى الآية التى كنت أقرؤها فى الصلاة : « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » : هانحن أولاء تذكرنا فماذا رأينا ؟ رأينا شموسا وأقمارا ، وعجائب جديرة بأن يحب صاحبها وأن يغرم به غراما وولوعا أعظم من غرام العامة وولوعهم بعنترة وحاتم .

ولو أننا عرفنا الجمال الالهى والإبداع كما عرف العامة فضل عنترة وحاتم لم نطق الحياة ، ذلك للجمال الرائع والعظمة والكمال ، ولكن الله حجب هذا الجمال الرائع ، وهذه العظمة عن أغلب العقول الإنسانية مع أنهم يشاهدون هذه العجائب وهم مغمورون فيها ولا يعطيهم من فهمها إلا قليلا قليلا ، ولا ينال هذه السعادة ، وهو الحب والشكر إلا قليل من الناس ، يصطفيهم سبحانه ليعلموا غيرهم « وقليل من عبادى الشكور » .

فياعجبا لهذا النوع الإنسانى : يسمع العامة قصصا ، وكثير منها خرافية ، فيعشقون الموصوفين فى تلك القصص بالكمال وهم لم ينلهم حظ منهم ، ولكنهم يرون بأعينهم شمسا وقمرا وبحارا وأنهارا ، فلا يفكرون فى جمالها ولا فى المنعم بها ، فلا يكون حب ولا شكر .

إن الله عز وجل جعل حب العامة لمن غاب عنهم من الأبطال نعمة للعلماء وللحكماء ليفهموا أولا قوله تعالى « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة » إلى قوله « أو أراد شكورا » : أى إن الحب الذى يترتب عليه الشكر ليس مبنيا على طعام وشراب ولباس ورفد وسلطان كلا ، فهذا الحب ناقص ، ولكن الحب والشكر يرجعان هنا إلى ذلك الجمال فى السموات والأرض ، فنفس الشمس ، ونفس الليل والنهار ، ونفس النجوم ، كل هذه بحسب أشخاصها أشبه بالأحجار الكريمة ، من حيث جمالها الذى لا يعقل غيره الجهلاء وإن كانت مزاياها لا حد لها عند الحكماء .

إذن الشكر الحقيقى الدائم يتبع صفات للشكور من حيث الجمال والكمال ، والعظمة والآثار والإحسان العام ، ومتى حصل ذلك الحب الذى لا يتغير تبعا لتلك الصفات الذاتية التى لا تتغير أنتج العظماء وأنتج كبار الحكماء .

الله أكبر كيف ظهرت آثار هذا الحب فى عظماء الرجال ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انظر إلى ما أصابه فى تبليغ الرسالة :

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره على الأذى

قد أوجبته المحبة التي لا تتغير

فانظر كيف كان أبو طالب يحميه صلى الله عليه وسلم ، ولما قربت وفاته جمع قريشا وخطبهم خطبة يحثهم فيها على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قال « لن تزالوا بخير ماسمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فأطيعوه ترشدوا » فلم يقبلوا قوله .

ولما مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ونالت منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب فدخل صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكي يابنية فإن الله مانع أباك .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « ماتالت قريش مني شيئا أكرهه » : أي أشد كراهة (حتى مات أبو طالب) ولما رأى قريشا تهجموا عليه قال : ياعم ما أسرع ما وجدت فقدك .

ولما بلغ أبا لهب ذلك قام بنصرته أياما ، وقال يامحمد امض لما أردت وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا ، واللات والعزى لا يصلون إليك حتى أموت فلم يزل أبو جهل وعقبة بن أبي معيط وغيرهما من أشراف قريش يحتالون على أبي لهب حتى صدوه عن ذلك ، وتأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم وترك نصرته ورجع إلى ماكان عليه من معاداته ، فلما اجتمعوا على معاداته ومقاطعته صلى الله عليه وصلم وهموا بإخراجه والفتك به . خرج إلى الطائف وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش ومن قرابته وعترته خصوصا من أبي لهب وزوجته حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب وعن علي رضي الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أبي طالب أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له صلى الله عليه وسلم : أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا قال : فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر رضي الله عنه فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف في شوال سنة عشر من النبوة ، وكان معه مولاه زيد ابن حارثة رضي الله عنه يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا ويناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم ، وكانوا إخوة ثلاثة : عبد ياليل ، واسمه كنانة ولم يعرف له إسلام ، وأخوه مسعود وهو عبد كلال بالضم وتخفيف اللام ، والثالث حبيب ، وهؤلاء الثلاثة أولاد عمرو بن عمير فجلس إليهم صلى الله عليه وسلم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرته إلى الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة : أي يشقها ويقطعها [إن كان الله أرسلك] وقال له آخر : ماوجد الله أحدا يرسله غيرك ، وقال له الثالث : والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطرا : أي قدرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب ماينبغي لي أن أكلمك ، فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد أيس من خيرهم ، وقال لهم اكتموا علي ، وكره صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه ، ثم قال له هؤلاء الثلاثة من أشراف ثقيف : أخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض ، وأغروا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مر صلى الله عليه وسلم بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه ، وفي رواية حتى اختضبت نعلاه

بالماء . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أزلقته الحجارة : أى وجد ألمها قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، كل ذلك وزيد بن حارثة رضى الله عنه يقيه بنفسه حتى لقد شج برأسه شجاج ، فلما خلص منهم ورجلاه يسيلان دما عمد إلى حائط من حوائطهم : أى بستان من بساتينهم فاستظل فى حبلة : أى شجرة من الكرم لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فلما دخل الحائط رجعوا عنه» . اهـ من كتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية لمفتى السادة الشافعية بمكة المشرفة أحمد زينى دحلان رحمه الله .

وإنما أوردت هذه القصة هنا لأبين كيف يكون الشكر والحب فى الأخلاق النبوية لو كان حب النبى صلى الله عليه وسلم لربه لتسهيل أمر النبوة وإظهارها ونحو ذلك ، لم يستطع صبرا على هذه الشدائد ، ولكنه يحب ربه لذاته تعالى ولصفاته العالية الرفيعة ، والجمال الرائع الذى يدهش العلماء والحكماء والأنبياء وهذا بعض السر فى ترتيب الشكر والذكر على اختلاف الليل والنهار ، وفى قول المصلى « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

يقول المصلى : إن توجهى للذى فطر السموات والأرض ، ويأتى بعدها بالبراءة من الشرك ، إذ المسلم خليفة الله تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض » ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون .

فلو أن المسلم نظر إلى غير ذلك لعد ذلك من الشرك الخفى ، الله أكبر : أيها المسلمون ، وضح الحق ، واستبان السبيل

إن ديننا جاء لاجتذاب القلوب إلى الحب الخالص لخالقها ، وهذا الحب يدفع المرء إلى إفراغ جهده فى العمل بطريق الحب فلا يبالى بما يصيبه ، وهذا الحب للأنبياء راجع إلى ما أعطوا من أمور نبوية ، أما نحن فلسنا أنبياء ، فهذه العلوم تفتح لنا باب الحب ، ويتبعه الشكر والعمل الخالص ، وهذا سر قوله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » .

وهذا سر قوله أيضا صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع المذكورة فى تفسير سورة العنكبوت فى أولها إذ يقول « أحبوا الله من كل قلوبكم » فهذا هو الحب من كل القلوب ، وهو الحب الذى لايخالطه غرض ذاتى ، فأمثال هؤلاء المحبين يفرحون بالمحبوب الآن فى الحياة الدنيا ويسعدون بحبه ويرون فى نفوسهم الآن أن هذا الحب له فى هذه الحياة الدنيا قبل الموت [وإن كان فيه عوائق وقواطع] سعادة دائمة تبتدى من الآن ، وهؤلاء يرون ازدياد السعادة بمفارقة الأبدان ليتفرغوا لتلك المحبة ، وإذا أحبوا البقاء فى الدنيا ، فلذلك لما يعلمون من أنهم عليهم عمل يؤدونه لمن أحبوه اهـ .

هذه هى الخواطر التى خطرت لى فى صلاتى هذه الليلة عند ذكر الشكر والذكر بعد اختلاف الليل والنهار

فلما رأيت هذه المعانى مناسبة للآية التى نحن بصددها أثبتها ، مع أن الأطباء ينصحونى بالابتعاد عن الكتابة ، ولكن كتبتها تذكرة بالآية التى نحن بصددها ، وهى قوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

فقد عبر بالقاء ولم يذكر الشكر ولا الذكر ، بل تجاوزهما إلى التعبير بالقاء ، وهذا هو اللائق لهذه الآية ، لأن ذلك العظيم الجليل ، المهيب البديع ، المحدث للجمال والصور البديعة ، المحسن للكون ، قد رفع

سموات فوق سموات ، ولم نر تلك العمد التي رفع بها سمواته ، كلا بل رأينا أفلاكا وراءها أفلاك في ساحات واسعات ، وهذه الساحات فيها عوالم ظاهرها أنها خلاء ، وباطنها أنها أثير ، والأثير مدهش قد تقدم شرحه وفيه كرات وراء كرات عظيمات مضيئات .

فهو يقول بعد ذلك : إنه استوى على عرشه ، ولما استوى عليه أخذ ينظم ملكه ، وهذا الملك العظيم لم يكن دولة كالألمان ، أو اليابان ، أو الصين ، أوالانجليز في عوالم أرضنا. كلا ، بل إن الدول التي ينظمها الشمس والقمر ، والشمس عالم يتبعه ملايين المخلوقات ، وكرات وراء كرات من الكواكب السيارة وأقمارها وذوات الأذناب والنيازك ، وهذه لاحصر لها ، فذوات الأذناب وحدها يقال : إنها كسمك البحر عدا ، والنيازك لاحصر لها .

يقول : لما استوى على العرش سخر الشمس والقمر ، وكم في العوالم من شموس ، وكم فيها من أقمار أعظم من شمسنا ومن قمرنا ؟ ثم يقول « كل تجرى لأجل مسمى » فأبهم على الناس المدد التي تبقى فيها الأقمار والشموس ، لأن عقولهم لا طاقة لها على معرفة الآماد البعيدة والتطلع إليها ، بل النفوس لاتقدر أن تفهم إلا المدة القصيرة على مقدار طاقتها في الإدراك .

ولما كانت هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه السيارات يعوزها نظام خاص حتى لاتصطدم فتتفتت وهكذا سكان السيارات كأرضنا يعوزهم نظام زرعهم وحياتهم وموتهم ودولهم ونظامهم العام والخاص وديانا تهم وملوكهم أردفه بقوله « يدبر الأمر » حتى لاتصطدم الشموس والأقمار ولا تتقدم شمس في سيرها دقيقة أو ثانية ولا تتأخر ، لأن ذلك يضر من حيث علاقتها مع الشموس الأخرى ومن حيث نظام السكان الذين يعيشون فوق سيارتها ، كالأرض فلو أن أرضنا فوجئت بتأخير الشمس دقيقة واحدة في سيرها عن مواعيدها المحددة أو بتقديمها دقيقة واحدة لحصل الخلل في قطاراتنا في البر وسفننا في البحر ولاصطدمت السفن عند مداخل الميناء وهلكت جموع كثيرة ، وهكذا يختل نظام الطرق الحديدية التي لا نظام لها إلا بنظام سير الشمس ونظام الشمس يتبعه نظام الساعات الزمنية التي ترجع في تنظيمها إلى محاذاة مركز قطر الشمس لملتقى الشعرتين وقت الاستواء بمرصد حلوان وحينئذ يرسل] بالتلغراف] البرق إلى بلاد قطرنا كله وإلى رجال الميناء فيضبطون ساعاتهم المقدرات للازمان ، فلو أن الشمس تأخرت ثوانى أو تقدمت ثوانى لذهبت أرواح من تصادم القطرات في السير ، ومن تصادم السفن في أمثال ميناء الاسكندرية والسويس ونحوها ، هذا معنى قوله « يدبر الأمر » .

ولما كانت هذه العظمة وهذا الجلال فوق ما يعرفه الناس في الدنيا ، لأن أهل الأرض لم يألفوا عرشا سخر لصاحب شموس وأقمار ، وهذا العرش تتبعه ممالك عظيمة ، وهذا الملك العظيم يدبر الأمور الصغيرة والأمور العظيمة ولا يغفل عن النملة في جحرها كما لا يغفل عن عموم المملكة وكان اتصافه بهذه الأوصاف إذ رفع سمواته واستوى على عرشه يوجب حبه والحب يستدعى طلب اللقاء أخذ يمهد لذلك بأنه وإن كانت له الشموس والأقمار وقد استوى على عرشه [الذى لايصح البحث فيه بل يؤخذ إجمالا] يفصل الأمر ويبين لكم العوالم إما بإخبار الأنبياء ، وإما بدراسة العلوم في الشرق والغرب ، فهو كما سخر الشمس والقمر هكذا سخر العلماء وأرسل الأنبياء ، فهؤلاء بالدراسة ، وهؤلاء بتبليغ الوحى ، وكل ذلك تفصيل لكم ، وهذا التفصيل يجعلكم مغرمين بحبه ، ومتى أحببتموه طلبتم اللقاء ، فإذا كنتم في شك من لقائه للعظمة والجلال والبهاء والسلطان والملك العظيم ولسمواته العظيمة وكواكبه وشموسه وأقماره وسياراته وعرشه العظيم وتدبيره المحكم فلتعلموا أنه لايعجبه شأن ، وليس كملوك الأرض الضعاف الذين لايتسنى لرعاياهم أن يروا

وجوههم ، فهاهوذا أخذ يمهد السبيل للقائه بهذه العلوم وبهذا التفصيل الذى ينشره العلماء فى الشرق والغرب بعد وحى الأنبياء ، فهل هذا التفصيل بالعلوم بعد دراسة وحى الأنبياء رمية من غير رام؟ وإذا كانت الشموس والسيارات لا خطأ فى سيرها فلا يتجاوز كوكب خطته المرسومة ثانية واحدة ، فكيف يرسل الأنبياء ويخبرون بلقائى ثم تدرس العلوم المشوقة لصانع العالم ويكون ذلك كله لغوا ؟ .

إن الأمر لأعظم مما تعلمون . إن فرحكم بجمال النظام فى الأرض يدلكم على أن أرواحكم لها صلة بالعوالم الروحية الالهية فلذلك تحب هذه العلوم وهذا الجمال الذى تنزل من عالمها الأعلى فشوقها إليه كل من اشتاق إلى ربه بهذا التفصيل وبقراءة هذه العلوم فليعلم أنه سيلاقى ربه ، ذلك الرب الذى سخر الشمس والقمر واستوى على العرش ودبر هذه الممالك ، فهذا هو الملك الذى ستلاقونه إذن فبذلك فلتفرحوا .

هذا هو الذى فهمته عند قراءة هذه الآية فى الصلاة ابتدأت فى كتابتها بعد الصلاة قبل الفجر ، وفى أثناء الكتابة صليت الصبح ونمت ضحى قليلا وأتممتها الساعة العاشرة إلا ربعا يوم الثلاثاء فى التاريخ المتقدم ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى الفصل الذى جاء بين الزبرجدة الثانية والزبرجدة الثالثة لإيراد آيات تعين على الحمد المذكور فى الفاتحة وفى أول الأنعام وغيرها .

الزبرجدة الثالثة

فى عجائب السموات وعلم الفلك تفصيلا لقوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » ولجميع الآيات الواردة فى عوالم السموات كآية « هو الذى جعل الشمس » الخ فى يونس ، وآية « الله الذى رفع السموات بغير عمد » الخ .

ثلاث ليال فى الحقول وحديثى مع فلاح فى كفر الباشا بناحية البركة بضواحى القاهرة

وتطبيق للشاهدات على تفسير آية « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ، وعلى غيرها من الآيات التى تشبهها .

رباه لك الحمد ولك الشكر ولك النعم العظيمة علينا وعلى الناس أجمعين . رباه فى العيون بهاؤك ، وفى القلوب حبك ، وفى النفوس إجلالك ، جمالك فى السموات باهر ، وفى الأرض ظاهر . ولكن هذا الجمال البارع عنه أكثر الناس محجوبون ، بكبرياتك مبعدون ، بمالك من العظمة والجلال ، يروح الناس ويغدون فى هذه الأرض وهم يتقلبون فى النعماء ويرون مظاهر الجمال عن أيمانهم وعن شمائلهم وهم لا يرون الجمال فكثير منهم صم عمى فهم لا يعقلون :

وما أن سطرت هذه الجمل حتى حضر صاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى كتاب [الجواهر فى تفسير القرآن] قال : ماذا تريد أن تكتب فى تفسير هذه الآيات بعد ما كتبت فى نفس التفسير المنتشر حديثا ثم ماذا تحس به من الوجدان بعد أن تم ذلك التفسير [فقلت : لقد كان لتمام هذا التفسير وطبعه فى نفسى أعظم الأثر] وقد كان ذلك يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ إذ تم فى ٢٥ مجلدا .

لقد مضت عشر سنين فى تأليفه وطبعه ولم أكن فى تلك المدة حرا أتنقل كما أشاء. لملازمتى للقاهرة لتصحيح مايطبع منه، وماأن تم طبعه حتى أخذت أروح عن نفسى وأنطلق إلى الحقول البهجة والرياض اليانعة فى الهواء الطلق الشارح للصدر المنعش للفؤاد.

فهأنذا قد غادرت القاهرة يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ وهناك أقمت ثلاث ليال وأنا أعيش فى العراء بنفس الحقول أبيت مع المزارعين أرعى النجوم ليلا كما أدرس النبات وأبتهج بجماله نهارا، الرياض والحقول دروس بثها الله فى الأرض ولكن الناس عنها غافلون.

سبحانك اللهم سبحانك منحت وفتحت وأنعمت إنعاما يفوق كل تقدير، نعم أحمدك جعلت المزارع لى دروسا أدرسها فى أول حياتى زمن الشباب والمراهقة، جعلتها مشوقات فى المزارع فى قريتنا، كانت مشوقات محببات لى فى التعليم كنت أمشى مع والدى بقريتنا [كفر عوض الله حجازى بالشرقية] وأتأمل المزارع والأشجار وأنظر محاسنها وأرفع طرفى إلى السماء ثم أقول: رباه أراك علمت الطيور فى وكناتها كيف تربى أولادها، هاهى ذه أمامى لا تخطىء فى تربية فريتها ولها شفقة ورحمة وعلم غزير بما تزاوله من التربية والإطعام واتخاذ الأعشاش وتدريب الفراخ على الطيران إذا قويت أجنحتها واشتدت قواها، هذا فعلك فى خلقك يعيى أراء، أفلست من مخلوقاتك؟ نعم أنا منهم وفى حياتى غريزة وثابة إلى الاطلاع مغرمة بالمعارف عاشقة للحكمة.

رباه درست النحو والصرف والفقه وعلوما صغيرة لسانية، ولكنى أشعر بنقص فى تعليمى، أحن إلى دراسة أسرار هذه الكائنات، نجوم فى سمائك أراها بالليل جميلات بهيات ومزارع وأشجار وجبال وأنهار ورمال وبحار بالنهار عجيبات، وهذه كلها لا أفقه لها معنى ولا أدرى لها تركيبا، فياويلى إذا خرجت من هذه الأرض وأنا بها جهول، وياحسرتى على حياتى إذا ضاعت ولم تستفد بتلك المعارف والعلوم.

ثم إنك أنت الذى أنزلت دينا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم كما أنك أنت الذى خلقت هذه الدنيا، إذن قولك يطابق فعلك، لأن كلام العالم يطابق فعله، فمالى لا أسمع فى تعليمنا إلا نواقض الوضوء والحيض والنفاس والبيوع والمعاملات ونحوها، كان ذلك أيام تعلمنا بالأزهر فقط، أما الآن فان الحال أحسن وأحسن والحمد لله.

أما جمال فعلك فانما يذكر عرضا كقولهم:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل ... للعالم العلوى ثم السفلى

تجد به صنعا بديع الحكم ... لكن به قام دليل العدم الخ.

فهاهم أولاء يمرون على مصنوعاتك سراعا كأنهم لا يأبهون بها. ثم إنى أرى صناعات عجيبة، فهذه القطرات الجاريات بالركاب فى سكة الحديد، وهى من صنع قوم غيرنا فياليت شعرى ما علومهم! وماذا عرفوا عنك؟ ثم لماذا أرى قومى ضعفاء مساكين مقهورين؟.

رباه أنا أريد حل هذه المعميات وإنقاذى من هذه المشاكل المحيطة بى، ثم شفائى من أسقام جسمى وإصلاح حالى لتسعدنى بهذه العلوم والمعارف والكمال، وأنا أعاهدك لئن وقفت على الحقيقة لأنشرنها للشبان بعدى حتى لايلازمهم البؤس والشك كما لازمنى، فلتكن حياتى فداء لحياتهم، وحيرتى مقدمة ليقينهم، وشقائى مقدمة لسعادتهم. هذه حالى أيام المراهقة على وجه الإجمال، كنت أنظر النجوم وأتحسر على دراستها ولم أكن لأعرف منها إلا جمالها الظاهرى وبهجتها التى تراها العين مع خلو القلب من كل حساب لها ونظام وأنظر الزهر والثمر واختلاف الطعوم والروائح والأشكال نهارا وأنا فى حسرة ولهف وشوق لادراك أسرارها وأسبابها وتركيبها.

استجيب الدعاء ونلت ما كنت أصبو إليه ، وجدت العلوم الرياضية والطبيعية وحساب النجوم والشموس والأقمار وبدائع النبات والحيوان والمادن والجبال والأنهار كل ذلك يطلبه القرآن طلبا صريحا واضحا . ورأيت أكثر الأمم الإسلامية المتأخرة كانوا فى غفلة ساهين لظلم ملوكهم وإقصاء علمائهم عن ذلك المقام المكين والسر المصون الذى حفظ ليسلم إلينا وإلى من بعدنا إلى حين ، بل أقول : إنى نلت فوق ما كنت أصبو إليه إذ وضحت جمال تلك العلوم من الفلك والنبات والحيوان والمعادن وحسابها الدقيق العجيب فى تفسير القرآن موضحا بالصور ظاهرا بالأشكال ، فلم أذر فاكهة ولا أبا ولا نجما ولا شجرا ولا كوكبا ولا قمرا ولا شمسا ولا طبقات أرضية إلا صورتها بالمصور الشمسى وشرحتها شرحا وافيا كافيا فى تفسير القرآن ولم أغادر هواء ولا ماء ولا مغناطيسا ولا كهرباء ولا أثيرا ولا معدنا من المعادن الفلزية وغير الفلزية إلا أوضحتها إيضاحا كافيا بل أوراق الأشجار وسلاؤها وشوكها والنسب بينها وحسابها وتركيبها وأنابيبها الشعرية والزوايا التى بينها وبين أغصانها والزوايا التى بين عروقها كل ذلك مشروح مصور فى نفس التفسير ، هذا هو الذى أنعم الله به وتم منذ أسبوعين فقط وأخذ ينتشر فى أنحاء المعمورة ، تسألنى أيها الأخ عما أحس به بعد انتشار الكتاب.

أما أنا فإنى أحس بما يشعر به قائد قد تألبت الأعداء عليه من كل جانب ، فجمع جيوشه وأعد عدته وأخذ يحارب عشر سنين وقد ألم به الكبر ولم تهن قوته ولم تضعف عزيمته ، بل لا يزيده الكبر إلا إقداما ولا يفل عزمه تقلب الدهر وحوادث الأيام ، وانتهى أمر ذلك القائد بالنصر المبين والفوز على العدو اللئيم ، ذلك هو الذى أشعر به الآن ، أشعر بنصر وسعادة وروح وريحان ومسرة قلبية وفوز مبين .

فليكن حمدى لله على أنه استجاب دعائى أيام الشباب وأيدنى بالعلم على مقدار طاقتى ، وأمد فى حياتى حتى أتممت هذا الكتاب وشاركنى الناس فى شعورى ووجدانى ونظراتى فى السموات والأرضين ، ورجعنا كرة أخرى إلى الحقول ،

نظراتى فى الحقول اليوم غيرها بالأمس

فنظراتى فى أول حياتى كانت لإحداث الأشواق والحسرات على العلم ، أما الثانية فلتطبيق المشاهدات على القضايا النظرية ، فدراستى الآن للحقول والسموات للتطبيق ، ودراستى أولا كانت لمجرد التشويق ، بت أرعى النجوم ليلا وأنا جالس فى وسط الحقول ببلدة [كفر الباشا] بالقرب من القاهرة وصرت أخاطبها فأقول :

أيتها النجوم : قد لبست جمالا لم يكن لك بالأمس ، إن الجمال مقدر بقدر المعارف ، نحن نعيش والجمال يحيط بنا ولكننا بالجهل منه محرومون ، أنت متلألئة بهجة تفوقين كل جمال فى الأرض ، ولكن هذا الإنسان مشغول عنك بالدواعى الصارفات له الشاغلات عنك من شهوات تنتابنا ، وأعداء تساورنا وآمال تصرفنا ، وجهل يحجبنا .

جمالك أيتها النجوم عجيب ، أنت مبدعات بحكمة ، أراك ساكنة كأنك مسمرات فى هذه القبة الزرقاء ، هذه القبة ساكنة لا حركة لها ، وأنت تشعين نورك فى سقفنا الجميل يخيل إلينا أننا فى بيت منبسطة أرضه مقببة حيطانه ، وسقفه المزين بأجمل الصور والأشكال.

ولكن العجب أن هذا السكون المشابه لسكون منازلنا وقرانا لم يكن إلا بادى الرأى لاطمئناننا ، وإلا فلا سكون ، فنفس هذه القبة الزرقاء حركات فى حركات ، وهذه القناديل المشرقة تجرى جريا حثيثا عشرات الأميال فى ثانية بل مئات الأميال . فهاهنا حركة هى السكون وسكون هو الحركات مدهشات هذه الدنيا عجائب هذه الحياة سكون شامل هو نفس الحركات السريعات :

الناس جميعا فى غفلة عن جمال الإبداع ، ولن يحظى به إلا الدارسون ، على مقدار الدراسة يظهر الجمال وكلما بدا جمال تبعه شوق لجمال وراءه حتى تطمئن نفوسنا الوثابة إلى الكمال ، لايعرف الجمال إلا بالدراسة من لم يعرف صفات الجميل لايعشقه فالمعرفة ثم الابتهاج بالجمال ، هذه كانت حالى ليلة الثلاثاء وقد استيقظت ليلا ، وبينما أنا أفكر فى ذلك إذا مزارع من الدير فى هذا الحقل قد أخذ يحدثنى فقال : أنا أقدر أن أعرف الأوقات بسير النجوم ، ثم نظر إلى نجم السماك الرامح وهو لايعرف اسمه [وهو نجم يقترب من بنات نعش الكبرى فى جنوبها يبعد عنها قدر رمحين] فقال: هذا النجم متى غاب يكون قد مضى بعد نصف الليل ساعتان .

انظر إلى هذا النجم ، وأشار إلى القطب فقال : هذا لايغيب أبدا وهو لايعرف اسمه أيضا ، ثم قال: أنا أعرف هذا ، ولكن أكثر من حولى عنه غافلون ، وهذا دأبى ودينى ، فعجبت كل العجب وتذكرت ماقاله [كنت] الألمانى [انظره فى المجلد الخامس والعشرين من التفسير فى سورة « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق »] فإنى هناك ترجمت أهم ما فى كتابه فى التربية ، وقد قال : إن كل مانستعمله من الآلات مضعف لقوانا العاقلة وضرب مثلا لذلك بأن نعرف الوقت بالساعات مع أننا بملاحظة النجوم نعرفها فنكسب حكمة وعلما وتدريبا وازديادا فى البصيرة ، وبأن نعرف موضعنا فى الغابة بالبوصلة مع أننا نقدر أن ندرك ذلك بملاحظة القمر والنجوم وهكذا ، وبينما أنا كذلك إذ ظهرت الثريا كما قال الشاعر :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقول الآخر :

وقد بان فى الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نورا

يريد أنها كعنقود العنب فى تقارب حباته واستدارتها وبريقها :

كل ذلك وأنا أحس كأنى فى عالم غير عالمنا ، أولا لأن الجو صحو والسماء صافية الأديم ، ولأنى درست هذه العلوم أمد حياتى ولم أغفل عنها فى شبابى ولا فى مشيبى ، فأنا إذ ذاك أرانى قد اجتمعت على أصحاب القدماء وأصدقائى الندماء ، ولم تمض إلا لحظات حتى تبدى من ناحية المشرق ما لفت نظرى إليه من كرة حمراء من المرجان بديعة الشكل بهجة المنظر فأخذت أتبينها إذا هى القمر ثم أخذ يخلع حلته الحمراء ويلبس أخرى أقرب إلى البياض والإشراق ، ثم استوى فى السماء وهو يشرق على الأرض نورا ، وما كانت إلا دقائق حتى أقبلت جحافل تتبعها جحافل من الجيوش البيضاء تغزو ما أمامها من أخرى سوداء تتقهقر بانتظام ، والسكون شامل والهدوء تام ، وانفلق عمود الصباح ، وقال المؤذن : حى على الفلاح ، فصليت الصبح.

ولما أن كان الضحى ، ونشرت الشمس على الأرض ملاءة ذهبية مشرقة تبدت لى فى الأرض نجوم أخرى ، وأخذت أدرس درسا آخر لديذا.

ماذا تبدى لى فى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء

نظرت زهرات القرع صفراء فاقعا لونها تسر الناظرين ، نظرتها فى النهار أشبه بنجوم الليل مركبات من خمس ورقات ذهبيات ، ورأيت الحشرات ذاهبات آيبات ، أذكر منها النحل والزنابير السوداء التى على ظهرها كبقعة صفراء ، وكل واحدة تنتقل من زهرة إلى أخرى سريعا ، وبجانب القرع نبات [الصنطاوى] وهو يشبه القرع والبطيخ والخيار من حيث إنه يمتد على الأرض ، وزهر الجميع خمس ورقات .

هناك هناك تذكرت نظام الحشرات ، وأوقات افتتاح الزهرات ، وأن كل طائفة منها لها زهرة خاصة والزهر وقت للنوم ، ووقت للاستيقاظ ، والحشرات تعرف الوقتين ، ولاتخطئ فى حسابها ، ونفس الزهرات

مقدرات فى خلقها بمقدار حشراتها اللاتى تشرب عسلها لتنقل الطلع من الذكور الى الإناث .

هذا كله مشروح موضح بالتصوير الشمسى فى سورة الحجر ، وفى الجزء الخامس والعشرين من تفسير الجواهر فى سورة عمّ ، وفى سورة عبس ، وهكذا ترى فى هذين المقامين وغيرهما العجب العجاب ، ترى أن النبات ذا الفلقتين كالقرع والبطيخ تكون سيقانه مخروطية ، أما أمثال القمح والنخل من كل ماهو ذوفلقة واحدة فإن سوقه تكون أسطوانية ، فهذه قواعد علمية مرنت عليها ، وهأنذا أشاهدها بالبصر بعد البصيرة .

إذن هناك فرق عظيم بين نظراتى أيام الشباب ونظراتى أيام المشيب ، تلك مقدمات وهذه نتائج ، تلك حسرات وهذه سعادات .

كنت أجلس وسط الحقول وأنظر هذه الزهرات فلا أعرف لم كانت هذه الزهرة خمس ورقات ؟وهذه ٣ و ٢ و ٤ وهكذا ، وقد تبين الآن أن كل نبات ذى فلقة واحدة تكون ورقات زهره ثلاثا أو مكرر ٣ فأما ذوالفلقتين فهذا البطيخ والقرع والخيار والصنطاوى فانه يكون خمسا أو مكرر خمس ، وقديكون ٤و٢ جميلة هذه الدنيا ، وجميل العلم . هى للحكماء جنة ، وللجهلاء جحيم ، لايعرف الجاهل من الدنيا إلا أنها مخلوقة لشهواته ، كما يرى الطفل أن كل من حوله مسخرون لاشباع غرائزه وإعطائه مايشتهى .

إن الطلاب فى أيام جهالات أنفسهم ، وغفلات معلميهم يكتفون من العوالم بنظرات أكثر الشعراء فى الجاهلية والإسلام كخيال امرئ القيس إذ يمثل له الليل بجمل ناء بكلكله عليه وأمضه وأضناه لكثرة الهموم أو كبحر لجىّ اضطربت أمواجه وكخيال البهاء زهير فى شعره إذ تمثل له الليل كأنه لا آخر له من شدة شوقه لمحبوبه ، أو كأنه يفاخره بمحبوبته ، ويفضلها على البدر فى السماء ، فيقول الأول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ويقول الثانى :

ياليل طل ياشوق دم ... إنى على الحالين صابر
لى فيك أجر مجاهد ... إن صح أن الليل كافر
يهنيك بدرك حاضر ... ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ... من منهما زاه وزاهر
بدرى أرق محاسنا ... والفرق مثل الصبح ظاهر

فأمثال هذا هو الأدب اللفظى وهو مقدمة للحكمة والعلم ، والمقدمات بالمراهقين وصغار الفتيان أولى ، والنهايات والحكم بالشبان والكهول والشيوخ أليق وأنم :

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

نظرات الأمم أيام رقيها وسعادتها للحكمة أقرب ونظراتها أيام طفولتها للشهوات أكثر

فهؤلاء يمرون على تلك المناظر وهم غافلون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » يرون الحشرات وهن طائفات على الزهرات يشربن العسل ، ويلقحن النبات وهم لا يعلمون أنه لولا هذه الحشرات الطائفات على الأزهار ما كانت الثمار ، ولهلك هذا الانسان ، كل هذه الخواطر جاشت بنفسى ضحى وشجر الأثل والكافور وأنواع المزارع والحشائش تغنى طربا ، وتحدث عجبا ،

وتطرب بغور الأعشاب ، وحفيف الأشجار ، وترنح الأغصان ، وغناء الأطيار ، كأنما هذه حفلة موسيقية ، احتفالا بما أفكر فيه من الحكمة والعلم الذى يجول بخاطرى ، فأما السماء ليلا فقد زينت لناظرى ، وأما الأرض نهارا فهاهى ذه أنوارها وموسيقاها وغناؤها . فهذه الدنيا عروس تجلت للمفكرين ، وحوراء ازينت للناظرين « وزيناها للناظرين » إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، وما يعقلها إلا العالمون » .

فبينما أنا فى هذه الحال المونقة إذ أقبل أحد العمال فى الحقل فقال لماذا تتأمل كثيرا فى زهر البطيخ والصنطاوى ؟ فقلت : انظر ورقات الزهرات أليست خمسا ، وهذه قاعدة فى كلّ ما كان ذا فلقتين كالبطيخ والخيار ، فأخذ يقول : عجب أنت فلاح عظيم ، أنا عشت وما فكرت فى هذا ، نحن لا نعرف شيئا فى الفلاحة أنا ماسمعت أحدا يقول هذا الذى أشاهده إلا أنت ، فقلت له : ماهذا الذى على مجرى الماء من الحشائش الجميلة ؟ انظر ألست ترى هذه الحشائش التى تسمونها [الركبة ، والنجيل ، والدمسيسة ، والبرنوف] تزين حقولكم وأنتم عنها غافلون ، فقال نحن لا نرى فيها جمالا ، نحن نقطعها بالفأس لأنها تضر زرعنا .

فأى جمال فى ذلك ؟ فقلت له : أرى هنا أنبوبة دقيقة تحمل فوقها خمس شعب لها زوايا منتظمات متناسبة بمقياس واحد ، وجميع هذه الشعب متساويات طولا وعرضا ، وحول كل شعبة منها نبت فروع دقيقة ، وهذه أشبه بالتيجان على رءوس الملوك منتظمات بهجات . ثم أنظر إلى أنابيب أخرى ذات ثلاث شعب ، وفيها هذا التناسب بعينه ، وها هى ذه يتلاعب بها النسيم تمايل ذات اليمين وذات الشمال ، زينة على مجارى المياه وأنتم تنظرون ، فقال : حسن كل هذا .

ومن العجب أننا لم نسمع أحدا مر بحقولنا وذكر لنا أمثال هذا المقال ، أنت مغرم بالنبات ، ونحن لاغرام لنا إلا بمحصول أرضنا ، وسد ديوننا ، وإشباع بطوننا وانتهى حديثى معه ، ثم إن محدثى فى أمر النجوم كان أوفر ذكاء وأوسع فطنة ، أما هذا فان نفسه لاسعة فيها ولا استعداد لاستيفاء الحديث .

العبرة من هذا المقال

العبرة من هذا المقال أن التربية فى البلاد المصرية للشبان يجب أن تزداد ارتقاء ، ولو أن ذوى اليسار منهم أرسلوا أبناءهم زمن الصبا عند أهل البادية المصرية بضع سنين قبل دخول المدارس وتعلموا منهم تلك البساطة والشجاعة والاهتداء بالأنواء والنجوم ، لكان فى مصر رجال يضاهئون أعظم رجال الأمم ، هذا ماخطر لى كتبته يوم الجمعة ٢١ يوليو سنة ١٩٣٣ والحمد لله رب العالمين .

يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٣

بهجة الحكمة فى هذا المقال ، وجمال هذه الدنيا ، ونور الله للشرق فى الأرض ، وتطبيق المناظر السابقة على آية « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » الخ .

حضر صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى تفسير القرآن . فقال : إن ماقصصته علىّ يوم الجمعة إجمال يعوزه تفصيل ، فأرجو أن تبين الكلام على السماك الرامح الذى حدثتنى عنه من حيث نظرك فى النجوم ليلا وذكرته لى ، فقلت نعم أنا أحدثك عنه : إننى وأنا جالس ليلا مع الفلاحين وهم يحدثوننى فى أمر السماك الرامح كنت أخاطبه فى سرى ولا أخبر الفلاحين بشىء ، فكنت أقول : أنت السماك الرامح ، أنت ذلك الجمال الرائع ، ذو النور للشرق الساطع ، أنت القريب البعيد ، الكبير الصغير ، أنت ذلك الذى يجرى (٨٣) كيلومترا ، و (٢٠٠) متر فى الثانية ؟ فأنت تسير أضعاف جرى أرضنا حول شمسنا ٣ مرات لأنها تجرى (٢٩) كيلو مترا

و (٥٠٠) متر فى الثانية ، فأنت الذى إذا أردت أن تزور أرضنا فانك لا تصل لها إلا بعد ٩٣١٣ سنة بسرعتك المتقدمة ، فأنت الذى إذا فرضنا أن قطارا يجرى على الأرض فى سكة الحديد من أرضنا بسرعتك وهى ٨٣ ميلا و (٢٠٠) متر فى الساعة : أى بسرعتك أنت فى الثانية الواحدة ، فإن هذا القطار لا يصل إليك بعد خروجه من أرضنا إلا بعد (٨٠٠ و ٥٢٦ و ٣٣) . فكيف يكون هذا البعد ونحن نراك بأعيننا ، عجب لك ٣٣ مليون سنة بسرعة هى أكبر ما نراها فى أرضنا بسكة الحديد مع أنك أنت قريب جدا فان هناك من النجوم ماهو أبعد جداً جداً ، فان من الكواكب مالا يصل ضوءه لنا إلا فى مئات السنين ، بل فى ملايين السنين .

فقال صاحبى : لقد شوقتنى لأن أرى هذا النجم مرسوما وعندى شك فى هذه الأرقام ، فهل لك أن تريني رسم هذا الكوكب أولا ، وتطلعنى على كلام علماء الفلك لأطمئن على هذه المقادير وأتصور سعادتك أنت تفكر فى هذه المعانى وأنت فى الحقل بين الفلاحين وتطبق العلم على العمل ، فقلت : حبا وكرامة هذا مقال لصديقنا الفلكى المصرى [محمد أفندى مسعود] وهاك نصه من صحيفة الأهرام يوم الأحد ٢٥ يونية سنة ١٩٣٣ ، ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ :

اركتوروس

بقلم الأستاذ محمد مسعود

فى صحيفة الصور من أهرام السبت الماضى صورة لبعض علماء مرصد [هوفارد] بأمريكا وهم يسخرون شعاع النجم [اركتوروس] فى توليد تيار كهربائى أداروا به زرا خاصا متصلا بأسلاك الاستضاءة فى معرض شيكاغو الكبير ، فضاءت مصابيحه وانطلقت صفاراته ، فكان ذلك بمثابة إعلان لافتتاح هذا المعرض منذ نحو أسبوعين .

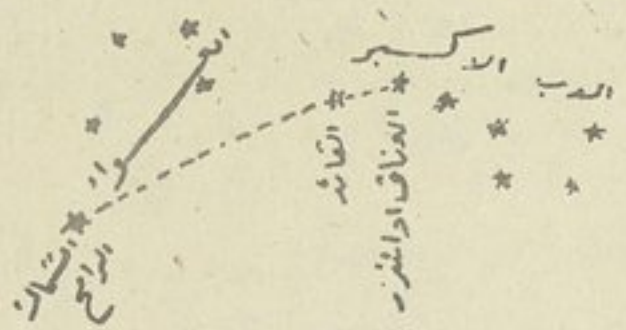

(شكل ٥٩)
صورة الدب الأكبر والعواء

هذه خلاصة ماورد فى الأهرام ، ولست أريد بالإشارة إليه معالجة هذا الكشف العجيب الذى يشتغل له العلماء منذ أواخر القرن الماضى بدليل أنهم قاموا آنئذ بتجارب تأيدت بها قدرة الحرارة الواصلة إلى الأرض مع أشعة ذلك النجم على تحريك إبرة الجلفانومتر رغم شدة انخفاضها لأنها لا تصل منه إلى الأرض إلا بعد أن تقطع ٦٢ تريلونا من الفراسخ فى ٢٥ عاما ونصف عام بسرعة الضوء التى قدرها العلماء بثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة .

أقول : لست أريد معالجة هذا الموضوع الذى يحار فيه الفهم ويكثر الوهم ، بل أقصد إلى أن ذلك النجم بل الشمس الكبرى التى تعد بحق من أسطع شموس النصف الشمالى من الكرة السماوية وأعظمها حجما مابرحت الصحف ، والأهرام فى طليعتها ، تسميها باسمها اللاتينى ؛

على حين أن له من الأسماء العربية مايغنى بعضها عن ذلك الاسم الأعجمى : منها [السماك الرامح] وهو

أكثرها ذيوعا وأقربها إلى التعريف به ، سمى كذلك لسموكه : أى ارتفاعه فى السماء ، ولأن الرمح هو مجموعة النجوم المتتابعة على فخذه اليمنى وساقه اليسرى مجاور له ، ومنها حارس السماك وحارس السماء ، لأنه يرى فى السماء أبدا لا يغيب تحت شعاع الشمس ، ومنها أسماء أخر من أسماء كوكبة العواء التى هو نيرها الأعظم إذ كثيرا ما ينسحب اسم النير على الكوكبة التى هو أحد نجومها والعكس بالعكس .

وفى قدرة القارئ إذا أراد أن يلتمس مكان السماك الرامح من السماء فى هذه الأيام التى تغلب فيها حلكة الليل فتعم الكون أن يهتدى إليه من أقرب طريق إذا كان على حظ من العلم بموقع الدب الأكبر وأوضاع نجومه وبخاصة الثلاثة التى يتألف منها ذنبه ، وهى الجون أو الألية وعند الفرنجة Alioth والعناق أو المئزر وعندهم Mizar والقائد وهو طرف الذنب وعندهم Alkaid :

فانه إذا عمد إلى الاثنين الأخيرين ووصل بينهما بخط مستقيم ثم مد هذا الخط فيما يلى الثانى منهما ، وهو القائد لاعلى استقامته المطلقة ، بل فى شىء من الالتواء والتقوس يكاد لا يحس بلغ به من غير ريب إلى السماك الرامح الذى استمد الأمريكيون بشعاع من ضوئه فى افتتاح معرضهم العظيم .

وعندى طريقة عملية للاهتداء إليه ، وهى أن تستدبر الشمال قبيل الساعة التاسعة مساء ، ثم ترفع رأسك كما لو كنت تريد محادثة أحد فى الطابق الثالث من منزل أنت منه قيد بضعة أمتار ، فالنجم الوهاج الذى يسترعى بصرك بشدة تألقه هو هو السماك الرامح ، أو اركتوروس الصحف العربية ، إذ يكون مكانه من سمت رأسك : أى النقطه المقابلة لرأسك من السماء على انحدار إلى الجنوب يبضع درجات .

ولكى يتأكد لك أنك كنت موفقا فى اهتدائك إلى ضالتك المنشودة ، بادر إلى تغيير وضعك باستدبار الجنوب واستقبال الشمال ، ثم انظر إلى فوق كما نظرت بادئ ذى بدء تر أول ما ترى من النجوم المضيئة تجاه السماك الرامح القائد فالعناق أو المئزر أو سياه كوش [بالفارسية] فالجون أو الألية ، وهى فى أوضاعها على خط منكسر كالسبابة تشير إلى ذلك النجم :

[والسماك الرامح] أول ما شوهد من النجوم فى وضح النهار ، شهده المنجم مورن Morin وهو فى مخدع نوم الملكة [آن دوتريش] حين وضعت ابنها الملك لويس الرابع عشر يستخرج طالعه ، فنى استطاعتك أيها القارئ متى ضبطت موقعه من السماء فى أية ساعة من ساعات النهار أن ترصده بالمنظار ، وربما أبصرت به من غير منظار بعد غروب الشمس بربع ساعة إذا كان بصرك حديدا .

وهو أول ما يرى من نجوم السماء متألق السناء مالم يكن فوق أفقها أحد السيارين : الزهرة والمشترى . [والمقارنة هنا مع الفارق ، فإن السماك الرامح من النجوم الثابتة ، والزهرة والمشترى من الكواكب السيارة التابعة مع أرضنا للنظام الشمسى] ولسطوع نوره ، وتألق سنائه كان مع النسر الواقع والشعرى اليمانية [الشعرى العبور] أول ما استرعى أنظار البشر من الآثار العلوية ، فقد ذكره أيوب النبى فى الآية التاسعة من المزمار التاسع ، وذكره الشاعر هو ميرس صاحب الالياذة فى شعره ، إذ حض الفلاحين وربابنة السفن على توقيت أعمالهم الزراعية والبحرية بحركاته العلوية لاقتران بعض هذه الحركات بالظواهر الطبيعية على وجه الأرض ، كهبوب الرياح العاصفة ، وثورة أمواج البحار ، وما جرى مجرى ذلك .

وكان [السماك الرامح] أول ما حاول العلماء تقدير البعد بينه وبين الأرض ، ولكن محاولتهم فى هذه السبيل ذهبت ضياعا على الرغم من اعتقادهم أنه من أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض لما لاح من ضخامة جرمه وسطوع نوره ، وقد ظلوا يخبطون فى ذلك التقدير خبط عشوا إلى سنة ١٨٤٢ حيث تمكن الفلكى بترس Peters من تقدير ذلك البعد بطول نصف قطر الفلك الأرضى : أى المسافة بينها وبين الشمس

مكررا ٠٠٠ ر ٦٢٨ ر ١ مرة . ولما كان بعد مابين الأرض والشمس هو ٣٨ ر ٠٨٣ ر ٣٨ فرسخا فيكون بعد مابينها وبين السماك الرامح هو ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٠٠٠ فرسخا ، مايقرب من :

٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٤١ كيلومترا ولكى نزجى إلى ذهن القارئ فكرة سطحية عن مدى هذا البعد السحيق فى الفضاء الكونى الذى يصعق العقل دون تقديره برقم أو وقفه عند حد نثبت هنا أن سرعة [السماك الرامح] وهو يسبح فى الفضاء اللانهائى يبلغ ٨٣ كيلومترا و ٢٠٠ متر فى الثانية : أى أنها تعدل سرعة الكرة الأرضية فى مدارها حول الشمس نحو ثلاث مرات (وهذه السرعة هى ٢٩ كيلو مترا و ٥٠٠ متر فى الثانية) .

فإذا فرض أنه سار متجها نحو الأرض على خط مستقيم بدلا من مواصلته السيرة فى فلكه فانه يقطع المسافه بيننا وبينه بسرعته المتقدمة فى ٩٣١٣ عاما ، وإذا فرض أن قطارا فاخرا كالذى يسير بين القاهرة والاسكندرية قد سار من الأرض إلى السماك الرامح على ذلك الخط المستقيم عينه بسرعة ٨٣ كيلو مترا و ٢٠٠ متر فى الساعة ، وهى نفس سرعة السماك الرامح فى الثانية الواحدة ، فان ذلك القطار لن يصل إليه بعد قيامه من [محطة] الكرة الأرضية إلا بعد انقضاء ٨٠٠ ر ٥٢٦ ر ٣٣ سنة . وفى هذا البيان مقنع بضخامة جرم السماك الرامح ، وبأن الفضاء الكونى لا يمكن أن نحصى مداه الأرقام .

وقد كان السماك الرامح موضع اهتمام الفلكيين من قديم الزمان فقد بحث هيبارقة الفلكى الإسكندرى سنة ١٢٧ قبل الميلاد فى حركته وحققها فظهر له أنها من السرعة بحيث تبلغ ثانيتين وربع ثانية من الدرجات السماوية وأنها تتحدر به نحو الجنوب الغربى وأن مايقطعه من رقعة السماء فى كل ٨٠٠ عام يعدل بناء على ذلك الطول الظاهر فى رأى العين لقطر القمر ، وإذن يكون طول ماقطعه من تلك الرقعة منذ عهد الفلكى هيبارقة إلى أخريات الجيل الماضى : أى فى نحو ٢٠٣٠ سنة ٧٥ دقيقة : أى درجه واحدة وربع الدرجة من درجات السماء ، ومعنى هذا أن السماك الرامح ينحدر فى سيره نحو خط الاستواء السماوى لينتظم فى سلك نجوم النصف الجنوبى من الكرة السماوية بعد أن كان من أقرب نجوم نصفها الشمالى إلى القطب ، ولا يبعد أن تندثر الأرض وأخواتها السيارة وأمهن الشمس قبل أن يجتاز السماك الرامح خط الاستواء السماوى منتقلا من الشمال إلى الجنوب .

وليس بين نجوم النصف الشمالى من كرة السماء ماهو أسطع ضياء ولا أشد تألقا ولألأ من السماك الرامح سوى نجوم تعد على الأصابع نذكر منها النسر الواقع والشعرى اليمانية والنير من كوكبة قنطورس الخ ، ولقد حسبه الفلكيون من نجوم القدر الأول بالنسبة لنجوم السماء كلها لا نجوم العواء التى هو النير لها جميعا

ومع هذا فقد قدمه فريق من الفلكيين على النسر الواقع فى صفاء أديمه وحسن إشراقه ، وقال أحدهم إنه إذا كان النسر الواقع ناصع البياض كالألماسة البيضاء ، فالسماك الرامح يشبه الألماسة الصفراء التى استخرجت من مناجم الكاب ، لأنه كالنار المتوهجة فى لونها وشدة حرارتها التى سخرها الأمريكيون فى إضاءة معرضهم وإن وصلت إليهم ضعيفة بعد أن اخترقت تضاعيف كرة الزمهرير فى مدى ٦٢ ألف ألف مليون من الفراسخ .

هذا وقد ذكرنا آنفا أن السماك الرامح هو نير كوكبة العواء ، ونقول الآن : إن العواء صورة من الصور السماوية تتألف من ٢٢ نجما فى الصورة وواحد خارجها وهو السماك الرامح ، وتمثل فى رأى بعض الفلكيين صورة فلاح يحمل بيمينه منجلا وبيسراه دبوسا ، وفى رأى أخرين صورة صياد يحمل بيمناه عصا معقوفة ، ويجعل غيرهم هذه العصا بيسراه وبيمناه مربط كلبين سلوقيين يطارد بهما نجوم الدب الأكبر ، ومن ثم سمى العواء طارد الدب ، وأسماه عبد الرحمن الصوفى فى كتابه [صور الكواكب] الموجود منه نسخة مخطوطة

بدار الكتب المصرية ، وترجمه إلى الفرنسية العلامة [سجلروب] عن نسخة دار كتب سان بطر سبورغ [سابقا] بالنقار ، وأخذها الفرنجة عنه (١) فقالوا كوكبة الـ rakkeN وأكبر ظني أن النقار إنما هي تحريف البقار بالباء بدلا من النون ، لأنهم يشبهون النجوم الأصلية السبعة في الدب الأكبر بسبع بقرات : senoirt atpeS يطاردها العواء بكلبيه السلوقيين ، واسم العواء عند الفرنسيين هو reivuob eL أي البقار ، وأسماه الصوفي أيضا بالصناج : أي الشديد الضوء من صنج الذي يفيد لغة هذا المعنى ، تقول : ليلة قمراء صناجة : أي مضيئة ، أو الضارب بالعصا ، تقول : صنجة بالعصا : أي ضربه وصرعه بالعصا ، وقدفهم القارئ مما تقدم أن العواء يحمل باحدى يديه عصا معقوفة أو دبوسا ، وإذن يكون الفلكي الشهير كامي فلاماريون واهما إذ يقول : إن العرب يسمون العواء rueircel أي الصياح بالياء المشددة بدلا من النون ، وأكبر الظن أن كلمة الصناج حرفها ناسخ ، فظن قارئوها أنها الصياح . ومن ثم نقلوها إلى ما يفيد هذا المعنى في اللغات الغربية .

والخلاصة مما تقدم جميعه أن [اركتوروس] يسمى في اللغة العربية بالسماك الرامح ، وأن على من يريد رصده بنفسه أن يعمل بالإرشادات التي أوردناها في صدر هذا المقال .

فلما سمع صاحبي هذا المقال دهش ، وقال هذا أمر عجب ثم إني أحب أن أعرف بقية وجدانك بعد أن قرأت هذه المقالة قبل اليوم وما خواطرك ؟ يظهر لي أن العلوم لا قيمة لها إلا بالعواطف ، ولولا العواطف والأذواق لأصبحت العلوم حملا ثقيلا على الأمم ، فغرامك بالجمال وعواطفك تستحق أن تبرز في هذا المقام .

فقلت : إني لما اطلعت على هذه المقادير لم أكن لأستغربها ، لأن الكواكب تبعد بملايين السنين بسير الضوء ، ولكن الذي أثر في نفسي أني كنت في الحقل مع الفلاحين كما قدمت والكوكب كان أمامي كما ذكرته لك ، وكانت بنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى متجليات ، والجو مظلم والنجوم فيه تكاد ترقص لشدة بريقها ولمعانها ولألائها ، نظرت إذن بعد أن ذكرت ما تقدم ، ثم قلت : «أنت السماك الرامح ، ذلك الذي يهر الناس ضوؤه هو والنسر الواقع والشعرى اليمانية ، أنزل ذكرك في الزبور ، وذكرك هوميروس في شعره ، «أنت الذي أيقظ بك هوميروس الفلاحين ، وكل ربان في سفينته ، لأن لك في الجو أثرا بحكمة المبدع الحكيم اه .

خيل إلي إذ ذاك رحمة لا حد لها ، ونسمة مزجاة إلى هذه الأرض وما عليها ، وأصبح العالم في نظري مع كثرة عدده ، وعدم تناهي بعده خادما لهذه الأرض ، كما أن جسم المرأة كله معد لتغذية الطفل ، ونقصان أي عضو من أعضاء المرأة يؤثر في تربية الطفل نقصا في خلقه أو استعداده أو شكله ، هكذا أي كوكب نقص من الكواكب ، فان آثار نقصه تصل إلى الأرض .

الله أكبر : أصبحت العوالم وأنا أنظر إليها كأعضاء جسم واحد ، وأرضنا رحم لذلك الجسم ، ونحن بيضات تحيط بتلك الرحم ، عظمت الرحمة عند نفسي ، وهالتني هذه العناية ، ولاحظت كأن القمر بأنواره المشرقات يخاطبني بما ذكرته الآن ، وبينما أنا غارق في هذه الأفكار إذ هبت النسمات فزاد الفكر اشتعالا ، وأخذت أقول في نفسي :

نسبة الأرض إلى العوالم كنسبة الفرد الواحد إلى الأمم

هاهنا أخذت أقول في نفسي : هذه الأرض فرد واحد من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية مملكة من قارة واحدة هي المجرة التي شمسنا فيها ، وكل مجرة مع شموسها وتوابعها وأقمارها وذوات أذنابها أشبه

(١) وسنورد قريبا صورتين تختصان بهذا الكوكب ، وهما صورة العواء عند الفرنجة ، والعواء كما ذكره الصوفي

بقارة من قارات أرضنا : آسيا وأمريكا وأوروبا وأستراليا وافريقا ، وكل كوكب تتبعه سيارات وأرضون .

هذا حكم تلك الأرضين حوله ، فما من أرض أو سيار حول شمس من الشموس إلا كان هذا حكمه ، فهو فرد من مملكة مجموعته الشمسية ، وهى إحدى ممالك مجرتها التى كأنها قارة فى أرضنا ، والمجرات كلها كأنهن قارات فى السماء .

إذن

المشبه به			
الانسان	أمة	قارة	سطح الأرض
مشبه			
أرض	مجموعة شمسية	مجرة	عوالم السماء

هذا هو الذى خطر لى فى هذه الليلة ، رباه العلم لاحد له ، فمنذ ليال لم يكن الخاطر على هذا النمط بل كان متجها إلى وجهة أخرى ، وذلك من حيث أن العوالم متحركات حقيقة ، وإن كانت سواكن ظاهرا الله واحد وهو قد صبغ العوالم بوحدة تجمعها ، وسيشمل النوع الإنسانى بوحدة تناسبه اه .

نظرتى فى العوالم العلوية والسفلية

فى ليلة الجمعة ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٢/٢٨ يوليو سنة ١٩٣٣

جلست فى الصحراء تلك الليلة ، وقد ظهر نور القمر بعد الغروب وأشرقت الأرض بنوره ، وقد حفت به مواكب النجوم ، وليس حولى فى الأرض إلا شجرات نبات [الصنطاوى] وهو الذى يشبه ثمره ثمر [المجور] فى هيئته ، وهو أصغر منه حجما وأحلى طعما ويمتد على الأرض فتحمل هى ثمره عنه كما فى البطيخ والشمام والخيار وغيرها : هى مزرعة صغيرة تجاورها الصحراء المصرية الكبرى الشرقية ، وتحيط بها أرض لانبات بها لقلة الماء الذى يرويها ، ولكن يتخلل الأرض المحيطة بها أشجار من النخل والأثل ، وهذه تداعبها النسمات ، وهى تختال ذات اليمين وذات الشمال والريح سجسج لطيفة ، هناك لاحت منى لفتة إلى القمر وإلى النجوم وإلى السماء فخطرت لى خواطر غير ما تبدى لى منذ بضعة أيام مما أشرت إليه فيما أسلفناه .

رباه قمر أشرق نوره على الأرض ، وكواكب أضواؤها مزجيات معه ، وحرارات الكواكب كلها ، وإن قلت ممتزجات بأضوائها ، فليس فى الكواكب العلوية كوكب إلا وضوؤه وحرارته مزجيات على الأرض كما ذكرناه آنفا من أن أمريكا فتحت للعرض فى هذه السنة بأشعة [السماك الرامح] مع تناهى بعده فى أقطار السموات . هذه العوالم التى لاحصر لها كلها مرصعات بحسب المناظر الظاهرة فى هذه القبة الزرقاء المحيطة بأرضنا عناية الله ورحمة واسعة ، عوالم لا حصر لها ، وشموس ومجرات وسدم كلهن متحدات على تربية أهل الأرض وما أرضنا وما عليها إلا كرحم المرأة ، وما العوالم كلها إلا كجسمها ، وهذه الرحمة يتربى فيها كل حيوان ، وكل نبات كما يتربى الجنين فى رحم أمه .

أما الليلة ، فإن التجلى لم يكن على هذا الوجه ، بل اتجاهه إلى نظام الجماعات ، فكان الفرد كأرض ، والأمة كمجموعة شمسية الخ .

نظام العوالم ونظام الأمم

هاهنا استبان لى أمران مختلفان اختلافا بينا ، هذه العوالم أراضيها ومجموعاتها الشمسية ومجراتها وسدمها

كلهن متجاذبات متعاطفات لا خلل فى نظامها ، كيف لا ، ألم تكن هذه الكرات كلهن جاريات بنواميس خاصة ولم نر أكوكبا اصطدم بآخر ، وهذه النجوم كلهن جاريات فى عوالم الأثير لم نرها يوما ما اصطدمت فهلكت ، نعم لها حساب يقتضى أنها تفنى ، أما الآن فهى متجاذبة متعاطفة مشرقة ذات جمال وكمال ، هذا هو الأمر الأول ، وهو المشبه .

أما الثانى : وهو المشبه به فإننا نراه يخالف الأول على خط مستقيم ، فكثير من الأفراد متقاطعون ، والأمم فى القارة الواحدة ، والقارات المتعددة يختصمون ويتقاتلون « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أرضنا نتيجة العوالم كلها ، وما فى الرحم من الأجنة تتجه أعضاؤه إلى ما اتجه إليه أعضاء جسمى الأبوين أليس جميع من على أرضنا نواتج لمقدمات هى العوالم المحيطة بنا ، إن النتائج توابع المقدمات .

المقدمات كوامل فكيف لاتكمل النتائج

عوالمنا كاملة فلماذا لم يكمل نوع الإنسان ؟ جوابه أن نقول : إن هذه النتائج وإن كانت فى غاية النقص من حيث أخلاق الأمم والأفراد ، فإن ذلك بحسب الظاهر .

الإنسان لم يعش على هذه الأرض بحسب ما يظن العلماء اليوم إلا ثلثمائة ألف سنة . أما الحيوان فانه عاش قبله (٣٠٠) مليون سنة ، وأعمال الحيوان غريزة فيه لايعوزه نصب ولا تعب ، فهو على منهاج العوالم السماوية المحيطة به من حيث النظام .

أما الإنسان فهو إلى الآن فى حال الطفولة ، وهاهو سائر يوما ما إلى ذلك الكمال الذى نشاهده فى العوالم المحيطة بنا .

وإذا كنا نرى الطفل لا يكمل كأبيه إلا بعد أن يكون فتى فكهلا فشيخا ، هكذا هذا الانسان يوما ما سيكمل كما كملت العوالم حوله ، فيصير الفرد محبا لجميع الأمة ، ويكون عمله لها بطريق الحب والعطف كما يعطف على ذريته وأسرته ، وتكون كل أمة عالمة أن الأمم كلها كأنهن معها أعضاء فى جسم واحد ، وإذن يكون هناك حب عام مشابه تمام المشابهة للتجاذب العام فى المجرات والشموس والسيارات . الإنسان سائر إلى هذا شاء أم أبى ، لأن النتائج سائرات إلى ما صارت إليه المقدمات .

هل دين الإسلام أشار إلى كل ما ذكرناه

فى آية « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار »
إلى قوله « لآيات لقوم يعقلون » .

إن هذه الآية مسبوقة بآيات قبلها كلهن مشيرات إلى ما ذكرناه ، قد ذكر الله إبراهيم فى هذه السورة أى سورة البقرة ، وأنه ابتلاه بكلمات فأتمهن ، فلما أتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما ، ومعلوم أن إبراهيم دينه الإسلام ، وإبراهيم أسلم وجهه لله وهو محسن ، والله يقول « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » وفى آية أخرى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا » وإسلام الوجه لله هو الذى أمر به النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن تبعه ، يقول تعالى « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

إذن الناس إذا أسلموا وجههم لله اتحدوا وإلا فهم فى شقاق ، والسلام تسليم وجوهنا والتسليم هنا أن

نكون على صراط مستقيم ، والصراط المستقيم « صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » . وفى آية أخرى « إن ربى على صراط مستقيم » وصراط الله فى السموات والأرض قد شاهدناه ، فهذه العوالم كلها متجاذبات لاشقاق فيها ، والذين لا يسلمون وجوههم لله كلهم فى شقاق كأهل كرتنا الأرضية لأنهم إلى الآن لا يعلمون وليسوا بمذمومين ، لأنهم فى طريق التعليم سائرون .

موازنة ما بين هذه النظرات ونظرات سقراط فى نظام الأمم وفى علم الأخلاق

كل من له إلمام بالفلسفة يعلم أن سقراط جعل الفرد مقيسا على الأمة ، فإذا كان فى الأمة رئيس كلى أو مجلس عام يسيطر عليها ، وجيوش يدافعون عنها ، وطوائف آخرون للزراعة والصناعة والتجارة ، هكذا فى الأفراد ، فالقوة العاقلة فى مقابلة القوة المدبرة فى الدولة ، وقوة الغضب فى الفرد نظير قوة الجيش فى الأمة ، والقوة الشهوية فى الفرد أشبه بالزراع والصناع ، وجميع رجال الأعمال الجسمية أشبه بالمعدة والأمعاء والكبد والطحال فى جسم الإنسان ، ومنزلة القلب وغليان الدم فيه ، والدماغ وجريان الفكر فيه كمنزلة الجيش ، والرئيس المدبر للأمة الواحدة ، ذلك ماقاله سقراط .

فلنقل نحن : إذا رأينا سقراط قاس الفرد على الأمة فعلينا نحن أن نقيس أمم أرضنا على المجرات والسدم والمجموعات الشمسية وتتم العلوم التى أسسها السابقون .

فإذا كانت العوالم التى حولنا كلها متجاذبات متحدات فلنقس العالم الصغير على العالم الكبير : أى عالم أعنى الأرضية على عوالم المجموعات الشمسية ، وإنما قسنا أعمنا عليها ، لأن دراسة العوالم أسهل علينا من دارسة أعمنا كما أن دراسة الأمة عند سقراط أسهل من دراسة الفرد الواحد ، ولذلك قيس عليها ، وحكم عليه بما اتصفت به هى .

فإذا كانت دراسة الحيوان والنبات أسهل من دراسة جسم الإنسان ، ولذلك تقدم دراستها على دراسته فى المدارس ، وإذا كانت معرفة نظام الأمم أسهل فى التعليم من معرفة نظام الفرد الواحد فقاس الحكماء نظامه على نظامها ، هكذا نرى الآن أن دراسة المجموعات الشمسية أسهل علينا من دراسة الأمم على الأرض ، فلذلك قسنا نظام هذه الأمم على نظام تلك المجموعات .

إن نظام هذه المجموعات عبارة عن إسلام وجهها لله فهى سائرة على نهج الجاذبية العامة التى تشبه المحبة العامة فى نوع الإنسان ، هذه سنة العوالم ، وهذه سنة دين الإسلام .

كيف كان اتجاه الإسلام نحو غاية الوحدة العامة من حيث الوفاق والوئام

(١) نرى الله فى هذه السورة يقول « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وإذا كان رجال هذه الأمة عدولا فهذا قد حصل فى أزمان مختلفة كزمان عمر رضى الله عنه ، فهم كانوا يحاربون الأمم ، ويحافظون عليها ، ويحكمونها بقانون ، وهو قانون دين الإسلام ، هذه وحدة فى الحكم والنظام على وفاق وحدة النظام العام ، ولم يبح عمر لأحد من المحاربين أن يملك أرضا فى بلاد الأمم المحكومة ، إذن هم كانوا شهداء على الناس .

(٢) ونرى الله يفصل بعد ذلك أمر القبلة ويأمر الناس بالإسلام والاتجاه إليها وهذه فتح باب للوحدة .

(٣) ويقول فى آية أخرى « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم » الخ ، وهذا اتحاد فى العقائد .

(٤) ويذكر بعد ذلك آيات مناسك الحج كالصفا والمروة ، وهذا اتحاد عملي لنوع الإنسان مقدمة للاتحاد العام كتجاذب الكواكب فى السموات .

(٥) ويتبع ذلك بآية « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » الخ ، يذم الله بذلك ويلعن أولئك الذين يكتمون العلم .

ولا جرم أن العلم بانتشاره يجعل المستمعين له متى كان حقا على رأى واحد فأما الظنون فلا حد لكثرتها .

(٦) وأتبع ذلك كله بقوله « وإلهكم إله واحد » أى وإذا كان إلها واحدا ، فإن أعماله تتجه كلها إلى الوحدة وتكون ذات أسلوب خاص مناسب لكمال قدرته وعلمه كما نرى الصناع والكتاب والمؤلفين كل له أسلوب خاص فى عمله يختلف عمن سواه .

ولا جرم أن من درس نظام هذه العوالم وجدها على أسلوب من الكمال والنظام لاخلل فيه « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » لأنه لو كان هناك آلهة أخرى لحصل اختلاف فى نظام الخليقة والله يقول « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ الخ » والرحمة المذكورة لايدركها فى هذه العوالم إلا الحكماء الدارسون ، وأما المتوسطون فإنهم عن هذا المجال مبعدون .

ضرب مثل للوحدة فى النظام العام

وقد ضرب الله مثلا للوحدة العامة بما نرى من اختلاف الليل والنهار والفصول شتاء وصيفا وخريفا وربيعا ، فهذه الفصول كل منها يخرج فيه من النبات مافيه منفعة لبقاء الإنسان والحيوان ، فهى اختلفت ذاتا واتحدت وجهة ، ومن حرارة الشمس المزجاة على هذه العوالم الأرضية جرت الرياح فى كل مكان ، فجرت السفن وسارت السحب وأمطرت على اليابسة فى كل مكان ، ومن للمطر كانت الأنهار فالمساقى فى الحقول ، ثم المجارى الجاريات تحت وجه الأرض فتكون الآبار والعيون فيكون النبات والحيوان ، وهذا ملخص الآية إذ جاء فيها ذكر الفلك وما تحمل من الأمتعة والمطر والنبات والحيوان ، أليست هذه كلها قد اتحدت مبدأ من حيث الحرارة الشمسية والمواد الأرضية ، واختلفت أعمالا ثم اتحدت غاية ، هذه وحدة فى عوالمنا .

فهم جهلة الصوفية فى وحدة الوجود ضلال

تبين مما ذكر أن وحدة الله غير وحدة المخلوقات ، فوحدته من حيث الذات والصفات والأفعال ووحدة المخلوقات ترجع لحسن انتظامها « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت »

فلما سمع صاحبي هذا المقال فرح أشد الفرح وقال : ما أحسن هذا البيان لقد قست نظام أمم الأرض على نظام المجموعات الشمسية وجعلت كل قارة كمجرة ، وجعلت القارات كلها أشبه بالمجرات ، ورتبت على ذلك أن تكون أمم الأرض متحابات كتحاب هذه الكواكب ، وهذه الآراء تمت بسبب إلى ماذكرته فى كتابك [أين الإنسان] وهذه أراؤك فى ليلة قمراء :

(١) فأرجو أن تتم الكلام على وحدة الأمم كلها ، وأقول أيضا : لقد تبين لى من هذا المقال أنك ترى أن أمة الإسلام عليها أن تقوم بوحدة الأمم كلها وكيف يكون ذلك وهى متفرقة فرقا شتى ، وهل فاقد الشئ يعطيه هذا . ثم إنك قد ذكرت آراءك فى ليلة قمراء .

(٢) فماذا رأيت فى نهار تلك الليلة ؟ وإنما سألت هذا السؤال لأنك قلت إنك كنت متفرغ الفكر

هناك فى الحقل فماذا رأيت من عجائب نبات الأرض ؟ وماذا استنتجت من تلك المظاهر النباتية فى حقول البطيخ وما أشبهها هناك ، فإنك إذا تبدى لك فى السماء آراء غير السابقة ، فلا جرم تكون قد تبدت لك آراء أخرى فى نظام النبات .

(٣) ثم أرجو بعد أن تشرح لى ذلك أن تزين بالتصوير الشمسى نظام السموات والأرضين ، وكيف اتحد ذلك النظام بحيث أراه بنظرى كما رأيته ببصيرتى ، ثم بعد ذلك أحب أن تذكر لى ملخص علوم الحكمة كلها وتذكر مع كل قسم منها بعض الآيات القرآنية التى تناسبها لأعرف الأقسام التى تناسب آيتنا ، وهى « إن فى خلق السموات والأرض » إلى « لقوم يعقلون » .

فقلت إذن هنا خمسة فصول :

(١) فى أمة الإسلام وكيف كانت وهى أمم متفرقة تعود كثيرا من الأمم وفاقد الشىء لا يعطيه .

(٢) وفى الحكمة المستنتجة من مناظر الحقول .

(٣) وفى صور الكواكب وصور عجائب الأرض من حيث وحدة النظام .

(٤) وفى النفحات الإلهية فى الليلة المذكورة .

(٥) وفى أقسام الحكمة مع ما يناسبها من القرآن مع تبيان ما يخص هذه الآية التى نحن بصددها من سورة البقرة .

الفصل الأول فى بيان أن أمة الاسلام المتفرقة عليها أن تجمع الأمم ومعلوم أن فاقد الشىء لا يعطيه

اعلم أيدك الله أيها الأخ الفاضل أن أمة الإسلام إنما تفرقت وجهتها فى القرون السابقة لأنها كانت مدة اختبار ومحنة ، وهذه التجارب السابقة والمحن المتشعبة قد جعلها الله نعمة علينا لأننا سنتخذها عبرة لنا ، الأمة كلها كفرد واحد ، وتجارب السابقين لتعليم اللاحقين أن الله عز وجل لم يقص علينا قصص الأمم السابقة إلا وهو يعلم أننا سنتخذ منها عبرة لنا ، ومعنى هذا أننا نضيف إليها قصص أمم الإسلام ونتخذ منها العبر ونتبع مبتدأها بالخبر فنقول : لم تفرقت أمم الإسلام سابقا وتشعبت ؟ . وجوابه أن نقول إنهم قد اجتهدوا فى حفظ النظام باقامة الخلافة ، وكل أداه اجتهاده إلى طريقة درج عليها فتشعبوا وكثرت الفرق والخوارج جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، هذا من جهة السياسة ، وهكذا جهة العلم ، فكل طائفة لها آراؤها ولها طرقها فى التعليم فتفرقوا شيعا . وكلهم من رسول الله ملتمس .

ولكن هذا الزمان هو الذى جعله الله لم شعث هذه الأمة ، نعم هذا زمانه ، فأما تفرق الأمة من حيث سياستها وعدم انتظامها فى وحدتها لأجل الخلافة ، فهذا زمان مضى وانقضى ولم يكن مع أمم الإسلام إذن من هم أشد منهم وأقوى لا فى السياسة ولا فى حكم الأمم ، فأخذوا يقتسمون الممالك التى فتحوها واشتدت بينهم العداوة ، أما اليوم فإن المسلمين نظروا فوجدوا الأمم حولهم أقوى منهم عددا ، وأشد منهم بأسا وأوسع حيلة ، فلن تكون بينهم تلك الإحن ولا الضغائن على اقتسام الممالك كما كانوا يفعلون ، وهاهم أولاء الآن يقرب بعضهم من بعض ويتعاونون عربهم وعجمهم .

فأما افتراقهم فى المذاهب والآراء فلعمرك لم يكن ذلك إلا لنقص فى التعليم ، وهذا النقص أخذ الآن فى الزوال ، وبيانه أن هذه الأمة مهما اختلفت فإن لها وحدة تجمعها ، وهل هناك اتحاد أقوى من دراسة

هذه الدنيا ونظامها وجمالها ، هذه العوالم الجميلة من سموات وأرضين ، هذا النظام الجميل هو الذى سيوحد هذه الأمة ، بل ها هو ذا الآن قد أخذ يلم شعثها ويجمع المتفرقين منها .

الله أكبر الله أكبر ، لقد عرف السنى اليوم والشيعى والزيدى والأباضى ، لقد أخذوا يعرفون اليوم جميعا أنهم فى أشد الحاجة إلى دراسة هذه الكائنات ، وهم فى دراستها يرون أن مابينهم من الخلاف فى فروع الدين شىء قليل جدا :

فإذا عرفوا جمال الله وحكمته فى العوالم العلوية والسفلية كالذى كتبناه فى التفسير [وقد قرءوا فعلاوالحمد لله] وكالذى كتبه كتاب المسلمين اليوم فى ذلك فإنهم يرون أن هذا أهم مقاصد القرآن ، أما الاختلاف فى فروع الفقه كعدد الركعات فى صلاة ما أو أنواع البيوع أو غيرها ، فإن ذلك كله ليس شيئا مذكورا بجانب ما اتحدوا عليه من نظام هذه العوالم وجمالها وما اشتق منها من علوم الزراعة والصناعة وأمثالها :

ها هو ذا الشيعى يصافح فعلا السنى ويقول كل منهما للآخر : أيها الحبيب إن خلاف آبائنا كانت وجهته الأمور السياسية والخلافة العامة ، وكل كان يحرص على إقامة العدل بحسب ما أداه إليه اجتهاده ، ولكن ذلك زمان مضى وانقضى ، وقد ظهرت فى الأرض أمم وأمم هم أشد منا بأسا وأصعب مراسا . فليست أرض الله اليوم تحت إشرافنا حتى نتقاتل عليها ، وهذا التشعب اليوم لاقيمة له ، ولقد اتحدنا من جهة الدين لأن هذه العوالم كلها لاتختلف فى دراستها شيعى ولا سنى ولامالكى ولا حنبلى ولا زيدى ولا أباضى ، فإذا تقابلت أفراد هذه الطوائف فانهم يتحدثون فى جمال ربهم وحكمته ونظام سمواته وأرضه ، وهذا هو عماد التوحيد كما أن الصلاة عماد الدين ، بل هذا سر الصلاة ، لأنها جعلت معينة على هذه العلوم « وأقم الصلاة لذكرى » وهذه العلوم مع العلوم الإلهية الخاصة بالحضرة الربانية تبلغ (٧٥٠) آية فى القرآن ، وهكذا نظيرها فى آيات الأخلاق ، وبقية القرآن يعين على هذين الأمرين ، إذن لاخلاف إلا فى أمور عرضية عملية بسيطة لاتفرق الوجهة كالاختلاف فى عدد الركعات أو فى أيام حيض أو نفاس أو بيع أو هبة أو دعاوى أو بينات أو نحوذلك ، فهذه كلها لاتوجب تفريقا ، كلا ثم ألف مرة كلا ، هذه هى الوجهة العامة للمسلمين التى أخذوا يتوجهون إليها الآن ، وأنا الآن أعبر عما فى صدورهم ، والله عز وجل أراده منهم ، وهم إلى هذا صائرون .

تذكرة

إننى قبل الانتهاء من الفصل الأول أذكر حديثا لإخوانى المسلمين جرى بينى وبين العلامة بحر العلوم المجتهد الإمامى الإيرانى .

أنا أكتب هذا فى حى السيدة زينب شارع زين العابدين صباح يوم الأربعاء فى آخر شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ فى أواخر شهر يولية سنة ١٩٣٥ حين تقديم هذا الكتاب للطبع ، وتقدم تاريخ كتابة هذا الموضوع وأنه كان فى الحقل ، وبين التاريخين سافرت إلى بيت الله الحرام : أى فى أواخر سنة ١٣٥٢ ولقد عجبت الآن كيف كنت أكتب حديث الشيعى مع السنى على طريق الخيال وإن كانت كتبهم تترى إلى متضمنة هذا المعنى كثيرا ، ولكن نفس الحديث لم يكن له وجود إلا خيالا واستنتاجا ، فهأنذا أقص قصص حديثى مع صديقى فى الله بحر العلوم المجتهد الإمامى :

صفة الحديث

بينما كنا قافلين من جدة إلى مصر وسفينتنا المصرية [زمزم] تجرى فى البحر الأحمر متجهة إلى ميناء السويس إذا بالأستاذ بحر العلوم يقابلنى فتتعارف وتتجاذب أطراف الأحاديث وقد جلنا جولات قصّ على قصص ارتقاء الامامية ارتقاء لا حد له ، فقال : إن الخطباء اليوم فى بلادنا يخطبون على المنابر يذكرون سيدنا عمر رضى الله عنه ويمدحونه ويجلونه ، فقلت : ولكن أرجو منك أن تأذن لى أن أسألك فقال : سل ، فقلت : لو أنى كنت إماميا عاميا لوقفت فى وجهك أيها المجتهد ، وقلت لك لقد خالفت عظماءنا وأكابرنا فى وصف عمر والحكم عليه بأنه عظيم ، فقال : أنا أجيب إذ ذاك فأقول : ذلك كان على مقتضى اجتهادهم ، ولكن الآن أرى غير ذلك ، فقلت له : إن هذا عجيب جدا ، إن هذا حسن ، وهذه حرية دينية عجيبة ، وان هذا تصريح جميل وبديع اه الحديث .

والذى دفعنى إلى ذكر هذا هنا أننى دهشت إذ كان حديث الأستاذ العلامة [بحر العلوم] معى هو بنصه وفصه عين ماذكرته قبل ذلك بنحو سنة فى هذا المقال ، فلله الحمد على نعمته ، ولله الحمد على التوفيق وعلى التأييد وعلى إسباغ نعمته وعلى ما أفاض من الخير واللطف والبشائر وعلى ما حقق من الأمانى والمقاصد فى أمم الإسلام .

ومثله الأستاذ العلامة صديقنا [أبو عبد الله الزنجانى] قد ورد إلى مصر فى هذه الأيام ، وكان حديثه معى على هذا النمط ، وهو من كبار علماء الإمامية ببلاد إيران ، وقد أخبرنى بأن [الجواهر] فى تفسير القرآن يقرؤه الطلبة الايرانيون فاتجهت همتهم إلى الدين بعد أن صرفت عنه لظنهم إذ ذاك أنه مناف للعلوم العصرية ، فحمدت الله حمدا كثيرا لأنى كنت أظن أن قراءته قاصرة على العلماء والخطباء والوعاظ ، وكنت أرجو أن يطلع عليه الطلبة ، فلما أخبرنى بذلك ثلج صدرى وحمدت الله حمدا كثيرا ، وعلمت أن الأمم الإسلامية قد أقبلت أيام سعدها ، وأدبرت أيام نحسها ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » .

ولقد جاء إلى مصر قبل الفاضل [أبى عبد الله الزنجانى] الأستاذ [المرتضى الحسينى] الذى جاء إلى الجامع الأزهر ، وهو أيضا من علماء الإمامية ، وشرع فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة ليربط أهل السنة بالشيعة ويقرأ العلوم العصرية ، وهو مثل أخويه فى الآراء والعواطف . وبالجملة فهذا انقلاب عظيم حدث فى أمم الإسلام وبهذا انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى فى ذكر الحكمة المستنتجة
التى ظهرت لى من مناظر الحقول التى ذكرت سابقا

أقول : إنى لما جلست فى الحقل بمزرعتنا جهة المرج من ضواحى القاهرة ، ونظرت تلك الحشرات الطائفات على زهرات البطيخ والقرع والصنطاوى وأمثالها ، وشاهدت الحشائش التى وصفتها وأنها جعلت زينة للأرض ، وأكثر الناس عنها غافلون .

أقول : لما شاهدت ذلك أخذت أقول فى نفسى مخاطبا تلك الحشرات كالزنابير والنحل [وهى تخرج

من زهرة إلى زهرة غادية رائحة ناظرة جمال الزهرات شاربة عسلها قائمة بتلقيح النبات] .

أيتها الحشرات : إنكن مسخرات لقوة قاهرة وحكمة باهرة ، أيتها الحشرات أنتن لم تسعين إلا لمطالب نفوسكن من حفظ الزاد ، وحفظ عمالكن ، ولكنكن لم تعلمن أن نوع الإنسان كله ، وأنواع الحيوانات الأخرى قد توقفت حياتها على أعمالكن لولا كن لم تتمتع بنعمة الفواكه وكثير من المزروعات ، إنكن قائمات بتلقيح الإناث من طلع الذكور ، أنتن تساعدن الرياح ، فالرياح ملقحات وأنتن أتممتن النعمة المزجاة لكن من الذى خلقكن وصوركن وسخركن لنا وأنتن غير عالمات ؟

سعيتن لمنفعتكن ، وبنفس هذا السعى كانت حياتنا نحن ، ونحن نسعى لمنفعتنا وشهواتنا كما تسعين ، ولكن فى نفس الوقت تصح أبداننا ونعيش عمرا طويلا أو قصيرا بدون قصد منا ، ونلد الذرية بما تعاطينا من طعام لشهواتنا وسد جوعنا وبما شربنا من شراب لاطفاء ظمئنا ، وبما اجتمع ذكراننا واناثنا لمجرد الشهوات واللذات بذلك الاجتماع ، وكذلك أيضا أنتن أيتها الحشرات تعشن على أزهار زرعنا الذى نجد فى تنميته بسقيه وتسميده ، فنحن وأنتن سواء سعينا لمقاصدنا الجزئية وأنتن كذلك ، ولكن هناك حكمة وراءنا دبرت تدبيرا أتم وأسبغت النعم علينا وعليكن ، فبينما نحن وأنتن نسعى حثيثا لسد نقصنا من جوع وعطش وشبق ، إذا بنا نرى ثمرا حلوا لذيذا بسعيكن أسدى إلينا ولا علم لكن بذلك ، ونرى لنا أبدانا صحيحة نعيش بها ، وذرية تخلفنا بعد موتنا ، ونرى أنكن تعشن أنتن وحيوانات كثيرة من عمل أيدينا أردنا أم لم نرد ، علمنا أم لم نعلم ، فنحن وأنتن سواء ، فنحن جميعا عبيد مسخرون «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا» انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث فى صور الكواكب السماوية وبعض العجائب الأرضية

من حيث وحدة النظام

قد وعدنا أن نرسم صورتى العواء فها هما ذان ونتبعهما بالخريطتين السماويتين

[شكل ٦٠]
العواء عند الفرنجة

[شكل ٦١]
العواء كما صوره الصوفى فى كتابه

[شكل ٦٢]

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » .

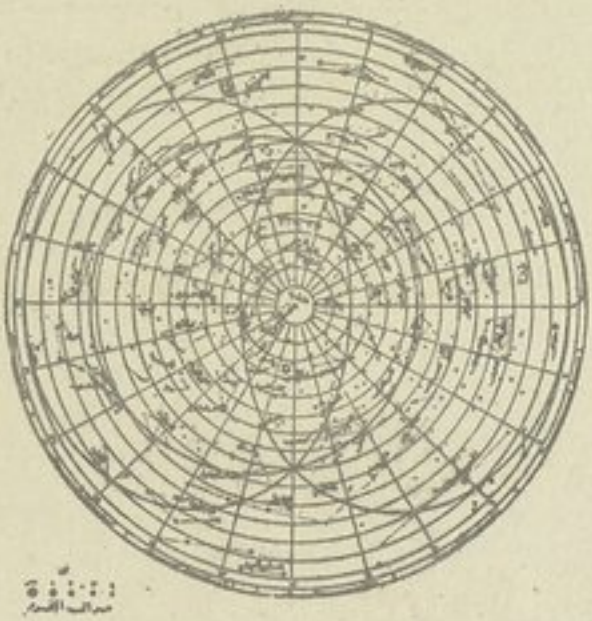

[شكل ٦٣]

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ـ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ـ وزيناها للناظرين ـ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » .

صور من النباتات ذوات الفلقتين

(شكل ٦٤) الخشخاش (شكل ٦٥) حامل الصليب (شكل ٦٦) (شكل ٦٧) البسلة (الجلبان)

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ـ والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » :

«فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا ؟

(شكل ٦٨) البطيخ — (شكل ٦٩) الاقحوان — (شكل ٧٠) الخرشوف — (شكل ٧١) شيكورى

صور من النباتات ذوات الفلقة الواحدة

(شكل ٧٢) نوع من الزنبق — (شكل ٧٣) قوس قزح — (شكل ٧٤) القمح — (شكل ٧٥)

(شكل ٧٦ فائلا) وهو نبات يكون فى الأقطار الاستوائية — (شكل ٧٧) هليون

به يجفف الثلج

«وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ـ والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان» .

فقال صاحبى : أى ثبات تراه فى هذه الصور للكواكب السماوية والأزهار الأرضية ؟ فقلت : أيها الأخ إنى لفى غاية العجب، هذه الكواكب وإن كانت سريعة الحركات تراها ثابتة أمد الدهر ، وتغيرها لا يظهر إلا بعد أجيال وأجيال ، والذى يدهشنى أن السيارات حول الشمس(١) موضوعة بنظام تام مدهش إذ أنها على حسب متوالية هندسية، فاذا كان عدد ٣ لعطارد كان للزهرة ٦ وللأرض ١٢ وللمريخ ٢٤ وللنجيبات ٤٨ وللمشترى ٩٦ ولزحل ١٩٢ وهكذا ، أليست هذه متوالية هندسية ، هذا مثل واحد من هذا النظام الجميل ، ثم انظرهن بعد ذلك واعجب من الجمال .

ألم تذكر أن العلماء يقولون فى علم النبات : إن زهر ذى الفلقتين كالبطيخ مثلا يكون ذا خمس ورقات أو مكررة ، وقد يكون (٤) أو (٢) أما النبات ذو الفلقة الواحدة فإنه يكون ٣ أو مكرر ٣ فهاك انظر معى ألست ترى أن نبات الفول ونحوه فيه عشرة أعضاء للتذكير فهى ضعف ٥ ومعنى هذا أن النبات استعملت فيه المتوالية العددية فيكون ذو الفلقة الواحدة ٣ أو ٦ أو ٩ وهكذا وذو الفلقتين ٥ ـ ١٠ ـ ١٥ وهكذا غالبا ، وفى السيارات حول الشمس استعملت المتوالية الهندسية ٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ وهكذا إذن السموات والأرضون بنيت على حساب واستعمل كل باب من أبواب الحساب فى مخلوق من المخلوقات .

رباه عجبنا لعملك ، وكيف لا نعجب وقد رأيناك فوق ذلك تجعل ما كان ذا فلقة واحدة من النبات كالنخل هو كالقمح له ساق أسطوانية، أما ما كان ذا فلقتين : كالفول والعدس والبطيخ ، فان ساقه تكون مخروطية ، فههنا قواعد للأشكال وقواعد لأعداد الأعضاء ونحوها فى الزهرات ؟

عجب ياربنا كواكبك جعلتها بحساب وهندسة ونبات أرضك حسبته .

---

(١) صورتها مرسومة فى سورة سبأ .

رباه إن هذه نعم تنزلت منك إلينا فنحن فى الأرض سعداء بهذه النعمة ، وهى نعمة الحكمة ، وأى سعادة فوق مايرى حكماء الأمة من نظام متين وجمال بارع ولا جمال فى العالم إلامابنى على حساب ونظام ، فهذا هو الجمال ، وهذا هو الكمال ، وهذه هى السعادة سعادة الحكماء ، فأما من عداهم فهم همج الهمج

فقال صاحبى : جميل جدا ، وإنى أرجو أن تحدثنى حديثين : أولهما عن غرامك فى شبابك بهذه العوالم العلوية ، وما انتهى إليه أمرك وأنت تؤلف هذا القام فى الفلك ، وما الذى تحس به الآن من الوجدان ؟ الحديث الثانى فى أمر الدب الأكبر والأصغر وما حولهما وما فيهما من العجائب التى لم تكن تخطر لك ببال فى أيام شبابك .

فقلت أيها الأخ : ليكن ذلك جوهرتين ههنا :

الجوهرة الأولى : فى حديث أيام الشباب .

الجوهرة الثانية : فى إيضاح عجائب النجوم التى تحيط بالنجمة القطبية ، ومما كشف حولها من جمال وجدانى فى ذلك .

الجوهرة الأولى فى حالى أيام الشباب من جهة هذه العلوم

اعلم أيها الأخ أن حديثى عجيب : أيام الشباب تعلمت فى الأزهر زمانا ثم تحولت الحال واضطربت الأسرة ومرض والدى ، فبقيت فى بلدنا [كفر عوض الله حجازى] ثلاث سنين أكابد أمراضى أنا ومداواتها ومداواة والدى ، والبحث فى أمر أسرتنا والمحافظة عليها ، وهنالك تبدت لى فكرة باحثة عن كل شىء عن الله والوطن والأمم والعلوم ، وهذه النجوم ، وهذه الأرض ، وهذا النبات ، وكان إذ ذاك عندى ظواهر من علم الفلك تلقفتها من الكثير ، ومن المدراسة مع بعض المشتغلين بالعلم .

سبحان الله ! ما أرحم الله بعباده ! فهو الذى صرف نفسى وحبها فى هذا إبان صغرى ، ولقد سمعت من المشتغلين بهذا الفن إذ ذاك أن الأرض فيها بلاد جهة الشمال وجهة الجنوب ، يكون كل من ليلها ونهارها نصف سنة ، فكنت أبيت أفكر فى هذا الموضوع ، وأصبح وفكرى لايفارقه هذا الموضوع ، وأنا لاأتصوره وكم كنت أجلس فى الخلوات وحدى بعيدا عن العمران ، وأنظر للنجوم ، وأعجب من جمالها وبهجتها وحكمتها ولم يكن لدى قول أقوله إلا هذا البيت الذى نظمته إذ ذاك وهو :

النجم أخبرنا بأن وراءه حكما تجل عن العقول وتعظم

وتطاول الزمان فى ذلك الحرمان والوجد يزداد للاطلاع حتى رجعت إلى الجامع الأزهر ثانيا .

وإن أنس لا أنسى ليلة كلمت المرحوم أستاذى الشيخ على البولاقى ، وقد كان يدرس لنا علم البيان بعد المغرب ، وقد أحسست فى نفسى بنار متأججة للاطلاع على علم الهيئة ولو اطلاعا ظاهريا ، وسمعت أن هناك كتابا عنوانه [الجغمينى] فلما كلمته فى ذلك وكان ذلك الكلام مساء بين المغرب والعشاء بمسجد محمد بك بجانب الأزهر ، فلما أطلعته على ذلك تبسم وقال : هكذا أنا مر على زمن قلت فيه : إنى لا أكون مسلما إلا إذا أقرأت هذا العلم ، ثم أعارنى كتابه . وقد كنت بحثت عنه فى المكاتب بمصر فلم أجده ، فأخذته وسافرت إلى قريتنا وكانت مدة العطلة (١٥) يوما فصرفتها فى نقل هذا الكتاب بخطى ، فبلغ مائة ورقة أى عشرة كراريس . ولم أكتب فيه حرفا إلا بعد أن اطلعت على عجله ، ذلك أننا لما ركبنا فى السفينة بالترعة الاسماعيلية أخذت أقرأه ليلا ونهارا وأنا مبتهج ، وكان عندى مباد سطحية بسيطة جدا من علم الفلك ، فاطلعت على

أسماء البروج والمنازل ، وهيئة العالم بالطريقة القديمة المصورة ، وفيها كلام على نهاية المعمور من الأرض ، ولم تكن أمريكا قد كشفت إذ ذاك ، فرأيت المؤلف يقول : لا علم لنا ببلاد غير هذه البلاد المعروفة وهي : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ثم قال : وربما كانت هناك أمم أحالت بيننا وبينهم بحار ، وقد صدق لأن ذلك قبل كشف أمريكا وما وصلت فى سفرى إلى قرب قريتنا ، حتى أحسست بسعادة وراحة ، وجلست فى الحقول القريبة من بلدة [بردين] القريبة من قريتنا ، وأخذت أصلى وأشكر الله الذى علمنى ولم أدخل قريتنا إلا بعد ذلك ، وأنا فرح بما نلت من هذا العلم القليل ، ثم نسخت الكتاب كما ذكرت آنفا ، وبعد ذلك بسنين دخلت مدرسة [دار العلوم] وهنالك : قرأت هذا العلم بالطريقة العلمية الحديثة ، وكان أستاذنا فى ذلك العلم ، المرحوم أحمد أفندى حمدى ، وكان رجلا بارعا فى العلوم الرياضية ، ولكنه لم يكن بارعا فى علم الفلك ، فسألته يوما عن مناظر نفس البروج ، وقلت له أنى أعتبر شهادتنا غير حقة فى هذا العلم إذا لم أطلع على نفس البروج فى السماء ، فتبسم واعتذر بكثرة الدروس ، وأن هذا يستلزم الاطلاع فى الليالى المظلمة ، ويعوزه استعداد خاص ، وكان الكتاب الذى نقرؤه قد ألفه المرحوم حسنى بك ، لمدرسة [الهندسخانة المصرية] وقد درسه هو نفسه لنا .

هذا حديثى فى زمن الشباب الخاص بعلم الفلك ، وهذه هى الجوهرة الأولى :

الجوهرة الثانية فى حالى الآن وعواطفى نحو النجوم

أما حالى الآن فإنى أعتقد أنى نلت مرادى ، وهل السعادة إلا أن ينال المرء مراده . نعم سعدت بالجمال سعدت بالحكمة ، سعدت بالعلم : سبحانك اللهم ، كم من ليال بتها وأنا مفكر فى أمر النجوم أريد أن أنظر نفس البروج ونفس المجموعات الكوكبية فلا يتيسر لى ، اللهم إلا أنى أرى الثريا فأعرف أنها تقرب من برج الثور ، وأعرف أن الدبران وراءها ، وهكذا كما أعرف النجمة القطبية والدب الأكبر والأصغر ، وأخيرا عرفت [السماك الرامح] . أما بقية الكواكب فلا أعرفها إلا فى الكتب ، وكم كنت أسمع من الإنجليز الذين كانوا مدرسين معى [بالمدرسة الخديوية] إذ يقولون : فى هذا الشهر ، أو فى هذا الأسبوع تكون فى السماء مناظر هى كذا وكذا ، وهم ينتظرون ذلك بفروغ صبر ، إذ يرسل لهم بضعة خرائط فى جرائد خاصة .

هذا ، وقد لاحظت أن هذه العلوم الفلكية والطبيعية أخذت تتناقص بعد الاحتلال شيئا فشيئا ، حتى عفت آثار الفلك وآثار العلوم الطبيعية من مدارسنا المصرية ، وبعض النابغين من علماء الفلك ، وقد درسوه لنا ، وهو أستاذنا : عبد المجيد أفندى ، أمر [دانلوب الإنجليزى] أن يدرس فى المدارس الابتدائية وأقصاه عن علم الفلك . ولما كانت هذه العلوم هى ضالتى المنشودة ، ألفت إذ ذاك كتبا صغيرة ضمنتها تلك العلوم ، وبتكرار الكتب تزداد العلوم ، وأخيرا أخذت مصر استقلالا داخليا ، فرجعت بعض تلك العلوم إلى ديارنا تدريجيا ، والحمد لله .

ومنها بعض العلوم الطبيعية ، وهاهو ذا علم الفلك قد نشر حديثا وجاءت فيه هاتان السورتان السماويتان فى الكتاب الذى ألفه الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى [ناظر مدرسة القبة الثانوية] بعنوان [النجوم ومسالكها] .

فها هى ذه الصور السماوية أمامى ، وأنا اليوم أقابلها على نفس السماء فى الليالى المظلمة .

ولم يكن ذلك متيسرا من قبل ، فأنا أحمد الله إذ اطلعت على هذه الصور السماوية فى هذه الخريطة .

تفصيل الكلام على عجائب هذه النجوم التى فى هذه الخريطة

لما سمع صاحبى ذلك قال أنا أفكر فى هذه النجوم وأنظرها كثيرا ، وأنا الآن فى حيرتك التى وصفتها .

ثم وضع يده على الخريطة وقال : هذه كوكبة الدجاجة وتقرب منها كوكبة المرأة المسلسلة ، ثم كوكبة المثلث ، ويقرب من هذه الثلاثة الدب الأكبر ، وفى مقابلة الكوكبات الثلاث المتقدمة من الناحية الأخرى من القطب أرى كوكبة الدب الأكبر وكوكبة ذات الشعور التى فى مقابلة المرأة المسلسلة على خط مستقيم أو شبه مستقيم يمر بالنجمة القطبية .

ورأى أيضا كوكبة الكلب الأصغر وكوكبة الكلب الأكبر ، وهما تقريبا فى مقابلة الجوزاء ، والجانى على ركبتيه من الناحية الأخرى ، وبينهما النجمة القطبية بحيث يكاد يمر خط مستقيم بها وبهن ، هذا هو الذى أريد أن تحدثنى عنه اليوم ، وماذا فى تلك الكوكبات من العجائب ، وهل هناك سدم ، جمع سديم أى سحاب ، ويراد بذلك نجوم بعيدات ظهرت بهيئة سحاب ، فانى أكاد أرى ذلك فيها ، أو أظنه ظنا بغير دليل .

فقلت : أيها الأخ ، رعاك الله ههنا تسع صور تبين ماطلبت ، فأما الصورة الأولى فهى صورة السدم فى الدجاجة ، وهذه صورتها :

(شكل ٧٨) السدم فى الدجاجة

فأما

فأما الصورة الثانية فهى هذه :

[شكل ٧٩]

السديم الأعظم م ٣١ فى المرأة المسلسلة

هذا السديم وهو أظهر المدن النجومية فى الفضاء يزيد بعده قليلا على بعد م ٣٣ (لوحة ٨١) ويستغرق ضوؤه فى الوصول إلينا ٩٠٠٠٠٠ سنة وهو من عظم الاتساع بحيث أن الضوء يستغرق نحو ٥٠٠٠٠ سنة فى اختراقه من جانب إلى جانب

وأما الصورة الثالثة فهى هذه :

(شكل ٨٠)

الحرف الخارج للسديم الأعظم م ٣١ فى المرأة للسلسلة

تبين هذه اللوحة بالتفصيل الركن العلوى اليسارى للسديم المبين قبالة هذه، وهو كما يرى يتألف من نجوم فرادى

وأما

وأما الصورة الرابعة فهى هذه :

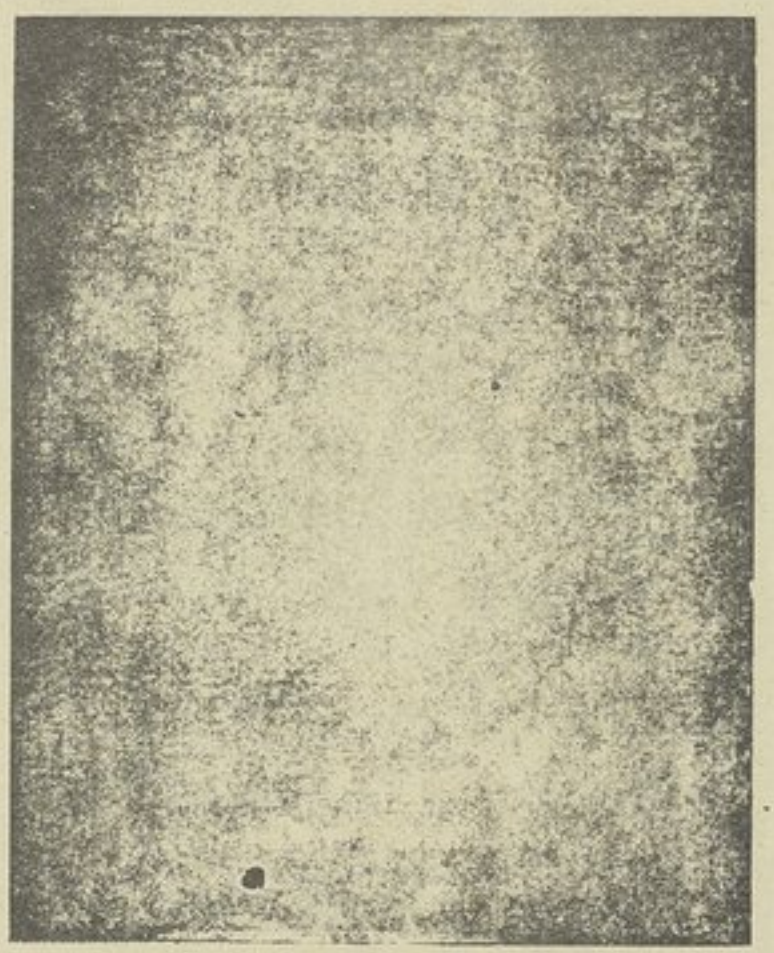

(شكل ٨١)

السديم م ٣٣ فى المثلث

مع أن هذا أقرب كل مافى الفضاء من مدن نجومية فإن ضوءه يستغرق فى الوصول إلينا ٨٥٠٠٠٠ سنة ولا بد من تكبير هذه الصورة حتى تصير قدر أوروبا بأسرها قبل أن يصبح مرئيا فيها جرم قدره مثل قدر الشمس

وأما الصورة الخامسة فهى هذه :

(شكل ٨٢)

السديم م ٨١ فى الدب الأكبر

هذا من أجل ما فى الفضاء من مدن نجومية وهو أول سديم لوحظ دورانه ويستغرق ضوؤه فى الوصول إلينا ١٦٠٠٠٠٠ سنة

وأما

وأما الصورة السادسة فهى هذه :

(شكل ٨٢)

جمع من السدائم فى ذات الشعور

أغلبية الأجرام التى فى هذه الصورة سدائم من البعد عنا بحيث أن ضوءها يستغرق ٥٠ مليون سنة للوصول إلينا

وأما الصورة السابعة فهى هذه :

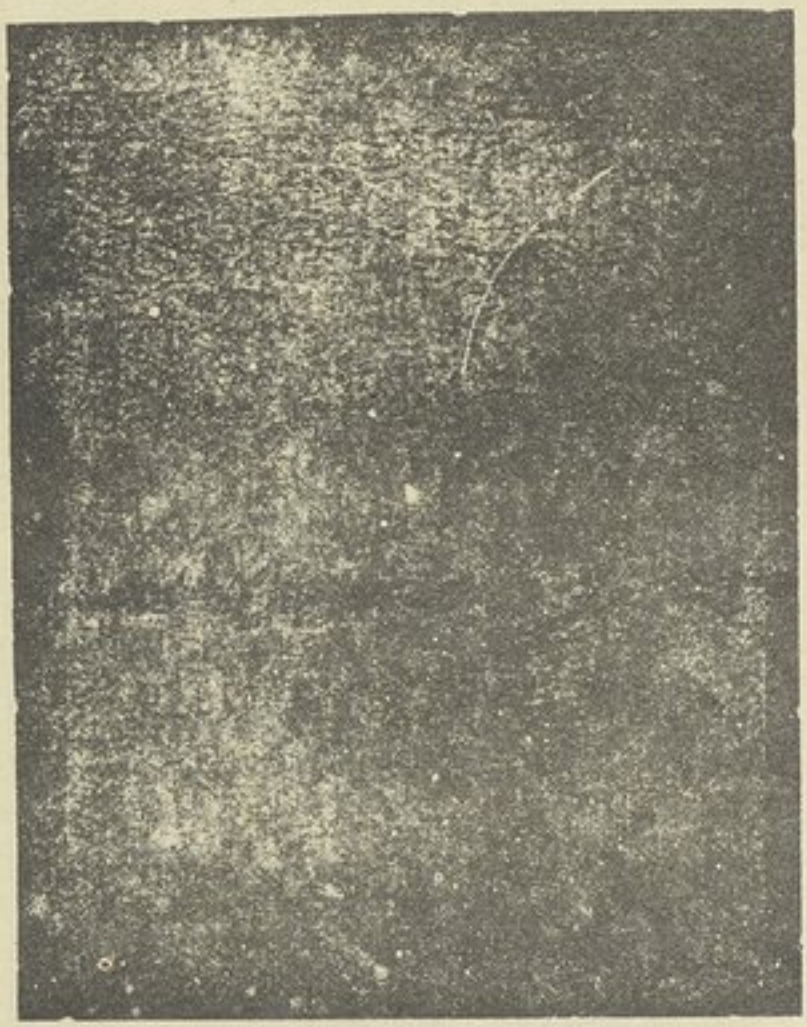

(شكل ٨٤)

أقصى أعماق الفضاء

ونبين هذه اللوحة بعضا من أبعد الأجرام السماوية التى يمكن تناولها بالرصد ، جمع مكون من ١٦٢ سديما فى الفرس الأعظم أغلبها على أبعاد تبلغ ١٠٠ مليون سنة أو أكثر وكل منها يحتوى على مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم

وأما

وأما الصورة الثامنة فهى هذه :

(شكل ٨٥)

المنطقة الوسطى للسديم الأعظم م ٣١ فى المرأة المسلسلة

تبين هذه اللوحة بالتفصيل المنطقة الوسطى للسديم المبين فى لوحة ٣٦

ولا يمكن كشف أى نجم فى الكتلة المنفوشة الوسطى

وأما الصورة التاسعة فهى هذه :

(شكل ٨٦)

السديم م ٥١ فى كلب الصيد

هذا من أقرب السدائم بعد السديمين المبينين فى لوحتى ٣٦ و٣٨ [1] وربما استغرق ضوؤه فى الوصول إلينا ١١٠٠٠٠٠ سنة

فلما نظر صاحبي هذه الصور حار جدا ودهش وقال : عجب هذا السديم الأعظم فى المرآة المسلسلة قد ذكرت أن ضوءه يستغرق فى الوصول إلينا تسعمائة سنة أى أن الضوء الذى يسير من الشمس إلى الأرض .

(١) من كتاب النجوم فى مسالكها

فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية هو نفسه الذى يسير من سديم المرأة المسلسلة إلى أرضنا فى تسعمائة ألف سنة ، ومعنى هذا أن ضوءه الذى وصل إلى أرضنا الآن وسأراه بعينى هذه الليلة قد سافر من تلك الكوكبة إلينا قبل وجود الانسان على سطح الكرة الأرضية ، وإذا كان سفر ضوء الشمس إلينا فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية تستغرق القنبلة فى قطع مسافته ١٢ سنة ويستغرق القطار مدة نحو (٣٥٠) سنة فكيف بضوء هذا السديم الذى يجرى تسعمائة ألف سنة ؟ ثم كيف كان اتساعه يستغرق الضوء فى قطع مسافته خمسين ألف سنة كل هذا عجب فبعده عجب واتساع مسافته هو نفسه عجب وحياتنا كلها عجب ، وأنت حقيقة على حق إذا قلت إنك اليوم لسعيد ، فان الغرام بالعلم ونيله هو السعادة والعلوم الفلكية كانت فى شبابك لديك قليلة . أما هذه فهى بهجة وجمال وإقبال ووصال .

ويقرب من هذا فى العجب والغرابة السديم فى المثلث لأن ضوءه يستغرق فى الوصول إلينا (٨٥٠) ألف سنة وأعجب منهما كليهما السديم فى الدب الأكبر فانه يصل إلينا ضوءه فى مليون وستمائة ألف سنة، ويقرب منه السديم الذى فى كلب الصيد فان نوره يصل إلينا فى مليون سنة ومائة ألف سنة ، وهذه دهشة كبرى ورب الكعبة كيف يكون الدب الأكبر الذى يراه العالم والجاهل فى السماء ويقول الناس عنه انه بنات نعش الكبرى باعتبار أنه أربعة نجوم منه بهيئة النعش ، وثلاث منها بهيئة بنات يبكين على الميت الذى على النعش .

أقول : كيف يكون فى وسط هذه النجوم السبعة كواكب متباعدة ترى لشدة بعدها أنها سحائب وهى فى الحقيقة شموس عظيمة بعدها يحير العقول :

وأعجب من ذلك وأكثر غرابة أن سدائم ذات الشعور يستغرق ضوؤها فى الوصول إلينا (٥٠) مليون سنة ، فهذه مسافة تدهش العقل فليست بالآلاف ولا مئات الآلاف ولا آحاد الملايين ، بل هى عشرات الملايين فضوؤها أخذ يجرى فيها منذ (٥٠) مليون سنه فاذا كانت هذه الصورة تمثل هذه العجب فأرجو شرحها شرحا وافيا على قدر الإمكان لتتجلى الحقائق سارة للناظرين .

(شكل ٨٧)

التسدم (Nebulosity) فى الجبار

« رأس الحصان » جنوب الجبار « دخان مدينتنا النجومية تجليه أنوار مدينتنا النجومية »

شكل ٨٨

(شكل ٨٨)

المجـــرة — ١

تبين هذه اللوحة أبعد أجزاء المجرة فى الجنوب ؛ من قنطورس (فى أعلاها) إلى السفينة (فى أسفلها) والنجمان اللامعان قرب أعلاها فى (الوسط) هما ا ، ب قنطورس وتحتهما زكيبة الفحم (صفحتى ١١٠ ، ١٩٣ من كتاب النجوم فى مسالكها) وإلى يمين هذه الصليب الجنوبى وتحته السديم المحيط بحاء السفينة وفى ربع المسافة إلى أسفل بقرب الحرف الأيمن ترى المجموع الكروى ع قنطورس.

فقلت : جاء فى كتاب [النجوم فى مسالكها] مانصه تحت عنوان تخطيط العالم .

تخطيط العالم

لو أن لامبرت كان مصيبا ، واتضح أن النجوم كلها متساوية فى اللمعان الذاتى ، كصف المصابيح فى الطريق ، لكان علم الفلك أبسط كثيرا مما هو عليه الآن ، لأننا كنا نستطيع أن نستنتج فى الحال بعد النجم من لمعانه الظاهرى ، وأن نخطط العالم بهذه الكيفية نجما فنجما ، لكن إذا أخذنا الأشياء على ماهى عليه فى الواقع فان النجم الخفى الذى نكون ناظرين إليه قد يكون ضوءا كشافا بعيدا جدا ، أوقد يكون يراعة قريبة جدا ، ومن الصعب أن نقول أيهما إذ لا سبيل إلى ذلك إلا بقياس بعد النجم .

وقد رأينا كيف يمكننا قياس أبعاد النجوم بطريقة المساح العادية ، وذلك بملاحظة مقدار تغير أوضاعها تبعا لتنقلنا فى الفضاء ، لكن هذا لاينطبق إلا على قليل من النجوم قريب جدا .

إن أطول سياحة ممكنة لنا فى الكون تبلغ ١٨٦ مليون ميل ، وهى التى نقطعها فى كل ستة أشهر حين تنتقل بنا الأرض من أحد جانبى الشمس إلى الجانب الآخر ، ومعظم النجوم هو من البعد عنا ، بحيث لاينشأ حتى عن هذه السياحة الطويلة تغير محسوس فى اتجاهاته كما نراها ، فنحن فى الواقع أمام معضلة قياس أبعاد الأجرام عن طريق النظر إليها دون أن يسمح لنا بالانتقال من مكان إلى آخر ، فكيف يمكننا فعل ذلك ؟ .

قد رأينا كيف أمكننا ذلك فى حالة صف من مصابيح الطريق بشرط أن نعرف أنها جميعا متساوية فى القدرة الشمعية ، وهذه بعينها هى الطريقة التى نستخدمها فى حالة النجوم . والنجوم بوجه عام مختلفة كثيرا فى القدرة الشمعية ، لكن قد اكتشف حديثا أن طوائف خاصة من النجوم سهلا تعرفها ، لها قدرة شمعية منتظمة تتخذ عيارا ، فلا نكاد نعرف القدرة الشمعية لاحداها حتى تعرف قدرة سائرها ، وعندئذ يمكننا استخدام طريقة « مصابيح الطريق » لتقدير أبعادها : كلما كان النجم أخفى فى رأى العين كان أبعد ، أو بعبارة أدق حتى من هذه : يبعد النجم عنا بقدر ما يظهر لنا أنه بعيد .

وطريقة مصابيح الطريق تفشل بالطبع إذا كان هناك نوع من ضباب أو من مادة حاجبة تتخلل الفضاء وتطفئ النور بعد أن يقطع مسافة خاصة ، إننا لانستطيع فى الليلة ذات الضباب أن نرى فى الشارع إلا عددا قليلا من اقرب الأنوار ، وليس لنا أن نحكم على أبعادها من ضعفها البادى فأضعفها ليس من البعد بالقدر الذى قد نظنه لو لم نكن نعرف أننا نبصره من خلال الضباب . وقد أجريت أبحاث غاية فى الدقة والعناية تبين منها على مايظهر أنه ليس فى الفضاء ضباب كهذا إلا فى جهات قليلة خاصة ، ففى السماء عدد من الرقع السوداء واضحة الحدود مبعثرة هنا وهناك لا نبصر فيها نجوما مطلقا ، أو نبصر البعض القليل الذى يدل لمعانه على أنه قريب منا تماما ، ومن أمثلتها الظاهرة : الرقعة السوداء الحالكة . المعروفه « بزكية الفحم » التى تظهر بالقرب من منتصف شكل ٨٨ .

هذه الرقع تبدو كأنها ثقوب فارغة ، وكانت تؤول بأنها كذلك إذ كان للظنون أنها ثقوب فى المجموعة النجومية ، كان للظنون أنها مجموعة أنفاق توصل من الفضاء الخارجى إلى الأرض ، وانصباب أنفاق كثيرة كهذه على أرضنا الصغيرة لابد أن يكون آثار الاستغراب والعجب إذا ذاك . أما الآن فنحن نعرف أن تلك

الفرج السوداء الفارغة ليست قط أنفاقا ، إنما هى سحب من مادة مظلمة قريبة من موطننا قربا لا بأس به لمنعنا من رؤية ماوراءها من النجوم .

ومجرد تأمل الصور الفتغرافية الحديثة يكفى لاقرار هذا التفسير ، فمثلا الرقعة المظلمة التى يشبه شكلها رأس الحصان فى لوحة ٣٠ لايمكن تفسيرها أبدا بأنها نقق بين النجوم . إننا نرى فى لمحة أنها نوع من عائق عارض .

فإذا استثنينا الجهات القليلة التى نصادف فيها مادة حاجبة من هذا النوع بدا الفضاء الفلكى شفافا تام الشفافية ، يسبح فيه ضوء النجوم غير مقطوع ولا ممنوع إلا بتأثير البعد . وإذن فالقول عن أى طائفة خاصة من نجوم متساوية القدرة الشمعية بأن النجم منها يبعد عنا بقدر مايظهر لنا أنه بعيد قول صحيح لاغبار عليه ، وأعظم نجوم هذا النوع إمتاعا للباحث طائفة تعرف بالمتغيرات القيفاوية .

المتغيرات القيفاوية

ضوء معظم النجوم فى غاية الثبات ، لكن هناك نجوما قليلة نادرة يتقلب ضوؤها باستمرار من القوة إلى الضعف ، ثم من الضعف إلى القوة كما يتغير ضوء مصباح الغاز إذا وقف إنسان يزيد فى فتح صنبوره وينقص ، ولقد لوحظ منذ عهد بعيد أن نجما اسمه [دال قيفاوس] يتقلب ضوؤه بطريقة خاصة غريبة جدا كما لو كان الصنبور يغلق بالتدريج ثم يفتح فجأة باندفاع ، والنجم يكرر دورة تغيراته هذه بانتظام تام كل خمسة أيام وثلث يوم ، وهناك سحابة من نجوم بعيدة اسمها : السحابة المجلية الصغرى (انظر شكل ٣١ (١)) تحوى مجموعة كاملة من نجوم تشابه هذا النجم تماما تبدو جميعا متساوية اللمعان ، ولما كانت كلها على بعد واحد فلا بد أن تكون متساوية القدرة الشمعية ؛ وقد وجدت نجوم أخرى من نفس النوع بالضبط قريبا من موطننا لدرجة تمكننا من قياس أبعادها بطريقة المساحين العادية ، وبذا نستطيع بالطبع أن نحسب قدرتها الشمعية الحقيقية ، وقد وجد أن هذه أيضا كلها متساوية القدرة الشمعية ، وإنا لنلخص مقدارا كبيرا من البحث الفلكى حين نقول : إن كل نجم يسلك مسلك دال قيفاوس يكون مثله فى القدرة الشمعية .

وهناك نجوم أخرى تتميز بتقلبات ضوئية من نفس هذا الباب وخمسة تدريجية يتبعها استرداد اللمعان سريع ، لكن فترات تقلبها تختلف عن خمسة الأيام والثلث التى لدال قيفاوس . هذه النجوم وأمثالها تكون كلها طائفة تعرف بالمتغيرات القيفاوية ، كذلك قد وجد أن جميع النجوم التى لها فترة تقلب واحدة ، مهما بلغت لها قدرة شمعية واحدة نكتشفها كما فعلنا من قبل بحساب القدرة الشمعية لنجم مثلها قريب من موطننا فنحن نستطيع أن نعرف القدرة الشمعية لأى متغير قيفاوى فى السماء بملاحظة فترة تقلبه ، فاذا عرفناها استطعنا أن نستنبط بعده من لمعانه الظاهرى ، هذه النجوم كالمنارات فى محيطات الفضاء الواسعة ؛ نعرفها فى لمحة ولا تخطئها نعرفها بالتقلبات الخاصة بأضوائها ، وبمعرفة قدرتها الشمعية يمكننا استنتاج أبعادها فى الحال .

هذا يمدنا بطريقة نفيسة جدا لسبر غور الفضاء كله أو على الأقل غور تلك الأجزاء منه التى نستطيع أن نرى فيها متغيرات قيفاوية ، وقد استخدم الدكتور [شبلى] المدير الحالى لمرصد هارفرد هذه الطريقة ، بعد اكتشافها بقليل ، فى قياس أبعاد بعض جموع من النجوم تعرف [بالجموع الكرية] يحتوى كل منها بضع مئات آلاف من النجوم .

(١) أى فى كتاب النجوم فى مسالكها .

الجموع الكرية

تصور سربا من النحل مستقرا فى الهواء الطلق تجده يكون كتلة كرية عند المركز يطن حولها عدد عظيم من النحل يكون شبه جو للسرب الأصلى ، فاذا استعضنا عن كل نحلة بنجم كان أمامنا ما يمثل مرأى الجمع الكرى تمثيلا جيدا ، كتلة مستديرة من النجوم أفرادها أكثر ما تكون تقاربا عند المركز وتفرقا عند المحيط ، وترى فى لوحة ٣٢ نموذجا حسنا من هذه الجموع .

ويبلغ المعروف من هذه الجموع الكرية نحو مائة ، وليس هناك جموع جديدة تستكشف فى الوقت الحاضر ؛ ولم يكشف شىء منها منذ قرن أو نحوه ، وإذن يصح لنا أن نفرض أنه لم يبق منها شىء يستكشف ، فنحن قد عرفناها جميعا ، وهى فى أغلبها تبدو أجراما ضعيفة النور جدا فى السماء لا يرى منها بالعين المجردة إلا خمسة أو ستة .

كل هذه الجموع تحوى أعدادا عظيمة من النغيرات القيفاوية ، وهذا يمكننا من تقدير أبعادها بدقة تذكر ، ونتائج تسترعى وتبهر ، حتى أقرب هذه الجموع الكرية قد تبين أنه من البعد السحيق عنا بحيث يستغرق ضوؤه فى الوصول إلينا نحو ١٨٤٠٠ سنة ، فنحن لا نراه كما هو عليه الآن ولا فى المكان الذى هو فيه ، وإنما نراه حيث كان وكيف كان منذ ١٨٤٠٠ سنة أى قبل أن يتمدين الانسان بزمن بعيد نراه بضوء بدأ رحلته الطويلة إلينا عندما كانت الأرض لاتزال مغطاة بالغابات الأولى الملتفة مكتظة بالوحوش الضارية حين كانت الزراعة مجهولة ، وكان الانسان عائشا على أغشم أنواع القنص وصيد السمك ، فبينما كان هذا الضوء سائحا يخترق الفضاء فى طريقه إلينا حدث كل ما سجل من تاريخ الجنس البشرى : ستمائة جيل من البشر ولدت وعاشت معيشتها ثم ماتت ، وامبراطوريات قامت ثم اضمحلت وسقطت ، هذا الوقت كله استغرقه الضوء المنبعث حتى من أقرب الجموع الكرية استغرقه للوصول إلينا مخترقا الفضاء بسرعة تزيد على ١١ مليون ميل فى الدقيقة ، هذا الجمع الكرى القريب يحوى مئات الآلاف من النجوم ، منها عدد كبير أسطع كثيرا من الشمس ، ومع ذلك فانها من البعد بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة إلا ضعيفة خافية .

فلو اتفق أن كان فى سكان هذا الجمع فلكيون يدرسوننا كما ندرسهم لرأوا مسار الأرض السنوى حول الشمس فى حجم رأس الدبوس على بعد ٤٠٠ ميل ، وهذا يرينا عبث محاولة استخدام طريقة المساحين القديمة فى قياس أبعاد النجوم عند ما تكون المسافات بهذا العظم ، فالكائنات التى قصارى جهدها الزحف على رأس دبوس لا يصح أن تتوقع رؤية الأجرام التى على بعد ٤٠٠ ميل تغير مواضعها بقدر محسوس

وقد وجد [شبلى] زيادة على ذلك أن أعظم الجموع يبلغ بعده عنا نحو عشرة أمثال بعد أقربها ، فبينما يستغرق الضوء نحو ١٨٤٠٠ سنة فى الوصول إلينا من أقرب جمع إذا به يستغرق فى الوصول من أبعدها نحو ١٨٥٠٠٠ سنة ، كذلك قاس [شبلى] أبعاد الجموع الواقعة بين هذين الطرفين وخطط مواضعها فى الفضاء ، وقد تبين أن نظام توزيعها العام فى الفضاء يشبه إلى حدما توزيع الزبيب فى قرصة الزبيب ، وبعبارة أخرى أنها موزعة بانتظام لا بأس به فى فضاء شكله كالقرصة فضاء دائرى القطع سمكه أقل من طوله وعرضه .

إن الظاهر لنا الآن ، وإن لم يبلغ بعد مبلغ اليقين أن شبلى كان بتخطيطه الجموع الكرية بهذه الكيفية يحل معضلة أكبر مما كان يظن فى ذلك الوقت ، كان يحل معضلة نظام توزيع النجوم فى الفضاء لعل أول ما نزع إليه الانسان الأول بغريزته هو أن يفرض أن النجوم تمتد ثم تمتد إلى الأبد ، هذا

أبسط فرض وأقربه من وجوه كثيرة أن يخطر بالطبيعة على البال ، ومع ذلك فهناك اعتبارات كثيرة جدا تبين أن هذا الفرض لايمكن أن يكون صحيحا ، نذكر منها واحدا لو أن النجوم كانت ممتدة إلى الأبد الآبد مرتبة كترتيبها بالقرب من الشمس لكان من المؤكد أننا كنا حيثما وجهنا نظرنا لابد أن نعثر إن عاجلا وإن آجلا على نجم ، وإذن كانت تبدو السماء كلها وهجا من الضوء منتظما غير منقطع ، كما تبدو السماء كلها وقت عاصفة الثلج أو التراب كأنها لوح واحد من الثلج أو التراب منتظم غير منقطع ، ولما كان الجزء الأكبر من السماء أسود بالليل فلنا أن نثق بأن النجوم لاتمتد إلى مالا نهاية ، بل لابد بعد أن نذهب فى الفضاء إلى بعد معلوم أن تأخذ النجوم فى التناقص ثم فى النهاية تختفى ، وإذا ضربنا صفحا عن المناطق الخاصة التى ورد ذكرها والتى تحول فيها بيننا وبين ضوء النجوم رقع من مادة مظلمة ، فان السماء لاتظهر سوداء إلا حيثما نكون قد اخترقنا بنظرنا كل المجموعة النجومية ونفذنا إلى الفضاء الخالى الذى وراءه .

المجرة

ومع ذلك فليست سماء الليل كلها سوداء ، فاننا نرى فى أى ليلة من الليالى الصافية غير المقمرة قوسا عظيما من النور اللؤلؤى الضعيف يعبر السماء من أفق إلى أفق ، ولسنا نستطيع أن نعرف ماذا يجرى له تحت الأفق إلا إذا سحنا حول الدنيا ، عندئذ نجد نهايتيه قد اتصلتا فى السماء الجنوبية مكونة بذلك دائرة عظيمة لانهاية لها من النور تمر حول السماء كلها ، حزام من النور يحيط بالدنيا له اسم واحد فى كل لغات العالم تقريبا هو المجرة أو الطريق اللبنى(١) .

وقد خفيت طبيعة هذا القوس من النور لاعلى الشعوب الأولية وحدها ، بل على الفلكيين الأقدمين أيضا ، وقد أطلق عليه الكسيك اسما شعريا إذ سموه [الشقيقة الصغيرة البيضاء لقوس قزح المتعدد الألوان] وكان فى معظم الدنيات موضوع قصص كثيرة مأثورة ، وقد تكون متذكرا صورة تنتورتو [أصل المجرة] فى المتحف الأهلى (٢) (انظر الصورة المصدر بها كتاب النجوم فى مسالكها) .

ثم جاءت سنة ١٦٠٩ وفيها صوب [غليليو] نحو المجرة مرقبه المستحدث ، فكشف معماها فى الحال إذ ظهر أن المجرة ليست إلا سحابة من نجوم خفية مبعثرة كالتراب الفضى الدقيق على البساط السماوى القطبى انظر لوحة ٢٩ المقابلة لصحفة ١١٠ ولوحة ٣٣ المقابلة لصفحة ١٢٢) من كتاب [النجوم فى مسالكها] كذلك بين مرقب غليليو أن الجزء الأكبر من السماء حتى فى المجرة نفسها سواد ، فالنجوم ليست سوى حوادث على وراء أسود .

ولا يمكن أن ينشأ هذا السواد فيما عدا الحالات التى تعرض فيها قطع من المادة تعوق النظر ، إلا عن كون بصرنا قد اخترق النظام النجومى كله إلى ماوراءه من فضاء خلاء ، وإذن فنحن نصل فى النهاية إلى آخر النجوم حتى فى اتجاه المجرة ، ومع ذلك فالنجوم التى يمكن رؤيتها فى هذه الجهة أكثر جدا من التى يمكن رؤيتها فى أية جهة أخرى كما أن النجوم فيها تبدو أضعف نورا ، وفى ذلك إشارة إلى أنها أبعد . إن من الواضح أننا نستطيع أن نسافر فى هذا الاتجاه أبعد كثيرا مما نسافر فى أى اتجاه آخر قبل أن نصل إلى نهاية النجوم !

---

(١) The Milky way

(٢) المتحف الأهلى للفن أشهر متاحف الفنون بلندن .

عجـــلة النجوم

وقد وصل السير [وليام هرشل] إلى هذه النتيجة منذ ١٢٠ سنة ، فقد كان يظن أن النجوم مرتبة بحيث تشبه عجلة عربة هائلة ، والشمس في موضع قريب من سرة هذه العجلة ، وقد فرض أن النجوم التي في حافة العجلة هي المجرة ، ونسب خفاء النجوم في هذا الاتجاه إلى بعدها العظيم ، وفسر كثرتها بأننا إذا نظرنا في اتجاه المجرة لم نر نجوم الحافة فقط ، ولكن أيضا كل النجوم الموجودة على امتداد برمق العجلة

وقد أبدت الأبحاث الفلكية الحديثة استنتاجات السير [وليام هرشل] من عدة وجوه ، لكنها تدل على أنه كان مخطئا في أمر واحد ، فالشمس ليست كما ظن عند سرة عجلة النجوم الهائلة بل ولا قريبة منها وإنما تقع على البرمق بعيدة لحد ما عن المركز ، وربما كانت قريبا من ثلث المسافة بين السرة والحافة ، ذلك لأننا نعرف الآن أن تلك العجلة الهائلة من النجوم تدور في الفضاء لاحول الشمس ولا حول أية نقطة قريبة منها ، وإنما حول سرة على بعد منا هو من العظم بحيث أن الضوء يستغرق للوصول منها إلينا نحو ٥٠٠٠٠ سنة ، هذه السرة تقع في اتجاه يكاد ينطبق تمام الانطباق على اتجاه مركز القرصة التي تصورنا أنها تضم نظام الجموع الكرية ، وكما اتفقا في الاتجاه يتفقان تقريبا أيضا في البعد ، كذلك ينطبق مستوى العجلة ، وهو بالطبع المستوى الذي تقع المجرة فيه على المستوى الأوسط للقرصة تمام الانطباق ، فان نصف الجموع الكرية واقع في ناحية من المجرة ، والنصف الآخر في الناحية الأخرى .

وهذا يثبت إثباتا لايكاد يتطرق إليه شك أن عجلة العربة المستديرة التي قال بها السير [وليام هرشل] هي في صميمها نفس القرصة المستديرة التي مثلنا بها ترتيب الجموع الكرية في الفضاء ، فالنجوم تشغل نفس مناطق الفضاء التي تشغلها الجموع الكرية ، وينتهيان تقريبا معا إذا سافرنا خلال الفضاء . إن هناك بينهما فرقا واحدا هو أن عجلة العربة التي تمثل النجوم لاتبلغ سمك القرصة التي تمثل الجموع الكرية ، وربما كان الأحسن أن نضع للمسألة الوضع الآتي .

لندهن القرصة بالزبد ، لنبدأ بقطعها نصفين أعلى وأسفل ثم ننشر بينهما طبقة سميكة من الزبد ثم نردهما إلى مكانهما ، عندئذ تمثل الزبد النجوم ويمثل زبيب القرصة الجموع الكرية ، وليست الشمس كما ظن السير [وليام هرشل] قرب وسط القرصة ، صحيح أن مافوقها من القرصة قدر ماتحتها بحيث تقع وسط طبقة الزبد لكنها تقريبا في منتصف المسافة بين المركز والحافة .

هذا النموذج على ما فيه من الابتذال أبسط ما أستطيع أن أبتكره لشرح النظام الذي تقوم عليه عظمة جلال السماء بالليل ، ولكي ننتقل من النموذج إلى الحقيقة يتحتم علينا أن نكبر ثم نكبر ثم نكبر حتى تصير كل هباءة دقيقة من الفضاء ملايين الأميال ، يجب علينا أن نحل مكان الزبيبة جما من مئات الآلاف من النجوم ونحل مكان طبقة الزبد سحابة من ملايين كثيرة من النجوم ، وأن ندع كل ما عدا ذلك يضمحل إلى السواد القطيفي للفضاء الخلاء أو على أكثر تقدير إلى ذرات متناثرة متفرقة أو إلى بقايا ذرات مهشمة وسحب من التراب ، فاذا استطعنا أن نحمل خيالنا على إجراء كل هذا التبديل والتغيير ، فستكون النتيجة أي شيء إلا المبتذل ، ستمدنا بمفتاح لأجل منظر رائه أو تراه عين الانسان وستمكننا من أن ننظر إلى السماء العجيبة المترامية فنفهم من معانيها مالم نكن نفهم .

سماء الليل

وحتى مع هذا يجب ألا نتوقع أن نرى بقية السماء كلها منثورة أمام أعيننا حينما نقف فى العراء ننظر إلى سماء ليلة صافية ، فالمسافات فى الفضاء من العظم بحيث أن أشد النجوم لمعانا لايؤثر فى أعيننا المجردة إلا إذا تصادف أن كان قريبا منا نسبيا ، إننا لن نستطيع رؤيتها بغير مساعدة آلة ضوئية مالم يكن فى إمكان الضوء المنبعث منها أن يصل إلينا فى أقل من نحو ثلاثة آلاف سنة ، فاذا تذكرنا أن بعد حتى أقرب الجموع الكرية إلينا قدر ذلك ست مرات أمكننا أن نقول بأن كل النجوم التى نستطيع أن نراها فرادى [كنجوم] تقع فى جزء صغير جدا من الفضاء محيط بالشمس ، جزء من قرصة الزبيب لايزيد حجمه فى ذاته كثيرا على زبيبة متوسطة الحجم ، ولو أن كل نجم خارج عن تلك المنطقة الصغيرة من الفضاء اندثر فجأة لما استطاعت أعيننا المجردة أن تدرك اختفاء نجم واحد . أما المجرة فستختفى عندئذ لأنها مكونة من الأضواء المجتمعة المنبعثة من عدد كبير من نجوم هى أبعد جدا من أن نرى فرادى ، كأنها أنوار مدينة بعيدة ، وأما الوراء العام للسماء ، فستزداد ظلمته قليلا لأنه الآن تغشاه غشاوة من نور خفى لايكاد يحس منبعث من نجوم سحيقة هى أيضا أبعد من أن نرى فرادى ، ولن تدرك أعيننا المجردة تغيرات عدا هذه ، فكل النجوم التى نراها فرادى ستظل كما كانت لأنها جميعا قريبة جدا من موطننا إذا قسنا المسافات بالمقاسات الفلكية .

وينتج عن ذلك أن المنظر الذى نراه فى السماء ليلا ينقسم إلى قسمين متميزين : نرى أولا الكوكبات التى تتألف من وجهة مكونة من نجوم قريبة جدا : أى قريبة بالمقياس الفلكى ، ونرى ثانيا المجرة وهى وراء مكون من نجوم هى من البعد عنا بحيث إنا لانراها إلا جماعات الكوكبات والمجرة ، هذان هما كل ما نبصر ، وفى المسافة الوسطى بين هذين ملايين من النجوم لا نراها مطلقا لأنها أبعد من أن نرى نجوما فرادى ، وأقل من أن تظهر لنا سحابة متصلة من الضوء ، إنما قصاراها أن تنشر ضوءا قليلا على ذلك الوراء المظلم من السماء .

كل هذه المجموعة النجومية المجموعة التى على شكل مجلة حافتها المجرة تسمى عادة [المجموعة المجرية] .

عدد النجوم

إذا أتيح لنا أن نرى كل نجوم المجموعة المجرية نجوما فرادى فكم يكون عددها ؟ قد يبدو هذا السؤال أول الأمر أبسط الأسئلة التى على الفلكى أن يجيب عنها ، إذ قد يظن أن ليس عليه إلا أن يعدها من خلال مرقبه ، لكن للؤسف أن الأمر ليس بهذه السهولة ، فانه كلما كبر المرقب ازداد عدد النجوم التى نراها من خلاله . إن أكبر مرقب أنشىء للآن يرينا نحو ١٥٠٠ مليون نجم ، عدد سكان الأرض الذين يزيد سنهم على خمس سنوات ، غير أن مرقبا يصنع الآن أكبر من هذا نكاد نجزم بأنه سيكشف لنا عن نجوم كثيرة غير هذه ، ولن نستطيع على الرغم من ذلك أن نرى النجوم كلها أو جلها . لا ! إن من العبث أن نحاول عد النجوم ، إنما هناك طريق واحد لمعرفة عددها جميعا ، وذلك هو وزن النجوم كلها معا .

وقد يبدو منا جنونا أن نتكلم عن وزن نجوم لاتتمكن حتى من رؤيتها لكن هذا هو بالحرف الواحد ما يفعله الفلكيون حديثا .

لقد مكث الفلكيون طويلا يساورهم بعض الشك فى الكيفية التى أمكن النظام النجومى بها أن يحتفظ بشكله كقرص أو عجلة ، إذ كان من الصعب أن ندرك لماذا لم تستطع قوة جاذبية النجوم التى عند السرة أن تجذب النجوم التى عند الحافة حتى تسقط كلها معا عنقودا واحدا عند المركز ؛ هذا اللغز قد حل الآن ، فالعجلة تحتفظ بشكلها لسبب بسيط هو أنها تدور حول السرة ، وهى فى هذا تشبه المجموعة الشمسية وإن على مقياس هائل ، والمجموعة الشمسية أيضا على شكل قرص أو عجلة وليس هناك سر فى كيفية احتفاظها بشكلها ، إنها تحتفظ بشكلها لأن السيارات تدور حول الشمس ولو بطل دورانها لسقطت نحو الشمس ، وليس يعصمها من هذا المصير فى الواقع إلا حركتها حول الشمس ، والسيارات الأقرب إلى الشمس مضطرة للحركة بسرعة أكبر من سرعة غيرها لأن قوة جاذبية الشمس التى على هذه السيارات أن تجاهد ضدها أكبر ما تكون حيث توجد تلك السيارات ، كذلك الحال فى مجموعة النجوم الأكبر كثيرا من المجموعة الشمسية فحركتها هى التى تنجيها من السقوط إلى السرة ، وقوة الجذب أكبر ما تكون قرب السرة ، ولهذا كان أقرب النجوم إلى السرة أسرعها حركة ، والشمس التى على شئ من البعد عن السرة تتحرك بسرعة تقرب من ٢٠٠ ميل فى الثانية ، وهى سرعة قدر سرعة الاكسبريس ١٠٠٠٠ مرة ، وبعد الشمس عن السرة كبير لدرجة أنها على الرغم من تحركها بهذه السرعة ، فان رحلتها حول السرة ربما استغرقت مائتي مليون أو ثلثمائة مليون سنة .

هذه الأرقام ليست مضبوطة قط ، فنحن لم نعلم للآن بأى وجه من وجوه الدقة مقدار بعدنا عن السرة التى ندور حولها وإن كنا أكثر علما وأحسن إحاطة بالاتجاه الذى تقع فيه هذه السرة ، إنها بالطبع لا بد واقعة فى المجرة ، ويكاد يكون من المؤكد أنها واقعة فى المنطقة المبينة فى لوحة ٣٣ بالقرب من وسطها على الراجح .

والآن نجد أن وسط هذه المنطقة كان معروفا من زمن بعيد بأنه أغنى جزء فى المجرة ، ولما كان المتوقع أن يبلغ تكاثف النجوم أشده حول سرة العجلة ، وكان الواجب على أى حال أن نبصر أعمق للمعمور بالنجوم إذا نظرنا فى اتجاه السرة إلى الحافة وراءها ، لم يكن من المستغرب أن نجد السرة واقعة فى الجزء الغنى بالنجوم من المجرة .

وأغنى الأجزاء كلها بالنجوم هى السحابة النجومية العظمى فى برج الرامى ، هذه السحابة تقع قريبا من وسط لوحة ٣٣ وترى بتفصيل أعظم لوحة ٣٤ وهناك عدد عظيم من أبحاث متنوعة جدا كلها تؤكد لنا باجماع عجيب أن سرة العجلة العظيمة واقعة فى هذه السحابة النجومية أو قريبا منها ، ومن الراجح جدا أنها واقعة وراء رقعة المادة المظلمة الحاجبة التى تشغل النصف الأيمن من اللوحة ، وإذا كان الأمر كذلك فلن نتمكن أبدا من رؤية السرة التى تدور حولها العجلة العظيمة .

إن أبسط ما نستطيع أن نتخيل عليه حركة النجوم هو أن نتصور مسار كل نجم ينحنى انحناء مستمرا نحو سرة العجلة بفعل قدة جذب شمس ما مركزية هائلة ، ومع ذلك فالمرجح جدا أن مثل هذه الشمس المركزية غير موجودة ، ولو استطعنا أن ننفذ ببصرنا الى ماوراء السحب المظلمة من المادة الحاجبة مارأينا على الراجح أكثر من جمع كثيف من النجوم العادية ، إن أشبه الأمور بالواقع هو أن تكون النجوم يمسك بعضها بعضا بقوة التجاذب بينها كما يمسك أحد نجمى المجموعة الثنائية الآخر ، وأنها ليست تحت سلطان كتلة مركزية كبيرة واحدة .

ومتى عرفنا الانطلاقات التي تتحرك بها النجوم حول السرة استطعنا أن نزن مجموعة النجوم كلها كما

استطعنا أن نزن الشمس عندما علمنا كيف تتحرك السيارات حولها ، إن كل نجم واقع لا تحت تأثير قوة جذب النجوم التي في السرة فحسب ، ولكن تحت تأثير جذب مجموعة النجوم كلها ، وبذا نستطيع أن نوجد لا وزن نجوم السرة فحسب بل وزن نجوم العجلة كلها ، ولما كنا نعرف أن متوسط وزن النجم قدر وزن الشمس تقريبا أو ربما كان أقل قليلا ، فإنا نستطيع أن نقدر عدد النجوم الكافي لتكوين عجلة العربة .

ولا حاجة بنا لأن نقول إنه ليس في استطاعتنا تقدير العدد بدقة كبيرة ، وإن من المؤكد تقريبا أنه أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون : أي أنه يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجما مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أمثاله أو خمسة أمثاله .

وليس من السهل إدراك معاني مثل هذه الأعداد ، فلننظر أولا كم نجما في ليلة تامة الصفاء نستطيع أن نراه بأعيننا فقط دون استخدام أي مرقب ، إن النجوم تبدو فوجا عظيما ، وإذا طلب إلى معظم الناس أن يحدسوا عددها فسيقولون مائة ألف أو عشرين مليونا أو عددا مثل هذا ، لكن الواقع أن أقوى بصر وأحده إنما يستطيع أن يرى نحو ٣٠٠٠ وهو عدد يزيد قليلا على عدد حروف الطبع الموجودة في صفحتين من هذا الكتاب .

تصور الآن أن كل واحد من الثلاثة الآلاف نجم (كذا) التي يمكننا رؤيتها قد اتسع وامتد حتى صار سماء كاملة جديدة مملوءة بالنجوم ، هذه الأعجوبة من أعاجيب التخيل إذا قدرنا عليها لا تعطينا إلا تسعة ملايين نجم فقط ، وهذا لا يزال كسرا ضئيلا من عدد نجوم السماء كلها ، إنه يساوي عدد الحروف التي في صفحات نحو أربعين كتابا كل منها في حجم هذا الكتاب ، ولكي نتخيل المجموع الكلي لنجوم السماء يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوي على الأقل نصف مليون كتاب ، كل منها مثل هذا الكتاب بجميع حروف الطبع التي في جميع صحف كل كتب هذه المكتبة عددها مساو تقريبا لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة في الدقيقة مدة ثمان ساعات في كل يوم فلا بد لنا من ٧٠٠ سنة لقراءة هذه المكتبة عن آخرها ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة : أي ٢٥ في الثانية لاستغرق عدنا النجوم كلها ٧٠٠ سنة وأرضنا ذيل ضئيل لنجم من تلك الأفواج المترامية لنجم لا يكاد يبين ، فهي أقل ، أقل كثيرا جدا من نقطة نون في مكتبتنا ذات نصف مليون مجلد ، وكان الأولى أن نشبهها بهباءة من التراب المحبوس بين صفحتين هباءة لا ترى إلا بالمجهر ، وهذه الهباءة من التراب هي التي كان يظن سكانها من نحو ٣٠٠ سنة أنها مركز العالم كله ، وأن النجوم الأخرى تدور جميعها حولها ، بل لم تخلق لأي غرض سوى أن تدور حولها ، وترسل قليلا من الضوء إليها من آن لآخر إذا غابت الشمس أو غاب القمر ، فالآن نبدأ ندرك مقدار تفاهة موطننا في الفراغ في الواقع ، ومع ذلك فالجزء الأكبر من القصة لا يزال ينتظر من يرويه كما سترى في الفصل التالي .

الفصل السابع

بعيدا في أعماق الفضاء

قد رأينا كيف كان طبيعيا حين كان المعروف عن الفلك قليلا أن تتصور أن النجوم تمتد إلى مالا نهاية بحيث أننا مهما توغلنا في الفضاء وتحسسنا فإنا نصل إلى نجوم بعد نجوم ، وقد كان شأننا في ذلك شأن

الطفل الذى ينشأ فى المدينة فهو يتصور أعمدة المصابيح ممتدة بلا انقطاع ، ومع ذلك فنحن نعلم الآن أننا إن توغلنا فى الفضاء مسافة كافية وصلنا إلى مناطق فيها تبدأ النجوم تتضاءل فى العدد ثم تختفى كلية ، عندئذ نكون قد توغلنا فى أعماق الفضاء إلى ماوراء المجرة . إن النجوم تشبه أنوار مدينة كبيرة لكن ليس هناك مدينة مهما كبرت تمتد إلى غير انتهاء ، وإذا نحن توغلنا فى السير توغلا كافيا فسنخرج من المدينة ونبلغ فى آخر الأمر العراء المظلم الذى يحيط بها .

على أن هذا ليس هو القصة بأكملها ، فنحن الآن نعرف أن مجموعة النجوم التى تشبه العجلة والتى نحدها المجرة ليست مجموعة النجوم الوحيدة فى الفضاء ، إن هناك وراء المجرة على بعد شاسع منها مدنا أخرى لكل مدينة منها نظامها الخاص من الأنوار ، فالعراء المظلم المحيط بمدينتنا نحن ليس نهاية كل شىء إذ لو سمح لنا على التغلغل فيه زمنا كافيا لوصلنا فى الوقت المناسب إلى مدينة أخرى أنوارها نجوم شبيهة بالنجوم المحيطة بشمسنا والآن أشرح لك الدليل على هذا القول .

حينما نبتعد عن البر موغلين فى البحر لانبصر الأنوار فى إحدى مدن الساحل نقطا من الضوء متميزة لأنها تندمج كلها معا ، فتكون مايشبه سحابة من الضوء مختلطا بعضها ببعض ، فاذا مااقتربت بنا السفينة من الساحل بدأنا نبصر الأنوار فرادى ، نبصر أكثرها لمعانا أول الأمر ثم نبصر كذلك أضعفها فيما بعد ، وهذا هو الشأن بالنسبة للمدن النجومية البعيدة المتوغلة فى الفضاء ، فنحن وإن كنا لم نقترب منها يصح أن نقول إن الزيادة المستمرة فى قوة مراقبنا تقربها منا ولذا قد بدأنا فى السنين القليلة القريبة نبصر أضواءها فرادى ، ونتعرفها على ماهى عليه مدنا من النجوم كمدينتنا ، لكن طبيعتها هذه كانت متوقعة من قبل أن تعرف بالتحقيق بزمن طويل . ففى سنة ١٧٥٥ وصفها الفيلسوف [كانت] بأنها [مجموعات من نجوم كثيرة تبدو لنا لبعدها كأنها لاتشغل إلا حيزا هو من الضيق بحيث أن الضوء الذى لايمكن أن يحس من كل منها على انفراد يصل إلينا لكثرتها البالغة ومضة مستمرة باهتة .

وإذ كانت المدن لم تبد إلا سحبا ضعيفة من الضوء فقد سميت [سدائم] وهى تعريب كلمة لاتينيه معناها ضباب أو سحب ، وليست كل السدائم مؤلفة من طوائف من النجوم ، فالسدائم الحقيقية نوعان متميزان يمكن تميزها بأشكالها ، فسدائم النوع الأول منتظمة الشكل أو قريبة جدا من ذلك . أما سدائم النوع الثانى فشكلها لانظام فيه مطلقا ، وهى بلا شك أبلغ الأجرام أثرا فى نفس الناظر إلى السماء بمرقب ، ولا يرجع ذلك إلا لقربها منا كما يبدو القمر أبلغ أثرا فى النفس من منكب الجوزاء ، وهى تبدو عادة قريبة الشبه بكتل الدخان السائبة كتلك التى ترى متصاعدة من بيت أو كومة تبن شبت فيها النار ، وما هى فى الواقع إلا مايصح وصفه بأنه دخان مدينتنا النجومية تضيئه أنوار مدينتنا النجومية هى تنف وسحب من التراب والغاز المضىء ممتدة من نجم إلى نجم داخل حدود المجر ، مكونة رقعا منيرة ، ورقعا مظلمة على السماء كالتى يكونها على السماء النار العادية ولهيبها .

وقد سبق أن عرضنا عليك فى لوحة ٢٧ (صفحه ٨٦) ولوحة ٣٠ (صفحه ١١١) مثلين من هذا النوع من السدائم كلاهما فى كوكبة الجبار وترى فى لوحة ٣٥[1] مثلا ثالثا فى كوكبة الدجاجة .

السدائم العظمى النائية

والنوع الآخر وهو السدائم المنتظمة الشكل عبارة عن المدن النائية من النجوم ، وهى من البعد بحيث أنها تبدو قليلة الأثر فى النفس قلة عجيبة إذا نظرنا إليها مباشرة ولو من خلال مرقب قوى فان ضوءها الخفى

(١) هذه اللوحات المشار إليها فى نفس كتاب النجوم فى مسالكها وهذه الأرقام العددية فيه وبعضها هنا فى الكتاب .

لايكاد يؤثر فى أعيننا إلا قليلا، وألمعها جميعا هوالسديم الأعظم فى كوكبة المرأة المسلسلة [انظر لوحة ٣٦] وصفه الفلكى [ماريوس] بأنه يبدو [كضوء شمعة يرى من خلال بوق] ولكى نفهم ماهى هذه السدائم لابد لنا من أن نمكن ضوءها من التأثير فى لوحة فتغرافية ساعة بعد ساعة ، بل ربما ليلة بعد ليلة ، فاذا فعلنا ذلك أخذت بعض الأضواء الفردية المنعزلة تبرز من بين ضوء السدائم العام [انظر لوحة ٣٧] ويتبين أن هذه الأضواء نجوم ، ونحن نعرف أنها نجوم لأن كثيرا منها متغيرات قيفاوية من غير شك ، تبدى لنا عن نفس الخصائص والتقلبات الضوئية المألوفة التى تبدى لنا عنها المتغيرات القيفاوية الأقرب إلى موطننا ، وهذا لنا من سعادة الجد لأننا كما سبق أن رأينا نستطيع أن يقدر بعد أى متغير قيفاوى من لمعانه البادى أو ضعفه والمتغيرات القيفاوية التى فى السدائم تظهر كلها ضعيفة جدا ، وإذ كنا نعرف أنها فى ذاتها نجوم شديدة التألق فان هذا وحده برهان على أن السدائم على بعد عظيم جدا .

وإنا لنحتاج إلى وحدة طويلة من وحدات الطول لقياس هذا النوع من المسافة ، إن الضوء يقطع ١١ مليون ميل فى الدقيقة أو نحو ٦ ملايين مليون ميل فى السنة ، ويختار الفلكيون هذه المسافة وحدة لمقاييسهم ، ويسمونها [سنة ضوئية] وكما أن الألمان عند مايتكلمون عن مسافة ساعة يعنون بذلك المسافة التى يمشيها الرجل فى الساعة ، كذلك عند مايتكلم الفلكى عن سنة ضوئية ، فانه يعنى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة .

أقرب المدن النجومية

قد رأينا كيف أن الضوء المنبعث من أقرب الجموع الكرية يستغرق فى الوصول إلينا ١٨٤٠٠ سنة أو كيف أن بعد أقرب جمع كرى منا ١٨٤٠٠ سنة ضوئية كما نستطيع الآن أن نقول ، لكن أقرب سديم إلينا ، وهو م ٣٣[1] فى كوكبة المثلث [لوحة ٣٨] قد تبين أنه على بعد ٨٥٠٠٠٠ سنة ضوئية ، فبعده قدر بعد أقرب الجموع الكرية أكثر من أربعين مرة .

إن الضوء الذى به نبصر جموع الكرية قدبدأ رحلته الطويلة عبر الفضاء قبل أن يصير الإنسان متمدينا . أما الضوء القادم حتى من أقرب السدائم ، فقد بدا قبل أن يخلق الإنسان بالمرة ، فلو أن أول إنسان عمر الأرض كان قد بنى محطة لاسلكية ، وأذاع منها نداء ينادى به جميع المحطات التى فى الفضاء يبحث عما إذا كان هناك فى العالم أى مخلوقات عاقلة أخرى لما كان نداؤه بلغ أقرب السدائم للآن .

حتى أقصى الجموع الكرية تبعد عنا بأقل من ربع بعد أقرب السدائم ، فبعد أن نترك كل الجموع الكرية وراءنا لابد لنا قبل أن نبدأ نلقى السدائم من أن نقطع أربعة أمثال المسافة التى قطعناها ، ولما كانت الجموع الكرية تعين حدود المجرة كان معنى هذا أن السدائم منفصلة تماما عن المجرة ، ولو مثلنا لمدينتنا النجومية فى القدر بلندن لوقعت أقرب مدن الفضاء إلينا بقرب [كمبردج] وبين الاثنين عراء طلق كثير .

والمدينة النجومية التى تلى هذه لاتبعد عنها إلا قليلا على بعد ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية منا ، فاذا مثلنا لأقرب مدينة نجومية بكمبردج صح أن نمثل [بأكسفورد] للتى تليها وهى السديم الأعظم فى كوكبة المرأة المسلسلة [انظر لوحات ٣٦ و٣٧و٤٢] أشهر مدن النجوم فى الفضاء وأعرفها ، ثم هى السديم الوحيد الذى يرى بوضوح تام بالعين المجردة ، وهى تكاد تقع فى شمال النجم باء المرأة المسلسلة [انظر الخريطة النجومية

(١) م ٣٣ M,33 معناه رقم (٣٣) فى كتالوج مسيه (Messier).

الأولى وصفحة ١٧٤] ولابد من الاعتراف بأنها مخيبة جدا لأمل من يتطلب فيها منظرا ، ومع ذلك فربما كانت تستحق أن ينظر الإنسان إليها مرة فى العمر ولو ليتفكر ، وهو ينظر إليها أن شبكية عينه يؤثر فيها ضوء ظل يعبر إليه أجواز الفضاء ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية متصلة . إن أمواج الضوء المتولدة من وثوب الكهرباء فى ذلك السديم البعيد منذ ٩٠٠٠٠٠ سنة قد كانت تسبح فى الفضاء غير مروعة منذ ذلك الحين ، والآن حين تلج أعيننا تصادف مادة صلبة للمرة الأولى بعد ترك السديم ، تلك الأمواج ترد العين على التتابع بغير انقطاع بمعدل نحو ٥٠٠ مليون مليون موجة فى الثانية ، وشعاع الضوء الذى يصل ما بين عينك وبين السديم يحتوى من الأمواج ما يكفى لإمداد البصر بالأمواج ٩٠٠٠٠٠ سنة على هذا المعدل ، وللذين يحبون الحساب أن يحسبوا بالضبط مقدار عدد هذه الأمواج إن شاءوا (١)

وليس هناك سدائم كثيرة قريبة قربا يمكن من تمييز متغيرات قيفاوية فيها ، فذا ما تيسر هذا التمييز أمكن فى الحال اكتشاف أقدار السدائم وأبعادها ، لكن لابد من اتباع طرق أخرى فى أغلب الحالات

إذا وضع عدد من أجسام متشابهة تمام التشابه على أبعاد مختلفة منا فانها تبدو بالطبع بأقدار مختلفة لكن لمعان سطوحها لايتأثر بالمسافة إلا إذا كانت هناك فى الفضاء مادة تضعف الضوء أو تحجبه ، لكن لدينا كل الأسباب التى تحملنا على الاعتقاد بأن وجود مثل هذه المادة نادر لدرجة أنه يمكننا إغفاله إلا فى أجزاء قليلة خاصة من السماء ، والآن يجد الدكتور [هبل] أحد فلكيى مرصد جبل ولسن أن السدائم ذات الشكل الواحد تظهر جميعا ذات لمعان واحد ، وتختلف فقط فى القدر الظاهرى ، هذا يشير بقوة إلى أنها متشابهة فى بنائها لاتختلف إلا فى أبعادها عنا ، وبذا نستطيع أن ندرك أبعادها إما من أقدارها الظاهرية أو من مقدار الضوء الذى تتلقاه منها ، ومختصر القول أنه كلما بدا السديم أصغر وأخفى كان السديم أبعد وتبين لوحة ٤٠ جمعا من السدائم فى كوكبة ذات الشعور على بعد ٥٠ مليون سنة ضوئية على الراجح ، والسدائم فى هذا الجزء من السماء كثيرة متراصة بحيث أن اللوحة تحتوى من السدائم أكثر مما تحتوى من النجوم ، وتبين لوحة ٤١ جمعا من السدائم أبعد حتى من هذه فى كوكبة الفرس الأعظم وكل واحد من الأجرام الخفية الغامضة الحدود فى اللوحة عبارة عن سديم ، ويبلغ عددها جميعا ١٦٢ لو تيسرت لنا رؤية كثير منها عن قرب كاف لبدت لنا مجموعات شاسعة معقدة التركيب كالتى فى السديم القريب المبين فى لوحات ٣٦ و ٣٨ و ٤٣ وأبعد ما كشفت عنها مراقبنا من السدائم هى من البعد بحيث يستغرق الضوء فى الوصول إلينا منها نحو ١٤٠ مليون سنة .

وقد قام الدليل على أن المقارنة التى عملناها بين المجموعة المجرية وأقرب سديمين ، وبين [لندن] و [اكسفورد وكمبردج] مقارنة صحيحة من وجوه كثيرة ، فأكبر المراقب يكشف عن سدائم عددها جميعا نحو مليونين ليس فيها كلها حسبما نستطيع أن نحكم إلى الآن واحد فى كبر مدينتنا النجومية ، ولذا فقد أحسنا أولا إذ شبهنا هذه بلندن التى هى أكبر مدينة فى العالم ، وفى الحق أن كثيرين من الفلكيين يميلون إلى اعتبار المجموعة المجرية مكونة من عدد من المدن النجومية تجمعت وتدخل بعضها فى بعض شأنها فى ذلك بالضبط شأن لندن التى تجمعت من مدن بعضها متدخل فى بعض ، فإذا كانت لندن تمثل المجموعة المجرية فى القدر ، فإن كمبردج وأكسفورد ليمثلان أقرب مدينتين نجوميتين إلينا فى القدر أيضا ، وتستقيم المقارنة كذلك بالنسبة لعدد السكان ، وأيضا بالنسبة للترتيب فى الفضاء ، فعدد سكان لندن قدر عدد سكان

(١) هذه المقالة المنقولة من كتاب (النجوم فى مسالكها) قد يعسر فهمها على كثير ، فمن أراد أن يفهمها فليقرأها فى الفهرست الذى يوافق هذه الصفحات اه مؤلف .

كمبردج أو أكسفورد نحو مائة مرة ، ومدينتنا النجومية تحتوى من النجوم بالتقريب قدر ما يحتويه أى السديمين الأقربين إلينا مائة مرة ، على أنه قد يبدو من الغريب أن نتحدث بمثل هذا الوثوق عن المجموع الكلى للنجوم فى سدائم هى من البعد عنا بحيث إننا لا نستطيع أن نرى سوى قليل من أشد نجومها لمعانا .

وزن المدن النجومية

قد رأينا كيف أن مجموعة النجوم التى ننتسب إليها وهى المجموعة المجرية مسطحة كالمجموعة الشمسية كما رأينا أنها تستطيع أن تحتفظ كالمجموعة الشمسية بشكلها المسطح لكونها فى دوران دائم ، وكثير من السدائم مسطح أيضا فى شكله ، ومن المعقول فيما يظهر أن نتخيل أن هذه أيضا تحتفظ بشكلها المسطح لكونها فى دوران ، والرصد يحقق هذا الحدس إذ أنه قد كشف عن أن السدائم تدور ، ولابد على وجه التحقيق تقريبا أن تكون هذه الحركة الدورانية هى التى تنجى النجوم التى على حافة السدائم من السقوط نحو مراكزها ، ولو علمنا سرعة تلك الحركة لأمكننا حساب مقدار قوة الجذب نحو المركز ومن ثم نستطيع أن نزن السدائم ، كما نستطيع قريبا من موطننا أن نزن الشمس أو المشترى أو كل المجموعة المجرية من النجوم ، وقد وجد أن متوسط وزن السديم قدر وزن الشمس ألفين أو ثلاثة آلاف مليون مرة .

ولا يتحتم أن يكون معنى ذلك أن فى كل سديم هذا العدد من النجوم ، فالظاهر أن قليلا من السدائم إن كان يحتوى على نجوم فقط ، أما أغلبها فله منطقة مركزية تبدو أشبه بسحابة غازية منها بسحابة نجومية ، وعلى أى حال فلم يوجد بعد الرقب الذى يستطيع أن يحلل تلك السحابة إلى نجوم (انظر لوحة ٤٢) وبالطبع لابد للسحابة من إحداث قوة جذب قدر التى تحدثها نجوم فى وزنها ، وإذن فوزن هذه السحابة ، غازية أو كائنة ما كانت داخل فى تقديرنا وزن السديم ، لكن إذا لم تكن تلك السحابة ، الغازية فى الظاهر تتركب من نجوم بالفعل ، فمن المحتمل فيما يظهر أن يكون مقدرا لها أن تصير نجوما فى الوقت المناسب . انتهى الفصل الثالث .

الفصل الرابع

فى خواطرى ليلة السبت وليلة الأحد ٦ و ٧ من ربيع الثانى سنة ١٣٥٢ هـ

٢٩ و ٣٠ شهر يوليو سنة ١٩٣٣ م

لقد كانت لى إذ ذاك نظرتان : نظرة علمية ، ونظرة عملية .

نظرتى العلمية

نمت سحرا ليلة السبت المذكورة وأنا فى الحقل مع المزارعين شأنى أيام الصبا والمراهقة ، وكان نومى فى خص صنعه الفلاحون ليبيتوا فيه محافظة على القاكهة مثل البطيخ والصنطاوى التى يبيعونها فى القاهرة القريبة منهم . نظرت فى السماء وفى ظلمة الليل ، فرأيت النجوم بهجة جميلة وقد تجلى ذلك الجمال بهيئة تأخذ بالألباب وسحر فؤادى أن منظر النجوم فى العراء والحقول غيرها فى المدن . أن تلك المزرعة فى أطراف المزارع من الجهة الشرقية وراءها أرض فضاء رملية لاأنيس بها ولاجليس . ووراء ذلك الجبل الشرقى ببلادنا المصرية ، فظهور النجوم هنا أتم وأبهج منظرا وأبهى وأبهر ، هاهنا أخذت أقول : ربنا لقد ظهرت واحتجبت

ظهرت لنا بمصنوعاتك واحتجبت عنا بذاتك العلية ، والحجاب حجابان : حجاب كثيف وحجاب لطيف .

أما الحجاب الكثيف : فهو الذى أسدلته على عقولنا ونفوسنا من شهوة الطعام والشراب وصلة الذكران بالنسوان وضرورات الحياة والعداوات وأحقاد النفوس والمنافسات والأمراض والأحزان ، وأما الحجاب اللطيف فهو هذا الجمال الرائع والإبداع الظاهر الباهر فى كواكبك البديعة .

فنحن يارباه مسجونون فعلا ، مسجونون فى شهواتنا التي سلطتها علينا لتدربنا على العمل وتكسبنا ملكة فيه وجميع الحيوان وبنو آدم قد أقفلت عليهم تلك السجون كما شاهدته أنا ورأيته بباصرتى فى الحشرات والأنعام والإنسان ، كل هؤلاء معذبون مسخرون ليسدوا حاجاتهم ويقوموا بشئونهم .

ولقد فر من هذا السجن قليل من نوع الإنسان وفروا إليك وسمعوا قولك « ففروا إلى الله » ولما فروا إليك أخذوا يتلمسون الطريق ليلقوك فنظروا فى هذه النجوم فأقفلت الأبواب أمام كثير منهم فهم يبصرونها ولكن لا يحسون بالجمال ، ولا يدركونه لأنهم مرنوا على الجمال الجزئى الذى يسعون لتحصيله من النساء وأنواع الزينة والخيل المسومة والأنعام والحرث والأحجار الثمينة والقصور البديعة ، وكيف يذوق جمال النجوم من حبست نفوسهم فى تلك السجون الأرضية وهم ساهون لاهون نائمون :

هاهم أولاء الناس حولى فى القرى والمدن منصرفون إلى أعمالهم وبعبارة أخرى محبوسون فى سجونهم وقليل منهم الذين خرجوا من هذه السجون ، ولكن أبواب السماء مقفلة أمامهم فلا يفكرون فيها ولا هم بها مبتهجون .

وهناك طائفة قليلة من هؤلاء فتحت لهم أبواب السماء فأدركوا جمال النجوم وفرحوا بها واطمأنوا لمناظرها ولم تقف عقولهم عند الطبقة الدنيا فى زينة جزئية ولكن هؤلاء أكثرهم وقف عند ظواهر النجوم وبريقها ولمعانها وظنوا أنهم من المفكرين ، وفريق من هؤلاء قالوا كلا :

النجم أخبرنا بأن وراءه حكما تجل عن العقول وتعظم

وهؤلاء أخذوا يدرسون علوم النجوم ومقاديرها وأبعادها وحركاتها وبهجة نظامها ومجموعاتها الشمسية والمجرات والسدم (جمع سديم) فهؤلاء دهشوا من ذلك الجمال البارع ووقفوا عند ذلك وظنوا أن هذا غاية ما تصل إليه الألباب

ومن هؤلاء أفراد نبلاء قالوا : إن النظرين السابقين إنهما إلا حجابان نورانيان كما كانت قوة الشهوة والغضب حجابين ظلمانيين ثم قالوا .

إذن هنا أربعة سجون : سجنان ظلمانيان ، وسجنان نورانيان ، فالسجنان الظلمانيان الشهوة والغضب والسجنان النورانيان سجن جمال العوالم الظاهرى ، وسجن إدراك حسابها وإتقانها وإبداعها ، فهذان حجابان لطيفان جميلان ، والله وراء ذلك كله ولم يبح لنا ونحن فى حالنا هذه إلا أن نشاهد آثار صنعه من خلال هذا الجمال آنا فآنا فتجد الأشواق على مقدار إدراك الجمال ، هذه نظرتى العلمية سحرا .

أما نظرتى العلمية : فانى لما انفلق عمود الصباح وشاهدت جحافل الأنوار تتلوها جحافل وهن يغزون جيوش الظلام ونصر الأولى يلازم انهزام الثانية ، وقد أخذ مليك تلك الجحافل وهو الشمس بموكبه العظيم يقترب من أفقنا شيئا فشيئا .

وقد انتشر النور فى جميع الأقطار وعم جميع الممالك ؛ هنالك هالنى هذا المنظر ورأيت ما أدهشنى ملك يقبل وتتقدمه جنود مجندة وتهتز له الأرض شرقا وغربا . رباه هذا ملك عظيم ليس فى أرضنا نظيره : أى ملك هذا الذى تقدمه يقوم كل نبات وكل حيوان وكل إنسان وكل ملك وكل صعلوك ، هؤلاء متى أقبل هذا الملك تراهم جميعا له شاخصون .

أى ملك هذا الذى يقدوم موكبه قبل ظهور طلعته تهتز الممالك شرقا وغربا وتقف لمقدمه الجموع تتلوها الجموع لافرق فى ذلك بين الصناع فى دور صناعاتهم والفلاحين فى حقولهم ورجال الجيوش فى ثكناتهم وقوادهم وملوكهم فوق عروشهم . كل هؤلاء يهرعون لمشاهدة ذلك الموكب الذى يتقدم حضور ذلك الملك العظيم .

هنالك هنالك يشاهدون طلعته ويفرحون بمنظره ، ومتى أقبل عليهم يكسوهم حللا سبعة بهية مصبوغة بألوان كثيرة لاتحصى وأشهرها سبعة : الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجى والنيلى فهذه متى أقبل نفس الملك أعطى هذه الأمم كلها تلك الحلل ، ولدقة نسجها وحسن سبكها ظهرت لهم بهيئة لون البياض الجميلة فازدانت آفاقهم وهم فى السعادة رافلون ، ذلك الملك هو الشمس ، وذلك الموكب هو الفجر ونور الصباح .

لعل نظر الحكماء فى جمال العوالم الظاهر ، ثم تعمقهم فى إدراك الأسرار المحجوبة عن عيونهم كنظر أهل الأرض جميعا موكب الشمس قبل طلوعها ، فهم لذلك يستيقظون ويعقب ذلك أن يشاهدوا خلقها فكما كان هؤلاء يرون موكب الفجر والصباح مقدمة لطلوع الشمس وإشراقها على جميع أهل الأرض ، هكذا كان موكب الجمال الظاهرى للنجوم والجمال الباطنى للعوالم من حيث إتقانها ودقتها مقدمة لإشراق شمس الذات العلية على أولئك الذين استعدوا للنظر إليها أولا بالخروج من سجون القوتين الشهوية والغضبية وثانيا بالابتهاج بجمال الحجابين الجميلين : حجاب جمال العوالم الظاهر ، وحجاب جمالها الباطن ، فهؤلاء إذا فارقوا السجون الأربعة وشاهدوا الملك كساهم حللا بهجة من العلم والحكمة نسبتها إلى جمال نور الشمس وإبداع صنعه وحسن نسيجه ودقة وضعه من الألوان البديعة الكثيرة وآثار ذلك النور من حيث الهداية فى سبل الأرض وإنعاش القوى النباتية والحيوانية والإنسانية كنسبة خالق الشمس ومبدعها إلى جرم الشمس ، فكما لانسبة بين الشمس وصانعها من حيث العظمة والجلال والجمال والآثار ، هكذا لانسبة بين نور الشمس للشرق على أهل الأرض وبين إشراق النور الإلهى على المصطفين الأخيار فى هذه الدار وتلك الدار ،

لما هالنى ذلك المنظر رفعت طرفى إلى السماء وقلت : ياالله عجبا ، ماهذه العناية ، ماهذه الدنيا ، ماهذه العوالم ، أكل هذه العوالم مسخرات لنا ومن نحن حتى تعنى بنا هذه العناية ؟.

رباه أهذه الشمس لنا نحن ؟ عجبا ، أهذه الكواكب التى هى شموس أكبر من شمسنا ومنها العيوق الذى هو شمس الشموس يفوق شمسنا فوق مليونى مرة من حيث الحجم ، وهناك كوكب من كواكب الجوزاء يفوق شمسنا من حيث حجمها ٢٥ مليون مرة ، أهذه كلها لنا نحن ؟ سبحانك ومن نحن حتى تسخر هذه العوالم كلها لنا ؟ :

رباه أنا لاأقول إنها كلها خاصات بنا كما كان يقول قدماؤنا كلا ، إن لكل كوكب [على مايظهر لنا فى الأرض] سكانا فى سياراته التى تسير حوله يشرق عليها ، ولكن مامن كوكب من تلك الكواكب إلا وهو مكمل لنا نحن على أرضنا هذه الضئيلة ، فهى ترسل لنا ضوءا وحرارة ولو ضئيلين ، وهكذا يهتدى ربان السفينة فى بحر الظلمات والبحر الهندى وبحر البلطيق وجميع بحار الأرض بمواقع كواكب كثيرة فى أقطار السموات ، فهن وإن خلقن أولا بالذات لمنافع سكان سياراتهن وأراضيهن ، هكذا هن نافعات لنا عرضا مكملات لحياتنا ، فلولا دراستهن لم نتمكن من الانتقال من مملكة ومن قارة إلى قارة .

رباه إن إبداعك لعجيب وصنعك الجميل ، عوالم تتلوها عوالم ، كلهن مسخرات لنا ، إما بالذات وإما بالتبع أكل هذه العناية لنا نحن ؟ حار فكرى يارباه فى هذه العوالم العظيمة المشرقات . لقد عهدنا نحن أهل الأرض فى تربية ناشئتنا أن تكون للتربية مقاصد ونتائج والنتائج مناسبات للمقدمات وعهدنا النحل تربى ملكاتها تربية خاصة وتطعمهن عسلا غير الذى تطعمه جندها وحماتها ، وتلاميذنا فى المدارس العالية قد أعدهم الناس للاصلاح

العام والقيام بنظام الشعوب وحكمتها وجميع شئونها فى هذه الحياة ، وهـذه العوالم المحيطة بنا عوالم هائلة عظيمة لانسبة بينها وبين نظام مدارسنا إلا كنسبة عظمتك وجلالك وجمالك إلى ضعفنا وافتقارنا فى هذه الحياة ، أو كنسبة عدم تناهى حياتك أزلا وأبدا إلى قصر أعمارنا وقصورقوانا ونحن غرقى فى غمرة الجهالات فماذا يراد بنا ؟ ولعل الجنة التى وعد بها المتقون خطوة أولى فى سبيل الارتقاء ، أنا الآن استبان لى يارباه أننا خلقنا لأمر عظيم وبهى وجميل ، إن عوالم الجنان لاندرك منها الآن إلا النزر اليسير :

إن مستقبلنا باهر . إن أمر الوجود لعظيم ولعلنا بهذه التربية العظيمة نستأهل لادارة شئون بعض عوالم صغيرة لانعرفها الآن ونكون مسلمين وجوهنا لك قائمين بالنظام العام بحسب ماتسنه لنا ونحن به ملهمون ، وإلا فما هـذه الموا كب والكوا كب ، وماهذه التربية العجيبة ، وماهذه العناية التامة الكاملة ، ولعلنا نركب طبقا عن طبق فى الارتقاء حتى نصل لعوالم تناسبنا ونكون ملهمين إذ ندير شئونها كما ندير الآن ممالكنا ومدارسنا لتعليم الناشئين ، ولعل كلامنا سيكون بعد الموت فى عمل يناسب عمله فى الأرض الآن ، إن كل عمل من أعمالنا إن هو إلا بامدادك ومساعدتك للعاملين ، ولعل أعمالنا هناك تكون قائمة بالإلهام الإلهى .

رباه إنا فى الأرض لانعلم ماخبأته لنا من الجمال والبهاء والنور والعرفان ولا مانحن قادمون عليه ، وكل مانقوله إن هو إلا ضرب من الحدس والتخمين والحقيقة وراء عقولنا ، فلنفوض الأمر إليك ولكن اليقين عندنا الآن أننا خلقنا لأمر عظيم جدا مجهول لنا الآن جهلا تاما .

فنحن نبتهل إليك أن تزيد قلوبنا نوراً وعقولنا إشراقا وتهدينا سبلنا فى هذه الحياة وغيرها ولا تصرفنا عن آياتك لنرى وجهك الكريم :

تذكرة

لما سمع صاحبى هذا أخذ يحدثنى قائلا : ماذا تقصد بقولك ولاتصرفنا عن آياتك ، أنخاف من الكفر بعد هذه السن والعمل ؟ فأرجو تبيان هذا المقام ، وهل يصرف العلماء عن آيات الله وهم هم الذين يعلمون غيرهم الدين وأحكامه وقواعده :

فقلت له : حياك الله أيها الأخ وأنار بصيرتك وشرح صدرك ، إن كثيرا من العامة وصغار العلماء من كل دين ونحلة ، يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، تحيط بهم الآيات وهم عنها غافلون لا يعقلون ولا يتفكرون صم بكم عمى فهم لايرجعون ، نعم يصلون ويصومون ويزكون ويحجون : فهذه كلها مقدمات المعارف والعلوم ولكن الآيات شئ وراء ذلك ، بل ربما اغتر العالم بعلمه وفرح به وانصرف عن هذا الجمال البارع وصدق عليه قول الله تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » هذه الحدائق والجنات والحقول فى الأرض يرى الانسان الحشرات طائفات فيها للالقاح ولا علم للناس ولا لنفس الحشرات بهذا العمل ، فهل يعلم العامة وصغار العلماء فى الإسلام مثلا أن هذه الحشرات لولا طوافها فى الحدائق لم تأكل الفاكهة ولم تتمتع بها ، كلا ثم كلا مع أنهم لو فكروا قليلا لرأوا أن هذه الحشرات والأنعام والإنسان من حيث أعمالها فى الحقول ، هذه بالقاحها وهذه بعملها فى الحرث والسقى وهؤلاء بادارة شئون المزارع وحفظها أشبه بجسم إنسان واحد فعينه لا تعلم أعمال الأذن ورجلا لاتعقل عمل يديه ومعدته غافلة عن عمل الكبد والطحال والحالبين والمثانة والأمعاء ، وقلبه يجتذب الدم من أعماق الجسم ويوزعه بالأورطى فى أعلى الجسم وأسفله وهو غافل عن عمله .

ولكن فوق هذه الأعضاء كلها قوة عاقلة مدبرة فى الدماغ تعلم أعمال اليد والرجل والعين والأذن وتعرف اختلال هذه الأعضاء بآلام الأمراض ، فهى التى تستخدم تلك الأعضاء التى تحت إشرافها فيما يناسبها وما هى جديرة به ، ولولا هذه القوة العاقلة المدبرة لكانت هذه الأعضاء مخلوقة عبثا ، هكذا هذه الحشرات ، وهذه الأنعام والبهائم ، وهؤلاء الناس كلهم فهم جميعا يعملون ، ولكن أحدهم لا يعلم عمل الآخر فلا الفلاح يعقل ما تفعله الحشرات فى الحقل من الإلقاح ، ولا الحشرات تعلم ما هو الإنسان ولا ما عمله ، ولكن هناك قوة عليا مدبرة تعلم أن عمل كل دابة يجعل النظام تاما كما نستخدم نحن أيدينا وأرجلنا وعيوننا وآذاننا فى أعمالنا وكل واحد من هذه الأعضاء لا علم له بعمل الباقين :

فأنا أيها الأخ أقول : هل هذه الآراء ، بل هذا البرهان الذى يحيط بنا ونحن لا نفكر فيه إلا قليلا يشعر به العامة وصغار العلماء . قال كلا ثم كلا ، هذه آراء غريبة مع أنها مشاهدة ، فالناس يشاهدون ذلك ولكنهم لا يفكرون فيه ولا يخطر لهم على بال ولم أجد فرقا بين العامة والعلماء فى ذلك .

قلت أيها الأخ . إذا صح هذا أفلا يكون ذلك تفسيرا لآية « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » فإذا رأيت صغار العلماء وجهلة الصوفية قد صرفوا عن هذا واكتفوا بقشور العلوم فى الديانات أفلا يقال لهم وهم مؤمنون بالله إنهم عن آيات الله مصرفون ، وعن آلائه معرضون ، نعم الآية واردة فى حق الكفار ، ولكن هذا على سبيل الاعتبار :

أو لا ترى أن هذا يمت بسبب إلى قوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء » الخ .

أفلا ترى أيها الأخ أن الإعراض عن هذه النظرات أشبه بالتكذيب نوعا ما فإنا إذا آمنا بالله ولكنا عمينا عن هذا الجمال المشاهد حولنا فى الأرض وفى السماء ، فكيف نفرح بهذه السماء ، وكيف نبتهج بالنجوم وندرسها لجمالها وبهجتها ، وكيف ننتفع بمثل قوله « وزيناها للناظرين » وهل قوله « وحفظناها من كل شيطان رجيم » إلا لنعرف أن من غفلوا عن هذه العجائب فى حكم الشياطين وإلا لما عبرنا من مثل هذه الآية ، فهم يرون السماء ولكنهم لا يدركون الحسن والإشراق والبهجة والجمال ، فهم هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، ومن لا تفتح له أبواب السماء بالعلم وإدراك الجمال فى هذه الحياة ، فكيف يدخل الجنة ؛ وهذا قوله تعالى بعدها « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » نعم ربما دخلوا الجنة الحسية إن عملوا أعمالا صالحة ، أما جنة العرفان فلا ، فقوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها » تعميم للرحمة وتبيان أن رحمة الله واسعة تسع من أدرك الجمال فى هذه العوالم فهو فى حضرة الذات العلية يشاهد الجمال والنور والإشراق بما نال من الحكمة والعلم وتسع من قصر نظره على المحسوسات ولم يعرف من الدين إلا ظواهره وعمل صالحا ، فهؤلاء يدخلون الجنة الحسية ، لأن رحمة الله واسعة ، وهذا قوله فى هذه الآية « لا نكلف نفسا إلا وسعها » فالمقتصرون على العمل لهم جنة ، والمتغلغلون فى العلوم لهم جنة أعلى .

ضرب مثل

إنما مثل هذه الدنيا والناس فيها كمثل قصر مشيد مزين بأنواع الزينة وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ، قد زينت سقوفه وحيطانه بأكمل زينة ، حيطانه من ذهب وفرشه من حرير وإستبرق ، قد ازدانت بأجمل الأحجار الثمينة من الدر والمرجان والعقيق والزمرد وكل

جميل وبهى بهيج ، ورب ذلك القصر ملك عظيم الشأن قوى السلطان وقد أعد فى قصره الولائم ودعا لها جميع رجال مملكته وقال لهم : كلوا وتمتعوا واشربوا هنيئا .

فأى رجال مملكته أشرف أولئك الذين اكتفوا بأنواع الطعام والشراب والفاكهة والحلوى وعكفوا على الموائد وهم غافلون ، أم أولئك الذين شرفهم الملك بحضور مجلسه والاستماع لحديثه والتلقى عنه ؟ .

فقال صاحبى : بل هؤلاء أشرف مقاما ، وأعلى منزلة ، وأعظم جاها ، أما الأولون فهم كدواب القصر لايفقهون إلا إشباع بطونهم ونهم نفوسهم فهم قاصرون .

فقلت : أيها الأخ أفلست ترى القسم الأدنى أقرب إلى قوله تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » وإلى قوله « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء » وأن القسم الأعلى أقرب إلى آية « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » وإلى قوله « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » وكيف يكونون عند مليك مقتدر إلا إذا كانت حياتهم الدنيا مصروفة إلى التفكر فى هذه العجائب ، فهؤلاء هم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه لأنهم يشهدونه عند كل حجر وشجر ، انتهى الفصل الرابع :

الفصـــل الخامس

فى مبحثين : المبحث الأول : فى أقسام الحكمة مع ما يناسبها من آيات القرآن : المبحث الثانى : فى نظرات المؤلف ، وبهجة النجوم فى السماء .

المبحث الأول

نذكر فى هذا المبحث فهرست العلوم التى ذكرت فى كتاب [إخوان الصفاء] الذى ألف منذ ألف سنة للثقافة العامة الإسلامية ، ولم يكن ليطلع عليه إلا أفراد فى كل أمة ، فهذا الفهرست إذا أثبتناه هنا فليس معناه أننا نوافق على كل ما فيه ، كلا فإننا لانوافق على بعض ما فيه :

(١) مثل كلامهم فى البزائم والسحر ، ولذلك حذفنا الرسالة المعنونة بهذا العنوان .

(٢) ومثل ذكر أن العناصر أربعة ، وهى المعروفة إذ ذاك ، فان العناصر اليوم بلغت فوق الثمانين عدا

(٣) ومثل قولهم : إن نفوس البهائم ملائكة خاضعة للانسان والآساد مثلا شياطين تعصيه ، فهذه أقوال شعرية ، يقولونها على سبيل التمثيل والتشبيه وغير ذلك من المباحث ، فلا نطيل فى تعدادها .

ونحن نرى من جهة أخرى أن رسالة العدد تمت بسبب إلى قوله تعالى « والشفع والوتر » وإلى قوله « وهو سريع الحساب » ورسالة الهندسة تنحو نحوها ، ورسالة النجوم تمت بسبب أيضا إلى قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » الخ ، ويلحق بها الموسيقى من حيث النظام والاتقان والحساب ، وأما أمثال الجغرافيا ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم المعادن وأمثالها ، فهذه العلوم أمرها معلوم ، والقرآن يحض على ذلك ، وكتاب [الجواهر] فصل ذلك كله من أوله إلى آخره بهيئة سهلة ، وصور مرسومة ، وترى أمثال الحاس والمحسوس يرجع لعلم النفس الذى شرح كثيرا فى التفسير ، وبالجملة أن أكثر هذه الرسائل قد أدرج ما هو أجمل وأبهج منها ، وأوضح فى كتاب [تفسير الجواهر] وقصدنا من ذكرها هنا أن نقف الخلف على ما عند السلف ، وأن يلتقطوا الحكمة حيث وجدوها « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

واعلم أن الشبهات التي ترد على الإنسان من أمثال هذه الكتب قد جعلها الله عز وجل مهمازا يسوق به النفوس إلى البحث ، فعقولنا يجب أن تكون دائما عاملة مفكرة مخلصة الذهب من معادنه ، وقد آن أن نذكر ذلك الفهرست ، فنقول : جاء في أول الجزء الأول من كتاب [إخوان الصفاء] مانصه :

فهرست : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد ، بجمل معانيها ، وماهية أغراضهم فيها ، وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم ، وغرائب الحكم ، وطرائف الآداب ، وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية ، صان الله قدرهم ، وحرسهم حيث كانوا في البلاد ، وهي مقسومة على أربعة أقسام : فمنها رياضية تعليمية ، ومنها جسمانية طبيعية ، ومنها نفسانية عقلية ، ومنها ناموسية إلهية ، فالرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة :

[الرسالة الأولى منها] في العدد وماهيته ، وكميته ، وكيفية خواصه ، والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة ، المؤثرين للحكمة ، الناظرين في حقائق الأشياء ، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها ، وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابق لصور الموجودات في الهيولى ، وهي أنموذج من العالم الأعلى ، وبمعرفته يتدرج الرئاض إلى سائر الرياضيات والطبيعيات ، وأن علم العدد جذر العلوم ، وعنصر الحكمة ، ومبدأ المعارف ، وأسطقس المعاني .

[الرسالة الثانية منها] في الهندسة ، وبيان ماهيتها ، وكمية أنواعها ، وكيفية موضوعاتها ، والغرض المقصود منها هو النهدى للنفوس من المحسوسات إلى المعقولات ، ومن الجسمانيات إلى الروحانيات ، ومن ذوات الهيولى إلى المجردات ، وكيفية رؤية البسائط التي لاتتكثر ولا تزداد ، ولا تنفرد بالاتحاد ، ولاتتقدر بمقدار ولا انحصار في الأقطار كالصورة المجردة المعراة من المواد المبرأة من الهيولى ، والجواهر المحضة الروحانية ، والذوات المفردة العلوية التي لاتدرك بالعيان ، وفوق الزمان والمكان ، وكيفية الاتصال بها والاطلاع عليها والترقي بالنفس إليها .

[الرسالة الثالثة منها] في النجوم ، شبه المدخل في معرفة تركيب الأفلاك ، وصفة البروج ، وسير الكواكب ، ومعرفة تأثيراتها في هذا العالم ، وكيفية انفعال الأمهات ، والموالد منها بالنشو والبلى والكون والفساد ، والغرض منها هو تشويق النفوس الصافية للصعود إلى عالم الأفلاك ، وأطباق السموات ، منازل الروحانيين ، والملائكة المقربين ، والملأ الأعلى ، والجواهر العلى ، والوصول إلى القدس والروح الأمين .

[الرسالة الرابعة منها] في الموسيقى ، وهو المدخل إلى علم صناعة التأليف والبيان ، بأن النغم والألحان الموزونة لها تأثيرات في نفوس المستمعين لها ، كتأثير الأدوية والأشربة ، والترياقات في الأجسام الحيوانية ، وأن للأفلاك في حركاتها ودورانها ، واحتكاك بعضها ببعض نغمات مطربة ملهية ، وألحانا طيبة لذيذة معجبة منها كنغمات أوتار العيدان والطنابير ، وألحان المزامير ، والغرض منها التشويق للنفوس الناطقة الانسانية الملكية للصعود إلى هناك بعد مفارقتها الأجساد التي تسمى الموت ، لأنه إلى هناك يعرج بأرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين المحقين المستبصرين ، كما بين الله تعالى بقوله « إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم » .

[الرسالة الخامسة منها] في جغرافيا ، يعني صورة الأرض والأقاليم ، والبيان بأن الأرض كروية الشكل بجميع ما عليها : من الجبال ، والبحار ، والبراري ، والأنهار ، والمدن ، والقرى ، وأنها حية تشبه بجملتها صورة حيوان تام عابد لله تعالى ، بجميع أعضائها ، وأجزائها ، وظاهرها ، وباطنها ، وكيفية تخطيطها ، وتقديرها ، ومسالكها ، وممالكها ، والغرض منها هو التنبيه على علة ورود النفس إلى هذا العالم ، وكيفية اتحادها ، وعلة ارتباطها بغيرها ، واستعمالها الحواس ، واستنباطها القياس ، والتنبيه على خلاصها ، والحث

على النظر ، والتفكر فيما نصب الله لنا من الدلالات ، وأرانا من الآيات التي في الآفاق والأنفس حتى يتبين الناظر أنه الحق فيتمسك به ، ويزدلف إليه ، ويتوكل في أحواله عليه ، فيستعد للرحلة . والتزود إلى دار الآخرة قبل الممات ، وفناء العمر ، وتقارب الأجل ، وفوت الأمل ، ووجدان الحسرة والندامة .

[الرسالة السادسة منها] في النسب العددية ، والهندسية ، والتأليفية ، وكمية أنواعها ، وكيفية ترتيبها والغرض منها : التهدي لنفوس العقلاء إلى أسرار العلوم وخفياتها وحقائقها ، وبواطن الحكم ، ومعانيها ، والوقوف على أن للموجودات المختلفة القوى المتباينة الصور المتنافرة الطباع إذا جمع بينها على النسبة المتعادلة ائتلفت وصحت وبقيت ودامت ، وإذا كانت على غير النسبة المتعادلة اضطربت وتنافرت حتى اضمحلت وفنيت وما اعتدلت ، ولا استقام شيء إلا على قدر المناسبة ، وصحة الائتلاف ، وبمعرفة كمية ذلك وكيفيته يكون الحذق والمهارة بالصنائع كلها ، والتبرز فيها .

[الرسالة الساجة منها] في الصنائع العلمية النظرية ، وكمية أقسامها ، وكيفية مراتبها ، وإيضاح طرائقها ومذاهبها . والغرض منها : تعديد أجناس العلوم ، وأنواع الحكم ، وبيان أعراضها ، وحقائقها ، والتهدي لطلب العلوم ، والحكم ، والتوقيف عليها ، وكيفية الطريق إليها ، وبيان معرفتها .

[الرسالة الثامنة منها] في الصنائع العملية والمهنية . وتعديد أجناس الصنائع العملية ، والحرف ، والغرض منها هو تنبيه نفوس الغافلين على معرفة جواهرها التي هي الفاعلة على الحقيقة التي هي المستنبطة الصنائع كلها المستعملة لأجسامهم ، المستخدمة لأبدانهم ، إذ هي للصنائع كالآلات للنفوس والأدوات لها ، تستعملها لتبلغ بها غرضها على اختلاف مقاصدها ، وفنون حاجاتها .

[الرسالة التاسعة منها] في بيان اختلاف الأخلاق ، وأسباب اختلافها ، وأنواع عللها ، ونكت من آداب الأنبياء وسننهم ، وزبد من أخلاق الحكماء وسيرهم ، والغرض في ذلك منها تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق اللذان بهما الوصول إلى البقاء الدائم ، والسرور المقيم ، وكمال السعادة الباقية في الدنيا والآخرة .

[الرسالة العاشرة منها] في إيساغوجي ، وهي الألفاظ الستة التي تستعملها الفلاسفة في المنطق وفي أقاويلهم ومخاطباتهم في كتبهم ، وحججهم ، وبراهينهم ، والغرض منها هو التنبيه على ما يقوم ذات الإنسان ويتممه ويعرفه البقاء الدائم ، ويعرفه الفرق بين الكلام المنطق ، واللغوي ، والفلسفي ، وما حقيقة كل واحد منها وبيان ما يحتاج من ذلك إليه لتسديد العقل ، وتثقيفه نحو الحقائق ، وردّه عن الزلل والغلط ، كما يحتاج إلى النحو لتسديد اللسان ، وتقويمه نحو الصواب ، وردّه عن اللحن ، لأن نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات مثل نسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ .

[الرسالة الحادية عشرة منها] في قاطيغورياس ، وهو البيان عن المعقولات الكليات ، وهي الألفاظ العشرة التي كل واحد منها اسم لجنس من الموجودات كلها ، والغرض منها هو البيان بأن معاني الموجودات كلها قد اجتمعت في هذه المقولات العشرة التي يسمى كل واحد منها جنسا من الأجناس ، والأجناس داخلة فيها ، وكيف تنقسم الأجناس إلى الأنواع ، والأنواع إلى الأشخاص ، والأشخاص إلى الأمهات ، وأنها حدائق الآداب وبساتين العلوم ، وجنات الحكم ، ونواكه النفوس ، ونزه الأرواح .

[الرسالة الثانية عشرة منها] في بارمانياس ، وهي الكلام في العبارات وأداء المعاني على حقها ، والإبانة عنها ، والغرض منها : تعريف الأقاويل الجازمة المفردة البسيطة الجملية ، التي هي أقسام الصدق والكذب وكيف تحصل المقدمات القياسية ، وتركيبها من الألفاظ البسيطة المفردة ، وتقابل الإيجاب والسلب ، وتقسيم أصناف الأقاويل ، وأنها هي الجازم الذي منه تتركب المقدمات البرهانية ، وما الإسم وما الكلمة وما القول

المطلق ، وما القول الجازم ، وما الموجبة ، وما السالبة ، وما المحصل والمستقيم والعدول ، وما القضايا الثنائية ، والثلاثية ، والرباعية ، وما العناصر الثلاثة : من ضرورى وممكن وممتنع ، وما الضد والنقيض ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى مقدمات القياس .

[الرسالة الثالثة عشرة منها] فى انولوطيقا الأولى ، وهى القياس ، والغرض منها هو بيان كمية القياس الذى تستعمله الحكماء والمتكلمون فى احتجاجاتهم ، والدعاوى ، والبينات ، والمناظرات فى الآراء والمذاهب ، وأنه الميزان بالقسط ، وضعته الفلاسفة ليعرف به الصدق من الكذب فى الأقاويل ، والخطأ من الصواب فى الآراء ، والحق من الباطل فى الأفعال ، وأى شىء يكون ، وكيف يكون ، ومتى يكون ، وأيها الصحيح وأيها الفاسد .

[الرسالة الرابعة عشرة منها] فى انولوطيقا الثانية ، وهى البرهان ، والغرض منها هو البيان والكشف عن كيفية القياس الصحيح الذى لاخطأ فيه ولازلل ، وهى المسمى البرهان ، وهو ميزان البصائر ، يقيم الوزن بالقسط ، ومثاقيلها بداية العقول ، والمعارف الأولى يستعملها الصيارفة الإلهيون من الحكماء الذين يعرفون به الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، ويوضح الحق المبين ، والعلم اليقين .

[تمت الرسائل الرياضية التعليمة والفلسفية ، ومنها الرسائل الجسمانية الطبيعية ، وهى سبع عشرة رسالة]

[الرسالة الأولى منها] فى الهيولى ، والصورة ، وماهيتهما ، وما الزمان والمكان ، والحركة ، واختلاف أقاويل الحكماء فى حقائقها ، وكيفياتها : والغرض منها هو تعريف ماهية الجسم وحقيقته ، وما يخصه من الأعراض اللازمة والزائلة ، والصور المقومة والمتممة ، ولقب هذه الرسالة بسمع الكيان .

[الرسالة الثانية منها] فى السماء والعالم ، وبيان كيفية أطباق السموات ، وكيفية تركيب الأفلاك ، وما هو العرش المظلم ، وما هو الكرسى الواسع ، والغرض منها هو البيان عن كيفية تحريك الأفلاك وتسيرات الكواكب ، وأن المحرك لها كلها هو الروح القدس ، والنفس الكلية الفلكية الموكلة بها باذن بارئها .

[الرسالة الثالثة منها] فى الكون والفساد ، والغرض منها هو البيان عن ماهية الصور المقرمة لكل واحد من الأركان الأربعة ، أعنى الأمهات التى هى : النار ، والهواء ، والماء ، والأرض (١) ، وأنها هى الأمهات الكلية ، الكائن منها : المعدن ، (٢) والنبات ، والحيوان ، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض باختلاف كيفياتها عليها بدوران الأفلاك حولها ، ومطارح شعاعات الكواكب عليها ، وأن الطبيعة الفاعلة لها المحركة لكل واحد منها إلى كمالها وغايتها ، هى قوة من قوى النفس الكلية الفلكية ، وملك من جملة الملائكة الموكلة بها ، وسائقة لها إلى تمام ما أعد لها من غايتها .

[الرسالة الرابعة منها] فى الآثار العلوية ، والغرض منها هو البيان عن كيفية حوادث الجو ، وتغيرات الهواء من النور والظلمة ، والحر والبرد وتصاريف الرياح من البحار والأنهار ، وما يكون منها من الغيوم والضباب ، والطل ، والندا ، والأمطار ، والرعود ، والبروق ، والثلوج ، والبرد والهالات ، وقوس قزح والشهب ، وذوات الأذناب ، وما شاكل ذلك .

[الرسالة الخامسة منها] فى كيفية تكوين المعادن ، وكمية الجواهر المعدنية ، وعلة اختلاف جواهرها وكيفية تكوينها فى باطن الأرض ، والغرض منها هو البيان بأنها أول مفعولات الطبيعة التى هى دون فلك القمر التى هى قوة من قوى النفس الكلية الفلكية باذن بارئها : المصور للجميع ، والموجد للكل ، لامن موجد إبداعا ، واختراعا ، وخلقا ، وتكوينا ، ومنها تبتدى الأنفس الجزئية بالتهدى الباعث بها إلى الترقى من أسفل سافلين ، من مركز الأرض إلى أعلى عليين ، عالم الأفلاك ، وفوق السموات ، موقف الأبرار

(١) ذلك عند القدماء ، والآن كشف كثير منها اه . (٢) المعادن عند القدماء مركبة ولكنها عند حكماء عصرنا بسيطة .

للنفين ، ومقر الأخيار المستجيبين ، ومحل الأنبياء المرسلين ، وهذا أول صراط تجوز عليه الأنفس الجزئية ثم النبات بوساطة الكون والنمو ، ثم الحيوان بوساطة الكون والنمو والحس ، ثم الإنسان بوساطة الكون والنمو والحس والعقل ، ثم التجرد والدخول فى زمرة الملائكة الذين هم سكان الأفلاك والملأ الأعلى الذين هم أهل السموات .

[الرسالة السادسة] فى ماهية الطبيعة ، وكيفية أفعالها فى الأركان الأربعة التى هى الأمهات ومواليدها التى هى : الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والفرق بين الفعل الإرادى من الفكرى والشوقى . وبين الضرورى من الطبيعى والقهرى ، والغرض منها تنبيه الغافلين على أفعال النفس ، وماهية جوهرها ، والبيان عن أجناس الملائكة ، وهى التى تسميها الفلاسفة : روحانيات الكواكب الموكلة بإنشاء المواليد بتحريكها إلى استكمال صورها والتمام للعدد لها .

[الرسالة السابعة منها] فى أجناس النبات وأنواعها ، وكيفية سريان قوى النفس النامية فيها ، والغرض منها هو تعديد أجناس النبات ، وبيان كيفية تكوينها ونشوها واختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والرائح فى أوراقها وأزهارها وثمارها وحبوبها وبزورها وصموغها ولحائها وعروقها وقضبانها وأصولها ، وغير ذلك من المنافع ، وأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة المعادن وآخر مرتبتها متصلة بأول مرتبة الحيوان .

[الرسالة الثامنة منها] فى أصناف الحيوان وعجائب هيا كلها ، وغرائب أحوالها . والغرض منها هو البيان عن أجناس الحيوانات ، وكمية أنواعها ، واختلاف صورها وطبائعها وأخلاقها ، وكيفية تكوينها ونتاجها وتوالدها وتربيتها لأولادها ، وأن أول مرتبة الحيوانية متصلة بآخر مرتبة النبات ، وآخر مرتبة الحيوانية متصلة بأول مرتبة الإنسانية ، وآخر مرتبة الانسانية متصلة بأول مرتبة للملائكة الذين هم سكان الهواء والأفلاك وأطباق السموات ، وأن نفوس بعض الحيوانات ملائكة ساجدة لنفس الإنسان التى هى خليفة الله فى أرضه ، ونفوس بعضها راكعة له ، ونفوس بعض الحيوان شياطين عصاة مغلغلة فى جهنم عالم الكون والفساد ، وأن الإنسان إذا كان خيرا عاقلا ، فهو ملك كريم خير البرية ، وإذا كان شريرا : فهو شيطان رجيم شر البرية .

[الرسالة التاسعة منها] فى تركيب الجسد ، والبيان بأنه عالم صغير ، وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة وأن نفسه تشبه ملكا فى تلك المدينة ، والغرض منها هو معرفة الإنسان جسده وبنيته المهيأة له ، وأن انصاب القامة أجل أشكال الحيوانات ، وأن بنية جسد الإنسان مختصر من العالم الذى هو فى اللوح المحفوظ ، وأنه الصراط الممدود بين الجنة والنار ، وأنه ميزان القسط الذى وضعه الله بين خلقه ، وأنه الكتاب الذى كتبه الله بيده ، وصنعته التى صنع الله بنفسه ، وكلمته التى أبدع الله بذاته ، وأن النفس الإنسانية هى خليفة الله فى أرضه حاكما بين خلقه ، سائسا لبريته ، مستعملا لعالمه السفلى مدة من الزمان ، فإذا انتقل صار زينه لعالمه العلوى وحافظا لذاته الوجودى على الأبد ، وأن الانسان إذا عرف نفسه المستخلف عرف ربه الذى استخلفه وأمكنه الوصول إليه والزلفى لديه ، فائزا بنعيم الأبد والدوام السرمد .

[الرسالة العاشرة منها] فى الحاس والمحسوس ، والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التى منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة ، وهو أول منازل الروحانية : إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسمانى بوجه وروحانى بوجه ، والحاسة المشتركة : أعنى الداخلة روحانية محضة ، لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وإن كانت التجزئة لاتقع عليه

بالحقيقة ، لأن تصورها الشيء بإدراكها واتصالها إلى القوة المخيلة التي مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوة الحافظة الذاكرة التي مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار ، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذات الإنسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنتزع جميع المعاني والصور ثم تصور تلك المعاني والصور المنتزعة من مصوراتها المترسمة فيها وهي القوة الناطقة أيضا بوساطة الأولى ، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالهيولى ، والقوة المعبرة أيضا للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضا على وجه ثان بواسطة الألسن ، فإذا همت الأولى بإظهار شيء إلى خارج ، وهو النطق الإلهي على الحقيقة من صورة النفس تصورت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجردها عن المواد وتعريهما عن الهيولى ، أعني الجسمانية فتأدت إلى القوة الناطقة التي مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التي مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر وبطون الطوامير ، تلك الألفاظ ، وهي النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية ، أعني معانيها محفوظة من الأولين إلى الآخرين وخطابا من الحاضرين للغائبين إلى يوم يبعثون .

[الرسالة الحادية عشرة منها] في مسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، أعني الهيولانية عند تقلب حالاتها شهرا بعد شهر وتأثيرات أفعال روحانيات الكواكب في أحكام بنية الجسد من المزاج والتركيب أربعة أشهر قدر مسير الشمس ثلث الفلك واستيفائها طبائع البروج من النارية والترابية والهوائية والمائية ، ثم كيفية تأثيراتها وأفعالها في أحكام النفس أربعة أشهر أخر وما ينطبع فيها من التهيؤ والاستعداد التي هي صورة الأولى بالقوة لتصير صورة بالفعل عند التهيؤ لقبول الأخلاق والأعمال والعلوم والآداب والحكم والآراء في مقبل الزمان ومستقبل العمر بعد الولادة في الشهر التاسع عند دخول الشمس من بيت التاسع من موضعها يوم مسقط النطفة بيت الحركة والسفر والنقلة والتصور والعلم والفطنة ، والغرض منها هو الإخبار عن حال الأنفس البسيطة قبل تشخصها واتصالها بالأجسام الجزئية المحصورة المحدودة المحسوسة بوساطة الألوان والأشكال والأعراض الأخر ، وأن المكث في الرحم هذه المدة لتتميم البنية وتكميل الصورة ، وهو الكمال الأول لاستكمال الآلة وإعدادها الأدوات ولإستتمام رباط النفس بالهيكل واتحادها بقواه وانبساطها في البنية وتمكنها من الجملة .

[الرسالة الثانية عشرة منها] في معنى قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير وهو معنى العالم الكبير المؤدى عن جملته والمخصوص بثمرته ، وأن صورة هيكله مماثلة لصورة العالم الكبير الجسماني ، وأن أحوال نفسه وسريان قواها في بنية هيكله وحقيقة جوهره مماثلة لأحوال الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والشياطين وأرواح الحيوانات أجمعين ، فإن الإنسان مختصر من العالمين : الروحاني والجسماني جميعا مهيأ مجبول من سوس هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وثمرته وزبدته وكدر ذلك العالم وثفالته وأن يكون جوهرا آخر المعاني الجسمانية وأول المعاني الروحانية ، فهو كالحد المناخم لكل العالمين وكالأصل الصالح لمجموع الكمالين وكالجوهر الذي هو بإنيته معقول وكيفيته محسوس ، وكالشيء الذي بذاته حياة من وجه وذو حياة من وجه ، وكالذات القائم بنفسه من جهة والقائم بغيره من جهة ، وكالمعنى المشير بمضمون فحواه ويفطن بمفهومه لما سواه ومن وجه آخر كالفرع المتفقأ عنه البيضة الذي هو له كمال من وجه ومنتهى للكمال من وجه آخر فهو اللازم للوكر مادام طائرا بالقوة ، فإذا استكمل طار فصار طائرا بالفعل ، وكالزاوية التي بوجد ذاتها متوسطة بين المنجزى وغير المنجزى ، ثم النقطة جامعة لحاليهما ، أعني البسيط والمركب ، وكالنبوة التي هي ممتدة إلى الروحانيين بخط وإلى الجسمانيين بخط ، ثم الوحي جامع بين طرفيهما والإلهام حاو لحديهما ، وكنهاية المحيط

التى هى السطح لذى مكان وليس له مكان ، والغرض من هذه الرسالة هو الإخبار عن حال الأنفس البسيطة قبل تشخيصها واتصالها بالأجسام الجزئية والأشخاص الحسية وعلة اتصالها مدة وحال مفارقتها عند بلوغ نهايتها وكيف يعرف الإنسان هويته وأنيته وكيفية نفسه وحقيقة ذاته وأنه مجموع فيه معانى الموجودات كلها فهو كالكل ومحيط بالجميع فينبه كذلك ويتأمل الصواب والفرصة مدة حياته فيقصده ويقتنيه ويحتويه إذ لذلك أنشأه منشئه فيعيده ويبدئه ، ويديمه ويبقيه ، وهو يبليه ويشفيه ، ويهديه لينجيه فيفوز بالبقاء والنعيم المقيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

[الرسالة الثالثة عشرة منها] فى كيفية نشر الأنفس الجزئية فى الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية ، والغرض منها البيان عن كيفية بلوغ الإنسان بدوام انتقاله وتغير أحواله وآخر معاده وماله وكيف يصير إلى رتبة الملائكة ، ومنازل الروحانيين دار القرار ومحل الأخيار عند خلع المادة وبلوغ الإرادة ونهاية السعادة إلى حاوله بعد الموت أو قبله بوجوده الصورى وجوهره النورى ؛

[الرسالة الرابعة عشرة منها] فى بيان طاقة الإنسان فى المعارف وإلى أى حد هو ، ومبلغه فى العلوم ؛ أى إلى أى غاية ينتهى وأى شرف منها يرتقى ، والغرض منها هو التنبيه على معرفة الله جل جلاله والقصد نحوه واستنجاز لقائه والوقوف بين يديه والرجوع بالكلية إليه كما كان منه المبدأ وإليه المعاد والمنتهى ؛

[الرسالة الخامسة عشرة منها] فى ماهية الموت والحياة وما الحكمة فى وجودها فى الدنيا عالم الكون والفساد وما حقيقة المعاد ، والغرض منها هو البيان عن علة رباط الأنفس الناطقه بالأجساد البشرية واتصالها بالأشخاص الجزئية إلى وقت الموت وكيفية التأهب والاستعداد قبل الفوت والاستعجال مادام الخلاص ممكنا والنجاة معرضة والأجسام موجودة والآلة متمكنة والاستهانة بالموت والتجافى عنه وإزالة الخوف منه ببقاء النفس بعد الموت الذى هو مفارقتها الجسد وترك استعمالها إياه واستراحتها من أذاه ووصولها إلى عالمها ووجودها مناها وبلوغها منتهاها وأنه لاسبيل لها إلى البقاء السرمدى الذى لاينغير ولا يزول إلا بمفارقة الجسد المستحيل الذى هو سبب الانتقال والزوال والتغير من حال إلى حال .

[الرسالة السادسة عشرة] فى ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية وعلة كراهية الحيوانات الموت وكيف أسباب الآلام واللذة التى تنال النفوس بسبب الأجسام ، وكيف تنال بمجردها إذا فارقت الجسد ، وكيف يكون انفرادها بذاتها وتجردها بنفسها خلوا منها وانتهائها إلى الفردانية واتحادها بالجواهر الصورانية والذوات الروحانية وكيف يكون لذات أهل الجنان وآلام أهل النيران ، والغرض منها هو التصور أن عذاب أهل جهنم كيف يكون مع الجن والشيطان الغلة المقيدة المنكوسة المعكوسة ، وأن نعيم أهل الجنان كيف يكون مع الملائكة والروحانيين مسرورين فيها مخلدين لايمسهم فيها نصب ولا عناء يتبوءون من الجنة حيث يشاءون ، وأن جهنم عالم الكون والفساد يصلاها من شقى بسوء المنقلب والمعاد ، وأن الجنان فى أعالى عالم الأفلاك وسعة السموات ، سعد بها من فاز بعد المهات بذخائر الخيرات والباقيات الصالحات .

[الرسالة السابعة عشرة منها] فى علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات وكيف مبادى المذاهب والديانات والآراء والاعتقادات ، وأول نشوها وابتداؤها ونماؤها وتزايدها حالا بعد حال وقرنا بعد قرن وكيفية انتقالها من قوم إلى قوم وسبب تغيراتها والزيادة فيها والنقصان منها ، والغرض منها هو التنبيه على أن أفعال النفس إنما تقع بحسب ما فى طبعها وغريزتها وأن قوة البحث عن الخفيات موجودة فى جوهريته أى بضمير التذكير اعتبارا للانسان : أى فى جوهرية النفس كالمادة والعلم صورة لتلك المادة فهى علامة بالقوة والعلم صورة قائمة فيها ، وأن فى قوتها أن تعلم الأشياء المحسوسة والمعقولة من أصناف العلوم فى الأعلى

والأسفل والأدق والأجل منها بقوة النطق ، ولذلك يسنح لذاته سوانح وتخطر بباله خواطر فيعمل فيها فكره فيستخرج بعلمه آراء ويستنبط بذهنه مذاهب ثم يعبر عن تلك الصورة المتخيلة فى ضميره بألفاظ مؤدية عنها ، ثم يقيد تلك الألفاظ برسوم من الكتابة دالة على تلك الألفاظ دلالة الألفاظ على تلك الخواطر ودلالة الخواطر على أعيان الأشياء وحقائقها ومعانيها ، وإنما يتعاطون ذلك على حسب مناسبات من الطباع واتفاقات تقع فى الأوقات والبقاع والمنشأ والمولد والمخالطات بأقوام أصدقاء وأقارب ومعارف والإصغاء إليهم والأخذ عنهم والتخلق بأخلاقهم فبحسب هذه الاتفاقات يقع إيثار الإنسان الشىء على غيره من الآراء والمذاهب والمطالب والاعتقادات والنحل والصناعات والمكاسب ، لأن كل إنسان وإن كان فى ظاهر أمره متمكنا من اختيار مايقتنيه من المذاهب والآراء فبينه وبين كل واحد منها مناسبات جبلية طبيعية باطنية وعادات إلفية ظاهرة تجذبها إليه وتحببها عنده وتعرضه عليها وتدعو إليها وبحسب انجذابه فى طبعه وميله وإلفه يكون تبرزه فيها ومهارته بها ولذلك برز أحدهم فى شىء وتخلف آخر واجتهادهما واحد وربما اتفق أن واحدا منهما سمع كلاما أو رأى أمرا فيرضاه لنفسه ويميل إليه بطبعه ويقتنيه ويدخل فى جملة أهله فيتأكد ألفته وأنسه به على مرور الزمان ، فاذا قوى الإلف واستمرت العادة وسكنت نفسه إليه وتمكن إليه من قلبه لشدة صحبته له ومعرفته به وفرط ميله إليه آثره على غيره حتى يصير فى آخر الأمر إلفا لما يختاره منه ومعاندا لما سواه ويرى له الفضل على غيره من المذاهب الحقيقية والآراء العقلية وإن كان مفضولا ويحكم له بالشرف والعلو وإن كان مشروفا فبحسب ذلك تكثر الاختلافات وتتباين المذاهب والديانات والحق فيهم مع الأنذر الأقل والآخر لاحق بالأول ، ومنها الرسائل النفسانية العقلية تشتمل على عشر رسائل :

[الرسالة الأولى منها] فى المبادى العقلية على رأى الفيثاغوريين ، والغرض منها أن البارى جل جلاله لما أبدع الموجودات فى المبدع الأول ، وهو العقل واخترع المخترعات بوساطته فى النفس وخلقها مقدرة فى الطباع وكونها بحسب الأمهات والموالد ورتبها ونظمها كمراتب الأعداد من الواحد الذى قبل الاثنين والاثنين قبل الثلاثة وكذلك مابعده ، وجعل لكل جنس منها حدا مخصوصا ونهاية معلومة مطابقة بعضها لبعض فاعلة ومنفعلة هيولى وصورة نوعا وجنسا ، إذ رأى ذلك أحكم وأتقن وأكمل وأهدى إليه وأبين .

[الرسالة الثانية منها] فى المبادى العقلية على رأى إخوان الصفا وخلان الوفا ، والغرض منها هو البحث عن علة الأشياء والاخبار وأسباب الكائنات الكليات والجزئيات عن البارى جل وعز كتركيب العدد الصحيح عن الواحد قبل الإثنين .

[الرسالة الثالثة منها] فى معنى قول الحكماء : إن العالم إنسان كبير ذو نفس وروح حى عالم طائع لباريه خلقه ربه جل ثناؤه يوم خلقه تاما كاملا ، وإن كل الخلائق داخلون فيه وهو جملتهم وليس خارج العالم شىء آخر لاخلا ولا ملا ، وليس العالم فى مكان وكل مافيه فى مكان مركل كل واحد من أهل العالم بما يتأتى منه ويقدر عليه يفعلون مايؤمرون وكل فى فلك يسبحون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون ، كما قال تعالى « ومامنا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » .

[الرسالة الرابعة منها] فى العقل والمعقول ومالعقل الهيولانى وما العقل بالقوة وماالعقل بالفعل وماالعقل المستفاد وماالعقل الفعال ، والغرض منها هو تعريف ذات الإنسان وصورة الصور وما جوهر النفس بحقيقتها والاشارة إلى الباقى فيها ، وكيف اجتماع صور المعلومات فيها على تباينها وتغايرها ، وكيف تصورها الموجودات المنتزعة من المواد ، وكيف تصير أحد موجودات العالم بعد أن لم يكن شىء من الموجودات إلا بالقوة ، وكيف خروجه بالصورة من العدم إلى الوجود ، وكيف يحصل عقلا بالفعل وعاقلا بالفعل ومعقولا بالفعل ؛ والوجود

الصورى مجردا من سائر المواد معراة من الهيولات فتبقى بيقاء العقل الفعال وجه الله ذى الجلال والإكرام لاإله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون .

[الرسالة الخامسة منها] فى الأكوار والأدوار واختلاف القرون والأعصار والزمان والدهور ، والغرض منها هو البيان عن كيفية إنشاء العالم ومبدئه وترتيبه وظهوره وغايته وكيفية فنائه وخرابه لو انقطعت مواد بقائه عن مبقيه لينعدم فى الحال ويضمحل بلا زمان ـ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ـ » .

[الرسالة السادسة منها] فى ماهية العشق ومحبة النفوس ونزوعها وتشوقها إلى الاتحاد والمرض الالهى وما حقيقته ومن أين مبدؤه ، والغرض منها هو البيان بأن السابق المشوق إليه للمشوق المطاع المراد المطلوب المحبوب على الحقيقة هو البارى جل ثناؤه ، وأن الخلائق وجملة العالم مشتاقة إليه مريدة متحركة نحو الكمال باستتمام الصورية وعاشقة إلى مصورها الذى هو فوق الصور ، والكمال : التمام وهو البارى المصور له الأسماء الحسنى والأمثال العلى .

[الرسالة السابعة منها] فى ماهية البعث والصور والنشور والقيامة والحساب وكيفية المعراج وعلمها هو الغرض الأقصى من رسائلنا كلها ، وإليه المنتهى وهو الغاية القصوى ، وإليه أشار بقوله ـ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ :

[الرسالة الثامنة منها] فى كمية أجناس الحركات وكيفية اختلافها ومبادئها وغاياتها ، والغرض منها هو البيان عن كيفية وجود العالم عن البارى جل جلاله ، وكيف حركة الطبائع إلى استكمالها وقبول صورها الخاصية فى كل واحد منها وكيفية سكونها عند استكمال كل واحد واحد منها لصورته الخاصية إذ بالصورة يصير الشىء هو ماهو وبه يحصل فى الوجود ويتميز ويتحيز ويصير شيئا معلوما مشارا إليه .

[الرسالة التاسعة منها] فى العلل والمعلولات وكيف رجوع أواخرها على أوائلها وأوائلها على أواخرها والغرض المقصود منها : هو معرفة أصول العلوم ومبادئها وأسبابها وقوانينها ورسومها وكيفياتها على الحقيقة .

[الرسالة العاشرة منها] فى الحدود والرسوم ، والغرض منها هو معرفة حقائق الأشياء وماهياتها وأجناسها وأنواعها المركبة والبسيطة بما هى كل واحد منها وبمعرفتها الوقوف على ذوات الأشياء وكيفياتها وفصولها ، ومنها الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية وهى تشتمل على إحدى عشرة رسالة .

[الرسالة الأولى منها] فى الآراء والمذاهب فى الديانات الشرعية الناموسية والفلسفية وبيان اختلاف العلماء فى أقاويلهم وما أدى إليه اجتهادهم من البحث والنظر والكشف عن الحقائق والأصول وكمية تلك المقالات وما الأسباب والعلل التى من أجلها كان اختلافهم ومن المحق ومن المبطل وما يصلح للجميع وما يصلح للخاص وما يصلح للعام ، والغرض من هذه كلها هو البيان بأن المذاهب والديانات كلها وضعت كالعقاقير والأدوية والأشربة لمرض النفوس وكسب الصحة ولطف الحيل لخلاصها من بحر الهيولى وأسر الطبيعة ووصف طريق الآخرة وكيفية النجاة فى المعاد من جهنم ، عالم الكون والفساد والوصول إلى الجنان والفردوس ، عالم الأفلاك وسعة السموات ، وأن أكثر هذه الديانات لأقوام قد انحرفوا عن طريق النجاة وبعدوا عن انتهاج سبيل الرشاد ، فاستولى عليهم الميل والعصبية والحمية الجاهلية نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فضلوا ضلالا بعيدا وما الله بظلام للعبيد :

[الرسالة الثانية منها] فى ماهية الطريق إلى الله عز وجل وكيفية الوصول إليه ، والغرض منها هو الحث على تهذيب النفس واصلاح الأخلاق وتطهير السرائر وتنزيه الضمائر وتنبيه النفوس الساهية عما بعد الموت فى المعاد من أحوال القيامة والبعث والنشر والحساب والميزان والصراط والجواز على جهنم والورود فيها وحقائق

معانيها ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا .

[الرسالة الثالثة منها] فى بيان اعتقاد إخوان الصفا وخلان الوفا ومذاهب الربانيين الإلهيين ، والغرض منها هو وضوح الحجة على بقاء النفوس بعد مفارقتها الجسد الذى يسمى الموت وحل التشكك فيها وكشف الشبه بطريق إقناعى لا برهانى ، إذ الرسالة الجامعة مقصورة على البراهين على ما أشرنا إليه فى رسائلنا التى هى كالمدخل إليه والعنوان له .

[الرسالة الرابعة منها] فى كيفية عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا وتعاون بعضهم لبعض بصدق المودة وصحة المحبة ومحض الرأفة والشفقة والتحنن والرحمة وسيرهم فى صلواتهم ومذاكرتهم ومجالستهم واجتماعاتهم والغرض منها تأليف القلوب والتعاضد فى الدين والدنيا جميعا إذ هى سبب نجاتهم والمؤدية إلى خلاصهم .

[الرسالة الخامسة منها] فى ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحقين ، والغرض منها هو معرفة الجلالة الروحانية وما الإلهام وما الوسوسة وما التوفيق وما الخذلان وما الهداية وما الضلالة إذ كان هذا الباب علما غامضا وسرا خفيا من العلوم الروحانية والأسرار النفسانية .

[الرسالة السادسة منها] فى ماهية الناموس الإلهى والوضع الشرعى وشرائط النبوة وكمية خصائص ومذاهب الربانيين والإلهيين ، والغرض منها هو التنبيه على أسرار الكتب النبوية ومرامى مرموزاتهم المقصودة وأوضاعهم الناموسية الإلهية والتهدى إليها وكيفية الكشف لها من المهدى المنتظر والبرقليط الأكبر

[الرسالة السابعة منها] فى كيفية الدعوة إلى الله عز وجل بصفوة الأخوة وصدق الوفاء ومحض المودة وخطاب طبقات المدعوين ومنازل المستجيبين إلى ذلك ، والغرض منها هو البيان بأن دولة أهل الخير تبتدى أولها من قوم أخيار فضلاء أبرار يجتمعون ويتفقون على رأى واحد ومذهب واحد وسنة رضية وسيرة عادلة من غير تخاذل ولا تقاعد .

[الرسالة الثامنة منها] فى كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة المقربين والردة والشياطين ، والغرض منها هو البيان أن فى العالم فاعلين نفسانيين روحانيين غير جسمانيين لا يتمانعون ولا يتزاحمون ولا يتضايق بهم المكان ولا يحويهم الزمان ولا يتحصلون بمشاعر الحواس ومدارك العيان ، ذواتهم حيث أفعالهم وصورهم معروفة بآثارهم .

[الرسالة التاسعة منها] فى كمية أنواع السياسات وكيفيتها ومراتب المسوسين وصفات المدبرين لها فى العالم ، والغرض منها هو البيان بأن مدبر الجميع وسائس الكل الحكيم الأول البارئ المصور جل جلاله ، وأن من كان أحسن سياسة وأحسن تدبيرا كان عند الله أعظم منزلة ولديه أقرب زلفة ، ومن كان بقدرة الله أبصر وبحكمته أعرف كان بسياسة خلقه أعلم ، ومن كان بها أعلم فسياسته أحسن وأعدل ، ومن كان كذلك فإليه أقرب ولديه أوجه .

[الرسالة العاشرة منها] فى كيفية نضد العالم بأسره وفى مراتب الموجودات ونظام الكائنات وأن آخرها منعطف على أولها من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، وأنها كلها عالم واحد كمدينة واحدة وكحيوان واحد وكإنسان واحد ، والغرض منها هو الوقوف على معرفة الحقائق ومباديها وتواليها وسواقها ولو احقها علما يقينا وبيانا شافيا مقنعا كافيا بلا شك ولا شبهة ولا ريب ولا مرية ، وأن مبدأها كلها صادر عن فعل الله عز وجل وحده الذى هو الابداع المحض لا من موجود هو أولها بالوجود والوحدة وأقدمها فيه ، وهو المبدأ الذى أبرز الله فيه سائر الموجودات ، تنبعث منه القوى متكثرة نحو غاياتها المختلفة وإليها تصاعد متحدة ، وأن إلى ربك المنتهى ، وإلى الله ترجع الأمور ، وجعل السبب الأول الذى به يتعلق ما سواه

من سائر الوجودات تعلق للعلول بالعلة مرتبطا بعضها ببعض فاعلة ومنفعلة منتقلا من رتبة الدنيا إلى رتبه القصوى ارتباط معلول بعلة على حسب بواديها وتواليها إلى أن تلاحق بأجمعها وتتوارد بأسرها إليه فيكون هو علة العلل ومبدأ المبادى الفائضة بما أفاض إليه البارى جل جلاله على مادونها بخيرها وجودها يقبل كل ذات من الذوات بقدر ما يحتمله منها من الوجود اللائق به فى الدوام والبقاء. نور الله وعنايته ورحمته وكلمته به الله يهدى من يشاء ويثيب، وإليه يرجع من ينيب . انتهى ماجاء من إخوان الصفا .

المبحث الثانى فى نظرات المؤلف وبهجة النجوم فى السماء

آثار جمال الله وإبداعه الجميل ، والكلام على النجمة للسماة فريحة عندالفلاحين بمصر

فى سحر يوم الأحد ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ - ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٣ استيقظت قبل الفجر لأتعاطى طعام السحور ، ثم وقفت فى العراء أرقب النجوم وأدرسها وأطبقها على الخريطة المرسومة أمامى للترجمة عن اللغة الانجليزية ولقد لفت نظرى كوكب ساحر بهج جميل ماهو ذلك الكوكب؟ ذلك أنى كنت نائما فى الحقل، فسمعت الفلاحين العاملين فيه يقولون ها هى ذى [فريحة] فقلت فى نفسى لقد كنت أسمع اسم فريحة وأنا صبى وأراها بعينى ، وكنت أفرح بها إذ أراها ترقص فى أفق السماء بهيئة تفرح النفوس وتشرح الصدور ، فلما نظرتها قابلتها بالخريطة السماوية إذا هى [العيوق] ذلك الكوكب اللامع البديع ، ويقرب منه باء ممسك الأعنة ، وباء الثور ، وألفه والثريا ، وإيضاح هذه المنطقة [أى منطقة العيوق] هو ما جاء فى كتاب النجوم فى مسالكها وهذا نصه :

فى هذه المنطقة تكتسح المجرة كوكبة ممسك الأعنة [راكب العربة أو سائقها] التى تحتوى النجم الساطع العيوق أو ألف ممسك الأعنة .

ومن السهل تعرف العيوق لأنه يقع فى منتصف المسافة بين حزام الجبار وبين القطبية ، كما أنه يقع تقريبا على خط على استقامة أكبر ضلع فى الشكل الرباعى الظاهر الذى يكون جزءا من الدب الأكبر ، ويمكن تعرفه أيضا بثلاثة نجوم لامعة قريبة منه على شكل الرقم ٧ صغيرة ، وتعرف هذين بالجديين ، أما العيوق نفسها فهى للعزى :

ويصل العيوق إلى خط الزوال عند منتصف الليل فى أوائل ديسمبر فى لندن وعندئذ يكون جنوب السمت بنحو ٥٦ ، وهو النجم الذى تمتاز به ليالى الشتاء كما أن النسر الواقع [انظر منطقة ٧] هو النجم الذى تمتاز به ليالى الصيف ، والعيوق أقل لمانا من النسر الواقع بشىء قليل ، لكن كلا منهما ألمع من أى نجم آخر فى نصف الكرة الشمالى ، أما نصف الكرة الجنوبى ففيه الشعرى اليمانية وسهيل اليمن وألف قنطورس [انظر الذيل الثانى] وكلها نجوم ألمع من أيهما .

والعيوق نجم ثنائى بعده عنا معروف بدقة تذكر وهو ٥٢ سنة ضوئية ، وشقاه [النجمان المركبان] أضوأ من الشمس : أخذهما بقدر ١٠٥ مرة ، والثانى بقدر ٨٠ مرة وهما يدوران أحدهما حول الآخر فى ١٠٤ من الأيام ، وقطر أكبر النجمين يبلغ نحو قطر الشمس إحدى عشرة مرة ، فيكون حجمه قدر حجمها نحو ١٢٠٠ مرة ، ومع ذلك فوزنه قدر وزنها $\frac{1}{5}$ ٤ من المرات فقط ، وقطر النجم الأصغر نصف قطر الأكبر ووزنه نحو $\frac{4}{5}$ وزنه وكلاهما مارد أصفر [صفحة ٩٣] :

ويقع باء ممسك الأعنة تقريبا على نفس الخط العرضى الذى يقع عليه العيوق [أى أنهما على نفس

البعد من القطب] وهو أيضا نجم ثانى مكون من نجمين كلاهما أكبر من الشمس يدور كل حول الآخر فى أقل من ٤ أيام بقليل ، وإذ يفعلان ذلك يكسف كل منهما الآخر ويضمه ، وبذا يدخس ضوء النجم مؤقتا ، وهذه المجموعة تبعد عنا بنحو ١٠٠ سنة ضوئية ، وشقاه متساويا اللمعان كل منهما أضوأ من الشمس نحو ٥٠ مرة ، وهما من نجوم التتابع الرئيسى تقرب طبيعة تركيبهما من طبيعة الشعرى اليمانية .

وفى جنوب هذين النجمين [وعلى بعد من كل منهما يقرب من ضعف البعد بينهما] نجد نجما لامعا آخر هو باء الثور ، وهو ثانى نجم فى اللمعان فى برج الثور الذى يقع جزء كبير منه فى هذه المنطقة ، وألمع نجم فيه وهو ألف الثور أو الدبران يقع فى منطقة ٩ لكن الجزء الذى يقع فى منطقة ٣ يحتوى الجمع الشهير المعروف من القدم باسم الثريا ، هـــذا الجمع يكون طائفة من النجوم تسترعى حتى العين المجردة ، لكن محاسنها تكون أكثر تجليا لو نظر إليها من خلال مرقب ولو ضعيف القوة ، وهى طائفة من نجوم متصلة اتصالا فعليا تتحرك كلها معا عبر الفضاء بسرعة واحدة فى اتجاه واحد كسرب من الطير البرى .

وإذا رسمنا خطا من باء تمسك الأعنة إلى العيوق ثم مددناه بقدر ضعف طوله وصلنا إلى الغول أو باء فرساوس ثانى نجم فى اللمعان فى كوكبة فرساوس ، وهو نجم متغير شهير جدا كان تغيره معروفا من أقدم الأزمان ، وهو أيضا مجموعة ثنائية تتألف من نجمين : واحد لامع وواحد مظلم يدور كل منهما حول الآخر مرة فى كل يومين وإحدى وعشرين ساعة ، ويكسف أحدهما الآخر فى خلال ذلك ، فعند ما يكون النجم المظلم أمام اللامع يأخذ الضوء يهبط فجأة إلى ثلث ما كان عليه وبعد ذلك يرتفع ثانية إلى مقداره الأصلى من غير تريث يذكر ، فالهبوط والارتفاع يستغرق كل منهما نحو ٤ ساعات ، والتغيرات فى اللمعان يسهل رؤيتها بالعين المجردة ، وفى شمال الغول فوق فرع من المجرة يقع النجم اللامع ألف فرساوس أو المرفق ، وتحتوى كوكبة فرساوس أيضا على جمعين نجوميين ظريفين مكونين من نجوم لامعة ، كلاهما يرى بالعين المجردة كأنه رقع لامعة على المجرة ، ولو أن النجوم المكونة لهما بالطبع أقرب إلينا كثيرا من نجوم المجرة وهما بالتقريب على الخط الواصل من ألف فرساوس إلى دال ذات الكرسى على نحو $\frac{3}{5}$ البعد من الأول ، ولو نظرنا إلى الجمعين بمرقب صغير لكشف لنا فى ألمعهما عن نجوم جميلة على شكل حدوة الحصان ولكشف لنا فى أخفاهما عن شكل مثلثين .

ثم أقول : هذه النجوم كلها راقبتها بنفسى وحققتها ، وانشرح صدرى للوقوف على هذه الظواهر التى كنت سابقا أقرؤها فى الكتب ولا يتسنى لى معرفتها ، فحمدت الله حمدا كثيرا ثم فكرت فى أمر هذه النجوم وبدائعها ، وأخذت أقول : يا ألله حمدا لك أهذا هو العيوق ؟ سبحانك يارب وجب حبك ليس فى هذه الأرض أعقل من الأنبياء والأولياء والناس جميعا بالنسبة لهم همج الهمج رعاع يتبعون كل ناعق .

رباه : أهذا هو العيوق الذى تمتاز به ليالى الشتاء كما تمتاز بالنسر الواقع ليالى الصيف أهذان هما النجمان اللذان هما ألمع النجوم فى نصف الكرة الشمالى .

هذا الضوء الذى وصل إلى عينى من العيوق قد سافر منذ اثنتين وخمسين سنة : إنى أراه نجما واحدا ، ولكنه نجمان ، وأحدهما قدر الشمس (١٢٠٠) مرة .

وقفت فى هذا الموقف أنظر الثريا والدبران والهقعة التى تحرب منه والثور وتمسك الأعنة والعنزين وفرساوس والجبار ورجل الجبار وحزام الجبار والرزم ، وقفت أنظرها ، وقفت أفكر فيها وفى عظمتها وفى جمالها وقفت ووقفت وحرت وطار لبى ودهشت وفكرت فى عقلى وفى قلبى وفى تركيب مخى وجمجمتى وفى عجائب عينى للرسومة عند آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » فى سورة ق وأن فى داخلها

أعمدة تعد بالملايين واسطوانات تعد بالملايين أيضا قد رسم بعضها هناك ، وهذه كلها تساعدنى على أن أنظر هذه النجوم وغيرها وفى عينى من العجائب فوق مافى عينى، هذا بعض تركيب جسمى لأنظر وأفكر فى عظمة هذه النجوم التى أراها الآن بعينى ، حقا حقا صدق الأنبياء ، وصدق المرسلون ، وصدق الأولياء ، هؤلاء هم الذين يعقلون وسواهم نائمون ، لقد أجمعوا على أمر واحد : وهو أن المحبوب الحقيقى هو الذى أبدع هذا النظام ، لاسعادة فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بحب مبدع هذا النظام ، حقا إن المقصود الحقيقى ذات الله تعالى أفليس هذا الجمال من آثار إبداعها ؟ أفليس هذا النور من إشراقها ؟ أفليس الحب الذى فى النفوس أثرا من آثارها؟ أفليست كل رحمة وكل محبة وكل عظمة إنما تنزلت من هناك؟ جاهل جاهل : من يعيش وهو غافل عن منبع كل جمال وكمال فى الأرض .

(١) إن الصور الجميلة فى الغيد الحسان .

(٢) وعظماء الملأ من أشراف الأمم وملوكها الذين يملئون القلوب مهابة والنفوس روعة .

(٣) والأنبياء والحكماء الذى لهم السلطان الأدبى على الطائفتين المتقدمتين . هذه الطوائف الثلاث لكل منهم نوع من الجمال والاجلال ، فالغيد الحسان النظر إليهن راجع للشهوة الوقتية التى تنتهى ببقاء نوع الانسان والحيوان ، وباجلال الملوك والعظماء تحفظ الأمم ويسود فيها الأمان وباجلال الأنبياء ونحوهم تكمل النفوس وتشرف الطباع ويهذب القسمان الأولان .

فأنواع الجمال المتقدمة صادرة من الذات الأقدس فهى منبع الجمال الظاهرى والباطنى فليكن الحب لذلك المنبع والاجلال له ، فيالبت شعرى كيف يستغنى بالجنة عاقل عن مبدعها ، فقه در علمائنا رحمهم الله إذ يقولون فى قوله تعالى « ولدينا مزيد » إنه النظر لوجه الله الكريم ، وصدقوا إذ يقولون : إن النظر إلى ذات الله أرقى من التمتع بجنات النعيم هذه يسمعها الجاهل من وراء حجاب .

إن إبراز هذه المعانى فى الكتب من أكبر النعم على نوع الانسان لأن فى الناس من خلقوا ونفوسهم تتوق إلى ماهو أعلى فى الجمال وهو مبدع الجمال فلا تهوى سواه ولا تحب إلا إياه بل تفنى أرواحهم فى حبه وتكاد تذوب شوقا إليه ، فمتى سمعت هذا القول حنت إليه وأنت وبكت وتمنت لو تركت الدنيا والآخرة وتمتعت بلقائه ، فذلك المشهد مقصدها وهمها الوحيد .

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

لما فكرت فى ذلك رجعت إلى ما سمعته من الفلاحين وهم يقولون فى العيوق إنه فريحة .

ولا جرم أن هذا تصغير فرحة وهذا تصغير تعظيم كما قيل :

عوذت حبيبى برب الطور كل ما يجرى من المقدور
ما قلت حبيبى من التحقير قد يعظم اسم الشئ بالتصغير

فرح الفلاحون والصبيان بفريحة فرحوا بمظهر جمالها ، ولكن فرح الأنبياء والأدباء والحكماء بباطن الجمال بل بمن هو مشرق الجمال والبهاء فرح تعجز عن تسطيره الأقلام ، فرح هو نهاية الأفراح ، فاذا قال الفلاحون فى الحقل إنها فريحة أى فرح عظيم ، فكأنهم عبروا عما تكنه قلوب الأنبياء والحكماء من الفرح العظيم الدائم ، وكيف يكون الفرح عظيما إلا إذا دام ، وهل دوام لغير مصدر ذلك الجمال ، إن فى السنة العامة لحكما . إن الصبيان والعامة فى بلادنا بالشرقية يقولون إذا رأوا فى السماء سحبا بيضاء متقطعة [إن السماء مزينة لقد مات اليوم عالم] إذن هم يقولون إن السماء زينت للعالم إذا مات وهذا حق لأن كل امرئ حالت نوازعه الحيوانية وهذبت وعرف الحقائق تزين له السماء الآن فى حياته وبعد موته ، ولكن السماء

لاتظهر زينتها لغير هذه الطائفة ، والسماء مكشوفة ولكن لايراها إلا الأقلون هي مزينة ومكشوفة لكنها محجوبة عن جميع نوع الإنسان إلا عن أكابر المفكرين ، فهؤلاء تغيب عقولهم من المسرة وتتصل بالعالم الأعلى ثم ترجع فتشرق بأنوارها على أهل الأرض : أي على إخوانهم التائهين فى ظلمات هذه الدنيا وشهواتها فهم هم خلفاء ربهم منه يأخذون ويرجعون إلى إخوانهم العباد، فحالهم الأولى حمد الله، وحالهم الثانية اهتداء وهداية للصراط المستقيم ، وهذا ملخص معنى الفاتحة .

قد يبرع الإنسان فى علم الفلك ومسالك النجوم ،وقد يكون من أكابر العلماء فى العوالم العلوية والسفلية وهو محروم مبعد عن ذلك الادراج العالى البهيج ، فالعلم بهذه العوالم شيء والاستلذاذ بادراكها شيء آخر ، إذن قوله تعالى « وزيناها للناظرين » يشمل كل ناظر لأنها مكشوفة للناس أجمعين ، ولكن لما كان أكثر الناس ينظرون هذا الجمال ولا يطربون ويكتفون بالجمال الجزئى الأرضى لنقص فطرهم أتبعه بقوله «وحفظناها من كل شيطان رجيم » ففى ذلك إشارة إلى أن النفوس الناقصة وإن لم تكن شياطين الجن فهى شياطين الإنسان قد أبعدت بفطرتها عن التمتع بهذا الجمال وحجبت عنه وكأنها رجمت فبعدت ، فأكثر الناس عمى القلوب وعيونهم مبصرة « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » إن القلم ليعجز عن التسطير ، وإن اللسان ليعجز عن التعبير :

كتب قبل الفجر وتم بعد صلاة الصبح فى التاريخ المذكور أعلاه بقرية [كفر الباشا] عند زيارتى لمزرعتنا بذلك الكفر من ضواحى القاهرة ، والحمد لله رب العالمين :

سحر ليلة الاثنين

قد تمت هذه الليلة فى الحقل لأشاهد النجوم واستيقظت قبيل الفجر وأخذت أرقب النجوم فرأيت منطقة التوءمان ، وهى المنطقة الرابعة وتحققتها بمعونة العيوق وفرساوس ومد الخط على استقامته من جهة العيوق فيصل إلى مايقرب منهما ، وهذه المنطقة تحوى أجزاء كبيرة من برجى التوءمين والسرطان وجميع كوكبة الفهد وأهم أجرامها النجمان ألف التوءمين وباؤه ،وهما ألمع نجوم برج التوءمين يعرفهما الجميع باسم الذراع المبسوطة [التوءم المقدم والتوءم المؤخر] والتوءم المقدم الذى لعله أظرف نجم ثنائى فى السماء الشمالية صالح جدا لأن يرصد بالمراقب الصغيرة ، وأحد هذين النجمين يبدو نصف الآخر فى لمعانه ، أما فى الواقع فهما أضوأ من الشمس نحو ٢٣ و١١ مرة ، ويبلغ بعدهما عنا نحو ٤٣ سنة ضوئية ، وطبيعة تركيبهما العام كطبيعة تركيب الشعرى اليمانية ، ووزنهما معا قدر وزن الشمس ٥ ½ من المرات ، ويدور كل منهما حول الآخر مرة فى كل ٣٠٦ سنة ، ويوجد فى المستعرة نجم ثالث خفى أحمر هو ثالث ألف التوءمين لايبعث من الضوء إلا ⅕ مما تبعث به الشمس ولا يرى إلا بمرقب جيد .

وقد اكتشف حديثا أن كل واحد من هذه النجوم الثلاثة هو فى نفسه نجم مزدوج ، فالتوءم المقدم فى الواقع مستمرة من ستة نجوم ولا يمكن إدراك ازدواج أى هذه النجوم الثلاثة الرئيسية حتى ولا بأقوى المراقب ، لكن طرقا طيفية [سبكتر وسكوبية] كتلك التى استعملت للكشف عن أسرع السدائم البعيدة صفحة ١٥٥ (١)] تبين أن كل نجم منها يتركب من جزأين متحركين بسرعتين مختلفتين ، وإذن فلا بد أن يكون كل منها مكونا من كتلتين منفصلتين تتحرك إحداها حول الأخرى على بعد منها هو من الصغر بحيث لايمكن أن ترى متميزة عنها بأى مرقب ، وتسمى مثل تلك النجوم بالثنائيات الطيفية ، وتبلغ مدد

(١) أى فى كتاب النجوم فى مسالكها .

دوران ٢٢ ر ٩ من الأيام لألمع نجم و٩٣ ر ٢ من الأيام الذى يليه فى اللمان و ٨١٤ ر ٠ قفط من الأيام أى عشرين ساعة للنجم الأحمر الخفى ، والنجمان المكونان للأخير يكسف الواحد منهما الآخر بانتظام فى أثناء دوران أحدهما الآخر ، وهما فيما يظهر متشابهان من جميع الوجوه ، ولكل منهما قطر يزيد زيادة تذكر على نصف قطر الشمس ، ووزنه يساوى نصف وزن الشمس .

وليس فيما تحتويه منطقة ٤ من أجزاء برج السرطان نجوم لامعة ولا أجرام أخرى ذات أهمية خاصة . كذلك كوكبة الفهد أيضا لا تحتوى على نجوم تلفت النظر ، وإنما تحتوى على كثير من النجوم المزدوجة وأجرام أخرى تمتع من يبده مرقب جيد .

كتبت هذا قبيل الفجر .

تذكرة

لقد تذكرت ليلة أمس ذكريين : إحداهما ذكرى مدرسة دار العلوم وأنا بها تلميذ ، وثانيهما ذكرى للمدرسة الخديوية وأنا بها مدرس :

ذكرى دار العلوم

تذكرت أن المرحوم أحمد أفندى حمدى أستاذنا فى العلوم الرياضية وهو يدرس لنا بسائط علم الفلك سألته قائلا ، إننى كنت أسمع وأنا فى بلاد الفلاحين أنهم يقولون لثلاثة نجوم لامعات فى السماء وأمامها مايشبه لسان [للميزان] فأجابنى قائلا : هذه تسمى حزام الجبار ، ومضى ذلك الزمان وأنا حائر لا أدرى أليست هذه هى الجوزاء ، فها أناذا الآن وقفت على الحقيقة ، فهذه من برج الجوزاء وتقدم شرحها .

ذكرى المدرسة الخديوية

كنت مدرسا بالمدرسة ومعى مدرسون من أبناء العرب ومن الانجليز ، ولقد كانت بينى وبين الآخرين محادثات ومسامرات فى الأمور العلمية فكنت أسمع منهم أن بعض المجلات عندهم قد رسمت اليوم جميع النجوم التى ترى فى السماء بهيئة واضحة ليتمتع القراء بدراسة نجوم السماء ليلا ، فكنت أقول يا عجبا إن الانجليز يدرسون مناطق السماء فى الفلك كما يدرسون مناطق الأرض فى علم الجغرافيا ، ولكن لماذا يحرم المصريون من هذه النعم والحكم وصممت أن أؤلف كتبا صغيرة تحوى كل ما أعرفه من هذه العلوم لتكون تذكرة للأجيال المقبلة ، ذلك أنى كنت أعرف أنهم يسلبون من أبناء بلادى تلك العلوم شيئا فشيئا ليحرموهم من معرفة السماء ونجومها إلا قليلا ، ومن معرفة النبات والحيوان ولم ترجع العلوم لبلادنا إلا بعد أن نالت الاستقلال الداخلى الجزئى :

ماسر هذا المنع؟

إن سير هذا المنع قد عرفته من كتبهم فهم يقولون : إن الانسان لا يكون محبا لبلاده نافعا لهم إلا إذا أغرم بالعلوم الطبيعية ونحوها فيدرس النبات والحيوان والكواكب ونحوها فالوطن الحقيقى هو الذى يغرم بتلك العلوم ، وكأنه لما درس عجائب ما حوله أشرقت نفسه بالجمال فمال قلبه إلى سكان ذلك الوطن وقد قوى هذا الرأى علماء النفس فى زماننا «وقتل الانسان ما أكفره» .

إذن كان الإنجليز يمنعون هذه العلوم لثقل حماسة الشبان لبلادهم . بذلك ظهرت خيانة الوطن فى الشرق لغفلة الزعماء ونقص علومهم ، ولذلك نرى أكثر الزعماء فى الغرب يحافظون على أوطانهم ، فأما زعماء الشرق فإن بعضهم لايبالى ببلاده ، وذلك لأن نفسه لم تستنر بجمال العلم ، ولم تشرق بنور الحكمة المشرقة فى نباتها وحيوانها ونجومها ، فأصبحت تلك النفس محصورة فى اللذات الحيوانية ، وهذا القول يمت بسبب إلى ماقاله [سقراط] إن الحكام الذين لم يغرموا بالعلوم والحكمة يكونون قوما ظالمين ، ذلك لأنهم يدورون حول مقصد واحد وهو شهواتهم ، فيظنون أن أممهم إنما هى مزرعة يزرعون فيها شهواتهم القصيرة المدى ، أما ذلك المغرم بالعلم المعجب بالحكمة فإنه تتسع مداركه ، فيرى أنه أب لأبناء أمته ، ويزدرى تلك الشهوات الوقتية ، هذا هو السبب الذى من أجله اجتهدت دول أوروبا أن تحجب أبصار أهل الشرق عن هذه المعرفة الشريفة .

رجال السياسة ورجال الدين والمنوم المغناطيسى كل هؤلاء من واد واحد

لايقوم للاستعمار سوق إلا فى بلاد أخضعها الجهل ، لهذا السبب يجد أهل أوروبا فى تعميم الجهل فى بلاد الشرق ، ولكن هيهات هيهات ، هاهو ذا دين الإسلام قد ظهرت فى تفسيره جميع العلوم وازدهرت ، وأصبحت نفس العلوم عقيدة إسلامية ، فلا ذل للمسلمين بعد اليوم إلا قليلا .

ولقد سار رجال السياسة فى أوروبا على نفس النهج الذى سار عليه كهنة المصريين قديما وعلماء الدين فى الهند من البوذيين والبراهمة ، فهؤلاء جميعا غشوا عقول الشعوب بتلك الهياكل والتماثيل فحجبوا عنهم الحقيقة فاستكانوا لهم فصاروا لهم عبيدا خاضعين ، وهل هذا إلا كالتنويم المغناطيسى ، فالمنوم ـ بكسر الواو ـ يخضع المنوم بفتحها فيكون طوع أمره ، لأنه لا إرادة له ، فهكذا المتدينون التابعون للأديان البائدة ، وقدمهم فى ذلك صغار الرجال من الصوفية ومن نحا نحوهم من الباطنية والقرامطة ، ألم تر إلى حسن بن الصباح فى أواخر القرن الخامس فإنه حرم العلم على أتباعه مريدا بذلك أن يستخدموا له ، كل ذلك قد تم فى القرون الماضية والحاضرة .

فأنا بهذا أحذر المسلمين ، وأنا أبشرهم أيضا بأنهم لن ينال منهم بعد اليوم الطامعون إلا قليلا ، لأن الله أذن باستنارة عقولهم ، وإشراق نورهم وهوالولى الحميد .

كتب فى سحر يوم الاثنين ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٣ بكفر الباشا بقرب المرج من ضواحى القاهرة .

تفصيل لما تقدم

تذكرة بعد صلاة الصبح فى تاريخه

قد ذكرت فى المقال المتقدم أن خيانة البلاد لا تكون إلا من أناس جاهلين ، وأفصل ذلك الآن تفصيلا فأقول :

لقد استخدمت أوروبا رؤساء الدين فى البلاد المستعمرة الإسلامية لها .

مثال ذلك أنهم استعملوا فتنة ابن رفادة فى هذه السنة وما قبلها ، فقام بثورة على عبد العزيز بن سعود بالحجاز ونجد ، وقد أعطاه النقود والسلاح الأوربيون فأخمد ثورته ملك نجد والحجاز المذكور هكذا فى الأسبوع الذى أكتب فيه هذا المقال : حرض الأوروبيون طائفة الآشوريين بالعراق ، وأعطوهم السلاح

والمال؛ قاموا بثورة أخمدتها حكومة العراق فلماذا هذا كله ؟ ذلك كله لأن الانجليز أدخلوا العراق فى عصبة الأمم ، وجعلوهم مستقلين ، ويراد بأمثال هذه الثورة أن يمس استقلال العراق بالسوء .

إن هؤلاء الآشوريين لجهلهم اتبعوا غواية الأوروبيين ، ولكن الأقباط بمصر وإن كانوا مسيحيين كالآشوريين قد أخذوا حظا من العلم فاتحدوا مع المسلمين وقاموا ضد المستعمرين ، هذا ضرب مثل للقاعدة المتقدمة ، فحكام البلاد وعظماؤها المتعلمون هم الذين يعرفون أوطانهم ، أما جهلاؤهم كمن ضربنا بهم الأمثال فى زماننا ، وهكذا صغار رجال الصوفية الذين يتولون الزعامة فى بلاد الاسلام لجهلهم الفاضح بجمال العوالم المحيطة بهم من عجائب السموات والأرض ، صاروا حبائل يقتنص بها المستعمرون المسلمين المساكين .

ومثلهم فى ذلك بعض من تعلموا فى مدارس المبشرين ؛ ومن حرموا جمال الحكمة فى السموات والأرض فهؤلاء صاروا مثل السوء فى حكمهم فى بلاد الشرق ، وظلمهم الفاضح ، ومعاونتهم للمستعمرين الذين هم به يصولون ، ولكن الحمد لله قوة الرأى العام تقوم بانهاك قوى هؤلاء الفاسقين .

جمال السموات وجمال الأرض جواذب العقول لحب البلاد

فشتان مابين أولئك الجهال المساكين أمثال ابن رفادة والآشوريين وصغار رجال الصوفية الذين اتخذوا الدين حرفة لهم ، والمتعلمين تعليما ناقصا فى مدارس الشرق ممن اغتروا بالشهادات البتراء التى تنقصها العلوم الطبيعية التامة ، وما بين الفئتين الصغيرة فى جميع الأمم الأوروبية ، فهؤلاء لما أشربت قلوبهم حب بلادهم بما أنسوا بجمالها بالدراسة لم يثوروا عليها ولم يمكنوا الأعداء منها ، اللهم إلا أمة اليهود بألمانيا : فان هؤلاء لايحبون أحدا غير بنى إسرائيل ، وقد اتخذوا الأمم كلها مزرعة لهم ، وكأنهم فوق الجميع ، لذلك طردهم [هتلر] من البلاد فى هذه الأيام .

وبالاجمال إن جمال العوالم العلوية والسفلية سيملأ قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا أمر أصبح واقعا حقا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الزبرجدة الثالثة .

الزبرجدة الرابعة

فى بعض نتائج العجائب المحمود عليها ، وهى المحبة تفصيلا لقوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » للفصلة لآية « الحمد لله رب العالمين »

فى يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣

ها أناذا فى قرية [كفر الباشا] عند مزرعتنا التى اعتدت الترويض فيها والعمل فى إصلاحها .

ذكرى

ها أناذا بعيد عن ضوضاء القاهرة قريب من الصحراء الشرقية فى الهواء الطلق النقى ، هاهى ذه أعمال المزرعة قائمة ويموزها تفكير وتدبير ، ولكن هل تحجب نفسى عن مزاولة ما خلقت له .

هاهو ذا قلبى يحدثنى بالحب ، هاهى ذه نفسى تقول : البدار البدار ، لهذه العوالم جمال ، ذلك الجمال تحجبه شئون الحياة ، وهواجسها ومصاعبها والاغترار بظاهرها ، كلا ، غلب الجمال نفسى فتمتعت به فهاك حديث الحب :

منذ أيام كنت جالسا فى هذه القرية مع نفر من سكانها ، وقد أخذ أحدهم يذكر ابنه الذى يتعاطى من ديوان الأشغال نقودا كل شهر ولكن لا يعطى والده إلا قليلا منها ، قال : ولما أن بلغنى من أحد أصحابه أن فى عينه مرضا بت بليلة نابغية ، وساورتنى الهموم ، وأحاطت بى الأسقام ، ولم يرقأ لى دمع حتى إذا انفلق عمود الصباح وقال المؤذن : حى على الفلاح ، بادرت إلى السعى فى معالجته ، والقيام بشئونه ، حتى اطمأنت نفسى على سلامة عينيه ، وذلك شأن الآباء والأمهات مع أبنائهم فى هذه الحياة ، فما أتم مقالته حتى أحسست أن روحى فى عالمها وقد تجردت للمعانى الشريفة والحكم المنيفة . نعم أنا جالس معهم ولكن الجسم شىء والروح شىء آخر : الجسم يحدث سامعيه ، والقلب تجلت له أنوار وجمال ، وما مثال هذه الكلمات من ذلك الفلاح إلا كمثل حب نبت زرعا وشجرا فأورق وأزهر وأثمر أجمل الثمرات .

خيل لى أن فى هذه الأرض نفوسا شريفة أدركت من المعانى أسماها ، ومن الحكم أعلاها ، فأخذت تقيس حب الأبوين لأبنائهم بحب الله لمخلوقاته ، وليس يصد هؤلاء عن هذا البحث ما يعترضهم من أن فى هذه الأرض نفوسا كافرة تخلد فى النار ، فهؤلاء ليست عيونهم فى غطاء ولاهم فى غفلة ، لأنهم يعلمون أن العوالم واسعة جدا ، والأرض تكاد تكون عدما بالنسبة لهذا الوجود ، ولقد قدر العلماء أن العوالم كلها لو صغرت فصارت ألف مليون أرض كأرضنا لكانت أرضنا إذ ذاك جوهرا فردا لا تستطاع رؤيتها .

الله خلق العالم وهو عالم قدير : لا خلق إلا مع علم وقدرة ، وليس يعقل أن يخلق بعلمه وقدرته مايكره وجوده ، كلا فهو مختار ، والمختار لا يخلق ما يكرهه ، ولم نر امرأ فى أرضنا يكره حقوله وبساتينه فيحرقها لشوكة فيها نابتة أو حشائش نبتت فيها ضارة بزرعها ، كلا بل نراه يقلع جذور مايضر النبات ويمزق من الشوك والقتاد والحشائش مالا فائدة منه . وهو مغتبط بحقله ، سعيد بحديقته ، مجد فى عمله مكين .

فاذا جاء فى القرآن فى أقوام «يحبهم ويحبونه» فهذا فتح باب لدراسة الحب جل الله جل الله .

هذا الرجل لا ينال من ابنه كثير فائدة ، وهو لا يزال يعطف عليه ولا تقر عينه إلا بأن يراه سعيدا مع أن هذا الأب لم يخلق لابنه عينا تنظر ، ولا أذنا تسمع ، ولا أنفا يشم ، ولا لسانا يذوق ، ولا مخا يكون مناط الإحساس والعقل ، ولا هو الذى حسن خلقه وأعطاه الحياة ، ولا خلق له من الشجر والزرع ما يقيته ولا هو الذى سخر له الشمس تشرق عليه ، فيرى الطرق ، ويميز بين الحبيب والعدو ، والضار والنافع ،

فاذا كان هذا حب الأب لابنه وهو بالنسبة لخلقه لاهو فى العير ولا فى النفير ، وغاية الأمر أن حدث بعد شهوة ملكت مشاعره ، ولم يكن ليقصد بها خلقا ، ولا حياة ، ولا صحة ، ولا تعليما ، فما بالك بمن خلق بعلم وقدرة ، وهو للصور المقدر الذى جعل فى العين تسع طبقات أبعدها ، وهى الشبكية مقسمة (١٠) أقسام والقسم العاشر منها وهو أبعدها فيه أساطين ومخاريط تعد بالملايين ؟

إن هذه الطائفة لا محالة التى تجلت لها الحقائق توقن إيقانا تاما بأن هناك محبة فائقة لا كمحبتنا ، كما أن هناك رحمة لا كرحمتنا هى محبة قدسية ، قد جعل ما نشاهده من محبة الأبوين لأبنائهما ضرب مثل لها : هناك عين ترعى وحب عظيم ، وجميع ما نراه من حب الآباء والأمهات لأبنائهن من كل حيوان وإنسان بالقياس إلى تلك المحبة القدسية لا تعدو أن تكون أشبه بالسراج إذا نسبناه إلى الشمس فى رابعة النهار .

ضوء المصباح أثر من آثار نور الشمس

هكذا محبة الآباء للأبناء أثر من آثار الله عز وجل ، ولا نسبة بين المحبتين كما لا نسبة بين المحبين ،

الله أكبر : إن هذه الطائفة التى تتجلى لها هذه المعانى متى أيقنت بها أشرقت قلوب رجالها بالحب وأحست فى نفسها بالسعادة والكمال .

بهجة العلم فى أن من أسباب المحبة الجمال

هذه المعانى تجلت لنفسى وأنا أستمع لحديث ذلك الفلاح فى قرية [كفر الباشا] عند مزرعتنا بضواحى القاهرة من جهة الشمال .

جمال الأزهار فى حدائق الجيزة أتم لى هذا المقال

بعد بضعة أيام من هذا الحديث ، بدت لى أعمال فى ناحية [الجيزة] إذ توجهت إلى [مدرسة الهندسة الملكية] :

عجبا لهذه النفوس الإنسانية : نفوس أتقن صنعها ، وأجيد وضعها ، فأخذت تستخدم ما حولها فيما تخيلته ، وتستنتج مقاصدها مما شاهدته ، ذلك أنى بعد أيام قصدت [المدرسة الملكية] فى ضواحى الجيزة فما قفلت منها راجعا حتى شاهدت منظرا جميلا راقنى ؛ ماهذا المنظر ؟ منظر ألفته نفسى أيام الشباب ، وقلما نراه أيام المشيب ، ذلك أنى شاهدت نبات النيل ، وقد زرعه تلاميذ [المدارس الزراعية] هناك حول بعض المزارع ، فبهرنى إذ ذاك جمال أزهاره وبديع أنواره .

عجب يا رباه! هذا نبات النيل ، ذلك النيل الذى ألفته أيام الصبا ، وقد كنا نزرعه حول مزارع القطن إذن هو منظور مألوف لى ، ولكن لما رأيته اليوم أدهشنى منظره ، ذلك أن أنواره حين شاهدتها خيل لى أنها ازينت إلىّ ، وأخذت تقول : هلم إلى انظر جمالى ، وكأنها ثغور باسمات للقائى ، أو عيون ناظرات لشهدى أوهن صفوف من الغوانى العوانس تزين لمقدمى أورسل من الملأ الأعلى ببشرى المحبة والعلم والإقبال ، وكأنهن يقلن لى : أتدرى لم استقبلناك بهذا الجمال وحبوناك منظرنا الجميل وحسننا البديع ، ذلك لتعلم مقدار العناية العالية بنوع الانسان ، ولما لم تكن فى زمن الشباب أهلا للعلم ببهجة جمالنا ، والأنس بحسننا لم نحتمك بما متعناك الآن : يتجلى الجمال للبصراء ، ويختفى عن الذين لا يبصرون ، وأكثر نوع الإنسان لا يعلمون هل كنت فى زمن الصبا تعلم من النيل إلا مظاهره وأنه يحيط بمزرعة القطن وينفع الفلاح فى آلات الزراعة

أما الآن فإنك تعلم إتقان كل نبات وشجر ، وأن الزهرات مناسبات لزهرات القطن :

إن زهرات القطن ذات خمسة أوراق ، وهذه سمة كل نبات ذى فلقتين ، هكذا زهرات النيل وهما معا متناسبان من حيث أنهما يصلحان للملابس ونحوها ، وسيقان هذا النوع مخروطية الشكل وهكذا ، هذه بعض المعارف التى يدرسها علماء الزراعة .

مظاهر الجمال

وبينما أنا فى ذلك الجمال إذ اعترانى ما يشبه الذهول ، وكأن أمامى شبحا نوريا يخاطبنى قائلا : زهرات تبدو وتذبل ، ونجوم تشرق وتغرب ، وأمم تقوم وتزول ، وأيام تأتى تعقبها الليالى . صور متحركات وعجائب باهرات ، أيكون الحب للآفلين ، أم يكون الهيام بما ليس حقيقا بالوجود ، أيحب العاقل للفقود ، ويهوى ماليس بموجود ، كل هذه المظاهر وجود كلا وجود ، إن حكماء الأرض والسماء إذا رأوا هذه المظاهر أخذوا يقولون لها : ماورائك يا عصام ؟ فتجيبهم : إن ورائى علما وحكمة ، صنعت بعلم ، وأبدعت بحكمة ، ووراءى

محبة لا ترون إلا آثارها : نجم ، وزهر ، وسحاب ، ونهر ، وبر ، وبحر ، ذلك كله عنوان على قدرة ، وعلى علم وحب وجمال .

خبرنى ما الذى يتجلى للناس من ذوى الجمال ؟ فقلت إن أرباب الجمال يظهرون .

(١) لعيوننا فنرى صورهم .

(٢ و ٣) ولأسماعنا فنسر بجميل أصواتهم أو بباهر علومهم .

(٤ و ٥) وقد نشاهد مادبجته براعتهم من العلم ، أو خلدته أيديهم من الصناعة المتقنة البديعة ، فعلم العلماء ، وصناعات أعاظم الصناع تظهر لنا جمالهم الذى كمن فى نفوسهم .

فقال : لم يحبس العلماء أنفسهم فى التأليف ، ويعكفون عليه أمد الحياة ؟ ، فقلت : حبا فى أممهم ، وغراما بإفادة نوع الإنسان .

فقال : إذن العالم دون كتبه أولا بعلم أدركه فى نفسه وقد أبرزها بقدرته على أن يخط بالقلم . أو يملى بلسانه آخرين ، فهاهنا علم ، وهاهنا قدرة ، ويصحبهما حب لإفادة نوع الإنسان ، فهو لا يسخر علمه وقدرته إلا لمن أحب أن ينتفعوا بعلمه ، هذا فى المؤلفين ، والمؤلف محبوب على مقدار إفادته ، ولن يحب هذا العالم إلا كل من أدركوا مقاصده ، فهؤلاء يهتمون له على مقدار ما أثر فى نفوسهم ، فكلما عرف قراؤه منه علما ازداد الحب بمقدار تلك المعرفة ، فاذا أتقن علمين ازدادت المعرفة ضعفين ، وهكذا يزداد الحب أضعافا مضاعفة تبعا لما يدرك منها المتعلمون ؟

ثم قال : فإذا صح هذا فى المؤلف الإنسانى فما بالك بعلم المؤلفين ، ومربى الأنبياء والمرسلين الذى ابتدع هذا النيل ، والقطن ، والكتان ، والشجر ، والحجر ، والبحر ، والبر .

الله أكبر : إن فى أرضكم أناسا نظروا إلى هذا الجمال كله فاعتبروه تآليف لمؤلف واحد ، وهامت نفوسهم به أكثر من هيام الطلبة بالمعلمين النابغين ، وبهيام الخلف بعلماء سلفهم الغابرين ، هذا أيها الجوهرى معنى قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » فأفعل التفضيل فى الآية راجع لما ذكرناه ، وهذا من أعاجيب القرآن ، وبدائع الفرقان :

هناك أفقت من غشيتى ، واستيقظت من نومتى ، ونظرت الناس غادين رائحين ، كل ذلك كان فى لمح البصر أو هو أقرب ، معان تجلت فى برهة من الزمان عند منظر نبات النيل ، والحمد لله رب العالمين .

علوم تجلت عند منظر الزهرة الحمراء

وبعد أيام زرت ولدى أحمد بنفس مدينة [الجيزة من ضواحى القاهرة] وفى حديقته شجرات ، فأخذت من إحداها زهرة حمراء مخروطية الشكل ، قرنفلية اللون ، عطرية الرائحة ، وسرت نحو شاطئ نهر النيل راجعا إلى مدينة القاهرة ، فقلت يا الله عجبا بل ألف عجب يا الله زهرة حمراء ، يارب بهرجمالها عينى وتمتعت بشمها حاسة شمى ، رباه ماهذا الابداع ؟ أين الثريا وأين الثرى ؟ أى مناسبة بين عينى وأنفى وبين الزهرة يا الله ، الانسان فى نوم عميق ، نعم فى نوم عميق .

رباه ، نحن على الأرض نجهلك جهلا تاما ، وكيف لا نجهلك ونحن فى أخريات العوالم : أرضنا ضئيلة قيمتها صفر فى هذا الوجود العظيم ، شموسك وأقمارك عظيمات عظيمات جدا لو صغرت فكانت ألف مليون أرض لم تزد أرضنا عن أن تكون جوهرا فردا لا تراه عيوننا ، حقا هذا مثلنا فى معارفنا وفى علومنا .

هذه الزهرة الحمراء العطرة الرائحة ما علاقتها بعينى وأنفى ، من أين جاءت الزهرة ومن أين جاءت عينى

وجاء أنفى : هذه أنوار شمسك هذه الشمس التى تربو على أرضنا ألف ألف مرة و(٣٠٠) ألف مرة، هاهى ذه ترسل أشعتها على أرضنا جارية من بعد (٩٢) مليون كيلو متر . ثم إن هذه الأشعة تخترق هذا الجو فتحرك الهواء فيكون رياحا وتصل إلى الماء فيكون البخار فتحمله الرياح ، والحامل والمحمول يسرعان إلى البر فيكون المطر والأنهار والزروع والأشجار ، وهذه الزهرة الحمراء ، جرت لخلقها الأنوار من السموات العلا وحركت ما سكن من الهواء ومن الماء فطارا فى الآفاق فكان نبات ، وكانت أزهار ، وكانت هذه الزهرة الحمراء ثم كان حب وثمر وحيوان وإنسان ، وكان لهذا الانسان عينان وخيشومان .

هاتان العينان قال الله كونا فكانتا ، ومم كانتا ، وكيف صنعتا ؟ إن صنعهما مدهش وكيف لا تدهش من مواد ميتة من الأكسوجين والأودروجين اللذين يكون منهما الماء ومن الأوزوت والكربون المحمولين فى الهواء ، والجير ، والمغنيسيا ، والكبريت ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، وآثار الحديد والسلسكا وهكذا .

هذه المواد الأرضية التى اصطفيت من عشرات من العناصر ، هذه العناصر التى كونت وأبدعت على نظام متين ، بحيث أحدث جدولا منمقا بديعا على مقتضى التوالية العددية فى الخط الأفقى والخط الرأسى مع الإبداع فى التجانس الطبيعى والكيمائى ، كل هذا مشروح فى سورة العنكبوت فى الجدول الذى ابتدعه العلامة [مندليف الروسى] .

أقول : كيف كانت هذه العناصر الأرضية والهوائية والمائية قابلها الماء وأحاط بها الهواء وضوء الشمس فأخذت تتقلب فى شتى الصور وبدائع الجمال والبهاء ، فكان منها نبات ، وكان من النبات حيوان ، وكان منهما إنسان له عينان وشم ، من أين هاتان العينان ، وهذا الشم ، من هذه العناصر ، كيف صنعت العينان صورت هذه المواد ، واصطفى من دمها كهيئة الأجسام الشفافة ، وهى كرة العين ، وأبدعت طبقاتها وسويت وجعل فى شبكيتها التى تقرب من الدماغ آلاف ألف من الأعمدة والأساطين النورية . لماذا هذا ؟ لتتمكن من إيصال صور هذه العوالم الأرضية إلى عقولنا الجميلة البهية الشريفة المحبوسة وراء هذه الحجب فتصل لها الأخبار عن عوالم المادة البديعة الاتقان .

هذه هى العين التى نظرت بها هذه الزهرة الحمراء ، ويقرب من صنعها صنع آلة الشم التى باتقانها أوصلت روائح الزهرة فأدركتها الروح الغريبة فى عالم الماديات .

فيا عجبا يا ربنا : شمس ، وقمر ، وكواكب ، وأنوار ، وأرضون ، وسموات : كل هذه مسخرات لأنظر بعينى هذه الزهرة وأشم بالخياشيم رائحتها ، من ذا يظن وهو يرى النور يجرى من الشمس إلى الأرض أنه يسير لتكون هذه الأعمال .

الله أكبر : من ذا الذى يظن أن تكوين عيون الحيوان ، وأزهار النبات ، وحواس الحيوان له عوالم أكبر من شمسنا ، وهذه العوالم ترسل أشعتها إلى أرضنا مصاحبة لضوء الشمس .

الله أكبر ، ألم يقل علماء عصرنا إن مجموع أضواء الكواكب الواصلة إلى أرضنا ليلا ونهارا ربما تبلغ أربعة أخماس مايصل من ضوء الشمس إلينا . أليست الكواكب التى تعد بمئات ملايين اللايين ، كلهن واصل ضوؤها إلى الأرض ، وهل يصل ضوؤها لها بلا فائدة ، ومن تلك الشموس ماهو أكبر من شمسنا نحو ٢٥ ألف ألف مرة ، مثل كوكب منكب الجوزاء الذى لونه كلون هذه الزهرة الحمراء .

رباه ! أى إبداع هذا ؟ زهرة حمراء عطرية وعين وحاسة وشم تشترك فى تكوينها كل شمس وكل

كوكب فى السماء ، فالحرارة تصل مع الضوء بهيئة خفية إلى أبداننا ولها فيها آثار ، وباجتماعها نقرأ « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وبجهله بهذا كله لضعفه ، نقرأ « ثم رددناه أسفل سافلين » :

وكيف لايكون الإنسان مردودا إلى أسفل سافلين وهو غافل عن هذه العوالم وأنها سخرت له ؟ الناس فى غفلة عن هذه . إنسان ينظر هذه الزهرة ، ويشم رائحتها ، ويجهل إبداع الزهرة ، وإبداع عينه ، وحاسة شمه ، ويجهل الأسباب التى أنتجت هذه الزهرة وهذه الحواس ، ولا يفكر فى ضوء الشمس الذى أرسلته لهذا الابداع فى الأرض : وكيف سافر فى الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومترا (١٨٦) ألف ميل ، وهذا المقدار يوازى محيط الأرض نحو سبع مرات ، فالضوء بسرعته يجرى حولها فى الثانية هذه المرات ، وبهذه السرعة يصل إلى الأرض ؛ وقد قطع ٩٢ مليون ميل فى ٨ دقائق و١٨ ثانية كل ذلك لتصنع الأعين والخياشيم والحواس والزهرات وغيرها ، بل هناك ما هو أبدع من هذا ، فمن الكواكب والشموس ما بعدها يبلغ آلاف الملايين من السنين بسرعة الضوء ، ومنها العظيمة القدر التى لو كانت فى موضع شمسنا لكان جرمها يمتد حتى يبتلع أرضنا ، وبعبارة أخرى إن قطر فلك الأرض حول الشمس أقصر من قطر بعض الكواكب كمنكب الجوزاء ، فمنكب الجوزاء لو كان فى موضع شمسنا لكانت أرضنا الآن فى ضمن حجمه أى أننا لا نراها أشبه بهيئة النخل كما نرى شمسنا الآن ، بل كنا الآن على ظهرها ونعيش تحت سمائها ، وفوق أرضها أشجار ، وربما كان الراكب يسير فى ظل الشجرة أعواما وأعواما إذا كانت أشجارها منسوبة فى العظم إلى حجمها ، فتكون مشبهة بعض الشبه أشجار الجنة المذكورة فى صحاح الأحاديث ، وإن كانت ليست بجنة الخلد التى أعدت للمتقين :

حدوة الفرس عند الحداد

وألوان قوس قزح والصور الشمسى ، وكيف استنتج الناس منها عظم هذه الكواكب وألوانها الزاهية الجميلة وأبعادها الشاسعة الأقطار

فلما سمع صاحبى ماقصصته عليه قال : جمال والله وأى جمال ؟ وحكمة وأى حكمة ؟ عجب عجب ، أمور معلومة مجهولة حاضرة غائبة قريبة بعيدة .

سبحان الله ! أنت اليوم أبدعت أيما إبداع ، ويظهر لى أنه غاب عنك جمال النظام فى هذا المقال ، فقلت له : ماذا تعنى بقولك جمال النظام فى هذا المقال ؟ فقال : لقد كان مقال الفلاح فى [كفر الباشا] وحديثه عن ابنه كحبة أنبتت نباتا حسنا ، هو الحب ، وهو الجمال : فروحك لما سمعت حديث الرجل عن ابنه رجعت إلى عالمها بأسرع من البرق وأخذت تقول : إن وراء العالم حبا عظيما ، وحب الله لما خلق أكبر بما لاحد له من حب هذا الرجل لابنه ، وعظمة حب الله لعوالمه أكبر من حب هذا الرجل لابنه ، بنسبة الفرق بين هذا الكون العظيم والعدم ، أو بنسبة عظمة الله إلى ضعف هذا الرجل .

ولم يفت روحك أنها أدركت أن من يحرقهم الله فى جهنم ليسوا شيئا مذكورا فى هذه العوالم ، بل هم أشبه بالحطب الذى يجعله الناس وقودا ، وليس صاحب الحقل بكاره لحقله إذا كان فيه حطب ، بل هذا الحطب المعد للحريق من كمال حقوله ، إذن الله لا يكره هذا العالم ، وأيضا هو مختار ، والمختار لا يصنع ما يكرهه ، والكراهة والحب هنا قدسيان ليسا ككراهتنا وحبنا ، هذا بعض ماقدمته أنت ، وقد أشرت إلى أن فى هذه الأرض وفى عوالم أخرى نفوسا أدركت هذا الجمال ففنيت فى حب مبدع هذه العوالم ، لأن الحب تابع للمعرفة كحب التلاميذ للعلماء ، وذلك تابع لمعرفتهم بعلومهم :

ولما توجهت إلى [مدرسة الهندسة] لادخال ابنك جمال الدين فيها راقك منظر [التيل] فكان ذلك المنظر مفصلا لما أجمل عند سماع حديث الفلاح عن ابنه : أى أن هذا المقال تفصيل لما قبله ، فالفكرة عند [مدرسة الهندسة بالجيزة] فصلت القول تفصيلا عند (كفر الباشا) .

فأما منظر الزهرة الحمراء ورائحتها العطرية فانها جاءت مفصلة للمقالة قبلها ، فقد فصلت الحب وفصلت الجمال : هذا ما عنيت بقولى إنه غاب عنك جمال النظام فى هذا المقال ، وبعبارة أخرى أن هذا الابداع فى تفصيل هذا المقال فى درجاته الثلاث ؛ فى (كفر الباشا) وعند (مدرسة الهندسة) وفى نفس (الجيزة) إبداع لا يدلك فيه ، لأنك لم تقصد أن تفصل كل مقالة مجمل ما قبلها .

الله أكبر ! إن الأفكار الواصلة إليك فى هذه المقالات الثلاث فى المواطن الثلاثة ليس لك يد فى إبداعها كما لم يكن للناس يد فى إبداع عيونهم ، وخياشيمهم ، وزهرات حدائقهم وجناتهم ، فالابداع فى هذا المقال لم يكن من عندك ، بل من عوالم وراء عقول الناس ، كما أن إبداع الصور العينية والخياشيم الأنفية لم تكن إلا بواسطة إبداع الله ، فشموس ، وأقمار ، وكواكب ، وعوالم بعيدة فى أقطار السموات .

مقالة مكونة من ثلاث مقالات مبسطرات

فى أيام متباعدات ، وأماكن مختلفات سبح جميعها منتظمة كل واحدة منها مفصلة لما قبلها

إن ذلك جار على قانون هذا العالم : أجساما وأرواحا ، ألم تر أنك فى أول المقالات الثلاث لم تكن إلا سامعا للقائل فى الحب والشفقة مفكرا فيما يقول ، فلما كنت عند (مدرسة الهندسة) رأيت بعينك الزهرة وفكرت فيها ، وفى المقال الثالث أمسكت الزهرة بيدك وزدتها شرحا وتفصيلا ، أفليس هذا معناه أنك أنت لست المنظم لهذا المقال ؟ بل هو من عالم أعلى ، فالأول كعلم المقلدين ، والثانى كعلم العلماء ، والثالث كحكمة الحكماء ، وهى عين اليقين .

ولكن أريد أن توضح لى بعض ما غمض فى هذا المقال كيف عرف الناس بعد الكواكب . وكيف عرفوا عظمتها ، وكيف أدركوا أن كوكب منكب الجوزاء عظيم جدا حتى إن شمسنا بالنسبة له صغيرة جدا .

وكيف يتفق حب الله لخلقه مع تخليد بعضهم فى جهنم ، وهل المغرمون بحب الله يقدرون أن يساعدوا المجموع بعلمهم وعملهم .

فقلت له : إذا كنت أنت اليوم قد فهمت من مقالى مالا أفهمه ، وعرفت أن ماذكرته فى أماكن وأيام متفرقة يفصل بعضه بعضا ، وإن لم أكن لأعلم ذلك فأنت إذن على الأقل تعرف ذلك من سابق التفسير ، بل تعرفه أيضا مما نقلته عن كتاب (النجوم فى مسالكها) المترجم عن الانجليزية .

فقال : إن للعقول الانسانية خواص ؛ وليس مايعرفه زيد يعرفه عمرو ، وربما عرف امرؤ من العلوم أدقها ، ولكنه فى علوم أخرى يعرفها أصاغر الطلبة عاجز عن إدراك ظواهرها فضلا عن بواطنها ، وليس علم الخضر بالعوالم الخفية بالذى يجعله ملما بكل مايعلمه موسى ، كما أن موسى عليه السلام مع جلالة قدره ليس ملما كل الالمام بعلم الخضر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وليست عظمة الانسان فى معارفه وعلومه بمغنية له عن اشتيار عسل النحل الضعيفة فقد أعوزه أن يتخذ العسل الذى جمعته من الأزهار ، وأتقنت صنعه فى حواصلها المعدة لذلك ، وعجز عن صنعها الانسان.

إذن ليس إدراكى لما دق من الآراء وأنت غافل عنها بمانع جهالتى بأمور أخرى : أنا إلى سؤالك مفتقر

فى فهم مغزاها ، وتحصيل نتائجها ، على أن ماذكرته من كتاب [النجوم فى مسالكها] حين قرأته لم يرو لى غلة ، ولم يشف من علة ، فهو كلام على جاف ، وإنى أرى أن تفسير هذا الموضوع يشفى الصدور ويسر الجمهور ، لأن هذا اليوم له مابعده ، وربما كان سؤالى ليستفيد منه قراء هذا المقال :

فقلت أخى : الآن اقترب قيام قائم الظهيرة ، وقد أحسست بتعب ، فلنترك العمل حتى تستجم القوى ، ونرجع بعد العصر إن شاء الله تعالى .

الرياضة البدنية فى الحقل

فقمت من فورى إلى مزارع الذرة فأمسكت الفأس وأخذت أعزق الأرض مع العازقين كما كنت أفعل ذلك زمن الشباب ، وأنا طالب بالجامع الأزهر ، ولما حل بى التعب من العمل أخذت أستريح تحت الشجر وصليت الظهر ثم العصر .

لطيفة

أثناء اشتغالى بالعمل فى عزق الذرة جاء ابن زارع الأرض ، فلما رآنى قال لأبيه ، وكيف يعزق الشيخ يا أبتى ، وهذه عادة شائعة فى بلادنا أن العلم والثروة لايليق بمن ملك أحدهما أن يزاول الأعمال العادية ، وهذه الفكرة اليوم قد أخذ التعليم يمحوها من البلاد إن شاء الله تعالى .

إتمام هذا المقال بعد العصر يوم الخميس الخامس من شهر أغسطس سنة ١٩٣٣

فلما رجعت بعد صلاة العصر . قلت لصاحبى : سأجمل جواب ما سألت عنه فى ثلاثة فصول ، كيف عرف الناس بعد الكواكب ، وكيف عرفوا كبر أحجامها بواسطة أنوارها وأبعادها ، وكيف يخلد قوم فى النار مع أن الله رحيم مختار لايفعل مالا يحب فعله من حيث التكوين ؟

الفصل الأول

كيف عرف الناس بعد الكواكب ، وكيف عرفوا كبر أحجامها بواسطة أنوارها وأبعادها .

أيها الأخ ، إن الكواكب تعرف بطريق المثلثات فى فن الهندسة . وذلك أنهم يرصدون الكواكب فى موضعين مختلفين ، كالاسكندرية ومصر . أو الاسكندرية وباريس فى وقت واحد والزاويتان الحاصلتان بين الضلعين المتجهين إلى النجم فى ذلك الوقت مع الأرض ، يكونان إذ ذاك معروفين .

ولا جرم أن المسافة بينهما على الأرض معروفة فى الجغرافيا فيرسم المثلث على الورق بنسبة خاصة مصغرة ثم ينسب المثلث الممتد إلى الكوكب إلى هذا المثلث ، وقد اتحدت زواياهما ، وصارت أضلاعهما متوازية فتكون هناك نسبة بين الاضلاع ، وبين الارتفاعين ، ولا جرم أن ارتفاع المثلث المرسوم معلوم ، فيعرف به ارتفاع الكوكب .

فقال : فاذا كان الكوكب شديد البعد ، فان الراصد لايتبين شيئا ، فقلت يرصد الكواكب فى وقتين متقابلين من السنة كالانقلاب الصيفى والانقلاب الشتوى ، وتؤخذ الزاويتان ويفعل بهما ماتقدم ، ومتى عرف البعد أمكن معرفة الحجم ، لأنه كلما ازداد البعد إيغالا كان الكوكب أصغر حجما والتفصيل فى علم الفلك .

فقال : وهل لمعرفة الأحجام طريق غير هذه ؟ فقلت : نعم طريق الأنوار المشرقة من الكواكب ، فقال مامعنى هذا ؟ فقلت : ذلك أمر يدركه الناس من أمثال حدوة الفرس فى يد الحداد ، فقال مامعنى حدوة الفرس فى يد الحداد ؟ .

فقلت : إذا نظرنا إلى الحدوة فى يد الحداد وهو يوقد عليها النار ألفيناها أولا حمراء فبرتقالية فصفراء فخضراء فزرقاء فنيلية فبنفسجية فبيضاء هذا هو ترتيب الألوان ، فأقلهن حرارة الحمراء ، وأعلى منها البرتقالية فالصفراء وأشدهن حرارة البنفسجية ، فأما البيضاء ففيها جميع الألوان ، فاذا قاسوا الحرارة الواصلة من كوكب أحمر مثلا وعرفوا بواسطة بعد مسافتها أنها عند منبعها تساوى مثلا حرارة الشمس ونورها أصفر فانهم لامحالة يحكمون أن هذا الكوكب أكبر حجما من الشمس .

ذلك لأن الأحمر أقل حرارة من الأصفر بضع مرات ، فاتساع سطحه يقوم مقام كثرة الحرارة فى الكوكب الأصفر المذكور :

وإذا رأوا كوكبا آخر أحمر اللون وقد وصل منه ضوء أشد حرارة من حرارة الشمس ، حكموا بأن سطحه أكثر اتساعا من الشمس إلى حد كبير ، وهكذا إذا رأوا كوكبا أزرق مثل كثير من كواكب الجوزاء ورأوا أن حرارة ذلك الكوكب مماثلة لحرارة الشمس حكموا حكما قاطعا أن حجم ذلك الكوكب أصغر من حجمها لأن حرارة الأزرق أشد من حرارة الأصفر فيكون حجم الأول إذن أصغر من حجم الثانى :

فقال صاحبى : القول مفهوم ، والمعنى معمى ، فقلت : ماذا تريد بهذا ؟ فقال من أين يعرفون أن هذا الكوكب أحمر ، وهذا أصفر ، وهذا أزرق . هذه أقوال غير مفهومة ولا معقولة ، إن جميع الكواكب بيضاء فأين الزرقاء والحمراء والصفراء ماعدا الشمس :

فقلت . إن ذلك منشؤه أمر واحد . قال وما هو ؟ قلت . الثروة والغنى ، فرأيته أشبه بالمذهول ، فقال ماهن ؟ فقلت . ألم تسمع كلام الشيخ محيى الدين بن عربى فى [الفتوحات المكية] إذ يقول : إن الغنى محبوب عند الناس وإن كان بخيلا لأنه ليس فى حاجة إليهم ، ويقول الشاعر :

سأضرب للغنى فى الأرض إنى ... رأيت الناس شرهم الفقير

وقال آخر :

إن الغنى من الرجال مكرم ... وتراه يرجى مالديه ويرغب
ويبش بالترحيب عند قدومه ... ويقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين للرجال فإنه ... حقا يهون به الشريف الأنسب

وقال آخر :

إن الغنى إذا تكلم بالخطا ... قالوا أصبت وصدقوا ماقالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى الأماكن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر :

إن الفقير يهان بين لداته ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا رثة ... أصغت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا عاريا ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

كل هذا وصاحبي واجم ساكن ظهرت عليه أمارات الحيرة ، فقال ثم ماذا ؟ فقلت كفى ، فقال أتخرج من الجد إلى الهزل ، ومن الصواب إلى الخطأ ، أيمثل هذا الجواب يجاب سؤالى ، ومالنا وللغنى والفقر ، نحن الآن فى مقام التمييز بين ألوان النجوم فكلها بيضاء ، فما الدليل على اختلاف ألوانها ؟ فأخذت تجيب بالفقر والغنى .

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

أتتخذنا هزوا ؟ فقلت : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، ماأنا بهازل أنا جاد ، فقال : إذن مامعنى ماتقول ؟ أين الفقر والغنى فى الكواكب ؟ فقلت المعول عليه فى ذلك الآلة المصورة الشمسية المكونة من الزمل ومن البوتاسا ومن بعض المعادن كالرصاص ، فهذه أمرها عجب ، فانها إذا التقطت صورة زرقاء بالغت فى تصويرها حتى جعلتها بيضاء ، وإذا صادفت صورة حمراء أظهرتها بصورة غير واضحة ، فصارت إلى السواد أقرب ، وهذا فعل تلك الآلة مع كوكب منكب الجوزاء ، فانها لما أظهرتها بهيئة ضئيلة عرفنا أنها حمراء ، وإذا صادفت الكوكب المسمى [رجل الجوزاء] فانها تجعله بهيئة بيضاء فدل ذلك على أن هذا الكوكب أزرق اللون .

إذن المصور الشمسى يبالغ فى حالتى الضعف والقوة ، فان كان الكوكب أحمر ـ ومعلوم أنه أقل حرارة من غيره ـ أزاله تحت الحمرة فجعله إلى السواد أقرب ، وإذا كان الكوكب أزرق رفعه فى أعين الناس ، فجعله أبيض والبياض أرق من الزرقة .

فالآلة المصورة فعلت مع الكواكب والأشخاص مايفعله الناس مع الفقير والغنى ، فهم يحقرون الفقير ، ويعظمون الغنى . هذا معنى ذكرى لك الفقر والغنى ، فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . فأرجو الإجابة على السؤال الثانى الآن كما وعدت ، فقلت :

الفصل الثانى فى الكلام على عذاب الكفار فى النار وكيف يكون هذا مع الرحمة العامة

أيها الأخ . ألم أقل لك فيما مضى إن ذلك أشبه باحراق الحشب والحطب إذ تكون وقودا للنار ، فقال صاحبي : هناك فارقة بين أرواح تحس بآلام وحطب وحشائش توقد فيها النار ، فقلت أيها الأخ . هذا المبحث مقام سام لايعرف حقيقته إلا الأقلون الذين أطلعهم الله على حقيقته ، فجد فى العلم حتى تصل إلى الحقيقة بنفسك ، وهذه لايفيد فيها التعليم ، فجد بنفسك وأنا واثق أنك ستجد سرها فى ثنايا التفسير ، فقال ، سأبحث إن شاء الله تعالى ، فقلت : الحمد لله تعالى ، وهاهنا آن أن أجيبك عن سؤالك الثالث ، فأقول :

الفصل الثالث فى أنه هل الهيام بالله يمنع نفع الناس

أقول : أيها الأخ إن أولياء الله المحبين له يحتم ذلك الحب على نفع العباد ، كمثل النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ كان لايصلى وحده ، بل يصلى جماعة وكان يجزئه أن يصلى وحده ويعبد وحده ، ولكن الهداية الإلهية علمته كيف تعم الحكمة علما بالقرآن وعملا بالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وهذه الطائفة المحبة لله هم الذين يقومون بمنافع العباد ، وهم أولياء الله الذين يفرحون بالموت فرحهم بمقابلة أحبائهم كما قال الله تعالى « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

هذه الطائفة تشعر بسعادة الحياة وسعادة الممات ، يفعلون مع الناس ما تفعله الأمهات والآباء مع الأبناء

يعملون العمل خالصا لايبتغون جزاء عليه ولا شكورا ، وإذا أحبوا ربهم فقد أحبوا أعماله فيكونون خلفاءه على عباده ، فهؤلاء تلاميذ المرسلين يعلمون أن الله معهم أينما كانوا ، ويفهمون من حوادث الخلائق ، ذلك إذ يرون حر الشمس يثير الرياح ويكون سببا فى خروج البخار من البحار ، فيحمل الأول الثانى ولا يذر نور الشمس السحاب ، بل يعطيه ألوانا فى جو السماء ، ومتى أمطر على الأرض تخرج النبات أخذ الضوء والحرارة يعملان عملهما متحدين مع الماء فى إنماء النبات ، فإذا سلم النبات مادته إلى الحيوان ساعد هما الهواء والماء ؛ ولم يزل ضوء الشمس يساعد الحيوان فى دفئه وإضاءة الطرق له ، فإذا وصلت الحال إلى عالم الانسان رأينا الضوء يعمل مع كل ماذكر فى إصلاح شأن الانسان أيضا . فالضوء أولا وآخرا يجد فى إسعاد نوع الإنسان .

فهؤلاء إذا رأوا ذلك أيقنوا بأن الله يفعل مع الناس فعل الضوء مع كل مخلوق . فالله لما أرسل الضوء إلى الأرض ، وفعل ما تقدم لم يذر هو رياحا ولاسحابا ولانباتا ولاحيوانا ولاإنسانا إلا وهومعهم، كما رأينا الضوء مع جميع ماقام بانمائه .

هاهنا استبان معنى قوله تعالى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » وقوله « وهو معكم أينما كنتم » وعرفنا كيف يعقل العقلاء ، ويؤلف العلماء ، ويصلح الأمم الحكماء . ويوحى الله إلى الأنبياء :

فاذا كان هو الذى أسبغ نعمته على العوالم كلها من الشموس إلى الأرضين : إلى العناصر إلى المولدات فهاهو ذا يهب العقول والآراء والعلوم الخفية التى تتعالى عن الأضواء وجميع العوالم العلوية . إن الله يعطى الناس تلك العلوم والمعارف ، وقد عاملهم معاملة الضوء للحيوان والانسان ، فهذه الحوادث ضرب مثل لعمل القديم ، إن العلوم والمعارف والهداية ، تنزلت من نفس العالم الأعلى الإلهى « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » والحمد لله رب العالمين .

تم هذا المقال بعد منتصف الليل ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣ [بكفر الباشا] فى ضواحى القاهرة .

تم طبع الجزء الأول من [ملحق الجواهر : تفسير القرآن]

فهرس

الجزء الأول من الملحق لكتاب الجواهر فى تفسير القرآن

صحيفة

٢ تفسير بسم الله الرحمن الرحيم وفيه ثلاث جواهر :

٣ الجوهرة الأولى فى عاطفة الأمهات وعجائب الأمومة فى الحيوانات .

٨ الجوهرة الثانية رحمة الله فى الهواء والأضواء وطبقات الجو ،وفيها تبيان عجائب الأمواج القصيرة والأمواج الطويلة .

١٤ زرقة السماء، وأنها حاصلة من أن لون الزرقة هوالذى يوافق مافى الجو من الذرات فلذلك يظهر لأعيننا الرحمة والعلم، وفى هذا التفصيل الرحمة فى المراءات الثلاث المتقدمة وفى القنطرة المذكورة : العلم والدين وتبيان رد المؤلف على من يقولون إن العلم يناقض الدين ، وفيه تبيان أن الدين الإسلامى لا يعارض الآراء الحرة التى أشار إليها [فرنسيس باكون] وأن الآراء التى رآها مخالفة لدين المسيح هى موافقة لدين الإسلام .

١٥ الجوهرة الثالثة وفى أثنائها الكلام على الطبقات الجوية ورأى [أينشتين] فيها وأنها لو كانت مادة لكانت ثقيلة جدا الخ .

١٧ السعادة بالمحبة والسعادة بإنكار النفس والسعادة باتحاد القلوب ، وأن ذلك حاصل فى نظام الطبيعة وبيان أن العوالم جميعها يمد بعضها بعضا .

١٨ عشق الفتيان للفتيات، ضرب مثل لحكماء الأرض إذ يرون بأعينهم أن المحبة جعلت بعض الجهال من نوع الإنسان قد نسوا أنفسهم وهمومهم بالتدله بالمعشوق ، فكيف إذا عشقوا عشقا صادقا بسبب العلم ومعرفة صانع العالم الذى هو أهل للمحبة الحقيقية.

٢٠ ذكر ماستين وأربع زبرجدات :

الماسة الأولى فى كلة رحمة فى اللغة العربية والآرامية والسريانية والعربية ، وفى أحاديث الرحمة وفيها الكلام على الحب وعلى الرحمة الخ .

٢٣ الماسة الثانية فى بعض الآيات المفصلات لمعنى بسم الله الرحمن الرحيم فى سور مختلفة وتفصيل ذلك فى سورة الشعراء وكيف كرر الرحمة فيها عند كل قصة من قصص الأنبياء ، وهكذا سورة الرحمن التى جعلت كلها تفصيلا لمعنى (الرحمن) الذى جعل اسما للسورة .

٢٩ بيان أول سورة النحل تفصيل لما أجمل فى سورة الرحمن. وفيه مبحثان فى آيات النحل وفى التربية العامة لهذه العوالم التى تحيط بالإنسان، وهاهنا ذكر آيات أول سورة النحل .

٣١ ذكر روضات الجنات فى هذه الآيات ، وهى ثلاث رياض .

الروضة الأولى فى حركات النبات وحفظ البذور وما أشبه ذلك .

٣٩ أسماء الله الحسنى فى القرون الماضية وفى هذا الزمان .

٤٢ الروضة الثانية فى عجائب البحار .

٤٦ بيان أن الأسماء فى قاع البحار المظلمة خلقت لها بطاريات كهربائية تخرج أشعة تعرفها طرق معايشها

صحيفة

وهكذا ، وفيها الأخطبوط الذى له ثمانية أرجل والأخطبوط الطويل الذراعين والقصير الأذرع وذكر الحيوانات البحرية المضيئة ، وبيان بعض أصناف السبيذج فى أعماق الأوقيانوس وأنها لها ثلاثة أعضاء منيرة ، وفى البحار الاستوائية ، ترى النور يتألق فى ظواهر سطح الماء الخ .

٤٨ خطاب لأمم الإسلام يحض به المؤلف على دراسة حيوانات قاع البحار وقناديلها وأضوائها وموسيقى الحيوان ومغانيه فوق اليابسة :

٤٩ الموسيقى عند الحيوان ، وبيان أن خيل عربات الركوب إذا سارت على قنطرة خشبية مثلا تجعل لأرجلها ضربات موسيقية ، وكيف يكون للخفساء موسيقى تعزفها ، وهكذا النمل .

٥٠ الروضة الثالثة فى عجائب أنواع الحيوان من حيث راحة أجسامها بالنوم وهذا راجع للرحمة العامة .

٥٥ السكون والتشتية والتماوت فى الحيوان والإنسان كالأفاعى والخفافيش وبعض الفيران وأنواع النمل والسمك الذى يغوص فى الطين إذا جفت مياه الترع والضفادع والزحافات والسلاحف ، ومن ذلك نوم دراويش الهند نوما صناعيا كنوم الحيوان الطبيعى ، فينام أحدهم أسابيع وعليه رقباء ، وهذا هو المبحث الأول .

٥٧ المبحث الثانى فى المائدة الثانية الكلام على آيات الحمد وذكر عشرة منها واتباعها بأربع زبرجدات

٥٨ الزبرجدة الأولى فى التربية العامة المحيطة بالإنسان فى السموات والأرض .

٥٨ بهجة المناظر فى العوالم وحسن إبداعها والكلام على مناظر العوالم السماوية .

٥٩ مناظر السماء والبحار والأمواج والرمال ونظام الشب الأبيض والسكر وملح البارود وكيف كانت هذه كلها لها نظام بلورى فى هيئة بديعة ، ونظام الثلج وبيان نظام الأساطين الجيرية المسدسة الأشكال التى تحدثها قطرات الماء فى مئات الألوف من السنين وهى تتنزل من سقوف الكهوف فى الجبال فيحدث هناك تلك الأعمدة من آثار الجير الذى تحمله تلك القطرات .

٦٣ الكلام على نمو النبات وأنه يخالف ماتقدم من تكاثر المواد الحجرية فى الصخور والمواد المائية فى قطع البرد واتباع الأولى والثانية قوانين ماألصقت به ، ومن الصخور تكون كتل عظيمة فى قاع البحار الباردة ، فهذا كله تكاثر من الظاهر كتكاثر الشب والملح المنظمة الأشكال ، فأما النبات فهو على عكس ذلك ، فان نموه آت من قوى داخلات فيه تجتذب مواد مختلفة فتحيلها فى داخلها إلى هيكل النبات ، وههنا أربعة صور شمسية تبين ذلك .

٦٨ الكلام على تكوين الحيوان وموازنة تكوينه بتكوين النبات وتكوين البلور .

٦٩ عصير النبات ودم الحيوان المستمدان من الأغذية يمدان الأنسجة بالعناصر المغذية لها .

٦٩ الدماء والعصارات أسواق بيع وشراء ، عالم الحيوان . الدهشة من عجائب النظام فى النبات والحيوان .

٧٠ تكاثر الحيوان بالانقسام ، وهذا الانقسام طبيعى وصناعى ، والصناعى يتضح فى ذوات الأرجل وشقائق البحر فترى الحيوان بعد أن يقطع تصير كل قطعة منه حيوانا تاما .

٧٢ نمو البراعيم النباتية وحدوث نبات جديد بها .

٧٣ الكلام على الزوفيت . حكاية رجل كان يحتطب الزوفيت وظنه شجرا إذا هو عبارة عن مملكة حيوان تشبه الشجر وهى جمهورية اشتراكية حقيقية .

٧٤ صورة الصودا الكاوية والشب الأبيض والشب الأزرق التى هى أشكال منظمة بديعة .

٧٥ اعتراض على المؤلف والجواب على هذا الاعتراض :

صحيفة

٧٧ الترجمة الثانية فى خلق الإنسان من طين بعد قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » الخ، وكل هذا تبيان لمعنى الحمد المذكور فى الفاتحة وفى أول سورة الأنعام .

٧٨ سؤال فلاح فى قرية [كفر عوض الله] للمؤلف وقوله له ماذا بعد السموات . وحيرة المؤلف فى الإجابة

٨٢ الكائنات العلوية . مقاييس الكائنات وأبعادها وأن تلك الأبعاد هائلة جدا ، وأن قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » ذو غور بعيد جدا ، فقد ظهر أن هذه الظلمة والخلاء من عجائب العلم ، وأن ذلك وإن كان ليس بجسم فهو متين قوى وعجيب .

٨٥ الكلام على خلق الانسان بعد الكلام على العوالم المحيطة به .

بهجة العلم ونور الحكمة فى العصفور للغنى وأن المؤلف قد سمع عصفورا يغنى وهذا العصفور ذكره بأن الإنسان إذا انسلخ من هذا الجسم سيرى هذه الظلمات التى لا نهاية لها عوالم جميلة الأسنان وصورتها الشمسية مثل شكل ٣٨ و ٣٩ .

عجائب الاتقان فى هذا الانسان .

بيان أن الأسنان كتاب مفتوح يمثل لنا نظر الله عز وجل لمخلوقاته بعين الرحمة ، فان كل سن يصلها من الدورة الدموية دم يغذيها ومن المخ عصب يوصل له الاحساس بالمرض ولولاهما لم تكن لنا أسنان.

٩١ من عجائب الحكم فى وضع الأسنان .

فائدة طبية فى الأسنان .

٩٤ بهجة الحكمة ونظام الجمال والعلم فى الأسنان وإيضاح المعانى المتقدمة : أى الدورة الدموية ووصول الدم إلى الأسنان وهكذا . وتبيان حكمة الله فى الآلام وأنها سعادة لنا بطريقة أوضح .

٩٧ دهشتى من هذا النظام والابداع انتقال خيالى تحت أشجار المطرية وأنا أنظر فى نظام السن إلى نظام العالم كله ، انتقال خيالى من غناء العصفور تحت الشجرة إلى تجرد الروح بعد الموت وهى فى الظلمات والنور ، التعجب من وضع القلب ، ازدياد الدهشة من الصمامات الهلالية التى فى الشريانين عند خروجها من البطينين والتى فى الأوردة .

٩٩ بهجة العلم فى نفس الأسنان ، انتقال خاطرى من الأسنان وأجسامنا إلى هذه العوالم كلها وصانعها

١٠٠ بيان أن ماقلناه مبنى على نظام الآيات فى أول الأنعام ، وأن ذلك ليس خارجا عن تفسير الآية ، بل هو متمم له .

١٠١ إيضاح الكلام على آية « وهو الله فى السموات وفى الأرض » وعلى خيالى فى بهجة العلم عند سماع العصفور للغنى :

١٠٢ غناء العصفور وآثاره فى خيالى .

١٠٣ بهجة العلم فى قوله تعالى أيضا « وجعل الظلمات والنور » :

١٠٦ دين المجوس مبنى على الظلمة والنور ، ودين الصابئة مبنى على الكواكب وأنوارها ، وأن ذلك من أسرار ذكر الظلمات والنور فى أول الأنعام وفيه براعة استهلال بقصة إبراهيم فى السورة الخ :

١٠٧ الظلمات والنور عند المجوس . عجائب النفس .

١٠٨ رؤيا منامية .

١٠٩ الكلام على عجائب الألوان ، وكيف جعلت فى الحيوان لبقائه وإسعاده مختلفة باختلاف أطواره كما

صحيفة

تقدم فى الأسنان ، وعلى ضرب مثلين لفراغ المادة : أحدهما بمساحة البلاد المصرية ، وثانيهما بملايين الأرادب من القمح التى لامادة فيها إلا بمقدار حبة واحدة ، وبيان أن نسبة المادة إلى الفراغ الحاصل فى كل جسم من أجسام العوالم المادية كنسبة حبة قمح واحدة إلى مائة مليون مليون حبة قمح أو إلى نيف وثلاثين مليون أردب قمح ، أو كنسبة ٦٤ سنتيمتر مربع إلى (١٥٠) مليون فدان .

١١٣ سورة الأنعام ، وبيان العلوم التى يتضمنها قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » الخ ، وههنا بيان الجمال الباهر فى أرضنا الذى يملأ الأقطار الجنوبية والشمالية التى يغطى الثلج أرضها أمدا طويلا ، فأما فى البلاد المنحضرة فانك ترى قطع الماس ، وههنا وصف أنواع القطع المشهورة :

١١٦ الماس الصناعى .

مصاعد الحمد فى آيات العلوم المفرقة فى القرآن وهى حول (٧٥٠) آية .

١١٨ خطاب عام لأمم الإسلام .

١١٨ من أسرار آلم ، حديث فى أسرار القرآن ، وذكر آيات مبدوءة بحروف (ال م) تضمنت العلوم التى تركها المسلمون فى عصرنا كعلم التشريح فى آية « وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » وكعلم النبات فى آية « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » : وكعلم السفن والطرق البحرية فى آية « ألم تر أن الفلك تجرى » الخ ، وكعلم الأجنة [البيولوجى] فى آية « ألم يك نطفة » الخ وعلوم كثيرة فى آية « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا » إلى آخره ، ففيها علم طبقات الأرض وعلم النبات والحيوان ، وعلم الألوان . وهكذا ترى علم الظلال فى آية « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » الخ . وعلم التشريح أيضا فى آية « ألم نجعل له عينين » الخ : وعلم النفس فى آية « وهديناه النجدين » لأن هذين النجدين فيهما جميع الغرائز :

وهكذا ترى فى آية « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » : الإشارة إلى جميع الدجالين والماكرين من رجال السياسة والمخادعين ، وأن الاحتراس منهم واجب . وفى آية « ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا » الإشارة إلى السدم والشموس العظيمة :

١٣١ ذكر آيات من القرآن تتضمن العلوم التى تبحث فى عجائب الكائنات « الذى جعل لكم الأرض فراشا » الخ « ولله المشرق والمغرب » الخ « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » : ففيها علوم الفلك ، والهواء ، والرياح ، والفصول الأربعة ، وحسابها ، واختلاف أيامها ولياليها ، والسحب ، والأمطار ، والبحار ، والفلك :

وفى سورة آل عمران (١٣) آية لهذه العلوم « ألم الله لا إله إلا هو » الخ « شهد الله أنه لا إله إلا هو » الخ « قل اللهم مالك الملك » الخ « إن فى خلق السموات والأرض » الخ .

ففى هذه الآيات : ذكر الأرض والسماء ، وتصوير الأجنة ، وبيان الليل والنهار ، والفلك ، والنبات والحيوان ، والتشريح ، وعلم الحياة .

١٣٤ وفى سورة المائدة آيات أخرى ، وفى سورة الأنعام « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » الخ « وله ما سكن » الخ « وما من دابة فى الأرض » الخ « وعنده مفاتح الغيب » الخ « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق » الخ « إن الله فالق الحب والنوى » الخ « وهو الذى أنشأ » الخ . وفى سورة الأعراف

صحيفة

«إن ربكم الله» الخ «ولقد مكناكم فى الأرض» الخ «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض» الخ «وإذا قرىء القرآن» الخ :

١٣٩ آثار جمال الله وجلاله فى سورة يونس ، وفى سورة يونس «إن ربكم الله» الخ «وما تكون فى شأن» الخ «هو الذى جعل لكم الليل» الخ «إنما مثل الحياة الدنيا» الخ «ألا إن لله من فى السموات» الخ «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض» الخ . وفى سورة هود «وما من دابة» الخ «إنى توكلت على الله» الخ : . وفى سورة يوسف «رب قد آتيتنى من الملك» الخ . وفى سورة الرعد «الله الذى رفع السموات» الخ «الله يعلم ما تحمل كل أنثى» الخ :

١٤٦ ذكر جملة من العلوم فى هذه الآيات .

١٤٨ مدهشات العلم ، وعجائب القرآن ، وبيان أن جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وتدبير الأمر ، وتفصيل الآيات لتوقن بلقاء الله ، وأن العلوم الرياضية ولقاء الله مرتبات على عالم السموات وتدبره ، ويوضح هذا بمقال فيه الفرق بين الحيوان والنبات ، وأن العلماء عجزوا عن ذلك الفرق .

١٥٢ قطعة من شجر المرجان تزينا أكوابا تعيش بهيئة حيوان المرجان :

١٥٥ بيان أن الفحم ماهو إلا أشجار نبتت فى مساحات واسعة عند مصاب الأنهار وتمضى آلاف السنين وقد تراكم ذلك الشجر بعضه على بعض ، فتحصل زلزلة فينزل فى الأقيانوس ويبقى آلاف السنين حتى يختلط بالرمل والطين ثم تكون زلزلة ، فيرتفع ثانيا عن سطح الماء ، فتنبت أعشاب وأشجار ، وتحصل طبقة أخرى حتى تكون زلزلة ، فتنزل هذه فى البحر كرة أخرى ، وهكذا حتى تكون (٥٠) طبقة أو مائة طبقة ، وذلك كله قبل خلق أبينا آدم على الأرض :

١٦٠ تدبير الأمر وتفصيل الآيات جار فى العوالم كلها ، وفى هذا ملخص لكثير مما تقدم :
وقد حفظت فيه حبات رقيقات من قبل آدم ، وهذه الحبات بذور نباتات فى تلك العصور ، وهذا عين قوله تعالى «ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض» . وقوله «إن تك مثقال حبة من خردل» الخ : وقوله «ولا حبة فى ظلمات الأرض» : فهذه هى الحبة التى فى ظلمات الأرض .

١٦٤ إيضاح فى الفحم الحجرى .

١٦٧ كيف أسدلت الحجب على هذه الأسرار القرآنية قرونا وقرونا ، وتبيان أن كثيرا من المسلمين غرقوا فى غمرات الجهالات أزمانا وأزمانا .

١٦٩ مقالة فى عجائب السموات والأرض .

١٧٤ درجات العقول والمخلوقات ، ودرجات الجنة ، ودرجات الحرارة فى عوالم المادة ، ودرجات العوالم الروحية :

١٧٥ أسلوب القرآن وبهجته فى وصف السموات والأرض وموازنته بأساليب الأمم القديمة فى أقاصيصها قصة الربيع من أساطير اليونان القديمة ، وأنهم كانوا يقولون إن جزيرة [سيسيليا] صقلية كانت فى قديم الزمان مقر إلهة تدعى [سيريز] وهذه هى التى تعطى جميع أهل الأرض الرزق ، وتخرج لهم

صحيفة

الزرع ، وكانت لها ابنة اسمها [بروسربين] وكانت هذه جميلة فاختطفها الملك [بلوتو] فى جوف الأرض وأخذها معه إلى باطنها فوصل الخبر لامها [سيريز] بواسطة الماء .

١٧٧ خواطرى فى صلاتى : الحب الخالص لله لا يكون إلا بالنظر للكمال والجمال العام، وهذا النظر يفتح الباب للحب ، وهذا الحب لا يتغير بما يصيب الانسان ، لأن سببه دائم : وهو النظام والجمال الدائم، وفيه الكلام على حديث « أحبوا الله من كل قلوبكم » : والكلام على لقاء الله المذكور بعد رفع السموات وتسخير الشمس والقمر الخ :

١٧٧ الزبرجدة الثالثة فى عجائب السموات تفصيلا وأن نظرات المؤلف فى شبابه لنجوم السموات ولزهر النبات أيام الشباب تخالف نظراته لذلك أيام المشيب :

١٨١ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره على الأذى قد أوجبته المحبة التى لا تتغير .

١٨٦ نظرات المؤلف فى الحقول ، وبيان أن بعض المزارعين كان يعرف الوقت بسير النجم ، وهذا يجب أن يكون من دروس الأطفال .

١٨٧ ماذا تبدى لى يوم الثلاثاء والأربعاء .

١٨٨ نظرات الأمم أيام رقيها تكون موجهة لحقائق الأشياء ، ونظراتها أيام الجهالات تكون للغزل ونحوه .

١٨٩ خطاب المؤلف للسماك الرامح ليلا وهو باث فى الحقل .

١٩٠ وصف أبعاد وأحوال السماك الرامح ، وصورته مع صورة الدب الأكبر .

١٩٢ السماك الرامح سرعته ٨٣ كيلو مترا فى الثانية و (٢٠٠) مترا قدر سرعة الأرض حول الشمس ٣ مرات وهو بهذه السرعة فى الساعة لو جرى كقطار نحو الأرض فإنه يصل بعد نحو (٣٣) مليون سنة .

١٩٣ نسبة الأرض إلى العوالم كنسبة الفرد الواحد إلى الأمم .

١٩٤ نظرتى فى العوالم العلوية والسفلية فى ربيع الثانى . نظام العوالم ونظام الأمم .

١٩٥ المقدمات كوامل فكيف لا تكمل النتائج . هل دين الإسلام أشار إلى ما ذكرناه فى آية « إن فى خلق السموات والأرض » الخ .

١٩٦ موازنة بين هذه النظرات ، ونظرات بقراط فى نظام الأمم ، وفى علم الأخلاق ، كيف كان اتجاه الاسلام نحو غاية الوحدة العامة من حيث الوفاق والوئام .

١٩٧ ضرب مثل للوحدة فى النظام العام .

١٩٧ فهم جهلة الصوفية فى وحدة الوجود ضلال .

١٩٨ فصل فى بيان أن أمة الاسلام المتفرقة عليها أن تجمع الأمم ، ومعلوم أن فاقد الشىء لا يعطيه ، وهذا هو الزمان الذى جعله الله لجمع هذه الأمة .

٢٠٠ فصل فى ذكر الحكمة التى ظهرت لى من مناظر الحقول التى ذكرت سابقا ، وخطاب المؤلف للحشرات وكيف كن مسخرات لأمور لا يعلمها .

٢٠٤ نظرات المؤلف فى حال الشباب فى النجوم كانت للحسرة ، ونظراته فى المشيب كانت لشكر النعمة على العلم ، وأن علم الفلك حذف أيام الاحتلال ونقصت العلوم الطبيعية ، فأما الآن فقد قرر بعضها .

٢٠٦ صورة للتسدم فى الدجاجة .

صحيفة

٢٠٨ صورة السديم الأعظم م ٣١ فى المرأة المسلسلة .
٢٠٩ صورة السديم م ٣٣ فى المثلث .
٢١٠ صورة السديم م ٨٢ فى الدب الأكبر .
٢١١ جمع من السدائم فى ذوات الشعور التى يصل ضوؤها لنا فى (٥٠) مليون سنة .
٢١٢ أقصى أعماق الفضاء الذى يصل إلينا ضوؤه فى مائة مليون سنة.
٢١٣ صورة المنطقة الوسطى للسديم الأعظم م٣١ فى المرأة المسلسلة.
٢١٤ صورة السديم م (٥١) فى كلب الصيد.
٢١٦ صورة تبين التسدم فى الجبار .
٢١٧ صورة المجرة .
٢١٨ تخطيط العالم :
٢٢٩ خواطر المؤلف فى شهر يوليو سنة ١٩٣٣ .

٢٢٩ نظرتان: نظرة علمية ، ونظرة عملية فى الحقل ، فالأولى ملخصها أن الناس فى الأرض مسجونون فى أربعة حجب ، حجابان ظلمانيان ، وهما : الشهوة ، والغضب ، وحجابان نورانيان : جمال ظاهر فى أمثال النجوم ، وجمال باطن فى حقائقها ، وهذه الحجب الأربعة يكون بعدها النظر إلى الذات العلية ، والحجابان النورانيان يتقدمان رؤية الله ، كما يتقدم نور الصباح طلوع الشمس التى تظهر بالأفق فتشرئب لها أعناق الأمم والحيوان والنبات ، ولا ملك فى الأرض له هذه القدرة والعظمة وأن الغافلين عن هذا الجمال فى أى أمة حظهم قليل والصالحون منهم يدخلون الجنة الحسية ، وهؤلاء الغافلون أشبه بمن يأكلون ويشربون فى قصر الملك ، والمستبصرون أشبه بالذين يجلسون مع الملك

٢٣٤ الفصل الخامس ، فيه الكلام على فهرست العلوم منذ ألف سنة فى [إخوان الصفا] . وفيه رسائل : العدد ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى ، وجغرافيا ، والنسب العددية ، والهندسية والتأليفية ، والصنائع العملية والنظرية ، والصنائع العملية والمهنية ، واختلاف الأخلاق ، وأسباب اختلافها ، وفى [إيساغوجى] وهى الألفاظ الستة فى المنطق ، وفى [قاطوغرياس] وهى الكليات وفى [باريمنياس] وهى القضايا والإيجاب والسلب الخ ، وفى [انولوطيقا الأولى] وهو القياس ، وفى [انولوطيقا الثانية] وهو البرهان ، وفى الهيولى ، والصورة ، والسماء ، والعالم ، والكون ، والفساد والآثار العلوية ، وكيفية تكوين المعادن ، وماهية الطبيعة ، وأجناس النبات ، وأصناف الحيوان ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، ومسقط النطفة ، وارتباط النفس بالجسد ، وأن الإنسان عالم صغير ، ونشر الأنفس الجزئية ، وطاقة الإنسان فى المعارف ، وماهية الموت ، وماهية اللذات والآلام الجسمية والروحية ، واختلاف اللغات ورسوم الخطوط ، والمبادى العقلية على رأى [إخوان الصفا] ومعنى قول الحكماء : إن العالم إنسان كبير ذو نفس وروح ، وفى الأكوار والأدوار ، وماهية العشق المبحث الثانى فى نظرات المؤلف وبهجة السماء . الكلام على [فريحة] وهو العيوق وتعريف كثير من النجوم فى الخريطة ، وبيان الجمال فى الغيد الحسان والأشراف والأنبياء :

صحيفة

٢٤٨ ذكرى [دار العلوم] وأنى كنت محروما من هذه النجوم ومواقعها وأنى فى [المدرسة الخديوية] كنت أرى مدرسى الإنجليز تصل لهم مناظر النجوم فى أيام ظهورها فى مجلات خاصة . وتبيان أن المستعمرين يريدون جهل الأمم .

٢٤٩ تذكرة بعد صلاة الفجر : جمال السموات وجمال الأرض جواذب العقول لحب البلاد .

٢٥٠ الزبرجدة الرابعة . ذكرى فى (كفر الباشا) وأن الفلاح الذى شكا من ابنه لما مرضت عينه حزن حالا ، وأن ذلك القول فتح لى باب التفكر فى حب الله فلا ينقص ، ربما يعترى الانسان من الآلام وذلك عند المفكرين .

(تمت)

التقـــاريظ

وردت إلينا عدة تقاريظ فاقتصرنا على بعضها لضيق المقام .

ترجمة كلمـة

العلامة الفاضل الشيخ [محمد إبراهيم شاه كوجين] رئيس البعثات الصينية بالجامع الأزهر ، المثبتة صورتها الفوتوغرافية فى الصفحة التالية بالخط الصينى . قال حفظه الله :

إن القرآن الكريم هو الأساس الذى يبنى عليه أركان الاسلام وأحكامه ، فهو أصل الأصول لسعادة الحياة فى الدارين ، ومصدر المصادر للسلام العام فى العالم .

لكن لآيات القرآن معان وأسرار لا يدركها كل إنسان ، فقام الراسخون فى العلم من السالفين واللاحقين ببيان غوامضها ، وتفسير حقائقها للطالبين الآتين من بعد .

من علماء العصر الأستاذ [الشيخ طنطاوى جوهرى] الذى جاء بأغرب التفسير على أحسن أسلوب مبنى على النظريات العلمية العصرية فسهل طريقنا لمن أراد من الأخلاف أن يقف على أسرار القرآن وحقائقه وهو مجهود يكمل حاجات الزمان ، ويشفى غليل أهله .

ما أسعد من خدم الدين الاسلامى بأحسن مجهوداته ، وما أجدر بالشكر من أحسن إلى المجتمع الانسانى بأجل أعماله ، جزاك الله خير الجزاء .

محمد إبراهيم شاه كوجين
رئيس البعثات الصينية بالجامع الأزهر

٣١ / ٨ / ١٩٣٥ م / ٢ - جمادى الثانية ١٣٥٤ هـ

وهاك صورته الفوتوغرافية باللغة الصينية :

古蘭天經乃伊斯蘭之基本大典凡復命歸根之理修齊治平之道
無不賅括其中惟真言妙諦非人人皆能通曉一般賢哲有鑒於此
遂爾先後註釋俾後學有所借鑑今者
唐達威趙俄赫爾老先生更用科學方式註疏
古蘭詞精義顯此不獨使研習者易於了解且合乎現代之需求
老先生有功於社會宗教實無量矣謹綴數語用誌景仰

愛資哈爾大學
中國留埃學生部部長儒誠沙國珍撰書

中華民國二十四年(一九三五)八月三十一日

بسم الله الرحمن الرحيم

نصر من الله وفتح قريب ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ إن زماننا أشبه الأزمان بعصر النبوة ، عصر الاتحاد والعرفان : لم يكن ليخطر لى أن تتحد جميع المذاهب الاسلامية المتباينة ، لاسيما أهل السنة والشيعة على رأى واحد فيما أكتبه فى التفسير قبل أن أفارق هذه الحياة .

ويظهر لى أن الله عز وجل أراد أن يعيد للاسلام شبابه فى مدة تعادل المدة التى ظهر فيها وانتشر أيام النبوة المحمدية ، والدلائل على ذلك لاتكاد تحصر ، وآخر ماوصل إلى منها عند طبع هذا المجلد أربعة أدلة : دليلان لفظيان ، ودليلان خطيان : أما الأولان فهما ماحدثنى به صديقى العلامة المجتهد ، بحر العلوم من الأمة الايرانية ، فقد قال لى ونحن راجعون من الحج إلى مصر : إننا فى بلادنا نخطب على المنابر بفضل عمر رضى الله عنه : وثانيا ماحدثنى به الأخ فى الله تعالى ، العلامة الايرانى أبو عبد الله الزنجانى ، من أكابر علماء الشيعة ، منذ أيام قال : لقد كان كثير من طلبة المدارس العصرية ببلادنا الايرانية ، يرون تنافيا بين العلم والدين ، ولما قرءوا (تفسير الجواهر) اطمأنوا إليه وأيقنوا بالدين . وأما الدليلان الخطيان فهما أولا تقريظ الأستاذ الصيفى المتقدم : وثانيا ما دبجه العلامة الأستاذ (مرتضى الحسينى) أحد علماء الشيعة أيضا قال :

كنت أيام اشتغالى بدراسة العلوم الاسلامية متألما غاية التألم مما أرى من التدابر والتقاطع بين أرباب المذاهب الاسلامية ، لا سيما مذهب أهل السنة والشيعة الامامية ، وذلك هو أكبر عوامل الوهن والضعف للجامعة الاسلامية . وكنت أقول : لماذا هذا الخلاف والشقاق ، فاذا كان استحقاق سيدنا على للخلافة أو أبى بكر أو غيرهما من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم هو السبب فى ذلك الشقاق والعداوات والحروب ، فهذا أمر قد مضى وقته ، وأدبرت الظروف التى أحدثته ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ـ .

فهل بقى هناك إلا اختلاف آراء فى فروع الأحكام الشرعية كاختلاف كل مذهب مع الآخر فى الشيعة أو أهل السنة : وهذا من أعظم الحكم فى الاسلام حيث جعل باب الاجتهاد فى الفروع مفتوحا لكى تطبق القواعد الكلية على الحوادث الطارئة الجزئية على مقتضى المكان والزمان ، فالحق والحق أقول : إنه لولا الاعيب السياسة ، وأغراض كثير من متأخرى العلماء من الجانبين ومطامعهم الشخصية (أولئك الذين يقولون ولا يعملون كما يقتضيه الحق والحقيقة ، بل إنما يتبعون فى ذلك مسلك العوام ، ويقولون مايرضيهم لا ما يرضى الله ويرضى ضمائرهم ووجدانهم) .

أقول : لولا ذلك لم يقع ماحصل من الفتن والدسائس ، ولم يتسع الخرق على الراقع بين أفراد الجامعة القوية الاسلامية ، ولساد الاسلام أنحاء المعمورة ، ولكانت له شوكة وعظمة فائقة بدل مانشاهدمع الأسف الشديد من عوامل الوهن والضعف فى هذه الجامعة القدسية الالهية .

ثم اتفق لى أن قرأت (كتاب التفسير) الذى كتبه فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ (طنطاوى جوهرى) متع الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه ، وعجبت من مبدئه ومسلكه : وهما الخصلتان اللتان بهما أبان للنهج الواضح الذى به يتم إيجاد الوحدة ، والاتفاق بين أجزاء الجامعة الاسلامية ، وذلك بتطبيقه العلوم الاسلامية وقوانينها القدسية على العلوم العصرية ، التى أظهرت ماخفى من حقائق الاسلام وأنواره ، وعظم تعاليمه وأحكامه فى عصرنا هذا : عصر العلم والنور .

ولقد أخذت أعجب من تدابر هذه الأمة الاسلامية ، وكيف نرى علماء أوروبا يترجمون فقه الامامية بإيران إلى لغاتهم ولا علم لسائر أمم الاسلام بذلك ، أفلم يكن الأحق بهذه العلاقة أمم الاسلام ؟ لذلك صممت على السفر إلى مصر حين اطلعت على كتاب (تفسير الجواهر) لتكميل نواحي الثقافة الاسلامية ، وما يتعلق بها من العلوم العصرية ، والآداب العربية ؛ إن هاتين الخصلتين اللتين ذكرت أنهما أثارتا في نفسي أن أغادر بلادي ، وأترك مركزي المتار بها مؤقتا : هما اللتان أثارتا الاعجاب والحب العام لهذا التفسير بين جميع الأمم الاسلامية على اختلاف مذاهبهم ومسالكهم .

ولقد حدث بعد مجيئي إلى مصر أني رأيت الأستاذ ذات يوم في الطريق وهو في غاية الحزن والأسى ، لما ورد له من كتب من بعض العلماء والأدباء من إيران (في تبريز) وهم من أصدقائه المعجبين بتفسيره ، والموافقين لمبدئه ومسلكه : في إيجاد عوامل الوحدة ، والاتفاق بين طبقات الجامعة الاسلامية وتشييدها ، وأخذ الأستاذ يقول : مالنا وللمهدي ، هل يليق بنا أن نتام ونكسل حتى يجيء المهدي ويصلح لنا الأمور إن هذه آراء الجهلاء في بلادنا ، فلكم أسمع منهم أن يقولوا : سيظهر المهدي قريبا ، ويقسم المال والأرض بالسوية فيكون الناس متساوين . وهذا القول ورثه الأبناء عن الآباء ، قرونا وقرونا بعد العصور الثلاثة الأولى التي هي خير القرون ، فقلت له كلا : إن الامامية لا تقول بذلك ، بل إن العلماء هم النواب عن المهدي عليه السلام يلزمهم أن يجدوا ويسعوا في سبيل الاصلاح وهم لا يعذرون في الاهمال والتواكل ، فقال : هذا أمر عجب : إني في خطابي لأصدقائي العلماء هناك ذكرت هذا ولا أعلم أنه هو مبدؤهم .

السيئة المضرة ما يعتقده كثير من جهال المسلمين هنا في حق المسيح والمهدي ، وينامون ويتوا كلون حتى يأتي المسيح والمهدي ويصلحا الأمور ، وهذا كما يقال حق أريد به باطل .

ولقد أوضحت ذلك في ثنايا التفسير ، وأبنت أن كل عقيدة تنافي النشاط والجد وتدعو للكسل تكون محرمة ، فلما اطلع عليه أصدقائي علماء تبريز بإيران خافوا أن يفهم العامة من الشيعة غير ما أريده . اه كلام الأستاذ .

هنالك رأيت أن من الواجب علي أن أخاطب هؤلاء الأكابر في هذا الموضوع بما يدفع الوهم ، حتى لا يكون في ذلك أدنى تأثير في مكانة التفسير في قلوب محبيه في إيران ، فأرسلت خطابا ذكرت فيه ما هم مهتمون به ومجدون فيه ، وهو جمع الكلمة ، ورفي الجامعة الاسلامية في كل ما يحتاج له الاسلام والمسلمون في هذا الوقت من الوحدة ، والاتفاق التام ، والصلات القوية بين الأمم الاسلامية ، واستدللت بكلام أهل البيت الكرام عليهم السلام ، وقد كان لهذا الخطاب أحسن الأثر في الدفاع عند إخواننا ، ودفع سوء التفاهم عن الاستاذ لأنهم يعرفوني ويعرفون والذي كان هناك أشبه الناس بالمرحوم الشيخ محمد عبده قدس الله سرهما من حيث المركز والمقام ، وجرحه على الاصلاح ، واهتمامه بالتجديد .

وقد وعد العالم الفاضل ، فضيلة الأستاذ (الجرندابي) الذي هو من أعاظم وعاظ إيران أن يقرأ ذلك الخطاب على المنبر ، لذلك رأيت من المفيد أن أنشر هذا مع (ملحق التفسير) تتميما للغرض ، ودفعا لما عسى أن يفهمه بعض إخواننا على غير ما يقصد الأستاذ : طنطاوي جوهري في التفسير في الموضوع المذكور

ونسأل الله أن يوفق الجميع لخدمة الاسلام ، التي هي خير خدمة للانسانية في دينها ودنياها ، وخير مبدأ قوي يتخذه المرء في هذه الحياة ، وما التوفيق إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

مرتضى الحسيني الفاضلي الهمذاني

DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 079196307